

الأندلس

التاريخ والحضارة والمحنة

دراسة شاملة

AL - ANDALUS

History, Civilization, and Affliction

A complete study

تأليف

اذ الدكتور محمد عبده حتامله
ريخ/ كلية العلوم الاجتماعية والإنسانية
ان - الأردن : ١٤٢١هـ/ ٢٠٠٠م

Prof. Dr. Mohammed Abdo Hatamleh
Department of History / Faculty of
Humanities and Social Sciences
University of Jordan

Amman - Jordan
1421 A.H. / 2000 A.D.

الأنـــدلـــس

التاريخ والحضارة والمحنة

دراسة شاملة

AL - ANDALUS

Histroy, Civilization, and Affliction

A complete study

تأليـف

الأستاذ الدكتور محمد عبده حتامله

قسم التاريخ / كلية العلوم الاجتماعية والإنسانية

عمان – الأردن: ١٤٢٠هـ/ ٢٠٠٠م.

Prof. Dr. Mohammed Abdo Hatamleh
Department of History / Faculty of
Humanities and Social Sciences
University of Jordan

Amman – Jordan
1420 A.H. / 2000 A.D.

رقم الايداع لدى دائرة المكتبة الوطنية

(١٥٨٩/٤/٢٠٠٠)

رقم التصنيف : ٩٥٦,٠٦٥٢٧

المؤلف ومن هو في حكمه : محمد عبده حتاملة

عنوان الكتاب : الأندلس، التاريخ، الحضارة والمحنة

الموضوع الرئيسي : ١ - الأندلس - تاريخ

٢ - حضارة ومحنة

بيانات النشر :

* - تم اعداد بيانات الفهرسة والتصنيف الأولية من قبل دائرة المكتبة الوطنية

* رقم الإجازة المتسلسل لدى دائرة المطبوعات والنشر ٥١٣/٤/٢٠٠٠

* رقم الإيداع لدى دائرة المكتبات والوثائق الوطنية ١٥٨٩/٤/٢٠٠٠



طباعة مطابع الدستور التجارية

تلفون ٥٦٩٦٦٧٢ فاكس ٥٦٦٧١٧٠

ص. ب ٥٩١ - عمان - ١١١١٨ الأردن

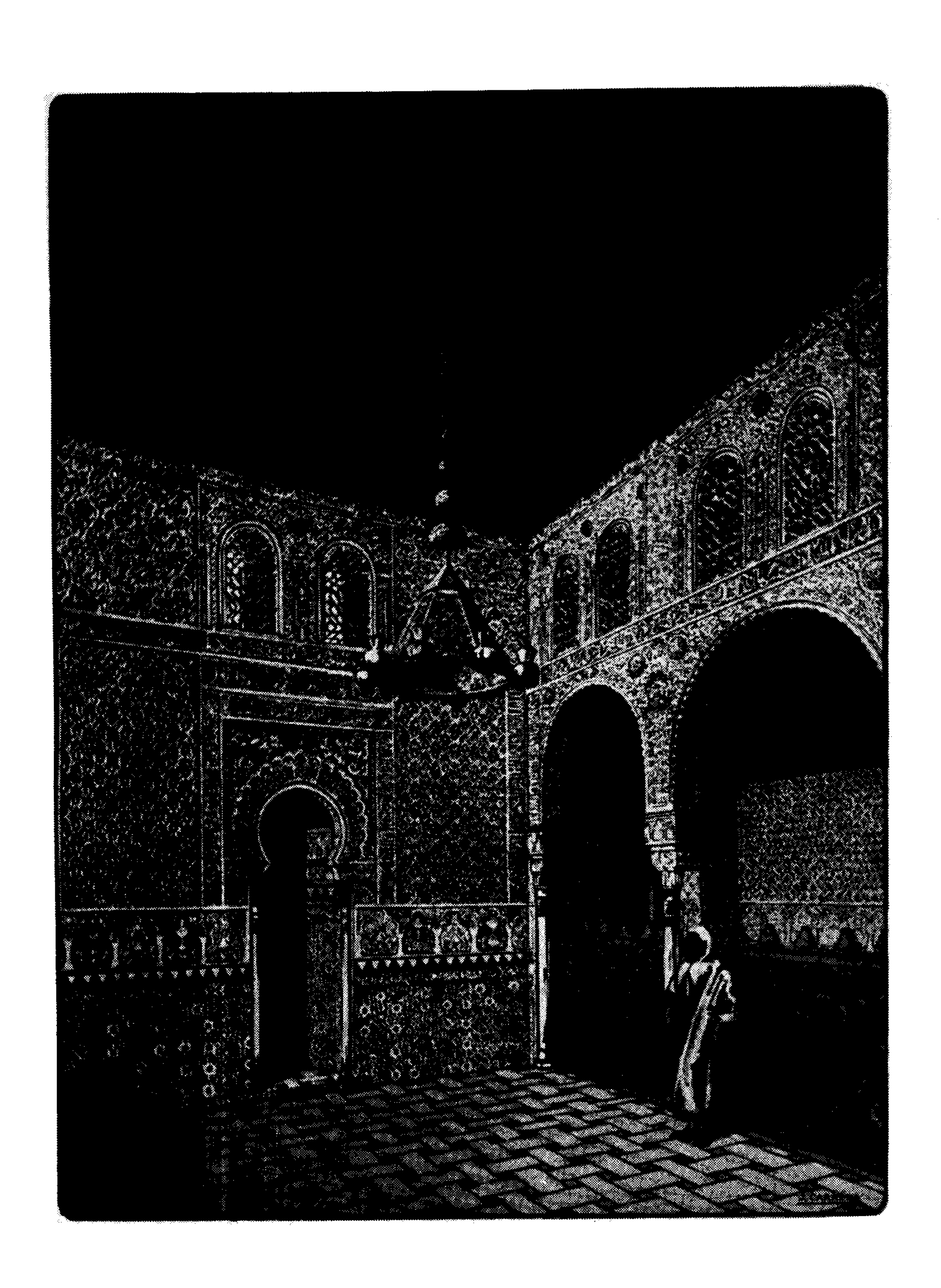
الأندلس

التاريخ والحضارة والمحنة

دراسة شاملة

تأليف

الأستاذ الدكتور محمد عبده حتامله

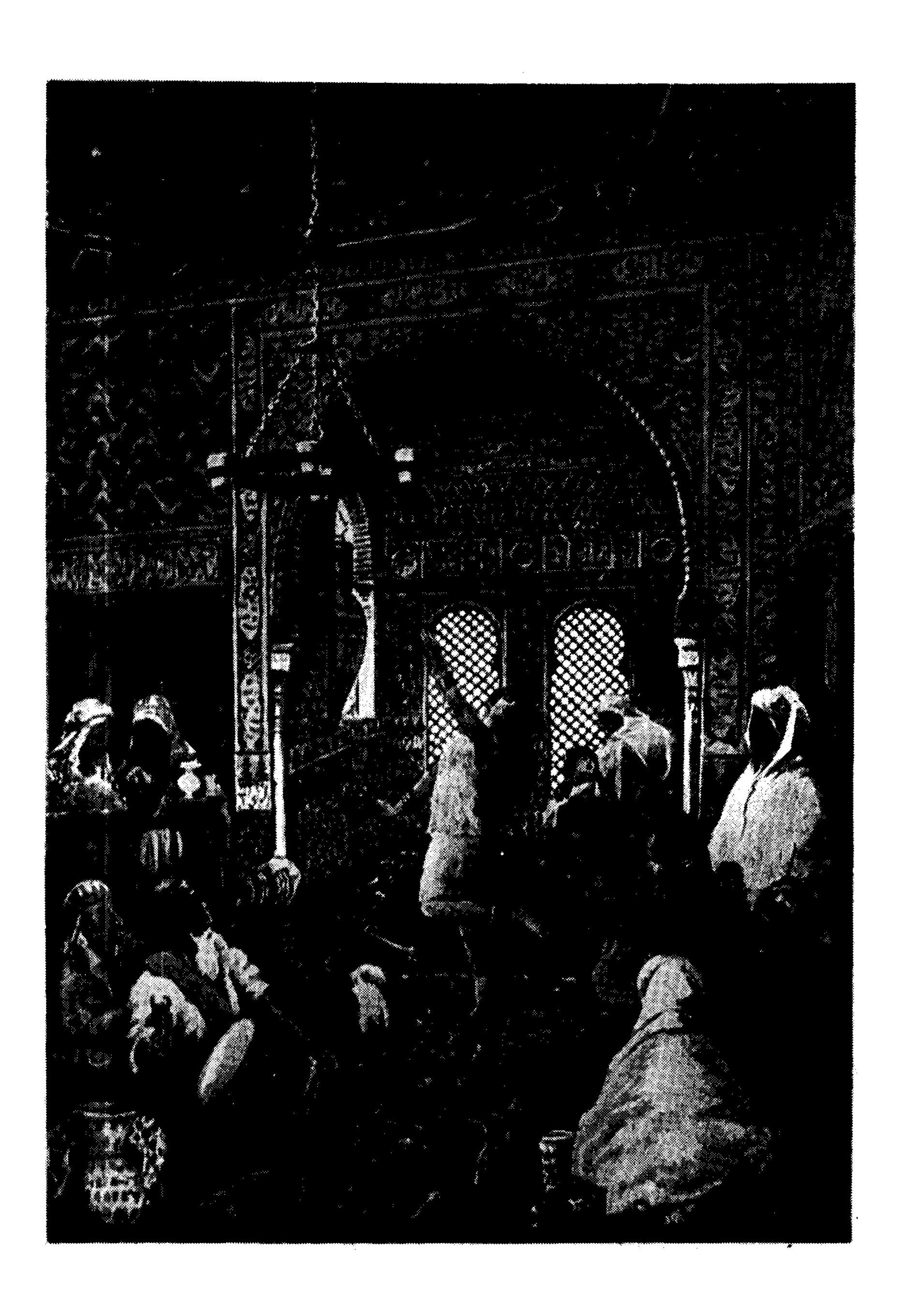


بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿ قُلِ ٱللَّهُمَّ مَٰلِكَ ٱلْمُلْكِ تُؤْتِى ٱلْمُلْكَ مَن تَشَآءُ وَتَنزِعُ ٱلْمُلْكَ مِمَّن تَشَآءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَآءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَآءُ بِيَدِكَ ٱلْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴾

صدق الله العظيم

آل عمران: ٢٦



المقدمة

تتناول هذه الدراسة تاريخ الأندلس منذ مقدمات فتحها حتى نهاية القرن الثامن عشر الميلادي، وتستهدف الإحاطة بهذا التاريخ بكل تفاصيله الدقيقة متوخياً وضع مرجع شامل بين يدي المهتمين، يستغنون به عن سواه، ويجدون فيه أي ضالة ينشدونها دونما عناء يتكبدونه في الرجوع إلى مصادر عديدة، ومراجع مختلفة، فضلاً عما تزخر به هذه الدراسة، وخاصة في فصولها الأخيرة، من إضافات علمية.

امتد الحكم العربي الإسلامي في الأندلس ثمانية قرون منذ الفتح العربي الإسلامي في آخر القرن الأول الهجري (أول القرن الثامن الميلادي) حتى سقوط غرناطة في نهاية القرن التاسع الهجري (الخامس عشر الميلادي). وأعقبت هذه القرون الطويلة فترة أخرى امتدت حتى أواسط القرن الثامن عشر. وفي هذه الفترة اشتدت المحنة بمسلمي الأندلس، وظل وجودهم يتلاشى، غير أن هذا الوجود لا يزال يتمثل في الآثار الحضارية التي تركها العرب في الأندلس سواء أكانت هذه الآثار مادية أم علمية.

لقد كانت الأندلس على مدى القرون الثمانية مشعلاً من مشاعل الحضارة الإسلامية التي قدمت للحضارة الإنسانية نتاج جهود أجيال من العلماء والأدباء العرب المسلمين مما كان له أبعد الأثر في النهضة الأوروبية الحديثة. وقد أرسيت قواعد الحضارة العربية الإسلامية في الأندلس في فترة الحكم الأموي الذي امتد حتى القرن الخامس الهجري (الحادي عشر الميلادي)، تلك الفترة التي شهدت الأندلس خلالها الوحدة والقوة.

إلا أن مما يؤسف له أن هذه القوة والوحدة أخذت في الضعف والتلاشي فانقسمت الأندلس إلى ممالك وإمارات أُطلق عليها اسم دول الطوائف زادت على العشرين، واستنزفت هذه الممالك معظم قوتها في النزاعات الداخلية والتنافس المستمر، إلى درجة الاقتتال، حتى أن المؤرخين المعاصرين لتلك الأحداث أطلقوا على ملوك الطوائف أوصافاً تتناسب مع ما هم عليه من انقسام فسموهم ملوك الطوائف الهمل، أو أمراء الفرقة، أو ملوك الفتنة، إلى غير ذلك من الأوصاف التي تنطبق على هذه الفترة.

وهكذا أخذ الحكم العربي في الأندلس يتعرض لخطر الزوال والاضمحلال، وأدرك أمراء الطوائف الخطأ الذي وقعوا فيه نتيجة لانقسامهم ومنازعاتهم، واستفاقوا على سقوط طليطلة في أواخر القرن الحادي عشر الميلادي، فكان سقوطها بمثابة ناقوس الخطر الذي نبّه إلى الأخطار.

وإزاء هذه الأخطار تطلع الأندلسيون إلى عدوة المغرب، وبدأوا بإرسال استغاثاتهم إليها لطلب النجدة وتوحيد الجهاد ضد الخطر الإسباني الداهم، وقد أفردنا لهذه الاستغاثات فصلاً خاصاً من فصول هذه الدراسة. ولبى المغرب تلك الاستغاثات على مدى قرون عديدة ابتداء من عهد المرابطين ثم الموحدين من بعدهم، ثم بني مرين، الأمر الذي مكن الأندلس من الصمود لفترة طويلة تصدى خلالها الأندلسيون بفضل الدعم الذي جاءهم من المغرب للهجمات الإسبانية المدعومة من جانب الكنيسة الكاثوليكية والدول الأوروبية والفرسان الأوروبيين مما أضفى على الصراع في هذه الفترة الطابع الصليبي، كما تزامنت حملات الأوروبيين ضد الأندلس مع حملاتهم ضد المشرق العربي.

ومع استمرار الانقسامات بين صفوف العرب المسلمين استطاع الإسبان حتى منتصف القرن السابع الهجري/الثالث عشر الميلادي، أن يستولوا على معظم المدن الأندلسية، ولم يبق في يد العرب حتى ذلك التاريخ سوى مملكة غرناطة التي قدر لها أن تصمد فترة تزيد على قرنين ونصف أخرى بفضل انحياز المجاهدين العرب إليها بعد سقوط مدنهم، وبفضل قيادة الملوك الأوائل من بني نصر، وبفضل المساعدات التي كانت تصلها من بني مرين، من جهة، وانشغال الممالك الإسبانية في منازعاتها الداخلية من جهة أخرى، فأصبحت غرناطة بذلك قوة يحسب حسابها، خلال فترة صراعها الطويل للبقاء ضد الإسبان وحلفائهم الأوروبيين الآخرين.

ولما كانت غرناطة هي آخر الممالك العربية الإسلامية في الأندلس فقد عرضتُ لتاريخها منذ قيام مملكتها في أواسط القرن الثالث عشر حتى سقوطها في نهاية القرن الخامس عشر الميلادي، للوقوف من خلال ذلك على العوامل والظروف التي أدت إلى النهاية المحزنة لهذه المملكة العربية، كما عرضت لصمود غرناطة وجهادها الذي قاده عدد من ملوك بني نصر بدعم ومساندة متصلة من ملوك بني مرين في المغرب. ونلمس

من خلال ذلك الجهاد المشترك عمق الروابط بين تاريخ المغرب والأندلس ووحدة مصير هذين القطرين.

غير أن مما يؤسف له أن ملوك بني نصر المتأخرين لم يتعظوا بالأحداث التي مرت بالأندلس، فأخذت آفة المنازعات تفعل فعلها بين أفراد الأسرة الحاكمة من بني نصر الذين تخلوا عن الاقتداء بسيرة أجدادهم وغيرهم من الأندلسيين الذين حافظوا على غرناطة بالمهج والأرواح والتضحيات الجسام. وقد بلغت تلك المنازعات حدّ الاقتتال بين الأخ وأخيه وبين الأب وابنه وبين ابن الأخ وعمه في الوقت الذي كان العدو يتكالب على مدن المملكة واحدة بعد أخرى.

وقد نبه عدد من المفكرين والمؤرخين والكُتاب العرب الذين عاصروا تلك الأحداث، إلى خطورة ما آلت إليه غرناطة من الفتن والانقسامات، بشعور من الحزن والأسى العميقين، فقاموا بحث المسلمين على توحيد الصفوف والجهاد، كما يتبين من الرسائل التي كتبها ابن عاصم وابن الخطيب وغيرهم من العلماء الذين تنبهوا لهول المأساة التي تنتظر غرناطة.

وهكذا أصبحت غرناطة في أواخر القرن الخامس عشر الميلادي تقف منقسمة على نفسها ووحيدة بعد سقوط دولة بني مرين، في الوقت الذي أخذت الممالك الإسبانية بالتوحد، فقد توحدت مملكتا قشتالة وآرغون تحت حكم فرديناند وإيزابيلا اللذين أطلقا على نفسيهما لقباً دينياً وهو لقب الملكين الكاثوليكيين.

لقد أدت هذه الأحداث في النهاية إلى سقوط غرناطة وتوقيع معاهدة استسلامها، تلك المعاهدة التي تم عرض نصوصها السرية والعلنية، وموقف الملكين الكاثوليكيين والإجراءات التي قاما بها لنقض المعاهدة.

ثم عرضت للمراحل التي مرت بها محنة العرب في الأندلس بعد سقوط غرناطة، ابتداء من عهد الملكين الكاثوليكيين (فرديناند وإيزابيلا)، ثم في عهد خلفائهما خوانا المعتوهة والملك شارل الأول المعروف باسم الإمبراطور شارل الخامس وفيليب الثاني

وفيليب الثالث. وشرحت السياسات التي استخدمها ملوك إسبانيا المشار إليهم، ضد الأندلسيين الذين أخذوا يطلقون عليهم اسم الموريسكيين، وأنواع المكر والدهاء ونقض العهود، والمبررات الملفقة لإزالة الوجود العربي الإسلامي من شبه الجزيرة الإيبيرية. كما شرحت ما تعرض له الأندلسيون خلال هذه الفترة من تنصير وتهجير، وعسف. والأحكام الجائرة غير الإنسانية التي أصدرتها محاكم التفتيش ونفذتها. بالإضافة إلى الأساليب التي اتبعها الإسبان للقضاء على اللغة العربية والثقافة العربية من خلال عدد من المراسيم المتوالية الخاصة بإحراق الكتب العربية، ومنع تداولها، وهي الكتب التي كانت تحتوي خلاصة الفكر العربي الإسلامي في المشرق والمغرب، فحرمت الإنسانية مما في هذه الكتب من علوم وآداب.

ثم تتناول الدراسة بشيء من التفصيل الثورات والانتفاضات التي قام بها الموريسكيون للمحافظة على وجودهم وعقيدتهم ولغتهم وثقافتهم، والتضحيات التي بذلوها تشبثاً بالأرض والعقيدة والثقافة وتمسكاً بالهوية العربية الإسلامية. كما تناولت ما تميز به كفاح الموريسكيين من استماتة مفضلين الموت الكريم على الحياة الذليلة.

ثم انتقلت إلى دراسة الأحوال الثقافية للموريسكيين مع التركيز على اللغة الخميادية التي ابتدعوها للمحافظة على فكرهم وعقيدتهم. ثم عرضت للأحوال الاقتصادية للموريسكيين، وحاجة الإسبان إليهم في جميع مجالات الزراعة والصناعة، والآثار الاقتصادية التي ترتبت على تهجير الموريسكيين، مما أدى إلى تخلف إسبانيا لفترة طويلة في مجالات الزراعة والصناعة والعلوم.

كما تضمنت هذه الدراسة استمرار الأندلسيين في الجهاد من مواقعهم التي هاجروا إليها في المغرب، ضد الإسبان والبرتغاليين، فشرحت نشأة مدينة الرباط، ودورها هي وجارتها سلا في الكفاح البحري. ومن خلال ذلك شرحت الغزو البرتغالي والإسباني لسواحل المغرب العربي كاستمرار لمحاربة الوجود العربي الإسلامي، وأوردنا صفحات مشرقة من تاريخ جهاد الأندلسيين وإخوانهم في المغرب من قواعدهم في الرباط وسلا والجزائر وتونس على البحر الأبيض المتوسط، ضد الإسبان.

ومن خلال ذلك أيضاً عرضت للاستغاثات التي وجهها الأندلسيون إلى الدولة العثمانية، ثم الجهاد المشترك بين الأندلسيين والمغاربة والعثمانيين ضد الإسبان، ذلك الجهاد الذي بلغ ذروته في عهد القادة عروج وأخيه خير الدين بربروسا ودرغوت، والانتصارات البحرية التي أحرزوها على الإسبان، تلك الانتصارات التي أدت إلى المحافظة على أقطار المغرب العربي وإنقاذها من الوقوع تحت الحكم الإسباني والبرتغالي.

وركزت هذه الدراسة أيضاً على الحضارة العربية الإسلامية في الأندلس في مجالات محددة هي: الزراعة والصناعة والطب والصيدلة والعلوم الرياضية والفلكية والكيمياء. وتناولت في فصلها الأخير محاكم التفتيش، فوضحت نشأتها، وتفاصيل ما اقترفته ضد المسلمين وغيرهم بتهمة العداء للكاثوليكية.

وقد تم إعداد مادة هذه الدراسة على مدى السنوات السابقة من خلال عدد من الأبحاث التي نشر بعضها وبحوث جديدة أخرى مستخلصة من المصادر الرئيسية العربية والإسبانية وتشمل كتباً ودراسات ووثائق ومخطوطات، بذل الباحث في تجميعها وتحليلها والتعليق عليها الكثير من الجهد صابراً محتسباً.

نسأل الله تعالى أن يجعل هذه الدراسة نافعة للقارئ العربي، وللدارسين لتاريخ الأندلس. والله من وراء القصد.

عمان ١/١/٢٠٠٠م

المؤلف

أ.د. محمد عبده حتامله

قسم التاريخ / الجامعة الأردنية

فهرس المحتويـــات

المحتويات

الفهارس العامة

الفصل الأول

فتـــح الأندلـــس

فتح الأندلس

١. مقدمات الفتح:

سبقت فتح الأندلس سنوات طويلة من الجهاد، فتح المسلمون خلالها شمالي القارة الإفريقية من مصر حتى سواحل المغرب الأقصى على المحيط الأطلسي، ورسخوا أقدامهم في هذه المنطقة الشاسعة التي أصبحت فيما بعد منطلقهم لفتح الأندلس، وعمقهم الاستراتيجي الذي يمدهم بكل ما يحتاجون إليه في أثناء عمليات الفتح، وبعدها. فقد ظل دور هذه المنطقة فاعلا في أحداث الأندلس طوال القرون الثمانية التي شهدت سطوع شمس الإسلام في ذلك الركن من العالم.

كان فتح مصر وشمالي إفريقية هو المقدمة الأولى من مقدمات فتح الأندلس، وكانت الأوضاع السياسية في شبه الجزيرة الآيبيرية (إسبانيا) هي المقدمة الثانية. ولكل مقدمة منهما جوانب جغرافية وسياسية وديمغرافية لا بد لدارس تاريخ الأندلس من الإحاطة بها، وتلمس أبعادها، وتبين أثرها على الفتح، وتأثيرها فيه.

أ- شمالي إفريقية:

يمتد شمالي إفريقية - كما هو معروف - من سواحل مصر على البحر الأحمر إلى سواحل المغرب على المحيط الأطلسي، وتقسم هذه المنطقة - حسب مدلولها لدى المؤرخين والجغرافيين المسلمين - إلى قسمين رئيسيين: مصر، والمغرب. أما مصر فتشمل المنطقة الممتدة من الشرق إلى الغرب بين البحر الأحمر والإسكندرية، إذ كانت الإسكندرية هي الحد الفاصل بين المغرب والمشرق. وأما المغرب فينقسم أقساما: "فقسم من الإسكندرية إلى إطرابلس (طرابلس)؛ وهو أكبرها، وأقلها عمارة. وقسم من إطرابلس، وهي بلاد الجريد، ويقال أيضا بلاد الزاب الأعلى، ويلي هذه البلاد بلاد الزاب الأسفل، وحدها إلى مدينة تاهرت، ويليها بلاد المغرب، وهي بلاد طنجة، وحدها مدينة سلا، وهي

آخر المغرب... وبلاد الأندلس أيضاً من المغرب، وداخلة فيه لاتصالها به، ويليها المجاز الأعظم الذي يسمى بحر الزقاق، وفيه مصب البحر الكبير الذي يسمى المحيط، ويقال له بحر الظلمات... ويصب ماء الزقاق في البحر الرومي، ويقال له أيضاً البحر الشامي، وهو يتصل إلى بلاد الشام إلى ناحية القسطنطينية..."[1]. فالمغرب في عرف ابن عذاري وغيره من المؤرخين والجغرافيين المسلمين يشمل الأراضي الممتدة من الحدود الغربية لمصر إلى شواطئ المحيط الأطلسي، أي ليبيا وتونس والجزائر والمغرب حالياً[2]. وقد أطلق بعضهم على هذه المنطقة أيضاً مصطلح: إفريقية التي تعني المنطقة نفسها أي: المغرب العربي الكبير[3].

وتؤلف بلاد المغرب وحدة جغرافية ذات طابع خاص، وهذه الخصوصية أوجدها امتداد جبال أطلس في قلب البلاد من غربها إلى شرقها في سلسلتين: شمالية وجنوبية، والسلسلة الأولى هي جبال أطلس الشمالية، وتنقسم إلى مجموعتين: جبال الريف أو جبال أطلس الشمالية الغربية التي تتخذ شكل قوس يحتضن الساحل الشمالي من سبتة إلى مليلة. وجبال أطلس التلي الممتدة من الجنوب الغربي إلى الشمال الشرقي. وهي سلسلة تمتاز بارتفاعها وانحدارها الشديد نحو السواحل الشمالية.

أما السلسلة الثانية فهي جبال أطلس الجنوبية أو أطلس الصحراوي. وهذه السلسلة التي تمتد من الغرب إلى الشرق أيضاً تبلغ في المغرب الأقصى أعلى ارتفاع لها، وتسمى جبال أطلس الكبرى. ويصعب المرور في تلك الجبال مما جعلها ذات أثر كبير في عزلة المغرب الأقصى عن باقي إفريقية أو بلاد المغرب، ويستمر امتداد جبال.أطلس الكبرى في المغرب الأوسط ثم الأدنى، وأغلبها تكسوه الغابات وتتوجه الثلوج[4].

---

[1] ابن عذاري المراكشي، البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب، تحقيق ومراجعة كولان، ج.س وبروفنسال، أ. ليفي، دار الثقافة، بيروت، ط٢، ١٩٨٣: ١/ ٥-٦.

[2] المقدسي، أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم، نشر دي غوية، ليدن، ١٩٠٦م: ٢١٦.

[3] انظر على سبيل المثال: النويري، شهاب الدين أحمد بن عبد الوهاب، نهاية الأرب في فنون الأدب، تحقيق حسين نصار، مراجعة عبد العزيز الأهواني، المكتبة العربية، القاهرة، ١٩٨٣: ٢٤/٧.

[4] سالم، السيد عبد العزيز، تاريخ المسلمين وآثارهم في الأندلس منذ الفتح العربي حتى سقوط الخلافة بقرطبة، دار المعارف، لبنان، ١٩٦٢: ١٣-١٤.

وتنحصر بين السلسلتين الجبليتين سهول مرتفعة يشتغل فيها السكان برعي الماشية. وأغلب هذه السهول يقع بين جبال أطلس التلي وأطلس الصحراوي في المغرب الأوسط. وإلى الشمال من سلسلة جبال أطلس الكبرى تقع سلسلة جبال أطلس الوسطى التي تسمى أيضاً أطلس الصغرى، ويغلب عليها طابع الهضاب، وهذه الهضاب تمتد حتى المحيط الأطلسي. ومن أشهرها في المغرب الأقصى: هضبة المزيتا، وفي المغرب الأوسط هضبة الشطوط التي تتميز ببحيراتها[١].

أما سهول المغرب فيقع معظمها على ساحل المحيط الأطلسي في الغرب، والسواحل الشمالية على المحيط الأطلسي والبحر المتوسط. وهذه السهول تضيق كلما اتجهنا من الغرب إلى الشرق حيث يزداد اقتراب السلاسل الجبلية من الساحل. وهناك أيضاً سهول داخلية تكونت حول وديان صغيرة تجري فيها الأنهار. وبعض هذه السهول تشتهر بخصبها مثل سهلي فاس ومكناس الغنيين[٢].

ويبلغ امتداد بلاد المغرب من المشرق إلى المغرب نحو أربعة آلاف كيلومتر[٣]. وتنتهي هذه البلاد في الجنوب بالصحراء الكبرى التي تشتمل في الجزء الغربي منها على صحراء شنقيط التي تعني بالبربرية: عيون الخيل، وهي بلاد موريتانيا الحالية[٤].

ونرى هنا – تماماً للفائدة – أن نستكمل الحديث عن جغرافية شمالي إفريقية بذكر تأثير الأمم المختلفة التي حكمت المنطقة في تسمياتها، فقد أطلق الإغريق على الجزء الشمالي منها، الذي يسكنه العنصر الأبيض اسم: ليبو أو ليبيا، بينما أطلقوا على الصحراء: بلاد الأحباش السود. وأطلق الرومان اسم إفريقية Africa على قرطاجنة وما حولها، حيث كانت تلك المنطقة تعرف بولاية إفريقية القنصلية، وهو الاسم الذي أطلقه العرب على كل بلاد المغرب باستثناء طرابلس وبرقة، ثم اقتصر اسم إفريقية في مرحلة

---

[١] سالم، تاريخ المسلمين وآثارهم: ١٣-١٤.

[٢] المرجع نفسه: ١٦.

[٣] العبادي، أحمد مختار، في تاريخ المغرب والأندلس، مؤسسة الثقافة الجامعية، إسكندرية، د.ت: ١٤.

[٤] المرجع نفسه: ١٤.

تالية على كل ما يلي مصر غرباً حتى بجاية، وأطلق اسم المغرب على كل ما يلي بجاية غرباً حتى المحيط الأطلسي(١).

ولفظ إفريقية مشتق من كلمة أفري Aphri التي أطلقها الفينيقيون على أهل البلاد الأصليين الذين كانوا يقيمون في منطقة قرطاجنة، ثم عمم اليونان هذا الاسم ليشمل البلاد من حدود مصر الغربية إلى المحيط الأطلسي(٢).

وكان شمالي إفريقية قبل الفتح الإسلامي تحت حكم البيزنطيين الذين قسموا البلاد إلى أربع مناطق عسكرية هي: طرابلس، وبيزا سينيا، ونوميديا، وموريتانيا. وكان على رأس كل مقاطعة موظف يدعى دوق *Duque* مسؤوليته الأساسية هي الدفاع عن خطوط التحصينات ضد أي هجوم خارجي(٣).

وتجدر الإشارة هنا إلى أن البيزنطيين عززوا خطوط التحصينات التي كان قد أقامها الرومان بتحصينات جديدة، واعتمدوا في حمايتها - بعد توطيد سلطتهم في شمالي إفريقية - على الفلاحين المحليين(٤).

كان سكان شمالي إفريقية قبل الفتح الإسلامي ثلاث فئات هي: البيزنطيون، والأفارقة، والبربر. ولم يكن البيزنطيون سوى محتلين، سيطروا بالقوة والعنف على البلاد، وظهر بينهم حكام مستبدون مثل سولومون (Solomon) الذي حكمها فترتين: ٥٣٤-٥٣٦م و٥٣٩-٥٤٣م، وعمل على تقوية الخطوط الدفاعية، فأقام سلسلة من الحصون والمحارس تمتد من طرابلس شرقاً حتى المحيط الأطلسي غرباً، وتفصل بين المناطق الخاضعة للبيزنطيين والمناطق الصحراوية. وقد أدى استبداده هو وغيره من

---

(١) ابن عذاري، البيان المغرب: ١/٥-٦؛ وانظر: الناصري، كتاب الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى: ٣٣/١.

(٢) سالم، تاريخ المسلمين وآثارهم: ١٧.

(٣) طه، عبد الواحد ذنون، الفتح والاستقرار العربي الإسلامي في شمال إفريقيا والأندلس، منشورات وزارة الثقافة والإعلام، دار الرشيد للنشر، ١٩٨٢: ٤٩-٥٠.

(٤) المرجع نفسه: ٥٠.

الحكام البيزنطيين إلى قيام عدد من الثورات ضدهم، قام بها السكان المحليون، وأشعلوا في إحداها النيران في قرطاجنة، وأرغموا سولومون على الفرار. وفي أواخر العهد البيزنطي، زاد الاضطراب في البلاد، وعمتها الفوضى، وساءت أحوالها، وأصبح الناس من أفارقة وبربر لا يأمنون على أموالهم وأرواحهم[١].

أما الأفارقة أو الأفارق فهم خليط من بقايا الشعوب السابقة التي تعاقبت على المنطقة، فمنهم الفينيقيون والرومان والوندال والبيزنطيون، بل ربما كان بعضهم من الإغريق. وكان معظم الأفارقة يسكنون في المدن الساحلية، وقليلون منهم استوطنوا مناطق داخلية[٢].

وأما البربر فيذكر ابن عبد الحكم أنهم كانوا بفلسطين، وكان ملكهم جالوت، فلما قتله داود عليه السلام خرجوا متوجهين إلى المغرب[٣]. وقد اختلطوا بالفينيقيين على عهد قرطاجنة ثم بالرومان[٤]. وعلى أي حال لم يتفق العلماء على أصل البربر، فبعضهم يرى أن البربر من أصل حامي اختلطوا منذ القدم بأصول سامية. بينما يرى بعضهم الآخر أنهم من أصول عربية سامية، وأنهم من أبناء قيس عيلان، القبيلة العربية المشهورة[٥].

وكلمة بربر مشتقة من اللفظة اللاتينية Barbari، وهو اسم أطلقه الرومان على سكان المغرب لأنهم اعتبروهم غرباء على حضارتهم. وهذا اللفظ يقابل كلمة Barbarian الإنجليزية التي لم تكن لها دلالة عرقية. وقد عرّبها المسلمون إلى بربر وبرابر[٦].

---

(١) سالم، تاريخ المسلمين وآثارهم: ٢٣-٢٤.

(٢) طه، الفتح والاستقرار: ٥٠-٥١.

(٣) ابن عبد الحكم، عبد الرحمن بن عبد الله، فتوح أفريقية والأندلس، تحقيق عبد الله أنيس الطباع، مكتبة المدرسة ودار الكتاب اللبناني للطباعة والنشر، بيروت، ١٩٦٤: ٢٧-٢٨.

(٤) المصدر نفسه: ٢٧ ح١.

(٥) العبادي، في تاريخ المغرب والأندلس: ١٥.

(٦) طه، الفتح والاستقرار: ٥٢-٥٣؛ سالم، تاريخ المسلمين وآثارهم: ١٨.

وكان البربر قسمين: البرانس، وهم سكان المدن والمتحضرين بالحضارة اللاتينية، المستقرون الذين يسكنون المناطق الخصبة، ويشتغلون بالزراعة والصناعة. والبتر، وهم الرحّل الذين يسكنون البوادي، ويعيشون على الرعي[1]. وكان البتر يشكلون السواد الأعظم من السكان. كما كان كل من البرانس والبتر يتألف من قبائل عديدة، فمن البرانس: صنهاجة، وأوربة، وكتامة، ومصمودة، وعجيسة، وأوريغة، وأزداجة، ولمطة، وهسكورة، وجزولة. وتعتبر صنهاجة أكبر هذه القبائل، ومنها بنو زيري بن مناد، والملثمون (المرابطون). وأما البتر فمنهم: ضريسة، ونفوسة، وأداسة، وبنو لواتة. ومن ضريسة: مكناسة وزناتة، ومن زناتة: جراوة، ومغراوة، وبنو يفرن، وبنو زيان، وبنو مرين[2].

وكانت غالبية البربر وثنية، وقد ظل بعضهم كذلك إلى ما بعد الفتح الإسلامي بثلاثة قرون مثل قبيلة صنهاجة التي كانت منتشرة في غربي الصحراء الكبرى. ودانت بعض قبائل البربر بالمسيحية تأثراً بالرومان والبيزنطيين، وخاصة تلك القبائل التي كانت تسكن المناطق الساحلية. كما دانت قبائل قليلة هي جراوة، وجماعات من نفوسة بالديانة اليهودية[3].

والبربر بشكل عام يشبهون العرب في بعض الصفات مثل: الكرم، والشجاعة، وحدّة المزاج، وحب القتال. ولكنهم كانوا ميالين إلى تصديق السحرة والمشعوذين والمتنبئين، سريعي الانقياد لهم[4].

ولم يتمكن البربر بسبب كثرة قبائلهم وتنافرها في كثير من الأحيان، لم يتمكنوا من تحقيق وحدة سياسية فيما بينهم، ولكن كانت بعض القبائل تتفق، وتكوّن نوعاً من

---

[1] العبادي، في تاريخ المغرب والأندلس: ١٥-١٦؛ سالم، تاريخ المسلمين وآثارهم: ١٩؛ طه، الفتح والاستقرار: ٥٣.

[2] سالم، تاريخ المسلمين وآثارهم: ٢٠.

[3] طه، الفتح والاستقرار: ٥٤.

[4] العبادي، في تاريخ المغرب والأندلس: ١٨.

الاتحادات وخاصة بعدما بدأت قوة البيزنطيين بالاضمحلال. وقد قاوم البربر البـيزنطيين، وحاول بعضهم الاستقلال عن الحكم البيزنطي[1].

ولاستكمال الصورة التي كانت عليها الأوضاع في شمالي إفريقية قُبيل الفتح نشير هنا إلى أن الإمبراطورية البيزنطية كانت – بشكل عام – في وضع خطير، فبعد مـوت هرقل Heraclius عام ٦٤١م تناوب الحكم اثنان من الأباطرة فـي عـام واحـد. وكـان الامبراطور كونستانس الثاني Heraclius Constans II (٦٤١-٦٨١م) طفلاً صغيراً عندما تولى الحكم، وقد فقدت الإمبراطورية في زمنه على أيدي المسلمين: سـورية وفلسـطين ومصر، كما قامت ضده ثورات عديدة في شرقي الإمبراطورية وغربيها[2]. وفي ظل هذه الظروف قام الحاكم البيزنطي جرجير Gergery بالانفصال عن حكومـة بيزنطـة عـام ٦٤٦م، وأعلن نفسه إمبراطوراً على الممتلكات البيزنطية في شمالي إفريقية[3].

وساهمت الظروف في شمالي إفريقية في جعل فتح المسلمين لها أكثر يسراً، غـير أن هذا الفتح لم يتم في حملة واحدة، وإنما استغرق زمناً طويلاً تجاوز السـبعين عامـاً، ويمكن تلخيص مراحل فتح مصر وشمالي إفريقية على النحو التالي:

عندما فتح الخليفة عمر بن الخطاب بيت المقدس استأذنه عمرو بن العاص في فتح مصر، فأذن له سنة ١٩هـ/ ٦٤٠م[4]. وكان أول موضع حصين اشتبك حوله المسـلمون والبيزنطيون هو الفرماء (بلوسيوم) الذي يعتبر مدخل مصـر الشـرقية، حيـث اشـتبك الطرفان في قتال شديد استمر نحو شهر، وانتصر فيه المسلمون، ثم تابعوا زحفهم نحـو عين شمس (هليوبولس)، وهناك وصل مدد من المسلمين بقيادة الزبير بن العـوام الـذي

---

[1] طه، الفتح والاستقرار: ٦٥-٦٦.

[2] المرجع نفسه: ٦٦-٦٧.

[3] المرجع نفسه: ٦٧.

[4] ابن حبيب، عبد الملك، كتاب التأريخ، دراسة وتحقيق خوري أغوادي، المجلـس الأعلـى للأبحـاث العلمية، معهد التعاون مع العالم العربي، مدريد، ١٩٩١م: ١٠٧.

تمكن مع عمرو بن العاص من تفريق جيش البيزنطيين، مما اضطر قائدهم تيودورس من الفرار إلى الاسكندرية[1].

وفي سنة ٢١هـ/ ٦٤١م فتح عمرو بن العاص مدينة الإسكندرية[2]، وترك حولها قطعاً من الجيش، وتوجه إلى بابليون، وأخذ يشن الحملات على مصر العليا، وفرض على البيزنطيين في عهد امبراطورهم قسطنطين الثاني توقيع معاهدة سنة ٢٢هـ/ ٦٤٢م فرض بموجبها عليهم أن لا يعملوا على استرجاع البلاد، فأقروا له بذلك، وجلوا عنها في تلك السنة[3].

وفي سنة ٢٢هـ/٦٤٣م تمكن عمرو بن العاص من فتح برقة تأميناً لفتح مصر، إذ خشي أن تتعرض حدودها الغربية لغزو بيزنطي من برقة[4]. ويذكر ابن عبد الحكم أن عمرو بن العاص صالح أهل برقة على "ثلاثة عشر ألف دينار يؤدونها إليه جزية على أن يبيعوا من أحبوا من أبنائهم في جزيتهم"[5]. وكانت غالبية سكان برقة من قبيلة لواتة، وهي قبيلة كبيرة من قبائل البربر، كانت تتمتع باستقلال نسبي عن الدولة البيزنطية، وقد سارع رجالها إلى تقديم الولاء للجيش الإسلامي، بل دخل كثيرون منهم الإسلام، وأصبحوا مكسباً جليلاً بوقوفهم إلى جانب المسلمين الفاتحين.

ثم سار عمرو بن العاص حتى نزل طرابلس، وقد دخلها على رأس جيشه سنة ٢٣هـ/٦٤٣م "فلم يكن للروم مفزع إلا سفنهم... وغنم عمرو ما كان في المدينة"[6]. وكتب عمرو بن العاص إلى الخليفة عمر بن الخطاب يخبره بما أفاء الله عليه من النصر والفتح واستأذنه في فتح إفريقية واصفاً إياها بأن "ملوكها كثير، وأهلها في عدد

---

(1) ابن عبد الحكم، فتوح إفريقية والأندلس: ٦.

(2) ابن عذاري، البيان المغرب: ٨/١.

(3) ابن عبد الحكم، فتوح إفريقية والأندلس، ص٨.

(4) المصدر نفسه: ٢٩-٣٠.

(5) المصدر نفسه: ٢٩.

(6) المصدر نفسه: ٣٠-٣١.

عظيم، وأكثر ركوبهم الخيل"[1]. وترغيباً لعمر في أن يأذن بفتحها ذكر له أن ليس بين طرابلس وبينها إلا تسعة أيام "فإن رأى أمير المؤمنين أن يغزوها ويفتحها الله على يديه فعل"[2]. غير أن الخليفة خشي على المسلمين من أن يتوغلوا في إفريقية، فرفض طلب ابن العاص، إذ كتب إليه قائلاً "لا، إنها ليست بإفريقيا، ولكنها المفرقة، غادرة مغدور بها، لا يغزوها أحد ما بقيت"[3]. واستجاب ابن العاص لرغبة عمر، فأمر العسكر بالرحيل قافلاً إلى مصر[4].

استشهد عمر بن الخطاب في ذي الحجة من سنة ٢٤هـ/٦٤٤م، وتولى عثمان بن عفان الخلافة في المحرم من السنة نفسها[5]. وفي السنة التالية من خلافته (٢٥هـ/٦٤٥م) عزل عثمان عمرو بن العاص عن مصر، واستعمل عليها أخاه لأمه: عبد الله بن سعد بن أبي سرح[6]*.

وفي سنة ٢٧هـ/٦٤٧م أمر الخليفة عثمان عبد الله بن سعد بن أبي سرح بفتح إفريقية، وندب الناس ذلك، "فخرج المسلمون في جيش عظيم فيهم مروان بن الحكم، وجمع كثير من بني أمية، وبشر كبير من بني أسد بن عبد العزّى، وعبد الله بن الزبير بن

---

(١) ابن عذاري، البيان المغرب، ٨/١.

(٢) ابن عبد الحكم، فتوح إفريقية والأندلس: ٣٣.

(٣) المصدر نفسه: ٣٣.

(٤) ابن عذاري، البيان المغرب: ٨/١.

(٥) ابن حبيب، كتاب التأريخ: ١١٠؛ ابن عذاري، البيان المغرب: ٨/١.

(٦) النويري، شهاب الدين أحمد بن عبد الوهاب، نهاية الأرب في فنون الأدب، الجزء الرابع والعشرون، تحقيق حسين نصار، المكتبة العربية، القاهرة، ١٩٨٣م: ٧.

* هو عبد الله بن سعد بن أبي سرح العامري، كان يكتب الوحي لرسول الله صلى الله عليه وسلم، ثم ارتد عن الإسلام، ولحق بالمشركين بمكة. وكان معاوية بن أبي سفيان قد أسلم وحسن إسلامه، فاتخذه رسول الله صلى الله عليه وسلم كاتباً للوحي بعد ابن أبي السرح. فلما فتح النبي صلى الله عليه وسلم مكة، استجار ابن أبي السرح بعثمان، فأخذ له عثمان الأمان من النبي، فحسن إسلامه من ذلك الوقت. انظر: ابن عذاري، البيان المغرب: ٩/١.

العوام في عدة من قومه، وعبد الرحمن بن أبي بكر – رضه – وعبد الله بن عمر"[1] وغيرهم كثير. وقد سمي هذا الجيش: جيش العبادلة، لكثرة من خرج فيه ممن يبدأ اسمه بعبد، مثل: عبد الله بن عباس، وعبد الله بن عمر، وعبد الله بن عمرو بن العاص، وعبد الرحمن بن الأسود بن عبد يغوث وغيرهم. كما خرج فيه زهير بن قيس البلوي، وعقبة ابن نافع الفهري[2]. وكان عثمان قبل أن يخرج هذا الجيش إلى مصر قد خطب فيه قائلاً: "وقد عهدت إلى عبد الله بن سعد أن يُحسن صحبتكم، ويرفق بكم. وقد استعملت عليكم الحارث بن الحكم، إلى أن تقدموا على ابن أبي السرح، فيكون الأمر له"[3].

ويذكر ابن عذاري أن الخليفة عثمان أعان المسلمين في هذه الحملة بألف بعير "يحمل عليها ضعفاء الناس، وفتح بيوت السلاح التي كانت للمسلمين"[4].

وصل الجيش إلى مصر، وفيها أعد ابن أبي سرح من هذه القوات الوافدة، ومن جيوش المسلمين في مصر حملة عسكرية من عشرين ألف مقاتل[5]، وتوجه على رأسها إلى إفريقية في أوائل سنة ٢٨هـ/٦٤٨م بعد أن استخلف على مصر عقبة بن نافع[6]. وكان يحكم إفريقية يومئذ "ملك يقال له جرجير كان هرقل قد استخلفه، فخلع هرقل، وضرب الدنانير على وجهه، وكان سلطانه ما بين أطرابلس إلى طنجة"[7]. ولما وصل ابن أبي سرح إلى وجهته قدّم الطلائع والمقدمات أمامه، وبعث السرايا في الآفاق، فغنموا وعادوا سالمين[8].

---

(١) ابن عذاري، البيان المغرب: ٨/١-٩؛ ابن حبيب، كتاب التأريخ: ١١١؛ ابن عبد الحكم، فتوح إفريقية والأندلس: ٣٤.

(٢) النويري، نهاية الأرب: ٧/٢٤-١٠.

(٣) ابن عذاري، البيان المغرب: ٩/١؛ وانظر: النويري، نهاية الأرب: ١٠/٢٤؛ ابن عبد الحكم، فتوح إفريقية والأندلس: ٣٥.

(٤) ابن عذاري، البيان المغرب: ٩/١.

(٥) النويري، نهاية الأرب: ١٠/٢٤؛ وذكر ذلك أيضاً ابن عذاري، انظر: البيان المغرب: ٩/١.

(٦) النويري، نهاية الأرب: ١٠/٢٤.

(٧) ابن عبد الحكم، فتوح إفريقية والأندلس: ٣٥؛ وانظر: ابن عذاري، البيان المغرب: ٩/١.

(٨) النويري، نهاية الأرب: ١١/٢٤؛ ابن عذاري، البيان المغرب: ٩/١.

ولما بلغ جرجير خبر الجيوش الإسلامية حشد جيوشه، وتأهب للقائها، وقد بلغ عسكره مائة وعشرين ألفاً[1]. ولما علم المسلمون بعدة هذا الجيش ضاقوا في أمرهم واختلفوا، وبدا التردد على ابن أبي سرح، ثم عرض المسلمون على جرجير الإسلام، فرفض، وعرضوا عليه الجزية فرفض، وعندئذ بدأت الحرب بين الطرفين، ودامت وطالت "وانقطع خبر المسلمين عن عثمان، فأنفر عبد الله بن الزبير وصحبته اثنا عشر فارساً من قومه، فسار يجدّ السير حتى قدم على المسلمين فوصل ليلاً، فسرّوا به ووقع في المعسكر ضجة.."[2]. وفي اليوم التالي اشتد القتال بين الفريقين قرب سبيطلة* (Sufetula)، وتسلل عبد الله بن الزبير ومعه نحو ثلاثين من المسلمين إلى معسكر البيزنطيين، وتمكن من قتل جرجير "ثم نزل المسلمون على المدينة، وحاصروها حصاراً شديداً حتى فتحها الله عليهم"[3].

وانهزمت جيوش جرجير فتبعها ابن أبي سرح، ثم حاصر مدينة قرطاجنة حصاراً شديداً حتى فتحت، "فأصاب فيها من السبي والأموال ما لا يحيط به الوصف، وكان أكثر أموالهم الذهب والفضة.."[4].

وأصاب البيزنطيين ومن والاهم رعب شديد، فلجأوا إلى الحصون والقلاع وراسلوا عبد الله بن أبي سرح أن يأخذ منهم ثلاثمائة قنطار ذهباً على أن يكف عنهم ويخرج من بلادهم، "فقبل ذلك منهم بعد امتناع"[5]. وكان من شروط الصلح بين الطرفين أن ما أصاب المسلمون قبل الصلح فهو لهم، وما أصابوه بعد الصلح ردّو

---

[1] النويري، نهاية الأرب، ١١/٢٤؛ ابن عذاري، البيان المغرب: ١٠/١.

[2] النويري، نهاية الأرب: ١٢/٢٤.

* مدينة تقع على الطريق من سوسة إلى جبال الأوراس على بعد سبعين ميلاً من القيروان.

[3] النويري، نهاية الأرب: ١٢/٢٤-١٦؛ وانظر: ابن عبد الحكم، فتوح إفريقية والأندلس: ٣٧؛ ابن عذاري، البيان المغرب: ١٠/١-١٢.

[4] ابن عذاري، البيان المغرب: ١٢/١.

[5] النويري، نهاية الأرب: ١٦/٢٤؛ وانظر: ابن عذاري، البيان المغرب: ١٢/١.

عليهم[١]. وعاد عبد الله بن أبي سرح إلى مصر بالأموال والغنائم بعد أن وجه عبد الله بن الزبير إلى المدينة المنورة ليبشر الخليفة عثمان بما فتح الله على المسلمين[٢].

لقد أدى انتصار المسلمين على البيزنطيين في معركة سبيطلة إلى كسر سلطانهم، وإضعاف قوتهم في شمالي إفريقية. وكان الأجدر بعبد الله بن أبي سرح أن يستغل ذلك في مواصلة الفتح، إلا أنه رضي بالغنيمة والإياب. ويبدو أنه أدرك أن جيشه القليل العدد إذا ما قورن بجيوش بيزنطة لن يقوى على الحصون الساحلية التي تتطلب قوات بحرية ضخمة لمواجهة الأسطول البيزنطي، ولذلك آثر العودة دون أن يحقق نتائج حاسمة على المدى البعيد، مكتفياً بما حققه من نصر محدود وغنائم كثيرة من حملته تلك التي لا تعدو أن تكون غارة طويلة استمرت أكثر من سنة[٣]. ولم يعد إلى شمالي إفريقية إلا في سنة ٣٣هـ/٦٥٣م حيث هاجمها مرة ثانية حين نقض أهلها العهد[٤].

استشهد الخليفة عثمان سنة ٣٥هـ/٦٥٥م بعد أن حاصره من المصريين ستمائة رجل، ومن البصريين نحو مائة، ومن الكوفيين بضعة رجال[٥]. ولما انتهت الفتنة التي نجمت عن مقتل عثمان، وتولى علي بن أبي طالب، كرم الله وجهه، الخلافة، عزل ابن أبي سرح عن مصر وأقام عليها قيس بن عبادة الأنصاري، وذلك سنة ٣٦هـ/٦٥٦م، ثم استبدل به سنة ٣٧هـ/٦٥٧م محمد بن أبي بكر الصديق الذي قتله في السنة التالية ٣٨هـ/٦٥٨م معاوية بن حديج بأمر من معاوية بن أبي سفيان[٦].

---

[١] ابن عذاري، البيان المغرب: ١٢/١.

[٢] النويري، نهاية الأرب: ١٧/١٤؛ ابن عذاري، البيان المغرب: ١٢/١-١٣؛ ابن عبد الحكم، فتوح إفريقية والأندلس: ٤٠-٤١.

[٣] النويري، نهاية الأرب: ١٧/١٤-١٨ حيث يذكر أن الجيش أقام بإفريقية خمسة عشر شهراً ((ولم يفقد من المسلمين إلى ناس قلائل)).

[٤] ابن عذاري، البيان المغرب: ١٤/١.

[٥] ابن حبيب، كتاب التأريخ: ١١٣؛ وانظر: ابن عذاري، البيان المغرب: ١٥/١؛ وانظر: ابن قتيبة الدنيوري، أبو محمد عبد الله مسلم، الإمامة والسياسة، ط٣، مؤسسة الوفاء، بيروت - لبنان، ١٩٨١م: ٤٣/١-٤٥.

[٦] ابن عذاري، البيان المغرب: ١٥/١؛ ابن قتيبة، الإمامة والسياسة: ٣٦/١-٣٧.

وبعد استشهاد علي بن أبي طالب سنة ٤٠هـ/٦٦٠م[١]، بويع بالخلافة ابنه الحسن الذي تنازل عنها إلى معاوية بن أبي سفيان في سنة ٤١هـ/٦٦١م[٢] وعهد معاوية بولاية مصر إلى عمرو بن العاص للمرة الثانية، فاستأنف عمرو حملاته العسكرية على برقة وطرابلس. إلا أنها كانت حملات محدودة تقتصر على الإغارة وجلب الغنائم دون الاشتباك مع البيزنطيين في معارك حاسمة. وما لبث عمرو بن العاص أن توفي في مصر سنة ٤٣هـ/٦٦٣م[٣].

ولّى معاوية بن أبي سفيان على إفريقية معاوية بن حديج سنة ٤٥هـ/٦٦٥م[٤]، وفي السنة نفسها قاد ابن حديج حملة كان فيها عبد الملك بن مروان، وجماعة من المهاجرين والأنصار، ونزل بقواته في موضع يعرف بقونية، "ثم مضى إلى جبل يقال له القرن يعسكر إلى جانبه"[٥]. وبعث الإمبراطور البيزنطي لمواجهته بجيش من ثلاثين ألف مقاتل بقيادة نقفور "فأخرج إليه معاوية بن حديج عبد الله بن الزبير في خيل كثيفة، فسار حتى نزل على شرف عالٍ يُنظر منه إلى البحر، بينه وبين مدينة سوسة اثنا عشر ميلاً، فلما بلغ ذلك نجفوراً أقلع في البحر، منهزماً من غير القتال"[٦]. ودخل المسلمون سوسه، كما دخلت فرقة أخرى من جيشهم مدينة جلولاء Gouloulis بقيادة عبد الملك بن مروان، وذلك بعد أن حاصرها وقتل المقاتلة من أهلها[٧].

---

[١] ابن حبيب، كتاب التأريخ: ١١٦؛ ابن عذاري، البيان المغرب: ١/١٥؛ ابن قتيبة، الإمامة والسياسة: ١/١٥٩-١٦١.

[٢] ابن عذاري، البيان المغرب: ١/١٥.

[٣] المصدر نفسه: ١/١٥.

[٤] ابن عذاري، البيان المغرب: ١/١٦؛ النويري، نهاية الأرب: ١٤/١٨.

[٥] النويري، نهاية الأرب: ١٩؛ ابن عبد الحكم، فتح إفريقية والأندلس: ٤٧-٤٨.

[٦] ابن عذاري، البيان المغرب: ١/١٦، وانظر: ابن عبد الحكم، فتوح إفريقية والأندلس: ٤٦-٤٨؛ النويري، نهاية الأرب: ٢٤/٢٠.

[٧] ابن عذاري، البيان المغرب: ١/١٦؛ وانظر: النويري، نهاية الأرب: ١٤/ ٢٠-٢١؛ ابن عبد الحكم، فتوح إفريقية والأندلس: ٤٨-٤٩.

واستمرت ولاية معاوية بن حديج على مصر وإفريقية حتى سنة ٥٠هـ/٦٧٠م حيث فصلهما معاوية بن أبي سفيان إلى ولايتين، وأقر معاوية بن حديج على مصر، بينما وجه إلى إفريقية والياً آخر هو عقبة بن نافع الفهري*(١)، وفي عهده بدأ الفتح المنظم والمستمر لشمالي إفريقية، وقد اعتمد في ذلك على عدد من القادة المشهورين مثل: بسر بن أرطاة، وشريك بن سمي المرادي، وزهير بن قيس البلوي(٢).

سار عقبة إلى إفريقية متجنباً الساحل بهدف إخضاع قبائل البربر أولاً، ليكونوا له عوناً فيما بعد من أجل إخضاع البيزنطيين. وقد أدرك ضرورة إيجاد مكان حصين يلجأ له المسلمون إذا دعت الحاجة، فقرر بناء مدينة القيروان لاستخدامها أيضاً كقاعدة عسكرية لفتوحات جديدة، وكان الموقع الذي اختاره لبناء المدينة "وادياً كثير الشجر، تأوي إليه الوحوش والسباع والهوام"(٣). وقد اختط دار الإمارة والمسجد، ثم أخذ الناس في بناء الدور والمساكن والمساجد "فعمُرت، وكان دورها ثلاثة آلاف باع وستمائة باع. فكملت في سنة خمس وخمسين، وسكنها الناس، وعظُم قدرها"(٤).

تغيرت طبيعة العمليات الحربية الإسلامية في شمالي إفريقية بعد اتخاذ مدينة القيروان مركزاً عسكرياً، إذ أصبحت تلك العمليات ذات طابع ثابت مستقر بعد أن كانت مجرد غارات استكشافية للتعرف على طبيعة الأرض، والعودة بالغنائم.

وكان عقبة في أثناء بناء مدينة القيروان يوجه السرايا من جيشه في أنحاء شمالي إفريقية مظهراً قوة الإسلام مما أدى إلى إسلام أعداد كبيرة من البربر الذين أخذوا ينتظمون في جيوش المسلمين، وينخرطون في صفوفهم، ويسيرون معهم لإتمام الفتح.

---

* هو عقبة بن نافع بن عبد قيس بن لقيط بن عامر بن أمية بن طرف بن الحارث بن فهر، وُلد قبل وفاة النبي صلى الله عليه وسلم بسنة. انظر: ابن عذاري، البيان المغرب: ١٩/١.

(١) ابن عذاري، البيان المغرب: ١٩/١؛ النويري، نهاية الأرب: ٢١/١٤.

(٢) ابن عبد الحكم، فتوح إفريقية والأندلس: ٥٠.

(٣) المصدر نفسه: ٥٤.

(٤) النويري، نهاية الأرب: ٢٤/٢٣-٢٤؛ وانظر: ابن حبيب، كتاب التأريخ: ١٢٢.

ويبدو أن سياسة عقبة التي كانت ترمي إلى إخضاع الداخل قبل الساحل لم تعجب الخليفة معاوية بن أبي سفيان، ولهذا اختار معاوية مسلمة بن مخلد الأنصاري الذي كان والياً على مصر ليتولى مسؤولية الأراضي المفتوحة في شمالي إفريقية إضافة إلى مصر وذلك في سنة ٥٥هـ/٦٧٤م[١].

ولما ولي مسلمة إفريقية نصحه بعض المسلمين بأن يُبقي عقبة بن نافع عاملاً عليها، وخاصة أن "له فضلاً سابقاً، وهو الذي بنى القيروان"[٢]. غير أن مسلمة فضل على عقبة مولىً له هو أبو المهاجر دينار، إذ عينه والياً على إفريقية، وأوصاه أن يعزل عقبة، وأن يعامله بالحسنى[٣]. غير أن أبا المهاجر أساء عزل عقبة "وسجنه، وأوقره حديداً حتى أتاه الكتاب من الخليفة بتخلية سبيله"[٤]. ويبدو أن سبب العداوة بين الرجلين هو تنافسهما على ولاية إفريقية. وأياً كان الأمر فقد توجه عقبة إلى الشام، وشكا أمره لمعاوية، فاعتذر إليه، ووعده برده إلى ولاية إفريقية[٥].

ولم يفعل أبو المهاجر دينار شيئاً ذا بال في مجال فتح إفريقية. وقد دفعه حنقه على عقبة بن نافع الفهري إلى رفض الإقامة في مدينة القيروان التي بناها عقبة، وعزم على بناء مدينة أخرى خلف القيروان بميلين "مما يلي طريق تونس، فاختط بها مدينة، وأراد أن يكون له ذكرها، ويفسد عمل عقبة. فبنى مدينة*، وأخذ في عمرانها، وأمر الناس أن تحرق القيروان، ويعمروا مدينته"[٦].

---

[١] ابن عذاري، البيان المغرب: ٢١/١؛ النويري، نهاية الأرب: ٢٤/٢٤.

[٢] ابن عذاري، البيان المغرب: ٢١/١-٢٢.

[٣] ابن عبد الحكم، فتوح إفريقية والأندلس: ٥٦.

[٤] المصدر نفسه: ٥٦.

[٥] ابن عذاري، البيان المغرب: ٢٢/١؛ ابن عبد الحكم، فتوح إفريقية والأندلس: ٥٧؛ النويري، نهاية الأرب: ٢٥/٢٤.

* هي مدينة أوذان أو تيكيروان. وقد اختلفت صور كتابة هذا الاسم بين: تيكروان وتكروان وتاكروان وتكرر ودكرور. انظر: النويري، نهاية الأرب: ٢٥/٢٤ والحاشية ١؛ ابن عبد الحكم، فتوح إفريقية والأندلس: ٥٧ الحاشية ١.

[٦] ابن عذاري، البيان المغرب: ٢٢/١؛ ابن عبد الحكم، فتوح إفريقية والأندلس: ٥٧؛ النويري، نهاية الأرب: ٢٥/٢٤.

توفي معاوية بن أبي سفيان سنة ٦٠هـ/٦٧٩م[١]، وولي الخلافة بعده ابنه يزيد، وقد وفى يزيد لعقبة بن نافع الفهري بالوعد الذي كان قطعه له والده، إذ أعاده والياً على إفريقية للمرة الثانية سنة ٦٢هـ/٦٨١م[٢].

رحل عقبة من الشام ومعه خمسة وعشرون رجلاً من الصحابة، ولما وصل مصر اعتذر له مسلمة بن مخلد عن فعل أبي المهاجر دينار، فقبل عذره. ثم استمر في سيره حتى وصل إفريقية "فأوثق أبا المهاجر في الحديد، وأمر بتخريب مدينته التي بناها، وردّ الناس إلى القيروان"[٣]. ثم عزم على استكمال الفتح، فترك في القيروان جنداً واستخلف عليهم زهير بن قيس البلوي، ثم دعا أولاده وخاطبهم قائلاً: "إني بعت نفسي من الله تعالى بيعاً مربحاً أن أجاهد من كفر حتى ألحق بالله! ولست أدري أترونني بعد يومي هذا أم لا، لأن أملي الموت في سبيل الله"[٤].

وخرج عقبة للجهاد في غزوته الكبرى التي وصل فيها إلى المحيط الأطلسي، وكانت معه جموع من بربر أوربة بقيادة كسيلة. وقد اخترق إفريقية، وهزم البيزنطيين والبربر، واستولى على مدينتي باغاية وقرطاجنة، ثم حاصر المنستير وفتحها، ودخل الزاب، وقاتل أعداءه على وادي المسيلة، وهزمهم. واجتمع البيزنطيون في تاهرت، وانضمت إليهم حشود من بربر: زناتة، ومكناسة، ولواتة، وهوارة، وزواغة وغيرهم، فاشتبك معهم في معركة عنيفة "فأباد فرسانهم، وقتل حماتهم، وفرق جمعهم، وسبقتهم خيل المسلمين إلى باب مدينتهم، فأفنوهم، وقطعوا آثارهم"[٥].

---

[١] ابن عذاري، البيان المغرب: ٢٣/١؛ ابن قتيبة، الإمامة والسياسة: ٢٠٢/١-٢٠٣.

[٢] النويري، نهاية الأرب: ٢٥/٢٤؛ ابن عذاري، البيان المغرب: ٢٣/١؛ ابن عبد الحكم، فتوح إفريقية والأندلس: ٥٨.

[٣] ابن عذاري، البيان المغرب: ٢٣/١.

[٤] المرجع نفسه: ٢٣/١-٢٤؛ النويري، نهاية الأرب: ٢٦/٢٤.

[٥] ابن عذاري، البيان المغرب: ٢٤/١-٢٥؛ وانظر: ابن عبد الحكم، فتوح إفريقية والأندلس: ٥٨ وما بعدها؛ النويري، نهاية الأرب: ٢٤/ ٢٦-٢٧.

ولما توالت الهزائم على البيزنطيين والبربر، وكثر القتل فيهم لجأ من بقي منهم إلى الحصون والمعاقل، فلم يبرحوها. فكره عقبة المقام على محاصرتهم، وفضل على ذلك عدم إضاعة الوقت، واستغلاله في الفتوح "فترك أهل إفريقية متحصنين بحصونهم، وأوغل في الغرب، يقتل ويأسر أمة بعد أمة، وطائفة بعد طائفة...لا تروعه كثرة، ولا تعتريه هو ومن معه سآمة ولا فترة"[١]. ثم رحل حتى وصل إلى طنجة، ثم إلى السوس الأقصى حيث اجتمع البربر في عدد لا يحصى، فقاتلهم وقتل خلقاً كثيراً منهم، وسبى نساءهم[٢]. وبعد ذلك سار حتى بلغ المحيط الأطلسي وخاض في مياهه حتى بلغ الماء بطن فرسه، وعندئذ رفع يديه إلى السماء، وقال: "يا رب؛ لولا أن البحر منعني لمضيت في البلاد إلى مسلك ذي القرنين مدافعاً عن دينك..."[٣].

ورجع عقبة قافلاً إلى المغرب الأوسط، ولما اقترب من مدينة القيروان أمر جيشه أن يتقدم فوجاً بعد فوج "ثقة منه بما دوّخ من البلاد، وأنه لم يبق أحد يخشاه"[٤]، وسار هو بعدهم في عدد قليل من جنوده مما أطمع البيزنطيين به، إذ راحوا يرمونه بالنبل والحجارة، وراسلوا كسيلة الذي كان قد أسلم في ولاية أبي المهاجر دينار، وحسن إسلامه، وهو من أكابر البربر، إلا أن عقبة لم يحفظ له مكانته في قومه، بل استخفّ به، وأهانه. ولذلك استجاب للبيزنطيين، وتواطأ معهم ضد عقبة، وقام في أهل بيته وقبائله من البربر وهاجموا عقبة ومن معه، ولما كثر عليهم البربر بقيادة كسيلة، ترجّل المسلمون، وكسروا أغماد سيوفهم، وقاتلوا قتالاً شديداً "وكثر عليهم العدو، فقتلوا عن آخرهم، ولم يفلت منهم أحد"[٥].

ولما بلغ زهير بن قيس البلوي ما حلّ بالمسلمين أراد الانصراف عن القيروان إلى مصر، إلا أن المسلمين شجعوه على استئناف القتال، ففعل، غير أنه لم يتمكن من مجابهة

---

[١] ابن عذاري، البيان المغرب: ١/٢٥-٢٦.

[٢] النويري، نهاية الأرب: ٢٤/٢٨.

[٣] ابن عذاري، البيان المغرب: ١/٢٧؛ وانظر: النويري، نهاية الأرب: ٢٤/٢٨.

[٤] النويري، نهاية الأرب: ٢٤/٢٩.

[٥] المصدر نفسه: ٢٤/٣١؛ وانظر: ابن عذاري، البيان المغرب: ١/٢٩-٣٠.

كسيلة بعد أن التف حوله جمع كبير من البربر. وقد تمكن كسيلة من دخول القيروان، والاستيلاء على إفريقية، بينما تراجع المسلمون إلى برقة[1].

وكانت هذه النكسة التي حلت بالمسلمين بدخول كسيلة مدينة القيروان سنة ٦٤هـ/٦٨٤م شديدة الوطأة عليهم، فقد "أقام كسيلة بالقيروان أميراً على سائر إفريقية والمغرب، وعلى من فيه من المسلمين"[2].

وعندما تولى الخلافة عبد الملك بن مروان سنة ٦٥هـ/٦٨٤م[3] ناشده أكابر المسلمين تخليص المسلمين في إفريقية من يد كسيلة، وأشاروا عليه بإنفاذ الجيوش إليها، فقال: "لا يصلح للطلب بدم عقبة...إلا من هو مثله ديناً وعقلاً". واجتمع الرأي على ندب زهير بن قيس البلوي لهذه المهمة الجليلة، فكتب إليه عبد الملك بالخروج على أعنّة الخيل إلى إفريقية، وأمدّه بالخيل والرجال والأموال، وحشد إليه وجوه العرب، وبعثهم إليه "فوفدت الجيوش على زهير، وتسرع الناس معه إلى إفريقية"[4].

بدأت حركة زهير بن قيس البلوي إلى إفريقية في سنة ٦٩هـ/٦٨٨م[5]، ولما بلغ كسيلة خبره تحول عن القيروان إلى ممش أو (ممس) Mamma* وتحصن فيها. وقبل أن يتقدم زهير لمحاربته قام بحملة عنيفة ضد البيزنطيين قضت على كل آمالهم في الوقوف ثانية في وجه المسلمين، أو التحالف مع البربر. ثم تقدم زهير إلى القيروان، وأقام في ظاهرها ثلاثة أيام حتى استراح وأراح، ثم رحل إلى كسيلة[6] في اليوم الرابع، والتحم القتال بين الفريقين حتى انهزم كسيلة وقُتل "ومضى الناس في طلب البربر والروم،

---

[1] النويري، نهاية الأرب: ٢٤/٣٠-٣١؛ ابن عذاري، البيان المغرب: ١/٣٠-٣١.

[2] ابن عذاري، البيان المغرب: ١/٣٠-٣١.

[3] ابن قتيبة، الإمامة والسياسة: ٢/١٧-١٨؛ ابن عذاري، البيان المغرب: ١/٣١؛ وانظر: النويري، نهاية الأرب: ٢٤/٣٢.

[4] ابن عذاري، البيان المغرب: ١/٣١؛ النويري، نهاية الأرب: ٢٤/٣٢.

[5] ابن عذاري، البيان المغرب: ١/٣١؛ النويري، نهاية الأرب: ٢٤/٣٣.

* مدينة بيزنطية قديمة، تقع على مرتفع من هضبة تتصل بجبال أوراس.

[6] النويري، نهاية الأرب: ٢٤/٣٣.

فلحقوا كثيراً منهم، وقتلوهم، وجدوا في طلبهم إلى وادي ملوية بالغرب، ففي تلك الوقعة ذهب رجال الروم والبربر المشركين، وقُتل ملوكهم وأشرافهم وفرسانهم"[1].

عاد زهير بعد هذه الانتصارات التي حققها إلى القيروان، وخشي – وقد رأى مُلك إفريقية – أن تفسده الدنيا، وكان عابداً زاهداً. فترك في القيروان عسكراً ورحل في جمع كبير يريد المشرق. غير أنه عندما وصل قريباً من برقة صادفته جموع كبيرة من البيزنطيين كانوا قد هاجموا برقة، وسبوا أعداداً كبيرة من المسلمين، فحاول إنقاذهم، إلا أن محاولته لم يكتب لها النجاح، إذ حاصره البيزنطيون ومن معه، وتكاثروا عليهم، فقاتلهم حتى استشهد هو وأصحابه[2].

انتهت باستشهاد زهير بن قيس البلوي مرحلة من مراحل فتح شمالي إفريقية، وقد عظم قتله على عبد الملك بن مروان، وكانت مصيبته به كالمصيبة بعقبة بن نافع الفهري. ويبدو أن عبد الملك صمم منذ تلك اللحظة على اتباع سياسة جديدة تضمن فتح تلك المنطقة بشكل نهائي ومستقر، ورأى أن تقوم سياسته على إخضاع الساحل بعد تطهيره من البيزنطيين، ولذلك فإنه ما إن قضى على ثورة عبد الله بن الزبير حتى أمر حسان ابن النعمان الغساني، الذي كان قد أمره بالمقام في مصر على رأس جيش من أربعين ألفاً، بالنهوض إلى إفريقية[3]. وكان حسان إدارياً ممتازاً، وقائداً عسكرياً محنكاً.

ولما وصل حسان إلى القيروان أشار عليه أصحاب الرأي من المسلمين فيها أن يقضي على البيزنطيين في قرطاجنة*، فسار حتى نزل عليها "وكان بها من الروم خلق لا يحصى كثرة، فخرجوا إليه مع ملكهم، فقاتلهم حسان حتى هزمهم، وقتل أكثرهم، ثم

---

[1] ابن عذاري، البيان المغرب: ٣٢/١.

[2] المصدر نفسه: ٣٣/١؛ النويري، نهاية الأرب: ٣٣/٢٤.

[3] النويري، نهاية الأرب: ٣٤/٢٤.

* قرطاجنة: ذكر ابن عذاري أن أهل تونس يسمونها: المعلّقة، وكانت مدينة عظيمة تضرب أمواج البحر سورها، وهي من مدينة تونس على اثني عشر ميلاً. وفي هذه المدينة آثار عظيمة، وأبنية ضخمة، وأعمدة ثابتة غليظة. انظر: البيان المغرب: ٣٤/١-٣٥.

نازلها حتى افتتحها"[1]. وعلى أثر ذلك هرب البيزنطيون والبربر، فقد ركب البيزنطيون البحر إما إلى صقلية أو إسبانيا أو إلى قواعدهم الأخرى في شمالي إفريقية، بينما توغل البربر في الداخل[2].

وبعد هذا الانتصار ركز حسان اهتمامه على البربر في الداخل، وكانوا قد تجمعوا تحت قيادة امرأة منهم عُرفت بالكاهنة* في جبال أوراس. وقد أشار عليه المسلمون بمحاربتها قائلين له: "فإن قتلتها دان لك المغرب كله، ولم يبق لك مضاد ولا معاند"[3].

سار حسان بن النعمان لمحاربة الكاهنة سنة ٧٨هـ/٦٩٧م، ولما بلغها خبره انسحبت من جبال أوراس "في عدد لا يحصى، ولا يبلغ بالاستقصاء" إلى مدينة باغاية فأخرجت منها البيزنطيين وهدمتها حتى لا يتحصن بها حسان الذي غير طريقه، واشتبك معها على نهر مسكيانة الذي يذكر ابن عبد الحكم أنه أصبح يعرف بنهر البلاء[4]. ويورد ابن عذاري تفاصيل هذه المعركة، فيذكر أن حسان كان "يشرب من أعلى الوادي، وهي من أسفله. فلما توافت الخيل دنا بعضهم من بعض، فأبى حسّان أن يقاتلها آخر النهار. فبات الفريقان ليلتهم على سروجهم. فلما أصبح الصباح التقى الجمعان، فتقاتلوا قتالاً لم يُسمع بمثله، وصبر الفريقان صبراً لم ينته أحد إليه، إلى أن انهزم حسان بن النعمان ومن

---

(1) ابن عذاري، البيان المغرب: ١/٣٤.

(2) النويري، نهاية الأرب: ٢٤/٣٥.

* كان اسمها – على الأغلب – (داهية بنت ماتية بنت تيغان)، وتتفق معظم المصادر على أنها ملكة قبيلة جراوة، إحدى قبائل البربر التي اعتنقت اليهودية قبل الإسلام. وقد عاشت في جبال أوراس، وكانت على جانب كبير من المهارة والذكاء والقدرة، واستطاعت أن تجمع حولها أعداداً غفيرة من البربر الرحّل من بني يفرن وزناتة وغيرهما من قبائل البربر البتر. ويبدو أن الكاهنة كانت متزوجة من مسيحي يوناني أو ربما من رجل بيزنطي، إذ يعرف أحد أولادها باليوناني، وربما كانت مسيحية. انظر: ابن عذاري، البيان المغرب: ١/٣٥-٣٦؛ النويري، نهاية الأرب: ٢٤/٣٥ وما بعدها.

(3) ابن عذاري، البيان المغرب: ١/٣٥.

(4) ابن عبد الحكم، فتوح إفريقية والأندلس: ٦٣. ويذكره النويري باسم نهر: نيني. انظر: نهاية الأرب: ٢٤/٣٦. وموقع المعركة قرب قسنطينة الحالية.

معه من المسلمين. وقتلت الكاهنة العرب قتلاً ذريعاً، وأسرت ثمانين رجلاً من أعيان أصحابه"[1].

أفلت حسان من المعركة، وعاد إلى برقة بمن بقي معه من المسلمين، ومن هناك كتب إلى عبد الملك بن مروان يخبره بما آل إليه الأمر، بينما ملكت الكاهنة إفريقية كلها، "وأساءت السيرة في أهلها"[2]. ولم يكن عبد الملك ليرضى بهزيمة المسلمين، وأن يفلت الشمال الإفريقي من الفتح، فأرسل إلى حسان بالجيوش والأموال، وأمره بقتال الكاهنة. وقد استغرقت هذه الاستعدادات نحو خمس سنوات رأت الكاهنة خلالها أن تتبع سياسة الأرض المحروقة، ظناً منها بأن المسلمين إنما يطمعون بالمدن، وما فيها من أموال وغنائم، ولذلك قامت بحملة تخريبية واسعة دمرت خلالها المدائن والمزارع والمراعي والحصون "حتى ييئس منها العرب، فلا يكون لهم رجوع إليها إلى آخر الدهر"[3].

لقد وجهت الكاهنة من التفوا حولها من البربر إلى كل ناحية يقطعون الشجر، ويهدمون الحصون "فذكروا أن إفريقية كانت ظلاً واحداً من إطرابلس إلى طنجة، وقرى متصلة، ومدائن منتظمة، حتى لم يكن في أقاليم الدنيا أكثر خيرات، ولا أوصل بركات، ولا أكثر مدائن وحصوناً من إقليم إفريقية والمغرب، مسيرة ألفي ميل في مثله. فخرّبت الكاهنة ذلك كله"[4].

سار حسان إلى الكاهنة، فالتقوا واقتتلوا "واشتد القتال، وكثر القتل حتى ظن الناس أنه الفناء. ثم نصر الله المسلمين، وانهزم البربر، وقُتلوا قتلاً ذريعاً، وانهزمت الكاهنة ثم أُدركت فقُتلت"[5]. وقد سمي الموضع الذي قُتلت فيه (بئر الكاهنة)[6].

---

[1] ابن عذاري، البيان المغرب: ٣٦/١؛ وانظر: ابن عبد الحكم، فتوح إفريقية والأندلس، ص٦٣؛ النويري، نهاية الأرب: ٣٦/٢٤.

[2] النويري، نهاية الأرب: ٣٦/٢٤.

[3] ابن عذاري، البيان المغرب: ٣٦/١.

[4] المصدر نفسه: ٣٦/١؛ وانظر: النويري، نهاية الأرب: ٣٦/٢٤-٣٧.

[5] النويري، نهاية الأرب: ٣٧/٢٤.

[6] ابن عبد الحكم، فتوح إفريقية والأندلس: ٦٤؛ وانظر: ابن عذاري، البيان المغرب: ٣٧/١-٣٨.

استقامت إفريقية لحسان بن النعمان بعد انتصاره على الكاهنة، وحسُن إسلام البربر وطاعتهم، وعمُرت بهم جيوش المسلمين منذ ذلك الحين. وبدأ حسان في سنة ٨٢هـ/٧٠١م في تنظيم إفريقية إدارياً "فدوّن الدواوين، وصالح على الخراج، وكتبه على عجم إفريقية وعلى من أقام معهم على دين النصرانية"[١]. وبذلك تم فتح شمالي إفريقية وتنظيمه. ورأى حسان أنه لا بد من إنشاء قاعدة بحرية إسلامية على مقربة من قرطاجنة لتكون حصناً منيعاً للعرب، يشرف منها على البحر ويحول دون عودة الروم إلى قرطاجنة والاقتراب إلى أي مكان آخر على الساحل. فأمر ببناء تونس على بعد ١٢ ميلاً شرقي قرطاجنة.

كان حسان بن النعمان يسمى بالشيخ الأمين لثقته وأمانته، كما كان مخلصاً نشيطاً بعيد النظر[٢]. ويبدو أن هذه الصفات، إضافة إلى نجاح حسان في إقرار الفتح في شمالي إفريقية أوغرت صدر والي مصر عبد العزيز بن مروان الذي كان هو من يولّي على إفريقية[٣]، وجعلته موضع حسده، فعزله وولّى بدلاً منه على إفريقية موسى بن نصير ، وذلك في سنة ٨٩هـ/٧٠٧م حسب رواية النويري، وفي أوائل سنة ٨٦هـ/٧٠٥م حسب روايات أخرى[٤].

وكان موسى بن نصير من أقدر رجال الدولة الأموية وأكثرهم كفاءة. وكان المغرب عند بدء ولايته قد تم فتحه باستثناء أقصاه حيث فر كثيرون من البربر واستقروا هناك، فتبعهم موسى إلى طنجة، وقتل وسبى[٥]، مما زرع الأحقاد في نفوسهم، وظلوا يتوارثون تلك الأحقاد التي سنرى عند الحديث عن الأندلس أنها كثيراً ما كانت تطفو على السطح، لتعبر عن كراهيتهم للمسلمين من العرب.

---

[١] ابن عذاري، البيان المغرب: ٣٨/١؛ وانظر: ابن عبد الحكم، فتوح إفريقية والأندلس: ٦٤-٦٥.

[٢] النويري، نهاية الأرب: ٣٨/٢٤.

[٣] ابن عذاري، البيان المغرب: ٣٨/١.

قيل إن موسى بن نصير من لخم، وقيل من بكر بن وائل. وكان قد ولي على خراج البصرة لعبد الملك بن مروان. انظر: ابن قتيبة، الإمامة والسياسة: ٨٩/٢-٩٠.

[٤] ابن عذاري، البيان المغرب: ٣٩/١؛ النويري، نهاية الأرب: ٣٨/٢٤.

[٥] انظر:ابن قتيبة، الإمامة والسياسة: ٦٢/٢ وما بعدها؛ ابن عذاري، البيان المغرب: ٣٩/١ وما بعدها.

بدأ ابن نصير حملاته على قلعة زغوان التي تبعد مسافة يوم واحد عن القيروان، حيث وجه إليها حملة من خمسمائة فارس تمكنوا من إخضاعها، وإخضاع من حولها من قبائل البربر، والعودة بأعداد كبيرة من الأسرى. كما وجه حملتين أخريين بقيادة ولديه عبد الله ومروان رجعا أيضاً بكثير من الأسرى والغنائم[1]. ثم وجه ابنه عبد الرحمن إلى بعض نواحي زغوان، فأتاه بغنائم لا تحصى[2]. وأرسل أحد قادته وهو عياش بن أخيل إلى هوارة وزناتة في ألف فارس، فأغار عليهم وقتلهم وسباهم، ولما رأت كتامة ما حل بهم أرسلت إلى موسى تطلب الصلح، فصالحهم[3]. وأغار موسى على صنهاجة ففتح بلادها، ثم فتح سجوما حيث وجه لها حملة بقيادة أبناء عقبة بن نافع: عياض وعثمان وأبو عبيدة، فانتقموا لمقتل والدهم عقبة. وبعد ذلك أرسل موسى جيوشه إلى بلاد السوس الأقصى ففتحها، ثم عاد بقواته إلى طنجة فافتتحها، وترك عندها حامية كبيرة بقيادة مولاه طارق بن زياد، وأمر العرب من المسلمين أن يعلّموا البربر القرآن، وأن يفقهوهم في الدين. ثم عاد موسى إلى القيروان[4].

وجهز موسى بن نصير حملة بحرية بقيادة عيّاش بن أخيل هاجمت صقلية، ودخلت مدينة سرقوسة "فغنمها وجميع ما بها، وقفل سالماً غانماً"[5].

ويروي ابن عبد الحكم أن موسى بن نصير "أول من نزل طنجة من الولاة وبها من البربر بطون من البتر والبرانس ممن لم يكن دخل في الطاعة، فلما دنا من طنجة بث السرايا فانتهت خيله إلى السوس الأدنى فوطئهم وسباهم، وأدوا إليه الطاعة، وولّى عليهم والياً أحسن فيهم السيرة، ووجه بسر بن أبي أرطاة إلى قلعة من مدينة القيروان على ثلاثة أيام فافتتحها، وسبى الذرية، وغنم الأموال...ثم إن موسى عزل الذي كان استعمله على طنجة، وولى طارق بن زياد، ثم انصرف إلى القيروان. وكان طارق قد خرج معه

---

(1) ابن عذاري: البيان المغرب: ١/٤٠؛ ابن قتيبة، الإمامة والسياسة: ٢/٦٣.

(2) ابن قتيبة، الإمامة والسياسة: ٢/٦٣.

(3) المصدر نفسه: ٢/٦٦.

(4) ابن عذاري، البيان المغرب: ١/٤٢.

(5) المصدر نفسه: ١/٤٢.

بجارية له يقال لها أم حكيم، فأقام طارق هناك مرابطاً زماناً، وذلك في سنة اثنتين وتسعين هـ/٧١٠م"[١].

وقبل المضي في تناول الأحداث التالية لا بد من الإشارة إلى أن موسى بن نصير حظي بمنزلة رفيعة عند الخليفة الأموي الوليد بن عبد الملك بن مروان الذي خلف والده عبد الملك بعد وفاته سنة ٨٦هـ/٧٠٥م[٢]، وذلك بسبب ما بلغه من فتوحات تمت على يديه، وبسبب إخضاعه بلاد المغرب كلها - باستثناء سبتة - للإسلام.

وكانت سبتة مدينة منيعة، وكانت خاضعة لحكم القوط في إسبانيا، وتأتي إليها الإمدادات من هناك عبر المضيق الذي عرف فيما بعد بمضيق جبل طارق. وكان يحكمها لحساب لذريق ملك القوط في إسبانيا رجل اختلفت المصادر في شخصيته يدعى يوليان[٣] Julian. وقد ساعد هذا الحاكم المسلمين في فتح الأندلس، إذ لعب دوراً كبيراً فيه. وهو ما سنتناوله بالتفصيل بعد الحديث عن إسبانيا كمقدمة ثانية من مقدمات فتح الأندلس.

---

(١) ابن عبد الحكم، فتوح إفريقية والأندلس: ٧١.

(٢) انظر: ابن الأثير: الكامل في التاريخ: ١٠٢/٤-١٠٥.

(٣) انظر: ابن عبد الحكم، فتوح إفريقية والأندلس: ٧٢. ويذكر ابن خلدون أن اسمه: بليان. انظر: تاريخ ابن خلدون: ١٤٩/٤. وربما كان يوليان حاكماً بيزنطياً لولاية طنجة، ولكنه بسبب ضغط الأحداث وبعد المسافة عن عاصمة البيزنطيين القسطنطينية من ناحية، وانهيار مواقعهم في شمالي إفريقية من ناحية أخرى جعلته يمد يده إلى إسبانيا القوطية لحمايته، وتعزيز قوته. وعلى الأرجح أن يوليان حكم سبتة والجزيرة الخضراء أيضاً - كما يذكر ابن الأثير - في سن مبكرة (الكامل: ١٢١/٤)، وأنه أقام مدة طويلة في أرض المغرب حتى توثقت علاقته بالبربر، واستطاع أن يكسب صداقتهم، واختلط بهم، وصار كواحد منهم.

ب- إسبانيا*

تعتبر إسبانيا من البلاد الجبلية، وتضم ودياناً، وأحواضاً نهرية عظيمة. ومن أشهر أنهارها نهر الايبيره Ebro، وهو النهر الوحيد الذي يجري باتجاه الشرق حيث يصب في البحر الأبيض المتوسط. أما الأنهار الرئيسية الأخرى فتتجه غرباً نحو المحيط الأطلسي، وأشهرها وأكثرها أهمية: نهر المنهو Minho، ودويره Douro، وتاجه Tajo، ووادي آنه Gaudiana، والوادي الكبير Guadalquivir. وتوجد في إسبانيا هضبة واسعة تحتل معظم أنحائها هي هضبة الميزيتا Meseta التي تعني السهل الواسع المرتفع.

وكانت إسبانيا قبل تسميتها بهذا الاسم تعرف باسم: إيبارية أو ايبيرية. وكان سكانها من الكلت Celtas والقبائل الهندو – أوروبية الذين عبروا جبال البرينيوس Pirineos أو (البرت) واستوطنوا في الأجزاء الشمالية والغربية من شبه الجزيرة. وفي القرن العاشر قبل الميلاد أسس الفينيقيون على سواحلها مستعمرات عديدة لهم. ثم جاء من بعدهم الإغريق في القرن الخامس قبل الميلاد، وأسسوا لهم مراكز استعمارية على السواحل، وأطلقوا عليها اسم إيبيريا، ثم ما لبث هذا الاسم أن أطلق على شبه الجزيرة كلها. ثم خضعت شبه الجزيرة للقرطاجيين الذين اتخذوا مدينة قرطاجنة عاصمة لهم.

وغزا الرومان في عام ٢٠٥ ق.م شبه جزيرة إيبيريا، وأطلقوا عليها اسم Hispania ثم تحول هذا اللفظ في القرون الوسطى إلى Espana ومنه اشتقت الكلمة الإنجليزية Spain. وقد أصبحت إسبانيا بعد تمكن الرومان من السيطرة عليها كلها في عهد الإمبراطور الروماني أوغسطس Agustus (٢٧ق.م – ١٤م) إقليماً رومانياً انتشرت فيه بمرور الوقت الحضارة الرومانية، والقوانين الرومانية، والفنون الرومانية. وعلى الرغم من أن سكان إسبانيا في القرن الأول كانوا خليطاً من السكان المحليين والجليقيين Galicianos والكانتبريانيين Cantabrianos والبشكنس Vascos، واللشدانيين Lusitanios وغيرهم، إلا انهم جميعاً اصطبغوا بالصبغة الرومانية، وانخرطوا في طبيعة الحياة الرومانية اجتماعياً ودينياً.

---

* اعتمدت في تناول هذا الجانب من الدراسة على كتابي: حتامله، د.محمد عبده، إيبيريا قبل مجيء العرب المسلمين، عمان – الأردن، ١٩٩٦م، حيث تضمن معلومات جغرافية وتاريخية وافية.

ومرت إسبانيا من الناحية الإدارية بعدة مراحل استقرت في نهاية القرن الثالث الميلادي في عهد الامبراطور الروماني دوقلديانوس Diocletian (٢٨٤-٣٠٥م) على ست ولايات تابعة لمديرية غالة Gaul، وهذه الولايات هي:

- ولاية لشدانية Lusitania وعاصمتها ماردة Merida.
- ولاية باطقة Baetica وعاصمتها قرطبة Cordoba.
- ولاية طركونة Tarraconensis، وقد ضمت برشلونة، وسرقسطة، وحوض وادي الايبره، وسفوح جبال البرت. وعاصمة هذه الولاية: طركونة Tarragona.
- ولاية جليقية Galicia وعاصمتها براقرة (براغا) Braga.
- ولاية قرطاجنة Carthagininsis التي كانت تضم وسط الميزيتا، وتمتد من شاطئ البحر المتوسط نحو الداخل، وعاصمتها قرطاجنة Cartagena.
- ولاية موريتانيا الطنجية Mauritania Tigitania ثم ولاية جزر البليار Islas Baleares أو الجزائر الشرقية التي أضيفت فيما بعد.

وقد بدأ الضعف يدب في أوصال الإمبراطورية الرومانية في القرن الثالث الميلادي، عندما أخذت تتعرض لضغوط هائلة من القبائل الجرمانية، حيث قطعت هذه القبائل نهر الدانوب وهاجمت الجهات الشرقية من الإمبراطورية، كما توجهت أفواج من هذه القبائل إلى فرنسا ثم إلى إسبانيا. ومن أشهر هذه القبائل التي أخرجت من موطنها في الجهات الشمالية الشرقية من أوروبا: القوط والوندال الذين ربما سميت الأندلس باسمهم، وهو الأرجح، يضاف إليهم الآلان والسويف.

لقد كان احتلال القبائل الجرمانية لإسبانيا مدمراً أدى إلى خراب البلاد. وقد استوطنوها واستقروا فيها منذ عام ٤٠٨م. وكانت جليقية من نصيب الوندال والسويف، بينما كانت لشدانية وقرطاجنة من نصيب الآلان Alanos.

أما القوط فكانوا قد عبروا نهر الدانوب فراراً من أقوام الهون الذين هاجموهم، واستقروا في إسبانيا، وتحالفوا مع الرومان لصد هجوم قبائل الهون التي تدفقت على غالة

سنة ٤٥٠م. وكانت نتيجة هذا التحالف قيام الرومان والقوط بالاشتباك مع الهون في معركة وحشية في حقول شالون Chalons، انهزم على أثرها الهون، وتكبدوا خسائر فادحة في الأرواح. وكان القوط بقيادة ملكهم تيودوريدو Teodoredo الذي قُتل في تلك المعركة وذلك سنة ٤٥١م.

واستمرت حروب القوط ضد الهون وضد الآلان الذين استقروا في غالة وضد السويف أيضاً. فقد دخل ملكهم تيودوريك Teodorico (٤٥٤-٤٦٦م) إسبانيا سنة ٤٥٦م على رأس جيش كبير لمواصلة الحرب ضد السويف، وانتصر عليهم، وقتل ملكهم ريخياريو Rechiario، واحتل عاصمته براغا Braga. ثم هاجم ماردة، واحتل أربونة Narbonne سنة ٤٦٢م، ووحد مملكة القوط الغربيين باسم بنبلونة الجديدة التي شملت جزءاً من أربونة.

وبلغت مملكة القوط أوج ازدهارها في عهد الملك يوريك Eurico(٤٦٦-٤٨٤م) الذي سقطت في يده شبه الجزيرة الأيبيرية كلها باستثناء جليقية. وكان أول من وضع قانوناً مكتوباً لشعبه يعتمد على العرف والعادات، وهو القانون الذي عرف بقانون يوريك Codigo de Eurico.

وخلف يوريك ملوك ضعاف، وأخذ الازدهار الذي حققه لمملكته يتراجع. وقد انحدرت تلك المملكة كثيراً في عهد الملك القوطي أخيلا Agila (٥٤٩-٥٥٤م)، إذ تدخل البيزنطيون في شبه الجزيرة الأيبيرية، وقد تمكن الامبراطور البيزنطي جستنيان Justiniano (٥٢٧-٥٦٥م) من إرسال حملة إلى إفريقية بقيادة قائده بلزاريوس الذي نزل في قرطاجة (قرطاجنة) وأسس هناك حكومة إمبراطورية في إفريقية الوندالية وجزر البليار سنة ٥٣٣م.

ولم تكن أحوال القوط في إسبانيا مستقرة في عهد أخيلا، فقد ثار بعضهم ضده، وساعدهم البيزنطيون مقابل حصولهم على بعض الأراضي في شبه الجزيرة الأيبيرية، وقد وقعت هذه الثورة انطلاقاً من قرطبة سنة ٥٥١م. وقد أحرز الثوار وحلفاؤهم النصر على أخيلا قرب إشبيلية، مما مكن البيزنطيين من السيطرة على عدد من المدن الإسبانية.

وأصبحت إسبانيا في عهد ملوك القوط الذين جاؤوا بعد أخيلا مقسمة بين البيزنطيين والسويف والإغريق والبشكنس وغيرهم. وظلت كذلك إلى أن تولى الحكم الملك ليوفيخيلدو Leovigildo (٥٧٢-٥٨٦م) الذي تمكن من توحيدها تحت تاجه. غير أن الحروب الأهلية ما لبثت أن عصفت بها، وتعاقب على عرشها عدد كبير من الملوك كان معظمهم تنتهي حياته بالقتل على يد الثائرين عليه، الذين كانوا في الغالب من ذويه.

آل عرش إسبانيا القوطية إلى أحد النبلاء وهو: وامبا (Vamba) بالانتخاب (٦٧٢-٦٨٠م)، وقد تردد هذا النبيل في قبول العرش لإدراكه الصعوبات التي سيواجهها، غير أن دوقات القوط هددوه بالقتل إذا رفض العرش، فقبله. وكانت أخطر الثورات في عهده تلك التي قام بها البشكنس في سبتمانيا، إلا أن وامبا تمكن من احتواء هذه الثورة، والقضاء على الثائرين في سنة ٦٨٤م.

والجدير بالذكر هنا أن المسلمين كانوا قد فتحوا في عهد وامبا الشمال الإفريقي كله، وأخذوا يناوشون الإسبان، غير أن الأسطول القوطي كان يمنعهم، إذ تمكن ذلك الأسطول من صد هجوم قام به المسلمون على سبتة.

وتفرغ وامبا بعد تحقيق الكثير من الانتصارات للإصلاحات الداخلية فأصدر قوانين طبقها على القساوسة والكهنة والعلمانيين، وأعاد تنظيم الجيوش، وأصدر قانوناً يقضي بإعدام من لا يتقيد بالقانون والواجب العسكري سواء كان إسبانياً أم قوطياً. كما قام بتحصين عاصمته طليطلة وتجميلها، وأنشأ فيها الأبراج والتماثيل.

ولم ينعم وامبا بالاستقرار الذي خطط له، ولا تُرك لينعم بالرخاء الذي أوصل إليه البلاد، فقد عزله ارفيخيو Ervigio سنة ٦٨٠م واغتصب العرش، وأهان وامبا الذي عاش بعد ذلك سبع سنين حياة تقشف، ثم توفي. وبوفاته انتهى العهد الزاهر لمملكة القوط، وبدأ الضعف والتدهور يدبّ فيها.

كان أول عمل قام به أرفيخيو (٦٨٠-٦٨٧م) هو عقد المجمع الطليطلي الثاني عشر الذي وافق على انتخابه للعرش. كما عقد المجمع الثالث عشر الذي أعلن العفو

عن الثائرين المتآمرين على وامبا، وأعاد لهم أملاكهم وألقابهم وعقاراتهم. وقبيل وفاته بأيام قلائل تنازل أرفيخيو عن العرش دون إكراه وأوى إلى الدير.

وتولى عرش إسبانيا بعد أرفيخيو حفيد وامبا، وهو أخيكا Egica (٦٨٧-٧٠١م) الذي أعاد لحزب وامبا الأموال التي صودرت منهم، كما سمح بعودة المنفيين، وبإعادة أملاكهم وألقابهم إليهم. وفي عهده حاول المسلمون دخول إسبانيا، غير انهم لم يتمكنوا من ذلك.

وبعد أخيكا تولى العرش ابنه غيطشة Witiza (٧٠١-٧٠٩م)، وقد سمح هذا الملك لرجال الدين باقتناء أكثر من امرأة، وسمح لليهود بالعودة إلى إسبانيا. ومن جهة أخرى أمر بإزالة الأسوار عن المدن، ومنع استعمال الأسلحة حتى لا يثور عليه أحد، وكانت هذه الإجراءات من أسباب كراهية الإسبان له.

وتجدر الإشارة إلى أن غيطشة قبل أن يتولى العرش، كان دوقاً على جليقية حيث اتخذ توي Tuy مقراً له، وأثناء إقامته هناك أحب زوجة الدوق فافيلا، ويبدو أنه اشتبك معه في مبارزة، حيث أصابه غيطشة بجراح قاتلة. وكان لفافيلا ولد صغير اسمه بلاي Pelayo الذي سيصبح له شأن كبير في تاريخ الأندلس.

ويرى بعض المؤرخين الإسبان أن غيطشة كان ملكاً قاسياً، بينما يرى آخرون منهم أنه كان متسامحاً حتى مع أعداء عائلته، وخاصة عائلة Khindasvinto التي ينتمي إليها لذريق بن تيودوفريدو Teodofredo، تلك العائلة التي كانت قد تآمرت على غيطشة، وحاولت تنصيب تيودوفريدو ملكاً، غير أن المؤامرة فشلت، وكان من أهم نتائجها قيام أخيكا والد غيطشة بسمل عيني والد لذريق، ومن ثم انسحابه إلى قرطبة مع ابنه. وقد كان لهذه الحادثة آثارها المروعة على غيطشة، إذ قام لذريق بالتعاون مع رجال الدين بثورة عارمة ضده، انتهت بانتخاب لذريق ملكاً.

تولى لذريق Lodrigo (٧٠٩-٧١١م) عرش إسبانيا في جو عاصف من الأحداث، فغيطشة عندما توفي في طليطلة بعد حكم دام خمس عشرة سنة ترك ثلاثة أبناء أكبرهم أخيلا Achila، ثم المند Olmundo ثم أرطباس Ardabasto. وكان أخيلا يشارك أباه في

الحكم، حيث عُيّن حاكماً على غالة وأربونة تحت وصاية نبيل قوطي. وقد رفض النبلاء اختياره لعرش إسبانيا بسبب صغر سنه، واختاروا بدلاً منه دوق قرطبة لذريق. وأدى هذا الاختيار إلى ثورة حزب غيطشة بزعامة رئيس أساقفة إشبيلية أُبّه Oppas، غير أن لذريق أخمد هذه الثورة بقسوة، وصادر ممتلكات أبناء غيطشة وممتلكات المتمردين ونفاهم. ومع ذلك لم ييأس أبناء غيطشة، وإنما أخذوا يبحثون عمن يساعدهم لاستعادة عرش أبيهم. ومما قاموا به في هذا المجال: تحريك ثورة البشكنس في الشمال، والتحالف مع يوليان الذي يرد في المصادر الإسبانية باسم Urbano بينما تسميه المصادر العربية: يوليان، أو أليان كما أشرنا. وهو بارون موريتانيا وطنجة الذي كان له دور في فتح الأندلس، حيث قدم مساعدات أشارت لها المصادر العربية بإسهاب.

ويمكن القول باختصار أن إسبانيا قبيل الفتح الإسلامي كان يحكمها ملوك القوط حكماً فردياً مستبداً، وكانوا يستمدون نفوذهم من قوتهم الحربية. وكان للنبلاء ورجال الدين فيها نفوذ كبير في تعيين الملوك وعزلهم مما جعل أي مطالب بالعرش يسعى لاكتساب تأييدهم.

ووجد في إسبانيا قبل الفتح عنصران لكل منهما مشكلاته، وهما البشكنس واليهود. فقد كان البشكنس يرفضون الخضوع للقوط، ولذلك لم تنقطع ثوراتهم، حتى أن كل ملك قوطي كان يبدأ عهده بمحاربتهم، ومع ذلك لم يتمكنوا من إخضاعهم بسبب صلابتهم، ومناعة بلادهم. أما اليهود الذين وجدت منهم أعداد كبيرة في إسبانيا منذ القرن الرابع الميلادي، فكانوا معادين للديانة الكاثوليكية، ولذلك اعتبرهم القوط عنصراً خطيراً على المجتمع الإسباني، وأصدرت المجامع الدينية قرارات كثيرة ضدهم، فزاد حقدهم وكراهيتهم للدولة القوطية الإسبانية.

وليس من شك في أن حقد أولاد غيطشة على لذريق الذي تذكر بعض المصادر أنهم اتصلوا بيوليان في سبتة، واعتداء لذريق على ابنة يوليان كما تذكر معظم المصادر العربية، وسخط اليهود على ملوك إسبانيا، وخاصة لذريق الذي أرهق شعبه بالضرائب، واعتدى على ذخائر الكنائس القوطية ونفائسها، ليس من شك في أن كل تلك العوامل ساهمت في تمهيد الطريق أمام المسلمين الذين استقروا في شمالي إفريقية بقيادة واليها موسى بن نصير لفتح إسبانيا التي عُرفت في المصادر الإسلامية باسم: الأندلس.

٢. الفتـــــح:

لم يكن فتح الأندلس وليد صدفة أو ظروف آنيّة كما يفهم من إشارات العديد من المصادر، فالمصادر التاريخية تكاد تجمع على أن يليان، حاكم سبتة[١]، اتصل بموسى ابن نصير في القيروان، أو بطارق بن زياد في طنجة[٢]، داعياً إلى فتح الأندلس، عارضاً تقديم المساعدة لتسهيل عمليات الفتح، وذلك انتقاماً لشرف ابنته فلوريندا التي افتضها لذريق، ملك القوط[٣].

---

[١] وصف ابن عبد الحكم يليان بأنه رجل من العجم وأنه صاحب سبتة، ((وكان على مدينة على المجاز إلى الأندلس يقال لها الخضراء مما يلي طنجة، وكان يليان يؤدي الطاعة لذريق صاحب الأندلس)). انظر: فتوح إفريقية والأندلس: ٧١-٧٢. وذكر ابن الكردبوس أن يليان ((صاحب سبتة وطنجة من خواص الملك لذريق، ووجوه رجاله)). انظر: تاريخ الأندلس: ٤٣. وأشار ابن كثير إلى أن يليان كان ((صاحب الجزيرة الخضراء وسبتة وغيرهما)). انظر: الكامل في التاريخ: ١٢١/٤. وقد اختلفت المراجع اختلافاً شديداً حول شخصية يليان، بل ذهب بعضها إلى أنه قوطي، وذهب آخرون إلى أنه رومي، وزعم غيرهم أنه بربري من غمارة، ولكن هؤلاء جميعاً يتفقون على أنه كان صاحب سبتة وما حولها، وأن صلات من الود والولاء كانت تربطه بلذريق، ملك القوط في إسبانيا. والمحقق المرجح هو أن يليان كان يحكم إقليم موريتانيا الطنجية Mauretania Tingtana، وكان تابعاً للدولة البيزنطية وليس لإسبانيا، وأنه كان حاكماً عاماً لهذه الناحية من قبل الإمبراطور البيزنطي. وبعد أن ضعفت تلك الإمبراطورية، تحرر يليان من سيطرتها، وأصبح حاكماً شبه مستقل، ثم وثق علاقاته بمن جاوره من قبائل البربر حتى كسب ودّها، وأصبح كالزعيم لها. ولما افتتح موسى بن نصير طنجة، وترك بها طارق بن زياد قائداً لحاميتها عمل يليان على كسب وده. انظر: مؤنس، فجر الأندلس: ٥٢-٥٥.

[٢] ابن الكردبوس، تاريخ الأندلس: ٤٤؛ ابن عذاري، البيان المغرب: ٦/٢.

[٣] أوردت معظم مصادر التاريخ الأندلسي هذه القصة مع اختلاف في العبارات، وخلاصتها أن يليان أرسل ابنته، واسمها على الأغلب (فلوريندا Florinda)، إلى بلاط لذريق لتتأدب بآداب الملوك، كما هي العادة في ذلك الوقت، وقد رآها لذريق فأعجبته، واعتدى عليها ربما وهو سكران – كما يقول ابن الكردبوس – وعندما وصل الخبر إلى أبيها غضب غضباً شديداً، وأقسم أن ينتقم منه، ووجد الفرصة مواتية بعد أن تقرب من طارق بن زياد وكسب وده إذ زين له فتح الأندلس، وربما عرض الأمر (مراسلةً) على موسى بن نصير، فوجدها موسى فرصة لتحقيق ما كان قد عزم عليه من فتح الأندلس. انظر: ابن الكردبوس، تاريخ الأندلس: ٤٣-٤٤؛ ابن عبد الحكم، فتوح إفريقية والأندلس: ٧٢؛ مجهول، أخبار مجموعة: ١٦؛ ابن الأثير، الكامل في التاريخ: ١٢١/٤؛ المقري، نفح الطيب: ٢٥١/٤-٢٥٢. ويورد المقري أن يليان قال عندما بلغه الخبر ((ودين المسيح لأزيلنّ سلطانه (يعني لذريق)، ولأحفرن تحت قدميه)) فكان امتعاضه من فاحشة ابنته هو السبب في فتح الأندلس بالذي سبق من قدر الله تعالى.

لقد كان فتح الأندلس أمراً مبيّتاً، وربما كان صحيحاً أن أول من فكر فيه هو الخليفة عثمان بن عفان، رضي الله عنه[1]. غير أن تلك الفترة لم تكن قابلة للتطبيق إلا بعد أن استقر الإسلام في شمالي إفريقية، وأُرسيت قواعده هناك على يد موسى بن نصير، وخاصة في طنجة التي كان طارق بن زياد قائداً لحاميتها الإسلامية، حيث كانت طنجة مؤهلة لأن تكون منطلقاً لفتح الأندلس بسبب قربها من المجاز، أو بحر الزقاق الذي سمي فيما بعد بمضيق جبل طارق، وبسبب قربها أيضاً من سبتة التي عرض حاكمها يليان المساعدة في الفتح.

لقد كان التفكير في فتح الأندلس، ومن ثم فتحها استجابة لدواعي الإسلام، فالرسول، صلى الله عليه وسلم، إنما أُرسل للناس كافة، وكان عليه، بأمر الله تعالى، أن يبلّغ رسالة ربه – سبحانه – لهؤلاء الناس في شتى بقاع الأرض، ولذلك بدأ بعشيرته الأقربين، ثم انطلق إلى أنحاء الجزيرة العربية، ثم تجاوزها إلى أطرافها فوصلت سراياه إلى جنوبي بلاد الشام. وبعد وفاته صلى الله عليه وسلم، انطلقت الجيوش الإسلامية في عهد الخلفاء الراشدين شرقاً وشمالاً وغرباً، وتوسعت الفتوح بعدهم في بلاد فارس وبلاد الشام ومصر وشمالي إفريقية، وجابهت الجيوش الإسلامية الرومان، ودحرتهم في كثير من المواقع. وكان على هذه الجيوش أن تكسر شوكة البيزنطيين الذين كانوا من ألد أعداء الإسلام، وذلك بفتح القسطنطينية التي إن لم يُتح فتحها من الشرق، فقد يتاح من الغرب[2]. ولذلك ليس بمستبعد أن يكون التفكير مبكراً في الإطباق على البيزنطيين من الجبهتين حالما تتهيأ الظروف على الجبهة الغربية.

---

[1] المقري، نفح الطيب: ٢٠٤/٤.

[2] تجدر الإشارة هنا إلى أن القسطنطينية فُتحت سنة ٨٥٧هـ/١٤٥٣م بقيادة السلطان العثماني محمد الثاني، ولُقّب لذلك بمحمد الفاتح. كما تجدر الإشارة هنا إلى أن المقري يورد رواية عن سيف قال فيها أن عثمان بن عفان، رضي الله عنه كتب إلى الجيش الإسلامي في القيروان قائلاً: ((أما بعد، فإن فتح القسطنطينية إنما يكون من قبل الأندلس، فإنكم إن فتحتموها كنتم الشركاء في الأجر، والسلام)). انظر: نفح الطيب: ٢٠٤/٤-٢٠٥. ومسألة فتح القسطنطينية جاءت أيضاً على لسان طارق بن زياد، حيث قال لجيشه وقد أوغل في شمالي إسبانيا فاتحاً: ((تالله لو ساعدتموني لسرت بكم حتى أقف على باب رومة وقسطنطينية العظمى، وافتتحتها بإذن الله)). انظر: ابن الكردبوس، تاريخ الأندلس: ٤٩.

وأصبحت الجبهة الغربية في عهد موسى بن نصير مهيأة لكي تكون منطلقاً لفتح جديد، فالشمال الإفريقي كله أصبح يدين بالإسلام، وغالبية سكان المنطقة أسلموا، وحسُن إسلامهم، واشتدت قبضتهم على رايات الجهاد، وتاقت نفوسهم إليه، وكان من الطبيعي أن تجتذب الأندلس أنظارهم بحكم معرفتهم السابقة بها، وخاصة أنها قريبة منهم في جوار أبدي.

لقد انصهر البربر في بوتقة الإسلام الذي حمله إليهم الفاتحون العرب، وتوحّد الفريقان في فريق واحد يستظل براية الإسلام، ويعمل على نشرها. وقد أصبحت الظروف مواتية لنشرها على ربوع الأندلس، فالإسلام مستقر في شمالي إفريقية، والمستعدون للجهاد من عرب وبربر كثيرون يشكلون جيوشاً جرّارة، والأوضاع في إسبانيا القوط مضطربة، والأحوال متردية، والمجتمع هناك فيه فئات كثيرة تتمنى الخلاص من حكم لذريق، وخاصة أبناء غيطشة الذين كانوا مستعدين للتحالف مع من يعيد إليهم أملاكهم وأمجادهم التي اغتصبها لذريق باغتصابه عرش أبيهم.

لقد كانت الظروف كلها مواتية لفتح الأندلس، وهو أمر كان - في ظل تلك الظروف - سيتم بغض النظر عن حدوث تلك الواقعة المتعلقة بابنة يليان، وذلك التهديد الذي أطلقه أبوها متوعداً لذريق: "لأوردنّ عليه طيراً لم يسمع قط بمثلها"[1]، وهو يقصد بذلك الطير: جيوش المسلمين. فقد تلقّف موسى بن نصير دعوة يليان، ووجدها فرصة جاءت في الوقت المناسب، فاغتنمها بما عرف عنه من ذكاء وحسن تدبير، وحنكة، وتجربة[2].

---

(١) ابن عذاري، البيان المغرب: ٢/٧.

(٢) ابن الكردبوس، تاريخ الأندلس: ٤٤-٤٥.

كان موسى بن نصير في القيروان عندما كتب إليه يليان يدعوه لفتح الأندلس، وذلك في عام ٩١هـ/٧٠٩م[١]، "وقرّب عليه مرام غلبة الأندلس وسرعة فتحها، وكثرة سبيها، وأنها بلاد مياه كثيرة وجنات وأنهار وغلاّت"[٢]. وتؤكد بعض المصادر أن يليان بعث إلى موسى بالسمع والطاعة، ودعاه لزيارة بلاده (سبتة وما حولها)، فلبّى موسى الدعوة، وعندما وصل أدخله يليان مدائنه "ثم وصف له الأندلس ودعاه إليها، وذلك في آخر سنة تسعين(٨٠٧م)"[٣].

وكانت الخطوة الأولى التي قام بها موسى بن نصير على طريق فتح الأندلس هي استشارة الخليفة الأموي الوليد بن عبد الملك، فقد كتب إليه "بما جاء به يليان"[٤]، واستأذنه في فتحها[٥]. فكتب إليه الوليد يأمره بأن يتأكد أولاً من أن فتح الأندلس لن يؤدي بالمسلمين إلى التهلكة، وأن عليه قبل الفتح أن يخضع المنطقة للاختبار، فيوجه سرايا بأعداد قليلة للاستكشاف والاستطلاع قائلاً "لا تغرر بالمسلمين في بحر شديد الأهوال"[٦]. وعندئذ كتب موسى إلى الوليد مطمئناً بأن البحر ليس خطيراً كما يعتقد، وهوّن الأمر قائلاً "إنه ليس ببحر، وإنما هو خليج يصف صفة ما خلفه للناظر"[٧]. فكتب إليه الوليد: "وإن كان، فاختبره بالسرايا"[٨].

---

[١] ابن الأثير، الكامل في التاريخ: ١٢١/٤؛ النويري، نهاية الأرب: ٤٥/٢٤؛ ابن عذاري، البيان المغرب: ٤/٢؛ ابن الكردبوس، تاريخ الأندلس: ٤٤. ويذكر ابن عبد الحكم أن يليان إنما بعث إلى طارق بن زياد قائلاً له: "إني مدخلك إلى الأندلس" فاستوثق طارق من حسن نواياه بأن أخذ ابنتيه رهينة عنده، ثم صدق يليان وعده إذ جاء طارقاً بالمراكب فحمله فيها إلى المجاز. انظر: فتوح إفريقية والأندلس: ٧٢-٧٣. بينما يذكر ابن خلدون أن يليان "لحق بطارق فكشف للعرب عورة القوط، ودلّهم على غرة فيهم أمكنت طارقاً الفرصة، فانتهزها لوقته، وأجاز البحر سنة اثنتين وتسعين من الهجرة بإذن أميره موسى". انظر: تاريخ ابن خلدون: ١٥٠/٤.

[٢] ابن الكردبوس، نهاية الأرب: ٤٥/٢٤؛ ابن الأثير، الكامل في التاريخ: ١٢١/٤.

[٣] ابن الكردبوس، تاريخ الأندلس: ٤٤.

[٤] المرجع السابق: ٤٥؛ وانظر: ابن عذاري، البيان المغرب: ٥/٢.

[٥] مجهول، أخبار مجموعة: ١٦؛ ابن الأثير، الكامل في التاريخ: ١٢١/٤-١٢٢.

[٦] ابن الأثير، الكامل في التاريخ: ١٢٢/٤.

[٧] مجهول، أخبار مجموعة: ١٦؛ وانظر: المقري، نفح الطيب: ٢٥٣/١.

[٨] مجهول، المصدر نفسه: ١٦.

لقد أصر الوليد بن عبد الملك على أن يسبق توجيه الجيوش الإسلامية لفتح الأندلس إخضاع الفتح للاختبار الأولي، فإن نجح استمر الفتح. وهكذا كان. ولم يكن موسى بن نصير أقل حرصاً على جيوش المسلمين من الخليفة، يدل على ذلك تلك الرواية التي انفرد بها ابن الكردبوس والمقري، عن موقف موسى إزاء يليان، فقد عرضه لاختبار نواياه، إذ قال يليان عندما عرض عليه المساعدة في فتح الأندلس: "إنّا لا نشك في قولك ولا نرتاب، غير أنّا نخاف على المسلمين من بلاد لا يعرفونها، وبيننا وبينها البحر، وبينك وبين ملكك حمية الجاهلية واتفاق الدين. ولكن ارجع إلى جنودك، واجمع جندك ومن يقول بقولك، وجز إليه بنفسك، وشن الغارة على بلاده، واقطع ما بينك وبينه، وإذ ذاك تطيب النفس عليك، ونحن من ورائك إن شاء الله"[1]. ففعل يليان ما طلبه موسى، فقد جمع قواته، "وجاز في مركبين فحلّ بالجزيرة الخضراء، فشن الغارة على تلك البلاد، وحرق وسبى وقتل وغنم ورجع وقد امتلأت أيديهم خيراً"[2].

وبعد أن تلقى موسى بن نصير موافقة الخليفة الوليد بن عبد الملك، وتأكد من صدق نوايا يليان، بدأ الخطوات العملية للفتح. وتتمثل تلك الخطوات في: حملة طريف بن مالك المعافري* الاستطلاعية، ومن بعدها حملة طارق بن زياد، ثم الحملة التي قادها موسى بن نصير نفسه.

حملة طريف:

اطمأن المسلمون إلى يليان بعد عودته من الأندلس غانماً، وشاعت أخباره بينهم، وخاصة أنه رجع بمن معه سالمين[3]، فعزز ذلك رغبتهم في الجهاد، وشجع موسى بن نصير على إرسال حملة استطلاعية تختبر مدى قوة القوط وسهولة الفتح، ومدى صدق يليان الذي هوّن عليه حال رجال القوط "ووصفهم بضعف البأس وقلة الغلبة"[4]. وهو

---

(1) ابن الكردبوس،تاريخ الأندلس: ٤٥؛ وانظر أيضاً: المقري، نفح الطيب: ٢٥٣/١.

(2) المصدر نفسه: ٤٥.

* ذكر ابن عذاري أن طريفاً رجل من البربر، يكنى ابا زرعة. انظر: البيان المغرب: ٥/٢، غير أن نسبته إلى معافر تدل على أنه عربي من اليمن.

(3) ابن عذاري: البيان المغرب: ٤٠/١؛ ابن قتيبة، الإمامة والسياسة: ٦٣/٢.

(4) المقري، نفح الطيب: ٢٥٣/١.

بهذه الحملة إنما ينفذ أيضاً أوامر الخليفة الوليد بن عبد الملك بعدم إقحام المسلمين في مغامرة قبل أن يتأكد من نجاحها، ومن أن الخليج الذي يبين للناظر ما خلفه[١] طريق بحرية مأمونة.

اختار موسى بن نصير لقيادة الحملة الاستطلاعية مولاه أبا زرعة طريف بن مالك المعافري، وهو قائد بارع في فنون الحرب والقتال، وكانت تلك الحملة مؤلفة من خمسمائة محارب، منهم أربعمائة من المشاة، ومائة من الفرسان[٢]. وسار طريف على رأس هذه السرية في أربعة مراكب، حيث جاز بحر الزقاق، ونزل في جزيرة لاس بالوملس (Las Palomas) أي جزيرة الحمام الواقعة على مقربة من الموضع الذي أنشئت فيه بلدة جزيرة طريف (Tarifa) فيما بعد، باسم قائد الحملة. وكان نزوله في ذلك الموضع في رمضان سنة ٩١هـ/ تموز ٧١٠م[٣].

وشن طريف بن مالك من موقعه في جزيرة طريف سلسلة من الغارات على السواحل الجنوبية للأندلس، المقابلة لساحل سبتة، وطالت غاراته الرقعة الممتدة بين طريف والجزيرة الخضراء "فأصاب سبياً لم ير موسى ولا أصحابه مثله حُسناً، ومالاً جسيماً، وأمتعة"[٤].

---

[١] المقري، نفح الطيب: ٢٥٣/١.

[٢] المقري، المصدر نفسه: ٢٥٣/١؛ مجهول، أخبار مجموعة: ١٦؛ النويري، نهاية الأرب: ٤٥/٢٤. ومما يذكر هنا أن ابن الكردبوس أورد رواية مختلفة، حيث ذكر أن ناساً من البربر اجتمعوا – بعد عودة يليان غانماً من الأندلس – وكانوا نحو ثلاثة آلاف راجل، وقدموا عليهم أبا زرعة طريف بن مالك المعافري، وجاز بهم فحلّ في الجزيرة التي سميت فيما بعد جزيرة طريف. انظر: تاريخ الأندلس: ٤٥. ويورد المقري رواية أخرى حيث يذكر أن طريفاً دخل في ألف رجل، ((فأصاب غنائم وسبياً، ودخل بعده أبو زرعة، شيخ من البرابرة، وليس بطريف، في ألف رجل منهم أيضاً، فأصابوا أهل الجزيرة قد تفرقوا عنها، فضرّموا عامتها بالنار، وحرقوا كنيسة بها كانت عندهم معظّمة، وأصابوا سبياً يسيراً، وقتلوا، وانصرفوا سالمين)). انظر: نفح الطيب: ٢٥٣/١-٢٥٤. وقد أوردنا هذه الروايات للمقارنة.

[٣] النويري، نهاية الأرب: ٤٥/٢٤؛ المقري، نفح الطيب: ٢٥٣/١.

[٤] المقري، نفح الطيب: ٢٥٣/١؛ وانظر: مجهول، أخبار مجموعة: ١٦-١٧؛ النويري، نهاية الأرب: ٤٥/٢٤.

وكان نجاح حملة طريف حافزاً قوياً للمسلمين الذين ما إن علموا بما أصابه من نجاح "حتى تسرّعوا إلى الغزو"[1]، أو حسب تعبير صاحب أخبار مجموعة "تسرّعوا إلى الدخول"[2]. كما كان نجاحها حافزاً قوياً لموسى بن نصير، حيث جعله ذلك يستجد عزماً في إقحام المسلمين فيها[3]. وتجعل بعض المصادر دوراً ليليان في إقناع موسى بن نصير بفتح الأندلس بعد نجاح حملة طريف الاستطلاعية، إذ يذكر المقري أن يليان "عاود القدوم على موسى بن نصير محركاً في الاقتحام على أهل الأندلس"[4]. ويذكر مثل ذلك ابن الكردبوس حيث يذكر أن يليان رجع ثانيةً إلى موسى "وأعلمه بما كان من فعله وبلائه وحرصه على غزو الأندلس"[5]. بينما لا تشير مصادر أخرى إلى هذا الإصرار من يليان، وإنما تجعل المبادرة في الفتح بعد نجاح حملة طريف لموسى وحده، ودونما أي تأثير ليليان أو غيره، وهذا هو الأرجح. فبعد عودة طريف والمسلمين سالمين غانمين عزم على توجيه جيش فاتح، ووجه حملة رئيسية بقيادة طارق بن زياد*.

---

(1) النويري، نهاية الأرب: ٢٤/٤٥.

(2) مجهول، أخبار مجموعة: ١٧.

(3) المقري، نفح الطيب: ١/٢٥٤.

(4) المصدر نفسه: ١/٢٥٤.

(5) ابن الكردبوس، تاريخ الأندلس: ٤٦.

* اختلف المؤرخون في شخصية طارق، وقد أورد المقري اختلافاتهم نقلاً عن الرازي فذكر أنه كان مولىً لموسى كان على مقدمته، وقال إنه يسمى ((طارق بن زياد بن عبد الله فارسياً همذانياً. وقيل: إنه ليس بمولىً لموسى، وإنما هو رجل من صَدِف، وقيل مولىً لهم. وقد كان بعض عقبه بالأندلس ينكرون ولاء موسى إنكاراً شديداً. وقيل: إنه بربري من نَفْزة)). انظر: نفح الطيب: ١/٢٥٤. وأشار ابن عذاري إلى هذا الاختلاف حول شخصية طارق، فقال ((فالأكثرون على أنه بربري من نفزة، وأنه مولى لموسى ابن نصير من سبي البربر، وقال آخرون إنه فارسي))، ثم أورد ابن عذاري رواية في نسب طارق، فقال ((قال صالح بن أبي صالح: هو طارق بن زياد بن عبد الله بن رفهو بن ورفجوم بن ينزغاسن بن ولهاص بن نفزاو)). انظر: البيان المغرب: ٢/٥. بينما أورد ابن خلدون في نسبه أنه ليثي. انظر: تاريخ ابن خلدون: ٤/١٥٠. والغالب أنه مغربي من البربر، من قبيلة نفزة.

حملة طارق بن زياد:

كان طارق بن زياد الذي ندبه موسى بن نصير لهذه المهمة الجليلة الخطيرة، وهي مهمة فتح الأندلس، موضع ثقة موسى، ومع أن المصادر لم تذكر ما كان يتوافر في طارق من صفات قيادية، إلا أن اختيار موسى له يدل على أنه كان أميناً شجاعاً ذا حنكة وحُسن تدبير، فقد فضله موسى على كثيرين من القادة المعروفين مثل: طريف بن مالك المعافري الذي عاد لتوه من حملة حققت نجاحاً ملحوظاً في الأندلس، وكان متوقعاً أن يكون هو قائد الفتح. كما فضله على قادة آخرين شهدت الأحداث بكفاءتهم مثل: عياش ابن أخيل، وزرعة بن أبي مدرك، والمغيرة بن أبي بردة الذين كان لهم دور كبير في فتح شمالي إفريقية، وإرساء الإسلام في أنحاء واسعة من تلك المنطقة.

عقد موسى لطارق على جيش أجمعت المصادر والمراجع على أن جل هذا الجيش كان من البربر، ولم يزد فيه العرب على ستة عشر رجلاً حسب رواية ابن حبيب[1]، وثلاثمائة حسب روايتي ابن خلدون والناصري[2]. وكان عدد الجيش كله اثني عشر ألفاً[3]. غير أن هذا الجيش لم يعبر كله مع طارق عندما جاز إلى الأندلس، وإنما جاز معه – كما يفهم من مقارنة الروايات المختلفة – سبعة آلاف فقط[4]، ثم تبعه خمسة آلاف في وقت لاحق عندما احتاج إلى المدد[5].

---

(1) ابن حبيب، كتاب التأريخ: ١٣٧.

(2) ابن خلدون، تاريخ ابن خلدون: ١٥٠/٤؛ الناصري، الاستقصا: ٩٨/١.

(3) ابن الكردبوس، تاريخ الأندلس: ٤٦؛ ابن عذاري، البيان المغرب: ٦/٢.

(4) مجهول، أخبار مجموعة: ١٧؛ ابن الأثير، الكامل في التاريخ: ١٢٢/٤؛ النويري، نهاية الأرب: ٤٥/٢٤؛ المقري، نفح الطيب: ٢٥٤/١.

(5) النويري، نهاية الأرب: ٤٧/٢٤؛ المقري، نفح الطيب: ٢٥٤/١. ويذكر ابن حبيب أن طارقاً سار بألف وسبعمائة رجل ((ثم تحاشد البربر إليه حتى صاروا اثني عشر ألفاً من البربر إلا ستة عشر رجلاً من العرب فلم تلحقه هذه العساكر إلا بعد فتحه الأندلس فمضى طارق بالألف والسبع المائة في رجب سنة اثنتين وتسعين من الهجرة)). انظر: كتاب التأريخ: ١٣٧.

إن مسألة إرسال موسى بن نصير لجيش من البربر لفتح الأندلس تستدعي التوقف والمناقشة، وليس ذلك تقليلاً من شأنهم، أو غمطاً لحقهم في الفتح، ولكن تجلية لحقيقة هؤلاء البربر الذين حملوا على عاتقهم هم وقائدهم طارق، وهو على الأغلب من البربر أيضاً مسؤولية فتح الأندلس، وأعباء ذلك الفتح. وقبل المضي في إلقاء الضوء على هذه المسألة لا بد من الإشارة إلى أن المؤرخين المحدثين أخذوا بما أوردته المصادر دونما توقف وإمعان نظر، فسالم يعرب عن دهشته واستغرابه من أن يكون الجيش الذي أعده موسى للحملة مكوناً كله من البربر، ويقول: "وهذه هي المرة الأولى في تاريخ الفتوح العربية يتولى فيها جيش كامل من المغلوبين فتح قطر من الأقطار الكبرى كالأندلس، ويدل هذا على أن بربر المغرب قد أسلموا، وحسُن إسلامهم، وأصبحوا على هذا النحو يؤلفون القوة الكبرى التي اعتمد عليها موسى بن نصير في فتح الأندلس عسكرياً". ويضيف مبرراً "أن البربر كانوا أشد حماسة من العرب في سبيل الجهاد ونصرة الدين الإسلامي. وقد يكون موسى قد خاف على جيشه العربي من هذه المغامرة، فآثر أن يجعل الطليعة الأولى من البربر!!"[1].

وأعرب مؤنس أيضاً عن استغرابه من "أن الجيش الذي أرسله موسى كان بربرياً صرفاً أو يكاد، وهذه هي أول مرة نسمع فيها أن قائداً إسلامياً عهد في عمل حربي خطير كهذا إلى قائد غير عربي، وجند غير عرب في الغالب"[2]. ويرى العبادي أن من غير المعقول "أن يعهد موسى إلى شخص (أجنبي) – مهما خلصت نيته – بمثل هذه العملية الحربية الخطيرة التي تتوقف عليها سلامة أرواح آلاف المسلمين"[3].

إن إرسال موسى بن نصير لفتح الأندلس جيشاً قيل إن معظمه إن لم يكن جلّه من البربر ليس غريباً، ولا مستهجناً، وبدلاً من توجيه هذا النقد إلى قائد مثله لا بد من إدراك الحقائق المتعلقة بذلك الجيش، وأهمها أن دماء البربر اختلطت بدماء العرب الفاتحين عبر نحو سبعين عاماً، فقد أشرنا من قبل إلى أن المسلمين شرعوا في فتح المغرب منذ سنة ٢٠هـ/٦٤١م في ولاية عمرو بن العاص على مصر، ولم تتوقف فتوح

---

(1) سالم، تاريخ المسلمين وآثارهم في الأندلس: ٧١.

(2) مؤنس، فجر الأندلس: ٦٨.

(3) العبادي، في تاريخ المغرب والأندلس: ٥٩.

المغرب إلى أن استكملت في عهد موسى بن نصير سنة ٩٠هـ/٧٠٩م، وهي مدة كافية ليس من شك في أن جيلاً كاملاً نشأ خلالها من أمهات من البربر وآباء من العرب، وخاصة إذا تذكرنا أن الدين الإسلامي يبيح للرجل الزواج بأربع، وأن عشرات الآلاف من الفاتحين العرب لا بد أن يكونوا قد تزوجوا بنساء من البربر، هذا إضافة إلى ما ملكت أيمانهم من سبايا البربر. وليس من شك أيضاً في أن هذا الجيل الجديد تشرّب الإسلام ولغة الدين العربية من الآباء العرب، وعندما ننسب هؤلاء إلى آبائهم نكون مجافين للحقيقة إن عددناهم من البربر، فلماذا لا يكون جيش طارق، أو على الأقل غالبيته من هؤلاء؟

ثم إن اتهام موسى بن نصير بأنه ضحى بالبربر فجعلهم الطليعة الأولى خوفاً على جيشه العربي، إنما هو اتهام خطير، فموسى قائد مسلم، والبربر مسلمون مثلهم مثل العرب، والإسلام لا يفرق بين المسلمين على أساس عرقي، وهذا أمر لا يحتاج إلى دليل.

وأما أن يكون البربر أشدّ حماسة من العرب في سبيل الجهاد ونصرة الدين الإسلامي، ولذلك قدمهم موسى بن نصير لفتح الأندلس، فقول لم يستند إلى دليل، ولن يجده، ذلك أن الجهاد فريضة على المسلم عربياً كان أو غير عربي، وإذا كان لا بد من المفاضلة في الحماس للجهاد بين عربي وغير عربي لا بد أن نتوصل إلى نتيجة هي أن العرب الذين حملوا راية الإسلام، وفتحوا مشارق الأرض ومغاربها، ونهضوا إلى الجهاد في سبيل الله منذ أن فرض الله عليهم الجهاد، أكثر حماساً له من البربر، ومن غير البربر.

وأما أن يعد طارق بن زياد، وهو المسلم الذي حسُن إسلامه، والذي لم يجد موسى ابن نصير أكفأ منه ديناً وأمانة وقدرة لقيادة حامية طنجة، أما أن يعدّ أجنبياً، ونستهجن أن يقود جيشاً إسلامياً فموقف أقل ما يقال فيه، إنه غريب.

كان جيش طارق عندما جاز البحر إلى الأندلس سبعة آلاف من المسلمين، بينهم: عبد الملك بن أبي عامر المعافري[1] الذي أصبح لأبنائه وأحفاده شأن كبير فيما بعد في

---

(١) المقري، نفح الطيب: ٣٩٦/١.

الأندلس، كما سنرى. وقد حمل طارق جيشه في أربع سفن[1] فوجاً بعد فوج، أو كما يعبّر صاحب أخبار مجموعة "فاختلفت السفن بالرجال والخيل"[2]. ولم تكن تلك السفن حربية وإنما تجارية، وكان هذا عاملاً من عوامل التمويه، فبحر الزقاق يعج بسفن التجارة، ولن يفطن أحد إلى أن بعضها كان يحمل جيشاً. كما أن تلك السفن كانت تنقل الجيش في الليل، وذلك عامل آخر من عوامل التمويه. وساعد في نقل الجيش من سبتة إلى جنوبي الأندلس بصورة سرية وجود يليان كدليل له، حيث "أجازهم...في مراكب التجار من حيث لم يُعلم بهم، أولاً أولاً، وركب أميرهم طارق آخرهم"[3].

حلّ طارق بن زياد في الجبل الذي نسب إليه إلى اليوم، وذلك في يوم الاثنين ٥ رجب ٩٢هـ/نيسان ٧١١م[4]، ويبدو أن يليان دلّه على مكان منخفض للنزول فيه، وكان مكاناً مناسباً من حيث الاتساع والموقع، غير أنه وجد فرسان القوط ومشاتهم يحرسون ذلك المكان، "فعدل عنه ليلاً إلى موضع وعر، فوطأه بالمجاذف وبراذع الدواب، ونزل منه في البر وهم لا يعلمون"[5].

وكان لذريق وقت نزول طارق في الأندلس مشغولاً بإخماد إحدى ثورات البشكنس في بنبلونة Pamplona[6]، وقد أتاح ذلك لطارق وقتاً كافياً لرسم الخطط الحربية، واستكمال

---

[1] اختلفت المصادر في ملكية هذه السفن، فقد أشار بعضها إلى أنها للمسلمين، وأنها من صنعهم، حيث ذكر صاحب أخبار مجموعة أن طارقاً ((دخل في تلك الأربع سفن، لا صناعة لهم غيرها)) انظر: أخبار مجموعة: ١٧، وأورد المقري رواية مماثلة عن الرازي. انظر: نفح الطيب: ٢٥٤/١. وقال ابن الكردبوس أن طارقاً ((جاز في مراكبه)). انظر: تاريخ الأندلس: ٤٦. بينما تذكر مصادر أخرى أن المراكب ليليان، وأنه جاء طارقاً بها فحمله فيها. انظر: ابن عبد الحكم، فتوح إفريقية والأندلس: ٧٣.

[2] مجهول، أخبار مجموعة: ١٧؛ وانظر: المقري، نفح الطيب: ٢٥٤/١.

[3] المقري، نفح الطيب: ٢٥٤/١؛ وانظر: ابن عبد الحكم، فتوح إفريقية والأندلس: ٧٣.

[4] المقري، نفح الطيب: ٢٥٤/١؛ وانظر:ابن الكردبوس، تاريخ الأندلس: ٤٦؛ ابن حبيب، كتاب التأريخ: ١٣٧.

[5] ابن الكردبوس، تاريخ الأندلس: ٤٦؛ وانظر أيضاً: ابن عذاري، البيان المغرب: ٩/٢، ويعلل ابن عذاري السبب في استخدام البراذع بأن الجبل كانَ صعب المرتقى، فهو ((حجارة حرش)).

[6] ابن حبيب، كتاب التأريخ: ١٣٧؛ مجهول، أخبار مجموعة: ١٧؛ المقري، نفح الطيب: ٢٥٥.

الاستعداد، وحرية الحركة. فقد بنى قاعدة لجيشه، وأحاطها بسور "يسمى سور العرب"[1] قبل أن يبدأ عمليات الفتح.

وكانت أول فتوح طارق قرية حصينة تعرف بقرطاجنة (قرطاية) الجزيرة (Carteya)، وتقع شمال جبل طارق عند مصب جدول يدعى وادي البحر[2]. ثم تقدم إلى الجزيرة الخضراء (Algeciras) واشتبك مع القوط في مناوشات محدودة كان النصر فيها للمسلمين[3]. وبعد أن تم له فتح الجزيرة عهد إلى يليان وبعض الجند بمهمة حراستها، بينما اشتبك هو مع سرية قوطية بقيادة شخص يذكر ابن عذاري أنه ابن أخت لذريق، واسمه بنج "وكان أكبر رجاله"[4]، وهو - كما تسميه المصادر الإسبانية - بنشو (Bancho) أو بنثيو (Bencio)[5]. وقد تمكن المسلمون من أن يقضوا على هذه السرية.

سار طارق بعد هزيمة السرية القوطية نحو الشمال قاصداً قرطبة، وكانت قرطبة حينئذ عاصمة إقليم بيتس (بيطي)، ويعد افتتاحها أمراً بالغ الأهمية لما فيه من كسر لشوكة القوط. وكان السهل الذي سار فيه قليل الارتفاع، وقد تابع سيره في المنطقة المحصورة بين بحيرة خاندا Janada وجبال سييرا دي رتين Sierra de Retin حتى انتهى إلى سهل فسيح حصين يقع بين البحيرة والجبال حيث يوجد نهير برباط أو وادي لكّه الذي يخترق خاندا، وهو الوادي الذي تسميه المصادر الإسبانية وادي ليت Guadalete[6].

---

[1] ابن عذاري، البيان المغرب: ٩/٢. وانظر: ابن خلدون، تاريخ ابن خلدون: ١٥٠/٤؛ الناصري، الاستقصا: ٩٨/١؛ وانظر أيضاً ابن الأثير، الكامل في التاريخ: ١٢٢/٤ حيث يشير إلى حصن بناه طارق في الجبل.

[2] ابن القوطية، تاريخ افتتاح الأندلس: ٣٥؛ ابن عبد الحكم، فتوح إفريقية والأندلس: ٧٣.

[3] ابن الأثير، الكامل في التاريخ: ١٢٢/٤؛ النويري، نهاية الأرب: ٢٤/٤٦-٤٧.

[4] ابن عذاري، البيان المغرب: ٨/٢.

[5] انظر: سالم، تاريخ المسلمين وآثارهم في الأندلس: ٧٣.

[6] المقري، نفح الطيب: ٢٥٨/١؛ ابن عذاري، البيان المغرب: ٨/٢؛ النويري، نهاية الأرب: ٤٧/٢٤، ويذكر هذا النهير باسم (نهر بكّة).

أما لذريق فإنه عندما انتهى إليه خبر طارق "أقبل مبادراً الفتق في جموعه، حتى احتل بمدينة قرطبة من الموسطة، ونزل القصر المدعو بها ببلاط لذريق المنسوب إليه"[1]، وأرسل "رجلاً شجاعاً عارفاً بالحروب ومكائدها، وأمره أن يدخل في عسكر طارق فيرى صفاتهم وهيآتهم"[2]، ويبدو أن طارقاً عندما أحسّ بهذا الجاسوس أضمر في نفسه إلقاء الرعب في قلوب أعدائه، ووجد وسيلة ذلك في خدعة حربية عنّت له، فقد ترك الجاسوس وشأنه دون أن يلفت إليه انتباه أحد، وأمر "ببعض القتلى أن تقطع لحومهم وتطبخ، فأخذ الناس القتلى، فقطعوا لحومهم وطبخوها، ولم يشك رسول لذريق انهم يأكلونها"[3]. ولما جُن الليل أمر طارق بدفن الموتى، وهم الذين خُيّل لرسول لذريق أنهم أكلوها، فعاد وأخبر سيده بما رأى مما وطّن في نفسه الخوف. ولما شاع الخبر بين القوط ملئت قلوبهم رعباً[4].

وكان الجيش الذي جمعه لذريق لقتال المسلمين كبيراً، فقد ذكر ابن خلدون أن عدده أربعين ألفاً[5]، وذكر ابن حبيب أن "لذريق أقبل في سبعين ألف عنان ومعه العجل تحمل الأموال والمتاع"[6]. وذكرت مصادر أخرى أن جيش لذريق بلغ مائة ألف مقاتل[7]. وهذه الأرقام أياً كانت حقيقتها إنما تدل على أن جيش لذريق كان أضعاف جيش المسلمين الذي لم يتجاوز سبعة آلاف.

ولكي يعالج طارق بن زياد هذا الموقف الناجم عن كثرة أعدائه وقلة جنده لجأ إلى ما يسمى في العصر الحديث بالحرب النفسية، وهي الحرب التي لجأ إليها عندما أوهم

---

(1) المقري، نفح الطيب: ٢٥٥/١.

(2) ابن الكردبوس، تاريخ الأندلس: ٤٧.

(3) المصدر السابق: ٤٧؛ وانظر للمقارنة: ابن القوطية، تاريخ افتتاح الأندلس: ٣٥؛ ابن عبد الحكم، فتوح إفريقية والأندلس: ٧٣.

(4) ابن القوطية، تاريخ افتتاح الأندلس: ٣٥.

(5) ابن خلدون، تاريخ ابن خلدون: ١٥٠/٤؛ وانظر أيضاً: الناصري، الاستقصا: ٩٨/١.

(6) ابن حبيب، كتاب التأريخ: ١٣٧؛ وانظر أيضاً: ابن قتيبة، الإمامة والسياسة: ٧٤/٢.

(7) المقري، نفح الطيب: ٢٥٧/١؛ ابن الأثير، الكامل في التاريخ: ١٢٢/٤؛ النويري، نهاية الأرب: ٤٧/٢٤؛ مجهول أخبار مجموعة: ١٧.

أعداءه بأن المسلمين يأكلون أعداءهم، فقد أمر بحرق مراكب، وربما مركب واحد معطوب أو كومة من الخشب في البحر، وهيأ الأسباب لكي يعلم القوط بذلك عن طريق رسول لذريق الذي أشرنا إليه، فقد أخبر لذريق بأن المسلمين "أحرقوا مراكبهم، ووطنوا على الموت أو الفتح، فداخل لذريق وجيشه من الجزع ما لم يظنوا"[1]. وهو بهذا العمل الذي جعله ينطلي على المسلمين أيضاً إنما حقق هدفين: إدخال الجزع في نفوس الأعداء، وإجبار المسلمين على أن يقاتلوا قتال من يطلب النصر أو الشهادة دونه. وقد عزز هذا الهدف الثاني بخطبته أمام جنده "أين المفرّ؟ البحر من ورائكم، والعدو أمامكم، فليس ثمّ والله إلا الصدق والصبر، فإنهما لا يُغلبان، وهما منصوران، ولا تضرّ معهما قلة، ولا تنفع مع الخور والكسل والفشل والاختلاف والعجب كثرة..."[2].

ولكي يعزز طارق جيشه الذي أراد أن يكون الصدق والصبر أقوى أسلحته وأكثرها فعالية، كتب إلى موسى بن نصير يستمده، فأمدّه بخمسة آلاف تم نقلهم بالسفن التي بدأ موسى بصناعتها منذ وجّه طارقاً إلى الأندلس[3]، وبهذا المدد كملت عدة من مع طارق اثني عشر ألفاً "أقوياء على المغانم، حراصاً على اللقاء، ومعهم يليان المستأمن إليهم في رجاله وأهل عمله، يدلّهم على العورات، ويتجسس على الأخبار"[4].

وهكذا هيأ طارق بن زياد بالحرب النفسية التي شنها، وبالمدد الذي وصله، أسباب النصر. أما جيش لذريق فلم يتهيأ له سوى أسباب الهزيمة، فقد ضم جيشه كثيرين من الحاقدين عليه منذ اغتصابه عرش غيطشة، وفي مقدمة هؤلاء اثنان من أبناء غيطشة

---

[1] ابن الكردبوس، تاريخ الأندلس: ٤٨. ويشار هنا إلى أن كثيراً من المصادر ذكرت بأن طارقاً أحرق السفن فعلاً، وأن بعض المراجع استهجنت ذلك مستغربة كيف يحرق سفناً ليست له وإنما ليليان الذي قدمها لكي يعبر عليها جيش المسلمين. وأرى ما ذكرته في المتن، وهو أن طارقاً لم يحرق السفن، وإنما هي خدعة حربية قام بها، وتمخضت عن نتائج إيجابية.

[2] ابن قتيبة، الإمامة والسياسة: ٧٤/٢؛ وانظر: ابن حبيب، كتاب التأريخ: ١٣٨.

[3] مجهول، أخبار مجموعة:١٧؛ ابن الأثير، الكامل في التاريخ: ١٢٢/٤؛ النويري، نهاية الأرب: ٤٧/٢٤.

[4] المقري، نفح الطيب: ٢٥٧/١؛ وانظر: النويري، نهاية الأرب: ٤٧/٢٤.

اللذان جعل أحدهما على ميمنة جيشه والآخر على ميسرته[1]. وقد أضمر هؤلاء الغدر به لصالح المسلمين، ظناً منهم أن المسلمين إنما جاءوا من أجل الأسلاب والغنائم، وأنهم ما إن تمتلئ أيديهم منها حتى يعودوا من حيث أتوا، وعندئذ يخلو لهم الجو، ويستعيدون ما اغتصبه غيطشة من عرش وأمجاد[2]. واتصل أبناء غيطشة بطارق يعلمونه بما عزموا عليه، وبرروا موقفهم من لذريق بأنه "كان تابعاً وخادماً لأبيهم، فغلبهم على سلطانه بعد مهلكه، وأنهم غير تاركي حقهم لديه"[3]. وسألوا طارقاً الأمان على أن يميلوا إليه عند اللقاء هم ومن تبعهم، مشترطين عليه أن يعيد إليهم ضياع والدهم إذا انتصر، "وكانت ثلاثة آلاف ضيعة"، فأجابهم طارق إلى ذلك[4].

والتقى الجيشان، جيش طارق المقبل على النصر أو الشهادة، الموحد تحت راية الإسلام، وجيش لذريق الذي تكتنفه مؤامرات المتآمرين من كل جانب. وكان اللقاء على وادي برباط أو وادي لكه يوم الأحد ٢٨ رمضان سنة ٩٢هـ/ ١٩ تموز ٧١١م[5]. وقبيل المعركة عاين لذريق جيش المسلمين عن طريق أحد فرسانه، إذ أشرف هذا الفارس على جيش المسلمين، وعاد ليخبر لذريق بأن المسلمين إنما جاءوا وهم لا يريدون "إلا الموت أو إصابة ما تحت قدميك"[6].

---

[1] ذكر صاحب أخبار مجموعة أن لذريق ولّى ششبرت ميمنته وأبّه ميسرته، وهما ابنا الملك غيطشة الذي كان ملكاً قبله. انظر: ص١٨. وذكر مثل ذلك المقري، انظر: نفح الطيب: ١/٢٥٧-٢٥٨ والجدير بالذكر هنا أن هذين هما أخوا الملك غيطشة، وليسا من أبنائه. وأما ابناه المقصودان هنا فهو ألمند وأرطباس.

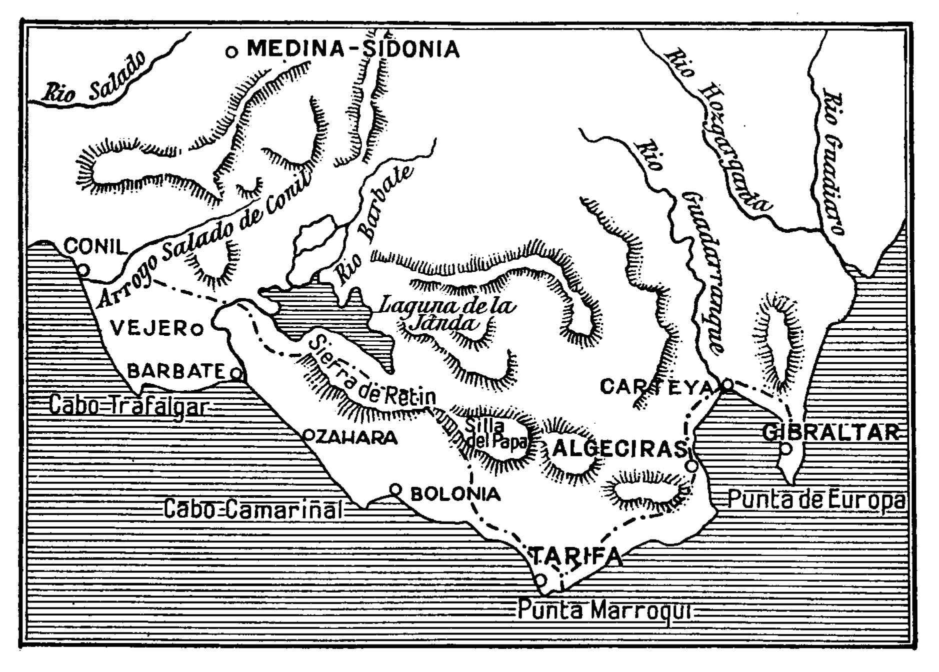
[2] انظر: المقري، نفح الطيب: ١/٢٥٨؛ مجهول، أخبار مجموعة: ١٨؛ النويري، نهاية الأرب ٢٤/٤٧.

[3] المقري، نفح الطيب: ١/٢٥٨.

[4] المصدر نفسه: ١/٢٥٨.

[5] ابن عذاري، البيان المغرب: ٢/٨؛ ابن الأثير، الكامل في التاريخ: ٤/١٢٢؛ النويري، نهاية الأرب ٢٤/٤٧؛ المقري، نفح الطيب: ١/٢٥٩.

[6] المقري، نفح الطيب: ١/٢٥٨.



- La región de Algeciras y el campo de batalla del río Barbate

واستمرت معركة وادي لكه ثمانية أيـــام[1]، انــهزمت خلالـــها ميمنـــة لذريـــق وميسرته بقيادة ابني غيطشة اللذين بيّتا ذلك، وثبت القلب بعدهما قليـــلاً، وكـــان بقيـــادة لذريق، إلا أنهم لم يستمروا في الصمود بعد أن انكشف جانباه، فانهزم، "وأذرع المسلمون القتل فيهم"[2]. ومع أن المصادر لم تشر إلى عدد القتلى من جيش لذريق، إلا أن هنـــاك إشارات تدل على كثرتهم، إذ قال المقري: "فقتل منهم خلق عظيم، أقامت عظامهم بعـــد ذلك بدهر طويل"[3].

واختلفت المصادر في مصير لذريق، فذكر بعضها أنه اختفى "إلا أن المســـلمين وجدوا فرسه الأشهب الذي فُقد وهو راكبه، وعليه سرج له من ذهـــب مكلـــل باليـــاقوت والزبرجد، ووجدوا أحد خفيه وكان من ذهب مكلل بالدر والياقوت، وقد ساخ الفرس فـــي طين وحمأة، وغرق العلج، فثبت أحد خفيه في الطين، فأخذ، وخفي الآخر، وغاب شخص العلج، ولم يوجد حياً ولا ميتاً"[4]. وأشار ابن الأثير إلى أنه غرق في نهر وادي لكـــه[5]، بينما يذكر ابن عبد الحكم ما يفيد بأنه قُتل ومن معه في المعركة[6]. والأرجح أنه اختفـــى وتمكن من الفرار.

وقد ترتبت على هذه المعركة الفاصلة نتائج مهمة، أولاها أنها فتحت الطريق أمام طارق لمواصلة الفتح، وثانيها إقبال المسلمين على الأندلـــس إقبـــالاً منقطـــع النظـــير، فالمسلمون عندما تسامعوا بالفتح على طارق "أقبلوا نحوه من كل وجه، وخرقوا البحـــر على كل ما قدروا عليه من مركب وقشر، فلحقوا بطارق"[7]. وكان لهذه الجموع المتدفقة من المغرب إلى الأندلس أثرها في اندحار القوط الذين عندما رأوهم تركـــوا مزارعـــهم

---

[1] ابن عذاري، البيان المغرب: ٨/٢؛ النويري، نهاية الأرب: ٤٧/٢٤.

[2] المقري، نفح الطيب: ٢٥٩؛ مجهول، أخبار مجموعة: ١٨-١٩.

[3] المقري، نفح الطيب: ٢٥٩/١.

[4] المصدر نفسه: ٢٥٩/١؛ وانظر أيضاً: ابن عذاري، البيان المغرب: ٨/٢؛ مجهول، أخبار مجموعـة: ١٨؛ ابن القوطية، تاريخ افتتاح الأندلس: ٣٣.

[5] ابن الأثير، الكامل في التاريخ: ١٢٢/٤؛ النويري، نهاية الأرب: ٤٧/٢٤.

[6] ابن عبد الحكم، فتوح إفريقية والأندلس: ٧٥.

[7] المقري، نفح الطيب: ٢٥٩/١.

وقراهم ومدنهم، والتجأوا إلى الحصون والقلاع "وتهاربوا من السهل، ولحقوا بالجبال"[1]. أما النتيجة الثالثة، وهي أقل أهمية، فتتمثل في كثرة ما حاز عليه المسلمون من غنائم جمعها طارق وخمّسها. وقد اقتسم الفيء أهله "على تسعة آلاف من المسلمين سوى العبيد والأتباع"[2].

واستثمر طارق بن زياد انتصاره في معركة وادي لكه بسرعة، فقد قضت خطته الحربية بعدم إضاعة الوقت، وإنما اغتنم ما أصاب القوط من ذهول وتشتت، وبادر – بعد أن كتب إلى موسى بانتصاره "فكتب به موسى إلى الوليد"[3] – بادر إلى فتح المدن، فسار "حتى نزل بأهل مدينة شذونة، فامتنعوا عليه، فشدّ الحصر عليهم حتى نهكهم وأضرّهم، فتهيأ له فتحها عنوة، فحاز منها غنائم، ثم مضى منها إلى مورور، ثم عطف على قرمونة، فمر بعينه المنسوبة إليه، ثم مال إلى إشبيلية فصالحه أهلها على الجزية"[4]. ولم يشر أي من المصادر إلى أن طارقاً واجه صعوبات تذكر، أو مقاومة جادة أثناء فتحه لهذه المواقع والمدن باستثناء ما كان في شذونة، ومع ذلك لم تصمد أمامه طويلاً، وهو ما يدل على ما أصاب القوط من انكسار.

وتجمعت فلول القوط الهاربين من معركة وادي لكه في مدينة استجة، وكانت مدينة حصينة، ولما هاجمها طارق بن زياد لقيه أهلها "ومعهم فلٌ من المعسكر الأعظم"[5]، واشتبك الطرفان في قتال شديد كان صعباً على المسلمين، فقد كثر القتل والجراح فيهم، وكادت كفة القوط ترجح على كفتهم، غير "أن الله أنزل عليهم نصره وهزم المشركين، فلم يلقوا حرباً مثلها"[6]. ويوضح الرازي كيفية انتصار المسلمين على أهل إستجة، فيذكر أنهم "أقاموا على الامتناع إلى أن ظفر طارق بالعلج صاحبها، وكان

---

[1] المقري، نفح الطيب: ٢٥٩/١.

[2] المصدر نفسه: ٢٥٩/١.

[3] ابن الكردبوس، تاريخ الأندلس: ٤٨.

[4] المقري، نفح الطيب: ٢٦٠/١.

[5] مجهول،أخبار مجموعة:١٩؛وانظر: المقري، نفح الطيب:٢٦٠/١؛ ابن عذاري، البيان المغرب:٨/٢.

[6] مجهول، أخبار مجموعة: ١٩؛ ابن عذاري، البيان المغرب: ٨/٢؛ ابن الأثير، الكامل في التاريخ: ١٢٢/٤؛ النويري، نهاية الأرب: ٤٧/٢٤–٤٨.

مغتراً سيء التدبير، فخرج إلى النهر لبعض حاجاته وحده، فصادف طارقاً هناك قد أتى لمثل ذلك، وطارق لا يعرفه، فوثب عليه طارق في الماء، فأخذه وجاء به إلى العسكر، فلما كاشفه اعترف له بأنه أمير المدينة، فصالحه طارق على ما أحبّ، وضرب عليه الجزية، وخلّى سبيله، فوفى بما عاهد عليه"[١].

لقد أدرك أهل الأندلس عندما رأوا طارقاً يوغل في البلاد، ويفتح المدن، ويفرض شروطه على أهلها أنه لم يأت إلى بلادهم طمعاً في المغانم، وإنما جاء فاتحاً مستقراً، لا ينوي العودة. لقد أدركوا هذه الحقيقة "فسُقط في أيديهم، وتطايروا عن السهول إلى المعاقل، وصعد ذوو القوة منهم إلى دار مملكتهم طليطلة"[٢]، "وتركوا مدائن الأندلس وراءهم قليلة الأهل"[٣]، فقد قذف الله في قلوبهم الرعب، وأخذ شبح الهزيمتين الكبريين* يطاردهم، وراحوا يطلبون النجاة خلف الأسوار المنيعة لعاصمة ملكهم[٤].

وكان أمراً بديهياً أن يرمي طارق بكل ثقله في معركة على أبواب طليطلة لفتحها، وأن يزج جيشه كله في تلك المعركة، وربما كان يفكر في ذلك عندما قدم عليه يُليان من مستقره في الجزيرة الخضراء[٥]، ونصحه – وهو الخبير بشؤون القوط، الحريص على إذلالهم – بأن يستغل ضعف أعدائه، ويفتح بلادهم، ورغّبه في جعل الجيش فرقاً تصول كل فرقة في ناحية، بينما يذهب هو، أي طارق، إلى طليطلة حيث تجمع معظم القوط، ليشغله "عن النظر في أمرهم، والاجتماع إلى أولي رأيهم"[٦]. ولم يكتف يليان بتقديم المشورة، بل زود طارقاً بالأدلّاء المهرة[٧].

---

[١] المقري، نفح الطيب: ٢٦٠/١.

[٢] المصدر نفسه: ٢٦٠/١.

[٣] ابن عذاري، البيان المغرب: ٩/٢؛ وانظر: مجهول، أخبار مجموعة: ١٩.

* هزيمتهم في معركة وادي كله، وهزيمتهم في مدينة إستجة.

[٤] ابن الأثير، الكامل في التاريخ: ١٢٢/٤؛ النويري، نهاية الأرب: ٤٨/٢٤.

[٥] ابن عذاري، البيان المغرب: ٩/٢.

[٦] المقري، نفح الطيب: ٢٦٠/١؛ وانظر: ابن عذاري، البيان المغرب: ٩/١؛ مجهول، أخبار مجموعة: ١٩؛ النويري، نهاية الأرب: ٤٨/٢٤.

[٧] المقري، نفح الطيب: ٢٦٠/١؛ مجهول، أخبار مجموعة: ١٩؛ ابن عذاري، البيان المغرب: ٩/٢.

واستجابة لنصيحة يليان قسم طارق بن زياد جيشه إلى أربع فرق متفاوتة العدد حسب المهمات التي أنيطت بكل منها، وحدد لكل فرقة منطقة تتولى فتحها، أو على الأقل تجوس خلال ديارها، وتستعرض القوة فيها إرهاباً للقوط، وإعراباً عن الإصرار على فتح البلاد، ونشر الإسلام بين العباد. فقد وجه فرقة إلى قرطبة، وأخرى إلى مالقة، وثالثة إلى غرناطة. أما الفرقة الرابعة، وهي الكبرى، فقد كانت بقيادة طارق نفسه، وتوجه بها إلى جيان يريد طليطلة[١].

وكان الجيش الذي توجه إلى قرطبة بقيادة مغيث الرومي مولى الوليد بن عبد الملك بن مروان[٢]. وكانت قرطبة من أعظم مدائن الأندلس، وكان الجيش الذي سار إليها جيشاً من الفرسان بلغ سبعمائة، ليس بينهم راجل واحد "لأن المسلمين ركبوا جميعاً خيل العجم"[٣] بل فضلت عن حاجتهم لكثرة ما غنموا منها. وتتفق الروايات على كيفية فتح قرطبة، ولكنها تختلف قليلاً في تفاصيل ذلك، وخلاصتها أن مغيثاً الرومي سار ومعه الأدلاء حتى اقترب من قرطبة، حيث كمن في غيضة أرز شامخة، تقع بين قرية شقندة وقرية طرسيل على بعد ثلاثة أميال من قرطبة. وبعث من معه من أدلاّئه فاقتنصوا له راعي غنم، فأوردوه عليه وهو في الغيضة بغنمه، فسأله عن قرطبة، فقال له: رحل عنها عظماء أهلها إلى طليطلة، ولم يبق فيها سوى حاكمها مع أربعمائة فارس ظلوا لحمايتها مع الضعفاء من أهلها، ثم أخبره أن لقرطبة سوراً حصيناً، إلا أن فيه ثغرة فوق باب السور، المسمى: باب القنطرة. ووصف تلك الثغرة، وطريقة الوصول إليها[٤].

---

(١) المقري، نفح الطيب: ٢٦١/١؛ وانظر أيضاً: ابن الأثير، الكامل في التاريخ: ١٢٢/٤-١٢٣؛ النويري، نهاية الأرب: ٤٨/٢٤؛ مجهول، أخبار مجموعة: ١٩ وما بعدها. والجدير بالملاحظة أن هذه المصادر تختلف في تحديد وجهات هذه الفرق، إذ يضيف إليها ابن الأثير والنويري (تدمير)، ويذكران أن طارقاً وجه فرقة إليها، بينما يذكر ابن عذاري أن الفرقة التي توجهت إلى غرناطة مضت هي نفسها إلى تدمير (مرسية). انظر: البيان المغرب: ١١/٢.

(٢) المقري، نفح الطيب: ٢٦٠/١-٢٦١؛

(٣) المقري، المصدر نفسه: ٢٦١/١؛ ابن عذاري، البيان المغرب: ٩/٢-١٠.

(٤) ابن عذاري، البيان المغرب: ٩/٢-١٠؛ مجهول، أخبار مجموعة: ١٩-٢٠؛ المقري، نفح الطيب: ٢٦١/١.

"فلما أجنهم الليل أقبلوا نحو المدينة، ووطأ الله لهم أسباب الفتح بأن أرسل السماء برذاذ أخفى دقدقة حوافر الخيل، وأقبل المسلمون رويداً حتى عبروا نهر قرطبة المعروف بالوادي الكبير ليلاً، وقد أغفل حرس المدينة احتراس السور، فلم يظهروا عليه ضيقاً بالذي نالهم من المطر والبرد، فترجّل القوم حتى عبروا النهر، وليس بين النهر والسور إلا مقدار ثلاثين ذراعاً أو أقل، وراموا التعلّق بالسور فلم يجدوا متعلّقاً"[1].

ولم تكن منعة السور وارتفاعه ليؤديا إلى تراجع المسلمين، ذلك أنهم لم يأتوا إلا فاتحين، والفتح يعني الإصرار والعزم، وصدق النية في الجهاد، وكان ما يتوافر لدى المسلمين من هذه القيم أقوى من أسوار قرطبة، وكان قائدهم مغيث يتحلى بقدر كبير من الشجاعة والحنكة، لا يمكن معهما التراجع، فقد أمرهم بمن يأتيه بالراعي، فأراهم الثغرة، ولما عاينوها وجدوها صعبة المرتقى، ولكن لفتت انتباههم شجرة تين في أسفل الثغرة، فتسلّقها رجل من أشدّاء المسلمين، ولما تمكن من ارتقاء السور نزع مغيث عمامته، فناوله طرفها، وارتقوا بها يعين بعضهم بعضاً حتى كثروا على السور[2]. وركب مغيث، ووقف مستعداً خارج الأسوار قرب باب الصورة[3]، "وأمر أصحابه المرتقين للسور بالهجوم على الحرس، ففعلوا، وقتلوا نفراً منهم، وكسروا أقفال الباب، وفتحوه، فدخل مغيث ومن معه، وملكوا المدينة عنوة"[4].

وأحدثت عملية اقتحام السور جلبة كبيرة أيقظت حامية المدينة، غير أن المسلمين فاجأوا الحامية، ففرت مع الحاكم، والتجأوا إلى إحدى الكنائس، وتحصنوا فيها، فقد كانت "حصينة ذات بنيان وتقانة"[5]. وهذه الكنيسة التي يسميها صاحب أخبار مجموعة (شنت أجلخ)[6]، وتقع في غربي قرطبة[7]، هي كنيسة القديس (San Acisclo). وقد حاصرهم

---

[1] المقري، نفح الطيب: ٢٦١/١.

[2] ابن عذاري، البيان المغرب:١٠/٢؛ المقري، نفح الطيب:٢٦١/١؛ مجهول،أخبار مجموعة:٢٠-٢١.

[3] أحد أبواب قرطبة، وسمي بذلك لأن تمثال أسد كان يعلوه.

[4] المقري، نفح الطيب: ٢٦١/١.

[5] مجهول، أخبار مجموعة: ٢١.

[6] المصدر نفسه: ٢١.

[7] المقري، نفح الطيب: ٢٦١/١؛ ابن عذاري، البيان المغرب: ١٠/٢.

المسلمون فيها نحو ثلاثة أشهر، "وكان الماء يأتيها تحت الأرض من عين في سفح جبل"[١]. وقد فطن المسلمون إلى هذا الماء، فقطعوه عن الكنيسة، واستمروا في محاصرتها، وفي أثناء ذلك كتب مغيث إلى طارق بفتح قرطبة "وتمادى على حصار العلوج"[٢].

ولما أيقن المحصورون في الكنيسة بالهلاك دعاهم مغيث إلى الإسلام أو الجزية، فأبوا، وفي تلك الأثناء رغب الحاكم بنفسه عن بليتهم عندما أيقن بالموت، ففر هارباً وحده "وقد استغفلهم ورام اللحاق بطليطلة"[٣]. ولما علم به مغيث طارده، وكان "تحته فرس ذريع الخطو، وحرك مغيث خلفه، فالتفت... ودهش لما رأى مغيثاً قد رهقه، وزاد في حث فرسه فقصّر به، فسقط عن الفرس"[٤]. وعندئذ تمكن مغيث من أسره، وعاد به، فلما عرف المحصورون بأن حاكمهم أُسر انهارت معنوياتهم، واضطروا إلى الاستسلام، ويقال بأن مغيثاً ضرب أعناقهم جميعاً، ومن أجل ذلك عرفت الكنيسة بكنيسة الأسرى[٥].

وتجدر الإشارة هنا إلى أن مغيثاً جمع يهود قرطبة، وضمهم إلى مجموعة من جند المسلمين، وأوكل إليهم جميعاً حماية المدينة[٦]، ويدل ذلك على أمرين: أولهما أن اليهود – حفاظاً على مصلحتهم – وقفوا إلى جانب المسلمين منذ بداية فتح الأندلس، وأعانوهم عليه. والثاني أن اليهود كانوا يعانون معاناة شديدة في ظل حكم القوط النصارى، ولذلك أنسوا بالمسلمين وآزروهم، واستمروا على ذلك. فقد ذكر المقري نقلاً عن الرازي أن السنّة التي اتبعها المسلمون في كل مراحل الفتح هي أنهم كانوا كلما فتحوا بلداً ضموا "يهوده إلى القصبة مع قطعة من المسلمين لحفظها، ويمضي معظم الناس لغيرها، وإذا لم يجدوا يهوداً وفّروا عدد المسلمين المخلّفين لحفظ ما فتح"[٧].

---

(١) المقري، نفح الطيب: ٢٦٢/١.

(٢) ابن عذاري، البيان المغرب: ١٠/٢.

(٣) المقري، نفح الطيب: ٢٦٣/١.

(٤) المصدر نفسه: ٢٦٣/١.

(٥) المصدر نفسه: ٢٦٣/١؛ وانظر: ابن عذاري، البيان المغرب: ١٠/٢.

(٦) المقري، نفح الطيب: ٢٦٣/١.

(٧) المصدر نفسه: ٢٦٣/١.

وأما الفرقة التي وجهها طارق إلى مالقة، فقد نجح قائدها في مهمته نجاحاً كبيراً، إذ لم يتصدّ له القوط، وإنما فروا إلى رؤوس الجبال[1]. وبعد أن فرغت تلك الفرقة من فتح مالقة التحقت بالفرقة التي توجهت إلى إلبيرة، وكانت غرناطة هي القاعدة في تلك المنطقة. وقد تمكنت الفرقتان بعد حصارها من فتحها عنوة "وضموا اليهود إلى قصبة غرناطة"[2].

ثم مضت جيوش طارق إلى تُدمير *، "واسم قصبتها أوريولة، ولها شأن في المنعة، وكان ملكها علجاً داهية، وقاتلهم مضحياً، ثم استمرت عليه الهزيمة في فحصها، فبلغ السيف في أهلها مبلغاً عظيماً أفنى أكثرهم"[3]. ولجأ من بقي منهمَ إلى مدينة أوريولة، ولما وجد تدمير أن لا طاقة له بصد المسلمين استخدم خدعة حربية "وكان بصيراً بأبواب الحرب"[4]، فقد أمر النساء، "بنشر الشعور، وحمل القصب، والظهور على السور في زي القتال متشبهات بالرجال"[5]. أما هو، أي الحاكم فقد وقف أمامهن في بقية أصحابه، ولما نظر إليهم المسلمون ظنوا أن قوات كبيرة تدافع عن المدينة "فكره المسلمون مراسه لكثرة من عاينوه على السور، وعرضوا عليه الصلح"[6]، فوافق "وانعقد له الصلح ولأهل بلده"[7]. وكتبوا إلى طارق بالفتح، وخلّفوا بقصبة أوريولة رجالاً لحمايتها، بينما التحق معظم الجيش بطارق، الذي كان حينئذ على أبواب طليطلة[8].

---

[1] مجهول، أخبار مجموعة: ٢١؛ ابن عذاري، البيان المغرب: ٢/١١؛ وانظر أيضاً: المقري، نفح الطيب: ١/٢٦٣.

[2] المقري، نفح الطيب: ١/٢٦٣؛ وانظر: ابن عذاري، البيان المغرب: ٢/١١؛ مجهول، أخبار مجموعة: ٢١-٢٢، ويذكر أن المسلمين لم يجدوا يهوداً في مالقة، ولو وجدوا لضمّوهم إلى حاميتها.

* سميت تدمير باسم حاكمها القوطي: تدمير. وكانت عاصمتها مدينة أوريولة، ثم أصبح اسم تدمير: مُرسية. انظر: ابن عذاري، البيان المغرب: ٢/١١.

[3] المقري، نفح الطيب: ١/٢٦٤.

[4] ابن عذاري، البيان المغرب: ٢/١١.

[5] المقري، نفح الطيب: ١/٢٦٤.

[6] المقري، المصدر نفسه: ١/٢٦٤.

[7] ابن عذاري، البيان المغرب: ٢/١١.

[8] المصدر نفسه: ٢/١١؛ وانظر: المقري، نفح الطيب: ١/٢٦٤.

كان طارق بن زياد، وهو في طريقه إلى طليطلة، يعتقد أنه سيجابه بمقاومة عنيفة، فهي عاصمة الدولة، ودار الملك، ولكنه وجدها خالية قد فر أهلها عنها[١]، فدخلها طارق، وتفقد أحوالها، وترك بها حامية من أصحابه الذين ضم إليهم اليهود لمعاونتهم[٢]، ثم "مضى خلف من فر من أهل طليطلة، فسلك إلى وادي الحجارة، ثم استقبل الجبل فقطعه من فج سمي به بعد، فبلغ مدينة المائدة خلف الجبل"[٣].

وهذه المدينة التي تكاد المصادر تجمع على أن اسمها (مدينة المائدة)، لم تكن – على الأغلب – سوى قلعة هنارس، التي يسميها ابن عبد الحكم (قلعة فراس)، وتقع على مسيرة يومين من طليطلة[٤] إلى الشمال من مدريد على بعد ثلاثين كيلومتراً. وتسمى إلى اليوم قلعة هنارس (Alcala de Henares). وكانت على عهد المسلمين تدعى "قلعة عبد السلام"[٥].

أما المائدة التي أسهبت المصادر في وصفها، وذكرت أنها مائدة سليمان بن داوود عليه السلام[٦]، فليست سوى مذبح محلىّ بالجواهر، كان موجوداً في كنيسة طليطلة الكبرى. ولما علم أهل المدينة بمسير المسلمين إليهم وفروا، وفر قساوستهم، حملوا هذا المذبح معهم خشية أن يقع في أيدي المسلمين، فهو نفيس ومقدس أيضاً. ويبدو أن طارقاً كان يدرك قيمة هذا المذبح أو المائدة، ولذلك فإنه عندما هاجم قلعة هنارس (مدينة المائدة) "وعلى القلعة ابن أخت لذريق، فبعث إليه طارق بأمانه وأمان أهل بيته،

---

[١] المقري، نفح الطيب: ٢٦٤/١؛ ابن عذاري، البيان المغرب: ١٢/٢؛ النويري، نهاية الأرب: ٤٨/٢٤.

[٢] المقري، نفح الطيب: ٢٦٤/١؛ ابن عذاري، البيان المغرب: ١٢/٢.

[٣] المقري، نفح الطيب: ٢٦٤/١-٢٦٥؛ وانظر: مجهول، أخبار مجموعة: ٢٣.

[٤] ابن عبد الحكم، فتوح إفريقية والأندلس: ٧٥-٧٦.

[٥] مكي، محمود علي، مدخل لدراسة الأعلام الجغرافية ذات الأصول العربية في إسبانيا، مدريد، ١٩٩٦م، ص٢٢.

[٦] ابن الكردبوس، تاريخ الأندلس: ٤٨؛ ابن عبد الحكم، فتوح إفريقية والأندلس: ٧٥؛ ابن حبيب، كتاب التأريخ: ١٤١؛ المقري، نفح الطيب: ٢٦٥/١؛ ابن عذاري، البيان المغرب: ١٢/٢؛ النويري، نهاية الأرب: ٤٨/٢٤.

فأمنه ووفى له، فقال له طارق: ادفع إليّ المائدة، فدفعها إليه..."[1]. وتشير المصادر إلى أن هذه المائدة الثمينة كان لها عدد كبير من الأرجل بلغ ثلاثمائة وخمساً وسبعين رجلاً حسب رواية صاحب أخبار مجموعة[2]، وثلاثمائة وخمساً وستين رجلاً حسب رواية المقري[3]، وثلاثمائة وستين رجلاً حسب رواية ابن الأثير[4]. وقد انتزع طارق إحدى أرجلها، وأخفاها لغاية في نفسه. وقد أظهرها فيما بعد للخليفة الأموي سليمان بن عبد الملك عندما ادعى موسى بن نصير أنه هو الذي ظفر بها.

عاد طارق إلى طليطلة سنة ٩٣هـ/ أواخر ٧١١م[5] بعد أن أمّن ما وراءها من جهات، وجمع ما وجده في طليطلة من ذخائر وأموال لا تحصى[6]. وقد كتب إلى موسى ابن نصير يعلمه بالفتح "فكتب موسى إلى الوليد بن عبد الملك يعلمه بذلك، وكتب موسى إلى طارق ألا يجاوز قرطبة"[7]، مع أنه – كما رأينا – تجاوزها فعلاً.

لقد انتهت بفتح طليطلة – عاصمة القوط – وما جاورها المرحلة الأولى من حملة طارق بن زياد بفتح الأندلس. وعندما أدرك أبناء غيطشة أن البلاد فتحت أبوابها للمسلمين، وأن عهد القوط فيها ولّى، بادروا إلى المطالبة بضياع أبيهم التي اغتصبها لذريق، فقدموا على طارق، وقالوا له: "لأنت أمير نفسك أم فوقك أمير؟ فقال: بل على

---

[1] ابن عبد الحكم، فتوح إفريقية والأندلس: ٧٦. وقد وصف المقري وابن عذاري المائدة بأنها ((كانت من زبرجدة خضراء، حافاتها وأرجلها منها)) انظر: نفح الطيب: ٢٦٥/١؛ البيان المغرب: ١٢/٢. وقال ابن حبيب ((مكللة بالجوهر، منسوجة بالذهب، منظومة بالدر والياقوت، لا يدري أحد ما ثمنها)). انظر: كتاب التأريخ: ١٤١. وقال في وصفها أيضاً: ((كانت من ذهب وفضة خليطين، تتلوّن في صفرة الذهب وبياض الفضة، وكان عليها طوق لؤلؤ، وطوق يواقيت، وطوق زمرد)). ويبدو أنها كانت ثقيلة جداً، فقد حملوها على بغل قوي ((فما سار البغل بها مرحلة حتى تفسخت قوائمه)). انظر: ابن حبيب، كتاب التأريخ: ١٤١.

[2] مجهول، أخبار مجموعة: ٢٣.

[3] المقري، نفح الطيب: ٢٦٥/١.

[4] ابن الأثير، الكامل في التاريخ: ١٢٣/٤.

[5] المقري، نفح الطيب: ٢٦٥/١؛ مجهول، أخبار مجموعة: ٢٤.

[6] ابن عبد الحكم، فتوح إفريقية والأندلس: ٧٦؛ ابن الكردبوس، تاريخ الأندلس: ٤٨.

[7] ابن عبد الحكم، فتوح إفريقية والأندلس: ٧٦.

رأسي أمير، وفوق ذلك الأمير أمير عظيم"[١]. وعندئذ سألوه أن يزودهم بكتاب إلى موسى، يوضح فيه ما أعطاهم من عهده، وساروا إلى موسى في المغرب، وعرّفوه بشأنهم، وبما تعهد به طارق لهم "فأنفذهم إلى أمير المؤمنين الوليد بالشام بدمشق، وكتب إليه بما عرفه من طارق من جميل أثرهم، فلما وصلوا إلى الوليد أكرمهم، وأنفذ لهم عهد طارق في ضياع والدهم، وعقد لكل واحد منهم سجلاً"[٢]. ثم عاد أبناء غيطشة إلى الأندلس، وحازوا ضياع والدهم أجمع، واقتسموها فيما بينهم[٣].

حملة موسى بن نصير:

كانت حملة طارق بن زياد ناجحة، فقد تمكن خلال فترة قصيرة من فتح عدة مدن، منها قرطبة، وهي إحدى العواصم الإقليمية، وطليطلة، عاصمة دولة القوط. وكان من الصعب على طارق بما يتوافر له من جيش محدود العدد، ربما فقد كثيرين من أفراده شهداء خلال عمليات الفتح، أن يسيطر على تلك المدن، وعلى المناطق الشاسعة حولها. هذا فضلاً عن أن عمليات الفتح لا بد أن تستمر مع ما يقتضيه ذلك من عدة وعدد كبيرين. وكان موسى بن نصير مطلعاً على تحركات طارق، وفتوحاته. فقد كان طارق يخبر موسى بكل جديد كما لاحظنا. وليس مستبعداً أن يكون طارق قد طلب من موسى مدداً لاستكمال الفتح، فآثر موسى أن يقود حملة جديدة بنفسه، وغضب على طارق لأنه تجاوز حدوداً عيّنها له، خشية على المسلمين من التوغل في بلاد يجهلونها.

لقد أشار كثير من المصادر إلى أن موسي غضب على طارق، وأن غضبه عليه امتزج بالحسد، وذلك لأنه لما بلغه ما أفاء الله عليه من فتوح وغنائم "خاف إن بلغ الوليد

---

[١] المقري، نفح الطيب: ٢٦٥/١؛ ابن القوطية، تاريخ افتتاح الأندلس: ٣٠.

[٢] المقري، نفح الطيب: ٢٦٦/١؛ وانظر: ابن القوطية، تاريخ افتتاح الأندلس: ٣٠.

[٣] المقري، نفح الطيب: ٢٦٦/١. وتذكر المصادر أن ابن غيطشة: ألمند خلف ابنة هي سارة القوطية، وأن عمها أرطباس اعتدى على أملاك أبيها بعد وفاته، فقصدت الخليفة الأموي هشام بن عبد الملك في دمشق، وشكت إليه ظلامتها فأنصفها، وأنه زوّجها من عيسى بن مُزاحم ((فابتنى بها بالشام، ثم قدم بها إلى الأندلس..)). انظر: نفح الطيب: ٢٦٦/١-٢٦٧؛ ابن القوطية، تاريخ افتتاح الأندلس: ٣٠-٣٢.

فعله وفتحه أن يسمو عنده، ويرأس عليه"[1]. وربما كان موسى قد حسد طارقاً فعلاً، ولذلك دخل الأندلس على رأس جيش كبير، وسلك طريقاً غير طريق طارق، ليحظى هو الآخر بنصيب وافر من الفتح، وهو ما سنأتي على تفاصيله. وأما ما كان من غضب موسى على طارق فربما كانت الوشاية والدسّ من أهم أسبابه، فقد أشار ابن عذاري إلى أن موسى "أُغري بطارق عنده"[2]. كما أورد عدة روايات لتوضيح السبب في جواز موسى بن نصير إلى الأندلس، منها: تعدي طارق ما أمره أن لا يتعداه، وهو "قرطبة، على قول، أو موضع هزيمة لذريق، على قول"[3]. ومنها أن طارقاً استدعاه، فلبّى[4]. وهذا السبب الأخير هو ما نرجحه، وما نرجح معه أيضاً أن حسد موسى لطارق هو الذي جعل موسى يجيش الجيوش، ويتهيأ للمسير إلى الأندلس فور استدعاء طارق إياه، ليكون له نصيب في الفتح، حرص منذ البداية على أن يكون أعظم مما فتحه طارق.

دخل موسى الأندلس في شهر رمضان سنة ٩٣هـ/٧١٢م، أي بعد دخول طارق بسنة[5]. بعد أن "استخلف على القيروان ابنه عبد الله بن موسى، وكان أسنّ ولده"[6]. وكان جيش موسى أكبر من جيش طارق، إلا أن المصادر اختلفت في عدده، فذكر بعضها أنه عشرة آلاف[7]. وذكر بعضها الآخر أنه ثمانية عشر ألفاً[8]، بينما عبرت مصادر أخرى عن كثرة هذا الجيش بأنه كان حشداً كبيراً[9]، أو عسكراً ضخماً[10]. وكان هذا الجيش "من وجوه العرب والموالي وعرفاء البربر، وكان فيه عدد من كبار التابعين

---

[1] ابن الكردبوس، تاريخ الأندلس: ٤٩؛ وانظر أيضاً: المقري، نفح الطيب: ٢٦٩/١؛ ابن القوطية، تاريخ افتتاح الأندلس: ٣٥؛ ابن الأثير، الكامل في التاريخ: ١٢٣/٤؛ النويري، نهاية الأرب: ٤٩/٢٤.

[2] ابن عذاري، البيان المغرب: ١٣/٢.

[3] ابن عذاري، البيان المغرب: ١٣/٢؛ ابن خلدون، تاريخ ابن خلدون: ١٥٠/٤ حيث يذكر أن موسى ((كتب إلى طارق يتوعده بأنه يتوغل بغير إذنه، ويأمره أن لا يتجاوز مكانه حتى يحق به)).

[4] ابن عذاري، البيان المغرب: ١٣/٢.

[5] المصدر السابق: ١٢/٢؛ المقري، نفح الطيب: ٢٦٩/١؛ ابن حبيب، كتاب التأريخ: ١٤٦؛ ابن القوطية، تاريخ افتتاح الأندلس: ٣٥؛ مجهول، أخبار مجموعة: ٢٤؛ النويري، نهاية الأرب: ٤٩/٢٤.

[6] ابن عبد الحكم، فتوح إفريقية والأندلس: ٧٦؛ ابن خلدون، تاريخ ابن خلدون: ١٥٠/٤.

[7] ابن الكردبوس، تاريخ الأندلس: ٤٩؛ ابن عذاري، البيان المغرب: ١٣/٢.

[8] المقري، نفح الطيب: ٢٦٩/١؛ مجهول، أخبار مجموعة: ٢٥.

[9] ابن القوطية، تاريخ افتتاح الأندلس: ٣٥.

[10] ابن خلدون، تاريخ ابن خلدون: ١٥٠/٤.

رضي الله عنهم، مثل حنش بن عبد الله الصنعاني، وأبي عبد الرحمن بن عبد الله بن يزيد ابن أبي بجلة، وغيرهم[١]. ووجود الوجوه والعرفاء والتابعين في جيش موسى يدل على أنه جيش تم اختياره بعناية، وعلى أن موسى كان يدرك عِظَم المسؤولية الخطيرة التي أراد لهذا الجيش أن ينهض بها.

كانت الجزيرة الخضراء هي المحطة الأولى لموسى بن نصير في الأندلس، فقد حل بها حيث استقبل يليان وبعض صحبه، وتجمعت من حوله رايات العرب، وقادة الفرق العسكرية، وعقد معهم مجلساً حربياً لوضع خطته العسكرية، ولو كان الغضب على طارق هو الذي دفعه للعبور إلى الأندلس لسار إليه فوراً دون إبطاء أو تلكؤ[٢]، ولما أضاع وقته في التخطيط، فهدفه كان أسمى من ذلك، وتحقيق الهدف لا بد أن يسبقه استعداد مناسب، وتهيئة تمكّن من بلوغه. والاستعداد المدروس يتطلب وقتاً للتفكير والتشاور، وهذا ما فعله موسى الذي تذكر بعض المصادر أنه عزم على فتح القسطنطينية، واختراق آسيا الصغرى حتى يصل إلى دمشق قادماً من الغرب[٣].

وأجمع رأي المجلس الحربي الذي عقده موسى على أن يتوجه إلى مناطق جديدة، غير تلك التي سار إليها طارق، وكان من أكثر المتشاورين تأكيداً على هذا الرأي يليان، وأصحابه الذين كلفهم مرافقة موسى ليكونوا أدلاّء له[٤].

---

[١] انظر: ابن خلدون، تاريخ: ٤/١٥٠؛ ابن الكردبوس، تاريخ الأندلس: ٤٩؛ ابن حبيب، كتاب التأريخ: ١٣٨-١٣٩؛ ابن عبد الحكم، فتوح إفريقية والأندلس: ٧٦.

[٢] يذكر ابن خلدون أن موسى ((وافى خليج الزقاق ما بين طنجة والجزيرة الخضراء، فأجاز إلى الأندلس. وتلقاه طارق، وانقاد واتبع)). انظر: تاريخ: ١٥٠؛ ويروي ابن عبد الحكم أن موسى بعد أن وصل إلى الأندلس ((خرج مغيظاً على طارق...فأجاز من الجزيرة الخضراء ثم مضى إلى قرطبة، فتلقاه طارق فترضّاه))، انظر: فتوح إفريقية والأندلس: ٧٦. وتوحي هذه الروايات بأن موسى كان عندما دخل الأندلس مدفوعاً بالغضب على طارق، فعجّل بالوصول إليه، وأخذه ((فشدّه وثاقاً وحبسه وهمّ بقتله)) وكاد يفعل لولا تدخل مغيث الرومي كما يروي ابن عبد الحكم في الصفحات التالية من كتابه، انظر: ٨٠-٨١. ولكن الواقع خلاف ذلك، وهو ما أثبتناه في المتن.

[٣] ابن خلدون، تاريخ: ٤/١٥٠-١٥١.

[٤] مجهول، أخبار مجموعة: ٢٤؛ ابن عذاري، البيان المغرب: ٢/١٣؛ المقري، نفح الطيب: ١/٢٦٩؛ النويري، نهاية الأرب: ٢٤/٤٩.

أمر موسى بن نصير قبل أن يبرح مكانه ببناء مسجد في ذلك المكان سمي مسجد الرايات ليظل شاهداً على إجماع رايات العرب وقادة الجيش على فتح ما تبقى من الأندلس بقيادته، وبعد تخطيط المكان، واتخاذه مسجداً بدأ الزحف، وتوجه إلى شذونة Medina Sidonia.. فافتتحها عنوة، وهي أول فتوحاته[١]. ثم سار إلى مدينة قرمونة، "وليس بالأندلس أحصن منها، ولا أبعد على من يرومها بحصار أو قتال"[٢]. ومع ذلك أصرّ موسى على فتحها حتى لا تظل شوكة في ظهره، واستشار في أمر فتحها، "فقيل له: لا تؤخذ إلا باللطف والحيل"[٣]. وهذا الرأي الذي أبداه الأدلاّء من أصحاب يليان، عززوه بموقف فعلي مكّن موسى من فتحها، فقد اتفقوا معه على أن يمثلوا دور الهاربين من أمام المسلمين، وفعلوا، حيث دخلوا مدينة قرمونة "فكأنهم فلاّل"[٤]، أو "على حال المنهزمين" حسب تعبير النويري[٥]. ولما رآهم أهل قرمونة أدخلوهم مدينتهم. وقد دخلوها بأسلحتهم[٦]. ولما جُنّ الليل، أرسل موسى ثلّة من فرسانه نحو باب المدينة المعروف بباب قرطبة، وفقاً للاتفاق المسبق، وكان أولئك المنهزمون يتربصون قرب الباب، وعندما أحسوا بوصول الفرسان، وثبوا على حراس الباب وأوقعوا بهم، وفتحوه، فدخل الفرسان، ومن بعدهم موسى ومن معه من المسلمين، وملكوا المدينة[٧].

كان لفتح قرمونة أهمية استراتيجية كبرى، فقد تمكن موسى بن نصير بهذا الفتح من تأمين خطوط مواصلاته من الجزيرة الخضراء إلى قرطبة، فقد أصبحت الجزيرة الخضراء، وشذونة، وقلعة رعواق، وقرمونة، واستجة، وقرطبة في أيدي المسلمين،

---

(١) ابن عذاري، البيان المغرب: ١٣/٢؛ مجهول، أخبار مجموعة: ٤٤ المقري، نفح الطيب: ٢٦٩/١.

(٢) المقري، نفح الطيب: ٢٦٩/١؛ وانظر: مجهول، أخبار مجموعة: ٢٤؛ ابن عذاري، البيان المغرب: ١٣/٢؛ النويري، نهاية الأرب: ٤٩/٢٤.

(٣) ابن عذاري، البيان المغرب: ١٣/٢.

(٤) المقري، نفح الطيب: ٢٦٩/١.

(٥) النويري، نهاية الأرب: ٤٩/٢٤؛ وانظر: ابن عذاري، البيان المغرب: ١٤/٢.

(٦) مجهول، أخبار مجموعة: ٢٤؛ ابن عذاري، البيان المغرب: ١٤/٢.

(٧) مجهول، أخبار مجموعة: ٢٤؛ ابن عذاري، البيان المغرب: ١٤/٢؛ المقري، نفح الطيب: ٢٦٩/١؛ ابن الأثير، الكامل في التاريخ: ١٢٣/٤؛ النويري، نهاية الأرب: ٥٠/٢٤.

وأصبحت مدينة إشبيلية "أعظم مدائن الأندلس شأناً، وأعجبها بنياناً، وأكثرها آثـــاراً"[١] مقطوعة عن مراكزها الدفاعية الأمامية، بعد أن استولى موسى على تلك المراكز.

كانت إشبيلية دار ملك البيزنطيين "قبل غلبة القوطيين على الأندلس، فلما غلـــب القوطيون عليها، استوطنوا طليطلة، وأقروا بها ملكهم.."[٢]. ولم يكن فتحها سهلاً علـــى موسى، فقد حاصرها أشهراً، وظل يشدد الحصار حتى أضعف مقاومتها، ثم ما لبثت تلـك المقاومة أن انهارت، فدخل موسى المدينة فاتحاً، بعد أن هربت حاميتها إلـــى باجـــة[٣]. وعندما دخل موسى المدينة ضم اليهود إلى قصبتها[٤]، على نحو ما فعل مغيـــث بيـــهود قرطبة. وربما كان يهود إشبيلية عاملاً مساعداً في فتح المدينة، فـــهم – كمـــا ذكرنـــا – كانوا حانقين على القوط، وقد وجدوا في المسلمين مخلّصاً لهم من حكم القوط النصارى.

ومضى موسى – بعد فتح إشبيلية – إلى مدينة ماردة (Merdia)، وقبل أن يصلـــها استولى على بلدة لَقُنت*، ثم مضى "إلى الموضع المعروف بفج موسى، في أول لقنت إلى ماردة"[٥]. وكانت ماردة أيضاً دار بعض ملوك الأندلس في سالف الأيام، "وكانت فيـــها آثار عجيبة، وقنطرة، وقصور، وكنائس، تفوق وصف الناظرين"[٦]، وكانت أيضـــاً ذات عز ومنعة، وفيها كثير من المصانع[٧]. وقد خرج أهلها عندما علموا بمسير موسى إليـــهم لمقاتلة المسلمين خارج المدينة، ودارت معركة على بعد نحو ميل منها[٨] اشـــتد خلالـــها

---

[١] المقري، نفح الطيب: ٢٦٩/١.

[٢] ابن عذاري، البيان المغرب: ١٤/٢؛ وانظر: المقري، نفح الطيب: ٢٦٩/١.

[٣] مجهول، أخبار مجموعة: ٢٥؛ ابن عذاري، البيان المغرب: ١٤/٢؛ المقري، نفح الطيب: ٢٦٩/١.

[٤] مجهول، أخبار مجموعة: ٢٥؛ ابن الأثير، الكامل في التـــاريخ: ١٢٣/٤؛ المقـــري، نفـــح الطيـــب: ٢٦٩/١؛ النويري، نهاية الأرب: ٥٠/٢٤.

* وهذه البلدة هي غير مدينة لقنت الواقعة في حوض البحر المتوسط على الشاطئ الشـــرقي مـــن شـــبه جزيرة الأندلس. ولقنت هذه التي استولى عليها موسى تقابل Fuente de Cantos.

[٥] ابن القوطية، تاريخ افتتاح الأندلس: ٣٥؛ وانظر: المقري، نفح الطيب: ٢٦٩/١–٢٧٠.

[٦] ابن عذاري، البيان المغرب: ١٤/٢.

[٧] المقري، نفح الطيب: ٢٧٠/١.

[٨] ابن عذاري، البيان المغرب: ١٤/٢؛ ابن الأثير، الكامل في التاريخ: ١٢٣/٤.

القتال "وكان في أهلها منعة شديدة، وبأس عظيم"[1]. غير أن موسى تمكن من دحرهم، فقد "زحمهم دفعة واحدة"[2]، فقتل منهم من قتل، وألجأ الباقين إلى داخل المدينة، وكانت حصينة، فامتنعوا بها.

وأخذ موسى يعمل فكره لعلّه يجد طريقة لفتح ماردة، وقام بجولة استطلاعية حول أسوار المدينة فوجد حفراً كانت مقاطع للصخر، وكانت من العمق بحيث تخفي الرجال والخيل. وعندما جُنّ الليل أكمن فيها مجموعة من جنده من الفرسان والمشاة، وفي الصباح خرج القوط من المدينة لمعاودة الهجوم على المسلمين، فخرج الكامنون من مكامنهم، وانقضوا عليهم، وقتلوا أعداداً كبيرة منهم، فتدافع الناجون منهم عائدين إلى المدينة، وتحصنوا بها[3].

تقدم موسى إلى مدينة ماردة، وضرب عليها الحصار، وكان لها من الأسوار ما لم يبن الناس مثله "فثبت عليهم يقاتلهم أشهراً"[4]، وفي أثناء ذلك قام بصنع دبابة ليتمكن بها من اقتحام الأسوار، وقد "دبّ المسلمون تحتها إلى برج من أبراج سورها"[5]. واستخدموا ما لديهم من معاول لنقب السور، وتمكنوا من قلع حجارته، إلا أنهم وصلوا إلى صخرة صمّاء نبت عنها معاولهم، فقد كانت من نوع الملاط شديد الصلابة يسمى Argamasa، أو (ألالاشه ماشه Alaxa Maxa) كما تسميها المصادر الإسلامية[6]. وبينما كان المسلمون يحاولون اقتلاع تلك الصخرة تنبه القوط، وانقضوا عليهم بشكل مفاجئ "فاستشهد بأيديهم قوم من المسلمين تحت تلك الدبابة، فسمي ذلك الموضع برج الشهداء"[7].

---

(1) المقري، نفح الطيب: ٢٧٠/١.

(2) مجهول، أخبار مجموعة: ٢٥.

(3) المصدر نفسه: ٢٥؛ ابن عذاري، البيان المغرب: ١٤/٢؛ ابن الأثير، الكامل في التاريخ: ١٢٣/٤.

(4) مجهول ، أخبار مجموعة: ٢٥؛ النويري، نهاية الأرب: ٥٠/٢٤.

(5) المقري، نفح الطيب: ٢٧٠/١؛ ابن عذاري، البيان المغرب: ١٤/٢.

(6) المقري، نفح الطيب: ٢٧٠/١؛ مجهول، أخبار مجموعة: ٢٥.

(7) المقري، نفح الطيب: ٢٧٠/١؛ ابن عذاري، البيان المغرب: ١٤/٢-١٥؛ ابن الأثير، الكامل في التاريخ: ١٢٣/٤؛ مجهول، أخبار مجموعة: ٢٥.

ولم تثن هذه الوقعة التي حلت بالمسلمين عزم موسى عن مواصلة حصار المدينة حتى تفتح أبوابها للمسلمين، ومع هذا العزم لجأ أيضاً إلى الحيلة، فقد وجه إليهم الرسل يعرض الصلح، فأوفدوا من يفاوضه "واحتال في توهيمهم في نفسه، فدخلوا عليه أول يوم، فإذا هو أبيض الرأس واللحية.. فلم يتفق لهم معه أمر... وعاودوه قبل الفطر بيوم، فإذا به قد قنأ لحيته بالحناء، فجاءت كضرام عرفج، فعجبوا من ذلك، وعاودوه يوم الفطر، فإذا هو قد سوّد لحيته، فازداد تعجبهم منه، وكانوا لا يعرفون الخضاب ولا استعماله، فقالوا لقومهم: إنا نقاتل أنبياء يتخلّقون كيف شاءوا... والرأي أن نقاربه ونعطيه ما يسأله، فمالنا به طاقة، فأذعنوا عند ذلك"[1]. ثم ما لبثوا أن فتحوا له المدينة فدخلها يوم عيد الفطر سنة ٩٤هـ/٣٠ حزيران ٧١٣م[2]. "وأكملوا صلحهم مع موسى على أنّ أموال القتلى (النصارى) يوم الكمين، وأموال الهاربين إلى جليقية، وأموال الكنائس وحليها للمسلمين"[3].

تنفس موسى بن نصير الصعداء وهو يدخل ماردة صلحاً، بعد أن فقد عدداً من جنوده في معركة برج الشهداء، ولكنه لم يكد يدخلها حتى جاءه المسلمون الذين تركهم في إشبيلية بعد فتحها فارّين من وجه القوط الذين تكالبوا عليهم، فقد استغل من بقي فيها من القوط انشغال موسى بحصار ماردة، وثاروا على المسلمين هناك[4]، ولم يتمكن المسلمون في إشبيلية من السيطرة على الوضع، إذ كانوا قلة بالمقارنة مع القوط الذين اجتمعوا من مدينتي باجة ولبلة، وتكاتفوا مع قوط إشبيلية ضد المسلمين، وأوقعوا بهم، "وقتلوا منهم نحو ثمانين رجلاً"[5]، فاضطر الباقون إلى الهرب ولجأوا إلى ماردة.

---

[1] المقري، نفح الطيب: ٢٧٠/١؛ وانظر: ابن عذاري، البيان المغرب: ١٥/٢.

[2] ابن عذاري، البيان المغرب: ١٥/٢؛ مجهول، أخبار مجموعة: ٢٥؛ ابن الأثير، الكامل في التاريخ: ١٢٣/٤؛ النويري، نهاية الأرب: ٥٠/٢٤؛ المقري، نفح الطيب: ٢٧٠/١-٢٧١.

[3] المقري، نفح الطيب: ٢٧٠/١؛ وانظر: النويري، نهاية الأرب: ٥٠/٢٤.

[4] المقري، نفح الطيب: ٢٧١/١؛ ابن عذاري، البيان المغرب: ١٥/٢؛ مجهول، أخبار مجموعة: ٢٦.

[5] المقري، نفح الطيب: ٢٧١/١؛ ابن عذاري، البيان المغرب: ١٥/٢؛ وانظر: ابن الأثير، الكامل في التاريخ: ١٢٣/٤.

وكان رد فعل موسى عنيفاً تجاه ما وقع للمسلمين في إشبيلية، فقد أرسل ابنه عبد العزيز على رأس جيش أعاد فتح إشبيلية، وقتل أهلها بعد أن ملكها عنوة[٦]، وسار بعد ذلك إلى باجة ففتحها[١]، ثم "نهض إلى لبلة ففتحها، واستقامت الأمور فيما هنالك، وعلا الإسلام"[٢]. ثم عاد عبد العزيز إلى إشبيلية وأقام بها زمناً لإخماد أي تمرد جديد قد يقوم به القوط[٣].

وأقام موسى بن نصير في ماردة نحو شهر، إذ كان جيشه بحاجة إلى الراحة، وكان هو بحاجة إلى بعض الوقت لترتيب الأمور في ماردة، وللتفكير فيما يجب عليه عمله كخطوة تالية في ضوء المقاومة التي واجهها المسلمون من قبل القوط في هذه النواحي، وربما كان لتمرد إشبيلية الذي تم إخماده الأثر الكبير على موسى، الذي جعله يدرك أنه يواجه عدواً شرساً يتربص به في كل مكان، وأن كل خطوة يخطوها يجب أن تكون محسوبة بدقة حتى لا يأخذه القوط على حين غرة.

لقد توجه موسى من ماردة في عقب شوال من سنة ٩٤هـ/٧١٣م متوجهاً نحو طليطلة[٤] حيث يوجد طارق بن زياد، وكانت طريقه محفوفة بالمخاطر، ففلول القوط من الأماكن التي سيطر عليها المسلمون، والمدن التي فتحوها أخذوا يتجمعون في الهضاب والمناطق الوعرة إلى الشمال من وادي آنه، ويتحصنون في شعاب الجبال. وكانوا بقيادة لذريق[٥]، ملك القوط، الذي هزمه طارق بن زياد في معركة وادي لكة،

---

[٦] ابن الأثير، الكامل في التاريخ: ١٢٣/٤؛ وانظر: المقري، نفح الطيب: ٢٧١/١؛ ابن عذاري، البيان المغرب: ١٥/٢.

[١] ابن الأثير، الكامل في التاريخ: ١٢٣/٤؛ النويري، نهاية الأرب: ٥١/٢٤.

[٢] المقري، نفح الطيب: ٢٧١/١؛ وانظر: ابن عذاري، البيان المغرب: ١٥/٢؛ ابن الأثير، الكامل في التاريخ: ١٢٣/٤.

[٣] المقري، نفح الطيب: ٢٧١/١؛ ابن الأثير، الكامل في التاريخ: ١٢٣/٤؛ النويري، نهاية الأرب: ٥١/٢٤.

[٤] المقري، نفح الطيب: ٢٧١/١؛ مجهول، أخبار مجموعة: ٢٦؛ ابن الأثير، الكامل في التاريخ: ١٢٣/٤، ويذكر أنه سار إلى طليطلة في شوال وليس بعده.

[٥] مؤنس، فجر الأندلس: ٩٧؛ سالم، تاريخ المسلمين وآثارهم في الأندلس: ٩٧.

حيث أشارت بعض المصادر إلى أنه لم يقتل في تلك المعركة، وإنما هرب منها، وتمكن من تجميع فلول القوط تحت قيادته[١]، وأخذ يتربص بالمسلمين. ولم يكن موسى الذي يبدو أنه علم بخبر لذريق، وخبر حشوده بالقائد الذي يعرض جيشه للمهالك، أو يخاطر بهذا الجيش دونما قوة تسنده وتحمي ظهره، ولذلك أرسل إلى طارق بن زياد يستدعيه، وأمره أن يقابله بقواته في منتصف الطريق بين ماردة وطليطلة[٢].

ولبى طارق بن زياد أوامر قائده موسى بن نصير، حيث تحرك بجيشه إلى موضع قريب من طلبيرة[٣]، وهو يقع على بعد مائة وخمسين كيلومتراً من طليطلة. وكان موسى قد توقف في مكان أشبه بالوادي، نظم جيشه فيه واستعرضه، ثم استأنف المسير حيث التقى القائدان قرب نهير يدعى تايتر[٤] (Teitar).

وقد تعرضت المصادر للقاء موسى وطارق، ولكنها اختلفت في وصف ذلك اللقاء، فجعله بعضها عادياً اقتصر على القول بأن طارقاً استقبل موسى في وجوه الناس[٥]، أو أنه نزل إلى موسى، "فوضع موسى السوط على رأسه وأنّبه فيما كان من خلاف رأيه"[٦]، أو أنه "ضربه بالسوط على رأسه، ووبخه على ما كان من خلافه"[٧]، أو أنه لم يضربه، ولم يؤنبه، وإنما عاتبه عتاباً رقيقاً[٨]. وجعل بعضها هذا اللقاء مثيراً وعنيفاً، حيث بادر موسى إلى طارق "فشدّه وثاقاً، وحبسه، وهمّ بقتله"[٩] كما ذكرنا. "وقيل إنه ضربه أسواطاً كثيرة، وحلق رأسه"[١٠]. وقد أشرنا من قبل إلى أن الرأي الذي

---

[١] انظر تفاصيل معركة وادي لكه في هذا الفصل.

[٢] مؤنس، فجر الأندلس: ٩٧.

[٣] المقري، نفح الطيب: ٢٧١/١؛ ابن عذاري، البيان المغرب: ١٦/٢؛ مجهول، أخبار مجموعة: ٢٦-٢٧.

[٤] أشار صاحب أخبار مجموعة إلى هذا المكان، وقد ذكر اسمه، ولكن هذا الاسم غير مقروء، وصورته هكذا (بابد) دون نقط.

[٥] المقري، نفح الطيب: ٢٧١/١.

[٦] مجهول، أخبار مجموعة: ٢٧.

[٧] ابن الأثير، الكامل في التاريخ: ١٢٣/٤؛ النويري، نهاية الأرب: ٥١/٢٤.

[٨] ابن الكردبوس، تاريخ الأندلس: ٥٠.

[٩] ابن عبد الحكم، فتوح إفريقية والأندلس: ٨٠.

[١٠] ابن عذاري، البيان المغرب: ١٦/٢.

نرجحه في هذه المسألة هو أن موسى ربما عاتب طارقاً لأنه تجاوز في فتوحاته أماكن أمره ألا يتجاوزها، ثم ما لبث أن رضي عنه، "وأقرّه على مقدمته على رسمه، وأمره بالتقدم أمامه في أصحابه، وسار موسى خلفه في جيوشه"[1].

سار طارق وموسى في الطريق الممتد من ماردة إلى سلمنقة Salamanca، ووصلا إلى فج نسب إلى موسى فقيل: فج موسى[2]، وهو يقع قرب نهر سمي أيضاً وادي موسى (Valmuza). وكانت طريقهما وعرة صعبة المسالك، تحيط بها المنحدرات والشعاب التي إن صلحت لشيء، فإنما تصلح مكامن للقتلة المتربصين، وفيها كان يكمن لذريق وقواته التي فاجأت المسلمين، حيث انقضت عليهم في موقع قريب من بلدة Tamames في ناحية تدعى Segoyuela de les Cornejos. غير أن جيوش المسلمين تصدت لهذه القوات القوطية التي كانت تفتقر إلى التنظيم، بل كانت أشبه بالعصابات. وقد تمكن المسلمون من الفتك بتلك القوات، وأفنتها عن آخرها، وكان لذريق، ملك القوط، أحد القتلى في هذه المعركة الفاصلة الثانية، بعد معركة وادي لكه[3].

سار طارق وموسى بعد انتصارهما إلى طليطلة "فطالبه موسى بأداء ما عنده من مال الفيء وذخائر الملوك، واستعجله بالمائدة، فأتاه بها، وقد خلع من أرجلها رجلاً وخبأها عنده، فسأله موسى عنها، فقال: لا علم لي بها، وهكذا أصبتها"[4]، "فصدّقه، وصنع لها رجلاً من ذهب"[5]. ويشير المقري إلى أن الرّجل البديلة التي صنعها موسى لم تكن متقنة، فأخلّت بمنظر المائدة[6].

---

(1) المقري، نفح الطيب: ٢٧٣/١.

(2) ابن القوطية، تاريخ افتتاح الأندلس، تحقيق عبد الله أنيس الطباع: ٣٥.

(3) انظر التفاصيل:مؤنس، فجر الأندلس:٩٨-٩٩؛ سالم، تاريخ المسلمين وآثارهم في الأندلس:٩٨-٩٩.

(4) المقري، نفح الطيب: ٢٧١/١؛ مجهول، أخبار مجموعة: ٢٧؛ ابن عذاري، البيان المغرب: ١٦/٢؛ ابن الكردبوس، تاريخ الأندلس: ٥٠.

(5) ابن الكردبوس، تاريخ الأندلس: ٥٠؛ وانظر: ابن الأثير، الكامل في التاريخ: ١٢٣/٤؛ ابن عذاري، البيان المغرب: ١٦/٢.

(6) المقري، نفح الطيب: ٢٧١/١.

ووجه موسى بن نصير من طليطلة كتاباً إلى الوليد بن عبد الملك في دمشق يخبره بالفتح، وقد حمل ذلك الكتاب وفد على رأسه مغيث الرومي[١]، وعلي بن رباح[٢]. ويروي قتيبة أن الخليفة الأموي الوليد لما بلغه مسير موسى بن نصير إلى الأندلس، ظن أنه يريد أن يستقل بها، غير أن علي بن رباح، عندما قدم إليه موفداً من موسى نفى عنه هذه التهمة، قائلاً "والله ما نزع يداً من طاعة، ولا فارق جماعة، وإنه لفي طاعة أمير المؤمنين، والذب عن حرمات المسلمين، والجهاد للمشركين، وإني لأحدثكم عهداً به، وما قدمت الآن إلا من عنده، وإن عندي خبره.."[٣]. ثم دفع كتاب موسى إلى الخليفة، "فقرأه الوليد، فلما أتى على آخره خرّ ساجداً"[٤].

حملة موسى وطارق:

أصبحت طليطلة – بعد لقاء موسى وطارق فيها – تعج بجيوش المسلمين، وكانت تلك الجيوش قد خرجت لتوها من معارك، كان بعضها شديداً، ولذلك كان لا بد من أن تأخذ قسطاً من الراحة، وخاصة بعد أن قضت على ألدّ أعدائها، وهو لذريق، ملك القوط الأخير، وبعد أن طهرت جيوب المقاومة القوطية في المناطق التي أصبحت تحت سيطرتها. غير أن فترة الراحة تلك، التي استغلها موسى في تنظيم المناطق المفتوحة لم تطل، فبعد انقضاء فصل الشتاء جمع جيوشه بقيادة طارق بن زياد، وزحف بها نحو الشمال، إلى مدينة سرقسطة[٥] (Zaragoza) أو المدينة البيضاء. ويبدو أنه فتح المدينة دون قتال، إذ لم تشر المصادر إلى أي معركة خاضها من أجل هذا الفتح. كما أنه "أوغل في البلاد، وطارق أمامه لا يمران بموضع إلا فتح الله عليهما"[٦]. والظاهر أن مقاومة القوط انشلّت، فلم يعودوا قادرين عليها، وقد ألقى الله الرعب في قلوبهم[٧].

---

[١] ابن عبد الحكم، فتوح إفريقية والأندلس: ٨١.

[٢] ابن قتيبة، الإمامة والسياسة: ٧٥/٢.

[٣] المصدر نفسه: ٧٥/٢-٧٦.

[٤] المصدر نفسه: ٧٦/٢.

[٥] المقري، نفح الطيب: ٢٧٣/١؛ ابن الأثير، الكامل في التاريخ: ١٢٣/٤؛ النويري، نهاية الأرب: ٥١/٢٤؛ مجهول، أخبار مجموعة: ٢٧.

[٦] المقري، نفح الطيب: ٢٧٣/١؛ وانظر: ابن عذاري، البيان المغرب: ١٦/٢.

[٧] المقري، نفح الطيب: ٢٧٣/١.

ويدل على ما آل إليه حال القوط أن موسى عندما اقترب من سرقسطة ذُعر أسقفها بنسيو (Bencio)، فقام هو وجماعة الرهبان بجمع ما استطاعوا جمعه من كتب مقدسة وذخائر ونفائس، وفرّوا من المدينة، ولما علم موسى بذلك أرسل خلفهم من يطمئنهم، ويؤمنهم، ويعطيهم عهده، فعادوا إلى مدينتهم آمنين بعد خوف. ولما استقر المسلمون في سرقسطة قام التابعي حنش بن عبد الله الصنعاني* بإنشاء مسجد للمدينة، وما لبث هذا المسجد أن اتسع حتى أصبح منارة للإسلام في تلك النواحي[1].

وبعد فتح سرقسطة افتتح موسى ما دونها من البلاد...ثم مضى حتى جاوزها بعشرين ليلة[2]، حيث افتتح عدداً من المدن، وافتتح ما حولها من الحصون والمعاقل[3]. من أهم تلك المدن: طركونة (Tarragona)، وبرشلونة (Barcelona)، ولاردة (Lerida)، ووشقة (Huesca)[4]. وكان طارق في هذه الفتوحات يتقدم على موسى، وموسى يجيء على أثره "ويكمل ابتداءه، ويوثق للناس ما عاهدوه عليه"[5].

وتوغل موسى بن نصير في الشمال حتى وصل إلى جنوبي فرنسا، إذ يذكر أكثر من مصدر أنه فتح أماكن من بلاد الفرنجة، مثل: قرقوشة (Garcasona)، وأربونة (Narbona)، وأبنيون (Avinionum)، ولوذون (Lyon) على وادي رودنة (نهر الرون Rhone)[6]. وقد أشار ابن عذاري إلى ما بلغه موسى متوغلاً في الشمال بقوله: "وفتح بلاد البشكنس، وأوغل في بلادهم، حتى أتى قوماً كالبهائم"[7]. وأشار إلى ذلك المقري إذ

حنش الصنعاني تابعيّ جليل، كان مع علي بن أبي طالب رضي الله عنه بالكوفة، وقدم مصر بعد قتله، فصار عداده في المصريين، وكان فيمن قام مع ابن الزبير على عبد الملك بن مروان، فعفا عنه ((وكفى الأندلس شرفاً دخوله لها)). انظر: المقري، نفح الطيب: ٢٧٨/١.

[1] مؤنس، فجر الأندلس: ١٠٣؛ سالم، تاريخ المسلمين وآثارهم: ١٠١.

[2] ابن قتيبة، الإمامة والسياسة: ٧٨-٧٩.

[3] مجهول، أخبار مجموعة: ١٩؛ ابن عذاري، البيان المغرب: ١٦/٢.

[4] المقري، نفح الطيب: ٢٧٣/١-٢٧٤؛ مؤنس، فجر الأندلس: ١٠٣؛ طه، الفتح والاستقرار: ١٨١-١٨٢.

[5] المقري، نفح الطيب: ٢٧٣/١.

[6] المقري، المصدر نفسه: ٢٧٣/١-٢٧٤؛ النويري، نهاية الأرب: ٥١/٢٤.

[7] ابن عذاري، البيان المغرب: ١٦/٢؛ وانظر: ابن قتيبة، الإمامة والسياسة: ٧٨.

ذكر أن المسلمين بقيادة موسى "بعدوا عن الساحل الذي منه دخلوا، وذكر أن مسافة ما بين قرطبة وأربونة من بلاد إفرنجة ثلاثمائة فرسخ وخمسة وثلاثون فرسخاً، وقيل: ثلاثمائة فرسخ وخمسون فرسخاً"[١]. ويبدو أن البلاد التي أوغل فيها موسى كانت أرضاً جرداء موحشة، فضلاً عن صعوبة مسالكها، وبعد أن تحمل المسلمون ما تحملوا من مشقة وضنك، خامر بعضهم شعور بأن البلاد التي فتحوها واسعة جداً، بل ربما شعر بعضهم أن ليس هناك مزيداً من الأرض لفتحه، ولذلك وقف حنش الصنعاني في وجه موسى قائلاً: "أين تذهب؟ تريد أن تخرج من الدنيا؟ أو تلتمس أكثر وأعظم مما آتاك الله عز وجل، وأعرض مما فتح الله عليك، ودوّخ لك؟ إني سمعت من الناس ما لم تسمع، وقد ملئوا أيديهم، وأحبوا الدعة!"[٢]. وعندئذ قال موسى "أما والله لو انقادوا إلي لقدتهم إلى رومية، ثم يفتحها الله على يديّ إن شاء الله"[٣]. وفي هذا المجال أورد المقري عن موسى أنه "كان يؤمل أن يخترق ما بقي عليه من بلاد إفرنجة، ويقتحم الأرض الكبيرة حتى يتصل بالناس إلى الشام، مؤملاً أن يتخذ مخترقه بتلك الأرض طريقاً مهيعاً يسلكه أهل الأندلس في مسيرهم ومجيئهم من المشرق وإليه على البر لا يركبون بحراً"[٤].

أدرك موسى بن نصير أن باعث ما تفوّه به التابعي حنش الصنعاني، وما تهامس به بعض المسلمين، إنما هو التعب لا غير، ولذلك خيّم بجنده لينالوا قسطاً من الراحة، فما لبثوا أن استردوا نشاطهم، وحماسهم للفتح، فأعدّ العدة لفتح بلاد جليقية "إذ لم يكن في الأندلس بلد لم تدخله العرب إلى وقته غير جليقية، فكان شديد الحرص على اقتحامها"[٥]. وبينما هو يستعد لهذا الاقتحام أتاه مغيث الرومي عائداً من دمشق، يحمل إليه رسالة من الخليفة الوليد بن عبد الملك يأمره فيها "بالخروج عن الأندلس، والإضراب عن الوغول

---

[١] المقري، نفح الطيب: ٢٧٤/١.

[٢] ابن قتيبة، الإمامة والسياسة: ٨٠/٢-٨١.

[٣] المصدر نفسه: ٨١.وقد أشرنا من قبل إلى أن طارقاً قال ما يشبه ذلك ويقصد موسى برومية: القسطنطينية.

[٤] المقري، نفح الطيب: ٢٧٧/١.

[٥] المصدر نفسه: ٢٧٥/١-٢٧٧.

فيها"[1]. وكان لهذا الأمر وقع شديد على موسى، فهو يحدّ من طموحاته، ويقطع عزمه على المضي في الجهاد والفتح، وآماله باختراق أوروبا.

ولما كان موسى بن نصير مصراً على إتمام ما نهض إليه، فقد لاطف مغيثاً، "وسأله إنظاره إلى أن ينفذ عزمه في الدخول إليها، والمسير معه في البلاد أياماً، ويكون شريكه في الأجر والغنيمة، ففعل"[2]. ويرى مؤنس أن موسى عرض على مغيث أن يمنحه نصف ما يغنم من البلاد التي سيفتحها في هذه المهلة، ومنحه القصر الذي كان يسكنه حاكم قرطبة في الجزء الشرقي منها، فقبل"[3].

تابع موسى بن نصير فتوحاته شمالاً، حيث قرر فتح مناطق قشتالة القديمة (Castilla la Vieja)، وربما أراد بذلك تأمين الحدود الشمالية لإقليم طليطلة. وكان يخرج من سرقسطة طريقان، تمر إحداهما بجانب نهر إيبره، ويتجه الثاني إلى بلازيا Palencia. ولما عرف وجهة الطريقين، قسم موسى جيشه قسمين، أحدهما بقيادته، والثاني بقيادة طارق بن زياد[4]. وكان على كل جيش – حسب ترتيب موسى – أن يسلك إحدى الطريقين، ويفتح ما يقابله من بلدان.

سلك طارق الطريق الأولى، حيث اتجه إلى جبال كنتبرية، وبدأ بمهاجمة البشكنس في الجهة الشمالية لنهر الإيبره Ebro، وكان يحكم تلك الناحية شخص يُدعى فرتون

---

[1] المقري، نفح الطيب: ١/٢٧٥؛ وانظر: مجهول: أخبار مجموعة: ١٩، ويذكر أن مغيثاً جاء إلى الأندلس ((سنة خمس وتسعين فأخذ بعنان موسى، فأخرجه من الأندلس وطارق معه)).

[2] المقري، نفح الطيب: ١/٢٧٦.

[3] مؤنس، فجر الأندلس: ١٠٤، وقد سمي القصر المشار إليه (بلاط مغيث).

[4] مؤنس، فجر الأندلس:١٠٤؛ سالم، تاريخ المسلمين وآثارهم في الأندلس:١٠٢؛ طه، الفتح والاستقرار: ١٨٢.

ينتسب إلى فرتون بنوقسي، أصحاب الثغر الأعلى، وكان لهؤلاء دور كبير في تاريخ المسلمين في الأندلس كما سيأتي في الفصول التالية من هذا الكتاب.

Fortunius الذي اضطر إلى الدخول في طاعة المسلمين، ثم اعتنق الإسلام[١]. ثم سار طارق ففتح مدن: أماية Amaya، وأسترقة Astorga، وليون Leon[٢].

أما موسى فقد اختار الطريق الثانية، حيث سار على الضفة الشرقية لنهر الإيبره في إقليم قشتالة، فافتتح حصن باروس (Villabaruz) الواقعة في منطقة بلد الوليد (Valladolid)، ثم انحرف إلى الشمال حتى وصل إلى حصن لُكّ (Lucus) أو (Lugo) فافتتحه وأقام هناك، حيث بث سراياه حتى بلغوا صخرة بلاي (Pena de Pelayo) على المحيط الأطلسي[٣]. "وأطاعت الأعاجم فلاذوا بالسلم وبذل الجزية، وسكنت العرب المغاور، وكان العرب والبربر كلما مر قوم منهم بموضع استحسنوه حطوا به ونزلوه قاطنين، فاتسع نطاق الإسلام بأرض الأندلس، وخذل الشرك"[٤].

ولكي يعزز موسى بن نصير مواقعه الجديدة سار بنفسه على رأس جيشه يفتتح البلاد حتى وصل إلى مدينة خيخون (Gijon)، واتخذها مركزاً لعمليات الفتح[٥]. وبينما موسى كذلك في اشتداد الظهور وقوة الأمل إذ قدم عليه رسول آخر من الخليفة يكنى أبا نصر، أردف به الوليد مغيثاً لما استبطأ موسى في القفول"[٦]. "وكانت موافاة الرسول له بمدينة لك Lugo بجليقية"[٧].

---

[١] ابن القوطية، تاريخ افتتاح الأندلس: ٣٥.

[٢] مؤنس، فجر الأندلس: ١٠٤؛ سالم، تاريخ المسلمين وآثارهم في الأندلس: ١٠٢-١٠٣؛ طه، الفتح والاستقرار: ١٨٢.

[٣] المقري، نفح الطيب: ٢٧٦/١؛ ويسمي المحيط الأطلسي:(البحر الأخضر)، وهو أيضاً: بحر الظلمات.

[٤] المقري، نفح الطيب: ٢٧٦/١.

[٥] مؤنس، فجر الأندلس: ١٠٤.

[٦] المقري، نفح الطيب: ٢٧٦/١؛ وانظر: ابن الأثير، الكامل في التاريخ: ١٢٤/٤؛ النويري، نهاية الأرب: ٥١/٢٤.

[٧] ابن الأثير، الكامل في التاريخ: ١٢٤/٤؛ النويري، نهاية الأرب: ٥١/٢٤-٥٢.

وهكذا اضطر موسى بن نصير إلى العودة، وقد بدأ رحلة العودة في أواخر سنة ٩٥هـ/ منصف صيف ٧١٤م[١]، وكان مغيث قد خفّ للقائه، والتقى به في نواحي ليون، وهناك أدركهما طارق عائداً من أسترقة، ومضى الثلاثة ومعهم من الناس من اختار العودة[٢]، "وأقام من آثر السكنى في مواضعهم التي كانوا قد اختطوها واستوطنوها"[٣].

وسار ركب موسى ومعه طارق ومغيث وأبو نصر وغيرهم، فاخترقوا فج موسى في طريقهم إلى طليطلة[٤]، ثم استأنفوا سيرهم إلى قرطبة، ومنها إلى إشبيلية[٥]. وكان على موسى، وهو يهم بمغادرة الأندلس، أن يجعل عليها والياً يرعى شؤونها كولاية إسلامية. ولم يجد لهذه المهمة أفضل من ابنه عبد العزيز، فاستخلفه على إمارة الأندلس "وأقره بمدينة إشبيلية لاتصالها بالبحر"[٦]. وخاصة أنها أيضاً "على نهر عظيم لا يُخاض، فأراد أن تكون فيه سفن المسلمين، وتكون باب الأندلس"[٧].

وكان من أبرز المسؤوليات التي أوكلها لابنه عبد العزيز: جهاد الأعداء[٨]. وقد نهض بهذه المسؤولية، فقد أقام يفتتح ما بقي من مدن الأندلس[٩]، كما سنبين في الفصل التالي.

غادر موسى بن نصير وطارق بن زياد وصحبهما الأندلس في ذي الحجة من سنة ٩٥هـ/ أيلول ٧١٤م[١٠] إلى إفريقية بعد أن أمضى في الأندلس سنتين وشهراً[١١].

---

[١] المقري، نفح الطيب: ٢٧٧/١.

[٢] المصدر نفسه: ٢٧٦/١.

[٣] المصدر نفسه: ٢٧٦/١.

[٤] ابن الأثير، الكامل في التاريخ: ١٢٤/٤؛ النويري، نهاية الأرب: ٥٢/٢٤.

[٥] المقري، نفح الطيب: ٢٧٦/١.

[٦] المصدر نفسه: ٢٧٦/١.

[٧] مجهول، أخبار مجموعة: ١٩.

[٨] ابن خلدون، تاريخ: ١٥١/٤.

[٩] ابن القوطية، تاريخ افتتاح الأندلس: ٣٦.

[١٠] المقري، نفح الطيب: ٢٧٧/١؛ مجهول، أخبار مجموعة: ٢٧؛ ابن عذاري، البيان المغرب: ١٩/٢.

[١١] ابن عذاري، البيان المغرب: ١٨/٢.

وحمل معه كميات هائلة من الغنائم والسبي بما في ذلك كميات وافرة من الذهب والفضة والجواهر ونفيس الأمتعة[1]، وربما كان من أهم تلك الغنائم: المائدة التي أسهبت المصادر في وصفها، وهو ما أشرنا إليه[2].

وعندما وصل موسى إلى إفريقية استخلف عليها أبناءه، حيث استخلف على سبتة إلى طنجة وما والاهما ابنه عبد الملك، وعلى إفريقية أكبر أولاده: عبد الله[3]. ثم غادر شمالي إفريقية متوجهاً إلى مصر، وكان واليها حينذاك: قرة بن شريك، وقد كتب إليه الخليفة الوليد بن عبد الملك "أن ادفع إلى موسى من بيت مال مصر ما أراد، فأقبل موسى حتى إذا كان في بعض الطريق لقيه خبر موت قرّة بن شريك ثم قدم مصر سنة خمس وتسعين، فدخل المسجد فصلى عند باب الصوّال. وكان قرّة قد استخلف ابنه رفاعة على الجند..."[4].

وأقام موسى بن نصير في مصر ثلاثة أيام "تأتيه أهل مصر في كل يوم، فلم يبق شريف إلا وقد أوصل إليه موسى صلة ومعروفاً كثيراً"[5]. وفي تلك الأثناء كان الخليفة الوليد بن عبد الملك قد مرض مرض الموت "وكتب إلى موسى يأمره بشدّ السير إليه ليدركه قبل الموت"[6]، بينما كتب إليه سليمان بن عبد الملك أن يبطئ في سيره[7]، وعندئذ قرر موسى أن يتجاهل أوامر الخليفة وولي عهده قائلاً لرسول سليمان "ولكني أسير بمسيري، فإن وافيته حياً (أي الوليد) لم أتخلف عنه، وإن عجلت منيته فأمره إلى الله"[8].

---

(1) المقري،نفح الطيب: ٢٧٧/١؛ ابن عذاري، البيان المغرب: ١٨/٢؛ ابن قتيبة، الإمامة والسياسة: ٨٢/٢.

(2) انظر: ابن الأثير، الكامل في التاريخ: ١٢٤/٤.

(3) المقري، نفح الطيب: ٢٧٩/١؛ ابن قتيبة، الإمامة والسياسة: ٨٢/٢؛ ابن الأثير، الكامل في التاريخ: ١٢٤/٤.

(4) ابن قتيبة، الإمامة والسياسة: ٨٢/٢.

(5) المصدر نفسه: ٨٣/٢.

(6) ابن عذاري، البيان المغرب: ٢٠/٢.

(7) ابن قتيبة، الإمامة والسياسة: ٨٣/٢؛ ابن عذاري، البيان المغرب: ٢٠/٢.

(8) ابن قتيبة، الإمامة والسياسة: ٨٣/٢؛ وانظر: ابن القوطية، تاريخ افتتاح الأندلس: ٣٦.

وتوجه موسى بن نصير إلى فلسطين في طريقه إلى دمشق، وقد استقبله فيها آل روح بن زنباع الجذامي، "فنزل بهم، فنحروا خمسين جملاً. ثم خرج من عندهم، وترك بعض أصحابه، وصغار ولده عندهم"[1]. ووصل إلى دمشق والوليد حي "فسلّم له الأخماس والمغانم والتحف والذخائر"[2]. ومن بين الغنائم المائدة التي زعمت المصادر أنها مائدة سليمان بن داوود عليه السلام، فقد ذكرت المصادر أيضاً أن موسى قدمها هدية للوليد مدّعياً أنه هو الذي وجدها وغنمها، غير أن طارقاً أثبت أنه هو الذي غنمها، حيث أخرج الرِّجل التي كان قد انتزعها منها "فصدّقه الوليد، وقبل قوله، وأعظم جائزته"[3].

وتوفي الوليد بن عبد الملك بدمشق يوم السبت ١٥ جمادى الآخرة سنة ٩٦هـ/١٦ كانون الأول ٧١٥م[4]، وولي الخلافة بعده أخوه سليمان. وكان أول ما فعله – كما تذكر بعض المصادر – أنه أمر بإقامة موسى في الشمس حتى كاد يهلك حقداً عليه، وأنه "أغرمه أموالاً عظيمة، ودسّ إلى أهل الأندلس بقتل ابنه الذي استخلفه على الأندلس، وهو ابنه عبد العزيز بن موسى"[5]. بينما يذكر بعضها الآخر أن سليمان طالب موسى بمائتي ألف دينار "فدفع إليه مائة ألف، وعجز عن الباقي، فسجنه حتى ضمنها عنه الأمير يزيد بن المهلّب بن أبي صفرة، ووزعها على قومه، وذلك لمخالفته (أي مخالفة موسى سليمان) إياه فيما كان أمره به من التثبط بتلك الأموال إلى أن يموت الوليد"[6].

---

(1) ابن عذاري، البيان المغرب: ١٩/٢.

(2) المقري، نفح الطيب: ٢٨١/١؛ وانظر: ابن عذاري، البيان المغرب: ٢٠/٢.

(3) ابن عبد الحكم، فتوح إفريقية والأندلس: ٨٣. ويروي ابن الكردبوس أن الوليد لما يعبأ بموسى ولا بطارق لشدة مرضه، ولا عرف مقداراً لما جاءا به. انظر: تاريخ الأندلس: ٥٠.

(4) ابن الكردبوس، تاريخ الأندلس: ٥١.

(5) المقري، نفح الطيب: ٢٨١/١؛ وانظر: ابن عذاري، البيان المغرب: ٢٠/٢.ابن عبد الحكم، فتوح إفريقية والأندلس: ٨٥-٨٦.

(6) ابن الكردبوس، تاريخ الأندلس: ٥١. وانظر: ابن عبد الحكم، فتوح إفريقية والأندلس: ٨٥-٨٦. ولمزيد من التفاصيل حول موقف سليمان من موسى بن نصير انظر: ابن قتيبة: الإمامة والسياسة: ٩١ وما بعدها.

وما يمكن استنتاجه من روايات المصادر في هذه المسألة أن سليمان بن عبد الملك غضب فعلاً على موسى بن نصير، ويبدو أن موسى وسّط يزيد بن المهلب الذي كان يحظى بمكانة رفيعة عند سليمان "وطلب منه أن يكلّمه في أن يخفف عنه"[1]. وقد نجحت هذه الوساطة حتى أن سليمان رضي على موسى، واستدعاه ليرافقه في طريقه لتأدية فريضة الحج في سنة ٩٧هـ/٧١٥م[2]، غير أن الحياة لم تمتد بموسى لنعرف مدى هذا الرضى، وما إذا كان سليمان سيعيد إليه أمجاد القيادة والفتوح، فقد توفي في وادي القرى سنة ٩٧هـ/٧١٥م[3].

ويلخص المقري سيرة حياة موسى بن نصير فيقول نقلاً عن الحجاري "أن أصله من وادي القرى بالحجاز، وأنه خدم بني مروان بدمشق، وتنبّه شأنه، فصرّفوه في ممالكهم إلى أن ولي إفريقية، وما وراءها من المغرب في زمن الوليد بن عبد الملك، فدوّخ أقاصي المغرب، ودخل الأندلس من جبل موسى المنسوب إليه المجاور لسبتة، ودوّخ بلاد الأندلس، ثم أوفده الوليد إلى الشام، فوافق مرضه ثم موته وخلافة أخيه سليمان، فعذبه واستصفى أمواله، وآل أمره إلى أن وجهه إلى قومه بوادي القرى لعلهم يعطفون عليه ويؤدون عنه، فمات بها"[4].

لقد قضى موسى في الحجاز بعد أن خلّف ابنه عبد العزيز على الأندلس ليبدأ عصراً جديداً فيها، هو عصر الولاة الذي سنتناوله في الفصل التالي. وقبل الانتقال إلى ذلك لا بد من أن نستذكر أموراً أهمها: أن شبه الجزيرة الأيبيرية أو شبه جزيرة الأندلس لم تفتح كلها على يد موسى وطارق، وإنما بقيت هناك مناطق لم يتح لهما الوقت الكافي لفتحها. والأمر الثاني هو أن المناطق الواسعة التي فتحها موسى وطارق أصبحت مستقراً للمسلمين من عرب وبربر، وكان العرب من قبائل مختلفة عدنانية وقحطانية، وكذلك كان البربر ينتمون إلى العديد من قبائلهم، هذا إضافة إلى كثيرين من نصارى الأندلس الذين

---

[1] المقري، نفح الطيب: ٢٨٣/١.

[2] ابن عبد الحكم، فتوح إفريقية والأندلس: ٨٦؛ وانظر: ابن قتيبة، الإمامة والسياسة: ٩٥.

[3] المقري، نفح الطيب: ٢٨٧/١.

[4] المصدر نفسه: ٢٨٥/١-٢٨٦؛ وانظر حول وفاته أيضاً: ابن الكردبوس، تاريخ الأندلس: ٥٢؛ ابن عذاري، البيان المغرب: ٢٢/٢.

اعتنقوا الإسلام وعاشوا بين المسلمين، وكثيرين منهم لم يعتنقوه وعاشوا بيـــن المســـلمين أيضا. والأمر الثالث هو أن عصر الولاة في الأندلس تأثر منذ بدايته بالأحداث فـــي دار الخلافة في الشرق، واستمر هذا التأثير بعد نهاية الخلافة الأموية فيه. وسنلحظ أن لكل من هذه الأمور بصماته الواضحة على الأندلس بشكل عام.

Andalucía

الفصل الثاني

عصر الولاة

عصر الولاة

تولى الخلافة بعد وفاة الوليد بن عبد الملك أخوه سليمان في سنة ٩٦هـ/٧١٤م[1]، وفي أوائل خلافة سليمان توفي موسى بن نصير، وذلك في أواخر سنة ٩٧هـ/٧١٥م[2]. وكان موسى قبل عودته إلى دمشق قد استخلف على الأندلس ابنه عبد العزيز والياً في صفر سنة ٩٥هـ/٧١٣م[3]، كما استخلف ابنيه عبد الملك وعبد الله على إفريقية[4]. وقد أشرنا إلى ذلك في الفصل السابق، كما أشرنا إلى أن كثيراً من المصادر أوردت ما يدل على أن سليمان كان ناقماً على موسى لأسباب ذكرناها أيضاً، ثم رضي عنه، واصطحبه إلى الحج في السنة التي قضى فيها موسى نحبه بوادي القرى. غير أن ذلك الرضى كان – كما يبدو – ظاهرياً، فالمصادر تذكر أن موسى إنما توفي لشدة ما عاناه من مضايقات كان سليمان وراءها، فقد "ولي سليمان، فنكب موسى نكباً أدّاه إلى المتربة"[5]. وهذا النكب أو التنكيل امتد ليطال أبناء موسى، وخاصة عبد العزيز، والي الأندلس، وفقاً لروايات كثير من المصادر.

لقد أقر مروان وعبد الله ابنا موسى بن نصير، اللذان كانت ولاية إفريقية بأيديهما، أقرا أخاهما عبد العزيز على الأندلس التي كانت في ذلك الحين تابعة – من الناحية الإدارية – لإفريقية. ومن جهته أقر الخليفة سليمان بن عبد الملك عبد العزيز بن موسى في ولاية الأندلس لغرض في نفسه. وبولاية عبد العزيز بدأ في الأندلس عهد جديد يمكن أن نسميه – لأغراض هذه الدراسة – عصر الولاة، وهو عصر مليء، بل مزدحم بالأحداث من فتوح ومؤامرات وثورات، لم يخل منها جميعاً أو من بعضها زمن من أزمان أولئك الولاة الذين تعاقبوا على حكم الأندلس عبر حوالي اثنتين وأربعين سنة (٩٥-١٣٨هـ/٧١٣-٧٥٥م).

---

(1) الرقيق القيرواني، تاريخ إفريقية والمغرب (قطعة منه تبدأ من أواسط القرن الأول إلى أواخر القرن الثاني الهجري)، تحقيق وتقديم المنجي الكعبي: ٩٠؛ ابن عذاري، البيان المغرب: ٢٠/٢.

(2) المقري، نفح الطيب: ٢٧٢/١؛ ابن عذاري، البيان المغرب: ٢٢/٢.

(3) ابن عذاري، البيان المغرب: ٢٣/٢.

(4) النويري، نهاية الأرب: ٥٢/٢٤؛ المقري، نفح الطيب: ٢٧٧/١.

(5) المقري، نفح الطيب: ٢٧٢/١.

عبد العزيز بن موسى بن نصير (٩٥-٩٧هـ/٧١٣-٧١٥م)

كان عبد العزيز "من خير الولاة"[١]، وقد ورث عن والده الحنكة وحسن التدبير، وتدرب على يديه، ولازمه في فتوح الأندلس، وأصبح أحد قادة جيشه الذين يُعتمد عليهم في الملمات، فقد أوكل إليه – كما ذكرنا – إخماد ثورة إشبيلية التي قام بها أهلها القوط على المسلمين، ثم فتح لبلة وباجة، وهما المدينتان اللتان ساعد أهلهما أهل إشبيلية على الثورة. كما فتح كورة تدمير – حسب روايات بعض المصادر – وعقد مع حاكمها القوطي Teodmiro صلحاً أورد العذري نصه[٢]، وبموجبه أقر المسلمون تدمير على ملكية سبع مدائن – ربما كانت في ذلك الوقت مجرد حصون – شريطة أن يؤدي أهلها الجزية.

بدأ عبد العزيز عهده كوالٍ في تنظيم أحوال الأندلس، "فضبط سلطانها، وضم نشرها"[٣]. وطهر جيوب المقاومة القوطية فيها، "وافتتح في ولايته مدائن كثيرة"[٤] لم يتح الوقت لأبيه موسى لفتحها[٥]. وهذه المدائن التي لم تحددها المصادر ربما كان من بينها برشلونة وجرندة Gerona.

وتزوج عبد العزيز من امرأة قوطية اسمها أيله[٦] Egilona، وكنيتها أم عاصم[٧]. ولم تتفق المصادر على هوية هذه المرأة، فقد ذكر بعضها أنها "امرأة نصرانية بنت ملك من أهل الأندلس يُقال إنها ابنة لذريق"[٨]، وذكر بعضها أنها "امرأة من

---

(١) المقري،نفح الطيب: ٢٨١/١؛وانظر:ابن خلدون،تاريخ: ١٥١/٤حيث يصفه بأنه "كان خيّراً فاضلاً".

(٢) انظر: العذري، نصوص عن الأندلس: ٤-٥.

(٣) المقري، نفح الطيب: ٢٨١/١.

(٤) ابن خلدون، تاريخ: ١٥١/٤.

(٥) المقري، نفح الطيب: ٢٨١/١؛ النويري، نهاية الأرب: ٥٥/٢٤.

(٦) ابن عذاري، البيان المغرب: ٢٣/٢.

(٧) المقري، نفح الطيب: ٢٨١/١؛ ابن عذاري، البيان المغرب: ٢٣/٢؛ مجهول، أخبار مجموعة: ٢٠؛ ابن القوطية، تاريخ افتتاح الأندلس.

(٨) ابن عبد الحكم، فتوح إفريقية والأندلس: ٨٤.

القوط"[1]، وجنح أكثرها إلى أنها أرملة لذريق[2]، وهو ما نرجحه. وكانت هذه المرأة بعد مقتل زوجها لذريق "قد صالحت على نفسها وأموالها... وأقامت على دينها في ظل نعمتها إلى أن نكحها الأمير عبد العزيز"[3]. وقد حظيت عنده، وسكن بها في إشبيلية[4] في كنيسة ربينة[5] أو رفينة[6] التي بنى على بابها مسجداً عُرِف بهذا الاسم أيضاً[7]. وكانت الكنيسة والمسجد في موقع يشرف على مرج إشبيلية[8].

ويبدو أن أم عاصم، زوجة عبد العزيز، حنت إلى حياتها السابقة كزوجة ملك بكل ما في تلك الحياة من بذخ وجاه وسلطان، فرغّبت عبد العزيز في تلك الحياة الملوكية، وأغرته بوضع تاج على رأسه، وحاورته وتحايلت عليه حتى فعل ذلك[9]. وبعد أن غلبت على رأيه، وألبسته التاج، زينت له اتخاذ مظهر آخر من مظاهر الأبّهة الملوكية التي اعتادت عليها في عهد لذريق، حيث كان الوافدون عليه من رعيته يسجدون بين يديه، وقد ألحّت عليه قائلة: "لم لا يسجد لك أهل مملكتك كما كان يسجد للذريق أهل مملكته؟"[11]. "وفهم – لكثرة شغفه بها – أن عدم ذلك مما يزري بقدره عندها، فاتخذ باباً صغيراً قُبالة مجلسه يدخل عليه الناس منه، فينحنون، وأفهمها أن ذلك الفعل منهم تحية له، فرضيت بذلك"[12].

---

[1] ابن القوطية، تاريخ افتتاح الأندلس: ٣٧.

[2] المقري، نفح الطيب: ٢٨١/١؛ مجهول، أخبار مجموعة: ٢٠؛ ابن عذاري، البيان المغرب: ٢٣/٢؛ ابن الأثير، الكامل في التاريخ: ١٤٤/٤؛ النويري، نهاية الأرب: ٥٥/٢٤.

[3] المقري، نفح الطيب: ٢٨١/١.

[4] المصدر نفسه: ٢٨١/١؛ ابن عذاري، البيان المغرب: ٢٤/٢؛ ابن القوطية، تاريخ افتتاح الأندلس: ٣٧.

[5] ابن القوطية، تاريخ افتتاح الأندلس: ٣٧.

[6] ابن عذاري، البيان المغرب: ٢٤/٢؛ وانظر: المقري، نفح الطيب: ٢٨١/١.

[7] ابن القوطية، تاريخ افتتاح الأندلس: ٣٧؛ ابن عذاري، البيان المغرب: ٢٤/٢.

[8] ابن القوطية، تاريخ افتتاح الأندلس: ٣٧.

[9] ابن عذاري، البيان المغرب: ٢٣/٢–٢٤؛ المقري، نفح الطيب: ٢٨١/١؛ مجهول، أخبار مجموعة: ٢٠؛ ابن الأثير، الكامل في التاريخ: ١٤٤/٤؛ النويري، نهاية الأرب: ٥٥/٢٤.

[11] المقري، نفح الطيب: ٢٨١/١؛ ابن عذاري، البيان المغرب: ٢٤/٢؛ النويري، نهاية الأرب: ٥٥/٢٤.

[12] المقري، نفح الطيب: ٢٨١/١؛ النويري، نهاية الأرب: ٥٥/٢٤؛ وانظر: الرقيق القيرواني، تاريخ إفريقية والمغرب: ٩٤–٩٥؛ ابن عبد الحكم، فتوح إفريقية والأندلس: ٨٤.

واتهم بعض المسلمين عبد العزيز بن موسى بن نصير عندما رأوه يضع التاج، وأدركوا ما رمى إليه من اتخاذ الباب الصغير الذي يجبر داخله على الانحناء، اتهموه بالتنصُّر[١]، ونعته بعضهم باليهودي[٢]، وكان هذا "مع ما انضم إلى ذلك من دسيسة سليمان"[٣] سبباً في قتله.

ودسيسة سليمان بن عبد الملك التي تشير إليها بعض المصادر كان سببها نقمة سليمان على أبيه موسى، وإصدار أمر سري إلى الجند بقتله وذلك قبل أن يرضى عن والده[٤]، أو نقمته عليه هو نفسه لأنه عندما بلغه ما فعله سليمان بأبيه وأخويه عبد الله وعبد الملك في شمالي إفريقية، خلع الطاعة، وخالف بني مروان، فأرسل إليه سليمان يتهدده، فلم يرجع إلى الطاعة[٥]. وربما كانت تلك الأسباب مجتمعة هي "الأشياء" التي أشار ابن عذاري إلى أن الجند نقموها عليه[٦].

والجدير بالذكر – في هذا المجال – أن بعض الروايات تؤكد أن الذين ثاروا على عبد العزيز وقتلوه إنما اجتمعوا على ذلك دونما تكليف أو أوامر من الخليفة سليمان، ويجعلون لقتله سبباً واحداً هو لبس التاج وما ترتب على ذلك من أمور أنكروها[٧]. بينما تذكر روايات أخرى أن أولئك الجند أجمعوا على قتله بأوامر من سليمان، فقد وجه سليمان بكتاب مع رسله إلى "حبيب بن أبي عبيدة بن عقبة بن نافع ووجوه العرب سرّاً بقتله"[٨]،

---

[١] ابن عبد الحكم، فتوح إفريقية والأندلس، النويري، نهاية الأرب: ٥٥/٢٤.

[٢] الرقيق القيرواني، تاريخ إفريقية والمغرب: ٩٥.

[٣] المقري، نفح الطيب: ٢٨١/١.

[٤] ابن عذاري، البيان المغرب: ٢٤/٢.

[٥] الرقيق القيرواني، تاريخ إفريقية والمغرب؛ ابن عذاري، البيان المغرب: ٢٤/٢؛ النويري، نهاية الأرب: ٥٥/٢٤.

[٦] ابن عذاري، البيان المغرب: ٢٤/٢.

[٧] الرقيق القيرواني، تاريخ إفريقية والمغرب: ٩٥؛ ابن عبد الحكم، فتوح إفريقية والأندلس: ٨٤؛ مجهول، أخبار مجموعة: ٢٠؛ ابن عذاري، البيان المغرب: ٢٤/٢.

[٨] النويري، نهاية الأرب: ٥٥/٢٤؛ وانظر: الرقيق القيرواني، تاريخ إفريقية والمغرب: ٩٥؛ ابن عذاري، البيان المغرب: ٢٤/٢.

فتآمر حبيب مع زياد بن عُذرة البلوي وزياد بن نابغة التميمي وغيرهما[١]، ورسموا خطة اغتياله، حيث أوهموا مؤذن مسجد رفينة بأن موعد صلاة الصبح قد حان، وذلك قبل أوانه، "فأذن المؤذن...فخرج عبد العزيز فقال لمؤذنه: لقد عجّلت، وأذّنت بليل، ثم توجه إلى المسجد"[٢]. وفي صلاة الصبح قرأ عبد العزيز فاتحة الكتاب، ثم قرأ سورة قالت بعض المصادر إنها (الحاقة)[٣]، وقالت مصادر أخرى إنها (الواقعة)[٤]. وما إن تلا الآية الأولى حتى هجموا عليه فقتلوه. وقيل "فرفع القوم سيوفهم عليه، وأخذوا رأسه"[٥]، وقيل إن الذي قتله هو حبيب بن أبي عبيدة بن عقبة بن نافع الفهري الذي كان موسى بن نصير قد تركه مع ابنه عبد العزيز "وزيراً له، ومعيناً"[٦]. ويروي ابن عبد الحكم أن ضربته لعبد العزيز في المسجد لم تكن قاتلة، وأنه بعد تلك الضربة تمكن (أي عبد العزيز) من الهرب "فدخل جناناً له، واختبأ فيه تحت شجرة، وهرب حبيب بن أبي عبيدة وأصحابه، وأتبعه زياد بن النابغة فدخل على أثره، فوجده تحت الشجرة، فقال له عبد العزيز: يا ابن النابغة نجّني ولك ما سألت، فقال: "لا تذوق الحياة بعدها" ، فأجهز عليه، واحتزّ رأسه. بلغ ذلك حبيباً وأصحابه فرجعوا"[٧].

---

[١] ابن عذاري، البيان المغرب: ٢٤/٢؛ مجهول، أخبار مجموعة: ٢٠؛ ابن عبد الحكم، فتوح إفريقية والأندلس: ٨٤.

[٢] ابن عبد الحكم، فتوح إفريقية والأندلس: ٨٤.

[٣] النويري، نهاية الأرب: ٥٥/٢٤؛ الرقيق القيرواني، تاريخ إفريقية والمغرب: ٩٦؛ ابن عذاري، البيان المغرب: ٢٤/٢.

[٤] ابن عبد الحكم، فتوح إفريقية والأندلس: ٨٤؛ ابن القوطية، تاريخ افتتاح الأندلس: ٣٧.

[٥] ابن القوطية، تاريخ افتتاح الأندلس: ٣٧؛ وانظر: مجهول، أخبار مجموعة: ٢٠.

[٦] ابن عذاري، البيان المغرب:٢٣/٤؛ وانظر:الرقيق القيرواني، تاريخ إفريقية والمغرب:٩٦؛ ابن عبد الحكم، فتوح إفريقية والأندلس:٨٥؛ النويري، نهاية الأرب:٥٥/٢٤-٥٦؛ وانظر تفاصيل الأسباب التي أدت إلى قتل عبد العزيز بن موسى بن نصير في:ابن قتيبة، الإمامة والسياسة:٩٥/٢-٩٧ حيث يذكر روايات أخرى، ويذكر أن قاتل عبد العزيز شخص اسمه ابن وعلة التميمي. غير أن تلك الروايات فيها الكثير من الخلط.

[٧] ابن عبد الحكم، فتوح إفريقية والأندلس: ٨٥.

قُتل عبد العزيز بن موسى في رجب من سنة ٩٧هـ/٧١٥م[١]، وذلك بعد سنتين من ولايته[٢]. وحمل حبيب بن أبي عبيدة الفهري رأسه إلى سليمان، وكان موسى بن نصير لا يزال حياً. وقد عرض سليمان على موسى رأس ابنه، فتجلّد، وقال "هنيئاً له الشهادة، فقتلتم والله صواماً قواماً"[٣]. ويذكر ابن قتيبة أن موسى استأذن الخليفة سليمان في أخذ رأس عبد العزيز، فأذن له[٤]. ثم ثبت لسليمان أن ما نُمي إليه من أن عبد العزيز خلع طاعة بني أمية كان باطلاً، ولما تحقق من ذلك ندم على دسيسته التي أدت إلى قتل عبد العزيز، ولكن بعد فوات الأوان[٥].

٢. **أيوب بن حبيب اللخمي** (رجب – ذي الحجة ٩٧هـ/ آذار عام ٧١٦م)

أحدث مقتل عبد العزيز بن موسى فراغاً سياسياً في الأندلس، هذا إضافة إلى أن المسلمين في إشبيلية فقدوا إمامهم، وربما لبثوا بضعة أيام على هذه الحال[٦]، ثم أجمعوا على أيوب بن حبيب اللخمي "وكان رجلاً صالحاً يؤمهم لصلاتهم، فلما طال بهم المقام بلا والٍ ولّوه أمرهم"[٧].

---

[١] ابن عذاري، البيان المغرب: ٢٤/٢؛ وانظر: مجهول، أخبار مجموعة: ٢٠ حيث يذكر أنه قُتل "في عقب سنة ثمان وتسعين والخليفة بعد سليمان بن عبد الملك"؛ وابن الأثير، الكامل في التاريخ: ١٤٤/٤ حيث يورد روايتين إحداهما تجعل قتله سنة ٩٧هـ، والثانية تجعله سنة ٩٨هـ؛ وانظر أيضاً: النويري، نهاية الأرب: ٥٥/٢٤ ويذكر أنه قُتل في آخر سنة ٩٩هـ في آخر خلافة سليمان، والأرجح ما أثبتناه في المتن. انظر أيضاً: ابن عبد الحكم، فتوح إفريقية والأندلس: ٨٥.

[٢] ابن خلدون، تاريخ: ١٥١/٤.

[٣] ابن عذاري، البيان المغرب: ٢٥/٢. وقد اختلف ما قاله موسى لسليمان باختلاف روايات المصادر، وأكثرها تفصيلاً في ذلك: ابن قتيبة، الإمامة والسياسة: ٩٧/٢-٩٨؛ وانظر: ابن عبد الحكم، فتوح إفريقية والأندلس: ٨٥؛ ابن الأثير، الكامل في التاريخ: ١٤٤/٤؛ ابن القوطية، تاريخ افتتاح الأندلس: ٣٧-٣٨.

[٤] ابن قتيبة، الإمامة والسياسة: ٩٨/٢.

[٥] المصدر نفسه: ٩٨/٢.

[٦] يذكر صاحب أخبار مجموعة أن أهل الأندلس "أقاموا سنين لا يجمعهم والٍ" بعد مقتل عبد العزيز، انظر: أخبار مجموعة: ٢١؛ وانظر أيضاً: ابن القوطية، تاريخ افتتاح الأندلس: ٣٨.

[٧] مجهول، أخبار مجموعة: ٢١؛ المقري، نفح الطيب: ١٤/٣؛ ابن عذاري، البيان المغرب: ٢٥/٢؛ ابن خلدون، تاريخ: ١٥١/٤؛ ابن قتيبة، الإمامة والسياسة: ١٠٣/٢.

وأيوب بن حبيب اللخمي هو ابن أخت موسى بن نصير، وربما كانت هذه الصلة بموسى هي التي دفعت أهالي إشبيلية خاصة، وأهل الأندلس عامة إلى اختياره، هذا إضافة إلى أنه كان رجلاً صالحاً[١] كما ذكرنا. ومع هذا الموقف وهذه الصفات نستبعد ما أشارت إليه بعض المصادر، وما توصلت إليه بعض استنتاجات المؤرخين المحدثين من أن عبد العزيز بن موسى قُتل بمشورة أيوب[٢].

ولم تتجاوز ولاية أيوب بن حبيب اللخمي الستة أشهر[٣]، فقد عزله عنها سليمان ابن عبد الملك. ولم يُتح لأيوب أن يفعل الكثير خلال هذه المدة القصيرة التي لا شك في أنه أمضى جزءاً غير يسير منها في تهدئة الأوضاع، وإزالة ما كان من بلبلة نجمت عن مقتل الوالي السابق عبد العزيز بن موسى. وأهم ما فعله أيوب هو قيامه بنقل العاصمة من إشبيلية إلى قرطبة[٤]. وقد اتخذ من بلاط مغيث الرومي مقرّاً للوالي. ولم يكن هو الذي اختار هذا المقر، وإنما موسى بن نصير، إذ تذكر بعض المصادر أن موسى عندما استدعي إلى دمشق مر بقرطبة قبل أن يغادر إلى الأندلس، وقال لمغيث: "إن هذا القصر لا يصلح لك، وإنما يصلح للعامل الذي يكون بقرطبة. فتنحى عنه يومئذ"[٥]. واضطر مغيث إلى ترك بلاطه، حيث اتخذ داراً "فوق باب الجزيرة، وهو باب القنطرة مقابل الثلمة التي دخل منها أصحابه حين فتح قرطبة، وكانت داراً شريفة ذات سقي وزيتون وثمار"[٦].

وليس من شك في أن أيوب بن حبيب اللخمي قد قام ببعض النشاطات العسكرية، إذ يشير بناؤه للبلدة المعروفة باسمه: قلعة أيوب Calatayud إلى الشمال الشرقي من طليطلة إلى أنه وجه سراياه إلى تلك الجهات لتطهيرها من جيوب المقاومة القوطية التي لا بد أن يكون القوط تجمعوا فيها لمناوشة المسلمين. وهذه النشاطات التي قام بها أيوب

---

(١) ابن عذاري، البيان المغرب: ٢/٢٥.

(٢) مؤنس، فجر الأندلس: ١٣٣ اعتماداً على نص أورده صاحب كتاب فتح الأندلس: ٢٣.

(٣) ابن خلدون، تاريخ: ٤/١٥١؛ ابن عذاري، البيان المغرب: ٢/٢٥؛ المقري، نفح الطيب: ٣/١٤.

(٤) ابن عذاري، البيان المغرب: ٢/٢٥؛ مجهول، أخبار مجموعة: ٢١؛ المقري، نفح الطيب: ٣/١٤.

(٥) ابن عذاري، البيان المغرب: ٢/٢٥؛ مجهول، أخبار مجموعة: ٢١.

(٦) مجهول، أخبار مجموعة: ٢١.

تدل على أنه كان ذا همّة، وكان ينوي المحافظة على استمرارية الفتح، وتوسيع رقعتـــه، إلا أن عزله في وقت مبكر من ولايته حال دون ذلك. فقد بعث والي إفريقية إلى الأندلـس والياً قام بعزل أيوب[١].

الحرّ بن عبد الرحمن الثقفي (ذي الحجة ٩٧هـــ - رمضان١٠٠هـــ/٧١٦ - آذار ٧١٩م)

كان سليمان بن عبد الملك قد ولّى على إفريقية: محمد بن يزيد القرشي بدلاً مـــن عبد الله بن موسى بن نصير[٢]. وقد وجه هذا الوالي عـــاملاً إلى الأندلس هو الحر بـــن عبد الرحمن الثقفي، وذلك في ذي الحجة سنة ٩٧هـــ/٧١٦م[٣]، ووجه معه أربعمائة رجل من وجوه إفريقية[٤]. وقد وصف المقري هؤلاء الرجال بأن "منهم أول طوالع الأندلـــس المعدودين"[٥]. وربما كان الدافع وراء توجيه هذه القوة من الرجال مع الحر هو خشـــية والي إفريقية من مقاومة أيوب اللخمي للوالي الجديد، غير أن شيئاً من ذلك لم يحـــدث، إذ تسلّم الحر ولاية الأندلس دون عقبات.

ولم تشر المصادر إلى أي عمل قام به الحر الثقفي إن على المســـتوى التنظيمـــي الإداري أو على المستوى العسكري، باستثناء بعض الإشارات إلى أنه اتخذ مـــن قصـــر قرطبة (بلاط مغيث) مكاناً لسكناه، ونقل "السلطنة من إشبيلية إلى قرطبة"[٦]، وذلك على الرغم من أن ولايته امتدت سنتين وثمانية أشهر[٧].

---

[١] ابن خلدون، تاريخ: ١٥١/٤-١٥٢.

[٢] ابن الأثير، الكامل في التاريخ: ١٤٤/٤؛ وانظر: النويري، نهايـــة الأرب: ٥٤/٢٤؛ ابـــن عـــذاري، البيان المغرب: ٢٥/٢ ويذكر أن محمد بن يزيد هو مولى ابنة الحكم بـــن العـــاصي. وانظـــر أيضـــاً: مجهول، أخبار مجموعة: ٢٢ حيث يرد أن والي إفريقية هذا اسمه: عبد الله بن يزيد؛ وانظر أيضاً: ابـــن القوطية، تاريخ افتتاح الأندلس: ٣٨.

[٣] المقري، نفح الطيب: ١٤/٣؛ ابن عب الحكم، فتوح إفريقية والأندلس: ٨٦.

[٤] المقري، نفح الطيب: ١٤/٣؛ ابن عذاري، البيان المغرب: ٢٥/٢.

[٥] المقري، نفح الطيب: ١٤/٣.

[٦] المصدر نفسه: ١٤/٣؛ ابن عذاري، البيان المغرب: ٢٥/٢.

[٧] المقري، نفح الطيب: ١٤/٣؛ ابن خلدون، تاريخ: ١٥٢/٤؛ ابن عذاري، البيان المغرب: ٢٥/٢.

السمح بن مالك الخولاني (رمضان ١٠٠- ذي الحجة ١٠٢هـ/ آذار ٧١٩-٧٢١م)

كان سليمان بن عبد الملك الذي شهدت الأندلس في عهده كثيراً من الاضطرابات حالت دون تقدم يذكر في مجال الفتح والجهاد، كان قد توفي في صفر من سنة ٩٩هـ/أيلول ٧١٧م[١]، وتوفي قبله ولي عهده ابنه أيوب بن سليمان[٢]، فاستخلف عمر بن عبد العزيز[٣]. وكان عمر، رضي الله عنه، عادلاً صالحاً شديد الحرص على العناية بالمسلمين حيثما وجدوا. ويبدو أن أمر المسلمين في الأندلس كان يشغله، فقد أشفق عليهم وهم في ذلك المكان البعيد عن الشرق، وخشي أن يكونوا لقمة سائغة للعدو[٤]. ولذلك "كان رأيه نقل المسلمين منها وإخراجهم عنها لانقطاعهم عن المسلمين، واتصالهم بأعداء الله الكفار"[٥].

واختار عمر بن عبد العزيز رجلاً فاضلاً معروفاً بصلاحه والياً على الأندلس هو السمح بن مالك الخولاني، وعهد إليه أن يدرس أوضاعها، وأن يوافيه بتقرير شامل عنها، وعن أوضاع المسلمين فيها. وقدم السمح لتولي مسؤولياته في الأندلس في رمضان سنة ١٠٠هـ/نيسان ٧١٩م[٦] مزوداً بأوامر الخليفة بأن "يحمل الناس على طريق الحق، ولا يعدل بهم عن منهج الرفق"[٧]. وبأن يقوم أيضاً بتخميس القرى في يدي غُنّامها بعد أن يأخذ الخمس، وان يكتب إليه بصفة الأندلس وأنهارها[٨].

---

[١] ابن الأثير، الكامل في التاريخ: ١٥١/٤؛ الرقيق القيرواني، تاريخ إفريقية والمغرب: ٩٧؛ وانظر: ابن قتيبة، الإمامة والسياسة: ١١١/٢ وما بعدها.

[٢] ابن الأثير، الكامل في التاريخ: ١٥٠/٤.

[٣] المصدر نفسه: ١٥٢/٤.

[٤] ابن القوطية، تاريخ افتتاح الأندلس: ٣٩.

[٥] ابن عذاري، البيان المغرب: ٢٦/٢؛ وانظر: المقري، نفح الطيب: ١٥/٣.

[٦] المقري، نفح الطيب: ١٥/٣.

[٧] ابن عذاري، البيان المغرب: ٢٦/٢.

[٨] مجهول، أخبار مجموعة: ٢٣؛ وانظر: ابن خلدون، تاريخ: ١٥٢/٤.

ويدل طلب الخليفة عمر بن عبد العزيز تزويده بمعلومات عن الأندلس على أنه لم يكن يعرف عنها الكثير، وربما كان لا يعرف عنها شيئاً إلا ما تناقله الوافدون على دمشق، ومما سمعه منهم. ومثل عمر الشديد الحرص على الإسلام والمسلمين لا يقتنع إلا بأخبار موثوقة من رجل موثوق، ولذلك طلب من السمح ما طلب. وقد كتب إليه السمح بما طمأنه، إذ أكد له "أن الناس قد كثروا بها، وانتشروا في أقطارها"[1]، وأن الإسلام فيها قوي، وأن المسلمين أصبحت لهم فيها مدن كثيرة، ومعاقل حصينة[2]. ثم قام السمح بما أمره به عمر. وكان الخليفة قد عزل ولاية الأندلس عن ولاية إفريقية "اعتناءً بأهلها، وتهمماً بشأنها"[3]، فانفرد السمح بولايتها[4].

وكانت الأندلس في عهد السمح أكثر استقراراً منها في عهود سابقيه من الولاة، فقد انتهت أو خمدت تلك البلبلة التي تلت مقتل الحرّ بن عبد الرحمن الثقفي، وأتاح له ذلك وقتاً لتنظيم إدارة الأندلس مالياً، ومكّنه من إرسال بعض البعوث العسكرية في عمليات جهادية في الشمال[5]، كما أتاح له القيام ببعض الأعمال العمرانية[6]. وفي هذا المجال الأخير تذكر المصادر أن السمح كتب إلى الخليفة عمر بن عبد العزيز أن قنطرة "من تأسيس الأمم الدائرة"[7] كانت مبنية فوق نهر الوادي الكبير الذي تشير إليه بعض المصادر باسم نهر قرطبة لمروره فيها "وقد هدمها مدود النهر على مر الأزمان"[8]، واستأذنه في إعادة بنائها نظراً لأهميتها الكبيرة، وأكد له أنه قادر على ذلك، فلديه فائض من الخراج "بعد عطايا الجند ونفقات الجهاد"[9]. فوافق عمر على بناء القنطرة، كما وافق على بناء سور قرطبة المتثلّم من جهة الغرب لكي يتوافر للمدينة العاصمة سور

---

[1] ابن عذاري، البيان المغرب: ٢/٢٦.

[2] ابن القوطية، تاريخ افتتاح الأندلس: ٣٩.

[3] ابن عذاري، البيان المغرب: ٢/٢٦.

[4] المصدر نفسه: ٢/٢٦.

[5] مجهول، أخبار مجموعة: ٢٤.

[6] ابن عذاري، البيان المغرب: ٢/٢٦؛ المقري، نفح الطيب: ٣/١٥؛ ابن خلدون، تاريخ: ٤/١٥٢.

[7] ابن عذاري، البيان المغرب: ٢/٢٦.

[8] المصدر نفسه: ٢/٢٦.

[9] مجهول، أخبار مجموعة: ٢٤.

قوي من حجارة السور المتناثرة، كما أمره ببناء السور باللبن، ففعل، وتم بناء قنطرة قرطبة في سنة ١٠١هـ/٧٢٠م[١].

وفي مجال الجهاد نهض السمح بن مالك الخولاني بمهمة استئناف الفتوح، فتوجه على رأس جيشه إلى بلاد غالة* من أراضي الفرنجة، فافتتح مدينة أربونة، ثم مدينة طرسكونة[٢] (Tarascona)، ثم استأنف تقدمه حتى اقترب من مدينة طولوشة (Toulouse) عاصمة أقيطانية (Aquitania). غير أن دوق أقيطانية أو (أكيتانيا) تصدى له، واشتبك مع المسلمين في معركة عنيفة قرب طولوشة، ثم تكاثرت جنود الإفرنجة على السمح، وأحاطت بالمسلمين، وقتلت عدداً كبيراً منهم، وكان السمح أحد هؤلاء الشهداء، وذلك في يوم عرفة سنة ١٠٢هـ/١٠ حزيران ٧٢١م[٣]. وكانت ولايته سنتين وثمانية أشهر[٤].

عبد الرحمن الغافقي: المرة الأولى (ذي الحجة ١٠٢ صفر - ١٠٣هـ/ آب ٧٢١م):

اضطر من بقي من المسلمين في تلك المعركة مع دوق أكيتانيا إلى التراجع، وكان لا بد من قائد ينظم انسحابهم، ويعيد تنظيم صفوفهم، فاجتمعوا على عبد الرحمن الغافقي[٥]

---

[١] مجهول، أخبار مجموعة: ٢٤؛ وانظر: ابن عذاري، البيان المغرب: ٢٦/٢؛ المقري، نفح الطيب: ١٥/٣؛ ابن خلدون، تاريخ: ١٥٢/٤.

* كانت غالة قد انقسمت بعد سقوط الإمبراطورية الرومانية إلى عدة ولايات، منها ولاية سبتمانية الواقعة إلى الجنوب الشرقي من فرنسا، وسبتمانية تعني: المقاطعة ذات المدن السبع، فقد كانت تضم: أربونة، ونيمة (Nimes)، وآجد (Agde)، وبيزييه (Beziers)، ولوديف (Lodeve)، قرقشونة، ومجلون (Maguelone). وكانت أربونة التي افتتحها السمح هي العاصمة لهذه الولاية.

[٢] يذكرها ابن عذاري باسم طرسونة، ويبدو أنه أخطأ بسبب تشابه الأسماء بين طرسونة وطرسكونة، فالأخيرة هي المقصودة هنا إذ تقع في جنوبي فرنسا، وأما طرسونة الواقعة شمال سرقسطة فقد كان المسلمون قد فتحوها قبل عهد السمح بن مالك الخولاني. انظر: ابن عذاري، البيان المغرب: ٢٦/٢.

[٣] ابن عذاري، البيان المغرب: ٢٦/٢؛ ابن خلدون، تاريخ: ١٥٢/٤؛ المقري، نفح الطيب: ١٥/٣.

[٤] المقري، نفح الطيب: ١٥/٣؛ ابن خلدون، تاريخ: ١٥٢/٤؛ ابن عذاري، البيان المغرب: ٢٦/٢.

[٥] هو عبد الرحمن بن عبد الله الغافقي، وهو من التابعين، وقد روى عن عبد الله بن عمر بن الخطاب. انظر: المقري، نفح الطيب: ١٥/٣.



Abdu'r-Raḥmān al-Ghāfiqī at Poitiers (*Balāṭ ash-Shuhadā'*)

الذي تمكن من الانسحاب بالجيش، والإشراف على شؤون الأندلس منذ استشهاد السمح في ذي الحجة سنة ١٠٢هـ/٧٢١م[1] حتى قدوم والٍ جديد، هو عنبسة بن سحيم الكلبي.

عنبسة بن سحيم الكلبي (صفر ١٠٣- شعبان ١٠٧هـ/ آب ٧٢١-كانون الثاني ٧٢٦م)

لم يكن عبد الرحمن الغافقي خلال الشهرين اللذين أشرف خلالهما على شؤون الأندلس في أعقاب استشهاد السمح والياً بالمعنى المعروف، فلم يصدر تعيينه والياً عن الخليفة في دمشق، ولا عن والي إفريقية كما هو المعهود في تعيين ولاة الأندلس. لقد كان الغافقي قائداً عسكرياً من بين قادة جيش السمح، وقد توسّم فيه الجيش خيراً، فاختاره ليتولى القيادة بعد السمح سرّاً لما تركه استشهاده من فراغ في الميدانين العسكري والسياسي. ثم أصبح الغافقي والياً على الأندلس في فترة لاحقة.

لقد انتهت أخبار استشهاد السمح إلى إفريقية، فعين واليها يزيد بن أبي مسلم: عنبسة بن سحيم الكلبي، "وكان قدومه الأندلس في صفر سنة ١٠٣هـ(٧٢١م)[1]. وتدل إشارات المصادر على أن عنبسة كان تقياً ورعاً، كما كان إدارياً ناجحاً وعسكرياً مجاهداً، ومن ذلك ما ذكره المقري نقلاً عن ابن بشكوال، وهو قوله: "فاستقامت به الأندلس، وضبط أمرها، وغزا بنفسه إلى أرض الإفرنجة"[2]. ويبدو أنه قاد تلك الحملة التي أشار إليها المقري في سنة ١٠٥هـ/٧٢٤م، فقد ذكر ابن عذاري أن عنبسة خرج في تلك السنة "غازياً للروم بالأندلس، وأهلها يومئذ خيار فضلاء، أهل نية في الجهاد، وحسبة في الثواب، فألحّ على الروم في القتال والحصار حتى صالحوه" [3].

---

[1] ابن عذاري، البيان المغرب: ٢٦/٢.

[1] المقري، نفح الطيب: ١٦/٣؛ ابن عذاري، البيان المغرب: ٢٧/٢؛ وانظر: ابن خلدون، تاريخ: ١٥٢/٤. وانظر أيضاً: النويري، نهاية الأرب: ٥٦/٢٤ ويذكر أن الذي استعمل عنبسة على الأندلس هو والي إفريقية بشر بن صفوان الكلبي الذي وليها بعد مقتل يزيد بن أبي مسلم سنة ١٠٣هـ؛ وانظر أيضاً: ابن القوطية، تاريخ افتتاح الأندلس: ٣٩.

[2] المقري، نفح الطيب: ١٦/٣.

[3] ابن عذاري، البيان المغرب: ٢٧/٢.

ولم تذكر المصادر خط سير عنبسة الجهادي، غير أن هذا الخط يمكن تحديده بالرجوع إلى المراجع الإسبانية، واستقراء بعض الروايات، فقد افتتح عنبسة مدينة قرقشونة عنوة، ثم مدينة نيمة التي دخلها دون مقاومة، وبعد ذلك استأنف سيره حتى وصل إلى نهر رودنة، ثم توغل في المناطق الواقعة إلى الشمال من مدينة شالون (Chalon) حيث فتح مدينة أوتون (Autun). وبعد ذلك اجتاحت جيوش عنبسة معظم المناطق الشمالية حتى بلدة سانس Sens في فرنسا. وهي أبعد نقطة وصلتها الجيوش الإسلامية[1].

ولم يطل المقام بعنبسة مجاهداً في الشمال، إذ عاد إلى قرطبة مضطراً بعد أن وصلته أخبار بحدوث اضطرابات هناك بسبب العصبية القبلية، وللثارات بين القبائل، غير أنه لم يصل لتهدئة الأوضاع هناك، فقد كمن له بعض القوط واغتالوه في الطريق، وذلك في شعبان سنة ١٠٧هـ/٧٢٥م[2]. وكانت ولايته أربع سنوات وأربعة أشهر، "وقيل ثمانية أشهر"[3].

وتجدر الإشارة هنا إلى أنه في أيام عنبسة بن سحيم الكلبي ظهر في جليقية "علج خبيث يدعى بلاي*، فعاب على العلوج طول الفرار، وأذكى قرائحهم حتى سما بهم إلى الثورة في مرتفعات الجبال، ومن وقته أخذ نصارى الأندلس في مدافعة المسلمين عما بقي بأيديهم. وقيل: إنه لم يبق بأرض جليقية قرية فما فوقها لم تفتح إلا الصخرة التي لاذ بها هذا العلج، ومات أصحابه جوعاً إلى أن بقي في مقدار ثلاثين رجلاً ونحو عشر نسوة،

---

[1] لمزيد من التفاصيل انظر: سالم، تاريخ المسلمين وآثارهم في الأندلس: ١٣٨-١٣٩.

[2] ابن عذاري، البيان المغرب: ٢٧/٢؛ وانظر: المقري، نفح الطيب: ١٦/٣؛ ابن خلدون، تاريخ: ١٥٢/٤.

[3] المقري، نفح الطيب: ١٦/٣؛ ابن عذاري، البيان المغرب: ٢٧/٢.

* أشارت إلى بلاي هذا معظم المصادر الإسلامية، وقد أوردنا هذه الرواية للمقري هنا لأهميتها فيما سيكون من أحداث، حيث كان ما فعله بلاي القاعدة التي تأسست عليها دول النصارى التي انتهى بها الأمر إلى إخراج المسلمين من الأندلس فيما بعد. وبلاي (Pelayo) وباللاتينية (Pelagius) تمكن من تجميع فلول القوط في ركن قصي من جليقية تسميه المصادر العربية (الصخرة)، وقد أهمل المسلمون ذلك الركن الذي كان يقع في منطقة قاحلة، إلا أنه أصبح مكاناً خطراً على المسلمين بعد أن تمكن صاحب الصخرة (بلاي) من الصمود فيه، وإذكاء روح المقاومة لدى النصارى ضد المسلمين.

وما لهم عيش إلا من عسل النحل...في خروق الصخرة. وما زالوا ممتنعين بوعرها إلى أن يعيا المسلمين أمرهم، واحتقروهم، وقالوا: ثلاثون علجاً ما عسى أن يجيء منهم؟ فبلغ أمرهم بعد ذلك في القوة والاستيلاء ما لا خفاء به"[1]. وسيأتي تفصيل ذلك.

ومثلما حدث بعد استشهاد السمح بن مالك الخولاني حدث أيضاً بعد استشهاد عنبسة، فقد قدّم المسلمون عليهم أحد قادتهم، وهو عذرة بن عبد الله الفهري الذي تمكن من العودة بالجيش إلى أربونة، ومن ثم سيّر الأمور في الأندلس بانتظار الوالي الجديد الذي استغرق انتظاره نحو شهرين[2].

عذرة بن عبد الله الفهري (شعبان ١٠٧-شوال ١٠٧هـ/كانون الثاني ٧٢٦م- آذار ٧٢٦م)

يحيى بن سلمة (أو سلامة) العاملي الكلبي (شوال ١٠٧- ربيع الأول١١٠هـ/آذار ٧٢٦- تموز ٧٢٨م)

طلب أهل الأندلس – بعد استشهاد واليهم عنبسة – من بشر بن صفوان الكلبي، والي إفريقية، أن يرسل إليهم والياً[3]، فأرسل يحيى بن سلمة الكلبي "فقدمها في شوال سنة سبعٍ ومائة"[4]. وقد استمرت ولايته عليها سنتين وستة أشهر[5]، لا تشير المصادر إلى أنه قام خلالها بأي عمل، بل أكد المقري "أنه لم يغز فيها بنفسه غزوة"[6]، وذكر ابن خلدون أنه "لم يغز"[7]. وعبارة المقري تدل على أنه ربما وجه بعض السرايا في مهمات جهادية، ولكنه لم يقدها بنفسه.

---

[1] المقري، نفح الطيب: ١٧/٣.

[2] المصدر نفسه: ١٧/٣؛ ابن عذاري، البيان المغرب: ٢٧/٢.

[3] المقري، نفح الطيب: ١٨/٣؛ وانظر: ابن عذاري، البيان المغرب: ٢٧/٢ ويذكر أن هذا الوالي قدم "من عند أمير المؤمنين هشام بن عبد الملك".

[4] المقري، نفح الطيب: ١٨/٣؛ وانظر: ابن خلدون، تاريخ: ١٥٢/٤؛ ابن القوطية، تاريخ افتتاح الأندلس: ٣٩؛ مجهول، أخبار مجموعة: ٢٤.

[5] المقري، نفح الطيب:١٨/٣؛ ابن خلدون، تاريخ: ١٥٢/٤؛ ابن عذاري، البيان المغرب: ٢٧/٢.

[6] المقري، نفح الطيب: ١٨/٣.

[7] ابن خلدون، تاريخ: ١٥٢/٤.

وولي إفريقية بعد وفاة بشر بن صفوان الكلبي سنة ١٠٩هـ/٧٢٦م[١] عبيدة بن عبد الرحمن السلمي، وهو أخو الأعور السلمي، صاحب خيل معاوية في معركة صفين[٢]. وقد عزل عبيدة السلمي والي الأندلس، وأرسل إليها والياً آخر بدلاً منه، هو عثمان بن أبي نِسعة الخثعمي أو حذيفة بن الأحوص الأشجعي[٣].

حذيفة بن الأحوص الأشجعي (القيسي)[٤] (ربيع الأول ١١٠- المحرم ١١١هـ/ ٧٢٨ - ٧٢٩م)

ذكر المقري – عن ابن بشكوال – أن حذيفة أتى إلى الأندلس والياً من قبل عبيدة ابن عبد الرحمن السلمي، والي إفريقية "في ربيع الأول سنة عشر ومائة، وعزل عنها سريعاً أيضاً"[٥]. وقال ابن عذاري إن عبيدة ولاّه على الأندلس "في سنة ١١٠، فكانت ولايته ستة أشهر"[٦]. ولا تسعفنا المصادر الأخرى بأي تفصيلات عن سيرة هذا الوالي في الأندلس، إذ لم تزد المصادر التي ذكرته على إيراد اسمه بين ولاة الأندلس[٧].

---

(١) الرقيق القيرواني، تاريخ إفريقية والمغرب: ١٠٢.

(٢) المصدر نفسه: ١٠٤.

(٣) اختلفت المصادر فيمن ولّي على الأندلس منهما أولاً، فقد ذكر بعضها أن والي إفريقية أرسل بعد عزل عبيدة السلمي: عثمان بن أبي نسعة الخثعمي، انظر: ابن القوطية، تاريخ افتتاح الأندلس: ٣٩؛ ابن خلدون، تاريخ: ١٥٢/٤؛ المقري، نفح الطيب: ١٨/٣. بينما ذكر بعضها الآخر أنه أرسل بعد عبيدة: حذيفة بن الأحوص الأشجعي. وقد أشار المقري إلى هذا الاختلاف، فأورد عن ابن بشكوال قوله "على اختلاف فيه (في حذيفة) وفي ابن أبي نسعة أيهما تولى قبل صاحبه". انظر: المقري، نفح الطيب: ١٨/٣. وسبب هذا الاختلاف أن الواليين كليهما وليا الأندلس خلال سنة ١١٠هـ.

(٤) ابن عذاري، البيان المغرب: ٢٧/٢؛ المقري، نفح الطيب: ١٨/٣؛ ابن خلدون، تاريخ: ١٥٢/٤ ونسبه إلى قبيلة عتبة فقال: حذيفة بن الأحوص العتبي.

(٥) المقري، نفح الطيب: ١٨/٣.

(٦) ابن عذاري، البيان المغرب: ٢٧/٢.

(٧) انظر: مجهول، أخبار مجموعة: ٢٤؛ ابن القوطية، تاريخ افتتاح الأندلس: ٣٩؛ ابن خلدون، تاريخ: ١٥٢/٤.

عثمان بن أبي نِسعة الخثعمي (شعبان – ربيع الأول ١١٠هـ/٧٢٨م)

ذكر المقري – عن ابن بشكوال – أنه قدم على الأندلس والياً في شعبان سنة ١١٠هـ/٧٢٨م "ثم عُزل سريعاً بعد خمسة أشهر"[١]. وذكر مثل ذلك ابن عذاري، وأضاف "ثم عُزل وانصرف إلى القيروان، فمات بها"[٢]. أما ابن خلدون فلم يزد في ذكره لعثمان على القول بأن صاحب إفريقية "عزله لخمسة أشهر بحذيفة بن الأحوص العتبي فوافاها سنة عشر"[٣]. وما يمكن استنتاجه من هذه الروايات هو أن الوالي عثمان بن أبي نسعة الخثعمي لم يقم بأمر ذي بال إن في مجال الجهاد أو في مجال التنظيم والإدارة. ويمكن القول أنه ربما انشغل في تهدئة أوضاع أدى إلى اضطرابها العصبيات القبلية، أو أنه لم يكن من حيث القدرة على تحمل المسؤولية بالكفاءة التي توقعها والي إفريقية، ولذلك استبدل به غيره بعد فترة قصيرة لم تتجاوز الخمسة أشهر.

الهيثم بن عُبيد الكناني (أو الكلابي)[٤] (المحرم ١١١هـ/شباط ٧٢٩-٧٣٠م)[٥]:

ولاّه الأندلس عبيدة بن عبد الرحمن السلمي، والي إفريقية[٦]، مثلما ولّى من قبل سابقيه: عثمان وحذيفة. وتجدر الإشارة هنا إلى أن والي إفريقية هذا كان قيسياً، وأن جميع من ولاّهم الأندلس كانوا قيسيين، ولا بد أن ذلك أثار حفيظة اليمنية، وخاصة الكلبيين منهم. ويلاحظ المتتبع لتاريخ الأندلس أن الصراع بين القيسية واليمنية أخذ يشتد منذ

---

(١) المقري، نفح الطيب: ١٨/٣.

(٢) ابن عذاري، البيان المغرب: ٢٨/٢.

(٣) ابن خلدون، تاريخ: ١٥٢/٤.

(٤) اختلفت المصادر في اسمه، والأرجح ما ذكره ابن عذاري، وهو الاسم الذي أثبتناه في المتن. انظر: ابن عذاري، البيان المغرب: ٢٨/٢. أما ابن القوطية فقد ذكره باسم: الهيثم بن عبد الكافي (تاريخ افتتاح الأندلس: ٣٩)؛ وصاحب أخبار مجموعة ذكره باسم: الهيثم بن عفير الكناني (٢٤)، وذكره المقري باسم: الهيثم بن عديّ الكلابي (نفح الطيب: ١٨/٣).

(٥) واختلفت المصادر أيضاً في مدة ولايته، فجعلها ابن خلدون سنتين (تاريخ: ١٥٢/٤)؛ وجعلها المقري "سنتين وأياماً، وقد قيل: أربعة أشهر" (نفح الطيب: ١٨/٣). أما ابن عذاري فذكر أن ولايته كانت "عشرة أشهر، وقيل غير ذلك... وقيل سنة وشهرين" (البيان المغرب: ٢٨/٢).

(٦) ابن خلدون، تاريخ: ١٥٢/٤؛ المقري، نفح الطيب: ١٨/٣.

عهد الهيثم، واستمر بعد ذلك، وأثّر تأثيراً مباشراً على توجيه الأحداث. وهو ما سنلحظه فيما بعد.

ومن جهة أخرى لم يكن عهد الهيثم من الناحية الجهادية خاملاً مثلما كانت عهود ابن سلمة، وعثمان بن أبي نسعة الخثعمي، وحذيفة بن الأحوص الأشجعي، فقد أشارت المصادر إلى أنه "غزا منوسة"[1]، أو – كما يذكر ابن خلدون – "وغزا أرض مقرشة فافتتحها"[2]. وهذه الإشارات تدل على أن الهيثم قاد الجيش الإسلامي في الأندلس، وقام بنشاط عسكري ربما كان كبيراً، ولكن أين؟ وضد من؟ فأمر لم تحدده المصادر. إن ما تدل عليه عبارة ابن عذاري وابن خلدون هو أن الهيثم غزا أرضاً تدعى منوسة، أو كما يسميها ابن خلدون (مقرشة)، وهي – على الأرجح – الأرض نفسها، وإنما غلط ابن خلدون في نقل اسمها من مصدره. فهل هناك أرض اسمها منوسة، أم أن الأمر يتعلق بالزعيم البربري الذي دخل الأندلس مع جيش طارق بن زياد، واسمه مونوسة؟ كما أشرنا إلى ذلك من قبل.

إن مونوسة – على الأرجح – هو ذلك الزعيم الذي دخل الأندلس مع جيش طارق ابن زياد، وهو أحد زعماء البربر الذين كان يتألف منهم معظم جيشه، وبالتالي فإن ما ذهب إليه بعض المؤرخين من أن منوسة اسم مكان ربما يكون مدينة ماسون Macon الفرنسية الواقعة إلى الشمال من مدينة ليون Lyon على وادي رودنة (نهر الرون Rhone)، وأن الهيثم بن عبيد الكناني – حسب رواية ابن عذاري وابن خلدون – قد وصل إليها، إن ما ذهب إليه هؤلاء المؤرخون يفتقر إلى الدليل القاطع[3]. وسنلاحظ أن والي الأندلس عبد الرحمن الغافقي قد اشتبك في بعض حروبه، أثناء محاولاته فتح بلاد غالة مع قوات مونوسة، بعد أن ثار هذا الأخير، وتحالف مع دوق أكيتانيا النصراني ضد المسلمين.

---

(1) ابن عذاري، البيان المغرب: ٢٨.

(2) ابن خلدون، تاريخ: ١٥٢/٤؛ وانظر: المقري، نفح الطيب: ٢٣٥/١.

(3) انظر: الحجي، التاريخ الأندلسي: ١٩٢–١٩٣؛ ولمزيد من التفاصيل حول مونوسة وثورته وتحالفه مع النصارى ضد المسلمين انظر: مؤنس، فجر الأندلس: ٢٥٠ وما بعدها؛ وانظر أيضاً: طه، الفتح والاستقرار: ٣٤٤–٣٤٥.

توفي الهيثم بن عبيد الله الكناني سنة ١١١هـ/٧٢٩م[1]، وعيّن أهل الأندلس على أنفسهم محمد بن عبد الله الأشجعي "قدّمه الناس عليهم، وكان فاضلاً فصلى بهم شهرين"[2]، وكان والي إفريقية في تلك الأثناء: عبيدة بن عبد الرحمن السلمي القيسي، وهو الذي وجه من قبل عدداً من الولاة القيسيين إلى الأندلس باعتبارها تابعة لوالي إفريقية. ويبدو أن هذا الوالي لم يرض عن اختيار أهل الأندلس للأشجعي، إذ ما إن انتهت إليه أخبار وفاة الهيثم، حتى أرسل إلى الأندلس والياً جديداً هو عبد الرحمن الغافقي الذي يصفه ابن عبد الحكم بأنه كان "رجلاً صالحاً"[3].

عبد الرحمن بن عبد الله الغافقي (صفر ١١٢-رمضان ١١٤هـ/نيسان ٧٣٠-٧٣٢م)

ينتسب الغافقي إلى قبيلة غافق، ويرجع في نسبه إلى بني عكّ بن عدنان[4]، فهو ليس من اليمانية كما زعم بعض المؤرخين[5]. وقد ولاّه الأندلس "عبيدة بن عبد الرحمن القيسي صاحب إفريقية"[6]، وهو بتوليته لم يخرج على سياسته في تولية الأندلس ولاةً من العدنانيين بشكل عام[7].

كان عبد الرحمن الغافقي من أعظم قواد المسلمين في الأندلس، يدل على ذلك ما بذله من جهد في المعركة التي استشهد فيها السمح بن مالك، حيث أبلى بلاء حسناً، وتمكن من الانسحاب بمن بقي من جيش المسلمين في تلك المعركة. وليس من شك في أنه

---

(1) لم تذكر المصادر تاريخ وفاته بالتحديد، انظر: ابن عذاري، البيان المغرب: ٢٨/٢؛ المقري، نفح الطيب: ١٨/٣.

(2) المقري، نفح الطيب: ١٨/٣.

(3) ابن عبد الحكم، فتوح إفريقية والأندلس: ٩٤.

(4) ابن حزم، أبو محمد علي بن أحمد بن سعيد بن حزم الأندلسي، جمهرة أنساب العرب، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان ١٩٨٣: ٣٢٨-٣٢٩.

(5) العبادي، في تاريخ المغرب والأندلس: ٨٧.

(6) المقري، نفح الطيب: ١٥/٣؛ وانظر: ابن عذاري، البيان المغرب: ٥١/١.

(7) ابن عبد الحكم، فتوح إفريقية والأندلس: ٩٢ حيث ينسب عبد الرحمن إلى بني عك فيقول "عبد الرحمن بن عبد الله العكي".

كان منذ ذلك الوقت تواقاً للجهاد في سبيل الله راغباً في اختراق جبال البرت للقاء الإفرنجة أينما وجدوا، وقد وجد في ارتقائه سدّة الولاية الفرصة الملائمة لتحقيق ما تاقت نفسه إليه.

بدأت ولاية الغافقي في صفر ١١٢هـ/أيار ٧٣٠م[١]، وأمضى شطراً منها في النظر في مظالم الناس، ورفع المظالم عنهم، ثم تفرغ للجهاد، غير أن المصادر لم تلق على هذا الجانب من حياته غير ضوء خافت، فلم يزد المقري على القول في موضع "وغزا الإفرنجة، وكانت له فيهم وقائع، وأصيب عسكره في رمضان سنة أربع عشرة في موضع يعرف ببلاط الشهداء، وبه عُرفت الغزوة، وكانت ولايته سنة وثمانية أشهر"[٢]. وقال المقري في موضع آخر "واستشهد في قتال العدو بالأندلس سنة خمس عشرة"[٣]. وقال ابن عذاري "أقام والياً سنتين وسبعة أشهر، وقيل: وثمانية أشهر. واستشهد في أرض العدو في رمضان سنة ١١٤هـ"[٤]. وفي موضع آخر ذكر ابن عذاري أن الغافقي غزا الروم "واستشهد مع جماعة من عسكره سنة ١١٥هـ بموضع يعرف ببلاط الشهداء"[٥]. وأما ابن عبد الحكم فقد أشار أيضاً إلى أن الغافقي غزا إفرنجة "وهم أقاصي عدو الأندلس فغنم غنائم كثيرة، وظفر بهم...ثم خرج إليهم أيضاً غازياً فاستشهد وعامة من أصحابه..وكان قتله في سنة خمس عشرة ومائة"[٦].

وهكذا فإن روايات المصادر التي أشرنا إليها لم تعط أي تفصيلات عن النشاط العسكري لعبد الرحمن الغافقي، ولم توضح طبيعة معركة بلاط الشهداء أو مكانها أو عدد المحاربين الذين خاضوها أو سنة وقوعها، إذ نجدها عند بعضهم سنة ١١٤هـ وعند آخرين سنة ١١٥هـ، بل أورد بعضهم تاريخين مختلفين لوقوع هذه المعركة الفاصلة التي استشهد فيها "أهل البلاط الشهداء، واستشهد معهم واليهم عبد الرحمن"[٧].

---

[١] ابن عذاري، البيان المغرب: ٢٨/٢.

[٢] المقري، نفح الطيب: ٢٣٦/١.

[٣] المصدر نفسه: ١٥/٣.

[٤] ابن عذاري، البيان المغرب: ٢٨/٢.

[٥] المصدر نفسه: ٥١/١.

[٦] ابن عبد الحكم، فتوح إفريقية والأندلس: ٩٢-٩٣.

[٧] مجهول، أخبار مجموعة: ٢٥.

إن التفسير الوحيد لتجنب المصادر الإسلامية ذكر تفاصيل معركة بلاط الشهداء هو ما لحق بالمسلمين في هذه المعركة من خسائر، فقد استغنوا بالإشارة إليها عن الخوض في ما أحاق بهم من مصائب، ولذلك فإن التأريخ لهذه المعركة، والتعرف على النشاط العسكري لعبد الرحمن الغافقي خلف جبال البرت لا بد أن يستمد معلوماته من المصادر الإسبانية، وهي مصادر غير محايدة، ولذلك يجب التعامل معها بحذر شديد.

تضمنت الخطة العسكرية التي رسمها عبد الرحمن الغافقي لفتح بلاد غالة القيام أولاً بتصفية الثورة التي حركها مونوسة في منطقة شرطانية، وخاصة أنه عقد الصلح مع النصارى، وتحالف معهم ضد المسلمين، وسهّل له ذلك مصاهرته لهم، إذ تزوج – على الأرجح – من ابنة الدوق أودو، دوق أكيتانيا: لامبيجية (Lampegie)، ووثق علاقاته معه[١].

لقد وجه الغافقي حملة عسكرية للقضاء على ثورة مونوسة، ولما اقتربت القوات الإسلامية منه هرب إلى الجبال، واعتصم بها، غير أن المسلمين لاحقوه. ولما أدرك أنهم لن يتركوا له فرصة للنجاة ألقى بنفسه من فوق صخرة شاهقة، أو ربما سقط عنها فلقي حتفه[٢].

وسار الغافقي – بعد مقتل مونوسة – على رأس جيشه مستهدفاً غالة للتوسع فيها، وتثبيت موطئ قدم المسلمين في المناطق الشمالية خلف جبال ألبرت، وربما كان ينوي إسكان بعض البربر في المناطق الشمالية الغربية من الأندلس، فقد اصطحب جيشه النساء والأطفال والممتلكات، ولم يكونوا ليفعلوا ذلك لو لم يكن في نيتهم الاستقرار هناك[٣].

---

[١] مؤنس، مجلة كلية الآداب، جامعة فؤاد الأول، المجلد الحادي عشر، ج١، مايو ١٩٤٩م، مطبعة جامعة فؤاد الأول، ١٩٤٩: ٦٣؛ وانظر أيضاً: طه، الفتح والاستقرار: ٣٤٤.

[٢] طه، الفتح والاستقرار: ٣٤٤-٣٤٥؛ وانظر: سالم، تاريخ المسلمين وآثارهم في الأندلس: ١٤١. وقد أسر المسلمون الأميرة لامبيجيه، وأرسلوها إلى الخليفة الأموي في دمشق.

[٣] طه، الفتح والاستقرار: ٣٤٥.

عبر الغافقي جبال البرت بالقرب من بنبلونة Pamplona عن طريـــق ممــرات رونشفالة Roncesvalles وذلك في أوائــل سنة ١١٤هـــ/٧٣٢م[١]، وكان جيشه يـــتراوح بين سبعين ألفاً ومائة ألف يذكر مؤنس أن جلّهم من البربر، وذلك لأن العرب فـــي تلـــك الأثناء كانوا قد انصرفوا إلى الاشتغال بالزراعة من ناحية، وإلى التناحر فيما بينهم بسبب العصبيات القبلية التي ثارت بين القيسية واليمنية من ناحية أخرى[٢]، تلك العصبيات التـــي كانت تسيطر أيضاً على العرب المرافقين لعبد الرحمن الغافقي، المشاركين له فـــي تلـــك الحملة، مما كان يوقع بينهم انقسامات حادة[٣].

اتجه الغافقي إلى دوقية أكيتانيا، وقبل أن يهاجمها أرسل فرقة من قواته إلى وادي رودنة، حيث استطاعت تلك الفرقة استرجاع مدينة آرل Arles التي كانت قـــد تمـــردت، وشقت عصا الطاعة على المسلمين، وبذلك أمـــن خطوطـــه الخلفيـــة قبـــل أن يـــهاجم أكيتانيا[٤]. وفي الوقت نفسه الذي تم خلاله استعادة آرل كانت جيوش الغافقي تزحف نحو الشمال في قلب الدوقية مستهدفة عاصمتها بوردو (Bordeaux) الواقعة على مصب نـــهر الجارون (Garonne)، وعندئذ خفّ الدوق أودو بقواته لكي يوقف زحف المسلمين، غـــير أنه لم يتمكن من الصمود أمامهم، فبعد معركة عنيفة وقعت بين الطرفين، وقتل عدد كبير من فرسانه اضطر إلى التقهقر شمالاً، تاركاً عاصمته، فدخلها المسلمون فاتحين، واستولوا على ما فيها من نفائس كثيرة[٥].

واستأنف المسلمون بعد هذا النصر زحفهم، حيث انساحوا في المنطقة، وغنمـــوا غنائم كثيرة، وبدت المنطقة أمامهم مفتوحة قليلة المقاومة، وكان هدفهم التالي مدينة تـــور التي تضم دير سان مارتان الغني بالنفائس والكنوز، فقد عزموا على فتحها، والاســـتيلاء على كل ما فيها[٦]. وكانت مدينة تور من أهم مدن دوقية أكيتانيا، بل أهمها بعد العاصمـــة بوردو.

---

[١] مؤنس، فجر الأندلس: ٢٦٣؛ سالم، تاريخ المسلمين وآثـــارهم فـــي الأندلـــس: ١٤٢؛ طـــه، الفتـــح والاستقرار: ٣٤٥.

[٢] مؤنس، فجر الأندلس: ٢٦٣.

[٣] سالم، تاريخ المسلمين وآثارهم في الأندلس: ١٤٣.

[٤] مؤنس، فجر الأندلس: ٢٦٥؛ سالم، تاريخ المسلمين وآثارهم في الأندلس: ١٤٢.

[٥] مؤنس، فجر الأندلس: ٢٦٦؛ سالم، تاريخ المسلمين وآثارهم في الأندلس: ١٤٢.

[٦] مؤنس، فجر الأندلس: ٢٦٦؛ سالم، تاريخ المسلمين وآثارهم في الأندلس: ١٤٢.

حفزت الانتصارات المتلاحقة التي حققها عبد الرحمن الغافقي على المضي في زحفه المظفر، وأما الدوق أودو فقد دفعه عجزه عن مقاومة هذا الزحف، وإيقافه، إلى طلب النجدة من قارلة (شارل مارتل)[1]، (Charles Martel) أو (شارل المطرقة) (Carlos Martel) الذي سارع إلى نجدته، حيث وجد أن من مصلحته الاتحاد مع دوق أكيتانيا للتصدي للمسلمين، ووقف تقدمهم. ويبدو أن شارل مارتل وجد في استنجاد الدوق أودو به فرصة ذهبية، تتيح توحيد القوى النصرانية ضد المسلمين، ولذلك "حشد جيشاً ضخماً من الفرنج ومختلف العشائر الجرمانية المتوحشة، والعصابات المرتزقة فيما وراء الرين، يمتزج فيه المقاتلة من أمم الشمال كلها، وجلب جنداً غير نظاميين، نصف عراة يتشحون بجلود الذئاب، وتتسدل شعورهم الجعدة فوق أكتافهم العارية"[2]. وزود شارل مارتل هذا الجيش الذي ضم كثيراً من العناصر البربرية بأسلحة متفوقة على أسلحة المسلمين[3].

كان جيش عبد الرحمن الغافقي قد وصل إلى مدينة بواتييه (Poitiers) ودخلها، ثم واصل الزحف شمالاً نحو مدينة تور (Tours)[4]. وأما شارل مارتل فقد تحرك بجيشه الهائل لملاقاة الغافقي، والتقى الجيشان في سهل يقع – على الأرجح – إلى الشمال من بواتييه، بالقرب من الطريق الروماني بين بواتييه وشاتلرو Chatellerault على بعد نحو عشرين كيلومتراً إلى الشمال الشرقي من بواتييه[5]. وربما كانت في المكان الذي يسمى اليوم: موسيّه لاباتي (Moussais La Bataille) حيث اكتشف هناك خندق يسمى خندق الملك بين مدينتي تور وبواتييه، وقد وجدت فيه بعض السيوف العربية[6].

---

[1] كان شارل مارتل حاجب ملك الفرنجة، وكان على عداء مع الدوق أوردو، دوق أكيتانيا، ولكن المصلحة وحّدت بينهما.

[2] عنان، دولة الإسلام في الأندلس: ١/٩٩؛ وانظر: مؤنس، فجر الأندلس: ٢٦٧.

[3] سالم، تاريخ المسلمين وآثارهم في الأندلس: ١٤٢-١٤٣؛ وانظر: مؤنس، فجر الأندلس: ٢٦٧.

[4] سالم، تاريخ المسلمين وآثارهم: ١٤٤.

[5] انظر حول مكان المعركة: الحجي، التاريخ الأندلسي: ١٩٤؛ مؤنس، فجر الأندلس: ٢٧٠-٢٧١؛ سالم، تاريخ المسلمين وآثارهم في الأندلس: ١٤٤.

[6] الحجي، التاريخ الأندلسي: ١٩٥.

وقعت المعركة في أواخر شعبان من سنة ١١٤هـ/ منتصف تشرين الأول ٧٣٢م، وقد بدأت بمناوشات محدودة استغرقت بضعة أيام، ثم اشتبك الجيشان في قتال عنيف، أظهر المسلمون خلاله ثباتاً واستبسالاً، ولكنهم لم يتمكنوا من اختراق صفوف النصارى[١]. وتفوق المسلمون في مساء اليوم الثاني من وقوع المجابهة الرئيسية، وكادوا يلحقون الهزيمة بأعدائهم، وعندئذ فطن الدوق أودو الذي عرف المسلمين عن كثب أن من عادتهم ترك غنائمهم في مؤخرة الجيش، فقاد فرقة من جند النصارى التفت على جيش المسلمين وهاجمت مؤخرته حيث توجد الغنائم، فهرع جند المسلمين لحمايتها، مما أدى إلى اضطراب صفوفهم[٢]. وقد حاول عبد الرحمن الغافقي تنظيم الجيش، وإعادته إلى ساحة المعركة الرئيسية، غير أن سهماً أصابه أثناء ذلك، فأرداه شهيداً[٣].

كان لاستشهاد القائد عبد الرحمن الغافقي وقع سيء على جند المسلمين، فقد انهارت معنوياتهم، وشلّت قدرتهم على الصمود. واستغل النصارى ذلك فأحاطوا بالمسلمين من كل صوب، وراحوا يحصدونهم حصداً. واستمرت المعركة حتى حلّ الظلام، وعندئذ حجزت العتمة بين الجيشين، وعاد كل منهما إلى معسكره بانتظار الصباح لاستئناف القتال، غير أن من بقي من جيش المسلمين قرروا الانسحاب تحت جنح الظلام، وتسللوا في أوائل رمضان ١١٤هـ/ ٢٠ تشرين الأول ٧٣٢م نحو الجنوب الشرقي حيث وصلوا إلى أربونة، وتحصنوا فيها[٤].

وأما النصارى فقد أمضوا ليلتهم وهم يبيتون القضاء المبرم على جيش المسلمين، ولما أصبحوا تقدموا إلى مضارب المسلمين، فإذا هي خالية من الرجال، ولكنها ممتلئة بالغنائم التي تركها المسلمون إما ليتلهى بها النصارى عنهم وعن ملاحقتهم، وإما لأنهم لم يتمكنوا من حملها بسبب قلة عددهم بعد أن استشهدت أعداد كبيرة منهم. وعلى كل حال لم يفكر شارل مارتل لمطاردة فلول المسلمين بعد أن اجتاح جيشه معسكرهم، وربما أحجم عن ذلك خشية أن يكون المسلمون قد أعدوا كميناً له، ولذلك آثروا العودة إلى الشمال[٥].

---

[١] مؤنس، فجر الأندلس: ٢٧٤؛ سالم، تاريخ المسلمين وآثارهم في الأندلس: ١٤٤.

[٢] مؤنس، فجر الأندلس: ٢٧٤؛ سالم، تاريخ المسلمين وآثارهم في الأندلس: ١٤٥.

[٣] طه،الفتح والاستقرار:٣٤٦؛ سالم،تاريخ المسلمين وآثارهم:١٤٥؛ وانظر:مؤنس، فجر الأندلس:٢٧٤.

[٤] سالم، تاريخ المسلمين وآثارهم: ١٤٥؛ مؤنس، فجر الأندلس: ٢٧٤.

[٥] سالم، تاريخ المسلمين وآثارهم: ١٤٥؛ مؤنس، فجر الأندلس: ٢٧٥؛ طه، الفتح والاستقرار: ٣٤٦؛ وانظر أيضاً: العبادي، في تاريخ المغرب والأندلس: ٨٨.

وهكذا انتهت معركة بلاط الشهداء بهزيمة ساحقة، وتكبد المسلمون خلالها خسائر فادحة، وفقدوا فيها قائدهم عبد الرحمن الغافقي. وكان توغل المسلمين في مناطق نائية عن أماكن إمدادهم، وما اصطحبوه معهم من نساء وأطفال أعاقوا حركتهم، وعدم التجانس بينهم كعرب وبربر مع أن الإسلام آخى بينهم، ووجود الانقسامات الناجمة عن العصبية القبلية، وحقد البربر على العرب خاصة بعد مقتل الزعيم مونوسة، كان ذلك من أهم أسباب هزيمة المسلمين في بلاط الشهداء[1].

لقد ترتب على هزيمة المسلمين في معركة بلاط الشهداء نتائج بالغة الأهمية على الصعيدين الأوروبي والإسلامي، فعلى الصعيد الأوروبي وضعت حداً للتوسع الإسلامي في أوروبا، وبالتالي فقد حُرمت تلك القارة التي كانت تعاني حينئذ من التأخر والانحطاط من انتشار الحضارة في أرجائها، وظلت تعاني من ظلام العصور الوسطى حتى وقت متأخر امتد إلى أوائل القرن التاسع عشر الميلادي. وعلى الصعيد الإسلامي أصبح قادة المسلمين يحسبون لقوة شارل مارتل حساباً كبيراً، ويبدو أن أملهم انقطع منذ تلك المعركة في اجتياح أوروبا والوصول إلى القسطنطينية من جهة الغرب، وهو ما كان يعمل على تحقيقه قادة الجيش الإسلامي السابقون، مثل طارق بن زياد، وموسى بن نصير، والذي ربما فكر فيه الخليفة الراشدي عثمان بن عفان، كما أشرنا إلى ذلك من قبل.

عبد الملك بن قطن الفهري (شوال ١١٤- شوال ١١٦هـ/تشرين الأول٧٣٢- تشرين الثاني٧٣٤م)

ولاّه على الأندلس والي إفريقية عبيدة بن عبد الرحمن السلمي[2]، وكان مقيماً في الأندلس، وأغلب الظن أنه كان من جند العرب فيها[3]. وقد ذكر ابن عذاري أن اسمه: عبد الملك بن قطن بن نُفيل بن عبد الله الفهري، وقال: "فدخلها في شهر رمضان

---

[1] انظر تفصيلات أكثر لأسباب هزيمة المسلمين في معركة بلاط الشهداء عند مؤنس، فجر الأندلس: ٢٦٩؛ سالم، تاريخ المسلمين وآثارهم: ١٤٣.

[2] ابن الأثير، الكامل في التاريخ: ٢١٥/٤؛ المقري، نفح الطيب: ٢٣٦/١؛ ابن عبد الحكم، فتوح إفريقية والأندلس: ٩٣.

[3] مؤنس، فجر الأندلس: ٢٧٦.

المذكور الذي توفي فيه عبد الرحمن الغافقي، فألفاه قد استشهد. وقيل: دخلها في شوال من سنة ١١٤. وكانت ولايته سنتين؛ وقيل غير ذلك"[١]. وقال المقري: "وقدم في رمضان سنة أربع عشرة، فولي سنتين"[٢]. وذكر صاحب أخبار مجموعة أن اسمه: عبد الملك ابن قطن المحاربي، وأنه من فهر من قريش، وأشار إلى أنه ولي مرتين "وولايته الأولى نحو من ستة أشهر لم تطل"[٣]. وأكد ابن عبد الحكم أن عبد الملك بن قطن ولي الأندلس في شهر رمضان سنة ١١٤هـ/٧٣٢م[٤].

وتفيد هذه الروايات أن ابن قطن وُلّي على الأندلس بعد استشهاد الغافقي، وأن ولايته وقعت مرتين، وسيتبين فيما يلي كيف تمت ولايته للمرة الثانية، وأنها كانت أقصر مدة من ولايته الأولى بعكس ما أكده صاحب أخبار مجموعة.

أدرك عبد الملك بن قطن ما خلّفته هزيمة المسلمين في معركة بلاط الشهداء من آثار سيئة، فقد انهارت معنوياتهم، وكان لا بد له من استعادة الزخم الجهادي في نفوسهم، ورفع معنوياتهم، وإعادة تنظيم صفوفهم، وفرض هيبتهم في الشمال من جديد، ولذلك بادر إلى الجهاد في أرض البشكنس، حيث قاد الجيش الإسلامي إلى هناك "سنة خمس عشرة ومائة، فأوقع بهم وغنم"[٥]. وعبر جبال ألبرت إلى لانجدوك، وعمل على تحصين المدن والمواقع التي ظلت في أيدي المسلمين[٦].

وتجدر الإشارة هنا إلى أن أمراء الأطراف الشمالية من النصارى قد استغلّوا تقهقر المسلمين إلى أربونة، وانشغال شارل مارتل في بسط سلطانه على المناطق التي جلا عنها المسلمون، كما استغلوا تلاشي قوة الدوق أودو ليقتسموا نواحي سبتمانية فيما بينهم. وكان التنافس بينهم شديداً وصل في بعض الأحيان إلى الإحتراب، والاستعانة بالمسلمين ضد بعضهم بعضاً[٧]. وكان ذلك في صالح المسلمين، إذ مكنهم من الثبات في

---

[١] ابن عذاري، البيان المغرب: ٢٨/٢.

[٢] المقري، نفح الطيب: ٢٣٦/١.

[٣] مجهول، أخبار مجموعة، فتوح إفريقية والأندلس: ٩٣.

[٤] ابن عبد الحكم، فتوح إفريقية والأندلس: ٩٣.

[٥] المقري، نفح الطيب: ٢٣٦/١ و١٩/٣.

[٦] مؤنس، فجر الأندلس: ٢٧٦؛ سالم، تاريخ المسلمين وآثارهم في الأندلس: ١٤٦.

[٧] مؤنس، فجر الأندلس: ٢٧٧.

مواقعهم، بعد أن كانوا شبه محصورين، وخاصة في أربونة[1]. وكان ممن استعانوا بالمسلمين دوق مرسيلية: مورنت (Maurontes) الذي اقتطع لنفسه معظم إقليم بروفانس. فقد اتفق مع حاكم أربونة المسلم الذي تسميه المراجع النصرانية: يوسف (Jussef)، وهو على الأغلب يوسف بن عبد الرحمن الفهري آخر ولاة الأندلس[2].

وقد تعاون جيش يوسف وجيش مورنت معاً، وسارا نحو وادي رودنة، وعبراه إلى مدينة آرل، حيث أعاد يوسف فتحها، ثم زحف الجيش المشترك إلى قلب بروفانس، واستولى على مدينة فريتا (Fretta) التي تعرف اليوم باسم: يان ريمي دي بروفانس (Remi–Saint)، ثم وصل إلى صخرة أبنيون (Avignon)، وافتتحها بعد قتال عنيف. وبذلك افتتح المسلمون تلك المواقع مرة أخرى مستعيدين معظم ما فقدوه إثر هزيمتهم في موقعة بلاط الشهداء[3].

وكان متوقعاً أن تجتذب تلك الأحداث شارل مارتل، وأن يسارع إلى التصدي لها، وأن لا يسمح بما فعله الزعماء من النصارى في نواحي سبتمانية، ولا بما قام به المسلمون من نشاطات عسكرية ناجحة هناك. غير أنه لم يحرك ساكناً في هذا المجال، وبدلاً من ذلك استغل وفاة أودو دوق أكيتانيا سنة ٧٣٥م، وأرغم ابنه على حلف يمين الولاء له[4].

ويلاحظ مما تقدم أن والي الأندلس عبد الملك بن قطن الفهري لم يتصد بنفسه للجهاد في الشمال، وإنما قام بذلك أحد قادة الجيش، وهو يوسف الفهري. ويرجح مؤنس أن ابن قطن وجه همه نحو إمارات جبال البرت، وكان أهلها شديدي المراس، تعودوا على حرب العصابات، وقد التقى عبد الملك معهم في حروب هزموه فيها[5].

---

[1] مؤنس، فجر الأندلس: ٢٧٧-٢٧٨.

[2] سالم، تاريخ المسلمين وآثارهم في الأندلس: ١٤٦-١٤٧؛ وانظر أيضاً: مؤنس، فجر الأندلس: ٢٧٨.

[3] سالم، تاريخ المسلمين وآثارهم في الأندلس: ١٤٧؛ مؤنس، فجر الأندلس: ٢٧٨.

[4] مؤنس، فجر الأندلس: ٢٧٩.

[5] المرجع نفسه: ٢٧٩.

ويذكر المقري نقلاً عن الواقدي أن عبد الملك "كان ظلوماً جائراً في حكومته"[1]. ويبدو أن أخبار ظلمه وجوره في الأندلس وصلت إلى مسامع والي إفريقية، مما أدى إلى عزله في رمضان أو شوال سنة ١١٦هـ/٧٣٤م[2]، غير أنه ولي الأندلس مرة ثانية، وسيأتي تفصيل ذلك.

عقبة بن الحجاج السلولي (شوال١١٦-١٢١ أو صفر ١٢٣هـ/٧٣٤-٧٤١م)

تكاد المصادر تتفق على أن الذي ولاّه على الأندلس هو عبيد الله بن الحبحاب بن الحارث مولى بني سلول من قيس، والي إفريقية[2]، فوالي إفريقية السابق: عبيدة بن عبد الرحمن السلمي "سار من إفريقية إلى الشام ومعه الهدايا والإماء والعبيد والدواب وغير ذلك شيء كثير، واستعفى هشاماً فأجابه إلى ذلك وعزله"[3]، وولى على إفريقية بدلاً منه عبيد الله بن الحبحاب "فكان له من العريش إلى طنجة إلى السوس الأقصى إلى الأندلس وما بين ذلك"[4]. وقد وفد عليه عقبة بن الحجاج السلولي "فأجلسه معه على فراشه" وعندئذ عاتبه أولاده "وقالوا: عمدت إلى أعرابي فأجلسته معك وحولك وجوه قريش والعرب، والله ليقعنّ ذلك في أنفسهم بحيث تكره"[5]. غير أن هذا العتاب لم يؤثر في الحبحاب، فقد كان يتوسّم في عقبة الخير والصلاح، ويرجو على يديه مزيداً من العزّ للإسلام والمسلمين. ولذلك خيّره بين أن يوليه إفريقية أو الأندلس "فاختار عقبة الأندلس، وقال: إني أحبّ الجهاد، وهي موضع جهاد"[6].

---

[1] المقري، نفح الطيب: ٢٣٦/١، ١٩/٣.

[2] المصدر نفسه: ٢٣٦/١.

[2] مجهول، أخبار مجموعة:٢٥، وانظر أيضاً: ابن عذاري، البيان المغرب: ٥١/١ ويذكر أن عبيد الله ابن الحبحاب "كان رئيساً نبيلاً، وأميراً جليلاً، بارعاً في الفصاحة والخطابة، حافظاً لأيام العرب وأشعارها ووقائعها...وهو الذي بنى المسجد الجامع ودار الصناعة بتونس".

[3] ابن الأثير، الكامل في التاريخ: ٢١٥/٤؛ وانظر: ابن عبد الحكم، فتوح إفريقية والأندلس: ٩٣؛ مجهول، أخبار مجموعة: ٢٥.

[4] ابن عذاري، البيان المغرب: ٢٩/٢؛ وانظر: ابن القوطية، تاريخ افتتاح الأندلس: ٤٠.

[5] مجهول، أخبار مجموعة: ٢٥-٢٦.

[6] المصدر نفسه: ٢٦-٢٧.

دخل عقبة السلولي الأندلس في شوال سنة ١١٦هـ/٧٣٤م[١]، بعد أن عزل ابن الحبحاب عبد الملك بن قطن الفهري[٢].

كان عقبة بن الحجاج السلولي محمود السيرة، محباً للجهاد، مظفراً[٣]، "وكان يجاهد المشركين في كل عام، ويفتتح المدائن"[٤]، فقد "افتتح الأرض حتى بلغ أربونة، وافتتح جليقية وألبة وبنبلونة"[٥]. وظل طوال مدة ولايته "مثابراً على الجهاد، مفتتحاً للبلاد، حتى بلغ سكنى المسلمين أربونة، وصار رباطهم على نهر رودنة"[٦]. وقد اتخذ من أربونة منطلقاً لجيوشه الفاتحة في أنحاء الشمال مما يدل على أنه كان من طراز عبد الرحمن الغافقي والسمح بن مالك الخولاني وعنبسة بن سحيم الكلبي، أولئك الولاة الذين صالوا وجالوا وحققوا انتصارات كبيرة على النصارى.

لقد بدأ عقبة بن الحجاج السلولي حركته الجهادية بالتوجه إلى ناحية دوفينية Dauphine، وافتتح سان بول Saint-Paul. وهي بلدة تعرف بالقصور الثلاثة Trois Chateaux، كما استولى على مدينة دونزير Donzaire، ثم توجه شمالاً نحو مدينة فالنس Valence الواقعة على نهر رودنة، وفتحها، وخرب الكنائس في منطقة فيين (Vienne). وتجدر الإشارة هنا إلى أن المسلمين كانوا يصولون في تلك الأنحاء، وأنفسهم تمتلئ غيظاً وطلباً للثأر بسبب ما أصابهم من هزيمة مفجعة في معركة بلاط الشهداء، التي أودت بحياة الكثيرين منهم[٧].

---

[١] ابن عذاري، البيان المغرب: ٢٩/١؛ ابن الأثير، الكامل في التاريخ: ٢١٥/٤؛ المقري، نفح الطيب: ١٩/٣؛ ابن عبد الحكم، فتوح إفريقية والأندلس: ٩٣.

[٢] ابن عبد الحكم، فتوح إفريقية والأندلس: ٩٤؛ وانظر: المقري، نفح الطيب: ١٩/٣ حيث يذكر أن عبد الملك بن قطن "عزل عنها ذميماً في شهر رمضان سنة ستة عشرة ومائة".

[٣] المقري، نفح الطيب: ٢٣٦/١.

[٤] ابن عذاري، البيان المغرب: ٢٩/١.

[٥] مجهول، أخبار مجموعة: ٢٨.

[٦] المقري، نفح الطيب: ١٩/٣.

[٧] مؤنس، فجر الأندلس: ٢٨٠-٢٨١؛ سالم، تاريخ المسلمين وآثارهم في الأندلس: ١٤٧.

لقد جال عقبة في مقاطعات جنوبي فرنسا: سبتمانيا، والبروفانس، ومقاطعة برغنديا (Purgundia) إلى الشمال منها. وأثار هذا الانتشار الإسلامي الواسع فزع شارل مارتل (قارلة)، "وانزعج لانبساطهم، فحشد لهم، وخرج عليهم في جيش عظيم"[١]، ووجه هذا الجيش بقيادة أخيه شيلدبراند (Childebrand) نحو أبنيون، كما كتب إلى لويتبراند (Luitprand) ملك لومبارديا مستنجداً به ضد المسلمين، وطلب منه أن يهاجمهم من الشرق[٢].

وتمكن شيلدبراند من احتلال بعض المواقع الحصينة مثل أبنيون، فقد حاصرها حصاراً شديداً، فصمدت في أول الأمر بسبب تحصينها المحكم، غير أن شارل مارتل وصل لنجدة أخيه ومعاونته في حصارها، واستعانا بآلات الحصار، وفي الوقت نفسه تقدم لويتبراند، وهاجم المسلمين من الشرق، وبذلك تمكنت هذه القوى المتكالبة من دخول المدينة عنوة رغم استماتة المسلمين في الدفاع عنها[٣]. إذ لم يكن بإمكانهم الصمود طويلاً أمام فرض الحصار الحديدي على أسوارها، واستخدام آلات الحرب والأدوات المفزعة التي ركبها شارل مارتل على الأسوار، والخنادق التي حفرها حولها، والجيوش الجرارة التي حشدها لاقتحامها[٤].

وتقدم جيش شارل مارتل بعد احتلاله مدينة أبنيون نحو أربونة، وكان المسلمون الذين نجوا من أبنيون قد عسكروا بين الجبال المجاورة لمدينة أربونة "وهم بحال غرة لا عيون لهم ولا طلائع، فما شعروا حتى أحاط بهم عدو الله قارلة، فاقتطعهم عن اللجوء إلى مدينة أربونة، وواضعهم الحرب، فقاتلوا قتالاً شديداً استشهد فيه جماعة منهم، وحمل جمهورهم على صفوفه حتى اخترقوها، ودخلوا المدينة، ولاذوا بحصانتها"[٥]. غير أن شارل مارتل لحق بهم، وحاصر المدينة، فأرسل عقبة بن الحجاج السلولي جيشاً

---

[١] المقري، نفح الطيب: ٢٧٤/١.

[٢] مؤنس، فجر الأندلس: ٢٨١؛ سالم، تاريخ المسلمين وآثارهم: ١٤٧.

[٣] طه، الفتح والاستقرار: ٣٥٢؛ مؤنس، فجر الأندلس: ٢٨١-٢٨٢؛ سالم، تاريخ المسلمين وآثارهم: ١٤٧-١٤٨.

[٤] مؤنس، فجر الأندلس: ٢٨٢.

[٥] المقري، نفح الطيب: ٢٧٤/١.

لنجدة أهلها بقيادة شخص من المرجح أن اسمه عمر بن الليث. وقد توجهت هذه النجدة إلى أربونة بحراً لكي تتجنب البشكنس الذين كانوا يسيطرون على المنطقة الواقعة بين الأندلس وسبتمانيا. وأنزل عمر بن الليث قواته على شاطئ غالة في موقع قريب من أربونة، حيث تحصن على ربوة عالية، وكان مغتراً بكثرة جنوده فلم يتخذ ما يجب من حيطة وحذر. ولذلك فإن شارل مارتل ما إن علم بوصوله حتى فاجأه بهجوم كاسح، وألحق به هزيمة نكراء، وقضى على معظم قواته، كما أن عمر نفسه استشهد في تلك الموقعة[1]. وقد حاول من بقي من هذه النجدة النجاة بأنفسهم، ففر بعضهم إلى أربونة، بينما توجه الآخرون إلى مراكبهم محاولين العودة من حيث أتوا، إلا أن النصارى تعقبوهم في مراكب صغيرة، وقتلوا كثيرين منهم[2].

وسار شارل مارتل بعد القضاء على قوات عمر بن الليث إلى أربونة، وشدد الحصار عليها، ولكنها صمدت، وبعد طول حصار "تعذر عليه المقام، وخامره ذعر وخوف مدد المسلمين، فزال عنهم راحلاً إلى بلده"[3]. وقام في أثناء عودته إلى الشمال بتحصين المناطق الواقعة على نهر رودنة، و"شكها بالرجال، فصيّرها ثغراً بين بلده والمسلمين، وذلك بالأرض الكبيرة خلف الأندلس"[4].

وأما عقبة فقد "أقام...بالأندلس بأحسن سيرة وأجملها، وأعظم طريقة وأعدلها"[5]، "وكان إذا أسر الأسير لم يقتله حتى يعرض عليه دين الإسلام، ويقبّح له عبادة الأصنام"[6]. وقد أدى هذا الأسلوب الذي اتبعه إلى دخول عدد كبير من النصارى في دين الإسلام. وقد ذكر المقري أنه أسلم على يديه ألفا رجل[7]، بينما يذكر ابن عذاري "أنه أسلم على يديه بهذا الفعل ألف رجل"[8].

---

[1] مؤنس، فجر الأندلس: ٢٨٣؛ سالم، تاريخ المسلمين وآثارهم: ١٤٨.

[2] مؤنس، فجر الأندلس: ٢٨٣.

[3] المقري، نفح الطيب: ٢٧٤/١.

[4] ابن عذاري، البيان المغرب: ٢٩/٢.

[5] المرجع نفسه: ٢٩/٢.

[6] المرجع نفسه: ٢٩/٢.

[7] المقري، نفح الطيب: ١٩/٣.

[8] ابن عذاري، البيان المغرب: ٢٩/٢.

عبد الملك بن قطن الفهري (صفر١٢٣-ذي القعدة ١٢٣هـ/ كانون الثاني-أيلول٧٤١م)

ظل عقبة بن الحجاج السلولي والياً على الأندلس حتى انتفضت البربر على والي إفريقية عبيد الله بن الحبحاب، "فلما بلغ أهل الأندلس ثورة البربر بطنجة ثاروا على واليهم عقبة بن الحجاج، فخلعوه"[١]. وكان عبد الملك بن قطن هو الذي قاد ثورة البربر في الأندلس، وخلع عقبة "في صفر سنة ثلاث وعشرين في خلافة هشام بن عبد الملك"[٢]. وقد تولى هذه الثورة في إفريقية ميسرة بن الفقير البربري الذي ادّعى الخلافة، وتسمى بها، وبويع عليها[٣]. وذكر صاحب أخبار مجموعة أن البربر قتلوا عامل طنجة عمر بن عبد الله المرادي، فوثب عبد الملك بن قطن على عقبة بن الحجاج فخلعه "ولا أدري أقتله أم أخرجه، فملكها بقية إحدى وعشرين واثنتين وعشرين وثلث وعشرين"[٤].

ولي عبد الملك بن قطن في تلك الظروف العصيبة التي أشرنا إليها، حيث تأججت الثورة في إفريقية، وامتدت إلى الأندلس، وأصبحت الفتن والاضطرابات ما بين بربر ويمن وقيس هي الطابع الذي أخذ يسود الغرب الإسلامي كله. صحيح أن ابن قطن في أثناء ولايته الثانية "لم يخلع دعوة، ولا طاعة، ودانت له الأندلس"[٥]، ولكن الظروف التي أحاطت به، وكان كثير منها من صنعه، حالت بينه وبين التوسع في الفتوح، وقيادة حركة الجهاد، وخاصة أن الظروف أصبحت مواتية بوفاة شارل مارتل سنة ١٢٣هـ/٧٤١م[٦].

لقد استبد عبد الملك بالأندلس، واشتعلت على يديه نيران الفتنة بين العصبيتين: اليمنية والقيسية فيها. وكان عبد الملك يتزعم اليمنية، وكذلك كان عبد الرحمن بن علقمة اللخمي قائد المسلمين في غالة، أو – كما يصفه المقري – "صاحب أربونة، وكان

---

[١] ابن القوطية، تاريخ افتتاح الأندلس: ٤٠.

[٢] المقري،نفح الطيب:١٩/٣؛ وانظر:ابن عذاري، البيان المغرب:٣٠/٢؛ مجهول، أخبار مجموعة:٢٨.

[٣] ابن عبد الحكم، فتوح إفريقية والأندلس: ٩٤.

[٤] مجهول، أخبار مجموعة: ٢٨-٢٩.

[٥] ابن القوطية، تاريخ افتتاح الأندلس: ٤٠.

[٦] مؤنس، فجر الأندلس: ٢٨٦؛ سالم، تاريخ المسلمين وآثارهم: ١٤٩.

فارس الأندلس في وقته"[1] يمنياً متعصباً. فبدل أن يستغل عبد الرحمن الفراغ الذي تركته وفاة شارل مارتل، ويضرب ضربته في الشمال، زج نفسه في أتون الفتنة في الأندلس، وأصبح جزءاً من الاضطرابات التي أخذت تعصف بها.

ولم تكن دمشق بغافلة عما يجري في المغرب والأندلس، فلما "انتهى إلى الخليفة الأموي هشام بن عبد الملك ما كان من أمر خوارج البربر بالمغرب الأقصى والأندلس، وخلعهم لطاعته، وعيثهم في الأرض، شقّ عليه، فعزل عبيد الله بن الحبحاب عن إفريقية"[2]. وقبل المضي في رصد الأحداث التي أعقبت عزل بن الحبحاب لا بد من إلقاء الضوء على ثورة البربر في أفريقية التي أدت إلى خلع عقبة بن الحجاج السلولي عن ولاية الأندلس، فقد كان عبيد الله بن الحبحاب قد أمر أبا خالد حبيب بن أبي عبيدة بن عقبة ابن نافع الفهري بالرجوع من صقلية، وولى خالد بن أبي حبيب الفهري على أشراف إفريقية ووجوههم، ولما وصل حبيب بن أبي عبيدة من صقلية أمره أن يلحق بخالد، وسار القائدان حتى التقيا بميسرة الذي كان البربر قد بايعوه بالخلافة، واشتبكا معه في قتال شديد. ثم تمكن ميسرة من الفرار إلى طنجة، وهناك تغير البربر عما كانوا بايعوه عليه لسوء سيرته، ثم قتلوه، وبايعوا بدلاً منه: خالد بن حبيب الزناتي الذي تمكن من حشد جيش كبير من البربر، قاده متصدياً لخالد بن أبي حبيب، واشتبك الطرفان في معركة عنيفة، ولما تكاثر البربر على ابن أبي حبيب كره أن ينهزم، "فألقى بنفسه هو وأصحابه إلى الموت، فقتل خالد بن أبي حبيب وجميع من معه، حتى لم يبق من أصحابه رجل واحد، وقتل فيها جماعة العرب وفرسانهم، فسميت تلك الواقعة **(غزوة الأشراف)** "[3]. وكانت هذه الغزوة هي السبب المباشر الذي جعل الخليفة هشام بن عبد الملك يبادر إلى عزل عبيد الله بن الحبحاب في سنة ١٢٣هـ/٧٤١م[4].

---

[1] المقري، نفح الطيب: ٢١/٣.

[2] المصدر نفسه: ٢٠/٣؛ وانظر: مجهول، أخبار مجموعة: ٣٠؛ وانظر: الرقيق القيرواني، تاريخ إفريقية والمغرب: ١١١؛ وانظر أيضاً: ابن عذاري، البيان المغرب: ٣٠/٢؛ ابن القوطية، تاريخ افتتاح الأندلس: ٤٠.

[3] الرقيق القيرواني، تاريخ إفريقية والمغرب: ١١٠-١١١، وقد انفرد بهذه الرواية إذ يذكر المقري أن ميسرة لم يقتل على يد البربر، وأنه هو الذي تصدى للمسلمين العرب. انظر: نفح الطيب: ٢٠/٣.

[4] المصدر نفسه: ١١١.

ولّى الخليفة هشام بن عبد الملك على إفريقية – بعد عزل عبيد الله بن الحبحاب – كلثوم بن عياض القشيري*، وندبه لقتال البربر، "وبعث معه ثلاثين ألف فارس: عشرة آلاف من صلب بني أمية، وعشرين ألفاً من العرب"[1]، وأصبح هذا الجيش "مع ما انضاف إليه من جيوش البلاد التي صار عليها سبعون ألفاً"[2]. واصطحب كلثوم بن عياض معه ابن أخيه بلج بن بشر بن عياض القشيري، وكان قد وعد الخليفة هشام بن عبد الملك باستئصال شأفة البربر قائلاً "والله لأغضبن لهم غضبة عربية، ولأبعثن إليهم جيشاً أوله عندهم وآخره عندي، ثم لا تركت حصن بربري إلا جعلت إلى جانبه خيمة قيسي أو تميمي"[3].

وصل كلثوم بن عياض القشيري إلى إفريقية "في شهر رمضان سنة ثلاث وعشرين ومائة"[4]. وكان على طلائعه بلج بن بشر، وقد أصدر بلج إلى أهل القيروان أمراً حالما وصل إليها قائلاً: "يا أهل إفريقية، لا تغلقوا أبوابكم حتى يعرف أهل الشام منازلهم"[5]، فاغتاظوا لهذا، وخاصة بعد أن قام بلج بإهانة حبيب بن أبي عبيدة الذي كان يقف إلى جانب البربر، وإن تظاهر بأنه يؤيد كلثوم بن عياض"[6]. فقد سار معه "فلما انتهى إلى مطلوبه من أرض طنجة تلقته البربر بمجموعهم، وعليهم خالد الزناتي...فأشار حبيب بن أبي عبيدة على كلثوم أن يقاتلهم الرجالة بالرجالة، والخيل بالخيل، فقال له كلثوم: أما أغنانا عن رأيك يا ابن أم حبيب؟ فوجه بلج بن بشر على الخيل ليدوسهم بها"[7].

---

* وهو من القيسية. انظر: ابن عبد الحكم، فتوح إفريقية والأندلس: ٩٦.

(١) ابن عذاري، البيان المغرب: ٢/٣٠.

(٢) المقري، نفح الطيب: ٣/٢٠.

(٣) الرقيق القيرواني، تاريخ إفريقية والمغرب: ١١١.

(٤) المصدر نفسه: ١١٢.

(٥) المصدر نفسه: ١١٢.

(٦) انظر التفاصيل: ابن عبد الحكم، فتوح إفريقية والأندلس: ٩٨؛ الرقيق القيرواني، تاريخ إفريقية والمغرب: ١١٢-١١٣.

(٧) ابن عبد الحكم، فتوح إفريقية والأندلس: ٩٨.

وكان البربر قد تحشدوا في جموع لا تحصى، والتقى الطرفان في موضع يُقال له (بقدورة)[1]. وعندما رأى كلثوم كثرتهم أحجم عن مجابهتهم، غير أن بلج شجعه قائلاً "لا يرعك كثرة هؤلاء، فإن أكثرهم عريان أعزل لا سلاح لهم"[2]. وعندئذ نزل كلثوم في رجّالة أهل الشام، فاقتتلوا قتالاً شديداً، بينما كأن بلج يشد عليهم بخيله، غير أنهم كانوا يستقبلونه "بالجلود اليابسة فيها الحجارة، فتنفر خيل أهل الشام، وعمدوا إلى الرمك الصعبة، فعلقوا في أذنابها القرب والأنطاع اليابسة، ثم وجهوها نحو عسكر كلثوم، فنفرت الخيل، ونادى الناس فنزل أكثرهم، وكان ذلك حاجة البربر"[3]. وكان ترجل فرسان أهل الشام هو ما خطط له البربر، إذ لم تكن لديهم خيل تكافئ خيل أهل الشام. فلما نزل الناس، تزاحفوا، وشد بلج على البربر، وكان قد بقي في سبعة آلاف من الفرسان، لم يترجّلوا، غير أنهم استقبلوه بقتال عنيف لم يعهده من قبل، ولا كان يتوقعه، وحاول اختراق صفوفهم فتصدى له فريق منهم، بينما تصدى الفريق الآخر لكلثوم، وبذلك أحدثوا شرخاً في صفوف أهل الشام، وتمكنوا من قسمته قسمين، بلج ومن معه، وكلثوم ومن معه[4].

وزاد الموقف سوءاً مقتل حبيب بن أبي عبيدة، وانهزام جند إفريقية الذين كانوا قد انضموا إلى جيش أهل الشام، وعلى الرغم من ذلك ثبت كلثوم إلى أن جُرح جرحاً بليغاً، ثم "شدت البربر شدة أخرى فصرُع وقُتل أصحابه"[5]، وانهزم من بقي من جيشه إلا أن البربر طاردوهم، وأخذوا يقتلونهم ويأسرونهم "فثلث أهل الجيش مقتول، وثلث منهزم، وثلث مأسور"[6].

---

(1) مجهول، أخبار مجموعة: ٣٢؛ وانظر: ابن القوطية، تاريخ افتتاح الأندلس: ٤١ ويذكر أن اسم الموضع (نفدورة).

(2) مجهول، أخبار مجموعة: ٣٢.

(3) المصدر نفسه: ٣٢-٣٣؛ وانظر: ابن القوطية، تاريخ افتتاح الأندلس: ٤١.

(4) مجهول، أخبار مجموعة: ٣٣-٣٤.

(5) المصدر نفسه: ٣٤؛ ابن عبد الحكم، فتوح إفريقية والأندلس: ٩٩.

(6) المصدر نفسه: ٣٤.

وأما بلج فقد أذرع القتل في البربر، غير أنهم تكاثروا عليه بعد هزيمة جيش كلثوم ومقتله، ولما رأى ما لا طاقة له به انهزم باتجاه طنجة محاولاً الاعتصام لها، ولكنها أقفلت دونه، إذ كان يضبطها البربر. وعندئذ توجه إلى سبتة* ودخلها، وجمع فيها المؤن حتى أصبحت مستودعاً كبيراً[1].

لقد قتل كلثوم بن عياض سنة ١٢٤هـ/٧٤٢م[2]. وظل ابن أخيه بلج وحده يصارع البربر وهو محصور في سبتة، وكان البربر يوجهون لقتاله الجيوش الواحد تلو الآخر، حتى بلغ عددها خمسة جيوش أو ستة. وكان البربر يضيّقون على بلج في كل المجالات، فإضافة إلى ضغطهم العسكري المتواصل كانوا يُقفرون ما حول سبتة حتى إذا نفدت الأقوات فيها لا يجد بلج شيئاً حولها يقتات به هو وجيشه. وطال حصارهم، وانقطع عن بلج وأصحابه المعاش بعد أن نفد ما بأيديهم من مؤن "فجاعوا حتى أكلوا دوابهم"[3]. بل أكلوا الجلود، وأشرفوا على الهلاك، إذ استمروا على تلك الحال نحو سنة[4].

لقد كان بلج في تلك الأثناء هو والي إفريقية بعد عمه كلثوم بن عياض، إذ تذكر بعض المصادر أن هشام بن عبد الملك عندما ولّى عليها كلثوم بن عياض جعل الأمر من بعده إلى ابن أخيه بلج بن بشر القشيري، إن هو أصيب، وجعل الأمر بعد بلج إن أصيب إلى ثعلبة بن سلامة العاملي[5]. وبعد مقتل كلثوم "صار أمر العرب بإفريقية إلى بلج

---

* يذكر صاحب أخبار مجموعة أنها كانت حينئذ مدينة حصينة، ذات عمران وخير كثير: انظر: أخبار مجموعة: ٣٥.

[1] مجهول، أخبار مجموعة: ٣٥؛ وانظر: ابن عذاري، البيان المغرب: ٣٠/٢؛ المقري، نفح الطيب: ٢٠/٣؛ ابن عبد الحكم، فتوح إفريقية والأندلس: ٩٩.

[2] ابن عبد الحكم، فتوح إفريقية والأندلس:٩٩؛ وانظر:الرقيق القيرواني،تاريخ إفريقية والمغرب:١١٤.

[3] مجهول، أخبار مجموعة: ٣٥.

[4] المصدر نفسه: ٣٧.

[5] ابن القوطية، تاريخ افتتاح الأندلس: ٤٠-٤١.

بالعهد المذكور"[1]. وليس بمستبعد أن يكون كلثوم قد عهد – قبل مقتله – إلى بلج بولاية الأندلس[2].

ويبدو أن هشام بن عبد الملك عندما بلغه ما فعله البربر بكلثوم وبلج استشاط غضباً، وأدرك أن بلجاً المحصور في سبتة ليس في إمكانه إدارة إفريقية، ولذلك وجه إليها والياً جديداً هو حنظلة بن صفوان الكلبي، وكان عامله على مصر[3]. وكان ذلك في صفر من سنة ١٢٤هـ/٧٤٢م[4]، أي بعد أن تفاقمت الأزمة التي ألمت ببلج في سبتة، والتي أصبح – بعد أن بلغ به سوء الحال مبلغاً عظيماً – يبحث عن مخرج مما هو فيه.

توجهت أنظار بلج بن بشر القشيري إلى الأندلس، وراوده الأمل في أن يغيثه العرب فيها، فاستغاث بهم، غير أن والي الأندلس عبد الملك بن قطن الذي اغتصب الولاية من عقبة بن الحجاج السلولي تثاقل عن نجدة بلج وصحبته لخوفه على سلطانه منهم، "فلما شاع خبر ضرّهم عند رجال العرب أشفقوا عليهم، فأغاثهم زياد بن عمرو اللخمي بمركبين مشحونتين ميرة أمسكا من أرماقهم، فلما بلغ ذلك عبد الملك بن قطن ضربه سبعمائة سوط، ثم اتهمه بعد ذلك بتضريب (إثارة أو تأليب) الجند عليه، فسمل عينيه، ثم ضرب عنقه، وصلبه وصلب عن يساره كلباً"[5].

ولم تكن الميرة أو المؤن التي أرسلها اللخمي لتكفي بلجاً وصحبه زمناً طويلاً، ولذلك كاتب عبد الملك بن قطن يرجوه أن يرسل إليه مراكب تنقل المسلمين المحصورين في سبتة إلى الأندلس، فشاور عبد الملك أهل رأيه في ذلك "فقالوا: إن دخل عليك هذا الشامي عزلك، فلم يجاوبه"[6]. بل تغافل عنهم "وسرّه هلاكهم، وخافهم على

---

[1] ابن عذاري، البيان المغرب: ٢/٣٠.

[2] ابن عبد الحكم، فتوح إفريقية والأندلس: ١٠٠.

[3] المقري، نفح الطيب: ٣/٢٠؛ ابن عبد الحكم، فتوح إفريقية والأندلس: ١٠٢؛ الرقيق القيرواني، تاريخ إفريقية والمغرب: ١١٥.

[4] ابن عبد الحكم، فتوح إفريقية والأندلس: ١٠٢.

[5] المقري، نفح الطيب: ٣/٢٠؛ وانظر: مجهول، أخبار مجموعة: ٣٨.

[6] ابن القوطية، تاريخ افتتاح الأندلس: ٤٢؛ وانظر: مجهول، أخبار مجموعة: ٣٧.

سلطانه"[1]. ثم استعطف بلج عبد الملك "وسأله إدخاله، وإدخال من معه من الجند، وذكروا له ما صاروا إليه من الجهد، وأنهم قد أكلوا دوابهم. فأبى عبد الملك،...ولم يأمنهم، ومطلهم بالميرة والسفن"[2]. وشارف بلج وصحبه على الهلاك، واضطروا بعد أكل الدواب والجلود إلى أكل العشب والبقل، وغير ذلك ما تنبت الأرض، دون أن يجدوا مغيثاً[3].

وبينما كان بلج وصحبه يعانون سوء الأحوال في سبتة اضطرمت الأندلس بنيران الفتنة التي أشعلها البربر في كل مكان. فعندما علم بربر الأندلس بانقلاب بربر إفريقية على العرب، وظهورهم عليهم "وثبوا في أقطار الأندلس فأخرجوا عرب جليقية وقتلوهم، وأخرجوا عرب أسترقة والمدائن التي خلف الدروب"[4]. وأخذوا يفعلون بعرب الأندلس ما فعله إخوانهم بربر إفريقية بالعرب هناك، "فكثر إيقاعهم بجيوش ابن قطن، واستفحل أمرهم"[5].

وهكذا وجد عبد الملك بن قطن نفسه بين نارين، نار البربر "الذين عاثوا في الأندلس، وأخذوا يتعقبون العرب في كل مكان، ويحاربونهم في كل مكان، ويرصّون صفوفهم ضدهم، ويطردون، ويقتلون، ونار الخوف من بلج ومن معه من الشاميين على سلطانه إن هو أدخلهم الأندلس. ولما بلغ السيل الزبى بسبب ثورة البربر في الأندلس، لم يجد ابن قطن من مخرج أمامه إلا إدخال بلج وصحبه، لعلهم يعينونه في القضاء على ثورة البربر الذين خشي "أن يلقى منهم ما لقي العرب ببر العُدوة مَن إخوانهم، وبلغه أنهم قد عزموا على قصده"[6].

---

[1] مجهول، أخبار مجموعة: ٣٧-٣٨.

[2] ابن عذاري، البيان المغرب: ٢/٣٠.

[3] مجهول، أخبار مجموعة: ٣٨.

[4] المصدر نفسه: ٣٨؛ وانظر: ابن عذاري، البيان المغرب: ٢/٣٠.

[5] المقري، نفح الطيب: ٣/٢٠.

[6] المصدر نفسه: ٣/٢٠.

التقت مصلحة ابن قطن مع مصلحة بلج، فكاتبه، واشترط عليه وعلى صحبه "مقام سنة بالأندلس ثم يخرجون عنها، فرضوا بذلك"[1]، وأسرعوا إلى إجابته "وكانت أمنيتهم"[2]. وعندئذ أرسل إليهم السفن لتقلّهم إلى الأندلس[3].

وكان من جملة ما اشترطه عبد الملك بن قطن على بلج القشيري أن يأخذ من أصحاب بلج رهائن "من كل جند من قوادهم عشرة رهن يضعهم في الجزيرة في البحر، فإذا فرغوا له في الحرب جهزهم وحملهم إلى إفريقية"[4]. واشترطوا عليه بدورهم أن يعيدهم إلى إفريقية بعد انقضاء السنة جملة وليس على دفعات، وأن يؤمن لهم الحماية من بربر إفريقية[5].

وكان بلج وصحبه عندما دخلوا الأندلس في حال بائسة، فقد كانوا "عراة، لا يواريهم إلا دوابهم، وقد بلغ بهم الجهد غايته...فلما دخلوا كساهم عرب الأندلس على قدر أقدارهم، فرب رجل يكسوا مائة رجل، وآخر عشرة، وآخر واحداً..."[6].

كان عدد الجيش الذي عبر به بلج بن بشر القشيري إلى الأندلس "نحو عشرة آلاف من عرب الشام"[7]. وقد شكل هؤلاء ما عرف في المصادر الإسلامية بطالعة بلج. وكانت هذه الطالعة تتحرق شوقاً للقاء البربر، والثأر منهم لما لاقوه على أيدي البربر في سبتة، وفي غيرها من إفريقية منذ أن دخلوها مع كلثوم بن عياض القشيري. ولذلك فإن

---

(1) ابن عذاري، البيان المغرب: ٢/٣٠.

(2) المقري، نفح الطيب: ٣/٢١؛ وانظر أيضاً: ابن عبد الحكم، فتوح إفريقية والأندلس: ١٠٠.

(3) مجهول، أخبار مجموعة: ٣٨.

(4) مجهول، أخبار مجموعة: ٣٨-٣٩؛ وانظر؛ وانظر: ابن عذاري، البيان المغرب: ٢/٣٠؛ المقري، نفح الطيب: ٣/٢١.

(5) مجهول، أخبار مجموعة: ٣٩؛ وانظر أيضاً: المقري، نفح الطيب: ٣/٢١.

(6) ابن عذاري، البيان المغرب: ٢/٣١؛ وانظر: مجهول، أخبار مجموعة: ٣٩ حيث يذكر أن بلجاً وصحبه عندما نزلوا الأندلس وجدوا بها جلوداً مدبوغة كثيرة، فقطعوا منها المدارع، ثم أقبلوا إلى قرطبة فكسا ابن قطن خيارهم، واستقبلهم عرب الأندلس فكسا كل رجل من خيارهم خيار عشيرته، وأفضل عليهم الناس حتى لبسوا وشبعوا.

(7) ابن عذاري، البيان المغرب: ٢/٣١.

بلجاً ما إن استراح قليلاً في قرطبة، واسترد هو ومن معه عافيتهم حتى نهضوا لقتال البربر.

وكان البربر قد حشدوا من جليقية وأسترقة وماردة وقورية وطلبيرة وغيرها من أنحاء الأندلس[1]، وكان البربر ينفرون من القيسية أكثر من نفورهم من اليمنية، ذلك أن القيسية كانوا أشد تعصباً من غيرهم، وقد أساؤوا إلى البربر واضطهدوهم.

وأياً كانت الأسباب فقد ثار البربر في الأندلس، وخاصة في المناطق الشمالية منها، باستثناء منطقة سرقسطة، ذلك لأن العرب في هذه المنطقة كانوا أكثر عدداً من البربر[2]. ويبدو أن ثورة البربر كانت منظّمة، فقد اختاروا لقيادتهم زعيماً يسميه صاحب أخبار مجموعة ابن هدين[3]، ويبدو أيضاً أن هذا الزعيم شكل من البربر ثلاثة جيوش توجه أولها إلى طليطلة، والثاني إلى قرطبة، والثالث إلى الجزيرة الخضراء. وهذا الجيش الأخير كان من أبرز أهدافه الاتصال ببربر إفريقية لقطع أي إمدادات قد تصل إلى العرب من المشرق[4].

لقد وضع البربر والي الأندلس عبد الملك بن قطن ومن معه من اليمنية في موقف حرج، ولم تكن أمامه أي فرصة للنجاة إلا إذا وصلته الإمدادات، ولذلك سارع إلى الموافقة على طلب بلج وطالعته بدخول الأندلس بغض النظر عن مخاطر ذلك. وكان بشذونة في تلك الأثناء "جمع من البربر، عليهم رجل زناتي"[5]، وقد بدأ بلج "بمقاتلتهم في وادي الفتح من شذونة، فلم يكن للعرب فيهم إلا نهضة حتى أبادوهم، وأصابوا أمتعتهم ودوابهم، فاكتسى أصحاب بلج وانتعشوا، وأصابوا الغنائم"[6]. ثم توجه بلج وعبد الملك ابن قطن لمجابهة جيش البربر الذي كان يهدد قرطبة، وقد تحقق النصر على ذلك الجيش دون عناء كبير[7].

---

(1) مجهول، أخبار مجموعة: ٣٩-٤٠.

(2) انظر: مجهول، أخبار مجموعة: ٣٨.

(3) المصدر نفسه: ٣٩.

(4) انظر التفاصيل: مؤنس، فجر الأندلس: ١٩٩.

(5) ابن عذاري، البيان المغرب: ٢/٣١.

(6) المصدر نفسه: ٢/٣١.

(7) المصدر نفسه: ٢/٣١.

ولم يبق أمام عبد الملك بن قطن وبلج بن بشر القشيري سوى جيش البربر الذي كان في تلك الأثناء يهدد طليطلة، وكان أكبر جيوشهم. وهنا لا بد من الإشارة إلى أن ابن قطن أدرك خطورة الموقف الناجم عن الركون إلى طالعة بلج، فالانتصارات الهائلة التي حققتها تلك الطالعة على البربر بسرعة كبيرة جعلته يتوجس خيفة من عاقبة الاستنجاد بهذه الطالعة وقائدها بلج، وأخذ يتعامل مع الأحداث بحذر شديد، ويعيد حساباته، فقد خشي أن تكون نهايته كوالٍ للأندلس بانتصار بلج على البربر، إذ لا بد أنه قد فكر بأن الدوائر ستدور عليه ليس من قبل البربر، ولكن من قبل بلج، ولذلك احتاط للأمر فجعل ابنيه: قطناً وأمية "في عرب الشام أصحاب بلج، وعرب البلد" الموجودين أصلاً في الأندلس[١]، ثم ساروا جميعاً نحو طليطلة "وقد اجتمع هنالك معظم البربر"[٢].

ويذكر صاحب أخبار مجموعة أن البربر أقبلوا "في شيء لا يحصيه عدد حتى أجازوا نهراً يقال له تاجُه يريدون عبد الملك بن قطن"[٣]. ولما علم البربر بتقدم جيوش العرب نحوهم "حلقوا رؤوسهم اقتداءً بميسرة، ولكي لا يخفى أمرهم، وليضربوا ولا يختلطوا"[٤]، وكانوا بعملهم هذا إنما يتعاهدون على تحقيق النصر، ويعبّرون عن خوض المعركة بحماس شديد.

والتقى الطرفان: البربر والعرب في أرض طليطلة على وادي سليط* "وصمد قطن بمن معه، وأمية بمن معه...فاقتتلوا قتالاً شديداً، وأقبل أهل الشام عليهم حنقين، فقاتلوا قتال مستبسلين، فمنحهم الله أكتاف البربر، فقتلوهم قتلاً ذريعاً أفنوهم به، فلم ينجُ منهم إلا الشريد"[٥]. وكانت تلك المعركة عنيفة صعُب فيها المقام، كما يذكر المقري[٦].

---

[١] مجهول، أخبار مجموعة: ٤٠؛ وانظر: المقري، نفح الطيب: ٢١/٣.

[٢] ابن عذاري، البيان المغرب: ٣١/٢؛ المقري، نفح الطيب: ٢١/٣ حيث يذكر أن البربر كانوا في جموع لا يحصيها غير رازقها.

[٣] مجهول، أخبار مجموعة: ٤٠.

[٤] المصدر نفسه: ٤٠.

* وادي سليط جدول يصب في نهر التاجه Tajo من اليسار إلى الجنوب من طليطلة بمسافة قصيرة.

[٥] مجهول، أخبار مجموعة: ٤٠.

[٦] المقري، نفح الطيب: ٢١/٣؛ وانظر: ابن عذاري، البيان المغرب: ٣١/٢.

وتشتت من نجا من البربر في أنحاء الأندلس، وطاردهم الشاميون "حتى ألحقوا فلّهم بالثغور، وخفوا عن العيون"[1].

وبسحق ثورة البربر في الأندلس انتهت مهمة بلج بن بشر القشيري من وجهة نظر عبد الملك بن قطن، وكان على بلج أن يفي بعهده، وينسحب من الأندلس، ولكنه ومن معه من الشاميين – وقد امتلأت أيديهم من الغنائم، فاشتدت شوكتهم، وثابت همتهم، وبطروا – نسوا العهود[2]. فعندما طلب منهم عبد الملك بن قطن الخروج من الأندلس وفقاً للشروط السابقة المعقودة بينه وبين بلج، رفض بلج، وراوغ عبد الملك وماطله، مستغلاً الشرط الذي اشترطه عليه، وهو أن يؤمن لهم المراكب ليخرجوا دفعة واحدة، فقد قال عبد الملك: "ليست لنا صناعة (سفن) تركبونها معاً، وقد صارت لكم خيول ورقيق"[3]. وطلب منهم أن يخرجوا متفرقين، فأصروا موقفهم، وقالوا "لا نخرج إلا مجتمعين"[4]. وعندئذ قال لهم: "فارجعوا إلى سبتة"، فقالوا له: "تعرضنا لبربر طنجة!!، إقذف بنا في لجة البحر أهون علينا"[5].

وهكذا تعلّل الشاميون بالأسباب، وذكّروه بما صنع بهم "أيام انحصارهم في سبتة، وقتله الرجل الذي أغاثهم بالميرة"[6]. ثم وثب الشاميون على ابن قطن، وأخرجوه من القصر، وأدخلوا بلجاً مكانه، وبايعوا له[7]. وتختلف المصادر في روايتها للأحداث التي وقعت عقب انتصار الشاميين على البربر في الأندلس، وتفريق جموعهم فيها، وإن كانت تتفق على نتيجتها، وهي خلع ابن قطن. فقد ذكر ابن القوطية أن بلجاً وابن قطن دارت بينهم حرب عظيمة هُزم فيها بلج، ثم عاود محاربته "فهزمه بلج من الجزيرة إلى قرطبة ثماني عشرة هزيمة أُسر في آخرها، فصلبه عند رأس القنطرة في موضع، ودخل

---

(1) المقري، نفح الطيب: ٣/٢١؛ وانظر: مجهول، أخبار مجموعة: ٤٠.
(2) المقري، نفح الطيب: ٣/٢١؛ وانظر: ابن عذاري، البيان المغرب: ٢/٣١.
(3) مجهول، أخبار مجموعة: ٤٠.
(4) المصدر نفسه: ٤٠.
(5) المصدر نفسه: ٤١.
(6) المقري، نفح الطيب: ٣/٢١.
(7) مجهول، أخبار مجموعة: ٤١؛ وانظر: المقري، نفح الطيب: ٣/٢١.

قرطبة"[1]. وذكر ابن عبد الحكم أن بلجاً سجن عبد الملك بن قطن، ثم أخرجه من السجن وقال له: "قم في المسجد، فأخبر الناس أن كلثوماً كتب إليك أني خليفته"، فقام عبد الملك فقال: "أيها الناس، إني والي كلثوم، وإني محبوس بغير حق"، فضرب بلج عنقه[2]. وروى المقري أن بلجاً أخرج ابن قطن أمام الشاميين، فجعلوا يسبّونه، وعاتبوه قائلين: "...فقتلوه وصلبوه"[3]. وذلك في ذي القعدة من سنة ١٢٣هـ/٧٤١م، "وصلب بصحراء ربض قرطبة بعدوة النهر حيال رأس القنطرة، وصلبوا عن يمينه خنزيراً وعن يساره كلباً، وأقام شلوه على جذعه إلى أن سرقه مواليه بالليل وغيّبوه"[4].

وهكذا خُلع ابن قطن، وقتل، وكان قتله بداية عهد جديد من الاضطرابات في الأندلس، وهي اضطرابات أصبحت بين القيسية واليمنية بعد أن كانت بين العرب والبربر. وأصبح بلج بن بشر القشيري هو الذي يحمل أعباء هذه الفترة الجديدة من الاضطرابات بصفته خلفاً قيسياً لعبد الملك بن قطن الذي تعصبت له اليمنية، وطالبت بثأره. لقد كان مقتل عبد الملك الشرارة الأولى التي أشعلت هشيم العصبيات القبلية، وأججت نارها.

بلج بن بشر القشيري (ذي القعدة ١٢٣-شوال ١٢٤هـ/٧٤١-آب ٧٤٢م)

بدأ بلج ولايته بقتل عبد الملك بن قطن الفهري - كما ذكرنا - ، وقد أوردنا ما روته المصادر حول هذا الحدث باستثناء رواية ابن عذاري التي كانت مختلفة، فقد ذكر أن بلجاً كان "وقت جوازه عن سبتة قد أعطى رهائن لابن قطن، جعلهم ابن قطن بجزيرة أم حكيم، فضاعوا مدة الفتنة بين بلج وابن قطن، والجزيرة المذكورة دون ماء، فمات رجل من غسّان عطشاً، وكان من الرهائن، من أشراف دمشق"[5]. ولما ولي بلج الأندلس "طلب منه الجند أن يعطيهم ابن قطن في الغساني المذكور، فتوقف بلج، فألح

---

(1) ابن القوطية، تاريخ افتتاح الأندلس: ٤٢.

(2) ابن عبد الحكم، فتوح إفريقية والأندلس: ١٠٠.

(3) المقري، نفح الطيب: ٢١/٣.

(4) المصدر نفسه: ١٩/٣.

(5) ابن عذاري، البيان المغرب: ٣١/٢؛ وانظر أيضاً: مجهول، أخبار مجموعة: ٤١-٤٢.

الجند، وثارت اليمن كلها على كلمة واحدة. وكان ابن قطن شيخاً هرماً، قد بلغ التسعين...فأخرجه الجند...ثم قتلوه وصلبوه"[1].

وكان أمية وقطن ابنا عبد الملك عندما خُلع أبوهما قد هربا، وحشدا لطلب الثأر، واجتمع عليهما العرب الأقدمون والبربر، وهب إلى نجدتهما اثنان من كبار القادة هما: عبدُ الرحمن بن حبيب بن أبي عبيدة بن عقبة بن نافع الفهري "وكان في أصحاب بلج، فلما صنع بابن عمه عبد الملك ما صنع فارقه، فانحاز فيمن طلب ثأره"[2]. وأما القائد الثاني فهو عبد الرحمن بن علقمة اللخمي، "صاحب أربونة"[3]، فقد كان يقود جند المسلمين هناك، وكان من أنصار عبد الملك بن قطن.

وتألّبت الأندلس ضد بلج ومن معه من الشاميين، وسبب ذلك الذي يمكن استنتاجه من مجرى الأحداث هو أن أهل الأندلس من عرب وبربر وغيرهم اعتبروا الشاميين دخلاء، جاؤوا ليستأثروا بالأرض وخيراتها، ولذلك قامت الأندلس كلها ضد هؤلاء القادمين الجدد الذين عرفوا بالشاميين، بينما عُرف أهل الأندلس الذين قدموا من قبل في حملات طارق بن زياد وموسى بن نصير ومن أتى بعدهم بالبلديين. وقد استقر هؤلاء في الأندلس، وتوشجت بينهم الأواصر، وكان معظمهم يمنية. وقد اعتبروا أنفسهم أهل البلاد وأصحابها، ولذلك كان من الطبيعي أن تجتمع كلمتهم على حرب الشاميين الوافدين[4]. فمقتل عبد الملك بن قطن الفهري لم يكن السبب الحقيقي للحرب الأهلية التي دارت في الأندلس في عهد بلج بن بشر القشيري، وإنما كان السبب احتقان النفوس التي وجدت في مقتله نقطة انطلاق، أو سبباً مباشراً.

---

[1] المصدر نفسه: ٣٢/٢؛ وانظر: المقري، نفح الطيب: ٢١/٣.

[2] المقري، نفح الطيب: ٢١/٣؛ وانظر: ابن عبد الحكم، فتوح إفريقية والأندلس: ١٠٠؛ مجهول، أخبار مجموعة: ٤٣.

[3] المقري، نفح الطيب: ٢١/٣؛ مجهول، أخبار مجموعة: ٤٣؛ ابن القوطية: تاريخ افتتاح الأندلس: ٤٢.

[4] انظر: ابن القوطية، تاريخ افتتاح الأندلس: ٤٢.

لقد انضمت إلى عبد الرحمن بن علقمة اللخمي وابني عبد الملك بن قطن جموع العرب في إقليم أربونة، "وحشد الثغر وتشايعه على ذلك كثير من عرب الأندلس وبربرها، وقدم طالباً ثأره"[1]. كما قدم عبد الرحمن بن حبيب بجموع غفيرة[2]. وقد بلغ عدد الجند الذين تم حشدهم لمحاربة بلج مائة ألف أو أكثر[3]. وكان عدد الذين قدموا مع عبد الرحمن بن علقمة اللخمي وحده نحو أربعين ألفاً[4]. أما جيش بلج فكان أقل من ذلك بكثير، فقد كان عدده أقل من خُمس جيش أعدائه حسب رواية ابن عذاري[5]، ولم يزد على عشرة آلاف أو اثني عشر ألفاً من الأمويين والشاميين حسب روايات المصادر الأخرى[6].

والتقى البلديون والشاميون في معركة هائلة يذكر صاحب أخبار مجموعة أنها وقعت في موضع يقال له: أقوة بُرطورة "من قرطبة على بريدين"[7]، فاقتتلوا قتالاً شديداً[8]، "وصبر أهل الشام صبراً لم يصبر مثله أحد قط"[9]. وكانت حصيلة الجولة الأولى من هذه المعركة "عشرة آلاف قتيل من أصحاب ابن علقمة،...وألف من أصحاب بلج"[10].

وهكذا دارت الدائرة على البلديين، أصحاب ابن علقمة اللخمي وابني عبد الملك بن قطن، وخطرت لابن علقمة فكرة سريعة هي أن يعمل على قتل بلج لكي تضطرب

---

(1) ابن القوطية، تاريخ افتتاح الأندلس: ٤٢.

(2) ابن عبد الحكم، فتوح إفريقية والأندلس: ١٠٠.

(3) المقري، نفح الطيب:٣/١؛ مجهول، أخبار مجموعة: ٤٣؛ وانظر أيضاً: ابن عذاري، البيان المغرب: ٣٢/٢.

(4) ابن القوطية، تاريخ افتتاح الأندلس: ٤٢.

(5) ابن عذاري، البيان المغرب: ٣٢/٢.

(6) ابن القوطية، تاريخ افتتاح الأندلس: ٤٢؛ المقري، نفح الطيب: ٢١/٣-٢٢؛ مجهول، أخبار مجموعة: ٣٣.

(7) مجهول، أخبار مجموعة: ٤٣؛ وانظر: ابن القوطية، تاريخ افتتاح الأندلس: ٤٢.

(8) ابن عذاري، البيان المغرب: ٣٢/٢.

(9) المقري، نفح الطيب: ٢٢/٣.

(10) ابن القوطية، تاريخ افتتاح الأندلس: ٤٢-٤٣.

صفوف الشاميين، مما قد يؤدي إلى انهزامهم، وكان ابن علقمة "فارس الأندلس في وقته"[1]، ولذلك بحث عن بلج، وصاح في جماعته "أروني بلجاً، فوالله لأقتلنّه أو لأموتن دونه، فأشاروا إليه نحوه، فحمل بأهل الثغر (أربونة) حملة انفرج لها الشاميون، والراية في يده، فضربه عبد الرحمن ضربتين مات منهما بعد ذلك بأيام قلائل"[2]. ثم إن البلديين انهزموا بعد ذلك هزيمة منكرة، ولاحقهم الشاميون يقتلون ويأسرون "فكان عسكراً منصوراً مقتولاً أميره. وكان هلاك بلج في شوال سنة أربع وعشرين ومائة، وكانت مدته أحد عشر شهراً"[3].

ثعلبة بن سلامة العاملي (شوال ١٢٤-رجب ١٢٥هـ/آب٧٤٢-أيار٧٤٣م)

ولي الأندلس بعهد من الخليفة الأموي هشام بن عبد الملك كما ذكرنا، ذلك أنه عهد "إن حدث ببلج وكلثوم (بن عياض) حدث فالأمير ثعلبة، فقام بالأمر"[4]، واستأنف قتال البربر الذين لم يرضوا بالهزيمة على يد بلج والشاميين، وإنما أخذوا يرصون صفوفهم، ويستعدون لطلب الثأر[5]. وتجمعوا حول ماردة، ومعهم البلديون، فخرج ثعلبة لقتالهم "فجاشوا عليه بما لا طاقة له به، وقاتلهم قتالاً شديداً"[6]، ولكنه في أول الأمر لم يتمكن من سحقهم، فقد كانت أعدادهم أضعاف من معه، ولم يجد بداً من الاعتصام في

---

[1] المقري، نفح الطيب: ٢١/٣؛ وانظر: مجهول، أخبار مجموعة: ٣٣.

[2] المصدر نفسه: ٢٢/٣؛ وانظر: ابن عبد الحكم، فتوح إفريقية والأندلس: ١٠٠-١٠١؛ ابن عذاري، البيان المغرب: ٣٢/٢؛ مجهول، أخبار مجموعة: ٣٣؛ ابن القوطية، تاريخ افتتاح الأندلس: ٤٣، ويذكر أن بلجاً مات في اليوم الثاني، بينما يذكر ابن الأثير أنه توفي بعد سبعة أيام. انظر: الكامل في التاريخ: ٢٥٤/٤.

[3] المقري، نفح الطيب: ٢٢/٣؛ وانظر: ابن عذاري، البيان المغرب: ٣٢/٢ ويذكر أن إمارته كانت اثنتي عشر شهراً "واختلف في ذلك".٧

[4] ابن الأثير، الكامل في التاريخ: ٢٥٤/٤؛ وانظر: مجهول، أخبار مجموعة: ٤٤؛ ابن عذاري، البيان المغرب: ٣٢/٢-٣٣؛ المقري، نفح الطيب: ٢٢/٣.

[5] المقري، نفح الطيب: ٢٢/٣.

[6] مجهول، أخبار مجموعة: ٤٤.

داخل مدينة ماردة[١]، وكانوا يحيطون بها، ويحصرونه في داخلها "وهم لا يشكون في الظفر"[٢].

لقد كاد البربر والبلديون يطبقون على ثعلبة في ماردة، مما دفعه إلى طلب المدد من قرطبة، وحالفه الحظ بوصول المدد، إذ صادف حلول عيد من أعياد المسلمين يذكر صاحب أخبار مجموعة أنه "عيد فطر أو أضحى"[٣]، فقد احتفلوا بالعيد، وانتشروا في صبيحته انتشاراً واسعاً لاهين عن الحرب، ففاجأهم ثعلبة "وقتلهم قتلاً ذريعاً ثم سبى ذراريهم"[٤]. ويذكر المقري وصاحب أخبار مجموعة أنه "أقبل إلى قرطبة من سبيهم بعشرة آلاف أو يزيدون"[٥]. وأسر منهم نحو ألف رجل[٦]. وقد نزل ثعلبة "بظاهر قرطبة يوم خميس وهو يريد أن يحمل الأسارى على السيف بعد صلاة الجمعة"[٧]، ولكنه بدل قتلهم عرضهم للبيع[٨]، وأخذ يبيع السبي بأبخس الأثمان إذلالاً لهم، وكسراً لشوكتهم، حتى أنه – كما يزعم صاحب أخبار مجموعة – باع الواحد من سادتهم بكلب، والآخر بعود[٩].

وعلى الرغم مما فعله ثعلبة بن سلامة العاملي بالثائرين من البربر والبلديين، إلا أنه سار في حكم الأندلس بأحسن سيرة[١٠]، ومع ذلك ضج أهلها لكثرة القتل في المسلمين على يد إخوانهم، ولذلك وفد بعضهم على والي إفريقية: حنظلة بن صفوان الكلبي،

---

(١) مجهول، أخبار مجموعة: ٤٤.

(٢) المقري، نفح الطيب: ٢٢/٣.

(٣) مجهول، أخبار مجموعة: ٤٤؛ وانظر: المقري، نفح الطيب: ٢٢/٢.

(٤) مجهول، أخبار مجموعة: ٤٥؛ وانظر: ابن الأثير، الكامل في التاريخ: ٢٥٤/٤؛ المقري، نفح الطيب: ٢٢/٢؛ ابن عذاري، البيان المغرب: ٣٣/٢.

(٥) المقري، نفح الطيب: ٢٢/٢؛ مجهول، أخبار مجموعة: ٤٥.

(٦) ابن الأثير، الكامل في التاريخ: ٢٥٤/٤؛ المقري، نفح الطيب: ٢٢/٣؛ ابن عذاري، البيان المغرب: ٣٣/٢.

(٧) المقري، نفح الطيب: ٢٢/٣.

(٨) ابن عذاري، البيان المغرب: ٣٣/٣.

(٩) مجهول، أخبار مجموعة: ٤٥.

(١٠) ابن عذاري، البيان المغرب: ٣٣/٢.

يحملون كتباً من أهل الأندلس "أن أغثنا بوالٍ يجمعنا ويأخذ بيعتنا له ولأمير المؤمنين، حتى يصير الشام والبلدان على دعوة واحدة، فقد أفنانا القتل، وخفنا العدو على ذرارينا"[1]. ويبدو أن أخبار الأندلس وصلت إلى والي إفريقية قبل أن ينقلها الوفد، ولذلك أرسل إليهم والياً ليحل محل ثعلبة الذي كان حينئذ قد أمضى في ولاية الأندلس عشرة أشهر[2]. وقد وصل الوالي الجديد، وهو أبو الخطار حسام بن ضرار الكلبي إلى قرطبة، في الوقت الذي كانت ما تزال السوق قائمة لبيع السبي من البربر والبلديين من أهل الأندلس[3].

أبو الخطار حسام بن ضرار الكلبي (رجب١٢٥-رجب ١٢٧هـ/٧٤٣-نيسان ٧٤٥م):

قدم أبو الخطار الأندلس أميراً في رجب من سنة ١٢٥هـ/٧٤٣م[4]. ولتوليته قصة بدأت في عهد الخليفة الأموي هشام بن عبد الملك، إذ يذكر ابن الأثير وابن القوطية أن أبا الخطار كان قد قال شعراً عرض فيه بيوم مرج راهط، وما كان من بلاء كلب في ذلك اليوم مع مروان بن الحكم، وقيام القيسيين مع الضحاك بن قيس الفهري على مروان[5]، ومن ذلك الشعر[6]:

أفأتم بني مروان قيساً دماءنا ... وفي الله – إن لم تنصفوا – حكم عدلُ
كأنكمُ لم تشهدوا مرج راهط ... ولم تعلموا من كان تم له الفضلُ
وقيناكم حرّ الوغى بصدورنا ... وليست لكم خيل تعدّ ولا رجلُ
فلما رأيتم واقد الحرب قد خبا ... وطاب لكم منها المشاربُ والأكلُ
تغافلتمُ عنا كأن لم يكن بلاء وأنتم ما علمتُ لها فعلُ

---

[1] مجهول، أخبار مجموعة: ٤٥.

[2] ابن عذاري، البيان المغرب: ٣٣/٢؛ المقري، نفح الطيب: ٢٢/٢.

[3] المقري، نفح الطيب: ٢٢/٣؛ مجهول، أخبار مجموعة: ٤٥-٤٦.

[4] ابن الأثير، الكامل في التاريخ: ٢٦٠/٤؛ المقري، نفح الطيب: ٢٢/٣؛ ابن عذاري، البيان المغرب: ٣٣/٢.

[5] ابن الأثير، الكامل في التاريخ: ٢٦٠/٤.

[6] ابن القوطية، تاريخ افتتاح الأندلس: ٤٣-٤٤؛ ابن الأثير، الكامل في التاريخ: ٢٦٠/٤.

ولما بلغ شعره هشام بن عبد الملك كتب إلى حنظلة بن صفوان الكلبي، واليه على إفريقية، أن يولي أبا الخطار الأندلس[1]، ويبدو أن كتابة أهل الأندلس إلى حنظلة أن يرسل إليهم والياً جاءت في الوقت المناسب، إذ أرسل أبا الخطار "فسار في البحر من تونس إلى الأندلس والياً عليها"[2]، وذلك في عهد الخليفة الأموي: الوليد بن يزيد[3].

وكان أبو الخطار "رجلاً من خيار أهل الشام من أهل دمشق"[4]، "وكان مع فروسيته شاعراً محسناً"[5]. وقد توجه معه إلى الأندلس ثلاثون رجلاً "وهي الطالعة الثانية من الشاميين"[6].

وتشير بعض المصادر إلى أن أبا الخطار عندما وصل إلى قرطبة كانت "الحرب قائمة بين الشاميين والأمويين وبين البلديين والبربر"[7]. وأن الفريقين عندما شاهدا لواءه توقفوا عن القتال، "وأسرع كل واحد من الفريقين إليه فقال لهم: تسمعون وتطيعون؟ فقالوا: نعم. فقال لهم: هذا سجل حنظلة بن صفوان ابن عمي لي عليكم، بعهد أمير المؤمنين إليه، فقال أهل البلد والبربر: سمعنا وأطعنا"[8]. أما المصادر الأخرى فتذكر أن أبا الخطار عندما حلّ بقرطبة وجد ثعلبة بن سلامة العاملي بالمُصَارة، ومعه العرب والسبي، "قد اشتبك في الحبال الولد بالوالد"[9] فدفع ثعلبة الأسرى إليه، فكانت ولايته سبباً لحمايتهم[10]، إذ أمر بحلّهم من وثاقهم، وأطلق سراحهم "وجمع الناس بعد افتراقهم، وصرفهم إلى معهود اتفاقهم، فدانت له جماعتهم"[11]. وكان ذلك العسكر – بعد

---

(1) ابن الأثير، الكامل في التاريخ: ٤/٢٦٠.

(2) الرقيق القيرواني، تاريخ إفريقية والمغرب: ١١٥؛ وانظر: مجهول: أخبار مجموعة: ٤٥-٤٦.

(3) ابن الأثير، الكامل في التاريخ: ٤/٢٦٠؛ المقري، نفح الطيب: ٣/٢٢؛ مجهول، أخبار مجموعة:٤٦.

(4) مجهول، أخبار مجموعة: ٤٦.

(5) المقري، نفح الطيب: ٣/٢٣.

(6) ابن القوطية، تاريخ افتتاح الأندلس: ٤٤.

(7) المصدر نفسه: ٤٤.

(8) المصدر نفسه: ٤٤.

(9) ابن عذاري، البيان المغرب: ٢/٣٣.

(10) ابن الأثير، الكامل في التاريخ: ٤/٢٦٠.

(11) ابن عذاري، البيان المغرب: ٢/٣٣؛ وانظر: النويري، نهاية الأرب: ٢٤/٦٤.

الترتيبات التي اتخذها أبو الخطار – جديراً بتسميته "عسكر العافية"[1]، وخاصة بعد أن أعطى أبو الخطار الأمان لابني عبد الملك بن قطن: أمية وقطن[2].

ولم يطل الوقت بأبي الخطار حتى أخذ البلديون والبربر يعربون له عن مدى مخاوفهم من الشاميين، ويطالبونه بترحيلهم، وهو أمر لم يكن أبو الخطار ليوافق عليه، وهو الشامي الذي قدم إلى الأندلس لإصلاح شأنها، وتثبيت أقدام المسلمين فيها. ولذلك كان عليه أن يعالج الموقف بحكمة وتأنٍّ. وقد دفعته فطنته إلى خطة ترضي البلديين، ولا تضر الشاميين، فعمل على الإحسان إلى البلديين واستمالتهم[3]، وقال لهم: "أدخل قرطبة وأستريح، ثم يكون ما تريدون، فقد ظهر لي أمر فيه صلاح جميعكم إن شاء الله"[4].

وكان الأمر الذي ظهر لأبي الخطار عبارة عن خطة من شقين، قام بتنفيذهما، فقد أخرج ثعلبة بن سلامة العاملي وغيره من القادة الذين كانوا يساعدونه[5] من الأندلس قائلاً لهم: "قد ثبت عند أمير المؤمنين، وعند عامله حنظلة بن صفوان أن فساد الأندلس بكم، فخرجوا...إلى طنجة"[6]. أما الشق الثاني من خطته فكان توزيع الشاميين على أقاليم الأندلس، وقد عمد إلى التنفيذ فوراً، حيث أمرهم بالتفرق عن قرطبة، وعيّن لكل جماعة منهم ما يناسبهم من الكور من حيث شبهها بالمناطق الشامية التي جاؤوا منها، "فأنزل أهل دمشق بإلبيرة، وأهل الأردن بريّه، وأهل فلسطين بشذونة، وأهل حمص بإشبيلية، وأهل قنسرين بجيّان، وأهل مصر بباجة وبعضهم بتدمير. وكان إنزالهم على أموال العجم من أرض ونعم"[7]. وبهذا التوزيع أبقى أبو الخطار للبلديين والبربر على

---

(1) مجهول، أخبار مجموعة: ٤٦.

(2) المصدر نفسه: ٤٦.

(3) ابن الأثير، الكامل في التاريخ: ٢٦٠/٤.

(4) ابن القوطية، تاريخ افتتاح الأندلس: ٤٤-٤٥.

(5) يذكر ابن القوطية منهم: الوقاص بن عبد العزيز الكناني، وعثمان بن أبي نسعة الخثعمي. انظر: تاريخ افتتاح الأندلس: ٤٥؛ ويذكر صاحب أخبار مجموعة أن عدد هؤلاء القادة الذين أخرجهم أبو الخطار من الأندلس كان عشرة: ٤٦.

(6) ابن القوطية، تاريخ افتتاح الأندلس: ٤٥.

(7) ابن عذاري، البيان المغرب: ٣٣/٢؛ ابن القوطية، تاريخ افتتاح الأندلس: ٤٥؛ ولمزيد من التفاصيل انظر: ابن الأثير، الكامل في التاريخ: ٣٦١/٤.

غنائمهم لم ينتقص منها شيئاً[1]، وكان هدفه من ذلك عدم إعطائهم أي مبرر للثـــورة، أو الشعور بأن هؤلاء الشاميين إنما أتوا لينتزعوا ما في أيديهم.

ثم ما لبث أبو الخطار حسام بن ضرار الكلبي أن "تعصّب لليمانيـــة، واعــتزل قيساً"[2]، فتجددت الفتنة العمياء في الأندلس، وكانت هذه المرة بين قيس ويمن. ويـــروي المقري أسباب هذه الفتنة، فيذكر "أن أبا الخطار لما بلغ به التعصب لليمانية أن اختصـــم عنده رجل من قومه مع خصم له من كنانة كان أبلغ حجة من ابن عم أبي الخطار، فمـــال أبو الخطار مع ابن عمه. فأقبل الكناني إلى الصميل بن حـــاتم الكلابـــي* أحــد ســادات مضر، فشكا له حيف أبي الخطار، وكان أبياً للضيم حامياً للعشيرة، فدخـــل علـــى أبـــي الخطار وأمضّ عتابه، فنهره أبو الخطار وأغلظ له، فرد الصميل عليه، فـــأمر بـــه أبـــو الخطار، فأقيم ودُعّ قفاه حتى مالت عمامته، فلما خرج قال له بعض من على الباب: أبـــا جوشن، ما بال عمامتك مائلة؟ فقال: إن كان لي قوم فسيقيمونها"[3].

وعندما بلغ قومه ذلك امتعضوا، والتفّوا حوله، وأيدوه. ثم أخذ هو وقومه يؤلبـــون الناس في الأندلس ضد أبي الخطار، واستجاب له أبو بكر ابن الطفيل العبدي، ثم عمد إلى ثوابة بن سلامة الجذامي "وكان ساكناً بمورور، وقد استفسد إليـــه أبـــو الخطـــار"[4]، فاستجاب له أيضاً. واتفق الثلاثة على حرب أبي الخطار في جموع من لخم وجذام، "فبلغ ذلك أبا الخطار فغزاهم، فلقيه ثوابة، فهزمه ثوابة، وأسره. وسار ثوابة حتى دخل قصـــر قرطبة، وأبو الخطار معه في قيوده"[5]، "وذلك في رجب سنة ١٢٧هـــ بعد ولاية أبـــي الخطار بسنتين"[6].

---

(١) ابن القوطية، تاريخ افتتاح الأندلس: ٤٥.

(٢) ابن عذاري، البيان المغرب: ٣٤/٢.

* قدم إلى الأندلس في إمداد أهل الشام، وهو الصميل بن حاتم بن شمر بن ذي الجوشن، وكان من الكوفة، فلمـــا قتل جده شمر: الحسين بن علي قتل المختار الثقفي شمراً، فارتحل ولده منهم الصميل عن الكوفة إلى الجزيـــرة، ثم دخل الأندلس في جند قنسرين. انظر: مجهول، أخبار مجموعة: ٥٦.

(٣) المقري، نفح الطيب: ٢٣/٣.

(٤) المصدر نفسه: ٢٢/٣.

(٥) ابن عذاري، البيان المغرب: ٣٥/٢؛ وانظر: المقري، نفح الطيب: ٢٤/٣.

(٦) المقري، نفح الطيب: ٢٤/٣.

ثوابة بن سلامة الجذامي (رجب ١٢٧- محرم ١٢٩هـ/نيسان ٧٤٥م – تشرين الأول ٧٤٦م)

ولي ثوابة بن سلامة الجذامي في رجب من سنة ١٢٨هـ/٧٤٦م(١)، وكانت أحوال الأندلس شديدة الاضطراب، فأبو الخطار يرسف في قيوده(٢)، ومؤيدوه يرسمون الخطط لإنقاذه، وعلى رأسهم عبد الرحمن بن حسان الكلبي الذي "أقبل إلى قرطبة ليلاً في ثلاثين فارساً معهم طائفة من الرجالة، فهجموا على الحبس وأخرجوه منه، ومضوا به إلى غرب الأندلس"(٣). وإطلاق سراح أبي الخطار يعني مشكلات جديدة سيثيرها وهو في طريقه إلى استعادة سلطانه، وسيكون الطرف الرئيسي في هذه المشكلات الصميل بن حاتم الناقم على أبي الخطار.

لقد حشد أبو الخطار مؤيديه من اليمانية "حتى اجتمع له عسكر أقبل بهم إلى قرطبة"(٤)، وخرج إلى لقائه ثوابة والصميل، وقبيل المواجهة استغل الصميل فرصة هبوط الليل، فأرسل من ينادي في معسكر اليمانية: "يا معشر اليمن، ما لكم تتعرضون إلى الحرب، وتردون المنايا عن أبي الخطار؟ أليس قد قدرنا عليه، لو أردنا قتله لفعلنا، لكننا مننّا وعفونا، وجعلنا الأمير منكم (أي ثوابة)، أفلا تفكرون في أمركم"(٥). وفعلت هذه الكلمة في نفوس اليمنية فعل السحر، إذ انفضوا من حول أبي الخطار(٦). واستمر ثوابة في ولايته، فقد خاطب أهل الأندلس والي إفريقية حينذاك: عبد الرحمن بن حبيب بن أبي عبيدة بن عقبة بن نافع الفهري(٧)، بأن يوليه عليهم، "فكتب إليه بعهد الأندلس...فضبط البلد. وقام بأمره كله الصميل، واجتمع عليه أهل الأندلس"(٨). ولم

---

(١) ابن عذاري، البيان المغرب: ٣٥/٢؛ مجهول، أخبار مجموعة: ٥٧؛ المقري، نفح الطيب: ٢٤/٣.

(٢) ابن الأثير، الكامل في التاريخ: ٣٦١/٤؛ المقري، نفح الطيب: ٢٤/٣.

(٣) المقري، نفح الطيب: ٢٤/٣.

(٤) المصدر نفسه: ٢٤/٣.

(٥) المصدر نفسه: ٢٤/٣؛ وانظر: ابن الأثير، الكامل في التاريخ: ٣٦١/٤.

(٦) ابن عذاري،البيان المغرب:٣٥/٢؛ابن القوطية،تاريخ افتتاح الأندلس:٤٥؛المقري،نفح الطيب: ٢٤/٣.

(٧) انظر: الرقيق القيرواني، تاريخ إفريقية والمغرب: ١٢٣.

(٨) المقري، نفح الطيب: ٢٤/٣-٢٥.

تطل ولاية ثوابة – التي كان خلالها حاكماً إسمياً، بينما كان حاكمها الفعلي الصميل بن حاتم – إلا سنة أو نحوها[1]، فقد عاجلته الوفاة.

عبد الرحمن بن كثير اللخمي (١٢٩هـ/٧٤٦م)

تولى الأندلس بضعة أشهر من أوائل سنة ١٢٩هـ/٧٤٦م، ولم يكن والياً بالمعنى المعروف، فلم يعهد له بذلك والي إفريقية، وإنما قدمه عليهم أهل الأندلس "للنظر في الأحكام"[2]. وقد أقام فيها نحو أربعة أشهر[3].

وكان سبب عدم الاتفاق على والٍ شدة التنافر بين القيسية واليمنية "فأرادت اليمن أن تعيد أبا الخطار، فأبت ذلك مضر مع الصميل، وتشاكس الفريقان"[4]. وكان أبو الخطار في ذلك الوقت يرسف في قيوده في السجن، حيث سجنه ثوابة والصميل بعد أن انفض جمعه من حوله في اللقاء الأخير[5].

وكان بإمكان الصميل بن حاتم أن يتجاوز ذلك التنافر، وأن يتصدّر قيساً ويمن، وينصب نفسه والياً على الأندلس، فهو الذي كان يصرّف شؤون البلاد بالفعل. غير أنه لم يقم بذلك ذكاءً منه، فهو لا يريد أن ينفّر أحلافه من اليمنية من ناحية، ولا يريد أن يترك الأمر لأحد من المتنافسين خوفاً من أن يستبدّ به وبجماعته. وكان من أبرز أولئك المتنافسين اثنان هما: يحيى بن حُريث الجذامي من أهل الأردن، وثوابة بن عمرو[6]. وظناً من الصميل أنه سيخرج الأمر من دائرة التنافس أخذ يبحث عن شخص تتوافر فيه صفتان أساسيتان، أولهما: أن يكون مقبولاً من جميع الأطراف، وثانيهما: أن يكون ضعيفاً

---

(١) المقري، نفح الطيب: ٢٥/٣؛ وانظر: ابن عذاري، البيان المغرب: ٣٥/٢ حيث يجعل ولايته سنتين، وكذلك جعلها سنتين ابن الأثير، الكامل في التاريخ: ٣٦١/٤؛ في حين جعل ابن الكردبوس ولايته أربع سنين، تاريخ الأندلس: ٥٥؛ والراجح ما أثبتناه في المتن، وهو قول المقري كما أسلفنا، وقول صاحب أخبار مجموعة أيضاً، انظر: ٥٧.

(٢) ابن عذاري، البيان المغرب: ٣٥/٢؛ ابن الأثير، الكامل في التاريخ: ٣٦١/٤.

(٣) ابن عذاري، البيان المغرب: ٣٥/٢؛ ابن الأثير، الكامل في التاريخ: ٣٦١/٤.

(٤) ابن عذاري، البيان المغرب: ٣٥/٢.

(٥) مجهول، أخبار مجموعة: ٥٨؛ ابن عذاري، البيان المغرب: ٣٥/٢.

(٦) مجهول، أخبار مجموعة: ٥٧.

سهل الانقياد حتى يتمكن من السيطرة عليه، وأن يصبح هو الحاكم الفعلي للأندلس، بينما يكون ذلك الشخص حاكما إسميا وحسب. ووجد الصميل بغيته في يوسف الفهري.

يوسف بن عبد الرحمن الفهري* (ربيع الثاني ١٢٩ذي الحجة -١٣٨هـ/كانون الأول ٧٤٧-٧٥٥م)

اجتمعت قيس ويمن على يوسف الفهري "بإشارة الصميل، من أجل أنه قرشي رضي به الحيان، فرفعوا الحرب، ومالوا إلى الطاعة"[١]. وكانت بداية ولايته في ربيع الآخر سنة ١٢٩هـ/٧٤٧م[٢]. ويبدو أن الذي شجع الصميل على اختياره كونه من قريش التي كانت تحظى بمكانة متميزة لدى العرب أجمعين، ولأن قريش وقفت موقف الحياد في الصراع الذي كان دائرا بين القيسية واليمنية. ومع ذلك كان على الصميل أن يزيل من طريق يوسف كل المنافسين، وخاصة يحيى بن حريث، وعبد الرحمن نعيم الكلبي "الذي كانت قضاعة قد اجتمعت، واختارته رئيسا لها قبل تولية يوسف الفهري[٣].

أما يحيى بن حريث فكان يكره أهل الشام كراهية شديدة، وكان يعبر عن هذه الكراهية بقوله: "لو أن دماء أهل الشام سقيت، لشربتها في قدح"[٤]. وقد أرضاه الصميل ويوسف بأن تركا له كورة ريه طعمة "وبها سكنى أهل الأردن"[٥].

---

* هو يوسف بن عبد الرحمن بن حبيب بن أبي عبيدة بن عقبة بن نافع الفهري، وجده عقبة بن نافع كان صاحب إفريقية الذي بنى القيروان. وقد ولد يوسف بالقيروان، "ودخل أبوه الأندلس من إفريقية مع حبيب بن أبي عبيدة الفهري، ثم عاد إلى إفريقية، وهرب عنه ابنه يوسف هذا من إفريقية إلى الأندلس مغاضبا له، فهوي الأندلس، واستوطنها، فساد بها". انظر: المقري، نفح الطيب: ٢٥/٣؛ ابن القوطية، تاريخ افتتاح الأندلس: ٤٥-٤٦.

[١] المقري، نفح الطيب: ٢٥/٣.

[٢] المصدر نفسه: ٢٥/٣؛ وانظر: ابن الأثير، الكامل في التاريخ: ٣٦١/٤.

[٣] ابن عذاري، البيان المغرب: ٣٥/٢؛ مجهول، أخبار مجموعة: ٥٧-٥٨.

[٤] ابن عذاري، البيان المغرب: ٣٧/٢. ويورد صاحب أخبار مجموعة قول ابن حريث هذا ولكن برواية مختلفة قليلا، وهي: "لو أن دماء أهل الشام جمعت لي في قدح لشربتها". انظر: ٦٠.

[٥] مجهول، أخبار مجموعة: ٥٧؛ وانظر: ابن عذاري، البيان المغرب: ٣٥/٢.

وأما عبد الرحمن بن نعيم الكلبي "فجمع مائتي راجل وأربعين فارساً، فبيت القصر بقرطبة، وقاتل الأحراس، وهجم على السجن، فأخرج أبا الخطار، وهرب به إلى لبلة"[1]. وفي لبلة كانت تقيم قبيلة كلب، وقبائل من حمص. وقد أيدته هذه القبائل، والتفت حوله[2]، وأصبحت الأسباب تتهيأ من جديد لثوران عاصفة جديدة من الأحداث في الأندلس.

لم يحرك أبو الخطار في أول الأمر ساكناً، وبدا أن الأوضاع استقرت في الأندلس، وأسلمت ليوسف الفهري قيادتها. ولكن ما إن استقام له الأمر حتى غدر بابن حريث، وعزله عن كورة رية، فغضب ابن حريث غضباً شديداً، ولجأ إلى عقد حلف مع أبي الخطار ضد يوسف[3]. فقد كاتب أبا الخطار في هذا الشأن فوافقه، ولكنهما اختلفا فيمن يتولى إمارة الأندلس منهما إذا ما تمكنا من القضاء على يوسف الفهري، والصميل ابن حاتم، وكان كل منهما يجد نفسه أولى بالأمر من صاحبه، فقد قال أبو الخطار: "أنا الأمير المخلوع، فأنا أقوم بالأمر". وقال ابن حُريث: "بل أنا أقوم به، لأن قومي أكثر من قومك!" فلما رأت جذام ما يدعو إليه ابن حريث، قدّموه وأجابوه"[4]. ويبدو أن حجة ابن حريث كانت أقوى، إذ هبت قبائل اليمن: حمير، وكندة، ومذحج، وقضاعة لتقديمه، والانضواء تحت لوائه[5]، كما انضوى تحت لوائه أبو الخطار.

وهكذا انقسمت الأندلس قسمين، حيث انحازت اليمن إلى ابن حريث وأبي الخطار، وانحازت مضر وربيعة إلى يوسف الفهري والصميل بن حاتم[6]. وتجدر الإشارة هنا إلى أن يوسف لم يكن راغباً في أن ينشب قتال بين الفريقين، فقد كره الفتنة، وخاف الشحناء والبغضاء[7]، ولكن الصميل كان له رأي آخر، فقد صمم على القتال

---

(1) ابن عذاري، البيان المغرب: ٣٥/٢.

(2) مجهول، أخبار مجموعة: ٥٨؛ ابن عذاري، البيان المغرب: ٣٥/٢.

(3) مجهول، أخبار مجموعة: ٥٨؛ ابن عذاري، البيان المغرب: ٣٥/٢-٣٦.

(4) ابن عذاري، البيان المغرب: ٣٦/٢.

(5) مجهول، أخبار مجموعة: ٥٨؛ وانظر: ابن عذاري، البيان المغرب: ٣٦/٢.

(6) مجهول، أخبار مجموعة: ٥٨،٥٩ ؛ ابن عذاري، البيان المغرب: ٣٦/٢.

(7) ابن عذاري، البيان المغرب: ٣٦/٢.

واستعدّ له، إذ دخل قرطبة، وجمع كل ما يستطيع من أسلحة وآلات حربية، ثـــم عـــاد لينازل ابن حريث والصميل اللذين وصلا في تلك الأثناء إلى جنوبي قرطبة، حيث التقـى الفريقان في قرية شقندة[١].

وقعت معركة شقندة في سنة ١٣٠هـ/٧٤٧م[٢]، وكانت أول حرب بالإسلام بـهذه الدعوة، أي دعوة العصبية القبلية[٣]. وهي حرب هائلة لم يكن بالمشــرق ولا بــالمغرب أصدق منها جِلاداً ولا أصبر رجالاً[٤]، "وهي الفتنة العظمى التي بها يُخاف بوار الإسلام بالأندلس، إلا أن يحفظ الله"[٥]. لقد صمم كل من الفريقين: القيسية واليمنية علـى إفنـاء الآخر، وتصفيته، حتى تصبح الأندلس خالصة له دون غيره. لقد طفت أحقـاد العصبيـة القبلية على السطح، ونسي المسلمون في وقعة شقندة ما كانـوا قد جاؤوا لأجلـه، وهـو الفتح، ونشر الإسلام، "فزحف ابن حريث وأبو الخطار إلى يوسف والصميل بقرطبـة، فأقبلا حتى نزلا على نهر قرطبـة بقبليها بقرية شقندة، وعبر يوسف والصميـل النـهر إليهما بمن معهما، فالتقوا حين صلّوا الصبح، فتطاعنوا علـى الخيـل حتـى تقصفـت الرماح، وثبتت الخيل، وحميت الشمس، ثم تداعوا إلى البراز فتنازلوا وتضاربوا بالسـيف حتى تقتطعت، ثم تقابضوا بالأيدي والشعور"[٦]. "وكلّ بعضهم عـن بعـض. وثـابت للصميل غرّة في اليمانية في بعض الأيام، فأمر بتحريك أهل الصناعات بأسواق قرطبـة، فخرجوا في نحو أربعمائة رجل من أنجادهم بما حضرهم من السكاكين والعصـي ليس فيهم حامل رمح ولا سيف إلا قليلاً، فرماهم على اليمانية وهم على غفلة، وما فيهم مـن يبسط يداً لقتال، ولا ينهض لدفاع، فانهزمت اليمانية، ووضعت المضرية السـيف فيـهم، فأبادوا منهم خلقاً" [٧].

---

[١] مجهول،أخبار مجموعة:٥٩؛ ابن عذاري،البيان المغرب:٣٦/٢؛ وانظر:المقري، نفح الطيب: ٢٥/٣.

[٢] ابن الأثير، الكامل في التاريخ: ٣٦١/٤.

[٣] مجهول، أخبار مجموعة: ٥٩.

[٤] المقري، نفح الطيب: ٢٥/٣.

[٥] مجهول، أخبار مجموعة: ٥٩.

[٦] المصدر نفسه: ٥٩.

[٧] المقري، نفح الطيب: ٢٥/٣-٢٦؛ وانظر: مجهول، أخبار مجموعة: ٦٠.

لقد كانت وقعة شقندة من العنف ما جعل ابن عذاري يضيف إلى ما أوردناه سابقاً أن الفريقين تصادما "فلا تسمع إلا صهيلاً وصليلاً، ولا ترى إلا قتيلاً، حتى تكسرت الخطية، وتفللت المشرفية، والتفّت الساق بالساق، وانضمت الأعناق إلى الأعناق"[1]. وهو وصف أشبه ما يكون بأهوال يوم القيامة.

لقد قتلت في وقعة شقندة أعداد هائلة من اليمانية، كما أُسر منهم خلق كثير[2]، وأما أبو الخطار فقد هرب من المعركة بعد أن لحقت به الهزيمة، واختبأ في رحىً للصميل بن حاتم، إلا أن القيسية سرعان ما عثروا عليه، واقتادوه إلى الصميل، فضرب عنقه[3].

وأما ابن حريث فقد أُسر في الوقعة وقُتل أيضاً[4]. ولم ينج الأسرى الآخرون من القتل، فقد أُتي بهم "وقعد لهم الصميل في كنيسة كانت داخل مدينة قرطبة – وهي اليوم موضع مسجدها الجامع – فضرب أوساط سبعين منهم"[5]. ويبدو أن الصميل كان ينوي قتل الأسرى جميعهم لولا تدخل بعض المسلمين، ونصحه بأن يكف عن قتلهم "فأغمد سيفه، وأمّن الناس"[6].

ولم تهدأ الأوضاع في الأندلس بانتصار يوسف الفهري والصميل بن حاتم بانتصارهما في وقعة شقندة، وقتلهما أبا الخطار ويحيى بن حريث، إذ شهدت البلاد في أعقاب تلك الوقعة أهوالاً وأحداثاً كان بعضها من تدبير الله عز وجل فيما يمكن اعتباره عقوبة منه بسبب اقتتال المسلمين لأسباب ليست في الإسلام ولا من الإسلام، فقد أعقب الله

---

(1) ابن عذاري، البيان المغرب: ٣٦/٢.

(2) مجهول، أخبار مجموعة: ٦٠.

(3) المقري، نفح الطيب: ٢٦/٣؛ ابن عذاري، البيان المغرب: ٣٦/٢؛ ابن القوطية، تاريخ افتتاح الأندلس: ٤٥؛ مجهول، أخبار مجموعة: ٦٠؛ وانظر: ابن الأثير، الكامل في التاريخ: ٣٦١/٤.

(4) مجهول، أخبار مجموعة: ٦٠.

(5) المصدر نفسه: ٦٠-٦١.

(6) المصدر نفسه: ٦١.

المسلمين في الأندلس بالجوع والقحط، إذ أمحلت الأندلس سنة ١٣١هـ/٧٤٨م[١]. واستمر هذا القحط حتى سنة ١٣٦هـ/٧٥٣م، وكانت أشد هذه السنوات على أهل الأندلس، حيث "استحكم الجوع والقحط في سنة أربع وثلاثين وسنة خمس وبعض سنة ١٣٦"[٢]؛ فخرج أكثر الناس إلى المغرب.

وليس من شك في أن الحروب العنيفة المتواصلة بين العرب والبربر، وبين الشامية واليمانية، وانقطاع أهل الأندلس عن الزراعة وتعمير الأرض، وانجفالهم من أماكن الاستقرار إما للمشاركة في الحروب أو للهروب منها، لقد كانت تلك من أهم الأسباب التي أدت إلى المجاعة، ومن ثم هجرة الكثيرين إلى إفريقية. وقد أدى إلى تفاقم الوضع وقوع معظم الحروب بين العرب، وبين العرب والبربر في أكثر المناطق خصباً مما أدى إلى تخريبها.

كان خروج أهل الأندلس إلى إفريقية بسبب سنين القحط من وادي برباط بكورة شذونة، "فتلك السنون تسمى سني برباط"[٣]. وقد بلغ من تأثير تلك السنين العجاف أن مات كثير من الناس، ولا بد أيضاً أن تكون أعداد كبيرة من الحيوانات قد نفقت بما فيها الخيل التي كانت تستخدم لنقل البريد، إذ انقطع البريد بين أنحاء الأندلس[٤].

ولم يسلم من المجاعة التي حلّت بالأندلس سوى إقليم سرقسطة، وسبب ذلك أن العرب والبربر الذين استقروا في ذلك الإقليم لم يشتركوا في الحروب الدامية، وظلوا على حالهم يزرعون الأرض ويعتنون بها[٥]. وكان ثغر سرقسطة في معظمه لليمنيين، ولذلك وجده يوسف الفهري مكاناً ملائماً لإذلال الصميل بن حاتم، والتخلص من سيطرته،

---

[١] ابن عذاري، البيان المغرب: ٣٨/٢؛ ابن الأثير، الكامل في التاريخ: ٣٦١/٤؛ مجهول، أخبار مجموعة: ٦١.

[٢] ابن عذاري، البيان المغرب: ٣٨/٢؛ وانظر: مجهول، أخبار مجموعة: ٦١؛ ابن الأثير، الكامل في التاريخ: ٣٦١/٤.

[٣] مجهول، أخبار مجموعة: ٦٢؛ وانظر: ابن عذاري، البيان المغرب: ٣٨/٢.

[٤] انظر: مجهول، أخبار مجموعة: ٦٢-٦٣.

[٥] المصدر نفسه: ٦٢-٦٣.

وخاصة أنه أصبح بعد انتصارهما على أبي الخطار وابن حريث قائد يوسف الأعلى "وقدحه المعلّى"[1]. ولذلك فإن يوسف بعد أن تمكّن، قلق من وجود الصميل إلى جانبه "فرأى أن يبعده من مكانه، ويولّيه بعض سلطانه، فولاه سرقسطة وبلادها سنة ١٣٢هـ/٧٤٩م"[2].

سار الصميل إلى سرقسطة "في مائتي رجل من قريش ومن كان معه من غلمانه وحشمه ومواليه، فنال بها ملكاً وغنى، ووفد عليه محاويج الناس فأعطاهم الأموال والرقيق، ولم يأته صديق ولا عدو فحرمه، فازداد سؤدداً، وأقام بها أعوام الشدائد التي تتابعت"[3]. وفطن الصميل إلى أن يوسف إنما وجهه إلى سرقسطة إبعاداً له، وتخلصاً منه، فهو، أي الصميل، لا بد أن ينشغل في سرقسطة باليمنيين، وبالتالي يستقل يوسف بأمره دونما تدخل مباشر من الصميل. ولكي يفوت الصميل على يوسف ما هدف إليه سار سيرة حسنة في أهالي سرقسطة، وحاول كسب قلوبهم وتأييدهم، ففتح لهم خزائنه، وأجزل لهم العطاء متناسياً تعصبه الشديد للقيسية.

ومن جهته أقام يوسف الفهري في قرطبة وحده يدبر الأمر، ويسوس الناس. ولكنه كان – كما ذكرنا من قبل – قليل الحيلة، ضعيف الرأي، "وكان بقرطبة فتى من بني عبد الدار قد شرف وسوّد، يقال له: عامر من ولد أبي عدي أخي مصعب بن هاشم، صاحب لواء رسول الله ﷺ يوم بدر وأحد...وكان يلي الصوائف قبل يوسف فشَرُفَ، فحسده يوسف"[4]، وأخذ يكيد له خوفاً منه، وغيرة مما كان يتمتع به من مكانة في قلوب الناس. وعندما أحس عامر بما يدبره له يوسف أرسل إلى الخليفة العباسي أبي جعفر المنصور يسأله أن يوليه الأندلس، ويرسل له عهداً بذلك[5]. وكان عامر يمنياً، وقد ساءه ما فعل يوسف الفهري باليمنيين، وما سفك من دمائهم، وخشي في الوقت نفسه أن يسيء الصميل بن حاتم لليمنيين في سرقسطة، ويقتلهم، ولذلك أخذ يستعد للمواجهة، فقد بنى

---

(1) ابن عذاري، البيان المغرب: ٣٧/٢.

(2) المصدر نفسه: ٣٧/٢؛ وانظر: مجهول، أخبار مجموعة: ٦٢؛ ابن خلدون، تاريخ: ١٥٤/٤.

(3) مجهول، أخبار مجموعة: ٦٣.

(4) مجهول، أخبار مجموعة: ٦٣.

(5) المصدر نفسه: ٦٣.

حصناً "في منية له كان يقال لها قناة عامر بغربي قرطبة، فأغلق غلقة عظيمة همّ أن يجعلها مدينة، وأراد أن يبتني بها بنياناً ينضم إليه، ويغادر يوسف حتى يأتيه إمداد اليمن[1].

وكان يوسف الفهري حينذاك قد انجفل الناس من حوله، وكرهوا ولايته، لما امتاز به من ضعف وجبن. وبلغ سوء حاله أنه كان إذا ركب لا يجد من يرافقه أكثر من خمسين رجلاً من حشمه[2].

لقد حاول يوسف أن يقضي على عامر، ويدفن تحركاته قبل أن تبدأ، غير أنه جَبُن عن ذلك، وتردد، وخاصة بعد أن عرف أن عامراً شديد الحذر، وأنه على علم بما يحاك ضده. وكتب يوسف إلى الصميل يستشيره في ما يخرجه من مأزقه، فكتب إليه الصميل يشجعه على قتل عامر، "وكان عامر لا يخفى عليه شيء من سير يوسف، وكان سخياً لبيباً عاقلاً أديباً، فأتاه آت فقال له: انظر لنفسك، فقد أتاه كتاب الصميل يشجعه على قتلك" [3].

شعر عامر بما يهدد حياته من أخطار، ولما كان يمنياً فقد كان من الطبيعي أن يفكر في اللجوء إلى ناحية يكثر فيها قومه، وكانت تلك الناحية سرقسطة، فهي تعج باليمنيين، ولم يكن وجود الصميل بن حاتم ليحول دون توجهه إليها، ولم يكن بذلك يستجير من رمضاء يوسف بنار الصميل، وإنما يستجير من رمضاء يوسف ونار الصميل ببرد اليمنيين وسلامهم.

كتب عامر إلى زعيم من زعماء يمن سرقسطة يسميه ابن خلدون والمقري: الحباب بن رواحة الزهري[4]، وينسبه صاحب أخبار مجموعة إلى بني زهرة دون أن يسميه[5]، ولكنه يذكر أنه كان سيد بني زهرة من كلاب، وأنه يمت لعامر بالقرابة. وقد

---

[1] مجهول، أخبار مجموعة: ٦٣.

[2] المصدر نفسه: ٦٣-٦٤.

[3] المصدر نفسه: ٦٤.

[4] ابن خلدون، تاريخ: ٤/١٥٤؛ المقري، نفح الطيب: ٣/٢٦.

[5] مجهول، أخبار مجموعة: ٦٤.

استجاب الزهري لعامر، وأيده، فسار عامر إلى سرقسطة، وأخذا يدعوان الناس إليهما، فأجابهما "رجال من اليمن، وناس من البربر، وغيرهم"[١]. ولما بلغ الصميل ذلك أرسل إليهما قوة من الفرسان والرجالة ممن هم على طاعته، وأوقع بهما هزيمة، ولكنها كانت محدودة[٢].

ولم تكن الهزيمة التي ألحقها الصميل بقوات عامر والزهري ذات تأثير كبير عليهما، فقد تمكنا خلال فترة وجيزة من حشد عدد كبير، وتوجها مباشرة إلى سرقسطة حيث حاصراها وحصرا الصميل بن حاتم فيها، فكتب الصميل إلى يوسف الفهري يطلب منه المدد، غير أن يوسف تثاقل عن نجدته، إذ كان في قرارة نفسه يتمنى أن يقضي عليه اليمنيون[٣].

ولما تقاعس يوسف الفهري عن نجدة الصميل بن حاتم، أخذ الصميل يستغيث بالقيسية، فكتب إلى "قومه قيس في جند قنسرين ودمشق، يعظّم عليهم حقه، ويسألهم إمداده، ويعلمهم أنه يجتزى من المدد بالقليل"[٤]. فهب لنجدته جمع من قبائل كلاب ومحارب وسليم وهوازن، ثم لحقت بهؤلاء أعداد من جند قنسرين ودمشق وغيرهم من القيسية. وسارت هذه القوى لمحاربة عامر والزهري ومن معهما من اليمنيين والبربر المحاصرين لسرقسطة[٥].

وصل القيسيون إلى طليطلة في طريقهم إلى سرقسطة، وكانوا يتلكأون في سيرهم، مما أتاح الفرصة أما اليمنيين لتشديد الحصار على الصميل. وكان مع القيسيين القادمين لنجدة الصميل "قوم من بني أمية في نحو ثلاثين فارساً"[٦]. يتقدمهم أبو عثمان بن عبيد الله بن عثمان، وعبد الله بن خالد بن أسلم، مولى عثمان بن عفان، وكان لهما ولبني أمية

---

[١] مجهول، أخبار مجموعة: ٦٤؛ وانظر: ابن خلدون، تاريخ: ١٥٤/٤؛ وانظر: ابن القوطية، تاريخ افتتاح الأندلس: ٤٧.

[٢] مجهول، أخبار مجموعة: ٦٤.

[٣] المصدر نفسه: ٦٥.

[٤] المصدر نفسه: ٦٥.

[٥] المصدر نفسه: ٦٥؛ وانظر: ابن عذاري، البيان المغرب: ٤٢/٢.

[٦] ابن عذاري، البيان المغرب: ٤٢/٢؛ وانظر: مجهول، أخبار مجموعة: ٦٦.

بلاء معروف مشهور إلى جانب يوسف والصميل في وقعة شقندة[١]، فكانوا – كما يذكر صاحب أخبار مجموعة – من يوسف والصميل بأشرف المنازل[٢].

ولم تكن هذه الجموع القيسية التي أتت لنجدة الصميل في سرقسطة بأكثر من أربعمائة فارس بمن فيهم الأمويون[٣]، وكان خروج الأمويين معهم استئلافاً للصميل كما يذكر صاحب أخبار مجموعة، وذلك لأن عبد الرحمن بن معاوية كان قد وصل إلى إفريقية، وأخذ يستعد للجواز إلى الأندلس لإقامة دولة أموية فيها، وهذا يتطلب حشد الأنصار والمؤيدين فيها، وهو ما سيتم تفصيله في الفصل التالي. فقد عمل الزعيمان الأمويان على مساعدة الصميل، وأراد بذلك أن يقدما يداً عند الصميل[٤]. وكانا واثقين به، "وأنه إن لم يجبهما (في تأييد عبد الرحمن بن معاوية) كتم عليهما، وكذلك فعل؛ فإنه كتم عليهما كتماناً عجيباً"[٥].

أقبل القيسيون حتى وصلوا إلى مشارف سرقسطة "فانكشف عامر والزهري لما سمعوا بالمدد قد قاربهم"[٦]. وكان القيسيون عندما وصلوا إلى سرقسطة أرسلوا فارساً منهم برسالة إلى الصميل، فتسلل الفارس بين قوات عامر والزهري، وألقى بالرسالة من فوق السور، وكانت مكتوبة على حجارة، فتلقفها الصميل، وأعطاها لمن قرأها له، إذ كان لا يعرف القراءة، فإذا مكتوب فيها:

ألا أبشر بالسلامة يا جدارُ ... أتاك الغوث وانقطع الحصارُ
أتتك بنات أعوج ملجماتٍ ... عليها الأكرمون وهم نزارُ

فلما سمع الصميل ما في الرسالة قال: "أبشروا يا قوم! فقد جاءكم الغوث ورب الكعبة[٧]. "ومضى القوم يستجيشون كل من استجاب لهم، ومعهم الأمويون، وفي

---

[١] ابن عذاري، البيان المغرب: ٤٢/٢؛ مجهول، أخبار مجموعة: ٦٦.

[٢] مجهول، أخبار مجموعة: ٦٦.

[٣] المصدر نفسه: ٦٧-٦٨؛ ابن عذاري، البيان المغرب: ٤٢/٢.

[٤] ابن عذاري، البيان المغرب: ٤٢/٢.

[٥] المصدر نفسه: ٤٣/٢.

[٦] مجهول، أخبار مجموعة: ٦٩.

[٧] ابن عذاري، البيان المغرب: ٤٣/٢؛ مجهول، أخبار مجموعة ٦٨-٦٩.

جملتهم بدر رسول ابن معاوية"[1]، وعندئذ أدرك عامر والزهري أنهما سيخوضان حرباً لا جدوى منها، فآثرا الانسحاب[2]. وخرج الصميل من حصاره، وأكرم هؤلاء الذين قدموا لنجدته، حيث "وصلهم على أقدارهم، وكساهم"[3]، فأعطى العطاء الجزيل "أعطى خيارهم خمسين ديناراً، وأعطى خيار القواد مائتي مائتي دينار، وأعطى غيرهم من الناس عشرة عشرة دنانير وشقة شقة خز" [4].

وبعد أن انجلت غمة الصميل في سرقسطة عاد بماله وحشمه مع من نصروه إلى قرطبة، فدخل الحباب الزهري سرقسطة وملكها[5]. وفي الطريق إلى قرطبة أطلع الأمويون الصميل بن حاتم على أمر ابن معاوية، وطلبوا نصرته، فوعدهم بذلك، ثم رجع في قوله[6]. لقد فكر الصميل في أمر ابن معاوية، ويبدو أنه مال في أول الأمر إلى مساعدته، غير أنه وجد في ذلك انتقاصاً من السيادة التي كان يتمتع بها، وتهديداً لمكانته، إذ كان يعتبر نفسه الوالي الحقيقي للأندلس، الذي يدير شؤونها بوساطة يوسف الفهري. ولذلك نجده يخاطب الزعيمين الأمويين: أبا عثمان عبيد الله بن عثمان وعبد الله بن خالد ابن أبان بن أسلم قائلاً عن ابن معاوية: "فإن أحب غير السلطان، فله عندي أن يؤاسيه يوسف، ويزوجه، ويحبُوه"[7]. ولم يكن ابن معاوية راغباً إلا في السلطان – كما سيأتي – ولذلك انقطع رجاء الأمويين من مساعدة الصميل ومن معه من ربيعة ومضر، وراحا يروّجان لدعوتهما لدى اليمنيين في الأندلس.

وكان اليمنيون قد وغرت صدورهم ضد القيسيين، وكانوا يتحينون الفرص ويتحفزون لإدراك ثأرهم منهم، بسبب ما لاقوه على يد يوسف والصميل والقيسيين عامة من القتل والاضطهاد والتشريد. ولذلك فإن ظهور عبد الرحمن بن معاوية كان الضالّة

---

[1] ابن عذاري، البيان المغرب: ٤٣/٢.
[2] المصدر نفسه: ٤٣/٢.
[3] المصدر نفسه: ٤٣/٢.
[4] مجهول، أخبار مجموعة: ٦٩.
[5] ابن عذاري، البيان المغرب: ٤٣/٢؛ ابن خلدون، تاريخ: ١٥٤/٤.
[6] ابن عذاري، البيان المغرب: ٤٣/٢؛ وانظر: مجهول، أخبار مجموعة: ٧٠.
[7] ابن عذاري، البيان المغرب: ٤٤/٢.

التي نشدوها طويلاً، والفرصة التي أمضوا زمناً وهم يترقبونها للأخذ بثأرهم من القيسية. وقبل تتبع هذا الأمر، والإحاطة بتفاعلاته المختلفة التي أدت إلى إقامة الدولة الأموية في الأندلس لا بد من بلورة الأوضاع فيها، وإلقاء مزيد من الضوء على شؤونها المختلفة، وخاصة ما يتعلق من ذلك بالموقف الداخلي المتمثل في الصراعات الدائرة بين المسلمين أنفسهم، والموقف الخارجي المتمثل في الصراعات بينهم وبين النصارى.

لقد واجه يوسف الفهري ثورات أخرى غير الثورة التي قام بها الحباب الزهري وعامر العبدري التي أشرنا إليها، فقد ثار عليه عبد الرحمن بن علقمة اللخمي بأربونة، "فحاربه، ولم يمكث في حربه إلا يسيراً حتى أمكنه الله منه"[١]. وكان اللخمي ذا بأس شديد ووجاهة عظيمة، فما إن استقر الأمر ليوسف كوالٍ على الأندلس حتى أخذ يعد العدة لغزوه، غير أن بعض أصحابه غدروا به، إذ اغتالوه، وأقبلوا برأسه إلى يوسف[٢].

وثار على يوسف الفهري: عروة بن الوليد في مدينة باجة، وكان معظم مؤيديه من أهل الذمة، وقد تمكن من الاستيلاء على مدينة إشبيلية، "وكثر جمعه، إلى أن خرج عليه يوسف فقتله"[٣]. وثار عليه تميم بن معبد سنة ١٣٦هـ/٧٥٣م، ثم انضم إلى تميم عامر بن عمرو بن وهب بسرقسطة وذلك في السنة التالية ١٣٧هـ/٧٥٤م فتولى محاربتهما الصميل بن حاتم[٤]. ثم خرج إليهما يوسف الفهري سنة ١٣٨هـ/٧٥٥م "فحاصرهما، ثم ظفر بهما وقتلهما"[٥]. ويذكر المقري أن "أول من خرج على يوسف: عمرو بن يزيد الأزرق في إشبيلية، فظفر به فقتله"[٦].

وربما كان ألد أعداء يوسف، أو قل ألدّ أصحابه هو الصميل بن حاتم الذي كان يتوجس منه خوفاً باستمرار، ويحسب حسابه دائماً، ولذلك نراه يبعده إلى سرقسطة. وقد

---

[١] ابن عذاري، البيان المغرب: ٣٨/٢.

[٢] المقري، نفح الطيب: ٢٦/٣.

[٣] المصدر نفسه: ٢٦/٣؛ وانظر: ابن عذاري، البيان المغرب: ٣٨/٢.

[٤] ابن عذاري، البيان المغرب: ٣٨/٢.

[٥] المصدر نفسه: ٣٨/٢.

[٦] المقري، نفح الطيب: ٢٦/٣.

كشفت الأحداث فيها، المتمثلة في حصارها من قبل الزهري وابن حريث عن مدى ما كان يكنه الصميل من حقد على يوسف بسبب إبطائه عن إرسال المدد له أثناء تعرضه للحصار[1].

وقد استمر يوسف الفهري في سياسة إبعاد الصميل عن قرطبة، فبعد عودة الصميل إليها من سرقسطة، أبعده يوسف مرة أخرى ولكن إلى طليطلة، وظل فيها إلى أن آل أمر الأندلس إلى الأمويين[2]. وعلى الرغم من هذا العداء الخفي المستحكم بين الرجلين، إلا أن يوسف لم يكن ليستغني عن مشورة الصميل عندما يحزبه أمر[3].

وكان انشغال المسلمين ببعضهم على النحو الذي فصّلنا القول فيه، ورحيل الكثيرين منهم عن مناطقهم بسبب القحط الذي أصاب الأندلس، كان ذلك كله يمهد لتحولات جذرية في المناطق الشمالية التي أصبحت شبه خالية من المسلمين، فقد أتاح ذلك للنصارى التقاط أنفاسهم، ومن ثم البدء في تأسيس الدويلات النصرانية التي ما لبثت أن قويت واشتد عودها، وأصبحت تشكل الخطر الحقيقي على الوجود الإسلامي في الأندلس.

لقد كان بلاي، أو بلايو (Pelayo) هو الذي كان على يديه البداية الحقيقية لاستعادة النصارى وجودهم ومن ثم نفوذهم في الشمال. وبلاي الذي أشرنا إليه من قبل، عند حديثنا عن الوالي عقبة بن الحجاج السلولي، كان يتزعّم فلولاً من القوط، وقد اندحر أمامهم نحو الشمال، واعتصم منهم بركن بعيد من جليقية تسميه المصادر العربية (صخرة بلاي)، أو الصخرة، أو قمم جبال أوروبا[4] (Picos de Europa). وعجز المسلمون عن الوصول إليه مع أن عدد الذين كانوا معه لم يتجاوز ثلاثمائة رجل، نقصوا إلى ثلاثين فقط لشدة ما ضيّق المسلمون عليهم، ثم "أعيى المسلمين أمرهم، فتركوهم"[5]. وقد اطمأن المقام بهؤلاء بعد أن تركهم المسلمون، واختلطوا بأهالي تلك المنطقة، ثم ازدادت أعدادهم، وازدادت أقدامهم ترسّخاً وثباتاً.

---

[1] المقري، نفح الطيب: ٣٠/٣.

[2] المصدر نفسه: ٣٠/٣؛ ابن خلدون، تاريخ: ١٥٤/٤.

[3] انظر: المقري، نفح الطيب: ٣٢/٣.

[4] مجهول، أخبار مجموعة: ٦١؛ ابن عذاري، البيان المغرب: ٢٩/٢.

[5] ابن عذاري، البيان المغرب: ٢٩/٢.

ولم تتفق المصادر على تحديد هوية هذه الشخصية النصرانية بلاي الذي أصبح في الطليعة من شخصيات التاريخ الإسباني، وخلاصة القول في ذلك أنه كان ابن أمير قوطي يسمى برمودو (Vermudo)، وأنه ابن أخ لذريق[١]. وأنه اختلف مع لذريق فنفاه عن طليطلة قبيل الفتح الإسلامي، فذهب إلى أشتريس، وأقام نفسه أميراً عليها. واتخذ من بلدة كانجا دي أونيس (Cangas de Onis) عاصمة له. وبالتالي فإنه أفلت من المسلمين، ونجح في تأسيس مملكة أشتريس الصغيرة، التي كانت إيذاناً بولادة الإمارات النصرانية في شمالي الأندلس[٢].

واتسع سلطان بلاي بمرور الأيام، فشمل أشتريس وكنتبرية، ثم أخذ ينازع مجاوريه من الأمراء النصارى حتى ضم جانباً من جليقية[٣].

وتذكر بعض المراجع الإسبانية أن بلاي هو ابن فافيلا دوق كنتبرية. وكان فافيلا هذا على خلاف مع غيطشة ملك القوط، وقد قام غيطشة بنفي بلاي إلى طليطلة، ففر منها إلى كنتبرية، حيث تزعم النصارى هناك، وأخذ يستعديهم ضد المسلمين[٤]. وكان عامل المسلمين في أشتريس هو القائد منوسة الذي حارب بلاي وألجأه إلى الصخرة في عدد قليل من أنصاره، ولولا قضاء عبد الرحمن الغافقي على منوسة سنة ١١٣هـ/٧٣١م لتمكن هذا الأخير من القضاء على بلاي[٥].

وبعد مقتل منوسة خلا الجو لبلاي، فتشجع وخرج من الصخرة، وأخذ في التوسع حتى تمكن من إنشاء إمارته على النحو الذي أشرنا إليه[٦]. ولما ولي عقبة بن الحجاج

---

[١] مؤنس، بلاي وميلاد أشتريس، مجلة كلية الآداب – جامعة فؤاد الأول، المجلد الحادي عشر، الجزء الأول، مايو ١٩٤٩م، مطبعة جامعة فؤاد الأول: ٦٢.

[٢] المرجع نفسه:٦٢؛ مؤنس، فجر الأندلس:٣٣٤؛ سالم، تاريخ المسلمين وآثارهم في الأندلس: ١٦٩.

[٣] مؤنس، بلاي وميلاد أشتريس: ٦٣؛ فجر الأندلس: ٣٣٤؛ سالم، تاريخ المسلمين وآثارهم في الأندلس: ١٦٩.

[٤] مؤنس، بلاي وميلاد أشتريس: ٦٣.

[٥] مؤنس، فجر الأندلس: ٣٣٤.

[٦] المرجع نفسه: ٣٣٤.

السلولي الأندلس (١١٦-١٢٣هـ/٧٣٤-٧٤١م) نهض للقضاء على هذه الإمارة، وأخذ يحارب بلاي، ويستعيد الأراضي التي استولى عليها حتى تمكن من إلجائه إلى الصخرة مرة أخرى، ودخل كثيرون من أهل أشتريس في الإسلام، وكاد أمر تلك الإمارة الناشئة أن ينتهي[١]، لو لم تتح لها ظروف المسلمين النهوض مجدداً.

لقد استغل بلاي انشغال المسلمين بالحروب التي نشبت بين العرب والبربر، ثم بين القيسية واليمنية، وسنوات القحط، فأخذ يضم المناطق التي جلا عنها المسلمون مثل جليقية وأسترقة ثم ليون وسمورة وسلمنقة وشنت مانكش وغيرها، ففي سنة ١٣٣هـ/٧٥٠م في أثناء ولاية يوسف الفهري خرج بلاي من الصخرة، وغلب على هذه المناطق الشاسعة[٢]. ويشير صاحب أخبار مجموعة إلى أن المسلمين حاولوا التصدي لبلاي، إلا أن محاولتهم باءت بالفشل، فقد تمكن من إخراجهم من جليقية كلها، "وتنصر كل من تذبذب في دينه، وضعف عن الخراج، وقُتل من قُتل، وصار فلهم إلى خلف الجبل إلى أسترقة حتى استحكم الجوع، فأخرجوا أيضاً المسلمين عن أسترقة وغيرها، وانضم الناس إلى ما وراء الدرب الآخر وإلى قورية وماردة في سنة ست وثلاثين"[٣].

وهذه الانتصارات التي حققها النصارى لم يكن بلاي صاحب الفضل في تحقيقها كلها، فقد توفي سنة ١٣٣هـ/٧٥٠-٧٥١م، أو بعد ذلك بقليل[٤]، ثم خلفه ابنه فافيلا Fafila الذي توفي بعد نحو سنتين من توليه السلطة دون أن يترك عقباً[٥]. وبعد وفاة فافيلا آل عرش تلك الإمارة النصرانية إلى ألفونسو الأول ابن بيدرو Pedro دوق كنتبرية. وقد أضاف ألفونسو دوقية كنتبرية إلى تلك الإمارة، فاتسعت حدودها، وقويت

---

(١) مؤنس، فجر الأندلس: ٣٣٤-٣٣٥.

(٢) مجهول، أخبار مجموعة: ٦١-٦٢. وهناك من يرى أن هذا التوسع في سنة ١٣٣هـ/٧٥٠م إنما قاده الملك ألفونسو الأول (الكاثوليكي) ذلك أن بلاي توفي سنة ١١٩هـ/٧٣٧م، وخلفه ابنه فافيلا Fafila الذي توفي بعد سنتين، فخلفه بطره الذي تسلم العرش بعده ابنه ألفونسو المذكور. انظر: سالم، تاريخ المسلمين وآثارهم في الأندلس: ١٦٩-١٧٠؛ وانظر: الحجي، التاريخ الأندلسي: ٢٧٠-٢٧١.

(٣) مجهول، أخبار مجموعة: ٦١-٦٢.

(٤) مؤنس، بلاي وميلاد أشتوريس: ٧٣.

(٥) مؤنس، فجر الأندلس: ٣٤٢.

شوكتها. وفي عهد ألفونسو هذا أُخرج المسلمون من كثير من المدن في الشمال، حيث استغل ما كان من حروب أهلية داخلية في عهد يوسف الفهري، وما كان من انشغالٍ بقدوم عبد الرحمن بن معاوية إلى الأندلس. ولعل المقري إنما يشير إلى ذلك في قوله: "وعندما شُغل المسلمون بعبد الرحمن وتمهيد أمره قوي أمر الجلالقة، واستفحل سلطانهم، وعمد ملكهم...إلى ثغور البلاد فأخرج المسلمين منها، وملكها من أيديهم، فملك مدينة لكّ، وبرتقال، وسمّورة، وشلمنقة، وقشتالة، وشقوبية، وصارت للجلالقة"[1].

وقد حاول يوسف الفهري التصدي للقوات النصرانية في الشمال، وفرض هيبة المسلمين هناك، فسار إلى طليطلة، ومنها "أمضى بعثين إلى جليقية والبشكنس"[2]، أو كما يذكر صاحب أخبار مجموعة "رأى أن يمضي طايفة إلى البشكنس ببنبلونة، وكان أهلها قد نقضوا بنقض أهل جليقية، فقطع بعثاً إليهم"[3]. غير أن تلك البعوث لم تدرك غايتها، بل هُزمت، وقتل معظم أفرادها، وهرب من نجا منهم إلى سرقسطة[4].

ولم يكن باستطاعة يوسف الفهري إرسال حملات أخرى إلى الشمال، فقد انشغل عن ذلك بالاستعداد لمجابهة الخطر الداهم المتمثل في عبد الرحمن بن معاوية بعد أن علم خبره[5].

وكان عبد الرحمن بن معاوية بن هشام بن عبد الملك بن مروان قد فرّ من وجه بني العباس عندما تغلبوا على بني أمية في المشرق، وقتلوا آخر خلفائهم: مروان بن محمد بن مروان بن الحكم آخر خلفائهم سنة ١٣٢هـ/٧٤٩م[6]، وتتلخص قصة فراره

---

[1] المقري، نفح الطيب: ٣٣٠/١.

[2] ابن عذاري، البيان المغرب: ٤٤/٢.

[3] مجهول، أخبار مجموعة: ٧٦.

[4] ابن عذاري، البيان المغرب: ٤٢/٢؛ مجهول، أخبار مجموعة: ٧٦-٧٧.

[5] المقري، نفح الطيب: ٢٦/٣.

[6] ابن خلدون، تاريخ: ١٥٤/٤؛ المقري، نفح الطيب: ٣٢٧/١، ٢٧/٣؛ ابن الأثير، الكامل في التاريخ: ٣٦٢/٤؛ مجهول، أخبار مجموعة:٤٦؛ ابن عذاري، البيان المغرب:٤٠/٢؛ ابن القوطية، تاريخ افتتاح الأندلس: ٤٦؛ ابن الكردبوس، تاريخ الأندلس: ٥٥.

في أن أبا العباس السفاح تتبع بني أمية حيث كانوا، وكان يقتل كل من تصل يده إليه، فقتل أبان بن معاوية، وعبدة بنت هشام بن عبد الملك، وغيرها، فاختفى من بقي منهم "عند العرب وأفناء الناس فلم يجدوهم"(١). وكان ممن تغيبوا سليمان بن هشام، فلجأ بنو العباس إلى الحيلة لكي يخرجوا من مكامنهم تمهيداً لقتلهم، ولذلك أظهروا الندم على قتل من قتلوا، وأعلنوا ندمهم. ولما شاع ذلك أظهر نحو سبعين رجلاً من بني أمية أنفسهم، وطلبوا الأمان، فجعل بنو العباس "كلما جاءهم رجل منهم قربوه وأنزلوه وأعطوه عهوداً...ألا يروا مكروهاً حتى يلحقوا بأمير المؤمنين، وأن أمير المؤمنين قد أمنهم، وأراد الإبقاء عليهم"(٢). وكان عبد الرحمن بن معاوية وأخوه يحيى ابن معاوية ممن لم يطمئنوا لبني العباس، ولذلك ظلا مختفيين عن الأنظار، يترقبان ما سيحل بأولئك الذين طلبوا الأمان، ومُنح لهم. وطال انتظارهم "حتى أقبل المدني والعراقي والمصري من بني أمية" (٣). وعندئذ أرسل يحيى بن معاوية من يستطلع الخبر، فوجد الرسول أن العباسيين قد أذرعوا القتل في الأمويين، ولما أخبر يحيى بما رآه لم يحرك ساكناً حتى اقتربت خيل بني العباس من القرى المجاورة، وعندئذ حاول الهرب فلم يتمكن(٤). ثم ظفر به فرسان بني العباس في قريته التي تسميها بعض المصادر (ذات الزيتون) وقتلته(٥).

وكان عبد الرحمن بن معاوية عندما قُتل أخوه غائباً في رحلة صيد(٦)، "فوقع الخبر عليه في جوف الليل فهرب"(٧). وتذكر المصادر أنه "لم يزل في فراره منتقلاً بأهله وولده إلى أن حلّ بقرية على الفرات ذات شجر وغياض"(٨). ولم يطل به المقام في تلك القرية حتى حلّت بها رايات العباسيين، فنبهه أخ له صغير إلى ذلك "فضربت بيدي

---

(١) مجهول، أخبار مجموعة: ٤٧.

(٢) المصدر نفسه: ٤٧-٤٨.

(٣) المصدر نفسه: ٤٨.

(٤) المصدر نفسه: ٤٨.

(٥) المصدر نفسه: ٤٨؛ وانظر: ابن الأثير، الكامل في التاريخ: ٣٦٢/٤.

(٦) مجهول، أخبار مجموعة: ٤٨.

(٧) المصدر نفسه: ٤٨.

(٨) المقري، نفح الطيب: ٢٧/٣؛ ابن الأثير، الكامل في التاريخ: ٣٦٢/٤.

على دنانير تناولتها، ونجوتُ بنفسي والصبي أخي معي، وأعلمت أخواتي بمتوجهي ومكان مقصدي، وأمرتهن أن يلحقنني ومولاي بدر معهن"[1]. وسار عبد الرحمن ومعه أخوه الصغير حتى أتيا رجلاً على شاطئ الفرات فلحقت بهم خيل العباسيين، وعندئذ قفزا إلى النهر، وتمكن عبد الرحمن من عبوره، بينما لم يتمكن أخوه، وكان ابن ثلاث عشرة سنة، إذ قبضوا عليه، وقتلوه[2]. "فاحتملت فيه ثُكلاً ملأني مخافة، ومضيتُ إلى وجهي أحسب أني طائر وأنا ساع على قدمي"[3].

لجأ عبد الرحمن بن معاوية إلى غابة كثيفة الأشجار، وكمن فيها حتى انقطع عنه الطلب[4]، ثم سار متخفّياً حتى وصل إلى فلسطين حيث لحق به مولاه بدر[5]. وأقاما هناك، وكان مولاه بدر يتجسس الأخبار[6]، وكان معهما بعض الدنانير وقطعة من الجوهر للنفقة، وقد زودته بذلك أخته أم الأصبغ مع مولاه بدر[7].

وكان عبد الرحمن بن معاوية منذ اللحظة التي فكر فيها بالهرب قد وضع نصب عينيه الوصول إلى المغرب دون أي جهة أخرى، وتكاد المصادر تجمع على سبب ذلك، وهو أن قومه الأمويين كانوا قد استقر في وجدانهم أن أحدهم، واسمه عبد الرحمن، سينشئ ملكاً بالمغرب، أو حسب رواية ابن عذاري: في الأندلس[8]. ورأوا أن علامات ذلك الرجل تتوافر في عبد الرحمن بن معاوية، وقد تناقلوا ذلك عن مسلمة بن عبد الملك، وكان عبد الرحمن "قد سمعها منه مشافهة، فكان يحدث نفسه بذلك"[9]. وشجعه

---

[1] المقري، نفح الطيب: ٢٧/٣؛ ابن الأثير، الكامل في التاريخ: ٣٦٢/٤؛ مجهول، أخبار مجموعة: ٥٠-٥٢.

[2] مجهول، أخبار مجموعة: ٥٤؛ المقري، نفح الطيب: ٢٨/٣؛ ابن الأثير، الكامل في التاريخ: ٣٦٢/٤.

[3] المقري، نفح الطيب: ٢٨/٣.

[4] المصدر نفسه: ٢٨/٣.

[5] مجهول، أخبار مجموعة: ٥٤؛ ابن الأثير، الكامل في التاريخ: ٣٦٢/٤.

[6] ابن الأثير، الكامل في التاريخ: ٣٦٢/٤.

[7] المقري، نفح الطيب: ٢٨/٣؛ مجهول، أخبار مجموعة: ٥٤؛ ابن عذاري، البيان المغرب: ٤١/٢.

[8] ابن عذاري، البيان المغرب: ٤١/٢.

[9] المقري، نفح الطيب: ٣٢٨/١؛ ٢٨/٣؛ ابن خلدون، تاريخ: ١٥٥/٤؛ ابن عذاري، البيان المغرب: ٤١/٢؛ ولمزيد من التفاصيل انظر: مجهول، أخبار مجموعة: ٥٤-٥٥.

على التوجه إلى المغرب أيضاً أن فيها أخواله، إذ كانت أمه من قبيلة نفزة، إحدى قبائل البربر[١].

قصد عبد الرحمن بن معاوية المغرب ونزل القيروان، وكان واليها حينئذ: عبد الرحمن بن حبيب الفهري الذي ثقل عليه "فلّ بني أمية"[٢]، ثم صار يقتل الواصلين إليه منهم، ويأخذ أموالهم[٣]. وممن قتلهم وأخذ أموالهم: ابنين للوليد بن يزيد، كما "أخذ مالاً كان مع إسماعيل بن أبان بن عبد العزيز بن مروان، وغلبه على أخته فتزوجها بكرهه"[٤]. ولما علم عبد الرحمن بن معاوية بذلك خاف على نفسه ففر من القيروان "إلى موضع يقال له بارتى فنزل في قبيلة يقال لها مكناسة"[٥]. "ويُقال نزل على قوم من زناتة فأحسنوا قبوله واطمأنّ فيهم"[٦]. والأرجح أن أطول مدة مكثها في شمالي إفريقية كانت عند أخواله من قبيلة نفزة[٧].

ظل عبد الرحمن بن معاوية مستخفياً بين قبائل البربر في شمالي إفريقية نحو خمس سنين، وانتهى به المطاف إلى أن استقر على البحر في قرية تُدعى (سبرة)[٨] عند قوم من زناتة[٩]. أو ربما في قليلة، كما يذكر ابن خلدون[١٠]، ومنها بدأ "بمداخلة مواليه الأمويين في الأندلس"[١١]، وراح "يعلمهم بقدومه، ويدعوهم إلى نفسه"[١٢]. وذلك عن طريق بدر مولاه.

---

[١] مجهول، أخبار مجموعة: ٥٥.

[٢] المقري، نفح الطيب: ٢٩/٣.

[٣] ابن عذاري، البيان المغرب: ٤١/٢.

[٤] المقري، نفح الطيب: ٢٩/٣؛ وانظر: ابن خلدون، تاريخ: ١٥٥/٤؛ مجهول، أخبار مجموعة: ٥٥.

[٥] مجهول، أخبار مجموعة: ٥٥؛ وانظر: ابن خلدون، تاريخ: ١٥٥/٤.

[٦] ابن خلدون، تاريخ: ١٥٥/٤؛ وانظر: ابن الأثير، الكامل في التاريخ: ٣٦٢/٤.

[٧] مجهول، أخبار مجموعة: ٥٥.

[٨] المصدر نفسه: ٥٥.

[٩] المقري، نفح الطيب:٢٩/٣؛ ابن الأثير، الكامل في التاريخ: ٣٦٢/٤؛ ابن خلدون، تاريخ: ١٥٥/٤.

[١٠] ابن خلدون، تاريخ: ١٥٥/٤؛ وانظر: المقري، نفح الطيب: ٣٢٨/١.

[١١] ابن عذاري، البيان المغرب: ٤٠/٢.

[١٢] ابن الأثير، الكامل في التاريخ: ٣٦٢/٤.

"وكانت الموالي المروانية المدوّنة بالأندلس في ذلك الأوان ما بين الأربعمائة والخمسمائة، ولهم جمرة. وكانت رياستهم شخصين: أبي عثمان عبيد الله بن عثمان وعبد الله بن خالد (اللذين أشرنا إليهما من قبل)، وكانا يتوليان لواء بني أمية، يعتقبان حمله ورياسة جند الشام النازلين بكورة إلبيرة"[1].

جاز بدر إلى الأندلس في سنة ١٣٦هـ/٧٥٣م[2]، وكانت الأندلس في ذلك الوقت على النحو الذي فصلناه من حروب واقتتال بين اليمنية والقيسية، تلك الحرب التي قادها يوسف الفهري والصميل بن حاتم ضد اليمنية[3]. وحمل بدر معه كتاب عبد الرحمن بن معاوية وخاتمه إلى أبي عثمان "يسأله القيام بشأنه وملاقاة من يثق به من الموالي الأموية وغيرهم، ويتلطف في إدخاله إلى الأندلس"[4].

كان أبو عثمان عبيد الله بن عثمان عندما وصل بدر قد تجهز إلى ثغر سرقسطة لنصرة صاحبها الصميل بن حاتم وصاحب الأندلس يوسف بن عبد الرحمن صاحب الأندلس[5]. وقد دعا أبو عثمان الصميل على النحو الذي ذكرناه، حيث وعد بنُصرة عبد الرحمن ثم نكث[6]. وتذكر بعض المصادر أن يوسف الفهري عزم على الخروج إلى سرقسطة في سنة ١٣٧هـ/٧٥٤م، وبعث إلى أبي عثمان وعبد الله بن خالد، وقال لأحدهما "أخرج لموالينا، فقال له ليس في القوم نهضة ولا قوة على الخروج، كل من كان فيه منهض قد نهض إلى أبي جوشن (الصميل)، فتقطعوا، وأهلكهم الله بالشتاء والسفر مع ما نال الناس من الجهد"[7]. وعندئذ أعطاهما يوسف ألف دينار لتقوية الناس بها، فأخذا المال وفرقاه على بني أمية. وعندما وصل يوسف إلى جيّان جاء إليه أبو

---

(١) المقري، نفح الطيب: ٢٩/٣.

(٢) ابن عذاري، البيان المغرب: ٤٠/٢.

(٣) انظر: ابن خلدون، تاريخ: ١٥٥/٤.

(٤) مجهول، أخبار مجموعة: ٦٩؛ المقري، نفح الطيب: ٢٩/٣.

(٥) المقري، نفح الطيب: ٢٩/٣-٣٠.

(٦) ابن عذاري، البيان المغرب: ٤٣/٢-٤٤.

(٧) مجهول، أخبار مجموعة: ٧٠.

عثمان وذكر له أن الناس سيلحقون به في طليطلة[1]. وسار يوسف بينما رجع أبو عثمان ليودّع الصميل، "ولم يتحرك من المعسكر، كان صاحب خمر يدمن عليها لا يكاد أن يبيت ليلة إلا سكران، فألفاه راقداً، فثبت له حتى تحرك"[2]. وكان مع أبي عثمان عبد الله ابن خالد[3]، وسألاه إن كان قد استقر على رأي في ما طلباه من نصرة ابن معاوية عبد الرحمن، "فقال لهما: أنا معكما فيما تحبان، فاكتبا إليه أن يعبر، فإذا حضر سألنا يوسف أن ينزله في جواره، وأن يحسن له، ويزوّجه بابنته، فإن فعل وإلا ضربنا صلعته بأسيافنا، وصرفنا الأمر عنه إليه...فشكراه...وانصرفا إلى وطنهما بإلبيرة"[4]. وبدأ أبو عثمان وعبد الله بن خالد ببث دعوة ابن معاوية لدى وجوه الناس وثقاتهم "ثم دسّا في الكور إلى ثقاتهما بمثل ذلك، فدب أمره فيهم دبيب النار في الجمر" [5].

وفي رواية أخرى أوردها المقري يذكر أن الصميل لم يوافق على تمكين عبد الرحمن بن معاوية من الأندلس، لأنه كما يرى "من قوم لو بال أحدهم بهذه الجزيرة غرقنا نحن وأنتم في بوله"[6]. وفضل عليه يوسف بن عبد الرحمن الفهري، لأنه "رجل نتحكم عليه، ونميل على جوانبه، ولا يسعنا بدل منه"[7]. وبالتالي فقد اقتصر وعده بمساعدتهما على أن يكون طلب ابن معاوية غير السلطان[8]. وعندئذ انقطع رجاؤهما من القيسية، ولكن اليأس لم يجد طريقاً إليهما أو إلى بدر، فقد بثوا الدعوة بين اليمنيين، وأخذوا يهيجون أحقادهم على القيسية، فوجدوا اليمنيين "قوماً قد وغرت صدورهم عليهم، يتمنون شيئاً يجدون به السبيل إلى إدراك ثأرهم"[9].

---

(1) مجهول، أخبار مجموعة: ٧٠-٧١.

(2) المصدر نفسه: ٧١.

(3) المصدر نفسه: ٧٢؛ وانظر: المقري، نفح الطيب: ٣/٣٠.

(4) المقري، نفح الطيب: ٣/٣٠؛ مجهول، أخبار مجموعة: ٧٢.

(5) المقري، نفح الطيب: ٣/٣٠.

(6) المصدر نفسه: ٣/٣٠؛ مجهول، أخبار مجموعة: ٧٣.

(7) المقري، نفح الطيب: ٣/٣٠؛ مجهول: أخبار مجموعة: ٧٣.

(8) انظر:ابن عذاري، البيان المغرب:٢/٤٤؛ المقري، نفح الطيب:٣/٣١؛ مجهول، أخبار مجموعة:٧٤.

(9) المقري، نفح الطيب: ٣/٣١؛ ابن عذاري، البيان المغرب: ٢/٤٤؛ مجهول، أخبار مجموعة: ٧٤.

استغل أبو عثمان وعبد الله بن خالد وبدر غياب يوسف الفهري في طليطلة، وابتاعوا مركباً حمل وفداً من أحد عشر رجلاً فيهم بدر مولى عبد الرحمن بن معاوية، وتوجهوا إلى المغرب، وكان عبد الرحمن بن معاوية يترقب عودة بدر الذي استغرقت رحلته تلك في الأندلس نحو سنتين. وقد ضم الوفد: تمام بن علقمة الثقفي[1]، ووهب بن الأصفر، وشاكر بن أبي الأسمط[2]، وغيرهم. وكان عبد الرحمن عندما وصل بدر مع شيعته بشطّ مغيلة من بلاد البربر، وكان قائماً يصلي صلاة المغرب[3]، "وخرج إليه بدر سابحاً فبشره بما تم له بالأندلس، وما خلّف فيه أبا عثمان وعبد الله بن خالد وغيرهما من رجال الأندلس من الاجتماع عليه والرضى به"[4].

عبر عبد الرحمن بن معاوية مضيق جبل طارق إلى الأندلس، وحل بالمنكّب، وذلك في ربيع الآخر من سنة ١٣٨هـ/٧٥٥م[5]. وما إن علم أبو عثمان وابن خالد بوصوله حتى خفّا لاستقباله، ونقلاه إلى قرية طرش (Torrox) على الساحل الشرقي من مديرية مالقة، حيث كان ينزل أبو عثمان[6]. ولم يلبث إلا قليلاً حتى انثالت عليه الأموية، "وقد أعد للأمير ما يصلحه من المركب والمنزل والملبس، فغلظ أمر ابن معاوية، وأقبل الناس من كل مكان إليه"[7]. وكانت نفوس أهل اليمن حانقة على الصميل ويوسف الفهري "فأتوه، ثم انتقل إلى كورة ريّه فبايعه عاملها عيسى بن مساور، ثم أتى شذونة فبايعه غياث بن علقمة اللخمي، ثم أتى مورور فبايعه إبراهيم بن شجرة عاملها، ثم أتى إشبيلية فبايعه أبو الصباح يحيى بن يحيى" [8].

---

[1] المقري، نفح الطيب: ٣١/٣؛ مجهول، أخبار مجموعة: ٧٤.

[2] ابن الأثير، الكامل في التاريخ: ٣٦٢/٤.

[3] المقري، نفح الطيب: ٣١/٣؛ مجهول، أخبار مجموعة: ٧٥.

[4] مجهول، أخبار مجموعة: ٧٥؛ ابن خلدون، تاريخ: ١٥٥/٤؛ المقري، نفح الطيب: ٣٢٨/١.

[5] مجهول، أخبار مجموعة: ٧٥؛ ابن عذاري، البيان المغرب: ٤٤/٢؛ المقري، نفح الطيب: ٣١/٣؛ ابن الأثير، الكامل في التاريخ: ٣٦٢/٤.

[6] المقري، نفح الطيب: ٣١/٣-٣٢؛ ابن عذاري، البيان المغرب: ٤٤/٢.

[7] ابن عذاري، البيان المغرب: ٤٤/٢.

[8] ابن الأثير، الكامل في التاريخ: ٣٦٢/٤.

كان يوسف بن عبد الرحمن الفهري عندما وصل عبد الرحمن بن معاوية غائباً في طليطلة[١]، وكان قد قبض على الحباب الزهري وعامر العبدري الثائرين بسرقسطة، وهما فتيان من قريش – كما تدل أسماؤهما – وقتلهما بمشورة الصميل بن حاتم[٢]. ثم عاد في طريقه إلى قرطبة، "فبينما هو بوادي الرمل بمقربة من طليطلة...إذ جاءه...رسول يركض من عند ولده عبد الرحمن بن يوسف من قرطبة يعلمه بأمر عبد الرحمن، ونزوله بساحل المنكب، فاجتمع إليه موالي القوم والأموية، وتشوّف الناس لأمره. فانتشر الخبر في العسكر لوقته، وشمت الناس بيوسف لقتله القرشيين...فسارع عدد كثير إلى البدار لعبد الرحمن الداخل، وتنادوا بشعارهم، وتوضوا عن عسكره"[٣].

حاول يوسف بن عبد الرحمن الفهري أن يثني الناس، وخاصة الأمويين عن تأييد ابن معاوية، فكتب "إلى جماعة الأمويين يحذرهم ويخوّفهم، فقالوا له: إنما أقبل ابن معاوية إلينا وإلى جماعة مواليه يريد المال، ليس فيما يظن الأمير – أصلحه الله – ولا فيما رُفع إليه. واعتذروا له بما أمكنهم"[٤]. وفي الوقت نفسه مضى رجال ابن معاوية يأخذون له البيعة من جند حمص وجند الأردن وجند فلسطين، فضاقت الأحوال بالفهري، ولم يؤيده من الأجناد سوى نفر قليل[٥]. لقد انفض الناس من حول الفهري، "فأصبح وليس في عسكره سوى غلمانه وخاصته وقوم الصميل وأتباعه[٦]، ونفر قليل من اليمانية هم القادة أصحاب الألوية الذين لم يقدروا على تركه "ولم يسعهم ما صنع سواد قومهم"[٧].

---

[١] ابن الأثير، الكامل في التاريخ: ٣٦٢/٤.

[٢] المقري، نفح الطيب: ٣٢/٣؛ وانظر التفاصيل: مجهول، أخبار مجموعة: ٧٦-٧٧.

[٣] المقري، نفح الطيب: ٣٢/٣؛ وانظر: ابن عذاري، البيان المغرب: ٤٤/٢؛ مجهول، أخبار مجموعة: ٧٧-٧٨.

[٤] ابن عذاري، البيان المغرب: ٤٤/٢-٤٥.

[٥] المصدر نفسه: ٤٥/٢.

[٦] المقري، نفح الطيب: ٣٢/٣.

[٧] مجهول، أخبار مجموعة: ٧٩.

ويمكن القول بشكل عام أن يوسف الفهري لم يبق معه سوى الفهرية والقيسية[1]، وعددهم كان قليلاً جداً إذا ما قورن بالأعداد الكبيرة التي انضمت إلى عبد الرحمن بن معاوية من الأمويين واليمنيين والقيسيين أيضاً. ومع ذلك أخذ يفكر في خطة تجنبه فقدان سلطانه، وكان حينئذ في طريقه إلى طليطلة عائداً من الثغر. وعندما وصل إلى طليطلة شاور الصميل بن حاتم، فأشار عليه أن يبادر فوراً إلى مهاجمة ابن معاوية قبل أن يشتد أمره، إلا أن يوسف لم يوافقه الرأي، وقال له "ومع من نسير إليه وأنت ترى الناس قد ذهبوا عنا؟"[2]. وأصر الصميل على رأيه، وهو "أن نقطع إليه من فورنا هذا بمن معنا من الناس، فإما قتلناه، وإما شردنا فهرب"[3]. وأصر كل من الفهري والصميل على رأيه.

ثم رأى يوسف – ربما بمشورة الصميل أو غيره – أن يأخذا ابن معاوية بالمكر والمخادعة[4]. وخاصة أنه كان صغير السن، حديث عهد بنعمة، ربما جاء إلى الأندلس طلباً للمعاش والأمن وحسب[5]. "فأجمع رأيه على تأنيسه بأن يزوجه ابنته، ويسكنه في أي الجندين شاء من دمشق أو الأردن، أو يسكن بينهما، ويصير إليه أمر الكورتين"[6]، وأرسل إليه وفداً برئاسة كاتبه: خالد بن يزيد، وقال له "إعرف أمره، وأي جند عنده، وتأمل أخباره وأخبار من معه"[7]. وأرسل له هدية ومبلغاً من المال تفاوت حسب الروايات بين خمسمائة وألف دينار[8]. وبينما تذكر بعض المصادر أن الوفد مضى بالهدية والمال إلى ابن معاوية[9]، يذكر بعضها الآخر أنه لم يوصل ذلك إليه، فقد رأوا أن ابن معاوية "إن أخذ ما معنا قوي به ووهن صاحبنا"، ولذلك تركوا الهدية والمال مع واحد

---

(1) ابن خلدون، تاريخ: ١٥٥/٤.

(2) المقري، نفح الطيب: ٣٢/٣؛ مجهول، أخبار مجموعة: ٧٨.

(3) مجهول، أخبار مجموعة: ٧٨.

(4) ابن عذاري، البيان المغرب: ٤٥/٢؛ مجهول، أخبار مجموعة: ٧٩؛ المقري، نفح الطيب: ٣٢٨/١.

(5) ابن عذاري، البيان المغرب: ٤٥/٢؛ المقري، نفح الطيب: ٣٢٨/١؛ مجهول، أخبار مجموعة: ٧٩.

(6) ابن عذاري، البيان المغرب: ٤٥/٢.

(7) المصدر نفسه: ٤٥/٢.

(8) المصدر نفسه: ٤٥/٢؛ مجهول، أخبار مجموعة: ٧٩.

(9) ابن عذاري، البيان المغرب: ٤٥/٢.

منهم، في مكان "في أدنى كورة رية"، على أن يمضي البقية إلى ابن معاوية "فإن أعطانا بيعته، ورضي بما جئنا به سرّحنا إليك رسولنا لتقدم علينا بما معك، وإن يكون غير ذلك فأرجعه إلى الأمير (يوسف) فهو أحق بماله"[1].

ووصل الوفد إلى عبد الرحمن بن معاوية بطرش[2] عند أبي عثمان "وعنده بعد جماعة بني أمية، ورجال من اليمن يختلفون إليه، ويعتقبون المقام عنده، منهم: دمشقيون وأردنيون وقنّسريون"[3]. وتكلم خالد بن يزيد أمام ابن معاوية بكلام غليظ، وذلك عندما رفض الزواج من ابنة يوسف "فأمر به، فضم إلى وثاق، وردّ غيره إلى يوسف، ولم يرد عليه جواباً"[4].

ويذكر ابن عذاري أن عبد الرحمن بن معاوية "لما أتاه كتاب الفهري بما فيه، وبتزويجه ابنته، أشار عليه كل من أتاه من العرب والأمويين ألا يقبل ذلك منه، إلا أن يعتزل له عن الملك ويبايعه، وإلا حاكمه إلى الله، وقالوا له: إنما يمكر بك، ولا يفي لك بشيء، لأن وزيره ومالك أمره الصميل، وهو غير مأمون"[5].

انكشف أمر يوسف الفهري، وأدرك مدى إصرار عبد الرحمن بن معاوية على زلزلة الأرض تحت أقدامه، وإزاحته من طريقه، فأخذ يستعد للحرب، وسار نحو قرطبة[6]. وكذلك فعل ابن معاوية، فقد حشد الحشود من الأجناد، ووفد إليه الفرسان من جند الأردن وقنسرين وفلسطين. وتنقل هو بنفسه "من إلبيرة إلى كورة رية إلى شذونة، إلى مورور، إلى كورة إشبيلية، والناس يتلقونه بالبشر والترحيب، ويعطونه من الانقياد والطاعة أوفى النصيب"[7]. وهكذا عبّأ ابن معاوية آلاف الفرسان الذين هبّوا منقادين

---

(1) مجهول، أخبار مجموعة: ٨٠.

(2) المصدر نفسه: ٨٠.

(3) المصدر نفسه: ٨٠.

(4) ابن عذاري، البيان المغرب: ٢/٤٥؛ وانظر التفاصيل: مجهول، أخبار مجموعة: ٨١.

(5) ابن عذاري، البيان المغرب: ٢/٤٦.

(6) ابن القوطية، تاريخ افتتاح الأندلس: ٥١.

(7) ابن عذاري، البيان المغرب: ٢/٤٦؛ مجهول، أخبار مجموعة: ٨٢-٨٣.

له، وسار على رأسهم إلى قرية طشانة (Tocina) على نهر الوادي الكبير، قريباً من قرطبة[١].

وسار يوسف الفهري بقواته أيضاً، ونزل على الضفة الأخرى من نهر الوادي الكبير[٢]. وهكذا تقابل الفريقان، ونهر قرطبة (الوادي الكبير) بينهما، وذلك في ذي الحجة سنة ١٣٨هـ/٧٥٥م[٣]. "فتناوشا والنهر بينهما، فكان ماء النهر كثيراً لا سبيل إليه، ثم زاد حتى امتنعا، فأقاما عليه انتظاراً لنقصانه"[٤].

وتجدر الإشارة هنا إلى أن السماء جادت بعد سنوات القحط التي ألمّت بالأندلس، وأصبح الناس لا يجدون ما يقتاتون به، وكان العسكر لا يجدون غير الفول الأخضر يسدّون به رمقهم "وكان الزمان زمان ربيع، فسمي ذلك العام: عام الخلف"[٥].

يبدو أن عبد الرحمن بن معاوية كان يتعجل فرصة الانقضاض على يوسف وعسكره، غير أن ارتفاع منسوب المياه في نهر الوادي الكبير حال دون عبوره إليه، فملّ الانتظار، ثم خطر له أن يتوجه مباشرة إلى قرطبة، وشجعه على ذلك ما تنامى إليه من أخبار تؤكد أن عامّة من فيها مواليه "وهم كثير، فأوقد نيرانه ليلاً، ثم رحل من جوف الليل ليسبقه وبينه وبين قرطبة خمسة وأربعون ميلاً، فلم يسر ميلاً حتى أتى يوسف من يعلمه بما أراد من مخالفته إلى قرطبة، وأصبحا كفرسي رهان والنهر بينهما. فعلم ابن معاوية أنه قد أُتي بما أراد، فأمسك عن ذلك، ثم نزل فنزل يوسف بنزوله"[٦]. وقد حلّ

---

[١] مجهول، أخبار مجموعة: ٤٦/٢؛ المقري، نفح الطيب: ٣٣/٣؛ ابن القوطية، تاريخ افتتاح الأندلس: ٥١؛ مجهول، أخبار مجموعة: ٨٤ ويذكر أنه عسكر في قرية قلنبيرة بإقليم طشانة.

[٢] مجهول، أخبار مجموعة: ٨٥-٨٦؛ وانظر: المقري، نفح الطيب: ٣٣/٣؛ ابن عذاري، البيان المغرب: ٤٦/٢.

[٣] ابن عذاري، البيان المغرب: ٤٦/٢؛ مجهول، أخبار مجموعة: ٨٥-٨٦.

[٤] مجهول، أخبار مجموعة: ٨٦.

[٥] المقري، نفح الطيب: ٣٣/٣؛ وانظر أيضاً: مجهول، أخبار مجموعة: ٨٦.

[٦] مجهول، أخبار مجموعة: ٨٦؛ وانظر أيضاً: المقري، نفح الطيب: ٣٣/٣.

يوسف بصحراء المصارة غربي قرطبة، وابن معاوية في مقابلته[1]. وتجاور العسكران، وأقاما بقية يومهما في سكون وهدوء، وكان اليوم يوم خميس[2]، وقد نقص خلاله ماء النهر، ووجد عبد الرحمن بن معاوية أن الوقت أصبح ملائماً لخوض المعركة الفاصلة، فخاطب قواته قائلاً "إن كان عندكم صبر وجلد وحب للمكافحة فأعلموني، وإن يكون فيكم جنوح إلى السلم والصلح فأعلموني، فأصفقت اليمن كلها بأسرها على الحرب، ورأت ذلك بنو أمية، فكتّب كتائبه" [3].

وهذه الإشارة إلى السلم والصلح تدل على أن فكرته كانت مطروحة من قبل، وهو لو تم لكان بالتأكيد لمصلحة يوسف الذي ربما كان هو صاحب الفكرة، ولذلك فإنه عندما اجتاز النهر بعض فرسان ابن معاوية إليه يوم الخميس، لم يتعرض لهم[4]. وقد تراسل الفريقان فعلاً بالصلح عشية يوم الخميس[5]، وكان من بدأ ذلك هو يوسف الفهري "يرجو عقد الصلح"[6]، وربما كان متأكداً أنه سيتم، وخاصة أن عبد الرحمن بن معاوية أطمعه في المضي بطلب الصلح، وأمّله بإتمامه مع أنه كان يبيت خلاف ذلك. فقد "أخرج يوسف الغنم والبقر فذبحت، وصنع الطعام ليلهم جمعاً لا يشكون أن الصلح تام، فأراد إطعام العسكريين"[7]،ولكن ما وقع في اليوم التالي أثبت أن الصلح لم يكن سوى وهم توهمه يوسف الفهري.

فلما أصبح يوم الجمعة، وهو يوم الأضحى (العاشر من ذي الحجة سنة ١٣٨هـ/٧٥٥م)، "التقى الجمعان، واستعرت الحرب والقتال"[8]. وحاول بعض القيسية

---

[1] المقري، نفح الطيب: ٣/٣٣؛ ابن عذاري، البيان المغرب: ٢/٤٧.

[2] ابن عذاري، البيان المغرب: ٢/٤٧؛ مجهول، أخبار مجموعة: ٨٧.

[3] مجهول، أخبار مجموعة: ٨٧-٨٨.

[4] المصدر نفسه: ٨٧.

[5] المصدر نفسه: ٨٨؛ وانظر أيضاً: المقري، نفح الطيب: ٣/٣٣.

[6] ابن عذاري، البيان المغرب: ٢/٤٧.

[7] مجهول، أخبار مجموعة: ٨٨.

[8] ابن عذاري، البيان المغرب: ٢/٤٧؛ وانظر: مجهول، أخبار مجموعة: ٨٨.

أن يثني الصميل بن حاتم عن المضي في المعركة مذكرا إياه بمعركة مرج راهط* التي كان النصر فيها للأمويين، فقد قال له العلاء بن جابر العقيلي: "يا أبا جوشن، اتق الله، فوالله ما أشبه هذا اليوم إلا بيوم المرج، وإن عاره لباق علينا إلى اليوم، فإن الأمور يهتدى لها بالأقران والأمثال: أموي وفهري، وقيس واليمن، وهذا يوم عيد، ويوم جمعة، ويوم المرج أيضا يوم جمعة، والأمر، والله، علينا، لا شك في ذلك، فاتق الله، واغتنم لنا الأمر لنكون فيه أعزاء لا أتباعا"[1]. غير أن الصميل لم يأبه لهذا التحذير، ومضى هو ويوسف قدما في محاربة ابن معاوية الذي عبر النهر في أصحابه ليلا بعد أن أمضى ذلك الليل في ترتيب خيله[2].

واستمر القتال بين الفريقين، وكانت الغلبة لعبد الرحمن بن معاوية، إذ أسرع القتل في أصحاب يوسف وانهزم، وبقي الصميل يقاتل مع عصابة من عشيرته ثم انهزموا[3]. وحاول يوسف اللجوء إلى قصره في قرطبة إلا أن جند عبد الرحمن حالوا بينه وبين القصر، فهرب إلى إلبيرة، حيث اعتصم بمدينة غرناطة[4].

وفي اليوم نفسه، يوم الجمعة العاشر من ذي الحجة سنة ١٣٨هـ/٧٥٥م دخل عبد الرحمن بن معاوية القصر في قرطبة، وتمت له البيعة[5]، ليبدأ بذلك عصر جديد في الأندلس تولت الأمور خلاله فيها دولة بني أمية.

---

* يقع مرج راهط في سورية إلى الشمال من دمشق، وقد اشتهر بالمعركة التي انتصر فيها الخليفة الأموي مروان لن الحكم على القيسيين بقيادة الضحاك بن قيس قائد قوات عبد الله بن الزبير، وذلك سنة ٦٥هـ/٦٨٤م، انظر: ابن القوطية: تاريخ افتتاح الأندلس: ٥٢.

[1] ابن عذاري، البيان المغرب: ٤٧/٢؛ وانظر أيضا: ابن القوطية، تاريخ افتتاح الأندلس: ٥٢.

[2] ابن الأثير، الكامل في التاريخ: ٣٦٢/٤.

[3] المصدر نفسه: ٣٦٣/٤.

[4] ابن عذاري، البيان المغرب: ٢٧/٢؛ المقري، نفح الطيب: ٣٢٩/١؛ ابن الأثير، الكامل في التاريخ: ٣٦٣/٤؛ ولمزيد من التفاصيل انظر: مجهول، أخبار مجموعة: ٨٩ وما بعدها.

[5] ابن عذاري، البيان المغرب: ٤٧/٢؛ ابن الكردبوس، تاريخ الأندلس: ٥٦؛ ابن خلدون، تاريخ: ١٥٥/٤.

الفصل الثالث

عصـــر الإمارة الأموية



The Spanish sovereigns from 98-374/718-984 : I. Kings of Asturias. II. Kings of León.

عصر الإمارة الأموية

اتّسم عصر الولاة في الأندلس بكثرة ما وقع فيه من اضطرابات وتطورت في كثير من الأحيان إلى فتن عاصفة، وحروب أهلية مدمرة كان وقودها الناس والأرض معاً. وقد رأينا كيف أدى ذلك إلى انكماش الحدود الإسلامية في الشمال، وتراجعها أمام الجهود العسكرية التي بذلتها الإمارات النصرانية، تلك الإمارات التي ما كان لها أن تتشكل وتقوى لولا انشغال المسلمين ببعضهم عن المضي في الجهاد، والفتح، ونشر الإسلام.

لقد عصفت الصراعات المريرة بين العرب والبربر منذ دخول بلج بن بشر القشيري الأندلس في عهد واليها عبد الملك بن قطن الفهري، والصراعات الأكثر مرارة بين العرب والعرب من قيسية ويمنية التي أعقبت ذلك، لقد عصفت تلك الصراعات بجهود الفاتحين الأوائل: طارق بن زياد، وموسى بن نصير. والولاة الأوائل: عبد العزيز بن موسى، والسمح بن مالك الخولاني، والحر بن عبد الرحمن الثقفي، وعنبسة بن سحيم الكلبي، وعبد الرحمن الغافقي، إذ أدت إلى انتكاسات وانكسارات بلغت ذروتها في عهد يوسف الفهري والصميل بن حاتم اللذين طغى الصراع الداخلي في عهدهما على كل شأن آخر، واستنزفا ما توافر في الأندلس من قدرات في حربهما ضد اليمنيين، ثم ضد عبد الرحمن بن معاوية الأموي الذي عرضنا تفاصيل لجوئه إلى الأندلس، وأسباب ذلك. كما عرضنا الجهود المكثفة التي بذلها حتى حقق النصر على آخر ولاة الأندلس: يوسف بن عبد الرحمن الفهري، ووزيره المتحكم في أمره: الصميل بن حاتم. غير أن ذلك النصر، وإن وضع عبد الرحمن بن معاوية على سدة حكم الأندلس، إلا أنه لم يكن ناجزاً، فقد لاحظنا في نهاية الفصل السابق أن يوسف الفهري ظل طليقاً، وأن الصميل بن حاتم لم ينته أمره، وأنهما لا بد أن يظلا شوكتين داميتين في جنب مؤسس الدولة الأموية في الأندلس، إلى أن يتم اقتلاعهما، وهو ما سنبدأ عرضه في هذا الفصل، قبل المضي في الحديث عن النقلة النوعية الكبيرة التي أحدثها ابن معاوية في الأندلس بعد قضائه على يوسف والصميل، وعن الأمويين من أمراء وخلفاء الذين توارثوا حكم الأندلس بعده.

١.عبد الرحمن بن معاوية* (الداخل) (١٣٨-١٧٢هـ/٧٥٥-٧٨٨م)

بويع بقرطبة – كما ذكرنا – يوم الأضحى من سنة ١٣٨هـ/٧٥٥م، بعد انتصاره على يوسف بن عبد الرحمن الفهري في موقعة المسارّة (المصارّة). وكان عليه – حتى يستقر له الأمر تماماً – أن ينهي صراعه مع الفهري الذي فرّ من تلك الموقعة إلى كورة إلبيرة، وتحصن في غرناطة[١]. ولكن عبد الرحمن لم يقم بذلك فوراً، وإنما دخل قصر يوسف في قرطبة، "ونزل على مطابخه فتغذى منها أكثر من معه"[٢]. ثم خرجت إليه زوجة يوسف وابنتاه، وطلبن منه أن يحسن إليهن، ففعل، حيث "عفّ وأحسن السيرة"[٣]. ثم خرج إلى الجامع فصلى بالناس صلاة الجمعة، ووعدهم في خطبته بالخير[٤]. وبعد ذلك عين الوزراء والحجّاب والقضاة، وكان وزراؤه أربعة: عبد الله بن عثمان، وعبد الله بن خالد، ويوسف بن بخت، وحسان بن مالك[٥]. ولم يعد له من همّ بعد هذه الترتيبات سوى القضاء على يوسف الفهري، والصميل بن حاتم[٦].

خرج الأمير عبد الرحمن بن معاوية في طلب يوسف والصميل سنة ١٣٩هـ/٧٥٦م[٧]، وكان يوسف عندما تعرض للهجوم يوم المصارة قد كتب إلى ابنه عبد الرحمن يأمره أن يأتيه بخمسمائة فارس من الثغر لنجدته، غير أن ابنه وصل متأخراً، بل لم يبلغ قرطبة، وإنما التقى مع أبيه يوسف "من قرطبة على بريد" بعد انتهاء المعركة

---

* أشرنا إلى نسبه من قبل، فهو عبد الرحمن بن معاوية بن هشام بن عبد الملك بن مروان بن الحكم بن أبي العاص بن أمية، كنيته: أبو المطرف، وأمه بربرية من سبي قبيلة نفزة. يلتقي نسبه بنسب رسول الله ﷺ في عبد شمس بن مناف. وقد ولد في دمشق سنة ١١٣هـ/٧٣١م، ومات أبوه وهو صغير. ودخل الأندلس وهو ابن خمس وعشرين سنة أو نحوها. انظر: ابن عذاري، البيان المغرب: ٢/٤٧-٤٨.

(١) المقري، نفح الطيب: ١/٣٢٩؛ ابن عذاري، البيان المغرب: ٢/٤٨.

(٢) ابن القوطية، تاريخ افتتاح الأندلس: ٥٣.

(٣) المقري، نفح الطيب: ٣/٣٢؛ ابن القوطية، تاريخ افتتاح الأندلس: ٥٣.

(٤) ابن القوطية، تاريخ افتتاح الأندلس: ٥٤.

(٥) ابن عذاري، البيان المغرب: ٢/٤٨.

(٦) المقري، نفح الطيب: ٣/٣٤؛ ابن الأثير، الكامل في التاريخ: ٤/٣٦٣.

(٧) ابن عذاري، البيان المغرب: ٢/٤٨.



Abdu'r-Raḥmān I

لصالح ابن معاوية. وكان يوسف يريد طليطلة، وكذلك الصميل، إذ سار هو الآخر حتى أتى منزله في طليطلة[1].

سار يوسف حتى وصل طليطلة، "فحشد من أهلها من خفّ له منهم" وكذلك فعل الصميل[2]. وسارا حتى وصلا إلى جيان، وفيها انضمت إليهما أعداد أخرى، ثم استأنفا سيرهما حتى وصلا إلى إلبيرة، حيث اعتصما بغرناطة – كما ذكرنا[3]. وخرج عبد الرحمن بن معاوية في أثرهما، ولما بلغ يوسف ذلك خالف ابن معاوية إلى قرطبة، ودخل القصر "فأخذ جميع أهله وماله ولحق بمدينة إلبيرة"[4]. وورد الخبر إلى ابن معاوية فرجع إلى قرطبة طمعاً في اللحاق به، ولما لم يجده عاد إلى إلبيرة حيث كان الصميل أيضاً[5]. وتذكر مصادر أخرى أن يوسف لم يعد إلى إلبيرة، وإنما دخل قصره في قرطبة "وتحصن أبو عثمان خليفة عبد الرحمن بصومعة الجامع، فاستنزله بالأمان، ولم يزل عنده إلى أن عقد الصلح بينه وبين ابن معاوية"[6].

عقد الصلح بين عبد الرحمن الداخل ويوسف الفهري ومع الصميل في صفر سنة ١٣٩هـ/٧٥٦م، وكان من شروط الصلح أن ينزل يوسف بأمان في منزله، وكان منزله بلاط الحر بن عبد الرحمن الثقفي، وأن يترك الداخل ليوسف أمواله، وكان من شروطه أيضاً أن "يختلف (يوسف) كل يوم إلى ابن معاوية ويُريه وجهه"[7]، بمعنى أنه فرض عليه الإقامة الجبرية. وضماناً لهذا الصلح أخذ ابن معاوية ابني يوسف رهينة عنده،

---

(1) مجهول، أخبار مجموعة: ٩١.

(2) المصدر نفسه: ٩١-٩٢.

(3) المصدر نفسه: ٩٢؛ وانظر: ابن الأثير، الكامل في التاريخ: ٣٦٣/٤؛ المقري، نفح الطيب: ٣٤/٣.

(4) ابن الأثير، الكامل في التاريخ: ٣٦٣/٤.

(5) المصدر نفسه: ٣٦٣/٤؛ مجهول، أخبار مجموعة: ٩٣؛ وانظر: ابن القوطية، تاريخ افتتاح الأندلس: ٥٤ حيث يذكر أن الذي دخل القصر هو عبد الرحمن بن يوسف بن عبد الرحمن الفهري. وهي رواية أقرب إلى المنطق.

(6) المقري، نفح الطيب: ٣٤/٣.

(7) المصدر نفسه: ٣٤/٣؛ وانظر: ابن الأثير: الكامل في التاريخ: ٣٦٣/٤؛ مجهول، أخبار مجموعة: ٩٤؛ ابن عذاري، البيان المغرب: ٤٨/٢؛ أبن خلدون، تاريخ: ١٥٥/٤.

وهما: أبو الأسود محمد، وعبد الرحمن[1]. وأما الصميل بن حاتم فقد عاد إلى داره بربض قرطبة[2]. وبذلك "استوسق الأمر للأمير عبد الرحمن، وأمر بلعن المسوّدة، وقطع الدعاء لأبي جعفر المنصور (الخليفة العباسي في بغداد). ودخل يوسف الفهري في عسكر الأمير كأحد رجاله، فأنزله على ماله، وأطلق له عياله"[3]. وأقام يوسف والصميل على أحسن حال "يختلفان إلى ابن معاوية، ويحضرهما الرأي مرة بعد مرة"[4].

وظل الأمر مستقرا حتى سنة ١٤١هـ/٧٥٨م، غير أن هناك عوامل أخذت تتفاعل في غير صالح هذا الاستقرار، وذلك بدخول رجال من المشرق ومن بني أمية الأندلس في سنة ١٤٠هـ/٧٥٧م كان الأمير الداخل قد أنزلهم بقرطبة، وأحسن جوائزهم[5]. ومن هؤلاء: عبد الملك بن عمر بن مروان (المرواني)، وجزي بن عبد العزيز بن مروان وأولادهما وبناتهما[6]. وفي الوقت نفسه "كانت بقرطبة بيوتات من موالي بني هاشم وبني فهر وقبائل قريش وغيرهم، كانوا قد نالوا مع يوسف رفعة ومنازل، فانقطع ذلك عنهم"[7]. ولذلك أخذوا يوقعون بين يوسف والداخل، وظلوا يحرضونه ويحرضون الصميل أيضاً حتى أثاروا ما في نفوسهما من أحقاد على الداخل[8]. كما "دس له قوم قاموا عليه في أملاكه، زعموا أنه غصبهم إياها، فدُفع معهم إلى الحكام فأعنتوه، وحمل عنه في التألم بذلك كلام رُفع إلى ابن معاوية أصاب أعداء يوسف به السبيل إلى السعاية به والتخويف منه، فاشتد توحشه"[9]. يضاف إلى ذلك أن الداخل كان يسلط على يوسف من يهينه وينازعه في أملاكه[10]. وأدت تلك الأسباب مجتمعة إلى فرار يوسف من قرطبة

---

(1) المقري، نفح الطيب: ٣/٣٤.

(2) ابن عذاري، البيان المغرب: ٢/٤٨.

(3) المصدر نفسه: ٢/٤٨.

(4) مجهول، أخبار مجموعة: ٩٥.

(5) ابن عذاري، البيان المغرب: ٢/٤٩.

(6) مجهول، أخبار مجموعة: ٩٥.

(7) المصدر نفسه: ٩٥.

(8) المصدر نفسه: ٩٥-٩٦.

(9) المقري، نفح الطيب: ٣/٣٤-٣٥.

(10) ابن الأثير، الكامل في التاريخ: ٤/٣٦٤.

إلى ماردة[1]، بعد أن كاتب أهلها وأهل لقنت فأجابوه[2]. وكان في لقنت معظم "عيال يوسف"، كانوا نفروا إليها وإلى طليطلة يوم المسارّة (المصارة)"[3].

حشد يوسف الفهري من نواحي ماردة نحو "عشرين ألفاً من أهل الشتات، فغلظ أمره، وحدثته نفسه بلقاء ابن معاوية"[4]. وتذكر بعض المصادر أن الذين أيدوا يوسف الفهري كانوا من البربر والعرب[5]، وأن عسكره بلغ عشرين ألفاً بعد أن انضم إليه كثيرون من "حمص وغيرهم"[6].

ولم يكن عبد الرحمن الداخل يعلم إلى أين توجه يوسف الفهري، فاستدعى الصميل ابن حاتم وسأله عن وجهته فأنكر معرفته بها، وضغط عليه قائلاً: "ما كان ليخرج حتى يعلمك، ومع ذلك فإن ولدك معه، وأكد عليه في أن يحضره. فقال: لو أنه تحت قدمي هذه ما رفعتها لك عنه، فاصنع ما شئت"[7]. فاستشاط غضباً، وأمر بسجن الصميل مع ولدي يوسف: أبي الأسود محمد وعبد الرحمن[8]. ثم تمكن أبو الأسود من الهرب "وأما عبد الرحمن (بن يوسف) فأثقله اللحم فانبهر، فرد إلى الحبس، وأنف الصميل من الهرب فأقام بمكانه"[9].

وعلم الداخل من عيونه بوجهة يوسف الفهري، وأنه يحشد الحشود في ماردة، فخرج في أثره من قرطبة، وعسكر في حصن المدوّر، وقدم لحرب الفهري عبد الملك بن عمران بن مروان (المرواني) الذي كان الداخل قد ولاه إشبيلية. فخرج المرواني ومعه

---

[1] المقري،نفح الطيب:٣٥/٣؛ابن عذاري،البيان المغرب:٤٩/٢؛ابن الأثير، الكامل في التاريخ: ٣٦٤/٤

[2] مجهول، أخبار مجموعة: ٩٦.

[3] المصدر نفسه: ٩٦.

[4] المقري، نفح الطيب:٣٥/٣؛ابن الأثير، الكامل في التاريخ:٣٦٤/٤؛ابن عذاري،البيان المغرب:٤٩/٢

[5] مجهول، أخبار مجموعة: ٩٦؛ ابن عذاري، البيان المغرب: ٤٩/٢؛ ابن خلدون، تاريخ: ١٥٥/٤.

[6] مجهول، أخبار مجموعة: ٩٦.

[7] المقري، نفح الطيب: ٣٥/٣.

[8] المصدر نفسه: ٣٥/٣.

[9] المصدر نفسه: ٣٥/٣.

أهل إشبيلية ومورور، والتقى مع يوسف في معركة طاحنة انتصر فيها المرواني، بينما انهزم يوسف "واستحر القتل في أصحابه، فهلك منهم خلق كثير"[١]. وفر الفهري بنفسه مختفياً، فسار إلى فحص البلوط، ومن هناك استأنف الهرب يريد طليطلة ليأمن عند واليها[٢]. وقبل أن يصلها لقيه عبد الله بن عمرو الأنصاري "فلما عرفه قال لمن معه: هذا الفهري يفرّ، قد ضاقت عليه الأرض، وقتله الراحة له، والراحة منه"[٣]. ويضيف صاحب أخبار مجموعة أن الأنصاري أراد أيضاً أن يريح الناس من شر الفهري "فقد صار رجلاً ناجشاً للحرب"[٤].

وظل الأنصاري يطارد يوسف الفهري "حتى لحقه وليس بينه وبين مدينة طليطلة إلا أربعة أميال"[٥]، فقتله، واحتز رأسه، وقدم به إلى عبد الرحمن الداخل[٦]. وعرف الداخل بهذا الخبر قبل أن يصل الأنصاري، فأرسل إليه من يأمره بالتوقف برأس الفهري دون جسر قرطبة، ثم أمر بقتل ابنه عبد الرحمن بن يوسف المحبوس عنده، ووضع رأسيهما على رمحين ليكونا عبرة لغيرهما[٧].

وأما الصميل بن حاتم فقد أمر الداخل من يدخل عليه السجن ويخنقه "فأصبح ميتاً، فدخل عليه مشيخة المضرية في السجن، فوجدوه ميتاً وبين يديه كأس، كأنه بُغت على شرابه، فقالوا: والله إنا لنعلم يا أبا جوشن أنك ما شربتها، ولكن سُقيتها"[٨].

وهكذا قضى عبد الرحمن الداخل على عدويّه اللدودين: يوسف الفهري، والصميل ابن حاتم. كما قضى على ابن يوسف: عبد الرحمن، وأما ابنه الثاني أبو الأسود محمد، فقد

---

(١) المقري، نفح الطيب: ٣/٣٥؛ ابن الأثير، الكامل في التاريخ: ٤/٣٦٤؛ مجهول، أخبار مجموعة: ٩٨-٩٩؛ ابن عذاري، البيان المغرب: ٢/٤٩.

(٢) مجهول، أخبار مجموعة: ٩٩؛ وانظر: ابن عذاري، البيان المغرب: ٢/٤٩.

(٣) المقري، نفح الطيب: ٣/٣٥.

(٤) مجهول، أخبار مجموعة: ٩٩.

(٥) المصدر نفسه: ٩٩-١٠٠.

(٦) المقري، نفح الطيب: ٣/٣٥؛ ابن عذاري، البيان المغرب: ٢/٤٩؛ ابن الأثير، الكامل في التاريخ: ٤/٣٦٤؛ مجهول، أخبار مجموعة: ١٠٠.

(٧) المقري،نفح الطيب:٣/٣٥؛ابن عذاري،البيان المغرب:٢/٤٩؛ابن الأثير،الكامل في التاريخ: ٤/٣٦٤.

(٨) المقري، نفح الطيب: ٣/٣٥-٣٦؛ ابن الأثير، الكامل في التاريخ: ٤/٣٦٤.

تمكن بعد هربه من السجن من التنقل في أنحاء الأندلس[١]، ووصل إلى طليطلة، وتعقبه عبد الرحمن الداخل إليها، ففر إلى قسطلونة حيث لحقت به الهزيمة، ثم مضى إلى بلدة تدعى ركانة "ولم يزل بها حتى مات"[٢]. ويذكر ابن عذاري ابناً ثالثاً ليوسف الفهري اسمه: القاسم، ويقول إنه أعقب أبا الأسود على زوجته "وتولى ما كان أبو الأسود يتولاه، فخرج إليه الأمير، فأجابه على أن يردّ إليه أمواله، ويستوثق منه بالعهود، ففعل الأمير ذلك، وانصرف معه إلى قرطبة"[٣].

ثبت الملك للأمير الأموي عبد الرحمن بن معاوية، ...ومهّد الدولة بالأندلس، وأثل بها الملك العظيم لبني مروان...وجدد ما طمس لهم بالمشرق من معالم الخلافة وآثارها"[٤]. وقد عُرف بالداخل لأنه أول داخل من ملوك بني مروان إلى الأندلس، وكان الخليفة العباسي أبو جعفر المنصور يسميه (صقر قريش) "لما رأى أنه فعل بالأندلس ما فعل، وما رطب إليها من الأخطار، وأنه نهد إليها من أنأى ديار المشرق من غير عصابة ولا أنصار؛ فغلب أهلها على أمرهم، وتناول الملك من أيديهم بقوة شكيمة، ومضاء عزم حتى انقاد له الأمر، وجرى على اختياره، وأورثه عقبه"[٥].

ولم يكن ما حققه الأمير الأموي عبد الرحمن الداخل من تملّك الأندلس نهاية مطافه بل بدايته، إذ كان عليه أن يحارب الموتورين الذين ثاروا عليه، وأن يبني ويعمر، وأن يتصدى للنصارى الذين قويت شوكتهم منذ أواخر عصر الولاة. لقد كانت هذه الميادين الثلاثة هي التي شغلت صقر قريش، وكان كل منها واسعاً متشعباً. ومع ذلك تحمل أعباء المسؤوليات الجسام التي ألقيت على عاتقه، فقد كان "راجح الحكم، فاسح العلم، ثاقب الفهم، كثير الحزم، نافذ العزم، بريئاً من العجز، سريع النهضة، متصل الحركة، لا يخلد إلى راحة، ولا يسكن إلى دعة، ولا يكل الأمور إلى غيره..."[٦]، وهذه الصفات إن اجتمعت في شخص لا بد أن يكون مؤهلاً لمواجهة الصعاب وتذليلها.

---

[١] مجهول، أخبار مجموعة: ١٠٠.

[٢] ابن عذاري، البيان المغرب: ٥٠/٢؛ مجهول، أخبار مجموعة: ١٠٠.

[٣] ابن عذاري، البيان المغرب: ٥٠/٢.

[٤] المقري، نفح الطيب: ٣٢٩/١ نقلاً عن ابن خلدون، تاريخ: ١٥٦/٤.

[٥] ابن خلدون، تاريخ: ١٥٦/٤؛ المقري، نفح الطيب: ٣٢٩/١.

[٦] المقري، نفح الطيب: ٣٧/٣.

لقد لقي عبد الرحمن الداخل في الأندلس حروباً، وقاسى خطوباً[1]، "واستلحم الثوار عليه على كثرتهم في النواحي"[2]. وقد تزامن إقباله على القضاء على ثورات الثائرين مع قطعه العلاقات الإدارية والسياسية مع الخلافة العباسية في المشرق[3]، بعد أن استمرت تلك العلاقة قائمة نحو عشرة أشهر من توليه إمارة الأندلس. وبذلك اقتصرت الصلة بين الأندلس وأنحاء العالم الإسلامي على صلة العقيدة الإسلامية التي لا تنفصم عراها.

وكان من أوائل الثائرين على عبد الرحمن الداخل: رزق بن النعمان الغسّاني، وذلك بعد مقتل يوسف الفهري بنحو سنة وأربعة أشهر، ولكن المصادر لم تذكر مكان ثورته، وإنما ذكرت أن ثورته انتهت بقتله[4]. ثم ثار قريب يوسف الفهري وأحد أتباعه، وهو: هشام بن عروة الفهري، ثار في طليطلة، وأيده في ثورته: حيوة بن الوليد التجيبي، وشخص يدعى العمري من ولد عمر بن الخطاب[5]. وقد سار الأمير عبد الرحمن إليه، وحاصره في طليطلة "فلما عضته الحرب، وناله الحصار دعا إلى الصلح، وأعطى ولده رهينة، ورجع عنه الأمير"[6]. ولكنه لم يلبث أن عاد إلى الثورة، فنهض الأمير إلى حربه وحاصره في طليطلة، غير أنه لم يلبث أن فك الحصار بعد أن أمر بابن هشام الرهينة، فضربت عنقه "ثم جعل الرأس في المنجنيق، ورُمي به إليه، فسقط في المدينة"[7]. ولم يترك الأمير عبد الرحمن حصار طليطلة عجزاً عن اقتحامها، ولكنه تركها للقضاء على ثورات أشد خطورة. فقد ثار عبد الغافر اليماني بإشبيلية، وتغلب على جوار قرطبة، فنهض إليه الأمير، وعندئذ خالف عبد الغافر متوجهاً إلى قرطبة نفسها مغتنماً غياب الأمير عنها، ولكن الأمير سرعان ما قدم لقتاله، واستعداداً لذلك دعا البربر

---

[1] ابن الكردبوس، تاريخ الأندلس: ٥٦-٥٧.

[2] المقري، نفح الطيب: ١/٣٢٩.

[3] المصدر نفسه: ١/٣٢٩.

[4] مجهول، أخبار مجموعة: ١٠١.

[5] المصدر نفسه: ١٠١.

[6] المصدر نفسه: ١٠١.

[7] المصدر نفسه: ١٠١.



Córdoba. Mezquita de 'Abd al-Rahman I

إلى الانضمام إليه، فأجابه كثيرون منهم، "ووقعت الهزيمة على عبد الغافر، وأخذ من معه في الفرار والنفار، فلم يرفع الإمام (عبد الرحمن) عنهم سيفاً، وقتل منهم ثلاثين ألفاً"[1].

ومن الثائرين على الأمير الأموي حيوة بن ملامس الذي تغلب على إشبيلية واستجة وأكثر نواحي غربي الأندلس، فقد حشد جموعاً كبيرة، وتقاتل مع الأمير أياماً كادت ترجح خلالها كفة حيوة، إلا أنه ما لبث أن انهزم إلى ناحية فرّيش، ثم كاتب الأمير طالباً العفو[2].

ثورة العلاء بن مغيث اليحصبي* (١٤٦هـ/٧٦٣م):

كانت هذه الثورة من أشد الثورات ضد الأمير الأموي عبد الرحمن الداخل، وأشدها خطورة، وخاصة أن العلاء قام بثورته داعياً للخليفة العباسي أبي جعفر المنصور، ولبس السواد، ورفع الرايات السود شعار بني عباس[3].

عبر العلاء بن مغيث اليحصبي إلى باجة في الأندلس قادماً من إفريقية[4]، وحمل معه – كما يذكر صاحب أخبار مجموعة – لواء أسود كان أبو جعفر المنصور قد بعثه إليه، "وقام به في جند مصر، وساعده على غيه واسط بن مغيث الطائي وأمية بن قطن الفهري"[5]، غير أن أصحاب العلاء من اليمانية شكوا في ولاء أمية فأخذوه وكبلوه[6].

---

[1] ابن عذاري، البيان المغرب: ٢/٥٠-٥١.

[2] المصدر نفسه: ٢/٥١.

* ورد في بعض المصادر باسم: العلاء بن مغيث الجذامي. انظر: ابن عذاري، البيان المغرب: ٢/٥١؛ ابن القوطية، تاريخ افتتاح الأندلس: ٥٧. وينسب أيضاً إلى حضرموت ويقال: حضرمي. انظر: مجهول، أخبار مجموعة: ١٠١.

[3] ابن الأثير، الكامل في التاريخ: ٥/٢١؛ ابن عذاري، البيان المغرب: ٢/٥١؛ ابن القوطية، تاريخ افتتاح الأندلس: ٥٧؛ ابن خلدون، تاريخ: ٤/١٥٧؛ مجهول، أخبار مجموعة: ١٠١.

[4] المقري، نفح الطيب: ٣/٣٦؛ ابن خلدون، تاريخ: ٤/١٥٧؛ ابن الأثير، الكامل في التاريخ: ٥/٢١.

[5] مجهول، أخبار مجموعة: ١٠٢.

[6] المصدر نفسه: ١٠٢.

بدأ العلاء بن مغيث اليحصبي ثورته سنة ١٤٦هـ/٧٦٣م[١]، وما إن أعلنها في باجة حتى انضم إليه خلق كثير بعد أن دخل الأندلس "في ناس قليلين"[٢]. ففي الأندلس "اتّبعه الأجناد، وتطلّعه العباد"[٣] وخاصة اليمانية قومه.

وينقل ابن عذاري عن (بهجة الأنفس) أن العلاء لم يثر في باجة نفسها، وإنما في لقنت، وهي من عمل باجة، ثم نهض إلى باجة فاستولى عليها[٤]. ثم اجتمعت إليه الحشود، ومنهم غياث بن علقمة اللخمي الذي جاء من شذونة ممداً له[٥]. ولما علم الأمير الأموي بخبره أمر مولاه بدراً بملاقاته حتى يقطع عليه الطريق، ويحول دون وصوله إلى العلاء، ومن ثم توحيد جيشهما ضده. فتوجه بدر ونزل "في الولجة التي بين وادي إيبره والنهر الأعظم، ونازله بدر، فتراسلا جتى انعقد بينهما صلح، ورجع غياث بن علقمة اللخمي إلى بلده، ورجع بدر إلى الأمير"[٦].

انعطف العلاء بن مغيث اليحصبي عندما وصله خبر الصلح بين بدر وغياث إلى مدينة قرمونة، فساروا إليها ليلاً عازمين على التحصن بها[٧]. ولكن الأمير الأموي عندما علم بذلك أمر مولاه بدراً أن يسبقه إليه، وأن يبني قبة على بابها ففعل، وفي اليوم التالي لحق الأمير ببدر، ونشب القتال بين الفريقين "فكانت بينهما حروب وزحوف"[٨]. وفي رواية أخرى لابن عذاري يذكر أن عبد الرحمن بن معاوية تحصن في قرمونة "مع مواليه وثقات رجاله، فنازله العلاء بن مغيث منازلة شديدة، وحاصره بها أياماً

---

(١) ابن غذاري، البيان المغرب: ٥١/٢؛ ابن الأثير، الكامل في التاريخ: ٢١/٥؛ وانظر: ابن خلدون، تاريخ: ١٥٧/٤ حيث يذكر أن ثورته وقعت سنة ١٤٩هـ/٧٦٦م وهو أمر مستبعد في ضوء إجماع المصادر الأخرى.

(٢) المقري، نفح الطيب: ٣٦/٣؛ ابن الأثير، الكامل في التاريخ: ٢١/٥.

(٣) ابن عذاري، البيان المغرب: ٥١/٢.

(٤) المصدر نفسه: ٥٢/٢.

(٥) مجهول، أخبار مجموعة: ١٠٢.

(٦) المصدر نفسه: ١٠٢.

(٧) مجهول، أخبار مجموعة: ١٠٣.

(٨) ابن عذاري، البيان المغرب: ٥٢/٢.

عديدة"[١]، استمرت نحو شهرين ساءت خلالها حالة العلاء، ونفدت المؤن لديه، وكادت روح قواته المعنوية أن تنهار. فوجد عبد الرحمن في ذلك فرصته، إذ استنهض همم رجاله "وكانوا نحو سبعمائة من ذكور الرجال، ومشاهير الأبطال"[٢]، وأمرهم بإحراق أغمدة سيوفهم، ففعلوا، ثم قاموا قومة رجل واحد على العلاء وصحبه، فانهزموا، وقتلوا قتلاً ذريعاً، وكان العلاء بن مغيث اليحصبي بين قتلاهم[٣] الذين بلغ عددهم – كما تذكر بعض المصادر – سبعة آلاف[٤].

واستغل الأمير عبد الرحمن هزيمة العلاء اليحصبي وقتله ليوجه رسالة واضحة إلى الخلافة العباسية في المشرق، وهي أن تقطع تلك الخلافة كل أمل في القضاء على الأمويين في الأندلس بعد أن قضوا عليهم في المشرق، ولذلك احتز رأس العلاء "وحشاه بالملح والكافور، وجعل معه السجل في سفط، وبعثه مع رجل من أهل قرطبة في جملة الحاج، وأمره أن يضع السفط بمكة. فوافق المنصور قد حج تلك السنة، فوضعه على باب سرادق، فلما وصل إلى المنصور نظر إليه، وقال: عرضناه المسكين للقتل، وقال: الحمد لله الذي جعل بيننا وبين مثل هذا من عدونا بحراً"[٥]، وكان يعني عبد الرحمن بن معاوية. ولكي تكون هذه الرسالة واضحة لوالي إفريقية أيضاً، وهو: محمد بن الأشعث الخزاعي[٦]، اختار الأمير عبد الرحمن رؤوس المعروفين من أصحاب العلاء الذين قتلوا معه في تلك المعركة، وكتب باسم كل واحد منهم بطاقة علّقت من أذنه، ثم أمر بتلك الرؤوس فنقلت إلى إفريقية، حيث ألقيت ليلاً في أسواق القيروان[٧].

---

[١] ابن عذاري، البيان المغرب: ٥١/٢.

[٢] المصدر نفسه: ٥١/٢.

[٣] مجهول، أخبار مجموعة: ١٠٣؛ ابن عذاري، البيان المغرب: ٥١/٢-٥٢؛ ابن خلدون، تاريخ: ١٥٧/١؛ ابن القوطية، تاريخ افتتاح الأندلس: ٥٧؛ ابن الأثير، الكامل في التاريخ: ٢١/٥.

[٤] ابن خلدون، تاريخ: ١٥٧/٤؛ ابن الأثير، الكامل في التاريخ: ٢١/٥.

[٥] ابن القوطية، تاريخ افتتاح الأندلس: ٥٧-٥٨؛ وانظر: ابن عذاري، البيان المغرب: ٥٢/٢؛ المقري، نفح الطيب: ٣٦/٣.

[٦] ابن عذاري، البيان المغرب: ٧٢/١-٧٣.

[٧] مجهول، أخبار مجموعة: ١٠٣.

ثورة هشام بن عروة:

كان هشام بن عروة – الذي أشرنا إليه من قبل – ما يزال ثائراً في طليطلة، ممتنعاً بها، خالعاً طاعة عبد الرحمن بن معاوية الذي حاصره زمناً، ثم اضطر إلى العودة عنه بعد أن قتل ابنه المرتهن لديه لمواجهة ثورة العلاء بن مغيث اليحصبي. وبعد أن أخمد هذه الثورة وجه الأمير عبد الرحمن مولاه بدراً وتمام بن علقمة في جيش إلى طليطلة[1]، فحاصراه في داخلها، وطال حصارها، وكان الأمير يرسل كل ستة أشهر قوات جديدة يستبدل بها القوات المحاصِرة دفعاً للملل، "حتى مل أهل المدينة الحصار، واستثقلوا الحرب"[2]. فكاتبوا بدراً وتماماً، وسألوهما الأمان، على أن يسلموا لهما: هشام ابن عروة ومعه العمري (حمزة بن عبيد الله بن عمر بن الخطاب) وغيره[3]. فوافقا، وخرج تمام بالأسرى إلى قرطبة، حيث أدخلوا إليها بعد أن تم حلقُ رؤوسهم ولحاهم، وأُلبسوا الجبب الصوفية، ووضعوا في السلال، وحملوا على الحمير، "فأُتي بهم على تلك الحال إلى خشب قد أعدت لهم، فصلبوا فيها"[4]، وانتهى أمرهم، وذلك في سنة ١٤٧هـ/٧٦٤م[5].

وكثرت ثورات زعماء العرب في الأندلس على عبد الرحمن الداخل، ونافسوه على الملك "ولقي منهم خطوباً عظيمة، وكانت العاقبة له، واستراب في آخر أمره بالعرب لكثرة من قام عليه منهم، فرجع إلى اصطناع القبائل من سواهم، واتخاذ الموالي"[6]. وسنلاحظ فيما يلي أن أكثر الثائرين عليه كانوا من بني يحصب، ومن أقارب يوسف الفهري. كما سنلاحظ أن اليمنيين الذين هبوا إلى مساعدة الداخل في أول أمره كانوا من أكثر الناس حقداً عليه وكيلاً له فيما بعد.

---

(١) مجهول، أخبار مجموعة: ١٠٣-١٠٤؛ ابن عذاري، البيان المغرب: ٥٣/٢.

(٢) مجهول، أخبار مجموعة: ١٠٣.

(٣) ابن عذاري، البيان المغرب: ٥٣/٢.

(٤) المصدر نفسه: ٥٣/٢؛ مجهول، أخبار مجموعة: ١٠٤.

(٥) ابن عذاري، البيان المغرب: ٥٣/٢.

(٦) المقري، نفح الطيب: ٣٣٣/١.

ثورة سعيد اليحصبي (١٤٩هـ/٧٦٦م):

يعرف سعيد اليحصبي بالمطري، وقد ثار في كورة لبلة سنة ١٤٩هـ/٧٦٦م[١]، وتشير بعض المصادر إلى سبب ثورته فتذكر أنه سكر في إحدى الليالي فذُكر عنده كثرة من قُتل من اليمانية مع العلاء بن مغيث اليحصبي، فقام إلى رمحه وعقد فيه راية، وعندما أفاق من سكره ونظر إلى الراية تساءل: ما هذا؟ فقيل له بأنه هو الذي عقد الراية غضباً لقتل قومه. ولما كان من فرسان قومه فقد مضى إلى غايته دونما تراجع أو تردد[٢]، وأعلن الثورة.

انضمت جماعات اليمانية إلى المطري، فقويت شوكته. وعندئذ سار إلى إشبيلية وتغلّب عليها عنوة. وأدى ذلك إلى تدفق اليمانية للانضمام تحت لوائه "فكثر عدده، وتأزّر عضده، وعاد عسكره مهولاً"[٣]. وسار إلى قلعة زعواق أو رعواق المعروفة بقلعة جوادايرا (Alcala' de Gaudaira) أو قلعة جابر فتحصن فيها وذلك في ربيع الأول من السنة[٤]. ويذكر ابن الأثير أن غياث بن علقمة اللخمي وافق المطري على خلع طاعة الأمير الأموي، وكان اللخمي بمدينة شذونة، "وقد انضاف إليه جماعة من رؤساء القبائل يريدون إمداد المطري وهم في جمع كثير، فلما سمع عبد الرحمن ذلك سيّر إليهم بدراً مولاه في جيش، فحال بينهم وبين الوصول إلى المطري"[٤].

---

[١] ابن عذاري، البيان المغرب: ٥٣/٢؛ مجهول، أخبار مجموعة: ١٠٥؛ ابن خلدون، تاريخ: ١٥٧/٤؛ ابن الأثير، الكامل في التاريخ: ٢٦/٥.

[٢] مجهول، أخبار مجموعة: ١٠٥؛ ابن الأثير، الكامل في التاريخ: ٢٦/٥؛ ابن خلدون، تاريخ: ١٥٧/٤.

[٣] ابن عذاري، البيان المغرب: ٥٣/٢؛ مجهول، أخبار مجموعة: ١٠٥؛ ابن الأثير، الكامل في التاريخ: ٢٧/٥.

[٤] ابن الأثير، الكامل في التاريخ: ٢٧/٥؛ ابن عذاري، البيان المغرب: ٥٣/٢؛ مجهول، أخبار مجموعة: ١٠٥.

[٤] ابن الأثير، الكامل في التاريخ: ٢٧/٥؛ ابن خلدون، تاريخ: ١٥٧/٤.

أما الأمير عبد الرحمن الداخل فقد سار إلى قلعة زعواق "في جيوش عظيمة المدد، مجهولة العدد"[1]، وحاصره المطري حصاراً شديداً، وقتل عدداً كبيراً من رجاله. وفارقه آخرون. وخرج المطري يوماً من القلعة "وقاتل فقُتل وحمل رأسه إلى عبد الرحمن"[2]. وعندئذ طلب من بالقلعة الأمان، فأمنهم الأمير، وتسلّم القلعة منهم فخرّبها حتى لا يتحصن بها الثائرون من بعد[3].

وسار الأمير الأموي بعد القضاء على ثورة المطري للقضاء على مؤيده غياث بن علقمة اللخمي، وحاصره في شذونة حتى طلب أهلها الأمان، فأمنهم، وعاد بزعمائهم إلى قرطبة[4]. وكان هؤلاء الزعماء ممن عرف الأمير كراهيتهم لدولته[5].

ثورة أبي الصبّاح بن يحيى اليحصبي (١٤٩هـ/٧٦٦م):

كان أبو الصباح اليحصبي عاملاً ليوسف بن عبد الرحمن الفهري على إشبيلية، وعندما دخل الأمير الأموي عبد الرحمن الداخل الأندلس، وانتشرت دعوته فيها، بادر أبو الصباح إلى تأييده[6]، وكان هو الذي اقترح أن يكون للداخل لواء، عقد له بمشورة أبي الصباح في طشّانة[7]، قبل أن يتقدم لحرب يوسف الفهري، وينتزع إمارة الأندلس منه.

وكافأ الأمير الأموي أبا الصباح بعد انتصاره على الفهري بأن ولاّه على إشبيلية[8]. ويبدو أن أبا الصباح هزته نشوة النصر على القيسية، وأخذ يفكر في الاستيلاء على الأندلس لتكون يمانية خالصة. وقد خطرت له هذه الفكرة بعد انتصار الأمير الأموي

---

[1] ابن عذاري، البيان المغرب: ٥٣/٢.

[2] ابن الأثير، الكامل في التاريخ: ٢٧/٥؛ ابن عذاري، البيان المغرب: ٥٣/٢.

[3] ابن خلدون، تاريخ: ١٥٧/٤؛ ابن الأثير، الكامل في التاريخ: ٢٧/٥.

[4] ابن خلدون، تاريخ: ١٥٧/٤؛ ابن الأثير، الكامل في التاريخ: ٢٧/٥.

[5] ابن الأثير، الكامل في التاريخ: ٢٧/٥.

[6] مجهول، أخبار مجموعة:٨٤؛ المقري، نفح الطيب: ٣٣/٣؛ ابن القوطية، تاريخ افتتاح الأندلس: ٤٦.

[7] مجهول، أخبار مجموعة:٨٤؛ المقري، نفح الطيب: ٣٣/٣؛ ابن القوطية، تاريخ افتتاح الأندلس: ٥١.

[8] ابن عذاري، البيان المغرب: ٥٣/٢؛ المقري، نفح الطيب: ٣٦/٣.

على يوسف الفهري، وعرضها على أحد زعماء اليمنية: ثعلبة بن عبيدة قائلاً لـــه: "يــا ثعلبة هل لك رأي في فتحين في فتح؟"[1] وكان يقصد قتل الأمير عبد الرحمن الداخل بعد أن تم التخلص من يوسف الفهري، وبذلك "تكون الأندلس قحطانية"[2]. ولم يحفظ ثعلبة سرّ أبي الصباح، فقد كشفه للأمير الداخل، مما دفع الأمير إلى إضمـــار الفتـك بـــه[3]. وتمهيداً لذلك قام بعزله عن إشبيلية سنة ١٤٩هـ/٧٦٦م "فجمع إليه أهل الخلاف وثـــار عليه"[4]. وهكذا بدا الأمر وكأن أبا الصباح إنما ثار انتقاماً لعزله، فقد "ألّـــب وكـــاتب الأجناد"[5]، وأخذ يستعد لحرب الأمير الأموي، بعد أن أعلن خلع طاعته.

وقد اختلفت المصادر في كيفية تخلص الأمير الداخل من أبي الصباح اليحصبـــي، فقد أشار بعضها إلى أنه قتله بمكيدة، دون أي تفاصيل[6]. وأورد بعضها الآخر تفـــاصيل تلك المكيدة، فذكر أن الداخل وجه إلى أبي الصباح مولاه تماماً ملاطفاً له، "فقـــدم معـــه قرطبة في أربعمائة رجل على غير عهد، فأوصله تمام إليه، فعاتبه، فأغلظ له أبو الصباح في الجواب، فأمر بقتله"[7]. ويضيف صاحب أخبار مجموعة أن الأمير الأمـــوي أمـــر فتيانه بطعن أبي الصباح في أوداجه بالخنجر، ثم أخفى جثته، وأدخل وزراءه فاستشـــارهم في قتله، فلم يشر عليه أحد بذلك، "فقال: قد قتلته، ثم أمر برأسه فأخرج، وصاح الصائح على أصحابه أن أبا الصباح قد قتل، فمن أراد أن يلحق ببلده فليلحق آمناً، فافترقوا"[8].

وتؤكد إشارة للمقري أن اليمانية خرجوا في طلب ثأر أبي الصباح، فأكثر الأمـــير الأموي القتل فيهم[9]. وكان لذلك تأثير سلبي عليه، فقد "استوحش من العـــرب قاطبـــة،

---

(١) ابن القوطية، تاريخ افتتاح الأندلس: ٥٥.

(٢) المصدر نفسه: ٥٥.

(٣) المصدر نفسه: ٥٥؛ المقري، نفح الطيب: ٣/٣٦.

(٤) ابن عذاري، البيان المغرب: ٢/٥٣.

(٥) مجهول، أخبار مجموعة: ١٠٥.

(٦) انظر: ابن القوطية: ابن القوطية، تاريخ افتتاح الأندلس: ٥٥؛ المقري، نفح الطيب: ٣/٣٦.

(٧) ابن عذاري، البيان المغرب: ٢/٥٣-٥٤.

(٨) مجهول، أخبار مجموعة: ١٠٦-١٠٧.

(٩) المقري، نفح الطيب: ٣/٣٦.

وعلم أنهم على دَغَلٍ وحقد، فانحرف عنهم إلى اتخاذ المماليك...واعتضد أيضاً بالبرابر،... واستكثر منهم ومن العبيد، فاتخذ أربعين ألف رجل، صار بهم غالباً على أهل الأندلس من العرب"[1].

والحقيقة أن مقتل أبي الصباح بالطريقة التي قُتل بها أثارت حفيظة اليمانية، وخاصة أبناء عمومته في أَلَبة، وباجة، وهم: عبد الغفار[2]، وعمرو بن طالوت، وكلثم بن يحصب الذين كانت لهم الرياسة في الموضعين[3]، فقد تعصبوا جميعاً لأبي الصباح بعد مقتله، وتكاتفوا، وخرجوا يريدون قرطبة[4]. غير أن الأمير الأموي أخذهم بالحيلة وتمكن من قتل ثلاثين ألفاً من مؤيديهم. وقد جمعت رؤوسهم في حفرة ذكر ابن القوطية أنها تقع "خلف وادي منبس معروفة إلى وقتنا هذا"[5].

ثورة الفاطمي (١٥٢هـ/٧٦٩م):

هو رجل من البربر من قبيلة مكناسة[6]، اختلفت المصادر في اسمه، فذكر صاحب أخبار مجموعة أنه: سفين بن عبد الواحد المكناسي، وأصله من لجدانية[7] (Lusitania)، وذكر غيره أن اسمه: شقنا بن عبد الواحد[8]. واسم أمه: فاطمة، فادّعى أنه فاطمي[9] يرجع بنسبه إلى فاطمة الزهراء والحسن بن علي[10]. وفي قول: الحسين بن علي، رضي الله عنهما[11].

---

(١) المقري، نفح الطيب: ٣٦/٣؛ وانظر: ابن خلدون، تاريخ: ١٥٨/٤.

(٢) ابن خلدون، تاريخ: ١٥٨/٤؛ ابن عذاري، البيان المغرب: ٥٥/٢؛ ابن القوطية، تاريخ افتتاح الأندلس: ٥٥.

(٣) ابن القوطية، تاريخ افتتاح الأندلس: ٥٥.

(٤) المصدر نفسه: ٥٥.

(٥) ابن القوطية: تاريخ افتتاح الأندلس: ٥٦.

(٦) ابن خلدون، تاريخ: ١٥٧/٤؛ ابن الأثير، الكامل في التاريخ: ٣٤/٥.

(٧) مجهول، أخبار مجموعة: ١٠٧.

(٨) ابن خلدون، تاريخ: ١٥٧/٤؛ ابن الأثير، الكامل في التاريخ: ٣٤/٥.

(٩) ابن عذاري،البيان المغرب:٥٤/٢؛مجهول،أخبار مجموعة:١٠٧؛ابن الأثير،الكامل في التاريخ:٣٤/٥

(١٠) ابن عذاري، البيان المغرب: ٥٤/٢.

(١١) ابن الأثير، الكامل في التاريخ: ٣٤/٥؛ ابن خلدون، تاريخ: ١٥٧/٤.

اتخذ الفاطمي لنفسه اسماً هو: عبد الله بن محمد[1]، وسكن مدينة شنت بريه* (Santaver) وتبعه – عندما ادعى أنه فاطمي – خلق كثير من البربر، فاستبدل بعمله الأساسي، وهو تعليم الصبيان الثورة على الأمير الأموي عبد الرحمن الداخل، وخلع طاعته[2]. وقد بدأ ثورته بمهاجمة "سالم أبي زعيل عامل ماردة ليلاً، فقتله، وغلب على قورية، وأفسد يميناً وشمالاً"[3]. كما قتل عامل شنت برية[4].

قاد الأمير الداخل حملة للقضاء على ثورة الفاطمي الذي ما إن علم بتحرك حملته حتى هرب وراغ في الجبال[5]، وامتنع فيها. ومع ذلك سار الأمير إلى شنت برية، وأوقع بأهلها الذين شايعوا الفاطمي، ونكل بهم[6]، ثم رجع إلى قرطبة بعد أن ولّى حبيب بن عبد الملك على طليطلة، فولى حبيب على شنت برية: سليمان بن عثمان بن مروان بن عثمان ابن أبان بن عثمان بن عفان ﷺ [7]. ولم يمض وقت طويل حتى أغار الفاطمي على سليمان، وقتله[8]. وبقتل سليمان اشتد أمر الفاطمي وطار ذكره، "وأفسد في الأرض"[9]. وظل الأمير الداخل "يرسل إلى قتاله بعض الفيالق، فيتعلق بالجبال الشواهق"[10].

---

[1] ابن عذاري، البيان المغرب: ٥٤/٢؛ ابن خلدون، تاريخ: ١٥٧/٤.

* مدينة كبيرة تقع إلى الشرق من قرطبة على بعد ثمانين فرسخاً منها، وتفصل أحوازها بحوز مدينة سالم.

[2] ابن عذاري،البيان المغرب:٥٤/٢؛ابن الأثير،الكامل في التاريخ:٣٤/٥؛ ابن خلدون، تاريخ: ١٥٧/٤.

[3] مجهول، أخبار مجموعة: ١٠٧.

[4] ابن عذاري، البيان المغرب: ٥٤/٢.

[5] ابن الأثير، الكامل في التاريخ: ٣٤/٥؛ ابن خلدون، تاريخ: ١٥٧/٤؛ ابن عذاري، البيان المغرب: ٥٤/٢؛ مجهول، أخبار مجموعة: ١٠٧.

[6] مجهول، أخبار مجموعة: ١٠٧.

[7] ابن خلدون، تاريخ: ١٥٧/٤؛ ابن الأثير، الكامل في التاريخ: ٣٤/٥.

[8] ابن خلدون، تاريخ: ١٥٧/٤؛ ابن الأثير، الكامل في التاريخ: ٣٤/٥.

[9] ابن الأثير، الكامل في التاريخ: ٣٥/٥.

[10] ابن عذاري، البيان المغرب: ٥٤/٢.

أعيى الفاطمي عبد الرحمن الداخل، إذ كان كلما سيّر إليه حملة هرب، "وركب الوعر"، وتحصن بالجبال[1]. وقد خرج الأمير بنفسه إليه سنة ١٥٣هـ/٧٧٠م، إلا أنه لم يتمكن منه، فعاد وأرسل حملة أخرى بقيادة مولاه بدر في السنة نفسها، وكان الفاطمي ممتنعاً في حصن شيطران في جبال بلنسية، ولكنه هرب من الحصن، وأخلاه لبدر[2]. وفي سنة ١٥٤هـ/٧٧١م غزاه الأمير بنفسه، فلم يثبت له الفاطمي، إذ هرب كعادته[3]. وأصبح الفاطمي شوكة في حلق عبد الرحمن الداخل الذي أصر على اقتلاع تلك الشوكة، فقد سيّر إليه في سنة ١٥٥هـ/٧٧٢م حملة بقيادة أبي عثمان عبيد الله بن عثمان "فخدعه شقنا، وأفسد عليه جنده، فهرب عبيد الله، وغنم شقنا عسكره، وقتل جماعة من بني أمية كانوا في العسكر"[4]. كما غدر الفاطمي بعسكر آخر للأمويين، حيث هاجم حصناً يسميه ابن الأثير: حصن الهواريين "وبه عامل لعبد الرحمن، فمكر به شقنا حتى خرج إليه فقتله شقنا وأخذ خيله وسلاحه، وجميع ما كان معه"[5].

وظلت الحرب سجالاً بين الفاطمي والأمير الأموي نحو عقد من الزمان، ولم يتمكن أحدهما من الآخر إلى أن غدر بالفاطمي اثنان من أصحابه سنة ١٦١هـ/٧٧٧م، حيث قتلاه، وأحضرا رأسه إلى الأمير في قرطبة[6].

ولم يكن الفاطمي ليعجز الأمير الداخل لو كان الثائر الوحيد، وإنما كثر الثائرون عليه خلال الفترة نفسها فتشتت قواته، وكان من أبرز الثائرين عليه في تلك الفترة: حيوة ابن ملامس، وعبد الغافر اليحصبي في إشبيلية[7].

---

[1] ابن عذاري، البيان المغرب: ٥٤/٢؛ ابن الأثير، الكامل في التاريخ: ٣٥/٥.

[2] ابن خلدون، تاريخ: ١٥٨/٤؛ ابن الأثير، الكامل في التاريخ: ٣٥/٥.

[3] ابن الأثير، الكامل في التاريخ: ٣٥/٥.

[4] المصدر نفسه: ٣٥/٥.

[5] ابن الأثير، الكامل في التاريخ: ٣٥/٥.

[6] ابن خلدون، تاريخ: ١٥٨/٤؛ وانظر أيضا: ابن عذاري، البيان المغرب: ٥٥/٢؛ مجهول، أخبار مجموعة: ١١١ ويذكر اسمي الشخصين اللذين قتلاه، وهما: أبو معن داوود بن هلال، وكنانة بن سعيد الأسود، وقد قتلاه في قرية اسمها: قرية العيون من قرى سنتبرية.

[7] مجهول، أخبار مجموعة: ١٠٧؛ ابن عذاري، البيان المغرب: ٥٥/٢.

ثورة إشبيلية (١٥٦هـ/٧٧٢م):

قام بهذه الثورة عبد الغفار اليحصبي، إذ خلع طاعة الأمير عبد الرحمن في سنة ١٥٦هـ/٧٧٢م[1]، وعاضده في ثورته حيوة بن ملامس "في أهل حمص، وكان حضرمياً"[2]. وكان الأمير عندما قامت هذه الثورة في شنت برية يحاول القضاء على الفاطمي، حيث أرسل إليه بدر من قرطبة يخبره بأمرها[3]. فلما علم بذلك ترك الفاطمي ليتفرغ لأهل إشبيلية، فقد تقدم إليها، ووضع السيف في أهلها، "فقُتلوا قتلاً ذريعاً، وأفلت عبد الغافر، فركب البحر، ونجا إلى المشرق"[4].

ولم تنته ثورة إشبيلية بفرار اليحصبي، فقد ظل فيها. وفي سنة ١٥٧هـ/٧٧٣م خرج الأمير قاصداً إشبيلية "فقدّم ابن عمه عبد الملك بن عمر...وبقي عبد الرحمن خلفه كالمدد له"[5]. وقدم عبد الملك ابنه أمية ليعرف أخبار أهل إشبيلية ويستطلع أحوالهم. وعندما وصل أمية إليهم وجدهم على أهبة الاستعداد، فلم يقتحم المدينة، إذ جبُن عن ذلك، ورجع "فلامه أبوه على إظهار الوهن، وضرب عنقه"[6]. ثم تقدم عبد الملك بعد أن أمر عسكره بكسر جفون السيوف عازماً على تحقيق النصر، وقد تمكن من ذلك بالفعل، إذ هزم اليمانية وأهل إشبيلية، وقتل بها خلقاً كثيراً ممن كانوا يؤيدون عبد الغافر وحيوة بن ملامس "وقطع آثارهم، ووطد الطاعة"[7].

---

(١) ابن الأثير، الكامل في التاريخ: ٣٩/٥؛ ابن عذاري، البيان المغرب: ٥٥/٢.

(٢) مجهول، أخبار مجموعة: ١٠٧.

(٣) ابن عذاري،البيان المغرب:٥٥/٢؛مجهول،أخبار مجموعة:١٠٧؛ابن الأثير،الكامل في التاريخ:٣٩/٥

(٤) ابن عذاري، البيان المغرب: ٥٥/٢.

(٥) ابن الأثير، الكامل في التاريخ: ٣٩/٥.

(٦) المصدر نفسه: ٣٩/٥.

(٧) ابن عذاري، البيان المغرب: ٥٥/٢؛ ابن الأثير، الكامل في التاريخ: ٣٩/٥؛ ابن خلدون، تاريخ: ١٥٨/٤.

ويذكر ابن الأثير أن عبد الملك بن عمر جرح في معركة إشبيلية، وأتى عبد الرحمن الداخل "وجرحه يجري دماً، وسيفه يقطر دماً، وقد لصقت يده بقائم سيفه"[1]. كما يذكر أن حيوة بن ملامس نجا من القتل مثلما نجا من قبله عبد الغفار اليحصبي[2]. ويبدو أن الأمير الأموي لم يكتف بالانتصار الذي حققه عبد الملك بن عمر على أهل إشبيلية، وخاصة أن حيوة ظل على قيد الحياة، ولذلك هاجمها بنفسه بعد أن أمر بسجن ثلاثين رجلاً من أهلها كانوا في عداد عسكر الأمير. وأوقع في الإشبيليين مقتلة عظيمة يعبر عن هولها صاحب أخبار مجموعة بقوله: "وأخذهم السيف، فقُتلوا قتلاً ذريعاً لم يُعلم قتل مثله كان أكثر من قتل المسوّدة مع (العلاء ابن مغيث اليحصبي)، وقتل حيوة"[3]. ثم كتب الأمير إلى مولاه بدر في قرطبة بأن يقتل الثلاثين رجلاً الذين كان أمر بحبسهم، فقتلهم[4].

ثورات الشمال:

لم تشكل الثورات التي ذكرناها سابقاً خطراً جسيماً على الأمير الأموي عبد الرحمن الداخل، أو على الأندلس، فقد كانت ثورات فردية، قام بها أشخاص موتورون لسبب أو لآخر، وتمكن الأمير من سحقها تباعاً. أما ثورات الشمال فقد كانت بالغة الخطورة لأنها لم تكن ذات طابع محلي، ولم يقم بها مشعلوها لحسابهم الخاص، وإنما كانت ذات طابع دولي، وشارك فيها عملاء قاموا بثوراتهم مدفوعين من قبل غيرهم، أو بالتواطؤ مع جهات من خارج الأندلس بهدف تقويض الدولة الأموية فيها.

كانت الدولة العباسية طرفاً في ثورات الشمال التي يمكن اعتبارها مؤامرة كبرى متعددة الأطراف، وكان شارلمان بن بيبان، أو شارل العظيم CarloMagno أو (قارلة) كما تسميه المصادر العربية[5] طرفاً آخر. وأما الطرف الثالث فيتمثل في عدد من الثائرين

---

[1] ابن الأثير، الكامل في التاريخ: ٥/٤٠.

[2] المصدر نفسه: ٥/٤٠.

[3] مجهول، أخبار مجموعة: ١٠٨.

[4] المصدر نفسه: ١٠٨-١٠٩.

[5] مجهول، أخبار مجموعة: ١١٣؛ المقري، نفح الطيب: ١/٣٣٠.

في الأندلس، وعلى رأسهم: عبد الرحمن بن حبيب الفهري (الصقلبي)، وسليمان بن يقظان الأعرابي، والحسين بن يحيى الأنصاري، والرُّماحس بن عبد العزيز. ومع أن ثورات هؤلاء لم تتم في وقت واحد، إلا أنها كانت متزامنة تقريباً، وكان هدفها الإطاحة بالأمير الأموي عبد الرحمن الداخل.

لقد هدفت الدولة العباسية من مشاركتها في هذه المؤامرة إلى استعادة الأندلس إلى حظيرتها، وكان لديها من الأسباب ما يبرر ذلك، فعبد الرحمن الداخل أموي، والأمويون مطاردون من قبل العباسيين حيثما حلّوا أو توجهوا. وعبد الرحمن الداخل كان أول من قطع الخطبة باسم الخليفة العباسي من أمراء الأندلس بعد أن خطب لهم نحو عشرة أشهر من إمارته[١].وأما قارلة ملك الفرنج[٢] فقد كان هدفه تأمين حدوده الجنوبية باحتلال شمالي الأندلس، وإلحاقه بالإمبراطوية الكارولنجية، وربما كانت أطماعه أكبر من ذلك بكثير، وهي احتلال الأندلس كلها، وطرد المسلمين منها، ومن ثم إحياء الإمبراطورية الرومانية[٣]. وبذلك التقت مصالح ملك الفرنج مع مصالح الدولة العباسية، فعملا معاً ضد الداخل. وأما الثائرون الذين أشرنا إليهم فقد كانت لهم أطماعهم الشخصية، وقد توافقت مصالحهم مع مصالح الطرفين السابقين، فعملوا على تحقيق الأهداف المشتركة، إلا أن الأمير الأموي أفشل خطط الجميع، وحال دون تحقيق طموحاتهم.

كان أول هؤلاء الثائرين هو عبد الرحمن بن حبيب الفهري المعروف بالصقلبي[٤]، وكان طرئاً على الأندلس، فقد دخلها بأمر من الخليفة العباسي محمد المهدي (١٥٨-١٦٩هـ/٧٧٥-٧٨٥م) قادماً من إفريقية[٥]، وذلك في سنة ١٦١هـ/٧٧٧م[٦]، ولم يحرك

---

(١) ابن الأثير، الكامل في التاريخ: ٤٠/٥.

(٢) ابن خلدون، تاريخ: ١٥٨/٤؛ المقري، نفح الطيب: ٣٣٠/١.

(٣) سالم، تاريخ المسلمين وآثارهم: في الأندلس: ٢٠١؛ العبادي، في تاريخ المغرب والأندلس: ١٠٦.

(٤) لقب عبد الرحمن الفهري بهذا اللقب لأنه كان طويلا أشقر أزرق أمعر. انظر: ابن عذاري، البيان المغرب: ٥٥/٢؛ ابن الأثير، الكامل في التاريخ: ٦٠/٥، وقد لقبه صاحب أخبار مجموعة: السقلابي: ١١٠، بينما لقبه ابن خلدون: القلعي: تاريخ: ١٥٨/٤ وكلاهما تحريف.

(٥) ابن الأثير، الكامل في التاريخ: ٦٠/٥؛ ابن خلدون، تاريخ: ١٥٨/٤.

(٦) ابن عذاري، البيان المغرب: ٥٥/٢.

في تلك السنة ساكناً، ويبدو أنه أمضاها في دراسة أوضاع الأندلس، ورسم الخطط. ثم عبر إلى إفريقية وعاد بجيش كبير من البربر نزل به في كورة تدمير، وأعلن ثورته في السنة التالية: ١٦٢هـ/٧٧٨م[١]. وكاتب الصقلبي سليمان بن يقظان الأعرابي "بالدخول في أمره، ومحاربة عبد الرحمن الأموي، والدعاء إلى طاعة المهدي"[٢]. وكان الأعرابي ببرشلونة[٣] عاملاً عليها للأمير الأموي[٤]. وقد ثار فيها معه الحسين بن يحيى الأنصاري بسرقسطة[٥]. وفي الجنوب ثار الرماحس بن عبد العزيز في الجزيرة الخضراء. ويذكر ابن عذاري أن الرماحس "كان على شُرَط مروان بن محمد، فلحق بالأندلس، فولاه الإمام (عبد الرحمن الداخل) الجزيرة، فخلع طاعته"[٦].

والراجح أن الخطة التي رسمها هؤلاء الثوار أو بعضهم بالاتفاق مع الخليفة العباسي محمد المهدي وبالاستعانة بشارلمان، ملك الفرنج، كانت تقضي بأن يقوم الصقلبي بمهاجمة شرقي الأندلس في الوقت الذي يسهل فيه الأعرابي والأنصاري لشارلمان غزو الأندلس من الشمال، بينما يقوم الرماحس بضعضعة الجبهة الجنوبية. ولكن هناك سببان حالا دون نجاح هذه الخطة، أولهما أن التعاون بين الثائرين لم يكن وثيقاً عند التطبيق الفعلي للخطة، وخاصة أن كلاً منهم رأى أنه الأولى بالزعامة من غيره، ولذلك صعب عليه الانضواء تحت لواء الآخرين. والثاني أن الأمير الداخل لم ينتظر حتى تتكالب عليه هذه القوى، وتهاجمه في وقت واحد، وإنما اتبع استراتيجية ناجحة هي مهاجمة الثائرين منفردين، مما يسّر له القضاء عليهم.

---

(١) ابن عذاري، البيان المغرب: ٥٦/٢.

(٢) ابن الأثير، الكامل في التاريخ:٦٠/٥؛ ابن خلدون، تاريخ: ١٥٨/٤؛ مجهول، أخبار مجموعة: ١١٠.

(٣) ابن الأثير، الكامل في التاريخ: ٦٠/٥؛ مجهول، أخبار مجموعة: ١١٠.

(٤) ابن خلدون، تاريخ: ١٥٨/٤.

(٥) مجهول، أخبار مجموعة: ١١٢؛ ابن عذاري، البيان المغرب: ٥٦/٢ ويذكر في نسبه أنه من أولاد سعد بن عُبادة الأنصاري. ويسميه ابن خلدون: الحسين بن عاصي، انظر: تاريخ: ١٥٨/٤.

(٦) ابن عذاري، البيان المغرب: ٥٦/٢.

لقد حاول الصقلبي أن يضم الأعرابي إليه، ويدخله في أمره[1]. لكن الأعرابي الذي وجد نفسه لا يقل شأناً عن الصقلبي أو غيره رفض هذه الدعوة، فاغتاظ الصقلبي، وقصد برشلونة فيمن معه من البربر، واقتتل الطرفان، وكانت النتيجة تغلب الأعرابي على الصقلبي الذي عاد مدحوراً إلى تدمير[2]. واستغل الأمير الأموي هزيمة الصقلبي، فسار نحوه "في العدد والعدة"[3]، ولم يكن الصقلبي قادراً على مواجهته، فهرب "وتعلّق بالوغر"[4]. ومضى الداخل إلى كورة تدمير حيث صال عسكره وجال، وقتل كل من وصل إليه من مؤيدي الصقلبي[5]، ثم أحرق أساطيله الراسية في موانئ شرقي الأندلس حتى يقطع أمله في النجاة، وبعد ذلك أخذ يطارد الصقلبي الذي قصد جبلاً منيعاً بناحية بلنسية، واعتصم به[6]. وعندئذ رأى الأمير أن لا يضيع وقته في مطاردته، فبذل جائزة لمن يأتيه برأسه[7]، وتصدى لنيل الجائزة رجل من البربر من البرانس اسمه مشكار، من أهل أوربط[8]، وأعمل الحيلة في ذلك، إذ إنه لجأ إلى الصقلبي، وأوهمه أنه من أصحابه، وعندما أظهر النصيحة للصقلبي اطمأن إليه، وأصبح من ثقاته. وبذلك أصبحت الظروف ملائمة لمشكار من أجل تنفيذ خطته، فقد هاجم الصقلبي في غفلة منه، واغتاله، وأخذ خيله، ونزع إلى الأمير الأموي، فحظي بالجائزة[9]. وبقتل عبد الرحمن بن حبيب الفهري (الصقلبي) سنة ١٦٢هـ/٧٧٨م[10] تخلص عبد الرحمن الداخل من أحد هؤلاء الثائرين الأربعة.

---

[1] ابن الأثير، الكامل في التاريخ: ٦٠/٥؛ ابن خلدون، تاريخ:١٥٨/٤؛ مجهول، أخبار مجموعة: ١١٠.

[2] ابن الأثير، الكامل في التاريخ: ٦٠/٥؛ ابن خلدون، تاريخ:١٥٨/٤؛ مجهول، أخبار مجموعة: ١١٠.

[3] ابن الأثير، الكامل في التاريخ: ٦٠/٥.

[4] ابن عذاري، البيان المغرب: ٥٦/٢.

[5] المصدر نفسه: ٥٦/٢.

[6] ابن الأثير،الكامل في التاريخ:٦٠/٥؛ ابن خلدون،تاريخ:١٥٨/٤؛ ابن عذاري،البيان المغرب: ٥٦/٢.

[7] ابن الأثير، الكامل في التاريخ: ٦٠/٥؛ ابن خلدون، تاريخ: ١٥٨/٤.

[8] ابن عذاري، البيان المغرب: ٥٦/٢؛ مجهول، أخبار مجموعة: ١١٠.

[9] ابن الأثير، الكامل في التاريخ: ٦٠/٥؛ مجهول، أخبار مجموعة: ١١١؛ ابن خلدون، تاريخ: ١٥٨/٤؛ ابن عذاري، البيان المغرب: ٥٦/٢.

[10] ابن الأثير، الكامل في التاريخ:٦٠/٥؛ ابن خلدون، تاريخ:١٥٨/٤؛ ابن عذاري،البيان المغرب:٥٦/٢

وظن الأمير عبد الرحمن الداخل بقتله الصقلبي ومن سبقه من الثوار أن الأندلس دانت له، وأنه أصبح يملك القوة والقدرة الكافيتين للمسير إلى المشرق من أجل القضاء على العباسيين، واستعادة أمجاد بني أمية، فقد أظهر في سنة ١٦٣هـ/٧٧٩م "التجهز للخروج إلى الشام...لمحو الدولة العباسية وأخذ ثأره منهم، فعصى عليه سليمان بن يقظان، والحسين بن يحيى بن سعيد...الأنصاري بسرقسطة، واشتد أمرهما، فترك ما كان عزم عليه"[١].

ولكي يتفرغ الأمير الأموي لقتال الأعرابي والأنصاري، واستئصال شأفتهم في الشمال، كان عليه أن يقضي على والي الجزيرة الخضراء: الرماحس بن عبد العزيز الكناني الذي خلع الطاعة وثار في الجنوب بتوجيه من الخليفة العباسي أبو جعفر المنصور في سنة ١٦٤هـ/٧٨٠م[٢]. فقد سار الأمير لقتاله بعد عشرة أيام فقط من إعلانه الثورة[٣]، أي قبل أن يتمكن هذا الثائر من تهيئة أسباب النجاح لثورته، فلم يشعر حتى طلعت عليه الخيل، وكان في الحمام، فخرج – عندما داهمه الفرسان – قبل أن يتمكن من ارتداء ملابسه، وإنما ألقى على نفسه "ملحفة مصبّغة"[٤]، وولى هارباً باتجاه الساحل ومعه أهله، ودخل بهم في مركب "فجاز في البحر حتى قدم على أبي جعفر المنصور"[٥]. وكان الرماحس قد سجن من وجدهم في الجزيرة الخضراء من الأمويين، فأطلق الأمير الداخل سراحهم[٦].

---

[١] ابن الأثير، الكامل في التاريخ: ٥/٦٣-٦٤؛ وانظر: المقري، نفح الطيب: ٣/٥٤ حيث يذكر أن الداخل أشاع في تلك السنة (١٦٣هـ/٧٧٩م) أشاع الرحيل إلى الشام لانتزاعها من بني العباس، وكاتب جماعة من أهل بيته ومواليه وشيعته، وعمل على أن يستخلف ابنه سليمان بالأندلس، ويذهب بعامة من أطاعه، ثم أعرض عن ذلك بسبب أمر الحسين الأنصاري الذي انتزى عليه بسرقسطة.

[٢] ابن عذاري، البيان المغرب: ٢/٥٦.

[٣] مجهول، أخبار مجموعة: ١١٢.

[٤] ابن عذاري، البيان المغرب: ٢/٥٦.

[٥] مجهول، أخبار مجموعة: ١١٢؛ ابن عذاري، البيان المغرب: ٢/٥٦.

[٦] ابن عذاري، البيان المغرب: ٢/٥٦.

وهكذا تفرغ الأمير الأموي لقتال الأعرابي والأنصاري اللذين أخذا يقاومان السلطة المركزية في قرطبة، ويعدان العدة للانفصال عنها بمعاونة شارلمان (١٥١-١٩٩هـ/٧٦٨-٨١٤م) الذي يصفه المقري بأنه من طغاة الإفرنج[1].

لقد ثار الأعرابي والأنصاري سنة ١٦٤هـ/٧٨٠م[2] في الوقت الذي ثار فيه الرماحس، مما يدل على أن هناك تنسيقاً بين الطرفين، ويؤيد ما ذهبنا إليه من أن ذلك تم بأوامر الخليفة العباسي، وبالتعاون مع شارلمان. وقبل أن يوجه الأمير الأموي قواته لحربهما كتب إليهما يدعوهما للطاعة، ولزوم الجماعة، فقد وجه رسالة إلى سليمان بن يقظان الأعرابي جاء فيها: "أما بعد، فدعني من معاريض المعاذير، والتعسّف عن جادة الطريق، لتمدن يداً إلى الطاعة، والاعتصام بحبل الجماعة، أو لأذرينّ بنانها عن رصف المعصية، نكالاً بما قدمت يداك، وما الله بظلّام للعبيد"[3]. غير أن الأعرابي ومعه الأنصاري لم يرتدعا عن غيهما، ولم يأبها بتهديد الأمير الأموي. فأرسل حملة بقيادة ثعلبة ابن عبيد[4] لتأديبهما، وإعادتهما إلى طاعته. وعندما سار ثعلبة "كان سليمان بن يقظان من نازل سرقسطة...وخرج لمحاربته ثعلبة بن عبيد سنة أربع وستين ومئة، ونزل مدينة طرسونة، ووالى حربه، واضطرب على باب سرقسطة بمعسكره، فافترس سليمان بن يقظان غفلته وافتراق أهل الجيش، فتهجم عليه، وأسر ثعلبة بن عبيد، وبعث به إلى ملك الإفرنج"[5]. وكان أسر ثعلبة قد تم بعد أيام من القتال، وبعد أن اطمأن هذا القائد إلى أنه سحق الثورة أو كاد، فقد ركن إلى هذه النتيجة قبل أن يستولي له الأمر تماماً، فأخذه الأعرابي على حين غرة، وتمكن من أسره[6].

---

(١) المقري، نفح الطيب: ٣٣٠/١.

(٢) ابن الأثير، الكامل في التاريخ: ٦٤/٥؛ ابن خلدون: ١٥٨/٤؛ وانظر: ابن عذاري، البيان المغرب: ٥٦/٢ حيث يذكر أن ثورتهما بدأت سنة ١٦٥هـ/٧٨١م.

(٣) المقري، نفح الطيب: ٣٩/٣؛ وانظر النص نفسه مع بعض الاختلاف في الرواية لدى ابن عذاري، البيان المغرب: ٥٨/٢.

(٤) ابن الأثير، الكامل في التاريخ: ٦٤/٥؛ ابن خلدون، تاريخ: ١٥٨/٤؛ مجهول، أخبار مجموعة: ١١٢-١١٣ ويذكر أنه ثعلبة بن عبد.

(٥) العذري،نصوص عن الأندلس:٢٥؛ابن الأثير، الكامل في التاريخ:٦٤/٥؛ ابن خلدون، تاريخ:١٥٨/٤

(٦) ابن الأثير، الكامل في التاريخ: ٦٤/٥؛ مجهول، أخبار مجموعة: ١١٣.

وعمل الأعرابي على استثمار هذا النصر لصالحه، إذ سلم الأسير: ثعلبة لشارلمان[1]، ودعاه لغزو الأندلس. وفي رواية أخرى قام الأعرابي باستدعاء شارلمان "ووعده بتسليم البلد وثعلبة إليه، فلما وصل إليه لم يصحّ بيده غير ثعلبة، فأخذه وعاد إلى بلاده، وهو يظن أنه يأخذ به عظيم الفداء"[2]. ويبدو أن شارلمان شعر بأن عليه اغتنام هذه الفرصة، فبعد أن أصبح ثعلبة بيده أسيراً قرر غزو المناطق الشمالية، فخرج على رأس جيوشه متجهاً نحو جبال ألبرت، واجتازها إلى بنبلونة واحتلها، ثم زحف نحو سرقسطة، فخرج الأعرابي لاستقباله وهو ينوي تسليمه المدينة التي خلّف عليها الأنصاري. وما إن خرج الأعرابي منها حتى قام الأنصاري بإغلاق أبوابها دونه، ودون جيش شارلمان. وعندما وصل شارلمان حاصر مدينة سرقسطة، "فقاتله أهلها، ودفعوه أشد الدفع"[3]. وبينما كان محاصراً لها وصلته أنباء بوقوع اضطرابات في بلاده، فاضطر إلى فك الحصار عن سرقسطة، وأخذ الأعرابي معه أسيراً لاعتباره إياه المسؤول عن فشل هذه الحملة. ومر شارلمان في طريقه بمدينة بنبلونة (Pamplona) فخرّب حصونها، وسحب حاميتها النصرانية.

وكان الأمير الأموي عبد الرحمن الداخل يراقب الأحداث عن كثب، فقد وصل إلى سرقسطة، وفرق أولاده في أنحائها لإخضاع العصاة[4]، وحرض البشكنس ضد شارلمان، فهاجموا مؤخرة جيشه وهو يعبر ممر رنسفالة (Roncesvalled) في جبال ألبرت، وأفنوها. وقد تم القضاء على مؤخرة جيش شارلمان بتعاون البشكنس مع ابني الأعرابي: عيشون ومطروح اللذين هبا لإنقاذ أبيهما من الأسر "فاستنقذا أباهما، ورجعا به إلى سرقسطة، ودخلوا مع الحسين (الأنصاري)، ووافقوا على خلاف عبد الرحمن"[5]. وكان ممن قتلوا في مؤخرة جيش شارلمان قائده وصفيّه رولان (Roland)[6].

---

[1] مجهول، أخبار مجموعة: ١١٣.

[2] ابن الأثير، الكامل في التاريخ: ٦٤/٥.

[3] مجهول، أخبار مجموعة: ١١٣.

[4] ابن الأثير، الكامل في التاريخ: ٦٤/٥.

[5] المصدر نفسه: ٤١/٥.

[6] كان شارلمان يعتبر رولان من أعظم قواده، وقد حزن لقتله حزناً عميقاً. وتجدر الإشارة هنا إلى أن مصرع رولان كان موضوع أنشودة من شعر الملاحم الفرنسي، تعرف بأنشودة رولان Le Chanson de Roland التي يعتبرها الفرنسيون بداية الأدب الفرنسي. انظر: العبادي، في تاريخ المغرب والأندلس: ١٠٩؛ سالم، تاريخ المسلمين وآثارهم في الأندلس: ٢٠٣.

انتهت حملة شارلمان على الأندلس بالفشل الذريع، وفقد خلال هذه الحملة خيرة رجاله. وكانت تلك النتيجة وما ترتب عليها من أحداث لصالح الأمير الأموي على أكثر من صعيد. ففي الوقت الذي انسحبت فيه قوات شارلمان، دبر الحسين بن يحيى الأنصاري مؤامرة لقتل الأعرابي، وقتله يوم جمعة "في المسجد الجامع، وصار الأمر لحسين وحده"[1]. وفي تلك الأثناء كان الداخل قد حل في مدينة شنت برية، واعتقل عدداً من المناوئين له من رجالها "بلغت عدتهم ستة وثلاثين رجلاً"[2]. ثم استأنف سيره إلى سرقسطة، وحاصر الحسين الأنصاري فيها حصاراً شديداً "وقدّم لقتاله أحزاباً وأنصاراً"[3]. ولما طال الحصار ضاق به أهل المدينة، فاضطر الأنصاري إلى طلب الصلح، وقدم ابنه (سعيد) رهينة ضماناً للصلح[4]. فوافق الأمير، وعفا عنه، وأبقاه على سرقسطة والياً[5].

سار الأمير عبد الرحمن الداخل بعد صلحه مع الحسين الأنصاري إلى بلاد البشكنس، ودوّخ بنبلونة وقلهرة، وصال وجال في تلك المناطق، وأخضعها[6]. إلا أن الجو لم يصفُ له، وذلك لأن سعيد بن الحسين بن يحيى الأنصاري تمكن من الهرب في اليوم التالي لأخذه رهينة، وما إن علم أبوه بذلك حتى نكث بعهد الصلح مع الأمير "وكفر النعمة، وأعلن بالنفاق إعلاناً، وأرسل في الشقاق عناناً"[7]، مما اضطر الأمير إلى التوجه نحو سرقسطة مرة أخرى، وحاصرها "ونصب عليها المجانيق من كل جانب، فيُقال إنه حفّها بستة وثلاثين منجنيقاً، وضيق على أهلها أشدّ الضيق"[8]. وأصر الأمير هذه المرة على أن لا يعود عن سرقسطة إلا بعد أن يصفّي الحسين الأنصاري، ويخلّص المدينة من ثورته، ولذلك استمر في تشديد قبضته عليها، وقصفها بالمجانيق حتى تسرّب اليأس

---

[1] مجهول، أخبار مجموعة:١١٤؛ ابن خلدون، تاريخ: ١٥٨/٤؛ ابن الأثير، الكامل في التاريخ: ٦٤/٥.

[2] مجهول، أخبار مجموعة: ١١٣.

[3] ابن عذاري، البيان المغرب: ٥٦/٢.

[4] مجهول، أخبار مجموعة: ١١٤.

[5] ابن عذاري، البيان المغرب:٥٦/٢؛ ابن الأثير،الكامل في التاريخ:٦٤/٥؛ابن خلدون،تاريخ: ١٥٨/٤.

[6] ابن الأثير، الكامل في تاريخ: ٦٤/٥؛ مجهول، أخبار مجموعة: ١١٤.

[7] ابن عذاري، البيان المغرب: ٥٦/٢-٥٧؛ وانظر: مجهول، أخبار مجموعة: ١١٤.

[8] مجهول، أخبار مجموعة: ١١٥.

إلى نفوس أهلها، ولم يعودوا قادرين على تحمل الوضع. وعند ذلك قبضوا على الأنصاري، وسلموه للأمير عبد الرحمن الداخل، فقتله[١].

أنهى عبد الرحمن الداخل بقتل الحسين بن يحيى الأنصاري تلك المؤامرة الكبرى التي قامت ضده، واستهدفت فصل شمالي الأندلس، وربما إنهاء الوجود الأموي في الأندلس بالتعاون مع شارلمان والدولة العباسية. وليس من شك في أن الخلفاء العباسيين لم يعد لهم أمل – بعد القضاء على هذه المؤامرة – في استعادة الأندلس إلى حظيرتهم. أما شارلمان فقد وجد من مصلحته مهادنة الأمير الأموي "فمال معه إلى المداراة، ودعاه إلى المصاهرة والسلم، فأجابه للسلم ولم تتم المصاهرة"[٢].

ثورة المغيرة بن الوليد بن معاوية* (١٦٨هـ/٧٨٤م):

همّ المغيرة بالثورة على الأمير الأموي، وذلك عام ١٦٨هـ/٧٨٤م[٣]، وتواطأ معه على الثورة: هذيل بن الصميل بن حاتم[٤]. ولكنهما لم يتمكنا من المضي في الاستعداد لها إذ سرعان ما كشف أمرهما للأمير الأموي شخص يدعى: علاء بن عبد المجيد القشيري[٥]، وعندئذ استدعى الأمير كلاً من المغيرة والهذيل، وحقق معهما فأقرا بخلع الطاعة، والجنوح إلى الثورة، وعندئذ أمر بهما فقُتلا[٦].

---

(١) مجهول، أخبار مجموعة: ١١٥؛ وانظر: ابن عذاري، البيان المغرب: ٥٧/٢؛ ابن خلدون، تاريخ: ١٥٨/٤؛ ابن الأثير، الكامل في التاريخ: ٦٦/٥.

(٢) المقري، نفح الطيب: ٣٣٠/١-٣٣١.

* هو ابن أخت الأمير الأموي عبد الرحمن الداخل، وكان يقيم بالرُّصافة من ضواحي قرطبة. انظر: ابن عذاري، البيان المغرب: ٥٧/٢.

(٣) ابن عذاري، البيان المغرب: ٥٧/٢.

(٤) مجهول، أخبار مجموعة: ١١٦.

(٥) المصدر نفسه: ١١٦.

(٦) المصدر نفسه: ١١٦؛ ابن عذاري، البيان المغرب: ٥٧/٢.

ثورة أبي الأسود الفهري (١٦٩هـ/٧٨٥م):

ذكرنا سابقاً أن أبا الأسود محمد بن يوسف بن عبد الرحمن الفهري كان سجيناً لدى الأمير الأموي عبد الرحمن الداخل، وأنه تمكن من الهرب بحيلة دبّرها، فقد ادّعى أنه أعمى[١]، وأوهم حرّاس السجن بذلك فأهملوا التشديد في حراسته، وكان في سجنه سرداب يفضي إلى النهر، "وكان مولى له يحادثه على شاطئ النهر، ولا ينكر عليه، فواعده أن يأتيه بخيل يحمله عليها، فخرج يوماً ومولاه ينتظره، فعبر النهر سباحة، وركب الخيل، ولحق بطليطلة، فاجتمع له خلق كثير، فرجع بهم إلى قتال عبد الرحمن الأموي"[٢]، وعندما حلّ بمدينة قسطلونة (Castellon) بشرقي الأندلس[٣]، حشد الأمير الأموي جيوشه، وعبأ عساكره "والتقى معه في مخاضة الفتح"[٤] "على الوادي الأحمر بقسطلونة"[٥]. واشتد القتال الذي استمر أياماً بين الطرفين، ثم انهزم أبو الأسود، وقتل من أصحابه أربعة آلاف "سوى من تردى في النهر"[٦]. وهرب أبو الأسود إلى ناحية قورية فطارده الأمير "وقتل له رجالاً وداس البلاد بالخراب"[٧] إلا أنه لم يظفر به.

وفي سنة ١٧٠هـ/٧٨٦م استأنف الأمير الأموي ملاحقة أبي الأسود في قورية، فهرب "وأدركت الخيل عياله وأصحاباً له، فقُتل من أُدرك، وأحرقت دوره"[٨]. وعندما وجد أبو الأسود نفسه وحيداً طريداً لجأ إلى بعض الغياض متخفياً إلى أن وافته المنية في جهات طليطلة[٩].

---

[١] ابن الأثير، الكامل في التاريخ: ٧٠/٥؛ ابن عذاري، البيان المغرب: ٥٧/٢.

[٢] ابن الأثير، الكامل في التاريخ: ٧٠/٥.

[٣] ابن خلدون، تاريخ: ١٥٨/٤؛ مجهول، أخبار مجموعة: ١١٦؛ ابن الأثير، الكامل في التاريخ: ٧٠/٥.

[٤] ابن عذاري، البيان المغرب: ٥٧/٢.

[٥] ابن الأثير، الكامل في التاريخ: ٧٠/٥.

[٦] المصدر نفسه: ٧٠/٥؛ وانظر: ابن عذاري، البيان المغرب: ٥٧/٢؛ مجهول، أخبار مجموعة: ١١٦؛ ابن خلدون، تاريخ: ١٥٨/٤.

[٧] ابن الأثير، الكامل في التاريخ: ٧٠/٥؛ مجهول، أخبار مجموعة: ١١٦.

[٨] ابن عذاري، البيان المغرب: ٥٧/٢-٥٨.

[٩] المصدر نفسه: ٥٧/٢؛ ابن خلدون، تاريخ: ١٥٨/٤-١٥٩؛ ابن الأثير، الكامل في التاريخ: ٧٠/٥.

وفي سنة ١٧١هـ/٧٨٧م خلع طاعة الأمير عبد الرحمن: قاسم بن عبد الرحمن الفهري، أخو يوسف بن عبد الرحمن الفهري[١]. غير أنه لم يصمد طويلاً أمام قوات الأمير، إذ سرعان ما أذعن له بالطاعة. ولكن الأمير قتله، وبذلك تخلص من الثائرين من عائلة يوسف الفهري بعد أن دوّخوه طويلاً[٢]، وشغلته ثوراتهم وثورات غيرهم عن التوسع في ميدان البناء والإعمار، وعن مواصلة الجهاد في شمالي الأندلس ضد النصارى، إذ لم تتح له تلك الثورات وقتاً كافياً يستغله في الميدانين المذكورين. غير أنه بتصديه لتلك الثورات وقضائه عليها تمكن من ترسيخ قدم الأمويين في الأندلس، ووضع اللبنة الأولى، وكانت أساساً قوياً تم بناء الدولة عليه، مما مكنها من الاستمرار نحو ثلاثة قرون.

لقد أعاد الأمير الأموي عبد الرحمن الداخل بناء المسجد الجامع في قرطبة وذلك في سنة ١٧٠هـ/٧٨٦م بعد أن ضم إليه كنيسة سنت بثنت (San Vicente)، وأنفق في بنائه مائة ألف دينار[٣]. وتتجلى في بنائه التأثيرات الفنية الشامية الظاهرة في زخارفه المعمارية، وفي نظام عقوده، ووضع مئذنته[٤]. كما بنى الأمير الأموي في قرطبة قصر الرصافة، أو منية الرصافة "التي اتخذها بشمال قرطبة منحرفة إلى الغرب، فاتخذ بها قصراً حسناً، ودحا جناناً واسعة، ونقل إليها غرائب الغروس وأكارم الشجر من كل ناحية، وأودعها ما كان استجلبه يزيد وسفر رسولاه إلى الشام من النوى المختار والحبوب الغريبة حتى نمت بيمن الجد وحسن التربية في المدة القريبة أشجاراً معتمة أثمرت بغرائب من الفواكه انتشرت عما قليل بأرض الأندلس"[٥]. وكان الأمير الأموي وهو يبني الرصافة في قرطبة إنما يستحضر في ذهنه رصافة الشام التي بناها جده هشام بن عبد الملك[٦]. وإن دلّ ذلك على شيء فإنما يدل على أن تعلقه بالشام كان كبيراً، وأنها لم تغب

---

[١] ابن عذاري، البيان المغرب: ٥٨/٢؛ ابن الأثير، الكامل في التاريخ: ٧٠/٥؛ ابن خلدون، تاريخ: ١٥٩/٤.

[٢] ابن الأثير، الكامل في التاريخ: ٧٠/٥؛ ابن خلدون، تاريخ: ١٥٩/٤.

[٣] ابن عذاري، البيان المغرب: ٥٨/٢.

[٤] سالم، تاريخ المسلمين وآثارهم في الأندلس: ٢٠٩.

[٥] المقري، نفح الطيب: ٤٦٦/١-٤٦٧.

[٦] ابن الأثير، الكامل في التاريخ: ٨٤/٥.

عن وجدانه. بل كاد يقوم بمغامرة لم يدرك أبعادها أو مخاطرها عندما فكر في قيادة جيوشه نحو الشرق لاستعادة ملك آبائه وأجداده من أيدي العباسيين، كما أشرنا إلى ذلك من قبل. ولم تكن همته العالية لتقعد به عن ذلك لولا الثورات المتلاحقة التي استنزفت وقته وجهده بالأندلس.

وظل الأمير الأموي منذ دخوله الأندلس حتى وفاته فيها في ربيع الآخر من سنة ١٧٢هـ/٧٨٨م[١] يتحرق شوقاً إلى الشام، وينفث أشواقه شعراً يقطر حنيناً، ومن ذلك قوله[٢]:

أيها الراكب الميمّمُ أرضي   إقرَ مني بعض السلام لبعضي
إن جسمي كما علمتَ بأرضٍ   وفؤادي ومالكيه بأرضِ
قد قضى الله بالفراق علينا   فعسى باجتماعنا سوف يقضي

كان عبد الرحمن الداخل، وهو في الأندلس، يشعر بالغربة، ويرى أن الظروف إنما اقتلعته من شامه اقتلاعاً، وطرحته في بلاد بعيدة. وهذا الشعور كان يتملكه كلما انفرد بنفسه، ويخرج حسرات على لسانه. فبعد أن بنى منية الرصافة دخلها فرأى فيها نخلة وحيدة نمت في بلاد ليست بلاد نخل، فأثارت أشجانه، فقال[٣]:

تبدّت لنا وسط الرصافة نخلة   تناءت بأرض الغرب عن بلد النخلِ
فقلتُ شبيهي في التغرب والنوى   وطول التنائي عن بنيّ وعن أهلي
نشأتِ بأرضٍ أنتِ فيها غريبة   فمثلك في الإقصاء والمنتأى مثلي

وعلى الرغم من هذا التنازع في نفس الداخل بين الشام والأندلس، إلا أنه تمكن من تأثيل مجد عريق في الأندلس لقومه بني أمية، وأنشأ فيها حكماً توارثه عقبه.

---

[١] ابن الأثير، الكامل في التاريخ: ٨٣/٥؛ ابن عذاري، البيان المغرب: ٥٨/٢؛ المقري، نفح الطيب: ٣٣٣/١؛ ابن خلدون، تاريخ: ١٥٩/٤.

[٢] أبو محمد عبد الواحد بن علي التميمي المراكشي، تاريخ الأندلس المسمّى: المعجب في تلخيص أخبار المغرب، القاهرة: المطبعة الجمالية، ١٩١٤: ١٠. وسيشار له فيما بعد: المراكشي، المعجب؛ وانظر: المقري، نفح الطيب: ٥٤/٣؛ ابن عذاري، البيان المغرب: ٦٠/٢.

[٣] ابن عذاري، البيان المغرب: ٦٠/٢؛ المقري، نفح الطيب: ٥٤/٣؛ ابن الأثير، الكامل في التاريخ: ٨٤/٥.

٢.هشام بن عبد الرحمن الداخل (الرضى)* (١٧٢-١٨٠هـ/٧٨٨-٧٩٦م):

ولد هشام الرضى في الرابع من شوال سنة ١٣٩هـ/٧٥٦م[١]، وكان والده عبد الرحمن قد عهد إليه ولأخيه سليمان الأكبر منه بولاية العهد[٢]. وكان لهما أخ ثالث اسمه عبد الله، وهو المعروف بعبد الله البلنسي. وقد تنازع هؤلاء الأخوة الثلاثة إمارة الأندلس بعد أبيهم، وانشغل بعضهم ببعض عن رعاية شؤون الدولة الأموية زمناً. والمسبب لهذا التنازع هو الأمير الداخل نفسه، فقد عهد بالإمارة لاثنين من أبنائه، وكان في قرارة نفسه يفضل الأصغر منهما على الأكبر، أي هشاماً على سليمان، فالداخل كان كثيراً ما يسأل عنهما، "فيُذكر له أن هشاماً إذا حضر مجلساً امتلأ أدباً وتاريخاً وذكراً لأمور الحرب ومواقف الأبطال، وما أشبه ذلك. وإذا حضر سليمان مجلساً امتلأ سخفاً وهذياناً، فيكبر هشام في عينيه بمقدار ما يصغر سليمان"[٣]. ونظراً لأن التقليد الذي ترسّخ منذ بداية الدولة الأموية في المشرق هو أن يلي الأكبر سناً من الأبناء، ولأن الأمير الداخل لم يكن مطمئناً لابنه سليمان، فقد وجد نفسه في حيرة، إن لم يكن في ورطة، وظن أن الخروج من ذلك إنما يكون بجعل الإمارة من بعده لمن يسبق إلى قرطبة من ولديه، وكان سليمان بطليطلة والياً عليها، بينما كان هشام بماردة[٤]. أما ابنه عبد الله المعروف بالبلنسي فكان قرب والده بقرطبة[٥]، مما جعله يظن أنه الأولى بالإمارة من أخويه. وقد ترتب على تنازع الإخوة فيما بينهم ما سيأتي بيانه.

---

* يكنى: أبا الوليد. انظر: المراكشي، المعجب: ١٠؛ ابن عذاري، البيان المغرب: ٦١/٢. وأمه أم ولد اسمها: حُلَل. انظر: المقري، نفح الطيب: ٣٣٤/١. وكان خيّراً فاضلاً جواداً كريماً. انظر: مجهول، أخبار مجموعة: ١٢١. وكان يتحرى العدل ويعود المرضى ويشهد الجنائز، ويتصدق بالصدقات الكثيرة "وربما كان يخرج في الليالي المظلمة الشديدة المطر، ومعه صرر الدراهم يتحرى بها المساتير" انظر: المراكشي، المعجب: ١٠.

[١] ابن عذاري، البيان المغرب: ٤٨/٢.

[٢] المصدر نفسه: ٦٠/٢.

[٣] المقري، نفح الطيب: ٣٣٤/١.

[٤] ابن الأثير، الكامل في التاريخ: ٨٣/٥؛ ابن عذاري، البيان المغرب: ٦١/٢؛ ابن خلدون، تاريخ: ١٥٩/٤.

[٥] ابن الأثير، الكامل في التاريخ: ٨٣/٥؛ ابن عذاري، البيان المغرب: ٦١/٢؛ ابن خلدون، تاريخ: ١٥٩/٤.

عندما حضرت الأمير عبد الرحمن الداخل الوفاة قال لابنه عبد الله الذي عُرف فيما بعد بالبلنسي: "من سبق إليك من إخوتك فارم إليه بالخاتم والأمر! فإن سبق إليك هشام، فله فضل دينه وعفافه واجتماع الكلمة عليه. وإن سبق إليك سليمان، فله فضل سنّه ونجدته وحبّ الشاميين له، فقدم هشام من ماردة قبل سليمان، فنزل بالرصافة...فخرج إليه أخوه عبد الله، وسلّم عليه بالخلافة، ودفع إليه الخاتم كما أوصاه أبوه، وأدخله القصر"[1].

بويع هشام الرضى يوم الأحد مستهل جمادى الأولى من سنة ١٧٢هـ/٧٨٨م[2]، ووطن نفسه منذ بداية عهده على أن يذهب بسيرته مذهب الخليفة الأموي عمر بن عبد العزيز، ودل أسلوبه في الحكم فيما بعد على ذلك، فقد "كان يبعث بقوم من ثقاته إلى الكور، فيسألون الناس عن سيَر عماله، ويخبرونه بحقائقها، فإذا انتهى إليه حيف من أحدهم أوقع به، وأسقطه، وأنصف منه، ولم يستعمله بعد"[3]. وأمير هذه السيرة لا بد أن يعمل على احتواء أخويه منذ البداية، ويضمهما تحت جناحه، ولذلك فإنه عندما استقرّ له الملك قرّب أخاه البلنسي، "وكان هشام يؤثره ويبره ويقدمه"[4]. وربما نوى أن يفعل مثل ذلك مع أخيه سليمان، ولكن طمع سليمان كان أسبق.

وهكذا فإن الظروف التي أحاطت بتولي هشام إمارة الأندلس تنبئ بما سينطوي عليه عهده من أحداث داخلية، إلا أن تلك الأحداث لم تشغله عن الجهاد ضد النصارى المتربصين بالأندلس. وسنتناول فيما يلي: الأحداث الداخلية في عهد هشام، ثم الجهاد والفتح الذي تم على يديه.

---

[1] ابن عذاري، البيان المغرب: ٢/٦١-٦٢؛ ابن الأثير، الكامل في التاريخ: ٥/٨٤؛ ابن خلدون، تاريخ: ٤/١٥٩.

[2] ابن عذاري، البيان المغرب: ٢/٦١.

[3] المقري، نفح الطيب: ١/٣٣٦-٣٣٧.

[4] ابن الأثير، الكامل في التاريخ: ٥/٨٥.

الأحداث الداخلية:

قاسى الأمير هشام الرضى مع المخالفين له من أهل بيته وغيرهم حروباً[1]، وكان أخوه سليمان أول هؤلاء المخالفين، فعندما وصله الخبر بوفاة أبيه "حشد الحشود، وجند الجنود يريد قرطبة"[2]، وذلك بعد أن أخذ بيعة طليطلة وما جاورها لنفسه، وغلب عليها[3]. وأما المخالف الثاني فكان أخوه عبد الله البلنسي الذي لم يقنع بجوار أخيه هشام، وإنما أبى إلا أن يشاركه في الحكم[4]، وعندما رفض هشام هرب البلنسي إلى أخيه سليمان في طليطلة، "فلما خرج من قرطبة أرسل هشام جمعاً في أثره ليردوه فلم يلحقوه"[5]، وذلك في سنة ١٧٣هـ/٧٨٩م بعد سبعة أشهر من وفاة والدهما[6]. وانضم البلنسي إلى سليمان، وتكاتفا معاً ضد أخيهما هشام.

لم يكن الأمير الأموي هشام الرضى ليتقبل أن تتمزق الأندلس، وعزم على محاربة الخارجين عليه حتى وإن كانوا إخوته، ولذلك جمع عساكره وسار إلى طليطلة لإعادة أخويه سليمان وعبد الله إلى الطاعة[6]، غير أن سليمان عندما سمع بتحرك هشام غادر طليطلة بعد أن ترك فيها "ابنه وأخاه عبد الله يحفظان البلد، وسار هو إلى قرطبة ليملكها"[7]. ولم يلحق به هشام، وإنما ظل محاصراً لطليطلة، بينما استمر سليمان في سيره حتى وصل إلى شقندة "فدخلها، وخرج إليه أهل قرطبة مقاتلين ومدافعين عن أنفسهم"[8]، وفي أثناء هذه المواجهة بين سليمان وأهل قرطبة وصلت قطعة من جيش هشام بقيادة ابنه عميد الملك لمعاونة أهل المدينة، وما إن اقتربت هذه القطعة حتى فر

---

(1) المقري، نفح الطيب: ٣٣٧/١.

(2) ابن عذاري، البيان المغرب: ٦٢/٢.

(3) المصدر نفسه: ٦٢/٢.

(4) ابن الأثير، الكامل في التاريخ: ٨٥/٥.

(5) المصدر نفسه: ٨٥/٥؛ وانظر: ابن خلدون، تاريخ: ١٥٩/٤؛ ابن عذاري، البيان المغرب: ٦٢/٢.

(6) ابن عذاري، البيان المغرب: ٦٢/٢.

(6) ابن الأثير، الكامل في التاريخ: ٨٥/٥.

(7) المصدر نفسه: ٨٥/٥؛ وانظر: ابن خلدون، تاريخ: ١٥٩/٤؛ ابن عذاري، البيان المغرب: ٦١/٢.

(8) ابن الأثير، الكامل في التاريخ: ٨٥/٥.

سليمان هارباً إلى مدينة ماردة، وهناك تصدى له والي المدينة، وهو "حُدير المعروف بالمذبوح، فخرج إليه، فهزمه"[١]، وفرّ سليمان إلى تدمير[٢].

وظل هشام محاصراً لطليطلة نحو شهرين وبضعة أيام "ثم عاد عنها وقد قطع أشجارها، وسار إلى قرطبة"[٣]. ولم يلبث فيها إلا قليلاً حتى وفد عليه أخوه عبد الله البلنسي قادماً من طليطلة بغير أمان، ومع ذلك أكرمه الأمير هشام، وأنزله معززاً عند ابنه الحكم[٤].

وباستسلام البلنسي تخلص هشام من أحد أخويه المعارضين لحكمه، واستمر في الخلاف عليه أخوه سليمان الذي التجأ إلى بعض ثغور تدمير. ولكي لا يتيح له هشام فرصة الاستقرار هناك، وحشد الأنصار من حوله، وجه إليه جيشاً بقيادة ابنه معاوية وذلك في سنة ١٧٤هـ/٧٩٠م[٥] "فحاربه، وخربوا أعمال تدمير، ودوخوا أهلها ومن بها وبلغوا البحر، فخرج سليمان من تدمير هارباً، فلجأ إلى البرابر بناحية بلنسية فاعتصم بتلك الناحية الوعرة المسلك، فعاد معاوية إلى قرطبة"[٦]. ويبدو أن سليمان أدرك عقم محاولاته الرامية إلى اغتصاب السلطة من أخيه، فركن إلى الهدوء، ثم وفد على أخيه هشام في قرطبة مثلما فعل أخوه عبد الله من قبله، ولكن سليمان طلب الأمان من أخيه فأمنه، واشترط عليه مغادرة الأندلس، فقبل. وقد عوّضه هشام عن تركة أبيه ستين ألف دينار أخذها، ورحل بأهله وولده إلى المغرب[٧]، وغادر معه أخوه عبد الله[٨]، وبذلك تخلص هشام من خلافهما.

---

[١] ابن عذاري، البيان المغرب: ٦٢/٢؛ وانظر: ابن الأثير، الكامل في التاريخ: ٨٥/٥.

[٢] ابن الأثير، الكامل في التاريخ: ٨٦/٥.

[٣] المصدر نفسه: ٨٦/٥؛ ابن عذاري، البيان المغرب: ٦٢/٢.

[٤] ابن عذاري، البيان المغرب: ٦٣/٢؛ ابن الأثير، الكامل في التاريخ: ٨٦/٥.

[٥] ابن الأثير، الكامل في التاريخ: ٨٦/٥.

[٦] المصدر نفسه: ٨٦/٥؛ وانظر: ابن خلدون، تاريخ: ١٥٩/٤.

[٧] ابن الأثير، الكامل في التاريخ: ٦٨/٥؛ ابن خلدون، تاريخ: ١٥٩/٤؛ ابن عذاري، البيان المغرب: ٦٣/٢.

[٨] ابن خلدون، تاريخ: ١٥٩/٤.

وبينما كان الأمير هشام الرضى مشغولاً بأخويه سليمان والبلنسي حشد سعيد بن الحسين بن يحيى الأنصاري جمعاً كبيراً من اليمنيين الموتورين في طرطوشة، واستولى على المدينة، وأعلن العصيان[١]، ثم هاجم سعيد سرقسطة "فأخرج منها واليها، وضرب بين الناس، ودعا إلى نفسه وإلى الفتنة، فأرسلها مضرية ويمانية"[٢]. وكان العامل لهشام على الثغر الأعلى: موسى بن فرتون الذي سرعان ما تصدى لسعيد، حيث هاجمه وهزمه، وقتله، واستولى على سرقسطة[٣].

ولم تكد الأوضاع تستقر في سرقسطة حتى غزاها أحد الأشخاص الموتورين، وهو مطروح بن سليمان بن يقظان الأعرابي الذي كان يتحين الفرص للأخذ بثأر أبيه. فقد ثار في برشلونة، واستغل الأحداث في سرقسطة فهاجمها واستولى عليها، ثم استولى على مدينة وشقة، وعلى الثغر الأعلى كله[٤]. وكان مطروح قد استغل انشغال هشام بأخويه، غير أن هشاماً عندما فرغ من سليمان وعبد الله البلنسي، وأجلاهما عن الأندلس هبّ للقضاء على مطروح وثورته[٥].

جهز الأمير الأموي هشام الرضى لحرب مطروح الأعرابي جيشاً بقيادة أبي عثمان عبيد الله بن عثمان، وذلك في سنة ١٧٥هـ/٧٩١م، وقد حاصر هذا الجيش مطروحاً في سرقسطة حصاراً شديداً، إلا أنه لم يتمكن من الظفر به[٦]، فانسحب أبو عثمان إلى حصن طرسونة (Tarrazona) القريب، ومن هناك أخذ يوجه السرايا لمهاجمة سرقسطة، ومنع المؤن من الوصول إليها، فضاق أهلها بهذا الوضع، وأخذوا يترقبون فرصة الخلاص. وقد لاحت تلك الفرصة عندما تمكن بعض أهل المدينة من مطروح،

---

[١] كان سعيد الأنصاري قد التجأ إلى طرطوشة عندما قُتل أبوه الحسين بن يحيى الأنصاري. انظر: ابن الأثير، الكامل في التاريخ: ٨٦/٥؛ ابن خلدون، تاريخ: ١٥٩/٤؛ ابن عذاري، البيان المغرب: ٦٣/٢.

[٢] ابن عذاري، البيان المغرب: ٦٢/٢.

[٣] المصدر نفسه: ٦٢/٢.

[٤] ابن عذاري، البيان المغرب: ٦٢/٢؛ ابن خلدون، تاريخ: ١٥٩/٤؛ ابن الأثير، الكامل في التاريخ: ٨٦/٥.

[٥] ابن الأثير، الكامل في التاريخ: ٨٩/٥؛ ابن خلدون، تاريخ: ١٥٩/٤.

[٦] ابن الأثير،الكامل في التاريخ:٨٩/٥؛ابن خلدون،تاريخ:١٥٩/٤؛ابن عذاري، البيان المغرب: ٦٣/٢.

حيث قتلوه، واحتزوا رأسه، وتقدموا به إلى أبي عثمان "فتحرك إلى سرقسطة، فلم يمتنع عليه أحد من أهلها، ودخل المدينة، فنزلها، وبعث برأس مطروح إلى الأمير هشام"[١].

استقر الأمر في الأندلس للأمير هشام بعد قضائه على الثائرين عليه، وظلت الأوضاع الداخلية هادئة حتى سنة ١٧٨هـ/٧٩٤م حيث خالف البربر في تاكرنا، وأهاجوا فتنة عارمة فيها، وهاجموا إقليم رُندة كله، وقتلوا كثيرين من سكانه العرب[٢]. "وأظهروا الفساد وأغاروا على البلاد، وقطعوا الطريق"[٣]. فوجه إليهم الأمير هشام جيشاً كثيفاً بقيادة عبد القادر بن أبان بن عبد الله مولى معاوية بن أبي سفيان[٤] الذي أعمل فيهم السيف، وقتل أكثرهم، وفر من نجا منهم إلى طلبيرة (Talavera) وترجالة (Trujillo) وذابوا بين سكانهما[٥]. ولكثرة ما لحق بتاكرنا من دمار بسبب تلك الفتنة خلت من سكانها، وظلت قفراً نحو سبع سنوات[٦].

وهكذا فقد انشغل الأمير الأموي هشام الرضى فترات طويلة من سني حكمه في استنزال العصاة، والقضاء على الفتنة، إلا أن ذلك لم يحل دون قيامه بالعمران، والجهاد ضد النصارى، والعمل على نشر الإسلام في الأصقاع التي خلت منه بسبب الأحداث السابقة التي مرت على الأندلس. فقد جدد بناء القنطرة على نهر الوادي الكبير "فأحكم بناءها إلى الغاية"[٧]. كما أكمل بناء المسجد الجامع في قرطبة الذي كان والده الأمير عبد الرحمن الداخل قد شرع في بنائه[٨].

---

(١) ابن عذاري،البيان المغرب:٦٣/٢؛ابن الأثير،الكامل في التاريخ:٨٩/٥؛ ابن خلدون، تاريخ: ١٥٩/٤.

(٢) ابن عذاري،البيان المغرب:٦٤/٢؛ابن الأثير،الكامل في التاريخ:٩٩/٥؛ ابن خلدون، تاريخ: ١٦٠/٤.

(٣) ابن الأثير، الكامل في التاريخ: ٩٩/٥.

(٤) المصدر نفسه: ٩٩/٥؛ ابن خلدون، تاريخ: ١٦٠/٤.

(٥) ابن عذاري،البيان المغرب:٦٤/٢؛ابن الأثير،الكامل في التاريخ:٩٩/٥؛ ابن خلدون، تاريخ: ١٦٠/٤.

(٦) ابن عذاري،البيان المغرب:٦٤/٢؛ابن الأثير،الكامل في التاريخ:٩٩/٥؛ ابن خلدون، تاريخ: ١٦٠/٤.

(٧) المقري، نفح الطيب: ٣٣٨/١؛ وانظر: ابن القوطية، تاريخ افتتاح الأندلس: ٦٥؛ ابن عذاري، البيان المغرب: ٦٦/٢. ويذكر ابن عذاري أنه أنفق في إصلاحها أموالاً عظيمة، وتولى بناءها بنفسه.

(٨) المقري، نفح الطيب: ٣٣٨/١؛ ابن القوطية، تاريخ افتتاح الأندلس: ٦٥؛ ابن عذاري، البيان المغرب: ٦٦/٢.

جهاده:

كان الأمير الأموي هشام الرضى – كما يصفه المقري – "من أهل الخير والصلاح، كثير الغزو والجهاد"(١)، ولذلك فإنه لم يضع أي فرصة ليتمكن خلالها من القيام بهذا الواجب، ففي سنة ١٧٥هـ/٧٩١م قصد ألبة والقلاع* (Alava y Castilla La Vieja) "فلقي العدو، وظفر بهم، وفتح الله عليهم"(٢). وفي السنة نفسها سار أبو عثمان عبيد الله بن عثمان – بعد أن فرغ من مطروح – إلى ألبة والقلاع أيضاً "فلقيه العدو، فظفر بهم وقتل منهم خلقاً كثيراً"(٣). كما أرسل الأمير الأموي هشام الرضى قائده يوسف بن بخت إلى جليقية وأشتريس، والتقى هذا الجيش بجيش ملك أشتريس على نهر بوربيا (Burbia). وقد تمكن القائد ابن بخت من إلحاق الهزيمة بالملك برموندو الكبير Vermundo I، وقتل أعداداً كبيرة من النصارى(٤). ويذكر ابن عذاري الذي جعل هذه الحملة في سنة ١٧٦هـ/٧٩٢م أن ابن بخت قتل من النصارى عشرة آلاف "سوى من لم يتمكن منه ممن قُتل في الوعر"(٥).

وتلاحقت الحملات الجهادية ضد النصارى في عهد الأمير هشام، ففي سنة ١٧٦هـ/٧٩٢م جهز جيشاً كبيراً بقيادة وزيره عبد الملك بن عبد الواحد بن مغيث لقتال النصارى في ألبة والقلاع "فأثخن في نواحيها"(٦). وكان ملك أشتريس برموندو الكبير قد توفي وخلفه ألفونسو الثاني (Alfonso II) الملقب بالعفيف، والذي دام حكمه نحو خمسين سنة (٧٩١-٨٤٢م)، ونقل عاصمته إلى أُبيط (Oviedo). وقد نشبت حروب طويلة ومريرة بين المسلمين وبين ألفونسو الثاني، فقد توجه القائد عبد الملك بن مغيث على رأس جيشه

---

(١) المقري، نفح الطيب: ٣٣٨/١.

* القلاع هي: قشتالة القديمة. وألبة والقلاع تقعان بين نبرة وليون شمال نهر إيبره.

(٢) المقري، نفح الطيب: ٣٣٧/١؛ وانظر: ابن خلدون، تاريخ: ١٥٩/٤.

(٣) ابن الأثير، الكامل في التاريخ: ٨٩/٥.

(٤) المقري، نفح الطيب: ٣٣٧/١؛ ابن الأثير، الكامل في التاريخ: ٨٩/٥؛ ابن خلدون، تاريخ: ١٥٩/٤.

(٥) ابن عذاري، البيان المغرب: ٦٣/٢-٦٤.

(٦) المقري، نفح الطيب: ٣٣٧/١؛ وانظر: ابن خلدون، تاريخ: ١٥٩/٤.

لمحاربته أيضاً في سنة ١٧٧هـ/٧٩٣م[1]. وقد اكتسح هذا الجيش حشود النصارى أمامه، ووصل إلى أربونة وجرندة التي كان النصارى قد استولوا عليها سنة ١٦٩هـ/٧٨٥م[2]. وقد توغل عبد الملك على رأس هذه الحملة "في بلاد الكفار وهزمهم"[3].

وتذكر المصادر أن عبد الملك عندما بلغ جرندة – وكانت بها حامية نصرانية – "قتل رجالها وهدم أسوارها وأبراجها، وأشرف على فتحها"[4]. ولكنه لم يتمكن من ذلك، فرحل عنها إلى أربونة ففعل مثلما فعل في جرندة، ثم "وطئ أرض شرطانية فاستباح حريمها، وقتل مقاتليها، وجاس البلاد شهوراً يخرب الحصون ويحرق ويغنم"[5]. ويذكر ابن عذاري أن خُمس ما غنمه المسلمون في هذه الحملة بلغ "خمسة وأربعين ألفاً من الذهب العين"[6]. ويذكر المقري أن أربونة فتحت في أيام الأمير هشام الذي "اشترط على المعاهدين من أهل جليقية من صعاب شروطه انتقال عدد من أحمال التراب من سور أربونة المفتتحة يحملونها إلى باب قصره بقرطبة، وبنى منه المسجد الذي قُدّام باب الجنان، وفضلت منه فضلة بقيت مكوّمة"[7].

واستأنف الأمير هشام الحملات العسكرية ضد النصارى في سنة ١٧٨هـ/٧٩٤م، وقد وجه هذه المرة جيشين في وقت واحد، أحدهما بقيادة عبد الكريم بن عبد الواحد إلى ألبة والقلاع، والثاني بقيادة عبد الملك بن عبد الواحد إلى بلاد جليقية[8]. وقد نجح عبد الكريم، إذ "غنم وسلم"[9]. وأما عبد الملك فقد انتهى إلى أسترقة (Astorga) "فخرب

(1) ابن عذاري، البيان المغرب: ٦٤/٢؛ ابن الأثير، الكامل في التاريخ: ٩٤/٥.

(2) ابن خلدون، تاريخ: ١٦٠/٤؛ ابن عذاري، البيان المغرب: ٦٤/٢؛ ابن الأثير، الكامل في التاريخ: ٩٤/٥؛ المقري، نفح الطيب: ٣٣٧/١.

(3) المقري، نفح الطيب: ٣٣٧/١-٣٣٨.

(4) ابن الأثير، الكامل في التاريخ: ٩٤/٥.

(5) المصدر نفسه: ٩٤/٥؛ وانظر: ابن عذاري، البيان المغرب: ٦٤/٢.

(6) ابن عذاري، البيان المغرب: ٦٤/٢.

(7) المقري، نفح الطيب: ٣٣٧/١.

(8) ابن الأثير، الكامل في التاريخ: ٩٩/٥؛ المقري، نفح الطيب: ٣٣٨/١.

(9) ابن الأثير، الكامل في التاريخ: ٩٩/٥.

دار ملكهم (ألفونسو الثاني) وكنائسه وغنم"[1]. وعندما عاد بقواته ضلّ الطريق، فنالت المسلمين (مشقة شديدة، ومات منهم بشر كثير، ونفقت دوابهم، وتلفت آلاتهم، ثم سلموا وعادوا"[2].

وكانت آخر حملة وجهها الأمير هشام لقتال النصارى في سنة ١٧٩هـ/٧٩٥م[3]، وكانت هذه الحملة بقيادة عبد الملك بن عبد الواحد بن مغيث، وكانت وجهتها جليقية، وقد تمكن هذا الجيش من اختراق المنطقة، والوصول إلى أسترقة وفتحها. ولم يصمد ألفونسو الثاني أمامه، وإنما تراجع إلى الشمال، وطلب المدد من البشكنس، كما حشد "أهل تلك النواحي التي تليه من المجوس وغيرهم"[4]. وعلى الرغم من أنه تمكن من جمع جيش كبير إلا أنه تردد في البداية في لقاء المسلمين[5]. ثم لم يلبث أن عسكر "ما بين حيّز جليقية والصخرة، ...وأذن لسكان السهل بالتفرق في شواهق جبال السواحل"[6]. إلا أن عبد الملك لم يتح له فرصة الاستعداد والهجوم، إذ بادره بذلك فانهزم ألفونسو الثاني "وتبعهم عبد الملك يقفو أثرهم، ويهلك كل من تخلف منهم، فدوّخ بلادهم، وأوغل فيها، وأقام فيها يغنم ويقتل ويخرّب"[7].

وبينما كان عبد الملك بن عبد الواحد بن مغيث يصول ويجول في بلاد جليقية أرسل الأمير هشام جيشاً آخر ربما كان بقيادة عبد الكريم بن عبد الواحد بن مغيث، الذي

---

[1] ابن الأثير، الكامل في التاريخ: ٩٩/٥.

[2] المصدر نفسه: ٩٩/٥.

[3] ابن عذاري، البيان المغرب: ٦٤/٢؛ ابن الأثير، الكامل في التاريخ: ٩٩/٥؛ ابن خلدون، تاريخ: ١٦٠/٤.

[4] ابن عذاري، البيان المغرب: ٦٤/٢؛ وانظر: ابن الأثير، الكامل في التاريخ: ١٠٠/٥؛ المقري، نفح الطيب: ٣٣٨/١.

[5] المقري، نفح الطيب: ٣٣٨/١.

[6] ابن عذاري، البيان المغرب: ٦٤/٢.

[7] ابن الأثير، الكامل في التاريخ: ١٠٠/٥؛ وانظر: ابن عذاري، البيان المغرب: ٦٤/٢.

تقدم "على ميعاد من عبد الملك"[1]. وقد تقدمت هذه الجيوش لملاقاة ألفونسو الثاني، فامتنع في حصن على وادي نلون (Nalon) فحاصرته الجيوش، مما اضطره إلى الفرار إلى حصن آخر تبعه المسلمون إليه، وأخرجوه منه، واستولوا على ذلك الحصن، وغنموا ما فيه. ثم طاردت ألفونسو الثاني فرقة من عشرة آلاف فارس من المسلمين تمكن من إلحاق الهزيمة به[2]. وبعد تحقيق هذه الانتصارات انسحب المسلمون غانمين، ولكنهم في أثناء انسحابهم تعرضوا لبعض الكمائن النصرانية التي تمكنت من قتل عدد منهم "ثم تخلصوا وسلموا وعادوا سالمين سوى من قُتل منهم"[3].

ولم يمهل الموت الأمير هشام بن عبد الرحمن (الرضى) طويلاً، فقد توفي في صفر سنة ١٨٠هـ/٧٩٦م[4] عن نحو تسع وثلاثين سنة بعد أن حكم الأندلس حوال ثماني سنوات[5]. "وبلغ من عز الإسلام في أيامه وذل الكفر أن رجلاً مات في أيامه وكان وصّى أن يفك أسير من المسلمين من تركته، فطلب ذلك، فلم يوجد في دار الكفار أسير يشترى ويفك لضعف العدو، وقوة المسلمين"[6].

---

[1] ابن الأثير، الكامل في التاريخ: ١٠٠/٥؛ وانظر: المقري، نفح الطيب: ٣٣٨/١؛ ابن خلدون، تاريخ: ١٦٠/٤؛ ابن عذاري، البيان المغرب: ٦٤/٢.

[2] ابن عذاري، البيان المغرب: ٦٤/٢-٦٥؛ المقري، نفح الطيب: ٣٣٨/١.

[3] ابن الأثير، الكامل في التاريخ: ١٠٠/٥-١٠١؛ ابن خلدون، تاريخ: ١٦٠/٤؛ المقري، نفح الطيب: ٣٣٨/١.

[4] ابن الأثير، الكامل في التاريخ: ١٠١/٥؛ المقري، نفح الطيب: ٣٣٨/١؛ ابن عذاري، البيان المغرب: ٦٥/٢.

[5] ابن الأثير، الكامل في التاريخ: ١٠١/٥؛ المقري، نفح الطيب: ٣٣٨/١؛ ابن خلدون، تاريخ: ١٦٠/٤؛ وانظر: ابن الكردبوس، تاريخ الأندلس: ٥٧.

[6] ابن الأثير، الكامل في التاريخ: ١٠١/٥.

٣. الحكم بن هشام (الربضي)* (١٨٠-٢٠٦هـ/٧٩٦-٨٢١م):

بويع الحكم بعد وفاة أبيه بليلة، وكان ذلك "يوم الخميس لثمان خلون من صفر سنة ١٨٠هـ/٧٩٦م وهو ابن ست وعشرين سنة"[١]. فعندما تولى الحكم كان شاباً في مقتبل العمر مع كل ما يعنيه ذلك من اندفاع يلازمه الطيش، وشجاعة تبلغ حد التهور. وقد أوردت له المصادر صفات متناقضة تدل سيرته على أنها كلها صحيحة، فهو صارم حازم[٢]، وكان أيضاً "جميل السيرة في رعيته، متخيّراً لحكامه وعماله، مؤمناً للسبل، متكرراً بالجهاد"[٣]. كما كان "طاغياً مسرفاً، وله آثار سوء قبيحة"[٤]. ومع نجدته وعزة نفسه كان "متواضعاً للحق، منقاداً للإنصاف من نفسه"[٥].

وكان الحكم أول من استكثر من المماليك بالأندلس، وارتبط الخيل ببابه، وتشبه بالجبابرة[٦]. وكان يباشر الأمور بنفسه[٧]. وقد قامت في عهده ثورات متلاحقة وفتن تمكن من إخمادها. كما أنه قاد الجيوش وحارب النصارى وسجل ضدهم صفحات ناصعة من الجهاد. وبذلك فقد تميز عهد الحكم بأحداث بارزة، لعل أشهرها وقعة الربض بقرطبة، ووقعة الحفرة بطليطلة، وخروج عميه: سليمان وعبد الله البلنسي ابني عبد الرحمن الداخل ضده ومحاربته لهما ولغيرهما من الذين خلعوا طاعته. هذا إضافة إلى حركة الجهاد التي قادها ضد النصارى الذين حاولوا التغلغل في الأندلس مستغلين تلك الأحداث.

---

* ولد الحكم سنة ١٥٤هـ/٧٧٠م، وكنيته أبو العاص، وتلقب بالمنتصر، ولُقّب بالربضي. وأمه أم ولد اسمها: زخرف. انظر: المراكشي، المعجب: ١٠-١١؛ ابن عذاري، البيان المغرب: ٦٨/٢.

[١] ابن عذاري، البيان المغرب: ٦٨/٢.

[٢] ابن الأثير، الكامل في التاريخ: ١٠١/٥.

[٣] ابن القوطية، تاريخ افتتاح الأندلس: ٦٧.

[٤] المراكشي، المعجب: ١١.

[٥] مجهول، أخبار مجموعة: ١٢٤.

[٦] ابن الأثير، الكامل في التاريخ: ١٠١/٥؛ ابن خلدون، تاريخ: ١٦٠/٤؛ المقري، نفح الطيب: ٣٣٨/١-٣٣٩.

[٧] ابن الأثير، الكامل في التاريخ: ١٠١/٥؛ ابن خلدون، تاريخ: ١٦٠/٤.

الثورات في عهده:

عاد عبد الله البلنسي عندما علم بوفاة أخيه هشام إلى الأندلس قادماً من منفاه في المغرب، وتوجه إلى بلنسية في ريف الأندلس[1]. ويبدو أنه حاول تأليب المسلمين هناك ضد ابن أخيه الحكم مستهدفاً الإطاحة به، وتولّي الأمر مكانه، ولكنه لم يتمكن من حشد الجموع التي تمكّنه من تحقيق غايته، فتوجه إلى سرقسطة حيث حلّ عند بهلول بن مرزوق المعروف بأبي الحجاج الذي ثار على الأمير الحكم سنة ١٨١هـ/٧٩٧م. ولم يكن في نيته الإقامة هناك، وإنما "كانت وجهته إلى إفرنجة"[2] لطلب المساعدة من شارلمان في مهاجمة الأندلس، ومن ثم معاونته في الاستيلاء على حكمها. ولكن شارلمان لم يكن في تلك الظروف مستعداً لتقديم هذا العون، مما اضطر البلنسي للعودة إلى سرقسطة. وقد استولى في طريقه إليها على حصن وشقة وذلك سنة ١٨٤هـ/٨٠٠م[3]. وكان البلنسي ينوي الإقامة في سرقسطة غير أن بهلول بن مرزوق الثائر فيها أخرجه من المدينة، فعاد أدراجه إلى بلنسية حيث يوجد بعض مؤيديه وأنصاره. ثم لم يلبث البلنسي أن جنح إلى مهادنة ابن أخيه الحكم، وخاصة بعد أن أخرج إليه الحكم أماناً في سنة ١٨٦هـ/٨٠٢م "وهو أول خروج كان إليه، وأول مكاتبة كانت بين الحكم وبينه بعد حلوله ببلنسية"[4]. وقد أسفرت المكاتبات بين البلنسي والحكم عن عقد الصلح بين الطرفين الذي كان من أهم نتائجه أن كفّ البلنسي عن الفتنة[5].

وفي سنة ١٨٧هـ/٨٠٣م أجرى الحكم على عمه عبد الله البلنسي الأرزاق، إذ خصص له ألف دينار في كل شهر، وألف دينار في كل عام مشترطاً عليه الإقامة في بلنسية لا يبرحها. كما استقدم الحكم ابني عبد الله، وزوج أحدهما شقيقته[6]. وهكذا سكنت الفتنة التي حاول عبد الله بن عبد الرحمن بن معاوية إثارتها، واستقر في بلنسية، فعرف بالبلنسي.

---

[1] ابن عذاري،البيان المغرب:٢/٦٩؛ابن الأثير،الكامل في التاريخ:٥/١٠٢؛ابن خلدون،تاريخ: ٤/١٦١.

[2] ابن عذاري، البيان المغرب: ٢/٦٩؛ وانظر: ابن خلدون، تاريخ: ٤/١٦١.

[3] ابن الأثير، الكامل في التاريخ: ٥/١٠٩؛ سالم، تاريخ المسلمين وآثارهم في الأندلس: ٢٢٠-٢٢١.

[4] ابن عذاري، البيان المغرب: ٢/٧٠؛ وانظر: ابن الأثير، الكامل في التاريخ: ٥/١٠٢.

[5] ابن الأثير، الكامل في التاريخ: ٥/١٠٢.

[6] ابن عذاري،البيان المغرب:٢/٧١؛ابن الأثير،الكامل في التاريخ:٥/١٠٢؛ابن خلدون،تاريخ:٤/١٦١.

وأما عم الحكم: سليمان بن عبد الرحمن بن معاوية فقد دخل الأندلس قادماً من منفاه في طنجة بالمغرب سنة ١٨٢هـ/٧٩٨م[١]، وكان عند دخوله يبيّت الشر، وليس بمستبعد أنه أحضر معه جموعاً من بربر إفريقية "وتقدم متعرضاً لحرب الحكم"[٢]، وذلك في شوال من تلك السنة[٣]. وحاول شق طريقه إلى قرطبة، إلا أنه التقى مع ابن أخيه الحكم في حرب شديدة انهزم سليمان على أثرها. ومع ذلك عاود مهاجمة الحكم مرة أخرى في العام نفسه وهُزم للمرة الثانية[٤]. وظلت الحرب سجالاً بين الحكم وعمّه، ففي سنة ١٨٣هـ/٧٩٩م "خرج سليمان ومعه من برابر اجتمعوا إليه إلى ناحية إستجة، فغزاه الحكم، والتقيا بمقربة من إستجة، فدارت بينهم حروب شديدة أياماً، ثم انهزم سليمان بمن كان معه"[٥].

وكانت أكثر المعارك خطورة بين الحكم وعمه ما وقع في سنة ١٨٤هـ/٨٠٠م، ففي هذه السنة حشد سليمان جموعاً كبيرة من شرقي الأندلس، واستولى على جيان وإلبيرة، ثم انضم إليه كثيرون من الكورتين "والتقى معه الحكم، فدام القتال بينهم أياماً حتى همّ الحكم بالهزيمة، ثم انهزم سليمان"[٦]، وتمكن من النجاة. وقد قُتل في هذه الحرب عدد كبير من الطرفين[٧].

لجأ سليمان بن عبد الرحمن بن معاوية بعد نجاته إلى ماردة، فطارده الحكم، إذ أرسل خلفه أصبغ بن عبد الله "فلحق بجهة ماردة، وأخذه أسيراً، وأتى به إلى الحكم، فأمر بقتله"[٨]. وبذلك تخلص من فتنته.

---

(١) ابن عذاري، البيان المغرب: ٢/٧٠-٧١؛ وانظر: ابن الأثير، الكامل في التاريخ: ٥/١٠٢؛ ابن خلدون، تاريخ: ٤/١٦١.

(٢) ابن عذاري، البيان المغرب: ٢/٧٠.

(٣) المصدر نفسه: ٢/٧٠.

(٤) المصدر نفسه: ٢/٧٠.

(٥) المصدر نفسه: ٢/٧٠.

(٦) المصدر نفسه: ٢/٧٠.

(٧) المصدر نفسه: ٢/٧٠.

(٨) ابن عذاري،البيان المغرب:٢/٧٠؛ابن الأثير،الكامل في التاريخ:٥/١٠٢؛ابن خلدون،تاريخ: ٤/١٦١.

أما الثائرون الآخرون على الحكم فكان في مقدمتهم بهلول بن مرزوق الذي دخل سرقسطة وملكها سنة ١٨١هـ/٧٩٧م[١]. وهذه الثورة لم تشر المصادر إلى كيفية التصدي لها من قبل الحكم أو إلى كيفية إنهائها، غير أن ابن القوطية يذكر أن الأندلس أذعنت كلها بالطاعة للحكم "ولم يختلف عليه فيها مختلف حاشى بني قسي في الثغر الأعلى، فإنهم بقوا على عنادهم"[٢]. ومن المرجح أن الحكم قضى على ثورة بهلول سنة ١٨٦هـ/٨٠٢م[٣]. وقبل تناول خلاف بني قسي وغيرهم، لا بدّ من الإشارة هنا إلى ثورة أخرى هيّجها أصبغ بن عبد الله بن وانوس في ماردة، بعد أن كان القائد الذي يعتمد عليه الحكم، وهو الذي قبض على عمه سليمان في ماردة، وأرسله إليه[٤]. "وكان سبب ثورته أن عدواً لأصبغ طالبه عند الحكم وأغراه عليه. ثم مشى إلى أصبغ بمثل ذلك، وروّعه منه، فتوقع العقوبة والسطوة به. فكان ذلك سبب دخول ماردة، وقيامه بها"[٥]. وقد بدأت حرب الحكم ضده في سنة ١٩٠هـ/٨٠٥م، حيث حاصره فيها، إلا أنه اضطر إلى فك الحصار والعودة مسرعاً إلى قرطبة لأن سواد أهلها "أعلنوا بالنفاق، وتداعوا إلى صاحب السوق بالسلاح،...فصدر قافلاً، وطوى المراحل، وقطع الطريق في ثلاثة أيام، ودخل القصر، فهدأ الناس، وسكنت الأحوال"[٦]. ثم أعاد الحكم الكرة على ماردة، وظل يخرج إليها الجيوش على مدار سبع سنوات متواصلة، وفي العام السابع طلب أصبغ الأمان فأُمّن "وخرج من ماردة، وصار في مصف الحكم، فسكن قرطبة"[٧].

---

(١) ابن خلدون، تاريخ: ١٦١/٤؛ ابن عذاري، البيان المغرب: ٦٩/٢؛ ابن الأثير، الكامل في التاريخ: ١٠٥/٥.

(٢) ابن القوطية، تاريخ افتتاح الأندلس: ٧٤.

(٣) سالم، تاريخ المسلمين وآثارهم في الأندلس: ٢٢٥.

(٤) ابن عذاري، البيان المغرب: ٧٠/٢.

(٥) المصدر نفسه: ٧٢/٢.

(٦) المصدر نفسه: ٧٢/٢.

(٧) المصدر نفسه: ٧٢/٢.

وقعة الحفرة بطليطلة (١٨١هـ/٧٩٧م):

كان الحكم مستعداً لقمع المخالفين والعصاة، فهو لم يترك معالجة المواقف الصعبة لظروفها، وإنما حسب حسابها مقدماً، وأعد فرقة للطوارئ تحتفظ بجاهزية عالية، وتتألف هذه الفرقة من ألفي فرس[١]، كانت ترابط على باب قصره الجنوبي المطل على نهر الوادي الكبير. وكانت هذه الخيل "يجمعها داران على كل دار عشرة عرفاء تحت يد كل عريف مائة فرس، فالعرفاء يشرفون عليها وتعلف بين أيديهم، وينظرون في تعويض ما تعذّر منه لتكون معدّة قائمة لما عسى أن يفاجأ من أمر يفرع إليها بها، فإذا كانت حركة كانوا كنفس واحدة"[٢]. وقد أتاحت له هذه القوة القضاء على ثورات المولّدين* في طليطلة، وفي قرطبة من بعد.

وتتلخص أسباب وقعة الحفرة بطليطلة أن المولّدين شعروا بمضي الوقت أن حقوقهم مهضومة على الرغم من أنهم أصحاب البلاد السابقون، وأنهم يتحملون عبء المغارم دون أن يكون لهم نصيب في ثروات البلاد، وفي المناصب القيادية التي كانت تحتكرها الطبقة الحاكمة العربية. ولذلك أخذوا يتململون في عهد الحكم، ويستخفّون بعمّاله[٣]. وقد أجج الثورة في نفوسهم شاعر يدعى (غربيب الطليطلي) "وكان من أهل الحكمة والدهاء"[٤]، فقد أثار أحقادهم، وبث الحماس فيهم، ودعاهم إلى الاستقلال عن سلطان قرطبة، "فلم يطمع الحكم فيهم أيام غربيب"[٥]، لأنه استطاع أن يجعل من أهالي طليطلة حاجزاً يصعب اقتحامه.

---

(١) المقري، نفح الطيب: ٣٤٢/١؛ مجهول، أخبار مجموعة: ١٢٩.

(٢) مجهول، أخبار مجموعة: ١٢٩-١٣٠.

* المولّدون: هم الذين ولدوا من آباء مسلمين وأمهات إسبانيات، ونشأوا على الإسلام، فهم خليط من دم أهل البلاد السابقين ودم العرب والبربر الفاتحين. وقد نمت هذه الطبقة الاجتماعية الجديدة بسرعة كبيرة، وأصبحت تؤلف غالبية سكان الأندلس. فكان منهم التجار والمزارعون وأهل الحرف المختلفة والطلبة والفقهاء وغيرهم.

(٣) ابن القوطية، تاريخ افتتاح الأندلس: ٦٨؛ ابن خلدون، تاريخ: ١٦٢/٤.

(٤) ابن القوطية، تاريخ افتتاح الأندلس: ٦٨.

(٥) المصدر نفسه: ٦٨.

وبعد وفاة غربيب ثار في طليطلة عُبيدة بن حميد سنة ١٨١هـ/٧٩٧م(١)، وتفاقم الوضع فيها، ولذلك فكر في خطة محكمة تتيح له الإيقاع بأهلها، وإخماد حركاتهم المناوئة له. فكتب إلى عامله على طلبيرة (Talavera)، وهو من المولدين، وأصله من مدينة وشقة (Huesca)، يدعى: عمروس بن يوسف (Amorroz)، وأمره أن يحارب أهل طليطلة "فكان يكثر قتالهم وضيق عليهم"(٢). غير أن هذا التضييق لم يأت بالنتيجة التي يريدها الحكم، ولذلك قرر أن يأخذهم بالحيلة، ودبّر ذلك مع عمروس، فقد ولاّه على طليطلة "وكتب إلى أهلها كتاباً يخدعهم عن عقولهم، ويقول: إني اخترت لكم رجلاً من أهلكم وأعقابكم من موالينا، ومن يتصرف في عمالتنا"(٣).

ويبدو أن أهالي طليطلة لم يتقبلوا عمروس الذي كان منذ عهد قريب يقاتلهم، ويضيّق عليهم، ولذلك لم يجرؤ على الانتقال إلى طليطلة مع أنه أصبح والياً عليها، وإنما "كاتب رجالاً من أهل طليطلة، واستلطفهم حتى مالوا إليه، فدعاهم إلى القيام على عبيدة والفتك به، ووعدهم على ذلك بمثوبة جليلة من الأمير"(٤). واستجاب أولئك الرجال لعمروس، فقاموا على عبيدة وقتلوه، وتوجهوا برأسه إلى عمروس في طلبيرة(٥). وكان بين الرجال القادمين من طليطلة وبين بربر طلبيرة ثأر، ولذلك نهض البربر إلى الأخذ بثأرهم، فعندما جن الليل، اقتحموا دار عمروس حيث ينزل رجال طليطلة، وقتلوهم. "فبعث عمروس برأس عُبيدة، وبرؤوس المذكورين...إلى الحكم بقرطبة، وكتب إليه بخبرهم"(٦).

---

(١) ابن عذاري، البيان المغرب: ٦٩/٢؛ ابن الأثير، الكامل في التاريخ: ١٠٥/٥.

* مدينة من أعمال طليطلة.

(٢) ابن الأثير، الكامل في التاريخ: ١٠٥/٥؛ ابن خلدون، تاريخ: ١٦٢/٤؛ ابن عذاري، البيان المغرب: ٦٩/٢.

(٣) ابن القوطية، تاريخ افتتاح الأندلس: ٦٨؛ وانظر: ابن خلدون، تاريخ: ١٦٢/٤.

(٤) ابن عذاري، البيان المغرب: ٦٩/٢؛ وانظر: ابن خلدون، تاريخ: ١٦٢/٤.

(٥) ابن عذاري، البيان المغرب: ٦٩/٢؛ ابن الأثير، الكامل في التاريخ: ١٠٥/٥.

(٦) ابن عذاري، البيان المغرب: ٦٩/٢؛ ابن الأثير، الكامل في التاريخ: ١٠٥/٥.

ثم كاتب عمروس أهالي طليطلة، وظلّ يلاطفهم حتى أزال ما في نفوسهم من أحقاد ضده، ووافقوا على إدخاله المدينة[1]. وعند ذلك أخبر عمروس الحكم بموافقتهم، فبعث له الحكم بتفاصيل خطة الإيقاع بهم: "إذ أنس أهل طليطلة إليك، وأحلّوك محلّ واحد منهم بإظهارك لهم في الباطن إنهم أحب إليك من بني أمية، ومن كل من عرفتهم، وأنك على كراهة لجميعهم أن تقول إني رأيت هذا الشر الحادث بينكم وبين عمال السلطان، إنما هو بمداخلة الحشم لكم ولبنيكم ونسائكم، فكنتُ أرى أن أبني قصبة في جانب من المدينة يسكنها الحشم فيكونوا بمعزل عنكم، وتسلموا من شرّهم"[2]. فوافق أهالي طليطلة على رأيه، ولكنهم رغّبوا إليه أن تكون القصبة في وسط المدينة، وليس في جانبها[3]. واختار عمروس وأهالي طليطلة موقع القصبة أو القصر المنوي بناؤه على الجبل الذي عُرف فيما بعد بجبل عمروس[4].

بنى عمروس القصر "واستخرج ترابه من حفرة في وسطه، فلما أتم القصر، ورحل إليه وسكنه، أعلم الحكم بذلك"[5]. وكان الحكم ينتظر الانتهاء من بناء القصر لتنفيذ المرحلة الثانية من الخطة، فما إن تم بناؤه حتى كتب الحكم إلى بعض قواده في الثغر يأمره بأن يكتب إليه، أي إلى الحكم، بأن العدو يهمّ بمهاجمة الأندلس من تلك الناحية، وأن ذلك يقضي بالنفير استعداداً للجهاد، ورد العدو. وكان الهدف من ذلك أن يسمع أهالي طليطلة بأن الحكم منصرف عنهم إلى مشاغلة النصارى[6].

وجه الحكم جيشاً بقيادة ابنه عبد الرحمن، وكان ولداً لم يتجاوز عمره الرابعة عشرة، وأرسل معه ثلاثة من وزرائه، ووجه مع أحدهم كتاباً إلى عمروس. ووصل هذا

---

[1] ابن عذاري، البيان المغرب: ٦٩/٢.

[2] ابن القوطية، تاريخ افتتاح الأندلس: ٦٨-٦٩.

[3] المصدر نفسه: ٦٩.

[4] المصدر نفسه: ٦٩.

[5] ابن القوطية، تاريخ افتتاح الأندلس: ٦٩؛ وانظر: ابن عذاري، البيان المغرب: ٦٩/٢، حيث يذكر أنه بنى القصر على باب جسر طليطلة "فأحكمه وأتقن أمره".

[6] ابن القوطية، تاريخ افتتاح الأندلس: ٦٩؛ ابن خلدون، تاريخ: ١٦٢/٤.

الجيش إلى موضع يعرف بالجيّارين قرب طليطلة[1] في طريقه لخوض الحرب (المزعومة) ضد النصارى، ولما وصل إلى ذلك المكان، وردت الأنباء من الجبهة – حسب الخطة المرسومة – أن العدو عدل عن الهجوم، وانصرف[2]. وحرص كل من الحكم وابنه عبد الرحمن وكذلك عمروس على أن يكون أهالي طليطلة مطلعين على تفاصيل الأنباء والتحركات تمهيداً لتحقيق الهدف المنشود. وأوهم عبد الرحمن أهالي طليطلة بأنه عازم على العودة إلى قرطبة وقد زال خطر الأعداء، وعندئذ نفذ عمروس الجزء الأخير من الخطة الذي وردت تفاصيله في كتاب الحكم إليه. فقد جمع زعماء طليطلة، ووجهاءها، وتباحث معهم في ضرورة القيام بالواجب تجاه عبد الرحمن والوزراء إكراماً للحكم، فوافقوا على القيام بزيارة مجاملة، ولما وصلوا إلى عبد الرحمن "بسط لهم من حسن رأيه ما أنسوا إليه"[3]، وبالغ في إكرامهم حتى اطمأنوا إلى أنه لا يمكن أن يكون ممن يريدون بهم الشر[4].

ثم زيّن عمروس لأهالي طليطلة أن يدخلوا عبد الرحمن المدينة "ليكرمهم بذلك، وليكونوا من خواصه"[5]. فعزموا عليه أن يدخلها، إلا أنه تردد في البداية، وظل يتمنع وهم يلحّون حتى استجاب لهم، ودخل القصر الذي بناه عمروس، وكان له بابان[6].

وفي اليوم الثاني من دخول عبد الرحمن بن الحكم قصر عمروس في طليطلة أمر بإعداد وليمة كبيرة، دعا إليها وجوه طليطلة وزعماءها وكبار رجالها "وأُمروا بالدخول من باب، وصرفت دوابهم إلى الباب الثاني ليخرجوا منه، ووقف السيافون على شفير الحفرة، وكل من دخل ضربت رقبته"[7] إلى أن قتل معظمهم[8]. ويذكر ابن عذاري أن

---

(1) ابن القوطية، تاريخ افتتاح الأندلس: ٦٩.

(2) المصدر نفسه: ٦٩؛ وانظر: ابن خلدون، تاريخ: ١٦٢/٤.

(3) ابن القوطية، تاريخ افتتاح الأندلس: ٦٩-٧٠.

(4) ابن خلدون، تاريخ: ١٦٤/٤.

(5) ابن القوطية، تاريخ افتتاح الأندلس: ٧٠.

(6) المصدر نفسه: ٧٠.

(7) المصدر نفسه: ٧٠؛ وانظر: ابن خلدون، تاريخ: ١٦٢/٤؛ ابن عذاري، البيان المغرب: ٦٩/٢-٧٠.

(8) ابن خلدون، تاريخ: ١٦٢/٤.

عدد الذين قتلوا من أشراف أهالي طليطلة بلغ سبعمائة[1]، بينما يذكر ابن القوطية أنه بلغ خمسة آلاف وثلاثمائة ونيف[2]. والأرجح ما أورده ابن عذاري.

وكان يمكن لوقعة الحفرة أن تأتي على جميع أشراف طليطلة لولا أن حكيماً من أهلها فطن إلى ما يدبر ضدهم، فصرخ فيهم: "يا أهل طليطلة السيف والله يعمل فيكم..فكان قوله سبب افتراق الناس، وبقاء من بقي منهم"[3]. وتحققت النتيجة التي أرادها الحكم من هذه الوقعة، فقد حسنت طاعة أهالي طليطلة بقية أيام الحكم، وأيام ابنه عبد الرحمن[4]. ومع ذلك ظل الحكم مشحوناً ضدهم، يتحين الفرص لتلقينهم درساً بليغاً حتى لا يفكروا بالعصيان مرة أخرى. ولذلك أظهر في سنة ١٩٩هـ/٨١٤م أنه متوجه إلى بلاد المشركين للجهاد "فنزل تدمير، واضطرب فيها، ونازل بعض حصونها. وكتب إلى عمال الثغر بنزوله فيها وحربه لها، فأمن أهل طليطلة"[5]. وعندما أمنوا واطمأنوا انتشروا في السهول، واهتموا بشؤونهم الزراعية خارج طليطلة، فاستغل الحكم فرصة انشغالهم خارجها فداهمها ليلاً حيث دخلها "وأهلها في غفلة، وأبوابها مفتحة. وتتابع العسكر عليه بمقدار قوة كل أحد. فملكها، وحال بين أهلها وبينها، وقطع الخروج عمّن كان بها إلى من كان بخارجها، فاستوثق له ملكها دون مؤونة ولا قتال"[6].

---

(1) ابن عذاري، البيان المغرب: ٢/٧٠.

(2) ابن القوطية، تاريخ افتتاح الأندلس: ٧٠.

(3) المصدر نفسه: ٧١.

(4) ابن خلدون، تاريخ: ٤/١٦٢؛ ابن القوطية، تاريخ افتتاح الأندلس: ٧١.

(5) ابن عذاري، البيان المغرب: ٢/٧٤.

(6) ابن عذاري، البيان المغرب: ٢/٧٤؛ ولمزيد من التفاصيل عن وقعة الحفرة بطليطلة انظر: ابن الأثير، الكامل في التاريخ: ٥: ٥/١٢٤-١٢٥ حيث يوردها في أحداث سنة ١٩١هـ/٨٠٦م.

وقعة الربض* (١٨٩-٢٠٢هـ/٨٠٤-٨١٨م):

كان الحكم من المجاهرين بالمعاصي، فقد بدأ حكمه وهو شاب مرح مولع بحفلات الرقص والغناء، ومجالسة الشعراء والندماء، منهمك في الملذات[١]، وهي صفات لم يعهدها أهل قرطبة في الأمراء من بني أمية، وخاصة أن عهدهم قريب بهشام بن عبد الرحمن الذي اعتادوا منه حياة الجد، والتمسك بالعروة الوثقى، والعدل الأقرب إلى الكمال، مما جعل الرعية تشبهه بعمر بن عبد العزيز.

وكانت قرطبة تعج بالفقهاء والشيوخ الذين قربهم الأمير الأموي السابق هشام، ونالوا حظوة لديه، ونفوذاً في الأندلس على مختلف المستويات. وقد أنكر هؤلاء الفقهاء ما توفر عليه الحكم من صفات، وخاصة أنه حرمهم من نفوذهم السابق[٢]، فأخذوا يعملون على خلعه "وكانوا شوكة عسكره، وعظما أهل بلدته"[٣].

استغل الفقهاء نفوذهم في أوساط الناس، وأخذوا يظهرون التبرّم بالحكم، ويؤلّبون العامة ضده. "وفي أيامه أحدث الفقهاء إنشاد أشعار الزهد، والحضّ على قيام الليل في ...صوامع المساجد، وأمروا أن يخلطوا مع ذلك شيئاً من التعريض به مثل أن يقولوا: يا أيها المسرف المتمادي في طغيانه، المصر على كبره، المتهاون بأمر ربه، أفق من سكرتك، وتنبه من غفلتك"[٤]. ثم اجتمع الفقهاء، ومنهم: يحيى بن يحيى الليثي

---

* الربض تعني الضاحية أو الحي، وجمعها: أرباض. والربض المقصود هنا هو الحي الجنوبي من أحياء قرطبة الذي امتد بعد إنشاء القنطرة على نهر الوادي الكبير إلى ضفته الأخرى المواجهة للمدينة. وقد امتد هذا الحي من ضفة النهر جنوباً حتى بلدة شقندة. وكان هذا الحي مكتظاً بالسكان وخاصة: التجار وأهل الحرف والطلبة والفقهاء، ومعظمهم من المولدين الذين سكنوه لقربه من أماكن أعمالهم في قرطبة. وقد أصبح لفظ الربض علماً على هذا الحي بعد الثورة التي قامت فيه. فهو معروف حتى اليوم باسم: (Arrabal).

[١] المراكشي، المعجب: ١١؛ المقري، نفح الطيب: ٣٤٢/١؛ ابن الأثير، الكامل في التاريخ: ١١٩/٥.

[٢] ابن القوطية، تاريخ افتتاح الأندلس: ٧٢؛ ابن عذاري، البيان المغرب: ٧١/٢.

[٣] مجهول، أخبار مجموعة: ١٣٠.

[٤] المراكشي، المعجب: ١١.

"صاحب مالك، وأحد رواة الموطأ عنه"[1]، وطالوت بن عبد الجبار ، وأبو كعب بن عبد البر، ومسرور الخادم، وموسى بن سالم الخولاني، ويحيى بن نصر اليحصبي وغيرهم[2]، وقرروا خلع الحكم بعد أن اتفقوا على بديل له هو: محمد بن القاسم[3]، وهو ابن عم للحكم يُعرف بابن الشماس من ولد منذر بن عبد الرحمن بن معاوية[4]. وبلغ بهم الأمر أن أخذوا البيعة لابن القاسم "وعرّفوه أن الناس قد ارتضوه كافة"[5].

أوهم ابن الشماس محمد بن القاسم الفقهاء الذين اختاروه أنه يوافقهم الرأي، وطلب منهم أن يعرفوه بغيرهم من المنادين بخلع الحكم وتوليته، فوعدوه بذلك. ثم طلب منهم أن لا يعلنوا ما عزموا عليه "ليرى رأيه، ويستخير الله سبحانه وتعالى، فانصرفوا"[6]. وقام الحكم بعد انصرافهم إلى الحكم فأفشى سرّهم، وتقرب إلى الحكم بدمائهم، وأعلمه أنه على بيعته، وأنه لن يخذله. وكان ابن الشماس يقيم في الربض الغربي من أرباض قرطبة في محلة متصلة بقصر الحكم[7].

وما من شك في أن خروج الفقهاء على طاعة الحكم، وقيامهم بخلعه ومبايعة أمير عوضاً عنه كان من الأمور التي تفقد الصواب، وتذهب بالعقل. ومع ذلك لم يكن رد فعل الحكم فورياً أو مباشراً، وإنما عمل على التثبت من صحة ما نُقل إليه، قبل أن يتخذ

---

[1] المقري، نفح الطيب: ٣٣٩/١.

* يذكر المراكشي أنه كان جليل القدر في الفقهاء، رحل إلى المدينة المنورة، وسمع من مالك بن أنس، وتفقه على أصحابه، وكان قوياً في دينه. انظر: المعجب: ١١.

[2] انظر: المقري، نفح الطيب: ٣٣٩/١؛ ابن عذاري، البيان المغرب: ٧١/٢؛ المراكشي، المعجب: ١١؛ ابن القوطية، تاريخ افتتاح الأندلس: ٧٣؛ ابن الأثير، الكامل في التاريخ: ١١٩/٥؛ ابن خلدون، تاريخ: ١٦١/٤.

[3] ابن الأثير، الكامل في التاريخ: ١١٩/٥؛ ابن خلدون، تاريخ: ١٦١/٤-١٦٢؛ ابن عذاري، البيان المغرب: ٧١/٢.

[4] ابن القوطية، تاريخ افتتاح الأندلس: ٧٢.

[5] ابن الأثير، الكامل في التاريخ: ٧٢.

[6] المصدر نفسه: ١١٩/٥.

[7] ابن خلدون، تاريخ: ١٦١/٤-١٦٢؛ ابن الأثير، الكامل في التاريخ: ١١٩/٥-١٢٠؛ ابن عذاري، البيان المغرب: ٧١/٢؛ ابن القوطية، تاريخ افتتاح الأندلس: ٧٢.

إجراء، قد يكون خطيراً، بحق المتآمرين. واتفق مع ابن الشماس على خطة تمكنه من ذلك، إذ أرسل معه عدداً ممن يثق بأمانتهم أخفاهم ابن الشماس في داره، ثم أرسل في طلب الفقهاء الذين اتفقوا معه على خلع الحكم، وأجرى معهم (تحقيقاً) والأمناء يسمعون، قال ابن الشماس: "هذا الذي تدعونني إليه لا أثق بمن سميتم دون أن أسمع منهم كما سمعت منكم، فتطيب نفسي، وأدخل في الأمر على قوة وبصيرة. فأتوه، وسمع مقالتهم..."[1]، وعندما تحقق الحكم من صحة ما نُسب إلى الفقهاء قبض على اثنين وسبعين منهم، وقتلهم، وصلبهم جميعاً، وذلك في سنة ١٨٩هـ/٨٠٤م[2]. وكان ممن قُبض عليهم "ستة من أعلام القوم المشاهير، فصُلب منهم يحيى بن نصر اليحصبي من ساكني قرية شقندة، وموسى بن سالم الخولاني وولده"[3]. وكانت وقعة الربض هذه وقعة شنيعة، أحدثت بين الحكم والناس في قرطبة، وخاصة المولدين منهم هوّة سحيقة، وشرخاً واسعاً يصعب، بل يستحيل جسره[4].

أخذ الحكم – منذ وقعة الربض سنة ١٨٩هـ/٨٠٤م – يزيد من استعداداته لمواجهة الطوارئ الداخلية والخارجية على حد سواء. فقد "أتقن سور قرطبة وحفر خندقها"[5]، "واستعد بالمماليك حتى بلغوا خمسة آلاف: منهم ثلاثة آلاف فارس، وألفا راجل"[6]، وظلت أحقاد الفقهاء ومن لفّ لفهم تتغذى على ذكريات تلك الوقعة المريرة، وتتأصل في النفوس التي كانت تزداد نفوراً يوماً بعد يوم. ومن جهته ظل الحكم صادراً في غيّه، لا يرتوي عما ألفه من تشاغل باللهو والصيد والشرب وغير ذلك مما يجانسه.

---

(1) ابن عذاري، البيان المغرب: ٧١/٢؛ وانظر: ابن القوطية، تاريخ افتتاح الأندلس: ٧٢. ويذكر ابن القوطية أن الحكم أرسل مع ابن الشماس بعض كتبته "فأقعدهم بمكان يسمعون ما يدور بينه وبينهم (الفقهاء)، فأتوه، وأداروا الأمر. فقال لهم: من معكم في هذا الرأي، فقالوا: فلان، والكاتب يكتب خلف الستارة، فأملوا عدداً كثيراً حتى خشي الكاتب أن يُسمّى، فصوّت بالقلم في الرق، فثار القوم وقالوا: فعلتها يا عدو الله!! فمن خرج من وقته ذلك وفرَّ نجا، ومن توقف قُبض عليه".

(2) ابن عذاري، البيان المغرب: ٧١/٢.

(3) ابن القوطية، تاريخ افتتاح الأندلس: ٧٣؛ وانظر: ابن الأثير، الكامل في التاريخ: ١٢٠/٥.

(4) انظر: ابن الأثير، الكامل في التاريخ: ١٢٠/٥.

(5) ابن عذاري، البيان المغرب: ٧١/٢.

(6) المقري، نفح الطيب: ٣٤١/١؛ وانظر: ابن الأثير، الكامل في التاريخ: ١٧٢/٥.

وزاد في حقد أهل قرطبة أن الحكم "ارتبط الخيل على بابه، واستكثر المماليك، ورتب جمعاً لا يفارقون باب قصره بالسلاح"[1]. إذ تيقنوا أنه يفعل ذلك للانتقام منهم. وأصبح كل من الطرفين يتربّص بالآخر، ويتحين الفرص للانقضاض عليه. والتزم الحكم الصبر في مكافحة أهل الربض، وثبت على مناجزتهم[2]. واستمرت هذه الحال حتى سنة ٢٠٢هـ/٨١٨م حيث تولدت شرارة الوقعة الأخطر بالربض.

اختلفت أسباب اندلاع ثورة الربض سنة ٢٠٢هـ/٨١٨م حسب المصادر، فبينما يذكر ابن عذاري أن أسبابها "الأشر والبطر، إذ لم تكن ثم ضرورة من إجحاف في مال، ولا انتهاك لحرمة، ولا تعسّف في ملكة"[3]، يذكر ابن الأثير أن من أسباب تلك الثورة قيام الحكم بوضع عشر الأطعمة على أهل الربض كل سنة "من غير خرص، فكرهوا ذلك، ثم عمد إلى عشرة من رؤساء سفهائها فقتلهم وصلبهم، فهاج لذلك أهل الربض"[4].

وتبدو الأسباب التي أوردها ابن الأثير معقولة لتفجير الاحتقان لدى أهل الربض، وبالتالي فقد كانت أسباباً مباشرة ينضاف إليها سبب آخر ذكره ابن الأثير أيضاً، وكان الشرارة التي ولّدت الانفجار، وهو أن مملوكاً من مماليك الحكم سلّم سيفه إلى حداد من أهل الربض ليصقله، فتلكأ الحداد في صقله، وماطل المملوك، لأنه كواحد من أهل الربض معبأ نفسياً ضد مماليك الحكم كان يشعر بكره شديد نحوهم. ولم يلبث المملوك أن انتزع السيف من يد الحداد وقتله به، وذلك في ١٣ رمضان سنة ٢٠٢هـ/٢٥ آذار ٨١٨م[5]. وكان الغوغاء قبل هذا الحادث قد أثاروا حفيظة الحكم، فقد كانوا ينادون بعد كل أذان للصلاة: "يا مخمور... الصلاة. وشافهه بعضهم بالقول، وصفقوا عليه بالأكفّ"[6].

---

[1] ابن الأثير، الكامل في التاريخ: ١٧٢/٥.

[2] مجهول، أخبار مجموعة: ١٣٠.

[3] ابن عذاري، البيان المغرب: ٧٦/٢. ويضيف ابن عذاري أن الحال لم تكن توجب الثورة "فإنه لم يكن على الناس وظائف، ولا مغارم، ولا سُخر، ولا شيء يكون سبباً لخروجهم على السلطان. بل كان ذلك أشراً وبطراً، وملالاً للعافية، وطبعاً جافياً، وعقلاً غبياً، وسعياً في هلاك أنفسهم".

[4] ابن الأثير، الكامل في التاريخ: ١٧٢/٥.

[5] المصدر نفسه: ١٧٢/٥.

[6] المصدر نفسه: ١٧٢/٥؛ وانظر: المراكشي، المعجب: ١١.

انفجرت براكين الأحقاد الخامدة ضد الحكم بقتل الحداد، فقد هبّ سكان ربض قرطبة هبة رجل واحد، وقتلوا المماليك، ثم تجمعوا من كل صوب، وأخذوا يفتكون بكل من لقيهم من المماليك وغيرهم من عسكر الحكم. وهاجت قرطبة بالفتنة وماجت، وأتت على كل ما في طريقها[1]. وبلغت الجموع الثائرة قصر الحكم حيث اجتمع المماليك والأمويون[2]. وتأهب الحكم للموت، إذ أمر أحد غلمانه أن يحضر له زجاجة عطر ليضمخ رأسه حتى يعرف من بين القتلى إذا ما أودي به[3]، "وفرق الخيل والأسلحة، وجعل أصحابه كتائب"[4]. "وهاجت الدهماء السوداء، فلم يزيدوا على أن ظهروا في ذلك الحين ظهوراً لم يبلّغهم إلى أمل"[5]، مع أنهم تمكنوا من محاصرة الحكم وصحبه في القصر. إذ "نزل الحكم من أعلى القصر، ولبس سلاحه، وركب، وحرض الناس فقاتلوا بين يديه قتالاً شديداً"[6].

وبلغ الوضع مرحلة شديدة الخطورة أصبح وضع الحكم معها حرجاً، وعندئذ تفتّق ذهنه عن خطة جريئة عزم على تنفيذها فوراً، فقد أمر ابن عمه عبيد الله بن عبد الله البلنسي المعروف بصاحب الصوائف، وإسحاق بن المنذر القرشي بالتوجه على رأس فرقة من الفرسان إلى الربض لإشعال النار فيه. وتمكن القائدان من الإلتفاف حول الثوار "وجازوا النهر، واجتمعوا مع من توافى عليهم من حشود الكور – إذ كانوا قد أُنذروا قبل ذلك بما كان بدا منهم، وظهر من علاماتهم – فلما اجتمعوا أقبل بعضهم من وراء الربض، وشرع بعض في طرح النار في الدور، ودسّوا من أخبر العامة بما نزل بهم في دورهم وذراريهم وعيالهم، فلم يبق أحد منهم دون أهله ومنزله، وانصرفوا راجعين نحوها"[7].

---

(1) انظر: المقري، نفح الطيب: ٣٣٩/١؛ ابن الأثير، الكامل في التاريخ: ١٧٢/٥؛ المراكشي، المعجب: ١١؛ ابن خلدون، تاريخ: ١٦٢/٤.

(2) ابن الأثير، الكامل في التاريخ: ١٧٢/٥.

(3) مجهول، أخبار مجموعة: ١٣١؛ المراكشي، المعجب: ١١.

(4) ابن الأثير، الكامل في التاريخ: ١٧٢/٥.

(5) ابن عذاري، البيان المغرب: ٧٦/٢.

(6) ابن الأثير، الكامل في التاريخ: ١٧٢/٥.

(7) ابن عذاري، البيان المغرب: ٧٦/٢؛ ابن الأثير، الكامل في التاريخ: ١٧٢/٥.

وهكذا استطاع الحكم بهذا الجزء من الخطة أن يصرف أهل الربض عنـــه، وأن يوقع في صفوفهم اضطراباً كبيراً. وعندئذ شرع في تنفيذ الجزء الثاني من خطته، فما إن أدار أهل الربض ظهورهم مسرعين لإنقاذ أهلهم وممتلكاتهم حتى أعمل فيـــهم السـيف، وأوقع فيهم مقتلة عظيمة. ثم قام عسكره بإخراج من وجدوا في المنازل والدور فأسروهم، ثم اختار ثلاثمائة من وجود الأسرى وقتلهم، "وأقام النهب والقتل والحريق والخراب فـي أرباض قرطبة ثلاثة أيام"[1]. وكان عسكر الحكم يتتبع أهل الربض في الطرق والأزقـة، ويقتلون كل من ظفروا به "ونجا منهم من تأخر أجله، ففر، فلـم يلـو علـى أهـل ولا ولد"[2].

ثم استشار الحكم بعض وزرائه المقربين إليه فيمـا يفعـل بالنـاجين مـن أهـل الربض، فأشار أحدهم بقتلهم، وأشار آخر، وهو: عبد الكريـم بـن عبـد الواحـد بـن عبد المغيث بالصفح عنهم لأن منهم المسيء والمحســن، فـأخذ بنصيحتـه[3]. وعندئـذ أمر الحكم "فنودي بالأمان على أنه من بقـي مـن أهـل الربـض بعـد ثلاثـة أيـام قتلناه وصلبناه"[4]. فبادر من بقي منهم إلى الخروج من قرطبة بنسائهم وأولادهـم ومـا خف من أموالهم، وتفرقوا في الأنحاء "وقعد لهم الجند والفســقة بـالمراصد ينـهبون، ومن امتنع عليهم قتلوه"[5]. وبعد انقضاء الأيام الثلاثة أمر الحكم بهدم الربض بمـا فيـه من مساجد "فهدمت وحرقت"[6].

---

(1) ابن الأثير، الكامل في التاريخ: ٥/١٧٢.

(2) ابن عذاري، البيان المغرب: ٢/٧٦-٧٧؛ وانظر عن مذبحة قرطبة أيضاً: ابن الأثير، الكـامل فـي التاريخ: ٥/١٧٢-١٧٣؛ مجهول، أخبار مجموعة: ١٣٠-١٣٣؛ ابن خلدون، تاريخ: ٤/١٦٢؛ المقـري، نفح الطيب: ١/٣٣٩؛ المراكشي، المعجب: ١١-١٢؛ ابن القوطية، تاريخ افتتاح الأندلس: ٧٣.

(3) ابن القوطية، تاريخ افتتاح الأندلس: ٧٣؛ ابن الأثير، الكامل في التــاريخ: ٥/١٧٢؛ ابـن عـذاري، البيان المغرب: ٢/٧٧.

(4) ابن الأثير، الكامل في التاريخ: ٥/١٧٣.

(5) المصدر نفسه: ٥/١٧٣.

(6) المراكشي، المعجب: ١١؛ ابن الأثير، الكامل في التاريخ: ٥/١٧٣.

وتفرق أهل ربض قرطبة في البلاد، بعد أن أمّنهم، "أباح لهم التفسخ في البلدان حيثما أحبوا من أقطار مملكته، حاشى قرطبة أو ما قرب منها"[1]، ولذلك توجه بعضهم إلى طليطلة، وكان هؤلاء من أهل العلم[2]، ومنهم من توجه إلى "العدوة بالأهل والولد، فاحتلوا بعدوة فاس، فهم عدوة الأندلس منها، فصيروها مدينة...فذكر أنه لم يخرج منه طائفة بناحية من نواحي الدنيا إلا وتغلبوا عليها، واستوطنوها على قهر من أهلها"[3].

وخرجت طائفة من أهل ربض قرطبة يقدر عددها بخمسة عشر ألفاً إلى الإسكندرية[4]، وكانت الإسكندرية وغيرها من أرض مصر تمر بأحوال مضطربة، إذ تأثرت بالخلافات التي نشبت بين الأمين والمأمون حيث كان فريق من المسلمين يؤيد الأمين، وفريق آخر يؤيد المأمون، وكان هناك فريق ثالث يعمل لحسابه الخاص بقيادة السريٍّ بن الحكم بغية الاستقلال بحكم مصر. وفي أتون هذه الخلافات والاضطرابات كانت الإسكندرية تتعرض لهجمات العرب من قبيلتي لخم وجذام. وقد استغل الأندلسيون الفارون من ربض قرطبة هذا الوضع المضطرب واستولوا على الإسكندرية، وأسسوا فيها إمارة أندلسية مستقلة عن الخلافة العباسية استمرت أكثر من عشر سنوات[5].

ولم تلبث الأمور أن هدأت في الدولة العباسية، واستقرت لصالح الخليفة العباسي المأمون، وفي سنة ٢٠٦هـ/٨٢١م ولّى المأمون: عبد الله بن طاهر على مصر[6]، وقد تمكن هذا الوالي من القضاء على الفتن والثورات ومسببي الخلافات فيها. ولم يبق أمامه سوى الإسكندرية التي أمره المأمون باستعادتها من أيدي الأندلسيين إلى حظيرة الخلافة العباسية. وقد توجه عبد الله بن طاهر إلى المدينة في أوائل صفر من سنة ٢١٢هـ/أيار

---

(1) ابن عذاري، البيان المغرب: ٧٧/٢.

(2) المصدر نفسه: ٧٧/٢.

(3) المصدر نفسه: ٧٧/٢.

(4) ابن القوطية، تاريخ افتتاح الأندلس: ٧٣؛ ابن خلدون، تاريخ: ١٦٢/٤؛ المراكشي، المعجب: ١١؛ المقّري، نفح الطيب: ٣٣٩/١.

(5) انظر: ابن الأثير، الكامل في التاريخ: ٢١٤/٥.

(6) المصدر نفسه: ١٩٧/٥.

٨٢٧م، وضرب عليها الحصار، وهدد الأندلسيين فيها بالقتل إن لم يدخلوا في طاعته[١]. وبعد عشرة أيام من الحصار اضطروا إلى طلب الأمان فأمنهم، "على أن يرتحلوا عنها إلى بعض أطراف الروم التي ليست من بلاد الإسلام"[٢].

رحل الربضيون من الإسكندرية إلى جزيرة كريت، وكانت تابعة للدولة البيزنطية. وقد استولوا عليها بقيادة زعيمهم أبي حفص عمر البلوطي*. وهناك أسسوا لهم قاعدة أشبه بالقواعد العسكرية، إذ أحاطوها بخندق. ولم تلبث تلك القاعدة أن أصبحت بمرور الزمن مدينة كبيرة عُرفت باسم كانديا (Candia)[٣].

وتجدر الإشارة هنا إلى أن الربضيين الذين استولوا على جزيرة كريت تمكنوا من إنشاء دولة أو قل إمارة إسلامية في تلك الجزيرة تعاقب على حكمها بعد البلوطي أبناؤه، حيث "استوطنوها وأقاموا بها فأعقبوا وتناسلوا"[٤]. وأصبحت تلك الإمارة مصدر تهديد لجزر الدولة البيزنطية وسواحلها، إذ كان أسطولها الإسلامي يغير على السواحل والممتلكات، ويهاجم السفن التجارية. وقد حاول البيزنطيون استعادة هذه الجزيرة مرات عديدة، وكانت إحدى المحاولات تلك الحملة البحرية الكبيرة التي قادها يوحنا تزيمكس (John Tzimisces) واشترك فيها عدد كبير من الجنود الروس يزيد على الستمائة. ومع ذلك لم يتمكن البيزنطيون من استعادة الجزيرة من الربضيين لأن مصر والشام كانت تزودها باستمرار بالإمدادات العسكرية لتمكينها من صد عدوان البيزنطيين عن أراضيهما. غير أن الإمبراطور البيزنطي رومانوس الثاني تمكن من التغلب عليها سنة ٣٤٩هـ/٩٦٠م بعد أن دامت دولة الربضيين فيها نحو مائة وخمسة وثلاثين عاماً[٥]. ولا تسعفنا

---

[١] ابن الأثير، الكامل في التاريخ: ٢١٢/٥.

[٢] المصدر نفسه: ٢١٢/٥.

* نسبه إلى فحص البلوط Pedroches، وهي المنطقة الجبلية المحيطة بقرطبة.

[٣] انظر: ابن الأثير، الكامل في التاريخ: ٢١٢/٥؛ المقري، نفح الطيب: ٣٣٩/١؛ ابن خلدون، تاريخ: ١٦٢/٤؛ ابن القوطية، تاريخ افتتاح الأندلس: ٧٣-٧٤.

[٤] ابن الأثير، الكامل في التاريخ: ٢١٢/٥؛ المقري، نفح الطيب: ٣٣٩/١؛ ابن خلدون، تاريخ: ١٦٢/٤.

[٥] انظر التفاصيل: سالم، تاريخ المسلمين وآثارهم في الأندلس: ٢٢٤-٢٢٥؛ العبادي، في تاريخ المغرب والأندلس: ١٣٣-١٣٤.

المصادر المعروفة في بيان مصير الربضيين بعد استيلاء البيزنطيين على جزيرة كريت، هل تنصروا وذابوا في المجتمع البيزنطي؟ أم أنهم رحلوا أو رحل قسم منهم إلى بلاد الشام؟ ثم هل من علاقة بينهم وبين الربضيين في مدينة عجلون، في المملكة الأردنية الهاشمية الذين سميت قلعة الربض باسمهم؟

جهاده:

كان الحكم الربضي "كثير الغزو والجهاد"[1]، وكانت له وقائع بجليقية وغيرها[2]، إذ إنه رغم انشغاله بقمع الثورات لم يتوقف عن توجيه جيوشه للجهاد، ففي سنة ١٨٠هـ/٧٩٦م بعد أن بويع بالخلافة وجه القائد عبد الكريم بن عبد الواحد بن مغيث إلى دار الحرب في جيش كثيف[3] "فدخل البلاد، وبث السرايا"[4] حيث قسم جيشه إلى ثلاثة أقسام، "وقدم على كل قسم رئيساً، وأمر كل واحد منهم بأن يغير على الناحية التي قصدها، ووجه إليها؛ فمضوا وأغاروا، واستباحوا، وانصرفوا غانمين ظافرين. ثم عادوا ثانية إلى الإغارة، وجاوزوا خُلُجاً كانت تمد وتحصر، وكان أهل تلك النواحي قد تحرزوا بها، ونقلوا إليها العيال والماشية والأموال، فأغاروا عليها، واحتووا على جميع ما وجدوا فيها، وانصرفوا سالمين غانمين"[5]. ومما يورده ابن الأثير عن تفاصيل هذه الحملة أن عبد الكريم بن مغيث "سير سرية فجازوا خليجاً من البحر كان الماء قد جزر عنه، وكان الفرنج قد جعلوا أموالهم وأهليهم وراء ذلك الخليج ظناً منهم أن أحداً لا يقدر أن يعبر إليهم، فجاءهم ما لم يكن في حسابهم، فغنم المسلمون جميع مالهم، وأسروا الرجال، وقتلوا منهم فأكثروا، وسبوا الحريم، وعادوا سالمين"[6]. وسير طائفة أخرى فأوغلت في فرنسا، وغنمت وأسرت بعض الرجال، وقد أخبر هؤلاء الأسرى أن ملوك النصارى يتأهبون لمواجهة المسلمين، وأنهم يكمنون في واد وعر المسالك لاستكمال

---

(١) ابن خلدون، تاريخ: ١٦٠/٤.

(٢) ابن القوطية، تاريخ افتتاح الأندلس: ٧٥.

(٣) ابن عذاري، البيان المغرب: ٦٩/٢؛ ابن الأثير، الكامل في التاريخ: ١٠٢/٥.

(٤) ابن الأثير، الكامل في التاريخ: ١٠٢/٥.

(٥) ابن عذاري، البيان المغرب: ٦٩/٢.

(٦) ابن الأثير، الكامل في التاريخ: ١٠٢/٥.

استعداداتهم، فبادر عبد الكريم بن مغيث من فوره لمفاجأتهم، "وسار على تعبية، وجد السير، فلم يشعر الكفار إلا وقد خالطهم المسلمون فوضعوا السيف فيهم، فانهزموا، وغنم ما معهم، وعاد سالماً هو ومن معه"[1].

واستغل النصارى انشغال الحكم في سنة ١٨٥هـ/٨٠١م بثورة عميه سليمان وعبد الله، وهاجموا مدينة برشلونة واحتلوها[2]، "ونقلوا حماة ثغورهم إليها"[3]. وقد وجه الحكم جيشاً بقيادة أخيه معاوية بن هشام للدفاع عن المدينة قبل أن يصل إليها النصارى، إلا أن هذا الجيش وصل متأخراً بعد احتلال المدينة[4]، غير أنه اشتبك في معركة مع النصارى على فج أرغنصون (Arganzon) الواقع عند التقاء وادي زادورا بنهر إيبره، ولكن النصارى هزموه، وقتلوا عدداً كبيراً من المسلمين ومن قادتهم[5].ويذكر ابن الأثير أن النصارى احتلوا مدينة تطيلة "وسبب ذلك أن الحكم...استعمل على ثغور الأندلس قائداً كبيراً من أجناده اسمه عمروس بن يوسف، فاستعمل ابنه يوسف على تطيلة، وكان قد انهزم من الحصن أهل بيت من الأندلس أولو قوة وبأس لأنهم خرجوا عن طاعته، فالتحقوا بالمشرطين، فقوي أمرهم، واشتدت شوكتهم، وتقدموا إلى مدينة تطيلة فحصروها وملكوها من المسلمين، فأسروا أميرها يوسف بن عمروس، وسجنوه بصخرة قيس"[6]. وذلك في سنة ١٨٧هـ/٨٠٢م[7]. ويذكر ابن خلدون أن عمروس سار من فوره إلى مدينة سرقسطة ليحميها من العدو، وبعث العساكر مع ابن عمه، فلقي العدو وهزمهم، ثم مضى

---

(١) ابن الأثير، الكامل في التاريخ: ١٠٢/٥؛ وانظر: المقري، نفح الطيب: ٣٣٩/١.

(٢) ابن خلدون، تاريخ:١٦١/٤؛ المقري، نفح الطيب:٣٣٩/١؛ ابن الأثير، الكامل في التاريخ: ١١٠/٥-١١١.

(٣) ابن الأثير، الكامل في التاريخ: ١١١/٥.

(٤) ابن خلدون، تاريخ: ١٦١/٤؛ المقري، نفح الطيب: ٣٣٩/١.

(٥) انظر: سالم، تاريخ المسلمين وآثارهم في الأندلس: ٢٢٥.

(٦) ابن الأثير، الكامل في التاريخ: ١١٩/٥؛ وانظر: ابن خلدون، تاريخ: ١٦١/٤ حيث يذكر رواية مختلفة وهي أن عمروس استعمل ابنه يوسف على مدينة طليطلة "ولحق بالفرنج سنة تسع وثمانين بعض أهل الحرابة، وأطمعوا الفرنج في ملك طليطلة، فزحفوا إليها وملكوها وأسروا أميرها يوسف، وحبسوه بصخرة قيس".

(٧) ابن الأثير، الكامل في التاريخ: ١١٩/٥.

إلى الصخرة "وقد وهن الفرنج من الهزيمة فافتتحها، وبعث عمـــروس نائبـــه وخلـــص يوسف"[1].

ومن أبرز التحركات الجهادية للحكم بن هشام الربضي ما وقع ضد لذريـــق بـــن قارله (لويس بن شارلمان) ملك الإفرنج في سنة اختلفت المصادر في تحديدها، وهي على الأرجح سنة ١٩٣هـ/٨٠٨م[2]. ففي هذه السنة حشد لذريق جيوشه وسار إلى طرطوشـــة لحصارها واحتلالها، ولما علم الحكم بذلك "جمع العساكر وسيرها مع ولده عبد الرحمن، فاجتمعوا في جيش عظيم، وتبعهم كثير من المتطوعة"[3]. وقد اشتبك هذا الجيـــش مـــع جيوش النصارى في معارك شديدة انتهت بانتصار المسلمين انتصاراً حاسماً، فقد ثبت الله أقدام المسلمين في هذه المعارك "فانهزم المشركون، وكانت فيهم مقتلة عظيمـــة، ففنـــي أكثرهم"[4].

ومن أشهر غزوات الحكم تلك الغزوة التي قادهـــا بنفســـه إلـــى الثغـــر الأعلـــى سنة ١٩٤هـ/٨٠٩م لمحاربة النصارى انتقاماً منـــهم، وذلـــك عندمـــا بلغـــه أن امـــرأة مسلمة وقعت في أسر النصارى فصاحت (واغوثاه يـــا حكـــم!! قـــد ضيعتنـــا وأســـلمتنا واشتغلت عنا.حتى استأسد العدو علينـــا)[5]. وتفـــاصيل ذلـــك أن النصـــارى اســـتغلوا انشغال الحكم بثورات أهل ماردة التـــي قادهـــا أصبـــغ بـــن عبـــد الله بـــن وانســـوس، وشن الغارات على أهل الثغر، وعاث في المنطقة، وأسر أعداداً كبيرة من المسلمين مـــن بينهم تلك المرأة التي استغاثت به[6].

---

[1] ابن خلدون، تاريخ: ١٦١/٤؛ ولمزيد من التفاصيل انظر: ابن الأثير، الكامل في التاريخ: ١١٩/٥.

[2] ابن عذاري، البيان المغرب: ٧٢/٢؛ وقد جعلها المقري سنة ١٩٢هـ بينما جعلها ابن الأثـــير ســـنة ١٩١هـ. انظر: نفح الطيب: ٣٤٠/١؛ الكامل في التاريخ: ١٢٥/٥ على التوالي.

[3] ابن الأثير، الكامل في التاريخ: ١٢٥/٥؛ وانظر: ابن عذاري، البيان المغرب: ٧٢/٢.

[4] ابن عذاري، البيان المغرب: ٧٣/٢.

[5] ابن عذاري، البيان المغرب: ٧٣/٢؛ ابن الأثير، الكامل في التاريخ: ١٤٢/٥؛ المقري، نفح الطيـــب: ٣٤٣/١؛ مجهول، أخبار مجموعة: ١٢٩.

[6] ابن عذاري، البيان المغرب: ٧٣/٢؛ ابن الأثير، الكامل في التاريخ: ١٤٢/٥.

لقد سمع أحد الشعراء واسمه: عباس بن ناصح استغاثة المرأة المسلمة بينما كان يتجول في مدينة الفرج (وادي الحجارة)، فنظم قصيدة يحث فيها الحكم على غوث أهل الثغر، ويذكر ما كان من أمر تلك المرأة، ووفد على الحكم وأنشد قصيدته بين يديه، ومنها[1]:

تململتُ في وادي الحجارة مُسْهَراً ... أُراعي النجوم ما يُردنَ تغوُّرا
إليك أبا العاصي نضيتُ مطيتي ... تسير بهمٍّ سارياً ومهجِّرا
تدارك نساء العالمين بنصرةٍ ... فإنك أحرى أن تغيث وتنصُرا

ثم "وصف له خوف الثغر واستصراخ المرأة باسمه، فأنف ونادى في الحين بالجهاد والاستعداد"[2]. وخرج على رأس جيش كبير حتى أتى ذلك الثغر، فأوغل في بلاد النصارى "وافتتح الحصون، وهدم المنازل، وقتل كثيراً، وأسر كذلك"[3]. وبعد أن أدرك ثأر المرأة وغيرها من المسلمين "قصد الناحية التي كانت بها تلك المرأة، فأمر لهم من الأسرى بما يفادون به أسراهم، وبالغ في الوصية في تخليص تلك المرأة، فتخلصت من الأسر، وقتل باقي الأسرى"[4].

وبعد ذلك أمر الحكم بإحضار المرأة والشاعر عباس، "وقال للعباس: سلها: هل أغاثكم الحكم؟ فقالت المرأة، وكانت نبيلة: والله لقد شفى الصدور، وأنكى العدو، وأغاث الملهوف، فأغاثه الله، وأعزّ نصره. فارتاح لقولها، وبدا السرور في وجهه وقال:

ألم تر يا عباس أني أجبتها ... على البعد أقتادُ الخميس المظفرا
فأدركت أوطاراً، وبرّدت غلة ... ونفستُ مكروباً، وأغنيت معسرا[5]

---

(1) المقري، نفح الطيب: ٣٤٣/١؛ وانظر: ابن عذاري، البيان المغرب: ٧٣/٢.

(2) المقري، نفح الطيب: ٣٤٣/١؛ وانظر: مجهول، أخبار مجموعة: ١٢٩؛ ابن عذاري، البيان المغرب: ٧٣/٢.

(3) ابن عذاري، البيان المغرب: ٧٣/٢.

(4) ابن الأثير، الكامل في التاريخ: ١٤٢/٥؛ وانظر: ابن عذاري، البيان المغرب: ٧٣/٢.

(5) المقري، نفح الطيب: ٣٤٣/١-٣٤٤؛ ولمزيد من التفاصيل انظر: ابن عذاري، البيان المغرب: ٧٣/٢؛ ابن الأثير، الكامل في التاريخ: ١٤٢/٥؛ مجهول، أخبار مجموعة: ١٢٩.

وفي سنة ١٩٩هـ/٨١٤م أرسل الحكم جيشاً بقيادة عمه عبد الله البلنسي إلى برشلونة التي كان النصارى قد احتلوها، وأوقع فيهم مقتلة عظيمة حيث منح الله المسلمين أكتاف المشركين "وانهزموا، وقتل عامتهم، وفرّق جمعهم"[١]. ويعبر ابن عذاري عن كثرة من قتل من النصارى في تلك الحملة بقوله عن البلنسي "فلما أقلع عن القتال وانجلت الحرب، نصب قناة طويلة، فأثبتت في الأرض، وأمر بالرؤوس، فجُمعت وطرحت حواليها حتى غابت القناة فيها، ولم تظهر"[٢].

وكلل الحكم نشاطه العسكري في ميدان الجهاد سنة ٢٠٠هـ/٨١٥م، فقد أرسل حملة كبيرة بقيادة عبد الكريم بن مغيث إلى بلاد الإفرنج، فخرب وهدم عدة حصون في حوض وادي أرون، وعندئذ أقبل عليه ملك الجلالقة في جموع عظيمة[٣]، وتنازلوا على الوادي، وتدافعوا عبره، واقتتلوا على مخاضته "ثم حمل المسلمون عليهم حملة صادقة، فأضغطوهم في المضايق، وأدخلوهم على غير طريق، فأخذتهم السيوف والطعن بالرماح، والغرق في المياه، فقتل من المشركين عدد عظيم لا يحصى كثرة، ومات أكثرهم بالتردي، ودرس بعضهم بعضاً، وصاروا بعد المطاعنة، والمجالدة بالرماح والسيوف إلى القذف بالحجارة"[٤]. وظل القتل مستحراً في النصارى ثلاث عشرة ليلة، حيث ارتفع منسوب المياه في الوادي، فحجز بين الفريقين "وقفل المسلمون ظافرين ظاهرين"[٥].

انشغل الحكم بعد ذلك بفتنة الربض الثانية التي وقعت سنة ٢٠٢هـ/٨١٧م، ثم مرض، واشتد مرضه في سنة ٢٠٦هـ/٨٢١م، فأخذ البيعة لابنه عبد الرحمن، ومن بعده لابنه المغيرة[٦]. ثم ما لبث الحكم أن توفي في يوم الخميس "لأربع بقين من ذي الحجة من السنة"[٧] بعد أن حكم سبعاً وعشرين سنة[٨].

---

[١] ابن عذاري، البيان المغرب: ٧٤/٢.

[٢] المصدر نفسه: ٧٤/٢.

[٣] المقري، نفح الطيب: ٣٤٠/١.

[٤] ابن عذاري، البيان المغرب: ٧٥/٢.

[٥] المقري، نفح الطيب: ٣٤٠/٣؛ ابن عذاري، البيان المغرب: ٧٥/٢.

[٦] ابن عذاري،البيان المغرب:٧٧/٢؛ابن الأثير،الكامل في التاريخ:٢٠٣/٥؛ابن خلدون،تاريخ: ١٦٣/٤.

[٧] ابن عذاري، البيان المغرب: ٧٧/٢.

[٨] المقري، نفح الطيب: ٣٤١/١؛ ابن خلدون، تاريخ: ١٦٣/٤.

٣.عبد الرحمن بن الحكم (الثاني أو الأوسط) (٢٠٦-٢٣٨هـ/٨٢١-٨٥٢م):

يكنى أبا المطرف، وأمه تسمى: حلاوة. وقد وُلد بطليطلة سنة ١٧٦هـ/٧٩٢م لسبعة أشهر "وُجد ذلك بخط أبيه"[1]. وعرف بعبد الرحمن الثاني لأنه ثاني ثلاثة سموا بهذا الاسم ممن قاموا بأمر الأندلس، ولهذا السبب أيضاً عُرف بالأوسط. وكان عبد الرحمن الأوسط قد اكتسب صفات أبيه وجدّه، فمع عنفه كان ليناً، ومع ورعه وتقواه كان محباً للنساء، تفتنه الجميلات منهن، وخاصة جاريته طروب التي أنفق الكثير من الأموال "استرضاءً لها، واستعطافاً لوصلها"[2]. وطبع شخصية عبد الرحمن الأوسط تأدبه وتفقهه في الدين، فقد كان "حليماً جواداً، وكان له حظ من أدب وفقه وحفظ القرآن، ورواية الحديث"[3]. ولهذه الصفات التي ترسخت في نفسه التزم عبد الرحمن الأوسط "إكرام أهل العلم، وأهل الأدب والشعر في دولته، وإسعافهم في مطالبهم"[4]. وكان عهده عهد رخاء "وكثرت الأموال عنده، واتخذ القصور والمتنزهات، وجلب إليها المياه من الجبال...وأقام الجسور، وبُنيت في أيامه الجوامع بكور الأندلس، وزاد في جامع قرطبة رواقين"[5]. كما أنه "أحدث الطرز، واستنبط عملها، واتخذ السكة بقرطبة، وفخّم ملكه. وفي أيامه دخل الأندلس نفيس الوطاء وغرائب الأشياء وسيق ذلك إليه من بغداد وغيرها. وعندما قتل محمد الأمين، ابن هارون الرشيد، وانتُهب ملكه سيق إلى الأندلس كل نفيس غريب من جوهر ومتاع"[6].

وقد قدم على عبد الرحمن الأوسط: زرياب المغني من العراق، وهو علي بن نافع، مولى المهدي، وتلميذ إبراهيم الموصلي الذي أورث صناعة الغناء بالأندلس، وساهم في كثير من جوانب الحضارة فيها، وأدخل اللمسات الفنية على العديد من العادات

---

(١) ابن الأثير، الكامل في التاريخ: ٢٠٣/٥؛ ابن عذاري، البيان المغرب: ٨٠/٢.

(٢) ابن عذاري، البيان المغرب: ٩٢/٢؛ المقري، نفح الطيب: ٣٤٩/١-٣٥٠.

(٣) مجهول، أخبار مجموعة: ١٣٥.

(٤) ابن القوطية، تاريخ افتتاح الأندلس: ٨٠.

(٥) المقري، نفح الطيب: ٣٤٧/١.

(٦) ابن عذاري، البيان المغرب: ٩١/٢.



Abdu'r-Raḥmān II,

الاجتماعية، وخاصة ما يتعلق منها بالطعام والشراب وترتيب الموائد[1]. ويقال أن الأمير الأموي عبد الرحمن قد خف بنفسه لاستقبال زرياب، "وبالغ في إكرامه، وأقام عنده بخير حال"[2].

ولم يخلُ عهد عبد الرحمن الأوسط الذي امتد نحو ثلث قرن من أحداث جليلة وخطيرة إن في الداخل أو في الخارج، وكانت تلك الأحداث متباينة، وعلى جانب كبير من الأهمية، فقد قامت في عهده ثورات كثيرة تمكن من إخماد معظمها، وثارت في عهده فتن واضطرابات تصدى لها، ولعلّ أخطر ما تعرضت له سواحل الأندلس في أيامه هو غزوات المجوس النورمانديين. وفيما يلي تفاصيل هذه الأحداث.

الثورات في عهده:

كان أول الخارجين على طاعة الأمير عبد الرحمن الأوسط عمّ أبيه: عبد الله البلنسي، فقد كانت نفسه تتوق إلى الإمارة، ويتحين الفرص للوثوب على كرسيه، ووجد فرصته لذلك في وفاة الأمير الحكم، إذ بادر فور سماعه بوفاته إلى الخروج من بلنسية يريد قرطبة. ولكن الأمير عبد الرحمن قطع عليه الطريق، وتجهز لملاقاته. وعندما علم البلنسي بذلك جبُن عن اللقاء، وعاد أدراجه، ثم ما لبث أن توفي "فنقل عبد الرحمن ولده وأهله إلى قرطبة"[3]. وكانت وفاة البلنسي في سنة ٢٠٨هـ/٨٢٣م[4].

وأوقع الأمير عبد الرحمن الأوسط في سنة ٢٠٧هـ/٨٢٢م بأهل إلبيرة وغيرهم، وهي الوقعة المعروفة بوقعة بالس[5]. وسببها أن الحكم والد عبد الرحمن كان قد بلغه أن أحد عماله واسمه ربيع، يظلم أبناء أهل الذمة، فقبض عليه وصلبه إلى أن توفي لما بلغه

---

[1] ابن خلدون، تاريخ: ١٦٤/٤؛ المقري، نفح الطيب: ٣٤٤/١.

[2] ابن خلدون، تاريخ: ٤/ ١٦٤؛ المقري، نفح الطيب: ٣٤٤/١؛ وانظر: ابن القوطية، تاريخ افتتاح الأندلس: ٨١ ولمزيد من التفاصيل عن قدوم زرياب إلى الأندلس انظر: ابن القوطية: ٨٩-٩٠.

[3] ابن خلدون، تاريخ: ١٦٣/٢؛ ابن الأثير، الكامل في التاريخ: ٢٠٣/٥.

[4] ابن الأثير، الكامل في التاريخ: ٢٠٦/٥.

[5] المصدر نفسه: ٢٠٥/٥.

من ظلمه[1]. فجاء المتظلمون إلى قرطبة يطلبون ظلاماتهم، وكان أكثرهم إلحاحاً أهل إلبيرة، وقدم بعضهم إلى باب القصر، وأحدثوا شغباً، فأرسل إليهم الأمير عبد الرحمن من يسكتهم ويفرقهم إلا أنهم رفضوا ذلك، "فركبت العساكر إليهم، وأوقعوا بهم، ونجا الفلّ منهم إلى إلبيرة..."[2]. ثم تتبعهم جند الأمير عبد الرحمن الأوسط، وقتلوا كثيرين منهم[3].

وفي سنة ٢٠٧هـ/٨٢٢م أيضاً ثارت فتنة مدمرة بين المضرية واليمانية في كورة تدمير، وقد دامت تلك الفتنة سبع سنين[4]. وسببها المباشر أن رجلاً من اليمانية ملأ قلته من وادي لورقة، وأخذ ورقة عنب من كرم لرجل من المضرية ليسدّ بها القلة، فأنكر ذلك المضري، وقتل اليماني فهاجت اليمانية وبدأت الفتنة بين العصبيتين[5]. أو قل أطلت الفتنة برأسها بعد أن خمدت سنوات طويلة، فالأحقاد دفينة في نفس كل من الفريقين ضد الآخر، وكانت ورقة العنب التي قطفها اليماني بمثابة الشرارة التي أججت الفتنة الهامدة. وقد قتل في الاضطرابات التي نجمت عن هذه الفتنة نحو ثلاثة آلاف[6].

وللقضاء على الفتنة بين مضر ويمن أرسل الأمير عبد الرحمن الأوسط جيشاً إلى تدمير بقيادة يحيى بن عبد الله بن خالد[7]، إلا انهم ما إن اقترب منهم الجيش حتى كفوا عن الاقتتال، فرجع الجيش عنهم، فعادوا إلى ما كانوا عليه. وهكذا ظلوا يعاودون الحرب ويكفون عنها طوال السنوات السبع[8]، حيث انقطعت هذه الفتنة بتدمير سنة ٢١٣هـ/٨٢٨م[9]. ولم تكن لتنقطع لولا الجهود الحثيثة التي بذلها الأمير عبد الرحمن

---

(1) ابن خلدون، تاريخ: ١٦٤/٤.

(2) المصدر نفسه: ١٦٤/٤؛ وانظر: ابن الأثير، الكامل في التاريخ: ٢٠٥/٥.

(3) ابن الأثير، الكامل في التاريخ: ٢٠٥/٥.

(4) ابن عذاري،البيان المغرب:٨١/٢؛ابن الأثير،الكامل في التاريخ:٢٠٥/٥؛ابن خلدون،تاريخ: ١٦٤/٤.

(5) الحميري، الروض المعطار: ١٨١؛ ابن عذاري، البيان المغرب: ٨٢/٢.

(6) ابن خلدون، تاريخ: ١٦٤/٤؛ ابن الأثير، الكامل في التاريخ: ٢٠٥/٥؛ ابن عذاري، البيان المغرب: ٨١/٢.

(7) ابن خلدون، تاريخ: ١٦٤/٤؛ ابن الأثير، الكامل في التاريخ: ٢٠٥/٥؛ ابن عذاري، البيان المغرب: ٨١/٢ ويذكره باسم: يحيى بن عبد الله بن خلف.

(8) ابن عذاري، البيان المغرب: ٨١/٢؛ ابن الأثير، الكامل في التاريخ: ٢٠٥/٥.

(9) ابن عذاري، البيان المغرب:٨٣/٢.

الأوسط، ففي سنة ٢٠٩هـ/٨٢٤م أرسل قائده أمية بن معاوية بن هشام إلى تدمير فقضى على كثير من اليمانية، وكانوا بقيادة أبي الشماخ محمد بن إبراهيم. ثم عمد الأمير عبد الرحمن إلى هدم مدينة ألّة التي انبعثت فيها الفتنة، وذلك سنة ٢١٠هـ/٨٢٥م، وأمر ببناء مدينة مرسية التي تم بناؤها سنة ٢١٦هـ/٨٣١م[١]. وفي سنة ٢١٣هـ/٨٢٨م أرسل الأمير عبد الرحمن الأوسط جيشاً إلى تدمير، فاضطر أبو الشماخ إلى الإذعان "وأطاع عبد الرحمن، وسار إليه، وصار من جملة قواده وأصحابه، وانقطعت الفتنة"[٢].

وقام أهل ماردة في سنة ٢١٣هـ/٨٢٨م على عاملهم وقتلوه، وثارت الفتنة فيها، "فسير إليهم عبد الرحمن جيشاً فحصرهم، وأفسد زرعهم وأشجارهم، فعاودوا الطاعة، وأُخذت رهائنهم، وعاد الجيش"[٣]. وكان مما يشجع أهل ماردة على الثورة منعتها وحصانة أسوارها، وأراد الأمير الأموي أن يحرم أهلها من هذه الميزة، ويقطع عليهم طريق التفكير بالثورة مرة أخرى، فأرسل إليهم "بنقل حجارة السور إلى النهر لئلا يطمع أهلها في عمارته"[٤]. غير أن ذلك لم يثنهم عن العصيان، إذ عادوا إليه، وأسروا عامل المدينة، فسار الأمير بنفسه على رأس جيش لإخضاعهم، وأخذ معه رهائن أهلها، وذلك في سنة ٢١٤هـ/٨٢٩م وحاصرهم، ولكنه لم يتمكن من استنزالهم، بل فاوضوه في إطلاق الرهائن مقابل إطلاق عامل المدينة الذي أسروه في السنة السابقة، ففعل[٥]. واضطر إلى الرحيل عن ماردة بعد أن أفسد زروعها[٦]. وظلت فتنة ماردة شوكة في حلق الأمير عبد الرحمن الأوسط، وظل يعد العدة لإخضاعها، وقد سير إليها جيشاً في سنة ٢١٧هـ/٨٣٢م "فحاصرها فامتنعوا"[٧]، ولكن هذا الحصار أدى إلى فرار الكثير من أهلها عنها، كما أن آخرين منهم قتلوا في المناوشات بينهم وبين جيش الأمير[٨]. واستأنف

---

[١] ابن الأثير، الكامل في التاريخ: ٢١٣/٥؛ وانظر: سالم، تاريخ المسلمين وآثارهم في الأندلس: ٢٣٠.

[٢] ابن الأثير، الكامل في التاريخ: ٢١٣/٥.

[٣] المصدر نفسه: ٢١٧/٥؛ وانظر: ابن خلدون، تاريخ: ١٦٤/٤.

[٤] ابن الأثير، الكامل في التاريخ: ٢١٣/٥؛ ابن خلدون، تاريخ: ١٦٤/٤.

[٥] ابن الأثير، الكامل في التاريخ: ٢١٣/٥؛ ابن خلدون، تاريخ: ١٦٤/٤.

[٦] ابن الأثير، الكامل في التاريخ: ٢١٣/٥.

[٧] ابن خلدون، تاريخ: ١٦٤/٤.

[٨] ابن عذاري، البيان المغرب: ٨٣/٢.

الأمير جهوده الحربية ضد ماردة في سنة ٢١٨هـ/٨٣٣م، فقد سير إليها جيشاً "ففتحها، وفارقها أهل الشر والفساد، وكان من أهلها إنسان اسمه محمود بن عبد الجبار الماردي، فحصره عبد الرحمن بن الحكم في جمع كثير من الجند، وصدقوه القتال فهزموه، وقتلوا كثيراً من رجاله"[١]. وفر محمود بن عبد الجبار بمن بقي من رجاله في الجبال، فانخزلت فرقة من الجيش لمطاردته، وذلك في سنة ٢٢٠هـ/٨٢٥م "فقاتلهم محمود فهزمهم وغنم ما معهم ومضوا لوجهتهم، فلقيهم جمع من أصحاب عبد الرحمن مصادفة فقاتلوهم ثم كف بعضهم عن بعض، وساروا فلقيهم سرية أخرى فقاتلوهم فانهزمت السرية وغنم محمود ما فيها"[٢]. وانتهى المطاف بابن عبد الجبار إلى بلاد الجلالقة، حيث استولى على حصن من حصونهم أقام فيه خمسة أعوام "حتى حاصره أذفونس ملك الجلالقة، وافتتح الحصن وقتل محموداً وجميع أصحابه" [٣]، وذلك في رجب من سنة ٢٢٥هـ/٨٢٩م[٤].

ومن الثورات الخطيرة التي قامت ضد الأمير عبد الرحمن الأوسط، واستنزفت كثيراً من قواته في مجابهتها ثورة هاشم الضرّاب* بطليطلة، فقد سار إليها من قرطبة "فاستدعى أهل الشر والفساد، وألبهم، فتألب عليه منهم نفر، فخرجوا يغيرون على العرب والبربر، وتسامع أهل الشر به، فقطعوا إليه، حتى اجتمع له منهم جمع عظيم وخلق كثير، فعلا ذكره، وانتشر صيته"[٥]. وهاجم الضرّاب مدينة شنت برية وأوقع بأهلها "وكان بينه وبين البربر وقعات كثيرة"[٦]. وأخرج إليه الأمير عبد الرحمن جيشاً بقيادة: محمد بن رستم، وأمره بحربه "فلم تستظهر إحدى الطائفتين على الأخرى"[٧]. واستمر الضراب

---

[١] ابن الأثير، الكامل في التاريخ: ٢١٧/٥.

[٢] المصدر نفسه: ٢١٧/٥.

[٣] ابن خلدون، تاريخ: ١٦٤/٤؛ وانظر: ابن الأثير، الكامل في التاريخ: ٢١٧/٥.

[٤] ابن الأثير، الكامل في التاريخ: ٢١٧/٥.

* سمي بهذا الاسم لأنه كان يضرب الحديد، وهو ممن خرج من طليطلة لما أوقع الحكم بأهلها فسار إلى قرطبة، وفيها عمل حداداً أجيراً فعرف بالضرّاب. انظر: ابن عذاري، البيان المغرب: ٨٣/٢؛ ابن الأثير، الكامل في التاريخ: ٢١٩/٥.

[٥] ابن عذاري، البيان امغرب: ٨٣/٢؛ وانظر: ابن الأثير، الكامل في التاريخ: ٢١٩/٥؛ ابن خلدون، تاريخ: ١٦٤/٤.

[٦] ابن الأثير، الكامل في التاريخ: ٢١٩/٥.

[٧] ابن عذاري، البيان المغرب: ٨٣/٢؛ ابن الأثير، الكامل في التاريخ: ٢١٩/٥.

في اعتداءاته، فوجه إليه الأمير جيشاً في سنة ٢١٦هـ/٨٣١م، وقاتله في نواحي دروقة "فاشتدت الحرب بينهم ودامت عدة أيام، ثم انهزم هاشم وقتل هو وكثير ممن معه من أهل الطمع والشر وطالبي الفتن، وكفى الله الناس شرهم"[1]. وعلى الرغم من أن ألوفاً قتلوا من أتباع هاشم الضراب، ومن أنه هو نفسه قُتل، إلا أن من بقي من أتباعه استمروا على الخلاف وخلع الطاعة. وقد بعث الأمير عبد الرحمن ابنه أمية لحصار طليطلة "فحاصرها مدة ثم أفرج عنها فنزل قلعة رباح، وبعث عسكراً للإغارة عليها. وكان أهل طليطلة قد خرجوا في أتباعه إلى قلعة رباح فكمن لهم، فأوقعوا به، فاغتم لذلك"[2]. ويروي ابن عذاري في هذه الواقعة أن قائد جيش الإمارة أمية هو أخو عبد الرحمن وليس ابنه، وأنه غزا بالصائفة إلى طليطلة سنة ٢١٩هـ/٨٣٤م وتمكن من قتل الكثيرين من أتباع الضراب "وأبقى بقلعة رباح ميسرة الفتى لمحاصرة طليطلة، فخرج جمع عظيم من طليطلة يريدون قلعة رباح، فبلغه خبرهم، فجمع الجموع، وكمن الكمائن. فلما قربوا منها، وفرقوا خيلهم في الغارة، خرجت عليهم الكمائن، فقُتلوا، وحزّت رؤوسهم، فجمعت بين يدي ميسرة، واجتمع منها جملة عظيمة، فلما رأى ذلك ارتاع وداخله الندم، فلم يلبث بعد ذلك إلا يسيراً حتى مات ندماً وأسفاً"[3]. وعلى الرغم من هذه الوقعة وكثرة من قتل فيها من أتباع الضراب إلا أنها لم تخضع، فسير إليها الأمير جيشاً في سنة ٢٢٠هـ/٨٣٥م، فقاتل الجيش أهلها ولم يظفر بها[4]. وهكذا ظلت الجيوش تحاصر طليطلة مرة بعد مرة، وسنة إثر سنة، ومع ذلك لم ييأس الأمير عبد الرحمن من إخضاعها، فقد وجه إليها جيشاً في سنة ٢٢١هـ/٨٣٦م، واستغل هذا الجيش خروج المدافعين عنها إلى قلعة رباح لقتال الجيش الأموي فيها. فحاصرها حتى أتعبها الحصار[5]. وفي سنة ٢٢٢هـ/٨٣٧م أرسل الأمير جيشاً آخر بقيادة أخيه

---

[1] ابن الأثير،الكامل في التاريخ:٢١٩/٥؛ابن خلدون،تاريخ:١٦٤/٤؛ابن عذاري،البيان المغرب: ٨٣/٢.

[2] ابن خلدون، تاريخ: ١٦٤/٤-١٦٥؛ ابن عذاري، البيان المغرب: ٨٤/٢.

[3] ابن عذاري، البيان المغرب: ٨٤/٢؛ وانظر: ابن خلدون، تاريخ: ١٦٥/٤؛ وانظر: أيضاً: ابن الأثير، الكامل في التاريخ: ٢٣٢/٥-٢٣٣.

[4] ابن الأثير، الكامل في التاريخ: ٢٣٧/٥؛ ابن عذاري، البيان المغرب: ٨٤/٢؛ ابن خلدون، تاريخ: ١٦٥/٤.

[5] ابن عذاري، البيان المغرب: ٨٤/٢؛ ابن الأثير، الكامل في التاريخ: ١٤٥/٤.

الوليد بن الحكم إلى جليقية "فرأى أهلها وقد بلغ بهم الجهد كل مبلغ، واشتد عليهم طول الحصار، وضعفوا عن القتال والدفع، فافتتحها قهراً وعنوة يوم السبت لثمان خلون من رجب"[1]. وأمر الأمير بإعادة بناء القصر الذي كان بناه عمروس على باب الجسر في أيام الحكم، ويبدو أن الاقتتال أدى إلى تهديمه. وكان الأمير نفسه قد سار إلى المدينة، وظل فيها حتى أواخر سنة ٢٢٣هـ/٨٣٧م[2].

وفي سنة ٢٣٦هـ/٨٥٠م ثار بجبال الجزيرة الخضراء رجل يسميه ابن عذاري: حبيب البرنّسي[3]، ويسميه ابن الأثير: حبيبة البربري[4]، وقد تأبّش إلى هذا الثائر جماعة من أهل الشر والفساد، "فأغاروا واستطالوا"[5]، فأرسل الأمير عبد الرحمن جيشاً لمحاربته. وعندما وصل الجيش وجد البربر "قد قصدوا حبيباً ومن تأبّش إليه، فتغلبوا على المعقل الذي كان انضوى إليه، وأخرجوه عنه، وقتلوا عدة كثيرة من أصحابه. وافترق بقيتهم عنه. ودخل حبيب في غمار الناس. فكتب الأمير عبد الرحمن إلى عمال الكور بالبحث عنه"[6].

ومن غريب ما حدث في عهد الأمير الأموي عبد الرحمن الأوسط أن رجلاً من المعلمين ادعى النبوة في سنة ٢٣٧هـ/٨٥١م، وكان في شرقي الأندلس حيث اتبعه جماعة من الغوغاء ثم كثر أتباعه، "وكان من بعض شرائعه النهي عن قص الشعر وتقليم الأظافر، ويقول: لا تغيير لخلق الله. وقد استتابه يحيى بن خالد فرفض، فأمر بصلبه"[7].

---

[1] ابن الأثير، الكامل في التاريخ: ٢٤٥/٥؛ ابن خلدون، تاريخ: ١٦٥/٤.

[2] ابن الأثير، الكامل في التاريخ: ٢٤٥/٥؛ ابن خلدون، تاريخ: ١٦٥/٤؛ ابن عذاري، البيان المغرب: ٨٥/٢.

[3] ابن عذاري، البيان المغرب: ٨٦/٢-٨٧.

[4] ابن الأثير، الكامل في التاريخ: ٢٨٨/٥.

[5] المصدر نفسه: ٢٨٨/٥.

[6] ابن عذاري، البيان المغرب: ٩٠/٢؛ وانظر: ابن الأثير، الكامل في التاريخ: ٢٨٨/٥.

[7] ابن عذاري، البيان المغرب: ٩٠/٢.

ومما يدخل في هذا الباب أيضاً تلك المؤامرات التي دبرتها طروب زوج الأمير عبد الرحمن، وأم ابنه عبد الله. فقد كان يحبها حباً شديداً[1]، وكانت تطمع في أن تكون ولاية العهد لابنها بدلاً من أخيه محمد الذي ولاه الأمير عبد الرحمن العهد. ولذلك بذلت الأموال لاستمالة نساء القصر وفتيانه وخدمه ليساعدوها في هذا الأمر، وقد وقف إلى جانبها، وعمل معها على تنفيذ المؤامرة نصر الصقلبي، وكان من خصيان القصر[2]، وكان أيضاً "مبغضاً لمحمد مائلاً مع عبد الله بن طروب، وكان قد مال عبد الرحمن آخر عمره إلى ابنه محمد، فشقّ ذلك على نصر، فأراد قتل مولاه ليتقدم عبد الله ويقتل محمداً"[3]. ورسم نصر خطة لذلك، إذ استدعى طبيب القصر، واسمه: الحراني، ورشاه بألف دينار على أن يعد سماً قاتلاً يدسه للأمير في شرابه. وقد تظاهر الطبيب بالموافقة، وأخبر إحدى جواري القصر بأن تنبّه الأمير إلى ما يحاك ضده، وتوصيه بعدم تناول الشراب. وعندئذ دبر الأمير خطة مضادة، فعندما وصل إليه الشراب احتفظ به، واستدعى نصراً وأمره بتناول الشراب، فاضطر إلى تناوله مما أدى إلى وفاته مسموماً[4].

---

(1) انظر: ابن عذاري، البيان المغرب: ٢/٩٢؛ المقري، نفح الطيب: ١/٣٤٩-٣٥٠؛ ابن القوطية، تاريخ افتتاح الأندلس: ٩٦.

(2) ابن القوطية، تاريخ افتتاح الأندلس: ٩٦.

(3) المصدر نفسه: ٩٦.

(4) المصدر نفسه: ٩٦ وما بعدها؛ وانظر: ابن خلدون، تاريخ: ٤/١٦٦.

جهـــاده:

كان عهد الأمير الأموي عبد الرحمن الأوسط حافلاً بالنشـــاط العسـكري ضـد النصارى، فعلى الرغم من كثرة الفتن والثورات الداخلية كان يقـود الجيـش بنفســه، أو يرسلها بقيادة المشهورين من القادة العسكريين لمدافعة النصارى، وتحقيق مكاسب جديـدة للإسلام. وقد تمكن من صد أول هجوم كاسح قام به المجوس (النورمان*) على ســواحل الأندلس، كما سيأتي تفصيله.

يذكر ابن خلدون أن الأمير عبد الرحمن "غزا لأول ولايته إلـى جليقيـة فـأبعد وأطال الغيبة، وأثخن في أمم النصرانية هنالك ورجع"[1]، غير أن ابن خلدون لم يذكر أي تفصيل لهذه الحملة الجهادية التي قادها الأمير في أول ولايته، ولم تسعفنا المصادر بـأي معلومات عنها.

أما الحملة الأولى التي استهدفت بلاد النصارى، وذكرت معظم المصادر تفاصيلها فقد قادها: عبد الكريم بن عبد الواحد بن مغيث سنة ٢٠٨هـ/٨٢٣م إلى ألبة والقـلاع[2]، وقد اقتحم هذا القائد منطقة ألبة من فج جرنيق[3]، وهذا الفـج المعـروف اليـوم باسـم: (Guernica) الواقع بين سيرا دي انخيا Sierra de Enica وجبال إتوريتا (Iturrieta). "فنـهبوا

---

* المجوس أو الأردمانيون Nordmandi أو النورمان Normandos تعنـي سـكان الشـمال، أي الـدول الاسكندنافية، وقد أطلق عليهم العرب اسم المجوس لأنهم كانوا يشعلون النار في كل مكان يحلّـون فيـه، وكانوا يحرقون بها جثث الموتى من زعمائهم. وقد ظن العرب أنهم يعبدون النـار كـالمجوس. ومـن الأسماء التي أطلقت عليهم أيضاً: الفايكنج Vikingos أي سكان الخليج، وسبب هذه التسمية أن أصلـهم من اسكندنافية الكثيرة الخلجان. وأصلهم جرماني، وينقسمون إلى ثلاثة أقسام: السـويديين والـنرويجيين والدنماركيين، وهذه المجموعة الأخيرة هي التي هاجمت سواحل الأندلس أكثر مـن مـرة. وقـد وقـع هجومهم الأول في أيام الأمير عبد الرحمن الأوسط. وسأتحدث عن هجومهم المتكرر حسب سياق هـذه الدراسة.

(1) ابن خلدون، تاريخ: ١٦٣/٤-١٦٤.

(2) انظر: ابن عذاري، البيان المغرب: ٨١/٢؛ المقري، نفـح الطيـب: ٣٤٤/١-٣٤٥؛ ابـن خلـدون، تاريخ: ١٦٤/٤؛ ابن الأثير، الكامل في التاريخ: ٢٠٦/٥.

(3) ابن عذاري، البيان المغرب: ٨٢/٢.

بلاد ألبة وأحرقوها وحصروا عدة من الحصون ففتحوا بعضها وصالحه بعضها على مال، وإطلاق الأسرى من المسلمين فغنم أموالاً جليلة القدر، واستنقذوا من أسارى المسلمين وسبيهم كثيراً"[١].

ويذكر ابن عذاري أن وراء فج جرنيق "كان وراءه بسيط للعدو، فيه خزائنه وذخره، فوقع أهل العسكر على تلك البسائط فاستصفوها، وعلى ذخر تلك الخزائن فانتهبوها، واستوعبوا خراب كل ما مروا عليه من العمران والقرى، وأقفروها، وانصرف المسلمون غانمين ظافرين"[٢].

وفي سنة ٢١٠هـ/٨٢٥م أمر الأمير عبد الرحمن الأوسط قائده عبيد الله بن البلنسي بالمسير إلى بلاد العدو على رأس جيش كبير، فالتقى هذا الجيش بجيوش أشتريس في موقعة عند جبل يسمى: جبل المجوس "فاقتتلوا، فانهزم المشركون، وكثر القتل فيهم، وكان فتحاً عظيماً"[٣]. وفي سنة ٢١٢هـ/٨٢٧م سير الأمير عبد الرحمن جيشاً إلى برشلونة "وتردد في تدويخها وانتسافها ستين يوماً"[٤]. ثم سار، وكان بقيادة ابن البلنسي أيضاً، إلى جرندة، وقاتل أهلها[٥].

ولم تنقطع الحملات التي شنها الأمير عبد الرحمن الأوسط خلال السنوات التالية، ففي سنة ٢٢٣هـ/٨٣٨م وجه ثلاثة جيوش إلى مملكة أشتريس كان أحدها بقيادة عمه الوليد بن هشام، وقد دخل هذا الجيش جليقية عن طريق بازو Vizeu "فدخل من باب الغرب مع قطيع من العسكر، فدوخها، وكانت له فتوحات كثيرة"[٦]. أما الجيش الثاني فكان بقيادة شقيق الأمير: سعيد الخير، وقد دخل هذا الجيش ألبة وقشتالة القديمة. وأما الجيش الثالث فكان بقيادة شقيق الأمير: أمية، وقد اقتحم هذا الجيش حصن القرية Alqueria[٧].

---

[١] ابن الأثير، الكامل في التاريخ: ٢٠٦/٥؛ المقري، نفح الطيب: ٣٤٥/١؛ ابن خلدون، تاريخ: ١٦٤/٤

[٢] ابن عذاري، البيان المغرب: ٨٢/٢.

[٣] ابن الأثير، الكامل في التاريخ: ٢١٣/٥.

[٤] ابن عذاري، البيان المغرب: ٨٣/٢.

[٥] ابن الأثير، الكامل في التاريخ: ٢١٦/٥.

[٦] ابن عذاري، البيان المغرب: ٨٥/٢.

[٧] انظر التفاصيل: سالم، تاريخ المسلمين وآثارهم في الأندلس: ٢٤٠.

وكانت سنة ٢٢٤هـ/٨٣٩م من أشد السنوات وطأة على النصارى في عهد الأمير عبد الرحمن الأوسط، ففي هذه السنة سار جيش بقيادة عبيد الله بن عبد الله البلنسي إلى ألبة والقلاع، فهزم النصارى هناك، "وقتل منهم ما لا يحصى، وجمعت الرؤوس أكداساً حتى كان الفارس لا يرى من يقابله"[١]. وفي السنة نفسها أغار لذريق ملك الجلالقة على مدينة سالم (Medinaceli)، فسار إليه القائد المسلم: فرتون بن موسى "في عسكر جرار، فلقيه وقاتله، فانهزم لذريق، وكثر القتل في عسكره"[٢]. ثم سار فرتون إلى حصن كان أهل ألبة قد بنوه نكاية بالمسلمين، وحاصر الحصن حتى افتتحه ثم هدمه[٣]. ثم ما لبث الأمير عبد الرحمن الأوسط نفسه أن تحرك على رأس جيش كبير إلى جليقية "فدوخها، وافتتح عدة حصون منها، وجال في أرضهم، ورجع بعد طول المقام بالسبي والغنائم"[٤].

ووجه الأمير عبد الرحمن الأوسط جيشاً بقيادة عبد الواحد بن يزيد الاسكندراني في سنة ٢٢٦هـ/٨٤١م إلى جليقية، "فتوسط بسيطهم، وذهب بنعمتهم"[٥]. ويبدو أن الأمير الأموي أمر قائده موسى بن موسى، عامل تطيلة بمهاجمة النصارى في جنوبي فرنسا، حيث وصل إلى موقع ذكره المقري باسم (بربطانية) (Barbitania)، ولعلّه المكان الذي تحتله اليوم مدينة: بلطانية (Boltana) الواقعة إلى الشمال الشرقي من مدينة وشقة (Huesca) قرب جبال البرت[٦]. وقد اشتبك موسى بن موسى مع النصارى، فصبر في قتالهم، حتى هزمهم الله[٧].

---

[١] ابن عذاري، البيان المغرب: ٨٥/٢؛ المقري، نفح الطيب: ٣٤٥/١. ابن الأثير، الكامل في التاريخ: ٢٥٨/٥.

[٢] ابن الأثير، الكامل في التاريخ: ٢٥٨/٥.

[٣] المقري، نفح الطيب: ٣٤٥/١؛ ابن الأثير، الكامل في التاريخ: ٢٥٨/٥؛ ابن خلدون، تاريخ: ١٦٥/٤.

[٤] المقري، نفح الطيب: ٣٤٥/١؛ ابن خلدون، تاريخ: ١٦٥/٤؛ ابن عذاري، البيان المغرب: ٨٥/٢ حيث يذكر أن هذه الحملة كانت في سنة ٢٢٥هـ/٨٤٠م.

[٥] ابن عذاري، البيان المغرب: ٨٦/٢.

[٦] المقري، نفح الطيب: ٣٤٥/١.

[٧] المصدر نفسه: ٣٤٥/١؛ ابن خلدون، تاريخ: ١٦٥/٤.

وفي سنة ٢٢٩هـ/٨٤٣م خرج الأمير عبد الرحمن الأوسط بنفسه إلى بنبلونة* (Pamplona) وكان على ميمنته ابنه محمد، وعلى ميسرته ابنه المطرف، فلقي جيشاً كبيراً من النصارى بقيادة غرسية بن ونقه** Garcia Iniguez "فأنزل الله نصره عل المسلمين، وهزموا المشركين، وأثخنوا فيهم القتل"(١). وتذكر بعض المصادر أن المسلمين تمكنوا في أثناء ذلك من قتل غرسية "وهو من أكبر ملوك النصارى"(٢).

وتوجه محمد بن الأمير عبد الرحمن الأوسط في سنة ٢٣١هـ/٨٤٥م على رأس جيش كبير إلى جليقية، وحاصر مدينة ليون، ورماها بالمجانيق. ولما اشتد الحصار على أهلها هربوا منها، ولجأوا إلى الجبال والغياض. فاقتحمها جيش المسلمين وغنم ما فيها. وقد حاول الجيش هدم أسوارها ولكنها استعصت عليه، وخاصة أن عرضها كان نحو سبعة عشر ذراعاً(٣).

ثم وجه الأمير عبد الرحمن الأوسط جيشاً بقيادة عبد الكريم بن مغيث إلى برشلونة، فعاث في نواحيها، ثم تقدم فاجتاز جبال ألبرت "إلى بلاد الفرنجة فدوّخها قتلاً وأسراً وسبياً، وحاصر مدينتها العظمى جرندة، وعاث في نواحيها، وقفل"(٤).

واستكمالاً للحديث عن جهاد الأمير عبد الرحمن الأوسط لا بد من تناول ما أشارت إليه بعض المصادر من علاقة بين المسلمين في عهده وبين الجزائر الشرقية أو جزر البليار(٥)، ثم تناول تصديه لهجوم النورمان (المجوس)، ومن العلاقات بين الأندلس وبين بيزنطة في عهده.

---

* تقع عند المداخل الغربية من جبال البرت، وهي من المناطق التي استقلت عن الحكم الإسلامي في الأندلس.

** هو أحد زعماء البشكنس، خلع أمير نبرة: شانجه، وكان من الأمراء الذين أرسوا دعائم استقلال الإمارة.

(١) ابن عذاري، البيان المغرب: ٨٦/٢؛ وانظر: المقري، نفح الطيب: ٣٤٥؛ ابن خلدون، تاريخ: ١٦٥/٤.

(٢) المقري، نفح الطيب: ٣٤٥/١؛ ابن خلدون، تاريخ: ١٦٥/٤.

(٣) المقري، نفح الطيب: ٣٤٦/١؛ وانظر: ابن عذاري، البيان المغرب: ٨٨/٢؛ ابن خلدون، تاريخ: ١٦٦/٤.

(٤) المقري، نفح الطيب: ٣٤٦/١؛ وانظر: ابن خلدون، تاريخ: ١٦٦/٤.

(٥) جزر البليار: تقع قرب شواطئ الأندلس الشرقية، وتتألف من ثلاث جزر رئيسية كبراها هي جزيرة ميورقة Mallorca ومنورقة Menorca، واليابسة Ibeza.

تعود العلاقات بين المسلمين وجزر البليار إلى سنة ٨٩هـ/٧٠٧م، إذ تذكر بعض المصادر أن موسى بن نصير أثناء ولايته على شمالي إفريقية سيّر ابنه عبد الله "في البحر إلى جزيرة ميورقة فنهبها وغنم منها ما لا يحصى وعاد سالماً"[١]. ويبدو أن ما قام به عبد الله كان حملة استطلاعية تمهّد لفتح الأندلس، أو حملة تأديبية ضد تلك الجزر. ويبدو أيضاً أن المسلمين تمكنوا في وقت سابق لعهد الأمير الأموي عبد الرحمن الأوسط من عقد معاهدة مع أهل تلك الجزر، ثم نقض أهلها تلك المعاهدة، هذا ما تشير إليه بعض المصادر كذلك. إذ يذكر ابن عذاري أن الأمير الأموي عبد الرحمن الأوسط أمر في سنة ٢٣٤هـ/٨٤٨م بتوجيه العساكر إلى أهل جزيرة ميورقة "لنكايتهم وإذلالهم ومجاهرتهم بنقضهم العهد"[٢]. حيث كانوا يتعرضون لمراكب المسلمين التجارية[٣]. "فغزتهم ثلاثمائة مركب، فصنع الله للمسلمين جميلاً، وأظفر بهم، وفتحوا أكثر جزائرهم"[٤].

ويدل ما ذكره ابن عذاري على أن المسلمين عندما هاجموا جزر البليار (ميورقة ومنورقة) كان عقابهم لهم شديداً، فكتبوا إلى الأمير عبد الرحمن الأوسط "يذكرون ما نالهم من نكاية المسلمين لهم"[٥]. وعندئذ كتب الأمير كتاباً أورد ابن عذاري نصه، وهو: "أما بعد، فقد بلغنا كتابكم، تذكرون فيه أمركم، وإغارة المسلمين الذين وجهناهم إليكم لجهادكم، وأصابتهم ما أصابوه منكم من ذراريكم وأموالكم، والمبلغ الذي بلغوه منكم، وما أشفيتم عليه من الهلاك. وسألتم التدارك لأمركم وقبول الجزية منكم، وتجديد عهدكم على الملازمة للطاعة، والنصيحة للمسلمين، والكف عن مكروههم، والوفاء بما تحملونه عن أنفسكم. ورجونا أن يكون فيما عوقبتم به صلاحكم، وقمعكم عن العود إلى مثل الذي كنتم عليه. وقد أعطيناكم عهد الله وذمته"[٦]. وسنلاحظ أن المصادر تتحدث عن فتح هذه الجزر في زمن لاحق كما سيأتي.

---

(١) ابن الأثير، الكامل في التاريخ: ١١٢/٤.

(٢) ابن عذاري، البيان المغرب: ٨٩/٢.

(٣) المصدر نفسه: ٨٩/٢.

(٤) المصدر نفسه: ٨٩/٢.

(٥) المصدر نفسه: ٨٩/٢.

(٦) المصدر نفسه: ٨٩/٢.

هجوم المجوس (النورمان) على سواحل الأندلس:

وقع في عهد الأمير عبد الرحمن الأوسط الهجوم الأول الذي قام به المجوس على سواحل الأندلس، ففي سنة ٢٢٩هـ/٨٤٣م ورد كتاب إلى الأمير من وهب الله بن حزم عامل لشبونة يذكر فيه "أنه حلّ بالساحل قبله أربعة وخمسون مركباً من مراكب المجوس، معها أربعة وخمسون قارباً، فكتب إليه الأمير عبد الرحمن وإلى عمال السواحل بالتحفظ"[١]. ففي السنة المذكورة "خرج المجوس من أقاصي بلاد الأندلس في البحر إلى بلاد المسلمين"[٢]، وكانوا – كما ذكر ابن عذاري – في أكثر من مائة قطعة بحرية ما بين سفينة وقارب، بدت عندما ظهرت "كأنما ملأت البحر طيراً جوناً"[٣]. وقد حلّت أول ما حلت في لشبونة حيث أقام المجوس هناك ثلاثة عشر يوماً "بينها وبين المسلمين بها وقائع"[٤]. ثم تقدم المجوس إلى قادس ومنها إلى شذونة، وتحركوا بعدها إلى إشبيلية[٥]، وفيها كانت المواجهة الرئيسية بينهم وبين المسلمين. ويذكر ابن الأثير أن المجوس حلوا بإشبيلية "ثامن المحرم، فنزلوا على اثني عشر فرسخاً منها، فخرج إليهم كثير من المسلمين، فالتقوا فانهزم المسلمون ثاني عشر المحرم وقتل كثير منهم، ثم نزلوا على ميلين من إشبيلية فخرج أهلها إليهم وقاتلوهم فانهزم المسلمون رابع عشر المحرم، وكثر القتل والأسر فيهم، ولم ترفع المجوس السيف عن أحد ولا عن دابة"[٦]. ويصف ابن عذاري تغلب المجوس على المسلمين في إشبيلية بقوله أنهم عندما وصلوا إليها "احتلّوا بها احتلالاً، ونازلوها نزالاً، إلى أن دخلوها قسراً، واستأصلوا أهلها قتلاً وأسراً، فبقوا بها سبعة أيام، يسقون أهلها كأس الحمام"[٧].

---

[١] ابن عذاري، البيان المغرب: ٨٧/٢؛ وانظر: ابن خلدون، تاريخ: ١٦٥/٤؛ ابن الأثير، الكامل في التاريخ: ٢٧٢/٥؛ المقري، نفح الطيب: ٣٤٤/١؛ ابن القوطية، تاريخ افتتاح الأندلس: ٨٤-٨٥.

[٢] ابن الأثير، الكامل في التاريخ: ٢٧٢/٥.

[٣] ابن عذاري، البيان المغرب: ٨٧/٢، والجون هو ضرب من القطا له بطون وأجنحة سوداء، وقد شبه المعاصرون سفن المجوس بهذا النوع من القطا لأن أشرعتها كانت سوداء.

[٤] ابن الأثير،الكامل في التاريخ:٢٧٢/٥؛ابن خلدون،تاريخ:١٦٦/٤؛ابن القوطية،تاريخ افتتاح الأندلس: ٨٤-٨٥

[٥] ابن عذاري،البيان المغرب:٨٧/٢؛ابن الأثير،الكامل في التاريخ:٢٧٢/٥؛ابن خلدون،تاريخ: ١٦٦/٤.

[٦] ابن الأثير، الكامل في التاريخ: ٢٧٢/٥.

[٧] ابن عذاري، البيان المغرب: ٨٧/٢.

لقد هبّ الأمير عبد الرحمن الأوسط لنجدة إشبيلية "فقدّم على الخيل عيسى بن شُهيد...وكتب إلى عمال الكور في استنفار الناس"[1]، كما قدم لمحاربة المجوس: موسى ابن قسي من أهل الثغر[2]. وقد أعدت هذه الحشود من المسلمين كمائن للمجوس حول إشبيلية، ودارت بين الفريقين معارك شديدة، كان أعنفها ما وقع قرب بلدة طلياطة Tejada بين لبلة وإشبيلية[3]. وقد تمكن المسلمون من هزيمة المجوس في إشبيلية، واضطروا من نجا منهم إلى الفرار نحو مراكبهم، ومن ثم الانسحاب "والناس يناهشونهم ويرمونهم بالحجارة والأوظاف"[4]. وقد بلغ من شدة ما كابده المجوس على يد المسلمين أن عرضوا عليهم إطلاق الأسرى "فكُفَّ عنهم، وأباحوا الفدا فيمن كان عندهم من الأسارى، ففدي الأكثر منهم، ولم يأخذوا في فدائهم ذهباً ولا فضة، إنما أخذوا الثياب، والمأكول، وانصرفوا عن إشبيلية"[5].

لقد قُتل من المجوس في طلياطة عدد كبير "وأحرق من مراكبهم ثلاثون مركباً"[6]، وأسروا منها أربعة مراكب "فأخذوا ما فيها وأحرقوها"[7]. ويذكر ابن عذاري أن عدداً من المجوس لم يتمكنوا من مغادرة إشبيلية، وربما كان ذلك بسبب الهجوم العنيف الذي شنّه عليهم المسلمون، حيث اضطربوا ولم يتمكنوا جميعاً من اللحاق بمراكبهم، وهؤلاء الذين علقوا بإشبيلية رفع منهم عدد كبير في جذوع النخل التي كانت بها[8]. واعتنق بعضهم الإسلام، وتكونت منهم جالية اشتغلت فيما بعد بتربية المواشي وصناعة الألبان وألوان من الجبن التي اشتهرت بها إشبيلية.

---

(1) ابن عذاري، البيان المغرب: ٨٧/٢.

(2) ابن القوطية، تاريخ افتتاح الأندلس: ٨٥.

(3) ابن عذاري، البيان المغرب: ٨٧/٢؛ وانظر: المقري، نفح الطيب: ٣٤٥/١-٣٤٦.

(4) ابن القوطية، تاريخ افتتاح الأندلس: ٨٦.

(5) المصدر نفسه: ٨٦.

(6) ابن عذاري، البيان المغرب: ٨٨/٢.

(7) ابن الأثير، الكامل في التاريخ: ٢٧٢/٥.

(8) ابن عذاري، البيان المغرب: ٨٨/٢.

وبعد خروج المجوس من إشبيلية توجهوا إلى لبلة (Niebla) "فأصابوا سبياً"[1]، ثم نزلوا إلى جزيرة وتقاسموا ما كان معهم من الغنيمة "فحمي المسلمون، ودخلوا إليهم في النهر فقتلوا من المجوس رجلين"[2]. ثم رحل المجوس فطرقوا شذونة فغنموا طعماً وسبياً وأقاموا يومين"[3]. ثم أقلعوا إلى باجة، ومنها إلى لشبونة حيث انقطع خبرهم، وسكنت البلاد، وذلك سنة ٢٣٠هـ/٨٤٤م[4].

كان وقع هجوم المجوس على سواحل الأندلس شديداً، وكان الخلاص منهم عنيداً، فقد استغرقت هجمتهم المتوحشة اثنين وأربعين يوماً، ارتكبوا خلالها فظائع كثيرة قبل أن يتغلب عليهم المسلمون ويتمكنوا من طردهم بعد قتل عدد كبير منهم، وقتل أميرهم[5]. وعندما تخلص منهم المسلمون كتب الأمير عبد الرحمن الأوسط يزف البشرى بذلك إلى أنحاء الأندلس، كما كتب "إلى من بطنجة من صنهاجة، يعلمهم بما كان من صنع الله في المجوس، وبما أنزل فيهم من النقمة والهلكة، وبعث إليهم برأس أميرهم وبمائتي رأس من أنجادهم"[6].

وكان أول ما قام به الأمير عبد الرحمن الأوسط بعد انتهاء هجوم المجوس هو إصدار الأوامر بإصلاح ما خربوه من البلاد[7]، كما أمر ببناء سور إشبيلية لحمايتها مستقبلاً، إذ أشار عليه وزراؤه ببنائه "فوجه لذلك عبد الله بن سنان رجلاً من الموالي الشاميين، وكان قريب الخاصة بعبد الرحمن بن الحكم وهو ولد، ثم استقدمه وهو خليفة، ثم حج البيت، وقدم من الحج ووافق هذه الحركة، فأُخرج لبنيان السور بإشبيلية، واسمه

---

[1] ابن الأثير، الكامل في التاريخ: ٢٧٢/٥؛ المقري، نفح الطيب: ٣٤٦/١؛ ابن عذاري، البيان المغرب: ٨٨/٢.

[2] ابن الأثير، الكامل في التاريخ: ٢٧٢/٥.

[3] المصدر نفسه: ٢٧٢/٥.

[4] المصدر نفسه: ٢٧٢/٥؛ المقري، نفح الطيب: ٣٤٦/١؛ ابن عذاري، البيان المغرب: ٨٨/٢؛ ابن خلدون، تاريخ: ١٦٦/٤.

[5] ابن عذاري، البيان المغرب: ٨٨/٢.

[6] المصدر نفسه: ٨٨/٢.

[7] ابن خلدون، تاريخ: ١٦٦/٤؛ المقري، نفح الطيب: ٣٤٦/١.

على أبوابها"[1]. كما أمر الأمير عبد الرحمن بإنشاء دار لصناعة السفن بإشبيلية، كما استعد بآلات النفط، واهتم بسواحل الأندلس، وأنشأ فيها المحارس لمواجهة أي هجوم مماثل[2].

العلاقات الدبلوماسية بين الأندلس والامبراطورية البيزنطية في عهده*:

أرسل الإمبراطور تيوفيلوس (Theophilus) امبراطور بيزنطة (٨٢٨-٨٤٢م) إلى الأمير عبد الرحمن الأوسط سنة ٢٢٥هـ/٨٣٩م هدية مع وفد، وعرض عليه أن يعقد الطرفان فيما بينهما حلفاً ضد أعدائهما[3]. وكانت الدولة العباسية من ألد أعداء الإمبراطور البيزنطي، وخاصة في عهد الخليفة العباسي المعتصم الذي هزم الإمبراطور تيوفيلوس في معركة قرب أنقرة، ثم تقدم فحاصر مدينة عمورية وفتحها بعد حصار شديد، وهو ذلك الفتح الذي خلّده أبو تمام في قصيدة فتح عمورية:

السيف أصدق أنباء من الكتب   في حده الحد بين الجد واللعب

والعباسيين أيضاً كانوا الأعداء التقليديين لبني أمية، وقد ركز الإمبراطور البيزنطي على هذا الجانب، وبذلك ضرب على الوتر الحساس عندما رغب الأمير الأموي "في ملك سلفه بالمشرق"[4]، وعرض عليه عقد التحالف معه ضد العباسيين الذين اغتصبوا ملك أجداده.

---

(1) ابن القوطية، تاريخ افتتاح الأندلس: ٨٦-٨٧.

(2) ابن القوطية، تاريخ افتتاح الأندلس: ٨٨.

* يشار هنا إلى أن سواحل الإمبراطورية البيزنطية وممتلكاتها كانت تتعرض في عهد الأمير عبد الرحمن الأوسط في الأندلس لغارات المسلمين غير الأندلسيين، فالأغالبة (حكام إفريقية) انتزعوا من تلك الإمبراطورية جزيرة صقلية، وأخذوا يغيرون منها على سواحل بيزنطة حتى بلغوا أسوار روما نفسها. وانتزع الربضيون من بيزنطة جزيرة كريت سنة ٢١٢هـ/٨٢٧م وأغاروا منها على سواحل بيزنطة أيضاً، ودمروا كثيراً من سفنها التجارية في عرض البحر المتوسط، كما كانت جيوش الدولة العباسية تغير على ممتلكات الإمبراطورية في آسيا الصغرى.

(3) المقري، نفح الطيب: ١/٣٤٦؛ ابن خلدون، تاريخ: ٤/١٦٦.

(4) المقري، نفح الطيب: ١/٣٤٦.

وقد استقبل الأمير عبد الرحمن الأوسط وفد الإمبراطور البيزنطي وقبل هديته وكافأه بمثلها[1]. كما أرسل وفداً إلى الإمبراطور برئاسة يحيى الغزال*، وهو "من كبار أهل الدولة، وكان مشهوراً في الشعر والحكمة"[2].

ويفهم من المصادر أن الغزال وصل إلى القسطنطينية عن طريق البحر، وأن الإمبراطور البيزنطي أحسن استقباله، وتسلم منه هدية الأمير الأموي، كما تسلّم رسالة منه يرد فيها على طلب الإمبراطور. ومع أن الأمير لم يلزم نفسه بتقديم أي نوع من المساعدات العسكرية للإمبراطور إلا أن سفارة الغزال بينهما أدت إلى إحكام المواصلة بين الطرفين، وإنشاء علاقة دبلوماسية بين الأندلس وبيزنطة، وعلى أثرها "ارتفع لعبد الرحمن ذكر عند منازعيه من بين العباس"[3].

وهكذا أمضى الأمير الأموي عبد الرحمن الأوسط مدة ولايته التي بلغت نحو إحدى وثلاثين سنة[4] في مقارعة الخطوب من كل نوع، فقد قمع ثورات الثائرين، وتصدى لهجوم المجوس (النورمان)، وخاض العديد من الحروب ضد النصارى، وأوقع بينهم خسائر كبيرة. ومن جهة أخرى تمكن من إقامة علاقات دبلوماسية محكمة مع الإمبراطورية البيزنطية، فطبقت شهرته الآفاق، وأصبح في عداد من تحسب الدولة العباسية حسابهم، فانتزع اعترافها، واعتراف الدول الأخرى بوجوده، ووجود دولة إسلامية قوية ثابتة الأركان في الأندلس.

لقد أفاد الأمير عبد الرحمن الأوسط من الأحداث، وتعلّم من التجارب، وكان تلميذاً نجيباً للمخاطر، فعندما غزا المجوس سواحل بلاده بادر إلى اتخاذ إجراءات دفاعية ضد

---

(1) المقري، نفح الطيب: ٣٤٦/١؛ وانظر: ابن خلدون، تاريخ: ١٦٦/٤.

* كان الغزال عندما وجهه الأمير عبد الرحمن بهذه السفارة إلى بيزنطة قد جاوز السبعين من عمره، ومع ذلك كان يتمتع بدرجة عالية من الحيوية، كما كان ذا بنية قوية. انظر: ابن عذاري، البيان المغرب: ٩٣/٢.

(2) ابن خلدون، تاريخ: ١٦٦/٤؛ وانظر: المقري، نفح الطيب: ٣٤٦/١.

(3) ابن خلدون، تاريخ: ١٦٦/٤؛ المقري، نفح الطيب: ٣٤٧/١.

(4) المقري، نفح الطيب: ٣٤٧/١؛ ابن الأثير، الكامل في التاريخ: ٢٩٢/٥.

أي هجوم مستقبلي، فأمر ببناء سور إشبيلية، كما بنى في مينائها داراً لصناعة السفن، وأنشأ المحارس والرباطات على طول الساحل الغربي المطل على المحيط الأطلسي، وعزز المحارس والرباطات على طول الساحل الشرقي المطل على البحر الأبيض المتوسط. وجعل في المحارس أبراجاً عالية للمراقبة من أجل التحذير عندما تقترب سفن الأعداء[1]. وهو عندما قام بذلك إنما أراد أن لا تتكرر الفظائع التي ارتكبها المجوس أو غيرهم الذين بلغ بهم الحقد على حرمات الله أن "كانوا يحمون سهامهم في النار، ويرمون بها سماء المسجد (في إشبيلية) فكان إذا احترق ما حول السهام سقط"[2].

ولعل من أبرز ما يدل على الرخاء الذي وصلت إليه الأندلس في عهد الأمير عبد الرحمن الأوسط ما انتهت إليه أموال الجباية في عهده، فقد بلغت مليون دينار في السنة، وكانت في عهود سابقيه لا تزيد عن ستمائة ألف دينار[3].

وليس من شك في أن النهج الذي انتهجه عبد الرحمن الأوسط بالمقارنة مع نهج والده الحكم بن هشام هو الذي أوصل الأندلس في عهده إلى قمة الازدهار "فعاش الناس بخير، وكانت رعيته معه بخير"[4]. ومن ذلك تقريبه للقضاة، وخاصة يحيى بن يحيى الليثي الذي كان والده الحكم يطارده بسبب تورطه في فتنة الربض بقرطبة. فقد كان عبد الرحمن "يلتزم من إعظام يحيى بن يحيى وبرّه ما لا يلتزم الابن البار للأب الحاني، وكان لا يولّي القضاء أحداً إلا عن رأيه"[5]. وباعتماده على يحيى انتشر العدل في الأندلس، لأن يحيى كان "إذا أنكر من القاضي شيئاً قال له: استعف وإلا رفعت بعزلك، فكان يستعفي أو يشير يحيى بعزله فيعزل"[6].

---

(1) ابن القوطية، تاريخ افتتاح الأندلس: ٨٨.

(2) المصدر نفسه: ٨٧.

(3) المقري، نفح الطيب: ٣٤٨/١.

(4) ابن القوطية، تاريخ افتتاح الأندلس: ٨٠.

(5) المصدر نفسه: ٨٠؛ وانظر: ابن عذاري، البيان المغرب: ٨٠/٢.

(6) ابن عذاري، البيان المغرب: ٨٠/٢.

ولعل من المفيد هنا إلقاء الضوء على شخصية هذا القاضي، أو قل: قاضي القضاة يحيى بن يحيى الليثي الذي يرجع أصله إلى بربر مصمودة، فقد كان يروي الموطأ بقرطبة عن زياد بن عبد الرحمن اللخمي المعروف بشبطون، وسمع من يحيى بن مضر القيسي الأندلسي، ثم رحل إلى المشرق وهو في الثامنة والعشرين من عمره، وتوجه إلى الحجاز فسمع من مالك بن أنس، فأعجب به مالك، وسماه: عاقل الأندلس، فقد قال: عبد الملك بن حبيب عالم الأندلس، ويحيى بن يحيى عاقلها، وعيسى بن دينار فقيهها"[1]. ولما رجع إلى الأندلس هو وغيره من القضاة "وصفوا من فضل مالك وسعة علمه وجلالة قدره ما عظم به صيته بالأندلس، فانتشر يومئذ رأيه وعلمه بالأندلس"[2].

وقد تمكن يحيى بن يحيى الليثي من استعادة نفوذه في أيام الأمير عبد الرحمن الأوسط بعد أن كان قد فرّ من قرطبة إلى طليطلة عندما ثارت فتنة الربض في أيام الحكم، ثم استأمن فأُمّن، وعاد إلى قرطبة، ووصل في أيام الأمير عبد الرحمن إلى ما ذكرناه من منزلة رفيعة، ونفوذ. وقد توفي سنة ٢٣٤هـ/٨٤٨م[3]، وبوفاته فقد الأمير قاضياً لم تعرف الأندلس قبله قاضياً مثله نزاهةً وشدة على الظلم والظالمين، جريئاً في قول الحق، لا يميز في أحكامه بين الناس، ولا تأخذه في الله لومة لائم. وكان مفخرة من مفاخر عهد الأمير الذي لم يطل به المقام بعده.

توفي الأمير عبد الرحمن الأوسط في ربيع الآخر من سنة ٢٣٨هـ/٨٥٢م[4]، وكانت مدة ولايته إحدى وثلاثين سنة وبضعة أشهر[5]، فقام بالأمر من بعده ابنه محمد.

---

[1] المقري، نفح الطيب: ٩٠٧/٢.

[2] المصدر نفسه: ٤٦/٢.

[3] ابن عذاري، البيان المغرب: ٨٩/٢.

[4] ابن خلدون، تاريخ: ١٦٧/٤؛ المقري، نفح الطيب: ٣٤٧/١؛ ابن عذاري، البيان المغرب: ٩٠/٢؛ ابن الأثير، الكامل في التاريخ: ٢٩٢/٥.

[5] ابن خلدون، تاريخ: ١٦٧/٤؛ المقري، نفح الطيب: ٣٤٧/١؛ ابن الأثير، الكامل في التاريخ: ٢٩٢/٥.

٥. الأمير محمد بن عبد الرحمن (٢٣٨-٢٧٣هـ/٨٥٢-٨٨٦م):

وُلد في ذي القعدة من سنة ٢٠٧هـ/٨٢٢م، وكنيته: أبو عبد الله، وأمه: بُـهير[١]، أو: بهتر[٢]. وقد "بويع يوم الخميس لأربع خلون لربيع الآخر سنة ٢٣٨ وهو ابن ثلاثين سنة وخمسة أشهر"[٣].

سار الأمير محمد على سيرة والده في العدل[٤]، فقد كان "متنزهاً عن القبيح، يؤثر الحق وأهله، لا يسمع من باغ، ولا يلتفت إلى قول زائغ"[٥]. وكان "مكرماً لأعلام الناس من أهل العلم والموالي والأجناد، متخيّراً لعمّاله"[٦]. كما كان "حليماً عفيفاً كاظماً لغيظه، محتملاً حسن الأدب، بصيراً بالحساب"[٧]. وقد أهّله ذلك لأن يقوم بنفسه بمراقبة العمال والموظفين "ويتعقب أمورهم..لنفوذه في الحساب وصحة قريحته، وتمكنه في فنون العلم والآداب، ثم يوقفهم على موضع الخلل والخطأ في أعمالهم"[٨].

والأمير عبد الرحمن – كما يقول ابن الأثير – "هو أول من أقام أبّهة الملك بالأندلس، ورتب رسوم المملكة، وعلا عن التبدل للعامة، فكان يشبَّه بالوليد بن عبد الملك في أبّهة الملك". وقد شهدت الأندلس في عهده ثورات خطيرة تمكن من إخماد بعضها مثل ثورة طليطلة، بينما استمر بعضها الآخر زمناً طويلاً بعده مثل ثورة عمر بن حفصون، وسنتناول فيما يلي جهوده في إخماد هذه الثورات، كما سنتناول نشاطه العسكري في ميدان الجهاد ضد النصارى. وقد أعد لمواجهة هذه المخاطر جيشاً كبيراً بلغ مائة ألف فارس، إضافة إلى أسطول حربي من سبعمائة قطعة[٩].

---

[١] ابن عذاري، البيان المغرب: ٩٣/٢.

[٢] ابن الأثير، الكامل في التاريخ: ٢٩٣/٥.

[٣] ابن عذاري، البيان المغرب: ٩٤/٢؛ ابن خلدون، تاريخ: ١٦٧/٤؛ المقري، نفح الطيب: ٣٥٠/١.

[٤] ابن الأثير، الكامل في التاريخ: ٢٩٢/٥-٢٩٣.

[٥] ابن عذاري، البيان المغرب: ١٠٧/٢؛ وانظر: ابن القوطية، تاريخ افتتاح الأندلس: ٩٢.

[٦] ابن القوطية، تاريخ افتتاح الأندلس: ٩٢.

[٧] مجهول، أخبار مجموعة: ١٤١.

[٨] المصدر نفسه: ١٤٢.

[٩] ابن الكردبوس، تاريخ الأندلس: ٥٧.

ثورة طليطلة:

كانت طليطلة بحكم موقعها وكثرة من فيها من المولّدين موطناً للثورات، وكان معظم سكانها من بني ذي النون. وقد ثاروا على الأمير محمد في سنة ولايته، وسجنوا عامل المدينة عندهم حتى يطلق الأمير رهائنهم من قرطبة* ففعل، وحينئذ أطلقوا عاملها[1]. وكان أهالي طليطلة يكثرون من الإغارة على قلعة رباح المجاورة، حتى خربوا أسوارها، واضطروا أهلها إلى هجرها[2]. وعاث أهالي طليطلة في نواحيها، وكان لا بد من إخضاعهم. وقد أطلق رهائنهم في أول عهده لأنه لم يكن بعد قد أمسك بأزمة الأمور كلها، ولم يرتب أولوياتها. ولكن عندما تم له ذلك، واستقر له الأمر أرسل أخاه الحكم في سنة ٢٣٩هـ/٨٥٣م على رأس جيش إلى قلعة رباح التي أقفرت خوفاً من أهل طليطلة، فاحتلها الحكم وأمر ببنيان سورها، واسترجاع من فرّ من أهلها إليها[3]. وفي السنة نفسها أخرج الأمير محمد إلى طليطلة قائديه: قاسم ين العباس، وتمام بن أبي العطاف، صاحب الخيل، فلما حلاّ بأندوجر (Andujar) فاجأتهما كمائن أهل طليطلة، ووقعت بين الفريقين معركة في شوال من السنة المذكورة "وكثر القتل، فانهزم قاسم وتمام، وأصيب ما في العسكر"[4].

رأى الأمير محمد أن يخرج بنفسه لقتال أهل طليطلة، فخرج في سنة ٢٤٠هـ/٨٥٤م على رأس جيش كبير، وعندما علموا بخروجه طلبوا العون من ملك جليقية أُرْدُن بن إذفونش، وملك البشكنس فأرسلا جيشاً كبيراً لمساعدة ثوار طليطلة، إذ كانت مصلحة النصارى تقتضي إشعال نيران الحروب الأهلية في الأندلس، لأن ذلك يضعفها، ويمكّنهم منها. وقد نمي إلى الأمير محمد استعداء النصارى ضده، فرسم خطة لمواجهتهم، إذ سار في الطريق الروماني الممتد بين قرطبة وطليطلة، وعندما وصل إلى

---

* يشير ابن القوطية إلى أن الأمراء الأمويين جعلوا للرهائن داراً بقرطبة كانت مجاورة لباب القنطرة. انظر: تاريخ افتتاح الأندلس: ١١٢.

[1] ابن عذاري، البيان المغرب: ٩٤/٢.

[2] المصدر نفسه: ٩٤/٢؛ ابن الأثير، الكامل في التاريخ: ٢٩٣/٥؛ ابن خلدون، تاريخ: ١٦٧/٤.

[3] ابن عذاري،البيان المغرب:٩٤/٢؛ابن خلدون،تاريخ:١٦٧/٤؛ابن الأثير، الكامل في التاريخ:٢٩٣/٥.

[4] ابن عذاري، البيان المغرب: ٩٤/٢؛ ابن الأثير، الكامل في التاريخ: ٢٩٣/٥.

السهل الواقع جنوب غرب طليطلة الذي يخترقه وادي سليط* قسم جيشه إلى قسمين، كمن أحدهما في جنبات الوادي، وسار على رأس الجيش الآخر إلى طليطلة، وكان قليل العدد. فلما رآه أهل طليطلة فرحوا، ومنّوا نفسهم بالنصر، وأخبروا النصارى بقلة جيشه، فتشجع هؤلاء وأولئك على مهاجمته. وما إن فعلوا حتى خرجت عليهم الكمائن من كل صوب، وقتلتهم قتلاً ذريعاً[1]. فقد "خرجت الكمائن عن يمين وشمال، وتواترت الخيل أرسالاً على أرسال، حتى غشي الأعداء منهم ظلل كالجبال، فانهزم المشركون وأهل طليطلة، وأخذتهم السلاح هذّاً بالسيوف وطعناً بالرماح، فقتل الله عامّتهم، وأباد جماعتهم"[2]. وبلغت عدة القتلى من النصارى ومن أهالي طليطلة عشرين ألفاً[3]، وكان عدد القتلى من النصارى وحدهم ثمانية آلاف[4]، ذكر ابن عذاري أن رؤسهم جمعت في كومة كبيرة "فصار منها جبل علاه المسلمون يكبّرون ويهللون ويحمدون ربهم ويشكرون"[5]. وقد بعث الأمير محمد برؤوس النصارى إلى قرطبة وإلى سواحل الأندلس وإلى المغرب[6] حتى يكونوا عبرة لمن يتجرأ من النصارى على التدخل في شؤون الأندلس. أما جثث القتلى من الطرفين فقد بقيت على وادي سليط دهراً طويلاً[7].

وفي سنة ٢٤٢هـ/٨٥٦م وجه الأمير محمد ابنه المنذر بالجيوش إلى طليطلة "فحاصرها، وأقام عليها ينسف معائشها"[8]. وكانت جيوشه تنطلق إليها من قلعة رباح التي شحنها الأمير في السنة السابقة ٢٤١هـ/٨٥٥م بالفرسان والرجال "ليقفوا على أهل طليطلة"[9].

---

* هو أحد روافد نهر تاجه.

[1] ابن عذاري، البيان المغرب: ٢/٩٤-٩٥؛ المقري، نفح الطيب: ١/٣٥٠؛ ابن الأثير، الكامل في التاريخ: ٥/٢٩٤؛ ابن خلدون، تاريخ: ٤/١٦٧.

[2] ابن عذاري، البيان المغرب: ٢/٩٥.

[3] المصدر نفسه: ٢/٩٦؛ ابن خلدون، تاريخ: ٤/١٦٧؛ المقري، نفح الطيب: ١/٣٥٠؛ ابن الأثير، الكامل في التاريخ: ٥/٢٩٤.

[4] ابن عذاري، البيان المغرب: ٢/٩٦؛ ابن الأثير، الكامل في التاريخ: ٥/٢٩٤.

[5] ابن عذاري، البيان المغرب: ٢/٩٥.

[6] المصدر نفسه: ٢/٩٥.

[7] ابن الأثير، الكامل في التاريخ: ٥/٢٩٤.

[8] ابن عذاري، البيان المغرب: ٢/٩٦.

[9] ابن الأثير، الكامل في التاريخ: ٥/٢٩٦؛ ابن عذاري، البيان المغرب: ٢/٩٥.

وتمادى أهالي طليطلة كثيراً، وحاولوا مدّ ثورتهم ومن ثم سيطرتهم على المدن القريبة، فخرجوا في سنة ٢٤٣هـ/٨٥٧م إلى طلبيرة لمهاجمتها، فتصدى لهم قائدها: مسعود بن عبد الله العريف "بعد أن كمّن لهم الكمائن، فقتلهم قتلاً ذريعاً، وبعث إلى قرطبة بسبعمائة رأس من رؤوس أكابرهم"[١].

وفي سنة ٢٤٤هـ/٨٥٨م خرج الأمير محمد بن عبد الرحمن بنفسه إلى طليطلة، وكان عدد أهلها المخالفين قد قل "بتواتر الوقائع عليهم، ونزول المصائب بهم"[٢]. وقد وطن النفس على قتل من بقي منهم، أو قتل أكثرهم، وأعدّ خطة لذلك، إذ أمر البنّائين والمهندسين بنقب قنطرة طليطلة في غفلة من أهلها. ثم استدرجهم للقتال فوقها فانهارت بهم "وانطفأت بمن كان عليها من الحماة والكماة، فغرقوا في النهر عن آخرهم. فكان ذلك من أعظم صنع الله فيهم"[٣]. واضطرت هذه الحادثة من بقي من أهل طليطلة إلى طلب الأمان، فعقده الأمير لهم في سنة ٢٤٥هـ/٨٥٩م[٤]. ولكنهم ما لبثوا أن نكثوا[٥].

استقرت الأوضاع في طليطلة بعد أن أعطى أهلها الأمان إثر إخضاعهم، ولم يعودوا إلى العصيان وخلع الطاعة إلا بعد فترة امتدت أكثر من عشر سنوات، وربما كان سبب ذلك كثرة المخالفين الذين قتلوا من أهلها. ولكنهم بعد أن استعادوا توازنهم الذي فقدوه همّوا بالثورة، فخرج إليهم الأمير محمد بن عبد الرحمن بنفسه سنة ٢٥٩هـ/٨٧٢م، وأرغمهم على الرضوخ لسلطته، وفرض عليهم ضريبة من العشور يؤدونها لقرطبة كل عام، كما أخذ رهائنهم ضماناً لحسن التزامهم بطاعته، وعقد لهم الأمان للمرة الثانية[٦]. وأراد الأمير محمد أن يعين على طليطلة عاملاً، ويبدو أنه استشار أهلها في ذلك على أن يختاروا بين أخيه مُطرّف بن عبد الرحمن، وبين رجل من أهل

---

[١] ابن عذاري، البيان المغرب: ٩٦/٢؛ وانظر: ابن الأثير، الكامل في التاريخ: ٢٩٨/٥.

[٢] ابن عذاري، البيان المغرب: ٩٦/٢.

[٣] المصدر نفسه: ٩٦/٢.

[٤] المصدر نفسه: ٩٦/٢.

[٥] ابن خلدون، تاريخ: ١٦٧/٤، ويذكر أن الأمير محمداً أعطاهم الأمان في سنة ٢٤٣هـ/٨٥٧ك. انظر أيضاً: ابن عذاري، البيان المغرب: ١٠١/٢.

[٦] ابن عذاري، البيان المغرب: ١٠١/٢.

طليطلة يدعى طربيشة[1] أو طريشة[2] بن ماسويه، أو محمد بن طريشة[3] على اختلاف في الروايات. فاختلفت أهواء الأهالي بين الرجلين، وعندئذ ولّى الأمير كلاً منهما جانباً من المدينة، حيث تقاسماها "على حدود مفهومة معلومة، ثم تنازعا، وأراد كل واحد منهما الانفراد بملك طليطلة، ثم تغلب الداعون إلى تقديم طربيشة بن ماسويه"[4]. وقد أثّر تقسيم المدينة والتنافس بين زعيميها على الأهالي، ففي السنة نفسها خرج أهل طليطلة لمهاجمة حصن يسميه ابن الأثير "حصن سيكان"[5] "وكان فيه سبعمائة رجل من البربر، وكان أهل طليطلة في عشرة آلاف، فلما التحمت بينهم الحرب انهزم أحد مقدمي أهلها فتبعه أهل طليطلة في الهزيمة، وإنما انهزم لعداوة كانت بينه وبين مقدم آخر اسمه طريشة من أهل طليطلة فأراد أن يوهنه بذلك"[6].

وتكررت الواقعة السابقة في السنة التالية ٢٦٠هـ/٨٧٣م، وكان المستفيد منها هذه المرة موسى بن ذي النون، ففي تلك السنة أغار موسى من شنت برية على أهل طليطلة فخرجوا إليه في نحو عشرين ألفاً، وما إن التحم الطرفان حتى انهزم ابن طربيشة نكاية بالمطرف بن عبد الرحمن، فتبعه أهل طليطلة في الهزيمة، ولكن بعد أن قُتل منهم خلق كثير[7].

---

(١) ابن عذاري، البيان المغرب: ١٠١/٢.

(٢) ابن الأثير، الكامل في التاريخ: ٣٧٠/٥.

(٣) المصدر نفسه: ٣٧٢/٥.

(٤) ابن عذاري، البيان المغرب: ١٠١/٢.

(٥) ابن الأثير، الكامل في التاريخ: ٣٧٠/٥.

(٦) المصدر نفسه: ٣٧٠/٥.

(٧) المصدر نفسه: ٣٧٢/٥؛ وانظر: ابن خلدون، تاريخ: ١٦٨/٤.

ثورة ابن الجليقي* (٢٥٤هـ/٨٦٨م):

ثار عبد الرحمن بن مروان الجليقي في ماردة سنة ٢٥٤هـ/٨٦٨م[1]، وأيده في ثورته رجل من المولدين "يعرف بسعدون السرنباقي"[2]. وكان أهل ماردة قد خالفوا قديماً على الأمير عبد الرحمن بن الحكم "فظفر بهم وتفرق كثير من أهلها"[3]، فخرج إليهم الأمير محمد وهو يتظاهر بأن وجهته طليطلة تمويهاً وتضليلاً لهم. "فلما وصل من قرطبة، وتقدم بالمحلات إلى طريق طليطلة نكب إلى ماردة، فاحتلّ بهم، وهم في أمن وعلى غفلة"[4]. وحاصرهم حصاراً شديداً، ودارت بين الطرفين مناوشات رجحت فيها كفة الثوار، وعندئذ أمر الأمير بتخريب قنطرة طليطلة "فكان ذلك سبباً لإذعان أهل ماردة"[5]. وعندما اضطروا إلى التسليم اشترط عليهم الأمير أن يُخرجوا فرسانهم من المدينة، "وهم يومئذ عبد الرحمن بن مروان (الجليقي)، وابن شاكر، ومكحول، وغير هؤلاء، وكانوا أهل بأس ونجدة وبسالة مشهورة"[6]. فانقادوا إلى التسليم والطاعة، وأخرج الأمير أولئك الفرسان وغيرهم إلى قرطبة، وولى على طليطلة: سعيد بن عباس القرشي، وأمره بهدم سور ماردة، فهدمه، بل لم يبق في ماردة غير قصبتها باعتبارها مقر السلطة الحاكمة في المدينة[7].

---

* هو عبد الرحمن بن مروان بن يونس، يعرف بابن الجليقي أو الجليقي. أصله من جهة الغرب، وهو من المولدين. يصفه ابن القوطية بأن له "من العقل والكيد والبصر بالشر بحيث لا متقدم له فيه" انظر: تاريخ افتتاح الأندلس: ١٠٧؛ وانظر أيضاً: ابن خلدون، تاريخ: ١٦٧/٤.

[1] ابن عذاري، البيان المغرب: ١٠٠/٢،١٠٢.

[2] ابن القوطية: تاريخ افتتاح الأندلس: ١٠٧.

[3] ابن الأثير، الكامل في التاريخ: ٣٣٩/٥.

[4] ابن عذاري، البيان المغرب: ١٠/٢.

[5] المصدر نفسه: ١٠٠/٢؛ ابن الأثير، الكامل في التاريخ: ٣٣٩/٥.

[6] ابن عذاري، البيان المغرب: ١٠٠/٢.

[7] المصدر نفسه: ١٠٠/٢؛ ابن الأثير، الكامل في التاريخ: ٣٣٩/٥.

وظل الجليقي وفرسان ماردة الآخرون في قرطبة تحت مراقبة السلطة المركزية، ولكنهم تمكنوا في سنة ٢٦١هـ/٨٧٤م من الهرب[١]. واستقروا بقلعة حنش[٢] (Alange) على بعد نحو عشرين كيلومتراً إلى الجنوب الشرقي من ماردة. وكانت تلك القلعة حصينة، فامتنع الجليقي فيها، وحاول هو ومن تأبش إليه استرجاع ما كان لهم من نفوذ، غير أن الأمير محمد لم يمكنه من ذلك، فقد ضرب حول القلعة حصاراً شديداً استمر نحو ثلاثة أشهر. ولم يكن في القلعة من المؤن ما يكفي، ولذلك اضطر المحصورون إلى أكل الدواب[٣]. وزاد أمرهم سوءاً قيام الأمير محمد بقطع المياه عن القلعة، كما أخذ يقذفها بالمجانيق[٤]. وعند ذلك طلب الجليقي الأمان، فأمنه الأمير على أن يرحل عن القلعة "فأباح له الأمير محمد الرحيل إلى بطليوس والحلول بها، وهي يومئذ قرية، فخرج إليها، وقفل عنه"[٥].

ولم يلبث الجليقي أن أثار المشكلات مرة أخرى، ففي سنة ٢٦٣هـ/٨٧٥م وقعت مشادة بينه وبين أحد قادة الأمير محمد، وهو هاشم بن عبد العزيز، وسبّ هاشم الجليقي قائلاً له: الكلب خير منك، بل أمر بصفع قفاه، واستبلغ في خزيه، فهرب مع أصحابه، "وكان...قد ابتنى بطليوس حصناً، وجعله موطناً، وأدخل فيه أهل ماردة وغيرهم من أهل المكانفة له على الشر"[٦]. ولا بد أنه كان يعد العدة للعصيان عندما تتهيأ الظروف. وقد تهيأت الظروف في السنة نفسها (٢٦٣هـ/٨٧٥م)، أو هكذا ظنها الجليقي، فقد عاد إلى العصيان سريعاً، واستولى على بعض المدن في كورة إشبيلية "وتوسط أعمالها، وغنم حصن طلياطة بمن فيه، ثم تقدم فشق كورة لبلة، ثم دخل أكشونبة، وضبط بها جبلاً يقال له منت شاقر"[٧] (Monte Sacro). وهكذا تفاقمت ثورة الجليقي، واشتد خطره، فوجه

---

(١) ابن عذاري، البيان المغرب: ١٠٢/٢؛ ابن الأثير، الكامل في التاريخ: ٧/٦.

(٢) ابن عذاري، البيان المغرب: ١٠٢/٢؛ ابن الأثير، الكامل في التاريخ: ٧/٦.

(٣) ابن عذاري، البيان المغرب: ١٠٢/٢؛ ابن الأثير، الكامل في التاريخ: ٧/٦.

(٤) ابن عذاري، البيان المغرب: ١٠٢/٢.

(٥) المصدر نفسه: ١٠٢/٢؛ وانظر: ابن الأثير، الكامل في التاريخ: ٧/٦.

(٦) ابن عذاري، البيان المغرب: ١٠٢/٢.

(٧) ابن القوطية، تاريخ افتتاح الأندلس: ١٠٨.

الأمير محمد ابنه المنذر لقتاله، وكان قائده في هذه الحملة هاشم بن عبد العزيز[١]. وعندما علم الجليقي بمسير الجيش نحوه ترك بطليوس إلى حصن كركي "واجتمع أهل ماردة إليه فيه، فنزل العسكر بمقربة من الحصن"[٢]. فاتفق الجليقي مع شريكه في العصيان سعدون السرنباقي الذي كان حينئذ في حصن من شلوط (Monsalud) على أن يكتب الأخير إلى ألفونسو الثالث بن أردون الأول ملك جليقية يطالب عونهما ضد عسكر الأمير محمد[٣]. كما طلب منه التظاهر بأن رجاله قلّة، ففعل[٤]. وبذلك استطاع خداع القائد هاشم بن عبد العزيز، إذ بادر إلى الخروج له "على غير تعبئة ولا أهبة، في خيل قليلة"[٥]. واستدرج السرنباقي القائد هاشماً إلى أرض وعرة، وهناك شن عليه هجوماً كاسحاً بمساعدة بعض القوات النصرانية[٦]، "فأخذته جراح، وقُتل من أصحابه جماعة، وأُسر هاشم المذكور"[٧]. وكان من الذين قتلوا في هذه المعركة خمسون رجلاً من أشراف العرب والموالي[٨]. وقد أرسل الجليقي والسرنباقي أسيرهما إلى ألفونسو إظهاراً للعرفان بجميله. وقد حبسه ألفونسو في حصن أبيط (Oviedo)، وقبض فداء له بعد نحو عامين مائة وخمسين ألف دينار[٩].

وفي سنة ٢٦٣هـ/٨٧٦م خرج المنذر بن الأمير محمد في طلب الجليقي، فلما علم بوجهته غادر بطليوس، بينما تقدم إليها القائد المنذر، وهو الوليد بن غانم فدمرها، وخرب أسوارها[١٠]. وأدت ملاحقة الجليقي إلى إصابة قواته بالشلل، فاضطر إلى اللحاق

---

[١] ابن عذاري، البيان المغرب: ١٠٢/٢-١٠٣؛ ابن خلدون، تاريخ: ١٦٧/٤-١٦٨؛ ابن الأثير، الكامل في التاريخ: ١٥/٦-١٦؛ ابن القوطية، تاريخ افتتاح الأندلس: ١٠٨.

[٢] ابن عذاري، البيان المغرب: ١٠٢/٢.

[٣] ابن خلدون، تاريخ: ١٦٧/٤-١٦٨؛ ابن الأثير، الكامل في التاريخ: ١٥/٦؛ ابن عذاري، البيان المغرب: ١٠٢/٢-١٠٣.

[٤] ابن عذاري، البيان المغرب: ١٠٢/٢.

[٥] المصدر نفسه: ١٠٣/٢.

[٦] يشير ابن الأثير إلى أن عدد الفرسان الذين كانوا بإمرة القائد هاشم في هذه الواقعة كان تسعمائة، وأنهم قُتلوا عن آخرهم (انظر: الكامل في التاريخ: ١٥/٦-١٦).

[٧] ابن عذاري، البيان المغرب: ١٠٣/٢؛ وانظر: ابن القوطية، تاريخ افتتاح الأندلس: ١٠٨.

[٨] ابن القوطية، تاريخ افتتاح الأندلس: ١٠٨.

[٩] المصدر نفسه: ١٠٨.

[١٠] ابن عذاري، البيان المغرب: ١٠٣/٢.

بألفونسو الثالث، وظلّ في كنفه حتى عام ٢٧٢هـ/٨٨٥م حيث عاد إلى ماردة وبطليوس فهاجمه عبد الله بن الأمير محمد والقائد هاشم بن عبد العزيز وأجبراه على الهروب إلى المرتفعات، إذ امتنع في جبل أشْبرغُزّة (Esparragosa). وتبعته قوات الأمير إلى الجبل، ونازلته وحاربته إلا أنها لم تتمكن منه[١]. إذ أوفد "إليه أميناً فقال له: يا هذا، فقد طال غمُّنا بك وغمك بنا، عرِّفنا بمذهبك. فقال لهم: مذهبي أن يباح لي البشرنل ابتنيها وأمدنها وأعمرها وأقيم الدعوة، ولا تلزمني جباية ولا طاعة في أمر ولا في نهي. وبشرنل هذه تقابل بطليوس وبينهما النهر. فأجيب إلى أن يبني بطليوس دون النهر، ليكون في حزب الإسلام على ما شرطه"[٢]. وهكذا استقل الجليقي ببطليوس، وبنى فيها القصور، وأحاطها بالبساتين، واستبدل بحياة التنقل ثائراً بين الحصون ورؤوس الجبال حياة مستقرة متحضرة[٣].

طمع القائد هاشم بن عبد العزيز بأخذ ثأره من الجليقي بعد أن تمدّن، إذ أصبح من السهل – كما ظن – محاصرته والتغلب عليه، فاتفق هو وعبد الله بن الأمير محمد على أن يخرجا إليه، واستأذنا الأمير في ذلك، فأذن لهما. وسارا إلى إشبيلية، ثم انتقلا إلى لبلة، "فلما بلغ ابن مروان (الجليقي) الخبر أدرك الأمر بعقله وذكائه، فكتب إلى الأمير محمد: بلغني أن هاشماً خرج إلى جهة الغرب، ولست أشك أنه قد أطمعه في أخذ الثأر مني كوني في حصن مغلق، وبالله لئن جاز لبلة إليّ لأضربن بطليوس بالنار، ثم أعود إلى حالي الأول معك"[٤].

وعندما وصل تهديد الجليقي بتدمير بطليوس وإحراقها إلى الأمير محمد أمر ابنه عبد الله وقائده هاشم بن عبد العزيز بعدم التعرض له، وظل الجليقي على طاعة الأمير طوال ما تبقى من عهده[٥].

---

[١] ابن عذاري، البيان المغرب: ١٠٥/٢؛ وانظر: ابن الأثير، الكامل في التاريخ: ٥٩/٦.

[٢] ابن القوطية: تاريخ افتتاح الأندلس: ١٠٨.

[٣] المصدر نفسه: ١٠٩.

[٤] المصدر نفسه: ١٠٩.

[٥] المصدر نفسه: ١٠٩.

ثورة عمر بن حفصون (٢٦٧هـ/٨٨٠م):

تعتبر ثورة عمر بن حفصون من أخطر الثورات التي شهدتها الأندلس، وأطولها مدة، فقد بدأت في سنة ٢٦٧هـ/٨٨٠م[١] في عهد الأمير الأموي محمد بن عبد الرحمن، وامتدت حتى سنة ٣١٦هـ/٩٢٨م حيث تمكن الخليفة الأموي عبد الرحمن الناصر من إخمادها، والقضاء على آخر ثائر رفع لواءها من آل حفصون.

وعمر بن حفصون – كما تذكر المصادر – من مَسَالمة أهل الذمة[٢]، وهو: عمر ابن حفص بن عمر بن جعفر بن شتيم بن ذُبيان بن فرغلوش بن إنفونش، من كورة تاكرنا من عمل رُندة[٣]. وحفصون هو والد عمر (حفص)، حيث عرف بهذا الاسم[٤]. "وكان الذي أسلم منهم: جعفر بن شتيم، ففشا نسله في الإسلام"[٥]، غير أن بعض هؤلاء النسل، وفي مقدمتهم عمر، طمع فأثار الفتنة، "وطالت في الدنيا فتنته، وعظم شره"[٦].

كان عمر بن حفصون يقيم في قرية من قرى كورة ريه تدعى (Torrecilla)، ويرجع سبب ثورته إلى أن عامل ريّه، واسمه دونكير، كان قد ضربه بالسياط "في فساد أخذه فيه"[٧]. ويبدو أنه توقع عقوبة أشد فهرب من الأندلس كلها حيث جاز البحر إلى المغرب، وحل في تاهرت "فصار فيها عند رجل من الخياطين كان أصله من ريّه، وكان يخيط عنده، فبينما هو جالس في حانوته إذ أتاه شيخ معه ثوب يقطعه، فقام إليه الخياط ودفع له كرسياً فقعد عليه، فسمع الشيخ علام ابن حفصون، فأنكره عند الخياط، فقال له: من هذا؟ فقال: غلام من جيراني بريه أتى ليخيط عندي. فالتفت الشيخ إليه فقال له: متى عهدك بريه؟ قال له: منذ أربعين يوماً، قال: تعرف جبل ببشتر؟ فقال له: أنا ساكن عند

---

[١] ابن عذاري،البيان المغرب:٢/١٠٤؛ابن خلدون،تاريخ:٤/١٦٨؛ابن الأثير،الكامل في التاريخ: ٦/٣٦.

[٢] ابن عذاري، البيان المغرب: ٢/١٠٦؛ ابن القوطية، تاريخ افتتاح الأندلس: ١٩.

[٣] ابن عذاري، البيان المغرب: ٢/١٠٦.

[٤] المصدر نفسه: ٢/١٠٦.

[٥] المصدر نفسه: ٢/١٠٦.

[٦] المصدر نفسه: ٢/١٠٤.

[٧] ابن القوطية، تاريخ افتتاح الأندلس: ١٠٩.

أصله. قال له الشيخ: فيه حركة؟ قال لا. قال: قد آن له ذلك. ثم قال له: هل تعرف فيما يجاوره رجلاً يقال له عمر بن حفصون؟ فذعر من قوله، وأحدّ الشيخ النظر إليه، وكان ابن حفصون أفضّ الثنية، فقال له: يا منحوس، تحارب الفقر بالإبرة، إرجع إلى بلدك، فأنت صاحب بني أمية، وسيلقون منك غياً، وستملك ملكاً عظيماً" [1].

ويضيف ابن القوطية إلى هذه الرواية الأشبه بالأسطورة، والتي تلمح إلى أن ثورة ابن حفصون كانت قدراً مكتوباً مع أنها لا تتجاوز كونها ضرباً من الخيال، يضيف أن ابن خلدون – وقد تنبأ له الشيخ بما تنبأ – خاف من بني أبي يقظان، أصحاب تاهرت لأن ولاءهم كان لبني أمية[2]، ولأنهم لو علموا بأنه سيكون له شأن في الأندلس، وأنه سيثور ضد الأمويين هناك فإنهم – دون شك – سيقبضون عليه، وربما يقتلونه. ولذلك قام ابن حفصون من فوره وعاد إلى الأندلس، واتصل سرّاً بعمّه، "وأعلمه بما أعلمه من الشيخ، فقال: لعلّ وعسى"[3]. وبادر عم عمر إلى جمع أربعين رجلاً من أحداثه – حسب تعبير ابن القوطية –، وجعلهم تحت إمرته، فقادهم عمر "واستوطن لأول نفاقة حصن بربشتر (ببشتر)* قاعدة وحضرة، وهي أمنع قلاع الأندلس قاطبة"[4].

ضبط عمر بن حفصون جبل ببشتر وامتنع فيه، ولم يكن وحده في ميدان الثوار، فقد "ثار في جبل الجزيرة بثورته رجل يُقال له: لب بن منذريل، وآخر يقال له: ابن أبي الشعرا"[5]، وقد حاول والي رية: عامر بن عامر أن يقمع ثورة ابن حفصون، إذ تقدم إليه، ولكنه انهزم "وأسلم قبته، فأخذها ابن حفصون، وهو أول من رواق ضربه، فاستكن إليه أهل الشر"[6]. وعندما علم الأمير محمد بن عبد الرحمن بهزيمة عامر عزله عن كورة ريه "وولاها عبد العزيز بن عباس، فهادنه ابن حفصون، وسكنت الحال بينهما، ثم

---

(1) ابن القوطية، تاريخ افتتاح الأندلس: ١٠٩-١١٠.

(2) المصدر نفسه: ١١٠.

(3) المصدر نفسه: ١١٠.

* يقع حصن ببشتر (Bobastro) قرب مدينة مالقة (Malaga) في جنوبي الأندلس.

(4) ابن عذاري، البيان المغرب:٢/١٠٦؛ابن خلدون، تاريخ:١٦٨/٤؛ابن الأثير،الكامل في التاريخ:٣٦/٦

(5) ابن القوطية، تاريخ افتتاح الأندلس: ١١٠.

(6) ابن عذاري، البيان المغرب: ٢/١٠٤.

عُزل عبد العزيز، وتحرك ابن حفصون، وعاد إلى ما كان عليه من الشر"[1]. وانضمت إليه في الجبل جماعات من أهل الشر والفساد وقطاع الطرق. فما كان من الأمير محمد إلا أن أخرج إليه قائده هاشم بن عبد العزيز، فسار هذا القائد إلى كورة ريه "يطلب كل من كشف وجهه في الفتنة وأظهر الخلاف، وأخذ رهائن أهل تاكرنا على إعطاء الطاعة"[2]. غير أنه لم يتمكن من عمر بن حفصون.

وفي سنة ٢٧٠هـ/٨٨٣م تحرك القائد هاشم بن عبد العزيز لإخضاع الثوار في كورة رية وفي الجزيرة، وخاصة عمر بن حفصون، وقد تمكن من ذلك، إذ استنزلهم جميعاً، وقدم بهم إلى قرطبة، وألحقهم في حشم الأمير محمد[3] الذي بالغ في إكرام عمر ابن حفصون تأليفاً له. وكان بإمكان الأمير قتل هذا الثائر الصعب المراس، والتخلص منه، ولكن يبدو أنه خشي إن فعل ذلك أن تشتد ثورة أتباعه، ووتتفاقم خطورتهم، ويهبوا للأخذ بثأره. ولذلك لجأ إلى أسلوب اللين والمسايسة.

انقاد عمر بن حفصون، وأصبح جندياً في عسكر القائد هاشم بن عبد العزيز، وغزا معه في سنة ٢٧٠هـ/٨٨٣م إلى الثغر، ودارت حرب عظيمة مع العدو أبلى فيها ابن حفصون بلاءً حسناً[4]. وفي الثغر تكررت قصة الشيخ الذي يتنبأ لابن حفصون بمستقبل باهر إن هو خلع طاعة الأمويين وحاربهم، إذ يذكر ابن القوطية أن عين بعض الشيوخ من أهل الثغر وقعت على ابن حفصون، فاستقصى خبره، ثم دنا منه قائلاً "إرجع إلى حصنك الذي نزلت منه، فليس ينزلك منه إلا الموت، وستملك من الأندلس قطيعاً عظيماً، وستحارب قرطبة على بابها"[5]. وبتأثير هذه النبوءة أخذ ابن حفصون بتحين الفرصة للهرب، وقد تمكن من ذلك، حيث هرب في سنة ٢٧١هـ/٨٨٤م عائداً إلى جبل ببشتر، وتحصن فيه[6].

---

[1] ابن عذاري، البيان المغرب: ١٠٤/٢؛ وانظر: ابن خلدون، تاريخ: ١٦٨/٤.

[2] ابن عذاري، البيان المغرب: ١٠٤/٢.

[3] ابن القوطية، تاريخ افتتاح الأندلس: ١١٠؛ ابن عذاري، البيان المغرب: ١٠٥/٢.

[4] ابن القوطية، تاريخ افتتاح الأندلس: ١١٠-١١١.

[5] المصدر نفسه: ١١١.

[6] ابن عذاري، البيان المغرب:١٠٥/٢؛ابن خلدون،تاريخ:١٦٩/٤؛ابن الأثير،الكامل في التاريخ:٥٩/٦.

وكان هاشم بن عبد العزيز عندما استنزل عمر بن حفصون من جبل ببشتر في سنة ٢٧٠هـ/٨٨٣م قد أمر ببناء دار في أعلى الجبل "ورتب فيها التجوبي العريف"[١] وترك معه ثلّة من العسكر، وعندما بدأ ابن حفصون يفكر في الهرب من قرطبة "جمع عمه أحداثاً إلى من كان معه فطردوا التجوبي من الجبل، وأخذ ابن حفصون جاريته المعروفة بالتجوبية، وهي أم ولده المكنى بأبي سليمان"[٢].

وهكذا استفحل شر عمر بن حفصون، واشتد خطره، وخاصة عندما ظاهره: حارث بن حمدون من بني رفاعة الذي خلع الطاعة، وثار في مدينة الحامة، ولذلك صمم الأمير محمد على استئصال ثورتيهما، فوجه في سنة ٢٧٣هـ/٨٨٦م ابنه المنذر إلى كورة رية، وقائده محمد بن جهور إلى مدينة الحامة، وقد نازل المنذر الثائرين اللذين اجتمعا في مدينة الحامة، وحاصرها نحو شهرين، وقتل الكثيرين من أتباعهما، ولكنه فوجئ بخبر وفاة والده، فتركها عائداً إلى قرطبة[٣]. والفت الظروف عمر بن حفصون، فصدر في غيه، واستفحل أمره، حتى ملك ما بين الجزيرة الخضراء ومرسية[٤].

---

[١] ابن القوطية، تاريخ افتتاح الأندلس: ١١٢.

[٢] المصدر نفسه: ١١٢.

[٣] ابن عذاري، البيان المغرب: ١٠٦/٢.

[٤] ابن القوطية، تاريخ افتتاح الأندلس: ١١٢.

هجوم المجوس (النورمان) في عهده (٢٤٥هـ/٨٥٩م):

تعرضت الأندلس في عهد الأمير محمد بن عبد الرحمن لهجوم المجوس (النورمان) في سنة ٢٤٥هـ/٨٥٩م[١]، وهو الهجوم الثاني الذي يكتسحون خلاله بعض السواحل، والمدن القريبة منها. وكانوا هذه المرة في اثنين وستين مركباً[٢]، خرجوا فيها إلى ساحل المحيط الأطلسي "فوجدوا البحر محروساً، ومراكب المسلمين معدّة...فتقدم مركبان من مراكب المجوس، فتلاقت بهم المراكب المعدّة، فوافوا هذين المركبين في بعض كور باجه، فأخذوهما بما كان فيهما من الذهب والفضة والسبي والعدّة"[٣].

ومضت بقية مراكب المجوس حتى انتهت إلى مصب نهر إشبيلية في البحر، وعندئذ "بادر الأمير محمد بإخراج الجيش إلى الغرب، واستنفار الناس إلى العدو المطارق، فنفروا من كل أوب، وكان القائد لجيش السلطان نحوهم عيسى بن الحسن بن أبي عبدة الحاجب"[٤]. وعندما انتهت أخبار حشد الجيوش إلى المجوس عدلوا عن مهاجمة إشبيلية، وتقدموا في مراكبهم إلى الجزيرة الخضراء، فتغلبوا عليها، وأحرقوا مسجدها الجامع[٥]. وتحركوا بعدئذ إلى المغرب حيث عاثوا في الأرياف هناك، ثم رجعوا إلى الأندلس فاستباحوا سواحلها الشرقية، إذ انهزم أهل مرسية أمامهم، وتقدموا فدخلوا حصن أريولة[٦]، ثم توجهوا شمالاً، واكتسحوا بعض المناطق في جنوبي بلاد غالة "وأصابوا من النهب والسبي كثيراً ثم انصرفوا"[٧].

---

(١) ابن عذاري، البيان المغرب: ٩٦/٢؛ ابن الأثير، الكامل في التاريخ: ٢٩٨/٥؛ ابن خلدون، تاريخ: ١٦٧/٤.

(٢) ابن عذاري، البيان المغرب: ٩٦/٢.

(٣) المصدر نفسه: ٩٦/٢.

(٤) ابن حيان، المقتبس: ٣٠٧/٢؛ وانظر: ابن عذاري، البيان المغرب: ٩٦/٢-٩٧.

(٥) ابن عذاري، البيان المغرب: ٩٧/٢؛ ابن خلدون، تاريخ: ١٦٧/٤؛ ابن الأثير، الكامل في التاريخ: ٣٠٠/٥.

(٦) ابن الأثير، الكامل في التاريخ: ٣٠٠/٥؛ ابن خلدون، تاريخ: ١٦٧/٤.

(٧) ابن الأثير، الكامل في التاريخ: ٣٠٠/٥؛ وانظر: ابن عذاري، البيان المغرب: ٦٧/٢؛ ابن خلدون، تاريخ: ١٦٧/٤.

عاد المجوس بعد انصرافهم من بلاد غالة أو إفرنجة إلى سواحل الأندلس، وكانوا قد فقدوا نحو أربعين مركباً من مراكبهم، فلقيتهم مراكب الأمير محمد بن عبد الرحمن المزودة بقاذفات النفط، وأصنافاً مختلفة من العدد البحرية، وأعداداً كبيرة من الرماة "فأصابوا مركبين من مراكبهم بريف شذونة، فيهما أموال كثيرة وأمتعة واسعة"[1]. وفي هذه المعركة البحرية مع المجوس استشهد جماعة من المسلمين منهم شخص يُدعى: خشخاش، كان أحد قبطاني الأسطول الحربي الإسلامي. أما القبطان الآخر فهو قرقاشيش ابن شكّوح. وقد أحدقت مراكب المجوس بخشخاش الذي تصدى لهم ببسالة، ويبدو أنهم انفردوا به، وأحدقوا بمركبه فتمكنوا منه[2].

وتذكر المصادر أن ما بقي من مراكب المجوس استأنف الإبحار نحو الغرب، ثم صعدت شمالاً حتى وصلت خليج بسكاي، ومن هناك هاجموا بنبلونة عاصمة نبرة، وأسروا ملكها غرسية بن ونقه (Garcia Iniguez) الذي اضطر إلى افتداء نفسه منهم بمبلغ كبير تقدره بعض المصادر بسبعين ألف دينار[3]، وتقدره مصادر أخرى بتسعين ألفاً[4]. كما أنه اضطر إلى ارتهان بعض أولاده لدى المجوس ضماناً لدفع المبلغ[5].

جهـــاده:

ذكر ابن خلدون أن الأمير محمد بعث لأول ولايته عساكر مع موسى بن موسى عامله على تطيلة "فعاث في نواحي ألبة والقلاع، وفتح بعض حصونها، ورجع"[6]. ويشير ابن عذاري إلى أن هذه الحملة الجهادية تمت في سنة ٢٤١هـ/٨٥٥م، حيث يذكر

---

(١) ابن حيان، المقتبس: ٣٠٨/٢.

(٢) المصدر نفسه: ٣٠٨/٢؛ وانظر: ابن الأثير، الكامل في التاريخ: ٣٠٠/٥؛ ابن خلدون، تاريخ: ١٦٧/٤؛ المقري، نفح الطيب: ٣٥٠/١-٣٥١.

(٣) ابن حيان، المقتبس: ٣٠٩/٢؛ العذري، نصوص عن الأندلس: ١١٩؛ ابن خلدون، تاريخ: ١٦٧/٤.

(٤) ابن الأثير، الكامل في التاريخ: ٣٠٠/٥.

(٥) ابن حيان، المقتبس: ٣٠٩/٢؛ العذري، نصوص عن الأندلس: ١١٩.

(٦) ابن خلدون، تاريخ: ١٦٧/٤؛ المقري، نفح الطيب: ٣٥٠/١.

أن الأمير محمد حشد في السنة المذكورة "ودخل إلى ألبه والقلاع، وبلغ إلى أقصاها، وافتتح كثيراً من حصون المشركين"[1].

وفي سنة ٢٤٢هـ/٨٥٦م طلب الأمير محمد من عامل تطيلة: موسى بن موسى أن يحشد الجيوش، ويتوجه إلى برشلونة، ففعل، إذ وصل إلى برشلونة "ودخلها، وحارب قلاعها، وجازها إلى ما وراء أعمالها، فغنموا كثيراً، وافتتحوا حصناً من أعمال برشلونة يسمى طرّاجة، وهو من آخر حصون برشلونة"[2]. ومن خُمس حصن طراجة تمت زيادة الزوائد في المسجد الجامع بسرقسطة الذي أسسه ونصب محرابه التابعي حنش الصنعاني[3].

وكانت إحدى الحملات الجهادية الكبرى التي وجهها الأمير محمد ضد النصارى قد دفعت في سنة ٢٤٦هـ/٨٦٠م[4] أو سنة ٢٤٧هـ/٨٦١م[5] حسب المصادر التي اختلفت أيضاً في قيادة هذه الحملة، إذ يذكر ابن الأثير أنه قادها بنفسه[6]، بينما أشارت المصادر الأخرى إلى أنها كانت بقيادة أحد قواده، دون أن يعينه[7]. غير أن المصادر أجمعت على أن هذه الحملة كانت كبيرة، فالجيوش كثيرة العدد، والاستعداد كامل. وقد عبر ابن عذاري عن ذلك بقوله: "فخرج في هذه الغزوة خروجاً لم يخرج قبله مثله جمعاً وكثرة، وكمال عدة، وظهور هيبة"[8]. وكان المستهدف في هذه الحملة هو صاحب بنبلونة: غرسية بن ونقة الذي كان يظاهره ضد المسلمين صاحب جليقية: أردون بن ألفونسو[9]. وقد أمضى جيش المسلمين اثنين وثلاثين يوماً "يدوخ أرض بنبلونة...يخوب

---

(1) ابن عذاري، البيان المغرب: ٩٥/٢؛ وانظر أيضاً: ابن الأثير، الكامل في التاريخ: ٢٩٦/٥.

(2) ابن الأثير، الكامل في التاريخ: ٢٩٧/٥؛ ابن عذاري، البيان المغرب: ٩٥/٢؛ ابن خلدون، تاريخ: ١٦٧/٤؛ المقري، نفح الطيب: ٣٥٠/١.

(3) ابن عذاري، البيان المغرب: ٩٥/٢-٩٦.

(4) المصدر نفسه: ٩٧/٢؛ ابن الأثير، الكامل في التاريخ: ٣٠١/٥.

(5) المقري، نفح الطيب: ٣٥١/١.

(6) ابن الأثير، الكامل في التاريخ: ٣٠١/٥.

(7) ابن عذاري، البيان المغرب: ٩٧/٢؛ المقري، نفح الطيب: ٣٥١/١.

(8) ابن عذاري، البيان المغرب: ٩٧/٢؛ وانظر: ابن الأثير، الكامل في التاريخ: ٣٠١/٥.

(9) المقري، نفح الطيب: ٣٥١/١.

المنازل، وينسف الثمار، ويفتح القرى والحصون"[١]. وتمكن المسلمون من أسر "فرتون ابن غرسية المعروف بالأنقر، وقد أُرسل إلى قرطبة، فأقام محبوساً فيها نحو عشرين سنة، ثم أطلق الأمير سراحه، وكان فرتون حينئذ قد بلغ من العمر عتياً، إذ تجاوز مائة وستاً وعشرين سنة[٢].

وسار جيش للمسلمين بالأندلس في سنة ٢٤٧هـ/٨٦١م "إلى مدينة برشلونة، وهي للفرنج، فأوقعوا بأهلها، فراسل صاحبها ملك الفرنج يستمده فأرسل إليه جيشاً كثيفاً. وأرسل المسلمون يستمدون فأتاهم المدد، فنازلوا برشلونة وقاتلوا قتالاً شديداً، فملكوا أرباضها، وبرجين من أبراج المدينة فقتل من المشركين بها خلق كثير، وسلم المسلمون، وعادوا، وقد غنموا"[٣].

وفي سنة ٢٤٩هـ/٨٦٣م أرسل الأمير محمد جيشاً بقيادة ابنه عبد الرحمن إلى ألبة والقلاع، وكان القائد العسكري لهذا الجيش: عبد الملك بن العباس الذي "انتقل في بسائطها من موضع إلى موضع يحطم الزروع، ويقطع الثمار"[٤]. وقد أرسل أردون ابن ألفونسو جيشاً بقيادة أخيه لصد جيش المسلمين، إلا أنه لم يتمكن من ذلك، إذ هزمه ابن العباس وقتل عدداً كبيراً من قواته منهم تسعة عشر من كبار القادة العسكريين[٥].

وشهدت سنة ٢٥١هـ/٨٦٥م حملة كبرى ضد النصارى في ألبة والقلاع، وكان جيش المسلمين في هذه الحملة بقيادة ابن الأمير محمد: عبد الرحمن[٦]. فقد خرج حتى حلّ على نهر دويره حيث توالى وصول العساكر إليه من أنحاء الأندلس، فتضخم جيشه،

---

[١] ابن عذاري، البيان المغرب: ٩٧/٢؛ ابن الأثير، الكامل في التاريخ: ٣٠١/٥.

[٢] ابن عذاري، البيان المغرب: ٩٧/٢؛ ابن الأثير، الكامل في التاريخ: ٣٠١/٥، ويذكر ابن الأثير أن فرتون عندما مات كان عمره ستاً وتسعين سنة. وانظر أيضاً: المقري، نفح الطيب: ٣٥١/١.

[٣] ابن الأثير، الكامل في التاريخ: ٣٠٧/٥.

[٤] ابن عذاري، البيان المغرب: ٩٨/٢؛ وانظر: ابن الأثير، الكامل في التاريخ: ٣١٤/٥.

[٥] ابن عذاري، البيان المغرب/ ٩٨/٢.

[٦] المصدر نفسه: ٩٨/٢، ويذكر ابن الأثير والمقري أن هذه الحملة كانت بقيادة المنذر بن الأمير محمد، أو المنذر أخيه. انظر: الكامل في التاريخ: ٣٢٩/٥؛ نفح الطيب: ٣٥١/١.

وازداد قوة، فتقدم، وأخذ ينتقل من موضع إلى موضع "لا يمر بمسكن إلى خربه، ولا موضع إلا حرقه، حتى اتصل ذلك في جميع بلادهم"[١]. وعندما عم الخراب تلك المناطق، وخاصة منطقة القلاع تقدم صاحبها لذريق بحشوده وعسكره فحلّ على خندق يجاور فج المركويز الذي عرفت به هذه الحملة[٢]. وما لبثت أن نشبت بين الطرفين معركة عنيفة كانت الدائرة فيها على النصارى، فقد قتل المسلمون منهم خلقاً كثيراً، واضطروهم إلى عبور النهر "في غير مخاضة، فمات منهم خلق كثير غرقاً. وكان القتل والأسر فيهم من ضحى يوم الخميس لاثنتي عشرة ليلة خلت من رجب إلى وقت الظهر"[٣]. وهرب من نجا منهم إلى المناطق الوعرة المجاورة، فتبعهم المسلمون يقتلون ويأسرون[٤]. وبعد هذا النصر المؤزّر الذي أحرزه المسلمون قاموا بردم الخندق "وسوّي حتى سُهّل"[٥]، وسلكه المسلمون دونما عائق. ويذكر ابن عذاري أن عدد القتلى من النصارى في هذه الحملة بلغ عشرين ألفاً وأربعمائة واثنين وسبعين شخصاً[٦]. وقد وصفت بعض المصادر هذا النصر بأنه كان فتحاً لا كفاء له[٧].

وخرج عبد الرحمن بن الأمير محمد إلى ألبة والقلاع في سنة ٢٥٢هـ/٨٦٦م "فحارب أهلها، وأفسد زروعها، وغادرها هشيماً"[٨]، وقد أدى إلى نجاح حملته في هذه السنة ما أصاب أهل المنطقة في السنة السابقة من قتل وتدمير، وإذ لم يتح لهم التقاط أنفاسهم، وتجميع قواهم.

---

[١] ابن عذاري، البيان المغرب: ٩٨/٢؛ وانظر: المقري، نفح الطيب: ٣٥١/١؛ ابن الأثير، الكامل في التاريخ: ٣٢٩/٥.

[٢] ابن الأثير، الكامل في التاريخ: ٣٢٩/٥؛ وانظر: ابن عذاري، البيان المغرب: ٩٨/٢-٩٩ حيث يذكر أن لذريق حصّن فج المكويز، فقد سخر فيه أهل مملكته، وقطعه من جانب الهضبة، فارتفع جرفه، وانقطع مسلكه".

[٣] ابن عذاري، البيان المغرب: ٩٩/٢.

[٤] ابن الأثير، الكامل في التاريخ: ٣٢٩/٥؛ ابن عذاري، البيان المغرب: ٩٩/٢.

[٥] ابن عذاري، البيان المغرب: ٩٩/٢.

[٦] المصدر نفسه: ٩٩/٢؛ وانظر: ابن الأثير، الكامل في التاريخ: ٣٢٩/٥ حيث يذكر عدداً أقل بكثير من العدد الذي ذكره ابن عذاري، وهو: ٢٤٩٢ شخصاً، وهذا العدد ربما كان الأرجح.

[٧] المقري، نفح الطيب: ٣٥١/١؛ وانظر أيضاً: ابن الأثير، الكامل في التاريخ: ٣٢٩/٥.

[٨] ابن عذاري، البيان المغرب: ٩٩/٢.

واستمرت النشاطات العسكرية للأمير محمد في ميدان الجهاد في السنوات التالية، غير أنها لم تكن بمثل العنف والقوة وتحقيق النتائج مثل الحملات السابقة، ففي سنة ٢٥٣هـ/٨٦٧م خرج الحكم ابن الأمير محمد في جيش إلى جرنيق "فجال في أرض الأعداء، وحلّ على حصن جرنيق، وحاصره حتى فتحه عنوة"[١].

وفي سنة ٢٦٤هـ/٨٧٧م دخل المنذر ابن الأمير محمد بنبلونة، فخرب كثيراً من حصونها، وعاد سالماً[٢]. ويذكر ابن عذاري أن البرّاء بن مالك، وهو أحد القادة العسكريين للأمير محمد، قد دخل في هذه السنة "من باب قلنبرية إلى جليقية بحشود الغرب، وتردد هنالك حتى أذهب نعيمهم"[٣].

واستأنف الأمير محمد بن عبد الرحمن حرب الاستنزاف ضد ألبة والقلاع في سنة ٢٦٨هـ/٨٨١م، ففي تلك السنة وجه ابنه المنذر إليهما فافتتح حصوناً كثيرة هناك[٤]. وكانت تلك آخر حملة يوجهها الأمير محمد لحرب النصارى، فقد انشغلت جيوشه بعد ذلك بحرب الثوار وخاصة عمر بن حفصون وابن مروان الجليقي، ثم ما لبث أن داهمته المنية في سنة ٢٧٣هـ/٨٨٦م[٥]، حيث توفي ليلة الخميس في اليوم الأخير من شهر صفر من تلك السنة بينما كان ابنه المنذر يقاتل عمر بن حفصون وحارث بن حمدون الرفاعي في مدينة الحامة[٦]. وكان عندما توفي ابن خمس وستين سنة، وقد استمرت مدة حكمه للأندلس أربعاً وثلاثين سنة وأحد عشر شهراً[٧].

---

[١] ابن عذاري، البيان المغرب: ٩٩/٢؛ وانظر: ابن الأثير، الكامل في التاريخ: ٣٣٧/٥.

[٢] ابن الأثير، الكامل في التاريخ: ١٩/٦؛ وانظر: ابن خلدون، تاريخ: ١٦٨/٤؛ المقري، نفح الطيب: ٣٥١/١.

[٣] ابن عذاري، البيان المغرب: ١٠٣/٢.

[٤] ابن خلدون، تاريخ: ١٦٨/٤-١٦٩؛ المقري، نفح الطيب: ٣٥١/١؛ وانظر: ابن الأثير، الكامل في التاريخ: ٣٩/٥.

[٥] ابن عذاري، البيان المغرب: ١٠٦/٢.

[٦] المصدر نفسه: ١٠٦/٢؛ ابن الأثير، الكامل في التاريخ: ٦١/٦.

[٧] ابن الأثير، الكامل في التاريخ: ٦١/٦؛ ابن خلدون، تاريخ: ١٦٩/٤؛ المقري، نفح الطيب: ٣٥٢/١؛ ابن عذاري، البيان المغرب: ٩٤/٢.

٦. المنذر بن محمد بن عبد الرحمن بن الحكم (٢٧٣-٢٧٥هـ/٨٨٦-٨٨٨م):

كنيته: أبو الحكم، وقد ولد لسبعة أشهر سنة ٢٢٩هـ/٨٤٣م، وأمه تسمى أثـل[١]. قاد في حياة أبيه الجيوش، وصال في بلاد النصارى مجاهداً، "وكـان أبطـال الرجـال وأنجادهم من أهل الفتنة يذعنون إليه دون محنـة، ويرسـلون إليـه بالطاعـة قبـل أن يطلبها"[٢]. ولذلك فإنه عندما تولى الحكم كان ذا خبرة وتجربة، وانضاف إلى ذلـك مـا توافر فيه من صفات كالشجاعة والحكمة والحزم "والإكرام لأهـل العلـم والصـلاح، والاصطناع لكل من أخذ بحظ من علم وأدب"[٣] ليجعل من الأمير المنذر أميراً بلغ فـي سنه ما لم يبلغه غيره[٤].

كان الأمير المنذر عندما توفي والده الأمير محمد غائباً في كورة ريـة يحـاصر العصاة، ولما علم بوفاته قفل إلى قرطبة فدخلها "يوم الأحد لثلاث خلون من شهر ربيـع الأول"[٥]، فأدرك جنازة أبيه وصلى عليه، وبعد ثلاث ليالٍ بويع له وذلك في ربيع الأول من سنة ٢٧٣هـ/٨٨٦م[٦]، وهو ابن أربع وأربعين سنة وسبعة عشر يوماً[٧]. وبعـد أن تمت له البيعة "فرق العطاء في الجند، وتحبب إلى أهل قرطبة والرعايا بأن أسقط عنـهم عُشر العام، وما يلزمهم من جميع المغرم"[٨]، وكانت نتيجة ذلك أن أطاعه الناس، وانقاد معظمهم له[٩].

---

(١) ابن عذاري، البيان المغرب: ١١٣/٢.

(٢) المصدر نفسه: ١٢٠/٢.

(٣) ابن القوطية، تاريخ افتتاح الأندلس: ١١٩.

(٤) ابن عذاري، البيان المغرب: ١١٣/٢.

(٥) مجهول، أخبار مجموعة: ١٤٩.

(٦) ابن الأثير، الكامل في التاريخ: ٦١/٦؛ ابن عذاري، البيان المغرب: ١١٤/٢ حيث يذكر أنه بويع لـه في اليوم الثاني من وصوله إلى قرطبة قادماً من حصن الحامة حيث كان يقاتل عمر بن حفصون.

(٧) ابن عذاري، البيان المغرب: ١١٣/٢.

(٨) المصدر نفسه: ١١٤/٢.

(٩) ابن الأثير، الكامل في التاريخ: ٦١/٦؛ ابن عذاري، البيان المغرب: ١١٤/٢، ١٢٠.

لقد كان الأمير المنذر مؤهلاً تأهيلاً عالياً لقيادة الأندلس بعد وفاة والده، يدل على ذلك ما كان يتمتع به – إضافة إلى الصفات السابقة – من سعة أفق، وإحكام الأمور، فعندما بلغته وفاة والده لم يشغله الجزع عليه عن القيام بما رأى أن من واجبه القيام به، لأنه كان من أولئك الرجال الذين لا يشغلهم أمر مهم ولا أمر جليل عن آخر، فهو لم يسر مباشرة إلى قرطبة، وإنما "جعل طريقه على رية، فهذب أمورها، وولّى عليها سليمان بن عبد الملك بن أخطل، وعبد الرحمن بن حُريش، وأدخل معهما أهل المعاقل من العرب والحشم"[(١)].

وما من شك في أن الصفات التي تميز بها المنذر توحي بمقدرته على قيادة الأندلس إلى برّ الأمان، وبعزمه على وأد الفتن وإخماد الثورات، إلا أن العمر لم يطل به ليحقق ذلك، فقد وافته المنية بعد أقل من سنتين من ولايته، وهي فترة قصيرة لم تمكّنه من القيام بنشاطات عسكرية ملحوظة في ميدان الجهاد، أو القضاء المبرم على الفتن، وخاصة فتنة عمر بن حفصون التي بدأت في عهد والده، وكان له دور مؤثر في محاولات القضاء عليه، وهي محاولات استمر في القيام بها، وكان ذلك من أبرز الأحداث في عهده، ومن أبرز هذه الأحداث أيضاً قيامه بقتل قائد الجيش هاشم بن عبد العزيز متأثراً بأقوال الوشاة الذين أوغروا صدره ضده. وسنتناول فيما يلي هذه الأحداث.

ثورة ابن حفصون في عهده:

ظل عمر بن حفصون صادراً في غيّه، بل حاول توسيع نطاق ثورته عندما بلغه موت الأمير محمد، إذ "نهض من فوره، فراسل الحصون التي بينه وبين الساحل كلها، فأجابته وطاعت له"[(٢)]. وهكذا زادت الرقعة التي أصبح ابن حفصون يسيطر عليها، وكثر أتباعه من أهل الشر والفساد، فاستفحل خطره، وصارت له دولة في داخل الدولة الإسلامية في الأندلس. ويفسر ابن عذاري أسباب نجاحه، وإقبال كثير من الناس للانضواء تحت لوائه بقوله: "كل ذلك منه بلا قوة ولا كثرة من مال، ولا عدد؛ ولكنه

---

(١) ابن عذاري، البيان المغرب: ١٢٠/٢.

(٢) المصدر نفسه: ١١٤/٢.

كان عذاباً من الله ونقمة انتقم بها من عبيده. واتفق له زمان هرج وقلوب قاسية فاسدة ونفوس خبيثة، متطلعة إلى الشر، مشرئبة إلى الفتنة. فلما ثار وجد من الناس انقياداً وقبولاً للمشاكلة والموافقة، فتألبت له الدنيا، ودخل إلى الناس من جهة الألفة، وقال: "طال ما عنّف عليكم السلطان، وانتزع أموالكم، وحملكم فوق طاقتكم، وأذلتكم العرب واستعبدتكم! وإنما أريد أن أقوم بثأركم، وأخرجكم من عبوديتكم، فكان ابن حفصون لا يورد هذا على أحد إلا أجابه وشكره. فكانت طاعة أهل الحصون بهذا الوجه. وكان أتباعه شُطّار الناس وشرارهم. فكان يمنيهم بفتح البلاد، وغنائم الأموال"[1].

وإلى جانب العوامل النفسية التي كان ابن حفصون يركز عليها لاجتذاب الناس إليه، كان يجذبهم أيضاً بحسن سيرته في أتباعه، وفي المناطق التي فرض سيطرته عليها، فقد كان – مع شرّه وفسقه – شديد الغيرة، حافظاً للحرمة "ولقد كانت المرأة في أيامه تجيء بالمال والمتاع من بلد إلى بلد منفردة لا يعترضها أحد من خلق الله"[2]. وإضافة إلى نشره الأمن والاستقرار في مناطقه كان يحرص على العدل بين أتباعه حتى أنه "كان يأخذ الحق من ابنه، ويبرّ الرجال، ويكرم الشجعان، وإذا قدر عليهم عفا عنهم"[3].

وما يمكن استنتاجه من صفات ابن حفصون أنه لم يكن ثائراً عادياً يسهل القضاء عليه، وإنما كان صعب المراس، قوي التأثير في أتباعه، ولذلك عجز الأمير محمد عن إخضاعه رغم الحملات المتلاحقة التي وجهها لمحاربته، والتي كان آخرها بقيادة المنذر الذي ما إن عاد إلى قرطبة بسبب وفاة أبيه حتى نهض ابن حفصون لتوسيع نطاق ملكه، مما جعله الشغل الشاغل للأمير المنذر.

لقد استولى ابن حفصون على كثير من القرى والحصون في منطقة إلبيرة وأحواز جيان، وتمكن من أسر عامل باغُه: عبد الله بن سماعة[4]. كما اجتمع عدد من أتباع ابن

---

(1) ابن عذاري، البيان المغرب: ٢/١١٤.

(2) المصدر نفسه: ٢/١١٤.

(3) المصدر نفسه: ٢/١١٤-١١٥.

(4) المصدر نفسه: ٢/١١٥.

حفصون في حصن آشر القريب من قبرة "فراع أهل قبرة أمرهم وهابوهم"[1]. وعندما وصل خبرهم إلى الأمير المنذر أرسل قوة من الفرسان بقيادة أصبغ بن فطيس، فحاصر حصن آشر حتى افتتحه، وقتل من فيه. كما وجه قوة أخرى "إلى ناحية لجّانة من قبرة، وكان بها مسلحة لابن حفصون، فنازلوهم وقاتلوهم حتى أفنوهم"[2].

ويبدو أن الأمير المنذر بن محمد كان في أثناء إرساله السرايا لاستنزاف قدرات ابن حفصون يواصل استعداداته لخوض معركة فاصلة معه، فقد أعد الجيوش وخرج لحربه في سنة ٢٧٤هـ/٨٨٧م[3]. وقد ابتدأ حملته بالإغارة على حصون ابن حفصون في مناطق ريه وقبره وأخضعها، ثم توجه إلى قاعدته في ببشتر، وحاصره زمناً، وأتلف ما حوله من زروع وثمار تضييقاً عليه. ثم توجه إلى أرجذونة، وكان فيها رجل معتز بشجاعته يدعى: عيشون، وهو من أتباع ابن حفصون وقادته. وقد أقام المنذر على أرجذونة محاصراً لها، ومضيّقاً على أهلها حتى اضطرهم إلى أن يقوموا بأنفسهم بالقبض على عيشون وتسليمه للأمير المنذر الذي أمر بصلبه[4]. كما قبض المنذر في جبل باغُه على عدد كبير من بني مطروح الذين كانوا يظاهرون ابن حفصون، وأرسلهم إلى قرطبة، "وكانوا اثنين وعشرين رجلاً، فصلبوا بأجمعهم"[5].

وبعد أن تمكن الأمير المنذر من القضاء على الكثيرين من أعوان عمر بن حفصون وأنصاره عاد إلى محاصرته "فلما رأى الأمير أخذ بمخنقه، وسد أفواه طرقه، أعمل سوانح الفكر في الخديعة والمكر،...فأظهر الإنابة إلى الطاعة، وشهر النصيحة جهد الاستطاعة، على أن يكون عند الأمير من خاصة جنده، ويسكن قرطبة بأهله وولده"[6].

---

(1) ابن عذاري، البيان المغرب: ١١٥/٢.

(2) المصدر نفسه: ١١٥/٢.

(3) ابن خلدون، تاريخ: ١٦٩/٤؛ ابن عذاري، البيان المغرب: ١١٦/٢.

(4) ابن خلدون، تاريخ: ١٦٩/٤؛ ابن عذاري، البيان المغرب: ١١٦/٢-١١٧.

(5) ابن عذاري، البيان المغرب: ١١٦/٢-١١٧.

(6) المصدر نفسه: ١١٧/٢.

وقد انطلت الحيلة على الأمير المنذر، فاستجاب لابن حفصون وصالحه[١] بعد أن أقسم له بأكيد الأيمان أنه لن يعود إلى خلع الطاعة[٢].

بالغ الأمير المنذر في إكرام عمر بن حفصون بعد عقد الصلح بينهما، فقد "قطع لأولاده أرفع الثياب، وأوقرت له الدواب بالأموال والأسباب، إسباغاً عليهم بالإفضال، وتوسيعاً لهم في الأماني والآمال"[٣]. كما قام الأمير بتزويد ابن حفصون بمائة بغل يحمل عليها متاعه وعياله "وقد جعل عليها عشرة من العرفاء بمائة وخمسين فارساً إتماماً للإكرام، وإنعاماً على إنعام"[٤]. وكان ابن حفصون يوم انعقد الصلح محاصراً في حصن قريب من ببشتر، وبعد انقضاء الصلح وجه ابن حفصون البغال إلى ببشتر موهماً الأمير بأنه إنما يريد أن يحمل عليها أمتعته وعياله من هناك إلى قرطبة، وكان من نتائج الصلح أن انحل العسكر المحاصر لابن حفصون، وتفرق. وعندما حل الليل هرب ابن حفصون في جمع من أصحابه إلى ببشتر، حيث لحق بالبغال والعرفاء، وقتلهم، وأخذ البغال، وعاد سيرته الأولى[٥]. وعندئذ "أقسم الأمير المنذر أن يقصده ويحل عليه، ولا يقبل منه، أو يلقي بيده إليه، فأعمل الغزو إلى بربشتر (ببشتر) وجمع لها الجمع الأكبر. فلما احتل عليها أمر أن يُحدق بها، ويحاط بجوانبها، وأن يعتزم لقتالها اعتزاماً، ويلتزم محاصرتها التزاماً"[٦].

ظل الأمير المنذر محاصراً لابن حفصون في ببشتر ثلاثة وأربعين يوماً[٧]، وقد أصيب في أثناء ذلك بمرض شديد لم يمهله طويلاً، إذ توفي في صفر من سنة ٢٧٥هـ/٨٨٨م وهو محاصر لعمر بن حفصون في ببشتر[٨].

---

[١] ابن عذاري، البيان المغرب: ٢/١١٧-١١٨؛ ابن خلدون، تاريخ: ٤/١٦٩.

[٢] ابن عذاري، البيان المغرب: ٢/١١٨.

[٣] المصدر نفسه: ٢/١١٨.

[٤] المصدر نفسه: ٢/١١٨.

[٥] المصدر نفسه: ٢/١١٨؛ وانظر: ابن خلدون، تاريخ: ٤: ١٦٩.

[٦] ابن عذاري، البيان المغرب: ٢/١١٨.

[٧] المصدر نفسه: ٢/١١٨.

[٨] ابن عذاري، البيان المغرب: ٢/١١٨-١١٩؛ ابن خلدون، تاريخ: ٤/١٦٩؛ مجهول، أخبار مجموعة: ١٥٠؛ ابن القوطية، تاريخ افتتاح الأندلس: ١٢٠؛ المقري، نفح الطيب: ١/٣٥٢.

وهكذا فشل الأمير المنذر في إخضاع عمر بن حفصون، ويمكن أن يُعزى هذا الفشل إلى أكثر من سبب، فمن أسباب ذلك ما أشرنا إليه من حنكة ابن حفصون، وقدرته على سبك الحيل من ناحية، وكثرة أتباعه من ناحية أخرى. وهناك سبب آخر ربما كان له تأثير قوي في عدم قدرة الأمير المنذر على استنزاله، وهو ضعف القيادة العسكرية لديه بعد قتله قائده المحنك، الواسع الخبرة: هاشم بن عبد العزيز.

كان هاشم بن عبد العزيز وزير الأمير محمد أبي المنذر، وخاصته، وقائده الذي كان أكثر اعتماداً عليه من القادة الآخرين، ولذلك كثر حسّاده. وقبل وفاة الأمير محمد أخذوا يسعون به لدى المنذر، وينفرونه منه، وكرروا ذلك كثيراً حتى تنافرت النفوس، ولكن ذلك التنافر لم يبلغ بالمنذر درجة التفكير في إعدام هاشم. بل إن الأمير عندما ولي عزم على الوفاء لهاشم بسبب مكانه من أبيه، فولاّه الحجابة[1]. ولما رأى حسّاده ذلك "تمالؤوا عليه، وأكثروا، وحرّفوا عليه الكلام، وتأولوا عليه أقبح التأويل"[2]. ومما تأولوا عليه قوله متمثلاً بشعر لأبي النواس، وهو "يعول إعوال من غلبه الجزع واشتد عليه التفجع"[3] عندما توفي الأمير محمد[4]:

أعزّي يا محمد عنك نفسي	أمين الله ذا المنن الجسامِ
فهلاّ مات قوم لم يموتوا	ودوفع عنك لي كأس الحمامِ

فقد أدخلوا في روع الأمير المنذر أنه إنما يقصده في قوله: "فهلا مات قوم لم يموتوا"، فاضطغن الأمير ذلك عليه، وأمر بسجنه في جمادى الأولى من سنة ٢٧٣هـ/٨٨٦م[5].

---

(١) ابن عذاري، البيان المغرب: ١١٥/٢.

(٢) المصدر نفسه: ١١٥/٢.

(٣) مجهول، أخبار مجموعة: ١٤٩.

(٤) المصدر نفسه: ١٤٩؛ وانظر: ابن عذاري، البيان المغرب: ١١٦/٢.

(٥) ابن عذاري، البيان المغرب: ١١٥/٢؛ مجهول، أخبار مجموعة: ١٤٩.

ويروي ابن عذاري شعراً كتبه هاشم بن عبد العزيز من حبسه إلى جاريته (عاج)، يشير فيه بوضوح إلى أنه كان يعرف ما يُحاك ضده، وأن أصدقاءه نصحوه بالفرار، ولكنه رفض أن تلحق به مذلة الفرار، وفضل مواجهة مصيره على ذلك، يقول[١]:

وإني عداني أن أزورك مَطْبَقٌ	وبابٌ منيعٌ بالحديد مضبَّبُ
فإن تعجبي يا عاجُ مما أصابني	ففي ريب هذا الدهر ما يتعجبُ
تركت رشاد الأمر إذ كنتُ قادراً	عليه، فلاقيتُ الذي كنت أرهبُ
وكم قائلٍ قال: انجُ ويحك سالماً	ففي الأرض عنهم مستراد ومذهبُ
فقلت له: إن الفرار مذلة	ونفسي على الأسواء أحلى وأطيبُ
سأرضى بحكم الله فيما ينوبني	وما من قضاء الله للمرء مهربُ
فمن يكُ أمسى شامتاً بي فإنه	سينهل في كأسي وشيكاً ويشربُ

وما لبث المنذر أن قتل هاشم بن عبد العزيز في الليلة التي سُجن فيها، "وسجن أولاده وحاشيته، وانتهب ماله، وهدم داره...وألزمهم غرم مائتي ألف دينار، فلم يزالوا في السجن والغرم إلى موت المنذر"[٢].

وتوفي المنذر في منتصف شهر صفر من سنة ٢٧٥هـ/٨٨٨م وهو محاصر لعمر بن حفصون في ببشتر، وقد أمضى من الزمن أميراً للأندلس سنة وأحد عشر شهراً ونصف الشهر[٣].

---

[١] ابن عذاري، البيان المغرب: ١١٦/٢.

[٢] المصدر نفسه: ١١٦/٢؛ وانظر: ابن القوطية، تاريخ افتتاح الأندلس: ١١٩.

[٣] ابن عذاري، البيان المغرب: ١١٩/٢؛ ابن القوطية، تاريخ افتتاح الأندلس: ١٢٠؛ مجهول، أخبار مجموعة: ١٥٠؛ ابن الأثير، الكامل في التاريخ: ٦٥/٦؛ ابن خلدون، تاريخ: ١٧٠/٤؛ المقري، نفح الطيب: ٣٥٢/١.

٧. عبد الله بن محمد بن عبد الرحمن بن الحكم (٢٧٥-٣٠٠هـ/٨٨٨-٩١٢م):

ولي الأمير عبد الله يوم وفاة أخيه الأمير المنذر، وكان ذلك في منتصف صفر من سنة ٢٧٥هـ/٨٨٨م[١]، فعندما توفي المنذر "كان أخوه عبد الله بن محمد الوالي بعده معه في الجيش، فأجمع من حضر الغزاة...عليه، فبويع"[٢]. وقد أشار عليه بعضهم أن يدفن أخاه حيث توفي "فأنف من ذلك حتى قدم به قرطبة فدفنه مع آبائه في القصر"[٣].

وكان الأمير عبد الله عندما انتهت إليه إمارة الأندلس قد بلغ السادسة والأربعين من عمره، فقد ولد في منتصف ربيع الآخر من سنة ٢٢٩هـ/٨٤٣م[٤]، وأمه تسمى: بَهَار[٥]، وقيل: عشار[٦]. ومن أبرز الصفات التي نشأ عليها ولازمته أنه كان مقتصداً "يظهر ذلك في ملبسه وشكله وجميع أحواله، وكان حافظاً للقرآن، كثير التلاوة له...وكان...شديد الوطأة على ذوي الظلم والجور...متفنناً في ضروب العلوم، بصيراً بلغات العرب، فصيح اللسان"[٧]. "وكان عادلاً لا يجعل بينه وبين المظلوم ستراً"[٨].

لقد ورث الأمير عبد الله إمارة تكتنفها الأخطار، ويحيط بكرسيها المتربصون، ففي كل موقع منتز، وفي كل جهة ثائر، وفي كل مكان متوثب. وكل هؤلاء طامعون بكرسي الإمارة، عازمون على الإطاحة به. وقد شعر الأمير عبد الله بذلك وأدركه منذ اليوم الأول لعهده، فالناس عندما علموا بوفاة المنذر "انصدعوا في كل وجهة كانوا بها، وأمر

---

(١) ابن الأثير، الكامل في التاريخ: ٦٥/٦؛ ابن خلدون، تاريخ: ١٧٠/٤؛ ابن عذاري، البيان المغرب: ١٢١/٢؛ ابن القوطية، تاريخ افتتاح الأندلس: ١٢٠؛ مجهول، أخبار مجموعة: ١٥٠.

(٢) ابن القوطية، تاريخ افتتاح الأندلس: ١٢٠.

(٣) مجهول، أخبار مجموعة: ١٥٠.

(٤) ابن عذاري، البيان المغرب: ١٢٠/٢.

(٥) المصدر نفسه: ١٢٠/٢.

(٦) المصدر نفسه: ١٢٠/٢؛ ابن الأثير، الكامل في التاريخ: ٦٥/٦.

(٧) ابن عذاري، البيان المغرب: ١٥٢/٢-١٥٣.

(٨) المصدر نفسه: ١٥٣/٢.

بضبطهم فلم يلف أحداً يضبط"[١]. وإذا كانت هذه هي البداية فإن ما أصبح عليه الوضع في عهد الأمير عبد الله كان أصعب. ففي أيامه امتلأت الأندلس بالفتن "وصار في كل جهة متغلب"[٢]، فقد انتزى أكثر أهل الأندلس، فاضطربت نواحيها بالثوار[٣]. "وقد تمالأ على أهل الإيمان حزب الشيطان، وصار الناس من ذلك في ظلماء ليل داج، لا إشراق لصباحه، ولا أفول لنجمه. وتألب على أهل الإسلام أهل الشرك ومن ضاهاهم من أهل الفتنة الذين جردوا سيوفهم على أهل الإسلام، فصار أهل الإسلام بين قتيل ومحروب ومحصور، يعيشون مجهوداً، ويموت هزلاً، قد انقطع الحرث، وكاد ينقطع النسل...وانقطع الجهاد إلى دار الحرب، وصارت بلاد الإسلام بالأندلس هي الثغر المخوف"[٤].

وباشتداد شوكة الثوار في الأندلس قلّ الخراج، ونقصت الجبايات، ذلك أن أولئك الثوار امتنعوا عن تأدية ما يستحق عليهم[٥]. وأما هذا الوضع المأساوي كان لا بد من التقتير في كل المجالات حتى في المجال الحربي من إعداد جيوش وأسلحة. لقد كان خراج الأندلس قبل الأمير عبد الله ثلاثمائة ألف دينار هي الموازنة العامة للدولة، وكان هذا المبلغ يوزع إلى ثلاثة أقسام: "مائة ألف للجيوش، ومائة ألف للنفقة في النوائب وما يعرض، ومائة ألف ذخيرة ووفراً"[٦]. وقد اضطر الأمير عبد الله – بعد أن قلّ الخراج – إلى تقليل الأعطيات، والتضييق على الجند سواء أولئك المرابطون في الثغور والنواحي، أم هؤلاء الموجودون معه وتحت قيادته في قرطبة[٧]، كما أنه اضطر إلى الإنفاق من الوفر حتى استنزفه[٨].

---

[١] مجهول، أخبار مجموعة: ١٥٠.

[٢] ابن الأثير، الكامل في التاريخ: ٦/٦٥.

[٣] ابن القوطية، تاريخ افتتاح الأندلس: ١٢٢؛ ابن خلدون، تاريخ: ٤/١٧٠.

[٤] ابن عذاري، البيان المغرب: ٢/١٢١.

[٥] ابن خلدون، تاريخ: ٤/١٧٠؛ مجهول، أخبار مجموعة: ١٥٠-١٥١.

[٦] المقري، نفح الطيب: ١/٣٥٢؛ ابن خلدون، تاريخ: ٤/١٧٠.

[٧] مجهول، أخبار مجموعة: ١٥١.

[٨] ابن خلدون، تاريخ: ٤/١٧٠؛ المقري ، نفح الطيب: ١/٣٥٢.

الثورات والفتن في عهده:

استولى الفساد في كل أنحاء الأندلس في عهد الأمير عبد الله، فقد استمر عمر ابن حفصون في ثورته، واستفحل أمره في مناطق واسعة من شرقي الأندلس، واستأنف عبد الرحمن بن مروان الجليقي ثورته في بطليوس ولشبونة، وثار بنو حجاج في إشبيلية، وعمّت ثورات أخرى سرقسطة وتطيلة وشنت برية وغيرها[1]. يضاف إلى ذلك ما وقع في البيت الأموي نفسه من فتن أدت إلى مقتل ابني الأمير عبد الله: المطرف ومحمد[2]. وسنحاول فيما يلي تتبع الجهود التي بذلها الأمير عبد الله للقضاء على الثورات، وما كان في عهده من فتن ودسائس أوصلت الأندلس إلى حافة الإنهيار، وكادت تقوّض أركانها.

وكان أول ما قام به الأمير عبد الله لمواجهة الأوضاع المأساوية في الأندلس، وإخراجها من مآزقها هو إطلاق سراح بني هاشم بن عبد العزيز الذين كان أخوه المنذر قد حبسهم، فأتاهم الفرج في الوقت الذي كانوا ينتظرون فيه البلاء[3]. وقد فعل ذلك تأليفاً للقلوب استعداداً لاستنزال الثوار، وفي مقدمتهم عمر بن حفصون.

- ثورة عمر بن حفصون:

تمت الإشارة سابقاً إلى أن عمر بن حفصون هو الذي افتتح الخلاف في الأندلس، وفارق الجماعة أيام الأمير الأموي محمد بن عبد الرحمن الذي حاول إخضاعه أكثر من مرة تمكن قائده هاشم بن عبد العزيز في إحداها اضطراره إلى طلب الصلح، واستنزله إلى قرطبة سنة ٢٧٠هـ/٨٨٣م، إلا أنه نكث وهرب إلى حصنه في ببشتر، وامتنع فيه. وبعد وفاة الأمير محمد تغلب ابن حفصون على مناطق واسعة منها حصن الحامّة، ورندة،

---

(١) ابن خلدون، تاريخ: ١٧٠/٤ وما بعدها؛ مجهول، أخبار مجموعة: ١٥١ وما بعدها؛ ابن عذاري، البيان المغرب: ١٢١/٢ وما بعدها.

(٢) ابن خلدون، تاريخ: ١٧٥/٤-١٧٦؛ ابن القوطية، تاريخ افتتاح الأندلس: ١٢١-١٢٢؛ وانظر: ابن عذاري، البيان المغرب: ١٥٠/٢.

(٣) ابن القويطية، تاريخ افتتاح الأندلس: ١٢٠.

وريّه. وغزاه الأمير المنذر بن محمد "فافتتح جميع قلاعه، وقتل عامله بريّه، ثم سأل الصلح فعقد له المنذر، ثم نكث ابن حفصون وعاد إلى الخلاف، فحاصره المنذر إلى أن هلك محاصراً له"[1].

وعندما أفضت الإمارة إلى الأمير عبد الله بن محمد كان أول ما تناوله، ونظر فيه "أن وجه إبراهيم خمير لأخذ بيعة ابن حفصون وبيعة من قبله، فقصد إبراهيم إليه، وطلب طاعته، فظهر منه حسن مذهب، فأخذ بيعته وصدر عنه، وقدم معه حفص ابنه وجماعة من أصحابه، فأخذت عليهم البيعة، وردّهم الأمير محبوّين بالكرامة والرعاية"[2]. غير أن هذه البداية المشجعة لم تستمر، إذ لم يلبث ابن حفصون إلا قليلاً حتى "مدّ يده إلى ما نُهي عنه، فلم يدع مالاً عند من أمكنه، واستحوذ على أهل الكور في أموالهم، وأمضى نفسه على عادته الذميمة من الفساد، وقطع السبل"[3].

وخرج الأمير عبد الله في سنة ٢٧٦هـ/٨٨٩م لقتال ابن حفصون بنفسه، إذ سار إلى ببشتر وحصون ريّه، فانتسف معايشها، وقفل عنها بعد أن ولّى على ريه رجلاً من أهل قرطبة هو محمد بن ذنين[4]. ولم يكد الأمير يتحرك بجيشه راجعاً إلى قرطبة حتى خرج ابن حفصون ومن معه من المفسدين إلى إستجة فاحتلّوها. وعندئذ سير الأمير إليه ثلة من الفرسان ما إن رآهم ابن حفصون حتى أعلن التوبة، "واعترف بذنبه، فعقد له الأمير أماناً"[5]. غير أنه، وقد تعوّد على الغدر، لم يلبث إلا قليلاً حتى نقض "وقصد بيّانه، فحارب أهلها، ثم أعطاهم العهد، فلما نزلوا إليه غدرهم، وقتلهم، وأخذ أموالهم، وسبى ذراريهم"[6].

---

[1] ابن خلدون، تاريخ: ١٧٣/٤.

[2] ابن عذاري، البيان المغرب: ١٢١/٢-١٢٢.

[3] المصدر نفسه: ١٢٢/٢.

[4] المصدر نفسه: ١٢٢/٢.

[5] المصدر نفسه: ١٢٢/٢.

[6] المصدر نفسه: ١٢٢/٢.

وفي سنة ٢٧٧هـ/٨٩٠م أوهم ابن حفصون الأمير عبد الله بأنه إلى جانبه، وأنه راغب في طاعته، وتقرّب إليه بأن قتل ثائراً آخر بجيّان يدعى: ابن شاكر، فقد أرسل إليه مجموعة من الفرسان فتكت بصحبه وقتلته، وأرسل ابن حفصون برأسه إلى الأمير، غير أن ابن حفصون توجه إلى جيان "فأغرم أهلها الأموال الجسيمة"[١]. وأصبح يسيطر على معظم المناطق المحيطة بقرطبة، وأخذ يدق أبوابها، فقد ضرب ابن حفصون وخيله على الفج المطل على قرطبة، وبلغ الأمر بأحد فرسانه أن "اقتحم القنطرة، ودفع رمحه فأصاب الصورة التي على باب القنطرة، ثم كرّ راجعاً إلى أصحابه"[٢]. ولما رأى الأمير عبد الله ما أحاط بقرطبة أمر بإخراج سرادقه إلى فحص الربض بشقندة، وعبأ جيوشه لقتال ابن حفصون الذي بعث خيلاً "لعلها تأخذ السرادق السلطاني وتفوز به، وتهجم على البلد وتحيط به"[٣]، وعندئذ هاجمتهم خيل الأمير، وطاردتهم "ووصلت إلى ابن حفصون، فدفعته عن الجهة، ومنعته من تلك الوجهة، وأوى إلى حصن بُلي بقبرة" [٤].

عزم الأمير عبد الله على اللحاق بابن حفصون إلى حصنه في قبرة، خاصة أنه هو ورجاله تجرأوا على العاصمة قرطبة، وأضرّوا بأقاليمها، وضيقوا على أهلها حتى أن أغنامهم لم تسلم من اعتداءات رجال ابن حفصون. وقد خرج الأمير في مستهل صفر من سنة ٢٧٨هـ/٨٩١م، وبعد اشتباكات محدودة مع أتباع ابن حفصون لجأ الأخير إلى حصن بلاي "وعوجل عشيره عن الدخول معه، واتّبعوا، فلم يخلص منهم أحد"[٥]. ثم تقدم فرسان الأمير إلى الحصن، وحاصروه حصاراً شديدا بانتظار الصباح لاقتحامه على ابن حفصون، غير أنه تمكن من الهرب مع بعض أصحابه في الليل[٦]. وكان ذلك الحصن "مترعاً بالذخر، ملآن من العدد"[٧]. وما لبث ابن حفصون أن ألّب أهل حصون الأندلس الموالين له، وتمكن من جمع ثلاثين ألفاً من الرجال والفرسان، واشتبك مع الأمير الذي

---

[١] ابن عذاري، البيان المغرب: ٢/١٢٢-١٢٣.

[٢] مجهول، أخبار مجموعة: ١٥١.

[٣] ابن عذاري، البيان المغرب: ٢/١٣٢؛ وانظر: مجهول، أخبار مجموعة: ١٥١.

[٤] ابن عذاري، البيان المغرب: ٢/١٣٢.

[٥] المصدر نفسه: ٢/١٢٣.

[٦] المصدر نفسه: ٢/١٢٣؛ وانظر: مجهول، أخبار مجموعة: ١٥١.

[٧] ابن عذاري، البيان المغرب: ٢/١٢٣.

كان تحت قيادته ثمانية عشر ألف فارس "فانهزم عدو الله، وقتل أكثر من كان معه. ودخل جملة منهم في محلّة الأمير، فأمر بالتقاطهم، فأتى بألف رجل منهم، فقتلوا صبراً بين يديه"[١].

وفي الحملة نفسها توجه الأمير عبد الله إلى مدينة إستجة الموالية لابن حفصون، وقتل عدداً كبيراً من رجالها، وضيق على أهلها تضييقاً شديداً حتى أنهم رفعوا الأطفال بأيديهم "مستصرخين، ضارعين، راغبين في العفو، فعفا عنهم"[٢].

وفي سنة ٢٨٠هـ/٨٩٣م قاد المطرف ابن الأمير عبد الله جيشاً لمحاربة ابن حفصون، وقد تمكن من حصاره في ببشتر، وانتسف زروعه هناك ثم رجع[٣].

"واستفحل أمر ابن حفصون والثوار، وتوالت عليه الغزوات والحصار"[٤]، وأخذ يتجاوز الخطوط الحمراء التي بلغها، فقد أظهر الدعوة للعباسيين في الأندلس، وكاتب والي إفريقية طالباً منه المدد، إذ بدأ يفكر بالقيام بانقلاب ضد الأمويين، وضم الأندلس إلى الدولة العباسية، أو ربما الاستقلال بها بعد القضاء على الأمويين فيها، وهذا ما يوافق طبعه، ونفسه الفاسدة. غير أن الريح لم تأت بما تشتهي سفنه، ذلك أن والي إفريقية (ابن الأغلب) لم يتمكن من مد يد العون له بسبب الاضطرابات في ولايته[٥]. ولم يثن ابن حفصون تخييب أمله من قبل والي إفريقية عما كان عليه من الخلاف، وخلع الطاعة، فقد استمر على الثورة وتأليب الناس ضد الأمير عبد الله.

---

[١] ابن عذاري، البيان المغرب: ١٢٣/٢؛ وانظر: ابن خلدون، تاريخ: ١٧٣/٤.

[٢] ابن عذاري، البيان المغرب: ١٢٣/٢-١٢٤.

[٣] المصدر نفسه: ١٢٤/٢.

[٤] ابن خلدون، تاريخ: ١٧٣/٤.

[٥] انظر: ابن خلدون، تاريخ: ١٧٣/٤.

وعندما استفحل أمر ابن حفصون أخذ الأمير عبد الله يوجه قادته لحربه واحداً بعد الآخر، مثل: أحمد بن هاشم بن عبد العزيز، وموسى بن العاصي وغيرهما، ولكن أحداً منهم لم يشفِ غليله. وعندئذ أسند قيادة الجيش إلى وزيره وكاتبه: عبد الملك بن عبد الله ابن أمية قائلاً له: "لست أجد من أدفع به هذا العدو غيرك"[1]. غير أن المطرف ابن الأمير عبد الله قبض على القائد عبد الملك بن أمية في سنة ٢٨٢هـ/٨٩٥م وقتله لأنه – كما يروي ابن القوطية – "كان قبيح النية في أبيه عبد الله، وكان ينوي خلعه"[2].

وأخرج الأمير عبد الله في سنة ٢٨٥هـ/٨٩٨ ابنه أبان وعه القائد أحمد بن محمد بن أبي عبده الذي انصرفت القيادة إليه بعد مقتل عبد الملك بن أمية[3]، غير أن هذه الحملة اقتصرت على تأثير محدود، إذ لم تنجح في استنزال ابن حفصون أو القضاء على ثورته[4].

وكانت سنة ٢٨٦هـ/٢٩٩م سنة فاصلة فيما يتعلق بطبيعة الثورة التي قادها ابن حفصون، وطبيعة قائدها، ففي تلك السنة أماط ابن حفصون اللثام عن وجهه الحقيقي، فإذا هو وجه نصراني أخفى دينه وتظاهر بالإسلام زمناً، ودوّخ بلاد الإسلام في الأندلس، ففي تلك السنة "أظهر ابن حفصون النصرانية، وكان قبل ذلك يسرّها، وانعقد مع أهل الشرك وباطنهم، ونفر عن أهل الإسلام ونابذهم"[5]. وبإعلان ابن حفصون نصرانيته اختلفت الصورة، فقد تبرّا منه خلق كثير ممن كانوا مظاهرين له "ورأى جميع المسلمين أن حربه جهاد"[6]. وتتابعت عليه الغزوات بالصوائف والشواتي في سنة ٢٨٧هـ/٩٠٠م؛ وفي سنة ٢٨٨هـ/٩٠١م[7].

---

(1) ابن القوطية، تاريخ افتتاح الأندلس: ١٢١-١٢٢.

(2) المصدر نفسه: ١٢٢؛ وانظر: ابن عذاري، البيان المغرب: ١٢٤/٢.

(3) ابن القوطية، تاريخ افتتاح الأندلس: ١٢٤.

(4) انظر: ابن عذاري، البيان المغرب: ١٣٨/٢.

(5) ابن عذاري، البيان المغرب: ١٣٩/٢؛ وانظر: ابن خلدون، تاريخ: ١٧٣/٤.

(6) ابن عذاري، البيان المغرب: ١٣٩/٢.

(7) المصدر نفسه: ١٣٩/٢.

وقاد ابن الأمير عبد الله: أبان حملة في سنة ٢٩١هـ/٩٠٣م إلى ريّه لقتال ابن حفصون، وكان يقود الفرسان في هذه الحملة: أحمد بن محمد بن أبي عبدة، وقد خرج الجيش من قرطبة يوم الخميس الخامس من جمادى الآخرة من تلك السنة، ووقعت بينه وبين قوات ابن حفصون حرب شديدة اتبع فيها جيش الأمير عبد الله أسلوباً جديداً في القتال، حيث كان يحرق المدن والقرى والأرياف وكل ما تطاله يده من النواحي التي يسيطر عليها ابن حفصون. وقد استمرت هذه الحرب نحو أربعة أشهر فقد فيها ابن حفصون أعداداً كبيرة من رجاله ما بين قتيل وأسير[١].

وتوافى أهل الخلاف والخلعان إلى ابن حفصون، وأخذ يغير على المسلمين، فخرجت إلى الصائفة في سنة ٢٩٢هـ/٩٠٣م، وأوقعت به الهزيمة في وادي بُلُّون في جيان، وقتل كثير ممن كان معه، "وأدبر في شرذمة قليلة، وأُفني أكثر رجاله في ذلك المعترك"[٢].

ولم تنقطع الغزوات ضد ابن حفصون في السنوات التالية، وكانت الجيوش تهزمه المرة تلو الأخرى، ولكنه كان يؤلب الأشرار، ويوحد قواه مع قوى الثائرين الآخرين ويشن الغارات على أراضي المسلمين. وبهذه الطريقة استعصى على الأمير عبد الله بن محمد، فلم يتمكن من إخضاعه. ويمكن القول أن الأمير أمضى جزءاً كبيراً من سنوات حكمه التي امتدت نحو ربع قرن في الاستعداد وشن الحروب ضد ابن حفصون[٣]. ومع ذلك لم يتمكن من التخلص منه. وكان بنو الحجاج الذين ثاروا في إشبيلية من أقوى أنصار ابن حفصون، وبسبب وقوفهم إلى جانبه قويت شوكته، واستعصت على الاقتلاع[٤]، مع أن الأمور التأمت بعض الالتئام في آخر أيام الأمير عبد الله "بقائده أبي العباس أحمد بن محمد بن أبي عبدة، فله على ابن حفصون وغيره من الثوار وقائع مشهورة انتصف فيها منهم،...وأخرج ابن حفصون من حصن بلاي، وجبى بعض نواحي

---

[١] ابن عذاري، البيان المغرب: ٢/١٤٠-١٤١.

[٢] المصدر نفسه: ٢/١٤١.

[٣] المصدر نفسه: ٢/١٤١ وما بعدها.

[٤] انظر: ابن القوطية، تاريخ افتتاح الأندلس: ١٢٦؛ ابن خلدون، تاريخ: ٤/١٧٣.

الشرق، وصالح قوماً آخرين على بعثة أموال ضربت عليهم مع إقرارهم في مواضعهم"[1].

ثورة بني حجاج بإشبيلية*:

عندما اضطربت الأندلس بالفتن في عهد الأمير عبد الله، ونهض رؤساء البلاد إلى التغلب على كل ما تحت يده أشعل كريب بن عثمان بن خلدون الثورة في إشبيلية، وتحالف مع عدد من الثوار الآخرين، وهم: سليمان بن محمد بن عبد الملك الثائر بكورة شذونة، وعثمان بن عمرون الثائر بكورة لبلة، جنيد بن وهب القرموني الثائر بقرمونة، وهو من البربر. غير أن كريب جوبه بحلف مضاد من الموالي والمولدين من أهل إشبيلية نفسها، ولما لم يتمكن مَن تفسيخ هذا الحلف انتقل من إشبيلية إلى قرية من قراها تعرف بقرية البلاط، وأخذ يغري بربر ماردة والمناطق القريبة منها بمهاجمة إشبيلية، والاستئثار بما فيها من خيرات كثيرة.

هاجم بربر ماردة وغيرهم إشبيلية، واستباحوا قرية طلياطة، وقتلوا كل من وجدوه فيها، واستولوا على الأموال، وسبوا الذراري. وعندما بلغ الأمير عبد الله ذلك عزل موسى بن العاص عامله على إشبيلية لعدم تمكنه من صد غارة البربر، وعيّن بدلاً منه: حسين بن محمد الموري. وفي أيام الموري خرج على طاعة الأمير شخص من البربر اسمه الطماشكة، وكان له بعض الأتباع الذين استطاع بهم قطع الطريق بين قرطبة وإشبيلية. وعندما ذاع ذكره وارتفع شأنه حسده أعيان إشبيلية وفي مقدمتهم بنو خلدون وبنو حجاج، وأخذوا يعدون العدة لمهاجمته والقضاء عليه. وفي تلك الأثناء كان أحد أعيان مدينة إستجة، وهو: محمد بن غالب قد استأذن الأمير عبد الله في إنشاء حصن

---

[1] مجهول، أخبار مجموعة: ١٥١.

* تقع إشبيلية على الضفة اليمنى لنهر الوادي الكبير قرب مصبه، وكان معظم سكانها من النصارى والمولدين. وقد اعتمدنا في تفصيل الأخبار عن ثورة بني حجاج بإشبيلية على مصدرين أولهما وأهمهما: الجزء الثالث من كتاب المقتبس لابن حيان، وقد نشره الأب Melchor Antuna في باريس سنة ١٩٣٧م، وثانيهما: الجزء الثاني من البيان المغرب لابن عذاري: ١٢٥ وما بعدها. والجدير بالذكر أن ابن خلدون أشار أيضاً إلى هذه الثورة نقلاً عن ابن حيان. انظر: تاريخ: ٤/١٧٤-١٧٥.

بقرية شنت طرّش فأذن له. وأقام ابن غالب وبعض أتباعه في الحصن، وعندما خرج بنو خلدون وبنو حجاج لقتال الطماشكة تصدى ابن غالب لهم، وهزمهم، وقتل أحد رجال بني الحجاج، وكان قتله بداية فتنة أخذت تتنامى، وتزداد ضراوة.

لقد حمل بنو حجاج قتيلهم إلى والي إشبيلية: حسين بن محمد الموري، وزعموا له أنه اغتيل في الطريق، فأوفدهم الموري إلى قرطبة، وهناك طالبوا الأمير عبد الله بأن ينصفهم من قتلة ابن عمهم. ولما علم المولدون في إشبيلية بذلك أرسلوا هم أيضاً وفداً إلى قرطبة برئاسة محمد بن عمر خطابْ من أجل الإدلاء بشهادتهم إلى جانب ابن غالب. وفي قرطبة أوكل الأمير عبد الله مهمة الفصل بين الطرفين المتنازعين إلى ابنه محمد الذي لم يتمكن من الحكم، وإنما أرجأه حتى تتوافر له الأدلة الكافية. وأدى هذا القرار إلى ازدياد غضب بني حجاج وبني خلدون على المولدينْ في إشبيلية، ثم تطورت الأمور بسرعة. فقد رجع كريب بن عثمان بن خلدون إلى قريته القريبة من إشبيلية، وتبعه أهله وكثير من اليمانية، وأيدهم في ذلك: سليمان بن محمد بن عبد الملك الشذوني، وجُنيد بن وهب القرموني، واتفقوا جميعاً على خلع طاعة الأمير عبد الله.

بدأ بنو حجاج وبنو خلدون مسيرهم على طريق العصيان بالاستيلاء على حصن قورية (Coria) القريب من إشبيلية، ثم استولوا على مدينة قرمونة، وأغاروا على كثير من المناطق، وأخذوا يستولون على المواشي، ويقتلون الناس. ولما علم الأمير عبد الله بأخبارهم استشار وزراءه في طريقة تؤدي إلى تهدئة الأوضاع، وتعيد العصاة إلى الطاعة، فأشاروا عليه بقتل محمد بن غالب، زعيم المولدين، إرضاءً للعرب. ولاقى هذا الرأي قبولاً لدى الأمير، فأصدر أمره بالقبض على ابن غالب وقتله، وقد نفذ الأمير أحد قادة الجيش، وهو جعد بن عبد الغافر الخالدي.

أثار مقتل ابن غالب ثائرة المولدين بإشبيلية، وتحالفوا مع أحد الثوار في كورة مورور يدعى: ابن مولود، فأمدهم بجيش استطاعوا به محاصرة قصر الإمارة في إشبيلية بتاريخ ١١ جمادى الآخرة ٢٧٦هـ/٨٨٩م، وكان والي المدينة في تلك الأثناء، وهو أمية ابن عبد الغافر الخالدي قد التجأ إلى القصر هرباً من الثائرين. وقد طالب المحاصِرون للقصر بخروج أمية، وهددوا باقتحامه إن لم يخرج حتى ظهر ذلك اليوم،

وعندما دنت ساعة الصفر اقتحموا القصر، ونهبوا خيل ابن الأمير عبد الله، واستمروا في ضرب نطاق من الرجال حول القصر. وكان القائد جعدشقيق أمية في تلك الأثناء في قرمونة، وقد تمكن المحاصَرون بإرسال أحد رجالهم لاستدعائه، فركب جعد من فوره، ودخل إشبيلية شاقاً طريقه بين الثوار، حيث كان يقتل من يعترضه حتى تمكن من دخول القصر. وقد استطاع حراس القصر وجنود القائد جعد من دحر الثوار، وذلك بعد قتل عدد كبير منهم. ثم أمر محمد ابن الأمير عبد الله بنهب دور الثوار بإشبيلية، ومصادرة أموالهم. كما كتب إلى والده يخبره بهذه الوقائع، فما كان من الأمير إلى أن أمر ابنه محمداً بالعودة إلى قرطبة، بينما بقي أمية بن عبد الغافر عاملاً على إشبيلية.

حاول أمية بن عبد الغافر استئصال الأحقاد من نفوس الثائرين العرب، فاستقدمهم إلى إشبيلية، وقرب منازلهم. ولكن نفوسهم ما لبثت أن تاقت إلى الثورة والعصيان، فخرج عبد الله بن حجاج إلى قرمونة واستولى عليها، بينما استولى كريب بن خلدون على قورية، وحدث في تلك الأثناء أن وقع جعد بن عبد الغافر في كمين أعده له الطماشكة وقتله هو وأخواه. وعندئذ هاج أمية ثائراً، وانضم إليه العرب، وهاجموا المولدين في إشبيلية والمناطق المحيطة بها، وأعملوا فيهم السيف، وقتلوهم قتلاً ذريعاً.

وبعد أن أخمد أمية بن عبد الغافر ثورة المولدين، وانتقم منهم، حاول الإيقاع بين الثائرين العرب، وقد نجح في ذلك، إذ أثار ابن وهب القرموني ضد عبد الله بن حجاج، فقتله واستولى على أمواله، وبعث برأسه إلى أمية الذي تظاهر بأنه بريء من دم عبد الله. غير أن بني حجاج أضمروا قتله، وقد تولى قيادتهم بعد عبد الله: إبراهيم بن حجاج الذي تمكن من قتل أمية.

أرسل بنو حجاج وبنو خلدون إلى الأمير عبد الله يطلبون منه أن يرسل والياً إلى إشبيلية، فأرسل قريباً له، ولكنه كان – كما يبدو – ضعيف الشخصية، فقد اتخذوه ألعوبة، ثم ما لبثوا أن اعتقلوه، وقتلوا ولده. وعندئذ أرسل الأمير ابنه المطرف لإخضاع بني حجاج وبني خلدون، وما إن وصل حتى هربوا، ولكنه تمكن من القبض على زعيميهما: إبراهيم وكريب، وأرسل بهما إلى قرطبة حيث تم سجنهما مصفدين بالأغلال. وعندما وصلت جباية إشبيلية إلى قرطبة، واستقرت الأوضاع فيها أُطلق سراحهما فعادا إلى

إشبيلية واقتسماها فيما بينهما. وظلا على تلك الحال حتى سنة ٢٨٦هـ/٨٩٩م، ففي تلك السنة استقل إبراهيم بن الحجاج بملك إشبيلية بعد أن قتل كريب بن خلدون بسبب مكيدة دبّرها الأمير عبد الله. وظلت الأوضاع في إشبيلية مستقرة، ولم تعد للخروج على طاعة الأمير عبد الله "فأقرّه بإشبيلية، وصرف إليه زمامها، وأوقف عليه أعمالها وأحكامها"[1].

وتجدر الإشارة هنا إلى أن إبراهيم بن حجاج بعد أن تمكن من إشبيلية، وبسط سلطانه عليها وعلى قرمونة "ارتفع ذكره، وبَعُد صيته، واتخذ لنفسه جنداً، ورتب لهم الأرزاق كفعل السلطان، فكمل في مصافه خمسمائة فارس...واعترف بحق أمير الجماعة، فعامله الأمير بما شهر له من الفضل، وكانت منزلته عنده أعلى منزلة، إلى أن توفي"[2].

الثورات الأخرى في عهده:

كثرت الثورات – كما ذكرنا – في عهد الأمير عبد الله، فإلى جانب عمر بن حفصون وبني خلدون وبني الحجاج كان هناك ثوار كثيرون بعضهم من المولدين، وبعضهم الآخر من العرب، كما ثار عدد من البربر.

فمن المولدين: ثار إلى جانب عمر بن حفصون، وسعدون السرنباقي: ديسم بن إسحاق، وغلب على مدينتي لورقة ومرسية وما يليهما من كورة تدمير "وكان مودوداً من طبقات الناس، رفيقاً برعيته، جواداً، منتجعاً، له إفضال على الشعراء والأدباء". وقد أخرج إليه الأمير عبد الله القائد هشام بن عبد الرحمن بن الحكم سنة ٢٨٣هـ/٨٩٦م فحاربه وهزمه، حيث لجأ إلى الوعر، ونجا راجلاً بعد أن استولى الجيش على فرسه[3].

---

[1] ابن عذاري، البيان المغرب: ١٣٥/٢.

[2] المصدر نفسه: ١٢٦/٢؛ ولمزيد من التفاصيل عن ثورة بني حجاج وبني خلدون بإشبيلية انظر: ابن القوطية، تاريخ افتتاح الأندلس: ١٢٢-١٢٣.

[3] ابن عذاري، البيان المغرب: ١٣٥/٢، ١٣٨ وقد توفي ديسم بن إسحاق في سنة ٢٩٣هـ/٩٠٥م. انظر: ابن عذاري، البيان المغرب: ١٤٢/٢.

وثار سعيد بن مستنّة في كورة باغُة "واقتعد حصونها، فاستفحل أمره وشرّه، وعمّ أذاه، واصطفى من حصونها التي ظهر عليها أربعة لا مثيل لها في الحصانة والمنعة"[1]. ومن أهم هذه الحصون الأربعة: حصن لقوبش (Locubin)، وحصن أقوط (Luque). وقد تخلى عن أحد حصونه لعمر بن حفصون، "وظافره، وأبدى ما كان بضميره من العصيان" وذلك في سنة ٢٩٥هـ/٩٠٧م[2]. وقد اجتمع الثائران في سنة ٢٩٧هـ/٩٠٩م، وانضم إليهما في تلك السنة ثائر ثالث هو سعيد بن هذيل، "وضمهم عسكر واحد، فضربوا بناحية جيان وأغاروا، فأصابوا وغنموا"[3]. وقد اشتبك معهم قائد الأمير: أحمد بن محمد بن أبي عبده، وقتل جماعة منهم[4]. وظلت قوات الأمير تتربص بهم، وتحاول رد كيدهم إلى نحورهم، وخاصة أنهم كانوا يكثِرون من الإغارة على قرى قرطبة، وقد تمكن القائد عيسى بن أحمد بن أبي عبده الذي كان على رأس سرية من الفرسان في مدينة بيانة من الاشتباك مع قوات ابن حفصون وابن مستنة بعد أن أغارا على بسيط قبرة، وقرى قرطبة، وهزمهما بعد مقتل عدد كبير من قواتهما[5]. ثم اشتبك مع ابن مستنة القائد عبد الملك بن أمية في سنة ٢٨١هـ/٨٩٤م، وقتل من أهله عدداً كثيراً، وهدم بعض حصونه[6].

وثار بنو هابل الأربعة: منذر بن حريز بن هابل، وإخوانه: هابل، وعامر، وعمر في بعض حصون جيأن، وخلعوا طاعة الأمير عبد الله، وأخذوا يغيرون على القرى والأرياف "ثم استنزلوا، فنزلوا على حكم الأمان، فحسنت طاعتهم وخدمتهم"[7].

---

(1) ابن عذاري، البيان المغرب: ١٣٦/٢.

(2) المصدر نفسه: ١٤٣/٢.

(3) المصدر نفسه: ١٤٥.

(4) المصدر نفسه: ١٤٦/٢.

(5) المصدر نفسه: ١٤٧/٢.

(6) المصدر نفسه: ١٢٤/٢.

(7) المصدر نفسه: ١٣٦/٢.

وثار خير بن شاكر في جيان سنة ٢٧٧هـ/٨٩٠م فغزاه القائد ابن أبي عبده، "فحاربه، وحاصره، وقتل جماعة من أصحابه، وأحرق كثيراً من دور جيان"[١]، ولم يلبث أن غدر ابن حفصون بابن شاكر تقرباً من الأمير عبد الله – كما ذكرنا – حيث بعث إليه خيلاً موهماً إياه بأنه إنما أرسلها له مدداً ليساعده في قتال أعدائه "فلما خرج إليهم فتكوا به وقتلوه"[٢].

وثار بكر بن يحيى بن بكر في مدينة شنت مرية من كورة اكشونبة، وتعرف تلك المدينة اليوم باسم فارو (Faro). وقد حصن بكر تلك المدينة تحصيناً قوياً، و"اتخذ عليها أبواب حديد"[٣]. وكان بكر يتشبه في سلطانه بإبراهيم بن الحجاج في إشبيلية، حيث اتخذ مجلساً للشورى، وكتّاباً، ونشر الأمن والأمان في منطقته "فكان السالك بناحيته كالسالك بين أهله وأقاربه"[٤].

ومن العرب: ثار إضافة إلى بني الحجاج بإشبيلية: أبو يحيى محمد بن عبد الرحمن بن عبد العزيز التجيبي المعروف بالأنقر في سنة ٢٧٦هـ/٨٨٩م[٥] في مدينة سرقسطة، حيث قتل عامل الأمير عليها: أحمد بن البراء القرشي، متظاهراً بأن العامل قد خلع طاعة الأمير "فأظهر الأمير تصديقه، وسجل له على سرقسطة، فثبت بها قدمه"[٦].

وثار منذر بن إبراهيم بن محمد السُّليم بمدينة ابن السليم المنسوبة إلى جده، من كورة شذونة، وهي المدينة التي تسمى اليوم Grazalema قرب قادس، وقد استقل بالمدينة إلا أنه لم يظهر الخلاف على الأمير عبد الله، ثم ما لبث أن قتله مملوك له يسمى: غَلَنْدُه[٧].

---

[١] ابن عذاري، البيان المغرب: ١٢٢/٢.

[٢] المصدر نفسه: ١٢٣/٢ و ١٣٦.

[٣] المصدر نفسه: ١٣٧/٢.

[٤] المصدر نفسه: ١٣٧/٢.

[٥] المصدر نفسه: ١٢٢/٢.

[٦] المصدر نفسه: ١٣٧/٢-١٣٨؛ وانظر: ابن القوطية، تاريخ افتتاح الأندلس: ١٣٠.

[٧] ابن عذاري، البيان المغرب: ١٣٥/٢.

وثار سعيد بن هذيل بحصن المنتلون من كورة جيان "فبنى قصبته وحصنها، وأعلن بالخلاف". ولم يتمكن الأمير عبد الله من استنزاله، وإنما ظل مخالفاً حتى عهد الخليفة عبد الرحمن الناصر[1].

وثار سعيد بن سليمان بن جودي في غرناطة وإلبيرة[2]. وثار محمد بن أضحى بن عبد اللطيف الهمداني بكورة إلبيرة، وثار سليمان بن محمد بن عبد الملك الشذوني بشريش شذونة[3]، وغيرهم.

ومن البربر: ثار محمد بن تاكيت من مصمودة في الثغر "وزحف إلى ماردة وبها يومئذ جند من العرب وكتامة، فأعمل الحيلة في إخراجهم، ونزلها هو وقومه مصمودة"[4].

وثار خليل وسعيد ابنا مهلّب بكورة إلبيرة، وحاربا عمر بن حفصون، ورغم ثورتهما إلا أنهما ظلا على طاعتهما له[5].

وثار عمر بن مضمّ الهترولي المعروف بالملاحي بجيان، فقد وثب على عامل الأمير على المدينة وقتله، واستولى على قصبتها[6].

---

[1] ابن عذاري، البيان المغرب: ٢/١٣٦.

[2] المصدر نفسه: ٢/ ١٣٦.

[3] المصدر نفسه: ٢/١٣٧.

[4] ابن خلدون، تاريخ: ٤/١٧١.

[5] ابن عذاري، البيان المغرب: ٢/١٣٧.

[6] المصدر نفسه: ٢/١٣٦.

مقتل محمد والمطرف ابني الأمير عبد الله:

أشارت بعض المصادر إلى أن الأمير عبد الله رشح ابنه محمداً لولاية عهده، وآثره على أخيه مطرف، "فعظم الأمر على أخيه مطرف، وبعد ما بينهما كل البعد، وقابل الواحد الثاني بالهجران والصد"[1]. وأخذ المطرف يكثر من السعاية في أخيه محمد عند أبيهما الأمير عبد الله[2]. وأصبح الأخوان يتربص كل منهما بالآخر، وقد وجد المطرف يوماً فارساً من فرسان أخيه فقتله، ولم يجد محمد بداً من الهرب إذ أثمرت السعاية ثمرتها، وتمكن سخط الأمير عليه، فلحق بابن حفصون، وانضم إلى أهل الشر والفساد الثائرين في ببشتر[3].

وما لبث الأمير عبد الله أن وجه إلى ابنه محمد بالأمان، فقبل من أبيه، وعاد إلى قرطبة. غير أن المطرف لم يكفّ عن إغراء أبيه به، إذ ظل "يغري بمحمد إغراء، ويطوي له عداوة وبغضاء" مما أدى إلى قيام الأمير بسجن ابنه محمد[4]. ثم استغل المطرف خروج الأمير إلى بعض غزواته، بينما كان المطرف في قرطبة. وقد استغل هذا الأخير خروج أبيه وقتل أخاه محمداً في السجن[5].

ويذكر ابن خلدون أن الأمير عبد الله أرسل ابنه المطرف بالصائفة سنة ٢٨٣هـ/٨٩٦م ومعه القائد عبد الملك بن أمية "ففتك المطرف بالوزير لعداوة بينهما، وسطا به أبوه الأمير عبد الله، وقتله أشرّ قتلة، ثأر فيها منه بأخيه محمد" وبالقائد عبد الملك[6].

---

(1) ابن عذاري، البيان المغرب: ٢/١٥٠.

(2) ابن خلدون، تاريخ: ٤/١٧٥.

(3) ابن عذاري، البيان المغرب: ٢/١٥٠؛ ابن خلدون، تاريخ: ٤/١٧٥.

(4) ابن عذاري، البيان المغرب: ٢/١٥٠؛ ابن خلدون، تاريخ: ٤/١٧٥.

(5) ابن عذاري، البيان المغرب: ٢/١٥٠؛ ابن خلدون، تاريخ: ٤/١٧٦.

(6) ابن خلدون، تاريخ: ٤/١٧٦.

وتوفي الأمير عبد الله في شهر ربيع الأول من سنة ٣٠٠هـ/٩١٢م وهو ابن اثنتين وسبعين سنة[١]، بعد أن حكم خمساً وعشرين سنة وبضعة أشهر[٢]. وبوفاته انتهى عصر الإمارة الأموية في الأندلس، الذي بلغت البلاد في أواخره حالة من التمزق والتفتت كادت تقوض ملكهم فيها، لولا أن قيض الله لها أميراً قوياً لم يلبث أن أطفأ نيران الفتنة، وأخمد حركات الثوار، وبنى دولة قوية بلغ أوج ازدهارها في عهده في الوقت الذي كانت فيه دولة العباسيين في المشرق تلفظ أنفاسها. إنه عبد الرحمن الناصر الذي بدأ به عصر جديد في الأندلس، وهو عصر الخلافة الأموية الذي سنتناوله في الفصل التالي.

---

[١] ابن عذاري، البيان المغرب: ١٢١/٢؛ ابن خلدون، تاريخ: ١٧٦/٤؛ ابن الأثير، الكامل في التاريخ: ١٤٣/٦.

[٢] ابن الأثير، الكامل في التاريخ: ١٤٣/٦؛ ابن خلدون، تاريخ: ١٧٦/٤؛ المقري، نفح الطيب: ٣٥٣/١.

Mapa económico de la España musulmana

الفصل الرابع

عصر الخلافة الأموية

عصر الخلافة الأموية

كان للأمير الأموي عبد الله بن محمد من الأولاد الذكور أحد عشر ابناً[1]، وقد قتل منهم اثنان في حياته، وهما: محمد والمطرّف للأسباب التي تمت الإشارة إليها في الفصل السابق[2]، وكان المتوقع أن تفضي إمارة الأندلس بعد وفاته في ربيع الأول من سنة ٣٠٠هـ/٩١٢م[3] إلى أحد أبنائه التسعة، وخاصة أن بعضهم كان مؤهلاً لذلك مثل ابنه أبان الذي قاد الجيوش، وحكّته التجارب، وحقق كثيراً من الانتصارات على الثوار في حياة والده[4]. ومعروف أن ولاية العهد أصبحت وراثية في الدولة الإسلامية على يد بني أمية أنفسهم عندما آلت الخلافة في المشرق إلى معاوية بن أبي سفيان. غير أن الوضع العام في الأندلس في عهد الأمير عبد الله كان يوحي بأن الدولة هناك أصبحت على حافّة الانهيار، فالذين خلعوا الطاعة كثيرون، والذين ثاروا وعملوا على الإطاحة بالأمويين أكثر، وكل منهم كان يعمل على الاستقلال بما تحت يده. وكان هذا هو السبب الرئيسي الذي جعل أبناء الأمير عبد الله يعزفون عن الإمارة، ويزهدون بها، وكل منهم يعمل على تجنيب نفسه هذه الإمارة التي تحيط بها المكاره، وتحدق بها الأخطار. وقد أدى ذلك إلى خلوّ الساحة، أي ساحة الإمارة، إلى حفيد الأمير عبد الله، وهو ابن ابنه محمد: عبد الرحمن الناصر[5]، الذي بدأ عهده أميراً ثم أعلن نفسه خليفة.

---

(1) ابن عذاري، البيان المغرب: ١٢١/٢.

(2) ابن خلدون، تاريخ: ١٧٥/٤-١٧٦؛ ابن عذاري، البيان المغرب: ١٥٠/٢.

(3) ابن خلدون، تاريخ: ١٧٦/٤؛ المقري، نفح الطيب: ٣٥٣/١.

(4) ابن عذاري، البيان المغرب: ١٣٨/٢ وما بعدها.

(5) ابن خلدون، تاريخ: ١٧٦/٤؛ المقري، نفح الطيب: ٣٥٣/١؛ ابن عذاري، البيان المغرب: ١٥٦/٢؛ ابن الأثير، الكامل في التاريخ: ١٤٣/٦؛ ابن الكردبوس، تاريخ الأندلس: ٥٨.

عبد الرحمن الثالث الناصر لدين الله (٣٠٠-٣٥٠هـ/٩١٢-٩٦١م):

هو عبد الرحمن بن محمد[١] بن عبد الله بن عبد الرحمن بن الحكم بن هشام بن عبد الرحمن الداخل[٢]، ولُد سنة ٢٧٧هـ/٨٩٠م[٣]، وكان عمره لما قُتل أبوه عشرين أو واحداً وعشرين يوماً[٤]، فاحتضنه جده عبد الله، وخصّه بمحبته ورعايته، وكرس كثيراً من وقته لتنشئته، إذ ربما كان يستشعر الندم لتسببه في قتل أبيه محمد والد عبد الرحمن، فأراد أن يكفّر عن إثمه بالاهتمام الزائد بحفيده عبد الرحمن. وأم عبد الرحمن أم ولد تسمى مُزنة[٥]، وكنيته: أبو المطرف، ولقبه: الناصر لدين الله[٦]، ويدعى أيضاً: عبد الرحمن الثالث، لأنه ثالث ثلاثة تولوا إمارة الأندلس ممن تسموا بهذا الاسم، فقد سبقه منهم: عبد الرحمن الأول (الداخل)، وعبد الرحمن الثاني (الأوسط).

ولي عبد الرحمن الناصر إمارة الأندلس في اليوم الذي توفي فيه جده الأمير عبد الله، وبويع في ذلك اليوم، وهو الخميس مستهل ربيع الأول سنة ٣٠٠هـ/٩١٢م[٧]، وكأن عمره حينئذ ثلاثاً وعشرين سنة "وكانت ولايته من الغريب، لأنه كان شاباً، وأعمامه وأعمام أبيه حاضرون، فتصدى إليها، واحتازها دونهم"[٨]. وكان أول من بايعه أعمامه، وهم: أبان، والعاصي، وعبد الرحمن، ومحمد، وأحمد. وتلاهم إخوة جده: العاصي وسليمان وسعيد وأحمد[٩]. وبايعه بعد ذلك عامّة الناس "بوجوه متهللة، وصدور منشرحة، وألسنة داعية شاكرة لله - عز وجل - على ما قلّده من أمرهم، وأصاره إليه

---

[١] محمد بن عبد الله والد عبد الرحمن قتله أخوه المطرّف. انظر: ابن عذاري، البيان المغرب: ١٥٦/٢؛ ابن الأثير، الكامل في التاريخ: ١٤٣/٦؛ المقري، نفح الطيب: ٣٥٣/١.

[٢] ابن الأثير، الكامل في التاريخ: ١٤٣/٦؛ ابن عذاري، البيان المغرب: ١٥٦/٢.

[٣] ابن عذاري، البيان المغرب: ١٢٢/٢.

[٤] ابن الأثير، الكامل في التاريخ: ١٤٣/٦؛ ابن عذاري، البيان المغرب: ١٥٧/٢.

[٥] ابن عذاري، البيان المغرب: ١٥٦/٢؛ وانظر: ابن الأثير، الكامل في التاريخ: ١٤٣/٦.

[٦] ابن عذاري، البيان المغرب: ١٥٦/٢.

[٧] المصدر نفسه: ١٥٦/٢.

[٨] المقري، نفح الطيب: ٣٥٣/١؛ ابن خلدون، تاريخ: ١٧٦/٤؛ وانظر: ابن الأثير، الكامل في التاريخ: ١٤٣/٦.

[٩] ابن عذاري، البيان المغرب: ١٥٧/٢.



J. G. Mencia, pint.

'Abdu'r-Raḥmān III receives the monk, John of Gorze, 350/961 [345/956].

(From *PHE.*, I, 159)

من رعايتهم، والذبّ عن حرماتهم، قد استبشر جميعهم بيُمن نقيبته، واعتلاء همّته. ورجوا...صلاح الأحوال على يديه، وتجرّده لاستئصال علق الفتنة، والتمهيد للطاعة"[١].

وكانت الأندلس عندما تولى الناصر إمارتها "مضطربة بالمخالفين، مضطرمة بنيران المتغلبين"[٢]، فالبلاد كلها كانت قد اختلفت على الأمويين، واستولى أهل النفاق على كورها ومعاقلها[٣]. وبذلك فإن الناصر كانت تنتظره مهمات صعبة، ومسؤوليات جسيمة لم تقعد به همته عن القيام بها، إذ نهض إلى إخماد نار الخلاف والشقاق، وهدفه الواضح هو توحيد الأندلس، وتركيز السلطة في يده "وقد مُنح الظفر على الثوار، واستنزلهم من معاقلهم"[٤]. كما أكثر من جهاد النصارى، وكانت له فيهم وقائع كثيرة. وتمكن – عندما صفا له الوقت – من الانصراف إلى البناء والعمران حتى أصبحت قرطبة في عهده من أزهى العواصم. وفيما يلي تفصيل لجهوده في هذه الميادين الثلاثة: استنزال الثوار، والجهاد، والبناء والتعمير.

– **استنزال الثوار:**

كان عمر بن حفصون من أعتى الثوار، وأقواهم شكيمة. وقد تمكن في عهود الأمراء الأمويين السابقين من الاستيلاء على مناطق واسعة، ولذلك وجه الناصر همه إلى استنزاله، والقضاء على ثورته، فأرسل في جمادى الأولى من سنة ٣٠٠هـ/٩١٢م حاجبه بدر بن أحمد، ووزيره أحمد بن محمد بن حدير إلى مدينة إستجة، وكانت بيد ابن حفصون، فدخلاها، وكانت "أول موضع افتُتح في أيام الناصر – رحمه الله – ، وضبطت المدينة، وهدم سورها"[٥].

---

[١] ابن عذاري، البيان المغرب: ١٥٨/٢.
[٢] المقري، نفح الطيب: ٣٥٣/١.
[٣] ابن الأثير، الكامل في التاريخ: ١٤٣/٦؛ ابن عذاري، البيان المغرب: ١٥٨/٢؛ وانظر: ابن خلدون، تاريخ: ١٧٦/٤.
[٤] المقري، نفح الطيب: ٣٦٣/١.
[٥] ابن عذاري، البيان المغرب: ١٦٠/٢؛ وانظر: ابن خلدون، تاريخ: ١٧٩/٤.

وخرج الناصر في رمضان من سنة ٣٠٠هـ/٩١٢م إلى كورة جيان في جيوش كثيفة، وعُدد كاملة، "فافتتح أكثر من ثلاثين حصناً من يد ابن حفصون منها إلبيرة، ودوّخ سائر أقطاره، وضيق مخنقه بالحصار"[١]. وعندما "احتلّ بحصن مارتش من عمل جيان، ورده الخبر بمضايقة عمر بن حفصون لأهل حاضرة ريّه، وأنه أطمع نفسه عن تخاذلهم بانتهاز الفرصة فيهم، فوجه لتلافي ذلك سعيد بن عبد الوارث في قطيع من الجند، وأمره أن يغذّ السير، ويطوي المراحل حتى يحتل مدينة مالقة، ويقطع باب ابن حفصون عما كان رامه منها، وأطمع نفسه فيها، فتوصل القائد إلى الموضع، وضبطه، وحمى تلك الجهة عن ابن حفصون وحزبه"[٢]. وفي منتصف رمضان من السنة نفسها نهض الناصر إلى حصن المنتلون حيث حارب فيه الثائر: سعيد بن هُذيل، وتمكن من استنزاله[٣]، ثم تقدم إلى عدد كبير من الحصون، وقضى على الثائرين فيها واحداً بعد الآخر، حيث استسلموا له "ونزلوا عن معاقلهم إليه، وكلهم مذعن بطاعته...فأوسعهم...فضله، وألبسهم عفوه، وأخلى تلك المواضع منهم، وقدم أولادهم ونساءهم إلى قرطبة"[٤]. وانتقل الناصر بعد ذلك إلى كورة إلبيرة، فتداعى أهل الحصون فيها إلى الطاعة، وأخلوا حصونهم[٥].

انتقل الناصر بجيوشه في تلك الحملة إلى جبل الثلج "وهو ممتنع السلوك، فجازه الناس، ويسّر الله ذلك عليهم، وسهّله لهم. وافتُتحت حصون تلك الجهة، ولم يبق بها معقل ممتنع"[٦]. وبينما كان الناصر في جبل الثلج يستنزل الثوار هناك وردته الأخبار بأن عمر ابن حفصون أقبل في جماعة أصحابه إلى إلبيرة، فوجه بعض قادته لحربه "فهزموا ابن حفصون، وقتلوا جماعة من رجاله"[٧].

---

[١] ابن خلدون، تاريخ: ١٧٩/٤.

[٢] ابن عذاري، البيان المغرب: ١٦١/٢.

[٣] المصدر نفسه: ١٦١/٢؛ ابن خلدون، تاريخ: ١٧٩/٤.

[٤] ابن عذاري، البيان المغرب: ١٦١/٢.

[٥] المصدر نفسه: ١٦٢/٢.

[٦] المصدر نفسه: ١٦٢/٢.

[٧] المصدر نفسه: ١٦٢/٢.

وتقصى الناصر ما كان بقي من معاقل تلك الجهة حتى احتل بحصن شبيلش، وكان من أعظم حصون ابن حفصون منعة، وأوعرها مكاناً "وإليه كان انضوى كل مشرك تقلّت من الحصون المتقدمة الذكر، فاحتلت العساكر عليه يوم الأربعاء لأربع عشرة ليلة بقيت من شوال، فقطعت ثمارهم، واستهلكت زروعهم ومعايشهم، وحوصروا خمسة عشر يوماً، حتى نادوا بالطاعة، وضرعوا في قبول الإنابة، وأسلموا أصحاب ابن حفصون الذين كانوا عندهم"[1].

وهكذا تمكن الناصر خلال السنة الأولى من ولايته من إعادة كثير من حصون جيان وإلبيرة ورية إلى طاعة قرطبة، واستطاع في حملته الأولى التي استمرت نحو اثنين وتسعين يوماً القضاء على ثورات الثائرين في تلك الأنحاء[2].

وجه الناصر جهوده في السنة الثانية من ولايته، أي في سنة ٣٠١هـ/٩١٣م نحو إشبيلية، وكان صاحبها عبد الرحمن بن إبراهيم بن حجاج قد توفي، فاجتمع أهلها على أحمد بن مسلمة، وجعلوه أميراً عليهم[3]. وكان أخو عبد الرحمن بن إبراهيم: محمد ابن إبراهيم بن حجاج بمدينة قرمونة، وقد عزّ عليه أن يستولي ابن مسلمة على إشبيلية، وعزم على محاربته وإخراجه منها. وتحقيقاً لهذه الغاية وضع نفسه تحت إمرة الناصر، ورغّب إليه محاربة أهل إشبيلية، فأخرج الناصر إليها قائده أحمد بن محمد بن حدير، "وأوعز إليه بملاينة القوم واستمالتهم إلى الطاعة، وإجمال موعودهم عليها، وتأخير حربهم"[4]، إذ كان الناصر يتبع في سياسته مع أعدائه من الثوار الترغيب والملاينة قبل التهديد وشن القتال. غير أن القائد ابن حدير لم يأخذ بوصية الأمير عبد الرحمن، فقد بادر إلى حرب أهل إشبيلية، "وجرت بينه وبينهم حرب عظيمة دارت فيها بين فرسانه وفرسانهم دوائر صعبة، فأنكر الناصر لدين الله على ابن حدير ما كان من تسرّعه وقلّة رفقه، فأقفله عن إشبيلية"[5].

---

(1) ابن عذاري، البيان المغرب: ٢/١٦٢-١٦٣.

(2) المصدر نفسه: ٢/١٦٣؛ وانظر: ابن حيان، المقتبس، تحقيق شالميتا، ص٦٧.

(3) ابن عذاري، البيان المغرب: ٢/١٦٣؛ ابن حيان، المقتبس، تحقيق شالميتا، ص٦٩-٧٠.

(4) ابن حيان، المقتبس، تحقيق شالميتا، ص٧٠.

(5) المصدر نفسه: ص٧١.

ووجه الناصر إلى إشبيلية محمد بن إبراهيم بن حجاج – صاحب قرمونة – وأشرك معه في هذه المهمة قائد شرطته: قاسم بن وليد الكلبي[1]، وكان بينهما صداقة، "فخرجا معاً إلى قرمونة، ودنوا من إشبيلية بجهة طشّانة"[2]، وبعد أن أكملا استعداداتهما، وحشدا من والاهما من كورتي لبلة وشذونة تقدما نحو إشبيلية، وحاصراها بعد أن سيطرا على بعض أقاليمها[3].

استمر حصار إشبيلية شهوراً[4]، وانحجز أحمد بن مسلمة داخلها حتى أجهده الحصار، وأخذ يتخبّط "متحيّراً من فكرة إلى حيرة، نافراً من ظِنّة إلى شبهة، قد صار القريب عنده كالبعيد، والنصيح كالمتهم، والبعيد كالداني، والموالي كالمعادي"[5]. وقاده هذا التخبط إلى قيامه بحبس بعض القرشيين في إشبيلية، ثم طلب العون من "رأس الغواية، وجرثومة النفاق، وإمام الضلالة عمر بن حفصون، فأتاه بنفسه إلى إشبيلية ممداً، وصار معه يداً"[6]. وكان أول ما فعل ابن حفصون هو إغراء ابن مسلمة بقتل القرشيين، فقتل أكثرهم[7].

وتقدم عمر بن حفصون نحو مدينة إشبيلية، وقصد أول ما قصد مدينة قبرة، "وكان فيه محمد بن إبراهيم بن حجاج وقاسم بن وليد الكلبي فيمن اجتمع إليهما من رجال أهل الطاعة، وحشم السلطان الذين بعثهم من قرطبة"[8]. ووقعت بين الطرفين حرب صعبة لم تلبث نتيجتها أن تبلورت لصالح محمد بن حجاج وقاسم الكلبي، إذ انهزم ابن حفصون، "وحُزّت لأصحابه رؤوس كثيرة حُملت إلى باب سدة السلطان بقرطبة"[9].

---

(1) ابن عذاري، البيان المغرب: ٢/١٦٣؛ ابن حيان، المقتبس، تحقيق شالميتا، ص٧١.

(2) ابن حيان، المقتبس، تحقيق شالميتا، ص٧١.

(3) المصدر نفسه، ص٧١.

(4) ابن عذاري، البيان المغرب: ٢/١٦٣.

(5) ابن حيان، المقتبس، تحقيق شالميتا، ص٧١.

(6) المصدر نفسه، ص٧٢.

(7) المصدر نفسه: ٧٢.

(8) المصدر نفسه: ٧٢.

(9) المصدر نفسه: ٧٢.

ظل أحمد بن مسلمة – بعد هزيمة عمر بن حفصون – دون معين، فرأى أن لا مخرج له من محنته إلا بطاعة الأمير عبد الرحمن الناصر، والانقياد له "فأخرج رسله إلى قرطبة في التماس الرضا عنه، على أن يُقرَّ على إمارة بلدة (إشبيلية)، ويعقد له عليه بمال يستقل به"[1]. وعندما وصلت رسله إلى قرطبة سلّموا الكتب التي أرسلها ابن مسلمة إلى بدر بن أحمد، وكان هو الحاجب الذي يتولى تدبير شؤون الدولة، "وكلموه، وسألوه الجواب"، فرفض مهادنة ابن مسلمة، بل أظهر الغضب الشديد عليه أمام رسله، وخاصة أنه "ضافر عظيم المخالفين، يعني ابن حفصون، ضد الأمير الناصر"[2]. ولما وصل جواب بدر إلى ابن مسلمة حاول تزييفه، وإيهام أهل إشبيلية بأن الناصر رضي عنه[3]. غير أن الحاجب بدر فوّت عليه الفرصة، إذ هاجم إشبيلية، ودخلها في جمادى الأولى من سنة ٣٠١هـ/٩١٣م[4]، "وهدم سورها، واستصلح أمور أهلها"[5]، "فامتد على جميع الناس ظل العافية، وارتفعت عنهم الفتنة، واجتمعت كافتهم على الطاعة دون إراقة دم، أو إباحة حرمة"[6].

وكان محمد بن إبراهيم بن حجاج في تلك الأثناء ما يزال مقيماً على محاصرة إشبيلية، فكتب إليه الحاجب بدر يخبره بفتحها، وطلب منه القدوم إليها على أن يظل ملتزماً الطاعة، إلا أنه نكث، "وبادر بالخروج نحو حصن قبرة الذي كان فيه رباطه على إشبيلية، فسار عنه...إلى مدينة قرمونة، فدخلها وأظهر التمنّع بها"[7]. أما قاسم بن وليد الكلبي فقد فارق ابن حجاج، ولحق بالحاجب بدر بجميع من كان معه من جنده[8].

---

(1) ابن حيان، المقتبس، تحقيق شالميتا: ٧٢-٧٣.

(2) المصدر نفسه: ٧٣.

(3) انظر التفاصيل: المصدر نفسه: ٧٣-٧٨.

(4) ابن عذاري، البيان المغرب: ١٦٣/٢؛ ابن حيان، المقتبس، تحقيق شالميتا: ٧٨.

(5) ابن عذاري، البيان المغرب: ١٦٣/٢-١٦٤.

(6) ابن حيان، المقتبس، تحقيق شالميتا: ٨٠؛ وانظر: ابن خلدون، تاريخ: ١٧٩/٤.

(7) ابن حيان، المقتبس، تحقيق شالميتا: ٨٠.

(8) المصدر نفسه: ٨٠.

وهكذا تمكن الحاجب بدر بن أحمد من إعادة إشبيلية إلى طاعة الأمير عبد الرحمن الناصر، وقد استغرقت حملته عليها أربعة أشهر من سنة ٣٠١هـ/٩١٣م وهي المحرم وصفر وربيع الأول وربيع الثاني، وعاد إلى قرطبة بعد أن استعمل على إشبيلية: سعيد ابن المنذر القرشي، وبعد أن سُوّيت أسوارها بالأرض[١]. وقد أحضر بدر معه أحمد بن محمد بن مسلمة الذي أكرم الناصر مثواه، وولاه خطة الشرطة العليا[٢].

أما محمد بن إبراهيم بن حجاج صاحب قرمونة فقد أخرج إليه الناصر: سعيد بن عبد الوارث، إلا أنه ما لبث أن أظهر الندم، وطلب الأمان. فأمنه الناصر وألحقه بقرطبة، واستخلف على قرمونة: حبيب بن عمروس بن سواده[٣].

مضى الناصر لدين الله – بعد أن أمن جانب إشبيلية بقضائه على ثورة بني حجاج فيها – إلى كورة رية والجزيرة وقرمونة، وكان هدفه الرئيسي إخضاع جميع المناطق المناوئة له مما كان منضوياً تحت لواء عمر بن حفصون، ذلك الثائر الذي استنزف كثيراً من قوى الأمراء الأمويين في الأندلس، فقد انطلق في الثامن من رمضان سنة ٣٠١هـ/٩١٣م[٤] من قرطبة، مقدّماً على جيوشه حاجبه بدر بن أحمد الذي سار على رأس فريق من الجند إلى حصن بلده "فألفى أهله غرّة، وقتل منهم، وسبى وأسر جملة كثيرة"[٥]، بينما سار الناصر نفسه على رأس الفريق الآخر إلى حصن طرّش "فنازل أهله أياماً خمسة يغاديهم بالحرب ويراوحهم، ويضيّق عليهم، ويحطم معايشهم"[٦]. ثم أبقى على الحصن من يحاصره، وتنقل إلى حصون ريّة، ومعاقل ابن حفصون، يتتبعها معقلاً معقلاً "ويُنزل بأسه ومعرّة جيوشه بكل ما ينزل به منها"[٧].

---

(١) ابن حيان، المقتبس، تحقيق شالميتا: ٨٠-٨١؛ وانظر: ابن عذاري، البيان المغرب: ٢/١٦٤.

(٢) ابن حيان، المقتبس، تحقيق شالميتا: ٨١.

(٣) المصدر نفسه: ٨١-٨٤.

(٤) ابن عذاري، البيان المغرب: ٢/١٦٤.

(٥) المصدر نفسه: ٢/١٦٤؛ ابن حيان، المقتبس، تحقيق شالميتا: ٨٥.

(٦) ابن حيان، المقتبس، تحقيق شالميتا: ٨٦.

(٧) ابن عذاري، البيان المغرب: ٢/١٦٥.

وكان عمر بن حفصون عندما علم بمحاصرة حصن طرش الذي يعتبره أحد حصونه قد هبّ هو وأولاده وكماة رجاله للدفاع عنه، إلا أن جيش الناصر تصدى لها، وقاتلهم قتالاً شديداً، وأوقع فيهم وقعة عظيمة ذهب فيها كثير منهم[1].

ودخل الناصر يوم الخميس، الرابع من ذي القعدة سنة ٣٠١هـ/٩١٣م إلى مدينة الجزيرة الخضراء "وكان في ساحلها للمارد ابن حفصون وأصحابه عدة من المراكب البحرية يسفّرونها إلى أرض العدوة في المير والتجارات، ويقضون بها الحاجات، فيتسعون بها أعظم التوسعة"[2]. وقد تمكن الناصر من إحراق مراكبه كلها[3]، ثم جاءه أهل الجزيرة الخضراء معلنين الولاء والطاعة "فقبلهم الناصر وأمّنهم، وسكن أحوالهم"[4]. والتفت الناصر إلى ضبط البحر بين العدوتين، "فاستدعى جملة من المراكب البحرية، من مالقة وإشبيلية وغيرهما من مدن الطاعة بركابها من أُولي الاستقامة، فأقامها بباب الجزيرة، وشحنها بصنوف الأسلحة والعدد، وأعد فيها النفط وآلات حرب البحر"[5] وأمر هذه السفن البحرية بالتجول في السواحل كلها من حد الجزيرة الخضراء إلى حدّ تدمير، وبذلك قطع مرافق البحر كلها عن ابن حفصون وأصحابه[6].

وانتقل الناصر بعد أن أنهى الترتيبات اللازمة لحماية السواحل الجنوبية الشرقية من الأندلس إلى كورة شذونة ثم إلى كورة موررور حتى أوفى على مدينة قرمونة[7]. وكان قد ثار فيها حبيب بن عمروس بن سوادة صاحب محمد بن إبراهيم بن حجاج، فحاصره الناصر فيها عشرين يوماً "حتى عضتّه النكاية، وأخذت بمخنقه المحاصرة، ثم استأمن فأمن، وسأل أن يُمهل لانتقال أهله وثقله إلى قرطبة، فأجابه الناصر إلى ذلك"[8].

---

(١) ابن عذاري، البيان المغرب: ١٦٤/٢؛ ابن حيان، المقتبس، تحقيق شالميتا: ٨٥.

(٢) ابن حيان، المقتبس، تحقيق شالميتا: ٨٧؛ وانظر: ابن عذاري، البيان المغرب: ١٦٥/٢.

(٣) ابن حيان، المقتبس، تحقيق شالميتا: ٨٧.

(٤) ابن عذاري، البيان المغرب: ١٦٥/٢.

(٥) ابن حيان، المقتبس، تحقيق شالميتا: ٨٧؛ وانظر: ابن خلدون، تاريخ: ١٧٩/٤.

(٦) ابن حيان، المقتبس، تحقيق شالميتا: ٨٧-٨٨.

(٧) ابن عذاري، البيان المغرب: ١٦٥/٢؛ ابن حيان، المقتبس، تحقيق شالميتا: ٩٠.

(٨) ابن عذاري، البيان المغرب: ١٦٥/٢؛ ابن حيان، المقتبس، تحقيق شالميتا: ٩١؛ وانظر: ابن خلدون، تاريخ: ١٧٩/٤-١٨٠.

واستأنف الناصر ضغطه العسكري على ابن حفصون في سنة ٣٠٢هـ/٩١٤م مصمماً على القضاء على ثورته، ففي شوال من تلك السنة أرسل جيشاً بقيادة عمه أبان ابن عبد الله نحو أعمال ابن حفصون، فتجول بالعسكر على حصونه، وانتسف زروعها، وخرب عمارتها، وافتتح بعضها، مما فتّ في عضد ابن حفصون، وضيّق معايشه[1].

ووقعت في سنة ٣٠٣هـ/٩١٥م مجاعة شديدة بالأندلس أثرت كثيراً على تحركات الأمير الناصر إن ضد الثوار في الداخل أو ضد الأعداء النصارى المتربصين بالبلاد، ففي تلك السنة اشتد الغلاء، وبلغت الحاجة والفاقة بالناس مبلغاً لم يكن لهم عهد بمثلها[2]. ووقع الوباء في الناس، فهلك كثيرون منهم، وخاصة الفقراء حتى كاد أن يُعجز عن دفنهم[3]. وقد أدى ذلك كله إلى عجز الناصر عن تجريد صائفة، وإغزاء جيش لما بالناس من الجَهَد"[4]، ولذلك اكتفى بتحصين البلاد الموالية له، وبث العيون بين أهل الخلاف الذين لم تمنعهم المجاعة من مواصلة الاعتداء على إخوانهم المسلمين الذين كانوا يتنقلون من مكان إلى مكان بحثاً عن الميرة، وطلباً لما يسد رمقهم[5].

لقد كانت سنة ٣٠٣هـ/٩١٥م شديدة على مسلمي الأندلس، حيث "عاث الموتان في هذه الأزمة، فأودى بخلق من وجوه أهل قرطبة وعلمائها وخيارهم، قصر المؤرخون بيانهم لكثرتهم، إلى من مات من أشكالهم ببلاد الأندلس البعيدة ممن لم يأخذه إحصاء ولا اتصلت عدة"[6].

وانقاد عمر بن حفصون في سنة ٣٠٣هـ/٩١٥م للطاعة، "وخطب الصلح، وركن إلى العافية"[7]، وكان الساعي بينه وبين الأمير الناصر في الصلح: يحيى بن

---

(1) ابن حيان، المقتبس، تحقيق شالميتا: ١٠١؛ ابن عذاري، البيان المغرب: ١٦٦/٢.

(2) ابن حيان، المقتبس، تحقيق شالميتا: ١٠٩.

(3) المصدر نفسه: ١٠٩؛ وانظر: ابن عذاري، البيان المغرب: ١٦٨/٢.

(4) ابن حيان، المقتبس، تحقيق شالميتا: ١١٠.

(5) المصدر نفسه: ١١٠؛ ابن عذاري، البيان المغرب: ١٦٨/٢.

(6) ابن حيان، المقتبس، تحقيق شالميتا: ١١٠.

(7) المصدر نفسه: ١١٢.

إسحاق المرواني، الذي نجح في أخذ الأمان لعمر، وتم الصلح، وبذلك عادت إلى طاعة السلطة الشرعية حصون ابن حفصون التي بلغ عددها مائة واثنين وستين حصناً[1]. وتبادل ابن حفصون والناصر الهدايا[2].

تفرغ الأمير عبد الرحمن بعد عقد الصلح مع عمر بن حفصون لقتال الثائرين الآخرين، وكان أعتاهم: عثمان بن نصر الذي كاشف الأمير بالعداوة في مدينة لبلة. فقد أرسل لإخضاعه حاجبه بدر بن أحمد سنة ٣٠٤هـ/٩١٦م[3]. وعندما وصل بدر إلى أطراف المدينة لاطف ابن نصر، وأغراه بالأمان له ولأصحابه، ولكنه أبى، واستكبر، ولجّ في المعصية "فنازله الحاجب بدر عند ذلك، واستجاش عليه أهل الطاعة، واضطرب بالعسكر على باب المدينة بضروب من الخيل"[4]. ولما رأى أصحاب ابن نصر أنهم لا قبل لهم بهذه القوات طلبوا الأمان، وانفصلوا عن صاحبهم الذي ظل ممتنعاً في المدينة، وعندئذ اقتحمها بدر، وذلك ليلة الاثنين لعشر بقين من رمضان من تلك السنة "فقبض على الخائن عثمان بن نصر وأصحابه أسراً بلا عهد ولا ذمة، فشدّ وثاقهم، وأنفذهم مقيدين إلى الناصر لدين الله بقرطبة"[5].

وفي سنة ٣٠٤هـ/٩١٦م أيضاً غدر سليمان بن عمر بن حفصون بعامل الأمير الناصر على مدينة أبّذة، وقد اتهم الناصر عمر بتدبير ذلك، إلا أنه أنكر هذه التهمة، بل نهض عمر بن حفصون نفسه لمحاربة ابنه سليمان، وتمكن من القبض عليه، وقيده، ونقله إلى ببشتر حيث حبسه هناك شهوراً، ثم أطلقه[6].

---

[1] ابن خلدون، تاريخ: ١٧٩/٤؛ ولمزيد من التفاصيل انظر: ابن حيان، المقتبس، تحقيق شالميتا: ١١٢-١١٥.

[2] ابن حيان، المقتبس، تحقيق شالميتا: ١١٥-١١٦.

[3] ابن عذاري، البيان المغرب: ١٦٩/٢؛ ابن حيان، المقتبس، تحقيق شالميتا: ١٢٨.

[4] ابن حيان، المقتبس، تحقيق شالميتا: ١٢٨.

[5] المصدر نفسه: ١٢٨.

[6] المصدر نفسه: ١٣٠-١٣١، وانظر أيضاً ص١٣٢-١٣٣ حيث يورد ابن حيان رواية لابن حزم في كتابه (نقط العروس) عن هذه الحادثة، وص١٣٣ حيث يورد رواية للرازي عنها، وجميع هذه الروايات متشابهة.

وتوالت حملات الناصر ضد الثائرين لإعادة السكينة إلى الأندلس بعد أن اضطربت بهم، ففي سنة ٣٠٥هـ/٩١٧م أرسل حملة إلى مدينة قرمونة التي انتقض صاحبها حبيب بن عمروس بن سوادة، وجاهر بالمعصية[1]، وكانت تلك الحملة بقيادة الوزير إسحاق بن محمد بن إسحاق القرشي. وكان الأمير الناصر قد أنفذ الكتب إلى كور الغرب لإرسال مزيد من القوات إلى القرشي، فتجمع لديه حشد كبير من العساكر نزل بهم بباب قرمونة. ثم أرسل الناصر قوات أخرى بقيادة الحاجب بدر بن أحمد، وتعاونت هذه الحشود جميعها في حصار قرمونة، وضيقت على حبيب بن عمروس تضييقاً شديداً، ثم اقتحم الحاجب بدر المدينة، ودخلها عنوة يوم الخميس الخامس من ربيع الآخر سنة ٣٠٥هـ/٩١٧م[2]، "فقبض على الشقي حبيب بن عمروس بن سواده وعلى ابنه الأكبر، وأوثقهما بالحديد، وقدم بهما إلى قرطبة. وكان ابنه الأصغر فيها مرتهناً عند السلطان، فأوبقه ذنب والده، فقُبض عليه وقُيّد، وحُبس ثلاثتهم في ضنك حبس وظلمة رمس"[3].

– **القضاء على ثورة ابن حفصون:**

كان عمر بن حفصون "جرثومة النفاق، وإمام الضلالة، وكهف الخلاف وموقد نار الفتنة، وملجأ أهل المعصية"[4]. وقد مرّ بنا كيف دوّخ أمراء بني أمية وأعجز جيوشهم إلى أن اضطره الأمير الناصر إلى الاستسلام، حيث ركن إلى الطاعة، فأحسن الناصر معاملته، وقد ظل على ولائه إلى أن توفي بمدينة ببشتر قاعدته بسبب مرض أصابه، وكان ذلك ليلة الاثنين لأربع عشرة بقيت من شعبان من سنة ٣٠٥هـ/٩١٧م[5]. وكان عمره يوم وفاته اثنتين وسبعين سنة، قضى منها ثلاثين سنة ثائراً ممتنعاً في قلعة

---

[1] انظر: ابن حيان، المقتبس، تحقيق شالميتا: ١٣٦؛ ابن عذاري، البيان المغرب: ١٧١/٢.

[2] ابن حيان، المقتبس، تحقيق شالميتا: ١٣٦-١٣٧؛ ابن عذاري، البيان المغرب: ١٧١/٢.

[3] ابن حيان، المقتبس، تحقيق شالميتا: ١٣٧؛ وانظر: ابن خلدون، تاريخ: ١٧٩/٤-١٨٠.

[4] ابن حيان، المقتبس، تحقيق شالميتا: ١٣٨.

[5] المصدر نفسه: ١٣٨.

ببشتر التي اعتبرت منبراً للمعصية[1]. وعندما توفي استبشر المسلمون، وتنفسوا الصعداء، إذ عدوا مهلكه "فاتحة الإقبال، وطالعة السعد، واجتثاث الفتنة"[2].

غير أن الثورة التي أججها عمر بن حفصون لم تخمد بوفاته، فقد توارث أبناؤه العصيان، واستمروا على ما تربوا عليه من الخلاف وخلع الطاعة. وكان ابنه جعفر أكثر أولاده استعداداً لذلك، إذ كان أبوه عمر قد "قلّده عهده في حياته، وأخذ له البيعة على أهل ضلالته..فأظهر جعفر يوم موت أبيه لجميع نصارى ببشتر أنه يعتقد دينهم، ويدين بالنصرانية معهم. وزعم أن أباه كان يعتقد ذلك ولا يظهره"[3]. وقد دفن جعفر أباه بحضور القسيسين والرهبان الذين تولوا تجهيز والده عمر ودفنه على سنة النصارى[4].

وكان جعفر بن عمر بن حفصون "متهوراً سخيفاً جباناً ضعيفاً لئيماً دميماً حسوداً حقوداً...مؤالفاً للسّفال، مستصحباً للأرذال"[5]. وقد لاطف إخوته، وطيب بنفوسهم، "حتى سلّموا له، ورضوا بتقدمه"[6]، باستثناء أخيه سليمان الذي انتزى في عهد والده عمر في أبذة – كما ذكرنا –، ولم يذعن بالطاعة للأمير الناصر مثلما أذعن والده. وكان والده قد حاربه وقبض عليه وسجنه ثم أطلقه.

لقد استمر جعفر بن حفصون في التظاهر بأنه على طاعة الأمير الناصر الذي أبقى جعفراً عاملاً على ببشتر تمسكاً بالوفاء بالعهد الذي أبرمه مع والده، وذلك على الرغم من "كثرة المشيرين عليه والمخاطبين له من ذوي النصائح غبّ الفاسق عمر في انتهاز الفرصة من هذا الفِسل ولده"[7]. فرغم ذلك أمضى جعفرَ "على عمل والده، وارتهن منه ولده، فصلح أمره مدة"[8].

---

(1) ابن حيان، المقتبس، تحقيق شالميتا: ١٣٨.

(2) المصدر نفسه: ١٣٩؛ وانظر: ابن عذاري، البيان المغرب: ١٧١/٢.

(3) ابن حيان، المقتبس، تحقيق شالميتا: ١٣٩.

(4) المصدر نفسه: ١٣٩.

(5) المصدر نفسه: ١٣٩.

(6) المصدر نفسه: ١٣٩.

(7) المصدر نفسه: ١٤٠.

(8) المصدر نفسه: ١٤٠.

واشتد العداء بين الأخوين جعفر وسليمان، وأخذ سليمان يغري الأمير الناصر بمحاربة أخيه، ويحذره من عداوته، فأخرج لحربه جيشاً بقيادة محمد بن قاسم بن طُمْلُس الذي حلّ به، وجدّ في قتاله، وبنى حصن قلنبرة ليشدد الحصار عليه. وقد تمكن ابن طملس من قتل عدد كبير من رجال سليمان، مما اضطره إلى الإذعان، وطلب الأمان، فبادر يحيى بن إسحاق بكتاب أمانه، وقدم به إلى قرطبة، وذلك بعد شهرين من وفاة والده عمر[1]. وقد أكرمه الأمير الناصر، وصيّره في عداد رجاله، غير أنه لم يلبث أن غدر، إذ غلبه الطمع، ولحق بوطن الشقاق ببشتر[2]، وذلك بعد مقتل أخيه جعفر.

وكانت نهاية جعفر بن حفصون قد بدأت عندما عقد الأمير الناصر العزم على تصفيته، ففي ذي الحجة من سنة ٣٠٦هـ/٩١٨م[3] قاد الجيوش بنفسه لحرب جعفر، فتوجه إلى مدينة بلدة من كورة رية، وحاصرها، وأخرج قوّاده إلى الحصون المجاورة الموالية لجعفر، وانتسف زروعها. ثم عادت تلك الجيوش إلى مدينة بلدة، حيث أمر الناصر حاجبه بدر "بمنازلتها والإحاطة بها، واستدار الحاجب بها، ورتّب العساكر عليها، وجدّ في حرب أهلها، فاختلفت كلمتهم عندما أحاط بهم من بأس ما رعبهم، وتداعي من كان فيهم من المسلمين للنزول إلى السلطان على تأمينهم على الأنفس والأهلين والذرية، فأجابهم الناصر لدين الله إلى ذلك، وأنفذ أمانهم، فنزلوا إليه، وصاروا في عسكره"[4]. وأما النصارى في مدينة بلدة فقد رفضوا طلب الأمان، وأصروا على الحرب، فقاتلهم الجيش قتالاً شديداً "ثم إن الله تعالى زلزل أقدامهم فانهزموا"[5]، وتم أسر عدد كبير من قوادهم ووجوههم اقتيدوا إلى سرادق الأمير الناصر، فأمر بضرب أعناقهم. وقد كان لهذه الوقعة أثر كبير على جعفر بن حفصون، إذ فتّت في عضده، وخامره الوهن[6].

---

[1] ابن حيان، المقتبس، تحقيق شالميتا: ١٤٠-١٤١؛ ابن عذاري، البيان المغرب: ٢/١٧١.

[2] ابن حيان، المقتبس، تحقيق شالميتا: ١٤٢.

[3] المصدر نفسه: ١٤٧؛ ابن عذاري، البيان المغرب: ٢/١٧٣.

[4] ابن حيان، المقتبس، تحقيق شالميتا: ١٤٩.

[5] المصدر نفسه: ١٤٩.

[6] المصدر نفسه: ١٥٠؛ وانظر: ابن عذاري، البيان المغرب: ٢/١٧٣-١٧٤.

واستأنف الناصر حرب جعفر بن حفصون في سنة ٣٠٧هـ/٩١٩م، فقد خرج ومعه قوّاده إلى الحصون الموالية لجعفر مثل: شنت أولاية، وشنت مرية، واللرّة وأطاح بها[١]، ثم تقدم إلى مدينة ببشتر "قاعدة الفجار ومعقل الكفار، فنزل عليها مقترباً منها، وزاحف الحاجب بدر بن أحمد لوقته حصن طُلجيرة باب دربها، فأحاط بها وأجحر أهلها داخل دورهم، وملك الحشم أكثر سورهم، إذ كشفتهم الرماة عنه بمداركتهم رشقهم بسهامهم"[٢]. وبعد يومين من الحصار والقتال اقتحمت عساكر الأمير الناصر الحصن، فهرب من بقي من أهله نحو ببشتر، واعتصموا بها[٣].

وتوجه الناصر بجنده بعد ذلك إلى قرى: عامس وطلبيرة، "وكانتا حاضرتين كبيرتين للفسقة ورافدتين لقاعدتهم، قد شادوا فيهما على تطاول أيامهم قصوراً فخمة ومنازل عجيبة...فأبادتهم السيوف إلا من شرد منهم، ووُضعت الأيدي على هدم طُلجيرة وهاتين القريتين، وما كان فيهما من قصور وثيقة"[٤].

ولإضعاف ببشتر أخرج الحاجب بدر بن أحمد إليها الخيول والرجال، فهتك من حواليها، وناشب أهلها القتال، واضطرهم إلى الامتناع داخل أسوارها. وقد أدت هذه الحملة إلى إجبار جعفر بن حفصون على طلب الأمان من الأمير الناصر "فعقد أمانه وقبض رهينته"[٥]، وانصرف إلى القضاء على العصاة الآخرين من آل عمر بن حفصون، فقد هاجمت قوات الإمارة حصن طُرُش الذي كان يمتنع فيه عبد الرحمن بن عمر بن حفصون[٦]، الذي بادر – عندما أحدقت به العساكر – إلى تسليم الحصن، حيث عقد له يحيى بن إسحاق الأمان عندما التمس ذلك، وأرسله إلى قرطبة[٧].

---

(١) ابن حيان، المقتبس، تحقيق شالميتا: ١٥١-١٥٢.

(٢) المصدر نفسه: ١٥٢؛ وانظر: ابن عذاري، البيان المغرب: ١٧٤/٢.

(٣) ابن حيان، المقتبس، تحقيق شالميتا: ١٥٢.

(٤) المصدر نفسه: ١٥٢-١٥٣.

(٥) المصدر نفسه: ١٥٤.

(٦) المصدر نفسه: ١٥٤؛ وانظر: ابن عذاري، البيان المغرب: ١٧٤/٢-١٧٥.

(٧) ابن عذاري، البيان المغرب: ١٧٤/٢-١٧٥؛ ابن حيان، المقتبس، تحقيق شالميتا: ١٥٤-١٥٥.

وظل عميد أهل الضلالة جعفر بن حفصون في ببشتر يتظاهر بمهادنة الأمير الناصر بعد أن منحه الأمان، ويبدو أنه كان عازماً فعلاً على الرضوخ المستمر للسلطة الشرعية، وخاصة أنه "كان يُسرّ الإسلام، ويكتم ذلك في حياة والده المرتد عمر، فلما صار الأمر إليه أظهر أَثَرةَ المسلمين والانحراف إليهم"[1]. وكان ذلك سبباً رئيسياً لغضب النصارى عليه، ذلك الغضب الذي جعلهم يدبرون اغتياله، حيث دخلوا عليه قصره وقتلوه في ليلة الأحد لثلاث عشرة خلت من جمادى الآخرة سنة ٣٠٨هـ/٩٢٠م[2].

وقام نصارى ببشتر بعد قتلهم جعفر بن عمر بن حفصون باستدعاء أخيه سليمان من قرطبة، فاستجاب لهم، وخرج متنكراً إلى ببشتر حيث أمّره أهلها عليهم، وقد تظاهر بأنه مستمر على طاعة الأمير الناصر الذي خُدع بذلك، وأقرّه عاملاً على ببشتر بعد أخيه جعفر[3]. غير أن سليمان لم يلبث أن انتزى، معلناً العصيان، وانضم إليه كثيرون من أهل الذمّة النصارى، وخاصة نصارى طرّش[4].

وقد نهض الأمير الناصر في سنة ٣٠٩هـ/٩٢١م لمحاربة العصاة في طرش، فقد تحرك في الثامن من محرم من تلك السنة "حتى احتلّ على حصن طرّش، وكانت النصرانية قد انحشدت إليه، وتحصنت فيه، فأحدقت العساكر به من جميع جهاته"[5]، ونصبت عليه المجانيق، وأخذت تقصفه بالحجارة، فاختبأ النصارى داخله، وظلوا فيه، "وتمادى التضييق عليهم والإحاطة بهم حتى أخذهم الجهد، وأشفوا على الهلاك"[6]. واضطروا إلى تسليم الحصن، فأمر الناصر بهدم قصبته "وحُطت أسواره، وأُلقيت أحجاره في النهر، وأمر فبُني موضع الكنيسة فيه مسجد جامع"[7].

---

(1) ابن حيان، المقتبس، تحقيق شالميتا: ١٦٨.

(2) المصدر نفسه: ١٦٨؛ وانظر: ابن عذاري، البيان المغرب: ٢/١٨٠.

(3) ابن حيان، المقتبس، تحقيق شالميتا: ١٦٨-١٦٩.

(4) المصدر نفسه: ١٧١-١٧٢؛ ابن عذاري، البيان المغرب: ١٨٠.

(5) ابن عذاري، البيان المغرب: ٢/١٨٠-١٨١.

(6) ابن حيان، المقتبس، تحقيق شالميتا: ١٧٢.

(7) المصدر نفسه: ١٧٢؛ وانظر: ابن عذاري، البيان المغرب: ٢/١٨١.

وبينما كانت عساكر الأمير الناصر تحاصر طرّش، كانت بعض القوات تهاجم حصن ببشتر والحصون المجاورة له للتضييق على سليمان بن عمر بن حفصون، والانتقاص من رجاله، وقد فعلوا ذلك[1]. ثم قفل الناصر عائداً إلى قرطبة يوم الاثنين الرابع عشر من ربيع الأول سنة ٣٠٩هـ/٩٢١م بعد أن أمضى في محاربة العصاة تسعة وستين يوماً من تلك السنة[2].

ويذكر ابن حيان نقلاً عن الرازي أن أهل طرش الذين نجوا من القتل التمسوا الأمان، فأمنهم الناصر "ولحقوا بالجماعة، واعتصموا بالطاعة، وأُلحق من رجالهم في ديوان الجند من استحق الإلحاق وشُهر بالبأس"[3]. ثم أمر الناصر بإخراب حصن طرش وتسويته بالأرض، فصُيِّر قاعاً صفصفاً[4].

برزت – إلى جانب سليمان بن عمر بن حفصون – شخصية أخرى من آل حفصون في أثناء حصار جيوش الناصر لطرّش، هي أخوه حفص الذي حاول شدّ أزره، ومظاهرته على الخلاف والعصيان. وقد هاجمهما الناصر في ربيع الأول من سنة ٣١٠هـ/٩٢٢م، حيث قصد قلعة ببشتر، "وقطع ما كان بقي في أسناد جبلها من الشجر، وحطم ما نجا فيها من أسباب المعيشة، ورتب لمحاصرة أهلها عدة من أكابر القواد النازلين في الحصون التي اتخذها عليهم"[5].

واستأنف الأمير الناصر منازلة سليمان بن عمر بن حفصون في ببشتر في سنة ٣١١هـ/٩٢٣م، إذ نزل على تلك المدينة في غرة المحرم من تلك السنة، ولما لاحظ سليمان إصراره وعزمه على القضاء عليه حاول ملاينته، وخاصة أنه كان قد انفصل عنه كثير من أصحابه بسبب خلافات نشبت بينه وبينهم، غير أن الناصر لم يستجب له هذه المرة، بل "أخذ بالجدّ والعزم في منازلته وشدة الحصار عليه، وقطع باقي أشجاره

---

[1] ابن حيان، المقتبس، تحقيق شالميتا: ١٧٢؛ ابن عذاري، البيان المغرب: ١٨١/٢.

[2] ابن حيان، المقتبس، تحقيق شالميتا: ١٧٢؛ ابن عذاري، البيان المغرب: ١٨١/٢.

[3] ابن حيان، المقتبس، تحقيق شالميتا: ١٧٣.

[4] المصدر نفسه: ١٧٣.

[5] المصدر نفسه: ١٨٠.

وكرومه، واصطلام معايشه"[١]. كما دمّر الحصون القريبة من ببشتر، وقطع معايشها أيضاً، واشتدت وطأته عليها، ومنها حصن ألجش، وحصن شنت بيطر وغيرهما[٢].

وعندما رأى حفص بن عمر بن حفصون عزم الناصر وتصميمه بادر إلى طلب الأمان، فأمنه الناصر، وأقره في بعض حصونه[٣]. ثم تقدم الناصر إلى حصن شاط، والمنكّب، ومشكريل، واقتحمت عساكره في الطريق إلى تلك المواقع أوعاراً لم يقتحمها جيش قبله، وتغلب على أرباض تلك الحصون، وأهلك زروعها[٤].

عاد الناصر بجيوشه لمحاصرة ببشتر، وقد كان أهلها أرادوا الفتك بأميرهم سليمان بن عمر بن حفصون "وضبطوا القصبة دونه، وأطلقوا من كان في حبسه، وانتهبوا أكثر أمتعته"[٥]. ولما علم سليمان بذلك تسلل إلى قصره، وأغرى بعض أتباعه بانتهاب أموال أولئك الذين غدروا به، وقتالهم، فبادروا إلى ذلك "وسلط الله بعض الكفرة على بعض"[٦]، مما زاد في ضعفهم حتى أنهم جبنوا عن الخروج لمدافعة عسكر الأمير الناصر عن الحصن[٧]. وقد اختار الناصر من يثق به من رجاله، وأمرهم بملازمة ببشتر وحصارها، وقفل عائداً إلى قرطبة، وذلك في يوم السبت العاشر من ربيع الأول سنة ٣١١هـ/٩٢٣م[٨].

---

[١] ابن حيان، المقتبس، تحقيق شالميتا: ١٨٣-١٨٣؛ وانظر: ابن عذاري، البيان المغرب: ٢/١٨٣-١٨٤.

[٢] ابن حيان، المقتبس، تحقيق شالميتا: ١٨٤؛ ابن عذاري، البيان المغرب: ٢/١٨٤.

[٣] ابن حيان، المقتبس، تحقيق شالميتا: ١٨٤.

[٤] المصدر نفسه: ١٨٤.

[٥] ابن عذاري، البيان المغرب: ٢/١٨٤؛ وانظر: ابن حيان، المقتبس، تحقيق شالميتا: ١٨٤.

[٦] ابن عذاري، البيان المغرب: ٢/١٨٤.

[٧] ابن حيان، المقتبس، تحقيق شالميتا: ١٨٥؛ ابن عذاري، البيان المغرب: ٢/١٨٤.

[٨] ابن عذاري، البيان المغرب: ٢/١٨٤. وانظر رواية ابن مسعود حول ذلك في: ابن حيان، المقتبس، تحقيق شالميتا: ١٨٥-١٨٦.

انشغل الأمير الناصر في السنوات التالية عن سليمان بن حفصون بحروب أخرى ضد النصارى، وضد المارقين الآخرين، ولكنه في سنة ٣١٤هـ/٩٢٦م عاد إليه، مستهدفاً استئصاله، ففي تلك السنة وجه إلى ببشتر قائده عبد الحميد بن بسيل، فوصل إليها في منتصف ربيع الأول من تلك السنة، ونازل سليمان فيها، وضيّق عليه، وشدّ حصره، وقطع أوجه المعيشة عنه. ولم يلبث سليمان أن خرج من قلعته "يرجو انتهاز الفرصة من أصحاب السلطان المكتنفين له بالحصار، فكان هو المفترص منهم، وتبادرت إليه الخيل من الجهة التي كان فيها الوزير القائد عبد الحميد بن بسيل، فقتله الله بأيديهم، وذلك يوم السبت غرة ذي الحجة"[1]. وقد بعث القائد عبد الحميد برأس سليمان وجثته إلى قرطبة، حيث رفعت على خشبة عالية "وكان الفتح فيه عظيماً ساراً لجميع المسلمين"[2].

لم يبق – بعد قتل سليمان بن عمر بن حفصون – من آل حفصون المارقين سوى حفص بن عمر بن حفصون الذي أخذ مكان أخيه في العصيان بعد أن كان مستأمناً لدى الأمير الناصر، فبعد مقتل أخيه جاهر بالعصيان، وامتنع في ببشتر، فكان لا بد للناصر من توجيه ضربة قاضية إلى ببشتر التي أرّقت الأندلس كلها زمناً طويلاً. لقد نهض الناصر لمحاربة حفص في يوم الاثنين، منتصف ربيع الآخر من سنة ٣١٥هـ/٩٢٧م، واصطحب معه ابن الحكم، "فنزل الناصر بجيوشه وخيله وعدده على مدينة ببشتر يوم الثلاثاء لسبع بقين من ربيع الآخر، وزاد عزماً في البنيان عليها، والجد في محاصرتها، وأرتب بها من القواد من يلازمها"[3]. ثم تنقل بين حصون ابن حفصون المجاورة، ودمرها تدميراً، وعاد إلى ببشتر "فاضطرب عليها ثانية من ناحية لَمَاية"[4]. وقد رأى الناصر أن يبني حصناً قرب ببشتر لأن ذلك من أنكى الأمور للفسّاق وأشدها عليهم، وبعد

---

(1) ابن حيان، المقتبس، تحقيق شالميتا: ٢٠٤؛ ابن عذاري، البيان المغرب: ٢/١٩١-١٩٢، ويذكر أن قتل سليمان بن عمر بن حفصون كان على يد العريف سعيد بن يعلى الذي احتز رأسه يوم الثلاثاء مستهل ذي الحجة من سنة ٣١٤هـ.

(2) ابن عذاري، البيان المغرب: ٢/١٩٤؛ وانظر: ابن حيان، المقتبس، تحقيق شالميتا: ٢٠٦-٢٠٧.

(3) ابن عذاري، البيان المغرب: ٢/١٩٣؛ وانظر: ابن حيان، المقتبس، تحقيق شالميتا: ٢٠٩.

(4) ابن حيان، المقتبس، تحقيق شالميتا: ٢١١.

أن تم ذلك قام بجولة حربية أخرى على الحصون والقرى الموالية لابن حفصون، ونكل بها، ثم رجع إلى ببشتر للمرة الثالثة، وشدد قبضته عليها[1].

"لما اشتدت المحاصرة على حفص بن عمر بن حفصون بمدينة ببشتر، وأحيط بالبنيان عليه من كل جانب، ورأى من الجد والعزم في أمره ما علم ألا بقاء معه في الشاهق الذي تعلق به، مع حدّ أسباب المعيشة عنه، كتب إلى...الناصر لدين الله يسأله تأمينه والصفح عنه، على أن يخرج من الجبل مستسلماً لأمره، راضياً بحكمه"[2].

وافق الناصر على استسلام حفص، "وأخرج إليه الوزير أحمد بن محمد ابن حدير، فتولى هو والوزير سعيد بن المنذر القرشي العاكف على حصاره شأن تأمينه، ومعاناة استنزاله، فاستنزلاه وآله وجميع النصارى الذين كانوا معه، وأخلوا مدينتهم"[3].

وكان إخلاء ببشتر من آخر ثائر من أسرة عمر بن حفصون يعني تطهيرها من أنجاس الضلالة، وكان لذلك أهمية كبرى للأندلس التي عانت من ثوراتهم طويلاً. ويعكس هذه الأهمية مبادرة الناصر نفسه في سنة ٣١٦هـ/٩٢٨م بالخروج إليها لتدبير أمرها، وإحكام ضبطها. وقد وصلها "يوم الأحد لعشر بقين من المحرّم منها، فدخل المدينة وجال في أقطارها، وعاين من شرفها وحصانتها وعلوّ مرتقاها وانقطاع جبلها من جميع جهاتها ما أيقن معه ألا نظير لها بأرض الأندلس حصانة ومنعة"[4].

ويبدو أن ثورة عمر بن حفصون المستمرة، وثورة إخوته وأبنائه من بعده أثارت الشكوك في نفس الأمير الناصر في أن يكون على دين الإسلام، إذ لا يعقل أن يقوم مسلم

---

(1) ابن حيان، المقتبس، تحقيق شالميتا: ٢١١-٢١٢؛ ابن عذاري، البيان المغرب: ١٩٣/٢-١٩٤.

(2) ابن حيان، المقتبس، تحقيق شالميتا: ٢١٢-٢١٣.

(3) المصدر نفسه: ٢١٢-٢١٣؛ وانظر: ابن عذاري، البيان المغرب: ١٩٥/٢.

(4) ابن حيان، المقتبس، تحقيق شالميتا: ٢١٦؛ وانظر: ابن عذاري، البيان المغرب: ١٩٦.

بتلك المعاداة للمسلمين وللإسلام، وأن يرفع في وجوههم السيف كل هذا الزمن الطويل أياً كانت الأسباب. ودفعت هذه الشكوك الأمير الناصر إلى الأمر بنبش قبر عمر بن حفصون، "فانكشفت دِفْنةُ جثته الخبيثة عن سنة مدفوني النصارى...لأنه أصيب ملقىً على ظهره، مستقبلاً وجه المشرق بوجهه، موضوعاً ذراعه على صدره، كما يتدافن النصارى"[1]. ويبدو أن جعفر بن عمر بن حفصون قد ارتد أيضاً عن الإسلام إلى نصرانيته، فقد أشار ابن عذاري إلى ذلك حينما ذكر أن قبر جعفر نبش أيضاً، فوجد مدفوناً على الطريقة نفسها "وشهد ذلك عامة الفقهاء الغازين مع الناصر، وأيقن جميع من شهد ذلك بهلاكهما على دين النصرانية"[2].

ولكي يكون عمر بن حفصون عبرة لغيره أمر الناصر بنقل جثته إلى قرطبة حيث رفعه هنالك على جذوع عالية بين ابنيه حكم وسليمان اللذين قد كان صلبهما قبله "عظة للناظرين، وقرّة لقلوب المسلمين، فلم تزل جذوعهم مقيمة هنالك، ومائلة قصد أعين الناظرين من وقت توافيهم عليها إلى سنة إحدى وثلاثين وثلاثمائة، فإن مدّ النهر الموافي في تلك السنة طما، فذهب بجذوعهم"[3].

وقد قلّد الناصر أمر مدينة ببشتر، والضبط لها، وإكمال البنيان فيها سعيد بن المنذر القرشي[4]، وأقيمت في جامعها الصلوات والخطب، وعُمرت فيها المساجد المقفرة، وهدمت منها الكنائس المعمورة[5].

---

(1) ابن حيان، المقتبس، تحقيق شالميتا: ٢١٦.

(2) ابن عذاري، البيان المغرب: ١٩٦/٢.

(3) ابن حيان، المقتبس، تحقيق شالميتا: ٢١٦-٢١٧.

(4) ابن عذاري، البيان المغرب: ١٩٦/٢.

(5) ابن حيان، المقتبس، تحقيق شالميتا: ٢١٦.

إعلان الخلافة:

كان القضاء على معظم الثوار في الأندلس، وخاصة آل حفصون في ببشتر من أهم الأسباب التي جعلت الأمير الأموي عبد الرحمن الناصر لدين الله يستشعر في نفسه القوة والاستقلال، وكان ضعف الخلفاء العباسيين في المشرق سبباً آخر لا يقل أهمية، فقد التاث أمرهم، واستبد الترك بهم، وأصبح خلع الخليفة وتنصيب غيره أمراً عادياً هناك[1]. يضاف إلى ذلك قيام الدولة الفاطمية الشيعية في شمالي إفريقية التي ازدادت خطورتها في عهد الأمير الناصر، وامتدت أطماعها إلى المغرب كله والأندلس أيضاً، فكان لا بد من خلافة سنّية قادرة على مقاومة الفاطميين، والحد من نفوذهم[2]. ولكل هذه الأسباب "رأى الناصر أن تكون الدعوة له في مخاطباته والمخاطبات له في جميع ما يجري ذكره بأمير المؤمنين"[3]. وقد شجعه على اتخاذ هذه الخطوة كونه "ابن أمراء المؤمنين، وسلالة الهداة الفاضلين، والأئمة المتقين القائمين بالحق السالكين سبيل الرشد"[4].

لقد أصدر الأمير الناصر مرسوماً بأن تكون الخطبة يوم الجمعة مستهل ذي الحجة من سنة ٣١٦هـ/٩٢٨م باسمه، وأن ينطق صاحب الصلاة، وهو الفقيه القاضي أحمد بن بقيّ بن مخلد بن يزيد بالدعاء له في خطبة الجمعة ذلك اليوم في المسجد الجامع بقرطبة[5]. كما وجه رسالة إلى عماله في أنحاء الأندلس يأمرهم بأن يُدعى له بأمير المؤمنين. ونظراً لأهمية تلك الرسالة باعتبارها تمثل نقلة نوعية في تاريخ الأندلس، وتستبدل الإمارة بالخلافة فيها، نوردها فيما يلي:

"بسم الله الرحمن الرحيم. أما بعد، فإنّا أحق من استوفى حقه، وأجدر من استكمل حظه، ولبس من كرامة الله ما ألبسه، الذي فضّلنا الله به، وأظهر أثرتنا فيه، ورفع سلطاننا إليه، ويسّر على أيدينا إدراكه، وسهل بدولتنا مرامه، والذي أشاد في الآفاق من

---

[1] ابن الأثير، الكامل في التاريخ: ١٩١/٦ وما بعدها؛ المقري، نفح الطيب: ٣٥٣/١.

[2] انظر التفاصيل: ابن الأثير، الكامل في التاريخ: ١٢٤/٦ وما بعدها.

[3] ابن عذاري، البيان المغرب: ١٩٨/٢.

[4] ابن حيان، المقتبس، تحقيق شالميتا: ٢٤١.

[5] المصدر نفسه: ٢٤١؛ وانظر: ابن عذاري، البيان المغرب: ١٩٨/٢.

ذكرنا، وعلوّ أمرنا، وأعلن من رجاء العالمين بنا، وأعاد من انحرافهم إلينا، واستبشارهم بدولتنا. والحمد لله ولي النعمة والإنعام بما أنعم، وأهل الفضل بما تفضل علينا فيه. وقد رأينا أن تكون الدعوة لنا بأمير المؤمنين، وخروج الكتب عنا ووردوها علينا بذلك، إذ كل مدعوّ بهذا الاسم غيرنا منتحل له، ودخيل فيه، ومتّسم بما لا يستحقه. وعلمنا أن التمادي على ترك الواجب لنا من ذلك حق أضعناه، واسم ثابت أسقطناه. فأمر الخطيب بموضعك أن يقول به، وأجر مخاطباتك لنا عليه، إن شاء الله. والله المستعان. وكُتب يوم الخميس لليلتين خلتا من ذي الحجة سنة ٣١٦هـ"[1]. وقد استمرت هذه السمة على الناصر وعلى عقبه من بعده إلى أن انقرضت دولتهم[2].

وكان من أبرز ما قام به الخليفة الناصر بعد إعلانه الخلافة اتخاذه دار السكّة داخل مدينة قرطبة لضرب الدنانير والدراهم "فاتخذت هناك على رسمه، وولّى خطتها أحمد بن محمد بن حدير يوم الثلاثاء لثلاث عشرة بقيت من شهر رمضان منها (من سنة ٣١٦هـ/٩٢٨م)، فقام الضرب فيها من لدن هذا التأريخ من خالص الذهب والفضة، وصحح في ذلك ابن حدير، وأجاد الاحتراس من أهل الدُلسة، فأضحت دنانيره ودراهمه معياراً محضاً"[3].

القضاء على الثورات في غربي الأندلس:

انتزى في بطليوس في عهد الخليفة الناصر حفيد عبد الرحمن بن مروان الجليقي، حيث أعلن العصيان بعد أن خلع طاعة السلطة الشرعية في قرطبة. وهذا الحفيد هو: عبد الرحمن بن عبد الله بن عبد الرحمن بن مروان الجليقي. وثار في باجة من غربي الأندلس أيضاً عبد الرحمن بن سعيد بن مالك، وثار في أكشونبة، قرب الساحل الغربي من المحيط الأطلسي: خلف بن بكر. وثار في كور غربي الأندلس آخرون. وقد نهض الخليفة الناصر لحرب هؤلاء جميعاً في ربيع الآخر من سنة ٣١٧هـ/٩٢٩م[4].

---

[1] ابن عذاري، البيان المغرب: ١٩٨/٢-١٩٩.

[2] ابن حيان، المقتبس، تحقيق شالميتا:٢٤٢.

[3] المصدر نفسه: ٢٤٣.

[4] المصدر نفسه: ٢٤٥؛ وانظر: ابن عذاري، البيان المغرب: ١٩٩/٢.

قدّم الناصر قبل توجهه إلى غربي الأندلس لاستنزال الثوار المستمسكين بالخلاف، النابذين للطاعة رسله وأمناءه يدعونهم إلى الدخول في عصمة الجماعة "والتخلي عما انتزوا عليه من البلاد، ومن اضطهدوهم من الرعية"[1]. إلا أنهم لم يستجيبوا لذلك، فمضى نحوهم بجيوشه، وبدأ منهم بصاحب بطليوس عبد الرحمن بن عبد الله الجليقي "فاحتلّ الناصر لدين الله عليه بباب مدينة بطليوس...يوم الخميس لسبع بقين من ربيع الآخر...فأساء الأدب، وأفحش في القول، وجمح في الجهالة، وسارع إلى الحرب"[2]. وعندئذ اشتبك الطرفان في قتال عنيف قتل خلاله عدد كبير من رجال الجليقي[3]، "وقطعت ثمارهم وأحرق ما أخلوه من ديارهم خارج سورهم، وبقوا محصورين في المدينة"[4]. وفي اليوم الثاني من المعركة وكل الخليفة الناصر بحربهم وحصرهم والتضييق عليهم أحمد بن إسحاق القرشي، بينما سار هو إلى ماردة حيث أمضى أياماً في استصلاح أحوالها، وعاد ثانية إلى بطليوس من جهة غير الجهة التي وصل إليها في المرة الأولى، "إيلاغاً في نكايتهم، فتولى من ذلك ما أذاقهم من وبال عصيانهم، وعاقبة ضلالهم"[5]. ثم ترك جيشاً كثيفاً ورجالاً منتقين وعدد كاملة بقيادة أحمد بن إسحاق "وأمره بالتشدد في حصرهم، والاستبلاغ في مضايقتهم"[6].

توجه الخليفة الناصر إلى مدينة باجة، وكان عاملها عبد الرحمن بن سعيد بن مالك قد ثار فيها، وقبل أن يشتبك معه دعاه إلى الطاعة، ولما رفض نصب المجانيق عليه "وحورب أشد محاربة، وقُتل من رجاله عدد كثير، وانحطت بعض أبراج المدينة بمن كان عليها"[7]. وأما من كان داخل المدينة فقد قُطعت الأقوات عنهم، فمسّهم الجهد، ونالهم العطش، "فلما رأى ذلك أميرهم...ضرع في الأمان، ودعا إلى الطاعة، فأجابه السلطان

---

[1] ابن حيان، المقتبس، تحقيق شالميتا: ٢٤٦.

[2] المصدر نفسه: ٢٤٦؛ ابن عذاري، البيان المغرب: ٢/٢٠٠.

[3] ابن عذاري، البيان المغرب: ٢/٢٠٠.

[4] المصدر نفسه: ٢/٢٠٠.

[5] ابن حيان، المقتبس، تحقيق شالميتا: ٢٤٧؛ وانظر: ابن عذاري، البيان المغرب: ٢/٢٠٠.

[6] ابن عذاري، البيان المغرب: ٢/٢٠٠.

[7] المصدر نفسه: ٢/٢٠٠؛ ابن حيان، المقتبس، تحقيق شالميتا: ٢٤٧-٢٤٨.

إلى ما التمس من ذلك وأمنه، وأمن إخوته وأهل بيته، ومن كان بداخل المدينة من رجاله، ونزلوا على حكمه"[1].

دخل الناصر مدينة باجة في منتصف جمادى الآخرة ٣١٧هـ/٩٢٩م، فأمن أهلها، وردّ مظالمهم، ونظر في مصالحهم "وأمر بابتناء قصبة فيها ينفرد فيها العامل عليها، ويسكنها برجاله"[2].

سار الناصر بعد باجة إلى أكشونبة، واستولى في طريقه إليها على حصن من حصون صاحبها: خلف بن بكر يدعوه ابن حيان حصن الرقاع[3]، ويدعوه ابن عذاري حصن الوقاع[4]، وأصاب في هذا الحصن لابن بكر مالاً وعدة وسلاحاً مما فتّ في عضد ابن بكر[5]، واضطره إلى طلب الأمان، فأمنه "وقد أظهر رعيته فيه رغبة شديدة، ووصفته بسيرة حميدة، فقبل الناصر لدين الله إنابته، وأوسعه حسن رأيه، وأقرّه على ولاية بلده"[6]، وأعاد إلى قرطبة في أواخر جمادى الآخرة من سنة ٣١٧هـ/٩٢٩م[7].

أما بطليوس فقد لازم القائد أحمد بن إسحاق القرشي حصارها، وكدّ أهلها بالحرب وقمعهم بالذل، فجرت بينه وبينهم وقائع صعبة، تمكن خلالها من أسر سبعين فارساً من فرسان الجليقي أرسلهم إلى قرطبة حيث ضُربت رقابهم بين يدي قصر الخلافة على ضفة نهر الوادي الكبير[8]. ولما رأى أهل بطليوس "عزماً لا فترة فيه، وجدّاً لا بقاء لهم عليه" استكان أميرهم عبد الرحمن بن عبد الله بن عبد الرحمن بن مروان الجليقي، وطلب الأمان من الخليفة الناصر، فأجابه "وأوسعه عنوة، وأعطاه أمانه هو وأهله وذوي

---

(1) ابن حيان، المقتبس، تحقيق شالميتا: ٢٤٨.

(2) المصدر نفسه: ٢٤٨.

(3) المصدر نفسه: ٢٤٨.

(4) ابن عذاري، البيان المغرب: ٢/٢٠٠.

(5) ابن حيان، المقتبس، تحقيق شالميتا: ٢٤٨؛ ابن عذاري، البيان المغرب: ٢/٢٠٠-٢٠١.

(6) ابن حيان، المقتبس، تحقيق شالميتا: ٢٤٩.

(7) المصدر نفسه: ٢٤٩؛ ابن عذاري، البيان المغرب: ٢/٢٠١.

(8) ابن حيان، المقتبس، تحقيق شالميتا: ٢٤٩،٢٧١.

الشوكة من رجاله، فأسكنهم حضرته قرطبة، وأوسعهم من إحسانه ما أوسع أمثالهم قبلهم، وألحقهم بالملاحق الحسنة، وملك مدينة بطليوس وعملها"[1]، وكان ذلك في سنة ٣١٨هـ/٩٣٠م[2].

وكان آخر الثوار الذين أعادهم الخليفة الناصر إلى الطاعة قبل أن يركز جهوده لإخضاع طليطلة هو عامر بن أبي جوشن عامل مدينة شاطبة، ففي سنة ٣١٧هـ/٩٢٩م أرسل الناصر صاحب شرطته: درّي بن عبد الرحمن على رأس حملة إلى شاطبة، فبادر صاحبها ابن أبي جوشن إلى طلب الأمان والدخول في الطاعة، إذ أدرك أنه غير قادر على مقاومة جيوش الخليفة، فأعطي الأمان، ورحل عن شاطبة إلى شنت برية "حتى يأخذ في انتقال ثقله وعياله إلى قرطبة"[3]. وقد ذكر ابن حيان أن ابن أبي جوشن استسلم "بعد أن ترددت الجيوش عليه، واتصلت الحروب معه، وأحدقت القواد به من سنة اثنتي عشرة وثلاثمائة إلى هذا الوقت بتداول حصاره قائداً إثر قائد، وتُوالي نزاله عسكراً بعد عسكر، حتى أعطى المقاومة عن صُغْر"[4].

- إخضاع طليطلة:

لم تهدأ الثورات في طليطلة منذ بداية العهد الأموي بالأندلس على يد عبد الرحمن الداخل، ففي عهده ثار فيها يوسف الفهري[5] – كما ذكرنا – الذي قُتل على مقربة منها في شهر رجب من سنة ١٤٢هـ/٧٥٩م[6]. وثار فيها سنة ١٤٤هـ/٧٦١م هشام بن عروة الفهري، وحيوة بن الوليد اليحصبي، وعثمان بن حمزة بن عبيد الله بن عبد الله بن

---

(1) ابن حيان، المقتبس، تحقيق شالميتا: ٢٧١؛ وانظر: ابن عذاري، البيان المغرب: ٢٠٢/٢.

(2) ابن عذاري، البيان المغرب: ٢٠٢/٢.

(3) المصدر نفسه: ٢٠١/٢.

(4) ابن حيان، المقتبس، تحقيق شالميتا: ٢٤٩-٢٥٠.

(5) المقري، نفح الطيب: ٣٢٩/١.

(6) ابن الأثير، الكامل في التاريخ: ٤٩٩/٥؛ ابن عذاري، البيان المغرب: ٤٩/٢؛ النويري، نهاية الأرب: ٣٢٩/٢٣.

عمر بن الخطاب[1]، وقد تمكن عبد الرحمن الداخل من إخماد ثورتهم سنة ١٤٧هـ/٧٦٤م[2]. وأعلن العصيان في طليطلة أحد قادة الداخل، هو القائد السلمي الذي فرّ إليها من قرطبة سنة ١٦٢هـ/٧٧٨م[3]، وثار فيها سنة ١٦٨هـ/٧٨٤م أبو الأسود محمد بن يوسف الفهري، وقد قتلت قوات الأمير الأموي عبد الرحمن الداخل من قوات أبي الأسود نحو أربعة آلاف، مما ألحق به الهزيمة[4]. غير أنه تمكن من تجميع الناجين من رجاله، وحاول مهاجمة الداخل مرة أخرى، ولكنه انهزم مرة أخرى، ثم قتل سنة ١٧٠هـ/٧٨٦م قرب طليطلة[5].

وثار في طليطلة سليمان بن عبد الرحمن الداخل ضد أخيه هشام الذي آلت إليه إمارة الأندلس. وقد بدأت ثورته سنة ١٧٢هـ/٧٨٨م، ثم انضم إليه في هذه الثورة أخوه عبد الله. وقد أشرنا إلى سابقاً إلى كيفية انتهاء ثورتهما ومغادرتهما الأندلس منفيين إلى المغرب[6].

ولم تهدأ الثورات في طليطلة في عهد الأمير الحكم بن هشام، فقد ثار فيها عبيدة بن حميد سنة ١٨١هـ/٧٩٧م[7]، ووقعت فيها مذبحة كبرى عُرفت باسم وقعة الحفرة سنة ١٩١هـ/٨٠٦م[8]. كان الهدف منها القضاء على رؤوس المعارضة الطليطلية، وقد

---

[1] ابن الأثير، الكامل في التاريخ: ٥/٥٢٧؛ النويري، نهاية الأرب: ٢٣/٣٤٠.

[2] ابن الأثير، الكامل في التاريخ: ٥/٥٨٣؛ ابن عذاري، البيان المغرب: ٢/٥٣؛ النويري، نهاية الأرب: ٢٣/٣٤٠.

[3] النويري، نهاية الأرب: ٢٣/٣٤٨؛ ابن الأثير، الكامل في التاريخ: ٦/٥٩.

[4] ابن الأثير، الكامل في التاريخ: ٦/٧٨ وما بعدها؛ النويري، نهاية الأرب: ٢٣/٣٤٩-٣٥٠؛ العذري، نصوص عن الأندلس: ١١؛ ابن عذاري، البيان المغرب: ٢/٥٧.

[5] ابن الأثير، الكامل في التاريخ: ٦/٧٩؛ النويري، نهاية الأرب: ٢٣/٣٤٩-٣٥٠؛ ولمزيد من التفاصيل انظر: ابن عذاري، البيان المغرب: ٢/٥٧ وما بعدها.

[6] لمزيد من التفاصيل انظر: ابن الأثير، الكامل في التاريخ: ٦/١١٧؛ ابن عذاري، البيان المغرب: ٢/٦١ وما بعدها؛ النويري، نهاية الأرب: ٢٣/٣٥٣-٣٥٤.

[7] ابن الأثير، الكامل في التاريخ: ٦/١٥٨؛ ابن عذاري، البيان المغرب: ٢/٦٩.

[8] ابن الأثير، الكامل في التاريخ: ٦/١٩٩-٢٠١؛ النويري، نهاية الأرب: ٢٣/٣٦٥؛ ابن عذاري، البيان المغرب: ٢/٦٩ وما بعدها.

حققت هدفها في عهد الحكم، إذ هدأت الأحوال فيها بضع سنوات، حيث عادت إلى الاضطراب في عهد الأمير الأموي عبد الرحمن الثاني الأوسط على يد هاشم الضرّاب، الذي استمرت ثورته حتى سنة ٢١٦هـ/٨٣١م حيث قتل مع أعداد كبيرة من قواته[1]. ولم تنته الثورة في طليطلة بمقتل الضرّاب، فقد تلاحقت الثورات فيها إلى أن تمكنت قوات السلطة الشرعية من دخولها سنة ٢٢٢هـ/٨٣٦م[2].

وفي عهد الأمير محمد بن عبد الرحمن أعلن أهالي طليطلة الثورة، واستعانوا بالنصارى ضد قوات الأمير الأموي، ووقعت بينهم وبينه حروب ومعارك، وتعرضت المدينة في عهده للحصار، وانتساف الزروع والثمار أكثر من مرة، إلى أن تمكن الأمير من إجبارها على الاستسلام سنة ٢٤٥هـ/٨٥٩م[3]. ثم لم يلبث الاضطراب أن عاد إلى طليطلة عندما استعمل عليها الأمير محمد بن عبد الرحمن واليين هما: طربيشة بن ماسوية ومطرف بن عبد الرحمن وذلك سنة ٢٥٩هـ/٨٧٢م[4]، فقد أدى تنافسهما إلى ضعضعة المدينة، وظلت كذلك إلى أن حكمها بنو قسي بقيادة محمد بن لبّ بن موسى الذي بسط نفوذه عليها سنة ٢٨٣هـ/٨٩٦م[5]، ثم آلت إلى حكم محمد بن إسماعيل بن موسى الذي ظل يحكمها حتى مقتله سنة ٢٩٣هـ/٩٠٦م[6]. وقد انتزى فيها بعده عدد من الثوار من أهلها، كان آخرهم لب بن الطربيشة الذي ظل يحكمها حتى انتزعها منه عبد الرحمن الناصر[7].

---

(1) ابن عذاري، البيان المغرب: ٨٣/٢؛ النويري، نهاية الأرب: ٣٧٩/٢٣-٣٨٠.

(2) ابن عذاري، البيان المغرب: ٨٣/٢-٨٤؛ النويري، نهاية الأرب: ٣٨٠/٢٣؛ ابن الأثير، الكامل في التاريخ: ٤٧٥/٦.

(3) انظر التفاصيل: المراكشي، المعجب: ٢٣٨؛ ابن عذاري، البيان المغرب: ٩٤/٢ وما بعدها؛ ابن الأثير، الكامل في التاريخ: ٧١/٧ وما بعدها؛ النويري، نهاية الأرب: ٣٨٧/٢٣ وما بعدها.

(4) ابن عذاري، البيان المغرب: ١٠١/٢.

(5) المصدر نفسه: ١٣٩/٢.

(6) ابن حيان، المقتبس، نشر ملشور: انطونيه، باريس، ١٩٣٧م: ١٤٠؛ ابن عذاري، البيان المغرب: ١٤٢/٢.

(7) ابن حيان، المقتبس، تحقيق شالميتا: ١٦١-١٦٢؛ ابن عذاري، البيان المغرب: ١٧٦/٢.

كانت طليطلة عندما تولى عبد الرحمن الناصر مقاليد الحكم في الأندلس خارجة عن السلطة، تتمتع بالاستقلال بقيادة لُب بن الطربيشة الذي تظاهر بالولاء للناصر، حتى أنه خرج بقواته دعماً للناصر في قتاله ضد نصارى جليقية الذين أغاروا في سنة ٣٠٨هـ/٩٢٠م على مدينة وادي الحجارة[١]، فقد كان ابن الطربيشة "يظهر طاعة تحتها معصية"[٢]، وكان الناصر يعرف ذلك، إلا أنه لم يُقدم على إخضاع طليطلة في ذلك الوقت لانشغاله باستنزال الثوار الآخرين في أنحاء الأندلس، وبمقارعة النصارى الذين كانوا يتربصون به.

وقد بدأ الناصر يعد العدة لإخضاع طليطلة في سنة ٣١٨هـ/٩٣٠م، ففي تلك السنة أرسل وفداً من العلماء والفقهاء لإقناع أهلها بالدخول في الجماعة "إذ كانوا لا يؤدون جباية، ولا يلتزمون طاعة، ولا يتناهون عن منكر ولا معصية"[٣]. غير أنهم لم يصغوا لهذه الدعوة، وعندئذ أرسل الخليفة الناصر وزيره سعيد بن المنذر على رأس جيش لمحاربة أهل طليطلة، وذلك في شهر ربيع الآخر من سنة ٣١٨هـ/٩٣٠م، وأمره بمحاصرة المدينة، ففعل، ولحق به الناصر مع قواته، واستولى في طريقه على حصن مورة دون قتال[٤]، وكان أهل طليطلة قد اتخذوا هذا الحصن "شجاً على المسلمين"[٥]. ووصل الناصر بقواته إلى مشارف طليطلة في الرابع عشر من جمادى الأولى من السنة نفسها، حيث نزل على جبل يشرف على طليطلة ونهر التاجه المار بها، ويتحكم بكرومها ومزارعها[٦]. وقد حاصر المدينة من جهة باب المقبرة، وقام بقطف ثمارهم، وتخريب قراهم، وتدمير مزروعاتهم ومحاصيلهم[٧].

---

[١] ابن حيان، المقتبس، تحقيق شالميتا: ١٦١-١٦٢؛ ابن عذاري، البيان المغرب: ١٧٦/٢.

[٢] ابن عذاري، البيان المغرب: ١٧٦/٢.

[٣] المصدر نفسه: ٢٠٢/٢؛ وانظر: ابن حيان، المقتبس، تحقيق شالميتا: ٢٨٠.

[٤] ابن عذاري، البيان المغرب: ٢٠٢/٢-٢٠٣.

[٥] المصدر نفسه: ٢٠٣/٢.

[٦] يدعى المكان الذي نزل فيه: جرنكش، أو حرنكش أو حرنكس. انظر: ابن عذاري، البيان المغرب: ٢٠٣/٢؛ ابن حيان، المقتبس، تحقيق شالميتا: ٢٨٢؛ ابن عبد ربه، العقد الفريد: ٢٤٣/٥.

[٧] ابن عذاري، البيان المغرب: ٢٠٣/٢؛ ابن حيان، المقتبس، تحقيق شالميتا: ٢٨٣.

ولكي يظهر الخليفة الناصر لأهالي طليطلة مدى عزمه وإصراره على إخضاعهم أمر ببناء حصن في جرنكش لتستقر فيه قواته. وقد أمر وزيره سعيد بن المنذر ببنائه، وما لبث أن توسع البناء حتى أصبح بمثابة مدينة أطلق عليها الناصر اسم مدينة الفتح استبشاراً بفتح طليطلة[1]. وقد أمر الناصر بنقل الأسواق إلى هذه المدينة الناشئة، وشحنها بالعدد والأقوات والصناع والبنّائين لتكون كل متطلبات العسكر والإقامة الطويلة متوافرة فيها[2]. وبعد أن استكملت هذه الاستعدادات أنزل فيها الناصر خاصة قواته، ورتب لهم أماكنهم، والجهات التي ستقوم كل طائفة من الجند بقيادة نخبة من القادة بواجبها في فرض الحصار، واجتهد في أن تحيط القوات بطليطلة من جميع جهاتها[3].

أمر الناصر أحد القادة، وهو محمد بن سعيد بن المنذر، وكذلك أمر أباه سعيداً بإحكام القبضة على طليطلة، ومحاربة أهلها باستمرار حتى لا يتاح لهم التقاط أنفاسهم، وعاد إلى قرطبة مطمئناً إلى الترتيبات التي قام بها من أجل إخضاع طليطلة[4].

ولتعزيز القوات المحاصرة لطليطلة أرسل الناصر إليها مدداً بقيادة الزبير بن سليم في سنة ٣١٨هـ/٩٣٠م نفسها، وأرسل قوات إضافية بقيادة دريّ بن عبد الرحمن في السنة التالية[5]. وقد شدد على هذه القوات أن تبذل أقصى درجات الجد والعزيمة[6].

وكانت قوات جليقية النصرانية في تلك الأثناء تراقب الأحداث، وقد حاولت استغلالها، حيث عملت "على الخروج لافتراص غرة في بعض ثغور المسلمين، فنفر إليهم الوزير أحمد بن محمد بن حدير من قرطبة في حملة من الحشم ومن خف من

---

(1) ابن عبد ربه، العقد الفريد: ٢٤٣/٥؛ ابن حيان، المقتبس، تحقيق شالميتا: ٢٨٣؛ ابن عذاري، البيان المغرب: ٢٠٣/٢.

(2) ابن حيان، المقتبس، تحقيق شالميتا: ٢٨٣؛ ابن عذاري، البيان المغرب: ٢٠٣/٢.

(3) ابن حيان، المقتبس، تحقيق شالميتا: ٢٨٣.

(4) المصدر نفسه: ٢٨٤؛ ابن عذاري، البيان المغرب: ٢٠٣/٢.

(5) ابن عبد ربه، العقد الفريد: ٢٤٣/٥؛ ابن حيان، المقتبس، تحقيق شالميتا: ٣٢٠-٣٢١؛ ابن عذاري، البيان المغرب: ٢٠٧/٢.

(6) ابن حيان، المقتبس، تحقيق شالميتا: ٢٧٨.

المسلمين، فلما بلغ أعداء الله خروجه توقفوا عن حركتهم، وقرّوا في بلادهم"[1]. وعندما علم ابن حدير بتراجعهم عما همّوا به انصرف إلى طليطلة "ونازلها مع القوّاد المرتبين بها"[2].

وقرر الخليفة الناصر في سنة ٣٢٠هـ/٩٣٢م أن يُنهي معارضة طليطلة، ويقضي على الثوار فيها، فخرج بنفسه في الرابع من رجب من تلك السنة، ومعه ابنه الحكم عازماً على إنزال أقسى العقوبات بالعُصاة فيها، وأخذهم بالعنف والشدة. وقد اشتد غضبه عليهم لأنهم لما أخذهم الحصار، واشتد عليهم التضييق، ولازمهم القواد، قد استجاشوا بالمشركين، واستنجدوهم، ورجوا نصرهم لهم"[3]. وقد تقدم راميرو الثاني Ramero II ملك جليقية (ليون) فعلاً لنجدتهم، واستولى في طريقه إلى طليطلة على مجريط، إلا أن القوات المحاصرة لطليطلة تصدت له، وردته على أعقابه[4]. وهكذا لم يغن النصارى عن أهل طليطلة فتيلاً، ولا كشفوا عنهم عذاباً، ولا جلبوا لهم إلا خزياً وهواناً[5].

وصل الخليفة بقواته إلى مدينة الفتح (جرنكش) يوم الأربعاء لخمس بقين من رجب من سنة ٣٢٠هـ/٩٣٢م في الوقت الذي يئس فيه أهالي طليطلة من أن يغيثهم أحد بعد أن فرت القوات النصرانية التي استنجدوا بها، وكان أميرهم حينئذ، وهو: ثعلبة بن محمد بن عبد الوارث قد أدرك أنه لا قبل له، ولأهالي طليطلة بقوات الناصر، بعد أن هدهم الحصار، فبادر إلى ملاقاة الناصر قبل نزوله بمدينة الفتح "معترفاً بجهله، مستقيلاً من زلّته. فعفا عنه، وأمنه، وعاد بفضله عليه، فامتثل أهل طليطلة فعله، وابتدروا الخروج إلى الناصر لدين الله مستهيلين لأمره، منقادين لحكمه، فبذل لهم الأمان، وبسط فيهم الإحسان، وعمّ جميعهم بالأمان العام"[6].

---

(1) ابن عذاري، البيان المغرب: ٢/٢٠٤-٢٠٥.

(2) ابن عبد ربه، العقد الفريد: ٥/٢٨٨؛ ابن عذاري، البيان المغرب: ٢/٢٠٥؛ ابن حيان، المقتبس، تحقيق شالميتا: ٢٨٨.

(3) ابن عذاري، البيان المغرب: ٢/٢٠٦.

(4) المصدر نفسه: ٢/٢٠٧؛ ابن حيان، المقتبس، تحقيق شالميتا: ٥/٣١٨.

(5) ابن حيان، المقتبس، تحقيق شالميتا: ٥/٣١٨.

(6) المصدر نفسه: ٣١٨؛ وانظر: ابن عذاري، البيان المغرب: ٢/٢٠٧.

وفي اليوم الثاني من انقياد أهالي طليطلة لحكم الناصر دخل المدينة، وذلك في السادس والعشرين مم رجب سنة ٣٢٠هـ/٩٣٢م، وتجول فيها، "فرأى من حصانتها، وشرف قاعدتها، وانتظام الأجبل داخل مدينتها، وامتناعها من كل الجهات بواديها ووعرها، وطيب هوائها وجوهرها، وكثرة البشر بها، ما أكثر له من شكر الله عز وجل على ما منحه فيها، وسهل له منها"[1]. وقد أعد الناصر الترتيبات التي رأى أنها ضرورية للحيلولة دون قيام المعارضة في طليطلة بثورة أخرى، فأقام بناء في موقع يتحكم بحركة أهل طليطلة، وذلك على مقربة من باب القنطرة[2]. شحن ذلك البناء بالرجال والسلاح والمؤن، وجعله مقراً للقادة والعمال[3]. وفي الوقت نفسه هدم بعض المباني الخطرة[4]، وأعاد بناء بعض المرافق الضرورية التي دمرتها الحرب مثل القنطرة على نهر التاجه. "وتردد الناصر لدين الله بطليطلة بعد فتحه لها ثمانية أيام، مشارفاً للشروع في بناء ما دبّر بناءه، وهدم ما أحب هدمه"[5].

وعندما اطمأن الناصر إلى ترتيباته الأمنية، وعاد أهل طليطلة إلى حياتهم الطبيعية حيث فتحوا الحوانيت، وانتشروا في الأسواق، وانبسطوا في أفنيتهم وأبواب مساجدهم آمنين، عاد إلى قرطبة، وذلك يوم السبت لست خلون من شعبان سنة ٣٢٠هـ/٩٣٢م[6].

---

[1] ابن عذاري، البيان المغرب: ٢٠٧/٢.

[2] ابن حيان، المقتبس، تحقيق شالميتا: ٣١٩-٣٢٠؛ ابن عذاري، البيان المغرب: ٢٠٧/٢.

[3] ابن عذاري، البيان المغرب: ٢٠٧/٢.

[4] ابن حيان، المقتبس، تحقيق شالميتا: ٣٢٠.

[5] المصدر نفسه: ٣٢٠؛ وانظر: ابن عذاري، البيان المغرب: ٢٠٧/٢.

[6] ابن عذاري، البيان المغرب: ٢٠٧/٢-٢٠٨؛ ابن حيان، المقتبس، تحقيق شالميتا: ٣٢٠.

مد النفوذ الأندلسي إلى المغرب:

أخذ الناصر "منذ استولى على أمر الملك، وأُعين بالنصر، وتسلط على أهل الخلاف"[1]، يتطلع إلى مد نفوذ الأندلس إلى المغرب، وخاصة أن عبيد الله الشيعي الفاطمي استطاع في الوقت الذي أُعلنت فيه الخلافة الأموية السنّية في الأندلس إعلان خلافة فاطمية شيعية في شمالي إفريقية، *أخذت تنافس الأمويين في الأندلس، وتحاول اجتياز بحر الزقاق إليهم*[2]. وذلك بعد *أن امتلكت قوة بحرية منظمة في المغرب* وصقلية، وبعد أن بنى الخليفة الفاطمي: المهدي مدينة المهدية الحصينة على ساحل البحر المتوسط بين سوسة وصفاقس.

لجأ الخليفة الناصر في بداية الأمر إلى مكاتبة من توسّم فيهم الولاء لبني أمية من زعماء البربر في المغرب "فلم يلبث أن هويت إليه أفئدة كثير من زعمائهم، بين مصحّح في ولايته، مستجيب لدعوته، مستعين بقوته على مدافعة من قد هدّ ركنه من بني عبيد الله (الفاطميين) وبين منافق له، فاستوى للناصر لدين الله من الطائفتين أولياء قاموا بدعوته"[3].

وكان زعماء البربر وغيرهم من المتنفذين في المغرب يخشون ضياع ملكهم على يد الفاطميين، ولذلك وجدوا في دعوة الناصر مخلّصاً لهم، ومن هؤلاء: موسى بن أبي العافية، أمير مكناسة الذي ملك قواعد المغرب الأوسط[4]. ومحمد بن خزر "عظيم أمراء زناتة في وقته، وأنفرهم عن عبيد الله الشيعي، وأدناهم من داره، وأول من تناوله الناصر لدين الله من جماعتهم بمكاتبته، واجتذبه بوصلته"[5]. ومنهم: إدريس بن إبراهيم

---

(1) ابن حيان، المقتبس، تحقيق شالميتا: ٢٥٥.

(2) المصدر نفسه: ٢٥٦ وما بعدها؛ وانظر: ابن خلدون، تاريخ: ١٨١/٤.

(3) ابن حيان، المقتبس، تحقيق شالميتا: ٢٥٦.

(4) ابن خلدون، تاريخ: ١٨١/٤؛ ابن حيان، المقتبس، تحقيق شالميتا: ٢٦١.

(5) ابن حيان، المقتبس، تحقيق شالميتا: ٢٥٧؛ وانظر: ابن خلدون، تاريخ: ١٨١/٤ حيث يذكر أن ابن خزر كان أمير مغراوة.

السليماني الحسني[1]، والقاسم بن إبراهيم الحسني[2]، والحسن بن عيسى الحسني، وغيرهم[3].

بدأ موسى بن أبي العافية مكاتبة الناصر لدين الله في سنة ٣١٧هـ/٩٢٩م، "فصار إسوة أوليائه بأرض العدوة، واتصلت منهم إليه المكاتبة"[4]. ويذكر ابن عذاري أن موسى كاتب الخليفة الناصر في سنة ٣١٩هـ/٩٣١م "ورغب في موالاته، والدخول في طاعته، وأن يستميل له أهواء أهل المغرب المجاورين له، فتقبله أحسن قبول، وأمدّه بالخلع والأموال"[5].

وقبل موسى بن أبي العافية كاتب الناصر أحد زعماء البربر، وهو منصور بن سنان الذي أظهر البراءة من دعوة الشيعة، والاعتقاد لدعوة الأمويين، وذلك سنة ٣١٦هـ/٩٢٨م، فقد كتب إلى الناصر "يمتُّ بالولاية ويخطب القبول. وازدلف بهدية حسنة من يل وإبل وأنعام وغزلان، حسن موقعها من الناصر لدين الله لغرابتها بأرضها، فأضعف له عنها المكافأة، وأسجل له على عمله، وألحقه بأهل ولايته"[6].

أما محمد بن خزر، أمير زناتة فقد جرت بينه وبين قوات عبيد الله الفاطمي (المهدي) وقائع كثيرة "أصاب منهم فيها ومن أهل ولايتهم خلقاً كثيراً"[7]. وقد استغل الخليفة الأموي العداوة بين الطرفين، وأخذ يرسل إليه الكتب والوفود والسفراء، يغريه بضرورة توطيد الدولة بأرض المغرب "والتذرّع بذلك إلى جهاد الشيعة والضلال"[8].

---

(1) ابن حيان، المقتبس، تحقيق شالميتا: ٢٦٢-٢٦٤.

(2) المصدر نفسه: ٢٦٥.

(3) المصدر نفسه: ٢٦٥.

(4) المصدر نفسه: ٢٦١.

(5) ابن عذاري، البيان المغرب: ٢/٢٠٤.

(6) ابن حيان، المقتبس، تحقيق شالميتا: ٢٦١.

(7) المصدر نفسه: ٢٥٨.

(8) المصدر نفسه: ٢٥٩.

"وكان الخير بن محمد بن خزر يخاطب الناصر لدين الله أيضاً باسمه، معرّفاً لـه بما يجري من الأخبار على يده في الجهة التي يقوم بها لأبيه محمد من مدينة وهران وما يليها من الساحل، فيُنفذ أجوبته، ويتوخى إلطافه ومسرّته، حسبما يفعل بأبيه محمد"[1].

وقد أثمرت جهود الناصر، إذ بايعه محمد بن خزر آخر سنة ٣١٧هـ/٩٢٩م، وأرسل إليه كتاباً يعترف فيه بحق الناصر لدين الله في الخلافة[2]. كما أرسل إليه هدية من النجب والخيل العتاق والنوق وغيرها، "فأضعف الناصر لدين الله مكافأة محمد بن خزر على هديته هذه بما عجل مكافأته به من هداياه النفيسة من الملابس السنيّة، والكِسي المرتفعة، والحلى الفخمة، والطرائف العجيبة"[3].

وكان أقرب أمراء المغرب إلى ساحل الأندلس في عهد الخليفة الناصر لدين الله "عصابة الأشراف العلويين الصرحاء من ولد إدريس بن عبد الله بن حسن بن الحسين بن علي بن أبي طالب..." وقد أسس أحفاده دولة الأدارسة في المغرب، وكانت بينهم وبين الناصر لدين الله أحقاد دفينة، غير أنه بعضهم كان على النقيض من ذلك، ومن هؤلاء: إدريس بن إبراهيم السليماني الحسني، أمير أرشقول، الذي انحرف عن الخليفة الفاطمي عبيد الله الشيعي، وعاداه، ووالى الناصر، وتوخى رضاه، وبدأ مكاتبته في سنة ٣١٦هـ/٩٢٨م، وأرسل إليه الهدايا السنيّة، ويخطب ولايته منه، ويمت بنسبه إليه، واجتماعه في عبد مناف معه[4].

---

[1] ابن حيان، المقتبس، تحقيق شالميتا: ٢٥٩.

[2] المصدر نفسه: ٢٦٥ وما بعدها، حيث يورد مقتطفات من كتاب ابن خزر إلى الناصر، منها "والله، يا أمير المؤمنين، ما أعلم على وجه الأرض أحداً أعْرَف بما أوجب الله لك مني، لأني ما قمت بدعوتك إلا تقرباً إلى الله تعالى، وتوصلاً إلى قتال كفار المشارقة بحقها وصدقها...فقد يعلم الله تعالى أني لم أتعرّض للمشارقة (الفاطميين)، أهلكهم الله على يدك، ما تعرضوني، كما أني كففت زماناً عنهم قبل استحكام البصيرة فيك...حتى علمت، يا أمير المؤنين، أنك أحق الناس بالخلافة، أنها بيدك ميراث لا ينازعك فيها إلا من دفع الحق، وعصى الله ورسوله".

[3] المصدر نفسه: ٢٦٧-٢٦٨.

[4] المصدر نفسه: ٢٦١-٢٦٤؛ وانظر: ابن خلدون، تاريخ: ١٨١/٤.

ومن الأدارسة الذين ظاهروا الناصر أيضاً: القاسم بن إبراهيم الحسني الذي "كانت سبيله كسبيل إدريس بن إبراهيم...في الانحياش إلى الناصر لدين الله والاعتصام بولايته، والإسداء لعطيته وصلته بالمكاتبة والملاطفة. وكان ابتداء اتصاله في سنة سبع عشرة وثلاث مائة...فأحسن الناصر لدين الله تقبله، وأوسع مكافأته على هديته، وصار صدراً في ذوي ولايته"[1].

ومن الأدارسة أيضاً الحسن بن عيسى الحسيني الذي اعترف بطاعة الخليفة الناصر سنة ٣١٨هـ/٩٣٠م. وقد تقبل الناصر فيئته "وعقد ولايته، فلحق بأهل طاعته"[2].

وقد بلغ من ولاء هؤلاء الحسنيين للناصر أن دعوه سنة ٣١٩هـ/٩٣١م إلى تعيين عامل أندلسي على سبتة، فأرسل إليهم "أمية بن إسحاق القرشي، القائد، صاحب الجزيرة تجاههم، جمع لهم العملين تقوية لهم على القيام بأمر العدوة"[3]. وقد وصل القرشي إلى سبتة يوم الجمعة الأول من ربيع الأول سنة ٣١٩هـ/٩٣١م. "فاستقرت فيها قدمه، وتم ملكها للناصر لدين الله من يومئذ، فاشتد بها سلطانه، وتعاظم شأنه لما ملك البحر بعدوتيه، وصار زمامه في يده"[4]. وقد شك الناصر مدينة سبتة بالرجال، وأتقنها بالبنيان، وبنى حولها سوراً منيعاً "وألزم فيها من رضيه من قوّاده وأجناده، وصارت مفتاحاً للغرب والعدوة من الأندلس، وباباً إليها، كما هي الجزيرة وطريف مفتاح الأندلس من العدوة"[5].

وامتد نفوذ الخليفة الناصر إلى مدينة أصيلا في المغرب، ففي سنة ٣٢١هـ/٩٣٣م كتب إليه أهلها "يؤكدون أمر ولايتهم، ويصفون رسوخ طاعتهم، ويذكرون شرف مدينتهم، وإشرافها على شاطئ البحر، وكونها باباً مشرعاً إلى جزيرة الأندلس"[6]. كما

---

[1] ابن حيان، المقتبس، تحقيق شالميتا: ٢٦٥؛ وانظر: ابن خلدون، تاريخ: ١٨١/٤.

[2] ابن حيان، المقتبس، تحقيق شالميتا: ٢٦٥؛ ابن خلدون، تاريخ: ١٨١/٤.

[3] ابن حيان، المقتبس، تحقيق شالميتا: ٢٨٩؛ ابن عذاري، البيان المغرب: ٢٠٤/٢.

[4] ابن حيان، المقتبس، تحقيق شالميتا: ٢٩٨،٢٨٩ وما بعدها.

[5] ابن عذاري، البيان المغرب: ٢٠٤/٢.

[6] ابن حيان، المقتبس، تحقيق شالميتا: ٣٢٥-٣٢٦.

طلبوا منه تعزيز قواتهم لمواجهة الأدارسة الحسنيين الحاقدين على بني أمية، فأمر عامل سبتة بإرسال قوة إليهم[1].

وعندما فشت دعوة الناصر في المغرب الأقصى أرسل الخليفة الفاطمي عبيد الله المهدي جيشاً لمحاربة الزعماء الموالين له، فاستغاث به موسى بن أبي العافية، فأخرج إليه أسطولاً وجيشاً بقيادة قاسم بن طُمُلّس، غير أن موسى تمكن من هزيمة القوات الشيعية قبل وصول المدد الأندلسي[2]، حيث انتصر عليها في رمضان من سنة ٣٢١هـ/٩٣٣م[3].

توفي الخليفة الفاطمي المهدي سنة ٣٢٢هـ/٩٣٣م، فخلفه ابنه أبو القاسم الملقب: القائم بأمر الله[4]. وفي عهد القائم بأمر الله التاث أمير مدينة أصيلا، حيث خلع طاعة الخليفة الأموي الناصر لدين الله، وعندما أعلمه موسى بن أبي العافية بالأمر أرسل أسطولا حربياً بقيادة عبد الملك بن سعيد بن أبي حمامة "فجاء أصيلاً، وقد رهبه أهلها، فقومهم على الطاعة، وأخذ رهائنهم توثقة، واستعمل عليهم إبراهيم بن العلاء، رجلاً من أهلها البرابرة، كان صحيح الولاية للناصر لدين الله، وخلف معه حشداً من الحشم والرماة، وقفل عنها"[5].

وفي سنة ٣٢٣هـ/٩٣٤م وجّه القائم بأمر الله، الخليفة الفاطمي قائده ميسور الصقلبي لمحاربة أهل فاس التي كانت تدين بالولاء لموسى بن أبي العافية، وقد تمكن ذلك القائد بمساعدة الأدارسة من الاستيلاء على كل ما كان في يد موسى الذي اندحر إلى الصحراء، ومنها كان يزود الخليفة الناصر بأخبار الفاطميين وتحركاتهم[6]. فقد كتب إليه كتاباً يخبره فيه أن جيش ميسور الصقلبي "عاود حربنا في هذه الصائفة بجد وعزم"، وأن بعض قبائل البربر انفضوا من حوله، وخالفوه "وهرب طوائف من عسكرهم

---

(1) ابن حيان، المقتبس، تحقيق شالميتا: ٣٢٦.

(2) المصدر نفسه: ٢٢٦-٢٢٧؛ ابن خلدون، تاريخ: ١٨١/٤.

(3) ابن حيان، المقتبس، تحقيق شالميتا: ٣٣٠.

(4) ابن عذاري، البيان المغرب: ٢٠٩/٢؛ ابن حيان، المقتبس، تحقيق شالميتا: ٣٥٣-٣٥٤.

(5) ابن حيان، المقتبس، تحقيق شالميتا: ٣٤٧.

(6) ابن عذاري، البيان المغرب: ٢٠٩/٢؛ ابن حيان، المقتبس، تحقيق شالميتا: ٣٤٧ وما بعدها.

مستأمنين إلينا، حتى صارت الطريق سالكة إلينا من عندهم بالهاربين"[1]. وفي آخر سنة ٣٢٣هـ/٩٣٤م أخبر موسى بن أبي العافية الخليفة الناصر أن قتالاً عنيفاً وقع بين قواته وقوات ميسور الصقلبي[2]. وذكر أن القتل استحرّ في الجانبين، ثم مالت الكفة لصالح الجيش الموالي للخليفة الناصر، إذ قتل من الفريق الآخر "نحو مائتي فارس، أخذنا خيلهم، وعقرنا خيلاً كثيرة غيرها، وقتلنا من رجّالتهم عدداً كثيراً، وكان لنا فيهم فتح عظيم، ثم لم يعاودونا بعد، واستقروا في محلتهم على ثلاثة أميال منا"[3]. ثم لم تلبث أن وردت الأنباء على الناصر بتغلب الجيش الفاطمي على قوات موسى بن أبي العافية، والاستغاثة بالناصر لإمداده[4].

أرسل الخليفة الناصر أسطولاً أندلسياً لنجدة موسى بن أبي العافية في المغرب، وذلك في سنة ٣٢٤هـ/٩٣٥م "وكانت عدة مراكبه أربعين قطعة، وعدد ركابه ثلاثة آلاف رجل فيهم من الحشم خمسمائة. وكان اندفاعه من مدينة سبتة، فتقدم إلى مليلة ونكور فافتتحهما، ثم جرى إلى جرادة فافتتحها أيضاً، فاعتز بذلك موسى بن أبي العافية، وسارت إليه هذه المدائن، فاستقلّ من نكبته"[5].

ولم يلبث موسى بن أبي العافية أن توفي، وذلك في شوال من سنة ٣٢٦هـ/٩٣٧م[6]. وقد أبلغ الخليفة الناصر بوفاته ابنه مدين، "فأجابه الناصر لدين الله بالتعزية عن أبيه، والأسف على فجعته...وأرسل إليه بسجلّ من قبله، ولاّه به أعمال أبيه من مليلة، وغيرها من مدن العدوة"[7].

وازداد الموالون للخليفة الناصر من أمراء المغرب وقادته في سنة ٣٢٨هـ/٩٣٩م، في الوقت الذي ازداد فيه الخليفة الفاطمي ضعفاً، ففي رجب من تلك

---

[1] ابن حيان، المقتبس، تحقيق شالميتا: ٣٦٩.

[2] المصدر نفسه: ٣٧١.

[3] المصدر نفسه: ٣٧٢.

[4] المصدر نفسه: ٣٧٤.

[5] المصدر نفسه: ٣٨٢، ٤١٣-٤١٥.

[6] المصدر نفسه: ٤٢٧.

[7] المصدر نفسه: ٤٢٧.

السنة "ورد على الناصر لدين الله من العدوة كتاب علي بن حميد المكناسي، قائد الشيعي...خاطباً لولايته، متبوئاً إلى الله تعالى من الشيعي...نازعاً إلى دولة الناصر لدين الله، متفيئاً لظله"[1].

وقد وقع خلاف بين الخير بن محمد بن خزر الزناتي ومدين بن موسى بن أبي العافية المكناسي في سنة ٣٢٨هـ/٩٣٩م، وأفضى بهما الاختلاف إلى الحرب وسفك الدماء "وكتب كل واحد منهما إلى الناصر لدين الله يسأله الإصلاح"[2]. فأرسل الخليفة الناصر: منذر بن سعيد إلى المغرب للتوسط بين الأميرين "فنفذ منذر بن سعيد لما أُمر به من ذلك في شهر رمضان منها، وقام فيه، فحذق، ووُفّق، حتى سكن ما كان هاج بينهم"[3].

وبإتمام الصلح بين الأمير الخير بن خزر الزناتي ومدين بن أبي العافية المكناسي هدأت الأحوال في المغرب، وقوي نفوذ الخليفة الناصر هناك نظراً لموالاتهما له. غير أن الأدارسة الحسنيين الذين كانوا قد خلعوا طاعة الخليفة الفاطمي، ودانوا له بالولاء لم يلبثوا أن خلعوا طاعته في سنة ٣٣٣هـ/٩٤٤م، فأخرج الناصر قائده قاسم بن محمد لحربهم "وأجاز قاسم البحر إلى سبتة في النصف من ربيع الأول، فلما تبين ذلك لكبير بني محمد (الأدارسة)، وهو أبو العيش بن عمر بن إدريس بن عبد الله بن الحسن بن علي بن أبي طالب، رضي الله عنه، أسرع إلى تحقيق الطاعة للناصر، فعقد له الأمان على نفسه"[4].

وقد وقعت بين الموالين للناصر وبين جيوش الخليفة الفاطمي القائم بأمر الله حروب ومعارك في سنة ٣٣٣هـ/٩٤٤م كان النصر فيها للموالين للناصر[5]، الذين تغلبوا

---

(١) ابن حيان، المقتبس، تحقيق شالميتا: ٤٥٩.

(٢) المصدر نفسه: ٤٦٠.

(٣) المصدر نفسه: ٤٦٠.

(٤) ابن عذاري، البيان المغرب: ٢/٢١١-٢١٢.

(٥) المصدر نفسه: ٢/٢١٢.

في تلك السنة على القيروان[1]. وقد ترسّخ نفوذ الناصر في إفريقية بعد وفاة الخليفة الفاطمي القائم بأمر الله في يوم الأحد الثالث عشر من شوال سنة ٣٣٤هـ/٩٤٥م[2]. ذلك أن الذين قاموا بالأمر بعده، وهم: المنصور ثم المعز لدين الله كثرت في عهدهما الفتن، وازداد عدد المنشقين عن الفاطميين الموالين للخليفة الناصر لدين الله، ثم آلت المغرب ليوسف بن زيري بن مناد بعد أن انتقل الخليفة الفاطمي المعز لدين الله إلى مصر في سنة ٣٦١هـ/٩٧١م[3].

وتجدر الإشارة هنا إلى أن الناصر أمر في سنة ٣٤٤هـ/٩٥٥م "بإطلاق اللعن على ملوك الشيعة بجميع منابر الأندلس، وإنفاذ كتبه بذلك إلى العمال بسائر الأقطار"[4]. وقد شهدت السنوات التالية من حياة الخليفة الناصر تحرك الجيوش والأساطيل لمحاربة الشيعة في إفريقية، ففي سنة ٣٤٧هـ/٩٥٨م "أمر الناصر صاحب الشرطة القائد أحمد بن يعلى بالخروج غازياً في الأسطول إلى بلد الشيعي معد بن إسماعيل (المعز لدين الله) صاحب إفريقية"[5]، إلا أن تلك الحملة فشلت بسبب اضطراب شديد وقع في صفوفها قبل أن تنطلق. وكانت آخر حملات الناصر إلى إفريقية سنة ٣٤٨هـ/٩٥٩م لمحاربة جوهر قائد المعز لدين الله، وكانت حملة ناجحة[6]، وهي بقيادة "بدر الفتى الكبير صاحب السيف لتنفيذ العُدد فيها من أجل جَوَلان جوهر قائد معدّ الشيعي صاحب القيروان بأرض العدوة، فنفذوا لأمره، ومكثوا كذلك إلى أن أمنت الحادثة، فانصرفوا مع القائد بدر آخر ذي الحجة من السنة"[7].

---

(1) ابن عذاري، البيان المغرب: ٢/٢١٢-٢١٣.

(2) النويري، نهاية الأرب: ٢٤/١٥٤؛ ابن عذاري، البيان المغرب: ٢/٢١٣.

(3) النويري، نهاية الأرب: ٢٤/١٥٥.

(4) ابن عذاري، البيان المغرب: ٢/٢٢٠.

(5) المصدر نفسه: ٢/٢٢١.

(6) المصدر نفسه: ٢/٢٢٢-٢٢٣.

(7) المصدر نفسه: ٢/٢٢٣.

جهاد الناصر وإخضاعه سرقسطة:

استغلّ النصارى في شمالي الأندلس ما كان يقع فيها من اضطرابات داخلية، وثورات وحروب أهلية للاعتداء على ثغور المسلمين، والتحرش بالقوات الإسلامية المرابطة في تلك الثغور. وقد ازداد خطرهم بشكل ملحوظ منذ بداية عهد الناصر لدين الله، وخاصة خطر مملكة ليون التي سميت بعاصمتها ليون Leon، بعد نقل العاصمة إليها من مدينة أُبيط (Oviedo)، حيث كانت تسمى "مملكة غاليسيا واستورياس). كما ازداد أيضاً خطر مملكة نبَّارة أو النافار التي استقلت عن مملكة ليون في نهاية القرن الثاني الهجري/ الثامن الميلادي، وتلقب حاكمها شانجه غرسيه الأول الذي امتد حكمه نحو إحدى وعشرين سنة (٢٩٣-٣١٤هـ/٩٠٥-٩٢٦م) بلقب ملك، وقد خلفه ابنه غرسيه بن شانجه (الأول) (٣١٤-٣٥٩هـ/٩٢٦-٩٧٠م) ولكنه كان صغيراً، فمارس الحكم تحت وصاية أمه طوطه. وقد عاصر الناصر لدين الله هذين الملكين: شانجه وغرسيه الذي كان لأمه طوطة شأن كبير في الأحداث، والعلاقات مع الخليفة الأموي عبد الرحمن.

معركة يابرة Ivora (٣٠١هـ/٩١٤م):

لقد حشد أردون الثاني، ملك ليون (٣٠١-٣١٢هـ/٩١٤-٩٢٤م) نحو ثلاثين ألفاً في أوائل سنة ٣٠١هـ/٩١٤م من الفرسان والرجال والرماة[1]، وقصد بهم مدينة يابرة "فنزل عليها يوم الأربعاء لثلاث عشرة خلت من المحرّم منها، وتقدم في جماعة من حُماته إلى المدينة، فاستدار بسورها وتأمله، فرآه متطامناً لا ستارة له ولا شرفات بأعلاه، وبجهة من خارجه كوم مرتفع من زبول أهل المدينة قد اعتادوا إلقاءها عند أصله من داخلها، وعلى الأيام كادت تساوي في بعض الأماكن أعلاه (أعلى السور)، فاستبانت له العورة فيها، وأطمعته في فتحها" [2].

---

[1] ابن حيان، المقتبس، تحقيق شالميتا: ٩٣؛ وانظر: ابن خلدون، تاريخ: ١٨٢/٤؛ وانظر أيضاً: ابن عذاري، البيان المغرب: ١٦٦/٢.

[2] ابن حيان، المقتبس، تحقيق شالميتا: ٩٤.

استغل أردون الثاني كومة الزبل المحاذية لسور يابره، حيث تمكنوا من فتح ثملة فيه، بينما كان رماتهم يشاغلون المدافعين عن أسوار المدينة بالنبال "إلى أن أحرقتهم سهام العدو، وأقصدت خلقاً منهم، فلم يديموا الوقوف"[1]. وعندئذ اقتحم النصارى السور، فما شعر أهل المدينة إلا وهم قد دخلوا عليهم من جميع نواحيها[2].

اشتبك النصارى مع المسلمين في يابره في ملحمة شديدة، وتكاتف المسلمون "وشدوا عليهم شدة رجل واحد حتى أخرجوهم من داخلها وعادوا إلى سورهم، فصاروا في أعلاه، وقتلوا من العدوّ خلقاً"[3]. غير أن النصارى ما لبثوا أن أعادوا تجميع صفوفهم، وكرّوا على يابره كرّة رجل واحد، ودخلوا المدينة مرة أخرى، "فاستحلّ القتل، وحميت الحرب، وذهب من الفريقين خلق كثير"[4]. ثم تكاثر النصارى، وألجأوا المسلمين إلى موضع قريب من السور. وكان موضعاً ضيقاً "تضايقوا فيه لازدحامهم، ولم يمكنهم التغلب فيه لضيقه وضغط تراكمهم، فقُتلوا أجمعين...وسبى المشركون جميع نسائهم وذريتهم"[5]. ولم ينج من المسلمين سوى عشرة رجال تمكنوا من ارتقاء آثار عالية، وظلوا يدافعون النصارى حتى جُن الليل، وعندئذ غادروا موقعهم إلى باجة تحت جنح الظلام. واستولى أردون الثاني على يابره[6].

وقد استشهد في يابره عاملها: مروان بن عبد الملك بن أحمد، "قُتل في مسجده، وسُبي جميع نسائه وولده وأهله، وأصيب بها من السبي نيف على أربعة آلاف من النساء والولدان، وقتل داخل المدينة سبع مائة رجل"[7].

---

[1] ابن حيان، المقتبس، تحقيق شالميتا: ٩٤.

[2] المصدر نفسه: ٩٤.

[3] المصدر نفسه: ٩٤.

[4] المصدر نفسه: ٩٤.

[5] المصدر نفسه: ٩٤-٩٥.

[6] المصدر نفسه: ٩٥.

[7] المصدر نفسه: ٩٥.

وقد تعلم المسلمون درساً من معركة يابره، وخاصة أهل غربي الأندلس الذين جزعوا أهلها جزعاً شديداً "فأخذوا في إصلاح أسوارهم، وحفظ عورتهم، وشد معاقلهم أخذاً حثيثاً. وقام في ذلك أهل بطليوس، كبرى مدائنهم، أحسن قيام بفضل ما بهم من قوة"[1].

وتجدر الإشارة هنا إلى أن أردون الثاني، ملك ليون، رحل عن يابره بعد أن حقق ذلك النصر الحاسم على أهلها[2]، وخلت المدينة من الناس، فخشي عامل بطليوس: عبد الله بن محمد بن عبد الرحمن أن ينضوي إليها البربر فيتأذى بهم، فخرج بمن معه إليها، وهدم أبراجها وأسوارها حتى ألصقها بالأرض، وظلت خالية تماماً سنة كاملة، "ثم ابتناها عبد الله بن محمد الجليقي... لصاحبه مسعود بن سعدون السرنباقي في سنة اثنتين وثلاث مائة (٩١٤م)"[3].

لم يكن الناصر لدين الله قد استعد بعد لمواجهة النصارى في الشمال، فهو قريب عهد بحكم الأندلس، وتواجهه ثورات كثيرة لا بد من قمعها حتى يتسنى له التفرغ لمحاربة أعداء المسلمين المتربصين بدولته. ولم يكن رد المسلمين على تنكيل النصارى بمدينة يابره ملحوظاً، فقد اقتصر على قيام أهل الثغر بفتح حصن قلهرّة، وذلك يوم الأربعاء الثامن عشر من ذي الحجة ٣٠١هـ/٩١٤م[4].

---

[1] ابن حيان، المقتبس، تحقيق شالميتا: ٩٦.

[2] المصدر نفسه: ٩٥.

[3] المصدر نفسه: ٩٦.

[4] ابن عذاري، البيان المغرب: ٢/١٦٤؛ ابن حيان، المقتبس، تحقيق شالميتا: ٩٨-٩٩.

محاولة النصارى احتلال ماردة (٣٠٢هـ/٩١٤م):

تمادى أردون الثاني، ملك ليون في طمعه بالأندلس، فخرج بجموعه سنة ٣٠٢هـ/٩١٤م إلى الثغر الشمالي[١]، واحتل حصن الحنش[٢]، ثم انضمت إليه جموع كبيرة من النصارى يقدرها الرازي بستين ألفاً[٣]، وتوجه قاصداً مدينة ماردة، كبرى مدن غربي الأندلس وأقاليمها.

عبر أردون الثاني، ملك ليون نهر التاجُه على قنطرة السيف، وكان يرافقه بعض الأدلاّء "من أهل ملّته، ومن نُزّاع فسقة المسلمين إليه"[٤]، وكان أمهر هؤلاء الأدلاء رجلان من البربر المصامدة، من أهل ماردة. وقد أمرهما بأن يدلاّ مجموعة من الفرسان النصارى استهدفت حصن مدلّين قائلاً لهما: "انهضا بهذه الخيل، فإني بالأثر، فاعبرا وادي آنه تحت حصن مدلين، واركبا السهل في سُراكما حتى تصبحا وسط بلاد الأصنام ولا علم عند أهلها حتى تُشنّ عليهم الغارة"[٥]. وما إن سار الدليلان حتى أعادا التفكير بالأمر "وقد لحقتهما رقة على أهل دينهما"، فاتفقا فيما بينهما على توريط جيش أردون في مسالك وعرة "فخبط جيش العدو الليل كله في وعر لا يجدون فيه منفذاً"[٦]. كما أن الدليلين أنذرا المسلمين في المواقع المستهدفة، فامتنعوا بحصونهم. وعندما لحق أردون بجيشه، وجد أن التعب والإرهاق أخذ منه كل مأخذ، فأدرك ما فعله الدليلان بالجيش، مما دفعه إلى قتلهما بعد احتلاله حصن مدلين[٧].

---

[١] ابن خلدون، تاريخ: ١٨٢/٤؛ ابن حيان، المقتبس، تحقيق شالميتا: ٩٨-٩٩.

[٢] ابن حيان، المقتبس، تحقيق شالميتا: ١٢٠؛ ابن خلدون، تاريخ: ١٨٢/٤.

[٣] ابن حيان، المقتبس، تحقيق شالميتا: ١٢٠.

[٤] المصدر نفسه: ١٢٠-١٢١.

[٥] المصدر نفسه: ١٢١.

[٦] المصدر نفسه: ١٢١.

[٧] المصدر نفسه: ١٢٢.

رحل أردون الثاني بعسكره إلى قلعة الحنش "وكان يسكنها يومئذ برانس كتامة الذين كانوا قد أُجلوا من حصن سكتان، وكانوا في عدد كثير، ولهم بأس ونجدة"[1]. وعندما وصلت مقدمة الجيش النصراني إلى الحصن اشتبك معها المدافعون عنه، حيث نشبت معركة شديدة بين الفريقين، وكادت كفة المسلمين ترجح، ولكن وصول بقية جيش النصارى غيّر مسار المعركة، فدارت الدائرة على المسلمين "وملكهم العدو عنوة، فقُتلوا عن آخرهم، رحمهم الله، إلا قليلاً ممن نجا به الركض عند اشتغال العدو باحتياز غنائمهم. ودخل العدو...الحصن، فقتلوا جميع من كان فيه، وسبوا نساءهم وذراريهم...وهُدم الحصن فألحق أعلاه بأسفله"[2].

استأنف أردون الثاني، ملك ليون، زحفه إلى ماردة، وعسكر قريباً من قصبتها[3]، "فوقف هنالك طويلاً متأملاً لها، ومتعجباً من إتقان بنيانها"[4]. وخرجت إليه خيل لأهل ماردة متعرضة لحربه، إلا أن فرسانه كفّوا عن الحرب، ثم بدأت اتصالات بين الطرفين، انتهت – كما يبدو – إلى اتفاقهما على أمر ما، لم تشر إليه المصادر، ولم يزد ابن حيان الأمر توضيحاً، إذ اكتفى بقوله: "وأخرج رئيسهم (رئيس المسلمين) محمد بن تاجيت وقومه إليه (إلى أردون) رسولاً يستلطفه، وأهدوا له فرساً رائعاً من عتاق الخيل بسرجه ولجامه، قبله منهم وأُعجب به، فترك حربهم ورحل عنهم"[5]. حيث عبر قنطرة السيف، واستمر ذلك يوماً وليلة لكثرة جيشه، عائداً إلى ليون[6].

وتكرر اعتداء النصارى إلى أراضي الأندلس في سنة ٣٠٣هـ/٩١٥م، وقام بالاعتداء هذه المرة شانجه بن غرسية الأول (Sancho Garces I)، ملك النافار (Navarr)، فقد هاجم الثغر الأعلى، وأوقع بأهل مدينة تطيلة، وقتل منهم ومن أهل القرى المجاورة عدداً كبيراً[7].

---

(1) ابن حيان، المقتبس، تحقيق شالميتا: ١٢٢.

(2) المصدر نفسه: ١٢٢؛ وانظر: ابن خلدون، تاريخ: ١٨٢/٤.

(3) ابن حيان، المقتبس، تحقيق شالميتا: ١٢٢-١٢٣.

(4) المصدر نفسه: ١٢٣.

(5) المصدر نفسه: ١٢٣.

(6) المصدر نفسه: ١٢٣.

(7) المصدر نفسه: ١٢٤.

أرّقت اعتداءات النصارى، وتطاولهم على ثغور الأندلس الناصر لدين الله، إذ أصبح عليه أن يواجه خطرين في وقت واحد: النصارى والثورات الداخلية، وأخذ يمهّد لحرب النصارى بحملات محدودة الأهداف، إذ أرسل قائده أبا العباس أحمد بن محمد بن أبي عبده على رأس جيش إلى أرض العدو "فوطئ العسكر أطراف المشركين، وروّع قلوبهم على طول عهد بالأمنة، وجال في نواحيهم، وأداخ بلدهم، ثم قفل القائد أبو العباس بالمسلمين سالمين ظاهرين بنعمة الله عليهم"[1].

وأرسل الناصر لدين الله القائد نفسه: أبا العباس بالصائفة إلى بلاد النصارى في سنة ٣٠٥هـ/٩١٧م[2]، فقد انطلق في العاشر من صفر من تلك السنة "وخرج معه طبقات الناس من المجاهدين وأهل الديوان، وحشد إليه رجال الثغر. فدخل أرض العدو في جيش كبير"[3]، حيث اقتحم قشتالة*، فداس أرضها، وشن الغارات المتلاحقة على مواقعها[4]، ثم هاجم حصناً منيعاً من حصونها يسمى: قاشتر مورش[5]، وعندئذ تنادى النصارى، وتجمعت قوات كبيرة منهم "وقارعوا المسلمين على بابه، فدارت بينهم حرب صعبة، صبر لها الفريقان صبراً شديداً، ولاح الظهور للمسلمين، حتى أشرفوا على الظفر بأهل الحصن"[6].

استغاث نصارى قشتالة بغيرهم من نصارى ليون والنافار، فتجمعت قوات كبيرة منهم، وانضم إليهم المنافقون من أهل الثغر الأعلى، حيث خذلوا قوات أبي العباس،

---

(1) ابن حيان، المقتبس، تحقيق شالميتا: ١٢٧؛ وانظر: ابن خلدون، تاريخ: ١٨٢/٤؛ ابن عذاري، البيان المغرب: ١٦٩/٢.

(2) ابن حيان، المقتبس، تحقيق شالميتا: ١٣٥؛ ابن خلدون، تاريخ: ١٨٢/٤؛ ابن عذاري، البيان المغرب: ١٧٠/٢.

(3) ابن عذاري، البيان المغرب: ١٧٠/٢.

* تقع قشتالة بين ليون والنافار، وكانت عاصمتها مدينة برغش Burgos، وظلت خاضعة لملك ليون حتى نالت استقلالها منتصف القرن الرابع الهجري/ العاشر الميلادي، وأصبح لها شأن في حرب المسلمين.

(4) ابن حيان، المقتبس، تحقيق شالميتا: ١٣٥.

(5) ابن عذاري، البيان المغرب: ١٧٠/٢؛ ابن حيان، المقتبس، تحقيق شالميتا: ١٣٥.

(6) ابن حيان، المقتبس، تحقيق شالميتا: ١٣٥؛ وانظر: ابن عذاري، البيان المغرب: ١٧٠/٢.

فانهزموا أمام النصارى، وبهزيمتهم انهزم أكثر المسلمين، ولم يثبت أمام النصارى سوى القائد في عدد من الرجال المخلصين، "وأحسن الصبر طمعاً منه في الكرّة، وتوطيناً على المنيّة، فقد قيل إنه كان حريصاً على الشهادة متعزّماً لطلبها، فرُزقها، رحمه الله"[١]. واستشهد في هذه المعركة أيضاً عدد من المسلمين الذين آثروا الشهادة على الفرار. وأما الذين آثروا الفرار على الشهادة فقد تمكنوا من العودة سالمين بدوابهم وأثقالهم يجرون أذيال الخيبة، "قد عظمت المصيبة منهم"[٢].

وتعرض الثغر الأعلى في ذي الحجة من سنة ٣٠٥هـ/٩١٧م لهجوم كاسح قام به النصارى، حيث حشد أردون الثاني ملك ليون، وشانجه بن غرسيه، ملك النافار، جيشاً كبيراً، وخرجا معاً إلى مدينة ناجرة، "وأقاما عليها ثلاثة أيام منازلين لأهلها، وعاثت خيولهم في ذلك الثغر كيف شاءت، فأفسدت الزرع، وانتسفت المعايش"[٣]. وانتقلا بعد ذلك إلى مدينة تطيلة، وأخذا يطلقان السرايا في كل مكان، فتدمر كل ما تصادفه. ووصلت بعض سراياهم إلى حصن بلتيرة* Valtierra، فنشبت بينهم وبين المدافعين عن الحصن من المسلمين معركة شديدة، إلا أن النصارى تغلّبوا عليه، وأحرقوا المسجد الجامع فيه[٤].

وكان إحراق النصارى المسجد الجامع في بلتيرة "مما أحفظ الناصر لدين الله، وحرّكه لمجاهدة أعداء الله، ورغّبه في الانتصار منهم"[٥]، وكانت تلك الحادثة هي الشرارة التي أجّجت حروب الناصر لدين الله ضد النصارى "وأذكى عزمه، وأكد بصيرته في مجاهدة أعداء الله، وأعداء دينه"[٦].

---

(١) ابن حيان، المقتبس، تحقيق شالميتا: ١٣٦؛ وانظر: ابن عذاري، البيان المغرب: ٢/١٧٠-١٧١.

(٢) ابن حيان، المقتبس، تحقيق شالميتا: ١٣٦؛ وانظر: ابن عذاري، البيان المغرب: ٢/١٧١؛ ابن خلدون، تاريخ: ٤/١٨٢.

(٣) ابن حيان، المقتبس، تحقيق شالميتا: ١٤٣؛ ابن عذاري، البيان المغرب: ٢/١٧٢.

* يقع هذا الحصن على ضفاف نهر الابرو إلى الشمال من تطيلة والشمال الغربي من سرقسطة.

(٤) ابن حيان، المقتبس، تحقيق شالميتا: ١٤٣؛ ابن عذاري، البيان المغرب: ٢/١٧٢.

(٥) ابن حيان، المقتبس، تحقيق شالميتا: ١٤٣؛ ابن عذاري، البيان المغرب: ٢/١٧٢.

(٦) ابن عذاري، البيان المغرب: ٢/١٧٢.

حملات الناصر لدين الله ضد النصارى:

يدل على الاهتمام الكبير الذي أولاه الناصر لدين الله لحرب النصارى، ورد كيدهم إلى نحورهم العدد الكبير والحملات التي وجهها ضدهم، وقاد كثيراً منها بنفسه، أو أوكل مهمة قيادتها إلى كبار رجال دولته. وقد كانت أولاها بقيادة حاجبه بدر بن أحمد سنة ٣٠٦هـ/٩١٨م[1].

ففي المحرم من السنة توجه بدر إلى الثغر الأعلى على رأس جيش كبير، انضمت إليه حشود كثيرة من الفرسان الأبطال الذين توافدوا من كور الأندلس المختلفة استجابة لأوامر الناصر لدين الله "فاقتحم الحاجب بدر بجموعهم أرض العدو، فوطئ حريمهم، وأداخ بلدهم، منتسفاً لغلاتهم، هادماً لمصانعهم، حاطماً لمعايشهم"[2]. ووقعت خلال هذه الحرب العاصفة معركتان رئيسيتان، كانت الأولى يوم الخميس الثالث من ربيع الأول من سنة ٣٠٦هـ/٩١٨م والثانية يوم السبت الخامس من الشهر نفسه. وكان النصر في المعركتين حليف المسلمين، وغنموا وسَبَوْا، وقتلوا عدداً كبيراً من فرسان النصارى وأبطالهم "وآب الحاجب بدر من غزوته هذه مسروراً ظافراً، قد أدرك الوتر، وأصلح الثغر"[3]. وكانت فرحة الناصر لدين الله بهذا النصر أعظم وأكبر، فما إن ورده الكتاب من حاجبه بأخبار النصر حتى أمر بقراءته في الجوامع، وكتب به إلى الأطراف[4].

وقاد الناصر بنفسه حملة ضد النصارى في سنة ٣٠٨هـ/٩٢٠م[5]، فقد انطلق على رأس تلك الحملة في المحرم من تلك السنة بعد أن أعدّ العدّة، ونزل أول ما نزل في

---

[1] ابن حيان، المقتبس، تحقيق شالميتا: ١٤٥؛ ابن عذاري، البيات المغرب: ١٧٢/٢؛ ابن خلدون، تاريخ: ١٨٢/٤.

[2] ابن حيان، المقتبس، تحقيق شالميتا: ١٤٥؛ ابن عذاري، البيان المغرب: ١٧٢/٢.

[3] ابن حيان، المقتبس، تحقيق شالميتا: ١٤٦؛ ابن عذاري، البيان المغرب: ١٧٢/٢؛ وانظر: ابن خلدون، تاريخ: ١٨٢/٤.

[4] ابن حيان، المقتبس، تحقيق شالميتا: ١٤٧؛ ابن عذاري، البيان المغرب: ١٧٣/٢.

[5] المقري، نفح الطيب: ٣٦٣/١؛ ابن خلدون، تاريخ: ١٨٢/٤؛ ابن حيان، المقتبس، تحقيق شالميتا: ١٥٩؛ ابن عذاري، البيان المغرب: ١٧٥/٢.

مدينة الفرج (وادي الحجارة Guadaljara)، ووردة الأخبار في أثناء ذلك من عامل المدينة أن نصارى ليون هاجموا أراضي المسلمين، واستولوا على بعض دوابهم ومواشيهم، إلا أن المسلمين تمكنوا من الإيقاع بهم، وقتلوا وأسروا كثيرين منهم، ويبدو أن ذلك وقع قبيل وصول الناصر لدين الله إلى مدينة الفرج، فاستبشر بهذه الأخبار، وتفاءل باسم المدينة، معتبراً ما وصله فاتحة خير[1].

خرج الناصر من مدينة الفرج قاصداً طليطلة "والحشود والعساكر تتلاحق به من أقطار الأندلس وجميع جهاتها"[2]، كما سار معه عامل طليطلة لب بن الطربيشة، وبذلك أصبحت جيوشه تغص بها السبل، ويضيق عنها الفضاء الأوسع لكثرتها[3]، وعندما وصل إلى مدينة سالم أظهر للنصارى أنه في طريقه إلى الثغر الأعلى، خديعة لهم، فبعد أن أمر مقدمته بالسّير في ذلك الاتجاه عرج بالجيوش إلى طريق ألبه والقلاع[4] "وأغذّ السير، فطوى من نهاره ثلاث مراحل حتى احتل بوادي دويرة، فاضطربت العساكر فيه وباتت عليه"[5]. وفي الصباح أخرج القائد سعيد بن المنذر القرشي على رأس قوة مختارة من الفرسان إلى حصن وخْشَمَة (Osma). وعندما وصلت هذه القوة قرب الحصن أغار الفرسان يمنة ويسرة، وفاجأوا النصارى، فوطئهم الخيل، واكتسح الفرسان "ما للكفرة من معيشة ونعمة، وانصرفوا إلى العسكر سالمين أعزّة"[6].

وتشير المصادر إلى أن قائد حصن وخشمة النصراني كان قد كاتب الناصر لدين الله محاولاً إقناعه بتجنب الحصن، فأظهر قبول ذلك "وأضمر الكيد بهم فغشيتهم الخيل على حين غرة"[7]. وفي اليوم الثاني اندفع الناصر بجيوشه كلها إلى الحصن "فأصابوه

---

(1) ابن حيان، المقتبس، تحقيق شالميتا: ١٦٢؛ ابن عذاري، البيان المغرب: ١٧٦/٢.

(2) ابن حيان، المقتبس، تحقيق شالميتا: ١٦٢.

(3) ابن عذاري، البيان المغرب: ١٧٦/٢؛ ابن حيان، المقتبس، تحقيق شالميتا: ١٦٢.

(4) ابن عذاري، البيان المغرب: ١٧٦/٢؛ ابن حيان، المقتبس، تحقيق شالميتا: ١٦٢-١٦٣.

(5) ابن حيان، المقتبس، تحقيق شالميتا: ١٦٣.

(6) المصدر نفسه: ١٦٣؛ وانظر: ابن عذاري، البيان المغرب: ١٧٧/٢.

(7) ابن عذاري، البيان المغرب: ١٧٧/٢.

خلاء قد فرّ عنه من فيه، وأضرموه ناراً"[1]. ثم رحل إلى حصن شنت أشتبين الواقع على نهر دويرة، فلما اقترب الجيش منه انخلعت قلوب النصارى فَرَقاً، فأخلوا الحصن، وولّوا الأدبار هاربين "فدخله المسلمون، وغنموا جميع ما أصابوه وخربوه، وخربوا حصن القلعة المجاورة له، فلم يتركوا لأعداء الله في ذلك الصُّقع نعمة يأوون إليها"[2].

أمضى الناصر وجيوشه ليلتهم في الحصن، وفي صبيحة اليوم التالية أخذت الجيوش تصول وتجول في المواقع المحيطة بالحصن، مقتفية أثر النصارى الذين لم يصمد أحد منهم في مكانه[3]. ثم انطلقت الجيوش نحو مدينة تطيلة، دون أن تجد أمامها سوى قرى خالية من السكان، فغنمت ما فيها، واستأنفت سيرها حتى وصلت "إلى مدينة لهم أوليّة تسمى قلونية، كانت من أمهات مدنهم القديمة"[4]. فخرب الناصر ديارها وكنائسها، إذ وجدها مهجورة، حيث لجأ أهلها إلى جبال شامخة مجاورة لها[5].

واستأنف الناصر حملته بعد ثلاثة أيام متوجهاً إلى تطيلة. وكانت تطيلة في تلك الأثناء محاصرة من قبل النصارى، بل كانت تتعرض منذ وقت لاعتداءاتهم، حيث والى شانجه بن غرسيه، ملك النافار الخرج إلى تلك المدينة، ومضايقة أهلها. وقد حرص الناصر في مسيره إليها إيهام النصارى بأنه متوجهاً إلى مكان آخر، وذلك ترفّقاً بأهل تطيلة حتى لا ينتقم النصارى الذين يحاصرونها منهم[6]. وقد استغرقت مناورات الناصر العسكرية، والدروب الوعرة التي سلكها مدة طويلة قبل أن يصل إلى أراضي تطيلة[7].

---

[1] ابن حيان، المقتبس، تحقيق شالميتا: ١٦٣.

* يصفه ابن حيان بأنه كان "بيضة الكفرة وقاعدة ثغرهم، والموضع الذي تعوّوا فيه، وتعودوا منه الاستطالة على من أمّهم ومن طرقهم" انظر: المقتبس، تحقيق شالميتا: ١٦٣؛ وانظر: ابن عذاري، البيان المغرب: ١٧٧/٢.

[2] ابن حيان، المقتبس، تحقيق شالميتا: ١٦٣-١٦٤.

[3] المصدر نفسه: ١٦٤؛ ابن عذاري، البيان المغرب: ١٧٧/٢.

[4] ابن حيان، المقتبس، تحقيق شالميتا: ١٦٤.

[5] المصدر نفسه: ١٦٤: ابن عذاري، البيان المغرب: ١٧٨/٢.

[6] ابن حيان، المقتبس، تحقيق شالميتا: ١٦٤؛ ابن عذاري، البيان المغرب: ١٧٨/٢.

[7] ابن حيان، المقتبس، تحقيق شالميتا: ١٦٤-١٦٥.

وعندما وصلها وجّه سريّة من الخيل بقيادة محمد بن لب إلى حصن قلــهرة (Calahorra) الذي كان شانجه قد اتخذه لمهاجمة تطيلة منه "فما أن قصدته الخيل أخلاه العلـــج وزال عنه، وفر منه من كان فيه من الكفار، فضبطه المسلمون وغنموا ما كان فيه بأســوه"[1]. ثم نزلت الجيوش بقيادة الناصر على الحصن "وكسر يومين بفنائه جامعاً لأيدي المسلمين على تخريبه وتدميره، فاجتهدوا في ذلك حتى عفّوا عليه، وتركوه كأن لم يُغن بـــالأمس، وانتسفوا كل ما كان حواليه"[2]. وبعد مغادرة الحصن اعترض شانجه مقدمـــة الجيـش الإسلامي، ودارت بين الطرفين معركة شديدة كان التراشق بالسهام أبرز صفاتها، ثم ولّى النصارى الأدبار "وركبتهم الخيل تقتل وتجرح حتى تواروا بالجبـــال ولاذوا بالشـعاب، وحاز المسلمون كثيراً من رؤوسهم، تلقوا بها خليفتهم الناصر لدين الله رافعين لها علـــى أسنتهم"[3]. "وبات المسلمون ظاهرين على عدوهم ومنبسطين في قراهم ومزارعهم"[4].

تنادى النصارى بعد أن حلّت بهم الهزائم المتلاحقة إلى التكاتف، واستمد بعضـــهم ببعض، ووحد أردون الثاني وشانجه بن غرسية ملكا ليون والنافار قواتهما، "طامعيـــن في اعتراض مقدمة المسلمين، أو انتهاز فرصة فيمن في ساقتهم"[5]. وعندما انتهت إلـــى الناصر لدين الله أخبار ذلك أمر بتعبئة جيوشه، وبادر متوجهاً على رأسها لملاقاة جيـوش النصارى، ودارت بين الفريقين معركة كانت من أعنف المعارك التي خاضها الناصر ضد النصارى، حيث أحدث المسلمون في بدايتها جلبة عظيمة لإيقـــاع الرعـب فـــي قلـوب أعدائهم، ثم "انصبّ عليهم حماة حشم الناصر لدين الله وأبطال الثغر يضعون أســـلحتهم فيهم، ويمطرون مزارقهم عليهم، فحمي الوطيس بينهم"[6]. ثم انهزم النصارى لا يلـوون على مكان، ولا يهتدون لوجه، والمسلمون يطاردونهم، ويقتلون من أدركوا منهم[7].

---

(1) ابن حيان، المقتبس، تحقيق شالميتا: ١٦٥؛ ابن عذاري، البيان المغرب: ١٧٨/٢.

(2) ابن حيان، المقتبس، تحقيق شالميتا: ١٦٥؛ ابن عذاري، البيان المغرب: ١٧٨/٢.

(3) ابن حيان، المقتبس، تحقيق شالميتا: ١٦٥.

(4) ابن عذاري، البيان المغرب: ١٧٨/٢.

(5) ابن حيان، المقتبس، تحقيق شالميتا: ١٦٥؛ ابن عذاري، البيان المغرب: ١٧٨/٢-١٧٩.

(6) ابن حيان، المقتبس، تحقيق شالميتا: ١٦٦.

(7) ابن عذاري، البيان المغرب: ١٧٩/٢.

لجأ عدد من النصارى قدّره ابن عذاري بألف[1]، وقدّره ابن حيان بخمسمائة[2]، إلى حصن مونش، ظناً منهم بأن الحصن سيحميهم من غضبة الناصر لدين الله. وكان الناصر عندما علم بلجوئهم إليه قد عسكر في ساحة الحصن، ثم هاجمهم فيه، واقتحمه، وأُخذ جميع هؤلاء النصارى أسرى، ثم ضُرِبت أعناقهم[3].

حقق الناصر في هذه الحملة على النصارى نصراً حاسماً، وطهر منهم كثيراً من المواقع القريبة من مواقع المسلمين، كما أحرق البسائط "حتى لقد اتصل الحريق في بلاد المشركين عشرة أيام في مثلها، واجتمع عند الناس من الأطعمة ما أسرفوا في تبذيره"[4]. وعاد الناصر من هذه الحملة التي حققت كل أهدافها إلى قرطبة، حيث وصلها يوم الخميس الثالث عشر من ربيع الآخر من سنة ٣٠٨هـ/٩٢٠م"[5]، وبذلك تكون هذه الحملة قد استغرقت تسعين يوماً[6].

هدأت جبهة الثغر الأعلى بعد أن دوّخ الناصر لدين الله النصارى هناك، فلم تقع في تلك المناطق سوى تحرشات محدودة خلال أكثر من سنتين، كان المسلمون المرابطون في الثغر قادرين على القضاء عليها دونما مدد من قرطبة. غير أن شانجه بن غرسية، ملك النافار (بنبلونة) أخذ يتمادى منذ مطلع سنة ٣١١هـ/٩٢٣م في عدوانه على مسلمي الثغر الأعلى، حيث قتل عدداً منهم، وحاصر محمد بن عبد الله بن لبّ القسوي في موقع من أقاصي الثغر تسميه المصادر (بَقَيْرة)[7]، وأسره هو وعدد من وجوه بني ذي النون، منهم: مطرّف بن موسى بن ذي النون، ومحمد بن محمد بن ذي النون، ويحيى بن فتح بن ذي النون وغيرهم، ونقلهم إلى بنبلونة حيث سجنهم مكبلين

---

(1) ابن عذاري، البيان المغرب: ١٧٩/٢.

(2) ابن حيان، المقتبس، تحقيق شالميتا: ١٦٦.

(3) المصدر نفسه: ١٦٦؛ ابن عذاري، البيان المغرب: ١٧٩/٢.

(4) ابن حيان، المقتبس، تحقيق شالميتا: ١٦٧.

(5) المصدر نفسه: ١٦٨؛ ابن عذاري، البيان المغرب: ١٨٠/٢.

(6) ابن حيان، المقتبس، تحقيق شالميتا: ١٦٨؛ ابن عذاري، البيان المغرب: ١٨/٢؛ وانظر: ابن خلدون، تاريخ: ١٨٢/٤؛ المقري، نفح الطيب: ٣٦٣/١.

(7) ابن حيان، المقتبس، تحقيق شالميتا: ١٨٦؛ ابن عذاري، البيان المغرب: ١٨٤/٢.

بالأغلال[١]. وظلوا هناك يرسفون في قيودهم باستثناء مطرّف الذي تمكن من كسر وثاقه "وفرّ من الحبس الذي كان فيه، فظفر خارجه بفرس ركبه، فنجا عليه" [٢].

هزّ اعتداء النصارى على حصن بقيرة وجدان الناصر، وحرك مشاعره للقيام بحملة كبيرة أخرى ضدهم، وتمهيداً لتلك الحملة التي لا بد أن يحسن الاستعداد لها أرسل جيشاً بقيادة مولاه: عبد الحميد بن بسيل، وكان جيشاً كثيفاً زادت عدّته واستقوت عُدّته بمن انضموا إليه من أهل الثغر[٣]. وقد دخل ابن بسيل مدينة تطيلة فأعاد أهلها إلى الطاعة، وكانوا مخالفين، ثم هاجم شانجه "وبثّ بأرضه الغارة، حتى كسّر حده، وفلّ غربه، ووسّعه عادية، ولاقاه قُبُلاً في جمعه، فأوقع به، وفلّه، فارتدع بذلك المشركون، وانبسط المسلمون"[٤].

لقد تمكن ابن بسيل من كسر شوكة النصارى بانتصاره على شانجه بن غرسية، وزاد النصارى انكساراً وتفرق كلمة وفاة ملك ليون أردون الثاني والذي حل محله أخوه فرويله الثاني، وذلك في السنة نفسها (٣١١هـ/٩٢٣م)[٥]. وقد مهدت هذه الأحداث للحملة الكبرى التي قادها الناصر لدين الله بنفسه في السنة التالية.

بدأت حملة الناصر لدين الله ضد الممالك النصرانية يوم السبت لأربع عشرة ليلة بقيت من المحرم سنة ٣١٢هـ/٩٢٤م[٦]، حيث خرج من قرطبة سالكاً طريق الشرق عبر كورتي تُدمير وبلنسية، إذ مر بمدينة لورقة، فمرسية، فطرطوشة، واستنزل أهل الخلاف

---

[١] ابن حيان، المقتبس، تحقيق شالميتا: ١٧٨؛ ابن عذاري، البيان المغرب: ١٨٤/٢.

[٢] ابن حيان، المقتبس، تحقيق شالميتا.

[٣] المصدر نفسه: ١٨٧-١٨٨؛ ابن عذاري، البيان المغرب: ١٨٤/٢-١٨٥.

[٤] ابن حيان، المقتبس، تحقيق شالميتا: ١٨٨.

[٥] انظر: ابن خلدون، تاريخ: ١٨٢/٤؛ ابن حيان، المقتبس، تحقيق شالميتا: ١٨٨؛ ابن عذاري، البيان المغرب: ١٨٥/٢.

[٦] ابن عذاري، البيان المغرب: ١٨٥/٢؛ ابن حيان، المقتبس، تحقيق شالميتا: ١٨٩؛ وانظر: ابن خلدون، تاريخ: ١٨٢/٤؛ المقري، نفح الطيب: ٣٦٣/١.

في هذه المناطق، وألحق بجيشه أعداداً كبيرة من العساكر فيها[1]. ثم تقدم في عساكر كعدد الحصى – كما يذكر ابن حيان – ونزل بعض حصون سرقسطة، ثم واصل سيره إلى مدينة تطيلة، ودخل أراضي مملكة النافار يوم السبت ٤ ربيع الآخر ٣١٢هـ/٩٢٤م "بأنفذ عزم وأوكد حزم وأقوى نية في الانتقام لله تعالى ولدينه"[2].

استولى الناصر لدين الله، أول ما دخل أراضي النصارى، حصن قلهرّة الذي كان شانجه بن غرسية قد أخلاه، وأمر بهدمه وإحراقه، وتنقل بعد ذلك في المنطقة يتتبع فلول النصارى في كل مكان، ويستولي على الحصون والقلاع، ويقتل ويسبي ويغنم[3]. وكان شانجه بن غرسية قد التجأ بقواته إلى حصن مجاور لحصن شنت أشتيبن على جبل شاهق "قد جمع جموعه، وحشد رجاله، واستجاش بمدود أتته من بلاد ألبة والقلاع، طمع معهم في معارضة المسلمين"[4]. غير أن ذلك لم يُغنه شيئاً أمام إصرار الناصر لدين الله، فقد أمر فرسانه باقتحام الموقع رغم وعورته، وصعوبة مسالكه. "ونهض المسلمون إلى أعدائهم نهوض الأسود...وصمموا بالحملة عليهم، حتى اقتلعوهم عن موضعهم، وهزموهم، ووضعوا سيوفهم ورماحهم فيهم، حتى اضطروهم إلى مرتقى وعر، وجبل منقطع، فتقحّم المسلمون عليهم، وسهل الله وعره لهم، فقتلوا جملة منهم، وبسطت الأرض بأجسادهم"[5].

ولاحق الناصر لدين الله عساكر النصارى بقيادة شانجه بن غرسية الذي حاول تجميع صفوفه، لعلّه يصمد أمام المسلمين "فتبادر إليه فرسان المسلمين على عادتهم، فانهزم أقبح هزيمة، وقُتل له رجال، وعُقرت له خيل، فباء بالصغار المردَّد"[6]. وبعد أن

---

(1) ابن حيان، المقتبس، تحقيق شالميتا: ١٩٠.

(2) المصدر نفسه: ١٩١؛ وانظر: المقري، نفح الطيب: ٣٦٣/١؛ ابن عذاري، البيان المغرب: ١٨٥/٢-١٨٦.

(3) انظر التفاصيل: ابن حيان، المقتبس، تحقيق شالميتا: ١٩١-١٩٤؛ ابن عذاري، البيان المغرب: ١٨٥/٢-١٨٦.

(4) ابن حيان، المقتبس، تحقيق شالميتا: ١٩٤-١٩٥.

(5) ابن عذاري، البيان المغرب: ١٨٧/٢.

(6) ابن حيان، المقتبس، تحقيق شالميتا: ١٩٥.

اطمأن الناصر للنتائج التي حققتها حملته فقفل عائداً إلى قرطبة، وسلك في طريق عودته ممراً وعراً يقال له فج هرقلة حاول النصارى انتهاز فرصة من المسلمين فيه، غير أن الناصر بحذره الشديد واحتراسه، وتحفظه فوّت عليهم الفرصة. ووصل بجيوشه المنتصرة إلى قرطبة في جمادى الأولى من سنة ٣١٢هـ/٩٢٤م، وذلك بعد أربعة أشهر استغرقتها هذه الحملة، وقام خلالها بتدويخ البسائط، وفتح المعاقل، وتخريب الحصون[١].

شهدت الممالك النصرانية في سنة ٣١٣هـ/٩٢٥م والسنوات التالية أحداثاً أوقعت فيها كثيراً من الاضطرابات، وكان ذلك بالطبع لصالح المسلمين. ففي سنة ٣١٣هـ/٩٢٥م توفي ملك ليون: فرويله الثاني بن ألفونسو الثالث بعد حكم دام سنة واحدة، فولي بعده ابن أخيه: ألفونسو الرابع ابن أردون الثاني (٣١٣-٣١٩هـ/٩٢٥-٩٣٤م)، الذي ترهب واعتزل الحكم، ونشبت بينه وبين شانجه بن غرسية، ملك النافار خلافات شديدة في السنة الأولى من حكمه[٢]. ثم ما لبث شانجه أن توفي في سنة ٣١٤هـ/٩٢٦م[٣]، فولي بعده ابنه غرسيه الأول (٣١٤-٣٥٩/٩٢٦-٩٧٠م)[٤]. وقد تلهّى النصارى ببعضهم، مما أتاح للناصر لدين الله وقتاً كافياً استغله في قمع الثورات الداخلية، واستنزال الثائرين، وبسط نفوذه على المغرب كما مرّ. وبعد أن تم له ذلك توجهت أنظاره مرة أخرى إلى الشمال، وأخذ يستعد لحملة كبرى جديدة.

إخضاع سرقسطة:

بدأ الناصر لدين الله الاستعداد لحملته الثالثة ضد النصارى منذ أوائل سنة ٣٢٢هـ/٩٣٣م، فقد "أنفذ الكتب في ذلك إلى كور الأندلس، وإلى سائر أهل الولاية

---

[١] المقري، نفح الطيب: ٣٦٣/١؛ ابن عذاري، البيان المغرب: ١٨٨/٢؛ وانظر رواية ابن مسعود عن هذه الحملة في: ابن حيان، المقتبس، تحقيق شالميتا: ١٩٦-١٩٧.

[٢] ابن خلدون، تاريخ: ١٨٢/٤؛ ابن حيان، المقتبس، تحقيق شالميتا: ٢٠٢.

[٣] ابن عذاري، البيان المغرب: ١٩٢/٢؛ ابن حيان، المقتبس، تحقيق شالميتا: ٢٠٧. ويذكر أن فرسه جمح به فألقاه "في مهواة أقحمه إياها، فصرعه ورضّه، وأخرج منها ميتاً".

[٤] ابن خلدون، تاريخ: ١٨٢/٤.

بأرض العِدْوة، فجاءه الناس من كل جانب"[1]. وفي يوم الخميس منتصف جمادى لآخرة من سنة ٣٢٢هـ/٩٣٣م تحرك الناصر "قد حفته قواده وكتائبه، معبأة أحسن تعبئة، مظاهره الحديد والقوة، وقد احتفل فيما أبرزه لتفخيم بروزه، وعدّه من صنوف العدة وتماثيل الأعلام، والرايات الفخمة البديعة الغريبة الأجناس، المرتفعة القديمة"[2].

عقد الناصر العزم على أن يدخل بلاد النصارى من جهة مدينة الفرج (وادي الحجارة)، ولكنه عدل عن ذلك عندما تكشف خلاف محمد بن هاشم التجيبي، صاحب سرقسطة، عليه، إذ كان قد أمره باللحاق به إلا أنه لم ينفذ الأمر، مما أكد له أنه إنما خلع الطاعة، وأعلن العصيان[3]. فقد انعطف الناصر إلى سرقسطة، وأخذ يستولي على حصونها، ويخضع أهل تلك الحصون حرباً أو سلماً. ووصل إلى حصن روطة، وكان فيه يحيى بن هاشم التجيبي أخو محمد "فأحدقت العساكر به، وتمادت على محاربته، حتى افتُتِح قسراً"[4]. وباستيلائه على حصن روطة كسر الطوق المحيط بسرقسطة، وبذلك أضعف خطوطها الدفاعية، فترك بعض قواته في مدينتي تطيلة وطرسونة "لمغاورة أهل سرقسطة، والتضييق عليهم"[5]، بينما استأنف السير بغالبية جيشه قاصداً بلاد النصارى.

قرر الناصر لدين الله اقتحام أقرب بلاد النصارى إليه، وهي مملكة النافار (بنبلونة)، غير أن طوطة، الوصية على عرشها فاجأته بطلب الصلح، إذ أرسلت رسلها إليه، تلوذ بطاعته "وتسأله عقد سلمها، وصرفه أوجه الخيل عنها، فسامها الناصر لدين الله على ذلك الخروج إلى معسكره، والوطء لبساطه،

---

(1) ابن حيان، المقتبس، تحقيق شالميتا: ٣٣٣.

(2) المصدر نفسه: ٣٣٤.

(3) المصدر نفسه: ٣٣٤.

(4) المصدر نفسه: ٣٣٥.

(5) المصدر نفسه: ٣٣٥.

دلالة على صحة طاعتها، وعقد أمانها على ذلك"[1]، ففعلت، إذ وافقته ومعها هدية حسنة، "فدخلت إليه في عدة من قوامها، وقضت ما عليها من حقه، وخضعت له في سؤالها ومقالها، فأحسن الناصر لدين الله قبولها، وكرم منزلتها"[2]. وبذلك انقادت طوطة للخليفة الأموي، فأمنت بلادها، وعلى الرغم من ذلك كره بعض المتنفّذين من قادة مملكة النافار هذا الانقياد، وما ترتب عليه من خضوع للدولة الإسلامية، وكان من أبرزهم: فرتون بن غرسيه الذي حاول التعرض لجيش المسلمين، إلا أن الله أوقعه في يد الناصر، فأمر بضرب عنقه[3].

ارتحل الناصر لدين الله بعد عقده الهدنة مع طوطة، وإبرام الصلح معها إلى ألبة والقلاع أو مملكة ليون، فعمّ أرضها "نسفاً وغارة، وصيّر عمارتها بواراً، وزروعها هباءً، وشجرها هشيماً"، فقد تنقل بين حصونها وقراها مدمراً كل شيء، إلى أن وصل إلى حصن يُدعى حصن (أُنية) كان واسع العمارة، شريف البنيأن، تكتنفه الرُبى من جهاته "وقامت فيه المصانع المشيدة بالعمل الرفيع، والمرمر البديع، والآلات الرائعة. وأرسلت خلال منازله وقصوره المياه العِذاب المندفقة، تخترقه جارية غير مقطوعة ولا ممنوعة، وقد فُصّلت منازله وقصوره على تصاريف المنافع، ودبرت على أنواع من المرافق، فقد اجتمعت فيه جميع الأعمال التي يحتاج الناس إليها"[4]. فاستولى الناصر عليه، وغنم ما فيه، ثم أمر بهدمه، فهُدم، وأحرق، حتى أصبح صعيداً زلقاً، لم يبق فيه ما يدل عليه[5].

واصل الناصر لدين الله زحفه المظفر إلى أن قطع العسكر أرض ألبة كلها، وفي أثناء ذلك وقعت بين جيوشه وجيوش روميرو الثاني ابن أردون الثاني، ملك ليون (٣٢٠-٣٣٩هـ/٩٣٢-٩٥٠م) حرب شديدة انتهت بهزيمة النصارى، بعد أن فقدوا في تلك

---

[1] ابن حيان، المقتبس، تحقيق شالميتا: ٣٣٥؛ وانظر: المقري، نفح الطيب: ٣٦٣/١.

[2] ابن حيان، المقتبس، تحقيق شالميتا: ٣٣٥.

[3] المصدر نفسه: ٣٣٦-٣٣٧.

[4] المصدر نفسه: ٣٣٧-٣٣٩.

[5] المصدر نفسه: ٣٣٩.

الحرب عدداً كبيراً من فرسانهم المشهورين[1]. ثم وقعت معركة أخرى بين الطرفين على وادي دويرة، منح الله خلالها أكتاف النصارى، فقتلوا عدداً كبيراً منهم[2].

وعاد الناصر لدين الله إلى قرطبة بعد أن أمضى في حملته هذه نحو مائة يوم، قاد خلالها جيوش المسلمين من نصر إلى نصر، وأضعف مقاومة العصاة في سرقسطة[3].

استعد الناصر لدين الله لإخضاع سرقسطة "وقد كان قُوّاده الذين خلّفهم مقيمين حولها، متظاهرين على التضييق عليها، ملازمين لمراتبهم من حصرها، مجاهدين في حرب أهلها"[4]. وخرج لغايته من قرطبة يوم الخميس منتصف جمادى الآخرة من سنة ٣٢٣هـ/٩٣٤م، وفي طريقه إليها عرج على كورة جيان ثم إلى طرّش على وادي شقر من مورة بلنسية، ثم إلى كورة شنت برية، ثم إلى بعض القرى التابعة لمدينة دروقه[5]. وكانت سيرته موفقة، فقد جاءته البُشرى بوفاة عمروس بن محمد، صاحب مدينة بربشتر من الثغر الأعلى، وتداعي أهل الحصون في تلك المناطق إلى الطاعة[6]. وكان في دروقة أحد التجيبيين العصاة، وهو يونس بن عبد العزيز التجيبي، وقد أخلى المدينة وحصونها حالما اقترب الناصر لدين الله، وانحاش عنها إلى عش الضلالة والخلاف سرقسطة، منضماً إلى بني عمه التجيبيين"[7].

تزودت جيوش الناصر لدين الله بالمؤن من سهلة بني رزين وغيرها من جهات أهل الطاعة، وعسكرت أول الأمر على مسافة أربعة أميال من مدينة سرقسطة، وبعد استراحة قصيرة تقدم الجيش إلى أن حل في جزيرة على نهر ايبرو على باب سرقسطة

---

(1) ابن حيان، المقتبس، تحقيق شالميتا: ٣٣٩-٣٤١.

(2) المصدر نفسه: ٣٤١.

(3) المصدر نفسه: ٣٤١؛ وانظر: ابن خلدون، تاريخ: ١٨٢/٤-١٨٣.

(4) ابن حيان، المقتبس، تحقيق شالميتا: ٣٥٧.

(5) المصدر نفسه: ٣٥٧-٣٥٩.

(6) المصدر نفسه: ٣٥٨.

(7) المصدر نفسه: ٣٥٩.

"فأناخ بها الناصر لدين الله، وتبوأها دار مُقامه، نزلها بجميع عساكره وحشوده، وابتنى بها القصور والمنازل لنفسه وولده وقُوّاده، فأوفى ببعض ما ابتناه فيها من العلالي على مدينة سرقسطة، مطلاً على قصبتها، مطلعاً على من دخلها وخرج عنها، وعلى من يمشي في بعض أزقتها[1]. وبذلك وجه رسالة قوية إلى أهل سرقسطة بأنه ليس براحل عنهم قبل أن يخضعهم. وحاصر المدينة، وأخذ بمخنق أهلها، وضيّق عليهم تضييقاً شديداً، بينما كانت المدينة التي ابتناها تعج بالحركة، وتمتلئ بالأسواق العامرة بشتى صنوف المؤن والأرزاق[2].

لقد قطع الناصر لدين الله جميع السبل المؤدية إلى سرقسطة، وبث حولها عساكره لرصد تحركات أهلها. "وكان يركب اليوم بعد اليوم من محلته إلى تلك الجهات، متأملاً لما بني فيها، ومثيراً لصائب رأيه في شدّها، فاستبلغ في حصارها، وشد التضييق عليها استبلاغاً لا كفاء له"[3].

وبعد أن اطمأن الناصر لدين الله إلى إحكام الحصار حول سرقسطة أخذ يوجه فرسانه لقتال الحصون المجاورة لها، فقد أخرج القائد محمد بن سعيد بن المنذر القرشي إلى حصن المريّة على مقربة منها، وظل يقاتل من به من أصحاب محمد بن هاشم التجيبي حتى نزلوا على حكمه. وزحف القائد أحمد بن محمد بن إلياس إلى حصن من حصون التجيبيين بالقرب من طرسونة ففتحه. وخرج القائد محمد بن سعيد بن المنذر القرشي مرة ثانية إلى حصن كان فيه إبراهيم بن هاشم التجيبي، فافتتحه قسراً[4]. وفي أثناء ذلك كان الناصر لدين الله مقيماً على منازلة سرقسطة التي صمد أهلها للحصار صموداً عجيباً. ثم قفل عن المدينة بعد أن أمضى في حصارها مائة وثمانية أيام، وعاد إلى قرطبة "وأبقى وجوه قُوّاده في أكثر كتائبه مداومين لحصارها"[5].

---

(1) ابن حيان، المقتبس، تحقيق شالميتا: ٣٥٧.

(2) المصدر نفسه: ٣٦٠.

(3) المصدر نفسه: ٣٦٠.

(4) المصدر نفسه: ٣٦٠-٣٦١.

(5) المصدر نفسه: ٣٦١؛ وانظر ملخصاً لرواية الرازي عن حصار سرقسطة في المصدر نفسه: ٣٦٢-٣٦٥.

عاد الناصر لدين الله لمناجزة أمير سرقسطة محمد بن هاشم التجيبي وقومه المنتزين فيها في منتصف رجب من سنة ٣٢٥هـ/٩٣٦م[١]، وقبل أن يصلها سار بجيوشه نحو الثغر الأعلى "فبدأ بمطرف بن منذر التجيبي، المعروف بابن شويرب، صاحب قلعة أيوب، ظهير قومه على الخلعان، وأوصلهم لحزب الشيطان، فكان قد استجاش المشركين من أهل ألبة والقلاع، فجاءه منهم عدد كثير، فيهم جماعة من وجوههم وفرسانهم، ساروا معه داخل المدينة، فانبسطوا على المسلمين من أهلها وآذوهم"[٢]. وكان الناصر قد استاء كثيرا وغضب أشد الغضب لذلك، فأرسل كتابا إلى مطرف يطلب إليه أن يتبرأ منه عنده من النصارى، إلا أنه أصر على معصيته، فازداد حنق الناصر عليه، وتقدم لحربه. وعندما اقترب من قلعة أيوب أخذ التجيبيون من أقرباء محمد بن هشام يخلون حصونهم، ويلجأون إلى قلعة أيوب، وقد بلغ عدد الحصون التي تخلوا عنها ثلاثين حصنا وقصبة من أعمالهم "صارت إلى السلطان عفوا، فشكلها برجاله، وأوى من فيها إلى كنفه، وتقدم الناصر لدين الله إلى قلعة أيوب، فنزل عليها وأحاط بها، وتوافى إليه قواده المحاصرون لمدينة سرقسطة، فتكاثف العسكر على القلعة، وأحيط بها من جهاتها"[٣].

بدأت الحرب صعبة بين التجيبيين في قلعة أيوب وبين جيوش الناصر، انتهت بانتصار الناصر، حيث قتل مطرف بن منذر التجيبي فانهزمت قواته، والتجأت إلى قصبة المدينة، ومعها فرسان النصارى. وقد حاصرهم الناصر بنفسه فترة من الوقت، ثم حاصرهم قواده إلى أن اضطروا إلى المهادنة وطلب الصلح، فوافق الناصر على تأمين التجيبيين وخمسين فارسا من النصارى مقابل استسلام المدينة. أما فرسان النصارى الآخرون "فقتلوا عن آخرهم، وعاثت السيوف فيهم في مشهد عظيم أعز الله به الدين، وأقر عيون المسلمين، وجدع معاطس الكافرين...واجتمع من رؤوسهم ورؤوس المقتولين قبلهم ثلاث مائة رأس ونيف وثلاثون رأسا"[٤].

---

[١] ابن حيان، المقتبس، تحقيق شالميتا: ٣٩٣.

[٢] المصدر نفسه: ٣٩٦.

[٣] المصدر نفسه: ٣٩٧.

[٤] المصدر نفسه: ٣٩٧-٣٩٩.

توجه الناصر بعد قضائه على الثوار في قلعة أيوب إلى مدينة سرقسطة، ونـــزل على أبوابها يوم الثلاثاء الثاني عشر من شوال ٣٢٥هـ/٩٣٦م عازماً "علـــى ملازمـــة الخائن محمد بن هاشم والأخذ بكُظمه، والدنو إلى سوره، والضبط لأبوابه، وهجر الأهــل والأوطان لصلة جهاده وموالاة حربه"[١]. وأما هذا العــزم وطــول الحصـــار اضطـــر التجيبيون إلى طلب الصلح، وأرسلوا أحدهم يعرضون على الناصر عقد الصلـــح معـــه، فوافق، ودخل المدينة في المحرم سنة ٣٢٦هـ/٩٣٦م[٢].

لم تقتصر حملة الناصر هذه على إخضـــاع سرقسطة واستنزال التجيبيـــن، فقـــد كانت له في أثنائها وقائع ضد بعض النصارى، ومهادنة مع بعضهم الآخر، ففـــي ســـنة ٣٢٣هـ/٩٣٤م التمس راميرو بن أردون الثاني ملك ليون (جليقية) الأمان من النـــاصر، وأرسل الرسل إليه لهذه الغاية، وقد وافق الناصر على عقد هدنة معه، وبعث وزيره يحيى بن إسحاق إلى بلاط ملك ليون ليأخذ موافقته على شروطها، وبعد عودته تم عقد الهدنة مع رجالات راميرو في مجلس الناصر لدين الله، وذلك يوم الثلاثاء ١٥ ربيع الآخر من ســـنة ٣٢٣هـ/٩٣٤م[٣]. غير أن راميرو سرعان ما نكث، إذ لم يستمر على عهده والتزامـــه بالهدنة سوى بضعة أشهر، ففي رمضان من سنة ٣٢٤هـ/٩٣٥م "نكث عهده، وخـــرج بجموع المشركين إلى الحصون المبتناة على مدينة سرقسطة، طالباً لغرّة من بها، فكبّه الله لوجهه، ورجع خسيراً"[٤].

وقام النصارى بالتحرش بالمسلمين في سنة ٣٢٤هـ/٩٣٥م أيضاً، وكانوا بقيـــادة صاحب برشلونة النصراني، وكان حشدهم كبيراً، فخرج إليهم القائد أحمد بن محمد بـــن إلياس الذي كان مرابطاً على حصار سرقسطة، وحاربهم، وانتصر عليـــهم. ففـــي هـــذا الصدام المسلح مع النصارى "هُزم أعداء الله المشركين، فقُتلوا أبـــرح قتـــل، وضغـــط بعضهم بعضاً في انهزامهم لقوّة الردعة التي لحقتهم، فحطم بعضـــهم بعضـــاً، وأماتـــهم

---

(١) ابن حيان، المقتبس، تحقيق شالميتا: ٣٩٩-٤٠٢.

(٢) المصدر نفسه: ٤٠٢-٤١٠؛ وانظر رواية الرازي لاستسلام سرقسطة للخليفة الأموي النـــاصر لديـــن الله: المصدر نفسه: ٤١٠-٤١٧؛ وانظر أيضاً: المصدر نفسه: ٤١٩-٤٢٠.

(٣) المصدر نفسه: ٣٦٥.

(٤) المصدر نفسه: ٣٧٩.

التضاغط"[1]. وقد بلغت خسائر النصارى في هذه الوقعة التي جرت في ٢ شوال ٣٢٤هـ/٩٣٥م ألفاً وثلاثمائة قتيل، وأكثر من ثمانية آلاف غريق[2].

وبعد إخضاعه قلعة أيوب، واستنزاله الثائرين فيها اقتحم الناصر لدين الله أراضي مملكة ليون القريبة منه "فأداخ أرضها عرضاً وطولاً، ووطئها سهلاً وجبلاً، واستتم داخلها صوم شهر رمضان، وعيّد فيها عيد الفطر، واستباح كثيراً من حصونها ومعاقلها"[3].

وبعد إخضاع سرقسطة ندب الناصر لدين الله قائده: نجدة بن حسين لقتال نصارى ليون، وندب معه أربعة آلاف فارس. وقد توجه بهم في ثلاث كتائب شنّت غارات متلاحقة على أراضي ليون، وخاصة المناطق المحيطة بحصن اشتيين، حيث أذاقوا النصارى الكثير من الويلات، وقتلوا أعداداً كبيرة من محاربيهم[4]. وقد استمرت هذه الغارات المتلاحقة من ٢٧ محرم إلى ٤ صفر من سنة ٣٢٦هـ/٩٣٧م[5].

وخرج جمع من نصارى مملكة ليون في أوائل سنة ٣٢٧هـ/٩٣٨م "إلى بعض أطراف الثغور يريدون إصابة غرة من الإسلام، فلقيهم محمد بن قاسم بن طلمس في الأولياء، ودارت بينهم حرب صعبة، استظهر عليهم فيها المسلمون، فهزموهم وقتلوا خلقاً كثيراً"[6]. كما أسروا عدداً كبيراً اختار طلمس مائة من وجوههم، وأرسلهم إلى قرطبة، حيث أمر الناصر لدين الله بضرب أعناقهم[7].

---

(١) ابن حيان، المقتبس، تحقيق شالميتا: ٣٧٩-٣٨٠.

(٢) المصدر نفسه: ٣٨٠.

(٣) المصدر نفسه: ٤٠٠.

(٤) لمزيد من التفاصيل انظر: المصدر نفسه: ٤٢٠-٤٢٢.

(٥) المصدر نفسه: ٤٢٠،٤٢٢.

(٦) المصدر نفسه: ٤٣١-٤٣٢.

(٧) المصدر نفسه: ٤٣٢.

معركة الخندق (٣٢٧هـ/٩٣٨م):

قرر الناصر لدين الله قيادة حملة جديدة ضد النصارى، وذلك بعد أن أخضع آخر العصاة في الأندلس، وهم التجيبيون في سرقسطة. واستعداداً لهذه الحملة حشد الناصر أهل الأندلس من عرب وبربر، فقد كتب إليهم يحضهم على الجهاد، ويستنفره له، ويرغّبهم فيه، وأمر عماله في أنحاء الأندلس بأن يحشدوا الناس للجهاد ولو بالقوة، مخاطباً كلاً منهم: "وليكن حشدك حشراً لا حشداً"[١]. وبذلك تجمعت لدى الناصر لدين الله قوات هائلة، بعضها من مرابطي المغرب، ولكن المشاركين فيها كانوا بين كاره وراغب[٢]. ووصل إلى طليطلة في الثالث والعشرين من رمضان في تلك السنة، فأراح قواته فيها نحو ستة أيام، ثم اقتحم أرض النصارى "فجال فيها أياماً من محلة إلى أخرى، متتبعاً لما ألفاه لهم، مدمراً لنعمهم"[٣].

وكان محمد بن هاشم التجيبي قد تقدم الناصر لدين الله بسرية من الفرسان، واشتبك مع النصارى في معركة طاحنة، قهرهم في أولها، وألجأهم إلى قصبة مدينتهم شنت مانكش. إلا أنه سقط عن فرسه فتكاثر النصارى عليه وأخذوه أسيراً[٤].

وبأسرهم محمد بن هاشم التجيبي قويت معنويات النصارى، بينما فتّ ذلك في عضد المسلمين الذين استأنفوا الحرب ضد النصارى بعد نحو أسبوع من واقعة الأسر، ثم ما لبث المسلمون أن "انكشفوا انكشافاً قبيحاً، نيل فيه منهم منال ممضّ، وألجأهم العدو في انحيازهم إلى خندق بعيد المهوى...لم يجدوا عنه محيداً فتردى فيه خلق، وداس بعضهم بعضاً لكثرة الخلق، وفيض الجموع"[٥]. واضطر الناصر لدين الله إلى الانسحاب بمن بقي معه من جيوشه حيث رحل إلى وادي الحجارة، ومنها قفل إلى قرطبة. وكانت آخر حملة قادها بنفسه[٦].

---

[١] ابن حيان، المقتبس، تحقيق شالميتا: ٤٣٣.

[٢] المصدر نفسه: ٤٣٣.

[٣] المصدر نفسه: ٤٣٣-٤٣٤.

[٤] المصدر نفسه: ٤٣٥.

[٥] المصدر نفسه: ٤٣٥.

[٦] ابن حيان، المقتبس، تحقيق شالميتا: ٤٣٥؛ وانظر: المقري، نفح الطيب: ٣٦٣/١؛ ابن خلدون، تاريخ: ١٨٣/٤.

أما محمد بن هاشم التجيبي فقد ظل في الأسر حتى صفر من سنة ٣٣٠هـ/٩٤١م حيث تمكن الناصر لدين الله من افتكاكه "بالبذل الرغيب والحيل المرهقة"[١].

واستمر الناصر لدين الله بعد معركة الخندق يردد الصوائف ضد النصارى[٢]، وكان يعتزم قيادة حملة جديدة أخرى ضدهم في سنة ٣٢٨هـ/٩٣٩م، وقد استعد لهذه الحملة استعداداً كبيراً، وخطط لها تخطيطاً محكماً، وهمّ بالانطلاق إلى غايته يوم الخميس الثامن من جمادى الأولى من تلك السنة، غير أنه عدل عن ذلك، حيث وصله رسول من ملك ليون راميرو بن أردون الثاني "يخطب السلم، ويرغب في الهدنة، فجنح الناصر لدين الله إلى السلم، ورآها احتياطاً للأمة، ففسخ عزمه عن الغزو، واقتلع مضربه، ونقض مسيره، وانصرف إلى قصره"[٣]. وقد تم الصلح مع راميرو في شهر ذي القعدة من سنة ٣٢٩هـ/٩٤٠م "على الشروط التي أحبها الناصر لدين الله..."، وأدخل راميرو معه في الصلح غرسيه بن شانجه بن غرسيه ملك النافار، وغيره من زعماء النصارى[٤].

وبموجب الصلح مع راميرو ملك ليون تم افتكاك محمد بن هاشم التجيبي – كما ذكرنا – واستعاد الناصر لدين الله بعض ما فقده في معركة الخندق، ومن ذلك مصحفه[٥]. غير أن الصلح مع راميرو لم يستمر طويلاً، ففي سنة ٣٣٠هـ/٩٤١م استغل حادثاً غريباً، هو ظهور جماعة من الأتراك في الثغر الأعلى، واحتلالهم بباب مدينة لاردة في ذلك الثغر، ونقض صلحه مع الناصر[٦]. فقد ذكر ابن حيان أن "أمة عظيمة من الترك الذين خلف القسطنطينية (خرجوا) على المسلمين بالثغر الأعلى من الأندلس، انحدروا من بلد الإفرنج بغتة في خلق عظيم، احتلوا على مدينة لاردة، قاصية الثغر الأعلى، فشنوا

---

[١] ابن حيان، المقتبس، تحقيق شالميتا: ٤٣٦. وانظر الروايات المختلفة عن غزوة الخندق وآثارها ونتائجها لدى المصدر نفسه: ٤٣٦-٤٤٧.

[٢] ابن خلدون، تاريخ: ١٨٤/٤؛ المقري، نفح الطيب: ٣٦٣/١.

[٣] ابن حيان، المقتبس، تحقيق شالميتا: ٤٤٩-٤٥٠.

[٤] المصدر نفسه: ٤٦٧.

[٥] المصدر نفسه: ٤٧٥-٤٧٦.

[٦] المصدر نفسه: ٤٨١.

الغارات على حصون العرب، وأسروا يحيى بن محمد بن الطويل، صاحب بربشتر"[1].
ولكن هؤلاء لم يلبثوا إلا قليلا حتى عادوا أدراجهم باستثناء خمسة رجال أسرهم محمد بن هاشم التجيبي، وأرسلهم إلى قرطبة، حيث أسلموا، وألحقهم الناصر لدين الله بجملة غلمانه[2].

وعندما بلغ راميرو بن أردون ظهور الترك بثغر لاردة "وذعر المسلمين بتلك الجهة، طمع بانتهاز الفرصة فيهم مما يليه"[3]، وأقنع غيره من زعماء النصارى بنكث الصلح مع الناصر لدين الله، ووحد الجيوش، وخاصة جيشي ليون والنافار لحرب المسلمين، وقصدت هذه الجيوش مدينة تطيلة حيث دارت حرب بينهم وبين محمد بن هاشم، صاحب سرقسطة كان النصر في بدايتها للنصارى "ثم رد الله الكرة للمسلمين عليهم، فانهزموا...وانقلبوا خاسرين"[4].

وبنكث النصارى عهدهم وصلحهم تجددت الحرب بينهم وبين المسلمين، ففي سنة ٣٣٢هـ/٩٤٣م "أغزى الناصر لدين الله القائد أحمد بن محمد بن إلياس إلى جليقية، فدخل دار الحرب، فغنم، وأحرق جملة من حصونهم هنالك، وقفل راجعا"[5]. وفي سنة ٣٣٦هـ/٩٤٧م حقق المسلمون انتصارا جديدا على النصارى[6] كان أكبر منه وأبلغ ذلك الانتصار الذي حققه قائد الناصر: أحمد بن يعلى على نصارى جليقية (ليون) في سنة ٣٣٩هـ/٩٥٠م، حيث "اقتحم على غفلة، فافتتح ثلاثة حصون، وسبى نحوا من ألف سبية"[7]. وحدث مثل ذلك في السنوات التالية من عهد الناصر[8]، وخاصة في سنة ٣٤٤هـ/٩٥٥م حيث قصد قواد الثغور "حصنا من بلد قشتيلة فتغلبوا على أرباضه،

---

(١) ابن حيان، المقتبس، تحقيق شالميتا: ٤٨١.
(٢) المصدر نفسه: ٤٨٣.
(٣) المصدر نفسه: ٤٨٤.
(٤) المصدر نفسه: ٤٨٤.
(٥) ابن عذاري، البيان المغرب: ٢/٢١١.
(٦) المصدر نفسه: ٢١٤.
(٧) المصدر نفسه: ٢١٧.
(٨) المصدر نفسه: ٢١٧-٢١٩.

وقتلوا جماعة من أهله، وقفلوا عنه، فوافتهم جموع النصرانية، فأيد الله المسلمين، وانهزم المشركون أمامهم مقدار عشرة أميال يقتلونهم كيف شاؤوا، فأُحصي أنه قتل منهم مقدار عشرة آلاف" [1].

وما يلاحظ بشكل عام أن الجهاد في عهد الناصر أصبح أقل زخماً بعد هزيمته في وقعة الخندق سنة ٣٢٧هـ/٩٣٨م، وربما كان ابن الكردبوس مصيباً إلى حد ما عندما ذكر أنه أمضى من عهده الذي امتد خمسين سنة خمساً وعشرين سنة في غزو وحروب وخمساً وعشرين سنة في البطالة والراحة[2]. وحقيقة الأمر أن الناصر تمكن خلال الفترة الأولى من عهده من تأثيل مجد الأمويين في الأندلس، وأصبحت دولتهم فيها إحدى الدول المعدودة في ذلك العصر، وأصبح النصارى خاصة يهابونه، سواء أولئك الذين ينتشرون على حدود الدولة الشمالية، أم أولئك الأبعد مكاناً. وقد اختصرت المصادر التي تحدثت عن عهد الناصر المكانة التي بلغها في عبارة قصيرة، إلا أنها بالغة الدلالة، عندما قالت "وهابته أمم النصرانية"[3].

لقد وفدت على بلاط الناصر رسل الأباطرة والملوك يحملون الهدايا، ويخطبون الود، ففي سنة ٣٣٦هـ/٩٤٧م وفدت عليه "رسل صاحب قسطنطينية وهديته...واحتفل الناصر لقدومهم في يوم مشهود"[4]. "ثم جاء رسول من ملك الإفرنجة وراء البرت...ورسول آخر من ملك الإفرنجة بقاصية المشرق...واحتفل الناصر لقدومهم"[5]. "وفي سنة أربع وأربعين (وثلاثمائة) جاء رسول أردون (بن راميرو بن أردون) يطلب السلم...ووفدت على الناصر سنة سبع وأربعين (طوطة) ملقية بنفسها في عقد السلم لها ولولدها شانجه..."[6].

---

[1] ابن عذاري، البيان المغرب: ٢١٩-٢٢٠.

[2] ابن الكردبوس، تاريخ الأندلس: ٥٨.

[3] ابن خلدون، تاريخ: ١٨٣/٤؛ المقري، نفح الطيب: ٣٦٤/١.

[4] ابن خلدون، تاريخ: ١٨٣/٤؛ المقري، نفح الطيب: ٣٦٤/١؛ ابن عذاري، البيان المغرب: ٢١٥/٢ حيث يذكر أن قدوم الوفد كان سنة ٣٣٨هـ.

[5] المقري، نفح الطيب: ٣٦٥/١.

[6] المصدر نفسه: ٣٦٥/١-٣٦٦.

ويمكن القول باختصار إن "ملك الناصر بالأندلس كان في غاية الضخامة ورفعة الشأن، وهادته الروم، وازدلفت إليه تطلب مهادنته ومتاحفته بعظيم الذخائر، ولم تبق أمة سمعت به من ملوك الروم والإفرنجة والمجوس وسائر الأمم إلا وفدت عليه خاضعة راغبة، وانصرفت عنه راضية"(١).

ويعكس أبهة الملك في الأندلس ما شهدته في عهد الناصر من إعمار وبناء أتاحتهما جبايتها، فقد بلغت "من الكور والقرى خمسة آلاف ألف وأربعمائة ألف وثمانين ألف دينار، ومن السوق والمستخلص سبعمائة ألف وخمسة وستين ألف دينار. وأما أخماس الغنائم العظيمة فلا يحصيها ديوان"(٢). ومن أبرز ما شهدته الأندلس في مضمار البناء مدينة الزهراء الواقعة إلى الشمال الغربي من قرطبة بنحو ثمانية كيلو مترات التي يذكر ابن الكردبوس أن الناصر أنفق في بنائها خمسة وثمانين مُداً من الدراهم القاسمية(٣)، "سوى من سخر فيها من الرعية ومن زوامله وزوامل أجناده"(٤). وقد بدأ الناصر ببناء الزهراء سنة ٣٢٥هـ/٩٣٦م "وكان يصرف فيها من الصخر المبخور ستة آلاف صخرة في اليوم"(٥).

وفي سنة ٣٣٥هـ/٩٤٦م بدأ الناصر ببناء مدينة سالم في الثغر الأوسط، وأتمه في تلك السنة، ثم "اكتمل بناؤها وعمرانها على مرور الأيام"(٦). والجدير بالذكر هنا أن هذه المدينة تقع إلى الشمال من مدريد بنحو مائة وثلاثة وخمسين كيلومتراً على طريق سرقسطة، هذا فضلاً على العمائر الأخرى التي ابتناها الناصر أو زاد في بنيانها مثل مسجد قرطبة الذي شهد في عهده توسعاً كبيراً(٧).

---

(١) المقري، نفح الطيب: ٣٦٦/١.

(٢) المصدر نفسه: ٣٧٩/١.

(٣) ابن الكردبوس، تاريخ الأندلس: ٥٨-٥٩.

(٤) المصدر نفسه: ٥٩.

(٥) ابن عذاري، البيان المغرب: ٢٠٩/٢.

(٦) المصدر نفسه: ٢١٣/٢-٢١٤؛ ابن الكردبوس، تاريخ الأندلس: ٦٠.

(٧) ابن عذاري، البيان المغرب: ٢٣٠/٢-٢٣١؛ وانظر أيضاً حول نشاطات الناصر في مجال البنيان: ابن خلدون، تاريخ: ٤/ ١٨٤-١٨٥.

وأصبحت قرطبة في عهد الناصر تباهي العواصم جمالاً واتساعاً وتنظيماً وعظمة، يدل على ذلك تلك الإحصائية الطريفة التي أوردها ابن عذاري بشأنها، حيث ذكر أن عدة الدور التي بداخلها للرعية دون الوزراء وأكابر أهل الخدمة مائة ألف دار وثلاثة عشر ألف دار، ومساجدها ثلاثة آلاف، وعدة الدور التي بقصرها الزهراء أربعمائة دار، وذلك لسكنى السلطان وحاشيته وأهل بيته. وعدد الفتيان الصقالبة ثلاثة آلاف وسبع مائة وخمسون. وعدة النساء بقصر الزهراء الكبار والصغار وخدم الخدمة ستة آلاف وثلاثمائة امرأة، وكان لهؤلاء من اللحم ثلاثة عشر ألف رطل ينقسم من عشرة أرطال للشخص إلى ما دون ذلك، سوى الدجاج والحجل وصنوف الطير وضروب الحيتان. وعدد حماماتها ثلاثمائة حمام...وكان عدد أرباض قرطبة في ذلك الوقت ثمانية وعشرين ربضاً"[1].

لقد كان الناصر من الخلفاء القلائل الذين استثمروا كل وقتهم في الجهاد وإخماد نيران الفتنة والثورات والبناء والتعمير، فقد نذر سنيّ حكمه كلها لهذه الغايات، حتى أنه عندما استعاد شريط حياته كأمير ثم كخليفة، وحاول أن يحصي الأيام التي صفت له دونما عمل في هذا المجال أو ذاك، دونما كدر بسبب هذا العمل أو ذاك، لم يجد سوى أربعة عشر يوماً صفت له دون تكدير في مدة حكمه التي استمرت خمسين سنة وسبعة أشهر وثلاثة أيام[2].

توفي الخليفة الأموي عبد الرحمن بن محمد بن عبد الله، الناصر لدين الله في صدر رمضان سنة ٣٥٠هـ/٩٦١م[3]، وكان عمره ثلاثاً وسبعين سنة[4]. وقد ترك من الأموال عندما توفي خمسة آلاف مليار، أو حسب تعبير المقري: خمسة آلاف ألف ألف ألف (ثلاث مرات)[5].

---

(١) ابن عذاري، البيان المغرب: ٢٣٢/٢.

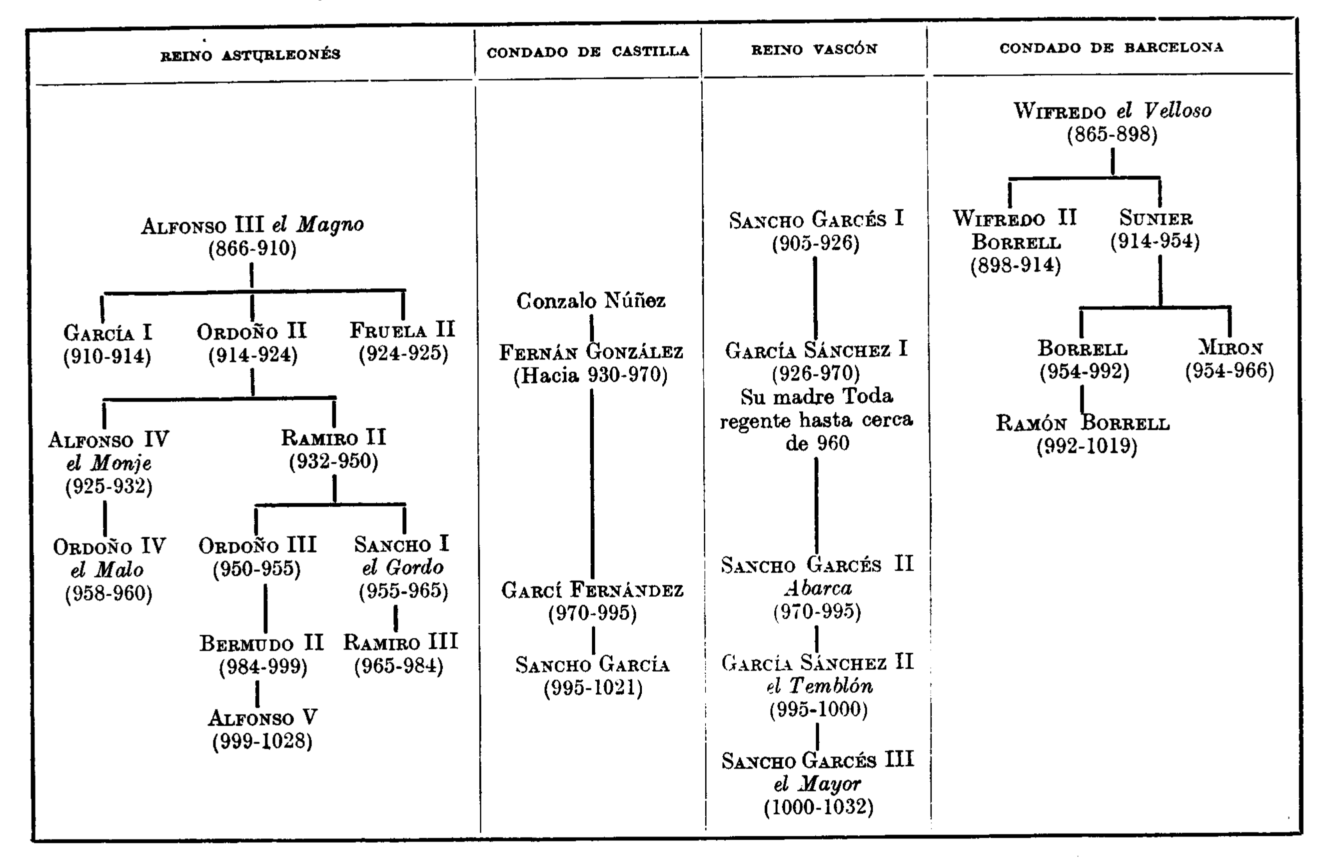
(٢) المصدر نفسه: ٢٣٢/٢؛ المقري، نفح الطيب: ٣٧٩/١.

(٣) ابن عذاري، البيان المغرب: ٢٣٢/٢؛ وانظر: ابن الأثير، الكامل في التاريخ: ٣٥٩/٦؛ ابن خلدون، تاريخ: ١٨٥/٤؛ المقري، نفح الطيب: ٣٧٩/١ ويذكر أنه توفي في ثاني أو ثالث رمضان.

(٤) ابن الأثير، الكامل في التاريخ: ٣٥٩/٦.

(٥) المقري، نفح الطيب: ٣٧٩/١.

SOBERANOS DE LA ESPAÑA CRISTIANA EN EL SIGLO X



الحكم الثاني (المستنصر بالله) (٣٥٠-٣٦٦هـ/٩٦١-٩٧٦م):

هو الحكم بن عبد الرحمن بن محمد بن عبد الله بن محمد بن عبد الرحمن بن الحكم بن هشام بن عبد الرحمن الداخل[١]، أمه أم ولد تسمى مرجانة[٢] أو مهرجانة[٣]. وقد وُلد يوم الجمعة مستهل رجب من سنة ٣٠٢هـ/٩١٤م[٤]، وتكنى: أبا المطرف[٥]، وتلقب: المستنصر بالله[٦].

بويع الحكم المستنصر بالخلافة يوم الخميس ثاني يوم وفاة أبيه، أي في ٣ رمضان سنة ٣٥٠هـ/٩٦١م[٧]، "وقام بأعباء الملك أتم قيام، وأنفذ الكتب إلى الآفاق بتمام الأمر له، ودعا الناس إلى بيعته، واستقبل من يومه النظر في تمهيد سلطانه، وتثقيف مملكته، وضبط قصوره، وترتيب أجناده. وأول ما أخذ البيعة على صقالبة قصره الفتيان المعروفين بالخلفاء الأكابر"[٨]. ومن هؤلاء الصقالبة: جعفر بن عثمان المصحفي الذي ولّاه الحجابة سنة ٣٥١هـ/٩٦٢م[٩]. ثم بايعه إخوته، ومن بعدهم الوزراء وإخوتهم وأولادهم، ثم أصحاب الشرطة وطبقات أهل الخدمة. وبعد ذلك "تكاثرت الوفود بباب الخليفة الحكم من البلاد للبيعة والتماس المطالب، من أهل طليطلة وغيرها من قواعد الأندلس وأصقاعها"[١٠].

---

[١] ابن عذاري، البيان المغرب: ٢/٢٣٣.

[٢] ابن الأثير، الكامل في التاريخ: ٦/٣٦٠.

[٣] ابن عذاري، البيان المغرب: ٢/٢٣٣.

[٤] المصدر نفسه: ٢/١٦٦.

[٥] المصدر نفسه: ٢/٢٣٣.

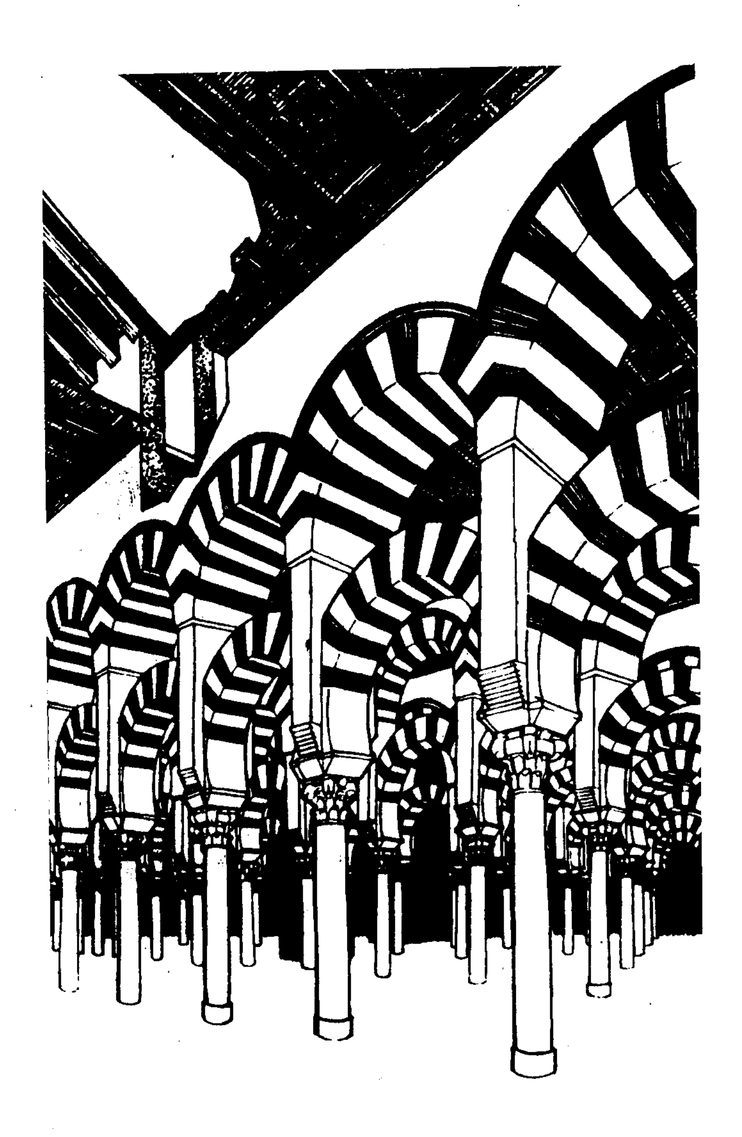
[٦] المصدر نفسه: ٢/٢٣٣؛ وانظر: ابن الأثير، الكامل في التاريخ: ٦/٣٦٠؛ المراكشي، المعجب: ١٤؛ المقري، نفح الطيب: ١/٣٨٢؛ ابن الكردبوس، تاريخ: ٦٢؛ ابن خلدون، تاريخ: ٤/١٨٥.

[٧] ابن عذاري، البيان المغرب: ٢/٢٣٣؛ المقري، نفح الطيب: ١/٣٨٦.

[٨] المقري، نفح الطيب: ١/٣٨٦-٣٨٧.

[٩] ابن عذاري، البيان المغرب: ٢/٢٣٥. والمصحفي: هو أبو الحسن جعفر بن عثمان بن نصر بن فوز بن عبد الله بن كسيلة القيسي. يجيد الشعر، وقد ولي جزيرة ميورقة أيام الخليفة الناصر لدين الله، ثم استوزره المستنصر وغدا من أعظم رجال بلاطه وحجّابه، وكان له شأن كبير، وقد انتهى به الأمر إلى اعتقاله ثم قتله على يد المنصور محمد بن أبي عامر كما ستوضح هذه الدراسة.

[١٠] المقري، نفح الطيب: ١/٣٨٧-٣٨٨.



— Córdoba. Interior de la ampliación de al-Hakam II en la mezquita. (Reconstrucción). — *Dibujo de F. J. Carrajal*

تعرضت الأندلس في عهد الخليفة الحكم المستنصر لكثير من الأخطار الخارجية والداخلية، ولمواجهة هذه الأخطار أنفذ الكتب إلى جميع ولاته وقواده وعماله "يأمرهم بارتباط الخيل، والقيام عليها، والاستعداد بالعُدد والأسلحة والآلات برسم الجهاد في سبيل الله"[1]. ومن أبرز هذه الأخطار: النصارى الذين كانت للحكم معهم حروب وعلاقات. والمجوس (النورمان) الذين استأنفوا الهجوم على السواحل. كما كانت للحكم صولات وجولات في المغرب ضد الفاطميين.

جهاده:

لقد طمع النصارى بثغور الأندلس حالما انتهى إليهم خبر وفاة الخليفة الناصر لدين الله[2]، وكان على الحكم المستنصر أن يوجه إليهم رسالة قوية تجعلهم يدركون أن الأندلس لم تضعف بوفاة الناصر، وإنما ستظل قوية قادرة على كسر شوكتهم، وكانت تلك الرسالة عبارة عن حملة عسكرية قادها الحكم بنفسه في سنة ٣٥١هـ/٩٦٢م[3]، واقتحم بلد فرناندو جُنثالث (Fernando Gonzalo) فنازل مدينة شنت اشتيين San Esteban القريبة من وشقة "وفتحها عنوة واستباحها"[4]. كما فتح مدناً أخرى وحصوناً كثيرة "وسبى وغنم، وانصرف غانماً ظافراً"[5]. وبذلك فرض الحكم المستنصر هيبته، إذ بادر النصارى "إلى عقد السلم معه، وانقبضوا عما كانوا فيه"[6]. ولم يكن أمام النصارى من وسيلة أخرى يتجنبون بها مواجهة الحكم المستنصر الذي أظهر تفوقاً ملحوظاً في الميدان العسكري.

---

(1) ابن عذاري، البيان المغرب: ٢/٢٣٥.

(2) ابن خلدون، تاريخ: ٤/١٨٥؛ المقري، نفح الطيب: ١/٣٨٢.

(3) ابن عذاري، البيان المغرب: ٢/٢٣٤.

(4) المقري، نفح الطيب: ١/٣٨٢-٣٨٣.

(5) ابن عذاري، البيان المغرب: ٢/٢٣٤.

(6) ابن خلدون، تاريخ: ٤/١٨٥؛ المقري، نفح الطيب: ١/٣٨٣.

وفد على الحكم المستنصر أردون بن ألفونسو الذي يلقبه ابن عذاري بالأحدب[1]، بينما يلقبه المقري (الخبيث)[2]، فقد "تبرع هذا اللعين أردون بالمسير إلى باب المستنصر بالله من ذاته، غير طالب إذن ولا مستظهر بعهد، وذلك عندما بلغه اعتزام الحكم المستنصر بالله في عامه ذلك على الغزو إليه، وأخذه في التأهب له"[3]. وكان سبب وفادة أردون على الحكم هو التماس مساعدته من أجل إعادته إلى عرشه الذي اغتصبه سانشو بن راميرو[4] الذي بادر بدوره إلى إرسال وفد إلى الحكم خوفاً على ملكه، ووعد بأن يسلّم للحكم بعض حصونه مقابل المساعدة التي سيقدمها له، إلا أنه نكث[5].

وعندما نكث سانشو وجه الحكم حملة عسكرية بقيادة قائده الحكم التجيبي، صاحب سرقسطة فهزمهم. ثم توالت الحملات على بلاد النصارى، وانتصاراته عليهم "وعظمت فتوحات الحكم وقُوّاد الثغور في كل ناحية، وكان من أعظمها فتح قلهرة من بلاد البشكنس...فعمرها الحكم، واعتنى بها"[6].

وفي سنة ٣٥٤هـ/٩٦٥م أرسل الحكم جيوشه إلى بلاد ألبة، حيث افتتحت حصن غرماج (Gormaz)، ودوخت بلاد النصارى، ثم رجعت[7].وتواردت كتب قادة المسلمين في الثغور على الحكم في سنة ٣٥٥هـ/٩٦٦م "يذكرون ما منحهم الله وفتح على أيديهم من قبل أعداء الله المشركين، وأن كل وحد منهم نهض إلى قبله من بلادهم فقتل وسبى، واكتسح وأشجى، وانصرف سالماً غانماً"[8]. ووقعت فتوح مماثلة في سنة ٣٥٦هـ/٩٦٦م[9].

---

[1] ابن عذاري، البيان المغرب: ٢٣٥/٢.

[2] المقري، نفح الطيب: ٣٨٨/١.

[3] المصدر نفسه: ٣٨٨/١-٣٨٩.

[4] انظر التفاصيل: المصدر نفسه: ٣٨٩/١ وما بعدها؛ وانظر: ابن عذاري، البيان المغرب: ٢٣٥/٢.

[5] المقري، نفح الطيب: ٣٨٢/١.

[6] المصدر نفسه: ٣٨٣/١.

[7] المصدر نفسه: ٣٨٣/١؛ وانظر: ابن خلدون، تاريخ: ١٨٦/٤.

[8] ابن عذاري، البيان المغرب: ٢٣٨/٢.

[9] المصدر نفسه: ٢٣٩/٢.

وفي العشر الأواخر من رمضان من سنة ٣٥٧هـ/٩٦٧م "احتل الوزيران القائدان: غالب بن عبد الرحمن وسعيد بن الحكم الجعفري بجيوش الثغر بالصائفة على حصن قلهرة، فأقاما بساحته مدة استظهرا بها على تمكين بنيان الحزام فيه، والزيادة في ارتفاع البرج الثامن بذروته، فانتهيا من ذلك إلى الإرادة، وقفلا بالعسكر"(١).

أدت الحملات العسكرية المتلاحقة ضد النصارى في الشمال إلى زرع الرعب والهلع في قلوبهم، فعاودوا طلب الصلح والتماس الهدنة، وأرسلوا وفودهم إلى الحكم بذلك في النصف الأول من عقد الستينات من القرن الرابع الهجري/ العاشر الميلادي(٢). ومن أبرز ما وقع خلال تلك الفترة، وأدى إلى التماس الصلح ما وقع بين المسلمين والنصارى في سنة ٣٦٤هـ/٩٧٤م من أحداث، ففي منتصف رجب من تلك السنة "توالت الأخبار من الثغر الأوسط باحتلال جيش العدو من المشركين...في جمع كثير من الجلالقة والبشكنس أهل قشتيلة وبنبلونة...بحصن غرماج من ثغر مدينة سالم"(٣). فقد حاصروا الحصن، ووالوا أهله بالحرب، "وابتدر الخليفة لأول سقوط الخبر بالثغر عليه في سره والإعجال لإمداد أهله، وتجريد عسكر الصائفة المعاود تجريدها كل عام إليه مكثفاً لأعداده، منتقياً لرجاله"(٤).

ودارت المعركة بين المسلمين والنصارى في السابع من رمضان سنة ٣٦٤هـ/٩٧٤م، وكانت ضفاف نهر دويره ساحتها، "ثم استطرد المسلمون لمن تشوّف إليهم من المشركين، حتى اجتاز إليهم عدد عظيم منهم خالطوهم، فنزل بينهم قتال شديد وراء النهر حميت منه نفوس المسلمين فجلدوهم القتال، وهم أقل عدداً منهم، وعاركوهم ملياً...فزلزل الله بالمشركين، وولوا مقتحمين النهر والسيوف آخذة مآخذها من نحور الكفرة وظهورهم"(٥).

---

(١) ابن عذاري، البيان المغرب: ٢٤١/٢.

(٢) انظر: ابن خلدون، تاريخ: ١٧٨/٤؛ المقري، نفح الطيب: ٣٨٤/١-٣٨٥.

(٣) ابن حيان، المقتبس، تحقيق الحجي: ٢١٨؛ وانظر: ابن عذاري، البيان المغرب: ٢٤٩/٢.

(٤) ابن حيان، المقتبس، تحقيق الحجي: ٢١٨-٢١٩.

(٥) المصدر نفسه: ٢٢٧.

تصديه لاعتداءات المجوس (النورمان):

استأنفت المجوس (النورمان) في عهد الخليفة الأموي الحكم المستنصر بالله اعتداءاتهم على سواحل الأندلس، ففي أول رجب من سنة ٣٥٥هـ/٩٦٥م "ورد كتاب من قصر أبي دانس على المستنصر بالله، يذكر فيه ظهور أسطول المجوس ببحر الغوب بقرب من هذا المكان، واضطراب أهل ذلك الساحل كله لذلك، لتقدّم عادتهم بطروق الأندلس من قبله فيما سلف"[١]. وكانوا هذه المرة في ثمانية وعشرين مركباً[٢].

وتواردت الكتب من سواحل الأندلس على المحيط الأطلسي بأخبار المجوس، حيث أضروا بتلك السواحل، ووصلوا إلى بسيط لشبونة، ودارت بينهم وبين المسلمين حرب "استشهد فيها من المسلمين وقتل منها من الكافرين"[٣]. ثم اشتبك الأسطول الإسلامي مع أسطول النورمان في وادي شلب "وحطموا عدة من مراكبهم، واستنقذوا من كان فيها من المسلمين، وقتلوا جملة من المشركين، وانهزموا إثر ذلك خاسرين"[٤]، وخاصة بعد أن تصدى لهم قائد البحر عبد الرحمن بن رماحس، ونال منهم في كل جهة من السواحل[٥].

وهاجم المجوس (النورمان) سواحل الأندلس الغربية مرة أخرى في سنة ٣٦٠هـ/٩٧٠م، ففي صدر رمضان من تلك السنة ظهروا هناك على عادتهم، وعندما أُبلغ الخليفة الحكم بذلك "عهد إلى عبد الرحمن بن رُماحس، قائد البحر، وهو حاضر بقرطبة بالخروج إلى المريّة، والتأهب للركوب إلى ناحية الغرب"[٦]. كما أمر المستنصر أن تتوجه صائفة تلك السنة لمحاربة المجوس. وقد تمكنت القوات الإسلامية البرية

---

(١) ابن عذاري، البيان المغرب: ٢/٢٣٨-٢٣٩؛ وانظر: ابن خلدون، تاريخ: ٤/١٨٦ حيث يذكر أن ظهور المجوس كان في سنة ٣٥٤هـ/٩٦٤م؛ المقري، نفح الطيب: ١/٣٨٣.

(٢) ابن عذاري، البيان المغرب: ٢/٢٣٩.

(٣) المصدر نفسه: ٢/٢٣٩.

(٤) المصدر نفسه: ٢/٢٣٩.

(٥) المقري، نفح الطيب: ١/٣٨٤.

(٦) ابن حيان، المقتبس، تحقيق الحجي: ٢٣-٢٤؛ ابن عذاري، البيان المغرب: ٢/٢٤١.

والبحرية من طردهم، فقد ذكر ابن حيان أنهم دخلوا وادي دويره، ثم خرجوا في الغارة إلى شنتبرية وبسيطها، وانصرفوا بعد ذلك خائبين[1].

وعاود المجوس الهجوم على سواحل الأندلس الغربية في سنة ٣٦١هـ/٩٧١م، فتصدى لهم الأسطول الأندلسي بقيادة أمير البحر غالب بن عبد الرحمن الناصري، وغيره من القادة مثل: زياد بن أفلح، صاحب الخيل، وهشام بن محمد، قائد الصائفة، حيث ذكر ابن حيان أنهما وصلا إلى مدينة الزهراء في يوم الثلاثاء ٦ ذي القعدة من تلك السنة "قافلين من غزاتهما إلى ساحل الغرب لتتبع أخبار المجوس"[2]. وقد أخبرا الحكم بأن المجوس "نكصوا عن الإقدام على المسلمين عند تسمعهم بخبر الدلوف إليهم، والاستعداد لهم براً وبحراً، فانقلبوا على وجوههم، وجدوا في نكوصهم، وأن الجواسيس الذين أرسلوا لامتحان أخبارهم عادوا إليها بعد بلوغهم شنت ياقب من قاصية بلد العدو"[3].

وهكذا تعرضت سواحل الأندلس الغربية في عهد الحكم المستنصر لهجوم المجوس (النورمان) ثلاث مرات، وكانت من قبل قد تعرضت لهجومهم ثلاث مرات أيضاً، ولكن صدهم في عهد الحكم كان أقوى وأسرع بسبب نمو البحرية الأندلسية، وازدياد قوتها الضاربة. والجدير بالذكر هنا أن قطع الأسطول الحربي في أوائل عهد الحكم بلغت ثلاثمائة قطعة بحرية في ميناء المرية وحده، وذلك في سنة ٣٥٣هـ/٩٦٤م[4].

---

(١) ابن حيان، المقتبس، تحقيق الحجي: ٢٧.

(٢) المصدر نفسه: ٩٢-٩٣.

(٣) المصدر نفسه: ٩٣. وتقع مدينة شنت ياقوب Santiago de Campostelar في أقصى الشمال الغربي من شبه جزيرة أيبيريا. وتعتبر من المدن المقدسة عند النصارى لظنهم أنها تحتوي على قبر القديس (الحواري) يعقوب.

(٤) ابن الخطيب، الإحاطة: ٤٧٩/١.

نفوذه في المغرب:

استمر الخليفة الأموي الحكم المستنصر في سياسته تجاه المغرب على سياسة والده الخليفة الناصر لدين الله، وكانت قائمة على التنافس الشديد مع الفاطميين، ذلك التنافس الذي تطور إلى شعور حاد بالعداء نحوهم، على الرغم من رحيل الخليفة الفاطمي المعز لدين الله إلى مصر، بعد أن سبقه إليها قائده جوهر الصقلي إلى هناك، حيث أمر ببناء مدينة القاهرة. بينما صار أمر المغرب ليوسف بن زيري بن مناد ثم لبنيه من بعده، الذين ظلوا على ولائهم للفاطميين الشيعة[1].

وأصبح المغرب في عهد الخليفة الأموي المستنصر منفسخاً بين صنهاجة وزناتة من قبائل البربر، وقد تمكنت صنهاجة أو الدولة الزيرية الموالية للفاطميين من بسط نفوذها على النصف الشرقي من المغرب، بينما سيطرت زناتة وحلفاؤها الأمويون على النصف الغربي منه. وعلى الرغم من أن الخلافتين الأموية والفاطمية أصبحتا بعيدتين عن بعضهما إلا أن المستنصر ظل حذراً متأهباً ضد الخطر الفاطمي، كما ظل حريصاً على الاحتفاظ بقواعد الأندلس في المغرب مثل سبتة وطنجة ومليلة بالإضافة إلى مضيق جبل طارق في جنوبي الأندلس، وعلى مد نفوذه إلى قلب العدوة المغربية. وانطلاقاً من هذا الحرص "تحرك الحكم من قرطبة إلى المرية توقعاً لما يصدر من صاحب إفريقية المحاد لأهل الأندلس، ولمعاينة ما استكمله بها من الحصانة" وذلك في سنة ٣٥٣هـ/٩٦٤م[2]، كما أن الحكم استمر على سياسة الاحتواء التي اتبعها والده تجاه بعض الأدارسة الحسنيين من بني محمد الذين كانوا موالين للأمويين[3].

وقد وفد على الحكم المستنصر في المحرم من سنة ٣٦٠هـ/٩٧٠م رسل بني محمد الحسنيين "فأوصلوا كتاب مرسليهم، وذكروا ما هم عليه من الطاعة"[4]. وقد طلب

---

(١) النويري، نهاية الأرب: ١٥٥/٢٤.

(٢) ابن عذاري، البيان المغرب: ٢٣٦/٢.

(٣) المصدر نفسه: ٢٣٩/٢-٢٤٠.

(٤) المصدر نفسه: ٢٤١/٢.

هذا الوفد من المستنصر مدداً من الرماة ليتمكنوا من الصمود إذا ما هاجمهم الموالون للخليفة الفاطمي المعز لدين الله[1].

ولم تلبث أن وقعت في شمالي إفريقية أحداث أدت إلى اختلال ميزان القوى بين الأطراف الموالية للأمويين والفاطميين، تمخضت عن ثورة قام بها بنو محمد الحسنيون بقيادة زعيمهم الحسن بن قنون الحسني، وقطعوا الدعوة للأمويين وذلك في سنة ٣٦١هـ/٩٧١م[2]. وهاجت الحروب بينهم وبين قواد الحكم المستنصر في المغرب[3]. ففي هذه السنة دعا الحكم أحد قادته، وهو محمد بن قاسم، وأمره بالخروج إلى مدينة سبتة "قائداً على من يضمه إليه من طوائف الأجناد للذي بدا عن نقض حسن بن قنون، وانحرافه إلى دعوة معدّ (المعز لدين الله) "[4].

توجه محمد بن قاسم إلى المغرب ثم لحقت به الأساطيل الأندلسية بقيادة عبد الرحمن بن رماحس، وعندما تكاملت الجيوش والأساطيل بسبتة هاجمت طنجة، واستولت عليها في ذي القعدة من سنة ٣٦١هـ/٩٧١م[5]، وقد فر حسن بن قنون فيمن بقي معه إلى جبل حصين، فتبعه جنود الخليفة الأموي، وانقضوا عليه، إلا أنه ترك الجبل منهزماً، واستولى القائد محمد بن قاسم على مدينة أصيلا أيضاً، وعندما دخل إلى جامعها وجد "فيه منبراً جديداً موسوماً باسم الشيعي معد بن إسماعيل (المعز لدين الله) فأمر بإحراقه بالنار، بعد أن خلع من أعلاه اللوح المنقوش فيه اسم معد، وكان فيه من الغلوّ ما في ذكره أمر كبير، فأمر باقتلاعه، وأرسله مع كتاب الفتح إلى المستنصر "[6].

---

[1] ابن عذاري، البيان المغرب: ٢٤١/٢.

[2] انظر التفاصيل: النويري، نهاية الأرب: ١٦٥/٢٤ وما بعدها؛ ابن عذاري، البيان المغرب: ٢٤٢/٢ وما بعدها.

[3] ابن عذاري، البيان المغرب: ٢٤٤/٢.

[4] المصدر نفسه: ٢٤٤/٢.

[5] ابن حيان، المقتبس، تحقيق الحجي: ٨٩؛ ابن عذاري، البيان المغرب: ٢٤٥/٢.

[6] ابن عذاري، البيان المغرب: ٢٤٦/٢؛ وانظر: ابن حيان، المقتبس، تحقيق الحجي: ٩١.

وتمكن الحسن بن قنون من تجميع فلول جيوشه، ثم فاجأ القائد محمد بن قاسم في مكان يدعى فحص مهران، وذلك في ربيع الأول من سنة ٣٦٢هـ/٩٧٢م، وقتله وقتل معه "من الجند الذين كانوا معه نحو الخمسمائة من الفرسان الأبطال الأندلسيين الأنجاد، ومن رجّالتهم نحو الألف"[1].

وعلى الرغم من هذا الانتصار المحدود الذي حققه حسن بن قنون على قائد الحكم المستنصر، أخذ بعض رجال ابن قنون ينفضون من حوله، فقد وصل قرطبة في غرة جمادى الآخرة من سنة ٣٦٢هـ/٩٧٢م سبعون رجلاً من رجاله بعد أن خلعوا طاعته، حيث أعلنوا الولاء للحكم[2].

واستدعى الحكم المستنصر في سنة ٣٦٢هـ/٩٧٢م أيضاً قائده غالب بن عبد الرحمن، وأمره بحرب حسن بن قنون الحسني عندما تفاقم أمره، وقد دارت خلالها حروب شديدة بين الطرفين "انجلت عن مقتل كثير من أصحاب حسن بن قنون الحسني، وحُز من رؤوس مشاهيرهم مائة رأس، وتُرك أكثرهم صريعاً"[3]. وبسبب هذه الانتصارات قدم كثيرون إلى قرطبة، وخاصة من مدينة فاس، يعلنون رغبتهم في طاعة الحكم المستنصر، والقيام بدعوته[4].

استمرت الحروب واستعرت بين قوات الحكم وقوات حسن بن قنون الحسني، وتوالت انتصارات الأمويين على المغاربة الذين انحازوا لابن قنون، فرجعوا إلى الطاعة، باستثناء ابن قنون وعدد قليل من رجاله، "وقد صار من ضيق أمره في غُمّة"[5]. وعندما وجد ابن قنون نفسه وحيداً، لم يجد أمامه سوى الإذعان للحكم المستنصر والدخول في طاعته. فما كان منه إلا أن أعلن ذلك للقائد غالب بن عبد الرحمن الذي زف البشرى

---

(1) ابن عذاري، البيان المغرب: ٢٤٦/٢؛ وانظر: ابن حيان، المقتبس، تحقيق الحجي: ٩٦.

(2) ابن عذاري، البيان المغرب: ٢٤٦/٢؛ ابن حيان، المقتبس، تحقيق الحجي: ٩٦.

(3) ابن عذاري، البيان المغرب: ٢٤٧/٢.

(4) المصدر نفسه: ٢٤٦/٢-٢٤٧؛ ابن حيان، المقتبس، تحقيق الحجي: ١٠٣.

(5) ابن عذاري، البيان المغرب: ٢٤٨/٢؛ ولمزيد من التفاصيل انظر: ابن حيان، المقتبس، تحقيق الحجي: ١٤٤ وما بعدها.

للخليفة الحكم في جمادى الآخرة من سنة ٣٦٣هـ/٩٧٣م. وقد سرّ الخليفة بهذا الخبر، وأعلنه على الملأ بعد صلاة الجمعة بجامع قرطبة "وأعلم الوزراء بخضوع حسن بن قنون المنتزي عليه بالمغرب، وأنه ورد عليه كتاب بن غالب بذلك"[١].

"وفي سنة ٣٦٤هـ/٩٧٤م قدم على المستنصر قائده غالب بن عبد الرحمن قافلاً من عدوة المغرب، ومعه حسن بن قنون وشيعته بنو إدريس الحسنيون ملوك الغرب المستنزلزن من معاقلهم إلى الأندلس...فأمر باحتمال هؤلاء الأشراف من المحلّة في ظلام ليلة الخميس لأربع خلون من المحرم إلى الدور التي أخليت لهم بقرطبة"[٢].

وهكذا استطاع الحكم المستنصر إخماد ثورة الحسن بن قنون في المغرب، واستعادة نفوذه هناك. ويشير المقري إلى أنه بعد أن استقبل الحسنيين في قرطبة، أجلاهم إلى الإسكندرية في مصر[٣].

والجدير بالذكر هنا أن الحكم بعد أن استعاد نفوذه في المغرب قلد محمد بن أبي عامر قضاء القضاة هناك، "وجعله عيناً على العسكر، وأوعز إليه في مهماته، فسار ابن أبي عامر إلى هنالك، فحمُدت سيرته، وصحب حينئذ وجوه العسكر وأشياخ القبائل وملوكهم، فكانت تلك الحركة أول ظهوره، وبعد رجوعه منها لم يزل يزداد نبلاً، ويرتقي منزلة. وهو مع ذلك كله يغدو إلى دار جعفر بن عثمان المصحفي، وزير الدولة ويروح، ويختص به، ويدعي نصيحته"[٤].

---

[١] ابن عذاري، البيان المغرب: ٢٤٨/٢؛ وانظر أيضاً: ابن حيان، المقتبس، تحقيق الحجي: ١٥٠-١٥١.

[٢] ابن عذاري، البيان المغرب: ٢٤٨/٢؛ ولمزيد من التفاصيل انظر: ابن حيان، المقتبس، تحقيق الحجي: ١٩٤ وما بعدها.

[٣] المقري، نفح الطيب: ٣٨٥/١؛ وانظر أيضاً: ابن خلدون، تاريخ: ١٨٧/٤.

[٤] ابن عذاري، البيان المغرب: ٢٥٢/٢.

مرض الحكم المستنصر في ربيع الأول من سنة ٣٦٤هـ/٩٧٤م، فاحتجب إلى أن خفّ في أواخر ربيع الآخر من تلك السنة[١]، "وفي يوم الجمعة لعشر خلون عن رجب ركب الخليفة الحكم أول ركباته عند إفراقه من علته إلى المسجد الجامع بالزهراء وطنه، ومعه ابنه الأمير هشام المرشح لولاية عهده، لشهود صلاة الجمعة بها، وقد أنس إلى العافية"[٢]. وفي سنة ٣٦٥هـ/٩٧٥م تم الإعلان عن بيعة أبي الوليد هشام "وأن تؤخذ له من الخاصة والعامة بقرطبة وسائر كور الأندلس، وما إلى طاعته من بلاد الغرب. وذكره في الخطبة على المنابر في الجمعة والأعياد، وذلك مستهل جمادى الآخرة"[٣]. ويبدو أن المستنصر كان يشعر عندما أخذ البيعة لابنه هشام بدنوّ أجله، فقد توفي في الثالث من رمضان سنة ٣٦٦هـ/٩٧٦م[٤]، عن عمر يناهز ثلاثاً وستين سنة، وحكم دام خمس عشرة سنة وسبعة أشهر وثلاثة أيام[٥].

ومن أبرز ما يذكر عن الحكم، ويقال في حقه أنه كان محباً للعلم والعلماء. ويقال أن مكتبته كانت تضم أربعمائة ألف مجلد، حيث كان "يستجلب المصنفات من الأقاليم والنواحي باذلاً فيها ما أمكن من الأموال حتى ضاقت عنها خزائنه"[٦]. ويشار هنا إلى أن الحكم أكرم مثوى أبي علي القالي الذي وفد على أبيه الناصر، واستفاد من علمه. كما أنه "بعث في كتاب (الأغاني) إلى مصنفه أبي الفرج الأصفهاني...وأرسل إليه فيه بألف دينار من الذهب العين، فبعث إليه بنسخة منه قبل أن يخرجه إلى العراق"[٧].

---

(١) ابن حيان، المقتبس، تحقيق الحجي: ٢٠٣-٢٠٤؛ ابن عذاري، البيان المغرب: ٢٤٨/٢.

(٢) ابن حيان، المقتبس، تحقيق الحجي: ٢١١.

(٣) ابن عذاري، البيان المغرب: ٢٤٩/٢.

(٤) المصدر نفسه: ٢٥٣/٢؛ وانظر: ابن خلدون، تاريخ: ١٨٨/٤؛ المقري، نفح الطيب: ٣٩٦/١؛ ابن الأثير، الكامل في التاريخ: ٨٣/٧.

(٥) ابن عذاري، البيان المغرب: ٢٣٣/٢؛ ويذكر ابن الأثير أن مدة حكمه خمسة عشرة سنة وخمسة أشهر. انظر: تاريخ: ١٨٨/٤؛ المقري، نفح الطيب: ٣٩٦/١.

(٦) المقري، نفح الطيب: ٣٥٩/١.

(٧) المصدر نفسه: ٣٨٦/١.

هشام بن الحكم (المؤيد بالله) (٣٦٦-٤٠٣هـ/٩٧٦-١٠٢١م):

بدأت في عهده نهاية الدولة الأموية في الأندلس، وهو هشام بن الحكم بن عبد الرحمن الناصر لدين الله[١]، كنيته: أبو الوليد، المؤيد بالله[٢]، ويلقب أيضاً: هشام الثاني. والأول من حكام الأندلس الأمويين هو هشام (المرتضى) بن عبد الرحمن الداخل. وأم هشام المؤيد اسمها: صُبح[٣]، وهي أم ولد، أصلها من البشكنس، وكان سيدها الحكم يسميها: جعفر، "وكانت مغنية حظية عنه"[٤].

ولي هشام المؤيد صغيراً قد ناهز الحلم[٥]، فعمره حينئذ أقل من اثنتي عشرة سنة، إذ كان حسب رواية ابن عذاري: إحدى عشرة سنة وثمانية أشهر[٦]، وحسب رواية المراكشي "عشرة أعوام وأشهر"[٧]، وحسب رواية ابن الأثير: عشر سنوات[٨]، وروى المقري أن عمره لم يتجاوز التسع سنوات فقط[٩]. ونرجح أن عمره عندما تولى الخلافة كان إحدى عشرة سنة وبضعة أشهر، وهو ما يقوله ابن عذاري. ونظراً لصغر هشام لم يظهر للناس، ولم ينفذ له أمر[١٠].

كان الحكم والد هشام قد نقل محمد بن أبي عامر من خطة القضاء، وفوض إليه أموره[١١]، "فلما كان يوم السبت السادس من جلوس هشام، وهو العاشر لصفر سنة

---

(١) ابن عذاري، البيان المغرب: ٢/٢٥٣.

(٢) المصدر نفسه: ٢/٢٥٣؛ وانظر: ابن الأثير، الكامل في التاريخ: ٧/٨٣؛ المراكشي، المعجب: ١٤؛ ابن خلدون، تاريخ: ٤/١٨٨.

(٣) ابن عذاري، البيان المغرب: ٢/٢٥٣؛ المراكشي، المعجب: ١٤.

(٤) ابن عذاري، البيان المغرب: ٢/٢٥٣.

(٥) ابن خلدون، تاريخ: ٤/١٨٨؛ المقري، نفح الطيب: ١/٣٩٦.

(٦) ابن عذاري، البيان المغرب: ٢/٢٥٣.

(٧) المراكشي، المعجب: ١٤.

(٨) ابن الأثير، الكامل في التاريخ: ٧/٨٣.

(٩) المقري، نفح الطيب: ١/٣٩٦.

(١٠) المراكشي، المعجب: ١٤.

(١١) المقري، نفح الطيب: ١/٣٩٦.

٣٦٦هـ (٩٧٦م) قلّد الخليفة هشام حجابته وزير أبيه الأخص أبا الحسن جعفر بن عثمان المصحفي. وفي هذا اليوم، أنهض الخليفة هشام محمد بن أبي عامر إلى خطة الوزارة، نقله إليها عن شرطته الوسطى، وأجراه رسيلاً لحاجبه جعفر في تدبير دولته، فمادّه محمد شأواً، وجرى إلى غاية برّز فيها دونه، سابقاً في الحلبة، وتخلّف جعفر عن مداه"[١].
فمن هو جعفر هذا؟ ومن هو محمد بن أبي عامر؟ وما هو دور كل واحد منهما في الأحداث التي أدت إلى زوال الدولة الأموية؟.

- جعفر بن عثمان المصحفي:

هو أبو الحسن جعفر بن عثمان بن نصر بن فوز بن عبد الله بن كسيلة القيسي[٢]، "تجرّد للعليا، وتمرد في طلب الدنيا، حتى بلغ المنى"[٣]، كان أبوه عثمان مؤدباً للحكم في صباه، ولما أفضت الخلافة إليه قلده خطة الوزارة، ولما تولى هشام قلده الحجابة[٤]. "واستمر في حجابته، ومر بين سمع الدهر وإجابته، والنفوس العلية من تناهي حالة متغيرة، وفي تكييف سعده متحيرة"[٥]، إلى أن تغلّب محمد بن أبي عامر على أمره، مثلما تغلب على أمر الخليفة هشام نفسه[٦]. فقد سلبه ابن أبي عامر جاهه "ودمر عليه ما كان حاط، وأحاط به من مكروهه ما أحاط"[٧]. وسيأتي تفصيل ذلك في أثناء الحديث عن محمد بن أبي عامر، الذي كانت له السلطة الفعلية في الأندلس في عهد الخليفة هشام المؤيد وبعده.

---

(١) ابن عذاري، البيان المغرب: ٢٥٤/٢.
(٢) المصدر نفسه: ٢٥٤/٢.
(٣) المقري، نفح الطيب: ٤٠٢/١.
(٤) ابن عذاري، البيان المغرب: ٢٥٤/٢.
(٥) المصدر نفسه: ٢٥٥/٢.
(٦) المقري، نفح الطيب: ٣٩٦/١ وما بعدها؛ ابن عذاري، البيان المغرب: ٢٥٦/٢.
(٧) ابن عذاري، البيان المغرب: ٢٥٦/٢.

- **محمد بن أبي عامر (المنصور):**

هو أبو عامر محمد بن أبي حفص عبد الله بن محمد بن عبد الله بن عامر بن أبي عامر محمد بن الوليد بن يزيد بن عبد الملك، الداخل إلى الأندلس مع طارق (بن زياد)"[1]. وعبد الملك هذا هو ابن عامر المعافري القحطاني[2]. وينتمي محمد بن أبي عامر إلى قرية طرّش من أعمال الجزيرة الخضراء. وقد ورد إلى قرطبة شاباً "فطلب العلم والأدب، وسمع الحديث، وتميز في ذلك. وكانت له همة يحدث بها نفسه بإدراك معالي الأمور"[3]. يؤيد ذلك ما ذكره ابن عذاري، وهو أنه كان "حسن النشأة، ظاهر النجابة، تتفرّس فيه السيادة"[4].

كان اتصال ابن أبي عامر بالحكم عن طريق جعفر بن عثمان المصحفي، فالمصحفي هو الذي رشّحه لخدمة زوجه صبح وابنها عبد الرحمن الذي توفي صغيراً، "فلما مات عبد الرحمن، بقي في خدمة أمه السيدة، وكانت قد ولدت هشام بن الحكم، فصُرف ابن أبي عامر لوكالته"[5]. كما أنه تعلّق بوكالة السيدة صبح "والنظر في أموالها وضياعها"[6]. وظل يترقى من منزلة إلى منزلة، وأصبح قائد الشرطة الوسطى في سنة ٣٦١هـ/٩٧١م[7]، وأهاب به الحكم "إلى الأمانات بالعدوة، فاستصلحها واستمال أهلها، وجعله قاضي القضاة بالغرب من العدوة، وأمر عماله وقواده ألا ينفذوا شيئاً دونه"[8].

وكانت خدمة ابن أبي عامر للسيدة صبح "أقوى أسبابه في تنقيل الملك عما قليل إليه، فإنه استمال هذه المرأة بحسن الخدمة، وموافقة المسرّة، وسعة البذل في باب

---

(1) ابن عذاري، البيان المغرب: ٢/٢٥٦.

(2) المراكشي، المعجب: ١٤.

(3) المصدر نفسه: ١٤.

(4) ابن عذاري، البيان المغرب: ٢/٢٥٧.

(5) المصدر نفسه: ٢/٢٥١.

(6) المراكشي، المعجب: ١٥.

(7) ابن عذاري، البيان المغرب: ٢/٢٥١.

(8) المصدر نفسه: ٢/٢٥١.



Córdoba. Mezquita. Ampliación de Almanzor. —

الإتحاف والمهاداة، حتى استهواها، وغلب على قلبها. وكانت الغالبة على مولاها"[1].
وعندما توفي مولاها الحكم ضمن محمد بن أبي عامر لصبح "سكون الحال، وزوال الخوف، واستقرار الملك لابنها. وكان قوي النفس، وساعدته المقادير، وأمدته المرأة بالأموال، فاستمال العساكر إليه، وجرت أحوال علت قدمه فيها حتى صار صاحب التدبير، والمتغلب على الأمور"[2].

لقد بدأ ابن أبي عامر تخطيطه للاستيلاء على السلطة منذ بواكير عهده في البلاط الأموي، وقد أظهر النصح لحاجب الدولة المصحفي، ومالأه، ولكنه كان يبطن غير ذلك[3]. فبعد وفاة الحكم أشار على المصحفي "باستركاب ولي العهد هشام في ذلك اليوم في الجيش، إرهاباً لأهل الخلاف...ولم تزل الهمة تحذوه، والجدّ يحظيه، والقضاء يساعده، والسياسة الحسنة لا تفارقه، حتى قام بتدبير الخلافة"[4].

كان ابن أبي عامر "ذا عقل ورأي وشجاعة وبصر بالحروب ودين متين"[5]، بدأ تغلّبه على الأندلس بحجب الخليفة هشام المؤيد عن الناس "فلم يكن أحد يراه ولا يصل إليه"[6]. ثم تجرد للمتنفذين في الدولة ممن عانده وزاحمه "فمال عليهم، وحطّهم عن مراتبهم، وقتل بعضاً ببعض"[7]. وأول ما بدأ بالصقالبة الذين كانوا "أكثر جمعاً، وأحدّ شوكة، يظنون أن لا غالب لهم، وأن الملك بأيديهم"[8]. فقد حمل الحاجب المصحفي على نكبتهم، وكانوا أكثر من ألف، فنكبهم، وأخرجهم من القصر[9]. ثم

---

(1) ابن عذاري، البيان المغرب: ٢/٢٥١-٢٥٢.

(2) المراكشي، المعجب: ١٥؛ وانظر: ابن خلدون، تاريخ: ٤/١٨٩؛ المقري، نفح الطيب: ١/٤٠٣ وما بعدها.

(3) ابن عذاري، البيان المغرب: ٢/٢٥٨.

(4) المصدر نفسه: ٢/٢٥٩.

(5) المقري، نفح الطيب: ١/٣٩٦؛ ابن خلدون، تاريخ: ٤/١٨٩.

(6) ابن الأثير، الكامل في التاريخ: ٧/٨٣؛ المراكشي، المعجب: ١٥.

(7) المقري، نفح الطيب: ١/٣٩٦-٣٩٧؛ ابن خلدون، تاريخ: ٤/١٨٩.

(8) ابن عذاري، البيان المغرب: ٢/٢٥٩.

(9) ابن خلدون، تاريخ: ٤/١٨٩؛ المقري، نفح الطيب: ١/٣٩٧؛ ولمزيد من التفاصيل انظر: ابن عذاري، البيان المغرب: ٢/٢٦٠-٢٦١.

تآمر ابن أبي عامر الذي تلقب بالمنصور مع عدد من كبار مؤيديه ضد عمّ هشام المؤيد: المغيرة بن عبد الرحمن الناصر، إذ اقتحموا عليه باب داره، وخنقوه، "ثم أشاعوا أنه خنق نفسه، لما أكرهوه على الركوب لابن أخيه، فطاح دمه على هذه الصورة"[1].

ثم أصهر المنصور إلى غالب بن عبد الرحمن، مولى الحكم، وأحد قادته المشهورين "وبالغ في خدمته والتنصح له"[2]، وبه اشتد أزره.

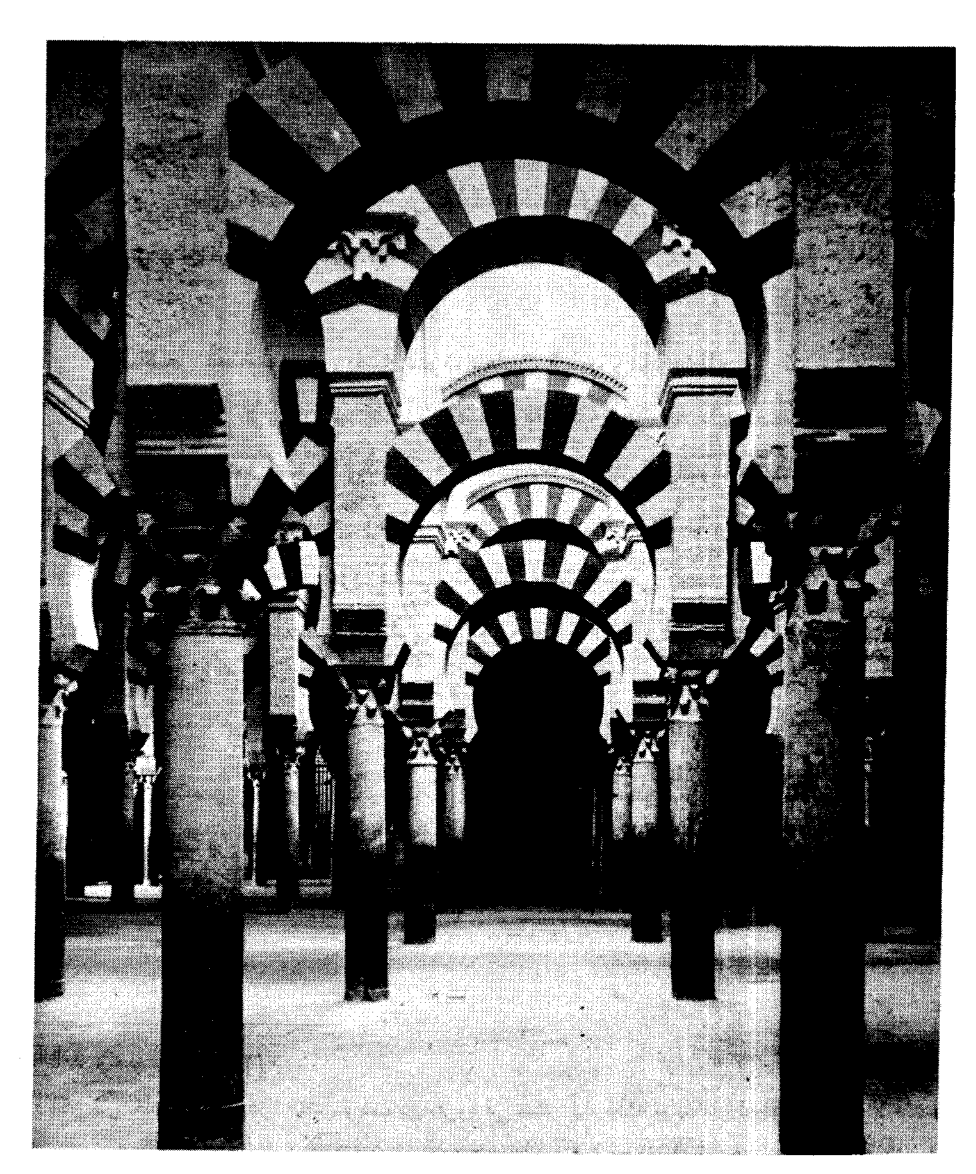
وبعد أن دبّر المنصور القضاء على الصقالبة سعى إلى تقلّد قيادة الجيش الأندلسي، فأشار على الحاجب المصحفي "بتجهيز الجيش، والاعتداد للجهاد"، فوافقه المصحفي، إذ جهز الجيش، وعرض قيادته والخروج به للجهاد على كبار القادة، فلم يتقدم أحد منهم لهذه المهمة، وعندئذ استغل المنصور الفرصة، وعرض نفسه مشترطاً أن يختار من يخرج معه من الرجال، وأن يأخذ مائة ألف دينار ليتجهز للجهاد، فاستجاب المصحفي لشروطه، وبذلك تسلم المنصور قيادة الجيش، وأصبح الآمر الناهي فيه[3].

---

(1) ابن عذاري، البيان المغرب: ٢٦١/٢.

(2) ابن خلدون، تاريخ: ١٨٩/٤؛ المقري، نفح الطيب: ٣٩٧/١؛ ويذكره ابن عذاري فيقول: إن الوزير أبو تمام غالب الناصري، صاحب مدينة سالم والثغر الأدنى، شيخ الموالي قاطبة، وفارس الأندلس يومئذ غير مدافع له. انظر: البيان المغرب: ٢٦٥/٢.

(3) ابن عذاري، البيان المغرب: ٢٦٤/٢؛ وانظر إشارة المقري إلى ذلك في نفح الطيب: ٣٩٩/١، حيث يذكر أن المصحفي جهز ابن أبي عامر لدفاع النصارى.



Córdoba. Mezquita. Ampliación de Almanzor

جهاد المنصور:

تشير المصادر إلى أن محمد بن أبي عامر المنصور "تمرّس ببلاد الشرك أعظم تمرّس،...وغادرهم صرعى البقاع، وتركهم أذلّ من وتد بقاع، ووالى على بلادهم الوقائع"[1]، فقد قاد ضدهم عدداً كبيراً من الغزوات[2]، وحقق ضدهم انتصارات باهرة. وكانت غزوته الأولى في الثالث من رجب سنة ٣٦٦هـ/٩٧٦م حيث قاد الجيش إلى الثغر الأعلى "فنازل حصن الحامّة من جليقية، فحاصره، وأخذ بربضه، وغنم وسبى، وقفل بالسبي والغنائم إلى قرطبة"[3].

واستشعر المنصور في نفسه القوة، وطول الباع، وأخذ يتطلع إلى تبوء أعلى مكانة في الدولة، وهو أمر لا يمكن تحقيقه إلا بتصفية منافسيه وفي مقدمتهم جعفر بن عثمان المصحفي، ولذلك أعمل الحيلة والتدبير في إسقاطه، والانفراد بالدولة، ولذلك صاهر غالب بن عبد الرحمن الناصري وظاهره. وقد اختاره لما كان بينه وبين المصحفي من عداوة ومنافسة[4]. وأخذ المنصور يخطط للإطاحة بالمصحفي بمساعدة غالب، وقد عمل في هذا الاتجاه، وكانت الخطوة الأولى هي تولّيه قيادة الجيش في قرطبة، وإسناد قيادة جيش الثغر لغالب[5].

وقاد المنصور غزوته الثانية لبلاد النصارى يوم الفطر من سنة ٣٦٦هـ/٩٧٦م، واجتمع مع غالب بن عبد الرحمن بمدينة مجريط (مدريد)، وهناك رسما خطة الإطاحة

---

[1] المقري، نفح الطيب: ٤٠٣/١.

[2] ذكر ابن خلدون أنه "غزا اثنتين وخمسين غزوة في سائر أيام ملكه لم ينكسر له فيها راية، ولا فلّ له جيش" انظر: تاريخ: ١٩٠/٤. وذكر هذا العدد ابن الأثير. انظر: الكامل في التاريخ: ٨٣/٧. وأشار المقري إلى أن عدد غزواته ست وخمسون. انظر: نفح الطيب: ٣٩٨/١.

[3] ابن عذاري، البيان المغرب: ٢٦٤/٢.

[4] المصدر نفسه: ٢٦٥/٢.

[5] المصدر نفسه: ٢٦٥/٢.

بجعفر المصحفي[1]. وقد افتتحا في هذه الغزوة حصن موله "وظهر فيه على سبي كثير، وغنم المسلمون أوسع غنيمة"[2].

وقد استغل المنصور اجتماعه مع الغالب، وخدمه خدمة ملك بها نفسه "فمال إليه غالب بكليته"[3]. وقد أدى ذلك إلى قيام غالب بإرسال كتاب إلى الخليفة هشام المؤيد يزكي فيه المنصور، وينسب السعي والاجتهاد إليه، ويشد عضده عند الخليفة[4]. فما كان من الخليفة إلا أن رفع منزلة المنصور، حيث قلّده أزمة قرطبة كلها، وولاية الشرطة، إضافة إلى قيادة الجيش "فملك على جعفر بذلك وجوه الحيلة، وخلاّه وليس في يده من الأمر إلا أقلّه"[5].

وقام المنصور في صفر من سنة ٣٦٧هـ/٩٧٧م بغزوته الثالثة ضد النصارى، حيث اجتمع مع صهره[6] غالب، ونهضا معاً فافتتحا بعض الحصون، وهاجما أراضي شلمنقة. "وقفل ابن أبي عامر إلى قرطبة بالسبي والغنائم، وبعدد عظيم من رؤوس المشركين...فزاد له السلطان في التنويه، وأنهضه إلى خطة الوزارتين، سوّى فيها بينه وبين غالب،ورفع راتبه إلى ثمانين ديناراً في الشهر، وهو راتب الحجابة"[7]، وكان ذلك إيذاناً بالخطوة التالية إذ لم يلبث الخليفة هشام أن قلّد المنصور خطة الحجابة مع جعفر بن عثمان المصحفي "ثم سخط الخليفة على جعفر بن عثمان المصحفي، وصرفه عن الحجابة يوم الاثنين لثلاث عشرة ليلة خلت من شعبان سنة ٣٦٧هـ/وأمر بالقبض عليه وعلى ولده وأسبابه، وعلى ابن أخيه هشام، وصُرفوا عما كان بأيديهم من الأعمال"[8].

---

[1] ابن عذاري، البيان المغرب: ٢٦٥/٢.

[2] المصدر نفسه: ٢٦٥/٢.

[3] المصدر نفسه: ٢٦٥/٢.

[4] المصدر نفسه: ٢٦٦/٢.

[5] المصدر نفسه:٢٦٦/٢.

[6] تزوج المنصور محمد بن أبي عامر ابنة غالب: أسماء. وكانت مخطوبة لابن جعفر المصحفي، غير أن المنصور تمكن بحيله وحسن تدبيره من العمل على فسخ خطبتها، ومن ثم خطبها لنفسه وتزوجها "فكانت أحظى نسائه". انظر: ابن عذاري، البيان المغرب: ٢٦٧/٢.

[7] ابن عذاري، البيان المغرب: ٢٦٧/٢.

[8] المصدر نفسه: ٢٦٧/٢-٢٦٨.

وجد المنصور في صرف المصحفي عن الحجابة فرصته الذهبية، فقد احتل مكانه، وأخذ يحاسبه ويحاسب أولاده، ويستصفي أموالهم، وينتهك حرمهم، ويردد النكبات عليهم حتى مزقهم كل ممزق. ثم لم يلبث المنصور أن زج المصحفي في السجن، ثم قتله فيه، حيث مات خنقاً، "وقيل: دست إليه شربة مسمومة"[١].

وهكذا تخلص محمد بن أبي عامر (المنصور) من أقوى منافسيه جعفر بن عثمان المصحفي مستعيناً على ذلك بصهره غالب بن عبد الرحمن الناصري[٢]. وبذلك انفرد المنصور بشؤون الحكم "ورمى الغرض الأبعد من ضبط السلطان والحجر عليه، والاستبداد بالمملكة وأمور الدولة"[٣].

وعندما استفحل أمر ابن أبي عامر أمر ببناء مدينة الزاهرة بطرف قرطبة على نهر الوادي الكبير، وقد شرع في بنائها سنة ٣٦٨هـ/٩٧٨م "وحشد إليها الصنّاع والفَعَلَة، وجلب إليها الآلات الجليلة...وبالغ في رفع أسوارها، وثابر على تسوية أنجادها وأغوارها، فاتسعت هذه المدينة في المدة القريبة...وبني معظمها في عامين"[٤].

انتقل ابن أبي عامر إلى مدينة الزاهرة سنة ٣٧٠هـ/٩٨٠م "وشحنها بجميع أسلحته وأمواله وأمتعته، واتخذ فيها الدواوين والأعمال، وعمل داخلها الأهراء، وأطلق بساحتها الأرحاء، ثم أقطع ما حولها لوزرائه وكتابه، وقوّاده وحجابه"[٥]. ولما تم ذلك لابن أبي عامر فرض على الخليفة هشام المؤيد ضرباً من الإقامة الجبرية، فقد "عطل قصر الخليفة من جميعه، وصيّره بمعزل عن سامعه ومطيعه، وسدّ باب قصره عليه...وجعل فيه ثقة من صنائعه بضبط القصر، ويبسط فيه النهي والأمر...ورتب عليه

---

[١] ابن عذاري، البيان المغرب: ٢/٢٦٧-٢٧٣.

[٢] ابن خلدون: تاريخ: ٤/١٨٩؛ المقري، نفح الطيب: ١/٣٩٧.

[٣] ابن عذاري، البيان المغرب: ٢/٢٧٢؛ وانظر: المراكشي، المعجب: ١٥؛ ابن الأثير، الكامل في التاريخ: ٧/٨٣؛ المقري، نفح الطيب: ١/٤٠٧؛ وانظر: ابن الكردبوس، تاريخ الأندلس: ٦٢.

[٤] ابن عذاري، البيان المغرب: ٢/٢٧٥؛ وانظر: ابن خلدون، تاريخ: ٤/١٨٩؛ ابن الكردبوس، تاريخ الأندلس: ٦٢.

[٥] ابن عذاري، البيان المغرب: ٢/٢٧٥-٢٧٦؛ وانظر: ابن الكردبوس، تاريخ الأندلس: ٦٢.

الحراس والبوابين..يلازمون حراسة من فيه ليلاً ونهاراً"[1]. ولم يترك ابن أبي عـــامر للخليفة سوى الخطبة، "والضرب باسمه للدينار والدرهم"[2].

ولما ترقي ابن أبي عامر إلى هذا القدر أخذ يخطط للإطاحة بصهره غالب بن عبد الرحمن، "لأن غالباً كان يستطيل على ابن أبي عامر بأسباب الفروسية، ويباينه بمعـــاني الشجاعة"[3]. ومثلما استعان بغالب للقضاء على المصحفي استعان ابن أبي عامر بجعفـو بن علي بن حمدون المعروف بابن الأندلسي للقضاء على غالب[4]، وكان ابـــن حمـــدون شديد البأس، رابط الجأش، نابه الذكر، جليل القدر. وكان مقيماً فـــي عـــدوة المغـــرب، فأحضره، واستوزره "وأحلّه محلّ الأخ في الثقة، وقدمه على الكُفاة، فوجد عنده ما أحبه، وفوق ما قدّره"[5].

"ولما علم غالب بإدناء جعفر، علم الغرض فيه، ففسد ما بينهما"[6]. ثم دبر ابـــن أبي عامر وجعفر قتل غالب في أثناء معركة مع النصارى[7]. واستمرت بعد ذلـــك هـــذه السلسلة من التصفيات الجسدية التي قام بها ابن أبي عامر ضد منافسيه، فبعد مقتل غـــالب "دبر الحيلة في حتف جعفر بن علي، فواطأ على قتله أبا الأحوص معن بن عبد العزيـــز التجيبي فارس العرب، في طائفة من أصحابه الأندلسيين، فقتلوه غيلة. ثم قتل ابـــن أبـــي عامر بعد ذلك أبا الأحوص، وانفرد وحده"[8].

تلقب محمد بن أبي عامر بالمنصور سنة ٣٧١هـــ/٩٨١م، ودعي له على المنـــابر بهذا اللقب، كما أخذت الكتب تنفذ عنه "من الحاجب منصور أبي عامر محمد بـــن أبـــي

---

[1] ابن عذاري، البيان المغرب: ٢/٢٧٦.

[2] ابن الكردبوس، تاريخ الأندلس: ٦٢.

[3] ابن عذاري، البيان المغرب: ٢/٢٧٨.

[4] المصدر نفسه: ٢/٢٧٨؛ وانظر: ابن خلدون، تاريخ: ٤/١٨٩؛ المقري، نفح الطيب: ١/٣٩٧.

[5] ابن عذاري، البيان المغرب: ٢/٢٧٨.

[6] المصدر نفسه: ٢/٢٧٩.

[7] المصدر نفسه: ٢/٢٧٩؛ وانظر: ابن خلدون، تاريخ: ٤/١٨٩؛ المقري، نفح الطيب: ١/٣٧٩.

[8] ابن عذاري، البيان المغرب: ٢/٢٧٩؛ ابن خلدون: تاريخ: ٤/١٨٩؛ المقري، نفح الطيب: ١/٣٩٧.

عامر إلى فلان. وأخذ الوزراء بتقبيل يده، ثم تابعهم على ذلك وجوه بني أمية، فكان من يدخل عليه من الوزراء وغيرهم يقبلون يده...فانقاد لذلك كبيرهم وصغيرهم"[1]. وبذلك وضع المنصور نفسه في مرتبة توازي مرتبة الخليفة من حيث المراسم، وتفوقها فيما عدا ذلك[2].

وإضافة إلى غزوه النصارى جهز المنصور الجيوش لمحاربة المناهضين لدولة الإسلام الأندلسية في إفريقية، ففي سنة ٣٧٥هـ/٩٨٥م جهز جيشاً كثيفاً "وبعثه إلى العدوة، فحاصر حسن بن قنون، الشريف الحسني. وكان حاول الخروج من الدعوة المروانية، واجتمع إليه خلق من أهل المغرب، وظهر أمره"[3]. وعندما وصل الجيش إلى المغرب لم يجد ابن قنون ملجأً سوى الاستسلام للأمان، "فأمنه قائد الجيش، وحمله إلى قرطبة مرقباً، فلم يمض ابن أبي عامر أمانه، وأمر بقتله ليلاً في الطريق بغياً وتعدياً"[4].

لقد كان المنصور دموياً في تعامله مع منافسيه، ومع أعداء الدولة من الثوار، فإضافة إلى قتل من استطاع الوصول إليه "ضرب بين ملوك البرابرة وضرب بعضهم ببعض، فاستوثق له ملك المغرب، وأخبتت له ملوك زناتة، وانقادوا لحكمه، وأطاعوا سلطانه"[5]. فعندما نكث زيري بن عطية المغراوي طاعته "وطعن على ابن أبي عامر تغلّبه على هشام، وسلبه ملكه"[6] وجه المنصور لحربه جيشاً بقيادة واضح، الفتى العامري، ثم ألحق به جيشاً آخر بقيادة ابنه عبد الملك، ونزل المنصور في الجزيرة الخضراء، وظل يمدّ القائدين في المغرب بمزيد من القادة والجنود. وقد دارت بين

---

[1] ابن عذاري، البيان المغرب: ٢٧٩/٢؛ وانظر: ابن خلدون، تاريخ: ١٨٩/٤-١٩٠؛ المقري، نفح الطيب: ٣٩٧/١.

[2] ابن عذاري، البيان المغرب: ٢٧٩/٢-٢٨٠.

[3] المصدر نفسه: ٢٨١/٢؛ وانظر: المقري، نفح الطيب: ٣٩٨/١.

[4] ابن عذاري، البيان المغرب: ٢٨١/٢.

[5] المقري، نفح الطيب: ٣٩٨/١؛ وانظر: ابن خلدون، تاريخ: ١٩٠/٤؛ ابن عذاري، البيان المغرب: ٢٨١/٢-٢٨٢.

[6] ابن عذاري، البيان المغرب: ٢٨١/٢-٢٨٢.

جيوش المنصور وجيوش زيري بن عطية حروب طاحنة أسفرت عن هزيمة زيري ومن معه، ونجا مثخناً بالجراح، بينما ملك المنصور بلاد المغرب[1].

والجدير بالذكر هنا أن عبد الملك بن المنصور عاد إلى الأندلس "بعدما استقامت له الطاعة بالمغرب، فوجد أباه في غزاته بلاد البشاكسة منصرفاً عنها. والتقى به بسرقسطة وهي التي تسمى بغزاة البياض، سنة ٣٧٩هـ (٩٨٩م)"[2].

وكان المنصور بعد سيطرته على المغرب، وتحقيقه الانتصارات المتلاحقة على النصارى قد جنّد كثيرين من البربر والمماليك[3]، وأكثر من الاعتماد على هؤلاء وخاصة البربر، حيث قدمهم "وأخّر رجال العرب وأسقطهم عن مراتبهم"[4]. وقد كان لهذه السياسة أثرها البالغ السوء على الأندلس، حيث قامت ثورات البربر في كل مكان، وكذلك ثورات العرب، وعصفت بالأندلس كما سنرى في الفصل التالي[5].

وقد رشح المنصور ابنه عبد الملك للولاية في سنة ٣٨١هـ/٩٩١م، وقدم أخاه عبد الرحمن للوزارة. وبعد ذلك استبدل البربر بجند الأندلس، فأقام لنفسه جنداً من البربر "اختصّهم باستصناعه، واسترقهم بإحسانه، نسخ بهم في المدة القريبة جند الخليفة الحكم...كما فعله في سائر أموره"[6]. وقد تدفق على الأندلس في السنة المذكورة عدد كبير من البربر، وخاصة بربر زناتة، وسبب ذلك أن بلّقين بن زيري الصنهاجي أوقع بقبائل زناتة طالباً ثأر أبيه، فهربوا أمامه إلى سبتة. وعند ذلك أشار على المنصور بعض أصحابه باستدعائهم إلى الأندلس، ففعل، حيث "أنفذ كتبه إلى قبائل العدوة

---

[1] ابن عذاري، البيان المغرب: ٢٨٢/٢؛ وانظر: ابن خلدون، تاريخ: ١٩٠/٤؛ المقري، نفح الطيب: ٣٩٨/١.

[2] ابن عذاري، البيان المغرب: ٢٨٢/٢.

[3] المقري، نفح الطيب: ٣٩٧/١.

[4] المصدر نفسه: ٣٩٧/١؛ وانظر: ابن خلدون، تاريخ: ١٨٩/٤.

[5] ابن الكردبوس: تاريخ الأندلس: ٦٧.

[6] ابن عذاري، البيان المغرب: ٢٩٣/٢.

يستدعيهم، ويتضمن الإحسان إليهم، والتوسعة عليهم، حتى كثروا بالأندلس، فحسنت أحوالهم، وكثرت اموالهم، وما زالوا خاصته وبطانته إلى أن هلك"[١].

ومن جهة أخرى استمر المنصور في قيادة الصوائف والشواتي إلى بلاد النصارى، فسبى كثيرين من أهلها "وغنم منها غنائم كثيرة من عبيد ومال وسلاح وثياب وبهائم"[٢]، فقد "ظل مواصلاً لغزو الروم مفرطاً في ذلك لا يشغله عنه شيء"[٣] حتى دانت له أقاصي بلادهم، وأخذ ملوكهم يتوددون إليه بإرسال الوفود والهدايا، "وكلهم يخطب أمانه"[٤]. ومن هؤلاء الملوك إمبراطور الدولة البيزنطية: بازيل الثاني Bazile II، وملك ألمانيا وإيطاليا والإمبراطورية الرومانية المقدسة أوتو (هوتو) الثالث Othon III، وأصحاب قشتالة: غرسية فرناندو وابنه سانشو اللذين تلقيا هزائم ماحقة على يد المنصور[٥].

وتعد غزوة شنت ياقوب Santiago de Compostelaمن أشد غزوات المنصور وأخطرها ضد النصارى، وخاصة أنها تضم مقدساتهم كما ذكرنا[٦]. فقد "كانت كنيستها عندهم بمنزلة الكعبة عندنا؛ فيها يحلفون وإليها يحجون من أقصى بلاد رومة وما وراءها"[٧].

خرج المنصور إلى شنت ياقوب غازياً بالصائفة يوم السبت ٢٤ جمادى الآخرة سنة ٣٨٧هـ/٩٩٧م، "وهي غزوته الثامنة والأربعون، ودخل على مدينة قورية، فلما

---

[١] ابن عذاري، البيان المغرب: ٢/٢٩٣-٢٩٤.

[٢] ابن الكردبوس، تاريخ الأندلس: ٦٣.

[٣] المراكشي، المعجب: ٢٠.

[٤] ابن الكردبوس، تاريخ الأندلس: ٦٣-٦٤.

[٥] المصدر نفسه: ٦٣-٦٤.

[٦] المقري، نفح الطيب: ١/٤١٣-٤١٤؛ ابن عذاري، البيان المغرب: ٢/٢٩٤ وما بعدها.

[٧] ابن عذاري، البيان المغرب: ٢/٢٩٤؛ وانظر: المقري، نفح الطيب: ١/٤١٣-٤١٤.

وصل إلى مدينة غليسية وفاه عدد عظيم من القوامس المتمسكين بالطاعة في رجالهم، وعلى أتم احتفالهم، فصاروا في عسكر المسلمين، وركبوا في المغادرة سبيلهم"[1].

وكان المنصور قد أعد في ميناء قصر أبي دانس Alcacerdo Sal الواقع على ساحل البرتغال إلى الجنوب من لشبونة أسطولاً ضخماً "وجهزه برجاله البحريين وصنوف المترجلين، وحمل الأقوات والأطعمة والعدد والأسلحة استظهاراً على نفوذ العزيمة"[2]. وقد وصل هذا الأسطول إلى نهر دويرة (Duero) الذي يصب عند بورتو في المحيط الأطلسي، وهناك عقد من الأسطول جسراً عبر عليه الجند إلى حصن كان المنصور قد شحنه بالمؤن والمعدات، فتزودوا بحاجتهم، ثم استأنفوا السير إلى شنت ياقوب[3]. وقد اعترضهم في الطريق "جبل شامخ شديد الوعر، لا مسلك فيه، ولا طريق، لم تهتد الأدلاء إلى سواه، فقدم المنصور الفعَلة بالحديد لتوسعة شعابه وتسهيل مسالكه، فقطعه العسكر"[4]. ثم عبروا نهر منهو (Rio Mino) فوجدوا أمامهم سهولاً فسيحة انبسطوا فيها، وفتحوا حصناً هناك يدعى حصن شنت بلاية (San Pelayo)[5]. ثم عبروا سباحة إلى جزيرة في المحيط الأطلسي "فسبوا من فيها ممن لجأ إليها"[6] من النصارى.

انتهى المسلمون بقيادة المنصور إلى شنت ياقوب في الثاني من شعبان سنة ٣٨٧هـ/٩٩٧م فوجدوها خالية قد هرب منها أهلها. "فحاز المسلمون غنائمها، وهدموا مصانعها وأسوارها وكنيستها، وعفّوا آثارها"[7]، ولم يتركوا من كل ذلك إلا القبر المزعوم للحواري يعقوب الذي سميت المدينة باسمه، فقد وكل المنصور به من يحفظه، ويدفع الأذى عنه[8]. ثم قفل عائداً إلى قرطبة.

---

(١) ابن عذاري، البيان المغرب: ٢٩٥/٢؛ المقري، نفح الطيب: ٤١٤/١.

(٢) المقري، نفح الطيب: ٤١٤/١.

(٣) ابن عذاري، البيان المغرب: ٢٩٥/٢؛ المقري، نفح الطيب: ٤١٤/١.

(٤) ابن عذاري، البيان المغرب: ٢٩٥/٢؛ المقري، نفح الطيب: ٤١٥/١.

(٥) المقري، نفح الطيب: ٤١٥/١.

(٦) المقري، نفح الطيب: ٤١٥/١؛ ابن عذاري، البيان المغرب: ٢٩٥/٢-٢٩٦.

(٧) المقري، نفح الطيب: ٤١٥/١.

(٨) المقري، نفح الطيب: ٤١٥/١؛ ابن عذاري، البيان المغرب: ٢٩٦/٢.

وواصل المنصور بعد ذلك غزواته ضد النصارى "وكان في أكثر زمانه لا يخلّ بأن يغزو غزوتين في السنة"[1]. وقد توفي في إحدى هذه الغزوات ليلة الاثنين لثلاث بقين من رمضان سنة ٣٩٢هـ/١١ آب ١٠٠٢م، وذلك في مدينة سالم حيث دُفن[2]. وكانت دولته قد استمرت بين خمس وعشرين وسبع وعشرين سنة حسب روايات المؤرخين[3].

ولم يمض المنصور هذا الزمن الطويل ممتطياً صهوة جواده غازياً كما توحي بذلك سيرته الجهادية، فقد كان للإعمال العمرانية وغيرها من حياته نصيب، فإضافة إلى بنائه مدينة الزاهرة، قام ببنيان المسجد الجامع بقرطبة والزيادة فيه سنة ٣٧٧هـ/٩٨٧م[4]. وذلك لكي يتسع لعشرات الآلاف من المسلمين الذين غصّت بهم قرطبة بعد أن تدفق عليها البربر من شمالي إفريقية حتى "ضاقت الأرباض وغيرها، وضاق المسجد الجامع عن حمل الناس"[5].

كما بنى المنصور قنطرة على نهر الوادي الكبير (نهر قرطبة الأعظم)، وقد استغرق بناؤها نحو سنة ونصف، حيث ابتدأ المنصور بناءها سنة ٣٧٨هـ/٩٨٨م، وفرغ منها في منتصف سنة ٣٧٩هـ/٩٨٩م[6]. وقد أنفق على هذه القنطرة مائة وأربعين ألف دينار "فعظمت بها المنفعة، وصارت صدراً في مناقبه الجليلة"[7]. كما بنى قنطرة على نهر شنيل لدى مروره بمدينة إستجه "فتجشّم لها أعظم مؤونة، وسهل الطرق الوعرة، والشعاب الصعبة"[8].

---

(١) المراكشي، المعجب: ٢١.

(٢) ابن عذاري، البيان المغرب: ٣٠١/٢؛ المراكشي، المعجب: ٢١؛ المقري، نفح الطيب: ٤٠٢/١؛ ابن خلدون، تاريخ: ١٩٠/٤ حيث يذكر خطأً أنه توفي سنة ٣٧٤هـ.

(٣) المقري، نفح الطيب: ٤٠٢/١؛ ابن عذاري، البيان المغرب: ٣٠١/٢؛ ابن خلدون، تاريخ: ١٩٠/٤؛ المراكشي، المعجب: ٢١؛ وانظر: ابن الكردبوس، تاريخ الأندلس: ٦٥.

(٤) ابن عذاري، البيان المغرب: ٢٨٧/٢؛ المقري، نفح الطيب: ٤٠٨/١.

(٥) ابن عذاري، البيان المغرب: ٢٨٧/٢.

(٦) المقري، نفح الطيب: ٤٠٨/١؛ وانظر: ابن عذاري، البيان المغرب: ٢٨٨/٢ وفيه تواريخ مختلفة.

(٧) ابن عذاري، البيان المغرب: ٢٨٨/٢؛ المقري، نفح الطيب: ٤٠٨/١.

(٨) ابن عذاري، البيان المغرب: ٢٨٨/٢؛ المقري، نفح الطيب: ٤٠٩/١.

وكان المنصور محباً للعلم والعلماء، يدل على ذلك استيزاره أبا العلاء صاعد بن الحسن الربعي اللغوي البغدادي الذي ألّف له كتاباً سماه: الفصوص على كتاب النوادر لأبي علي القالي[1]. ومما يدل على حبه للعلم أيضاً أنه كان يعقد في كل أسبوع مجلساً "يجتمع فيه أهل العلم للمناظرة بحضرته ما كان مقيماً بقرطبة"[2]. ويذكر في هذا المجال أن المنصور كان "أشدّ الناس في التغيُّر على من علم عنده شيء من الفلسفة والجدل في الاعتقاد، والتكلم في شيء من قضايا النجوم وأدلتها، والاستخفاف بشيء من أمور الشريعة. وأحرق ما كان في خزائن الحكم من كتب الدهرية والفلاسفة بمحضر كبار العلماء"[3].

وكان المنصور صارماً في تربيته لجنده[4]، عادلاً بين الناس. كما كان داهية حذراً، بل شديد الحذر، وليس أدل على ذلك من حكايته مع الشيخ الذي هدته حاسته السادسة إلى أنه ينقل رسالة من النصارى الموالين له في قرطبة إلى أصحابهم النصارى الأعداء، يدعونهم إلى الهجوم على بعض النواحي، فقد أرسل من يحضره، وعندما اكتشف الرسالة "أمر بإخراج أولئك النصارى إلى باب الزاهرة، فضربت أعناقهم، وضربت رقبة الشيخ معهم"[5].

ويدل على نباهة المنصور وفطنته تنبؤه بما سيقع في الأندلس بعد وفاته، معترفاً بأنه هو الذي مهّد لذلك، ففي رواية بالغة الأهمية يذكر ابن الكردبوس أن المنصور عندما حضرته الوفاة "بكى، فقال: مما جنيت على المسلمين، فلو قتلوني وحرقوني ما انتصفوا مني. فقال له: وكيف ذلك؟ وأنت أعززت الإسلام، وفتحت البلاد، وأذللت الكفر، وجعلت النصارى ينقلون التراب من أقصى بلاد الروم إلى قرطبة حيث بنيت جامعها. فقال له: لما فتحتُ بلاد الروم ومعاقلهم عمرتها بالأقوات من كل مكان، وسجنتها بها حتى عادت في غاية الإمكان، ووصلتها ببلاد المسلمين، وحصنتها غاية التحصين، فاتصلت العمارة.

---

[1] المراكشي، المعجب: ١٦-١٧.

[2] المصدر نفسه: ٢٠.

[3] ابن عذاري، البيان المغرب: ٢/٢٩٢-٢٩٣.

[4] انظر التفاصيل: المقري، نفح الطيب: ١/٤١٩.

[5] المقري، نفح الطيب: ١/٤١١؛ وانظر التفاصيل: ابن عذاري، البيان المغرب: ٢/٢٩٠-٢٩١.

وها أنا هالك وليس في بني من يخلفني، وسيشتغلون باللهو والطرب والشرب، فيجيء العدو فيجد بلاداً عامرة، وأقواتاً حاضرة، فيتقوى بها على محاصرتها...فلا يزال يتغلبها شيئاً فشيئاً، ويطويها طياً فطياً حتى يملك أكثر هذه الجزيرة، ولا يترك فيها إلا معاقل يسيرة"[1].

وقد تمنى المنصور لو أن الله ألهمه بتدمير مساحة بعرض مسيرة عشرة أيام، وإخلائها من كل مظاهر الحياة، على أن تمتد بين الأراضي الإسلامية وأراضي النصارى لتكون حزاماً واقياً للأندلس "فلا يصلون إلى بلاد الإسلام إلا بمشقة، وكثرة الزاد، وصعوبة المرام"[2]. غير أن المنية عاجلته قبل تحقيق تلك الأمنية التي فطن إليها متأخراً.

وأياً كان الأمر فقد توفي المنصور تاركاً وراءه دولة قوية، مرهوبة الجانب، مزدهرة الحضارة. غير أن ذلك كله كان بالنسبة لدولة الأمويين في الأندلس بمثابة رقصة الروح التي تنبثق عن الاحتضار، قبل لفظ الأنفاس الأخيرة.

- عبد الملك بن أبي عامر (المظفر):

هو أبو مروان المظفر بالله ابن المنصور أبي عامر محمد بن أبي عامر المعافري[3]، ولي الحجابة للخليفة الأموي هشام المؤيد بعد موت أبيه، وذلك يوم الإثنين ٢٧ رمضان سنة ٣٩٢هـ/١٠٠٢م، وتلقب بالإضافة إلى المظفر بسيف الدولة[4]. "ولما تولت له الولاية نفذت كتبه إلى أقطار المملكة بالأندلس والعدوة يُعلم بوفاة أبيه وتوليته

---

[1] ابن الكردبوس، تاريخ الأندلس: ٦٤-٦٥.

[2] المصدر نفسه: ٦٥.

[3] ابن عذاري، البيان المغرب: ٣/٣.

[4] المصدر نفسه: ٣/٣؛ وانظر: المراكشي، المعجب: ٢٢؛ المقري، نفح الطيب: ٤٢٣/١؛ ابن الكردبوس، تاريخ الأندلس: ٦٥-٦٦.

تدبير المملكة مكانه، فاستوسق له الأمر، ولم يرد أحد منهم طاعته، واجتمع الناس على حبه"[1]. وقد أقره الخليفة هشام "على ما كان عليه أبوه معه"[2].

كان المظفر – كما توقع المنصور – مكبّاً على شرب النبيذ، مستغرقاً في اللذات[3]، ولكنه ما إن يفيق من سكره حتى يستشعر الذنب، ويلجأ إلى الله باكياً طالباً الغفران، فرقّة دينه كانت مختلطة برقّة قلبه، وإيمانه القوي المستتر، فهو محب للصالحين "ويستهدي أوعيتهم، ويجزل الثواب لمن دلّه عليهم"[4]. وكان الإفراط في الحياء، والشجاعة في ميادين الحروب أبرز صفاته[5].

سار المظفر في جهاد العدو النصراني على نهج أبيه[6]، ومع أنه "لم يسدّ مسدّه، ولم يحلّ موضعه، وكان يزاحم بغير عود"[7]، إلا أنه حقق على النصارى بعض الانتصارات أثناء الغزوات التي قادها ضدهم، وكانت أولاها سنة ٣٩٣هـ/١٠٠٢م[8]، وقد استعد لها استعداداً جيداً، وتسابق المسلمون للمساهمة فيها من الأندلس وخارجها حيث حضرت أعداد كبيرة "من مطوّعة العدوة المجاهدين للحسبة فيهم جماعة كبيرة من أمرائهم وزعمائهم وعصابة كثيرة من فقهائهم يبغون مشاهدة هذه الغزوة المحتفل لها في هذه السنة"[9].

تكاملت الحشود في قرطبة، وعهد عبد الملك المظفر "إلى خزان الأسلحة بتوزيع خمسة آلاف درع وخمسة آلاف بيضة، وخمسة آلاف مغفر على طبقات الأجناد

---

(١) ابن عذاري، البيان المغرب: ٣/٣.
(٢) ابن الكردبوس: تاريخ الأندلس: ٦٦.
(٣) ابن عذاري، البيان المغرب: ٣/٣.
(٤) المصدر نفسه: ٣/٣.
(٥) المصدر نفسه: ٣/٣.
(٦) المقري، نفح الطيب: ٤٢٣/١؛ المراكشي، المعجب: ٢٢؛ ابن الأثير، الكامل في التاريخ: ٨٣/٧.
(٧) ابن الكردبوس، تاريخ: ٦٦.
(٨) ابن عذاري، البيان المغرب: ٣/٣-٤.
(٩) المصدر نفسه: ٤.

الدراعين في جيشه"[1]، ثم انطلق إلى غايته يوم الإثنين ١١ شعبان ٣٩٣هـ/١٠٠٢م حيث توجه إلى طليطلة ومنها إلى مدينة سالم حيث وافاه عدد من وجوه النصارى الذين أوفدهم كل من: شانجه غرسية (الثالث) أو (الكبير) ملك النافار، وألفونسو بن أردون المعروف بابن البربرية، وغيرهم حيث جدد السلم معهم، ثم رحل إلى سرقسطة، ومنها واصل زحفه شمالاً[3]، حيث أفرز قوة من جيشه بقيادة مولاه واضح العامري لفتح بعض الحصون، وقد تمكن واضح من فتح حصن يسيمه ابن عذاري (مدنيش)، ثم حصن "ممقصؤ) الذي وقعت عنده حرب ضروس كان الوظفي قائد المسلمين فيها، وقد استمرت عدة أيام، وانتهت بانتصار المسلمين الذين اقتحموا أسوار الحصن، وفتكوا بأعدائهم "وأخذوا كثيراً منهم، وملكوا عيالهم وأبناءهم، وصاروا فيئاً للمسلمين"[4].

وانتقل المظفر بعد تدويخه بلاد النصارى في الشمال، رحل "يريد السياحة في بسيط برشلونة والإثخان في أرضها، فدوّخ بلاد الكفرة، وانبسط المسلمون في عرصاتهم يحرقون ويهدمون ويحطمون...وأبلغوا في النكاية، وأحرزوا الغنائم والأجر الجزيل والسلامة"[5].

لقد فتح المظفر خلال هذه الغزوة عنوة ستة حصون قُتل مقاتلوها، وسبيت ذراريهم. أما الحصون التي كان النصارى قد فرّوا عنها فخربت ودمرت، فقد بلغ عددها خمسة وثمانين حصناً، بينما بلغ عدد السبي "خمسة آلاف وخمسمائة وسبعين رأساً"[6]. وقد عاد المظفر من هذه الغزوة سالماً غانماً إلى قرطبة، ووصلها يوم الثلاثاء ٥ ذي القعدة ٣٩٣هـ/١٠٠٢م، فاستقبله أهلها، ثم دخل المظفر إلى الخليفة هشام "فرفع مجلسه، وأعلى مكانه، وكساه من ملابسه السنية ثلاث رزم، قرن بها سبعين من خاص سيوفه"[7].

---

[1] ابن عذاري، البيان المغرب: ٤.

[3] المصدر نفسه: ٤-٥.

[4] المصدر نفسه: ٦.

[5] المصدر نفسه: ٣/٧.

[6] المصدر نفسه: ٣/٨.

[7] المصدر نفسه:٩.

وقاد المظفر غزوته الثانية إلى جليقية في سنة ٣٩٥هـ/١٠٠٤م، ومن المواقع التي استهدفتها هذه الغزوة مدينة سمورة التي كان قد افتتحها المنصور بن أبي عامر، غير أن بعض النصارى امتنعوا في أبراجها، فقاتلهم جند المظفر "وسبوا نساءهم وذريتهم، وانبسطوا بالغارة على بسائط سمورة...ولم يزل العسكر يرحل في بلاد العدو يحرق ويهدم ويسبي ويقتل...وأتى واضح في بعض تلك الأيام إلى مكان آخر فيه جمع عظيم من أهل هذه البسائط المستباحة لجأ إليه، فسرى عليهم، وأوقع بهم، فقتل منهم خلقاً، وحاز من سبيهم نحو ألفي رأس"[1].

وفي ١٢ شوال ٣٩٦هـ/١٠٠٥م غزا المظفر مملكة النافار، فقد سار إلى سرقسطة فوشقة فبربشتر، ومنها دخل إلى أرض النصارى، وجال فيها "يسبي ويقتل ويحرق ويهدم"[2]، وقفل عائداً إلى قرطبة. ثم استأنف غزواته في سنة ٣٩٧هـ/١٠٠٦م حيث خرج إلى قشتالة، واشتبك مع جيوش سانشو بن غرسية فهزمها هزيمة عظيمة[3]. وعلى أثر انتصاره في هذه الغزوة داخل الخليفة هشاماً في تلقيبه المظفر فلقبه، كما تلقب بسيف الدولة، "فكان أول من اجتمع له لقبان من ملوك الأندلس"[4].

"وفي سنة ثمان وتسعين وثلاثمائة (١٠٠٧م) خرج الحاجب، المظفر بالشاتية...من قرطبة يوم الاثنين لاثنتي عشرة ليلة خلت من صفر من السنة المؤرخة"[5]، وعندما وصل على رأس جيوشه إلى حصن (شنت مرتين) أمر بالهجوم على النصارى الذين برزوا أمام الحصن ظناً منهم أنهم قادرون على صد هذا الهجوم، إلا انهم ما لبثوا أن تراجعوا إلى داخل سور الحصن، وامتنعوا بها "وراموا مراماة المسلمين بالنبل والحجارة من أعلاه، فلم يكن أحد منهم يخرج يده حتى تنتظمها السهمان والثلاثة، فانحجروا سراعاً تحت الخشب، وطهر المسلمون لوقتهم على الربض، فنهبوا ما

---

(١) ابن عذاري، البيان المغرب: ١١-١٢.

(٢) المصدر نفسه: ١٢-١٣.

(٣) المصدر نفسه: ١٣-١٤.

(٤) المصدر نفسه: ١٦-١٧.

(٥) المصدر نفسه: ٣/٢١.

وجدوا فيه، وأطلقوا النيران عليه"[1]. ثم تمكن المسلمون من نقب السور، وأحدثوا فيه ثغرة ملأوها حطباً مضرجاً بالقطران، وأشعلوا فيه النار "فاضطرمت تحت السطح فأحرقته، فجزع الكفرة لذلك، ويئسوا من الحياة،..ثم عاودهم عبد الملك بالقتال يوماً آخر..."[2].

وتوالى قذف النصارى في حصن شنت مرتين بالمنجنيق والنبال نحو تسعة أيام، فاضطروا إلى الاستسلام، حيث اجتمعوا في ساحة الحصن، فقتل المظفر مقاتلتهم، وسبى ذراريهم، "وقفل الجيش راحلاً إلى قرطبة إلى أن أشرف عليها ثم دخلها مستهلّ ربيع الآخر"[3].

وكانت آخر غزوة قادها المظفر ضد النصارى في صيف سنة ٣٩٨هـ/١٠٠٧م، وكانت تستهدف أراضي سانشو بن غرسية، إلا أن هذه الغزوة لم تتم، إذ شعر المظفر بعد وصوله إلى مدينة سالم بوعكة ما لبثت أن تحولت إلى علة شديدة صدته عن دخول بلاد النصارى، وتحقيق ما أمله من انتصار عليهم[4].

توفي عبد الملك المظفر ليلة الجمعة ٤ صفر ٣٩٩هـ/١٠٠٨م[5]، وكانت مدة ولايته منذ وفاة أبيه المنصور: ست سنين وأربعة أشهر وسبعة أيام[6]. وقد ذكرت بعض المصادر أن مدة ولايته سبع سنين[7]، وأنه مات مسموماً، ويورد ابن الأثير تفاصيل سبب موته فيذكر "أن أخاه عبد الرحمن سمّه في تفاحة قطعها بسكين كان قد سمّ أحد

---

(1) ابن عذاري، البيان المغرب: ٢١/٣.

(2) المصدر نفسه: ٢٢/٣.

(3) المصدر نفسه: ٢٢/٣-٢٣.

(4) المصدر نفسه: ٢٣-٢٤.

(5) ابن عذاري، البيان المغرب: ٣/٣-٤؛ وانظر: المقري، نفح الطيب: ٤٥٣/١؛ ابن الأثير، الكامل في التاريخ: ٨٣/٧.

(6) ابن عذاري، البيان المغرب: ٤/٣.

(7) ابن الكردبوس، تاريخ الأندلس: ٦٦؛ المقري، نفح الطيب: ٤٢٣/١؛ ابن الأثير، الكامل في التاريخ: ٨٣/٧.

جانبيها فناول أخاه ما يلي الجانب المسموم، وأخذ هو ما يلي الجانب الصحيح فأكله بحضرته، فاطمأن المظفر، وأكل ما بيده منها فمات، فلما توفي ولي بعده أخوه عبد الرحمن"[1].

وبوفاة المظفر على هذه الصورة بدأت ملامح عهد جديد يطل على الأندلس، وقبل التعرف على تلك الملامح لا بد من الإشارة إلى أن المظفر لم يترك بصمات حضارية بارزة، فعلى الرغم من أن بعض المصادر وصفت أيامه بأنها كانت أعياداً دامت سبع سنين[2]، إلا أن ذلك لم يكن بمجهوده الشخصي، لأنه كما وصفه ابن الكردبوس "كان يزاحم بغير عود، وكان اسم أبيه حماه"[3]. أما الخليفة الشرعي هشام المؤيد بن الحكم المستنصر فقد ظل محجوباً محجوراً عليه في عهد المظفر، مثلما كان في عهد المنصور. وعندما تولى عبد الرحمن بن المنصور الحجابة لهشام ازداد تطاول بني عامر عليه، إذ حجّمه عبد الرحمن إلى درجة كاد يتلاشى معها، وهو ما سنلحظه فيما يلي.

- عبد الرحمن شنجول (الناصر):

هو عبد الرحمن بن المنصور بن أبي عامر محمد بن أبي عامر، وشنجول اسم غلب عليه، وقد ذكر ابن الكردبوس أن العامة لقبته به، ومعناه: أحمق[4]. بينما يذكر ابن عذاري أن شنجول اسم غلب عليه من قبل أمه*، سمته بذلك لتظل تتذكر اسم أبيها: سانشو[5].

---

[1] ابن الأثير، الكامل في التاريخ: ٧/٨٣-٨٤؛ وانظر: ابن عذاري، البيان المغرب: ٣/٣٦-٣٧.

[2] المراكشي، المعجب: ٢٢؛ المقري، نفح الطيب: ١/٤٢٣.

[3] ابن الكردبوس، تاريخ الأندلس: ٦٦.

[4] ابن الكردبوس، تاريخ الأندلس: ٦٦.

* اسمها: عبدة، وهي بنت سانشو غرسية Sancho Garces II، اعتنقت الإسلام، وتزوجها المنصور محمد بن أبي عامر، فأنجبت منه ولدها: عبد الرحمن، وأطلقت عليه أمه اسم: سانشيلو (Sanchuelo)، وهو تصغير سانشو جده لأمه الذي ملك نافارا (٩٧٠-٩٩٥م). وكان عبد الرحمن - كما يذكر ابن عذاري - شديد الشبه بسانشو. انظر: البيان المغرب: ٣/٣٨.

[5] ابن عذاري، البيان المغرب: ٣/٣٨.

ولي شنجول الحجابة للخليفة الأموي هشام المؤيد بن الحكم المستنصر، إذ يذكر ابن عذاري أنه بعد وفاة أخيه المظفر جلس في مجلسه "ودخل الناس عليه من كل طائفة يهنئونه، فوعدهم بكل جميل، ثم ركب إلى قصر الخليفة فدخل إليه، وأخذ بيده، فعزّاه الخليفة في أخيه، وأقام عنده برهة ثم انصرف، وقد خلع عليه خلعاً سلطانية، وقلّده الحجابة"[1]، "فجرى على سنن أبيه وأخيه في الحجر على الخليفة هشام، والاستبداد عليه، والاستقلال بالملك دونه"[2].

كان شنجول بعكس أبيه المنصور، وأكثر إسرافاً من أخيه المظفر في الإقبال على الملذات، فقد أخذ في المجون، وشرب الخمور[3]، وافتتح عهده "بالخلاعة والمجانة، فكان يخرج من منية إلى منية، ومن منتزه إلى منتزه مع الخيالين والمضحكين مجاهراً بالفتك وشرب الخمر"[4].

وكان شنجول منذ بداية عهده يتزلّف للخليفة هشام المؤيد، فقد "تهافت على مرضاته، وأظهر من التدلل بخدمته والحرص على مسرّته ما استماله به..."[5]. وسرعان ما استغل شنجول المكانة التي احتلها في قلب الخليفة، فقد سأله "إخراجه للنزهة مع أهله في قصور الملك بالحضرة في جملة الخليفة وجواريه في احتجاب عن الرعية على عادته...فأنعم الخليفة بذلك، وتقدم بالتأهب للنهوض معه لوقته، وأوعز بالاحتفال في خدمته، وأعدت مطايا الأهل، وأنذر من رسمه الركوب من الجند والغلمان مع الحاجب عبد الرحمن"[6]. وفي هذه النزهة قام الخليفة هشام بتكنية عبد الرحمن بالمأمون "مضافاً إلى اسمه الأول ناصر الدولة...وأمره بإخراج الأمر عنه بذلك إلى الكافة، وإنفاذه إلى

---

(1) ابن عذاري، البيان المغرب: ٣٨/٣؛ وانظر أيضاً: المراكشي، المعجب: ٢٢؛ ابن خلدون، تاريخ: ١٩٠/٤؛ المقري، نفح الطيب: ٤٢٤/١.

(2) ابن خلدون، تاريخ: ١٩٠/٤؛ المقري، نفح الطيب: ٤٢٤/١.

(3) ابن الأثير، الكامل في التاريخ: ٨٤/٧.

(4) ابن عذاري، البيان المغرب: ٣٩/٣.

(5) المصدر نفسه: ٤٠/٣.

(6) المصدر نفسه: ٤٠/٣.

أقطار المملكة بالأندلس والعدوة"[1]. وهكذا أصبح لقب عبد الرحمن شنجول: الحاجب المأمون ناصر الدولة أبو المطرف[2].

ولم يتوقف تطاول شنجول على المؤيد عند هذا الحد، بل تطلّع إلى تولي الخلافة نفسها، وبالتالي القضاء على الدولة الأموية في الأندلس، فبعد شهر ونصف فقط من توليه الحجابة، دسّ إلى المؤيد من يخوّفه منه إن لم يجعله وليّ عهده[3]، وأن يتسمّى بوليّ عهد المسلمين "ففعل ذلك هشام معه لضعفه وسوء نظره، ونقصان فطرته، فولاّه عهده"[4]، وكان ذلك في ربيع الأول من سنة ٣٩٩هـ/١٠٠٨م[5]، فقد أحضر الخليفة الأموي هشام المؤيد أرباب الشورى، وأهل الحل والعقد. وأمام هؤلاء وغيرهم ممن احتشدوا في يوم تولية شنجول ولاية عهد الخليفة كتب كاتب الرسائل: أبو حفص أحمد بن برد: "هذا ما عهد به هشام المؤيد بالله أمير المؤمنين إلى الناس عامة، وعاهد الله عليه من نفسه خاصة، وأعطى به صفقة يمينه بيعة تامة، بعد أن أمعن النظر وأطال الاستخارة...وبعد أن قطع الأواصر، وأسخط الأقارب، فلم يجد أحداً أجدر أن يوليه عهده، ويفوض إليه الخلافة بعده، لفضل نفسه، وكرم خيمه، وشرف مرتبته وعلوّ منصبه، مع تقاه وعفافه ومعرفته وحزمه، من المأمون الغيب، الناصح الجيب، أبي المطرّف عبد الرحمن بن المنصور أبي عامر محمد بن أبي عامر، وفقه الله..."[6].

سار شنجول بعد توليته العهد إلى قصره بالزاهرة، وهو يتمثّل قول الشاعر:

أتتك الخلافة منقادة   إليك تجر أذيالها

ولما استقر في مجلسه "أذن لخاصته من الوزراء والأصحاب وأكابر أهل الخدمة بالدخول إليه، فأفاضوا في ذكر تهنيته بما أكرمه الله به، والدعاء له يمدّونه في غيّه،

---

[1] ابن عذاري، البيان المغرب: ٣/٤٠-٤١.

[2] المصدر نفسه: ٣/٤١؛ وانظر: ابن خلدون، تاريخ: ٤/١٩٠؛ المقري، نفح الطيب: ١/٤٢٤.

[3] ابن الأثير، الكامل في التاريخ: ٧/٨٤.

[4] ابن عذاري، البيان المغرب: ٣/٣٨.

[5] المصدر نفسه: ٣/٤٦؛ وانظر: ابن خلدون: تاريخ: ٤/١٩١ حيث يجعل ذلك سنة ٣٩٨هـ/.

[6] انظر نص عهد الخليفة هشام بتولية ولاية العهد لعبد الرحمن شنجول كاملاً في: ابن عذاري، البيان المغرب: ٣/٤٤-٤٦؛ ابن خلدون، تاريخ: ٤/١٩٠-١٩١؛ المقري، نفح الطيب: ١/٤٢٤-٤٢٥.

وقلوبهم منكرة عليه"[1]. ولم يلبث شنجول أن ولّى الحجابة ابنه عبد العزيز، وأطلق عليه لقب سيف الدولة "فرُسم هذا الطفل بالحجابة بقية مدة أبيه، وطمست الحادثة بإسنادها إليه"[2].

وبعد أن اطمأن شنجول إلى هذه الترتيبات التي وضعته في أعلى مرتبة من مراتب السلطة انهمك في غيّه "فعامل خالقه بالكذب والفجور، وعاشر الأجناد والرعايا أسوأ معاشرة، وعكف على المعاصي، وشرب الخمور مجاهرة، ونصر الباطل، وغير الحق، وأذل أهل الشرف، ورفع كل وغد أحمق"[3]. وبلغ به الفسوق كل مبلغ، فقد انتهك الحرمات، وشجع الدعارة والزنا "ثم تجاوز ذلك كله إلى أن حمل بعض أصحابه على بعض بحضرته، وفي مجلس شرابه وخلوته"[4].

وكان شنجول عندما حصل على ولاية العهد قد أخذ في نشر الخبر على الملأ متباهياً، وأشاع في الناس "أن الخليفة ولاّه عهده صراحاً، واختاره للخلافة دون بني عمّه وأهله، إذ ليس له ولد يؤمل خلافته، فتلقفها منه أصحابه وخدمه لوقتهم فطاروا بها كل مطار، وغبطوه بأخذها، وشدّ اليد عليها"[5]. وهذا الفرح الغامر الذي شعر به أصحاب شنجول كان سببه أنهم وجدوا فيه نجاتهم ممن كانوا يخافونه من بني أمية آخر دهرهم.

أما الأمويون، وفي مقدمتهم: محمد بن هشام بن عبد الجبار بن عبد الرحمن الناصر، فقد ثارت ثائرتهم بسبب انتقال ولاية العهد إلى شخص من غيرهم، فقد حقدوا على شنجول وأبغضوه، وتكاتفوا ضده، "وتمشّت من بعض إلى بعض رجالاتهم، وأجمعوا أمرهم في غيبة من المذكور"[6] على الإطاحة به.

---

[1] ابن عذاري، البيان المغرب: ٤٦/٣.

[2] المصدر نفسه: ٤٧/٣.

[3] ابن الكردبوس، تاريخ الأندلس: ٦٦-٦٧؛ وانظر: ابن عذاري، البيان المغرب: ٤٧/٣.

[4] ابن عذاري، البيان المغرب: ٤٧/٣.

[5] المصدر نفسه: ٤٢/٣-٤٣.

[6] المقري، نفح الطيب: ٤٢٦/١؛ وانظر: ابن خلدون، تاريخ: ١٩٢/٤؛ ابن الكردبوس، تاريخ الأندلس: ٦٧؛ ابن الأثير، الكامل في التاريخ: ٨٤/٧.

مقتل عبد الرحمن شنجول ونهاية الدولة الأموية:

كان عبد الرحمن شنجول غائباً عن قرطبة عندما بدأ الأمويون وعلى رأسهم محمد بن هشام بن عبد الجبار بن عبد الرحمن الناصر يخططون للقضاء عليه، واستعادة نفوذهم، فقد قاد غزوة استهدفت أراضي جليقية، دون أن يستعد لها، بل كان "على حال في المجانة والخلاعة"[1]. وقد ساعدتهم في تخطيطهم الذلفاء أم عبد الملك المظفر شقيق شنجول الذي اتهمته الذلفاء بانه هو الذي قتل ابنها بدسّ السمّ له[2]، "فحقدت عليه اغتياله له، وسعت في حتفه"[3]. وسخّرت في ذلك رجلاً من الصقالبة كان موالياً للأمويين ثم انتقل لبني أبي عامر، ومع ذلك ظل على ولائه القديم، ويبدو أن الذلفاء كانت تعرف ذلك عنه، فانتدبته لدعوة الأمويين إلى ارتجاع دولتهم واعدة من ينشط للقيام بهذه المهمة بتقديم المعونة له مشترطة الأخذ لها بثأرها وثأر ولدها من عبد الرحمن شنجول[4].

اتصل الصقلبي بالأمويين فأرشدوه إلى محمد بن هشام بن عبد الجبار الذي كان عبد الملك بن أبي عامر (المظفر) قد قتل أباه، وقالوا للصقلبي عن محمد بن هشام "هو حرّان ثائر جسور مخاطر، وقد بلغنا أنه تطلّب هذا الأمر منذ قتلتم أباه، وتألّف من شرار الناس كثيراً، وشيعتنا تلقاه وتؤمله، فليس لكم غيره"[5]. وهكذا وجد الصقلبي في محمد بن هشام بن عبد الجبار ضالته، إذ "نقل إليه عن الذلفاء ما قوّى عزمه، وحمل إليه ما عندها ما قوي به على أمره"[6]. وكان هذا العرض ما يترقب محمد بن هشام مثله إذ سرعان ما جمّع الأمويين من حوله، واستعان بهم، وكانت "كلمتهم يومئذ في بغضاء العامريين متفقة، ونفوسهم من مخافتهم مختلسة، فلاذوا بمحمد بن هشام وبايعوه سراً". وكان للأمويين دعاة من أهل قرطبة استمالوا له خلقاً منهم وبايعوه[7].

---

(1) ابن عذاري، البيان المغرب: ٤٨/٣؛ وانظر: ابن خلدون، تاريخ: ١٩٢/٤؛ المقري، نفح الطيب: ٤٢٦/١؛ ابن الأثير، الكامل في التاريخ: ٨٤/٧.

(2) ابن عذاري، البيان المغرب: ٥٢/٣.

(3) المصدر نفسه: ٥٢/٣.

(4) المصدر نفسه: ٥٢/٣.

(5) ابن عذاري، البيان المغرب: ٥٢/٣.

(6) المصدر نفسه: ٥٣/٣.

(7) المصدر نفسه: ٥٣/٣.

كانت الدعوة للتخلص من عبد الرحمن شنجول تنتشر في قرطبة، وأصبحت الأحداث تتفاعل فيها بينما كان شنجول في جليقية يقود غزوة هزيلة لحرب النصارى[1]، ومع ذلك "أوغل في بلاد الجلالقة فلم يقدم ملكها على لقائه، وتحصن منه في رؤوس الجبال، ولم يقدر عبد الرحمن على اتباعه لزيادة الأنهار، وكثرة الثلوج"[2].

قوي أمر محمد بن هشام بن عبد الجبار في قرطبة، وكثر أتباعه، فاستغل غياب شنجول، وانقض على قصره في قرطبة في ١٦ جمادى الأولى ٣٩٩هـ/١٠٠٨م، كما أمر بكسر باب سجن العامة "فانطلق جميع من كان فيه من اللصوص والدعّار وأصحاب الجرائم وسارعوا إلى محمد، فاستعان بهم، وتداعى بنو عم محمد الناصريون وغيرهم إلى نصر محمد، واستهضوا الناس لمعونته، ولبّوا دعوته"[3].

وكان الخليفة هشام المؤيد في تلك الأثناء في قصره، وقد أمر بإغلاق أبواب القصر عليه، ثم ارتقى إلى سطح مرتفع "وأشرف على العامة بين مصحفين يحملهما خادمان له، وأشار إلى من تحته من العامة بالسكون بيده، فصاحوا به: لا حاجة لنا بك، وليس الملك من شأنك، وهذا أولى به منك (يعنون محمد بن هشام بن عبد الجبار)، فلما سمع ذلك منهم ولّى منصرفاً إلى داره، وأمر خدمه ألا يقاتلوا أحداً منهم، ولا يرموا بسهم ولا حجر عليهم حتى يقضي الله قضاءه"[4].

هاجم ابن عبد الجبار قصر الخليفة هشام المؤيد، وكان حرسه يتقهقرون أمام المهاجمين، ولم يخفّ أحد من أهل الزاهرة لنجدة الخليفة الذي بادر عندئذ إلى مراسلة ابن عبد الجبار "يسأله الكف عنه، على أن يعينه وبني عمه على ما نقموا عليه، ويُقصي آل عامر عنه، ويقلده عهده، ويشركه في أمره"[5]. غير أن ابن عبد الجبار رفض هذا

---

(1) ابن خلدون، تاريخ: ١٩٢/٤؛ المقري، نفح الطيب: ٤٢٦/١.

(2) ابن الأثير، الكامل في التاريخ: ٨٤/٧.

(3) ابن عذاري، البيان المغرب: ٥٦/٣.

(4) المصدر نفسه: ٥٦/٣.

(5) المصدر نفسه: ٥٧/٣.

العرض، وأبى إلا أن يدخل القصر بعد أن يخليه الخليفة، ففعل، ودخل الأموي الغالب قصر الأموي المغلوب الذي بادر بالتخلي عن الخلافة[1].

ولم يسئ محمد بن هشام بن عبد الجبار لهشام المؤيد، وإنما أسند حفظه إلى ابن عمه محمد بن المغيرة "فأجلسه بكرسي الشرطة على بابه، فقام له بذلك، وصلح أمره"[2].

محمد بن هشام بن عبد الجبار (المهدي):

كانت الأحداث تتلاحق بسرعة في قرطبة، وخاصة في قصر الخلافة، ثم أمسك محمد بن هشام بن عبد الجبار بزمام الأمور، ولم يبق سوى القيام بالمراسم المعهودة لكي يتسلم الخلافة رسمياً من الخليفة الشرعي الذي استكان لا حول ولا قوة، منتظراً إتمام تلك المراسم.

وتقدم إلى هشام المؤيد كبير أهل قرطبة: أبو عمر بن عبد الملك ومعه رجل من نظرائه "ليسمعا منه خلعه لنفسه، ويأخذا بيعة محمد ابن عمه عليه، فأقرّ لهما هشام بالخلع، وأقرّ لمحمد بالبيعة"[3]. وهكذا تم خلع هشام المؤيد، وصحت الخلافة لمحمد بن هشام بن عبد الجبار الذي "سمى نفسه المهدي اختياراً من عنده"[4].

والمهدي – كما يذكر المراكشي – كان يُكنى أبا الوليد، وأمه أم ولد اسمها: مزنة[5]. وقد تولى الخلافة في جمادى الآخرة من سنة ٣٩٩هـ/١٠٠٨م، وما إن سمع الناس بذلك حتى تهافتوا عليه تهافت الفراش على النار، فلم يتوقف عن بيعته أحد منهم[6].

---

(١) ابن عذاري، البيان المغرب: ٣/٥٧-٥٩.

(٢) المصدر نفسه: ٣/٥٩-٦٠.

(٣) المصدر نفسه: ٣/٦٠.

(٤) المصدر نفسه: ٣/٦٠-٦١؛ وانظر: ابن الأثير، الكامل في التاريخ: ٧/٨٤؛ ابن خلدون، تاريخ: ٤/١٩٢؛ المقري، نفح الطيب: ١/٤٢٦؛ ابن الكردبوس، تاريخ الأندلس: ٦٧-٦٨.

(٥) المراكشي، المعجب: ٢٢.

(٦) المصدر نفسه: ٢٢؛ ابن عذاري، البيان المغرب: ٣/٦١-٦٢.

ولما استقر الأمر للمهدي أرسل ابن عمه عبد الجبار بن المغيرة للسيطرة على مدينة الزاهرة، تلك المدينة التي بناها العامريون، واتخذوها مقراً لهم، وقد حاربت قوات المغيرة أهل الزاهرة الموالين لعبد الرحمن شنجول، وبعد أن تدفق عليهم رجال الخليفة الجديد (المهدي) لم يجدوا أمامهم غير الاستسلام، وخاصة بعد أن كثر فيهم القتل، وفي أموالهم السلب والنهب، ولم يسلم منهم حتى الذلفاء أم المظفر التي ساعدت المهدي في الوصول إلى ما وصل إليه، فقد "أخذوا من أمتعتها ما لا يضبط بوصف ولا قيمة"[1].

وقامت قوات المغيرة بعد ذلك بتدمير الزاهرة تدميراً شاملاً "وعفا رسمها فأصبحت بلقعاً كأن لم تغن بالأمس"[2]. وقد تم تخريب هذه المدينة، ووقع كل ما وقع في أثناء غياب عبد الرحمن شنجول في غزوته بجليقية، الذي صعق عندما وردته أخبار قرطبة "فسُقط في يده، واختلط لحينه، فصارت حاله في استيلاء الجزع عليه، كما كانت حاله في شدة إقدامه على بوائقه"[3].

حاول شنجول حث جنده وغيرهم من أنصاره وخاصة البربر، إذ دعاهم إلى مبايعته على حرب أهل قرطبة، فأوهموه بأنهم إلى جانبه، وأن استعدادهم كامل للتضحية من أجله، فسار في هذه الجموع حتى انتهى إلى أحد قصوره (منزل هاني) القريب من قرطبة "فملا نزل وبات نزع عنه عامّة البربر ليلاً إلى قرطبة، وأن منهم من ترك أثقاله تخففاً...فلم يبق مع عبد الرحمن إلا نفير من غلمانه"[4]. وهكذا تخلّى البربر عن شنجول، وكانوا يشكلون قوته الرئيسية...ولما وجد نفسه دون ناصر أو معين تبرّأ من ولاية العهد، واستعطف الناس لعلّهم ينهضون معه لإعادة الخلافة إلى هشام المؤيد، إلا أن أحداً لم يصغ إليه[5].

---

(1) ابن عذاري، البيان المغرب: ٣/٦٢-٦٣.

(2) المصدر نفسه: ٣/٦٤.

(3) المصدر نفسه: ٣/٦٦.

(4) المصدر نفسه: ٣/٦٨-٦٩.

(5) المصدر نفسه: ٣/٦٨-٦٩.

اقترب شنجول من قرطبة حتى شارف منزل أرملاط الأدنى إليها "فلم يجد معه بشراً، فأبلس واستيأس، وبدا من جزعه وبكائه ما رثا له من كان معه. ودخل إلى قصوره بأرملاط، فصير فيه حرمه، وخرج يودعهن والصراخ يتبعه"[1] محاولاً الهرب إلى بلاد النصارى، غير أن المهدي أرسل وراءه من قبض عليه، وقتله، ثم حُملت جثته إلى قرطبة، حيث تم تخبيطه، ومن ثم صلبه على أحد أبواب قرطبة[2].

انتهت بمقتل عبد الرحمن شنجول الدولة العامرية، التي تمثلت في السيطرة على الحجابة مدة طويلة من الزمن، ارتقت خلالها منزلتهم وتعاظمت مما أغراهم بالتطاول على الخلافة الأموية، ومحاولة الاستيلاء عليها. غير أنهم زالوا، بينما ظلت الخلافة الأموية قائمة بعد تمكن محمد بن هشام بن عبد الجبار (المهدي) من الإمساك بمقاليد الأمور بقرطبة.

وقد سرّ أهل قرطبة بولاية المهدي سروراً عظيماً "وأحدثوا برحاب قرطبة وأرباضها ولائم وأعراساً، وداموا على ذلك أياماً تباعاً يتنقلون من موضع إلى موضع بالمزامر والملاهي راجين تمام أملهم، وانتظام أمرهم"[3]. غير أن المهدي خيب ذلك الأمل، فقد كان رديئاً سيء التصرف، أتى كثيراً من الأعمال الدالة على الحمق وضيق الأفق، ومن ذلك أنه أمر في أحد الأيام أن لا يركب "أحد من الغزاة، ولا يحمل سلاحاً، ولا يأت القصر. واتفق أن ركب زاوي بن زيري في جماعة معه فرُدّوا عن باب القصر، وانصرفوا على غاية الذل، وانثال حينئذ جند من السّفال على دور البربر"[4]، فثار البربر لكرامتهم، ودفاعاً عن أموالهم وممتلكاتهم، وبدأت بذلك الفتنة البربرية التي سيعرض لها الفصل التالي من هذه الدراسة.

---

(1) ابن عذاري، البيان المغرب: ٣/٦٩-٧٢.

(2) المصدر نفسه: ٣/٧٢-٧٣؛ وانظر: ابن الأثير، الكامل في التاريخ: ٧/٨٤؛ المراكشي، المعجب: ٢٢؛ ابن الكردبوس: تاريخ الأندلس: ٦٨؛ ابن خلدون، تاريخ: تاريخ: ٤/١٩٤؛ المقري، نفح الطيب: ١/٤٢٦.

(3) ابن عذاري، البيان المغرب: ٣/٧٤.

(4) المصدر نفسه: ٣/٧٥-٧٦؛ وانظر: ابن خلدون، تاريخ: ٤/١٩٢؛ المقري، نفح الطيب: ١/٤٢٧.

ولما استوثق الملك للمهدي التفت إلى الخليفة المخلوع هشام المؤيد السجين في قصره، وقرر التخلص منه أو إخفاءه حتى يصفو له الجو، فأخرجه من القصر "وأسكنه في دار الحسن بن حييّ وشخّص بمثله رجلاً نصرانياً وقيل يهودياً ميتاً كان يشبه المؤيد، وأدخل الوزراء والخدمة عليه، فعاينوه ميتاً ولم يشكوا أنه المؤيد"[1].

وفي رمضان من سنة ٣٩٩هـ/١٠٠٨م قام المهدي بسجن أحد منافسيه من الأمويين، وهو سليمان بن هشام بن عبد الرحمن الناصر الذي كان قد جعله وليّ عهده. كما سجن معه جماعة من قريش[2]. واستمر في إهانة رؤساء البربر وزعمائهم. فاستغل ذلك هشام بن سليمان بن الناصر، وجعله يدسّ إلى البربر "ويسعى في خلع محمد بن عبد الجبار"[3] الذي أظهر الخلاعة، "واستُعمل له من الخمر مائة خابية، واستعمل له مائة بوق للزمر، ومائة عود للضرب..."[4]. وقد سمّاه الناس نبّاذاً، وانقلبوا عليه وخاصة البربر الذي ارتكب فيهم الفظائع، وانتهى به الأمر أن أخذ ينادي في الناس "من أتى برأس بربري فله كذا، فتسارع أهل قرطبة في قتل من قدروا عليه، فلم يبق تاجر ولا جندي إلا عمل مجهوده في ذلك"[5]. وقد دفعت هذه الأحداث الناس دفعاً إلى البحث عن بديل للمهدي يولونه أمرهم.

---

(1) ابن عذاري، البيان المغرب: ٧٧/٣؛ ابن الأثير، الكامل في التاريخ: ٨٤/٧؛ ابن الكردبوس، تاريخ الأندلس: ٦٨.

(2) ابن عذاري، البيان المغرب: ٧٨/٣.

(3) المصدر نفسه: ٧٨/٣.

(4) المصدر نفسه: ٨٠/٣.

(5) المصدر نفسه: ٨١/٣؛ وانظر: المقري، نفح الطيب: ٤٢٧/١.

- **هشام بن سليمان بن عبد الرحمن الناصر (الرشيد):**

رأى البربر أن الرجل المناسب الذي يمكنه أن يخلّصهم من المهدي وشروره هو هشام بن سليمان بن عبد الرحمن الناصر، فقصدوه، وأخرجوه من داره "وبايعوه، فتلقّب بالرشيد"[1]، وذلك في أواخر شهر شوال من سنة ٣٩٩هـ/١٠٠٨م. وقد بدأوا أمرهم سرّاً، إلا أنه لم يلبث أن فشا بين الناس قبل أن يتمكنوا من استكمال استعدادهم[2]، ومع ذلك تجمعوا بظاهر قرطبة، وزحفوا مع الرشيد إلى قصر المهدي، وحصروه فيه يوماً وليلة. غير أن المهدي أغرى بهم السواد الأعظم، وهزمهم، وشتت شملهم، بعد أن قتل الرشيد[3].

ولم تفت هذه الهزيمة في عضد البربر، فقد أعادوا تجميع صفوفهم، وأخذوا يبحثون عن رجل آخر من البيت الأموي يولونه أمرهم، فاهتدوا إلى سليمان بن الحكم بن سليمان بن عبد الرحمن الناصر.

- **سليمان بن الحكم (المستعين):**

كان سليمان بن الحكم بن سليمان بن عبد الرحمن الناصر مقيماً بشقندة عندما أوقع الرشيد بالبربر في قرطبة، فتوجهت إليه فلولهم، وذلك في ذي القعدة من سنة ٣٩٩هـ/١٠٠٨م، "فبايعوه ولقبوه: المستعين بالله، ونهضوا به إلى ثغر طليطلة"[4]. وعقدوا العزم على التخلص من المهدي بأي ثمن، حتى وإن كان ذلك الثمن التحالف مع النصارى ضد إخوانهم في الدين.

---

[1] ابن الأثير، الكامل في التاريخ: ٨٤/٧؛ ابن عذاري، البيان المغرب: ٨٣/٣.

[2] المقري، نفح الطيب: ٤٢٧/١.

[3] ابن عذاري، البيان المغرب: ٨٣/٣؛ ابن الأثير، الكامل في التاريخ: ٨٤/٧؛ المقري، نفح الطيب: ٤٢٧/١.

[4] المقري، نفح الطيب: ٤٢٨/١؛ وانظر: ابن عذاري، البيان المغرب: ٨٣/٣؛ ابن الأثير، الكامل في التاريخ: ٨٤/٧.

استنجد المستعين ومن معه من البربر بالنصارى فعلاً، فأنجدوهم[١]، إذ يذكر ابن عذاري أنهم نهضوا إلى سانشو بن غرسية، وعاهدوه على أن يدخل سليمان بن الحكم قرطبة[٢]. بينما يذكر ابن خلدون والمقري أنهم استجاشوا بابن ألفونسو (أذفونش)، فخف لنجدتهم[٣]، وعندئذ عاد المستعين بجموع البرابرة ومعه عسكر عظيم من النصارى، وعندما وصلوا قرطبة برز المهدي لقتالهم، ووقعت بين المستعين ومن معه من المسلمين، والمهدي ومن معه من المسلمين ملحمة عظيمة كان النصر فيها للمستعين، وقتل خلالها أكثر من ثلاثين ألفاً من المسلمين "فكانت أول ثارات المشركين على المسلمين"[٤]، وأول وقعة من نوعها يروح ضحيتها كثيرون من "الخيار والفقهاء وأئمة المساجد والمؤذنين"[٥].

تحصن المهدي بعد هزيمته في القصر بقرطبة، فدخلها المستعين، وحاصره في القصر[٦]، وكاد يقتحمه عليه، فأظهر هشاماً المؤيد الذي كان قد أوهم الناس أنه مات وعرض جثة نصراني أو يهودي يشبهه لإقناع الناس بذلك، وقصد من إظهاره المؤيد قناع المستعين بضرورة الكف عن حربه ومحاصرته، وإعادة مقاليد الحكم إلى صاحبها الشرعي هشام المؤيد، غير أن المستعين، وكذلك الناس في قرطبة لم يصدقوا ما رأوا "ظناً منهم أن المؤيد قد مات"[٧]. ولما لم يؤدّ إظهار المؤيد إلى النتيجة التي توخاها المهدي هرب من القصر، ودخله المستعين.

---

(١) ابن الأثير، الكامل في التاريخ: ٨٤/٧.

(٢) ابن عذاري، البيان المغرب: ٨٣/٣.

(٣) ابن خلدون، تاريخ: ١٩٣/٤؛ المقري، نفح الطيب: ٤٢٨/١.

(٤) ابن عذاري، البيان المغرب: ٨٣/٣؛ ابن الأثير، الكامل في التاريخ: ٨٤/٧-٨٥؛ ابن خلدون، تاريخ: ١٩٣/٤؛ المقري، نفح الطيب: ٤٢٨/١.

(٥) المراكشي، المعجب: ٢٣؛ ابن خلدون، تاريخ: ١٩٣/٤.

(٦) ابن الأثير، الكامل في التاريخ: ٨٥/٧.

(٧) المصدر نفسه: ٨٥/٧؛ ابن عذاري، البيان المغرب: ٩٠/٣.

بايع الناس المستعين يوم الثلاثاء ١٧ ربيع الأول ٤٠٠هـ/١٠٠٩م[١]، وتلقب – إضافة إلى المستعين – بالظافر[٢]. وأخذ يمارس سلطاته كخليفة للمسلمين في الأندلس، حيث فرق العمّال، "وولى الولايات، وأمر ونهى"[٣].

أما المهدي فبعد هروبه من القصر ظل: ينتقل بقرطبة من دار إلى دار، لا يصحو من سكر ولا يزع من فسق"[٤]، وحل عند رجل من أصدقائه يدعى: سليمان بن عيسى، إلا أن هذا الصديق غدر به، إذ بلغ عنه صاحب الشرطة، غير أن المهدي فطن لذلك، فهرب إلى طليطلة في أول جمادى الأولى من سنة ٤٠٠هـ/١٠٠٩م[٥].

كانت طليطلة موالية للمهدي، فقد استقبله أهلها، وأيدوه، فأرسل المستعين وفوده إليهم لإقناعهم بضرورة تسليمه، والامتناع عن المضي قدماً في هذه الفتنة فأبوا. وعندئذ رحل المستعين على رأس جيشه لحربهم "فنزل على مدينة سالم في وقت ضيق من البرد والثلج وقلة الميرة فلم يمكث بها، ورجع فكان وصوله قرطبة لثلاث بقين من شعبان"[٦].

أتاح عجز المستعين عن القضاء على المهدي الفرصة أمام الأخير بتجميع أنصاره، فقد نزع إليه كثيرون منهم بعض القادة الذين كان المستعين يعتمد عليهم مثل: أحمد بن وداعة، القائد العسكري، وابن مسلمة، صاحب الشرطة، وواضح الفتى العامري، قائد الثغر الأعلى[٧]. ومن ثم استعان المهدي بالنصارى أنفسهم الذين كان

---

(١) ابن الأثير، الكامل في التاريخ:٨٥/٧؛ ابن عذاري، البيان المغرب:٩١/٣؛ المراكشي، المعجب: ٢٣.

(٢) المراكشي، المعجب: ٢٣.

(٣) ابن عذاري، البيان المغرب: ٩٢/٣.

(٤) المصدر نفسه: ٩٢/٣؛ وانظر: ابن الأثير، الكامل في التاريخ: ٨٥/٧؛ المراكشي، المعجب: ٢٣.

(٥) ابن عذاري، البيان المغرب: ٩٢/٣-٩٣؛ ابن الأثير، الكامل في التاريخ: ٨٥/٧؛ المراكشي، المعجب: ٢٣؛ ابن خلدون، تاريخ: ١٩٣/٤؛ المقري، نفح الطيب: ٤٢٨/١.

(٦) ابن عذاري، البيان المغرب: ٩٣/٣.

(٧) المصدر نفسه: ٩٣/٣.

المستعين قد استجاش بهم ضده[1]، فاستجابوا له، بل وجدوا في ذلك فرصة ذهبية لقتل مزيد من المسلمين.

استولى النصارى على مدينة سالم بعد أن أخلاها المهدي ومؤيدوه من أهلها المسلمين، وأول ما فعله النصارى بعد استيلائهم على المدينة: دخلوا مسجدها الجامع، "وضربوا فيه الناقوس، وحوّلوا قبلته"[2]. وشرطوا على واضح شروطاً كثيرة وافق عليها، منها: "أن لهم كلما حازوه من عسكر البربر من سلاح وكراع ومال، وأن نساء البربر ودماءهم وأموالهم حلال لهم، لا يحول أحد بينهم وبينهم"[3].

وصلت مقدمة النصارى إلى سرقسطة فساموا أهلها سوء العذاب، ثم سار بهم واضح إلى طليطلة يجتمع بها مع المهدي، ويعد معه خطة الهجوم على قرطبة بمعاونة النصارى[4]. وبلغ ذلك المستعين بالله، فاستنفر الناس بقرطبة لقتال النصارى، ولكنهم أظهروا العجز، وجبنوا عن هذه المواجهة، مما أربك المستعين، وأضعف موقفه. ومع ذلك خرج لقتال النصارى والمهدي في ١٤شوال ٤٠٠هـ/١٠٠٩م، ووقعت بين الفريقين ملحمة كبرى على بعد بضعة عشر ميلاً من قرطبة، في موضع يدعى "عقبة البقر" El-Vacar أو دار البقر[5]. وخلال هذه الملحمة تمكن النصارى من اختراق صفوف البربر فبادر المستعين – قبل أن تتضح نتيجة هذا الاختراق – بالفرار، "وعطف البربر على الإفرنج عطفة، وصدموهم صدمة قتلوا فيها ملكهم...وقتلوا معه خلقاً من وجوههم، وقُتل من رجّالة البربر نحو ثلاثمائة رجل، ولم يُقتل لهم فارس

---

(1) ابن عذاري، البيان المغرب: ٣/٩٣-٩٤؛ وانظر: المراكشي، المعجب: ٢٣؛ ابن الأثير، الكامل في التاريخ: ٧/٨٥؛ ابن خلدون، تاريخ: ٤/١٩٣؛ المقري، نفح الطيب: ١/٤٢٨.

(2) ابن عذاري، البيان المغرب: ٣/٩٤.

(3) المصدر نفسه: ٣/٩٤.

(4) المصدر نفسه: ٣/٩٤.

(5) ابن خلدون، تاريخ: ٤/١٩٣؛ المقري، نفح الطيب: ١/٤٢٨؛ ابن الأثير، الكامل في التاريخ: ٧/٨٥؛ المراكشي، المعجب: ٢٣.

واحد"[1]. وكان هذا مؤشرا إلى قرب هزيمة النصارى ومعهم المهدي، غير أن البربر لما رأوا هزيمة المستعين تركوا ساحة المعركة منحازين إلى الزهراء[2].

فر المستعين بعد هزيمته إلى شاطبة[3]، بينما دخل المهدي وواضح العامري قرطبة، حيث استعاد المهدي ملكه. ولما حل بفناء قرطبة أقسم ألا يستقر ولا يحل عن نفسه حتى يفرغ من أمر البربر الذين كانوا قد انساحوا في البسائط، ووصل كثيرون منهم إلى جزيرة الخضراء[4]. وقبل ملاحقتهم "أخذ البيعة لنفسه، فكان أول من بايعه هشام المؤيد، ثم سائر أهل قرطبة على اختلاف طبقاتهم، وطلب من أهل قرطبة تقوية بمال، فجمعوه له على وجه السلف، ثم خرج في اتباع البربر"[5].

طارد المهدي البربر، وكان معه ثلاثين ألف فارس من المسلمين، وتسعة آلاف من النصارى، ووقع الصدام بين الفريقين في وادي آره، وفي هذا الصدام انتصر البربر، وعاد المهدي مهزوما إلى قرطبة، بينما انصرف النصارى إلى بلادهم[6]. "وسار البربر إلى ناحية ريه، وأقبل سليمان بن الحكم المستعين بالله من المشرق بمن اجتمع له، والتقى مع البربر، واتصل الخبر بابن عبد الجبار (المهدي) فبنى مع أهل قرطبة على الحصار، وأخذوا له أهبته"[7].

وبينما كانت الاستعدادات جارية في قرطبة لمواجهة الحصار المتوقع الذي سيفرضه المستعين والبربر غدر العامريون، وفي مقدمتهم الفتى واضح العامري،

---

(1) ابن عذاري، البيان المغرب: ٩٥/٣.

(2) المصدر نفسه: ٩٥/٣.

(3) المصدر نفسه: ٩٥/٣؛ ابن الأثير، الكامل في التاريخ: ٨٥/٧.

(4) ابن عذاري، البيان المغرب: ٩٥/٣.

(5) المصدر نفسه: ٩٥/٣-٩٦؛ وانظر: ابن الأثير، الكامل في التاريخ: ٨٥/٧.

(6) ابن عذاري، البيان المغرب: ٩٥/٣-٩٦.

(7) المصدر نفسه: ٩٦/٣.

بالمهدي، وقتلوه في ذي الحجة من سنة ٤٠٠هـ/١٠٠٩م، وأعادوا هشاماً المؤيد إلى كرسي الخلافة، وجددوا له البيعة(١).

عين هشام المؤيد الفتى العامري (واضح) حاجباً له، وأرسل برأس المهدي إلى المستعين، ودعاه هو ومن معه من البربر إلى الدخول في طاعته، ولكنهم رفضوا، فقد "كان البربر لا يريدون إلا نفاراً مع أهل قرطبة لما فعلوا معهم من القبائح، وكان سليمان (المستعين) يؤنب واضحاً على قتل ابن عبد الجبار (المهدي) وغدره له، وقلة وفائه معه"(٢). وهكذا شدد البربر الحصار على قرطبة، واشتبكوا مع أهلها بمن فيهم واضح العامري، وقتلوا منهم كثيرين، وضيقوا الحصار على المدينة، وكانت جماعات منهم تغير على ضواحيها، وعلى مدينة الزهراء ينهبون ويخربون ويحرقون ويقتلون ويرتبكون الفظائع(٣).

أهلك البربر الزرع والضرع، واشتد الضيق بقرطبة، فعزم واضح على مراسلتهم، وإنهاء هذه الفتنة، إلا أن المستعين رفض. وازداد العنف، ودفع واضح حياته ثمناً لمحاولته الصلح مع البربر، إذ قتله ابن وداعة، فكافأ هشام المؤيد قاتله بتوليته شرطة المدينة(٤).

اشتد ابن وداعة على أهل الريب، وهابه الجند وغيرهم، بينما استمر البربر في الإغارة على نواحي قرطبة وغيرها، وفتكوا بأهالي جيان وبلنسية(٥). ولما رأى أهل البلاد ما حلّ بها تحالفوا على التكاتف لقتال البربر في الوقت الذي أرسل المستعين إلى أهل قرطبة يحذرهم الفتنة وعواقبها، ثم وقع المحذور، حيث هاجم المستعين والبربر قرطبة، وقاتلوا أهلها قتالاً شديداً، وهزموهم هزيمة شنيعة في شوال من سنة ٤٠٣هـ/١٠١٢م(٦).

---

(١) ابن عذاري، البيان المغرب: ٣/١٠٠-١٠١؛ ابن الأثير، الكامل في التاريخ: ٧/٨٥.

(٢) ابن عذاري، البيان المغرب: ٣/١٠١.

(٣) المصدر نفسه: ٣/١٠١-١٠٤.

(٤) المصدر نفسه: ٣/١٠٤-١٠٥.

(٥) المصدر نفسه: ٣/١٠٥-١٠٦.

(٦) المصدر نفسه: ١٠٦-١١٢؛ ابن خلدون، تاريخ: ٤/١٩٤؛ المقري، نفح الطيب: ١/٤٢٩؛ المراكشي، المعجب: ٢٢.

دخل سليمان (المستعين) القصر بقرطبة في شوال من سنة ٤٠٣هـ/١٠١٢م، وخلع هشاماً المؤيد وأخذ مكانه على كرسي الخلافة، ثم قتله سرّاً[١].

وعندما استقر الأمر للمستعين أخذ البربر يحصدون ثمار انتصارهم، وينتقمون لما حلّ بهم سابقاً على يدي المهدي وغيره "وتقلدوا البلاد الواسعة، مثل: باديس بن حبوس في غرناطة، والبرزالي في قرمونة، واليفرني في رندة، وخرزون في شريش"[٢]. أما العامريون فقد هربوا من قرطبة إلى شرقي الأندلس، "فاستولوا على بلنسية وشاطبة ودانية"[٣] وغيرها.

واستمر المستعين في حكمه للأندلس المشتتة حتى سنة ٤٠٧هـ/١٠١٦م، ففي تلك السنة، وبعد أن افترق شمل جماعة قرطبة، وتغلب البربر على الأندلس دخل علي بن حمود الحَسَني* من المغرب إلى الأندلس، ودعا لنفسه، فتعصب له كثير من البربر، كما سانده العامريون، وخاصة خيران العامري. وعندما علم المستعين بأخبارهم خرج لقتالهم "فهزموه، وقتلوا بعض أصحابه، وقبضوا عليه وعلى أخيه، وسيقوا أسارى إلى علي بن حمّود، فدخل بهم قرطبة"[٤]. ثم دخل القصر لعله يجد هشاماً المؤيد حياً فلم يجده "ثم أخرج سليمان، فضرب عنقه بيده صبراً، فظهر منه جزع شديد عند ملاحظة السيف خارت منه طِباعه. ثم ضربت عنق أخيه عبد الرحمن، ثم عنق أبيهما الشيخ، ثم جُعلت

---

(١) ابن عذاري، البيان المغرب: ١١٢/٣ وما بعدها؛ وانظر: ابن الأثير، الكامل في التاريخ: ٢٤٩/٧.

(٢) المقري، نفح الطيب: ٤٢٩/١.

(٣) ابن عذاري، البيان المغرب: ١١٥/٣.

* ينسبه ابن الأثير فيذكر أنه "علي بن حمود بن أبي العيش بن ميمون بن أحمد بن علي بن عبد الله بن عمر بن إدريس بن إدريس بن عبد الله بن الحسن بن الحسن بن علي بن أبي طالب عليه السلام، وقيل في نسبه غير ذلك مع اتفاق على صحة نسبه إلى أمير المؤمنين علي، عليه السلام" انظر: الكامل في التاريخ: ٢٨٤/٧.

(٤) ابن عذاري، البيان المغرب: ١١٦/٣؛ ابن خلدون، تاريخ: ١٩٥/٤؛ المقري، نفح الطيب: ٤٣٠/١؛ ابن الأثير، الكامل في التاريخ: ٢٨٤/٧.

رؤوسهم في طست وأخرجت ينادى عليها: هذا جزاء من قتل هشاما المؤيد"[1]. وكـــان قتل المستعين "يوم الأحد لتسع بقين من المحرم سنة ٤٠٧هـ/١٠١٦م[2].

وبقتل المستعين وأخيه وأبيه انتهت الدولة الأموية في الأندلس بعد أن دامت مائتين وثمان وستين سنة وثلاثة وأربعين يوما[3]. وبانتهائها على هذا النحو المفجع بدأ عصـــر جديد كان التمزق والتشرذم أبرز ملامحه. ولم يظهر خلاله من الأمويين سوى نفر قليل لم يكن لهم تأثير فعال، ولم يصمدوا طويلا أمام المتسرعين إلى الشر في أنحاء الأندلس.

---

[1] ابن عذاري، البيان المغرب: ١١٧/٣؛ وانظر: المراكشي، المعجب: ٢٤؛ ابن الأثـــير، الكـــامل فـــي التاريخ: ٢٨٤/٧؛ ابن خلدون، تاريخ: ١٩٥/٤؛ المقري، نفح الطيب: ٤٣٠/١.

[2] المراكشي، المعجب: ٢٤.

[3] ابن عذاري، البيان المغرب: ١١٤/٣.

الفصل الخامس

عصر ملوك الفتنة

عصر ملوك الفتنة

بدأ بمقتل سليمان بن الحكم بن سليمان بن عبد الرحمن الناصر (المستعين بالله) سنة ٤٠٧هـ/١٠١٦م عصر جديد في الأندلس جرت في بدايته محاولات يائسة لتوحيد البلاد تحت قيادة أبناء الخلائف من البيت الأموي الذي قاد البلاد أكثر من قرنين ونصف القرن من الزمان، وأوصلها بعضهم إلى قمة الازدهار الحضاري، فتبوأت ذروة المجد في مختلف الميادين، وأصبحت إحدى الدول الإسلامية التي تخشاها الدول، وتتطلع إلى كسب رضاها، وتوفد الوفود تخطب ودّها. غير أن هؤلاء الأبناء كانوا ضعافاً، كما كان يحيط بهم الطامعون من كل جانب. وانتهى الأمر بالأندلس إلى انفراط عقدها، وتوثب البربر والعبيد على عمالها ومدنها، "وصار الملك طوائف في آخرين من أهل الدولة، مثل ابن عباد بإشبيلية، وابن الأفطس ببطليوس، وابن ذي النون بطليطلة، وابن أبي عامر ببلنسية، وابن هود بسرقسطة، ومجاهد العامري بدانية والجزائر"[1]. وصار هؤلاء وغيرهم "مثل ملوك الطوائف، وكان ذلك أضر شيء على المسلمين، فطمع بسببه العدو الكافر – خذله الله – فيهم"[2].

لقد بدأ انهيار البيت الأموي الحاكم في الأندلس عندما تولى الخلافة صبي صغير هو هشام المؤيد، فقد تسلط عليه حاجبه المنصور محمد بن أبي عامر، وبعد وفاة المنصور تسلط على الخليفة ابن المنصور عبد الملك المظفر، ثم حاول الاستئثار بالخلافة أخوه عبد الرحمن شنجول الذي اضطر هشاماً المؤيد إلى توليته عهده[3]. ثم وقعت الفوضى العارمة التي أدت إلى اقتتال من ظلوا من البيت الأموي، وأخذت القوى المختلفة تتدخل في شؤون هذا البيت وادعى بعضها الوصاية على من بقي من أهله، وخاصة أولئك الحسنيين القادمين من خارج الأندلس، من العدوة المغربية.

---

[1] ابن خلدون، تاريخ: ١٩٤/٤؛ المقري، نفح الطيب: ٤٢٩/١.

[2] ابن الأثير، الكامل في التاريخ: ٢٩٠/٧.

[3] ابن عذاري، البيان المغرب: ٣/٣ وما بعدها.

لقد حاول الحسنيون إقامة خلافة لهم في الأندلس على أنقاض الدولة الأموية التي استمرت، ولكن بشكل متقطع، حتى سنة ٤٢٢هـ/١٠٣٠م، حيث اعتلى كرسي الخلافة نفر من أولئك، ونفر من هؤلاء. وكان آخر الخلفاء أموياً، غير أنه طُرد طرداً من قرطبة، وخلت الساحة أمام المتنفذين، فأقاموا ما سماه بعض المؤرخين: دول الطوائف، وقد سمى ابن عذاري هؤلاء المتنفذين: ملوك الفتنة[١]. وتفرق الأندلس الموحدة إلى ممالك زادت على العشرين، سبقته فترة مهدت له، وكان هذا التفرق نتيجتها الحتمية. وقد أشرنا في ختام الفصل الرابع من هذه الدراسة إلى أن علي بن حمود الحسني، قاتل المستعين بالله هو الذي بدأت به هذه الفترة التمهيدية.

علي بن حمود الحَسَني (الناصر):

هو أول من ملك الأندلس من بني هاشم، إذ يرجع نسبه – كما ذكرنا – إلى علي بن أبي طالب[٢]. "لقبه: الناصر لدين الله، كنيته: أبو الحسن، أمه: البيضاء بنت عم أبيه"[٣]. وكان قبل دخوله الأندلس يملك سبتة من عدوة المغرب، بينما كان أخوه القاسم بن حمّود يملك الجزيرة الخضراء[٤]، فهما على طرفي فرضة المجاز.

وكان الخليفة الأموي هشام المؤيد قد عهد إلى علي بن حمود بولاية عهده "لرفعة بيته، وبُعد صيته"[٥]، كما أوكل إليه المؤيد أن يأخذ بثأره إن هو قُتل[٦]، ولذلك كان أمراً طبيعياً أن يعبر إلى الأندلس عندما انتهت إليه أخبار المؤيد، وما لقيه على يد سليمان بن الحكم المستعين بالله.

---

(١) ابن عذاري، البيان المغرب: ١٨٧/٣.

(٢) ابن الأثير، الكامل في التاريخ: ٢٨٤/٧؛ ابن عذاري، البيان المغرب: ١١٩/٣.

(٣) ابن عذاري، البيان المغرب: ١١٩/٣.

(٤) ابن الأثير، الكامل في التاريخ: ٢٨٤/٧؛ ابن عذاري، البيان المغرب: ١٢٠/٣؛ ابن خلدون، تاريخ: ١٩٥/٤.

(٥) ابن عذاري، البيان المغرب: ١٢٠/٣.

(٦) ابن الأثير، الكامل في التاريخ: ٢٨٤/٧.

وتجدر الإشارة هنا إلى أن علي بن حمود الحسني كان قد ولي سبتة بعهد من المستعين بالله نفسه، ولكنه خلع طاعته في سنة ٤٠٦هـ/١٠١٥م، وأخرج كتاباً نسبه إلى هشام بن الحكم (المؤيد) يقول فيه: أنقذني من أسر البرابر والمستعين، وأنت وليّ عهدي"[١]. والتقى علي بن حمود (الناصر) مع خيران العامري على هدف واحد، هو قتل المستعين الذي اضطر خيران وكثيرين غيره من الفتيان العامريين إلى مغادرة قرطبة، والذي اضطر أيضاً إلى الاشتباك مع البربر، مؤيدي المستعين في مواقع كثيرة جُرح في أحدها[٢].

لقد خرج خيران العامري إلى شرقي الأندلس، ومن هناك دعا علي بن حمود (الناصر) للقدوم إليه، ووعده بالوقوف إلى جانبه ضد المستعين. وقد وجد الناصر في هذه الدعوة ضالته، فقد توجه إلى مالقة "فأقبل إليها بالقطائع والعساكر فقتل قائدها، واستولى عليها"[٣]. وعندما أعلن هدفه، وهو قتل المستعين بالله انحاش إليه – إضافة إلى خيران العامري: زاوي بن زيري بن مناد، وحبّوس بن ماكسن بن زيري، "وإخوته وبنو عمه الصنهاجيون، فعظم شأنه، وقي أمره، وحارب بهم سليمان"[٤] (المستعين). واستعداداً لهذه الحرب اجتمع خيران والعامريون في المنكب ما بين المرية ومالقة، ورسموا خطة الهجوم على قرطبة، "فتجهزوا وجمعوا من وافقهم وساروا إلى قرطبة وبايعوا عليّاً على طاعة المؤيد الأموي"[٥]. وعندما وصلوا غرناطة انضم أميرها إليهم، وانضم إليهم كثير من البربر الذين أصبحوا قسمين: قسم مع المستعين، وقسم مع علي بن حمود الناصر[٦]. ووقعت بين المستعين والناصر معركة فاصلة على بعد عشرة فراسخ من قرطبة، كما وقعت الهزيمة فيها على المستعين الذي أُسر وقُتل ممن كان معه من البربر خلق كثير[٧].

---

[١] ابن عذاري، البيان المغرب: ١١٦/٣؛ ابن الأثير، الكامل في التاريخ: ٢٨٤/٧.

[٢] ابن الأثير، الكامل في التاريخ: ٢٨٤/٧.

[٣] ابن عذاري، البيان المغرب: ١١٦/٣.

[٤] المصدر نفسه: ١٢٠/٣.

[٥] ابن الأثير، الكامل في التاريخ: ٢٨٤/٧-٢٨٥.

[٦] المصدر نفسه: ٢٨٥/٧؛ ابن خلدون، تاريخ: ١٩٥/٤.

[٧] ابن الأثير، الكامل في التاريخ: ٢٨٥/٧.

دخل علي بن حمود الناصر قرطبة في المحرم من سنة ٤٠٧هـ/١٠١٦م[١]، ودخل معه خيران العامري، ومعهما المستعين أسيراً. وكانا يأملان أن يجدا هشاماً المؤيد حياً، ولما لم يجداه قتل علي بن حمود (الناصر) المستعين وأخاه وأباه على النحو الذي ذكرنا[٢].

استولى علي بن حمود على قرطبة، ودعا الناس إلى بيعته، وتسمى بأمير المؤمنين، وذلك يوم الأحد ٢٢ محرم ٤٠٧هـ/١٠١٦م[٣]. ونظراً لأنه كان ناقماً على البربر فقد بدأ عهده بالتنكيل بهم، إذ كان يأمر بضرب رقابهم دونما ذنب يستدعي مثل هذه العقوبة، وكان يطاح برؤوس الأكابر منهم "وعشائرهم ينظرون إليهم ولا يجسرون في شفاعة"[٤].

ولم يكن الناصر قاسياً على البربر وحسب، وإنما "انقلب عن التجمّل الذي كان يظهره لأهل قرطبة، وأغرمهم ضروباً من المغارم، وعزم على إخلائها وإبادة أهلها"[٥]. وهذا الانقلاب على أهل قرطبة كان سببه ظهور أحد الأمويين في شرقي الأندلس، وهو: عبد الرحمن بن محمد بن عبد الملك بن عبد الرحمن الناصر[٦] الذي حظي بتأييد خيران العامري، بعد أن خلع خيران طاعة علي بن حمود (الناصر) لسببين رئيسيين: "أنه كان طامعاً أن يجد المؤيد حياً فلم يجده،...وأنه نُقل إليه أن عليّاً (الناصر) يريد قتله"[٧]. فلهذين السببين وغيرهما خرج خيران العامري إلى شرقي الأندلس حيث اجتمع إليه عدد كبير[٨]. وعندما ظهر عبد الرحمن بن محمد، الأموي، بايعه خيران وغيره ولقبوه المرتضى[٩].

---

(١) ابن عذاري، البيان المغرب: ١٢٠/٣؛ ابن الأثير، الكامل في التاريخ: ٢٨٥/٧.

(٢) ابن الأثير، الكامل في التاريخ:٢٨٥/٧؛ ابن عذاري، البيان المغرب: ١١٧/٣؛ المقري، نفح الطيب: ٤٣٠/١.

(٣) ابن الأثير، الكامل في التاريخ:٧/ ٢٨٥؛ ابن عذاري، البيان المغرب: ١٢٠/٣؛ ابن خلدون، تاريخ: ١٩٥/٤.

(٤) ابن عذاري، البيان المغرب: ١٢١/٣.

(٥) المصدر نفسه: ١٢١/٣.

(٦) ابن الأثير، الكامل في التاريخ: ٢٨٥/٧؛ ابن عذاري، البيان المغرب: ١٢١/٣.

(٧) ابن الأثير، الكامل في التاريخ: ٢٨٥/٧؛ وانظر: ابن عذاري، البيان المغرب: ١٢١/٣-١٢٢.

(٨) ابن عذاري، البيان المغرب: ١٢٢/٣.

(٩) ابن الأثير، الكامل في التاريخ: ١٨٥/٧.

وأصبح خيران من أقوى مؤيدي المرتضى، فقد راسل "منذر بن يحيى التجيبي، أمير سرقسطة والثغر الأعلى، وراسل أهل شاطبة وبلنسية وطرطوشة والبونت، فأجابوا كلهم إلى بيعته، والخلاف على علي بن حمود"[١]. وهكذا اتفق على المرتضى أكثر أهل الأندلس، واجتمع الفقهاء والشيوخ في مكان يعرف بالرياحين في عيد الأضحى من سنة ٤٠٨هـ/١٠١٧م حيث بايعوه[٢].

سار المرتضى بعد هذا التأييد الواسع الذي حظي به إلى غرناطة للاستيلاء عليها من يد أميرها زاوي بن زيري، ولما اقترب منها دعا ابن زيري إلى طاعته فأبى، ووقعت بينهما حرب كانت نتيجتها هزيمة المرتضى الذي كان قد أظهر الجفاء لمنذر بن يحيى التجيبي، ولخيران العامري، وعندما فر من معركته مع زاوي بن زيري محاولاً الاتجاه شمالاً، إلا أن خيران العامري جعل عليه عيوناً "لئلا يخفى أثره، فلحقوه بقرب وادي آش، وقد أمن على نفسه، فهجموا عليه، فقتلوه، وجاؤوا برأسه إلى خيران"[٣]. وكان مقتله في سنة ٤٠٨هـ/١٠١٧م[٤].

وكان علي بن حمود في أثناء ظهور المرتضى وما رافق ذلك من أحداث، كان يتردد على شرقي الأندلس لقتال خيران والعامريين. وفي ذي القعدة من سنة ٤٠٨هـ/١٠١٧م تجهز لقتالهم معتزماً التوجه إلى جيان حيث يحتشدون، واستكمل الاستعداد في الثامن والعشرين من ذي القعدة، إذ تجمع الجيش في ظاهر قرطبة بانتظار علي بن حمود ليقوده إلى غايته، ولكنه أبطأ "فلما طال على الناس انتظاره بحثوا عن أمره، فدخلوا عليه، فرأوه مقتولاً، فعاد العسكر إلى البلد"[٥]. ويذكر ابن عذاري أن الذين قتلوه هم صقالبته، وقد قتلوه "بموضع أمنه في حمام قصره، وكانوا ثلاثة صبيان...سدّوا باب الحمام عليه، وتسللوا فلم يحسّ أحد بهم، واستطال نساؤه بقاءه، فدخلوا عليه ودمه

---

[١] ابن الأثير، الكامل في التاريخ: ٢٨٥/٧.

[٢] المصدر نفسه: ٢٨٥/٧.

[٣] ابن عذاري، البيان المغرب: ١٢٧/٣؛ وانظر: ابن الأثير، الكامل في التاريخ: ٢٨٥/٧.

[٤] ابن الأثير، الكامل في التاريخ: ٢٨٥/٧.

[٥] المصدر نفسه: ٢٨٥/٧-٢٨٦.

يسيل، فصحّ خبر مقتله"[1]. وقد صلى عليه أخوه القاسم، ثم أنفذ جسده إلى سبتة حيث دُفن[2]، "وكان له من الولد يحيى وإدريس"[3].

القاسم بن حمّود الحَسَني (المأمون):

هو القاسم بن حمّود بن ميمون بن حمود بن علي بن عبيد الله بن إدريس الحسني[4]، أخو علي بن حمود، لقبه: المأمون، وكنيته: أبو محمد، وأمه: البيضاء القرشية[5]. وقد بويع بالخلافة يوم الثلاثاء ٤ ذي القعدة ٤٠٨هـ/١٠١٧م[6]، "فلما ولي واستقر ملكه كاتب العامريين واستمالهم، وأقطع زهيراً (العامري) جيان، وقلعة رباح، وبياسة. وكاتب خيران (العامري) واستعطفه فلجأ إليه، واجتمع به ثم عاد عنه إلى المرية"[7].

بدأ القاسم بن حمود عهده بالإحسان إلى الناس، ونشر العدل بينهم، فقد تلقاهم، "وأجمل مواعيدهم، وأخرج النداء في أقطار البلد بأمان الأحمر والأسود، وبراءة الذمة ممن تسوّر على أحد"[8].

وقد تمكن القاسم بن حمود (المأمون) من القبض على الصقالبة الثلاثة الذين قتلوا أخاه علياً الناصر في حمامه، وقتلهم "وتنسّم الناس روح الرفق، وباشروا ظل الأمن، واطمأنت بهم الدار"، وخاصة بعد أن أقرّ القاضي والحكام والعمال على منازلهم[9].

---

(1) ابن عذاري، البيان المغرب: ١٢٢/٣؛ وانظر: المراكشي، المعجب: ٢٨.

(2) ابن عذاري، البيان المغرب: ١٢٢/٣.

(3) المراكشي، المعجب: ٢٨.

(4) ابن عذاري، البيان المغرب: ١١٩/٣،١٢٤.

(5) المصدر نفسه: ١٢٤/٣.

(6) المراكشي، المعجب: ٢٨؛ المقري، نفح الطيب: ٤٣١/١؛ ابن عذاري، البيان المغرب: ١٢٤/٣.

(7) ابن الأثير، الكامل في التاريخ: ٢٨٦/٧.

(8) ابن عذاري، البيان المغرب: ١٣٠/٣؛ وانظر: المراكشي، المعجب: ٢٨-٢٩.

(9) ابن عذاري، البيان المغرب: ١٣٠/٣.

"وكان يذكر عن (القاسم بن حمود) أنه تشيّع، ولكنه لم يظهر ذلك، ولا غيّر على الناس عادة ولا مذهباً"[1]. كما أن القاسم كان كلفاً بالسّودان، بل زاد كلفه بهم "وقوّدهم على أعماله إلى أن ضعف أمره" إذ لم يلبث البربر أن تسلّطوا عليه، واحتقروه، مما دفعه إلى مكاتبة منذر بن يحيى التجيبي سرّاً، يستنهض همته لإجبار البربر على طاعته، إلا أنه لم يتمكن من ذلك[2].

وتكاثفت ضد القاسم بن حمود ظروف أخرى أدت إلى خلعه، فإضافة إلى اختلاف البربر عليه كان ابنا أخيه الناصر: يحيى وإدريس يرسمان الخطط للاستيلاء على قرطبة، وانتزاعه من كرسي الخلافة. وقد كان يحيى مقيماً في سبتة بالمغرب، بينما كان أخوه إدريس في مالقة وذلك منذ عهد أبيهما الناصر[3]. ويذكر ابن عذاري أن الأخويين "كانا يظهران مبايعة عمهما"[4]. إلى أن اجتاز يحيى مضيق جبل طارق إلى مالقة، فبعد أن استقر الأمر له فيها أخذ يستخفّ بعمّه القاسم الذي تخلى البربر عنه، ووجدوا في التنافس بينه وبين ابن أخيه فرصة لإضعاف الرجلين[5].

وظل أمر يحيى يقوى وأمر القاسم يضعف، ثم أدرك هذا الأخير أنه لن يتمكن من مجابهة ابن أخيه، ففر إلى إشبيلية، وعندئذ دخل يحيى قرطبة، "ودعا الناس إلى بيعته فأجابوه"[6]. ويبدو أن يحيى كان يعتمد على فريق من البربر الذين استجابوا لدعوته، إذ يذكر ابن عذاري أنهم هم الذي ضبطوا له قصر قرطبة[7].

---

(1) المراكشي، المعجب: ٢٨-٢٩.

(2) ابن عذاري، البيان المغرب: ١٣٠/٣.

(3) المصدر نفسه: ١٣٠/٣-١٣١؛ المقري، نفح الطيب: ٤٣١/١؛ المراكشي، المعجب: ٢٩.

(4) ابن عذاري، البيان المغرب: ١٣١/٣.

(5) المصدر نفسه: ١٣١/٣.

(6) ابن الأثير، الكامل في التاريخ: ٢٨٦/٧؛ وانظر: ابن عذاري، البيان المغرب: ١٣١/٣؛ المقري، نفح الطيب: ٤٣١/١؛ المراكشي، المعجب: ٢٩.

(7) ابن عذاري، البيان المغرب: ١٣١/٣.

يحيى بن حمّود (المعتلي):

كنيته: أبو زكريا، وقيل: أبو محمد. وأمه بنت عم أبيه، واسمها لبّونه بنت محمد بن الحسن بن قنّون[1]. تلقى بيعة الناس في قرطبة في مستهل جمادى الأولى من سنة ٤١٢هـ/١٠٢١م، وذلك بعد فرار عمه إلى إشبيلية بتسعة أيام[2].

اجتمع على المعتلي "الفريقان: الأندلس والبربر من أهل قرطبة وأعمالها خاصة، وكانت أم يحيى بنت محمد بن الأمير حسن بن القاسم المعروف بقنون، فعُرف بكرم الولادة، هاشمي الأبوين، رابع أربعة من أبناء القرشيات من خلائف الإسلام)[3].

وقد بدأ يحيى عهده مترسماً خطى أبيه الناصر، فقد جانب العصبية، وحكم بالعدل، وانتشر له من ذلك ذكر حسن، "إلا أن العجب والكِبْر شانا خصاله إلى أن خلّط وتبلّد، وتمّرست عفاريت زناتة فضيقت عليه في التكاليف، حتى اقتصر بعدما قصّر، وأخذ الإعجاب منه فكان عاقبة أمره خسراً"[4].

وبينما كان يدعى للمعتلي بالخلافة في قرطبة، كان يدعى لعمه القاسم بالخلافة في إشبيلية[5]، وهكذا أصبح في الأندلس خليفتان "وهو أمر لم يُسمع بأذل منه، ولا أدل منه على إدبار الأمور"[6]. ولم يلبث القاسم أن استجاش بعض البرابرة، وقوي بهم[7]، مما شجعه على مهاجمة قرطبة التي قام بربرها بخلع المعتلي. وقد وجد فرصته لمهاجمة قرطبة عندما خرج منها المعتلي متوجهاً إلى مالقة، حيث ركب القاسم، وجد في السير ليلاً

---

(1) ابن عذاري، البيان المغرب: ١٣١/٣.

(2) المصدر نفسه: ١٣١/٣؛ وانظر: ابن الأثير، الكامل في التاريخ: ٢٨٦/٧؛ المراكشي، المعجب: ٢٩.

(3) ابن عذاري، البيان المغرب: ١٣١/٣-١٣٢.

(4) المصدر نفسه: ١٣٢/٣.

(5) ابن الأثير، الكامل في التاريخ: ٢٨٦/٧؛ وانظر: ابن عذاري، البيان المغرب: ١٣٢/٣.

(6) ابن عذاري، البيان المغرب: ١٣٢/٣-١٣٣.

(7) المقري، نفح الطيب: ٤٣١/١؛ ابن الأثير، الكامل في التاريخ: ٢٨٦/٧.

ونهاراً إلى أن وصل إلى قرطبة فدخلها في ١٨ ذي القعدة ٤١٣هـ/١٠٢٢م[١]. وتم تجديد البيعة له، "فبقي بها يتسمى بأمير المؤمنين"[٢].

وعندما علم المعتلي بما انتهت إليه الأمور في قرطبة سار إلى الجزيرة الخضراء، وغلب عليها، وكان فيها أهل عمه القاسم وماله. أما إدريس أخو المعتلي فقد تغلب على طنجة، "وكانت عدة القاسم التي يلجأ إليها إن رأى ما يخاف بالأندلس، فلما ملك ابنا أخيه بلاده طمع فيه الناس، وتسلّط البربر على قرطبة"[٣].

وتلاحقت الأحداث بسرعة، وتشابكت ظروف كانت كلها ضد القاسم. وقد هب أهل قرطبة لخلعه، واجتمعوا على حربه، وبرزوا إلى قتاله في العاشر من جمادى الأولى ٤١٤هـ/١٠٢٣م "فاقتتلوا قتالاً شديداً، ثم سكنت الحرب، وأمن بعضهم بعضاً إلى منتصف جمادى الأولى من السنة، والقاسم بالقصر يظهر التودد لأهل قرطبة، وأنه معهم، وباطنه مع البربر"[٤]. وكان البربر قد تسلّطوا على أهل قرطبة، وتعرضوا لهم في الأسواق، وكان ذلك مما أدى إلى استحكام العداء بين الطرفين، ثم تطور ذلك إلى حرب شديدة، استمرت نحو خمسين يوماً، وانتهت بهزيمة البربر والقاسم هزيمة شديدة[٥].

غادر القاسم قرطبة مهزوماً إلى إشبيلية، وكان فيها ابناه: محمد والحسن. أما البربر الذين كانوا معه فقد تخلوا عنه، "ولحق كل طائفة منهم ببلد واستولوا عليه)[٦]. وربما ظن القاسم أن إشبيلية سترحب به، ولكن ظنه خاب، فقد "غلّق أهل إشبيلية أبوابها

---

(١) ابن الأثير، الكامل في التاريخ: ٢٨٦/٧؛ ابن عذاري، البيان المغرب: ١٣٣/٣؛ المقري، نفح الطيب: ٤٣١/١؛ المراكشي، المعجب: ٢٩.

(٢) ابن عذاري، البيان المغرب: ١٣٣/٣.

(٣) ابن الأثير، الكامل في التاريخ: ٢٨٦/٧؛ المقري، نفح الطيب: ٤٣١/١؛ المراكشي، المعجب: ٢٩.

(٤) ابن الأثير، الكامل في التاريخ: ٢٨٦/٧؛ وانظر: ابن عذاري، البيان المغرب: ١٣٤/٣.

(٥) ابن عذاري، البيان المغرب: ١٣٤/٣.

(٦) ابن الأثير، الكامل في التاريخ: ٢٨٧/٧؛ المقري، نفح الطيب: ٤٣٢/١؛ وانظر: المراكشي، المعجب: ٢٩.

دونه لكراهتهم في البربر، وأخرجوا له ابنيه من قصرهما ومن كان معهما من البربر، وضبطوا بلدهم"[1]. ويذكر المراكشي أن أهل إشبيلية "قدموا على أنفسهم ثلاثة من أكابر البلد، أحدهم: القاضي أبو القاسم محمد بن إسماعيل بن عباد اللخمي، ومحمد بن بريم الألهاني، ومحمد بن الحسن الزبيدي، ومكثوا كذلك أياماً مشتركين في سياسة البلد وتدبيره، ثم استبد القاضي أبو القاسم محمد بن إسماعيل بن عباد بالأمر والتدبير، وصار الآخران من جملة الناس"[2].

أما القاسم فقد استأنف سيره إلى جهة الغرب، ثم رحل منها إلى شريش. وأما البربر الذين كانوا معه فقد انضموا إلى ابن أخيه يحيى المعتلي في مالقة، وزحف بهم يحيى لحرب عمه القاسم في شريش "فحصروه ثم أخذوه أسيراً، فحبسه يحيى، فبقي في حبسه إلى أن توفي يحيى وملك أخوه إدريس، فلما ملك قتله. وقيل: بل مات حتف أنفه، وحُمل إلى ابنه محمد وهو بالجزيرة الخضراء فدفنه"[3]. وكانت وفاة القاسم، أو خنقه سنة ٤٣١هـ/١٠٣٩م[4].

وأما يحيى المعتلي فيذكر المراكشي أن قوماً من المفسدين سعوا في رد دعوته إلى قرطبة في سنة ٤١٦هـ/١٠٢٥م، إلا أنه تأخر عن دخولها، ثم قطعت طاعته طماعة من البربر. وخرج المعتلي يوماً بينما كان محاصراً لإشبيلية وهو سكران، فكمن له بعض أهلها وقتلوه يوم الأحد ٧ محرم ٤٢٧هـ/١٠٣٥م[5] "وكان له من الولد: الحسن وإدريس[6]. وسنشير إلى بعض أخبارهما فيما بعد.

---

[1] ابن عذاري، البيان المغرب: ١٣٤/٣-١٣٥؛ وانظر: ابن الأثير، الكامل في التاريخ: ٢٨٧/٧؛ المراكشي، المعجب: ٢٩.

[2] المراكشي، المعجب: ٢٩؛ وانظر: المقري، نفح الطيب: ٤٣٢/١؛ ابن الأثير، الكامل في التاريخ: ٢٨٧/٧.

[3] ابن الأثير، الكامل في التاريخ: ٢٨٧/٧؛ المراكشي، المعجب: ٢٩؛ المقري، نفح الطيب: ٤٣٢/١.

[4] المراكشي، المعجب: ٢٩؛ ابن الأثير، الكامل في التاريخ: ٢٨٧/٧.

[5] المراكشي، المعجب: ٣٠.

[6] المصدر نفسه: ٣٠.

وكانت قرطبة في تلك الأثناء تعاني من فراغ سياسي، فبعد القاسم والمعتلي اللذين أخرجا منها لم يعد فيها خليفة يدبر شؤونها، ثم أقام أهلها إماما من بني أمية، هو سليمان بن عبد الرحمن، ولقبوه: المرتضى "فبينما هم يريدون تقديمه إذ هجم عليهم في المسجد الجامع: عبد الرحمن بن هشام بن عبد الجبار في شرذمة من الناس يدعو إلى نفسه، فرجعوا إليه بين مكره وراض، وهو أخو المهدي محمد بن هشام بن عبد الجبار"[1].

عبد الرحمن بن هشام (المستظهر):

هو عبد الرحمن بن هشام بن عبد الجبار بن عبد الرحمن الناصر، كنيته أبو المطرف، وأمه رومية اسمها: غاية[2]. وقد بايعه أهل قرطبة بالخلافة يوم الثلاثاء ١٦ رمضان ٤١٤هـ/١٠٢٣م، وعمره حينئذ اثنتان وعشرون سنة، وتلقب بالمستظهر بالله[3]. وكان أهل قرطبة قد اختاروه اختيارا من بين ثلاثة من الأمويين كان أحدهم، أما الأمويان الآخران فهما: سليمان بن المرتضى ومحمد بن عبد الرحمن بن هشام بن سليمان[4]. ويوضح ابن عذاري كيفية اختياره فيذكر نقلا عن ابن القطان أن عبد الرحمن بن هشام (المستظهر) "قد كان هم بالوثوب على الخلافة عند انقراض سلطان القاسم بن حمود بقرطبة، وبث دعوته فلم يصح له شيء مما أراد"[5]. فقد قبض أهل قرطبة على دعاته وسجنوهم بينما بقي هو مستخفيا. ثم لجأ أهل قرطبة إلى الشورى لاختيار الخليفة من الأمويين الثلاثة الذين ذكرناهم، وأحضروا الخاصة والعامة إلى المسجد الجامع لمشاهدة

---

[1] ابن عذاري، البيان المغرب: ١٣٥/٣؛ وانظر: ابن الأثير، الكامل في التاريخ: ٢٨٧/٧.

[2] ابن عذاري، البيان المغرب: ١٣٥/٣؛ ابن الأثير، الكامل في التاريخ: ٢٨٧/٧؛ المراكشي، المعجب: ٣١.

ابن عذاري، البيان المغرب: ١٣٥/٣؛ ابن الأثير، الكامل في التاريخ: ٢٨٧/٧ ويذكر أنه بويع في الثالث عشر من رمضان؛ المقري، نفح الطيب: ٤٣٧/١-٤٣٨؛ المراكشي، المعجب: ٣١.

[3] ابن عذاري، البيان المغرب: ١٣٥/٣؛ ابن الأثير، الكامل في التاريخ: ٢٨٧/٧ ويذكر أنه بويع في الثالث عشر من رمضان؛ المقري، نفح الطيب: ٤٣٧/١-٤٣٨؛ المراكشي، المعجب: ٣١.

ابن عذاري، البيان المغرب: ١٣٦/٣؛ المراكشي، المعجب: ٣٠-٣١.

[4] ابن عذاري، البيان المغرب: ١٣٦/٣؛ المراكشي، المعجب: ٣٠-٣١.

[5] ابن عذاري، البيان المغرب: ١٣٦/٣.

من يقع عليه الاختيار "وكان أول من وافى منهم سليمان المرتضى في أبهة دلت على أن المراد فيه، فدخل والسرور بادٍ عليه، فقدمه أصحابه إلى البهو، فأجلس على مرتبة لا تصلح لسواه وهو جذلان لا يشك في تتمة الأمر له"[1].

ويبدو أن أهل قرطبة مالوا إلى اختيار سليمان فعلاً ليكون الخليفة، وأن أنباء ذلك تسرّبت إلى عبد الرحمن بن هشام، إذ سرعان ما وافى المكان في خلق عظيم من الجند والعامة، فباغت بذلك أكابر قرطبة الذين كانوا على وشك مبايعة سليمان، واضطروا – وقد أصبحوا أمام أمر واقع، حيث دخل عبد الرحمن عليهم، وقعد في المقصورة – إلى مبايعته[2].

كان المستظهر "فطناً لوذعياً ذكياً يقظاً لبيباً أديباً فصيح الكلام جيد القريحة مليح البلاغة"[3]. إلا أنه مع كل ذلك كان معتداً برأيه إلى درجة الغلوّ، مما جرّ عليه المصائب قبل أن يستقر له أمر الخلافة، فقد قبض على جماعة من أعيان قرطبة وسجنهم لميلهم إلى سليمان بن المرتضى[4]، ومن بينهم شخص يدعى ابن عمران كان شديد الكراهية له، ومع ذلك أخرجه من السجن مخالفاً نصيحة أصحابه، وكان ابن عمران وغيره من المسجونين قد تمكنوا من الاتصال بالناس، وألّبوهم ضد المستظهر "فأجابهم صاحب الشرطة وغيره، واجتمعوا، وقصدوا السجن فأخرجوا من فيه"[5]. وكان من بين هؤلاء الذين احتشدوا ضد المستظهر: أبو عبد الرحمن محمد بن عبد الرحمن بن عبيد الله بن عبد الرحمن الناصر، الذي قاد العامة، ولم يشعر المستظهر إلا والناس قد انتشروا على سقف القصر، فأصبح في متناول أيديهم، وخاصة بعد أن أحاطوا به من كل جهة[6]، "فجاء إلى باب الحمام يطمع في الخروج منه، فقام في وجهه الدائرة السوء يسبّونه، فارتد على عقبه، وترجل

---

(1) ابن عذاري، البيان المغرب: ٣/١٣٦.

(2) المصدر نفسه: ٣/١٣٦.

(3) المصدر نفسه: ٣/١٣٩.

(4) ابن الأثير، الكامل في التاريخ: ٧/١٨٧.

(5) المصدر نفسه: ٧/١٨٧؛ وانظر: ابن عذاري، البيان المغرب: ٣/١٣٨.

(6) ابن عذاري، البيان المغرب: ٣/١٣٨.

عن فرسه، وتجرّد من ثيابه حتى بقي في قميصه، واستخفى في أتون الحمام"[1] وفُقد أثره فترة من الوقت، عُثر في خلالها على حرمه، فقام المهاجمون بسبي أكثرهن "وحملوهن إلى منازلهم علانية، وجرى عليهن ما لم يجر على حرم سلطان في مدة تلك الفتنة"[2].

ولم يمض وقت طويل حتى عُثر على المستظهر "في أتون الحمام قد انطوى انطواء الحية في مكان حرج في قميص سود بحال قبيحة، وجيء به إلى محمد بن عبد الرحمن، وقد بويع، فبطش به بعض الرجال القائمين على رأسه فقتلوه"[3]، وكان ذلك في ٣ ذي القعدة ٤١٤هـ/١٠٢٣م، بعد سبعة وأربعين يوماً فقط من خلافته[4].

محمد بن عبد الرحمن (المستكفي بالله):

هو محمد بن عبد الرحمن بن عبيد الله الناصر، لقبه: المستكفي بالله، وكنيته: أبو عبد الرحمن، وأمه أم ولد اسمها: حوراء[5]. وقد استولى على كرسي الخلافة بالقوة، حيث ثار على المستظهر، فاتبعه الغوغاء، وفتكوا بالخليفة على النحو الذي ذكرنا، وبويع في اليوم الذي قتل فيه المستظهر، وهو يوم السبت لثلاث خلون من ذي القعدة سنة أربع عشرة وأربعمائة"[6] (١٠٢٣م).

لم يكن المستكفي بالله بالرجل الذي يعتد به، أو يعتمد عليه، وهو مثل الخليفة العباسي عبد الله المستكفي، الذي اشترك معه في اللقب، كان فاسقاً سيء الخلق، منصرفاً

---

[1] ابن عذاري، البيان المغرب: ١٣٨/٣-١٣٩.

[2] المصدر نفسه: ١٣٩/٣.

[3] المصدر نفسه: ١٣٩/٣.

[4] المصدر نفسه: ١٣٥/٣؛ المراكشي، المعجب: ٣١؛ ابن الأثير، الكامل في التاريخ: ٢٨٧/٧؛ ابن خلدون، تاريخ: ١٩٥/٤؛ المقري، نفح الطيب: ٤٣٧/١.

[5] ابن عذاري، البيان المغرب: ١٤٠/٣؛ وانظر: المراكشي، المعجب: ٣١.

[6] ابن عذاري، البيان المغرب: ١٤٠/٣-١٤١؛ وانظر: المراكشي، المعجب: ٣١؛ ابن الأثير، الكامل في التاريخ: ١٨٧/٧.

إلى اللهو والعبث[1]. وتكاد المصادر تجمع على ذلك، إذ يصفه ابن الأثير بأنه "كان همّه لا يعدو فرجه وبطنه، وليس له همّ ولا فكر في سواهما"[2]. ويذكر المراكشي أنه "كان في غاية السخف، وركاكة العقل، وسوء التدبير"[3]. ويقول ابن عذاري عنه: "لم يكن محمد هذا من الأمر في ورد ولا صدر، وإنما أرسله الله تعالى على أهل قرطبة الخاسرين بليّة، وكان منذ عُرف عطلاً منقطعاً إلى البطالة، محمولاً على الجهالة، عاطلاً من طلّة تدل على فضيلة"[4]، إلا أنه أنجب الأديبة المشهورة ولاّدة بنت المستكفي[5].

ظل المستكفي في قصر الخلافة "أسير الشهوة عاهر الخلوة"، وهو أمر لم يقو أهل قرطبة على احتماله طويلاً، فبعد نحو ستة عشر شهراً ثاروا عليه، وخلعوه[6]، "وأخرجوه عن قرطبة بعد أن أقام ثلاثة أيام مسجوناً لا يصل إليه طعام ولا شراب، ثم نفوه"[7]. ويذكر ابن عذاري أنه خرج من قرطبة بعد أن "لبس ثياب الغانيات متنقباً بين امرأتين، لم يُميّز منهم"[8]. وبعد سبعة عشر يوماً من خلعه وُجد مقتولاً، وقيل مسموماً في قرية من أعمال مدينة سالم، وذلك في ربيع الآخر من سنة ٤١٦هـ/١٠٢٥م[9].

وبينما كانت تلك الأحداث دائرة في قرطبة كان يحيى بن علي بن حمود (المعتلي بالله) قد علا شأنه في مالقة، وكان يخطب لنفسه فيها بالخلافة. وقد وجد فيه أهل قرطبة الرجل المناسب بعد أن صحّ عندهم خبر موت المستكفي، "فكتبوا إليه، وخاطبوه

---

[1] ابن عذاري، البيان المغرب: ١٤١/٣.

[2] ابن الأثير، الكامل في التاريخ: ٢٨٧/٧.

[3] المراكشي، المعجب: ٣١.

[4] ابن عذاري، البيان المغرب: ١٤١/٣.

[5] المقري، نفح الطيب: ٤٣٧/١.

[6] ابن الأثير، الكامل في التاريخ: ٢٨٧/٧-٢٨٨.

[7] المراكشي، المعجب: ٣١.

[8] ابن عذاري، البيان المغرب: ١٤٢/٣.

[9] ابن الأثير، الكامل في التاريخ: ٢٨٨/٧؛ المراكشي، المعجب: ٣٢؛ ابن عذاري، البيان المغرب: ١٤٢/٣.

بالخلافة، وخطبوا له في رمضان سنة ست عشرة وأربعمائة، فأجابهم إلى ذلك"[1]. وهكذا تولى المعتلي الخلافة في قرطبة للمرة الثانية، غير أن المصادر اختلفت فيما إذا كان المعتلي قد عاد إلى قرطبة، وجلس على كرسي الخلافة في قصرها، أم أنه أرسل إليها عاملاً من قبله، بينما ظل هو في مالقة أو غيرها، إذ يذكر المراكشي أنه لم يدخل قرطبة، وإنما كان مقيماً بقرمونة[2]، ويذكر ابن الأثير أن المعتلي أرسل إلى قرطبة: عبد الرحمن بن عطاف اليفرني والياً عليها، ولم يحضر هو[3]. أما ابن عذاري فيؤكد أن المعتلي دخل قرطبة في رمضان من سنة ٤١٦هـ/١٠٢٥م، وظل فيها حتى نهاية تلك السنة[4].

ويذكر ابن عذاري أيضاً أن المعتلي خرج من قرطبة إلى مالقة في سنة ٤١٧هـ/١٠٢٦م، وبقي فيها وزيره وكاتبه أبو جعفر أحمد بن موسى، ثم تعرضت قرطبة لمخاطر خارجية، إذ زحف عليها مجاهد وخيران العامريان بأوامر من حبوس بن ماكسن. ولما أحس أهلها باقترابهما، رجعوا إلى من كان عندهم من البربر، فقتلوا منهم نحو ألف رجل، وذلك في ربيع الأول سنة ٤١٧هـ/١٠٢٦م[5]. وأقام خيران ومجاهد في قرطبة نحو شهر، "ثم اختلفا فخاف كل واحد منهما صاحبه"[6]، وخرجا عن قرطبة متعاقبين. "وبقي أهل قرطبة في هرج واختلاط ومرج وخوف عظيم من توقع رجوع البربر إليهم...فكانت دولة المعتلي بالله بقرطبة، هذه الثانية، ثلاثة أشهر واثنتين وعشرين يوماً"[7].

---

[1] ابن الأثير، الكامل في التاريخ: ٢٨٨/٧.

[2] المراكشي، المعجب: ٣٢.

[3] ابن الأثير، الكامل في التاريخ: ٢٨٨/٧؛ وانظر: ابن خلدون، تاريخ: ١٩٧/٤.

[4] ابن عذاري، البيان المغرب: ١٤٢/٣.

[5] المصدر نفسه: ١٤٣/٣؛ وللمقارنة انظر: ابن الأثير، الكامل في التاريخ: ٢٨٨/٧؛ وابن خلدون، تاريخ: ١٩٧/٤.

[6] ابن الأثير، الكامل في التاريخ: ٢٨٨/٧؛ وانظر: ابن عذاري، البيان المغرب: ١٤٤/٣-١٤٥.

[7] ابن عذاري، البيان المغرب: ١٤٥/٣.

وقد ظل المعتلي خليفة بمالقة إلى أن قُتل بقرمونة في المحرم من سنة ٤٢٧هـ/١٠٣٥م[١]، أما قرطبة فقد "أجمع أهلها على خلع العلويين لميلهم إلى البربر، وإعادة الخلافة بالأندلس إلى بني أمية"[٢].

هشام بن محمد (المعتد بالله):

هو هشام بن محمد بن عبد الملك بن عبد الرحمن الناصر، كنيته: أبو بكر، وأمه أم ولد اسمها: عاتب، ولقبه: المعتد بالله[٣]. وهو أخو المرتضى: عبد الرحمن بن محمد بن عبد الملك بن عبد الرحمن الناصر الذي نصبه خيران العامري خليفة في شرقي الأندلس سنة ٤٠٧هـ/١٠١٦م، ثم قتله رجال خيران نفسه سنة ٤٠٨هـ/١٠١٧م[٤]. وقد كان هشام بعد مقتل أخيه المرتضي، وهزيمة جيشه على يد البربر في غرناطة قد التجأ إلى عبد الله بن القاسم الفهري في حصن البونت من شرقي الأندلس[٥]، في الوقت الذي خلت فيه قرطبة من الأمويين والعلويين أيضاً، وذلك بعد أن قام أهلها على المعتلي وخلعوه سنة ٤١٧هـ/١٠٢٦م[٦].

ولم يكن هشام بن محمد مقصوداً بذاته عندما فكر أهل قرطبة برد الخلافة إلى الأمويين بعد أن عانوا كثيراً من حكم العلويين الذي استمر نحو سبع سنين، وقد قاد عملية البحث عن خليفة أموي "عميد الجماعة وكبير قرطبة"[٧]: أبو الحزم جهور بن محمد بن عبيد الله بن محمد الغمر بن يحيى بن عبد الغافر بن أبي عبده[٨]، فقد راسل الثغور،

---

[١] ابن عذاري، البيان المغرب: ١٤٤/٣.

[٢] ابن الأثير، الكامل في التاريخ: ٢٩٠/٧؛ وانظر: المراكشي، المعجب: ٣٢.

[٣] ابن عذاري، البيان المغرب: ١٤٥/٣؛ المراكشي، المعجب: ٣٢-٣٣؛ ابن الأثير، الكامل في التاريخ: ٢٩٠/٧.

[٤] ابن الأثير، الكامل في التاريخ: ٢٨٥/٧، ٢٩٠؛ ابن عذاري، البيان المغرب: ١٢٧/٣، ١٤٥؛ وانظر: المراكشي، المعجب: ٣٢.

[٥] ابن عذاري، البيان المغرب: ١٤٥/٣.

[٦] المراكشي، المعجب: ٣٢.

[٧] المقري، نفح الطيب: ٤٣٨/١؛ وانظر: المراكشي، المعجب: ٣٢؛ ابن خلدون، تاريخ: ١٩٦/٤.

[٨] ابن عذاري، البيان المغرب: ١٨٥/٣-١٨٦؛ المراكشي، المعجب: ٣٢.

واهتدى إلى هشام، فعرض الأمر على أهل قرطبة، فوافقوه، حيث اجتمع الـرأي على هشام بعد مدة طويلة، حيث خطبوا له في ربيع الأول من سنة ٤١٨هـ/١٠٢٧م[1]. وكان المتوقع أن يحضر هشام الذي تلقب: المعتد بالله إلى قرطبة فور مبايعته، غير أنه لم يفعل، وبالتالي فإن بيعته لم تكن كاملة، إذ اقتصرت بيعته على أهل الثغر، وظل يتردد هناك سنتين وسبعة أشهر وثمانية أيام[2].

وتشير المصادر إلى أن فتناً واضطرابات كبيرة وقعت في الثغور بين رؤساء المناطق هناك، غير أنها لم تذكر أسبابها، وربما كان ذلك بسبب عدم اتفاق الرؤساء على المكان الذي يجب أن يقيم فيه الخليفة، حيث أشارت تلك المصادر إلى أن الرؤساء بعد اختلافهم "اتفق أمرهم، واجتمع رأيهم على أن يسير إلى قرطبة قصبة الملك، فسار إليها ودخلها"[3].

جلس هشام بن محمد على كرسي الخلافة بقرطبة في ٨ ذي الحجة ٤٢٠هـ/١٠٢٩م[4]، واتخذ وزيراً "لم تكن له سالفة بشرف ولا جاه متقدم"[5]. "ولم يكن له قديم رياسة"[6]. وهو: أبو العاصي حكم بن سعيد القزاز الذي أساء التصرف، حيث كان يأخذ أموال التجار فيتكرم بها على البربر، ويجزل لهم العطاء، ولذلك كرهه أهل قرطبة الذين كانوا لا يطيقون البربر[7]. ولم يفعل هشام المعتد بالله شيئاً لثني القزاز عن تصرفاته، ولذلك قرر أهل قرطبة التخلص منه، فدسّوا إليه رجلاً منهم " مثّل بين

---

(1) ابن عذاري، البيان المغرب: ١٤٥/٣-١٤٦؛ المراكشي، المعجب: ٣٢؛ ابن الأثير، الكامل في التاريخ: ٢٩٠/٧؛ ابن خلدون، تاريخ: ١٩٦/٤؛ المقري، نفح الطيب: ٤٣٨/١.

(2) ابن عذاري،البيان المغرب:١٤٥/٣؛ ابن الأثير،الكامل في التاريخ:٢٩٠/٧؛ المراكشي،المعجب: ٣٣

(3) المراكشي، المعجب: ٣٣؛ ابن الأثير، الكامل في التاريخ: ٢٩٠/٧؛ ابن عذاري، البيان المغرب: ١٤٥/٣؛ ابن خلدون، تاريخ: ١٩٦/٤؛ المقري، نفح الطيب: ٤٣٨/١.

(4) ابن عذاري، البيان المغرب: ١٤٥/٣؛ ابن الأثير، الكامل في التاريخ: ٢٩٠/٧؛ المراكشي، المعجب: ٢٣.

(5) ابن عذاري، البيان المغرب: ١٤٦/٣.

(6) ابن الأثير، الكامل في التاريخ: ٢٩٠/٧.

(7) ابن عذاري، البيان المغرب: ١٤٦/٣؛ ابن الأثير، الكامل في التاريخ: ٢٩٠/٧.

يديه وقال له: عندي نصيحة أريد أن أسرّها إليك، وكان أبو العاصي المذكور أطرش لا يسمع إلا يسيراً، فلما أعطاه إذنه رمى به عن فرسه في بعض أزقة المدينة فقتله. وكان الذي قتله يعرف بابن الحصار"[1].

ولم يكتف أهل قرطبة بقتل وزير الخليفة، بل نقموا على الأمويين، إذ أدركوا أن هؤلاء الذين تبقوا من أحفاد أمرائهم وخلفائهم العظام لا أمل فيهم، ولذلك قاموا على هشام المعتد بالله، وخلعوه في ٢ ذي الحجة ٤٢٢هـ/١٠٣٠م[2]. وبعد خلع المعتد بالله أخرجه أهل قرطبة من قصره "هو وحشمه والنساء حاسرات عن أوجههن، حافية أقدامهن إلى أن دخلوا الجامع الأعظم على هيئة السبايا"[3]. ويذكر ابن عذاري أنه وهو في المسجد الجامع كان يسأل "الداخلين عليه إحضار كسيرة خبز يسد بها جوع طفيلة له كان قد احتضنها ساتراً لها بكمه من قُرّ ليلته تلك، كانت تشكو الجوع ذاهلة عما أحاط بها"[4].

وقرر أهل قرطبة الفراغ من هشام المعتد بالله في اليوم التالي، حيث أخرجوه من قرطبة فعلاً، فرحل إلى حصن بجبل قرطبة، ثم انتقل إلى حصن آخر حيث تم حبسه، إلا أنه تمكن من الفرار ليلاً، ولم يزل يجول في الثغور إلى أن لحق بسليمان بن هود الجذامي الذي كان في ذلك الوقت متغلباً على مدن الثغر الأعلى: لاردة وسرقسطة وإفراغة وطرطوشة، فأكرمه ابن هود، وبقي عنده إلى أن توفي في صفر سنة ٤٢٨هـ/١٠٣٦م، ودفن في لاردة[5].

وكان هشام المعتد بالله آخر أموي يتولى الخلافة في الأندلس، ولا يعني ذلك أنه لم يبق منهم أحد، وإنما يعني أنهم أصبحوا مرفوضين من أهل قرطبة. فقد حاول أحدهم،

---

(١) ابن عذاري، البيان المغرب: ١٤٦/٣.

(٢) ابن الأثير، الكامل في التاريخ: ٢٩٠/٧؛ ابن عذاري، البيان المغرب: ١٤٥/٣ حيث يذكر أن خلعه تم في الثاني عشر من ذي الحجة.

(٣) المراكشي، المعجب: ٣٣.

(٤) ابن عذاري، البيان المغرب: ١٥١/٣.

(٥) المراكشي، المعجب: ٣٣؛ ابن الأثير، الكامل في التاريخ: ٢٩٠/٧؛ وانظر: المقري، نفح الطيب: ٤٣٨/١؛ ابن خلدون، تاريخ: ١٩٦/٤؛ ابن عذاري، البيان المغرب: ١٤٦/٣.

وهو: أمية بن عبد الرحمن بن هشام بن عبد الجبار بن عبد الرحمن الناصر أن يصل إلى كرسي الخلافة بعد خلع هشام المعتد بالله، فقال له قائل من أهل قرطبة: "إن السعادة قد ولّت عنكم، فقال: بايعوني اليوم، واقتلوني غداً"[1]، ومع ذلك رفضوا وأمروا بإخراجه مع المعتد بالله عن قرطبة[2]. بل أخذ المنادي ينادي في أسواق قرطبة بضرورة قيام بني أمية بمغادرتها، محذراً من يبقى فيها منهم، ومن يخفي أياً من الأمويين[3].

وهكذا انفرط عقد الخلافة الأموية في الأندلس وفي المغرب أيضاً، وانقطعت الدعوة لبني أمية وذكرهم على المنابر في جميع أقطارهما[4]. وبذلك حلّت بالأندلس كارثة عظمى، حيث تفرق شملها، وتوزعت إلى ممالك كثيرة. وقد وصفت المصادر تلك الفترة بما يعكس ما آلت إليه الأندلس، فقد قال ابن خلدون "صار ملكها في طوائف من الموالي والوزراء وأعياص الخلافة وكبار العرب والبربر، واقتسموا خططها، وقام كل واحد بأمر ناحية منها. وتغلّب بعض على بعض، واستقل أخيراً بأمرها ملوك استفحل شأنهم"[5].

وقال ابن عذاري "فمن هذا التاريخ (٤٢٢هـ/١٠٣٠م) كثرت الفتنة، وتمادى وانتزى كل أحد في موضعه، واستبدّ رؤساء الأندلس وثوارها فيما بين أيديهم من البلاد والمعاقل، وبغى بعضهم على بعض، ولله الحول والقوة"[6].

وذكر ابن الكردبوس أنه بعد أن "انقطع اسم الخلافة من الجزيرة...دارت الدوائر المبيرة، وفسد حال الرائس والمرؤوس، وارتفع كل خامل وخسيس، وثار الثوار، واشتعلت بكل مكان النار"[7].

---

(١) ابن الأثير، الكامل في التاريخ: ٢٩٠/٧.

(٢) المصدر نفسه: ٢٩٠/٧.

(٣) ابن عذاري، البيان المغرب: ١٥٢/٣.

(٤) المراكشي، المعجب: ٣٣.

(٥) ابن خلدون، تاريخ: ٢٠٠/٤؛ وانظر: المقري، نفح الطيب: ٤٣٨/١.

(٦) ابن عذاري، البيان المغرب: ١٥٢/٣.

(٧) ابن الكردبوس، تاريخ الأندلس: ٦٨.

لقد قـاد الحملـة ضـد الخلافـة الأمويـة بالأندلس أبو الحزم جهـور "وكـان من وزراء الدولـة العـامرية، قديم الريـاسة، موصـوفاً بالدهـاء والعقـل، ولم يدخل في شيء من الفتـن...بل كان يتصـاون عنها"[1]. وربما كان يتوقـع أن يـؤول أمـر الأندلس إليـه بعد إلغـاء الخلافـة، غير أن الأمور سـارت على غير ما يحـب، فقد توزعـت الأنـدلس – كما ذكرنـا – بين المتنفّذيـن، وظلـت كذلـك إلـى أن تمكـن المرابطون من ضمها تحت لوائهم سنة ٤٨٤هـ/١٠٩١م[2] على النحـو الـذي سـيأتي تفصيله.

وكان ملوك الفتنة ينضوون تحت ألوية ثلاثة أحزاب كبيرة – إن جـاز التعبـير– تتمثل في: أهل الأندلس الذين استقروا فيها منذ الفتح، وهم: أهل الجماعة، ومنـهم بنـو عباد، وبنو جهور، وبنو هود، وبنو تُجيب، وبنو برزال وغيرهم. أما الحزب الثاني فيمثله البربر الذين وفدوا على الأندلس في أيام المنصور محمد بن أبي عامر، واستقروا فيـها، ومنهم: بنو زيري، وبنو حمّود. وأما الحزب الثالث فيمثله العامريون الصقالبة. لقد حـاول كل من هؤلاء المتنفذين أن يقيم إمارة أو مملكة في ناحية من نواحي الأندلـس، ووقعـت فيما بينهم حروب، وحاول كل منهم أن يتوسع على حساب غيره. واستغل النصارى هـذه الأحداث، وأخذوا يقضمون الأندلس، ويحتلون أطرافها مما اضطر بعض ملوك الفتنة إلى الاستغاثة بالمرابطين في المغرب، فهب هؤلاء إلى إغاثتهم، والدفاع عن الأندلـس ضـد النصارى. ثم انتهى الأمر بهؤلاء المرابطين أن استولوا على الأندلس كلـها، وضموهـا تحت لوائهم.

وقد تنوع ملوك الفتنة واختلفت منابتهم وأصولهم كما أشـرنا، فـهناك الصقالبـة العامريون الذين عُرفوا بالفتيان، وهناك بنو صمادح التجيبيون، وبنو يحيـى التجيبيـون أيضاً، وبنو برزال، وبنو عباد، وبنو الأفطس، وبنو هود، وبنو ذي النـون، والبكريـون، وبنو يفرن، والصنهاجيون، وبنو حمّود العلويون، وبنو جهور، وغيرهم.

---

[1] ابن الأثير، الكامل في التاريخ: ٢٩٠/٧.

[2] ابن خلدون، تاريخ: ٢٠٠/٤؛ المقري، نفح الطيب: ٤٣٨/١.

وكان ملوك الفتنة يتربص بعضهم ببعض، ويحاول كل منهم التوسع على حساب جاره مستخدماً القوة، مضحياً بالرجال والأموال، مستعيناً بملوك النصارى في شن الحروب ضد إخوانه المسلمين. وقد استغل النصارى هذه الأوضاع المتردية لصالحهم، فكانوا يقبضون الأموال الطائلة، ويتلقون الهدايا الفاخرة، ويأخذون الحصون والقلاع الإسلامية بالتنازل عنها لهم، كل ذلك ثمناً لمعونتهم التي يقدمونها لهذا الملك أو ذاك من ملوك الفتنة لعلّه يتغلب على غيره من الملوك أو يتقي شرّه بإضعافه، أو يتسنى له السيطرة على بعض المواقع التابعة له.

وكانت هذه الفوضى العارمة، وما تخللها وتبعها من اقتتال بين ملوك الفتنة، كانت لصالح النصارى أولاً وأخيراً؛ فقد وجدوا في ضعف الأندلس وتمزقها إلى دويلات متناحرة فرصتهم الذهبية، فقد أخذوا يشنون الهجمات المحدودة أول الأمر عوناً لمن يطلب عونهم من ملوك الفتنة، فقوّضوا الخطوط الدفاعية للأندلس مما سهل عليهم اختراقها فيما بعد، وأهلكوا الزرع والضرع في الثغور مما سهل عليهم اجتياحها بعد أن جلا سكانها عنها، ومكنهم ذلك من الانتقال من مرحلة الاشتباكات المحدودة لصالح ملوك الفتنة الذين يستعينون بهم إلى مرحلة شن الحروب الطاحنة، والاشتباك مع المسلمين في معارك استولوا في أعقابها على مدن كبرى، ونكلوا بأهلها تنكيلاً. ودفع ذلك أهل الأندلس إلى مد أنظارهم عبر المضيق إلى الخارج، وإرسال الوفود تلو الوفود إلى الدول الإسلامية التي نشأت في شمالي إفريقية، وخاصة المرابطين، طلباً للغوث والنجدة، وقد لاقى صريخهم آذاناً صاغية من المرابطين المسلمين الذين حاولوا توحيد الجهود الأندلسية، ولم شمل ملوك الفتنة، ولما رفض هؤلاء استولوا على ممالكهم كلها، وضموها إلى لوائهم.

وليس من السهل تناول كل مملكة من ممالك الأندلس في عهد الفتنة دون خلط كبير، وتكرار كثير للمعلومات المتعلقة بها، وذلك بسبب تداخل الأحداث وتشابكها، فعند الحديث عن بني عباد مثلاً لا بد من الحديث عن بني ذي النون، وعن بني جهور وغيرهم. وعند الحديث عن بني ذي النون لا بد من تكرار كثير مما قيل من تفاصيل عن بني عباد، وبني جهور أيضاً. فالتفاصيل المتعلقة بكل مملكة متصلة ومتداخلة مع التفاصيل المتعلقة بمملكة أخرى مجاورة لها، أو قريبة منها. ولذلك آثرت هذه الدراسة تناول ملوك الفتنة بأسلوب مختلف، حيث ستعرض هؤلاء الملوك حسب منابتهم وأصولهم

دون تعرض إلا إلى القليل من التفاصيل المتعلقة بصلاتهم معاً، ومن ثم ســـتتناول أهــم الأحداث وكبريات الوقائع التي شهدها عصرهم. غير أن هذه القاعدة سيستثنى منها بنـــو جهور، ذلك لأنهم أسسوا في قرطبة دولة بدأت بداية فريدة، كانت بمثابة حــلاوة الــروح لدولة بني أمية عند احتضارها، فكانت متميزة في نهجـــها وخططـــها وطريقـــة حكمـــها وحرصها على الجماعة الإسلامية، وإن انتهت على نحو مشابه لما انتهت إليـــه الممـــالك الأخرى.

بنو جهور / قرطبة (٤٢٢-٤٦١هـ/١٠٣٠-١٠٦٨م):

أولهم أبو الحزم جهور بن محمد بن جهور بن عبد الملك بن جهور بن عبد الله بن أحمد بن محمد بن الغمر بن يحيى بن عبد الغافر بن يوسف بن بخت بن أبي عبده[١]، كان جده: بخت بن أبي عبده فارسياً مولى لعبد الملك بن مروان، الخليفة الأموي، وكان يوسف بن بخت أول الداخلين إلى الأندلس، حيث أصبح أحد كبار الموالي بقرطبة[٢].

-أبو الحزم جهور (٤٢٢-٤٣٥هـ/١٠٣٠-١٠٤٣م):

كان أبو الحزم جهور من وزراء بني عامر الذين استولوا على الحكم منذ أيام الخليفة الأموي الحكم المستنصر[٣]. وعندما كثرت الفتن في أواخر عهد الدولة الأموية لم يدخل شيء منها، فقد تجنّب كل ذلك، وأظهر من الحرص على الجماعة ما جعل أهل قرطبة يولونه ثقتهم، فبعد خلع الخليفة الأموي هشام المعتد بالله، وطرد الأمويين من قرطبة اجتمع أهلها، وقرروا تفويض أمرهم لأبي حزم[٤]، "فاخترع لهم لأول وقته نوعاً من التدبير حملهم عليه، وأجادوا السياسة فيه"[٥]. ذلك أنه لم يبادر للانتقال إلى القصر، ولم يجلس على كرسي الخلافة، وإنما أخذ يدير الدولة ويدبر شؤونها من بيته "وجعل ما يرتفع إليه من الأموال السلطانية بأيدي رجال رتبهم لذلك وهو المشرف عليهم، وصيّر أهل الأسواق جنداً، وجعل أرزاقهم ربح أموال تكون بأيديهم ديناً عليهم، فيكون الربح لهم

---

[١] ابن عذاري، البيان المغرب: ٣/١٨٥؛ وانظر: ابن خلدون، تاريخ: ٤/٢٠٤؛ المراكشي، المعجب: ٣٢.

[٢] ابن عذاري، البيان المغرب: ٣/١٨٥-١٨٦.

[٣] ابن الأثير، الكامل في التاريخ: ٧/٢٩٠؛ ابن خلدون، تاريخ: ٤/٢٠٤؛ المراكشي، المعجب: ٣٤.

[٤] ابن عذاري، البيان المغرب: ٣/١٨٦؛ وانظر للمقارنة: ابن الأثير، الكامل في التاريخ: ٧/٢٩٠؛ ابن خلدون، تاريخ: ٤/٢٠٤؛ المراكشي، المعجب: ٣٤.

[٥] ابن عذاري، البيان المغرب: ٣/١٨٦.

ورأس المال باقياً عليهم، وكان يتعهدهم في الأوقات المتفرقة لينظر كيف حفظهم لها"[1]. وبذلك يكون أبو الحزم ابن جهور قد اخترع تدبيراً محكماً لم يسبق إليه فليس هناك أعطيات أو رواتب للجند، وإنما رؤوس أموال يستثمرونها ويحصلون على ما تدرّه، وغني عن القول أنهم سيكونون شديدي الحرص على الاستثمار مع ما يواكب ذلك من تقدم وازدهار في مجال الاقتصاد. كما أن أبا حزم جعل من كل الناس جنوداً، فقد فرّق عليهم الأسلحة "حتى إذا داهمهم أمر في ليل أو نهار كان سلاح كل واحد معه حيث كان، من بيته أو دكانه"[2].

وأظهر أبو الحزم جهور أنه ليس طامعاً في الملك، ولا حريصاً عليه، وإنما "حامٍ للبلد إلى أن يجيء من يستحقه، ويتفق عليه الناس فيسلمه إليه"[3]. "وكان مع براعته ورفعة قدره من أشد الناس تواضعاً وعفة"[4]، وقد حرص على التواصل مع الناس كأي واحد منهم، فكان يشهد الجنائز، ويعود المرضى، ويحضر الأفراح، ويؤذن عند المسجد بالربض الشرقي من قرطبة، ويصلي التراويح[5]. فهو لم يحتجب عن الناس، ومع ذلك استطاع تدبير شؤون قرطبة، ولمّ شعثها في فترة قصيرة "ودب دبيب الشفاء في السقام، فنعش منها الرفاه، وألحفها رداء الأمن، ومانع عنها من كان يطلبها من البرابرة المتوزعين أسلابها"[6]. وأصبحت قرطبة في عهده "حرماً يأمن فيه كل خائف"[7].

نعمت قرطبة في عهد أبي الحزم جهور بالاستقرار، فلم تتعرض في عهده لاعتداءات خارجية من قبل ملوك الطوائف، أو كما يسميهم ابن عذاري: "ملوك

---

[1] ابن الأثير، الكامل في التاريخ: ٧/٢٩٠-٢٩١؛ وانظر: ابن عذاري، البيان المغرب: ٣/١٩٦؛ المراكشي، المعجب: ٣٤.

[2] المراكشي، المعجب: ٣٤؛ وانظر: ابن الأثير، الكامل في التاريخ: ٧/٢٩١.

[3] ابن الأثير، الكامل في التاريخ: ٧/٢٩٠.

[4] ابن عذاري، البيان المغرب: ٣/١٨٦.

[5] ابن الأثير، الكامل في التاريخ: ٧/٢٩١؛ المراكشي، المعجب: ٣٤؛ ابن خلدون، تاريخ: ٤/٢٠٤.

[6] ابن عذاري، البيان المغرب: ٣/١٨٧.

[7] المراكشي، المعجب: ٣٤.

الفتنة"[1]، حيث تمكن بحسن سياسته من درء أخطارهم عنها، حيث داراهم "حتى حفظوا حضرته، وأوجبوا لها حرمة"[2].

وعمّ الرخاء في قرطبة في عهد الأمير أبي الحزم جهور – إضافة إلى الاستقرار والأمن – فأصبحت تستقطب الناس من أنحاء الأندلس، فزاد عددهم فيها زيادة كبيرة "وغلت الدور، وتحركت الأسواق"[3]. واستمر هذا الانتعاش والأمن والاستقرار في قرطبة طيلة عهد أبي الحزم الذي يمكن القول أن قرطبة كانت خلاله جمهورية مثالية، بل كانت المدينة الفاضلة التي حلم بها أفلاطون، والتي أصبحت ملاذاً لمن التجأ إليها من بطش ملوك الفتنة في أنحاء الأندلس.

وتجدر الإشارة هنا إلى أن أبا الحزم جهور لم ينفرد بحكم قرطبة على طريقة المستبدين، وإنما كان رأس جماعة، بل أمين جماعة من الرؤساء "إذا رابه أمر أو عزم على تدبير أحضرهم وشاورهم"[4]. واستمر على ذلك حتى وفاته في غرة صفر سنة ٤٣٥هـ/١٠٤٣م[5]. وبذلك يكون قد حكم قرطبة نحو ثلاثة عشر عاماً[6].

وتجدر الإشارة أيضاً إلى أن أبا الحزم جهور لم يكن فيه ما يعيبه سوى أنه حرص على جمع المال "حتى تضاعف ثراؤه، وصار لا تقع عينه على أغنى منه"[7]، ومع ذلك

---

(1) ابن عذاري، البيان المغرب: ١٨٧/٣.

(2) المصدر نفسه: ١٨٧/٣.

(3) المصدر نفسه: ١٨٧/٣.

(4) المصدر نفسه: ١٨٦/٣.

(5) المصدر نفسه: ١٨٧/٣؛ ابن الأثير، الكامل في التاريخ: ٢٩١/٧؛ ابن خلدون، تاريخ: ٢٠٤/٤؛ المراكشي، المعجب: ٣٤.

(6) يذكر المراكشي أن ((مدة تدبيره منذ استولى إلى أن مات أربع عشرة سنة وأشهر))، انظر: المعجب: ٣٤. ويبدو أنه حسب هذه المدة منذ توليته تدبير شؤون العامة في قرطبة خلال خلافة هشام المعتد بالله. أما انفراده بتدبير شؤونها بعد خلع المعتد فبلغت مدته ثلاثة عشر عاماً بدءاً بعام ٤٢٢هـ.

(7) ابن عذاري، البيان المغرب: ١٨٦/٣.

كان شديد البخل، ويعلق ابن عذاري – نقلاً عن ابن حيان – على هذه الصفة منه فيقول إنه لولا بخله الشديد "ما وجد عاتبه فيه مطعناً، ولكمُل لو أن بشراً يكملُ"[1].

قدّم أهل قرطبة بعد وفاة أبي الحزم جهور ابنه أبا الوليد محمد، وبايعوه، ولقبوه الرشيد[2]. وقد بدأ عهده مقتفياً سياسة أبيه، وأقر "الحكام وذوي المراتب على ما كانوا عليه"[3]. وكان من أكثر ما اعتمد عليهم في تدبير الحكم: المؤرخ المعروف: أبو مروان ابن جيان الذي كان بقرطبة "خاتمة المتكلمين، ونخبة المحسنين" حسب تعبير ابن عذاري. كما كان من كبار وزرائه الشاعر الشهير أبو الوليد ابن زيدون الذي خص بني جهور بكثير من المدائح، منها قوله فيهم:

لولا بنو جهور ما أشرقت بهم ... غيد السوالف في أجيادها تلعُ
قوم متى تحتفل في وصف سؤددهم ... لا يأخذ الوصف إلا بعض ما يدعُ[4]

ولكن أبا الوليد الرشيد لم يستمر على سياسة أبيه، فقد "قدم ولده عبد الملك على الناس، وطلب منهم العهد والبيعة لابنه المذكور"[5]. وكان ذلك مما أسخط أهل قرطبة، لأن عبد الملك لم يكن مثل أبيه وجدّه، وإنما "اعتدى وصحب الأرذال واستباح أموال المسلمين، وسلّط عليهم أهل الفساد، وأهمل الأمور الشرعية، وأخاف الطرق، وشرع في المعاصي والفسوق، وأظهر الخنى، فكثر الدعاء عليه من أهل قرطبة"[6].

---

[1] ابن عذاري، البيان المغرب: ٣/١٨٦.

[2] المصدر نفسه: ٣/٢٣٢؛ وانظر: المراكشي، المعجب: ٣٤؛ ابن الأثير، الكامل في التاريخ: ٧/٢٩١؛ ابن خلدون، تاريخ: ٤/٢٠٤.

[3] ابن عذاري، البيان المغرب: ٣/٢٣٤؛ وانظر: المراكشي، المعجب: ٣٤؛ ابن الأثير، الكامل في التاريخ: ٧/٢٩١.

[4] ابن عذاري، البيان المغرب: ٣/٢٣٣؛ وانظر عن حياة ابن زيدون: المقري، نفح الطيب: ١/٦٢٧ وما بعدها.

[5] ابن عذاري، البيان المغرب: ٣/٢٣٢.

[6] المصدر نفسه: ٣/٢٣٢-٢٣٣.

ولم يتوقف عبد الملك في غيّه عند حد، فقد علا واستكبر "حتى سمّى نفسه ذا السيادتين المنصور بالله الظافر بفضل الله، وخُطب له على المنبر بذلك"[1]، وبذلك تجاوز حدوده، وتسلّط على قرطبة وأهلها في حياة أبيه.

وفي سنة ٤٤٠هـ/١٠٤٨م فوض أبو الوليد بن جهور تدبير الأمور في قرطبة إلى وزير أبيه إبراهيم بن السقّاء، فعمل على تهدئة أحوالها، وضبطها أحسن ضبط، "وكان ابن السقاء هذا من الاستقلال بمكانه، والضبط لسلطانه، بحيث يخيف الأنداء، ويغيظ الحساد"[2]. وكان من بين حسّاده وأشدهم خطراً المعتضد بن عباد، صاحب إشبيلية، وسنفصل القول فيما جرى بينهما عند الحديث عنه. إلا أن ما يستوجب الذكر هنا هو أن ابن عباد أوغر صدر عبد الملك ضد وزيره، فقتله، وذلك في رمضان سنة ٤٥٥هـ/١٠٦٣م[3].

وزاد من سوء الأحوال في قرطبة في أيام أبي الوليد محمد بن جهور (الرشيد) تنافس ابنيه عبد الملك وعبد الرحمن على السلطة في قرطبة، وكان عبد الرحمن هو الأكبر منهما، وقد قسم الرشيد "الرياسة بينهما مدة حياته غير ناصب أحدهما للأمر..ثم نظر لعبد الرحمن فقدمه في الإشراف والجباية، وجعل إلى عبد الملك النظر في الجند والتولّي لفرضهم، والإشراف على أعطيتهم، فرضا منه هذا التقسيم"[4]، غير أن رضاهما لم يستمر طويلاً، إذ اشتد التنافس بينهما، مما أسخط أهل قرطبة. وكان أبوهما أبو الوليد قد أصيب في أواخر أيامه بالفالج، ثم مات منفياً بجزيرة شلطيش سنة ٤٥٦هـ/١٠٦٤م[5].

---

[1] ابن عذاري، البيان المغرب: ٢٣٣/٣، ٢٦٠.

[2] المصدر نفسه: ٢٣٢/٣، ٢٥٦.

[3] المصدر نفسه: ٢٣٢/٣، ٢٥١.

[4] المصدر نفسه: ٢٥٦/٣.

[5] المصدر نفسه: ١٥٨/٣؛ وانظر: المراكشي، المعجب: ٣٤ حيث يذكر أن أبا الوليد توفي في ((سلخ شوال من سنة ٤٤٣هـ))، وهو خطأ.

وتغلب عبد الملك بن جهور على أخيه، واستبد بالأمر دونه، ثم فرض عليه الإقامة الجبرية في منزله، وسلّط "السّفال وسقاط الناس ومن لا خلاق له، فكان لهم تسلّط على الناس بالأذى يهيم بهم في كل واد من الدناءة"[1]. وزاد أمور قرطبة سوءاً قيام المأمون يحيى بن ذي النون بغزوها، قادماً من طليطلة، غير أن عبد الملك بن جهور استجاش بالمعتمد بن عباد، صاحب إشبيلية، وكان حليفه "فأمده بجنوده وحشوده حتى امتلأت منهم قرطبة، فوقع القتال بين أهل قرطبة، وابن ذي النون أياماً إلى أن أقلع عنهم"[2].

وعندما أقلع ابن ذي النون عن قرطبة اجتمع أهلها سرّاً، وقرروا خلع ابن جهور، وتولية ابن عباد "فأبرموا أمرهم وأحكموه، وقاموا بأجمعهم لما ضجروا من ابن جهور، وتعدّيه هو وحاشيته السفلة على الناس، وثاروا في صبيحة اليوم الذي اتفقوا فيه مع قواد ابن عباد، وقام أصحاب ابن جهور دونه، وكانوا طائفة قليلة، فغلب عليهم أهل قرطبة، واستوى الخائن عبد الملك بن جهور في يد ابن مرتين قائد ابن عباد"[3]. وبذلك انتهت دولة الجهاورة في قرطبة بعد أن خلع أهلها عبد الملك بن جهور سنة ٤٦١هـ/١٠٦٨م[4].

---

(١) ابن عذاري، البيان المغرب: ٢٥٧/٣-٢٥٨.

(٢) المصدر نفسه: ٢٥٩/٣.

(٣) المصدر نفسه: ٢٥٩/٣.

(٤) ابن خلدون، تاريخ: ٢٠٤/٤؛ ابن عذاري، البيان المغرب: ٢٥٩/٣.

ممالك شرقي الأندلس / الفتيان العامريون:

تغلب الفتيان العامريون في عهد الفتنة على شرقي الأندلس، حيث أنشأوا أربع ممالك إحداها في دانية والجزائر الشرقية (جزر البليار)، والثانية في بلنسية، والثالثة في ألمرية، والرابعة في مُرسية. وكان من أشهرهم مجتهد العامري الذي يذكر المراكشي أن أصله رومي، وأنه من موالي المنصور أبي عامر محمد بن أبي عامر[1]، الذي رباه وعلّمه مع مواليه القراءات والحديث والعربية فأجادها[2]، وأصبح "من أهل العفاف والعلم فقصده العلماء والفقهاء من المشرق والمغرب، وألّفوا له تواليف مفيدة في سائر العلوم، فأجزل صلاتهم على ذلك بآلاف الدنانير"[3].

خرج مجاهد بن يوسف بن علي العامري في أول الفتنة إلى دانية الواقعة إلى الشمال الشرقي من مدينة لقنت، على رأس شبه جزيرة تمتد مثل اللسان في البحر الأبيض المتوسط في مواجهة جزر البليار، وضبط المدينة والجزر، وتلقب بالموفق بالله[4]. وكان إلى جانب علمه ونباهته "من أهل الشجاعة والتدبير والسياسة، قصد هذه الجزائر: ميورقة ومنورقة ويابسة فانتزى على جميعها لنفسه، وتغلب عليها...وغزا منها جزيرة سردانية فغلب على كثير منها"[5]. وكان تغلبه على الجزائر الشرقية سنة ٤٠٥هـ/١٠١٤م[6]، أما جزيرة سردانية فيذكر ابن الأثير أنه وجه إليها حملة كبيرة مؤلفة من مائة وعشرين مركباً بين صغير وكبير، وألف فارس ففتحها في ربيع الأول سنة ٤٠٦هـ/١٠١٥م، "وقتل بها خلقاً كثيراً من النصارى وسبى مثلهم"[7].

---

(١) المراكشي، المعجب: ٤١.

(٢) ابن خلدون، تاريخ: ٢١١/٤.

(٣) ابن عذاري، البيان المغرب: ١٥٦/٣.

(٤) المصدر نفسه: ١٥٥/٣؛ وانظر: ابن خلدون، تاريخ: ٢١١/٤؛ المراكشي، المعجب: ٤١؛ ابن الأثير، الكامل في التاريخ: ٢٩٣/٧.

(٥) ابن عذاري، البيان المغرب: ١٥٥/٣.

(٦) ابن الأثير، الكامل في التاريخ: ٢٩٣/٧؛ وانظر: ابن خلدون، تاريخ: ٢١١/٤.

(٧) ابن الأثير، الكامل في التاريخ: ٢٩٣/٧؛ وانظر أيضاً: ابن الخطيب، أعمال الأعلام: ٢١٩.

وقد روّع فتح جزيرة سردانية ملوك النصارى، كم روع البابا، وهو في ذلك الحين بندكتوس الثامن، وقد هيج البابا حرباً صليبية ضد مجاهد العامري، وعزم على إخـــراج المسلمين من الجزيرة، فحشد النصارى من جنوة، وبـــيزة ووجهـــهم لقتالـــه فـــي ســـنة ٤٠٧هـــ/١٠١٦م، فاشتبك الطرفان في معركة حاسمة كـــان النصـــر فيـــها للأســـاطيل النصرانية التي أكثرت من القتل والسبي والتدمير في صفوف المسلمين، وأسرت الكثيرين من بينهم علي بن مجاهد العامري وأخوه وزوجه[١]، أما هو فقد تمكن من النجاة ببضـــع سفن بقيت من أسطوله الضخم.

وكان مجاهد العامري قد اتخذ وزيراً يعاونه هو: أبو عبد الله بن عبيد الله بن الوليد المعيطي، وهو من أشراف قرطبة وفقهائها البارزين، وكان يثق به ثقة لا حدود لها، حتى أنه عندما أبحر لفتح جزيرة سردانية نصّبه حاكماً على أعماله (دانية والجزائر الشـــرقية)، وأخذ له البيعة على الناس، ومنحه لقباً سلطانياً هو: المستنصر بالله[٢]. غير أن المعيطـــي حاول الغدر به إذ يذكر ابن خلدون أنه "منع طاعة مجاهد، ومنعه أهـــل ميورقـــة مـــن ذلك"[٣]. وقد انتقم مجاهد العامري من المعيطي بعد عودته من سردانية، إذ قبض عليـــه، وعنّفه، وجرّده من سلطانه، ثم نفاه إلى المغرب، حيث لجأ إلى البربر وتوفي بينهم[٤].

ويبدو أن الأحداث الجسام التي ألمت بمجاهد العامري، وخاصـــة هزيمتـــه فـــي سردانية، وغدر المعيطي به، وأسر ولده الذي لم يتجاوز عمره عندما أسره النصارى سبع سنوات، يبدو أن كل ذلك أثر على عقله، فقد "أكثر التخليط في أمره، فطوراً كان ناسـكاً، وتارة يعود خليعاً فاتكاً لا يساتر بلهو ولا لذة، ولا يستفيق من شراب ولا بطالة"[٥]. وقـــد اختار لولاية عهده ابنه الأصغر حسن لأن ابنه الأكبر علي في الأســـر، ولكنـــه عندمـــا تمكن من افتداء علي بعد نحو عشرة سنوات من أسره صرف ولاية عهده إليه، مما أورث الأخوين عداوة شديدة[٦].

---

(١) ابن الأثير، الكامل في التاريخ: ٢٩٣/٧؛ ابن خلدون، تاريخ: ٢١١/٤.

(٢) ابن الخطيب، أعمال الأعلام: ٢٢٠.

(٣) ابن خلدون، تاريخ: ٢١١/٤؛ وانظر: ابن الأثير، الكامل في التاريخ: ٢٩٣/٧.

(٤) ابن الخطيب، أعمال الأعلام: ٢٢٠.

(٥) ابن عذاري، البيان المغرب: ١٥٦/٣.

(٦) المصدر نفسه: ١٥٧/٣.

توفي مجاهد العامري سنة ٤٣٦هـ/١٠٤٤م[١] في مدينة دانية "بعد أن ملكها وكانت حضرة مدنه وأملاكه ستاً وثلاثين سنة جرّها في أمر ونهي، وجرت فيها أمور وخطوب"[٢]. وولي بعده ابنه علي بن مجاهد الذي تلقب بإقبال الدولة[٣]. وكان إقبال الدولة قد أمضى سنوات عمره الأولى بين النصارى الذين نصّروه، وعلّموه لغتهم، وجعلوه يتزيا بزيّهم. وبعد افتكاكه قضى والده وقتاً طويلاً حتى أعاده إلى حظيرة الإسلام ديناً وتأدباً وثقافة[٤]، حيث أصبح مثل والده من أهل العلم والمحبة لأهله والإحسان إليهم، مصون النفس، نقي السريرة، لا يشرب الخمر ولا يقرب من يشربها[٥].

وقد بدأ علي بن مجاهد العامري (إقبال الدولة) عهده بمحاولة استرضاء أخيه حسن، إذ عرض عليه "أن يصرف له الأمر، ويتخلى له عن الملك، فلم يجسر على إظهار ما في نفسه"[٦]، ولكن حسن بن مجاهد لم يلبث طويلاً حتى أظهر ما أضمره من شر ضد أخيه، إذ لجأ إلى المعتضد بن عباد، ودبر معه مؤامرة لاغتيال علي، غير أن تلك المؤامرة فشلت وإن أسفرت عن جراح لم تكن قاتلة سرعان ما شفي منها[٧]. وأما حسن فقد فرّ بعد فشل هذه المؤامرة إلى بلنسية حيث عاش مغموراً حتى توفي[٨].

أما علي بن مجاهد (إقبال الدولة) فبعد أن برئ كم جراحه استقر في ملكه، واتبع مع ملوك الفتنة الآخرين سياسة الحياد، كما حاول توثيق علاقات معهم عن طريق المصاهرة، ومما يذكر في هذا المجال أنه زوج أخته للمعتضد بن عباد،

---

[١] ابن خلدون، تاريخ: ٢١١/٤.

[٢] ابن عذاري، البيان المغرب: ١٥٦/٣.

[٣] ابن الأثير، الكامل في التاريخ: ٢٩٣/٧؛ ابن عذاري، البيان المغرب: ١٥٧/٣؛ ابن خلدون، تاريخ: ٢١١/٤.

[٤] ابن عذاري، البيان المغرب: ١٥٧/٣.

[٥] ابن الأثير، الكامل في التاريخ: ٢٩٣/٧؛ المراكشي، المعجب: ٤١.

[٦] ابن عذاري، البيان المغرب: ١٥٧/٣.

[٧] المصدر نفسه: ١٥٧/٣-١٥٨.

[٨] المصدر نفسه: ١٥٨/٣.

صاحب إشبيلية[1]، وتزوج هو من ابنة المقتدر بالله أحمد بن سليمان بن هود ملك سرقسطة[2]. غير أن هذه السياسة لم تحقق أهدافها، إذ أصبحت وبالاً عليه بدل أن تكون خيراً له. فقد أخرج المقتدر بن هود إقبال الدولة من بلاده واستولى عليها "ثم حاصره بمدينة دانية، وضيق عليه فيها حتى بادر إليه بإرساله في أن يسلمه في نفسه وأهله وولده، ويسلم إليه ملكه"[3]. وهكذا انتهى ملك العامريين في دانية وسائر أعمالها بإخراج إقبال الدولة منها سنة ٤٦٨هـ/١٠٧٥م[4]، حيث رحل إلى سرقسطة مع ابن هود في زي خشن، كما يذكر ابن عذاري[5].

ومن أبرز الأعمال التي قام بها علي بن مجاهد العامري إمداده مصر في عهد الخليفة الفاطمي المستنصر بالله بملء مركب كبير طعاماً، وذلك عندما نكبت مصر بالوباء والمجاعة في سنة ٤٤٧هـ/١٠٥٥م[6]. والجدير بالذكر هنا أن ذلك المركب رجع إلى إقبال الدولة "مملوءاً ياقوتاً وجوهراً وذهباً وذخائر، فكان ذلك كله عند ابن مجاهد في خزائنه" إلى أن ظفر به المقتدر ابن هود عندما استولى على دانية[7].

وقد ظل إقبال الدولة علي بن مجاهد العامري في كنف المقتدر ابن هود حتى توفي سنة ٤٧٤هـ/١٠٨١م. "ويقال بل فر أمام المقتدر إلى بجاية (في المغرب) ونزل على صاحبها يحيى بن حماد، ومات هنالك"[8].

---

[1] ابن عذاري، البيان المغرب: ٢٠٨/٣.

[2] ابن خلدون، تاريخ: ٢١١/٤.

[3] ابن عذاري، البيان المغرب: ٢٢٨/٢.

[4] المصدر نفسه: ٢٢٨/٣؛ وانظر: ابن الأثير، الكامل في التاريخ: ٢٩٣/٧ حيث يذكر أن دانية سقطت في يد ابن هود سنة ٤٧٨هـ، والصحيح ما ذكره ابن عذاري.

[5] ابن عذاري، البيان المغرب: ٢٢٨/٣.

[6] المصدر نفسه: ٢٢٨/٣.

[7] المصدر نفسه: ٢٢٨/٣.

[8] ابن خلدون، تاريخ: ٢١١/٤.

ومن الممالك التي أنشأها الفتيان العامريون في شرقي الأندلس مملكة بلنسية، وقد بدأ ذلك على يد "عبدي مهنة لمولاهما مفرّج العامري"[1]، أو كما يصفهما ابن بسّام "أميري فتنة، قلّ الناس فكثروا، وخلا لهم الجو فباضوا وصفّروا"[2]، وهذان الأميران هما: مبارك ومظفر العامريان اللذان لم تذكر المصادر نسبهما.

ترجع قصة مبارك ومظفر مع بلنسية إلى عهد الفتنة وانهيار الدولة العامرية في قرطبة، فقد كانا عاملين زراعيين موكول إليهما إدارة ساقية ببلنسية، ولكنهما طُردا من عملهما فتوسطا لدى وزير يدعى: عبد الرحمن بن يسار أيام خدمته بها، فأعادهما إلى عملهما وذلك في سنة ٤١٠هـ/١٠١٠م[3]. ثم ما لبث العاملان أن ثارا على والي المدينة، وكان عندئذ مجاهد العامري، وانتزعا منه السلطة، ونزلا بقصر الإمارة "مختلطين تجمعهما في أكثر أوقاتهما مائدة واحدة، ولا يتميز أحدهما عن الآخر في عظيم ما يستعملانه من كسوة وحلية وفرش ومركوب وآلة، لا ينفردان إلا في الحرم خاصة"[4].

وقد اهتم أميرا الفتنة مبارك ومظفر بجباية الأموال من بلنسية ومن شاطبة التابعة لها "وبلغت جبايتهما الأموال لأول ولايتهما إلى مائة وعشرين ألف دينار في الشهر سبعون بلنسية وخمسون شاطبة"[5]. وقد استخدما العنف والشدة في تحصيل هذه الأموال "حتى تساقطت الرعية وجلت أولاً فأولاً، وخرجت أقاليمهم"[6]. غير أن هذه المملكة لم يلبث أن تدفق عليها الناس "من أجناس الصقلب والإفرنج والبشكنس...ودربوا على الركوب حتى تلاحق ببلنسية ونواحيها من هؤلاء الأصناف فوارس برزوا في البسالة"[7]. وقد تكون من هؤلاء جيش قوي زوده أميرا الفتنة بالأسلحة والذخائر والآلات والخيول، فأصبحت إمارتهما منيعة، وزاد منعتها قيامهما ببناء سور حصين حولها، مما جعلها

---

[1] ابن عذاري، البيان المغرب: ١٦٢/٣.

[2] المصدر نفسه: ١٦٢/٣.

[3] المصدر نفسه: ١٥٨/٣-١٥٩.

[4] المصدر نفسه: ١٥٩/٣.

[5] المصدر نفسه: ١٦٠/٣.

[6] المصدر نفسه: ١٦٠/٣.

[7] المصدر نفسه: ١٦٠/٣.

تستعصي على الطامعين، وتستقطب الباحثين عن الأمن والاستقرار من قرطبة وغيرهما[1]. كما وفد على المدينة كثيرون من أرباب المهن والحرف مما زاد عمرانها تقدماً، ورخاءها ازدهاراً.

ولم يستمر حكم المظفر ومبارك لبلنسية وشاطبة سوى بضعة أعوام، فقد توفي المظفر، وتوفي بعده بفترة قصيرة مبارك حيث عثرت به فرسه فسقط فمات في ذي الحجة سنة ٤٠٨هـ/١٠١٧م[2].

حكم بلنسية بعد وفاة المظفر ومصرع مبارك: لبيب الصقلبي، فقد اتفق أهلها على تقديمه، ولكنه لم يكن كما أملوا، إذ "أحدث فيهم أحداثاً مقتوه بها"[3]. ثم شارك لبيباً حكم بلنسية مجاهد العامري إلى أن اختلف الرجلان. وعندئذ عاد لبيب إلى طرطوشة التي كان يحكمها من قبل بينما انفرد مجاهد بحكم بلنسية[4]، ولكن ذلك لم يستمر طويلاً إذ ثار على مجاهد بعض الفتيان العامريين الآخرين، وخلعوه[5]، واستقدموا أحد أحفاد المنصور محمد ابن أبي عامر من سرقسطة وولوه أمر بلنسية[6].

والحفيد الذي اختاره العامريون لحكم بلنسية هو: عبد العزيز بن عبد الرحمن الناصر بن المنصور أبي عامر محمد بن أبي عامر، وتلقب عبد العزيز بلقب جده، وتكنى بأبي الحسن[7]. وقد بويع له ببلنسية في ذي الحجة سنة ٤١١هـ/١٠٢٠م وهو ابن خمس عشرة سنة[8].

---

(١) ابن عذاري، البيان المغرب: ٣/١٦٠-١٦١.

(٢) المصدر نفسه: ٣/١٦٣.

(٣) المصدر نفسه: ٣/١٦٣.

(٤) المصدر نفسه: ٣/٣٠٢.

(٥) المصدر نفسه: ٣/٣٠٢؛ وانظر: ابن خلدون، تاريخ: ٤/٢٠٧.

(٦) ابن عذاري، البيان المغرب: ٣/١٦٤.

(٧) المصدر نفسه: ٣/١٦٤، ٣٠١؛ ابن خلدون، تاريخ: ٤/٢٠٧.

(٨) ابن عذاري، البيان المغرب: ٣/٣٠١؛ ابن خلدون، تاريخ: ٤/٢٠٧.

كان عبد العزيز المنصور من أوصل العامريين لرحمه، وأحفظهم لقرابتـــه، فقــد جمع أهل بيته وآواهم "وجبر الكسير، ونعش الفقير طول مدته حتى بلغ من ذلك مبلغـــاً أعيى ملوك زمانه"[١].

وبعد استقرار الأمر للمنصور في بلنسية أخذ يعمل على توسيع مملكته، وقد خدمته الأحداث في هذا المجال إذ استولى على ألمرية وأعمالها بعد وفاة صاحبها العامري أيضاً: خيران سنة ٤١٩هـ/١٠٢٨م[٢]، وبذلك أصبحت مملكته من أعظـــم ممـــالك الأندلـــس، وأخذت تهدد ملوك الفتنة الآخرين، وخاصة مجاهد العامري صاحب دانية وجزر البليـــار الذي شن هجوماً دفاعياً ضد قوات المنصور فهزمها سنة ٤٣٣هـ/١٠٤١م، ثم ما لبـــث المنصور أن هزمهم "وقتلهم قتلاً ذريعاً، ودخل شاطبة"[٣].

وكان المنصور على علاقة طيبة مع ملك قشتالة فرناندو الأول، فقد استعان بقوات من المرتزقة النصارى في محاربته لمجاهد العامري[٤]، وفي أعقاب انتصاراتـــه علـــى مجاوريه "تمهدت له الأمور، ولم يزل على حال حسنة إلى أن توفي"[٥]. وقـــد كـــانت وفاته في شاطبة في ذي الحجة سنة ٤٥٢هـ/١٠٦١م[٦].

خلف المنصور عبد العزيز بن أبي عامر ابنه عبد الملك، فقد "اجتمع أصحـــاب أبيه عبد العزيز على تأميره"[٧]، وبايعوه بشاطبة وبلنسية في يوم مـــوت أبيـــه فـــي ذي الحجة سنة ٤٥٢هـ/١٠٦١م[٨]، واتخذ من بلنسية حاضرة للمملكة. "وقام له بأمره كاتب

---

(١) ابن عذاري، البيان المغرب: ٣/١٦٤.

(٢) ابن خلدون، تاريخ: ٤/٢٠٧-٢٠٨.

(٣) ابن عذاري، البيان المغرب: ٣/٣٠٢.

(٤) ابن الخطيب، أعمال الأعلام: ١٩٥.

(٥) ابن عذاري، البيان المغرب: ٣/٣٠٢.

(٦) المصدر نفسه: ٣/٣٠٢.

(٧) المصدر نفسه: ٣/١٦٥.

(٨) المصدر نفسه: ٣/٣٠٣.

والده والمدبر لدولته الوزير ابن عبد العزيز المشهور مع معرفته بابن رويش القرطبي"[1].

وكان عبد الملك – خلافاً لأبيه – "منهمكاً في الشراب غارباً عن الخصال المحمودة مع رقة الديانة، ونقص المروءة، وكثرة الاستمهال، والانحطاط في مهاوي اللذات"[2]. ولولا وزيره ابن رويش الذي كان مشهوراً بالرجاحة لما تمكن من تدبير أموره[3]. وكان عبد الملك يثق كثيراً بصهره المأمون بن ذي النون صاحب طليطلة، ويركن إليه في حمايته والدفاع عنه إن تعرض لمخاطر. غير أن المأمون كان يضمر له الشر مدعياً أنه يسيء معاملة ابنته. وقد دبر مؤامرة للاستيلاء على بلنسية أسفرت عن القبض على عبد الملك وعلى ابنه أيضاً "وأُخرجا معاً ليلاً إلى مدينة شنت برية من بلد ابن ذي النون، فأقام بها يسيراً ثم هلك"، وكانت وفاته سنة ٤٥٨هـ/١٠٦٥م[4]. وبذلك آلت بلنسية إلى بني ذي النون، وأصبحت تابعة لمملكتهم طليطلة.

وأنشأ الفتيان العامريون مملكة في ألمرية على يد خيران الصقلبي العامري الذي نشط عندما "تخربت الخلافة وانشقت عصا الأمة"[5]، فتغلب على أوريولة، ثم مرسية، ثم جيأن، ثم ألمرية وذلك خلال الفترة ٤٠٤-٤٠٩هـ/١٠١٣-١٠١٨م[6]. وكان خيران – كما يصفه ابن الخطيب – وافر الدهاء والشجاعة، والحصافة، وحسن التدبير. كما كان بصيراً بالحروب ومكايدها، وفي الوقت نفسه كان متواضعاً زاهداً بالأتعاب السلطانية، واكتفى بدل ذلك بلقب "الفتى الكبير"[7].

---

(١) ابن عذاري، البيان المغرب: ١٦٥/٣.

(٢) المصدر نفسه: ٣٠٣/٣.

(٣) المصدر نفسه: ١٦٥/٣.

(٤) المصدر نفسه: ٢٦٧/٣.

(٥) المصدر نفسه: ١٦٦/٣.

(٦) ابن خلدون، تاريخ: ٢٠٨/٤.

(٧) ابن الخطيب، أعمال الأعلام: ٢١٢.

وتوفي خيران في ألمرية سنة ٤١٩هـ/١٠٢٨م[١] "وقام بالأمر بعده الأمير عميد الدولة أبو القاسم زهير العامري"[٢]، فرضي به الناس ورجال الدولة[٣]. وكان زهير شديد البأس شهماً داهية، تمكن من مدّ أطناب مملكته من المرية إلى شاطبة وبياسة ووصلت حدودها حتى أعمال طليطلة[٤]. وقد حاول الاستيلاء على غرناطة من يد باديس بن حبوس صاحبها، إذ خرج إليها بجيش كثيف، ودق أبوابها، وعندئذ نهض باديس للدفاع عن غرناطة، وحاول أن يثني زهيراً عن المدينة إلا أن وزيره أحمد بن عباس أغراه باقتحامها، وعندئذ التحم الطرفان، واشتد بينهما القتال، وما لبث زهير وقواته أن انهزموا بعد أن فقدوا أعداداً كبيرة بين قتيل وجريح وأسير، ولحق بهم البربر الصنهاجيون قوم باديس إلى الشعاب الوعرة والجبال وقتلوا المزيد منهم، ومن بينهم زهير العامري نفسه، وذلك سنة ٤٢٩هـ/١٠٣٨م[٥].

وعندما اتصل خبر مقتل زهير بأهل ألمرية أسندوا أمرهم إلى الشيخ أبي بكر الرميمي فضبطها فترة قصيرة، حيث كاتب أهلها المنصور عبد العزيز بن أبي عامر، وولّوه أمرهم[٦].

ولّى المنصور عبد العزيز بن أبي عامر على ألمرية صهره معن بن صمادح التجيبي، وعاد إلى بلنسية، فاغتنم معن الفرصة، وخلع طاعة المنصور، وأنقض عهده، ودعا لنفسه في ألمرية وذلك سنة ٤٣٣هـ/١٠٤١م[٧]، وبذلك انتقل الحكم في ألمرية من أيدي الفتيان العامريين إلى بيت من أعرق البيوتات العربية[٨]، وكان معن نفسه من

---

(١) ابن خلدون، تاريخ: ٢٠٨/٤؛ ابن عذاري، البيان المغرب: ١٦٦/٣.

(٢) ابن خلدون، تاريخ: ٢٠٨/٤؛ ابن عذاري، البيان المغرب: ١٦٦/٣.

(٣) ابن الخطيب، الإحاطة: ٥٢٥/١-٥٢٦.

(٤) ابن عذاري، البيان المغرب: ١٦٨/٣-١٦٩.

(٥) المصدر نفسه: ١٦٨/٣-١٧٢؛ وانظر: ابن خلدون، تاريخ: ٢٠٨/٤.

(٦) ابن عذاري، البيان المغرب: ١٦٧/٣؛ ابن خلدون، تاريخ: ٢٠٨/٤.

(٧) ابن عذاري، البيان المغرب: ١٦٧/٣.

(٨) انظر: ابن حزم، جمهرة أنساب العرب: ٤٠٥؛ ابن الخطيب، أعمال الأعلام: ١٨٩؛ ابن عذاري، البيان المغرب: ١٧٣/٣ وما بعدها.

كبراء العرب، "وكان أبوه من قواد محمد بن أبي عـــامر، ولاّه الولايـــات، وقـــاد لـــه الجيوش"[1].

ولم يطل المقام بمعن بن صمادح إذ توفي في رمضان من سنة ٤٤٣هـــ/١٠٥١م بعد أن حكم المرية نحو عشر سنوات أمضاها في محاربة من جاوره من ملوك الفتنـــة[2]، وولي بعده ابنه أبو يحيى بن معن بن صمادح الذي كان أبوه قد أخذ له البيعـــة، فتمـت الإمارة له، واتخذ لنفسه لقبين من الألقاب السلطانية هما: المعتصم بالله، والواثق بفضـل الله[3]. وقد أقام المعتصم بن صمادح "ملكاً بمدينة المرية وأعمالها مدة طويلة قطعها فـي حروبه ولذاته، فكانت مدته إحدى وأربعين سنة"[4]، حيث توفي في ربيع الآخر من سـنة ٤٨٤هـ/١٠٩١م إثر دخول المرابطين الأندلس، وضمها تحت لوائهم[5].

---

(1) ابن عذاري، البيان المغرب: ١٦٧/٣.

(2) المصدر نفسه: ١٦٧/٣.

(3) المصدر نفسه: ١٦٧/٣-١٦٨؛ وانظر: المراكشي، المعجب: ٤١.

(4) ابن عذاري، البيان المغرب: ١٦٨/٣.

(5) المصدر نفسه: ١٦٨/٣.

بنو رزيـــن

جاور الفتيان العامريين في شرقي الأندلس بعض البربر، وأشهر هؤلاء بنو رزين، الذين عرفوا بهذا الاسم باسم جدهم الأعلى رزين البرنسي، أحد رجال البربر الداخلين إلى الأندلس في جيش طارق بن زياد. وقد نزح بنو رزين إلى شنتمرية الشرق "وهي مدينة عظيمة في شرق الأندلس"[1] عندما اشتعلت نار الفتنة. وكان يتزعمهم إبان الفتنة: هذيل ابن خلف بن لب بن رزين، وكنيته أبو محمد، ولقبه المعروف به هو "ابن الأصلع"[2]. وقد قلّد الثوار الآخرين، وخاصة جاره في طليطلة إسماعيل بن ذي النون، فعندما انتزى في طليطلة، ثار هو، أي ابن الأصلع، في شنتمرية الشرق (السهلة)[3]، واستبدّ بحكمها، وبويع له بها سنة ٤٠٣هـ/١٠١٢م[4].

وقد حاول هذيل بن عبد الملك بن رزين تجنب الاحتكاك بملوك الفتنة الآخرين، ونجح في ذلك إلى حد كبير معتمداً على موقع شنتمرية الشرق التي تحميها من الشرق سلسلة من الجبال، وعلى ما كانت تنتجها أراضيها البالغة الخصوبة من غلات[5]. ومعتمداً أيضاً على سياسة الحياد التام التي اتبعها منذ انتزائه.

وكان هذيل "بارع الجمال حسن الخلق جميل العشرة ظاهر المروءة، ولم يُرَ في الأمراء أبهى منه مظهراً مع طلاقة لسانه، وحسن توصله بالكلام إلى حاجته دون معرفة"[6]. وقد حرص على اقتناء القينات، وخاصة المعروفات بخفة الروح وحسن الغناء، وكان يدفع في هؤلاء أموالاً طائلة، ومنهن جارية الطبيب أبي عبد الله الكناني التي اشتراها بثلاثة آلاف دينار، لأنها إلى جانب الغناء كانت جيدة الخط، لديها معرفة بالنحو واللغة والعروض، وبالطب وعلم الطبائع والتشريح "وغير ذلك مما يقصر عنه علماء

---

(١) ابن عذاري، البيان المغرب: ٣٠٧/٣.

(٢) المصدر نفسه: ١٨١/٣، ٣٠٧-٣٠٨.

(٣) المصدر نفسه: ١٨١/٣، ٣٠٧.

(٤) المصدر نفسه: ٣٠٨/٣.

(٥) المصدر نفسه: ١٨٢/٣.

(٦) المصدر نفسه: ١٨٣/٣.

الزمان"[1]. وإلى جانب ما اتصف به هذيل من رقة إحساس، وشفافية روح كان يتصف بالبطش والجبروت والجهل المفرط "حتى زعموا أنه سطا بوالدته وتولى قتلها بيده"[2].

وامتد حكم هذيل بن عبد الملك بن رزين ثلاثاً وثلاثين سنة، وتوفي بالسهلة سنة ٤٣٦هـ/١٠٤٥م[3].

خلف هذيل في حكم شنتمرية الشرق (السهلة) ابنه أبو مروان عبد الملك بن هذيل، وكان في حياة أبيه يلقب: حسام الدولة، ولما خلفه تلقب: جبر الدولة. وقد بويع سنة ٤٣٦هـ/١٠٤٤م[4].وكان جبر الدولة بعكس أبيه، فقد "كان سيئة الدهر، وعار العصر، جاهلاً لا متجاهلاً، وخاملاً لا متخاملاً، قليل النباهة شديد الإعجاب بنفسه، بعيد الذهبة بأمره، زارياً على أهل عصره"[5]. ومع ذلك أثنت عليه بعض المصادر، إذ أثنى عليه الفتح بن خاقان بما ليس فيه، إلا أنه ذكر أن جبر الدولة كان أحمق متهوراً[6]، وقد ظل يحكم شنتمرية الشرق حتى يوم الاثنين التاسم من شعبان سنة ٤٩٦هـ/١١٠٢م[7].

وخلف جبر الدولة ابنه: حسام الدولة يحيى بن عبد الملك "وسلك في التخلف مسلك أبيه مدمناً للخمر، مكثراً من الغثيان"[8]، وكان سخيفاً منخذلاً، وقد بادر المرابطون إلى خلعه سنة ٤٩٧هـ/١١٠٣م، أي بعد سنة واحدة من ولايته. وبخلعه انقرضت دولة بني رزين في شنتمرية الشرق من شرقي الأندلس[9].

---

(١) ابن عذاري، البيان المغرب: ٣٠٨/٣.

(٢) المصدر نفسه: ١٨٣/٣.

(٣) المصدر نفسه: ٣٠٨/٣ ولمزيد من التفاصيل انظر: ابن الخطيب: أعمال الأعلام: ٢٠٥.

(٤) ابن عذاري، البيان المغرب: ٣٠٩/٣.

(٥) المصدر نفسه: ٣٠٩/٣.

(٦) المصدر نفسه: ٣١٠/٣.

(٧) المصدر نفسه: ٣١٠/٣.

(٨) المصدر نفسه: ٣١٠/٣-٣١١.

(٩) المصدر نفسه: ٣١١/٣.

يعتبر بنو ذي النون، ملوك طليطلة من الثغر الأعلى من أعظم ملـوك الفتنـة[1]، وهم من قبائل البربر، "وكانوا يخدمون الدولة العامرية"[2]. وجدهم هو إسماعيل الظافر بن عبد الرحمن بن سليمان بن ذي النون، أصله من قبيلة هوارة[3]. وقد اشتهر بنـو ذي النون بكرمهم، ونبه ذكرهم عندما أوكل إليهم المنصور محمد بن أبي عامر قيادة الجيوش، وولاية الأعمال. وكان عبد الرحمن بن ذي النون قُبيل وقوع الفتنة وتفرق الجماعة والياً بكورة شنتبرية[4]، بينما كان الوالي بمدينة طليطلة وما جاورها: عبد الرحمن بن منيـوه الذي ورثه بعد وفاته ابنه عبد الملك، فأساء السيرة في أهلها[5]، ولما لـم يحتملـوا ذلـك خلعوه، وولّوا غيره، ثم نقموا على واليهم الجديد وولوا غيره إلى أن انتهى أمر طليطلـة إلى يعيش بن محمد بن يعيـش الـذي وليـها منـذ أول الفتنـة إلـى أن توفـي سـنة ٤٢٧هـ/١٠٣٥م[6].

أرسل أهل طليطلة بعد وفاة يعيش وفداً إلى عبد الرحمن بن ذي النون في شـنت برية يعرضون عليه حكم طليطلة، "فوجه إليهم ابنه إسماعيل...فاستولى هذا الفتى علـى ملك طليطلة وبلادها، فساس أهل مملكته السياسة الحسنة، ورضوا عليها"[7].

واتخذ إسماعيل بن عبد الرحمن بن ذي النون لقباً سلطانياً هو: الظافر[8]، واستعان بشيخ من شيوخ طليطلة كان من أهل العلم والعقل والدهـاء، وكـان يحظـى بـاحترام

---

(١) المقري، نفح الطيب: ٤٤٠/١.

(٢) ابن عذاري، البيان المغرب: ٢٧٦/٣.

(٣) ابن خلدون، تاريخ: ٢٠٦/٤.

(٤) ابن خلدون، تاريخ: ٢٠٧/٤؛ ابن عذاري، البيان المغرب: ٢٧٦/٣.

(٥) ابن عذاري، البيان المغرب: ٢٧٦/٣.

(٦) ابن خلدون، تاريخ: ٢٠٧/٤؛ وانظر: القلقشندي، صبح الأعشى: ٢٥٢/٥.

(٧) ابن عذاري، البيان المغرب: ٢٧٦/٣-٢٧٧؛ القلقشندي، صبـح الأعشـى: ٢٥٢/٥؛ ابـن خلـدون، تاريخ: ٢٠٧/٤؛ وانظر أيضاً: المراكشي، المعجِب: ٤١.

(٨) ابن خلدون، تاريخ: ٢٠٦/٤؛ ابن سعيد المغربي، المغرب في حلـي المغـرب: ١١/٢؛ القلقشـندي، صبح الأعشى: ٢٥٢/٥.

الطليطليين ومحبتهم وهو أبو بكر بن الحديدي، "فكان هذا الفتى إسماعيل بن ذي النون لا يقطع أمراً دونه، ويشاوره في مهمات أموره"[1].

ولم يطل المقام بإسماعيل (الظافر) إذ توفي في سنة ٤٢٩هـ/١٠٣٧م[2]، وتولى الحكم بعده ابنه يحيى بن إسماعيل في سنة وفاته، وقيل في سنة ٤٣٥هـ/١٠٤٣٢م[3].

تلقّب يحيى بن إسماعيل بن ذي النون بالمأمون[4]، وتكنى بأبي الحسن[5]. وقد "جرى على سيرة أبيه في استعمال قانون العدل، وجرى مع ابن الحديدي على سنن أبيه، فاستقامت طاعته، وضخم ملكه"[6]، وعظم بين ملوك الفتنة سلطانه[7].

وكانت مملكة طليطلة تجاور مملكة سرقسطة لأصحابها بني هود. وبين المملكتين تقع مدينة وادي الحجارة التي كان المأمون سليمان بن هود يتنازعانها. ومع أن هذه المدينة كانت تابعة لمملكة طليطلة إلا أن أهلها كانوا مقسومين على أنفسهم، فبعضهم يميلون إلى ابن هود، وبعضهم الآخر يميلون إلى ابن ذي النون[8]. وقد استغل ابن هود وفاة الظافر إسماعيل بن ذي النون فسيّر إلى وادي الحجارة جيشاً بقيادة ابنه ولي عهده أحمد "فنازلها وقاتلها واستجاب له بعض أهلها فأدخلوه البلد"[9].

---

(١) ابن عذاري، البيان المغرب: ٣/٢٧٧.

(٢) ابن خلدون، تاريخ: ٤/٢٠٧.

(٣) انظر: ابن سعيد، المغرب: ٢/١٢؛ النويري، نهاية الأرب: ٢٣/٤٤٠.

(٤) ابن عذاري، البيان المغرب: ٣/٢٧٧؛ المراكشي، المعجب: ٤١؛ المقري، نفح الطيب: ١/٤٤٠؛ ابن سعيد، المغرب: ٢/١٢-١٣؛ النويري، نهاية الأرب: ٢٣/٤٤٢؛ القلقشندي، صبح الأعشى: ٥/٢٥٢.

(٥) انظر: ابن خلدون، تاريخ: ٤/٢٠٧؛ المراكشي، المعجب: ٤١.

(٦) ابن عذاري، البيان المغرب: ٣/٢٧٧.

(٧) المقري، نفح الطيب: ١/٤٤٠؛ ابن خلدون، تاريخ: ٤/٢٠٧.

(٨) ابن عذاري، البيان المغرب: ٣/٢٧٧.

(٩) المصدر نفسه: ٣/٢٧٧.

توجه المأمون يحيى بن ذي النون على رأس جيش إلى وادي الحجارة لتخليصها من ابن هود، وجرت بينهما حروب طاحنة كانت الغلبة فيها لابن هود الذي اضطر المأمون إلى الفرار أمامه حيث التجأ إلى مدينة طلبيرة وانحصر فيها. وحاول أحمد بن هود القضاء على مقاومته، إذ نازله وضيّق عليه، وفي الوقت نفسه أرسل إلى والده سليمان يخبره بخططه، غير أن سليمان أمر ابنه بالرجوع إلى سرقسطة، فرجع[١].

ولم يكن المأمون بن ذي النون ليرضى بما فعله به ابن هود، كما أنه وجد نفسه عاجزاً عن مواجهته وحده، ولذلك استعان بالنصارى، حيث يذكر ابن عذاري أنه استمال "القومان الاشبان من ولد الطاغية شانجه"[٢]، وهو غرسية بن سانشو حاكم النافار. وقد هاجمت القوات النصرانية أراضي ابن هود "وجرت خيولهم كيف شاءت في بلاد المسلمين مطمئنين، ولاذ منهم ابن هود وولده بحصونهم، وتركهم يجولون في الأرض فلا أحد يصدهم"[٣]. واستمر عبث النصارى في أرض المسلمين التابعة لابن هود شهرين كاملين حصدوا خلالهما الزروع، واستولوا على المحاصيل. وكان المأمون بن ذي النون في أثناء ذلك يهاجم ما يليه من بلاد ابن هود[٤].

والجدير بالذكر هنا أن ابن هود بعد رحيل القوات النصرانية انزلق إلى الاستعانة بقوات النصارى، إذ طلب معونة الملك فرناندو الأول، ملك قشتالة وليون (٤٢٦-٤٥٨هـ/١٠٣٥-١٠٦٥م)، وقدم له الهدايا والأموال مقابل تدمير بعض الأراضي الطليطلية، فلبى طلبه، وهاجمت القوات القشتالية المناطق الشمالية من أراضي طليطلة حتى مدينة وادي الحجارة، وعاثت فيها، واضطرت كثير من أهلها إلى الجلاء عنها[٥].

ولكثرة ما ألحق النصارى من خراب وتدمير بأراضي المملكتين سعى وجوه طليطلة وفقهاؤها في الصلح بين المأمون بن ذي النون وسليمان بن هود، فأظهر هذا

---

[١] ابن عذاري، البيان المغرب: ٢٧٨/٣.
[٢] المصدر نفسه: ٢٧٨/٣.
[٣] المصدر نفسه: ٢٧٨/٣.
[٤] المصدر نفسه: ٢٧٨/٣.
[٥] المصدر نفسه: ٢٧٩/٣-٢٨٠؛ وانظر: ابن الخطيب، أعمال الأعلام: ١٧٨.

الأخير موافقته بينما أبطن خلاف ذلك، إذ لم يستقم الصلح بينهما سوى فترة قصيرة، هاجم بعدها ابن هود أراضي طليطلة بمعونة النصارى، فرد عليه المأمون بمثـــل ذلـــك، ودام الوضع على هذه الحال بين ملكي الفتنة من سنة ٤٣٥-٤٣٨هـ/١٠٤٣-١٠٤٦م حيـــث ساد الهدوء بين المملكتين بوفاة سليمان بن هود في سنة ٤٣٨هـــــ/١٠٤٦م[١]، واســتمر حتى وفاة المأمون بن ذي النون سنة ٤٦٧هـ/١٠٧٤م[٢].

فتـــح المأمـــون بن ذي النـــون بعد وفـــاة ابن هود جبهة جديـــــدة مـــع بنـــي الأفطس، ملوك الفتنة في بطليوس، ونشبت بينه وبين المظفر محمد بـــن عبـــد الله بـــن الأفطس ٤٣٧-٤٦١هـ/١٠٤٢-١٠٦٩م حروب كثيرة أشارت إليها بعض المصادر دون تفصيل[٣].

وإضافة إلى بطليوس نازع بنو ذي النون الجهاورة في قرطبة وبني عباد ملـــوك إشبيلية وبني عامر ملوك بلنسية، نازعوا هؤلاء جميعاً ملكهم. ويرجع السبب في احتكاكهم بالجهاورة إلى محاولة أبي الحزم جهور بن محمد بن جهور ضم منطقة السهلة (شـنتمرية الشرق) إلى سلطة قرطبة، فقد شن عليها هجوماً كاسحاً واستولى عليها من يـــد حاكمـــها هذيل بن خلف بن لب بن رزين، المعروف بابن الأصلع[٤]، بعد أن رفض الانقيـــاد لـــه. وأغضب ذلك إسماعيل بن ذي النون لخشيته من توسع سلطان قرطبة مما قد يشكل خطراً على مملكة طليطلة، ولذلك شن هجوماً كاسحاً على القوات القرطبية، واســتعاد الســهلة، وأعادها إلى ابن رزين[٥]. بل تجاوز إسماعيل بن ذي النون ذلك، وراح يـــهدد قرطبـــة نفسها، إذ استولى على حصن المدوّر الواقع قربها[٦]. وبعد ذلك توجـــه ابـــن ذي النـــون لمحاصرة قرطبة نفسها مما اضطر عبد الملك بن جهور إلى طلب المعونة من المعتمد بن

---

(١) ابن عذاري، البيان المغرب: ٣/٢٨٠-٢٨٢.

(٢) ابن خلدون، تاريخ: ٤/٢٠٧؛ القلقشندي، صبح الأعشى: ٥/٢٥٢؛ ابن الخطيـــب، أعمـــال الأعـــلام: ١٥٨، ١٧٨.

(٣) ابن عذاري، البيان المغرب: ٣/٢٨٣.

(٤) المصدر نفسه: ٣/١٨١.

(٥) أشباخ، يوسف، تاريخ الأندلس في عهد المرابطين والموحدين: ٤٠-٤١.

(٦) المصدر نفسه: ٤١؛ وانظر: ابن عذاري، البيان المغرب: ٣/٢٣٢-٢٣٣.

عباد، ملك إشبيلية[1]. إذ يذكر ابن عذاري أن عبد الملك بن جهور استجاش بحليفه المعتمد بن عباد عندما غزا المأمون يحيى بن ذي النون قرطبة، فأمده ابن عباد "بجنوده وحشوده حتى امتلأت منهم قرطبة، فوقع القتال بين أهل قرطبة وابن ذي النون، أياماً إلى أن أقلع عنهم"[2].

والجدير بالذكر هنا أن المعتمد بن عباد استغل رحيل القوات الطليطلية، وضعف السلطة في قرطبة فاستولى على المدينة. وكان ذلك مما أجج نيران الحقد والغضب أيضاً في صدر المأمون يحيى بن ذي النون على المعتمد، وأخذ يتحين الفرص للانتقام منه. وقد لاحت له فرصة عندما انضم إليه أحد قادة المعتمد العسكريين وهو: ابن عكاشة مع عدد من الموالين له[3]، فقد دبر ابن عكاشة خطة الاستيلاء على قرطبة لحساب ابن ذي النون، وتمكن من ذلك فعلاً في سنة ٤٦٧هـ/١٠٧٤م[4]. وما إن سقطت قرطبة في يد ابن عكاشة حتى بادر المأمون إليها، ودخلها في جمادى الآخرة من السنة نفسها، وظل فيها حتى توفي بعد ستة أشهر من دخولها بسبب جرعة من السم دُسَّت إليه[5].

وأما بلنسية فكان استيلاء المأمون يحيى بن ذي النون عليها من أبرز إنجازاته، وكانت بلنسية عندما استولى عليها تحت حكم عبد الملك بن عبد العزيز بن أبي عامر، وهو من أحفاد المنصور محمد ابن أبي عامر[6]، وكان عبد الملك هذا قد استوزر ابن روبش القرطبي الذي أحسن "معونته على شأنه، وتولى تمهيد سلطانه، واستقر أمره على ضعف ركنه لعدم المال، وقلة الرجال، وفساد أكثر الأعمال"[7].

---

(1) ابن عذاري، البيان المغرب: ٢٥٧/٣.

(2) المصدر نفسه: ٢٥٩/٣؛ وانظر: ابن الخطيب، أعمال الأعلام: ١٥٠.

(3) ابن الأبار، الحلة السيراء: ١٧٧/٢.

(4) ابن سعيد، المغرب: ٥٧/١؛ القلقشندي، صبح الأعشى: ٢٥٠/٥.

(5) المقري، نفح الطيب: ٤٤٠/١؛ ابن خلدون، تاريخ: ٢٠٧/٤؛ ابن الخطيب، أعمال الأعلام: ١٥٨-١٥٩؛ النويري، نهاية الأرب: ٤٤٤/٢٣.

(6) ابن عذاري، البيان المغرب: ١٦٥/٣.

(7) المصدر نفسه: ١٦٥/٣.

وتزامنت مع الفتن والحروب الداخلية بين ملوك الفتنة في الأندلس حروب مماثلة بين ملوك النصارى في الشمال، وكان لذلك تأثير على الأحداث في مملكة طليطلة، وغيرها. فقد توفي في سنة ٤٥٨هـ/١٠٦٥م ملك قشتالة فرناندو الأول (الكبير) تاركاً ثلاثة أبناء هو سانشو وغرسية وألفونسو (السادس)، وكان هؤلاء يحكمون قشتالة وجليقية وليون على التوالي، وقد ثارت بينهم حرب أهلية استمرت بضع سنوات، وانتصر في نهايتها سانشو ملك قشتالة فاغتصب ملك أخويه. وعندئذ فرّ الأخوان من وجهه، فالتجأ ألفونسو إلى المأمون يحيى بن ذي النون، والتجأ غرسية إلى ابن عباد ملك إشبيلية[1]. وعاش الفونسو في كنف المأمون في طليطلة نحو تسعة أشهر لم يضعها سدى، وإنما استغلها في التعرف على مداخل المدينة ومخارجها، واكتشاف عوراتها[2]. وكانت تلك المدة كافية لتكوين فكرة عامة عن طليطلة، وتبييت الخطط للاستيلاء عليها عندما تحين الفرصة. وقد لاحت تلك الفرصة بمقتل أخيه سانشو على يد أحد فرسانه، إذ فرّ ألفونسو السادس حالما سمع بوفاة أخيه، واستولى على عرش قشتالة[3]، ثم لم يلبث أن نُصب ملكاً على قشتالة وليون وجليقية، وذلك في سنة ٤٦٥هـ/١٠٧٢م[4]. "واستفحل أمره، واستحكم في المسلمين طمعه، وصحّ في قياسه الفاسد أن يستخلص جزيرة الأندلس لنفسه"[5].

توفي المأمون بن ذي النون سنة ٤٦٧هـ/١٠٧٤م[6]، فخلفه حفيده المسمى أيضاً يحيى، وهو يحيى بن إسماعيل بن يحيى بن إسماعيل بن ذي النون الملقب بالقادر. وكان القادر شاباً قليل الخبرة، تربى في حجور النساء، ونشا بين الغانيات فغلب على أمره العبيد والخصيان. ولكي يتفرغ للهو والعبث أوكل تدبير مملكته لوزيرين كان يؤثرهما، وهما: ابن المفرج، وأبو بكر بن الحديدي الذي كان أكثر اعتماده عليه، إلا أنه تحت تأثير بعض المغرضين من أعيان طليطلة فتك بالحديدي في المحرم من سنة ٤٦٨هـ/١٠٧٦م مما

---

[1] ابن خلدون، تاريخ: ٢٣٢/٤؛ ابن الكردبوس، تاريخ الأندلس: ٧٦؛ ابن عذاري، البيان المغرب: ٢٣٢/٣.

[2] ابن عذاري، البيان المغرب: ٢٣٢/٣؛ ابن الكردبوس، تاريخ: ٧٦-٧٧.

[3] ابن الكردبوس، تاريخ الأندلس: ٧٦-٧٧.

[4] المصدر نفسه: ٧٧.

[5] المصدر نفسه: ٧٦-٧٧.

[6] ابن خلدون، تاريخ: ٢٠٧/٤؛ ابن الكردبوس، تاريخ الأندلس: ٧٨.

جعله يتخبط في الحكم، وجعل الأعداء يزدادون طمعاً ببلاده، حيث خلع طاعته أبو بكر بن عبد العزيز* في بلنسية واستقل بها، وهاجم سانشو راميرو، ملك أراغون حصن قونقة، وكاد أن يستولي عليه. وأمام هذه الضغوطات الداخلية والخارجية التمس القادر عون ألفونسو السادس ملك قشتالة، مذكراً إياه بالمساعدة التي قدمها له جده المأمون، حينما كان ألفونسو لاجئاً في طليطلة[1].

لقد كتب القادر إلى ألفونسو يطلب منه أن يوجه إليه عسكراً من النصارى ليستعين بهم ضد أعدائه والمنتزين في ملكه من المسلمين، فطلب منه ألفونسو أموالاً طائلة مقابل ذلك "وكان أسرّ شيء عند الفنش (ألفونسو) فتنة تقع بين الولاة المسلمين، فيعين هذا على هذا، وهذا على هذا، فيستجلب بذلك اموالهم، طمعاً منه أن يعجزوا، فيظفر هو بملك الجزيرة كلها"[2].

حاول القادر جمع الأموال التي طلبها ألفونسو، ولكن أهل طليطلة أبوا أن يدفعوا جزية للنصارى، ورأوا أن القادر لم يعد صالحاً لحكمهم، ويجب خلعه، ووجهوا إلى المتوكل بن الأفطس، صاحب بطليوس دعوة سرية لتخليصهم. وما إن علم القادر بالأمر حتى فرّ من طليطلة ليلاً والتجأ إلى وبدة، واستغاث بألفونسو بينما دخل المتوكل بن الأفطس طليطلة[3]. وقد أسرع ألفونسو لنجدة القادر بعد أن تخلى له هذا الأخير عن كثير من حصونها فشحنها أسلحة ورجالاً، ودوخ قلاعها، وأضعف خطوطها الدفاعية[4]، ثم تقدم إلى طليطلة وحاصرها حصاراً شديداً، والمتوكل بن الأفطس يحاول جهده الدفاع

---

* هو أبو بكر بن محمد بن مروان بن عبد العزيز القرطبي، كان أبوه أبو عبد الله المعروف بابن روبش وزيراً للأمير العامري عبد العزيز، صاحب بلنسية. وقد حكم ابن روبش بلنسية باسم المأمون بن ذي النون إلى أن توفي المأمون.

[1] انظر التفاصيل: ابن الكردبوس: تاريخ الأندلس: ٧٨-٨١.

[2] ابن الكردبوس، تاريخ الأندلس: ٨١-٨٢.

[3] المصدر نفسه: ٨٢-٨٣. وتقع وبدة Iluete على بعد خمسين كليومتراً غربي قونقة Cuenca، وهي من الحصون الشمالية الشرقية للملكة طليطلة.

[4] ابن الأثير، الكامل في التاريخ: ١٢٨/٨؛ ابن الكردبوس، تاريخ الأندلس: ٨٣؛ ابن خلدون، تاريخ: ٢٠٧/٤؛ المقري، نفح الطيب: ٤٤١/١.

عنها، إلا أنه كان وحيداً، إذ لم يهب أي من ملوك الفتنة الآخرون لنجدته، وإغاثة المدينة، مما اضطره إلى الخروج منها ناجياً بنفسه إلى بطليوس[1]. وعندئذ دخل القادر بن ذي النون طليطلة، وأخذ يجمع الأموال، وأحضر "ما كان عنده من نفيس الذخائر الموروثة عن أبيه وجده" وألقى ذلك كله بين يدي ألفونسو السادس لعلّه يكتفي بها فرفض إلا أن يعطيه القادر المزيد من الحصون، فتخلى له عن حصن قنالش Canales الواقع إلى الشمال الشرقي من طليطلة في منطقة وادي الحجارة "فلما ظفرت به يده جعل فيها ثقاته، وحصل فيه أقواته، وانصرف إلى قشتالة غانماً"[2].

لم يتمكن القادر بن ذي النون بعد عودته إلى طليطلة من حفظ النظام فيها، حيث تغيرت نفوس أهلها عليه، كما كثر الطامعون من ملوك الفتنة مثل بني هود في سرقسطة وبني عباد في إشبيلية بمملكته، ولما وجد نفسه عاجزاً أمام هذه المخاطر تخلى لألفونسو السادس عن طليطلة في سنة ٤٧٨هـ/١٠٨٥م، فدخلها وارتكب فيها الفظائع[3].

كان الثمن الذي طلبه القادر بن ذي النون مقابل تنازله عن طليطلة لألفونسو الذي كان سيأخذ المدينة في كل الأحوال هو أن يساعد القادر على استرجاع بلنسية إلى حكمه[4]، ومن جهته كان ألفونسو بعد احتلاله طليطلة قد استشعر في نفسه قوة عظيمة، وأخذ يرفض الأموال التي كان يدفعها له بعض ملوك الفتنة، وطالب بدلاً من ذلك بأن تسلّم له الحصون مستهدفاً إلحاق المزيد من الضعف بهم، حتى يتسنى له الانتصار عليهم، واحتلال ممالكهم[5]. وتدخل مساعدته للقادر في استرجاع بلنسية ضمن هذا الإطار، فهو يعرف، وقد آلت الأوضاع في الأندلس إلى ما آلت إليه من ضعف وخور في عهد ملوك الفتنة، أن بلنسية ستكون تحت حمايته، بل سيكون الحاكم الحقيقي لها، لذلك لم يتأخر عن

---

[1] ابن الكردبوس، تاريخ الأندلس: ٨٣.

[2] المصدر نفسه: ٨٣-٨٤.

[3] ابن الأثير، الكامل في التاريخ: ١٣٨/٨؛ ابن الكردبوس، تاريخ الأندلس: ٨٥؛ ابن خلدون، تاريخ: ٢٠٧/٤؛ المقري، نفح الطيب: ٤٤١/١، ٤٤٧/٤.

[4] ابن الكردبوس، تاريخ الأندلس: ٨٤.

[5] ابن الأثير، الكامل في التاريخ: ١٣٨/٨؛ ابن خلدون، تاريخ: ٢٠٧/٤؛ المقري، نفح الطيب: ٤٤١/١.

الوفاء بشرط القادر، إذ أمدّه بجيش بقيادة أحد كبار قادته، وهو البرهانس Alvar Haenz[1]، وكان على بلنسية حاكماً "عثمان القاضي أبي بكر بن عبد العزيز من وزراء ابن أبي عامر"، وهو ابن روبش المتقدم ذكره[2]. وعندما وصلت القوة النصرانية إلى بلنسية جرت مراسلات مع أهلها تمخضت عن خلع القاضي عثمان بن أبي بكر ودخول القادر بن ذي النون، وجنود قشتالة المدينة[3]، وذلك في سنة ٤٨٠هـ/١٠٨٧م[4].

أصبحت بلنسية بعد أن دخلها الجنود القشتاليون تحت رحمتهم، وتحكم فيهم القادر بن ذي النون حيث فرض عليهم الضرائب الباهظة إرضاءً لأسياده النصارى مما اضطر كثيراً من أعيان بلنسية إلى الهرب منها. وفي تلك الأثناء كانت جيوش المرابطين قد دخلت الأندلس وأوقعت بجيوش ألفونسو السادس، ملك قشتالة في وقعة الزلاقة، كما سيأتي[5]. وكان دخول المرابطين قد أذهل النصارى، وأخذوا يجمعون قواتهم من كل صوب لمواجهة هذا المد الإسلامي، وقد انسحب البرهانس بجنوده من بلنسية لينضم إلى قوات ألفونسو، فتنفس أهلها الصعداء بعد انتصار المرابطين في الزلاقة، وشجعهم ذلك على الثورة ضد ملكهم الخاضع القادر بن ذي النون، كما شجع المنذر بن هود صاحب لاردة وطرطوشة على تحقيق مطامعه في بلنسية، فسار إليها بقواته، وحاصرها في سنة ٤٨١هـ/١٠٨٨م. ولما سمع ابن أخي المنذر ومنافسه المستعين بن هود استنجد بالقُنبيطور* طمعاً بالاستيلاء على بلنسية، مع أنه آثر التقدم مع قوات القنبيطور لنجدة القادر بن ذي النون الذي استغاث به[6].

---

[1] ابن الكردبوس، تاريخ الأندلس: ٨٦.

[2] ابن خلدون، تاريخ: ٢٠٧/٤.

[3] المصدر نفسه: ٢٠٧/٤.

[4] ابن الكردبوس، تاريخ الأندلس: ٨٦-٨٧.

[5] ابن الأثير، الكامل في التاريخ: ١٤١/٨ وما بعدها؛ وانظر: الناصري، الاستقصا، ٣٤/٢ وما بعدها.

* هو لذريق النصراني كما يسميه ابن عذاري، أو رذريق كما تسميه بعض المصادر، وهو فارس قشتالي مغامر كان يحارب لحساب من يدفع له (مرتزق)، وكان أتباعه ينادونه (السيد). انظر: ابن عذاري، البيان المغرب: ٣١/٤؛ ابن الأبار، الحلة السيراء: ١٦٨/٢؛ ابن الكردبوس، تاريخ الأندلس: ٩٨.

[6] ابن الكردبوس، تاريخ الأندلس: ٩٨.

سار القمبيطور أو (السيد) على رأس ثلاثة آلاف فارس من قواته مع المستعين بن هود الذي كان يقود أربعمائة فارس، سارا معاً إلى بلنسية، وأخذا يفاوضان القادر بن ذي النون الذي اتصل سرّاً بالسيد، وعرض عليه عقد تحالف معه دون علم المستعين. فوعد بمعونته، كما وعد المستعين بذلك أيضاً. ثم رجع السيد إلى قشتالة وحصل من ألفونسو السادس على وثيقة تتيح له الاحتفاظ بما يحتله من الأندلس ملكاً له ولأولاده من بعده، وعاد بقوة أكبر بلغت نحو سبعة آلاف اتجه بها نحو بلنسية التي كانت حينئذ تضطرم بالأحداث، حيث ثار فيها القاضي أبو أحمد جعفر بن عبد الله بن جحاف ضد النصارى القشتاليين وضد القادر بن ذي النون أيضاً، وقد شجعه على هذه الثورة اقتراب المرابطين بقيادة محمد بن عائشة من المدينة[1]. وما لبث ابن جحاف ومعه أهل بلنسية أن قتلوا القادر بن ذي النون في ليلة الثلاثاء ٢٣ رمضان ٤٨٥هـ/١٠٩٢م[2]. وفي صبيحة الليلة نفسها بويع ابن جحاف "ودخل القصر فوجد فيه من الأموال والأثاث وذخائر الملوك شيئاً كثيراً احتوى على ذلك كله"[3].

وحاول ابن جحاف إبعاد النصارى بقيادة السيد عن مدينة بلنسية بتقديم الأموال والهدايا، غير أن السيد اشتد في مطالبه فقرر ابن جحاف المقاومة، فحاصرها السيد نحو عشرين شهراً "وكان المرابطون قد خرجوا من الأندلس إلى العدوة"[4]، مما اضطر أهلها إلى التسليم، وخاصة أن أكثرهم هلك جوعاً "وأكلت الجلود والدواب وغير ذلك"[5]. ثم ما لبث السيد أن أحرق القاضي ابن جحاف، ثم فرض على أهل المدينة ضرائب متنوعة "وأغرمهم حتى استأصل ما عندهم". وكان سقوط بلنسية بيد النصارى في جمادى الأولى سنة ٤٨٧هـ/١٠٩٤م[6].

---

* انظر التفاصيل حول ثورة القاضي ابن جحاف لدى ابن عذاري، البيان المغرب: ٣٠٥/٣ وما بعدها، و٣١/٤ وما بعدها. وانظر أيضاً: ابن الخطيب، أعمال الأعلام: ٢٠٣/٢.

(1) ابن عذاري، البيان المغرب: ٣٠٥/٣، ٣١/٤.

(2) المصدر نفسه: ٣٠٥/٣، ٣٢/٤.

(3) المصدر نفسه: ٣٠٥/٣.

(4) المصدر نفسه: ٣٠٥/٣.

(5) المصدر نفسه: ٣٤/٤.

(6) المصدر نفسه: ٣٠٦/٣، ٣٨/٤-٤١؛ ابن الخطيب، أعمال الأعلام: ٢٠٤/٢؛ ابن الأبار، الحلة السيراء: ١٢٥/٢-١٢٦.

مملكة إشبيلية / بنو عبّاد

يعتبر بنو عباد أشهر ملوك الفتنة، وتعتبر مملكة إشبيلية أشهر الممالك التي أنشأوها[١]. وقد أنشأ هذه المملكة القاضي أبو القاسم محمد بن إسماعيل بن عباد بن عمر بن أسلم بن عمر بن عطاف بن نعيم اللخمي[٢]، وعطاف هو الداخل من بني عباد إلى الأندلس في طالعة بلج بن بشر القشيري[٣]، وقد نزل على قرية طافشة الواقعة إلى الشرق من إشبيلية، وفي تلك القرية تناسل عقبه[٤].

وقد كان القاضي إسماعيل بن عباد يتولى القضاء بإشبيلية منذ أيام المنصور محمد بن أبي عامر، واستمر في ذلك حتى أواخر القرن الرابع الهجري / العاشر الميلادي. وعندما وقعت الفتنة استمر في عمله قاضياً، كما تمكن من حفظ النظام وضبط الأمور في إشبيلية، وظل يجمع خيوط الرئاسة في يده، ويدعم مركزه، ويعمل على حماية المدينة من الفتنة التي عصفت بمدن الأندلس الأخرى وأقطارها حتى تمكن من أن يثبت مقدرته الفائقة في استغلال كل الظروف لصالحه، وخاصة تلك الظروف المتعلقة بالحموديين الذين ترددوا أيام الفتنة على حكم قرطبة وإشبيلية[٥].

وظل القاضي إسماعيل يتولى القضاء في قرطبة حتى شاخ، وأصيب بمرض في عينيه وجد معه أنه لا يجوز له أن يحكم بين الناس[٦]، "فولى ولده أبا القاسم القضاء، واقتصر هو على شاخة البلد، وتدبير الرأي. وكان آية من آيات الله علماً ومعرفة وأدباً وحكمة، فحمى مدينة إشبيلية من سطوة البرابر النازلين حولها بالتدبير الصحيح والرأي

---

(١) انظر: المقري، نفح الطيب: ٤٣٨/١.

(٢) ابن خلدون، تاريخ: ٢٠٠/٤؛ ابن عذاري، البيان المغرب: ١٩٤/٣-١٩٥؛ ابن الأثير، الكامل في التاريخ: ٢٩١/٧.

(٣) ابن عذاري، البيان المغرب: ١٩٥/٣؛ ابن خلدون، تاريخ: ٢٠٠/٤.

(٤) ابن خلدون، تاريخ: ٢٠٠/٤.

(٥) انظر التفاصيل: ابن الأثير، الكامل في التاريخ: ٢٩١/٧؛ المراكشي، المعجب: ٤٩؛ ابن عذاري، البيان المغرب: ١٩٤/٣؛ ابن خلدون، تاريخ: ٢٠٠/٤؛ المقري، نفح الطيب: ٤٣٩/١.

(٦) ابن عذاري، البيان المغرب: ١٩٤/٣.

الرجيح والنظر في الأمور السلطانية إلى أن أتاه أجله سنة أربع عشرة وأربعمائة (١٠٢٣م)"[١].

ولي قضاء إشبيلية أثناء مرض إسماعيل بن عباد ابنه أبو القاسم محمد، وفي عهده حاول بنو حمود تجديد الخلافة في إشبيلية إذ قصدها القاسم بن حمود في مجموعة من الموالين له، ونصب نفسه خليفة فيها وتلقب بالمستعلي، غير أنه ما لبث أن عاد إلى قرطبة. وكان المستعلي عندما تولى الخلافة بإشبيلية قد قرب أبا القاسم بن عباد، وأقره في ولاية القضاء، وعندما عاد المستعلي إلى قرطبة اختار أهل إشبيلية ثلاثة من الأعيان لتدبير الأمور في إشبيلية، وتسيير شؤونها، وهم: قاضيها أبو القاسم محمد بن إسماعيل بن عباد، وأبو بكر محمد بن الحسن الزبيدي، ومحمد بن يريم الألهاني[٢].

وقد حكم هؤلاء الثلاثة إشبيلية بشكل جماعي، "فكانوا يحكمون في النهار في القصر وينفذون الكتب تحت ثلاثة خواتم، وينصرفون آخر النهار"[٣]. ثم استبد أبو القاسم على شريكيه في الحكم، فانفرد بملك إشبيلية، ورضي به الناس، وذلك في شعبان من سنة ٤١٤هـ/١٠٢٣م "فمزق شريكيه اللذين كانا معه كل ممزق، وفرق شملهما كل مفرق"[٤]. وسلك أبو القاسم سيرة ملوك الفتنة الآخرين "وقام بأيقظ جد وأصح عزم...وأقبل لأول وقته على ضم الرجال الأحرار من كل صنف، وشراء العبيد والجد يساعده، والأمور تنقاد له إلى أن ساوى ملوك الطوائف، وزاد على أكثرهم بكثافة سلطانه، وكثرة غلمانه، وتدرج في ذلك شيأً فشيأً، ومارسه شأناً شأناً، إلى أن استولى على أمره، ومهد سلطانه واستقل به"[٥].

---

[١] ابن عذاري،البيان المغرب:١٩٤/٣؛وانظر أيضاً:المراكشي،المعجب:٤٩؛ابن خلدون، تاريخ: ٢٠٠/٤

[٢] المراكشي، المعجب: ٤٩؛ وانظر: ابن خلدون، تاريخ: ٢٠١/٤؛ ابن عذاري، البيان المغرب: ١٩٥/٣، ٣١٥. وأبو بكر الزبيدي هو النحوي صاحب مختصر العين. وأما محمد الألهاني فلم تتفق المصادر على اسمه إذ ذكره ابن خلدون باسم: محمد بن برمخ، وابن عذاري باسم: أبو محمد عبد الله بن مريم، انظر: ابن عذاري، البيان المغرب: ٣١٤/٣.

[٣] ابن عذاري، البيان المغرب: ٣١٥/٣.

[٤] المصدر نفسه: ٣١٥/٣؛ وانظر: ابن خلدون، تاريخ: ٢٠١/٤.

[٥] ابن عذاري، البيان المغرب: ١٩٦/٣-١٩٧.

تلقب أبو القاسم محمد بن إسماعيل بن عباد بذي الوزارتين، ونظم حكم إشبيلية أحسن تنظيم، وتحالف مع بعض البربر وخاصة محمد بن عبد الله البرزالي، صاحب قرمونة ضد بعضهم الآخر، وضد بني الأفطس أصحاب بطليوس وحقق انتصارات عليهم. وكان يقود جيوشه في كثير من الوقائع ابنه إسماعيل الذي تعرض لكمين نصبه له بنو الأفطس أثناء عودته من بعض المعارك منتصراً فأوقعت به سنة ٤٢٥هـ/١٠٣٣م، "وكانت حادثة شنيعة بقيت بها عداوتهما إلى آخر وقتهما"[١]، ثم اشتد عزمه، وقويت شوكته، وقلب للبرزالي صاحب قرمونة ظهر المجن واستولى على قرمونة ثم على إستجة، فاستغاث البرزالي بزعماء البربر فهبوا لنجدته، وكان أقواهم باديس بن حبوس صاحب غرناطة، واحتدمت المعارك بين البربر وبين بني عباد ملوك إشبيلية. وقد تمكن البربر من اختراق أراضي الإشبيليين، وحققوا عليهم انتصارات متلاحقة، كما قتلوا إسماعيل في إحدى تلك المعارك، وذلك سنة ٤٣١هـ/١٠٣٩م[٢].

وكان أبو القاسم محمد بن إسماعيل بن عباد قد عمد إلى مؤذن في مسجد إحدى القرى التابعة لإشبيلية، اسمه: خلف الحصري يشبه الخليفة الأموي هشام المؤيد بالله، وأحضره إلى إشبيلية، وادعى أنه الخليفة هشاماً، ودعا الناس إلى بيعته والدخول في طاعته "فأجابه إلى ذلك صاحب بلنسية ونواحيها، وصاحب قرطبة، وصاحب دانية والجزائر، وصاحب طرطوشة، وأقروا بخلافته، وخطبوا له، وجُددت بيعته بقرطبة في المحرم سنة تسع وعشرين وأربعمائة (١٠٣٧)"[٣]. وحاول أبو القاسم أن يحشد لبيعته ملوك الفتنة الآخرين، وأن يستغل هذه القصة لصالحه تثبيتاً لملكه، ونجح بعض النجاح في ذلك[٤]، إلا أنه توفي في جمادى الأولى سنة ٤٣٣هـ/١٠٤٢م قبل أن يتمكن من حصد الثمار التي ترتبت على هذه القصة التي اخترعها[٥].

---

[١] ابن عذاري، البيان المغرب: ٢٠١-٢٠٣؛ وانظر أيضاً: ابن الأثير، الكامل في التاريخ: ٢٩١/٧.

[٢] ابن عذاري، البيان المغرب: ٢٠٣؛ ابن الأثير، الكامل في التاريخ: ٢٩١/٧؛ المراكشي، المعجب: ٥٠؛ ابن خلدون، تاريخ: ٢٠١/٤.

[٣] ابن الأثير، الكامل في التاريخ: ٢٩١/٧؛ وانظر: ابن الكردبوس، تاريخ الأندلس: ٦٨.

[٤] انظر التفاصيل:ابن عذاري،البيان المغرب: ١٩٧/٣-١٩٩؛ ابن الأثير، الكامل في التاريخ: ٢٩١/٧.

[٥] ابن عذاري، البيان المغرب: ٢٠٣/٣؛ ابن الأثير، الكامل في التاريخ: ٢٩١/٧ وانظر للمقارنة: المراكشي، المعجب: ٥٠؛ ابن خلدون، تاريخ: ٢٠١/٤.

ولي الأمر في إشبيلية بعد وفاة القاضي أبي القاسم محمد بن عباد ابنه: أبو عمرو عباد بن محمد بن إسماعيل بن عباد، وذلك في جمادى الأولى من سنة ٤٣٣هـ/١٠٤١م، وتلقب بالمعتضد[١]. وقد بدأ عهده جرياً على سنة أبيه "في إيثار الإصلاح وحسن التدبير وبسط العدل مدة يسيرة، ثم بدا له أن يستبد بالأمور وحده"[٢]. "وكان شهماً صارماً حديد القلب، شجاع النفس، بعيد الهمة، ذا دهاء"[٣]. عمل على التخلص من منافسيه واحداً بعد الآخر، فقتل بعض وزراء أبيه، واضطهد بعضهم الآخر، وسبيله إلى ذلك كما يقول ابن عذاري "صلابة العصا، وشناعة السطاء، فجاء منها بمهوّلات تذعّر من سمع بها فضلاً عمن عاينها"[٤]. وكان هدفه من وراء ذلك إلقاء الرعب في قلوب الزعماء والمتنفذين من أهل دولته حتى لا يفكر أي منهم بالثورة عليه وخلعه.

وعلى الرغم من سطوة المعتضد ابن عباد "لم يقصّر عن الهمم العلية، والرتب الملوكية، فابتنى القصور السامية، واعتمر العمارات المغلّة، واقتنى الأعلاق النفيسة، وارتبط الخيول، واقتنى الغلمان، واتخذ الرجال وانتقاهم من كل فرقة"[٥]. وبعد أن تمكن له الأمر والتلهي في إشبيلية أخذ يرسم الخطط لتوسيع مملكته، فمد أنظاره نحو غربي الأندلس فهاجم لبلة للاستيلاء عليها من صاحبها أبي عبد الله محمد بن يحيى اليحصبي (عز الدولة) الذي استغاث بالمظفر بن الأفطس صاحب بطليوس، فأمده بقوات من جنده، كما أوعز إلى بعض البربر الموالين له لمهاجمة إشبيلية[٦].

وبدأت حرب ضروس بين المعتضد بن عباد، وبين اليحصبي وابن الأفطس، فقد جرد جيشاً إشبيلياً وجهه لحرب ابن الأفطس في عقر داره، فضربت خيله على بلاده "فغارت وأنجدت وفعلت فعلات نكأت القلوب، وقرّبت الندوب. ثم نهض ابن عباد بنفسه

---

(١) ابن عذاري، البيان المغرب: ٢٠٤/٣؛ ابن الأثير، الكامل في التاريخ: ٢٩١/٧؛ المراكشي، المعجب: ٥٠؛ ابن خلدون، تاريخ: ٢٠١/٤.

(٢) المراكشي، المعجب: ٥٠.

(٣) المصدر نفسه: ٥٠.

(٤) ابن عذاري، البيان المغرب: ٢٠٥/٣.

(٥) المصدر نفسه: ٢٠٥/٣.

(٦) المصدر نفسه: ٢٠٩/٣-٢١٠؛ المراكشي، المعجب: ٥١-٥٢؛ ابن خلدون، تاريخ: ٢٠١/٤.

إلى لبلة للقائه فجرت بينهما وقعة صعبة"[١]. ثم أصبحت الحرب سجالاً بين المعتضد وابن الأفطس "وكانت الدائرة أولا على ابن الأفطس فولى الدبر، وخاض واديها دون مخاضة، فقُتل من رجاله عدد كثير، ثم رجعت له على ابن عباد، فكشف رجاله، وأصاب منهم نفراً، ثم افترقوا"[٢]. وقد استغل بعض البربر في أثناء تلك الحوادث التي وقعت خلال سنة ٤٣٩هـ/١٠٤٧م وساروا إلى شرقي إشبيلية، وعاثوا في تلك النواحي "وانقطعت السبل جملة، وكثر القتل والهرج والسلب، وأمسى الناس في مثل عصر الجاهلية"[٣].

ولما وجد اليحصبي ما حلّ ببلاده تجنب المظفر ابن الأفطس ووالي المعتضد بن عباد، وخان المظفر ابن الأفطس في أموال كان ائتمنه عليها أيام تورطه في حرب المعتضد "فأنبتت بينهم العصمة، وضربت خيل المظفر على صاحب لبلة فاستغاث المعتضد، فلحقت به خيله، واقتتلت مع خيل المظفر"[٤]. وظلت المناوشات قائمة بين الأطراف الثلاثة: اليحصبي والمظفر والمعتضد، ثم احتدمت الحرب بين الأخيرين في سنة ٤٤٢هـ/١٠٥٠م، واستولى المعتضد على عدة من حصون المظفر "ضمها إلى عمله، وشدّها برجاله، ودمّر عمارات واسعة، وأفسد غلاتها"[٥]. بينما عجز المظفر بن الأفطس عن الدفاع عن مملكته، فانكمش بقواته في بطليوس "وجعل يشكو...إلى حلفائه فلا يجد ظهيراً ولا نصيراً"[٦].

وبعد وقت ليس طويلاً فسد ما بين المعتضد والبرزالي صاحب قرمونة، ونشبت بينهما حروب انتهت باستيلاء المعتضد على قرمونة في سنة ٤٤٥هـ/١٠٥٣م[٧]. ثم تفرغ لإمارات البربر في غربي الأندلس "كان يحيى وابن هارون وابن مزين والبكري،

---

[١] ابن عذاري، البيان المغرب: ٢١٠/٣.

[٢] المصدر نفسه: ٢١٠/٣-٢١١.

[٣] المصدر نفسه: ٢١٠/٣.

[٤] المصدر نفسه: ٢١١/٣.

[٥] المصدر نفسه: ٢١١/٣.

[٦] المصدر نفسه: ٢١١/٣.

[٧] ابن خلدون، تاريخ: ٢٠١/٤؛ ابن عذاري، البيان المغرب: ٢١٣/٣.

فأتيح له من الظفر عليهم ما حاز به أملاكهم، وضمّها جملة إلى عمله"[1]. وبعد ذلك استولى على الجزيرة الخضراء من صاحبها القاسم بن حمود الذي عجز عن مدافعة المعتضد "فنزل على أمان، وآل أمره إلى أن لحق بقرطبة، وسكنها تحت كنف ابن جهور مع نظرائه من المخلوعين"[2].

والجدير بالذكر هنا أن المعتضد بن عباد بعد أن استولى على هذه المناطق الواسعة، واستقر له الأمر فيها قطع ما كان ادعاه والده أو ما ادعاه هو - حسب بعض الروايات - من أن الخليفة الأموي هشاماً المؤيد حي يرزق، وأنه إنما يحارب باسمه. وقد اتصل الدعاء للخليفة المزعوم حتى آخر سنة ٤٥١هـ/١٠٥٩م[3].

واستمر المعتضد في مضايقات لأمراء غرب الأندلس من البربر مثل أبي نور بن أبي قرة، صاحب رندة، ومحمد بن نوح الدمري صاحب مورور، وعبدون بن خزرون صاحب أركش[4]، وقد قرر التخلص منهم جميعاً، فدعاهم إلى إشبيلية، وأحسن استقبالهم، ثم أنبهم على تقصيرهم في الوقوف إلى جانبه ضد أعدائه، ولما هم بعضهم بالرد عليه أمر بالقبض عليهم، واستولى على متاعهم وخيلهم وأسلحتهم، ثم لم يلبث أن غدر بهم في حمّام، حيث أدخلهم فيه وأمر بإضرام النار عليهم باستثناء ابن أبي قرة الذي تذكر بعض المصادر أنه أطلق سراحه[5]. وقام المعتضد - بعد ذلك - بالاستيلاء على أركش وشريش والجزيرة وقلّسانة التي كانت تشكل مملكة واحدة بعد أن أهلك ملكها ابن خزرون، وهو القائم ابن عماد الدولة أبو عبد الله محمد بن خزرون بن عبدون الخزري، وذلك في سنة ٤٦١هـ/١٠٦٨م[6].

---

[1] ابن عذاري، البيان المغرب: ٢١٣/٣؛ ابن خلدون، تاريخ: ٢٠٢/٤.

[2] ابن عذاري، البيان المغرب: ٢١٣/٣.

[3] المصدر نفسه: ٢١٣/٣،٢٣١؛ وانظر: المراكشي، المعجب: ٥٠؛ ابن الأثير، الكامل في التاريخ: ٢٩١/٧.

[4] انظر: ابن عذاري، البيان المغرب: ٢١٤/٣.

[5] ابن خلدون، تاريخ: ٢٠٢/٤؛ ابن عذاري، البيان المغرب: ٢١٤/٣ وما بعدها.

[6] ابن عذاري، البيان المغرب: ٢٩٤/٣.

وأما مورور فقد استولى عليها المعتضد بن عباد من يد عماد الدولة مناد بن محمد بن نوح الدمري وذلك في سنة ٤٥٨هـ/١٠٦٥م، حيث ظل المعتضد "يغير عليه ويطأ بلاده ويحرق قراه إلى أن نزل عليه بمورور، فحاصره حصاراً شديداً، وشدّ خناقه، فكتب إليه بخطب سلمه على أن يخلع نفسه ويخرج إلى إشبيلية بأهله وماله مسلّما في ذلك كله"، فأجابه المعتضد إلى ذلك، وأنزله في إشبيلية، وظل إلى أن مات سنة ٤٦٨هـ/١٠٧٥م[١].

واستولى المعتضد بن عباد على يشلب من يد أصحابها بني مزين، وكان يحكمها في عهد المعتضد: المظفر عيسى بن محمد بن سعيد بن مزين الذي بويع فيها في ربيع الآخر سنة ٤٥٠هـ/١٠٥٨م، وشن عليه المعتضد الغارات، ووالى عليه السرايا "ثم نزل عليه فحصره وضايقه وقطع عنه المرافق كلها من الفحم والحطب، فساءت الحال واشتد البلاء على أهل شلب وغيرها إلى أن دخل عليه المدينة عنوة بعد هدم سورها بالمجانيق"[٢]. وكان سقوطها في يد المعتضد في شوال سنة ٤٥٥هـ/١٠٦٣م[٣]. أما صاحبها المظفر فقد انتهى إلى نهاية مفجعة، فبعد أن اقتحم المعتضد عليه قصره قبض عليه، وضرب عنقه "ظلماً له وجرأة على الله عز وجل"[٤].

وضايق المعتضد بن عباد: المعتصم محمد بن سعيد بن هارون صاحب شنتمرية الشرق، إذ شن عليه الحروب، وضايقه ضيقاً شديداً إلى أن اضطره إلى خلع نفسه، وتسليم بلاده للمعتضد سنة ٤٤٣هـ/١٠٥١م[٥].

واتبع المعتضد بن عباد الطريقة نفسها في ضم أونبة وشلطيش، فقد نصب الحروب على صاحبها: عز الدولة عبد العزيز البكري "وشن عليه الغارات، وصب عليه

---

[١] ابن عذاري، البيان المغرب: ٢٩٦/٣.

[٢] المصدر نفسه:٢٩٨/٣.

[٣] المصدر نفسه: ٢٩٨/٣.

[٤] المصدر نفسه: ٢٩٨/٣.

[٥] المصدر نفسه: ٢٩٩/٣.

الشر، ففسدت البلاد، وكثر الفساد، فلما لم يقاومه ولا له به يد ألقى إليه يده، وخطب سلمه، وخلع له نفسه، وذلك في سنة ثلاث وأربعين وأربعمائة (١٠٥١م)"[١]. وقد انتقل عز الدولة إلى إشبيلية حيث أجرى عليه المعتضد الأرزاق إلى أن توفي بها حوالي سنة ٤٥٠هـ/١٠٥٨م[٢].

وهكذا استطاع المعتضد بن عباد أن ينشئ – بحد السيف – مملكة كبيرة شملت معظم أجزاء جنوبي الأندلس، وامتدت غرباً حتى شواطئ المحيط الأطلسي. ولولا أسلوب البطش الذي اتبعه ابن عباد مع ملوك الفتنة الآخرين لما استطاع إنشاء هذه المملكة الواسعة في عصر كان البقاء فيه للأقوى، وكانت حدود الممالك خلالها تتسع، أو تضيق بقدر القوة أو الضعف اللذين يبلغهما هذا الملك أو ذاك، وبقدر ما لديه من سطوة لم يفتقر إليها المعتضد بن عباد[٣].

وقد بلغ المعتضد من البطش والقسوة حداً جعله لا يتورع عن الفتك بابنه إسماعيل الذي كان خليفته المرشح لمكانه، إذ كان إسماعيل كما تشير بعض الروايات قد هم بغدر والده "فأخذه أبوه وثقّفه في قرصه، فذهب إلى التدبير عليه ثانية من مكان اعتقاله، فقال ابن عباد: لا يلدغ المؤمن من جحر مرتين، فقتله بيده، وقتل الوزير الذي واطأه على ذلك...ثم استدعى ولده محمداً من مدينة شلب، وكان والياً عليها، فنصبه لحجابته مكان ابنه الهالك"[٤]. وقد وقعت هذه الحادثة سنة ٤٤٩هـ/١٠٥٧م، وقيل سنة ٤٥٠هـ/١٠٥٨م[٥]. ولم يكتف المعتضد بقتل ولده بيده، وإنما وجه الكتب والرسائل إلى ملوك الفتنة الآخرين يحاول تبرير فعله الدموي، ومن ذلك كتابة إلى المقتدر بالله ابن هود، صاحب سرقسطة، وكان من إنشاء ابن عبد البر، وقد جاء فيه "وذلك أيدك الله أن الغوي اللعين العاق الشاق إسماعيل ابني بالولادة، لا بالوداد، ونجلي بالمكاسب لا بالمذاهب، كنت

---

[١] ابن عذاري، البيان المغرب: ٢٩٩/٣.

[٢] المصدر نفسه: ٢٩٩/٣.

[٣] انظر بعض التفاصيل عن أساليب المعتضد في الفتك بأعدائه حتى من العامة لدى المراكشي، المعجب: ٥١ وما بعدها.

[٤] ابن عذاري، البيان المغرب: ٢٤٤/٣.

[٥] المصدر نفسه: ٢٤٤/٣، ٢٤٩.

قد ملت بهواي إليه، وقدمته على من هو أسن منه...وما كنت خصصته بالإيثار، واستعملته بالمكافحة والقرار، إلا لجزالة كنت أتوسمها فيه...فأشره ذلك وأبطره، وأطغاه وأكفره، وطلب الازدياد، وأحب الانفراد والاستبداد...فلم أشعر به إلا وقد ألف أوباشاً وسقاهم الخمر، ليستولي معهم بزعمه على الأمر، وطرق القصر ليلاً في بضعة عشر منهم، فشعرت بالحركة وخرجت إليهم، فلما وقعت علي أعينهم تساقطوا هاربين، وتطارحوا خائفين خائبين، فالتقطتهم لقط حب السمسم وقتلتهم، وعجل الله حينهم وحتفهم"[1].

وكان المعتضد بن عباد – على الرغم من قسوته وصرامته – "يغلب عليه الجود...وكان لأهل الأدب عنده سوق نافقة، وله في ذلك همة عالية، ألّف له الأعلم أديب عصره ولغوي زمانه شرح الأشعار الستة، وشرح الحماسة، وألف له غيره دواوين وتصانيف لم تخرج إلى الناس"[2].

وتوفي المعتضد بن عباد سنة ٤٦١هـ/١٠٦٩م[3]، وقيل في سبب وفاته أنه تعرض لذبحة صدرية بسبب الإجهاد، وقيل "إن ملك الروم سمه في ثياب أرسل بها إليه، وقيل إنه مات حتف أنفه"[4]. وقد ذكر ابن عذاري – نقلاً عن ابن حيان – أنه توفي يوم الأربعاء ٦ جمادى الآخرة من سنة ٤٦١هـ/١٠٦٩م، واصفاً إياه بأنه "زعيم ثوار الأندلس في وقته، أسد الملوك وشهاب الفتنة، ذو الأنباء البديعة، والحوادث الشنيعة، والوقائع المبيرة، والهمم العلية، والسطوة الأبية، فرماه الله بسهم من مراميه المصمية"[5].

---

(1) ابن عذاري، البيان المغرب: ٣/٢٤٥-٢٤٨.

(2) المصدر نفسه: ٣/٢٨٤.

(3) ابن خلدون، تاريخ: ٤/٢٠٣؛ ابن الأثير، الكامل في التاريخ: ٧/٢٩١. وقد ذكر ابن عذاري أنه توفي سنة ٤٦٠هـ/١٠٦٨م. انظر: البيان المغرب: ٣/٢٨٣. بينما ذكر المراكشي أنه توفي سنة ٤٦٤هـ/١٠٧٢م والصحيح ما ورد في المتن.

(4) ابن عذاري، البيان المغرب: ٣/٢٠٤؛ المراكشي، المعجب: ٥٤.

(5) ابن عذاري، البيان المغرب: ٣/٢٠٤.

ولي بعد المعتضد بن عباد ابنه أبو القاسم محمد بن عباد بن محمد بن إسماعيل بن عباد، وتلقب بالمعتمد على الله، والظافر بحول الله، وقد غلب لقب المعتمد عليه[1]. وكان عمره عندما ولي نحو ثلاثين سنة، وقيل: بويع وله سبع وثلاثون سنة[2]. وكان ذكي النفس غزير الأدب "واجتمع له من الشعراء وأهل الأدب ما لم يجتمع لملك قبله من ملوك الأندلس. وكان مقتصراً من العلوم على علم الأدب وما يتعلق به وينضم إليه، وكان فيه مع هذا من الفضائل الذاتية ما لا يحصى كالشجاعة والسخاء والحياء والنزاهة"[3].

سار المعتمد بن عباد على سياسة أبيه وجده في توسيع مملكة إشبيلية، وتثبيت أركانها، والقضاء على سلطان البربر حيثما وُجدوا في الأندلس. وانطلاقاً من هذه السياسة استولى المعتمد على دار الخلافة قرطبة من يد ابن جهور "وفرّق أبناءه على قواعد الملك وأنزلهم بها"[4]. وكان للمعتمد وزير اضطلع بتنفيذ مشاريعه، وهو أبو بكر محمد بن عمار الذي ولد في إحدى قرى شلب، وكان عصامياً محنكاً، علا نجمه "وساعده الجد، ونهض به البخت، وانتهى أمره أن ولاه المعتمد على الله مدينة شلب وأعمالها أول ما أفضى الأمر إليه"[5]. وقد فتح ابن عمار مدينة مرسية لسيده المعتمد في سنة ٤٧١هـ/١٠٧٨م[6]، فقد سار إليها ابن عمار على رأس جيش كبير، والتقى وهو في طريقه إليها بقائد حصن بلج Velez Rubio وهو: عبد الرحمن بن رشيق، وولاه قيادة الجيش، وقد حاصر ابن رشيق مرسية، وضيق عليها الخناق حتى استسلمت له. وقد سولت لابن عمار نفسه الاستقلال بحكم المدينة، وقام بذلك بالفعل، غير أن ابن رشيق فاتح المدينة الحقيقي اغتنم فرصة خروج ابن عمار من مرسية واستولى على الحكم فيها، وغلّق أبوابها في وجه ابن عمار الذي اضطر إلى الفرار، حيث التجأ إلى بني هود في

---

(1) انظر: المراكشي، المعجب: ٥٤؛ ابن الأثير، الكامل في التاريخ: ٢٩١/٧؛ ابن خلدون، تاريخ: ٢٠٣/٤؛ المقري، نفح الطيب: ٤٣٩/١.

(2) المراكشي، المعجب: ٥٤.

(3) المصدر نفسه: ٥٤.

(4) ابن خلدون، تاريخ: ٢٠٣/٤؛ المقري، نفح الطيب: ٤٣٩/١.

(5) المراكشي، المعجب: ٦١.

(6) المصدر نفسه: ٦٥؛ وانظر: ابن الخطيب، أعمال الأعلام: ١٦٠؛ ولمزيد من التفاصيل انظر: ابن الأثير، الكامل في التاريخ: ٢٩٣/٧.

سرقسطة[1]. وبعد فترة من مكوثه في سرقسطة خاف بنو هود جريرة إيوائه فأخرجوه من بلادهم، فطاف البلاد "إلى أن وقع في حصن من حصون الأندلس في غاية المنعة يدعى شقورة، كان المتغلب عليه رجل يُقال له ابن مبارك، فأكرم وفادته، وأحسن نزله، ثم بدا له بعد أيام فقبض عليه وقيده وجعله في سجنه"[2]. ثم عرض ابن عمار على ابن مبارك أن يكتب إلى ملوك الفتنة ويعرضه عليهم، وكان ممن عرضه عليهم المعتمد بن عباد الذي وجد قوة وتسلّمه، وأتى به إلى قرطبة حيث عزّره في أسواقها، ثم نقله إلى إشبيلية وألقاه في السجن[3].

وأرسل ابن عمار إلى المعتمد قصائد كثيرة يتوسل أن يطلق سراحه، ولكن تلك القصائد كانت "رقى لم تنجع، ودعوات لم تسمع، وتمائم لم تنفع"[4]، فقد بلغ من قسوة المعتمد أن قتل ابن عمار في سجنه سنة ٤٧٩هـ/١٠٨٧م[5].

لقد امتدت مملكة المعتمد بن عباد إلى أن بلغت مدينة مرسية التي تبعد عن إشبيلية اثنتي عشرة مرحلة بما في ذلك من مدن متسعة وقرى ضخمة[6]. واشتملت تلك المملكة أيضاً على مملكة غرناطة التي أقامها الصنهاجيون من البربر على يد باديس بن حبوس بن ماكسن بن زاوي بن زيري بن مناد الصنهاجي[7]، وكان باديس قد ورث عن أبيه ملكاً شاسعاً شمل بالإضافة إلى غرناطة: مدينة قبرة ومدينة جيان، وعندما توفي سنة ٤٢٨هـ/١٠٣٦م[8] خلفه ابنه باديس الذي اتخذ وزيراً يهودياً هو إسماعيل بن نغرالة اليهودي "ورفعه فوق كل منزلة، فاتخذ هذا اليهودي عمالاً ومتصرفين في الأشغال،

---

[1] المراكشي، المعجب: ٦٥-٦٦.
[2] المصدر نفسه: ٦٦.
[3] المصدر نفسه: ٦٦-٦٧.
[4] المصدر نفسه: ٦٧.
[5] المصدر نفسه: ٦٧-٦٩.
[6] المصدر نفسه: ٦٩.
[7] ابن عذاري، البيان المغرب: ٣/٢٦٢-٢٦٤؛ ابن خلدون، تاريخ: ٤/٢٠٦.
[8] ابن عذاري، البيان المغرب: ٣/٢٦٤.

واكتسبوا الجاه والمال في أيامه، واستطالوا على المسلمين"[1]. وبعد وفاة إسماعيل بن نغرالة خلفه وزيراً لباديس ابنه يوسف الذي سار على نهج والده "وكان جميل الوجه حاد الذهن، فأخذ نفسه بالاجتهاد في الأحوال، واستخراج الأموال، واستعمل اليهود إخوانه على الأعمال، فزادت منزلته عند أميره باديس"[2]، مع أنه كان يتجسس عليه عن طريق عيون له بثهم في القصر "فلا يكاد باديس يتنفس إلا ويعلم اليهودي ذلك"[3].

وقد استمرت دسائس اليهودي، وحاول الإيقاع بين باديس وابنه بلّقين، إلى أن كشف باديس هذه الدسائس فقام على وزيره اليهودي، وقتله وصلبه وقتل من اليهود جملة عظيمة ونهبت دورهم، وذلك سنة ٤٥٩هـ/١٠٦٦م[4]. وتوفي باديس سنة ٤٦٧هـ/١٠٧٤م فولي بعده حفيده عبد الله بلقين[5] الذي ولى أخاه تميماً على مالقة[6].

وقد اشتدت الحرب بين المعتمد بن عباد وبلقين بعد وفاة باديس بنحو سنة، واستعان على حربه بالنصارى إذ عقد حلفاً مع ألفونسو، ملك قشتالة، ودفع له خمسين ألف دينار على أن يساعده في الاستيلاء على غرناطة، وقد استغل ألفونسو السادس ذلك، إذ أخذ يغير على بسائط غرناطة، ويعيث فيها تخريباً وتدميراً. كما قام ألفونسو السادس بإنشاء حصن قرب غرناطة شحنه بالجند والمعدات لإرهاق المدينة، ولكن لم ينل منها فسحب قواته. غير أن وزير المعتمد: ابن عمار حرض ألفونسو مرة أخرى على غزو غرناطة، فقام عبد الله بن بلقين بعمل مماثل حيث اتصل هو الآخر بالملك النصراني، وتعهد أن يدفع له جزية سنوية قدرها عشرة آلاف مثقال من الذهب. وكان ألفونسو يأخذ الأموال ويراوغ في القيام بما أخذ تلك الأموال ثمناً له، بهدف إضعاف الأندلس. وقد أدى ذلك إلى تفاهم المعتمد بن عباد وعبد الله بن بلقين وذلك في أواخر سنة ٤٧٧هـ/١٠٨٤م.

---

(1) ابن عذاري، البيان المغرب: ٢٦٤/٣.

(2) المصدر نفسه: ٢٦٤/٣-٢٦٥.

(3) المصدر نفسه: ٢٦٥.

(4) المصدر نفسه: ٢٦٦؛ وانظر: ابن خلدون، تاريخ: ٢٠٦/٤.

(5) ابن خلدون، تاريخ: ٢٠٦/٤؛ وانظر: ابن الأثير، الكامل في التاريخ: ٧/ ٢٩٤؛ وانظر: ابن الخطيب، الإحاطة: ٤٥٠/١ حيث يذكر أن باديس توفي سنة ٤٦٥هـ/١٠٧٣م.

(6) ابن خلدون، تاريخ: ٢٠٦/٤.

ولم يحم غرناطة من صولة المعتمد سوى سقوط طليطلة في يد النصارى في السنة التالية ٤٧٨هـ/١٠٩١م كما سيأتي[١]. ومع ذلك علت يد المعتمد بن عباد على ملك غرناطة، مثلما علت على غيره من ملوك الفتنة الآخرين[٢].

كان سقوط طليطلة في يد ملك قشتالة ألفونسو السادس شربة قاصمة للأندلس، ولمن فيها من ملوك الفتنة وخاصة المعتمد بن عباد الذي أصبح ملكه مهدداً على الرغم من الجزية السنوية التي كان يدفعها لألفونسو اتقاءً لشرّه، فألفونسو بعد استيلائه على طليطلة "انتحى انتحاء الجبابرة، وأنزل نفسه منازل القياصرة، وداخله من الإعجاب ما احتقر به كل ماش على التراب"[٣].

اشتط ألفونسو السادس في مطالبه من المعتمد بن عباد، وأدى ذلك إلى تنافر شديد بين الزعيمين، واستعداد كل منهما لمواجهة الآخر في حرب ضروس. وقد بدأ هذا التنافر الشديد حسب ما تذكر بعض المصادر سنة ٤٧٥هـ/١٠٨٢م عندما أرسل ألفونسو إلى المعتمد يطلب الأموال التي تعهد المعتمد بدفعها، ويطلب أيضاً أن يسمح المعتمد لزوج ألفونسو بأن تلد في المسجد الجامع بقرطبة، وأن تنزل بعد ذلك في مدينة الزهراء حسب مشورة الأطباء[٤]. وكان رئيس الوفد الذي أرسله ألفونسو إلى المعتمد شخصاً يهودياً يدعى ابن شاليب، ومعه سرية من الفرسان النصارى[٥]. وفي أثناء المفاوضات التي جرت في ظاهر إشبيلية أسفَّ ابن شاليب في حديثه، فأبت كرامة المعتمد عليه إلا أن يقتل ابن شاليب، ويعتقل الفرسان النصارى[٦]. وعلى أثر ذلك تطورت الأحداث بسرعة، فقد أقسم ألفونسو على الانتقام من المعتمد وغيره من المتنفذين في الأندلس[٧]. بينما أخذ

---

[١] ابن الأثير، الكامل في التاريخ: ٢٩٤/٧؛ ابن خلدون، تاريخ: ٢٠٦/٤؛ المراكشي، المعجب: ٧٠-٧١.

[٢] ابن خلدون، تاريخ: ٢٠٣/٤؛ المقري، نفح الطيب: ٤٣٩/١.

[٣] ابن الكردبوس، تاريخ الأندلس: ٨٨.

[٤] ابن الخطيب، أعمال الأعلام: ٢٤٤/٢؛ المقري، نفح الطيب: ٣٥٧/٤-٣٥٨.

[٥] ابن الخطيب: أعمال الأعلام: ١٥٩/٢.

[٦] ابن خلدون، تاريخ: ٢٠٣/٤؛ المقري، نفح الطيب: ٤٣٩/١.

[٧] ابن الكردبوس، تاريخ الأندلس: ٨٩.

المعتمد يستعد هو الآخر، ويحاول توحيد جهود ملوك الفتنة لمواجهة هذا الخطر الداهم. ولإفشال مخططات ألفونسو قام المعتمد أيضاً باستصراخ المرابطين[1].

وتذكر روايات أخرى أن المعتمد ابن عباد أرسل إلى ألفونسو بعد احتلاله طليطلة الضريبة على عادته مع يهودي يعرف بابن مشعل، فقال ألفونسو لرسول المعتمد "كيف أترك قوماً مجانين تسمى كل واحد منهم باسم خلفائهم وملوكهم وأمرائهم: المعتضد والمعتمد والمعتصم والمتوكل والمستعين والمقتدر والأمين والمأمون، وكل واحد منهم لا يسلّ في الذب عن نفسه سيفاً، ولا يرفع عن رعيته ضيماً ولا حيفاً، قد أظهروا الفسوق والعصيان، واعتكفوا على المغاني والعيدان؟ وكيف يحلّ لبشر أن يقرّ منهم على رعيته أحداً، وأن يدعها بين أيديهم سدىً"[2]. ويذكر ابن الكردبوس بعد أن ينقل هذه الرواية أن جيوش النصارى انتشرت "على جميع الأقطار، وعاثوا في جميع الأمصار، وصارت لهم أقصى بلاد المسلمين مرتعاً"[3].

لقد بدأ التنافر الشديد بين ألفونسو السادس ملك قشتالة، والمعتمد بن عباد بعد أن احتل ألفونسو طليطلة، حيث استشعر في نفسه القوة، وأخذ يتصرف كما يتصرف الجبابرة، فعندما أرسل إليه المعتمد الجزية جرياً على عادته وعادة أبيه المعتضد من قبله رفضها ألفونسو، وأرسل وفداً إلى المعتمد يطلب منه أن يتخلى لألفونسو عن "جميع الحصون التي في الجبل، ويبقى السهل للمسلمين، وكان الرسول في جمع كثير كانوا

---

(1) ابن الخطيب، أعمال الأعلام: ٢/١٥٩،٢٤٥؛ ابن الكردبوس، تاريخ الأندلس: ٨٩؛ ابن خلدون، تاريخ: ٤/٢٠٣؛ المقري، نفح الطيب: ١/٤٣٩،٤/٣٥٩؛ ابن الأبار، الحلة السيراء: ٢/١٨٦.

(2) ابن الكردبوس، تاريخ الأندلس: ٨٩. وهذه الرواية يستبعد أن يكون ألفونسو قالها لسفير المعتمد إليه، فألفونسو حسب هذه الرواية يظهر بمظهر الحريص على وحدة المسلمين، الذي يتفطر ألماً بسبب ما أصابهم من فرقة، وما توزعوا إليه من ممالك، وتقطر نفسه أسىً لأن أحداً من ملوكهم لا يستطيع الذب عن نفسه، ويرفع الضيم والحيف عن رعيته. وهذا بالطبع ليس صحيحاً، ولا يمكن أن يصدر عن ملك نصراني مثل ألفونسو الذي كان همه الأكبر إضعاف الأندلس، وتمزقها تمهيداً لالتهامها، ويفرحه أن تكثر الممالك وملوك الفتنة في الأندلس الإسلامية لأن ذلك يعني ضعفها، ويسهل ابتلاعها من قبل النصارى.

(3) ابن الكردبوس، تاريخ الأندلس: ٨٩.

خمسمائة فارس، فأنزله محمد بن عباد، وفرق أصحابه على قواد عسكره، ثم أمر كل من عنده منهم رجل أن يقتله، وأحضر الرسول وصفعه حتى خرجـت عينـاه. وسـلم مـن الجماعة ثلاثة نفر، فعادوا إلى الأذفونش (ألفونسو) فأخبروه الخبر، وكان متوجـهاً إلـى قرطبة ليحاصرها، فلما بلغه الخبر عاد إلى طليطلة يجمع آلات الحصار، ورحل المعتمـد إلى إشبيلية"[١]. وفي إشبيلية بدأت الاستعدادات لمواجهة ألفونسو، وكان من بيـن تلـك الاستعدادات استقدام أمير المرابطين لدعم مسلمي الأندلس ضد النصارى، وهو ما سـيأتي تفصيله فيما بعد[٢]. والجدير بالإشارة إليه هنا هو أن المعتمد بن عباد جاز بنفسـه إلـى المغرب مستصرخاً يوسف بن تاشفين في سنة ٤٧٩هـ/١٠٨٦م[٣]، فأغاثه المرابطون، ثم استولوا على مملكة إشبيلية سنة ٤٨٤هـ/١٠٩٢م.

---

[١] ابن الأثير، الكامل في التاريخ: ١٣٨/٨.

[٢] المصدر نفسه: ١٤١/٨؛ وانظر: المراكشي، المعجب.

[٣] المراكشي، المعجب: ٧٠؛ ابن خلدون، تاريخ: ٢٠٣/٤.

تسلّم بنو هود حكم سرقسطة من التجيبيين، وكان منذر بن يحيى التجيبي هو أول من حكمها من هؤلاء وذلك في عهد الخليفة الأموي المستعين بالله سليمان بن حكم بن سليمان بن عبد الرحمن الناصر الذي قسم بلاد الأندلس أثناء توليه الخلافة للمرة الثانية على رؤساء القبائل، ومنهم منذر بن يحيى الذي أعطاه سرقسطة[١]، وهو منذر بن مطرّف ابن يحيى بن عبد الرحمن بن محمد هاشم التجيبي[٢]. كان "رجلاً من عرض الجند، وترقى إلى القيادة آخر دولة ابن أبي عامر، وتناهى أمره في الفتنة إلى الإمارة"[٣]. ومن أبرز صفات منذر أنه كان "فارساً لبق الفروسية، خارجاً من حد الجهل، يتمسك بطرف من الكتابة الساذجة"[٤].

وكان منذر بن يحيى التجيبي قد مالأ النصارى في أول عهده بحكم سرقسطة والثغر الأعلى، وبلغ من استمالته لبعض طوائفهم "أن جرى بين يديه وبحضرته عقد مصاهرة بعضهم، فقذفته الألسنة لسعيه في نظم سلك النصارى"[٥]. وكان هذا العقد الذي أغضب المسلمين لإتمامه في بلاط المنذر قد تم بين أميرين من أمراء النصارى هما: سانشو ملك النافار ورامون بوريل أمير برشلونة. وقد حقق المنذر باتباعه سياسة المهادنة مع النصارى وموادعتهم ما لم يحققه غيره بالتهديد والحرب، فقد ضمن للثغر الأعلى فترة من الدعة والرخاء والاستقرار، وبذلك سدّ العورة "وسدّها بيسير الكلفة"[٦]. وهو بسياسة المسالمة مع النصارى إنما دل على بعد نظره، وحسن تقدير العواقب، إذ لم يحم بتلك السياسة بلاده وحسب، وإنما بلاد المسلمين المجاورة للنصارى[٧].

---

(١) ابن عذاري، البيان المغرب: ١١٣/٣؛ وانظر: ابن خلدون، تاريخ: ٢٠٩/٤.

(٢) ابن خلدون، تاريخ: ٢٠٩/٤.

(٣) ابن عذاري، البيان المغرب: ١٧٥/٣.

(٤) المصدر نفسه: ١٧٦/٣.

(٥) المصدر نفسه: ١٧٦/٣-١٧٧.

(٦) المصدر نفسه: ١٧٧/٣.

(٧) المصدر نفسه: ١٧٧/٣.

اتخذ المنذر بن يحيى التجيبي – مثله مثل ملوك الفتنة الآخرين – لقباً سلطانياً، وهو: المنصور[١]. وقد استمر المنذر في الحكم نحو ست سنوات، إذ توفي في السنة ٤١٤هـ/١٠٢٣م[٢].

خلف المنذر بن يحيى على حكم سرقسطة والثغر الأعلى ابنه يحيى الذي تلقب بالمظفر[٣]، ولم تزودنا المصادر بأخباره، ولكن ما يبدو من مقارنة الروايات أن يحيى بن المنذر لم يحكم سوى ست سنوات، إذ توفي في سنة ٤٢٠هـ/١٠٢٩م[٤].

خلف يحيى بن المنذر ابنه المنذر، وكانت سنه تسع عشرة سنة، وقد تلقب بالحاجب معز الدولة[٥]. "وكانت أمه بنت عبد الرحمن ذي النون أخت المأمون يحيى بن ذي النون"[٦]. ولم تذكر المصادر شيئاً من أخبار معز الدولة خلال مدة حكمه التي بلغت أكثر من عشر سنوات، ولكنها فصلت خبر مقتله على يد قائد من قواده من بني عمومته يدعى عبد الله بن حكيم، فقد أضمر هذا القائد الفتك به "فدخل عليه غرة ذي الحجة سنة ثلاثين وأربعمائة وهو غافل في غلاله، وليس عنه إلا نفر يسير من خواص خدمه الصقلب، وهو كابّ على كتاب يقرؤه، فعلاه بسكين قد أعده، فقطع به أوداجه"[٧]. "وخرج هذا القاتل من القصر فاجتمع عليه بنو عمه وولوه لأمرهم، وكان عاهر الفرج، ذُكر أنه كان يدخل على النساء الحمام"[٨]. ولما اكتشف أهل سرقسطة أفعاله لم يحتملوها منه، وهمّوا بقتله، وفي الوقت نفسه سارع سليمان بن هود الجذامي صاحب لاردة الذي

---

[١] ابن خلدون، تاريخ: ٢٠٩/٤.

[٢] المصدر نفسه: ٢٠٩/٤.

[٣] المصدر نفسه: ٢٠٩/٤.

[٤] قارن: ابن خلدون، تاريخ: ٢٠٩/٤؛ وابن عذاري، البيان المغرب: ١٧٨/٣، ٢٢١. والواضح أن المصادر خلطت بين المنذر بن يحيى وابنه يحيى وحفيده المنذر.

[٥] ابن عذاري، البيان المغرب: ٢٢١/٣.

[٦] المصدر نفسه: ٢٢١/٣.

[٧] المصدر نفسه: ١٧٨/٣.

[٨] المصدر نفسه: ٢٢٢,٧/٣

كان مقيماً حينئذ في تطيلة، سارع عندما علم بخبر مقتل معز الدولة طمعاً في الاستيلاء على سرقسطة، كما جاء إسماعيل بن ذي النون، خال ومعزّ الدولة "ممتعضاً لما جرى على ابن أخته"[1]. وعندئذ امتنع عبد الله بن حكيم في قصبة المدينة، وعزم على الدفاع عن نفسه، ولكنه لم يصمد طويلاً في مكانه أمام إصرار مهاجميه على اقتحام القصبة والفتك به، ولذلك قرر الهرب، وخرج من باب خلفي من أبواب القصر فاراً إلى قلعة روطة التي كان قد أعدها لمثل هذا الموقف، حتى غدت معقلاً من أمنع معاقل سرقسطة، وأخذ معه عدداً من الرهائن منهم أخوان لمعز الدولة، وبعض الأعيان وخاصة الوزير أبا المغيرة بن حزم[2]. وما إن فرّ عبد الله بن حكيم من سرقسطة حتى نهبت العامة القصر "حتى قلعوا مرمره، وطمسوا أثره"[3].

ظلت سرقسطة دون أمير بقية سنة ٤٣٠هـ/١٠٣٨م، ثم بعثوا إلى سليمان بن هود الجذامي بعد أن اجتمع الملأ منهم على تقديمه "فوصل إليهم فولوه على أنفسهم، ونزل دار الإمارة بسرقسطة[4]، وذلك في المحرم سنة ٤٣١هـ/١٠٣٩م[5].

وسليمان بن هود هو أبو أيوب سليمان بن محمد بن هود الجذامي، وهود الجد هو الداخل للأندلس، ويرجع نسبه إلى قبيلة الأزد، وقيل "هود من ولد روح بن زنباع"[6]. وكان سليمان بن هود قبل وقوع الفتنة الشاملة بالأندلس من كبار الجند بالثغر الأعلى، وبعد وقوعها غلب على مدينة لاردة وأعمالها بعد أن قتل صاحبها أبا المطرف التجيبي، ثم تملك سرقسطة على نحو ما ذكرنا[7].

---

(١) ابن عذاري، البيان المغرب: ٣/١٧٩.

(٢) المصدر نفسه: ٣/١٧٩-١٨٠.

(٣) المصدر نفسه: ٣/١٨٠.

(٤) المصدر نفسه: ٣/٢٢٢.

(٥) المصدر نفسه: ٣/١٨٠-١٨١،٢٢٢؛ وانظر: ابن الأثير، الكامل في التاريخ: ٧/٢٩٢؛ ابن خلدون، تاريخ: ٤/٢٠٩.

(٦) ابن خلدون، تاريخ: ٤/٢٠٩؛ وانظر: ابن الأثير، الكامل في التاريخ: ٧/٢٩٢.

(٧) ابن عذاري، البيان المغرب: ٣/٢٢١.

وقد اختار سليمان بن هود من الألقاب السلطانية لقب: المستعين بالله[1]، وكان قوي العزم، شديد البأس. وقد أشرنا إلى بعض أخباره عند الحديث عن مملكة بني ذي النون حيث كان هو والمأمون يحيى بن إسماعيل بن ذي النون يتنازعان مدينة وادي الحجارة[2]. وما يجدر التذكير به هنا هو أن الفتنة بين ابن هود وابن ذي النون كانت شؤماً على الأندلس كلها، فقد استعان ابن هود بملك قشتالة، واستعان الثاني بملك النافار، واستغل الملكان النصرانيان اختلاف الملكين المسلمين للإغارة على بلاد المسلمين وتخريبها وإضعافها[3]. وكانت الحرب بينهما حرباً انتحارية لم تخمد إلا بوفاة المستعين بالله (الأكبر) سليمان بن هود سنة ٤٣٨هـ/١٠٤٦م[4].

وكان سليمان بن هود قبل وفاته قد فعل ما لم يفعله سلطان من قبل، إذ قسم مملكته على أولاده الذكور، وكانوا خمسة "فولي أحمد بن سليمان مدينة سرقسطة بعد أبيه، وولى يوسف مدينة لاردة، وولى محمداً قلعة أيوب، وولى لبا ابنه مدينة وشقة وكانت تحت نظر أخيه، وولى المنذر بن سليمان مدينة تطيلة"[5]. وكان متوقعاً أن يستبد كل واحد من هؤلاء الإخوة بما ولي عليه، وأن يطمع بالتوسع على حساب إخوته. وكان أكثرهم طموحاً، وأشدهم بطشاً: أحمد بن سليمان الذي تلقب بالمقتدر، وكان أشهرهم[6].

لقد احتال المقتدر على إخوته، ومارس ضدهم كل أنواع المخادعة والتزلف حتى أخرج بعضهم من مواضعهم، وانتزع المدن التي كان أبوه قد جعلها من نصيبهم، فانتزع وشقة من لب، وتطيلة من المنذر، وقلعة أيوب من محمد، ثم سجن هؤلاء، وكحل أعينهم بالنار[7].

---

(1) ابن عذاري، البيان المغرب: ٢٢١/٣؛ ابن الأثير، الكامل في التاريخ: ٢٩٢/٧؛ ابن الأبار، الحلة السيراء: ٢٤٥/٢.

(2) ابن عذاري، البيان المغرب: ٢٧٧/٣.

(3) المصدر نفسه: ٢٧٧/٣ وما بعدها.

(4) المصدر نفسه: ٢٢٠/٣،٢٢٢.

(5) المصدر نفسه: ٢٢٢/٣.

(6) المصدر نفسه:٢٢٢/٣؛وانظر:ابن الأثير، الكامل في التاريخ:٢٩٢/٧؛المقري، نفح الطيب: ٤٤١/١.

(7) ابن عذاري، البيان المغرب: ٢٢٢/٣.

ولم يبق أمام المقتدر سوى أخيه يوسف الذي تمكن من الصمود أمـــام المقتـــدر، والتصدي لأطماعه. وكان يوسف، وهو المسمى حسام الدولة، والمظفر[1]، لأخيه نداً، كما كـــان بطلاً شهماً. وقد خدمه المقتدر من حيث لا يدري، ذلك أن أهل سرقســـطة عندمـــا رأوا ما فعله بإخوته كرهوه مالوا ليوسف، وصيروا أمرهم إليه، وقاموا بدعوته، ولم يبـــق للمقتدر إلا سرقسطة[2].

ولم يكـــن المقتـــدر الشديد الطمـــع بالملك ليرضـــى بهذا الواقـــع، فقـــد آلمـــه انصراف النـــاس عنـــه إلى أخيـــه، ولذلك أخذ يخطط للإيقاع بيـــوسف والتنكيـــل بـــه، وقد واتتـــه الفرصـــة عندما داهمـــت مدينة تطيلـــة موجـــة مـــن الغـــلاء الشديـــد "فاستغـــاث أهلها بالمظفـــر الذين هم تحت طاعتـــه، فندب جميـــع أهل تلك الثغـــور بمير يحملـــونه إلى تطيلة، فاجتمع في ذلك طعـــام كثير"[3]. ولكي يوصل يوسف المظفر هذا الطعام إلى تطيلة كان لا بد من سلوك إحدى طريقين تمر الأولى بسرقسطة، وتمـــر الثانية بأراضي النصارى (مملكة النافار)[4]. وقدر المظفر أن الطريق بأرض النصـــارى ستكون أكثر أمناً، ولذلك أرسل أموالاً إلى غرسية ملك النافار مقابل السماح بمرور القافلة إلى تطيلة. ولما عرف المقتدر بذلك أرسل إلى غرسية أموالاً أكثر ليخلّـــي بينـــه وبيـــن أخيه[5]. وعندما توسطت القافلة بلاد النصارى ســـرى إليـــها المقتـــدر مـــن سرقســـطة "فأخذهم وقتلهم...فامتلأت أيدي الروم من أسلابهم، وكان بينهم وبين بلاد المسلمين مسافة أيام، فلم ينج منهم إلا اليسير، وكانوا آلافاً"[6]. وبعد هذه الواقعـــة تشـــاءم أهـــل الثغـــر الأعلى من المظفر، وازدادوا خوفاً من المقتدر، ووجدوا السلامة في العودة عن المظفـــر إليه[7].

(1) ابن عذاري، البيان المغرب: ٢٢٣،٢٢٢/٣؛ ابن خلدون، تاريخ: ٢٠٩/٤.

(2) ابن عذاري، البيان المغرب: ٢٢٣/٣.

(3) المصدر نفسه: ٢٢٣/٣.

(4) المصدر نفسه: ٢٢٣/٣.

(5) المصدر نفسه: ٢٢٤،٢٢٣/٣.

(6) المصدر نفسه: ٢٢٣/٣.

(7) المصدر نفسه: ٢٢٤،٢٢٣/٣.

عظمت مملكة المقتدر بن هود بعد انصراف الناس عن أخيه يوسف الذي لم يبق في يده سوى مدينة لاردة، وأخذ المقتدر يسعى لتوسيع مملكته محاولاً أن يجد لها منفذاً على البحر المتوسط، فاجتذبت أنظاره مدينة طرطوشة[1].

كان يحكم طرطوشة فتى من فتيان ابن أبي عامر يدعى لبيب، فأقام بها ملكاً إلى أن توفي سنة ٤٣٣هـ/١٠٤١م، فوليها بعده فتى عامري آخر اسمه: مقاتل، "وكانت له همة ورياسة، وتسمى أيضاً بسيف الملّة، لقب اخترعه لنفسه، فكان يُكتب به إليه وعنه، وكان عنده من العمال والكتاب ما لم يكن عند غيره في وقته ممن هو أكبر ملكاً منه"[2]. وبعد وفاة مقاتل تعاقب على حكم طرطوشة الفتيان العامريون إلى أن ضج أهلها بحكمهم، إذ قامت فيها ثورة ضد آخرهم واسمه نبيل، فاستغل المقتدر هذه الأوضاع، وزحف عليها بقواته فأخرج نبيلاً منها في سنة ٤٥٢هـ/١٠٦٠م[3].

أصبحت مملكة المقتدر بن هود بعد أن وجدت لها منفذاً على البحر المتوسط، يضم طرطوشة إليها، أصبحت أكثر قوة، غير أن موقعها بمحاذاة دول النصارى عرضها لكثير من المخاطر، وعرض مدنها لمآسٍ قلما يشهد التاريخ لها مثيلاً، ومن ذلك المأساة التي تعرضت لها إحدى مدن المملكة، وهي بربشتر[4] Barbastro الواقعة على بعد نحو ستين كيلومتراً إلى الشمال الشرقي من سرقسطة. وقبل تناول المحنة التي نزلت بهذه المدينة لا بد من توضيح الإطار العام لهذا الحدث الكبير، فمدينة بربشتر كانت تابعة لأملاك أخي المقتدر: يوسف المظفر، وبالتالي فإن المقتدر، وقد رأينا موقفه الشديد العداء لأخيه، بما يجري لمدينة ليست من أملاكه. كما أن يوسف المظفر كان وقت تعرض المدينة للمحنة موجوداً في حاضرة حكمه لاردة، ومن جهة ثالثة لم يكن الهجوم – كما يبدو – متوقعاً من الجهة التي وقع فيها أو من المهاجمين الذين قاموا به، فهم ليسوا من نصارى قشتالة أو

---

[1] ابن عذاري، البيان المغرب: ٢٢٤/٣. ويصف طرطوشة بقوله: ((مدينة سامية الذرى، متسعة الساحة، مشرقة البهجة، كثيرة المرافق والنعمة)).

[2] ابن عذاري، البيان المغرب: ٢٢٤/٣.

[3] المصدر نفسه: ٢٥٠/٣.

[4] انظر: ابن الكردبوس، تاريخ الأندلس: ٦٩ وما بعدها.

ليون أو النافار المجاورين، وإن كان هؤلاء قد دعموا الهجوم وأيدوه لما يحققه من أهداف يسعى إليها كل النصارى.

قدمت حملة كبيرة من الفرسان النورمانديين من الأرض الكبيرة (فرنسا)[١] بقيادة جيوم دي مونري (Guillaume de Montreuil) الذي كان قائداً لفرسان البابا ألسكندر الثاني (Alexander II)، وعُدّ من أكبر فرسان عصره[٢]، وكان من جنود الحملة جموع كبيرة من الفرنسيين، وقد تجمعت هذه الحشود في فرنسا ثم توجهت إلى الأندلس بمباركة البابا الذي أرادها حملة صليبية ضد حضارة الإسلام، وهاجمت مدينة وشقة (Huesca)[٣]، وحاصرتها أياماً، غير أن الصليبيين لم يتمكنوا من النيل من هذه المدينة المنيعة، فرحلوا عنها "وساروا في بلاد المسلمين بالثغر إلى أن نزلوا على مدينة بربشتر"[٤].

بدأ حصار الصليبيين – الذين زاد عددهم كثيراً بمن انضم إليهم من جموع النصارى – لمدينة بربشتر في سنة ٤٥٦هـ/١٠٦٤م، وشدد قائدهم الذي يسميه ابن عذاري (البيطبين أو البيطين) الحصار عليها[٥]. وكان أهلها يقاتلون النصارى خارج المدينة، حيث كانت حاميتها تخرج كلما لاحت لها الفرصة فتقاتل النصارى ثم ترتد إلى الداخل محتمية بالأسوار. واستمر الحصار نحو أربعين يوماً لم يتمكن يوسف المظفر من إنجادها خلالها ربما لعدم توافر القوات الكافية لديه بعد أن انفض عنه كثيرون من أنصاره في أعقاب حادثة قافلة الطعام إلى تطيلة، كما لم يهب المقتدر بن هود لنجدة المدينة المحاصرة باعتبارها من أملاك أخيه العدو اللدود. ومن ناحية أخرى وقع أثناء الحصار حادثٌ بالغ الخطورة، وهو قطع مياه الشرب عن المدينة "وكان الماء يأتيها في سرب تحت الأرض من النهر حتى يدخل إليها فيخترقها، فخرج رجل من القصبة إلى الروم

---

(١) ابن الأبار، الحلة السيراء: ٢/٢٤٧؛ ابن الكردبوس، تاريخ الأندلس: ٦٩ وما بعدها.

(٢) ابن الكردبوس، تاريخ الأندلس: ٦٩-٧٠.

(٣) تعتبر هذه المدينة من مدن الثغر الأعلى، وتقع على بعد ثلاثة وسبعين كيلومتراً إلى الشمال الشرقي من سرقسطة، ونحو ثلاثة عشر كيلومتراً إلى الشمال الشرقي أيضاً من مدينة بربشتر المنكوبة. انظر: ابن الكردبوس، تاريخ الأندلس: ٧٤.

(٤) ابن عذاري، البيان المغرب: ٣/٢٢٤-٢٢٥.

(٥) المصدر نفسه: ٣/٢٢٥؛ وانظر: البكري، جغرافية الأندلس وأوروبا: ٩٢-٩٤.

ودلهم عليه، فساروا إليه وهدموه، وحالوا بينه وبين الاتصال بفم السرب، فعدم أهلها الماء"[1]. وأدى قطع الماء بسبب ذلك الخائن، إضافة إلى قلة الأقوات إلى اضطرار أهلها إلى التفكير بتسليم المدينة، فراسلوا النصارى عارضين عليهم أن يسلموهم المدينة على أن يخرج المسلمون منها سالمين، فرفض النصارى هذا العرض مما دفع المسلمين إلى مجالدة النصارى دفاعاً عن أرواحهم، وقد تمكن النصارى – لكثرتهم – من اقتحام المدينة "فقتلوا المقاتلة، وسبوا الحريم والذرية، وحصلوا منها على أموال جليلة"[2].

ارتكب النصارى فظائع كثيرة في أهالي بربشتر المسلمين، فقد سبوا من النساء وغيرهن أعداداً كبيرة تقدرها بعض المصادر بمائة ألف، كانت حصة قائد الحملة الصليبية وحده أربعة آلاف بكر تتراوح أعمارهن من الثمانية أعوام إلى العشرة، كما حصل على خمسمائة حمل من الأطعمة والحلي والكسوة[3]. ولم تكن هذه الفظائع سوى غيض من فيض المأساة، التي يروي ابن عذاري بقية فصولها فيذكر أن الحال آل بأهل المدينة "إلى أن ألقوا بأيديهم بسبب الظمأ، وخرجوا من المدينة وانتشروا في بسيط من الأرض، فلما رأى الطاغية...كثرتهم وانتشارهم خاف أن تدركهم حمية في استنقاذ أنفسهم، فأمر ببذل السيف فيهم وبعضهم ينظر إلى بعض من رجال ونساء، فقيل أنه قتل منهم يومئذ نحو ستة آلاف، ثم نادى برفع السيف عنهم، وأمر بخروجهم عن المدينة بالأهل والذرية، فبادروا الخروج منها مزدحمين على أبوابها، فمات في ازدحامهم خلق كثير"[4]. وبعد أن خرج من نجوا من القتل أو الموت تجمعوا خارج المدينة منتظرين نزول القضاء فيهم، "ثم نودي فيهم بأن يرجع كل ذي دار إلى داره بأهله وولده...ولما استقروا بالدور مع عيالاتهم وذرياتهم اقتسمهم المشركون...فحكم كل علج منهم فيمن سلط عليه من أرباب الدور بحسب ما يبتليه الله به منه، يأخذ كلما أظهر له، ويعذبه فيما أخفى عنه، وربما زهقت نفس المسلم دون ذلك فاستراح...ذلك لأن عداة الله كانوا يومئذ يهتكون حريم أسراهم وبناتهم بحضرتهم إيلاغاً في نكايتهم، ويعبثون في الثيب، ويفتضون البكر، وزوج تلك وأبو

---

[1] ابن عذاري، البيان المغرب: ٣/٢٢٥.

[2] المصدر نفسه: ٣/٢٢٥.

[3] المصدر نفسه: ٣/٢٢٥.

[4] المصدر نفسه: ٣/٢٢٦.

هذه موثق في الحديد، ومن لم يرض منهم أن يفعل ذلك أعطاهن لغلمانه يعبثون فيهن"[1].

ترك قائد الحملة الصليبية في بربشتر حامية نصرانية من ألف فارس وأربعة آلاف راجل وعاد إلى فرنسا[2]، وترك بما ارتكب من فظائع تقشعر لها الأبدان جروحاً عميقة في نفوس المسلمين، فقد ترددت أصداء المحنة في الأندلس، وانطلقت الألسن بتقريع المقتدر بن هود وأخيه يوسف المظفر لتفريطهما بالمدينة وأهلها، وتنادى المطوعة المسلمون من كل صوب لإنقاذ المدينة من محتليها، والانتقام لما فعلوه، وكان في مقدمة من هبوا لنجدة المدينة المقتدر سعياً منه لإصمات سوء القالة عنه[3]، وساعد المقتدر في هذه الحملة المضادة: المعتمد بن عباد ملك إشبيلية، وساعده جميع الذين استنفرهم المقتدر للجهاد ولبوا نداءه[4]، فكثرت جيوشه، وكان فيها من الفرسان والرماة عدد كبير، إذ بلغ عدد الرماة وحدهم نحو ستة آلاف[5].

توجه المقتدر بن هود بجيوشه إلى بربشتر وحاصرها عقب جمادى الأولى من سنة ٤٥٧هـ/١٠٦٥م، أي بعد نحو سنة من احتلالها[6]، "فلما عاين الكفار قوة المسلمين وكثرة حماتهم ورماتهم أغلقوا أبوابهم، وتركوا حربهم، وعظم عليهم أمرهم"[7]، فأمر المقتدر بنقب السور تحت حماية الرماة، ونجح المسلمون في إحداث ثغرة كبيرة اقتحموا المدينة منها، "ولما عاين الروم ذلك خرجوا من ناحية أخرى على باب آخر، وحملوا حملة آخر في محلّة المسلمين"[8]، ونشبت بين الطرفين معركة عنيفة كانت نتيجتها وبالاً على النصارى، فقد تم تمزيقهم شر ممزق، وقُتل منهم كثيرون، إذ لم

---

(١) ابن عذاري، البيان المغرب: ٢٢٦/٣.
(٢) المصدر نفسه: ٢٢٦/٣-٢٢٧.
(٣) المصدر نفسه: ٢٢٧/٣؛ المقري، نفح الطيب: ٤٥٤/٤.
(٤) المقري، نفح الطيب: ٤٥٤/٤.
(٥) ابن عذاري، البيان المغرب: ٢٢٧/٣.
(٦) المقري، نفح الطيب: ٤٥٤/٤؛ وانظر: ابن عذاري، البيان المغرب: ٢٢٧/٣-٢٢٨.
(٧) ابن عذاري، البيان المغرب: ٢٢٧/٣.
(٨) المصدر نفسه: ٢٢٧/٣.

ينج منهم إلا القليل. وسبى المسلمون كل من كان في المدينة من عيال النصارى وأبنائهم[1].

وكانت خسائر النصارى ستة آلاف قتيل بينهم ألف فارس، وأدخل من غنائم المعركة إلى سرقسطة "نحو ألف سبية، ونحو ألف فارس، ونحو ألف درع"، أما المسلمون فلم يصب منهم إلا نحو خمسين قضوا شهداء في سبيل الله[2]. وبعد استعادة المدينة غسلها المسلمون من رجس الشرك، وجلوها من صدأ الإفك، وبذلك جبر الصدع، ورفعت المعرة، وارتفعت المعنويات، واتخذ ابن هود لقبه (المقتدر بالله)، وشاع له هذا الصنيع في بلاد المسلمين[3].

لم يكف النصارى أيديهم عن مملكة سرقسطة رغم الهزيمة الماحقة التي حلت بهم في بربشتر، فقد كانت محط أطماعهم، وخاصة أنها تقع بين ثلاث من ممالكهم هي أراغون والنافار وقشتالة، وكان ملوك النصارى يبتزون الأموال من المقتدر، ويقتطعون من مملكة الحصون والقلاع وفقاً لما تمليه الظروف. وقد تعرضت سرقسطة لحصار ملك قشتالة سانشو بن فرناندو سنة ٤٦٠هـ/١٠٦٧م، ولم يسحب جيوشه التي كانت بقيادة السيد القمبيطور إلا بعد أن أرسل إليه المقتدر مقادير كبيرة من الأحجار الكريمة والفضة والذهب والهدايا الفاخرة[4]. وكان المقتدر يضطر من أجل تأمين مطالب ملوك النصارى من الأموال إلى إرهاق شعبه بكثرة الضرائب حتى ضج بعضهم، فقد قصد أهل إحدى القرى من مملكته رجلاً معروفاً بالخير والصلاح، وشكوه حالهم، "وأعلموه بما يجب عليهم من مال الجزية، فقال لهم: معاذ الله، هذا لا يكون وأنا حي في الدنيا أبداً. ثم ركب ومعه جماعة من أهل القرية حتى وصل سرقسطة، فدخل على المقتدر ووعظه بما جاء

---

[1] ابن عذاري، البيان المغرب: ٢٢٧/٣؛ وانظر: المقري، نفح الطيب: ٤٥٤/٤.

[2] ابن عذاري، البيان المغرب: ٢٢٧/٣؛ المقري، نفح الطيب: ٤٥٤/٤.

[3] ابن عذاري، البيان المغرب: ٢٢٨/٣؛ وانظر: ابن الكردبوس، تاريخ الأندلس: ٧٣؛ الحميري، الروض المعطار: ٤١.

[4] ابن عذاري، البيان المغرب: ٢٢٩/٣.

في الشرع"[1]، فغضب المقتدر، وقتل الرجل الصالح حتى لا يتجرأ عليه مرة أخـــرى، "واستمرت الجزية على سائر مدن الثغر وأعماله"[2].

ظـل المقتدر بن هـود يضعـف أمـام مطـالب النصـارى الثقيلة التي كـثرت على يـد ملك قشتالة ألفونسو السـادس، كما أرهقته حربه مع أخيـه يوسـف المظفـر صاحب لاردة الذي انتهى به الأمر إلى الأسر بعد معارك طاحنة مع المقتدر. وقد اتبـع المقتدر سياسة الاستعانة ببعض النصارى ضد بعضهم الآخر، وكان يدفع لقاء ذلك أمـوالاً طـائلة. وعندما أعيته الحيلة في رد كيد ملك قشتالة، ألفونسو السـادس استأجر لحربـه السيـد القمبيطـور بعد أن سـاءت علاقة السيد مع مليكه ألفونسو. وكان المقتـدر أول ملك مسلم يركن لقائد نصراني، ويوليه ثقته، ويستخدمه ضد أعدائه النصارى أنفسهم وذلك سنة ٤٧٣هـ/١٠٨٠م، غير أنه (أي المقتدر) لم يعش طويلاً ليرى نتيجة ذلك، فقد "رماه الله بعلة في جسده أذهبت حسه وعقله، فيقال أنه ما مات حتى كـان ينبـح كمـا تنبـح الكلاب"[3].

وقع المقتدر بن هود في الخطأ نفسه الذي وقع فيه والده، فقد قسم مملكته سرقسطة قبل وفاته سنة ٤٧٤هـ/١٠٨١م حسب روايتين لابن عذاري وابن خلـدون[4]، أو سـنة ٤٧٥هـ/١٠٨٢م حسب رواية لابن عذاري أيضاً[5]، قسمها بين ابنيه: أبي العامر يوسف (المؤتمن)، وأخيه المنذر. فجعل سرقسـطة وأعمالـها مـن نصيـب يوسـف، ولاردة وطرطوشة ودانية من نصيب المنذر[6]. "وكان المؤتمن قائماً على العلوم الرياضية، وله فيه تآليف، ومنها كتاب الاستكمال والمناظر"[7]. أما المنذر فلم تذكر له المصادر أياً مـن هذه الفضائل.

---

[1] ابن عذاري، البيان المغرب: ٢٢٩/٣.

[2] المصدر نفسه: ٢٢٩/٣.

[3] المصدر نفسه: ٢٢٩/٣.

[4] المصدر نفسه: ٥٥/٤؛ ابن خلدون، تاريخ: ٢٠٩/٤.

[5] ابن عذاري، البيان المغرب: ٢٢٩/٣.

[6] ابن الكردبوس، تاريخ الأندلس: ٨٦.

[7] المقري، نفح الطيب: ٤٤١/١؛ وانظر: ابن خلدون، تاريخ: ٢٠٩/٤.

واستثار طمع كل من الأخوين بما في يد الآخر حرباً أهلية لم تكن أقل خطراً من تلك التي ثارت بين أبيهما المقتدر، وأعمامهما: يوسف المظفر، ولب، والمنذر، ومحمد. ومثلما استعان الأب والأعمام بالنصارى ضد بعضهم، استعان بهم أيضاً المؤتمن والمنذر، فقد تحالف المؤتمن مع القائد القشتالي السيد القمبيطور، وتحالف المنذر مع ملك أراغون: سانشو راميرو[1]، وأمير برشلونة: رامون برنجير.

وأدت الحروب الأهلية في سرقسطة إلى إضعافها ذلك لأن السياسة التي اتبعها النصارى في مجال استنزاف الأموال، واقتطاع الحصون والقلاع مقابل تقديم العون لهذا أو ذاك من ملوك الفتنة استمرت في عهد المؤتمن والمنذر، كما أن نفوذ السيد القمبيطور ازداد كثيراً في بلاط المؤتمن، حتى أصبح ينفرد في اتخاذ كثير من القرارات الخطيرة مع أن الظاهر أنه مجرد قائد مأجور، يفترض أن يكون هو وقواته طوع أمر المؤتمن ورهن إشارته.

وعلى كل حال لم يعمر المؤتمن طويلاً، فقد توفي سنة ٤٧٨هـ/١٠٨٥م وهي السنة التي استولى فيها النصارى على تطيلة من يد القادر بن ذي النون[2].

ولي بعد يوسف المؤتمن ابنه أحمد الذي اتخذ لقب "المستعين بالله"، وهو اللقب الذي كان جده أبو أيوب سليمان بن محمد بن هود الجذامي قد اتخذه من قبل[3]. وللتفريق بينهما أصبح الحفيد يعرف بالمستعين الأصغر، بينما الجد يعرف بالمستعين الأكبر.

وكان أول خطر كبير واجهه المستعين الأصغر هو طمع ألفونسو السادس، ملك قشتالة باختلال سرقسطة بعد احتلاله طليطلة، فقد سار إلى سرقسطة وحاصرها، وأقسم أن لا يبرحها حتى يدخلها[4]. وقد بذل المستعين لألفونسو كثيراً من الأموال، وحاول

---

(١) ابن الكردبوس، تاريخ الأندلس: ٨٦.

(٢) ابن خلدون، تاريخ: ٢٠٩/٤؛ المقري، نفح الطيب: ٤٤١/١؛ ابن الكردبوس، تاريخ الأندلس: ٨٦.

(٣) ابن الأثير، الكامل في التاريخ: ٢٩٢/٧؛ ابن خلدون، تاريخ: ٢٠٩/٤؛ المقري، نفح الطيب: ٤٤١/١؛ ابن عذاري، البيان المغرب: ٥٥/٤.

(٤) ابن الكردبوس، تاريخ الأندلس: ٩١.

إغراءه لترك سرقسطة إلا أنه أبى[1]، بل اتبع سياسة فيها الكثير من الخبث والدهاء، إذ حاول إضعاف روح المقاومة بين المسلمين، فقد فرق على ضعفاء أهل طليطلة مائة ألف دينار ليستعينوا بها على الزراعة وغير ذلك من شؤونهم "وجعل لكل من دان له من الإسلام البر والرعاية، وأخذ نفسه بالعدل فيهم والأمان، والرفق في السر والإعلان، ووعدهم ألا يلزمهم غير ما توجبه السنة الإسلامية"[2]. وكان هدفه من كل هذا التضليل أن يسمع أهل سرقسطة بما فعل لأهل طليطلة فينصرفوا إليه عن ملكهم المستعين، ويرضخوا له دون مقاومة[3]. وبينما كان ألفونسو السادس محاصراً لسرقسطة وردت عليه الأنباء بعبور المرابطين إلى الأندلس، فاضطر إلى فك الحصار، وعاد إلى قشتالة من أجل الاستعداد لمواجهة المرابطين[4].

وكان للمستعين عدو آخر غير النصارى هو عمه المنذر الذي كان ينافسه منافسة شديدة، فقد خرج منذر من لاردة إلى بلنسية بجيوشه، وحاصرها طامعاً في أخذها من يد القادر بن ذي النون "فلما سمع به ابن أخيه المستعين استنصر بالقنبيطور لعنه الله، وخرج معه في أربعمائة فارس والقنبيطور في ثلاثة آلاف فارس، وغزا معه بنفسه حرصاً منه على تملك بلنسية على أن للقنبيطور أموالها وللمستعين جَفْنها (سهولها) "[5]. وعندئذ استغاث القادر بالمستعين الذي كان هو الآخر يطمع في الاستيلاء على بلنسية. وقد أشرنا سابقاً إلى هذه الواقعة التي تفاعلت أحداثها، وانتهت بسقوط بلنسية في أيدي النصارى سنة ٤٨٧هـ/١٠٩٤م[6]. وتجدر الإشارة هنا إلى أن المنذر عندما سمع بمجيء المستعين إلى بلنسية "رحل عنها، ولم يحل بطائل منها"[7].

---

(١) ابن الكردبوس، تاريخ الأندلس: ٩١.

(٢) المصدر نفسه: ٩١.

(٣) المصدر نفسه: ٩١.

(٤) ابن الأثير، الكامل في التاريخ: ١٤١/٨ وما بعدها.

(٥) ابن الكردبوس، تاريخ الأندلس: ٩٨.

(٦) ابن عذاري، البيان المغرب: ٣٤/٤ وما بعدها؛ ابن الأبار، الحلة السيراء: ١٢٦/٢؛ ابن الخطيب؛ أعمال الأعلام: ٢٠٤/٢.

(٧) ابن الكردبوس، تاريخ الأندلس: ٩٨.

وتعرضت مملكة سرقسطة بعد واقعة بلنسية لضغط شديد من ملوك النصارى، فقد حاصر سانشو راميرو ملك أراغون مدينة وشقة التي كانت تعد من أمنع قلاع الثغر الأعلى، وذلك سنة ٤٨٧هـ/١٠٩٤م، غير أن سانشو توفي فجأة، فاستمر في حصارها ابنه بيدرو الأول نحو ثلاثين شهراً. وتوجه المستعين لإنقاذ المدينة، وقبل أن يصلها ترك بيدرو الحصار وتوجه لملاقاته، ونشبت بينهما معركة طاحنة في أواخر سنة ٤٨٩هـ/١٠٩٦م كانت الهزيمة فيها على المسلمين[١]. وقد استشهد منها فيها نحو عشرة آلاف[٢]، وكان من النتائج الكبرى لهذه الهزيمة أيضاً سقوط وشقة في أيدي النصارى، حيث استسلمت لملك أراغون بيدرو الأول بعد المعركة ببضعة أيام[٣].

وعندما جاز المرابطون إلى الأندلس للمرة الرابعة سنة ٤٨٤هـ/١٠٩١م وبدأوا بالاستيلاء على أراضيها من ملوك الفتنة قام المستعين بمهاداتهم، وحاول إقناعهم بعدم التعرض له أو لمملكته "فأجابه يوسف بن تاشفين إلى ما أراد"[٤]، فشعر المستعين بالطمأنينة من جهة المرابطين، وتفرغ لمدافعة النصارى، وخاصة ألفونسو المحارب، ملك أراغون الذي صمم بعد أن احتل بيدرو الأول مدينة وشقة على احتلال مدينة تطيلة. فقد خف المستعين لإغاثة المدينة المحاصرة، ووقعت بين المسلمين والنصارى معركة طاحنة عند بلدة بلتيرة (Valtierra) القريبة من تطيلة، هُزم فيها المسلمون، واستشهد المستعين، وذلك في يوم الاثنين الأول من رجب سنة ٥٠٣هـ/١١١٠م[٥].

وخلف المستعين في حكم مملكة سرقسطة ابنه أبو مروان عبد الملك الملقب عماد الدولة، وذلك في غرة رجب من سنة ٥٠٣هـ/١١١٠م[٦]، وقد بايعه أهل سرقسطة مشترطين عليه عدم محالفة النصارى، غير أنه لم يف بوعده لهم، فأرسلوا إلى المرابطين

---

(١) ابن خلدون، تاريخ: ٢٠٩/٤؛ المقري، نفح الطيب: ٤٤١/١.

(٢) ابن خلدون، تاريخ: ٢٠٩/٤؛ المقري، نفح الطيب: ٤٤١/١.

(٣) انظر: ابن الخطيب: أعمال الأعلام: ١٧٣.

(٤) ابن عذاري، البيان المغرب: ١٤٤/٤-١٤٥.

(٥) المصدر نفسه: ٥٣/٤،٥٥؛ ابن خلدون، تاريخ: ٢٠٩/٤-٢١٠؛ المقري، نفح الطيب: ٤٤١/١؛ ابن الكردبوس، تاريخ الأندلس: ١١٧؛ ابن الأبار، الحلة السيراء: ٢٤٨/٢.

(٦) ابن عذاري، البيان المغرب: ٥٥/٤؛ ابن خلدون، تاريخ: ٢١٠/٤؛ المقري، نفح الطيب: ٤٤١/١.

يستدعونهم للاستيلاء على سرقسطة، وعندئذ خرج عماد الدولة بأهله وعياله إلى حصن روطة، وامتنع فيه منتظراً ما ستسفر عنه الأحداث، بينما دخل المرابطون سرقسطة في أواخر سنة ٥٠٣هـ/١١١٠م منهين بذلك حكم بني هود لها[1]. وقد ظل عماد الدولة في ذلك الحصن إلى أن توفي في سنة ٥١٣هـ/١١١٩م[2].

---

[1] ابن خلدون، تاريخ: ٢١٠/٤؛ ابن عذاري، البيان المغرب: ٥٣/٤؛ ابن الأبار، الحلة السيراء: ٢٤٨/٢؛ ابن الخطيب، الإحاطة: ٤٠٥/٢.

[2] ابن خلدون، تاريخ: ٢١٠/٤.

يعتبر بنو الأفطس من ملوك الفتنة المشهورين، وهم ينتسبون إلى جدهم أبي محمد عبد الله بن محمد بن مسلمة المعروف بابن الأفطس[١]. وهو من قبيلة من قبائل مكناسة من البربر[٢]، وأصله من فحص البلوط الواقعة قرب قرطبة[٣]. ومع أن بني الأفطس ينتمون إلى البربر إلا أنهم انتسبوا لإحدى القبائل العربية الشهيرة، وهي قبيلة بني تُجيب إحدى قبائل لخم[٤].

كان أبو محمد عبد الله بن الأفطس "من قوم لا يدّعون نباهة، غير أن هذا الرجل عبد الله كان من أهل المعرفة التامة والدهاء والسياسة"[٥]. وقد استطاع بدهائه أن يستولي على حكم بطليوس وأعمالها الممتدة من غرب طليطلة حتى المحيط الأطلسي بما في ذلك أراضي البرتغال الحالية، ومن مدينة باجه جنوباً حتى مملكة إشبيلية شمالاً. وقد شملت هذه الرقعة الواسعة مدناً مهمة مثل: لشبونة، وماردة، ويابره، وشنترة، وشنترين، وقلمرية، وبازو وغيرها. ذلك أن هذه المناطق كانت عند اضطرام الفتنة تحت حكم رجل من عبيد الحكم المستنصر بالله يسمى سابور، "فلما وقعت الفتنة، وتفرقت الجماعة، وانشقت عصا الأمة انتزى سابور المذكور على ما كان بيده كما فعل غيره من الثوار، وكان سابور غفلاً عطلاً من سائر أنواع المعارف، وكان هذا الرجل عبد الله بن محمد بن مسلمة يدبر له أمره، ويخدم دولته خدمة سياسة إلى أن هلك سابور، وترك ولدين لم يبلغا الحكم، فاشتمل هذا الوزير ابن مسلمة على أمر سابور كله، واستأثر به على ولديه، وحصل على ملك بلاد غرب

---

(١) ابن عذاري، البيان المغرب: ٢٣٥/٣.

(٢) ابن الكردبوس، تاريخ الأندلس: ٧٥.

(٣) ابن عذاري، البيان المغرب: ٢٣٥/٣.

(٤) ابن حزم، جمهرة أنساب العرب: ٤٢٩-٤٣١، وتُجيب هي: تُجيب بنت ثوبان بن سليم بن رُهاء، من مذحج، وهي أم بني عدي وبني سعد من السكون بن أشرس بن كندة من لخم، وإليها نُسب التجيبيون. انظر أيضاً: ابن خلدون، تاريخ: ٢٠٥/٤.

(٥) ابن عذاري، البيان المغرب: ٢٣٥/٣-٢٣٦.

الأندلس"[1]. وكان على عبد الله بن الأفطس بعد أن استولى على هذه المملكة الواسعة أن يوفر لها الحماية، ويصد الطامعين بها، وخاصة القاضي أبا القاسم ابن عباد الذي استطاع هو الآخر أن يحكم قبضته على رقعة واسعة من الأندلس، تجاور أراضي ابن الأفطس. وكانت نقطة الاحتكاك بين ملكي الفتنة مدينة باجه التي احتلها ابن الأفطس لقربها إليه، واتصالها بمنطقته. وقد نشبت بين الفريقين معارك طاحنة مني ابن الأفطس في إحداها بهزيمة ساحقة، إذ يذكر ابن عذاري أن القاضي ابن عباد "حاصر ابن الأفطس بباجه، وقتل أكثر رجاله، وبعث بالأسرى إلى أبيه...وبلغت هذه الغزوة من ابن الأفطس الغاية"[2].

وكان يساعد القاضي ابن عباد في حربه مع ابن الأفطس: صاحب قرمونة ابن عبد الله البرزالي، وقد تمكنا في إحدى معاركهما معه من أسر ولد ابن الأفطس: محمد الذي ظل سجيناً في قرمونة إلى أن أطلق سراحه سنة ٤٢١هـ/١٠٣٠م[3]. وقد تعلّم ابن الأفطس من هزائمه دروساً كثيرة، حيث "هذبته محنته"، فاستعد استعداداً جيداً، وعاود مقاومة بني عباد، وأصبح يعرف من أين تؤكل أكتافهم، فعندما أرسل القاضي ابن عباد حملة بقيادة ابنه إسماعيل لمحاربة ابن الأفطس، ترك هذه الحملة تتوغل في بلاده، وكمن لها في طريق عودتها، ولما رجعت خرج عليها، وأوقع بها هزيمة شنيعة، وذلك سنة ٤٢٥هـ/١٠٣٣م[4].

وبعد هذا النصر الذي حققه عبد الله بن مسلمة بن الأفطس على القاضي ابن عباد تفرغ للقضاء على ابني سابور: عبد الملك وعبد العزيز اللذين هربا – عندما استولى ابن الأفطس على ملك أبيهما – إلى لشبونة، "وانتزى فيها أحدهما على ابن الأفطس، ولم تطل مدته إلى أن هلك، وقام أخوه بملك لشبونة مكانه، ولم يكن يصلح للملك لضعف نفسه، وقلة قيامه بالأمور"[5].

---

[1] ابن عذاري، البيان المغرب: ٢٣٦/٣.
[2] المصدر نفسه: ٢٠٢/٣.
[3] المصدر نفسه: ٢٠٢/٣-٢٠٣.
[4] المصدر نفسه: ٢٠٣/٣.
[5] المصدر نفسه: ٢٣٧/٣.

ولذلك كتب أهل لشبونة سراً أن يرسل إليهم والياً من عنده، فوجه إليهم بولده "ولم يشعر عبد الملك بن سابور حتى امتلأ البلد من العسكرية، فلم يكن به بد من طلب السلامة لنفسه وأهله وماله، فأعطي ما سأل"[1]، وسمح له بمغادرة لشبونة، فغادرها إلى قرطبة، ولما اقترب منها استأذن ابن جهور في دخولها "فأذن له في ذلك، فدخل قرطبة، ونزل بدار أبيه سابور، فكانت قرطبة مستقرة إلى آخر عمره"[2].

توفي عبد الله بن محمد بن مسلمة بن الأفطس في جمادى الأولى من سنة ٤٣٧هـ/١٠٤٥م فخلفه ابنه محمد[3] "وكان شاعراً أديباً وعالماً لبيباً وبطلاً شجاعاً"[4]، وقد تلقب بالمظفر، "وكان أحرص الناس على جمع علوم الأدب خاصة من النحو والشعر ونوادر الأخبار وعيون التاريخ"[5]، وذلك في كتاب ضخم يتألف من خمسين مجلداً، ويحتوي "على الأخبار والسير والآداب المتميزة، والطرف المستملحة، والنكت البديعة، والغرائب الملوكية، واللغات الغريبة، قيل أنه اختصر فيه خزائنه الفائقة، لا يكاد يوجد له نظير". وقد سمّاه: المظفري[6].

وإلى جانب ثقافة المظفر الواسعة كان رجل حرب وسياسة، فقد عرفته الخطوب، ويبدو أنه تعلم كثيراً من الأسر الذي عاناه على يد القاضي ابن عباد، إذ استطاع ضبط النظام والدفاع عن الثغور، حتى استفحل ملكه، وأصبح من أعظم ملوك الطوائف، حسب تعبير ابن خلدون[7].

---

(1) ابن عذاري، البيان المغرب: ٢٣٧/٣.

(2) المصدر نفسه: ٢٣٧/٣.

(3) المصدر نفسه: ٢٣٦/٣؛ ابن خلدون، تاريخ: ٢٠٥/٤.

(4) ابن عذاري، البيان المغرب: ٢٣٦/٣.

(5) المراكشي، المعجب: ٤١-٤٢.

(6) ابن عذاري، البيان المغرب: ٢٣٦/٣-٢٣٧؛ المقري، نفح الطيب: ٤٤٢/١؛ المراكشي، المعجب: ٤٢ ويذكر أن هذا الكتاب يقع في عشرة أجزاء ضخمة.

(7) ابن خلدون، تاريخ: ٢٠٥/٤.

كان المظفر مثل والده، معادياً لبني عباد الذين استمروا في محاولات توسيع ملكهم على حساب جيرانهم، وقد بدأ الاحتكاك المباشر بين المظفر والمعتضد بن عباد عندما هاجم الأخير مدينة لبلة، فاستجار صاحبها ابن يحيى اليحصبي بالمظفر "فأجاره، وانزعج له، ووصل يده، وجمع جيشه، وأقبل إلى لبلة ناصراً لابن يحيى"[1].واستعان المظفر في ذلك بقوات من البربر "فسارعوا إليه غير ناظرين في عاقبة أمرهم، وتقدم بهم إلى إشبيلية"[2]. وقد حاول ابن جهور الإصلاح بين المظفر وابن عباد، وأخذ "يضرب لهم الأمثال، ويخوفهم من سوء العاقبة والمآل حتى صار فيهم كموسى وآل فرعون وعظاً وتذكرة"[3]، ولكنهما لم يستمعا لنصحه.

عندما أرسل المظفر جيشه وقوات حلفائه البربر لمهاجمة إشبيلية جرّد المعتضد ابن عباد حملة على بلاد المظفر "فغارت وأنجدت وفعلت فعلات نكأت القلوب، وقربت الندوب"، ثم توجه ابن عباد بنفسه إلى لبلة للقاء المظفر، واشتبك جيشاهما في معارك لم يتحقق فيها النصر لأحدهما[4]. ثم عدل ابن يحيى عن المظفر – كما ذكرنا – "وخانه فيما كان ائتمنه من ماله وأودعه عنده أيام تورطه في حرب المعتضد، فأنبتت بينهم العصمة، وضربت خيل المظفر على صاحب لبلة، فاستغاث المعتضد، فلحقت به خيله، واقتتلت مع خيل المظفر، وكان ابن جهور كثيراً ما يوالي رسله إلى الإصلاح بينهما"[5].

أمضى المعتضد سنة ٤٤٢هـ/١٠٥٠م وهو يوجه الغارات على مملكة بطليوس، واستطاع أن يستولي على كثير من الحصون، وبعد أن دوخ بلاد المظفر ابن الأفطس عاد إلى إشبيلية[6]، بينما اعتصم المظفر ببطليوس "بعد هزيمتين

---

[1] ابن عذاري، البيان المغرب: ٢٠٩/٣.

[2] المصدر نفسه: ٢١٠/٣.

[3] المصدر نفسه: ٢١٠/٣.

[4] المصدر نفسه: ٢١٠/٣-٢١١.

[5] المصدر نفسه: ٢١١/٣.

[6] المصدر نفسه: ٢١١/٣.

هلك فيهما خلق كثير"[1]، ويبدو أن المظفر كفّ عن حرب المعتضد بعد أن فقد حلفاءه ومناصريه[2].

وواكب التنافس بين المظفر والمعتضد في ميدان الحرب تنافس من نوع آخر كان في ميدان اللهو، فما إن هدأت الحرب بينهما حتى أرسل المظفر إلى قرطبة من "يلتمس شراءِ وصائف ملهيات يأنس بهن، نافياً بذلك الشماتة عن نفسه"[3]. وهو أمر أثار استغراب الناس، وخاصة أن المظفر عُرف بأدبه ومعرفته، وبأنه فارس حروب، وهو إنما فعل ذلك لمعاندة المعتضد بن عباد الذي جلب إلى إشبيلية قينة الوزير ابن الرميحي بعد وفاته، "وقد استدعاها لما وصفت له بالحذق في صنعتها، فوجهت له، فتقيّله المظفر في إظهار الفراغ وطلب الملهيات، وقد علم العالم أنه لفي شغل عنهن"[4]. ويشار في هذا المجال أن رسول المظفر لشراء الملهيات لم يعثر إلا على صبيتين "لا طائل فيهما، فاشتراهما"[5].

والجدير بالذكر أن ابن جهور، تمكن أخيراً من عقد صلح بين المظفر والمعتضد في ربيع الأول سنة ٤٤٣هـ/١٠٥١م[6]، غير أن هذا الصلح لم يتح للمظفر الاستقرار الذي تاق إليه، فقد كان عليه أن يواجه ملكاً آخر من ملوك الفتنة هو المأمون يحيى بن ذي النون صاحب طليطلة، إذ وقعت بينهما حروب كثيرة طاحنة، أشارت إليها بعض المصادر دون تفصيل[7].

ولم يقتصر الطامعون بمملكة بطليوس في عهد المظفر على ملوك الفتنة، فقد طمع بها أيضاً ملوك النصارى، ذلك أن ملك قشتالة وليون: فرناندو الأول كان يراقب ما يجري

---

(1) ابن خلدون، تاريخ: ٢٠٥/٤؛ ابن عذاري، البيان المغرب: ٢١١/٣.

(2) ابن عذاري، البيان المغرب: ٢١١/٣.

(3) المصدر نفسه: ٢١٢/٣.

(4) المصدر نفسه: ٢١٢/٣.

(5) المصدر نفسه: ٢١٢/٣.

(6) المصدر نفسه: ٢١٢/٣،٢١٣؛ ابن خلدون، تاريخ: ٢٠٥/٤.

(7) ابن عذاري، البيان المغرب: ٢٨٢/٣-٢٨٣؛ ابن خلدون، تاريخ: ٢٠٥/٤.

بين ملوك الفتنة من أحداث عاصفة، ويتربص بثغور الأندلس، وعندما أدرك ما آل إليه حالها من ضعف بعد أن انشغل عنها المسلمون بالاقتتال فيما بينهم، خرج بجيوشه قاصداً أطراف مملكته بطليوس الشمالية والغربية "وكانت خيله تزيد على عشرة آلاف فارس معهم من الرجال أكثر من مثليهم"، فعاث في بلاد المسلمين، وفتح حصوناً كثيرة[1].

وجرّد فرناندو الأول من فرسانه سريّة أمرها باحتلال مدينة شنترين "إذ كانت شنترين أفضل ذلك الثغر"، ولما علم المظفر بذلك بادر إلى نجدتها، ووصلها قبل قائد السرية النصرانية، ثم أرسل المظفر إلى ذلك القائد يدعوه للتفاوض، فالتقيا في نهر التاجه المار بالمدينة "ابن الأفطس في زورق، والعلج راكب فرسه في الماء إلى صدر فرسه، وتكلما طويلاً فيما عرضه من السلم والإتاوة، فامتنع المظفر من ذلك إلى أن وافقه بعد جهد ومشقة على خمسة آلاف دينار يؤديها إليه في كل عام من أول هذه الهدنة"[2].

وكان اضطرار المظفر بن الأفطس لدفع الجزية عاملاً من عوامل ضعفه، وزعزعة ملكه، وقد استغل فرناندو الأول ذلك فأغار على الأطراف الغربية لمملكة بطليوس في سنة ٤٤٩هـ/١٠٥٧م واحتل بعض المواقع الحصينة مثل بازو (Viseo) ومُليقة (Lamego) الواقعتين على نهر دويره (Duero)[3]. وبعد ذلك ببضع سنوات هاجم فرناندو الأول مدينة قلمرية (Coimbra) التي كأن المنصور محمد بن أبي عامر قد فتحها سنة ٣٧٥هـ/٩٨٥م[4]. وكان قائد حامية المدينة مملوك من مماليك المظفر يسمى (راندُه)، وعندما حاصرها فرناندو فاوضه قائد حاميتها سراً، وعرض عليه "أن يؤمنه في نفسه وأهله، ويخرج إليه من البلد ليلاً، فأعطاه اللعين الأمان"[5]. وخرج الخائن رانده من قلمرية ليلاً إلى معسكر النصارى دون أن يشعر به أحداً من أهلها. "وأصبح أهل البلد وقد أخذوا أهبة القتال، فقال بهم النصارى: كيف

---

[1] ابن عذاري، البيان المغرب: ٢٣٨/٣.

[2] المصدر نفسه: ٢٨٣/٣.

[3] المصدر نفسه: ٢٣٨/٣؛ وانظر: ابن الكردبوس، تاريخ الأندلس: ٧٥ ح٦.

[4] ابن عذاري، البيان المغرب: ٢٣٨/٣.

[5] المصدر نفسه: ٢٣٨/٣-٢٣٩.

تقاتلونا وأميركم عندنا؟ ولم يكن لأهل المدينة علم بذلك، فلما لم يجدوه، وعلموا صحة خبره، طلبوا من العلج الأمان، فلم يجبهم إليه، ونفدت أقواتهم، وعلم عدو الله ذلك منهم، فجد في حربهم حتى دخلها عنوة"[1]، وذلك في سنة ٤٥٦هـ/١٠٦٣م. وقد عامل فرناندو الأول أهل قلمرية بوحشية، إذ قتل الرجال، وسبى الذرية والحريم، ولم ينج من هؤلاء وأولئك سوى نفر قليل خرجوا منها دون أمتعة أو أموال[2]. أما الخائن رانده فإنه رجع – بعد حين – إلى مولاه المظفر ابن الأفطس "فوبخه على فعله الذميم، ثم أمر بضرب عنقه"[3].

"ولم يزل ثغر الأندلس يضعف والعدو يقوى والفتنة بين أمراء الأندلس قبحهم الله تستعر إلى أن كلب العدو على جميعهم، وملّ من أخذ الجزية، ولم يقنع إلا بأخذ البلاد وانتزاعها من أيدي المسلمين"[4]. وقد اشتدت وطأة النصارى على الأندلس في عهد ألفونسو السادس ملك قشتالة بعد وفاة أبيه سنة ٤٨٥هـ/١٠٦٥م[5]. وقد أشرنا فيما سبق إلى أن ألفونسو لم يتول عرش قشتالة بعد وفاة أبيه مباشرة، وإنما تولاه بعد نزاع استمر سنوات بين أبناء فرناندو الأول الثلاثة: سانشو، وغرسية، وألفونسو. وقد انتهى هذا النزاع بتولي ألفونسو ملك أبيه سنة ٤٦٥هـ/١٠٧٢م[6]. وقد شهدت الأندلس في أعقاب وفاة فرناندو الأول فترة من الاستقرار النسبي فيما يتعلق باعتداءات النصارى الذين انشغلوا بالنزاع على عرش قشتالة. وكان للمظفر ابن الأفطس نصيب يسير من تلك الفترة، ذلك أنه توفي في سنة ٤٦٠هـ/١٠٦٧م[7] تاركاً مهمة مقارعة ألفونسو لابنه المتوكل الذي استخلص عرش مملكة بطليوس من أخيه يحيى المنصور بعد وفاة والدهما، وذلك في سنة ٤٦٤هـ/١٠٧١م[8].

---

[1] ابن عذاري، البيان المغرب: ٢٣٩/٣؛ وانظر: ابن الكردبوس، تاريخ الأندلس: ٧٦.

[2] ابن عذاري، البيان المغرب: ٢٣٩/٣، ٢٥٣؛ ابن الكردبوس، تاريخ الأندلس: ٧٦؛ ابن الخطيب، أعمال الأعلام: ١٨٤.

[3] ابن عذاري، البيان المغرب: ٢٣٩/٣.

[4] المصدر نفسه: ٢٣٩/٣.

[5] المصدر نفسه: ٢٣٩/٣؛ ابن خلدون، تاريخ: ٢٣٢/٤؛ ابن الكردبوس، تاريخ: ٧٦.

[6] ابن الكردبوس، تاريخ الأندلس: ٧٦؛ ابن خلدون، تاريخ: ٢٣٢/٤.

[7] ابن خلدون، تاريخ: ٢٠٥/٤.

[8] ابن الكردبوس، تاريخ الأندلس: ٨٣.

كان المتوكل ابن الأفطس أكثر ميلاً إلى العلوم والآداب منه إلى الحروب، وإن لم تنقصه الشجاعة المفرطة والفروسية التامة[١]. فقد أشارت المصادر إلى أنه كان "ملكاً عالي القدر، مشهور الفضل، مثلاً في الجلالة والسرور، من أهل الرأي والحزم والبلاغة، وكانت مدينة بطليوس في مدته دار أدب وشعر ونحو وعلم"[٢]. وكان من أشهر وزرائه الكاتب والشاعر المبدع أبو محمد عبد المجيد بن عبدون[٣].

وكان استدعاء أهل طليطلة للمتوكل أن يتولى حكم مدينتهم من أبرز أعماله، فقد أشرنا من قبل إلى أن أهل طليطلة حاولوا خلع ملكهم القادر بن ذي النون سنة ٤٧٢هـ/١٠٧٩م عندما تخلى لألفونسو السادس عند طليطلة على أن يعاونه في استعادة بلنسية، فكتبوا سراً للمتوكل ليتولى حكمها، ويقوم بواجب حمايتها "فدخل طليطلة عقب سنة اثنتين وسبعين، وأقام عندهم نحواً من عشرة أشهر"[٤]. ولكن المتوكل غادر طليطلة إلى بطليوس عندما علم باستعانة القادر بألفونسو، ومقدمهما نحو طليطلة، إذ يذكر ابن الكردبوس أنه عندما رأى ضيق الحال عليه "وهو لا يرجو انتصاراً من أحد، خرج فاراً، فدخلها القادر"[٥].

وبعد سقوط طليطلة في يد ألفونسو سنة ٤٧٨هـ/١٠٨٥م[٦] "شمخ بأنفه، ورأى أن زمام الأندلس قد حصل في كفه"، وأرسل رسله إلى ملوك الفتنة يطلب منهم تسليم القلاع والحصون إليه، وكذلك تقديم ما يطلبه من أموال متوعداً إياهم بعواقب وخيمة إن لم يفعلوا[٧]. وكان المتوكل احد هؤلاء، ولكنه في الوقت الذي رضخ فيه ملوك الفتنة الآخرون لمطالب ألفونسو رفض، كما رفض المعتمد بن عباد مطالب ألفونسو، ورأى كل

---

[١] المراكشي، المعجب: ٤٢؛ ابن عذاري، البيان المغرب: ١٢٢/٤.

[٢] ابن الخطيب، أعمال الأعلام: ١٨٥/٢؛ ابن الأبار، الحلة السيراء: ٩٦/٢-٩٨؛ المراكشي، المعجب: ٤٢.

[٣] المراكشي، المعجب: ٤٢.

[٤] ابن الخطيب، أعمال الأعلام: ١٨٠؛ وانظر: ابن الكردبوس، تاريخ الأندلس: ٨٣-٨٤.

[٥] ابن الكردبوس، تاريخ الأندلس: ٨٣.

[٦] المصدر نفسه: ٨٥.

[٧] المصدر نفسه: ٨٦-٨٩.

منهما "أن الرجوع إلى الحق أحق"[1]. وقد كتب المتوكل إلى ألفونسو رسالة شديدة اللهجة تدل على شجاعته وإبائه، مثلما تدل على فورة كرامته كمسلم، فقد جاء فيها:

"وصل إلينا من عظيم الروم كتاب مدع في المقادير، وأحكام العزيز القدير، يرعد ويبرق، ويجمع تارة ثم يفرق...ولو علم أن لله جنوداً أعز بهم كلمة الإسلام، وأظهر بهم دين نبينا محمد عليه السلام، أعزة على الكافرين يجاهدون في سبيل الله ولا يخافون..."[2].

وجاء في رسالة المتوكل إلى ألفونسو السادس أيضاً أن المسلمين لا يرضون إلا بالنصر أو الشهادة "وفي الله العوض مما به هدّدت، وفرج يفتر بما مددت، ويقطع فيما أعددت"[3].

وقد شهدت فترة حكم المتوكل بن الأفطس محاولة جادة لتوحيد الجهود في الأندلس، ولم الشمل الممزق من اجل الوقوف أما ألفونسو السادس، والتصدي لأطماعه، وقد بذل هذه الجهود أبو الوليد الباجي[4] ربما بتكليف من المتوكل نفسه، وفي هذا المجال يقول ابن الأبار: "ولما عظم عيث الطاغية أذفونش بن فردلند (ألفونسو)، وتطاول إلى الثغور، ولم يقنع بضرائب المال، انتدب للتطوف على أولئك الرؤساء القاضي أبو الوليد الباجي، يندبهم إلى لم الشعث ومدافعة العدو، ويطوف واحداً واحداً، وكلهم يصغي إلى وعظه"[5].

---

(1) ابن الكردبوس، تاريخ الأندلس: ٨٩.

(2) انظر: مجهول، الحلل الموشية: ٢٠-٢٣.

(3) المصدر نفسه: ٢٣.

(4) هو القاضي العلامة الفقيه الجليل: سليمان بن خلف المشهور بأبي الوليد الباجي، وُلد في بطليوس سنة ٤٠٣هـ، وتوفي في ألمرية سنة ٤٧٤هـ. وقد تولى القضاء والتدريس في عدة مدن أندلسية أثناء تطوافه في الأندلس داعياً إلى وحدتها. انظر: المقري، نفح الطيب: ٦٧/٢ وما بعدها؛ ابن خلكان، وفيات الأعيان: ٤٠٨/٢؛ الحميري، الروض المعطار: ٣٦؛ ابن الكردبوس، تاريخ الأندلس: ١٤٦.

(5) ابن الأبار، الحلة السيراء: ٩٨/٢.

ويبدو أن عدداً قليلاً من ملوك الفتنة استجاب لدعوة التوحيد التي نهض لـــها أبـــو الوليد الباجي، بل لم يستجب لهذه الدعوة سوى المعتمد بن عباد، أما الآخرون من ملـــوك الفتنة فقد ارتموا بأحضان النصارى، ودفعوا لهم الأموال، وتخلـــوا لـــهم عـــن القـــلاع والحصون، إلى أن بلغ السيل الزُبى، وطفح الكيل، وأصبحت الأندلس كلها في متناول يـــد ألفونسو السادس، فعندئذ ازداد عدد ملوك الفتنة الذين أيدوا دعوة الباجي، وقـــوي لديـــهم الاتجاه نحو الاستعانة بالمرابطين.

اتفق المؤرخون على أن المرابطين من قبيلة لمتونة، ولذلك أطلق بعضهم على الدولة التي أنشأوها في المغرب اسم: الدولة اللمتونية أو اللمتونيين. ولمتونة هي إحدى قبائل صنهاجة من البربر البرانس التي تعد أعظم قبائلهم "حتى زعم كثير من الناس أنهم (أي صنهاجة) ثلث البربر"[1]، ومن قبائل صنهاجة الشهيرة – إضافة إلى لمتونة – قبيلة جُدّالة[2] أو كدالة[3].

ويرجع بعض المؤرخين قبيلة صنهاجة إلى حمير بن كهلان، من اليمن "وكان أول مسيرهم من اليمن أيام أبي بكر الصديق رضي الله عنه، فسيرهم إلى الشام، وانتقلوا إلى مصر، ودخلوا المغرب مع موسى بن نصير، وتوجهوا مع طارق إلى طنجة، فأحبوا الانفراد، فدخلوا الصحراء واستوطنوها"[4]. بينما ينسب مؤرخون آخرون صنهاجة إلى حام بن نوح كسائر البربر، وهذا هو الصحيح[5].

وقد تمكن قبيلة صنهاجة بمرور الزمن من إنشاء دولتين عظميين بالمغرب هما: دولة بني زيري بن مناد الذين ورثوا ملك دولتهم من الشيعة العبيديين[6]، ودولة المرابطين التي نحن بصددها[7].

لقد انتشر اللمتونيون في أول عهدهم في الصحراء ما بين المغرب والسودان في إقليم موريتانيا "ومساحة أرضهم نحو سبعة أشهر طولاً في أربعة عرضاً، وفيهم قوم لا

---

(1) الناصري، الاستقصا: ٣/٢.

(2) النويري، نهاية الأرب: ٢٥٣/٢٤؛ ابن عذاري، البيان المغرب: ٧/٤؛ ابن الأثير، الكامل في التاريخ: ٧٤/٨.

(3) الناصري، الاستقصا: ٣/٢.

(4) ابن الأثير، الكامل في التاريخ: ٧٤/٨.

(5) الناصري، الاستقصا: ٣/٢.

(6) النويري، نهاية الأرب: ١٥٦/٢٤ وما بعدها؛ ابن خلدون: ٣٩/٧ وما بعدها.

(7) الناصري، الاستقصا: ٣/٢.

يعرفون حرثاً ولا زرعاً ولا فاكهة، وإنما أموالهم الأنعام، وعيشهم اللحم واللبن، يقيم أحدهم عمره لا يأكل خبزاً إلا أن يمر ببلادهم التجار فيتحفونهم بالخبز والدقيق"[١]. وقد سمي اللمتونيون بالملثمين "لأنهم يتلثمون ولا يكشفون وجوههم أصلاً"[٢].

كانت بداية دولة المرابطين على يد رجل لم يكن من قبيلة لمتونة نفسها، وإنما من قبيلة جدالة شقيقتها اسمه: يحيى بن إبراهيم الجدالي أو الكدّالي. فقد قام بأمر صنهاجة، وعنّ له أن يحج إلى بيت الله الحرام في سنة ٤٢٧هـ/١٠٣٥م[٣]، "وكان مؤثراً للدين، محباً في الخير، مكرماً للصالحين"[٤]. وقد عاد من الحج بعد أن أمضى في الحجاز بضع سنوات، وعرّج في طريق عودته على القيروان حيث وصلها في سنة ٤٤٠هـ/١٠٤٨م، وحضر فيها مجلس الفقيه المدرس أبي عمران الفاسي، قاضي القيروان، وكان على المذهب المالكي[٥]. ولما هم بالعودة إلى بلاده طلب الجدالي من القاضي أبي عمران أن يرسل معه بعض تلاميذه ليعلّم قومه ويفقههم في الدين "فاختار له شخصاً يقال له: عبد الله بن ياسين فسار معه إلى قبيلة جدالة، فاجتمع عليه عندهم نحو سبعين شخصاً ما بين كبير وصغير من فقهائهم ليعلمهم، ويفقههم في دينهم، فانقادوا له انقياداً عظيماً، ووالوه في ابتداء الأمر تكريماً، وأقاموا معه على ذلك مدة كبيرة"[٦].

وظل عبد الله بن ياسين في قبيلة جدالة فترة طويلة "يمتثلون كل ما به يأمرهم منقادين لأمره ونهيه"[٧]، وظل كذلك إلى أن انقض عليه وثار ضده شخص من جدالة

---

(١) الناصري، الاستقصا: ٣/٢؛ وانظر: ابن الأثير، الكامل في التاريخ: ٧٤/٨.

(٢) الناصري، الاستقصا: ٣/٢.

(٣) المصدر نفسه: ٥/٢؛ وانظر: ابن عذاري، البيان المغرب: ٧/٤؛ ابن الأثير، الكامل في التاريخ: ٧٤/٨.

(٤) النويري، نهاية الأرب: ٢٥٣/٢٤؛ ابن الأثير، الكامل في التاريخ: ٧٤/٨.

(٥) ابن عذاري، البيان المغرب: ٧/٤؛ ابن الأثير، الكامل في التاريخ: ٧٤/٨؛ النويري، نهاية الأرب: ٢٥٣/٢٤؛ الناصري، الاستقصا: ٦/٢.

(٦) ابن عذاري، البيان المغرب: ٨/٤؛ الناصري، الاستقصا: ٧/٢ وما بعدها؛ النويري، نهاية الأرب: ٢٥٣/٢٤-٢٥٤.

(٧) ابن عذاري، البيان المغرب: ٨/٤.

يسمى: الجوهر بن سحيم مدعياً أن عبد الله بن ياسين خالف بعض الأحكام. واتفق الجوهر مع بعض وجوه القبيلة "فعزلوه من الرأي والمشورة، وقطعوا منه مالهم، وانتهبوا داره وهدموها، وأخذوا ما كان فيها، وخرج عبد الله بن ياسين خائفاً منهم"[1]. وتشير بعض المصادر إلى أن سبب ثورة الجوهر ضد عبد الله أنه عندما وجدهم يتزوجون بأكثر من أربع حرائر نهاهم عن ذلك، وكان الرجل منهم يجمع بين أكثر من أربع، "فاطرحوه واستصعبوا علمه، وتركوا الأخذ عنه"[2].

خرج عبد الله بن ياسين ويحيى بن إبراهيم الجدالي إلى مضارب لمتونة، وكان رئيس لمتونة في تلك الأثناء هو يحيى بن عمر اللمتوني الذي أحسن استقبالهما، وأكرمهما، وأمر القبائل الصحراوية الموالية له بعدم التقصير في حق عبد الله بن ياسين "وكتب لأشياخهم يعلمهم أن من خالفه قد خالف الجماعة"[3]. ولكن يبدو أن الذين أطاعوه لم يكونوا بالعدد الكبير الذي يعول عليه لنشر هذه الدعوة بشكل واسع، فقد انضم إليه سبعة نفر فقط في البداية منهم رئيس لمتونة، وقد انقطعوا للعبادة في جزيرة في نهر هو على الأغلب نهر النيجر[4]، وانقطعوا فيها للعبادة وابتنوا في الجزيرة رباطاً للصلاة والعبادة، واستمروا على ذلك نحو ثلاثة أشهر "فتسامع الناس بهم، وأنهم اعتزلوا بدينهم يطلبون الجنة والنجاة من النار، فكثر الواردون عليهم، والتوابون لديهم، فأخذ عبد الله بن ياسين يقرئهم القرآن، ويستميلهم إلى الخير، ويرغبهم في ثواب الله، ويحذرهم ألم عقابه، حتى تمكن حبه في قلوبهم، فلم تمر عليه إلا مدة يسيرة حتى اجتمع له من التلامذة نحو ألف رجل"[5]. وبذلك أصبح لعبد الله بن ياسين ورفيقيه: الجدالي

---

(1) ابن عذاري، البيان المغرب: ٤/٨-٩؛ وللمقارنة انظر: ابن الأثير، الكامل في التاريخ: ٨/٧٤؛ النويري، نهاية الأرب: ٢٤/٢٥٣-٢٥٤.

(2) الناصري، الاستقصا: ٢/٧-٨.

(3) ابن عذاري، البيان المغرب: ٤/٩.

(4) الناصري، الاستقصا: ٢/٨؛ النويري، نهاية الأرب: ٢٤/٢٥٦؛ وانظر: ابن الأثير، الكامل في التاريخ: ٨/٧٤-٧٥.

(5) الناصري، الاستقصا: ٢/٨.

واللمتوني قوة كان عليها – حسب مشورة ابن ياسين – مقاتلة "الذين خالفوا الحق، وأنكروا شرائع الإسلام"[١]، وكان أبرز هؤلاء المخالفين من قبيلة جدالة[٢].

وباتفاق عبد الله بن ياسين ويحيى بن إبراهيم الجدالي ويحيى بن عمر اللمتوني على قتال مخالفيهم بدأت مرحلة جديدة على طريق إقامة دولة المرابطين، ذلك أن الثلاثة اتفقوا على قتال جدالة، وأوكلوا قيادة قواتهم إلى يحيى بن إبراهيم الجدالي بينما كان الأمير الفعلي لجماعة المرابطين الذين ازداد عددهم حتى بلغوا بضعة آلاف. وقد قتلوا من جدالة أعداداً كبيرة مما أخضع الباقين، وكذلك وقع في القبائل الأخرى من صنهاجة، وتعاقب خضوعها حتى خضعت جميعها. وتقوى المرابطون بما جمعوه من أسلاب، ومما تجمع لديهم من زكوات وأعشار وأخماس[٣].

ثم توفي يحيى بن إبراهيم الجدالي، فعقد المرابطون راية الجهاد ليحيى بن عمر اللمتوني الذي كان شديد الانقياد لعبد الله بن ياسين. وقد استقام له الأمر "وملك جميع بلاد الصحراء، وغزا بلاد السودان ففتح كثيراً منها، وكان من أهل الزهد والدين والصلاح"[٤]. وقد سماه عبد الله بن ياسين: أمير الحق[٥].

ترسخت أقدام المرابطين في عهد أبي زكريا يحيى بن عمر، وقد غزا مع عبد الله بن ياسين سجلماسة لتطهيرها ما هي فيه من المنكرات، وشدة العسف من الأمراء، وحقق على أهلها من البربر انتصاراً مشهوداً وذلك في سنة ٤٢٧هـ/١٠٥٥م، "واستولى عبد الله بن ياسين على دوابهم وأسلحتهم وأموالهم...فأخرج الخمس من ذلك كله، وفرّقه على فقهاء سجلماسة ودرعة وصلحائهما، وقسم الأربعة أخماس على المرابطين"[٦].

---

(١) ابن الأثير، الكامل في التاريخ: ٧٥/٨؛ النويري، نهاية الأرب: ٢٥٦/٢٤-٢٥٧.

(٢) ابن عذاري، البيان المغرب: ٩/٤.

(٣) انظر التفاصيل: الناصري، الاستقصا: ٩/٢-١٠؛ ابن عذاري، البيان المغرب: ٩/٣-١٠.

(٤) الناصري، الاستقصا: ١١/٢؛ ابن عذاري، البيان المغرب: ١١/٤.

(٥) ابن عذاري، البيان المغرب: ١٢/٤.

(٦) الناصري، الاستقصا: ١٣/٢؛ ابن عذاري، البيان المغرب: ١٣/٤-١٤.

وتوفي الأمير يحيى بن عمر اللمتوني سنة ٤٤٧هـ/١٠٥٥م في بعض غزواته، فعقد عبد الله بن ياسين راية الجهاد لأخيه أبي بكر بن عمر "وبايعوه بيعة الإسلام، وتبعه زمرة من قومه، وسماه عبد الله بن ياسين: أمير المسلمين"[١]، وقلده أمر الحرب والجهاد، وأمره بغزو السوس والمصامدة، "فزحف إليها في جيش عظيم في ربيع الثاني" من سنة ٤٤٨هـ/١٠٥٦م، وقد حققت هذه الغزوة أهدافها، إذ تم فتح معاقل السوس، وخضعت قبائل تلك البلاد لدعوة المرابطين، كما خضعت قبائل المصامدة[٢].

وتعرضت بلاد المرابطين في سنة ٤٥٠هـ/١٠٥٨م لقحط شديد، وضاقت الصحراء بهم لشظفها وكثرتهم، ودفعهم ذلك إلى الخروج لبلاد السوس للمرة الثانية، فخرجوا إلى أرض برغواطة، ونشبت بينهم وبين البرغواطيين معارك كثيرة أصيب في إحداها عبد الله بن ياسين بجراح خطيرة أدت إلى وفاته، وذلك في أوائل سنة ٤٥١هـ/١٠٥٩م[٣]. وقبل وفاته كان قد استولى على سجلماسة وأعمالها، وأغمات وبلاد السوس وغيرها[٤].

أصبح الآمر الناهي في المرابطين بعد وفاة عبد الله بن ياسين: أبو بكر بن عمر اللمتوني وحده، واستقامت له البلاد، ووجه عماله إليها. وفي سنة ٤٦١هـ/١٠٦٨م أعد جيشاً كبيراً جعل قيادته لابن عمه يوسف بن تاشفين، ووجهه لقتال رؤساء القبائل في المغرب، ومن أشهرها بنو يفرن. وقد قاتلهم يوسف فقتل كثيرين منهم[٥]. وبينما كان يوسف في المغرب مقاتلاً كان أبو بكر بن عمر في أغمات. وقد وفد إليه من يعلمه باختلاف المرابطين في الصحراء، وخاصة بين قبيلتي لمتونة ومسوفة، فقرر العودة إليهم

---

[١] النويري، نهاية الأرب: ٢٥٧/٢٤؛ الناصري، الاستقصا: ١٣/٢ ويذكر أن تولية أبي بكر عمر تمت في محرم من سنة ٤٤٨هـ. وانظر أيضاً: ابن عذاري، البيان المغرب: ١٤/٤ حيث يذكر أن ولايته كانت في محرم من سنة ٤٥٠هـ.

[٢] الناصري، الاستقصا: ١٣/٢ وما بعدها؛ النويري، نهاية الأرب: ٢٥٩/٢٤؛ ابن عذاري، البيان المغرب: ١٢/٤-١٦.

[٣] ابن عذاري، البيان المغرب: ١٦/٤؛ وانظر: الناصري، الاستقصا: ١٨/٢-١٩.

[٤] ابن عذاري، البيان المغرب: ١٦/٤.

[٥] المصدر نفسه: ١٨/٤-١٩.

لإصلاح ذات البين قبل أن يتفاقم الوضع، وقبل عودته أوكل شؤون المغرب لابن عمه يوسف بن تاشفين[1].

واستفحل أمر يوسف بن تاشفين بالمغرب، واستولى على أكثر بلاده، وبدأ ببناء مدينة مراكش وتحصينها وذلك في ٢٣ رجب ٤٦٢هـ/١٠٦٩م[2]. كما جهز الجيوش الجرارة لمحاربة القبائل التي ارتدت عن دعوة المرابطين، وقتل كثيرين من رجالها، واستولى على غنائم كثيرة. وفي سنة ٤٦٢هـ/١٠٧١م دون الدواوين "ورتب الأجناد، وطاعته البلاد. وكتب إلى بعض إخوته في السر من أبي بكر بن عمر يحضهم على الوصول إليه والقدوم عليه، ويعدهم بالخير الجزيل الحفيل، فوصل منهم جماعة كبيرة"[3].

وهكذا قوي أمر الأمير يوسف بن تاشفين، وعظمت شوكته. وعندما سمع أبو بكر بن عمر بأخباره عاد من الصحراء إلى مراكش ليستطلع الأحوال، ولما علم ما آل إليه يوسف "من الميل إلى نخوة الملك وهز السلطان عزم على تسليم الأمر له. وقد تم ذلك في سنة ٤٦٦هـ/١٠٧٣م[4]، حيث بدأ عهد المرابطين الفعلي.

اتخذ يوسف بن تاشفين لقب: أمير المسلمين، وأمر الكتاب أن يكتبوا عنه أو إليه بهذا الاسم، رافضاً التلقب بأمير المؤمنين، إذ اعتبر نفسه القائم بدعوة الخليفة العباسي: أمير المؤمنين في المغرب[5]. وكان يوسف "رجلاً ديّناً خيّراً حازماً داهية مجرباً"[6]. وقد خلص له أمر المغرب والصحراء أيضاً بوفاة أبي بكر بن عمر في سنة

---

(١) الناصري، الاستقصا: ٢٠/٢ وما بعدها؛ ابن عذاري، البيان المغرب: ٢١/٤.

(٢) ابن عذاري، البيان المغرب: ١٩/٤-٢٠. ويذكر الناصري أن بناء مراكش بدأ سنة ٤٥٤هـ. انظر: الاستقصا: ٢٤/٢ وما بعدها؛ وانظر أيضاً: النويري، نهاية الأرب: ٢٦٢/٢٤.

(٣) ابن عذاري، البيان المغرب: ٢٢/٤-٢٣.

(٤) المصدر نفسه: ٢٦/٤-٢٧؛ وانظر للمقارنة: الناصري، الاستقصا: ٢٢/٢ وما بعدها.

(٥) ابن عذاري، البيان المغرب: ٢٧/٤-٢٨؛ وانظر: النويري، نهاية الأرب: ٢٦٢/٢٤، وكان الخليفة العباسي آنئذ هو القائم بأمر الله، وقد توفي في سنة ٤٦٧هـ/١٠٧٤م.

(٦) ابن الأثير، الكامل في التاريخ: ٧٥/٨؛ وانظر أيضاً: الناصري، الاستقصا: ٢٣/٢.

٤٦٨هـ/١٠٧٥م، حيث قتله السودان المجاورون للمتونة لأنه كان يحاربهم، فرماه أحدهم بسهم قاتل[١].

وجه أمير المسلمين يوسف بن تاشفين جهوده العسكرية لفتح ما بقي من أقطار المغرب، ففتح مدينة فاس سنة ٤٦٧هـ/١٠٧٤[٢]، وفي سنة ٤٦٨هـ/١٠٧٥م فتح مدينة تلمسان صلحاً[٣]. ثم فتح تونس، واستولى على سائر شواطئ المغرب على المحيط الأطلسي وأصبح ملكه يمتد من البحر المتوسط شمالاً حتى حدود السودان جنوباً[٤].

وهكذا استطاع الأمير يوسف بن تاشفين خلال فترة قصيرة نسبياً أن يبني دولة قوية واسعة الأرجاء، وإن دل ذلك على شيء فإنما يدل على عبقريته الفذة، وصفاته القيادية، فقد "كان خائفاً لربه، كتوماً لسرّه، كثير الدعاء والاستخارة، مقبلاً على الصلاة، يأكل من عمل يده...أكثر عقابه كان الاعتقال الطويل إلا من انتزى وشق العصا، فالسيف أحسم لانتشار الداء"[٥]. وفي الوقت الذي كانت فيه هذه الدولة المرابطية في أوج قوتها كانت الأندلس تتلقى الضربات الموجعة على أيدي النصارى، بعد أن عجز ملوك الفتنة عن الصمود أمامهم، بسبب تناحر أولئك الملوك فيما بينهم، واقتتالهم طمعاً في التوسع على حساب بعضهم، أو تنافساً بين العصبيات. وقد أدى ذلك إلى سقوط طليطلة في عام ٤٧٨هـ/١٠٨٥م كما ذكرنا.

وكانت كارثة سقوط طليطلة في أيدي النصارى هي التي نبهت بعض ملوك الفتنة إلى ما وصلت إليه بلاد الأندلس من ضعف، ففكروا في منقذ، وكان من الطبيعي أن تتجه الأنظار إلى يوسف بن تاشفين الرجل القوي، صاحب الدولة القوية الفتية، التي لا يفصلها عن الأندلس سوى مضيق لا يتجاوز عرضه العشرين كيلومتراً. ولعل أول من فكر في

---

(١) ابن عذاري، البيان المغرب: ٢٦/٤.

(٢) المصدر نفسه: ٢٨/٤؛ الناصري، الاستقصا: ٢٧/٢.

(٣) ابن عذاري، البيان المغرب: ٢٩/٤.

(٤) المصدر نفسه: ٢٩/٤-٣٠؛ الناصري، الاستقصا: ٢٧/٢-٣٢.

(٥) ابن عذاري، البيان المغرب: ٤٦/٤.

استدعاء المرابطين هو المعتمد بن عباد، وربما كان ذلك قبل سقوط طليطلة، إذ أرسل وفداً إليه قبل سقوطها بمدة[1]. وبعد سقوطها بنحو ثلاثة أشهر كتب المعتمد بن عباد إلى يوسف بن تاشفين يستأذنه في القدوم عليه لتقرير أحوال الأندلس، وكان ذلك في جمادى الأولى من سنة ٤٧٨هـ/١٠٨٥م[2].

واستمر يوسف بن تاشفين تفد عليه وفود ثغور الأندلس "مستعطفين، مجهشين بالبكاء، ناشدين الله والإسلام، مستنجدين بفقهاء حضرته، ووزراء دولته، فيستمع إليهم، ويصغي لقولهم، وترق نفسه لهم"[3].

ثم عقد بعض ملوك الفتنة منهم: المعتمد بن عباد، والمتوكل بن الأفطس، وبعض الوزراء والقضاة والفقهاء مؤتمراً، وقرروا إرسال وفد إلى المغرب مستصرخاً المرابطين، وتوجه الوفد إلى المغرب في الوقت الذي كان يوسف بن تاشفين يستعد فيه للجهاد في الأندلس بناء على الاتصالات السابقة[4]، وفي ذلك يذكر ابن عذاري أن أهل الأندلس كتبوا ليوسف بن تاشفين – عندما رأوا عزيمته متقدمة على العبور – كتبوا إليه عن مخاوفهم من أن يستولي على بلادهم، فأجابهم مطمئناً[5]. "فلما وصل كتابه أحبوه، وعظموه، وفرحوا به وبولايته ملك المغرب، وتقوّت نفوسهم على دفع الفرنج"[6].

لقد تقدمت الإشارة إلى ما فعله المعتمد بن عباد برسول ألفونسو السادس الذي أوفده ليأخذ الجزية، ورفض أن يأخذها أموالاً وإنما تطاول فطلب أن تسلّم إليه الحصون المرتفعة ويبقى السهل للمسلمين، حيث قتل المعتمد رسول ألفونسو وقتل مرافقيه

---

[1] المقري، نفح الطيب: ٣٥٩/٤؛ ابن الخطيب: أعمال الأعلام: ٢٤٦؛ ابن الأبار، الحلة السيراء: ١٨٦/٢.

[2] ابن الخطيب، أعمال الأعلام: ٢٤٥.

[3] الحميري، الروض المعطار: ٨٦؛ ابن الخطيب، أعمال الأعلام: ٢٣٤؛ المقري، نفح الطيب: ٣٥٩/٤-٣٦٠.

[4] ابن عذاري، البيان المغرب: ١١٢/٤ وما بعدها؛ ابن الأبار، الحلة السيراء: ٩٨/٢-٩٩.

[5] ابن عذاري، البيان المغرب: ١١٢/٤-١١٤.

[6] المصدر نفسه: ١١٤/٤؛ ولمزيد من التفاصيل انظر: الناصري، الاستقصا: ٣٣/٢-٣٨.

الخمسمائة من الفرسان باستثناء ثلاثة نجوا فأخبروا ألفونسو الخبر، وعندئذ أقسم لينتقمن من المعتمد[1]، "ثم زحف في عسكرين أحدهما عليه، والآخر على بعض قواده حتى نزل على ضفة النهر الأعظم بإشبيلية قبالة قصر ابن عباد، وفي أيام مقامه هناك كتب إلى ابن عباد زارياً عليه: كثر بطول مقامي في مجلسي هذا عليّ الذباب، واشتد الحر، فأتحفني من قصرك بمروحة أروّح بها على نفسي، وأطرد بها الذباب عن وجهي. فوقّع له ابن عباد بخط يده في ظهر الرقعة: (قرأت كتابك وفهمت خيلاءك وإعجابك، وسأنظر لك في مراوح من جلود اللمط تروح منك لا عليك إن شاء الله!)"[2]. وفي هذا إشارة قوية إلى ما وصل إليه ألفونسو من صلف، وإلى مدى حاجة الناس إلى عون خارجي.

ويذكر ابن عذاري – في هذا المجال – أن ألفونسو خرج في بعض السنين "يتخلل بلاد الأندلس بجمع كبير من النصارى، فخافه ملوك الأندلس على البلاد، وأجفل أهل القرى وغيرها من بين يدي ألفونسو ولجأوا إلى المعاقل، وعندئذ كتب المعتمد بن عباد إلى يوسف بن تاشفين يدعوه إلى الجهاد في الأندلس"[3] وذلك بعد أن اتفق على ذلك مع بعض ملوك الفتنة الآخرين[4].

وكان يوسف بن تاشفين عندما وصله وفد الأندلس حاملاً رسالة المعتمد بن عباد وغيره من ملوكها، المؤلف من: قاضي بطليوس: أبو إسحاق بن مُقانا، وقاضي غرناطة: القليعي، وقاضي إشبيلية: أبو بكر بن أدهم، والوزير: أبو بكر محمد بن أبي الوليد أحمد بن عبد الله بن زيدون[5]، كان يوسف عندما وصله هذا الوفد على أتم أهبة، وكان حينئذ بمدينة سبتة[6]، يستنفر قواته للجهاد، ويطلب المزيد منها، فقد "أرسل إلى

---

(1) ابن الأثير، الكامل في التاريخ: ١١٣/٨؛ الناصري، الاستقصا: ٣٧/٢-٣٨.

(2) الناصري، الاستقصا: ٣٨/٢.

(3) ابن عذاري، البيان المغرب: ١١٤/٤-١١٥.

(4) ابن الأثير، الكامل في التاريخ: ١٤١/٨-١٤٢؛ الناصري، الاستقصا: ٣٨-٣٩.

(5) ابن الأبار، الحلة السيراء: ٩٨/٢-٩٩؛ ابن الأثير، الكامل في التاريخ: ١٤١/٨؛ الناصري، الاستقصا: ٣٩/٢.

(6) ابن عذاري، البيان المغرب: ١١٥/٤؛ ابن الأثير، الكامل في التاريخ: ١٤٢/٨.

مراكش في طلب من بقي من عساكره، فأقبلت إليه تتلو بعضها بعضاً"[1]. وبعد أن استقبل الأمير يوسف بن تاشفين الوفد جرت بينه وبين أعضائه مفاوضات ومراوضات، ويبدو أن الاتفاق تم بين الطرفين على خط سير الجيوش المرابطية، وعلى المساعدات التي سيقدمها ملوك الفتنة تعزيزاً لهذه الجيوش ودعماً لها[2].

تجمع لدى أمير المسلمين يوسف بن تاشفين نحو سبعة آلاف فارس في عدد كثير من الرجّالة (المشاة)، فيهم القواد وأعيان الجند ووجوه البربر[3]، وعبرت هذه الجيوش تباعاً إلى الجزيرة الخضراء، وكانت طليعتها قوة من الفرسان بقيادة داوود بن عائشة، وآخرها موكب أمير المسلمين الذي عبر المضيق في منتصف ربيع الأول سنة ٤٧٩هـ/٣٠ حزيران ١٠٨٦م، وكان مع هذه الجيوش عدد كبير من الجمال أمر الأمير بعبورها "فعبر منها ما أغص الجزيرة، وارتفع رغاؤها إلى عنان السماء"[4].

وعندما وصل أمير المسلمين إلى الجزيرة الخضراء خرج إليه أهلها "بما عندهم من الأقوات والضيافات، وأقاموا له سوقاً جلبوا إليه ما عندهم من سائر المرافق، وأذنوا للغزاة في دخول البلد والتصرف فيها، فامتلأت المساجد والرحاب بالمطوعة، وتواصوا بهم خيراً"[5].

ومن جهته جمع المعتمد بن عباد عساكره أيضاً "وخرج من أهل قرطبة عسكر كثير، وقصده المطوعة من سائر بلاد الأندلس"[6]. وكان المعتمد قد استقبل الأمير يوسف بن تاشفين في الجزيرة الخضراء في وجوه أهل دولته "وأظهر من بره وإكرامه فوق ما كان يظنه أمير المسلمين، وقدم إليه من الهدايا والتحف والذخائر الملوكية ما لم يظنه

---

(١) ابن الأثير، الكامل في التاريخ: ١٤٢/٨.

(٢) ابن الأبار، الحلة السيراء: ٩٨/٢-٩٩؛ الناصري، الاستقصا: ٣٩/٢.

(٣) المراكشي، المعجب: ٧٠.

(٤) الناصري، الاستقصا: ٣٩/٢-٤١؛ المراكشي، المعجب: ٧٠؛ ابن عذاري، البيان المغرب: ١١٥/٤.

(٥) الناصري، الاستقصا: ٣٩/٢-٤٠.

(٦) ابن الأثير، الكامل في التاريخ: ١٤٢/٨.

يوسف عند ملك، فكان هذا أول ما أوقع في نفس يوسف التشوّف إلى مملكة جزيرة الأندلس"[1].

وكان ألفونسو السادس عندما علم بتحركات الجيوش الإسلامية قد استنفر النصارى لحرب المسلمين، وكان حينئذ محاصراً لسرقسطة، مصمماً على احتلالها، ففك الحصار، وأخذ يحشد الجيوش من جليقية والنافار وفرنسا وإيطاليا، فتجمعت لديه قوات هائلة أضافها إلى جيشه القشتالي، وسار بها مزهواً بتفوقه عدداً وعدة[2].

"ولم تزل الجموع تتألف وتتدارك إلى أن امتلأت جزيرة الأندلس خيلاً ورجلاً من الفريقين"، وارتفع رغاء الإبل التي أمر يوسف بن تاشفين بعبورها إلى عنان السماء "ولم يكن أهل الجزيرة رأوا جملاً قط، ولا كانت خيلهم قد رأت صورها ولا سمعت أصواتها، وكانت تذعر منها وتقلق، وكان ليوسف بن تاشفين في عبورها رأي مصيب، وكان يحدق بها عسكره، وكان يحضرها الحرب، فكانت خيل الفرنج تحجم عنها"[3].

كان جيش المسلمين في عشرين ألفاً[4]، وكان جيش النصارى في خمسين ألفاً[5]، وقد وصل جيش المسلمين إلى موقع قريب من بطليوس، يقع على بعد اثني عشر كيلومتراً إلى الشمال الشرقي منها يدعى: الزلاقة (Sagrajas)، ثم وصلت جيوش ألفونسو السادس، وعسكرت في موضع يبعد عن الزلاقة ثمانية عشر ميلاً[6]، "وكان ترائيهم يوم الخميس، وهو الثاني عشر من رمضان"[7] (٤٧٩هـ/١٠٨٦م). وقد أعد الأمير يوسف بن تاشفين

---

(١) المراكشي، المعجب: ٧٠.

(٢) ابن عذاري، البيان المغرب: ١١٥/٤؛ الناصري، الاستقصا: ٤٢/٢؛ ابن الخطيب، أعمال الأعلام (تاريخ المغرب العربي في العصر الوسيط): ٢٤٢؛ المراكشي، المعجب: ٧١.

(٣) ابن عذاري، البيان المغرب: ١١٥/٤؛ الناصري، الاستقصا: ٤١/٢.

(٤) المراكشي، المعجب: ٧١.

(٥) ابن الأثير، الكامل في التاريخ: ١٤٢/٨.

(٦) ابن الأثير، الكامل في التاريخ: ١٤٢/٨؛ الناصري، الاستقصا: ٤٣/٢-٤٤؛ وانظر: ابن عذاري، البيان المغرب: ١١٥/٤.

(٧) المراكشي، المعجب: ٧٢.

خطة عسكرية قضت بأن لا يظهر للنصارى غير عدد يسير من جيوش المسلمين، إذ توارى القسم الأكبر منها خلف جبل، ولم يظهر في سفحه سوى المعتمد بن عباد بعدد قليل من العساكر[1].

تم التمهيد لمعركة الزلاقة برسالة وجهها أمير المسلمين يوسف بن تاشفين إلى ألفونسو السادس يدعوه فيها إلى الإسلام أو الحرب أو الجزية على مقتضى السنة[2]، فرفض ألفونسو إلا القتال، وطلب من المعتمد بن عباد تحديد ميقاته مقترحاً عليه أن يكون ذلك يوم الاثنين محتجاً بأن الجمعة لكم، والسبت لليهود وهو وزراؤنا وكتابنا وأكثر خدم العسكر منهم فلا غنى بنا عنهم، والأحد لنا، فإذا كان يوم الاثنين كان ما نريده من الزحف"[3]. وكان ألفونسو إنما أراد بهذا الاقتراح غدر المسلمين، والإيقاع بهم، وقد فطن المعتمد بن عباد إلى هدفه، فظل مستعداً. وتحقق ما توقعه المعتمد، فقد بادر ألفونسو إلى الهجوم فجر يوم الجمعة ١٣ رمضان ٤٧٩هـ/١٠٨٦م[4]، فتصدى له المعتمد بن عباد في الوقت الذي أرسل فيه من ينبّه أمير المسلمين إلى غدر ألفونسو السادس[5].

لقد دهمت خيل ألفونسو المعتمد بن عباد "وأحاطوا به من كل جهة، فهاجت الحرب وحمي الوطيس، واستحر القتل في أصحاب ابن عباد، وصبر صبراً لم يعهد مثله...واشتد عليه وعلى أصحابه البلاء، وساءت الظنون، وانكشف البعض منهم – وفيهم ابنه عبد الله بن المعتمد – وأثخن هو جراحات في رأسه وبدنه، وعُقرت تحته في ذلك اليوم ثلاث أفراس كلما هلك واحد قُدم له آخر"[6]. وكادت تلحق به الهزيمة، غير أن

---

[1] ابن الأثير، الكامل في التاريخ: ١٤٢/٨.

[2] ابن عذاري، البيان المغرب: ١١٥/٤.

[3] المراكشي، المعجب: ٧٢؛ وانظر: ابن الأثير، الكامل في التاريخ: ١٤٢/٨.

[4] اختلفت المصادر في تحديد تاريخ معركة الزلاقة، والراجح ما ذكرناه في المتن. انظر: ابن عذاري، البيان المغرب: ١١٦/٤؛ ابن الأثير، الكامل في التاريخ: ١٤٢/٨؛ المراكشي، المعجب: ٧٢؛ الناصري، الاستقصا: ٤٤/٢-٤٦.

[5] المراكشي، المعجب: ٧٢؛ الناصري، الاستقصا: ٤٥/٢-٤٦.

[6] الناصري، الاستقصا: ٤٦/٢؛ وانظر: ابن عذاري، البيان المغرب: ١١٧/٤؛ ابن الأثير، الكامل في التاريخ: ١٤٢/٨.

أمير المسلمين كان في تلك الأثناء قد أمر بعض قواده فأغاروا على معسكر النصارى، وأضرموا فيه النار[1]، ثم استوى المرابطون على ظهور الخيل، وتوجهت فرقة منهم لنجدة المعتمد، وكانت بقيادة البطل الشهم داود بن عائشة، ثم تقدم أمير المسلمين يوسف بن تاشفين، واحتدمت المعركة مع النصارى الذين أصبحوا بين نارين: النار التي تلتهم معسكرهم بما فيه من مؤن وعتاد، ونار الحرب التي أججها المسلمون[2].

وهبت ريح النصر في وقت الزوال من يوم المعركة، إذ صدق المسلمون الحملة على النصارى، فولوا الأدبار "وأعطوا أعناقهم، والسيوف تصفعهم إلى أن لحقوا بربوة لجأوا إليها واعتصموا بها"[3]. وقد حاصرهم المسلمون في تلك الربوة حتى جُنّ الليل، حيث تمكن ألفونسو من الانسحاب بمن بقي من جنوده، وكان عددهم نحو ثلاثمائة فارس أو أقل[4].

وهكذا انجلت معركة الزلاقة عن نصر حاسم للمسلمين، وقد غنموا الكثير من الأثاث والآنية والمضارب والأسلحة، "وأمر ابن عباد بضم رؤوس القتلى من الروم، فنشر منها أمامه كالتل العظيم"[5].

وبعد أن تحقق للمسلمين هذا النصر الحاسم في معركة الزلاقة عادت جيوشهم إلى إشبيلية، حيث أقام أمير المسلمين يوسف بن تاشفين بظاهرها ثلاثة أيام، ثم قفل عائداً إلى الجزيرة الخضراء، ومنها عبر إلى مراكش[6].

---

(1) الناصري، الاستقصا: ٤٥/٢.

(2) ابن عذاري، البيان المغرب: ١١٧/٤؛ المراكشي، المعجب: ٧٢؛ ابن الأثير، الكامل في التاريخ: ١٤٢/٨؛ الناصري، الاستقصا: ٤٦/٢.

(3) ابن عذاري، البيان المغرب: ١١٧/٤.

(4) ابن الأثير، الكامل في التاريخ: ١٤٢/٨؛ ابن عذاري، البيان المغرب: ١١٧/٤؛ الناصري، الاستقصا: ٤٨/٢ ويذكرّ عن الروض المعطار أن الناجين من النصارى كانوا خمسمائة فارس ((ما منهم إلا مكلوم)).

(5) ابن عذاري، البيان المغرب: ١١٧/٤؛ ابن الأثير، الكامل في التاريخ: ١٤٢/٩.

(6) ابن الأثير، الكامل في التاريخ: ١٤٢/٨؛ ابن عذاري، البيان المغرب: ١١٨/٤؛ الناصري، الاستقصا: ٤٩/٢؛ المراكشي، المعجب: ٧٣.

ولم تنقطع صلة المرابطين بالأندلس بعد عودة أمير المسلمين إلى المغرب منتصراً في معركة الزلاقة، بل ظلت رباطاً لجهادهم، إذ تذكر بعض المصادر أن يوسف بن تاشفين ترك الأندلس جيشاً مرابطياً بقيادة سير بن أبي بكر، وأمره أن يشن الغارات على النصارى[١]، وقد استراح هذا القائد بعد الزلاقة أياماً قلائل، ثم توغل في بلاد ألفونسو السادس قشتالة "وشن الغارات فنهب وقتل وسبى وفتح الحصون المنيعة والمعاقل الصعبة...وحصل على أموال جليلة وذخائر عظيمة، ورتب رجالاً وفرساناً في جميع ما استولى عليه"[٢]. وبينما تفرغ سير بن أبي بكر لمشاغله النصارى وملازمة الحرب والقتال في أضيق عيش وأنكده انشغل ملوك الفتنة بلهوهم وملذاتهم في أرغد عيش وأطيبه، ولم يستغلوا ضعف الفونسو السادس بعد هزيمته[٣].

وكان ألفونسو السادس، ملك قشتالة، قد عاد مهزوماً من الزلاقة إلى طليطلة، وبعد أن لعق جراح الهزيمة شحن حصناً كان ابتناه قرب مرسين بالمقاتلين، وزوده بأمهر الفرسان والرجال والرماة الذين بلغوا ثلاثة عشر ألفاً، كما زوده بالمؤن والمعدات، وأمر هذه القوات بشن الغارة تلو الغارة على أراضي المسلمين[٤]. وكان هذا الحصن، وهو حصن لييط (Aledo) مصاقباً لأراضي المعتمد بن عباد، ويقع في وسط الأندلس على رأس جبل شاهق"[٥]. وقد أخذت سرايا النصارى تنطلق منه شرقاً وغرباً، فتقتل وتأسر "قد جعلوا ذلك وظيفة عليهم في كل يوم"[٦]. ونكّلت هذه السرايا بالمسلمين من أهل المدن القريبة من الحصن مثل: بلنسية، ومرسية، ولورقة، وبسطة، وضاق المعتمد بن عباد ذرعاً بهذه الغارات التي لم يتمكن من التصدي لها. ودفع هذا الواقع وجوه المدن المذكورة وأعيانها إلى استصراخ يوسف بن تاشفين، حيث وفدوا عليه في مراكش، وشكوا

(١) ابن عذاري، البيان المغرب: ١١٨/٤؛ الناصري، الاستقصا: ٥٠/٢.

(٢) الناصري، الاستقصا: ٥٠/٢-٥١.

(٣) المصدر نفسه: ٥١/٢.

(٤) ابن عذاري، البيان المغرب: ١٤١/٤؛ الناصري، الاستقصا: ٥١/٢؛ وانظر للمقارنة: المراكشي، المعجب: ٧٠-٧١؛ ابن الخطيب: أعمال الأعلام: ٢٥٠/٣.

(٥) ابن عذاري، البيان المغرب: ١٤١/٤.

(٦) الناصري، الاستقصا: ٥١/٢؛ وانظر: ابن عذاري، البيان المغرب: ١٤١/٤.

إليه حالهم[1]، كما وفد إليه المعتمد بن عباد نفسه، بعد أن اشتد بهم الضيق، فتلقاه يوسف "بوجه طلق، وصدر رحب، وإكرام جم"[2]، وبعد استفسار ابن تاشفين عن سبب جواز المعتمد إليه، ذكر له أن ضرر النصارى في حصن لييط اشتد، وأن هذا الحصن ألحق أذى عظيماً بالمسلمين لتوسطه في بلادهم، "فتلقى أمير المسلمين مقصده بالقبول، ووعده بالحركة والجواز"[3].

عاد المعتمد بن عباد إلى إشبيلية، وأخذ يستعد لمواجهة النصارى، حيث "أكثر من اعمال السهام والمطارد وعمل الرعادات وغير ذلك من الآلات"[4] مترقباً وصول أمير المسلمين يوسف بن تاشفين، وكان أمير المسلمين قد سار إلى الأندلس في أثر ابن عباد، واستقر بالجزيرة الخضراء في سنة ٤٨١هـ/١٠٨٨م، ومنها كتب إلى أمراء الأندلس وملوكها يدعوهم للجهاد، وحدد حصن لييط مكاناً للقاء. وكان المعتمد، عندما علم بوصوله إلى الجزيرة الخضراء قد خفّ لاستقباله ومعه ألف دابة تحمل الميرة والضيافة[5]. ثم انطلقت الجموع إلى الحصن: يوسف بن تاشفين والمعتمد بن عباد وعبد الله بن بلقين صاحب غرناطة، وتميم بن بلقين صاحب مالقة، والمعتصم بن صمادح صاحب ألمرية "وتوافى رؤساء الأندلس من شقورة وبسطة وجيان ومن كل مكان، وهاجم من مرسية النجارون والبناؤون والحدادون، واضطربت المحلة محدقة بحصن لييط...واتصلت السابلة، وكثر الوارد، واتصلت الحروب على الحصن ليلاً ونهاراً، وكل أمير من أمراء المسلمين يقاتل في يومه بخيله ورجله مداولة بينهم"[6].

استمر حصار المسلمين لحصن لييط شهراً دون أن يتمكنوا منه، أو إضعاف قوته بسبب ما كان عليه من حصانة ومنعة. ورأى يوسف بن تاشفين والمعتمد بن عباد وقد

---

(١) ابن عذاري، البيان المغرب: ٤/١٤١.

(٢) المصدر نفسه: ٤/١٤١.

(٣) المصدر نفسه: ٤/١٤١-١٤٢؛ الناصري، الاستقصا: ٢/٥١.

(٤) ابن عذاري، البيان المغرب: ٤/١٤٢.

(٥) المصدر نفسه: ٤/١٤٢؛ الناصري، الاستقصا: ٢/٥١-٥٢.

(٦) ابن عذاري، البيان المغرب: ٤/١٤٢؛ وانظر: ابن الأثير، الكامل في التاريخ: ٨/١٤٣؛ الناصري، الاستقصا: ٢/٥٢.

يئسا من اقتحامه أن هذا الحصن لن يسقط إلا بقطع القوت عن النصارى في داخله[1]. ويبدو أنهما قررا ذلك، وأن يواصلا الحصار مهما طال، ولكن وقع ما لم يكن في حسابهما، وذلك أن ابن رشيق صاحب مرسية الثائر بها على المعتمد بن عباد كان بين رؤساء الأندلس الذين وفدوا لمحاصرة حصن لييط، وقد شكاه المعتمد لأمير المسلمين، فعرض أمرهما على الفقهاء الذين أوجبوا الحكم على ابن رشيق، وعندئذ أمر بالقبض عليه، وسلّمه للمعتمد. وعندما علم أصحاب ابن رشيق وأهله بذلك هربوا إلى مرسية، وامتنعوا بها، ومنعوا وصول الإمدادات وخاصة الأقوات إلى جيوش المسلمين المحاصرة للحصن، فوقع الغلاء، وارتفعت الأسعار، وضاقت الأحوال بالناس[2]. وعندئذ استصرخ النصارى المحصورون في الحصن ألفونسو السادس، فجاء بجيوش جرارة، ورأى ابن تاشفين أن يخلي بينه وبين الحصن إذ رأى أن هم ألفونسو لن يكون الحرب والقتال، وإنما تخليص النصارى المحصورين مما هم فيه من ضيق[3]. ثم انسحب أمير المسلمين عائداً إلى المغرب بعد أن ترك بعض القوات في الأندلس بقيادة محمد بن تاشفين[4]، أما ألفونسو فقد وصل إلى الحصن، فلم يجد فيه من الفرسان والرماة وغيرهم الذين كان عددهم ثلاثة عشر ألفاً، لم يجد منهم سوى عدد قليل، فقد أتى عليهم القتل والجوع "حتى لم يبق فيه سوى نحو المائة"[5]، وكان هؤلاء جياعاً لا يقدرون على إمساك الحصن، ولذلك آثر ألفونسو السادس أن يحرق الحصن ويدمره تدميراً بعد أن أخرج من فيه[6].

وليس من شك في أن عودة أمير المسلمين، يوسف بن تاشفين إلى المغرب بعد حصاره الفاشل لحصن لييط كانت لها أسباب موجبة لم توضحها المصادر، وقد لمّح ابن

---

[1] ابن عذاري، البيان المغرب: ١٤٢/٤.

[2] المصدر نفسه: ١٤٢/٤.

[3] المصدر نفسه: ١٤٢/٤-١٤٣؛ ابن الأثير، الكامل في التاريخ: ١٤٣/٨؛ الناصري، الاستقصا: ٥٢/٢.

[4] ابن عذاري، البيان المغرب: ١٤٣/٤؛ ابن الأثير، الكامل في التاريخ: ١٤٣/٨؛ الناصري، الاستقصا: ٥٢/٢.

[5] الناصري، الاستقصا: ٥٢/٢.

[6] ابن عذاري، البيان المغرب: ١٤٣/٤؛ الناصري، الاستقصا: ٥٢/٢.

عذاري إلى بعضها، إذ ذكر أنه بينما كان محاصراً للحصن "نُقل إليه عن ملوك الأندلس كلام أحفظه، ووغّر صدره عليهم"[1]، ويبدو أن أوجعهم كلاماً كان عبد الله بن بلقين صاحب غرناطة، ولذلك عبر أمير المسلمين إلى الأندلس للمرة الثالثة سنة ٤٨٣هـ/١٠٩٠م مبادراً إلى ذلك دون طلب من أهل الأندلس كما فعل في المرتين السابقتين، وذلك بعد أن "توالت عليه الأخبار من الأمير عبد الله بن بلقين بما يغيظه ويحقده"[2]. وهكذا كان هدفه هذه المرة مختلفاً، وإن توجه أولاً إلى طليطلة لمحاربة ألفونسو السادس، فما كان ذلك إلا ذراً للرماد في عيون ملوك الفتنة، ذلك أنه لم يحارب ألفونسو في طليطلة محتجاً بمناعتها، إذ تركها متوجهاً صوب غرناطة، وحاصر عبد الله بلقين فيها نحو شهرين حتى اضطره إلى الاستسلام، فاستولى عليها، ثم استولى على مالقة من صاحبها تميم بن بلقين، وحمل الأخوين مخفورين إلى أغمات في المغرب، حيث أسكنهما إلى أن ماتا فيها[3].

وكان موقف يوسف بن تاشفين من ملوك الفتنة الآخرين في الأندلس مختلفاً أيضاً، فعندما جاءه المعتمد بن عباد والمتوكل بن الأفطس مهنئين بملك غرناطة أعرض عنهما، فأدركا أنه مستولٍ على ملكهما لا محالة، وأن نهاية ملوك الفتنة في الأندلس أصبحت وشيكة[4].

عاد أمير المسلمين يوسف بن تاشفين إلى المغرب، وما لبث إلا قليلاً حتى ولّى على الأندلس قائده سير بن أبي بكر اللمتوني، وفوض إليه جميع أمورها[5]، وفي سنة ٤٨٤هـ/١٠٩١م تحرك ابن تاشفين إلى سبتة، وأخذ من هناك يصدر أوامره إلى قواده بالاستيلاء على ممالك الأندلس، فقد أمر سير بن أبي بكر "بمحاصرة ابن عباد بإشبيلية، وأوعز إليه أنه إذا فرغ من شأنه فيتقدم لبلاد المتوكل بن الأفطس"[6]. وأرسل جيوشاً من المغرب وأوكل لكل منها مهمة محددة، منها جيش بقيادة أبي عبد الله بن الحاج لمنازلة

---

(1) ابن عذاري، البيان المغرب: ١٤٣/٤؛ وانظر للمقارنة: الناصري، الاستقصا: ٥٢/٢.

(2) ابن عذاري، البيان المغرب: ١٤٣/٤.

(3) المصدر نفسه: ١٤٣/٤؛ وانظر أيضاً: ابن الأثير، الكامل في التاريخ: ١٤٣/٨؛ الناصري، الاستقصا: ٥٢/٢-٥٣.

(4) ابن عذاري، البيان المغرب: ١٤٣/٤-١٤٤؛ الناصري، الاستقصا: ٥٣/٢.

(5) الناصري، الاستقصا: ٥٣/٢.

(6) ابن عذاري، البيان المغرب: ١٤٤/٤.

المأمون بن المعتمد بن عباد في قرطبة، وآخر بقيادة أبي زكريا بن واسينو لمحاصرة المعتصم محمد بن معن بن صمادح بألمرية، وثالث بقيادة جرور الحشمي لمنازلة يزيد الراضي بن المعتمد بن عباد برندة، "وانصرف كل فريق إلى حيث أمرهم، وأقام هو بسبتة مترقباً لأبنائهم ومتشوفاً لما يحدث عنهم، فكان منهم بالأندلس ما هو مشهور من الاستيلاء على بلادهم"[1].

وكان أول ما ملك المرابطون من الأندلس – بعد غرناطة ومالقة – قرطبة ثم إشبيلية، وذلك يوم الأحد ٢٢ رجب ٤٨٤هـ/١٠٩١م[2]، وقد حاول ألفونسو السادس، ملك قشتالة التصدي للمرابطين قبل وصولهم إلى إشبيلية، فأرسل حملة بقيادة البرهانس مؤلفة من عدة آلاف، غير أن المرابطين جابهوها بعشرة آلاف فارس من أهل الشجاعة والنجدة، وانتصروا عليها قرب حصن المدوّر بعد حروب شديدة[3].

واستولى المرابطون على مملكة بطليوس سنة ٤٨٥هـ/١٠٩٢م، وقتلوا المتوكل بن الأفطس وولديه: الفضل والعباس. وفي رثائهم قال أبو محمد عبد المجيد بن عبدون قصيدته الرائية الشهيرة[4]:

الدهر يفجع بعد العين بالأثر ... فما البكاء على الأشباح والصور

ثم ملك المرابطون ما بقي من بلاد الأندلس إلى أن خلصت لهم[5] باستثناء سرقسطة لأصحابها بني هود، إذ تأخر سقوطها في أيديهم إلى سنة ٥٠٣هـ/١١٠٩م كما تقدم، إذ إن المستعين بالله أبا جعفر أحمد بن المؤتمن بن هود كان يهادي أمير المسلمين يوسف بن تاشفين، ويقدم إليه الهدايا والأموال، ويعده بأن يكون بين المرابطين وبين العدو النصراني سدّ "لا يصل إليكم منه ضرر ومنّاعين تطرف"، فكفوا عنه إلى حين[6].

---

(١) ابن عذاري، البيان المغرب: ٤/١٤٤؛ الناصري، الاستقصا: ٢/٥٣-٥٤.

(٢) ابن الأثير، الكامل في التاريخ: ٨/١٥٤؛ الناصري، الاستقصا: ٢/٥٤؛ المراكشي، المعجب: ٧٦.

(٣) ابن الخطيب، أعمال الأعلام: ١٦٣؛ الناصري، الاستقصا: ٢/٥٤.

(٤) انظر القصيدة كاملة: المراكشي، المعجب: ٤٢-٤٦.

(٥) الناصري، الاستقصا: ٢/٥٥.

(٦) ابن عذاري، البيان المغرب: ٤/١٤٤-١٤٥؛ ابن الأثير، الكامل في التاريخ: ٨/١٥٧.

وأفصح يوسف بن تاشفين أن غرضه من ملك الأندلس هو إنقاذها من أيدي النصارى بعد أن غفل عنها أهلها بسبب تخاذل ملوك الفتنة، وانشغالهم عن الجهاد حتى اقتصرهم أحدهم على "كأس يشربها، وقينة تُسمعه، ولهو يقطع به أيامه"[1]. وقد انتهى أمر هؤلاء الملوك إما إلى القتل كما وقع لبني الأفطس، وإما إلى النفي إلى المغرب كما وقع لملوك الفتنة الآخرين[2]، وفي مقدمتهم المعتمد بن عباد وآله حيث تم أسرهم، ومن ثم قتلهم ما عدا المعتمد الذي نفي إلى طنجة ثم إلى أغمات حيث توفي فيها ذليلاً سنة ٤٨٨هـ/١٠٩٥م[3].وقد رثاه ابن اللبانة بقصائد كثيرة تفيض أسىً، وتقطر لوعة، من ذلك قوله[4]:

تبتلي السماء بدمع رائح غادي على البهاليل من أبناء عباد

على الجبال التي هُدّت قواعدها وكانت الأرض منهم ذات أوتاد

ومن قصائد ابن اللبانة في رثاء المعتمد أيضاً قوله:

لكل شيء من الأشياء ميقاتُ وللمنى من مناياهن غاياتُ

والدهر في صبغة الحرباء منغمسٌ ألوان حالاته فيها استحالاتُ

فانفض يديك من الدنيا وساكنها فالأرض قد أقفرت والناس قد ملتوا

وقد انتقد بعض المؤرخين أمير المسلمين يوسف بن تاشفين انتقاداً شديداً لما فعله بملوك الطوائف من قتل وأسر ونفي وإذلال، وخاصة ما فعله ببني عباد، إذ يقول ابن الأثير: "وفعل أمير المسلمين بهم أفعالاً لم يسلكها أحد ممن قبله، ولا يفعلها أحد ممن يأتي بعده إلا من رضي لنفسه بهذه الرذيلة، وذلك أنه سجنهم فلم يجر عليهم ما يقوم بهم حتى كانت بنات المعتمد يغزلن للناس بأجرة ينفقونها على أنفسهم،...فأبان أمير المسلمين بهذا الفعل عن صغر نفس، ولؤم قدر"[5].

---

[1] المراكشي، المعجب: ٨٩.

[2] انظر مزيداً من التفاصيل: ابن الأثير، الكامل في التاريخ

[3] المراكشي، المعجب: ٧٨ وما بعدها؛ وانظر: ابن الأثير، الكامل في التاريخ: ١٥٥/٨.

[4] المراكشي، المعجب: ٧٩.

[5] ابن الأثير، الكامل في التاريخ: ١٥٥/٨.

وعلى كل حال انتظمت الأندلس في ملك يوسف بن تاشفين من مدينة إفراغة في الشرق إلى لشبونة على المحيط الأطلسي "وذلك مسيرة ثلاثة وثلاثين يوماً طولاً، وفي العرض ما يقرب ذلك"[١]، وأصبح عليه ليس فقط أن يحمي هذا الملك الواسع من اعتداءات النصارى، وإنما أن يستعيد ما انتزعوه من أراضي المسلمين أيضاً، وفي مقدمة ذلك بلنسية التي سقطت في أيدي السيد القنبيطور سنة ٤٨٧هـ/١٠٩٤م، ونكل بأهلها المسلمين، وأحرق القاضي ابن جحاف الذي كان يحكمها[٢].

لقد كان لسقوط بلنسية وقع شديد على الأندلس لا يقل عن وقع سقوط طليطلة من قبل، وتوالى على أمير المسلمين يوسف بن تاشفين صريخ الأندلس، فعزم على استعادتها. وكانت الجيوش المرابطية يخوض بعضها معارك طاحنة ضد النصارى، وكانت إحداها قرب جيان وقعت سنة ٤٨٥هـ/١٠٩٢م بين المرابطين والنصارى بقيادة ملك قشتالة ألفونسو السادس، وقد انتصر فيها المسلمون، وأكثروا القتل في النصارى، ولم ينج سوى ألفونسو في نفر قليل[٣]. كما خاضت جيوش المرابطين بقيادة أبي عبد الله محمد بن عائشة بن يوسف بن تاشفين مع جيوش ألفونسو معارك قرب طليطلة، وقد كان النصر فيها حليف المسلمين[٤].

وبعد سقوط بلنسية بنحو ثلاثة أشهر وصلت إلى الأندلس قوات مرابطية جديدة بقيادة ابن عم الأمير يوسف بن تاشفين: أبي محمد مزدلي، وتوجهت إلى بلنسية حيث تجمعت جيوش مرابطية أخرى من أنحاء الأندلس، وتشكلت من هذه الجيوش حملة كبرى أوكلت قيادتها لمحمد بن تاشفين ابن أخي أمير المسلمين[٥]. وعندما وصلت الأنباء إلى النصارى في بلنسية شاع الذعر بينهم، ووجهوا تحذيراً لأهل بلنسية بأنهم أي النصارى

---

[١] الناصري، الاستقصا: ٢/٥٦-٦٠.

[٢] ابن عذاري، البيان المغرب: ٤/١٤٨؛ وانظر: ابن الأبار، الحلة السيراء: ٢/١٦٢؛ ابن الخطيب، أعمال الأعلام: ٢/٢٠٤.

[٣] ابن الأثير، الكامل في التاريخ: ٨/١٦٠.

[٤] ابن الأبار، الحلة السيراء: ٢/٢١٢.

[٥] ابن عذاري، البيان المغرب: ٤/٤١-٤٢.

سيقتلونهم إذا ما قدم المسلمون لاستعادة المدينة[١]. كما أمر السيد القنبيطور بأن يُجمع من المدينة كل ما لديهم من آلات حادة حتى الإبر والمسامير مهدداً بأن من وُجد عنده شيء من ذلك فإن دمه حلال. فجمعوا ما لديهم "ووضعوا ذلك بباب القصر، وقد تضاعف الجزع والخوف"[٢]. ثم أخرج السيد المسلمين من بلنسية "فميزهم، فمن كان من أهل اليسار صُرف إلى المدينة، ومن كان من أهل النجدة جُرد ونفي، وغلب على الظن أنهم قتلوا، فكان الحزن في دورهم"[٣].

شدد محمد بن تاشفين الحصار على بلنسية بعد أن تكاملت حشوده، بينما كان السيد قد استدعى ألفونسو إلى المدينة، فدخلها، وبقي فيها نحو شهر والنصارى يحثونه على التمسك بها "ويرغبونه فيها، ويهونون عليه أمر جيوش المسلمين"[٤]. وكان السيد في تلك الأثناء قد توفي، وذلك سنة ٤٩٣هـ/١٠٩٩م من جراح أصيب بها في إحدى معاركه مع المرابطين[٥]، واستمرت في حكم بلنسية بعده زوجه خيمانة (Jimena) التي حاولت الدفاع عن بلنسية مستعينة بألفونسو. ولكن ألفونسو عندما طال حصار المسلمين لبلنسية أدرك عبث مقاومتهم، فنصح خيمانة بمغادرتها، فغادرتها، وخرج في أثرها ألفونسو ولكن بعد أن أحرق المدينة، وجعلها أطلالاً دارسة[٦]. وبعد أن دخل المرابطون بلنسية في شهر رجب من سنة ٤٩٥هـ/١١٠٢م قاموا بتطهيرها من رجس النصارى الذين مكثوا فيها نحو ثمانية أعوام وشهراً ونصف الشهر[٧].

واستمر المرابطون في مقارعة النصارى بعد استعادة بلنسية، فقد هاجم الأمير مزدلي الذي أصبح الوالي المرابطي على بلنسية النصارى في برشلونة "وبلغ منها

---

(١) ابن عذاري، البيان المغرب: ٤/٤٠.

(٢) المصدر نفسه: ٤/٤٠.

(٣) المصدر نفسه: ٤/٤٠.

(٤) المصدر نفسه: ٤/٤٢.

(٥) ابن الكردبوس، تاريخ الأندلس: ١٠٩.

(٦) المصدر نفسه: ١٠٩-١١٠؛ وانظر: ابن عذاري، البيان المغرب: ٤/٤٢.

(٧) ابن عذاري، البيان المغرب: ٤/٤٢.

موضع لم يبلغ أحد إليه معها، فهدم بيعها وزلزل صوامعها، وأحـــرق بلادهـــا، ومـــزق أجنادها، وقتل وأسر...فرجع وأيدي المسلمين قد امتلأت من غنائم المشركين"[1].

وخرج القائد المرابطي علي بن الحاج على رأس جيش إلى قشتالة، وخرج قـــائد مرابطي آخر إلى قلعة أيوب، وألحقا هزائم كبيرة بالنصارى[2].

وفي سنة ٤٩٧هـ/١١٠٣م أحدث أمير المسلمين يوسـف بـن تاشـفين بعـض التغييرات في ولايات الأندلس، فقد ولّى على بلنسية القائد أبا محمد بن فاطمـــة، وعـــزل عنها الأمير مزدلي، وولى على غرناطة القائد علي بن الحاج[3]، ثم ما لبث أن أعد جيشـاً قوياً بعد أن أخذ البيعة لابنه علي بن يوسف في المغرب والأندلس، وعبر على رأس هـذا الجيش مستهدفاً جهاد النصارى، حيث اخترق أراضي قشتالة، وألحـق هزيمـة فادحـة بألفونسو السادس قرب طليطلة[4].

وبعد تدويخه النصارى عاد أمير المسلمين يوسف بن تاشفين إلى قرطبة ليسـتكمل أخذ البيعة لابنه علي، فتم له ذلك، ووصل إليه وهو في قرطبة عبد الملك عماد الدولة بن هود موفداً من والده المقتدر أحمد بن هود الذي كان حينئذ في روطة (Rueda). وأحضـر معه عماد الدولة هدية فخمة "منها أربعة عشر ربعاً من آنية الفضة مطرزة باسم المقتدر بن هود، فأمر يوسف بن تاشفين بضربها قراريط، وفرقتها ليلة عيد النحر فـــي طبقـــات المرابطين"[5].

ويشير ابن الكردبوس إلى أن المقتدر بن هود، صاحب سرقسطة، طلب من أمـــير المسلمين أن يوجه إليه جيشاً يحتمي به من ألفونسو السادس الذي كان حينئـــذ محـــاصراً لسرقسطة، فأرسل إليه ألف فارس بقيادة أبي عامر عبد الله بن فاطمة "فخرج القـــائد اب

---

(1) ابن الكردبوس، تاريخ الأندلس: ١١٠.

(2) المصدر نفسه: ١١١.

(3) المصدر نفسه: ١١٢؛ ابن عذاري، البيان المغرب: ٤/٤٢-٤٣.

(4) ابن عذاري، البيان المغرب: ٤/٤٤.

(5) المصدر نفسه: ٤/٤٣.

فاطمة بجملته، وأغار على بلاد الروم فغنم، وانصرف وهو سالم"[1]. والجدير بالذكر هنا أن القائد المرابطي محمد بن عائشة قام هو الآخر بحرب النصارى، حيث ألحق بهم هزيمة في فحص اللج[2].

عاد أمير المسلمين يوسف بن تاشفين إلى مراكش بعد أن أكمل أمر البيعة لابنه علي، وبعد أن ضبط أحوال الأندلس، وأصدر أوامره إلى عمّاله وقادته هناك بمواصلة الجهاد ضد النصارى[3]. ويبدو أن الذي عجّل بعودته إلى مراكش في السنة نفسها، أي سنة ٤٩٧هـ/١١٠٣م مرض ألم به، وأخفاه عن الأندلسيين وغيرهم من أهل دولته. غير أن هذا المرض شاع خبره بالأندلس سنة ٤٩٨هـ/١١٠٤م "وخاض فيه أهل الدولة الذين يستنبطون الغوائل، ويشعلون نيران الشقاق والنفاق"[4].

توفي أمير المسلمين يوسف بن تاشفين سنة ٥٠٠هـ/١١٠٦م[5]، وولي بعده ابنه علي "فاضطلع أبرع اضطلاع...وألبسه الله المهابة، وقذف له في القلوب المحبة، فاجتمعت عليه الأمة"[6].

وكان ألفونسو السادس عندما عرض يوسف بن تاشفين، ونُمي إليه خبره قد ظن أن "بلاد المسلمين من الرجال قد خلت، ومن الحماة وذوي النجدة قد تفرغت، وظن أنه من هذا الحادث قد اضطربت الأمور، وانحل نظام التدبير"[7]، فحرك قوة في أكثر من ثلاثة آلاف وخمسمائة مقاتل عاثت في أراضي إشبيلية، فتوجه لصدهم قادة المرابطين من إشبيلية وغرناطة، وألحقوا بهم الهزيمة "وكاد السيف يستأصلهم ويفنيهم"، إذ قتل منهم

---

(1) ابن الكردبوس، تاريخ الأندلس: ١١٣.

(2) المصدر نفسه: ١١٣.

(3) ابن عذاري، البيان المغرب: ٤/٤٤.

(4) المصدر نفسه: ٤/٤٤.

(5) المصدر نفسه:٤/٤٥؛ابن الأثير،الكامل في التاريخ:٨/٢٣٦؛ابن الكردبوس، تاريخ الأندلس: ١١٣.

(6) ابن عذاري، البيان المغرب: ٤/٤٨؛ وانظر: ابن الكردبوس، تاريخ الأندلس: ١١٣؛ ابن الأثير، الكامل في التاريخ: ٨/٢٣٦.

(7) ابن عذاري، البيان المغرب: ٤/٤٤.

ألف وخمسمائة[1]، غير أن ألفونسو بعد وفاة يوسف بن تاشفين ازداد طمعه بالأندلس، إذ حشد جيشاً كبيراً قصد به شرقي الأندلس، فأمر علي بن يوسف أخاه تميماً بمواجهته، والتقى الطرفان في معركة كبيرة قرب مدينة أُقليش (Ucles) الواقعة إلى الشرق من مدينة طليطلة وذلك في ١٦ شوال ٥٠١هـ/٢٩ أيار ١١٠٨م، وعلى الرغم من تفوق عدد النصارى كثيراً إلا أن هزيمة ساحقة لحقت بهم، وقتل في المعركة سانشو بن ألفونسو السادس، وتوفي ألفونسو هماً وحسرة عليه بعد ذلك بسنة، أي في سنة ٥٠٢هـ/١١٠٩م[2].

وتعتبر سنة ٥٠٣هـ/١١١٠م حافلة في حياة أمير المسلمين المرابطي علي بن يوسف بن تاشفين، فقد تجهز للجهاد في الأندلس، وعبر البحر من سبتة في منتصف المحرم من السنة في جيوش عظيمة تزيد على مائة ألف فارس[3]، قادها بعد استراحة في قرطبة لمدة شهر[4] باتجاه طليطلة، وفتح في طريقه حصوناً كثيرة من أعمال طليطلة بلغت سبعة وعشرين حصناً، وفتح مجريط (مدريد)، ووادي الحجارة وطلبيرة، ثم انتهى إلى طليطلة "فحاصرها شهراً، وانتسف ما حولها، وبالغ في النكاية، ثم قفل إلى قرطبة بعد أن دوّخ البلاد"[5].

ويذكر ابن عذاري في وصفه لهذه الحملة القوية التي لم يعهد مثلها في ذلك الوقت قوة وظهوراً أن علي بن يوسف عندما نزل محاصراً لمدينة طلبيرة اعتصم النصارى في قصبتها، "فأجاره الليل، فرموا بأنفسهم في النهر، وتسربوا بين المحلات، فأفلتوا"[6].

---

[1] ابن عذاري، البيان المغرب: ٤/٤٤-٤٥.

[2] ابن الكردبوس،تاريخ الأندلس:١١٤؛ابن عذاري،البيان المغرب:٤/٤٩الناصري، الاستقصا: ٢/٦٥.

[3] الناصري، الاستقصا: ٢/٦٥؛ وانظر: ابن عذاري، البيان المغرب: ٤/٥٢؛ ابن الكردبوس، تاريخ الأندلس: ١١٦.

[4] الناصري، الاستقصا: ٢/٦٥.

[5] الناصري، الاستقصا: ٢/٦٥؛ ابن الكردبوس، تاريخ الأندلس: ١١٦-١١٧؛ ابن عذاري، البيان المغرب: ٤/٥٢.

[6] ابن عذاري، البيان المغرب: ٤/٥٢.

وبعد عودة أمير المسلمين يوسف إلى المغرب واصل قادته الجهاد في الأندلس، وكان الأمير سير بن أبي ركب في مقدمتهم، إذ ظل يدوخ بلاد النصارى حتى توفي بإشبيلية سنة ٥٠٧هـ/١١١٣م[١]. ولعل أهم ما أنجزه علي بن يوسف عندما جاز إلى الأندلس سنة ٥٠٣هـ/١١١٠م هو استيلاؤه على سرقسطة من بني هود، ذلك أن عماد الدولة ابن المستعين (الأصغر) ابن هود عزم على مداخلة النصارى والانضواء تحت لوائهم كما أشرنا إلى ذلك من قبل، فاستدعى أهل المدينة القائد المرابطي محمد بن الحاج من بلنسية، فوافاها يوم السبت العاشر من ذي القعدة سنة ٥٠٣هـ/١١١٠م "ودخل المرابطون سرقسطة، وتقدم أهلها لمحمد بن الحاج، فدخل الجعفرية، وصار القصر المذكور في ملكه" [٢]. وقد جرت معارك طاحنة بين محمد بن الحاج وبين النصارى الذين التجأ إليهم المستعين، وكانت الحرب سجالاً بين الطرفين[٣].

وعلى الرغم من تكالب النصارى على سرقسطة إلا أنها ظلت في أيدي المسلمين حتى سنة ٥١٢هـ/١١١٨م، وقد سبقت ذلك أحداث كان أبرزها عبور أمير المسلمين علي بن يوسف إلى الأندلس مجاهداً في سنة ٥١١هـ/١١١٧م، حيث تمكن من تحقيق انتصارات وفتح مناطق جديدة، منها قلمرية (Coimbra) في البرتغال[٤]، غير أن النصارى أخذوا يعدّون العدة لحملة صليبية كبرى ضد المسلمين، حيث حشدوا نحو خمسين ألفاً من الدول النصرانية في شمالي إسبانيا، ومن فرنسا وغيرها، وتقدموا إلى سرقسطة بقيادة ملك أراغون ألفونسو المحارب، وحاصروا سرقسطة حصاراً شديداً حتى أنهكوا قواها، وأذاقوا أهلها الويلات مما اضطرها إلى الاستسلام. وقد دخل النصارى سرقسطة في رمضان سنة ٥١٢هـ/كانون الأول ١١١٨م[٥].

---

[١] الناصري، الاستقصا: ٦٦/٢؛ ابن عذاري، البيان المغرب: ٥٦/٤.

[٢] ابن عذاري، البيان المغرب: ٥٣/٤-٥٤.

[٣] المصدر نفسه: ٥٥/٤.

[٤] المصدر نفسه: ٦٤/٤.

[٥] انظر حول سقوط سرقسطة: ابن الكردبوس: تاريخ الأندلس: ١١٧-١٢٠؛ ابن الأبار، الحلة السيراء: ٢٤٨/٢؛ الحميري، الروض المعطار: ٩٧-٩٨؛ الناصري، الاستقصا: ٦٦/٢-٦٧.

وكان سقوط سرقسطة في أيدي النصارى بداية نهاية المرابطين ليس في الأندلس بل في المغرب أيضاً، فقد تعرضت جيوشهم لهزائم متلاحقة كان أشدها ما وقع في قتندة سنة ٥١٤هـ/١١٢٠م، حيث استشهد في هذه المعركة التي جرت قرب سرقسطة عدة آلاف من المسلمين[١]. ويبدو أن عمال المرابطين على الأندلس فسدوا، وأخذوا ينشغلون بما انشغل به ملوك الفتنة قبلهم من لهو وملذات، فقد ساءت الأوضاع، "واستولى النساء على الأحوال، وأُسندت إليهن الأمور. وصارت كل امرأة...مشتملة على كل مفسد وشرير، وقاطع سبيل، وصاحب خمر وماخور، وأمير المسلمين في ذلك كله يتزيد تغافله، ويقوى ضعفه"[٢].

وقد أدى فساد المرابطين بالمغرب والأندلس "وانحيازهم عن الدين" إلى ظهور دولة الموحدين التي بدأت الدعوة إلى قيامها سنة ٥١٥هـ/١١٢١م على يد محمد بن عبد الله بن تومرت الذي كان في بداية عهده مجرد آمر بالمعروف ناه عن المنكر، ثم ما لبث أن أنشأ دولة قوية خلفت دولة المرابطين في المغرب والأندلس[٣]. لقد تغذى نشاط محمد بن تومرت على ضعف المرابطين، وقد أشار الناصري إلى ذلك واصفاً عهد علي بن يوسف بن تاشفين في آخر عهده بقوله: "طاف به في آخر دولته أعظم مكروه"[٤].

توفي علي بن يوسف بن تاشفين سنة ٥٣٧هـ/١١٤٢م، وولي بعده ابنه تاشفين بن علي[٥]. وفي عهد علي أخذت دولة المرابطين تنهار بسرعة هائلة بعد أن أصبحت بين فكي كماشة ضاغطة: النصارى من الشمال، والموحدون من الداخل. وعلى كل حال لم تطل مدته التي انشغلت جيوشه خلالها بالتصدي للموحدين، فقد توفي في ٢٧ رمضان سنة

---

[١] المقري، نفح الطيب: ٤/٤٦٠-٤٦١.

[٢] المراكشي، المعجب: ٩٩؛ وانظر: ابن الكردبوس، تاريخ الأندلس: ١٢٤.

[٣] ابن عذاري، البيان المغرب: ٤/٦٨ وما بعدها؛ المراكشي، المعجب: ٩٩؛ ابن الكردبوس، تاريخ الأندلس: ١٢٤-١٢٥.

[٤] الناصري، الاستقصا: ٢/٦٩.

[٥] ابن عذاري، البيان المغرب: ٤/١٠٠-١٠١؛ الناصري، الاستقصا: ٢/٦٩ وما بعدها.

٥٣٩هـ/١١٤٥م، أي بعد نحو سنتين من ولايته[1]، وقد أشارت بعض المصادر في سبب وفاته أنه خرج ذات ليلة لمقاتلة الموحدين قرب وهـران "فأتبعه عسكر الموحدين، وحصروه وضيقوا عليه، وأطلقوا النيران في محلته، فلما رأى ما لا طاقة له به، وعلم أنه مأخوذ، خرج هو وبعض أصحابه على فرسه، ففر كل واحد منهم على طريقه، فمنهم من قتل ومنهم من حصل في الفظائع، وحاف تاشفين من حافة عظيمة وهلك"[2].

وولي بعد تاشفين ابنه أبو إسحاق إبراهيم، إلا أنه قُتل بعد عامين، أي في شوال سنة ٥٤١هـ/١١٤٧م، وبوفاته انتهى حكم المرابطين وورثهم الموحدون في المغرب والأندلس[3].

---

[1] ابن عذاري، البيان المغرب: ١٠٤/٤؛ ابن الخطيب، أعمال الأعلام: ٢٦٤/٣؛ ابن الأبار، الحلة السيراء: ١٩٨/٢.

[2] ابن عذاري، البيان المغرب: ١٠٤/٤؛ وانظر: الناصري، الاستقصا: ٧١/٢.

[3] ابن عذاري، البيان المغرب: ١٠٥/٤؛ ابن الخطيب، أعمال الأعلام: ٢٦٥/٣.

الموحدون في الأندلس

اختلت أحوال الأندلس في أواخر عهد المرابطين، بسبب تواكل المرابطين، وميلهم إلى الدعة، وإيثارهم الراحة، فقلت هيبتهم في نظر أهل الأندلس، واستولى الإسبان على كثير من الثغور الإسلامية. فلما رأى أهل الأندلس ذلك أخرجوا من كان عندهم من الولاة المرابطين واستبد كل منهم في بلده، بينما استولى الفونس الثاني ملك ارغون (١١٦٢ــ١١٩٦م) على إفراغه وسرقسطة وروسيليون Rosellón وغيرها. وإزاء هذه الأخطار اتفق أهل بلنسية وجميع شرق الأندلس على تنصيب زعيم عليهم هو عبد الرحمن بن عياض لما عرف عن صلاحه وتقواه، وكانت له هيبة حتى في قلوب الإسبان، وخلفه خادمه محمد بن سعد مردنيش حتى وفاته سنة ٥٦٨هـ/ ١١٧٣م. كما ظهر زعماء محليون في ألمرية وجيان، بينما بقيت غرناطة وإشبيلية على طاعة المرابطين[١].

ولمّا ظهر أمر الموحدين في المغرب في زمن عبد المؤمن خليفة ابن تومرت سنة ٥٢٦هـ/١١٣١م، تشوف إليهم أهل الأندلس، ورحبوا بدخولهم إليها، فخرج عبد المؤمن بن علي القيسي الكومي، الذي يقال أنه ينتسب لقيس عيلان، إلى الأندلس سنة ٥٣٨هـ/١١٤٣م عبر جبل طارق، وسماه جبل الفتح، ووفد عليه أهل الأندلس من مالقه وغرناطة ورنده وقرطبة وإشبيلية وغيرهم. وقام عبد المؤمن بترتيب أمر الأندلس وعين ولاة على إشبيلية وقرطبة وغرناطة، وعاد إلى المغرب بعد أن ملأ ما ملكه من أقطار الأندلس خيلاً ورجلاً[٢]، كما أدخل عدداً كبيراً من بني هلال إلى الأندلس.

وتوفي عبد المؤمن بن علي سنة ٥٥٨هـ/١١٦٢م وخلفه ابنه محمد الذي خلع بعد خمسة وأربعين يوماً نظراً لعدم صلاحيته، فخلفه أخوه أبو يعقوب يوسف بن عبد المؤمن الذي عبر إلى الأندلس سنة ٥٦٧هـ/ ١١٧١م، واخضع ابن مردنيش أثناء حصار مرسية. فخضعت مرسية وبلنسية ليوسف بن عبد المؤمن. وكانت ليوسف بن عبد المؤمن مواقف في الجهاد ضد الإسبان، إذ خرج من إشبيلية قاصداً بلاد الاذفنش (الفونس الثاني)، وحاصر مدينة وبذه Huete ثم ارتد عنها إلى إشبيلية، ثم عاد إلى مراكش سنة

---

(١) المراكشي، المعجب، ص ٨٢-٨٦.

(٢) المصدر نفسه، ص ١٠٣.

٥٦٩هـ/١١٧٣م بعد أن ملك الأندلس، ثم عاد إليها سنة ٥٧٩هـ، وقصد إشبيلية التي اتخذها الموحدون قاعدة لهم، وحاصر شنتيرين Santarem على نهر تاجه فتحصن حاكمها البرتغالي المعروف باسم ابن الرنق أو انريكي، لكن أبا يعقوب عزم على الرحيل عنها بسبب حلول البرد، فعندما سمع ذلك جنوده أخذوا يعبرون النهر ليلاً خشية الزحام، فلما رأى الإسبان المحاصرين ذلك انتهزوا الفرصة وحملوا على المسلمين حتى وصلوا خيمة أبي يعقوب، فأصيب بطعنة مات بعدها بأيام قليلة سنة ٥٨٠هـ/١١٨٤م، ثم ارتد المسلمون على الإسبان وأرغموهم على الرجوع إلى مدينتهم[١]. وحمل أبو يعقوب إلى المغرب حيث دفن في تينمل Tinmallal مع أبيه عبد المؤمن وابن تومرت، وخلفه ابنه أبو يوسف يعقوب بن عبد المؤمن بن علي الملقب بالمنصور ١١٨٤-١١٩٩م، الذي دام حكمه خمس عشرة سنة حتى وفاته سنة ٥٩٥هـ/١١٩٩م[٢]. وقد بويع بمدينة سلا وهو الذي أتم بناء مدينة الرباط التي بدأ والده ببنائها، وجعلها على هيئة الإسكندرية في الاتساع وحسن التقسيم وإتقان البناء وتحصينه وتحسينه، وهي على نهر سلا مقابلة لها من البر القبلي على البحر المحيط . وعبر إلى الأندلس واسترجع مدينة شلب التي كان قد استولى عليها ملك البرتغال سانشو الأول Sancho I، كما فتح حصن طرش Torres novas سنة ٥٨٥هـ/١١٨٩م[٣] وعاد إلى مراكش.

وقعة الأرك Alarcos ٥٩١هـ/١١٩٥م:

وفي سنة ٥٩٠هـ/١١٩٤م نقض الاذفنش (الفونس التاسع) ملك ليون (١١٧١-١٢٣٠م) العهد وهاجم بلاد المسلمين، فعبر أمير المؤمنين أبو يوسف يعقوب إلى الأندلس ووصل قاعدته في إشبيلية سنة ٥٩١هـ/١١٩٥م، بينما تقدم الفونس التاسع في جمع كبير يفوق عدد جيش المسلمين. فلما كان يوم الأربعاء التاسع من شعبان سنة ٥٩١هـ/١١٩٥م فالتقى الجمعان في موقعة الأرك[٤] التي كانت بجسر الأرك أو Alarcos بنواحي بطليوس وبمقربة من قلعة رباح، حيث قتل من الإسبان ١٤٦ ألفاً وأسر

---

[١] المراكشي، المعجب، ص ١٤٧-١٥٠؛ الناصري، الشيخ أبو العباس أحمد بن خالد، الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى، ج٢، الدار البيضاء، ١٩٥٤م، ص ١٥٠-١٥٦.

[٢] المصدر نفسه، ص ١٥٣.

[٣] المصدر نفسه، ص ١٧٧، ١٧٨، والهامش؛ الاستقصا، ج٢، ص ٢٠٣.

[٤] المراكشي، المعجب، ص ١٨٠-١٨١؛ الناصري، الاستقصا، ج٢، ص ١٨٥-١٩٤.

ثلاثون ألفاً، ونجا الفونس الثامن بأعجوبة وعاد إلى طليطلة في أسوأ حال، فحلق رأسه ولحيته، وحاول مرة ثانية التصدي للسلطان أبو يوسف يعقوب لكن الأخير هزمه وتبعه إلى طليطلة ولم يبق عليه سوى فتحها فخرجت والدة الاذفنش (الفونس الثامن) وبناته، وبكين بين يديه وسألنه إبقاء البلد عليهن فرقّ لهن وعفا عن المدينة[١]، ودخل السلطان قلعة رباح واستولى على الحصون المحيطة بطليطلة ورجع إلى إشبيلية منتصراً[٢].

كما قام السلطان أبو يوسف يعقوب بعدة غزوات على طليطلة وتوغل في بلاد الروم، فأرسل إليه الفونس يطلب الهدنة فهادنه إلى عشر سنين، وعاد إلى مراكش بعد أن رتب أمور الأندلس سنة ٥٩٤هـ/ ١١٩٨م[٣]، وتوفي سنة ٥٩٥هـ/١١٩٩م وفي عهده بنيت المنارة الشهيرة في جامع إشبيلية.

ويذكر المقري أنه لم يسمع بعد موقعة الزلاقة مثل وقعة الأرك، إذ هرب الإفرنج وتحصنوا في قلعة رباح فحاصرها السلطان يعقوب المنصور حتى فتحها، بل أنه حاصر طليطلة واستولى على كثير من حصونها وهدم أسوارها وترك الفرنج في أسوأ حال. وأقام بإشبيلية ثم عاد سنة ٥٩٣هـ إلى محاربة الإسبان حتى اضطرهم إلى طلب الصلح كما تقدم[٤].

وفي عهد خلفه محمد بن يعقوب الذي لقب بالناصر لدين الله، قام الفونس التاسع بالإغارة على أراضي المسلمين واحتل مدينة مارده Mérida، فقام الناصر بتجهيز حملة كبيرة وعبر إلى الأندلس سنة ٦٠٧هـ/١٢١٠م وأقام بإشبيلية ثم غزا بلاد قشتالة وحاصر قلعة شلبطرة (شلبتره) ويذكر المراكشي أنه فتحها[٥]، بينما يذكر الناصري أنه حاصرها ثمانية أشهر ولكنها امتنعت عليه وعندما دخل فصل الشتاء أصاب المسلمين الضرر[٦].

---

(١) المقري، نفح، ج١، ص ٤٤٣؛ والناصري، الاستقصا، ص ١٨٥-١٩٣؛ الحلل الموشية، ص ١٥٩.

(٢) المراكشي، المعجب، ص ١٨١.

(٣) المصدر نفسه، ص ١٨٢.

(٤) المقري، نفح الطيب، ج٤، ص ٣٨٢.

(٥) المراكشي، المعجب، ص ٢٢٩.

(٦) الاستقصا، ج٢، ص ٢٢٢.

موقعة العقاب ٦١٢هـ/١٢١٥م.

كان محمد بن يعقوب الناصر لدين الله قد جمع جيشا جرارا من المغرب والأندلس بلغ عدده ٦٠٠ ألف مقاتل، فخشيه الفونس التاسع الذي حشد جيشا من جميع الممالك الإسبانية وغيرها من الدول الأوروبية حتى بلغ نفيره القسطنطينية فاجتمع له جيش كبير، وخالف الناصر فحاصر قلعة رباح واستولى عليها[1] في أول سنة ٦٠٩هـ/١٢١٢م. وعندما علم الناصر بذلك شق عليه وامتنع عن الطعام والشراب حتى مرض ثم شدد على شلبطرة حتى فتحها صلحا، ثم زحف للقاء الفونس التاسع بموضع يعرف بالعقاب Las Navas de Tolosa بالقرب من حصن سالم، وهزم المسلمون في هذه المعركة بسبب قتل الناصر بعض قادة الأندلس بوشاية من وزيره ابن جامع، فوقع الخلاف بين المسلمين مما أدى إلى هزيمتهم[2]. وكانت هذه الهزيمة شديدة على المسلمين إذ ذهبت قوتهم في المغرب والأندلس، كما قضت على هيبة الموحدين وتضعضع سلطانهم فيها بسبب خسائرهم الفادحة من الرجال. وقد علق المقري على هذه المعركة بقوله "أنه لم ينج من الستمائة ألف مقاتل سوى عدد يسير جدا لم يبلغ الألف فيما قيل"، وأن هذه الوقعة كانت الطامة على الأندلس، بل والمغرب جميعا فقد خلا بسببها أكثر المغرب، وما ذاك إلا لسوء التدبير، إذ استخف الناصر برجال الأندلس العارفين بقتال الإفرنج، ففسدت النيات فكانت وقعة العقاب المشؤومة[3].

وكان من نتائج هذه المعركة سقوط العديد من المدن الأندلسية في يد الإسبان، إذ أخذوا جزيرة شقر صلحا سنة ٦٣٩هـ/١٢٤١م، وشرق الأندلس شاطبة سنة ٦٤٥هـ/١٢٤٧م وكانت قرطبة قد سقطت في أيديهم سنة ٦٣٦هـ/١٢٣٩م، كما تملك العدو مرسيه من أحمد بن محمد بن هود وحاصر إشبيلية سنة ٦٤٥هـ/١٢٤٧م واستولى عليها في السنة التالية سنة ٦٤٦هـ/١٢٤٨م بعد أن حاصرها الطاغية صاحب قشتالة وليون فردناند الثالث Fernando III (١١٩٩-١٢٥٢م) سنة كاملة وخمسة أشهر أو نحوها[4]. ثم انهارت دولة الموحدين نفسها سنة ٦٥٩هـ/١٢٦١م.

---

(1) المراكشي، المعجب، ص ٢٣١؛ والاستقصا، ج١، ص ٢٢٢.

(2) الاستقصا، ج٢، ص ٢٢٣.

(3) المقري، نفح الطيب، ج٤، ص ٣٨٣.

(4) المصدر نفسه، ج٤، ص ٤٧٢؛ الاستقصا، ج٣، ص ٣٧، ٣٨.

الفصل السادس

دولة بني الأحمر

(مملكة غرناطة)

دولة بني الأحمر

مملكة غرناطة

كان الموحدون قد استعملوا أقاربهم على الأندلس، وكانوا يسمونهم السادة، واقتسموا ولاياتها فيما بينهم، وكانت لهم مواقف مذكورة في جهاد العدو. وعندما هزم الموحدون في العقاب استقل هؤلاء السادة في نواحي الأندلس فأجمع رجالات الأندلس وأعقاب العرب على إخراج الموحدين، فثاروا عليهم بزعامة محمد بن يوسف بن هود الجذامي، وتم لهم ذلك، ودعا ابن هود للخليفة العباسي (المستنصر)، واستقل بمرسية وتغلب على شرق الأندلس كما أطاعته جيان وشريش[1].

وظهر في الوقت نفسه زعيم عربي آخر منافس لابن هود وهو سميُّه محمد بن يوسف بن الأحمر، وقامت بينهما منازعات اضطر في بدايتها ابن الأحمر الى الدخول في طاعة ابن هود[2]؛ وتملك غرناطة المتوكل على الله أمير المؤمنين أبو عبد الله محمد بن يوسف بن هود سنة ٦٢٦هـ/١٢٢٩م، ثم تملكها محمد بن يوسف بن نصر الخزرجي[3]، وحصل لابن هود وأعقابه حروب طويلة إلى أن كان آخرهم الواثق بن المتوكل الذي ضايقه فرديناند الثالث مما اضطره إلى الاعتراف بالطاعة لابن الأحمر الذي بعث إليه قائداً اسمه ابن اشقيلوله، وتسلم منه مرسية وخطب فيها لابن الأحمر، لكن النصارى أوقعوا بابن اشقيلولة أثناء عودته فرجع الواثق إلى مرسية وظل فيها حتى احتلها الإسبان سنة ٦٦٨هـ/١٢٢٩م فعوّضه ابن الأحمر عنها بحصن يسمى يسر، وهو من عملها، فبقي فيه حتى هلك وانقرضت دولة بني هود[4].

---

[1] المقري، نفح، ج١، ص ٤٤٧؛ ابن الخطيب، اللمحة البدرية، ص ٣٢؛ فكاك الأسير، ص ١٧٣.

[2] المقري، نفح، ج١، ص ٤٤٨؛ الناصري، الاستقصا، ج٣، ص ٣٧، ٣٨.

[3] ابن الخطيب، الإحاطة، ج١، ص ١٤١، ١٤٢.

[4] المقري، نفح، ج١، ص ٤٤٧.

وقد كان للنزاع بين ابن هود وابن الأحمر أثر سيء على المسلمين في الأندلس، إذ ترتب عليه ضياع عدد من حصون المسلمين وبلادهم العديدة مثل قرطبة وإشبيلية قاعدتي الأندلس، كما كان كل واحد من هذين الزعيمين يتقرب إلى الطاغية فرديناند الثالث ليعينه على صاحبه؛ إلى أن انقرض أمر ابن هود، واستمرت دولة بني الأحمر، التي لجأت إلى سيف البحر، معتصمة بأوعاره، ومتشبثة بمعاقله وحصونه، واختار ابن الاحمر غرناطة حاضرة لمملكته[1]، وانحاز المسلمون إلى غرناطة وتجمعوا تحت لواء محمد بن يوسف بن نصر ابن الأحمر الذي اعتصم بجبالها منذ سنة ٦٣٠هـ/١٢٣٣م، ويقول المقري في ذلك: "ولما أُخذت قواعد الأندلس مثل قرطبة وإشبيلية وطليطلة ومرسية وغيرها، انحاز أهل الإسلام إلى غرناطة والمرية ومالقة ونحوها. وضاق الملك بعد اتساعه؛ وصار تتين العدو يلتقم كل وقت بلداً أو حصناً، ويهصر من دوح تلك البلاد غصناً، وملك هذا النزر اليسير الباقي من الجزيرة ملوك بني الأحمر، فلم يزالوا مع العدو في تعب وممارسة (كما ذكره ابن عاصم) وربما اثخنوا في الكفار كما علم من اخبارهم وانتصروا بملوك فاس بني مرين في بعض الأحايين[2].

وتمكنت هذه المملكة العربية من الصمود في وجه الإسبان لمدة قرنين ونصف من الزمان. واصبحت بعد أن سقطت معظم أنحاء الأندلس تُشكّل ما عرف بالأندلس الصغرى التي توارثها اعقاب محمد بن يوسف بن نصر، وقد نمت وازدهرت في عهدهم لكثرة من لجأ إليها من المسلمين الذين سقطت بلادهم في يد النصارى[3].

---

[1] الناصري، الاستقصا، ج٣، ص ٣٧، ٣٨.

[2] المقري، نفح، ج٤، ص ٥١٠.

[3] ارسلان، خلاصة تاريخ الأندلس، ص ٧٢.

محمد الأول (الغالب بالله) بن يوسف بن نصر أول ملوك غرناطة: ٦٢٩-٦٧٢هـ/١٢٣١-١٢٧٣م.

يذكر لسان الدين بن الخطيب (مؤرخ غرناطة) أن مؤسس مملكة غرناطة هو الغالب بالله أبو عبد الله محمد بن يوسف بن محمد بن أحمد بن محمد بن خميس بن نصر بن قيس الخزرجي الانصاري من ولد أمير الانصار سعد بن عبادة[١].

وكان قومه بنو نصر يسكنون حصن أرجونة من حصون قرطبة، وكان كبيرهم في أواخر أيام دولة الموحدين هو محمد بن يوسف المذكور، وكان يعرف بالشيخ[٢].

نشأ محمد بن نصر بأرخونة (أرجونة) من كنبانية أحد حصون قرطبة، أطيب البلاد وأوفرها غلة، في ظل نعمة، وعلاج فلاحة، وبين يدي نجدة وشهره، فتطلع إلى الملك، وكان جندياً شهماً عظيم التجلد، رافضاً للدعة والراحة، مؤثراً التقشف، حازماً مقداماً، مباشراً للحرب بنفسه، فظاً في طلب حظه، يلبس الخشن ويؤثر البداوة، ويستشعر الجد في أموره. تملك جيان ثم غرناطة، وتملك إشبيلية عام ٦٢٩هـ/ ١٢٣٢م وقرطبة برهة يسيرة ثم خرجتا من يده إلى ابن هود، وهو باني قصر الحمراء، وبويع له سنة ٦٢٩هـ/١٢٣٢م.

تظاهر أول أمره بطاعة الملوك بالعدوة وافريقية فخطب لهم زماناً يسيرا، كما دعا للخليفة العباسي المستنصر حاذياً حذو سميّه ابن هود، ثم نزع عن ذلك كله[٣].

عاصره من الملوك أبو يوسف يعقوب بن عبد الحق بن محيو من بني مرين (في المغرب)؛ ويغمراسن بن زيان في تلمسان، وأبو زكريا يحيى بن عبد الواحد بن أبي حفص بتونس. ومن ملوك النصارى بقشتالة فرديناند الثالث بن الفونس التاسع بن شانجه

---

(١) ابن الخطيب، اللمحة البدرية، ص ٣٣؛ الإحاطة، ج٢، ص٩٣؛ المقري، نفح، ج١، ص ٤٤٦.

(٢) ابن الخطيب، الإحاطة، ج٢، ص ١٠٠-١٠١.

(٣) ابن الخطيب، اللمحة البدرية، ص ٤٢-٤٤؛ الإحاطة، ج٢، ص ٩٤-٩٥؛ المقري، نفح الطيب، ج١، ص ٤٤٧، ٤٤٨.

(وهو الذي ملك قرطبة سنة ٦٣٣هـ/١٢٣٦م، وإشبيلية سنة ٦٤٦هـ/١٢٤٨م، ولما هلك ولي بعده الملك ألفونس العاشر الملقب بالحكيم El Sabio سنة ٦٤٩هـ/١٢٥٢م، وهو ملك قشتالة وليون (١٢٢١ـ١٢٨٤م))، وجيمس الأول Jaime I الملقب بالفاتح: El Conquistador ملك أرغون وقشتالة وبلنسية منذ ١٢١٣م. (وهو الذي احتل الجزائر الشرقية المعروفة بجزر البليار Las Baleares، ومدينة بلنسية سنة ٦٣٦هـ/١٢٣٨م[1]، ومرسية سنة ٦٦٥هـ/١٢٦٦م).

وقد حظي الأمير محمد بن يوسف بتأييد غالبية الشعب، واعتبر الزعيم المنقذ، واستطاع أن يؤسس مملكة غرناطة وسط العواصف والفتن التي عصفت بالأندلس بعد سقوط دولة الموحدين، وتوالى عدوان الإسبان على القواعد الإسلامية فانحاز المجاهدون المسلمون إلى غرناطة متحفزين لاستئناف قتال الإسبان والدفاع عن كيانهم، وتمكنت مملكة غرناطة بذلك أن تصمد حوالي قرنين ونصف من الزمان[2].

وكان دخوله غرناطة بناء على دعوة ابن خالد جد بني خالد بغرناطة سنة ٦٣٥هـ/١٢٣٨م حسب رواية ابن عذاري، دعاه وهو بجيان فبادر إليها سنة ٦٣٥هـ/١٢٣٨م، ولم يكن يلبس زياً فاخراً[3]. وتمكن محمد بن يوسف بن نصر من التغلب على مالقه والمرية ولورقة[4].

صالح طاغية النصارى جيمس الأول ملك أرغون سنة ٦٤٣هـ/١٢٤٥م وعقد معه السلم الممتد الأمد بعد أن أوقع به الهزيمة في حصن بليلش على بعد بريد من

---

(١) ابن الخطيب، اللمحة البدرية، ص ٤٦، ٤٧؛ الإحاطة، ج٢، ص ٩٧ـ٩٨.

(٢) ضيا باشا، الأندلس الذاهبة، ج٣، تعريب، عبد الرحمن ارشيدات، عمان، ١٩٨٩، ص ٨٧ وما بعدها.

(٣) ابن الخطيب، اللمحة البدرية، ص ٤٨؛ والإحاطة، ج٢، ص ٩٨، ٩٩.

(٤) المقري، نفح، ج١، ص ٤٤٨.

غرناطة. وكان مولده عام ٥٩١هـ/١١٩٤م بارجونة وتوفي عام ٦٧١هـ/١٢٧٢م، ودفن بالمقبرة الجامعة العتيقة بسنام السبيكة[١].

كان الطابع العام لعلاقات مملكة غرناطة في عهده مع الممالك النصرانية هو الطابع الحربي، وان اقتضت مصالح الطرفين في بعض الأحيان عقد المعاهدات والعلاقات الودية. وكان الشيخ محمد الأول بن الأحمر، مؤسس المملكة، يحاول تجنب الاصطدام بالإسبان، حتى عندما كان يحرز النصر عليهم؛ ومن ذلك أن ابن الأحمر استطاع بمساعدة المرينيين سنة ٦٦٠هـ/١٢٦١م أن يصد الفونس العاشر ملك قشتالة عن غرناطة ومع ذلك تنازل له ابن الأحمر عن عدد من المناطق والحصون مما زاد في طمع الفونس العاشر فعاد إلى مهاجمة الأراضي الأندلسية، فاستنجد محمد بن يوسف بالسلطان المريني أبي يوسف يعقوب ابن عبد المؤمن الملقب بالمنصور، لكن النجدة لم تصل إلا بعد وفاة ابن الأحمر سنة ٦٧١هـ/١٢٧٢م، أيام ولده محمد (الثاني) المعروف بالفقيه[٢]، ووصلت النجدة المرينية إلى الأندلس سنة ٦٧٢هـ/١٢٧٣م وقد استغل السلطان المريني فرصة الشقاق بين سلطان قشتالة (الروم) وابنه.

وكانت وفاة محمد بن يوسف أثناء عودته من حملة قادها ضد أصهاره بني اشقيلولة الذين كان قد ولاهم على وادي آش، ولكنهم كانوا يطمعون في المشاركة في حكم غرناطة، وتحالفوا مع ملك قشتالة الفونس العاشر وأخذوا يغيرون على حدود غرناطة، وتمكنوا من الاستيلاء على عدد من المواقع[٣].

---

(١) ابن الخطيب، اللمحة البدرية، ص ٤٨؛ والإحاطة، ج٢، ص ٩٩، ١٠٠.

(٢) الحجي، د. عبد الرحمن علي، التاريخ الأندلسي من الفتح الإسلامي حتى سقوط غرناطة، دمشق، بيروت، ١٤٠٧هـ/١٩٨٧م، ص ٥٣٥، ٥٣٦؛ المقري، نفح، ج١، ص ٤٤٩.

(٣) ضيا باشا، الأندلس الذاهبة، ص ١٢٢، ١٣٠.

أبو عبد الله محمد الثاني الفقيه بن محمد الأول بن يوسف: ٦٧٢ـ٧٠١هـ/ ١٢٧٣ـ١٣٠٢م:

خلف والده محمد الأول، وسمي بالفقيه لطلبه العلم في صغره. وكان والده قد أوصاه باستصراخ بني مرين ملوك المغرب إذا تطلب الأمر، فيجعلهم وقاية للمسلمين، فلما تكالب الطاغية الفونس العاشر على بلاد الأندلس بادر الفقيه إلى العمل بوصية والده وأوفد وفداً كبيراً إلى السلطان يعقوب بن عبد الحق، وشرح له الوفد خطر العدو على المسلمين، فبادر لإجابة داعي الجهاد، فقد كان هذا الملك مؤثراً لعمل الجهاد فأخذ في حشد الجيوش وبعث في النفير سنة ٦٧٣هـ/١٢٧٤م واتخذ من طنجة مركزاً لتجميع قواته، وجهز خمسة آلاف من جيشه بقيادة ابنه أبي زيان، الذي بادر بالعبور إلى الأندلس ونزل بطريف، ثم دخل دار الحرب (أرض الإسبان) وتوغل فيها وأوقع عدة هزائم بالإسبان؛ وحاصر شريش ثم عاد إلى الجزيرة الخضراء متقلاً بالغنائم، وقد رأى أهل الأندلس في هذه الانتصارات ثأراً لمعركة العقاب[1].

ويذكر المقري خبر هذه الحملة فيقول إن محمد الفقيه ذهب بنفسه إلى المغرب لمقابلة السلطان المريني يعقوب بن عبد الحق لطلب النجدة، فأجاب صريخه وأرسل ابنه وعساكره معه[2].

وعندما علم السلطان يعقوب أن العدو أخذ في الاستعداد لغزو بلاد المسلمين، بادر هذا السلطان إلى الجواز إلى الأندلس بنفسه واتفق مع زعماء المغرب على الجهاد، واستنفر الكافة من زناته والعرب والموحدين وصنهاجة والمصامدة وغمارة وأوربه ومكناسة، وجاز البحر سنة ٦٧٤هـ/١٢٧٥م واحتل بساحل طريف، وقدم عليه بنو أشقيلوله (اصهاربني الأحمر) من مالقه ووادي آش ليسبقوا ابن الأحمر في مقابلة السلطان، وملأت كتائب السلطان يعقوب ساحة الأرض بين طريف والجزيرة الخضراء، واكتسح عدداً من الحصون التي كانت في يد الإسبان مثل حصن المدور، وبياسه، وأبده

---

[1] الناصري، الاستقصا، ج٣، ص ٣٨، ٣٩.

[2] المقري، نفح، ج١، ص ٤٤٩ نقلاً عن ابن خلدون.

وبلمه ووصل إلى استجه[1]. وقد أورد المقري أخبار هذه الانتصارات بايجاز، وذكر أن السلطان يعقوب استلم الجزيرة الخضراء وجعلها ركاباً لجهاده، كما تنازل له ابن الأحمر عن طريف وما إليها من الحصون ليتخذها قاعدة لجهاده[2].

وعندما علم المسلمون بقدوم قوات اسبانية لمحاربتهم بزعامة (دونونه) الدون نونيو دي لارا صهر ملك قشتالة الفونس العاشر الذي قدمه على جيوشه، اجتمعت القوات الأندلسية والمغربية واصطدمت القوات الإسلامية بالقشتاليين عند استجة سنة ٦٧٤هـ/١٢٧٥م[3]. وذكر صاحب الاستقصا أنه قدم ذنونه هذا على جيوشه، وفوض له جميع أموره، فعاث في بلاد المسلمين، ولم يهزم من قبل، حتى كان لقاؤه مع الجيوش الأندلسية والمغربية بقيادة السلطان يعقوب حيث أوقع به السلطان هزيمة ساحقة، وقتل ذنونه في المعركة (وبذلك أراحه السلطان من تعب الحرب وألحقه بأمه الهاوية)، وقتل الألوف من الإسبان واستشهد من المسلمين ثلاثون فقط[4].

على أثر هذا النصر عاد السلطان يعقوب إلى قاعدته في الجزيرة الخضراء وأقام بها أياماً ثم غزا إشبيلية بالتعاون مع ابن الأحمر، وجاس خلالها وهاجم نواحيها، ووقف على بابها، وخفقت ألويته على جنباتها، واعتصم الإسبان بأسوارها، ثم ارتحل السلطان عنها إلى شريش، واكتسحها، ثم ارتحل عنها عائداً إلى الجزيرة الخضراء وابتنى مدينة البنية (البيضاء) بجوار الجزيرة الخضراء، لتكون معسكراً له، ليبعد الجنود عن الرعية، حتى لا يلحقهم ضرر من العسكر. وعاد إلى المغرب في رجب سنة ٦٧٤هـ/ ١٢٧٥م بعد جهاد متواصل مدته ستة أشهر[5] اجبر خلالها القشتاليين على طلب الصلح، وترك ثلاثة آلاف من فرسانه لمساعدة المسلمين في الأندلس[6].

---

(1) الناصري، الاستقصا، ج٣، ص ٤٠.

(2) المقري، نفح، ج١، ص ٤٤٩.

(3) المصدر نفسه، ج١، ص ٤٤٩؛ ابن الخطيب، الإحاطة، ج١، ص ٥٦٥.

(4) الناصري، الاستقصا، ج٣، ص ٤٠، ٤١.

(5) المصدر نفسه، ج٣، ص ٤٢.

(6) الحجي، التاريخ الأندلسي، ص ٥٣٨.

بعد أن رتب السلطان يعقوب أمور مملكته في المغرب عبر للمرة الثانية إلى الأندلس سنة ٦٧٦هـ/١٢٧٧م ودخل طريف، ثم الجزيرة الخضراء، ثم رنده، حيث انضم له ابن اشقيلوله صاحب مالقه وأخوه، ومن ثم تقدم السلطان إلى إشبيلية وكان بها ملك الجلالقة سانشو Sancho بن الفونس، وحدثت المعركة على ضفة الوادي الكبير، وصلى السلطان يعقوب ركعتين ودعا الله تعالى ووعظ الناس، ومن ثم أوقع الهزيمة بالإسبان، وقتلوا منهم أعداداً كبيرة حتى صار ماء النهر أحمر، فاعتصم من تبقى من الإسبان داخل أسوار إشبيلية، ثم ارتحل السلطان عنها واكتسح عدداً من الحصون مثل قطنيانه وجليانه والقلعة. وعاد غانماً إلى الجزيرة الخضراء، وارتاح بها، ثم غزا شريش، واغار ابنه على إشبيلية وحصونها وعاد غانماً إلى الجزيرة الخضراء؛ واتصل بابن الأحمر ليخرج معه لغزو قرطبة فوافاه بناحية شذونه ففتحا حصن بني بشير وهدماه، ووصلوا إلى ناحية قرطبة وحاصروها ثلاثة أيام، واكتسحوا ما حولها، ثم ارتحل عنها، واحتل عدداً من الحصون، واجبر الطاغية الفونس العاشر على طلب السلم، فأحال السلطان طلبه إلى ابن الأحمر تكريماً له لمشاركته في الجهاد فأجابه ابن الأحمر، فانعقد السلم، وقفل السلطان يعقوب عائداً عن طريق غرناطة، وتنازل لابن الأحمر عن الغنائم وقال له (يكفي بني مرين من هذه الغزوة الأجر والثواب مثل ما فعل يوسف بن تاشفين مع أهل الأندلس يوم الزلاقة). ووصل إلى الجزيرة الخضراء، وتنازل له بنو اشقيلوله عن مالقه، وعقد عليها لابنه ابي زيان، وقد عزّ ذلك على ابن الأحمر. ودخل السلطان يعقوب مالقه وقابله أهلها بالترحاب ثم عاد إلى المغرب سنة ٦٧٧هـ/١٢٧٨م[١].

ولم يلبث الجفاء أن وقع بين ابن الأحمر والسلطان يعقوب. فقد أخذ ابن الأحمر يتخوف من سيطرة المرينيين، ولا سيما بعد إقامتهم في مالقه، ودار بين الفريقين عتاب؛ كما استغل الواشون الفرصة وخوفوا ابن الأحمر على ملكه، فاتصل مع ملك قشتالة (الفونس العاشر) الذي وجدها فرصة سانحه، فنقض عهده مع السلطان يعقوب وأرسل أساطيله إلى الجزيرة الخضراء وحاصرتها، فحالت بين السلطان يعقوب والعبور إلى الأندلس[٢]، وضاق الحصار على أهل الجزيرة الخضراء وفني أكثرهم من القتل والجوع

---

[١] الناصري، الاستقصا، ج٣، ص ٤٥-٤٨.

[٢] المصدر نفسه، ج٣، ص ٤٧-٤٩.

والسهر على الأسوار. وإزاء ذلك بادر السلطان يعقوب بتوجيه حملة جديدة بقيـــاده ابنـــه الأمير يوسف وجمع قوات في طنجة؛ كما جمع له الفقيه أبو حاتم العزفي صاحب ســـبته خمساً وأربعين سفينة، واستنفر كل أهل بلـــده للجـــهاد وركـــب الجميـــع البحـــر ســـنة ٦٧٨هـــ/١٢٧٩م. وعندما رأى ابن الأحمر ما أصاب أهل الجزيرة الخضراء ندم علـــى تحالفه مع الفونس العاشر، فبادر إلى اعداد اساطيله من المنكب والمرية ومالقه وأرســـلها مدداً للمسلمين، وتقدمت أساطيل المسلمين من طنجه إلى جبل الفتح، وأوقعـــوا الهزيمـــة بالأسطول القشتالي، واضطر جنوده الذين كانوا يحاصرون الجزيـــرة الخضـــراء إلـــى الفرار[١].

كان السلطان يعقوب المريني حريصاً على وحدة المسلمين، فعمـــل علـــى إزالـــة الخلافات بينهم، وحاول اقناع يغمراسن في تلمسان بالانضمام إليه في محاربـــة الإســـبان وترك محالفتهم، وعندما رفض يغمراسن ذلك حاربه السلطان يعقوب وهزمه، كما وطّـــد نفوذه في جميع انحاء المغرب[٢].

وفي سنة ٦٨١هـــ/١٢٨٢م استنجد به ملك قشتالة (الفونس العاشر) علـــى ابنـــه (سانشو) الذي أخذ ينازعه على العرش، فاغتنم السلطان هذه الفرصة وسار على الفـــور إلى الأندلس، ونزل صخرة عباد، حيث قابله الفونس وأعلن خضوعه له، وقبّل يده، وطلب من السلطان مالاً ليستعين به فأسلفه السلطان مائة ألف دينار مقابل رهن الفونـــس تاجـــه الموروث عن اسلافه، وبقي هذا التاج عند بني يعقوب يفتخرون بحصولهم عليه، ثم تقـــدم السلطان مع الفونس ونازل قرطبة، التي كان بها سانشو الابن، ثم ارتحـــل عنـــها إلـــى طليطلة، واكتسح ما حولها.وعاد غانماً إلى الجزيرة الخضراء بعد أن أعاد الفونس العاشر إلى ملكه. وكان ابن الاحمر قد حالف سانشو، فقام السلطان يعقوب بالاستيلاء على مالقه، وهنا وجد ابن الأحمر والسلطان يعقوب أن من واجبهما التفاهم وإزالة الخلافات. وقد تـــم التفاهم بينهما بالفعل، واستمر السلطان يعقوب في غزواته ضد الإسبان فترة من الزمن ثم عاد إلى المغرب سنة ٦٨٢هـــ/١٢٨٣م[٣] بعد أن تم التحالف بينه وبين ابن الأحمر: على

---

[١] الناصري، الاستقصا، ج٣، ص ٤٩-٥٣.

[٢] المصدر نفسه، ج٣، ص ٥٣-٥٤.

[٣] المصدر نفسه، ج٣، ص ٥٥-٥٨؛ ابن الخطيب، الإحاطة، ج١، ص ٥٦١.

أن يحتفظ المرينيون بمالقه كقاعدة لهم، وبذلك أصبح لبني مرين قاعدة في الأندلس؛ وضعوا فيها عدداً من فرسانهم لمواصلة الجهاد؛ مما ساعد على صمود غرناطة. وانشئ في غرناطة منصب جديد هو مشيخة الغزاة، مهمته تنظيم أمر الجهاد، وتولى هذا المنصب بنو العلاء من أقارب سلطان بني مرين، وكان أول شيخ للغزاة هو عبد الله بن أبي العلاء الذي استشهد سنة ٦٩٣هـ/١٢٩٤[١].

عاد السلطان يعقوب إلى الأندلس للمرة الرابعة سنة ٦٨٤هـ/١٢٨٥م وقام ابنه ولي عهده يوسف بغزو عدد من المدن والحصون الإسبانية في وادي لك وشريش وروطة وإشبيلية وغيرها من الحصون، وأثخن بالإسبان، وأوقع بهم خسائر كبيرة وعاد إلى قاعدته في الجزيرة الخضراء، حيث أرسل إليه الطاغية سانشو الرابع (١٢٨٤ـ١٢٩٥م) ملك قشتالة، وفداً لطلب السلم والمهادنة، فاستجاب السلطان إلى ذلك، ومرض السلطان وتوفي بعد ذلك بقليل في محرم سنة ٦٨٥هـ/١٢٨٦م بالجزيرة الخضراء، وحمل إلى رباط الفتح حيث دفن هناك[٢]. وخلفه ابنه يوسف.

وعلى أثر هلاك طاغية الروم (سانشو الرابع)، ابن الفونس العاشر الحكيم، قام السلطان محمد الفقيه سنة ٦٩٥هـ/١٢٩٥م بمهاجمة الإسبان فهزمهم وفتح مدينة قيجاطه وعدداً من الحصون التابعة لها، كما احتل مدينة القبذاق من نواحي قرطبة سنة ٦٩٩هـ/١٢٩٩م، وأسكن بها رابطة من المسلمين[٣] وباشر العمل في خندقها بيده. كما التقى السلطان محمد الفقيه بالسلطان يوسف بن يعقوب المريني وكانت العلاقات بينهما حسنة، وخرج بنو اشقيلوله من مالقه إلى المغرب نهائياً[٤].

عادت العلاقات بين محمد الفقيه والسلطان يوسف إلى التدهور بسبب الإفساد الذي قام به الطاغية بينهما، حيث تحالف ابن الأحمر مع الطاغية الذي حاصر طريف Tarifa واستولى عليها سنة ٦٩١هـ/١٢٩٢م ولم يظفر ابن الأحمر بشيء نتيجة تحالفه مع العدو،

---

(١) الحجي، التاريخ الأندلسي، ص ٥٣٨، ٥٣٩.

(٢) الناصري، الاستقصا، ج٣، ص ٦٢-٦٥.

(٣) ابن الخطيب، اللمحة البدرية، ص ٥٣، ٥٤؛ الإحاطة، ج١، ص ٥٦١.

(٤) الناصري، الاستقصا، ج٣، ص ٦٨.

فندم ابن الأحمر على ذلك وأُسقط في يده، وأرسل وفداً إلى السلطان يوسف معتذراً، وعادت العلاقات بينهما طيبة، كما طلب من السلطان يوسف المساعدة لاستعادة طريف، ثم حضر محمد الفقيه ابن الأحمر بنفسه إلى طنجة سنة ٦٩٢هـ/١٢٩٢م، حيث قابل السلطان يوسف وأهداه عدة هدايا كان أحسنها وقعاً في نفس السلطان مصحف يقال أنه مصحف عثمان بن عفان وكان يتوارثه بنو أمية وحصل عليه ابن الأحمر، وصفح السلطان عن ابن الأحمر وعاد الأخير إلى الأندلس مسروراً وعبرت معه عساكر السلطان يوسف لحصار طريف لكنهم تحولوا عنها[١].

وحدثت في أيام الفقيه فتنة، وعادت الحرب من جديد مع الأصهار من بني اشقيلولة.

وكان السلطان محمد الفقيه هو المؤسس الثاني للدولة النصرية فهو الذي نظمها ووضع ألقاب خدمتها وقدّر مراتبها وأقام رسوم الملك فيها، وعرف بأصالة السياسة ورصانة العقل ووفرة الدهاء وطول الحنكة، فقد باشر الوزارة في زمن أبيه، مما زاد في ثراء خبرته، وعرف بجودة الخط وحسن التوقيع وإيثار العلماء، وطال عمره وبعد صيته واشتهر في الآفاق ذكره وعظمت غزواته. وتوفي سنة ٧٠١هـ/١٣٠١م على مصلاه متوجهاً لأداء فريضته[٢].

---

[١] الناصري، الاستقصا، ص ٧٤، ٧٥.

[٢] ابن الخطيب، اللمحة البدرية، ص ٥٠، ٥٨-٦٣؛ الإحاطة، ج١، ص ٥٥٧، ٥٦٤، ٥٦٦.

أبو عبد الله محمد الثالث المخلـوع بـن محمـد الثـاني (٧٠١-٧٠٨هـ/١٣٠٢-١٣٠٩م).

وهو أبو عبد الله محمد بن محمد بن محمد بن يوسف بن نصر، كان من أعـاظم أهل بيته صبياً، تدرب على السياسة في عهد أبيه، وعندما تسلم الملك سار على نهج أبيه، كان يعاني من مرض في عينه نتيجة للسهر على أنوار الشموع الكبيرة، وكـانت أيامـه أعياداً وسالمته الملوك، وكان مثل والده يقرض الشـعر ويقـرب العلمـاء والأشـراف والرؤساء، وكان يتمتع بالتجربة والحنكة إلا أنه كان يغلب على خلقه الفظاظة والقسـوة. ومن أهم أعماله بناء المسجد الأعظم بالحمراء[1].

وكان من نتائج جهاده فتح مدينة المنظر وسبي حاكمتها الإسبانية. وقد تعرضـت غرناطة في عهده إلى فتن داخلية إذ ثار عليه أحد أقاربه وهو أبو الحجاج بن نصر بمدينة وادي آش، ولكنه تغلب عليه سنة ٧٠٣هـ/١٣٠٣م، كما انتزع سبته من يد رئيسها أبـي طالب العزفي، وخضع له رؤساؤها.

وفي عهد أبي عبد الله المخلوع انتهز الإسبان فرصة الفتن الداخلية في غرناطـة فأتفق ملك قشتالة وليون (فردناند الرابع ١٢٨٥ـ١٣١٢م) مع ملك أرغون جيمس الثـاني Jaime II (١٢٩١ـ١٣٢٧م)، حيث تمكن الأرغونيون من محاصرة المرية كمـا تمكـن القشتاليون من الاستيلاء على الجزيرة الخضراء، ولم تصل النجدة من بني مريـن هـذه المرة مما اضطر السلطان محمد الثالث إلى مصانعة فردناند الرابع ملك قشتالة، وأن يدفع له مبلغاً من المال نظير انسحابه من الجزيرة الخضراء[2]، بينما يذكر صاحب الاستقصـا أن العلاقات بين محمد الثالث (المخلوع) والسلطان يوسف المريني كانت طيبة في بـادئ الأمر، وأرسل له وفداً إلى المغرب وتلقاه بالترحاب ثم طلب من الوفد أن يمدوه بعسـكر من الأندلس، إلا أن العلاقات ساءت بين السلطانين، فعاد محمد بن الأحمر (الثالث) إلـى نقض صداقة السلطان يوسف وعاد إلى موالاة الطاغية القشتالي فرديناند الرابع، بـل أن

---

[1] ابن الخطيب، اللمحة البدرية، ص ٦٠؛ والإحاطة، ج١، ص ٥٤٤، ٥٤٥، ٥٤٧.

[2] ضيا باشا، الأندلس الذاهبة، ص ١٥٠، ١٥١.

محمد بن الأحمر أرسل ابن عمه الرئيس ابي سعيد فرج بن إسماعيل صاحب مالقه إلى سبته فدخلها بمساعدة بعض عمال بني العزفي فأمكنه من البلد، وأخذ بني العزفي إلى مالقه ثم إلى غرناطة فأكرمهم السلطان ابن الأحمر. واستبد الرئيس أبو سعيد بأمر سبته سنة ٧٠٣هـ/١٣٠٣م، مما أغضب السلطان يوسف الذي حاول استعادة سبته لكن جيشه عاد مهزوماً[١]، ثم توفي غيلة على يد أحد عبيده سنة ٧٠٦هـ/١٣٠٦م. كما قتل وزيره الفقيه أبو عبد الله بن الحكيم.

ويقول ابن الخطيب أنه خلع يوم عيد الفطر من سنة ٧٠٨هـ/١٣٠٨م حيث أُحيط به واعتقل وهو مصاب بعينيه ومقعد، فناصرت طائفة من وجوه الدولة أخاه، ونصبت أخاه أبا الجيوش نصراً مكانه، ودخل الغوغاء إلى الحمراء ونهبوا دار الوزير ثم نقل السلطان المخلوع إلى مدينة المنكب، وقد حدث أن أصيب أخوه نصر بسكتة توقع منها موته سنة ٧١٠هـ/١٣١٠م، فجرى التفاوض لإعادة السلطان المخلوع فحمل إلى غرناطة في محفة، لكن الأمر لم يتم له لأن أخاه أفاق من مرضه، فنقل إلى دار أخيه الكبرى فكان آخر العهد به، وذكر أنه قتل غريقاً في البركة في الدار التي كان يقيم بها[٢]. وقد أورد ابن الخطيب هذه الرواية في اللمحة البدرية أيضاً حيث ذكر أنه قام عليه أخوه نصر الملقب بأبي الجيوش، الذي فتك اتباعه بالوزير أبي عبد الله بن الحكم الرندي، وحوصر السلطان في منزله حيث أجبر على خلع نفسه أمام جماعة من الفقهاء، ونقل إلى مدينة المنكب أسيراً يوم الفطر سنة ٧٠٨هـ/١٣٠٨م، وقد تعرضت الحمراء خلال هذه الفتنة للنهب فنهبت الأموال والذخائر والكتب وغيرها، وكان الناس قد استاءوا منه لمصانعته ملك قتشالة فردناند الرابع، كما اتهموه بالعجز عن تصريف شؤون الدولة بسبب ضعف بصره.

---

[١] الناصري، الاستقصا، ص ٨٢.

[٢] ابن الخطيب، الإحاطة، ج١، ص ٥٥٤.

نصر بن محمد الثاني المكنى أبا الجيوش (٧٠٨ــ٧١٣هــ/١٣٠٩ــ١٣١٤م).

تولى الحكم بعد خلع أخيه سنة ٧٠٨هــ وعمره ثلاث وعشرون سنة، ويذكر ابن الخطيب أن أيامه كانت أيام نحس مستمر على المسلمين فتكالب عليهم العدو[١] إذ قام طاغية قشتالة (فرديناند الرابع) بغزو الجزيرة الخضراء سنة ٧٠٩هــ/١٣٠٩م، ثم ارتد عنها، كما قام الفونس الرابع (١٢٩٩ــ١٣٣٦م) صاحب برشلونه (برجلونه) جيمس الثاني بغزو مدينة المرية في العام نفسه (٧٠٩هــ) وحاصرها[٢]، وأمام هذا الواقع عمد نصر إلى مصالحة بني مرين فأعاد إليهم مدينة سبته؛ كما تنازل لهم عن الجزيرة ورنده وزوج إحدى شقيقاته إلى أبي الربيع المريني الذي أرسل له العون للجهاد أموالاً وخيولاً، وتمكن المسلمون من ارغام (فرانده) فرديناند الرابع على الانسحاب والتعهد بتعويض الخسائر التي تسبب بها، كما هزموا جيمس الثاني Jaime II ملك أرغون في المرية وردوه على أعقابه[٣].

ما كاد أهل الأندلس يرتاحون من الخطر الإسباني، حتى نشبت الفتنة في الداخل، إذ قام على أبي الجيوش ابن عم والده صاحب مالقه أبو الوليد إسماعيل، ودخل غرناطة من ناحية ربض البيازين، ونقل السلطان المخلوع إلى وادي آش حيث أعطيت له ليحكمها. وبقي هناك حتى وفاته سنة ٧٢٢هــ/١٣٢٢م، ونقل جثمانه إلى غرناطة حيث دفن بجوار جده في مقبرة السبيكة[٤].

وفي عهد السلطان نصر أبي الجيوش تولى الشيخ عثمان أبو العلا قيادة الجيوش، وهو قائد مغربي من الأسرة المرينية، وهي الأسرة التي عرفت بجهادها في الأندلس، ومن هذه الأسرة كان بنو نصر يعينون شيوخ الغزاة.

---

[١] ابن الخطيب، اللمحة البدرية،، ص ٧٠.

[٢] المصدر نفسه، ص ٧٥.

[٣] الناصري، الاستقصا، ج٣، ص ١٠١؛ فرحات، غرناطة، ص ٣٩، ٤٠؛ الحجي، التاريخ الأندلسي، ص ٥٤١.

[٤] ابن الخطيب، اللمحة البدرية، ص ٣٣، ٧٥، ٧٦؛ ويوجد تفصيل عن هذه الفتنة في الإحاطة، ج١، ص ٣٨٤-٣٨٧؛ فكاك الأسير، ص ١٧٩، ١٨٠.

إسماعيل أبو الوليد بن فرج بن إسماعيل بن يوسف. (٧١٣-٧٢٥هـ/١٣١٤-١٣٢٥م).

تغلب على دار الإمارة سنة ٧١٣هـ/١٣١٣م وامتد سلطانه حتى سنة ٧٢٥هـ/١٣٢٥م ومات مقتولاً عندما وثب عليه ابن عمه في طائفة من أقاربه فقتلوه ببابه، لكن خاب أملهم وقتلوا كلهم أيضاً[١].

وصفه ابن الخطيب بأنه كان جميل الخلق، حسن الرواء، رجل جد سليم الصدر، كثير الحياء، صحيح العقد ثبتاً في المواقف، عفيفاً طاهراً، منقطعاً إلى الصيد وانتقاء السلاح والمراكب، وكان حازماً، فقد ذكر عنه أنه قال: أصول الدين عندي "قل هو الله أحد" (السورة) وهذا، وأشار إلى سيفه، واشتد في إقامة الحدود وإراقة المسكرات، عادلاً مقتصداً في الجباية بريأ عن المعاقرة، مجاهداً ضد عدو الله وعدوه[٢].

وفي عهده ظهر منصب جديد في الدولة النصرية وهو رئيس الجند المغربي، تولاها أبو سعيد عثمان بن أبي العلاء ادريس من بني عبد الحق، وكان مشاركاً للسلطان في الحكم[٣].

عاصره من الملوك أبو سعيد عثمان بن أبي يوسف يعقوب بن عبد الحق المريني بالمغرب وأول عهد ابنه وخليفته أبي عبد الله بن يعقوب المريني، أما في تونس فكان معاصره هو أبو يحيى زكريا ابن ابي العباس ابن أبي حفص المدعو باللحياني.

كما عاصره من ملوك الإسبان بقشتالة، في أول عهده، فرديناند الرابع (١٢٩٥-١٣١٢م) ثم الفونس الحادي عشر ١٣١٢- ١٣٥٠م. ومن ملوك أرغون بشرق الأندلس جيمس الثاني (خايمي) (١٢٩١-١٣٢٧م).

---

[١] ابن الخطيب، اللمحة البدرية، ص ٣٤.

[٢] المصدر نفسه، ص ٧٨، ٨٤؛ الإحاطة، ج١، ص ٣٧٧.

[٣] المصدر نفسه، ص ٨٠؛ الإحاطة، ج١، ص ٣٨١.

اضطربت عليه الأمور في أول عهده إذ جرت عليه هزيمة شنيعة بوادي فرتونة على يد الطاغية دون بيدرو الوصي على ابن أخيه الفونسو الحادي عشر ملك قشتالة وليون سنة ٧١٦هـ/١٣١٦م، بالتحالف مع السلطان المخلوع، وظهر العدو بعدها فتغلب على حصن سيتمانس (Sietemanos) قرب غرناطة، وحصن بجيج وحصن طشكر وثغر روط، ثم طمع الطاغية في مهاجمة غرناطة نفسها[١]. فتقدم القشتاليون بجيش يقوده دون بيدرو ودون خوان الوصيان على ملك قشتالة العائد للملك الفونس الحادي عشر، واشترك معهم جنود من عدد من الأقطار الأوروبية وخصوصاً من الانجليز مما أضفى الصفة الصليبية على هذه الحملة[٢]، وحدثت معركة قرب الحمراء في المرج الواقع بظاهرها على بريد منها سنة ٧١٩هـ/١٣١٩م وكان النصر فيها للمسلمين بالرغم من قلة عددهم، وقتل في المعركة دون بيدرو نفسه فحمل في تأبوت وضع بجانب سور الحمراء تخليداً للنصر[٣]، وقد شهد ابن الخطيب المكان الذي وضع فيه تأبوت بيدرو بجانب سور الحمراء وعليه كوم من الحجارة[٤].

ويذكر المقري في هذا الصدد أن دون بيدرو Don Pedro ألب ملوك النصارى سنة ٧١٩ هـ/١٣١٩م، وتوجه بهم إلى غرناطة، بجيش لا يحصى، ومعه خمسة وعشرون ملكاً، تؤيدهم الكنيسة، بقصد استئصال المسلمين. وأثار ذلك القلق في غرناطة. لأن جيش المسلمين فيها لم يكن يتجاوز ستة الآف رجل، فاستنجد سلطان غرناطة بالسلطان المريني الذي لم يستجب للطلب فلجأوا إلى الله تعالى واخلصوا النية في الجهاد، وتمكنوا من احراز نصر كبير على الأمم النصرانية، وقتل قائدهم دون بيدرو وخمسون ألفاً من جنوده، كما قتل جميع الملوك الخمسة والعشرين وقيل سبعة ملوك، وغنم المسلمون غنائم كثيرة وأسروا أعداداً كبيرة من بينهم امرأة الطاغية وأولاده، وحشي جلد الطاغية دون بيدرو بالقطن وعلق (في تأبوت) على باب غرناطة. وطلب الإسبان الهدنة، وعرضت امرأة الطاغية فدية نفسها بمدينة طريف وجبل الفتح وثمانية عشر حصناً فلم يقبل المسلمون

---

[١] ابن الخطيب، الإحاطة، ج١، ص ٣٨٩ والهامش.

[٢] عنان، نهاية الأندلس، ص ١١٨، ١٧١.

[٣] ابن الخطيب، الإحاطة، ج١، ص ٣٨٩.

[٤] المصدر نفسه، ج١، ص ٣٩٠.

ذلك، وقد هلك من النصارى خمسون ألفاً وملوكهم ولم يستشهد من المسلمين سوى ثلاثة عشر رجلاً[1].

وبرز في هذه المعركة شيخ الغزاة عثمان بن أبي العلاء المريني الذي جعله بنو الأحمر شيخاً للغزاة، وقد وردت ترجمته في نفح الطيب (ج١، ص ٤٥٣) مما كتب على قبره، إذ تمكن هذا المجاهد بقيادة جماعة من الفرسان لم يتجاوز عددهم المائتين من التقدم حتى اقترب من جيش الافرنج. وظن الافرنج أن الفرسان المسلمين إنما جاءوا للمفاوضة، لكن القائد عثمان وفرسانه ساروا حتى اقتربوا من دون بيدرو ورديفه خوان وصرعوهما، فأنهزم جيش الفرنجة وهلك أكثرهم في نهر شنيل (غرناطة) واكتسحهم المسلمون، فكانت واقعة من أغرب الوقائع إذ انتصرت فيها فئة قليلة من المسلمين على جيش جرار من الفرنجة[2].

وفي هذه المعركة قال الكاتب الوزير أبو الحسن الجياب:

الحمد حق الحمد للرحمن	كافي العدو وناصر الإيمان
ومكيف الصنع الكريم ودافع الخطب	العظيم وواهب الإحسان
في كل أمر للمهيمن حكمة	أعيت على الأفكار والأذهان[3]

وعندما مات السلطان المخلوع، (نصر) صفا الجو، واتحدت الكلمة، وأمكن الجهاد. فقام السلطان إسماعيل (أبو الوليد) بغزو العدو، ونازل حصن إشكر Huescar، المعترض في حلق بسطه، سنة ٧٢٤هـ/١٣٢٣م، والقى عليها كرات النفط والحديد. ونزل أهلها على حكمه، واتخذ من حصنها قاعدة لجهاده. كما قام في العام التالي سنة ٧٢٥هـ/١٣٢٥م بفتح مرتش Martos وغنم المسلمون منها غنائم كثيرة وعاد منتصراً إلى

---

[1] المقري، نفح، ج١، ص ٤٤٩ـ٤٥١؛ الاستقصا، ج٣، ص ١٠٨، ١٠٩.

[2] الناصري، الاستقصا، ج٣، ص ١٠٩.

[3] ابن الخطيب، الإحاطة، ج١، ص ٣٨٩.

غرناطة[1]، وقتل غيلة بعد عودته من غزو مرتش نتيجة لتمرد ابن عمه محمد بن إسماعيل المعروف بصاحب الجزيرة، حيث فتك به على باب قصره بين عبيده وأرباب دولته بخنجر كان يخفيه في ذراعه[2].

ولا يزال اسمه منقوشاً ضمن أبيات من الشعر على باب أحد بساتين غرناطة:

قصر بديع الحسن والإحسان	لاحت عليه جلالة السلطان
خير الملوك أبي الوليد المنتقى	من نخبة الأملاك من قحطان[3]

وحزن المسلمون على وفاته لجهاده وعزمه، ورثاه كاتبه أبو الحسن الجياب بقصيدة منها:

وما مثل إسماعيل للبأس والندى	لإصراخ مذعور وإغناء معدم
وما مثل إسماعيل للحرب يجتني	به الفتح من غرس القنا المتحطم
وما مثل إسماعيل سهم سعادة	أصاب به الإسلام شاكلة الدم[4]

محمد الرابع بن إسماعيل الأول بن فرج بن إسماعيل بن يوسف بن محمد (٧٢٥ـ٧٣٣هـ/١٣٢٥ـ١٣٣٣م).

أخذت له البيعة يوم مقتل أبيه سنة ٧٢٥هـ/١٣٢٤م لكنه وضع تحت الوصاية، إلى أن أصبح شاباً. وكان أول عمل قام به أن فتك بوزيره الذي كان متغلباً على أمره وهو محمد بن أحمد بن المحروق سنة ٧٢٩هـ/١٣٢٨م، مما زاد في هيبته وسطوته. فقد

---

(١) ابن الخطيب، الإحاطة، ج١، ص ٣٩١، ٣٩٢؛ اللمحة البدرية، ص ٨٥، ٨٦.

(٢) المصدر نفسه، ج١، ص ٣٩٢؛ اللمحة البدرية، ص ٨٧.

(٣) الغساني، محمد بن عبد الوهاب، رحلة الوزير في افتكاك الأسير، تطوان، ١٩٣٩م، ص ١٨٠.

(٤) ابن الخطيب، الإحاطة، ج١، ص ٣٩٥، ٣٩٦.

كان شهماً صارماً شجاعاً إلى حد التهور، فارساً، مغرماً بالصيد، عارفاً بالخيل محباً للأدب ولا سيما الشعر[1].

يذكر لسان الدين بن الخطيب الذي كان معاصراً له موقفاً يدل على بعد همته إذ يقول "بادرنا نهنئه بما تسنى له، من منازلته لمدينة قبره وهي كورة من ضواحي قرطبة، فزوى عنا وجهه قائلاً: وماذا تهنئوني به؟ كأنكم رأيتم تلك الخرقة (يعني العلم الكبير) في منار إشبيلية"[2] دليلاً على تطلعه لفتح إشبيلية.

ومن الأدلة على شجاعته إلى حد التهور أنه أغار على مدينة بيانة في عدة يسيره من الفرسان، وحمل على حاميتها التي تفوق أعداد جنوده بعدة أضعاف. ووصل إلى بابها. كما نازل حصن قشره (وهي ربما تشبره) وهدم سورها ثم تراجع عنها لوصول المدد إليها.

ومن الأحداث الداخلية في عهد محمد الرابع الفتنة التي قامت بين وزيره المتغلب على أمره محمد بن أحمد المحروقي، وشيخ الغزاة عثمان بن أبي العلا. وقد اغتنم الطاغية الفونس الحادي عشر (١٣١١ـ١٣٥٠م) هذه الفتنة فأحتل ثغر وبره سنة ٧٢٧هـ/١٣٢٦م، كما استولى على جملة من الحصون التي تجاوره، مما دفعه إلى طلب النجدة من السلطان المريني الذي استجاب لطلبه وأرسل قوة بقيادة ابنه وزوده بالخيل والذخيره والعدة فتم لهذه الحملة استعادة جبل الفتح سنة ٧٣٣هـ/١٣٣٢م.

ويقول ابن الخطيب أن السلطان محمد ذهب بنفسه إلى المغرب سنة ٧٣٢هـ واجتمع بسلطان المغرب أبي الحسن بن عثمان فأكرمه وزوده بالخيل والذخيرة والعدة، الأمر الذي مكنه من استعادة جبل الفتح كما تقدم.

---

[1] الناصري، الاستقصا، ج٣، ص ١٢١؛ ابن الخطيب، اللمحة البدرية، ص ٩٠، ٩٤؛ الإحاطة، ج١، ص ٥٣٢، ٥٣٣، ٥٣٧.

[2] ابن الخطيب، اللمحة البدرية، ص ٩١؛ الإحاطة، ج١، ص ٥٣٣، ٥٣٤.

ومن أهم أعمال محمد الرابع استعادة جبل الفتح من الإسبان. وكان الإسبان قد استولوا عليه سنة ٧٠٩هـ/١٣٠٩م، وأصبح شجى في صدر الدولتين المرينية والأحمرية وبقي الأمر كذلك إلى عهد السلطان أبي الحسن المريني، فاتصل به السلطان محمد بن إسماعيل بن الأحمر للاشتراك في الجهاد، حيث ذهب بنفسه إلى فاس سنة ٧٣٢هـ/١٣٣١م فأكرمه السلطان أبو الحسن، وأمدَّه بالجند بقيادة ابنه أبي مالك على خمسة آلاف من أنجاد بني مرين ووصل إلى الجزيرة الخضراء، وتتابعت إليه الأساطيل بالمدد، وزحف الجميع إلى جبل الفتح وفتحوه عنوة سنة ٧٣٣هـ/١٣٣٢م وقام المسلمون بتحصينه[1]. لكنه قتل غيلة أثناء عودته من جبل الفتح بتدبير من رؤساء جنده المغاربة من أولاد عثمان بن أبي العلاء لأنه كان يتوعدهم ويهاجمهم بلسانه فأعدوا له كميناً، ورماه أحد مماليكهم فمات على الفور، ونقل جثمانه إلى مالقه حيث دفن سنة ٧٣٣هـ/١٣٣٢م وكان مولده سنة ٧١٥هـ/١٣١٥م وبويع سنة ٧٢٥هـ/١٣٢٤م. وخلفه أخوه يوسف، الذي أخذ بثأره فقبض على أبناء ابن ابي العلاء ونفاهم إلى تونس[2].

يوسف الأول أبو الحجاج بن إسماعيل بن فرج بن إسماعيل. (٧٣٣ـ٧٥٥هـ/ ١٣٣٣ـ١٣٥٤م.

تولى الملك بعد مقتل أخيه محمد سنة ٧٣٣هـ/١٣٣٣م بوادي السقايين وسنُّه خمسة عشر عاماً وثمانية أشهر[3]، وفي عهده برز لسان الدين بن الخطيب الذي عكف على مدح السلطان أبي الحجاج، فاعتنى به السلطان وقلده أمانة سر الكتابة، ثم لما توفي شيخه وأستاذه ابن الجياب، استقل لسان الدين برياسة الكتاب وولاه السلطان الوزارة أيضاً وكان لا يزال شاباً، وظل صاحب حظوة عند السلطان حتى وفاة السلطان، وكان قد فوض إليه معظم شؤون الدولة لمهارته وذكائه، حتى رفعه إلى مرتبة الوزارة، بل أنه أنابه عنه

---

(1) الناصري، الاستقصا، ج٣، ص ١٢١-١٢٢؛ ابن الخطيب، اللمحة البدرية، ص ٩٢، ٩٣؛ الإحاطة، ج١، ص ٥٣٦، ٥٣٧.

(2) ابن الخطيب، اللمحة البدرية، ص ٩٢-٩٨؛ أيضاً: ضيا باشا، الأندلس الذاهبة، ص١٧٢؛ الناصري، الاستقصا، ج٣، ص ١٢٣؛ الإحاطة، ج١، ص ٥٤٠، ٥٤١.

(3) المقري، نفح، ج٥، ص ٨٠؛ ابن الخطيب، اللمحة البدرية، المقدمة، ص ٦، ٧.

في إدارة دفة الحكم عندما قاد السلطان الجيش الأندلسي بنفسه في موقعه طريف سنة ٧٤١هـ/١٣٤٠م (على ما سيأتي ذكره)، ورمى إليه بخاتمه وسيفه حتى يعود من الجهاد[١] (وأتمنني على صوان حضرته، وبيت ماله وسجوف حرمه، ومعقل امتناعه، ولما هلك السلطان ضاعف ولده حظوتي وأعلى مجلسي وقصر المشورة على نصحي إلى أن كانت عليه الكائنة (أي عندما خلع) فاقتدى فيَّ أخوه المتغلب على الأمر به، فسجل الاختصاص وعقد القلادة (أي أبقاه في مناصبه) ثم حمله أهل الشحناء من أعوان ثورته على القبض علي فكان ذلك) وقبض على ابن الخطيب واعتقل وكبست دوره ومنازله وجميع أمواله واستؤصلت نعمته[٢].

وفي ذلك قال ابن الخطيب: "وأقام رسم الوزارة بكاتبه، شيخنا أبي الحسن بن الجياب كاتب أبيه وأخيه حتى وفاة ابن الجياب سنة ٧٤٩هـ، فأجرى لي الرسم وعصب بي تلك المثابة، مضاعف الجراية، معززاً بولاية القيادة حسبما وقع اسيتفاؤه في كتاب نفاضة الجراب من تأليفنا"[٣].

كما وصفه ابن الخطيب بأنه كان أزهر، مليح القد، جميل الصفات، كث اللحية، وسيماً، عذب الكلام، وافر العقل، كثير الهيبة، فطناً، كلفاً بالمباني والأثواب، مستميلاً لمعاصريه من الملوك[٤].

وكان من أهم الأحداث في عهده وقعة طريف التي ذكرها مؤرخو الأندلس، مثل ابن الخطيب، والمقري وابن خلدون، فقد أرسل السلطان أبو الحسن المريني سنة ٧٤٠هـ/١٣٣٩م جيشاً بقيادة ابنه الأمير أبي مالك إلى الأندلس، توغل في أراضي الإسبان، ثم علم أن الإسبان قد جمعوا له يريدون محاربته، فأشار عليه القادة أن يتراجع ويعتصم بالوادي الذي يفصل بين بلاد المسلمين وبلاد الإسبان ويتمركز في مدن المسلمين، فلم يستمع لنصيحتهم، ففاجأه الإسبان صبحاً قبل أن يتمكن أبو مالك ورجاله من

---

[١] ابن الخطيب، كناسة الدكان، ص ٩، ١٠.

[٢] المقري، نفح، ج٥، ص ٧٦.

[٣] ابن الخطيب، اللمحة البدرية، ص ١٠٤؛ الإحاطة، ج٤، ص ٣٢٠.

[٤] ابن الخطيب، اللمحة البدرية، ص ١٠٢؛ الإحاطة، ج٤، ص ٣١٨.

ركوب خيولهم، فقتله الإسبان، كما قتلوا الكثير من جنوده ونهبوا المعسكر ورجعوا على أعقابهم، فلما علم السلطان أبو الحسن بذلك بادر بالاستعداد للجهاد واستعان بالحفصيين الذين أرسلوا له اسطولهم، وانضمت إليه أساطيل إسلامية أخرى، وتجمعت في سبتة بقيادة محمد بن علي العزفي، وتمكن الأسطول الإسلامي من إحراز النصر على أسطول الإسبان في الزقاق، وقتل قائد الإسبان، وغنم المسلمون سفناً كثيرة، وأسروا أعداداً كبيرة وكان ذلك سنة ٧٤٠هـ/١٣٣٩م. وعلى أثر ذلك عبر السلطان أبو الحسن بنفسه إلى الأندلس على رأس جيش عدته ستين ألفاً ونزل بساحة طريف في محرم سنة ٧٤١هـ/١٣٤٠م ووافاه سلطان غرناطة أبو الحجاج يوسف بعسكر الأندلس وعسكر بجانبه، وأحاطوا بطريف. فأرسل الطاغية الفونس الحادي عشر ملك قشتالة وليون اسطوله لاعتراض المسلمين في بحر الزقاق وقطع الامدادات عنهم، وحشد له جموع الفرنجة، وانضم إليه ملك نبرة، وملك انجلترا ادوارد الثالث (١٣٢٧ـ١٣٧٧م)، وملك البرتغال الفونس الرابع (١٣٢٥ـ١٣٥٧م)، وملك أرغون بطرس الرابع بن الفونس السابع بن جيمس الثاني (١٣٢٦ـ١٣٨٧م)، بتأييد البابا كلمنت السادس (١٣٤٢ـ١٣٥٢م). وكان المسلمون قد طال حصارهم لطريف مدة ستة أشهر فقلت أقواتهم وضعفت قوتهم، واشتبك جيش الإسبان مع جيش المسلمين من مغاربة واندلسيين، وداهم الفرنج معسكر المسلمين، ولم ينجح المسلمون في صدهم بالرغم من استماتهم في القتال. واستشهد كثيرون منهم، وتراجع السلطان أبو الحسن وعساكر غرناطة، وانسحب السلطان أبو الحسن إلى الجزيرة الخضراء ثم إلى سبته، كما عاد ابن الأحمر إلى غرناطة. وكان وقع هذه المعركة شديداً على المسلمين[1] وسماها الإسبان معركة Salado. وقد نقل المقري عن ابن خلدون ذكر هذه المعركة التي اشتركت فيها جيوش المرينيين وجيوش ابن الأحمر، وهزم فيها السلطان المريني أبو الحسن، وقتل فيها جمع من أهل الإسلام ولُمَّة وافرة من الاعلام، وطمع العدو في أخذ ما بقي من الجزيرة (الأندلس)، وثبت أقدامه في طريف، فكانت هذه الواقعة من الدواهي المفصلة الداء.

وجمع الفونس الحادي عشر بعدها للمسلمين فحاصر قلعة بني سعيد ثغر غرناطة، ثم انصرف الطاغية إلى بلاده، وفي هذه الأثناء عاد السلطان أبو الحسن إلى إرسال حملة وصلت الجزيرة الخضراء، فعاد اسطول الفونس الحادي عشر إلى الزقاق وسيطر عليه،

---

[1] ابن الخطيب، كناسة الدكان، ص٣١؛ اللمحة البدرية، ص ١٠٥-١٠٩؛ المقري، نفح، ج٥، ص١٤، ١٥؛ الناصري، الاستقصا، ج٣، ص ١٣٤-١٣٧؛ ضيا باشا، الأندلس الذاهبة، ص ١٨٥؛ الحجي، التاريخ الأندلسي، ص ٥٤٣؛ فرحات، غرناطة، ص ٤٤.

ثم تقدمت قواته إلى الجزيرة الخضراء وحاصرها، فتقدم السلطان أبو الحجاج يوسف من غرناطة ونزل مقابل الطاغية في جبل الفتح، بينما استمر السلطان أبو الحسن في إرسال الإمدادات إليه من سبته في أوقات غفلة العدو، لكن هذه المحاولات لم تفلح في إنقاذ الجزيرة، وطلب السلطان أبو الحجاج من السلطان أبي الحسن أن يفاوض الإسبان على السلم فوافق على ذلك واستولى الإسبان على الجزيرة الخضراء سنة ٧٤٣هـ/١٣٤٢م[١]. وكاد الفونس الحادي عشر أن يستولي على الأندلس لولا أن الله تداركها بجميل صنعه، إذ مات الفونس الحادي عشر سنة ٧٥١هـ/١٣٥٠م بالوباء الذي انتشر في جيشه مما اضطره إلى الارتداد[٢]، وكان هذا الوباء قد اجتاح الأندلس كلها ومناطق أخرى من العالم الإسلامي وحوض البحر الأبيض المتوسط، وألف ابن الخطيب رسالة عنه سماها (مقنعة السائل عن المرض الهائل)[٣].

واستمرت العلاقات بين السلطان أبي الحجاج يوسف والسلطان المريني أبي الحسن على نحو حسن، واستمرت هذه العلاقات الطيبة مع السلطان المريني أبي عنان الذي تولى الحكم بعد وفاة والده سنة ٧٥٢هـ/١٣٥١م.

وبالرغم من الأحداث الحربية الكثيرة التي حدثت في عهد السلطان يوسف (أبو الحجاج) إلا أن معظم أيامه كانت أيام أمن في الداخل، فقد بنيت في أيامه المدرسة العجيبة أولى المدارس في عهده، كما بني حصن على الجبل المتصل بقصبة مالقة[٤].

وافاه الأجل وهو في ريعان الشباب إذ هاجمه يوم الفطر من عام ٧٥٥هـ/١٣٥٤م وهو في الركعة الأخيرة رجل ممرور (مجنون) رمى نفسه عليه وطعنه بخنجر، ويذكر ابن الخطيب الذي كان حاضراً أنه قبض على المعتدي فمزق وأحرق بالنار (وحمل السلطان على رؤوسنا على الفوت ولم يستقر به إلا وقد قضى رحمه الله)[٥]. وقد نقش أسمه على باب قبة مربعة في قصبة غرناطة (عز لمولانا السلطان الملك المجاهد أبي

---

(١) الناصري، الاستقصا، ج٣، ص ١٣٧، ١٣٨.

(٢) ابن الخطيب، اللمحة البدرية، ص ١٠٩.

(٣) عنان، نهاية الأندلس، ص ١٢٢.

(٤) ابن الخطيب، اللمحة البدرية، ص ١٠٩؛ فكاك الأسير، ص ١٧٧.

(٥) ابن الخطيب، اللمحة البدرية، ص١١٠؛ الإحاطة، ج٤، ص٣٣٣؛ المقري، نفح، ج٥، ص٨١.

الحجاج، عز نصره، النصر والتمكين والفتح المبين لمولانا أبي الحجاج أيد الله أمره وأعز نصره، وما بكم من نعمة فمن الله)[1].

وقد أورد لسان الدين بن الخطيب عدداً من المراسلات التي تمت بين السلطان يوسف أبي الحجاج وسلطان المغرب أبي عنان فارس تتعلق بالتعاون بينهما لرد غارات الإسبان، وإعلام سلطان المغرب بما يقع في قشتالة من أحداث ولا سيما نشوب الحرب الأهلية بين ملك قشتالة بيدرو الثاني وبين النبلاء القشتاليين بزعامة هنري تراستمارا الأخ غير الشرعي لملك قشتالة[2]. كما أوفد السلطان أبو الحجاج (يوسف) وزيره لسان الدين بن الخطيب إلى السلطان المريني أبي عنان لتعزيته بوفاة والده السلطان أبي الحسن، فقدم ابن الخطيب وأدى الرسالة، وجلى في أغراض تلك السفارة وعاد إلى غرناطة[3].

محمد (الخامس) الغني بالله بن يوسف الأول بن إسماعيل بن فرج بن إسماعيل بن فرج (٧٥٥ـ٧٩٤هـ/١٣٦١ـ١٣٩٢م).

وهو السلطان الذي ذكر لسان الدين بن الخطيب أخباره مفصلة في كتابيه الإحاطة في أخبار غرناطة، واللمحة البدرية، وزاد في مدحه وإضفاء الألقاب عليه فوصفه بأنه (ايمن أهل بيته نقيبة، جمع الله له حسن الصورة واستقامة البنية واعتدال الخلق وصحة الفكر ونفوذ الادراك وحسن التأني، وسلامة الصدر وسرعة العبرة، وشمول الطهارة والعفة، والكلف بالجهاد وقوة الجأش والبسالة وصحة العقد[4].

تولى الملك إثر صلاة عيد الفطر سنة ٧٥٥هـ/١٣٥٤م على أثر مقتل والده، وهو يافع قريب العهد بالمراهقة، وشهدت بداية عهده فترة من السلم والرخاء، فكان العيش هنيئا ولم تشح السماء في عهده ولا كَلِبَ الأعداء عليه ولا عونيت الشدائد ولا عرف الخوف

---

(١) الغساني، رحلة الوزير، ص ١٧٧.

(٢) ابن الخطيب، كناسة الدكان، ص ٩٤، ٩٧، ١٠٣.

(٣) الناصري، الاستقصا، ج٣، ص ١٩١.

(٤) ابن الخطيب، لسان الدين، الإحاطة، ج٢، ص ١٤؛ اللمحة البدرية، ص ١١٣.

ولا فورق الخصب، لم يحدث في أيامه حدث إلا العافية والهدنة والأفراح المتجددة والآمنة المستحكمة والسلم المنعقد[1].

وفي عهده عين أبا النعيم رضوان حاجباً له، وكان بمثابة نائب عنه، ووصفه ابن الخطيب بأنه أحسن إليه وأنه أشركه في الرتبة وعني به. كما أبقى ابن الخطيب بالوظيفة التي كانت له في أيام والده من كتابة وإنشاء وعرض وجواب، جامعاً بين خدمة القلم ولقب الوزارة معزز الخطط برسم القيادة، مخصوصاً بالنيابة عنه في الغيبة، مطلق أمور الإيالة مطلق الجراية، ظاهر الجاه والنعمة. ثم تضاعف العز فرفعه إلى صف الوزارة وأحلاله المحل الذي لا فوقه في الخصوصية وزاد في تكريمه (كما ذكر ابن الخطيب في اللمحة البدرية) أن السلطان (حدد لي الرسوم الوزارية من الوقوف بين يديه في المجالس العامة، وايصال الرقاع، وفصل الأمر والتنفيذ للحكم والتردد بينه وبين الناس والعرض والإنشاء والمواكلة والمجالسة[2].

والحقيقة أن ابن الخطيب كان يتمتع بمكانة ممتازة لدى السلطان محمد (الغني بالله) حتى اطلق عليه لقب ذي الرياستين (القلم والسيف)، كما وصف بذي العمرين لاشتغاله بالتصنيف في ليله وتدبير المملكة في نهاره، بحيث تمكن وهو وزير من أن يؤلف ستين كتاباً[3].

وقد أرسله السلطان محمد في ثاني يوم لولايته سنة ٧٥٥هـ/١٣٥٤م في سفارة إلى سلطان المغرب أبي عنان المريني، ليخطب وده، حيث وفد عليه ابن الخطيب ولقي منه الحفاوة والتكريم، فأنشده ابن الخطيب قصيدة مطلعها:

خليفة الله ساعد القدر علاك ما لاح في الدجا قمر

وانصرف عنه بأفضل ما عاد به سفير من إمداد وهدايا، وقد نجح مسعى السفارة وأثمر الجهد[4].

وقد قام السلطان محمد بتجديد تحصين جبل الفتح.

---

[1] ابن الخطيب، الإحاطة، ج٢، ص ١٤-٢٣؛ اللمحة البدرية، ص ١١٥.

[2] ابن الخطيب، الإحاطة، ج٢، ص ١٧؛ اللمحة البدرية، ص ١١٥، ١١٦.

[3] ابن الخطيب، اللمحة البدرية، ص ١١.

[4] ابن الخطيب، الإحاطة، ج٢، ص ١٩ـ٢٠.

وفي سنة ٧٦٠هـ/١٣٥٨م كانت الحادثة التي جرت عليه، وقامت عليه الثورة، وقد نجحت هذه الثورة لأن الحاجب رضوان أضاع الحزم ولم يعط أمن السلطان العناية الكافية، وكانت المؤامرة بتدبير من زوجة أبيه والدة أخيه إسماعيل، وهي أم زوجة الرئيس محمد بن إسماعيل بن فرج، وكانت تتردد عليه لزيارة ابنتها، التي كانت تسكن خارج القلعة، وهكذا قام حوالي مائة من الرجال بدخول الحمراء من فتحة بسورها كانت تحت الاصلاح والترميم، ونصبوا سلماً صعدوا منه وقصدوا الباب الذي كانت قد أهملت حراسته، ودخل فريق منهم دار الحاجب رضوان، ودخلوه عنوة وقتلوه في مضجعه بين أهله وولده، بينما قصد فريق آخر دار الأمير إسماعيل (أخي السلطان محمد) الذي كان معتقلاً فيها، وأخرجوه منها ونادوا به سلطاناً. وقد حاول السلطان الذي كان مع أهله في جنة العريف المجاورة خارج القلعة عندما سمع العجيج وأصوات الطبول أن يدخل القلعة فوجدها قد احتلت مما اضطره إلى التراجع ومن ثم التوجه إلى مدينة وادي آش قبل أن يصله المهاجمون، فحاولوا اللحاق به لكنهم لم يفلحوا. وهكذا نجحت الثورة وتمت البيعة للأمير إسماعيل، وراسلوا ملك قشتالة لعقد الصلح، بينما التف أهل وادي آش حول السلطان المخلوع وثبتوا معه وبايعوه على الموت، لكنه خشي من سوء العاقبة، وأرسل إلى السلطان أبي سالم ملك المغرب في شأن القدوم عليه، ويقال أن سلطان المغرب أرسل إليه يستدعيه إلى المغرب فخرج إليها، حيث بالغ السلطان في حفاوته. أما ابن الخطيب فقد نجا بحياته لكنه تعرض للنكبة، واكتسحت داره واستؤصلت نعمته فلم يبق له طارف ولا تليد، وسجن، لكنه لم يلبث أن أفرج عنه بشفاعة السلطان أبي سالم سلطان المغرب، فلحق بالسلطان المخلوع بوادي آش وتوجه معه إلى المغرب، حيث استقبل الجميع بالحفاوة والتكريم وبالغ السلطان المغربي في حفاوتهم[1].

---

(1) ابن الخطيب، اللمحة البدرية، ص ١٢١، ١٢٢؛ نفاضة الجراب في علالة الاغتراب، تحقيق د. أحمد مختار العبادي، القاهرة، ص ١٤؛ الإحاطة، ج١، ص ٥٢٤-٥٢٦؛ الإحاطة، ج٢، ص ٢٦-٢٨؛ المقري، نفح، ج٥، ص ٧٦-٩٨؛ ضيا باشا، الأندلس الذاهبة، ص ١٠٩؛ الناصري، الاستقصا، ج٤، ص ٨، ٩؛ المقري، أزهار الرياض، ج١، ص ١٩٤، ٢٠٢.

وفيما يلي أبيات من القصيدة الطويلة التي مدح فيها لسان الدين ابن الخطيب السلطان أبي سالم يستحثه على مناصرته هو والسلطان الغني بالله:

سلا هل لديها من مخبرة ذكر ... وهل أعشب الوادي ونمّ به الزهر

وهل باكر الوسمي دارا على اللوا ... عفت أيها إلا التوهم والذكر

بلادي التي عاطيت مشمولة الهوى ... باكنافها والعيش فينان مخضر

نبت بي لا عن جفوة وملالة ... ولا نسخ الوصل الهني بها هجر

ولكنها الدنيا قليل متاعها ... ولذاتها دأبا تزور وتزور

فمن لي بقرب العهد منا ودوننا ... مدى طال حتى يومه عندنا شهر

إلى أن يقول:

قصدناك يا خير الملوك على النوى ... لتنصفنا مما جنى عبدك الدهر

خلافتك العظمى ومن لم يدن بها ... فإيمانه لغو وعرفانه نكر

دعتك قلوب المؤمنين وأخلصت ... وقد طاب منها السر لله والجهر

ومثلك من يرعى الدخيل ومن دعا ... بيالمرين جاءه العز والنصر

وأسد رجال من مرين وعزة ... عمائمها بيض وأسالها سمر

هم القوم أن هبوا لكشف ملمة ... فلا الملتقى صعب ولا المرتضى وعر

وأنت بتتميم الصنائع كافل ... إلى أن يعود الجاه والعز والوفر

جزاك الذي أسنى مقامك رحمة ... يفك بها عانٍ وينعش مضطر

وقد أحاط السلطان أبي سالم السلطان الغني بالله ووزيره ابن الخطيب بكل مظاهر الحفاوة وأسكنهما في القصور ورتب لها الجرايات، واحتفظ بألقاب ملكه وظل كذلك إلى حين عودته إلى ملكه سنة ٧٦٣هـ/١٣٦١م، وكانت القصيدة مؤثرة أبكت

الحاضرين، وبقي السلطان محمد مقيماً مكرماً عند بني مرين في فاس، بينما انتقل ابن الخطيب إلى مدينة سلا مرابطاً مستمتعاً بالغيبة تحت نعمة كبيرة وإعفاء من التكليف[١].

إلا أن الأمر لم يستقم للأمير إسماعيل في الملك سوى سنة واحدة. وكان كما وصفه ابن الخطيب بديناً خنثاً لإقامته مع النساء أثناء فترة اعتقاله مستغرقاً في اللذة، قاصر الهمة، بحيث تولى الأمر صهره زوج أخته محمد بن إسماعيل الذي استبد بالأمر دونه ثم قتله سنة ٧٦١هـ/١٣٥٩، حيث دخل عليه وهو متبذل في بعض قصوره وأحاط به، ولم يتمكن من الاستنجاد بالناس، فساقه المتمردون حافياً حاسراً وتعاورته السيوف وحزّ رأسه وطرح على الناس والحق به أخوه الصغير قيس ومربيه عباد وطرحت جثتاهما في العراء[٢].

وقد عرف محمد بن إسماعيل هذا في المصادر الإسبانية باسم البرميخو ومعناه بالإسبانية اللون البرتقالي الضارب إلى الحمرة وذلك بسبب لون لحيته وشعره[٣]. ويصف ابن الخطيب أحوال غرناطة في عهده بأنها كانت سيئة، فقد ضيق البرميخو على الرعايا وكلفهم بدفع أرزاق الجنود وأرغمهم على اسكان الجنود في دورهم، كما وصفه بأنه كان متبذلاً يمشي في غرناطة عاري الرأس يخالط الأوغاد والمهرجين، مما اضطر كثيراً من الأمراء إلى الفرار إلى المغرب أو الممالك المسيحية مثل الأمير أبي الوليد إسماعيل بن نصر عم السلطان محمد الخامس (الغني بالله)[٤] ويحيى بن عمر بن رحو، كما فر عدد من أقارب السلطان النصريين مثل أحمد بن محمد بن نصر وأخيه علي[٥].

أما السلطان المخلوع محمد (الخامس) الغني بالله، فقد قرر جواز البحر من سبته إلى جبل الفتح، وتحصن في مدينة رنده التي كانت تابعة لحكم سلطان المغرب، ومن هناك

---

(١) ابن الخطيب، الإحاطة، ج٢، ص ٢٧-٢٨؛ الناصري، الاستقصا، ج٤، ص ٩-١٢؛ المقري، نفح، ج٥، ص ٨٦-٨٩؛ أزهار الرياض، ج١، ص ١٩٦.

(٢) ابن الخطيب، اللمحة البدرية، ص ١٢٦، ١٢٧، ١٢٨، ١٢٩؛ نفاضة الجراب، ص ١٠٣ــ١٠٥.

(٣) ابن الخطيب، نفاضة الجراب، ص ١٣ من مقدمة المحقق.

(٤) المصدر نفسه، ص ١٦، ١٨٣.

(٥) المصدر نفسه، ص ١٧٩ــ١٨٢.

راسل ملك قشتالة بيدرو الأول Pedro I كما راسل زعماء مملكة غرناطة يحرضهم على السلطان المغتصب (أبي سعيد البرميخو) وتقدم إلى احواز انتقيره وهناك علم بمصرع السلطان أبي سالم المريني على أثر انقلاب قام به وزيره عمر بن عبد الله ابن علي الذي تحالف مع البرميخو وتخلى عن السلطان محمد المخلوع، كما تحالف البرميخو مع ملك أرغون بيدرو الرابع واشترك معه في مؤامرة عزل السلطان أبي سالم. لكن تطور الأحداث أدت إلى عودة السلطان محمد الغني بالله إلى رنده[1] كما تقدم. وقد ثبت السلطان محمد في رنده، ثم تحرك إلى مالقه واستولى عليها واطاعته البلاد، فخاف البرميخو على نفسه، فهرب إلى ملك قشتالة بيدرو الذي قام بقتله وقتل من معه، فخلا الجو للسلطان محمد الغني بالله الذي حث خطاه متقدماً إلى غرناطة فلقيه الناس مستبشرين، فعاد إلى دار ملكه سنة ٧٦٣هـ/١٣٦١م، وعاد على أثره ابن الخطيب بعد شهرين[2]، ولم يتخذ لنفسه وزيراً عند عودته لكنه قرب إليه علي بن يوسف بن كماشه الذي لم يكن مخلصاً للسلطان، واتصل بملك قشتالة فأوقفه السلطان عند حده ونفاه مع أولاده إلى تونس، ثم ذهب إلى برشلونه حيث أرسله في سفارة إلى سلطان المغرب، فلم تنجح سفارته، فتحول إلى ملك قشتالة يغريه بالمسلمين فقبض عليه في فاس وسجن. وأعاد ابن الخطيب إلى الوزارة ورمى إليه بدنياه وحكمه فيما ملكته يداه وغلبه على أمره لهذا العهد (أي وقت كتابة الإحاطة). وعين أبا عبد الله بن زمرك كاتباً عنده[3].

وكان يعاصره من ملوك الإسبان: بيدرو الأول في قشتالة Pedro I، وكان بينه وبين السلطان محمد هدنة، وقد قامت الحرب بينه وبين صاحب (برجلونة) برشلونة أي ملك أرغون بطرس الرابع Pedro IV، بسبب اجارة هذا الأخير لهنري دي تراستمارا (الأخ غير الشرعي لملك قشتالة)، ويذكره ابن الخطيب باسم أندريق المدعو بالقند، وتحالف هنري مع ملك فرنسا الذي حشد له جيشاً من المرتزقة وحارب أخاه (بيدرو) (بطرس) وانتصر عليه سنة ١٣٦٦م، ودخل إشبيلية واستولى على الملك، وفر بيدرو

---

[1] ابن الخطيب، نفاضة الجراب، ص ٣٦-٤٠، ٢٨٥، ٢٩٧؛ ضيا باشا، الأندلس الذاهبة، ص١٩٠-١٩٢.

[2] ابن الخطيب، الإحاطة، ج٢، ص ٢٩-٣٠؛ نفاضة الجراب، ص ٣٦-٤٠، ٢٨٥-٢٩٧؛ اللمحة البدرية، ص١٢٩؛ المقري، نفح، ج٥، ص ٩٠.

[3] الإحاطة، ج٢، ص ٣١-٣٤.

الأول إلى البرتغال. ويسهب ابن الخطيب في ذكر الطريقة التي استعاد فيها بيدرو الأول ملكه في قشتالة[1]. وعندما قتل بيدرو الأول في خلال النزاع الداخلي على عرش قشتالة اغتنم السلطان محمد الفرصة واستعاد بعض الحصون كما استعاد الجزيرة الخضراء في سنة ٧٧٠هـ/١٣٦٩م[2]. إذ زحف عليها وساعده السلطان عبد العزيز المريني بالمال والأسطول وآلات الحصار فاستسلم من بها من الإسبان ونزلوا عن البلد، وظلت تابعة لابن الأحمر حتى تم هدمها خشية استيلاء الإسبان عليها فهدمت سنة ٧٨٠هـ/١٣٧٨م. وتبع ذلك فترة من الهدوء والاستقرار في غرناطة حتى وفاته سنة ٧٩٣هـ/١٣٩١م.

أما لسان الدين بن الخطيب فقد ذكرنا أنه خلص من السجن بشفاعة الملك المريني أبي سالم، وذهب إلى المغرب، وعندما عاد السلطان محمد المخلوع إلى ملكه بالأندلس، عاد إليها لسان الدين بن الخطيب، لكنه لم يلبث أن عاد إلى المغرب بعد أن شعر أن حاسديه يتآمرون ويحرضون السلطان عليه فأستقبله سلطان المغرب عبد العزيز بحفاوة سنة ٧٧٣هـ/١٣٧١م ولحقه أهله وولده، لكن خصوم ابن الخطيب لم يلبثوا أن أوغروا صدر هذا السلطان على ابن الخطيب واتهموه بالزندقة، وطالب سلطان الأندلس من سلطان المغرب تسليمه ابن الخطيب لكن سلطان المغرب رفض ذلك، فلما مات السلطان عبد العزيز سنة ٧٧٤هـ/١٣٧٢م قامت الحرب بسبب ابن الخطيب بين غرناطة والمغرب وانتصر فيها صاحب غرناطة. وكان من شروط الصلح تسليم ابن الخطيب له، فقبض على ابن الخطيب وحضر إلى المغرب تلميذه وخليفته وخصمه أبو عبد الله بن زمرك كاتب السلطان، بعد فرار ابن الخطيب (وكان ابن الخطيب هو الذي رفع شأن ابن زمرك ثم انقلب عليه)، وقد وصفه المقري لذلك بأقذع الأوصاف ومات قتيلاً سنة ٧٩٠هـ/١٣٨٨م، وحوكم ابن الخطيب أمام مجلس الشورى بتهمة الزندقة وأفتي بقتله ووضع في السجن، وفعلاً قتل خنقاً في السجن، ثم أشعلت النار حول جثته (قبل أن يدفن بمقبرة باب المحروق)[3] بفاس.

---

[1] ابن الخطيب، الإحاطة، ج٢، ص ٤٢-٤٨.

[2] الناصري، الاستقصا، ج٤، ص ٥٦؛ فرحات، غرناطة في ظل بني الأحمر، ص ٤٨، نقلاً عن ابن الخطيب، أعمال الأعلام، ص ٣٠٨، ٣٠٩؛ اللمحة البدرية، ص ١٢٩؛ الإحاطة، ج٢، ص ٢٣-٢٥.

[3] ابن الخطيب، الإحاطة، ج٤، ص ٦٣٥؛ اللمحة البدرية، ص ٩، ١٠؛ المقري، نفح، ج٥، ص١٠٠-١١١، ١١٩؛ ج٦، ص ٧٧؛ المقري، أزهار الرياض، ج١، ص ٢٢٩؛ ج٢، ص ١١؛ ضيا باشا، الأندلس الذاهبة، ص١٩٣؛ الناصري، الاستقصا، ج٣، ص ٥٨، ٦٢، ٦٣، ٦٤.

وقد شهدت غرناطة بعد وفاة الغني بالله فترة من المنازعات الداخلية والفتن أدت إلى ضعف مملكة غرناطة وسقوطها في النهاية في يد الإسبان كما سيأتي. ويعتبر عصر محمد الخامس هو عصر ازدهار الحضارة في غرناطة، واعتبر المؤرخون عصره مشابهاً لعصر عبد الرحمن الثالث (الناصر) الأموي، فقد تقدمت الزراعة وصناعة الأسلحة والصوف والحرير والجلود والأدوية والعطور والأصباغ والخزف، كما تقدمت التجارة، وكانت أعظم موانئها المرية، وأصبحت غرناطة مستودع التراث الأندلسي، كما ازدهر الأدب وبرز في هذا العهد الوزير لسان الدين بن الخطيب الذي سبق ذكره[1].

يوسف الثاني. (٧٩٣ـ٧٩٥هـ/١٣٩٢ـ١٣٩٣م).

خلف والده سنة ٧٩٣هـ/١٣٩١م لكن مدة حكمه كانت قصيرة لم تزد على سنة واحدة إذ توفي سنة ٧٩٤هـ/١٣٩٢م (مسموماً على ما قيل)، وفي عهده أغار المسلمون على أراضي مرسية ولورقة، كما عاث الإسبان فساداً في مرج غرناطة[2].

محمد السادس بن يوسف المستعين بالله. (٧٩٥ـ٨١٠هـ/١٣٩٣ـ١٤٠٨م).

حكم من سنة (٧٩٤ـ٨١١هـ/١٣٩٢ـ١٤٠٨م)، وعندما استلم الحكم حبس أخاه الأكبر يوسف (على اسم والده)، واتخذ أبا عبد الله بن زمرك حاجباً له. وكان ابن زمرك هذا قد خدم الغني بالله محمد بن يوسف سبعاً وثلاثين سنة. وقد أنشده فيها ستاً وستين قصيدة في ستة وستين عيداً، وكان الغني بالله قد أعجب به أثناء إقامته بالمغرب فكلف به لحلاوة منطقه ومراوضة خلقه وصحبه معه عند عودته إلى ملكه فعلت منزلته وعينه كاتباً وصرفه في الوجوه المتعددة من رسالته وحجابته، وفي سنة ٧٧٣هـ خصّه بكتابة سره.

---

(١) ضيا باشا، الأندلس الذاهبة، ص ٢٠٧ـ٢١٤، نقلاً عن الإحاطة وابن خلدون.

(٢) عنان، نهاية الأندلس، ص ١٣٧.

إلا أنه كان من أسباب الفتنة، وكان من شأنه الاستخفاف بأولياء الأمر من حجاب الدولة، مع الاستغراق في غمار الفتن في الأندلس والمغرب، كما كان مستبداً شرس اللسان، مما أدى إلى ازدياد النقمة عليه وبالتالي قتله في بيته بين أهله وعياله[1]، فقد تآمر عليه خصومه وقتلوه هو وأولاده، لأنه كان طاغية مستبداً. وعين محمد بن يوسف وزيراً آخر هو أبو بكر محمد بن عاصم.

وكان السلطان محمد هذا عنيفاً جريئاً طموحاً شجاعاً، قام بشن عدة غزوات على المدن التابعة لقشتالة لكنه وقع في النهاية هدنة بينه وبين الملك خوان الثاني ١٤٠٤_١٤٥٤م ملك قشتالة، إلا أن هذه الهدنة لم تلبث أن نقضت في عهد هذا الملك القشتالي الذي كان صغيراً يحكم تحت وصاية أمه وعمه فرديناند Fernando el de Antequera الذي قام بغزو أراضي المسلمين واستولى على حصن الصخرة قرب رنده، فبادر السلطان محمد بغزو أراضي قشتالة من ناحية الشرق، واستمرت المعارك سجالاً بين الطرفين حتى اتفقا على عقد هدنة سنة ٨١١هـ/١٤٠٨م. وقد توفي السلطان محمد بعد عودته إلى غرناطة في العام نفسه، غير أن غرناطة كانت من ناحية أخرى مرتبطة بمعاهدة مع ملك ارغون وابنه ملك صقلية[2].

يوسف الثالث : ٨١٠_٨٢٠هـ/١٤٠٨_١٤١٧م.

وهو يوسف بن يوسف، على اسم والده، دام حكمه من سنة ٨١٠-٨٢٠هـ/١٤٠٨-١٤١٧م. اعتلى العرش على أثر وفاة أخيه محمد بن يوسف الثاني، الذي كان قد أودعه السجن واغتصب منه العرش بموافقة الفقهاء، فعاد إلى ملكه، وكان ملكاً محبوباً من الشعب. وفي عهده تمكن القشتاليون من احتلال مدينة انتيكيرا سنة ٨١٣هـ/١٤١٠م الواقعة شمال غربي العاصمة غرناطة بعد معركة حامية

---

[1] المقري، أزهار الرياض، ج٢، ص ١١-١٧، ٢٠؛ نفح، ج٧، ص ١٤٥.

[2] الحمصي، د. أحمد سليم، ابن زمرك الغرناطي، بيروت، ١٤٠٥هـ/١٩٨٥م، ص ١٤؛ عنان، نهاية الأندلس، ص ١٣٨؛ ضيا باشا، الأندلس الذاهبة، ص٢١٨؛ المقري، نفح، ج٥، ص ١٧٧.

سنة ٨١٥هـ/ ١٤١٢م، وأطلق على قائد القشتاليين الوصي فرديناند لقب صاحب انتيكيرا Antequera[١]. وفرض هذا الوصي الصلح على يوسف الثالث الذي أصبح تابعاً لقشتالة. وتوفي سنة ٨٢٠هـ/١٤١٧م وخلفه ابنه محمد.

وقد امتاز يوسف هذا برجاحة العقل والخبرة، وقد أثرت فيه السنوات التي قضاها في السجن وما لقيه من ظلم وقسوة، لهذا فإنه كان يكره الظلم فأحاط شعبه بالعطف والرعاية خلال مدة حكمه[٢].

محمد السابع المتمسك بالله بن يوسف: وهو أبو عبد الله محمد بن يوسف الثالث الملقب بالأيسر كما لقب بالغالب بالله حكم للمرة الأولى ٨٢٠ـ٨٣١هـ/١٤١٧ـ١٤٢٨م.

شهد عهد هذا السلطان الطويل سلسلة من الفتن الداخلية، إذ عُزل السلطان نفسه عن عرشه خمس مرات، ولم يكن هذا السلطان محبوباً من الشعب فقد كان صارماً متعالياً سيء الخلال لا يتصل بشعبه، واعتمد في الحكم على وزيره يوسف بن سراج الذي كان يعمل جاهداً لتخفيف سخط الشعب على السلطان، وينتسب يوسف بن سراج إلى أسرة أصبح لها شأن في تاريخ الأندلس في القرن التاسع الهجري/الخامس عشر الميلادي، وهي أسره تنتمي إلى قبيلة طيء، وكانوا من سادة غرناطة، ثم برزوا إلى القيادة في عهد الأيسر.

استغل ملك قشتالة خوان الثاني فرصة الفتن في عهد الأيسر فعمل على إذكائها، (وقد وصلتنا معظم أخبار هذا السلطان من كاتبه أبي يحيى محمد بن عاصم الغرناطي، صاحب كتاب جنة الرضا الذي وصف بأنه كان قاضياً للجماعة ولقب بالرئيس الوزير الكاتب)[٣]، ثم هاجم غرناطة سنة ٨٣١هـ/١٤٢٨م، مما زاد في اضطراب الفتن في

---

[١] فرجات، غرناطة، ص ٥٢، ٥٣؛ عنان، نهاية الأندلس، ص ١٤١.

[٢] ضيا باشا، الأندلس الذاهبة، ص ٢٢١.

[٣] ابن عاصم الغرناطي، جنة الرضا، ص ٣٥.

غرناطة نفسها بسبب عجز الأيسر عن دحر النصارى فقامت الثورة ضده وعزلوه وأقاموا محمد بن محمد بن يوسف الثالث (وهو ابن أخي الأيسر) والملقب بالزغير (الصغير) مكانه، وفر الأيسر إلى تونس[1].

حاول الزغير جهده استمالة الشعب لكنه لم ينجح في القضاء على الفتن، كما حاول القضاء على نفوذ بني سراج فطاردهم، واضطر يوسف بن سراج إلى الالتجاء إلى إشبيلية في حماية ملك قشتالة خوان الثاني، وطلب مساعدته لإعادة الأيسر إلى الحكم، فاستدعي الأيسر فحضر من تونس ومعه قوة من الفرسان زوده بها السلطان أبو فارس الحفصي، فنزل في المرية ولقيه الشعب بالحفاوة، فأرسل الزغير حملة لمحاربته لكن معظم جنودها انضموا إلى الأيسر، فزحف على غرناطة ودخلها وقبض على الزغير وقتله سنة ٨٣٣هـ/ ١٤٣٠م[2].

محمد السابع (للمرة الثانية) ٨٣٣ـ٨٣٩هـ/١٤٣٠ـ١٤٣٦م.

جلس الأيسر على عرشه كما أعاد يوسف بن سراج إلى الوزارة، وطلب تجديد الهدنة مع خوان الثاني، لكن هذا اشترط أن يدفع الأيسر ما انفقته قشتالة في سبيل استرداد عرشه، مع دفع جزية سنوية والدخول في طاعة الملك القشتالي، ولما رفض الأيسر هذه الشروط قام خوان الثاني بمهاجمة أراضي المسلمين، ولم تنجح محاولات الأيسر في صد هذا الهجوم واستولى القشتاليون على أوريوله سنة ٨٣٤هـ/١٤٣١م[3].

---

(1) عنان، نهاية الأندلس، ص ١٤٣، ١٤٤.

(2) المرجع نفسه، ص ١٤٤؛ جنة الرضا (مقدمة المحقق)، ص ١٥.

(3) جنة الرضا في التسليم لما قدر الله وقضي، تأليف أبي يحيى محمد بن عاصم الغرناطي، عمان، ١٩٨٩م، ص ١٦ (من مقدمة المحقق)، جرار، د. صلاح، تحقيق كتاب؛ عنان، نهاية الأندلس، ص ١٤٨.

ثورة ابن المدجن:

كان الأيسر قد اضطر إلى العودة إلى غرناطة لمواجهة الثورة التي قام بها أحد المتصوفة وهو يوسف بن المدجن، ويذكر صاحب (جنة الرضا) أن ابن المدجن هذا قد بدأ نشاطه بالدعوة إلى الإصلاح، وكان السلطان الأيسر (الغالب بالله) يخلص فيه النية ويقدم له المساعدة، لكن ابن المدجن لم يلبث أن أخذ يسعى لفتنة الناس، وأخذ يصنع السفن والآلات الحربية، إلى أن استفحل أمره. ثم فاجأ السلطان بهجومه على بعض أرباض الحضرة (غرناطة) سنة ٨٣٤هـ/١٤٣١م داعياً الناس إلى مبايعته، وانضم إليه الغوغاء معلنين إقامة دعوته باذلين النفوس والأموال في خدمته، فوجه إليه السلطان أحد قادته من كانت منيته على يده فهلك وكفى الله تلك الوهلة، وجلا تلك الغمرة[١].

فتنة ابن المول:

لم يكد السلطان الغالب بالله (الأيسر) يفرغ من فتنة ابن المدجن حتى ووجه بفتنة أخرى تزعمها أحد أقارب السلطان وهو الملقب أبو الحجاج يوسف بن المول، وقد قام بثورته بتحريض من خوان الثاني ملك قشتالة الذي كان دائم السعي في إثارة الفتن بين المسلمين، فكان يوهم بأنه يريد مساعدة الغرناطيين ويسعى لمصلحتهم بينما كان يضمر استئصال المسلمين، وتمكن ابن المول بمساعدة القشتاليين من دخول غرناطة مما اضطر السلطان الغالب بالله (الأيسر) إلى الانحياز إلى معقل حصين في كورة ريّه، ومعه أنصاره من قادته وفرسانه وأجناده، كما تمسك أهل بلش بطاعته وأنفوا من الوقوع تحت حكم الإسبان، ثم انتقل السلطان إلى مالقه فانحاز له أهلها، واجتمع المسلمون على ردّ الكرة وعزموا على الثبات، وأقاموا معسكرهم في مدينة بلش[٢].

---

(١) ابن عاصم الغرناطي، جنة الرضاج١، ص ١٦ من مقدمة المحقق، ص ١٨٦-١٨٨.

(٢) المصدر نفسه، ج١، ص ٢٩٨-٣٠٠.

أبو الحجاج يوسف الرابع بن المول بن محمد الخامس ٨٣٩هـ/١٤٣٦م.

وكان ابن المول لدى دخوله غرناطة قد اعلن نفسه سلطاناً، كما أعلن ولاءه للملك القشتالي خوان الثاني الذي كان يحاصر بجيشه مدينة غرناطة يترقب الفرص، كما تعهد ابن المول بإطلاق سراح الأسرى الإسبان في غرناطة ودفع جزية سنوية لملك قشتالة مقدارها عشرون ألف دينار ذهباً، وتقديم ألف وخمسمائة فارس غرناطي لملك قشتالة[١]، كما تعهد بحضور جلسات مجلس النواب القشتالي (الكورتس)[٢].

وأخذ السلطان (الأيسر) الغالب بالله يسعى من معقله في مالقه إلى استرجاع غرناطة فهاجمها ودارت الحرب سجالاً بينه وبين الإسبان.

وكان السلطان يستمد العون من ملك تونس الحفصي أبي فراس والفونس الخامس ملك أرغون وقطلونية (١٣٩٦-١٤٥٨م) ابن فرديناند الأول الانتيكيري. وعندما حاول ابن المول غزو مالقه رد عليه الغالب بالله (الأيسر) بشن هجوم من قاعدته في بلش على العاصمة غرناطة وأوقع هزيمة بالقشتاليين عند البيرة[٣].

محمد السابع (للمرة الثالثة) ٨٣٩-٨٤٤هـ/١٤٣٦-١٤٤١م.

وعلى الأثر تحرك الغالب بالله من مالقه وتوجه إلى (الحضرة) غرناطة فخرج الناس للقائه، فدخل القصبة، وأرسل فئة من جيشه لحصار الحمراء من قبل الجنة المنسوبة للعريف، فتم له فتحها ودخلها أصحابه بمساعدة الأمير أبي الحجاج يوسف بن الأمير أبي العباس أحمد بن نصر ابن أخت السلطان (الذي ثار على السلطان فيما بعد)، وهرب ابن المول، وتم البحث عنه، وكبست منازل الحمراء وفتشت مكاناً مكاناً ثم عثر عليه في

---

(١) ابن عاصم الغرناطي، جنة الرضا، ج١، مقدمة المحقق، ص ١٦.

(٢) عنان، نهاية الأندلس، ص ١٤٥، ١٤٦.

(٣) ابن عاصم الغرناطي، جنة الرضا، ج١، مقدمة المحقق، ص ١٧.

مخدع صغير أو خزانة متخذة في عرض الحائط مسبل عليها حصير الحائد المعد بما يوهم أن ليس هناك شيء، فقضى نحبه وفرج الله الأزمة وتدارك الأمة وشفى من الغصة[1] ولم يدم حكم ابن المول سوى ستة أشهر، وعاد الغالب بالله إلى عرشه.

وعلى الأثر عقدت الهدنة مع القشتاليين، ولكن ملك قشتالة خوان الثاني نقض الهدنة وهاجم المسلمين، إلا أن المسلمين بقيادة القائد الوزير ابن عبد البر والقائد أبي القاسم محمد بن السراج تمكنوا من صدهم مرتين في ارشذونة ووادي آش ومرج غرناطة، وأسروا عدداً كبيراً منهم سنة ٨٣٨هـ/١٤٣٤م. واتصل الأيسر بسلطان المماليك جقمق طالباً منه العون بعد أن ضعفت الدولة المرينية، لكن المماليك لم يستجيبوا لهذا الطلب لانشغالهم في أمور المشرق، واقتصرت مساعدتهم على تقديم العُدد والأموال مما اضطر السلطان الغالب بالله إلى الاعتماد على قوة غرناطة الذاتية، واستمرت الحرب سجالاً بينه وبين القشتاليين الذين زاد خطرهم بعد أن أنهوا خلافاتهم مع مملكتي ارغون ونبره، وتمكنوا من احتلال عدد من الحصون الإسلامية. وقد ترتب على هذه الظروف قيام الغالب بالله (الأيسر) بتجديد الهدنة مع قشتالة بعد أن وافق ملكها خوان الثاني على ذلك بسبب تجدد الصراعات داخل مملكته. وذكر ابن عاصم أن مسالمة هؤلاء النصارى كانت مقابل أتاوة يدفعها الأيسر للملك القشتالي الذي كان يعاني من الوهن، ولكنه كان يخفي ذلك بينما يظهر أنه لا يزال قوياً[2].

محمد بن نصر (الأحنف) ٨٤٤ ـ ٨٥٨هـ/١٤٤١ـ ١٤٥٤م.

ومما زاد الأمور سوءاً بالنسبة للأيسر استمراره المؤسف في السير على استخدام القسوة والتعالي على شعبه وفشله في كسب محبة هذا الشعب الأمر الذي أدى الى انفضاض عدد من فرسانه عنه لدرجة أن بعضهم التجأ إلى بلاط قشتالة، ومن هؤلاء ابن عمه الأمير يوسف بن أحمد الذي عُرف باسم ابن إسماعيل، كما ناصر فريق من هؤلاء

---

[1] ابن عاصم الغرناطي، جنة الرضا، ج١، ص ٣٠١-٣٠٣.

[2] المصدر نفسه، ج١، ص١٨-٢١؛ عنان، نهاية دولة الأندلس، ص١٤٩.

الفرسان الأمير محمد بن نصر المعروف بالأحنف (وهو ابن أخ الأيسر). ولم يلبث الأحنف أن أعلن الثورة على الأيسر وقبض عليه وسجنه، وأعلن نفسه ملكاً سنة ١٤٤١م لكن الفتنة استمرت في عهده بتأييد من ملك قشتالة خوان الثاني، إلا أن الأحنف استغل فرصة اندلاع الخلافات بين أرغون وقشتالة، فهاجم أراضي قشتالة، وأحرز عدداً من الانتصارات، ولا نعرف على وجه التحديد كيف كانت نهاية الأحنف إلا أنه يستفاد من رواية ابن عاصم (صاحب جنة الرضا) الذي كان معاصراً لهذه الأحداث ومشاركاً بها أن محمد الأيسر استرد عرشه للمرة الرابعة[١].

فتنة أبو الحجاج يوسف بن أحمد بن نصر ٨٤٩هـ/١٤٤٥م.

ولعل من أسوأ الفتن الداخلية في عهد الغالب بالله (الأيسر) هي الثورة التي قام بها ابن أخت الأيسر أبو الحجاج يوسف بن أحمد بن نصر، ويذكر ابن عاصم أن هذه الفتنة قامت نتيجة للنميمة والوقيعة التي قام بها الحساد ولا سيما ابن علاق الذي حال بين أبي الحجاج وبين كل ذي رشد[٢]، وقد كان بين الأيسر وابن اخته الأمير أبي الحجاج أعظم ما يكون من المودة بين خال وحافده (ابن اخته). وكانت علاقة والدة أبي الحجاج الحرة فاطمة بأخيها الغالب بالله على أفضل ما يكون الإخوان، لكن الأمير أبا الحجاج أدعى مناوأة أرباب الدولة له، مما أدى إلى نفوره من السلطان وانتباذه بالسكنى بقرية (واد)، كما يصف ابن عاصم أبا الحجاج بأنه كان عزيز النفس، طموح الهمة، شديد الآنفة، لا يحتمل الهضيمة[٣]، وحاولت والدة أبي الحجاج الدفاع عن ابنها من غائلة هذه النمائم المترددة بين الجهتين، واستمر الأمر كذلك سنين. لكن سعاية ابن العلاّق ظلت مستمرة مما أدى إلى ازدياد الجفاء، حتى انتهى الأمر بإعلان أبي الحجاج الثورة واستبد بمنطقته وانتزى بالمرية داعياً لنفسه وطالباً الملك فتوجه إليه السلطان الغالب بالله بجيشه وحاصر المرية نحوا من الشهر، لكنه اضطر إلى التراجع بسبب وقوع الخلاف والكسل بين جنود

---

[١] عنان، نهاية الأندلس، ص ١٥٠-١٥١؛ ابن عاصم الغرناطي، جنة الرضا، ج١، ص ٢١.

[٢] ابن عاصم الغرناطي، جنة الرضا، ج٢، ص ٢٨١.

[٣] المصدر نفسه، ج٢، ص ٣٠٥.

الغالب بالله، فتقدم أنصار أبي الحجاج واحتلوا البيره، كما ووجه الغالب بالله بقيام الثورة في البيره أثناء عودته من المرية، فانحاز إلى مالقه ولكنه أصبح محاصراً بها بسبب انضمام أهالي بلش ووادي آش إلى أبي الحجاج[1]. ويذكر ابن عاصم الذي طالما نبه من أخطار الفتن ودعا إلى الوفاق والتآلف بين المسلمين، أنه قدم من مالقه على السلطان ابي الحجاج للموادعة بينه وبين السلطان الغالب بالله، إلا أن أرباب الدولة قاموا بإغراء العامة به فطردوه وعاثوا فساداً في دوره وأملاكه[2]. ولم يلبث أهالي مالقه أن انضموا للثوار مما اضطر السلطان الغالب بالله إلى الخروج إلى ثغر إلره فأيده أهلها كما أيده أهالي قصر بنيره. لكن الغالب بقي في وضع سيء مما اضطره إلى خلع نفسه عن الملك لتجنب المزيد من الفرقة والفتنة، ووافق أبو الحجاج أن يستقر السلطان في الدار الكبيرة بالحمراء وتكون له شلوبانية. فتم الأمر لأبي الحجاج سنة ٨٤٩هـ/١٤٤٥م ولمدة أربعة أشهر[3].

فتنة أبي الوليد إسماعيل (الوصي) ٨٤٩هـ/١٤٤٥م.

ثم قدم الوصي أبو الوليد إسماعيل الذي (كان مقيماً في قشتالة) إلى قنبيل فنجم الخلاف بينه وبين أبي الحجاج[4] وقام أبو الوليد إسماعيل بن الأحمر، وعمد أبو الحجاج إلى استرضاء القادة فعزل الوزير علي بن علاق الذي طالما وصفه ابن عاصم بأنه سبب الفتنة، وعين مكانه أحد القادة المعروفين في عهد الغالب بالله وهو محمد بن يوسف بن السراج الذي تمكن من احباط ثورة أبي الوليد، فاستعاد الأمن لكن السلطان عاد فعزله، ولكنه لم ينجح في القبض على قائد آخر من قادة الغالب بالله المشهورين وهو ابن عبد البر، فقام هذا باستدعاء ابي الوليد إسماعيل من قشتالة، وتوجها معاً إلى وادي آش، فهرب أبو الحجاج إلى المرية ولم يلبث أن توفي سنة ٨٥١هـ/١٤٤٧م فعاد الغالب بالله إلى عرشه[5].

---

(١) ابن عاصم الغرناطي، جنة الرضا، ج٢، ص ٢٨١-٢٨٣.

(٢) المصدر نفسه، ج١، ص ١٨٠.

(٣) المصدر نفسه، ج١، ص ٣٠٦-٣١١.

(٤) المصدر نفسه، ج٢، ص ٣٠٤-٣١١.

(٥) المصدر نفسه، ص ٢٥، ٢٦.

ويقدم لنا ابن عاصم الكثير عن هذه الفترة التي عاصرها بصفته كاتباً وقاضياً ووزيراً للغالب بالله، حيث يذكر أن اعتقال الغالب بالله في الدار الكبيرة كان مرهوب العاقبة أقلق العامة والخاصة، ونال الأذى قادة الغالب بالله المشهورين مثل يوسف بن فرج بن كماشه وأبي القاسم يوسف بن السراج حيث اعتقلاهُما وقرابتهم، ثم أقال الله عثرتهم ولم شملهم[1].

كما يذكر ابن عاصم أن المسلمين في هذه الفترة تمكنوا من استعادة عدد من الحصون المغتصبة عندما اتفقوا على الجهاد، مثل حصن النجش ووادي المنصور (من أعمال غرناطة) وحصن البريج (شمال غربي غرناطة)، ثم توجهت حملة بقيادة القائد ابن الوزير أبي اسحق ابراهيم بن عبد البر (من وادي آش) وأبي الحجاج يوسف بن كماشة (من بسطه) والشيخ الأحسن الشريف فارس المسلمين في ذلك العهد، ففتح الله عليهم بطللس من أعمال سرقسطة[2]. كما تمكن القادة الوزير بن عبد البر والوزيران أبو القاسم بن السراج وأبو السرور مفرج بن فتوح من فتح حصن السكة المعقل الذي زاحم النجوم بالمنكب، وكان الوزير الحاجب أبو اسحق إبراهيم بن عبد البر قد فتح معقلي غليره وقسطله قرب البيرة[3]، ثم عندما انتهت الفتنة (فتنة أبي الحجاج) قام قائد مالقه – وكان من أسرة بني عبد البر – بفتح حصني قوج وشبر وهدمهما، كما فتح حصن الطورون وغار أبي زيد وهو من الحصون التي اختلست في فتنة ابن المول، كما هدم حصن ابرونه وحصن غار وجبر (قرب مالقه)[4].

وفي سنة ٨٥٢هـ/١٤٤٨م أحرز المسلمون نصراً على الطاغية المعروف باسم خوان سآفيدره (Juan Saavedra) قائد قسطيليه الذي حشد جموعاً من الفرسان من أهالي شريش (Jerez) والقلعة Al Cala de los Gazulos ومدينة ابن السليم Medinaceli وبجير، قدر عددهم بستمائة فارس اختارهم خوان سآفيدره واحداً واحداً من عتاة فرسانه، وقصد مدينة مربلّه Marbella على ساحل البحر الأبيض المتوسط على بعد ستين كيلومتراً غرب

---

[1] ابن عاصم الغرناطي، جنة الرضا، ج٢، ص ٢٧٨-٢٨٠.

[2] المصدر نفسه، ج١، ص ٢٨٠.

[3] المصدر نفسه، ج٢، ص ٢٨١-٢٨٣.

[4] المصدر نفسه، ج٢، ص ٢٨٣.

مالقه، فاعترض القائدان الوزيران أبو اسحق ابراهيم بن عبد البر وأبي القاسم بن السواج في موضع يقال له الخزائن بظاهر مربله وأوقعوا بفرسان خوان سآفيدره هزيمة ساحقة وأسروا منهم ١٤٠ شخصا[١].

فتنة الرئيس إسماعيل.

وفي سنة ٨٥٤هـ/١٤٥٠م اشتعلت نار الفتنة من جديد، فقد عاد الرئيس إسماعيل إلى إعلان الثورة واحتل قصبة مالقه، فماجت الحضرة (العاصمة) بأهلها موجا وتوقعوا أمرا عظيما واستنكروا الثورة ولقن الناس ما تضمنته من أماني طاغية قشتالة في تشتيت الكلمة وتفريق الأمة المسلمة، فتمسك الناس (من مملكة غرناطة) بحرمة الملك من دناءة خدمة الطاغية، فكان ذلك من أسباب ائتلاف القلوب، فنهض السلطان بجيشه واحتل مدينة بلش واستنزل من كان فيها من أصحاب الرئيس (إسماعيل) على أمان بذل لهم ثم دخل مالقه في يوم أغر محجل بعد أن كان القشتاليون يجمعون جيوشهم ويتهيئون للغدر بالمسلمين، وأوهمت البائس إسماعيل انها ستنصره، إلا أن الخلاف وقع بين القشتاليين أنفسهم فوهن كيدهم، واستسلم جماعة إسماعيل في مالقه وجبل فار، وصعد السلطان (الغالب بالله) في جملة قادته وقعد على أريكة ملكه، وتوافد عليه أهل مالقه ووجوه من كان معه من أهل الحضرة مهنئين. وفي ثاني يوم قتل ذلك البائس إسماعيل فدفن بإزاء أبيه وجده[٢].

وقد كان ابن عاصم الذي عاصر هذه الفتن المؤسفة دائم الدعوة إلى الاتفاق بين المسلمين، ونبذ الخلاف، والوقوف صفاً واحداً أمام أطماع ملوك الإسبان عندما رأى اختلال أمر الجزيرة (الأندلس)، واستيلاء الإسبان على معظمها، ولم يبق إذ ذاك بيد المسلمين إلا غرناطة وما يقرب منها بسبب وقوع فتن بين ملوك بني نصر حينئذ، وكانت غرناطة منتهى الآمال ووسطى قلادة الأمصار، ولم تزل محاسنها مجلوة على منصة

---

[١] ابن عاصم الغرناطي، جنة الرضا، ج٢، ص ٢٨٧، ٢٨٨ والهوامش.

[٢] المصدر نفسه، ج١، ص ١٩١، ١٩٣.

الدهور والأعصار. فوجه على أثر انتهاء الفتنة (فتنة ابي الحجاج يوسف بن أحمد بن نصر ابن أخت الأيسر) سنة ٨٥١هـ/١٤٤٧م رسالة لقادة غرناطة وأهلها بقصد التنبيه وإيقاظ أرباب الدولة من الغفلة. وكان مما جاء فيها بعد حمد الله والثناء على نبيه محمد صلى الله عليه وسلم، وذكر الأنصار الذين ينتسب إليهم بنو الأحمر والابتهال إلى الله بدوام دولة الغالب بالله وانتصارها، والدعاء بجمع كلمة المسلمين حيث تجمع القلوب النافرة والنفوس المتنافرة لدفع العدوان عن أرض المسلمين. كما حذر فيها المسلمين من الفرقة التي يستغلها الخصم الطاغية الذي يتمطى لخضم الوطن وقضمه ويتلهف على هضمه، وبين أنه عندما اجتمعت القلوب وسادت الألفة بين المسلمين، وانقشعت الاختلافات أحبط المسلمون أطماع الطاغية، وبين أن النصارى لم يدركوا في المسلمين ثأرا ولم يرفعوا عن أنفسهم عارا ولم يحرقوا من الجزيرة منازل وديارا ولم يستولوا عليها بلادا جامعة وأمصارا إلا بعد تمكينهم لأسباب الخلاف واجتهادهم في وقوع الافتراق بين المسلمين، وإيقاع الفتن بينهم. إلى أن استقلت هذه الدولة النصرية على قواعدها الراسخة وأعلامها الشامخة واستمرت على قوانين من السياسة كانت ضابطة للمملكة من الافتراق فحفظ الله الدولة إلا في الندرة، وتطاولت الأيام بين مهادنة ومقاطعة ومقاربة ومقارعة ومحاربة وموادعة مع النصارى، وكل أمل الطاغية الكيد للمسلمين وخداعهم، فهو يظهر أنه ساع للوطن في العاقبة الحسنى بينما يسر في نفسه هلاك الوطن وابتغائه. فتبا لعقول تصدق كذبه. فلا يرجى منه ومن قومه مثقال ذرة من الخير. وأكد ابن عاصم على اجتماع قلوب المسلمين وكلمتهم واتحادهم وبين أن ذلك واجب.

كما خاطب الشرفاء والعلماء والأشياخ والقادة والفرسان ودعاهم إلى الاتحاد، وبين أن الخلاف يعرض الوطن للهلاك، ودعاهم إلى أن لا يبقوا من الخلاف أثرا وأن يتفقوا على القصد الذي يخلصهم عند الله.

كما ذكر ابن عاصم أن (مولانا السلطان الملك الفاضل المجاهد المصابر المرابط المثاغر أمير المسلمين الغالب بالله أبا عبد الله محمد بن نصر الخزرجي نسبا، السعدي منتسبا النصري جدا وابا أيده الله، وهو من الأئمة المهتدين ممن إذا جنى عليه غفر، وأنه حليم، والله أخذ بيده كلما عثر، تحيط به النوائب لكن تصحبه الألطاف، وتمالأت على أذيته أصناف من الناس مرات متعددة، ففشلوا في كل مرة، وأنه طالما عورض في الملك فكبا

معارضه، وأتيحت (للسلطان) النصرة من محل لم يحسبها فيه، وشدّ ما احتال على مضرته غير واحد فانعكست عليه حيلته، وبغي عليه غير مامرة فنصره الله على من بغى عليه[1].

ومع ذلك فإن الغالب بالله (الأيسر) ارتكب كثيراً من الأخطاء فقتل عدداً من قادته مثل إبراهيم بن عبد البر، كما أساء معاملة القادة من بني سراج مما أدى إلى ازدياد نقمة الناس عليه وانضمامهم إلى منافس جديد هو الأمير سعد الذي دخل غرناطة وأعلن نفسه ملكاً عليها سنة ١٤٥٣م، ولم يتمكن الغالب بالله من استرجاع عرشه هذه المرة فوقع أسيراً وحمل إلى السلطان سعد الذي أمر بقتله، وفي الوقت نفسه قتل الكاتب الوزير ابن عاصم الذي كان ملازماً لذلك السلطان[2].

وقد أورد المقري ترجمة لابن عاصم، الإمام العلامة الرئيس، الكاتب الجليل، خاتمة رؤساء الأندلس بالاستحقاق أبو يحيى محمد بن محمد بن محمد بن محمد بن عاصم القيسي الأندلسي الغرناطي، قاضي الجماعة بها، ومن أكابر علمائها ورؤسائها، ولي القضاء سنة ٨٨٣هـ وله كتب كثيرة منها جنة الرضا في التسليم بما قدر الله وقضى، وكتاب (الروض الأريض في تراجم ذوي السيوف والأقلام والقريض)[3].

سعد بن إسماعيل ٨٥٨-٨٦٨هـ/١٤٥٤-١٤٦٤م.

خلف الأعسر على العرش الأمير سعد بن علي الملقب بثيرثيا الذي يظهر غير مرة في كتب التاريخ الإسبانية بلقب Ciriza، وفي بعض المرات يستبدل بذلك اللقب اسم ابن إسماعيل المراد به الملك إسماعيل الأول بن فرج بن إسماعيل بن يوسف بن نصر والد مولاي الحسن.

---

(1) ابن عاصم الغرناطي، جنة الرضا، ج٢، ص ٣٠٧، ٣٠٨، ٢٨٩-٣١١؛ المقري، أزهار الرياض، ج١، ص ٥٠، ٥٥.

(2) ابن عاصم الغرناطي، جنة الرضا، ص ٣٠، ٣١.

(3) المقري، نفح، ج٦، ص ١٤٨؛ وانظر: أزهار الرياض، ج١، ص ٥٠.

عُرف هذا الملك بحكمته وعدله وحزمه محباً للإصلاح، فعمل على توطيد الأمن وإقامة المباني وتحصين القواعد والثغور، كما عرف بفروسيته، وعندما توفي خوان الثاني عام ١٤٥٤م رفض سعد الاعتراف بحماية الملك الجديد (هنري الرابع Enrique IV (١٤٢٥ـ١٤٧٤م) فقام هذا الأخير بمهاجمة أراضي غرناطة وعاث فساداً في سهول مالقة، واستمرت الحرب سجالاً بين الفريقين حتى اضطر سعد إلى دفع الجزية لملك قشتالة.

نجح القشتاليون في هذه الفترة في الاستيلاء على جبل طارق سنة ١٤٦٢م، فكانت تلك ضربة كبيرة للمسلمين إذ حرموا من الاتصال بعدوة المغرب[١]، وأصبحت غرناطة معزولة عن العالم الإسلامي مما اضطر سلطانها إلى الاعتراف بالطاعة لملك قشتالة وتأدية الجزية له، وزاد الأمر سوءاً استمرار الفتن الداخلية بين الأسر القوية مثل أسرة بني سراج، فعمد السلطان سعد إلى التخلص من بني سراج وقتل بعض زعمائهم ومنهم وزيره مفرج، فهرب محمد وعلي من بني سراج إلى مالقه عند أميرها يوسف النصري، ولما مات يوسف هذا اتصل بنو سراج بأبي الحسن علي بن سعد ودعوه إلى تسلم الملك، فثار هذا الأمير على والده وخلعه وسجنه[٢].

أبو الحسن علي بن سعد ٨٦٨ـ٨٨٧هـ/١٤٦٤ـ١٤٨٢م.

تولى العرش بعد أن خلع أباه سعداً، وعرف لدى المؤلفين الإسبان باسم Muley Hacén[٣].

ويذكر الأستاذ عنان نقلاً عن رحالة مصري هو عبد الباسط بن خليل الحنفي، زار غرناطة في ذلك الوقت أنه لما اشتد ضغط النصارى على الأندلس، قام أبو الحسن بعقد

---

(١) فرحات، غرناطة، ص ٥٦؛ عنان، نهاية الأندلس، ص ١٥٢.

(٢) فرحات، غرناطة، ص ٥٦؛ عنان، نهاية الأندلس، ص ١٥٤.

(٣) - José Antonio Conde, Historia de la dominatión de los árabes en España T III, Segunda edición, Pags 375-385

الصلح مع والده وأطلق سراحه وقبل أن يقيم في المرية لكنه لم يلبث أن توفي سنة ٨٦٨هـ/١٤٦٤م. وذكر الرحالة المذكور أنه قابل السلطان أبا الحسن بحمراء غرناطة سنة ٨٧٠هـ/١٤٦٦م[١].

وقد كان لسعد ولدان آخران هما أبو عبد الله محمد المدعو بالزغل (الشجاع) ويوسف بن سعد المولود سنة ١٤٥٠م وقد توفي بالطاعون سنة ٨٧١-٨٧٢هـ/١٤٦٧م[٢].

اجتمعت كلمة أهل الأندلس على السلطان أبي الحسن علي بن سعد بن علي بن يوسف بن محمد الغني بالله النصري الغالبي الأحمري، المذكور بعد أن كان أخوه أبو عبد الله محمد بن سعد المعروف بالزغل قد بويع بمالقه بعد أن جاء به القادة من عند النصارى وبقي بها مدة ثم ذهب إلى أخيه وانقاد له سنة ٨٨٠هـ/١٤٧٥م، وظلت مالقه في حالة من الفوضى أحدثها الرؤساء والقادة فعظم الخطب واشتدت الفتن، فقام أهالي مالقه بدعوة السلطان أبي الحسن، فقضى على الفتنة، واستأنف الجهاد وفتح عدة أماكن ولاحت له بوادر النصر وكثرت جيوشه فخشيه الإسبان وطلبوا منه الهدنة، وكان يعرض جيشه كل يوم. واستغرق عرض الجيش كله أكثر من شهر سنة ٨٨٢هـ/١٤٧٧م، وكان الناس يتفرجون على العرض ويتنزهون بالسبيكة، وفي هذه الفترة داهم السيل العرم غرناطة وخرب كثيراً من الدور والحوانيت والفنادق والأسوار والقناطر والحدائق حتى وصل السيل إلى رحبة الجامع الأعظم، ويرى المقري أن هذا السيل كان عقاباً من الله للناس بسبب مجاهرتهم بالفسق والمنكر[٣].

وكان بوسع السلطان ابي الحسن علي أن يغتنم فرصة الخلاف بين رؤساء الإسبان، الذين استقل بعضهم بقرطبة والبعض الآخر في شريش وإشبيلية، فيقوم بمهاجمتهم، لكنه بدلاً من ذلك ركن إلى الراحة وترك الجهاد، واسند الأمر إلى بعض

---

(١) عنان، نهاية الأندلس، ص ١٥٤.

(٢) - José Antonio Conde, Historia de la dominatión de los árabes en España T III, Segunda edición, Pags 375-385, Barcelona, 1844.

(٣) المقري، نفح، ج٤، ص ٥١١، ٥١٢؛ الناصري، الاستقصا، ج٤، ص ١٠٢.

وزرائه واحتجب عن الناس وقتل بعض القادة مما أدى إلى انتشار الظلم والفساد، وظن أن الإسبان لن يهاجموه بسبب انشغالهم في خلافاتهم، إلا.أن.ملك قشتالة نجح في التغلب على بلاد النصارى، فانقاد له رؤساؤهم، وعندما اطمأن إلى وحدتهم أخذ بمهاجمة المسلمين.

أبو عبد الله محمد الحادي عشر بن علي (بوعابديل) ٨٨٧-٨٨٨هـ/١٤٨٢-١٤٨٣م.

ومما زاد الأمر سوءاً انقسام أبناء السلطان، فقد كان للسلطان ابي الحسن ولدان من زوجته عائشة[١] بنت عمه السلطان أبي عبد الله محمد، الملقب بالأيسر، إلا أنه قرب إليه أبناء زوجة أخرى إسبانية (واسمها ثريا) مما أدى إلى انقسام القادة فانحاز بعضهم إلى أبناء الإسبانية، بينما انحاز آخرون إلى أبناء بنت عمه السنية، فوقعت الفتنة وكثر الخلاف والظلم ولم يصغ السلطان لشكوى الناس[٢].

وقد أخطأ بعض المؤرخين حين ذهبوا إلى أن فاطمة هي زوج مولاي أبي الحسن والصحيح أنه تزوج عائشة، ابنة عمه الأيسر وقد ولد له ثلاثة أولاد منها هم:

١. أبو عبد الله محمد، وهو الابن البكر، وقد حرف الإسبان اسمه فقالوا بوعابديل Boabdil.
٢. أبو الحجاج يوسف.
٣. عائشة. وقد سميت باسم والدتها جرياً على عادة الإسبان.

---

(١) -. Seco de Lucena (Luis) La Sultana Madre de Boabdil, en la Revista de Andalus, Vol. XII, Pags 250-290, Año 1947.

- والمقري، نفح، ج٤، ص٥١٢.

(٢) المقري، نفح، ج٤، ص ٥١٢.

تبدلت حياة مولاي الحسن تمام التبدل بسبب الواقعة التالية:

كانت الحرب سجالاً بين العرب والإسبان، وكان من المعتاد أن يغير أحد الفريقين على الآخر. وذات مرة أغار العرب على أرض المسيحيين، الذين كانوا يأتمرون بأمر رئيس ينتمي إلى أجيلار Aguilar وهو المكان القريب من قرطبة. ووقع الاتفاق على وضع سياج حول إحدى العيون الجارية الواقعة في ملكه، وذلك في يوم من أيام السبت ليلاً. وبما أن اليوم التالي كان يوم أحد وهو يوم يرتاح فيه المسيحيون من عناء الشغل، ويكونون أكثر أمناً وطمأنينة، فإن العرب حاصروا المكان المسيّج، وعندما خرج بعض الأطفال لسقي مواشيهم، وقعوا في الأسر. وكان من بينهم فتاة يتراوح عمرها بين عشر سنوات واثنتي عشرة سنة. وبيعت في سوق غرناطة بيع الرقيق. وبذلك دخلت في خدمة الملك الذي منحها إلى ابنته الأميرة كي تتولى خدمة فراشها[١]. كانت هذه الطفلة تسمى ايسابيل دي سوليس Isabel de Solis وكانت ابنة لضابط فرسان بيدمار Bedmar ضون سانشو شيمنيس دي سوليس Don Sancho Ximenez de Solis الذي مات في حرب ضد العرب، بينما يرى آخرون أن أباها كان حاكم قلعة Alcaide صخرة مارتوس La Peña de Martos.

وعندما رأى أبو الحسن (مولاي الحسن)، ايسابيل دي سوليس ذات يوم، وقعت في قلبه موقع القبول، وأحبها فجعلها زوجته الثانية. وعندما اعتنقت الديانة الإسلامية تسمت (ثريا)*. واحتلت ثريا (الرومية) هذه كما كانوا يسمونها في العاصمة غرناطة – مكان الملكة في قلب أبي الحسن وفي القصر معاً. وتفرغ لها الملك رغم ما استتبع ذلك من استياء الزوجة الأولى الملكة عائشة[٢].

---

(١) - Crónica de la provincia de Granada. por D. Juan de Dios de la Rada y Delgado Capitulo VIII, pag. 130, libro 1. Madrid 1869. Relaciones de algunos sucesos de los últimos tiempos del reino de Granada, que publica la Sociedadde Bibliofilos Españoles, pags. 6-7. Madrid MDCCCLXVIII (1868).

* الثريا هي مجموعة من النجوم تقع في حيز برج الثور، وضمن المجموعة توجد ست نجمات رئيسة، ترى، دائماً، بالعين المجردة. ويقال لها في الإسبانية Pléyades، أما كلمة Lucero التي يراها بعضهم ترجمة لكلمة ثريا، فهي تطلق في الحقيقة على كوكب الزهرة Venus المعروفة بشدة بريقها ولمعانها، وتظهر تارة في الصباح وطوراً في المساء، وكان العرب قبل الإسلام يعبدونها ويسمونها (العزى) كما كان الإغريق يعتبرونها إلهة للجمال.

(٢) - Fragmento de la época sobre noticias de los Reyes Nazaritas O capitulación de Granada Y Emigración de los andaluces a Marruecos, Alfredo Bustani, pag. 7. Larache/Marruecos 1940.

- نبذة العصر في أخبار ملوك بني نصر أو استلام غرناطة وهجرة الأندلسيين للمغرب، تحقيق الفريد البستاني، ص ٧، العرائش، المغرب، سنة ١٩٤٠.

وقد أثمر زواج أبي الحسن من ثريا، ثلاثة أبناء: أكبرهم سعد، والثاني نصر، أما الثالث فقد توفي بعد عمر قصير متأثراً بالوباء.

وبعد سقوط غرناطة عام ١٤٩٢م، بقي سعد ونصر في إسبانيا مع والدتهما، وارتدا إلى المسيحية. فتسمى أكبرهما فرناندو وتسمى أصغرهما (خوان) وتلقبا بأميري غرناطة Infantes de Granada وتزوجا فيما بعد سيدتين إسبانيتين[١].

تمكن السلطان بعد لأي من كبح جماح ثورة أخيه عبد الله الزغل الذي تزعم بعض القادة حكام القلاع الثائرين. وحدثت وفاة الملك انريكي الرابع Enrique IV عام ١٤٧٤م أي في العام نفسه الذي تصالح فيه أبو الحسن وأخوه الزغل. كان أبو الحسن حينئذ في أوج قوته وتمام نشاطه. فقد كان رجلاً وافر النشاط، فياض الطاقة، لم يكن يتردد إزاء ضرورة القتال، فجعل من نفسه – طوال مدة حكمه – مثال الشجاعة والصمود والعناد، وموضع إعجاب الجم الغفير المتقلب من الناس[٢]. أعد جيشاً قوياً فيه عدد كبير من الفرسان، وزوده بالمدفعية والذخيرة الحربية، فبز بذلك سابقيه من ملوك غرناطة، وقام هذا الجيش باستعراض ضخم دام أكثر من ثلاثين يوماً سنة ٨٨٢هـ/١٤٧٨م. وكان أهلي غرناطة يخرجون للسبيكة وما حول الحمراء يتنزهون. وبما أنه كان واثقاً تمام الثقة من قواته الحربية، فإنه اغتنم فرصة اشتعال الحرب الأهلية في قشتالة Castilla في الأعوام الأخيرة من حكم انريكي (هنري) الرابع. فهاجم الأراضي التي يحتلها النصارى. وتلا ذلك عهد سلام وهدنة، إلى أن توفي انريكي الرابع الذي حكم أعواماً عديدة[٣].

أبى الملكان القشتاليان الجديدان (ضون فرناندو وضونيا ايسابيل) أن يستجيبا لطلب الحسن لعقد الهدنة سنة ١٤٧٨م دون أن يتعهد بدفع الجزية كما كان الحال حتى ذلك العهد. وبأنفة كبيرة امتنع أبو الحسن من قبول الشروط المقترحة من الملكين الكاثوليكين بوساطة سفارة ترأسها ضون خوان دي فيرا Don Juan de Vera فعند استماعه إلى الجزء الأول من خطبة هذا السفير، وتفهمه للتهديد الذي تضمنته الفقرة الأخيرة من الخطبة،

---

(١) - Loucio Marineo Sículo, Vida y Hechos de los Reyes Católicos, Ibiza, 29, pag. 140 Madrid, 1943.

(٢) - Luis de Ulloa Cisneros, Los Reyes Católicos y la unidad nacional; en la Historia de España del Instituto Gallach, pags. 378-395. Barcelona, 1935. Alonso de Palencia, Crónica de Enrique IV. Traducción de-A. Paz y Meliá, tomo IV, pags. 438, 485.

(٣) - Don Antonio de la Torre, Historia de los Reyes Moros de Granada, pags. 182-221. Madrid, 1946.

نهض غاضباً وقال: "لقد اعتدنا، نحن بني سعد الملوك الغرناطيين، أن ندفع بعض الدنانير الذهبية جزية لملوك قشتالة، ولكن دار السكة التي كانت تسك فيها هذه النقود، أصبحت الآن مصنعاً لصنع هذه الرؤوس الحديدية للحراب (وأخذ واحدة بيديه) ومن الآن فصاعداً سنختص بصنع هذه لا الذهب"[1].

وإزاء هذا الموقف الصلب الذي وقفه السلطان أبو الحسن علي، لم يجد فرناندو الكاثوليكي مناصاً من أن يمنحه هدنة ثلاث سنوات[2]، حاسباً ألف حساب لذلك الجيش الجرار الذي كان يعنى به أبو الحسن فضلاً عن انشغال فرناندو آنذاك بقضية البرتغال التي كانت تتطلب منه كل اهتمام وانتباه[3].

وعند انتهاء الهدنة المذكورة حدثت عدة مواجهات كان الطرفان فيها يتناوبان النصر، إلاّ أن هذا النصر كان في الغالب من نصيب أبي الحسن الذي تغلب في معارك كثيرة، وقام بعدة غزوات في ناحية الأندلس Andalucía كما قام بحرب خطرة احتل فيها مدينة الصخرة[1] La villa de Zahara عام ٨٨٦هـ/ ١٤٨١م.

وقد تم له ذلك كله في غمرة الانحلال والضعف الذين بدآ يسريان في جسم دولته. ويذكر مؤلف كتاب نبذة العصر في هذا السياق حادثة سيل غرناطة سنة ٨٨٣هـ/١٤٧٨م حيث فاضت مياه نهر هداره Rio Darro واكتسحت جذور الأشجار العظيمة وسدت المجرى وتضررت القناطر وتهدمت المنازل وايقن الناس الهلاك، واعتبر هذا المؤلف ذلك بداية لنهاية أبي الحسن[5].

---

(١) - Pedro Mártir Anglerfa, Estudio Y Traducción Por José López de Toro, Vol. I (Documentos inéditos

(٢) - Memorial Histórico España, tomo X, pags 294-297. Madrid, 1957. Miguel Garrido Atienza, "Las capitulaciones para la entrega de Granada". Capitulo 1, pags. 31-52 Granada, 1910.

(٣) - D. Juan de Mata Carriazo, Historia de la casa real de Granada, anónimo castellano de mediados del siglo XVI, Miscelanea de estudios árabes Y hebraicos Universidad de Granada, año 1957, pags. 44-45.

(٤) - DEL PULGAR, Fernando, Crónica de los Reyes Católicos. 2 Vol. Espasa-Calpe-S.A., Vol. 11, pag. 5. Madrid, 1943

(٥) نبذة العصر، ص ٤.

فقد أبو الحسن الهدوء والصفاء والطمأنينة، وحالت المشكلات الداخلية العديدة بينه وبين الحرب والدفاع عن حدود مملكته، فترك المجال – وخاصة في قاعدة ملكه غرناطة – إلى المنازعات المستعصية الدائمة، والدسائس والمؤامرات التي تجرى في القصر بين الأب والابن تارة، وبين العم والحفيد تارة أخرى، وقد حدَّت هذه الانقسامات الداخلية التي كان يرغب فيها الملكان الكاثوليكيان[١] من قدرة أبي الحسن على القيام بعمل مؤثر ضد الجيش النصراني[٢].

وفي فاتح مارس ١٤٨٢م (١٥ محرم ٨٨٧هـ) احتل النصارى بلدة الحمة (الحامة) Alhama[٣] غدراً وتحصنوا بها وحشدوا جيوشهم فيها. ذلك أنهم طرقوها ليلاً على حين غفلة من أهلها فدخلوا قصبتها وكانت خالية فلم يكن بها إلاّ عيال قائدها فملكوا القصبة والناس نيام مطمئنون. فلم يشعر أحد الاّ والنصارى قد هبطوا من القصبة على البلد بالسيف والقتل والسبي حتى قتل من قتل وفرّ من قدر على الفرار واستولى النصارى على البلد وجميع ما كان فيه من الرجال والنساء والصبيان والأموال، وعندما علم أهل غرناطة بذلك (هاجت الرغبة، وقالوا لا خير لنا في عيش بعد هذه النكبة الكبرى، إما نفك اخواننا أو نموت دونهم، وأجبروا ابا الحسن على الخروج للقتال ففعل. وضرب أبو الحسن على المدينة حصاراً بخمسين ألفاً من المشاة وثلاثة آلاف من الفرسان بقصد استردادها، غير أنه تراجع رغم أن المسلمين حملوا على الإسبان حملة كبيرة ودخلوا بعض أبواب المدينة إلى أن أمر أبو الحسن بالتراجع عنها عندما أشيع أن ملك النصارى جمع جموعاً كثيرة لمحاربتهم فأسقط في أيدي الناس ورحلوا عن المدينة، فقام ماركيز قادش ضون رودريغو بولص دي ليون Marqués de Cadiz, Rodrigo Ponce de león عاد بعد ذلك فاحتلها، كما احتل مدينة الصخرة. وأصبح سيدها[٤]. وأرسل أبو الحسن سفارة

---

(١) - Mr. Washington Irving "Crónica de la conquista de Granada". escrita en inglés, traducida al castellano por don Jorge W. Montgomery. Tomo 1. pags. 5-18. Madrid, 1831.

(٢) - Ginés Pérez de Hita, Guerras civiles de Granada, pags, 280-290. Madrid 1913. Diego Hurtado de Mendoza, Guerra de Granada. Lisboa, 1627; Moreno Casado. La capitulación de Granada en su aspecto juridico, apud Bol. Universidad de Granada, pags. 280-350. Granada, 1949.

(٣) - Crónica de los Reyes Católicos, por su secretario Fernando del pulgar, Vol. 11 Guerra de Granada, edición Y estudio por Juan de Mata Carriazo, cap. CXXVII, pags. 5-12. Espasa Calpe S.A. Madrid 1943.

(٤) - Prescott, H. William, "Historia del reinado de los Reyes Católicos, don fernando Y doña Isabel" Rivadeneyra. Madrid, 1845.

- انظر أيضاً: مجهول، نبذة العصر في أخبار ملوك بني نصر، تحقيق الفريد بستاني، المغرب، ١٩٤٠، ص٦-٨؛ المقري، نفح، ج٤، ص٥١٣ من طبعة إحسان عباس؛ المقري، نفح، ج٦، ص٢٦٠-٢٦١ من طبعة الأستاذ محي الدين عبد الحميد، مصر ١٩٤٩م.

إلى ملك المغرب طالباً نجدته لمحاولة أخذ مدينة الحمة من جديد وبالفعل قام بمحاصرتـها ثانية. لكن جيش أبي الحسن لم يلبث أن اضطر إلى التراجع إلى غرناطة على إثر وصول نجدة كبيرة إلى النصارى تتألف من خمسة آلاف فارس وأربعين ألف راجل[1].

عندما علم الملكان الكاثوليكيان بسقوط مدينة الصخرة، سرا لذلك سروراً كبـيراً، وأنعما على ماركيز قادش، فمنحاه لقب (ماركيز الصخرة ودوق قادش). ومع ذلــك لـم يترك هذا الماركيز لقبه السابق وأصبح لقبه في النهاية (المــاركيز دوق قــادش). لكــن النصارى لم يلبثوا أن تكبدوا هزيمة ساحقة في الشرقية Ajarquia بناحية مالقه، وهي مكان تحتضنه جبال كوتار (Cútar). وحدثت تلك الهزيمة في آذار سنة ١٤٨٣م إثر غارة قادها وزير أبي الحسن، المدعو أبو القاسم بنيغش Venegas وأبو عبد الله الزغل، كما وجه أبـو عبد الله الصغير Boabdil عدة غارات انتقامية ضد القوات النصرانيــة بمســاعدة حميـه المدعو علي العطار Aliatar حاكم قلعة لوشه Loja، فعبر العطار نهر شـــنيل Rio Genil واكتسح بلدان اجيلار وقبره Cobra ومونتيل Montilla، وحاصر لسانه Lucena، لكنه لـم يلبث أن اضطر إلى فك الحصار عنها أمام هجوم القوات المعادية، وقفـــل عـائداً إلـى غرناطة حيث لقي حتفه في الطريق على يدي ضون الونصو دي اجيلار Don Alonso de Aguilar الذي قدم لنجدة لسانه.

وقد نتج عن حصار هذه المدينة خسائر فادحة لدى الطرفين المتقاتلين، ووقع عـدد كبير من الجنود في الأسر من بينهم أبو عبد الله الصغير نفسه[2]. وقد عقد الملك فرنـاندو مجلساً للنظر في مصير أبي عبد الله، حيث طالب رئيس رهبانية سنتياغو (شنت يـــاقب) El Maestre de Santiago بعدم إطلاق سراح أبي عبد الله إلاّ أن ماركيز قــادش عــارض طلبه قائلاً: "أنه إذا ظل أبو عبد الله الصغير أسيراً فإن الجـــزء الأعظـم مـن اتباعـه سيلتحقون بالطائفة التي يقودها والده، حارمين أبا عبد الله من لقب الملك الذي كانوا قــد منحوه إياه. ومن جهة أخرى فإن الانشقاق أو الانقسام بين الملك الأسير وبين والده كـان معروفاً قبل أن يقع تحت طائلة سلطاننا – وبعد أن خاض ضدنا غمـــار ذلـك العـراك

---

(١) - Crónica del Gran Cardenal. cap LXXI. Se titula "El estado de Granada cuando la ganaron los Reyes Católicos", pag. 242.

- وانظر أيضاً: نبذة العصر، ص٩.

(٢) - Alonso de Palencia, Universidad de Granada, Anales de la Fac. de Filosofia Y Letras, núm, 4-5, pags, 85-95. Granada, 1929.

الشرس حيث لم يتأت له – رغم شراسته – أن يقف في وجه أسلحتنا، فالذي أراه هو أن تعطى الحرية لهذا الذي كان سبب ذلك الانقسام. وقد أفضى هذا الانقسام إلى حربين. إحداهما نشبت بينهما: أي بين الأب وابنه، والأخرى كانت ضدنا(١).

واستجاب المجلس لهذه المقترحات. وعلى الرغم من اقتناع الملك فرناندو بوجاهة هذه الحجج، إلا أنه لم يشأ أن يبت في أي قرار دون استشارة الملكة ايسابيل التي كانت حينئذ في فتوريا: Vitoria – باقليم الباسك – وكانت، فيما يبدو، ترى ما يراه ماركيز قادش(٢).

نقل أبو عبد الله الصغير إلى مدينة قرطبة، ومنها إلى قلعة (بلكونه) Porcuna في الوقت الذي أرسلت فيه والدته الملكة فاطمة سفارة برئاسة الوزير ابن قماشة الحضرمي، تطلب فداءه مقابل مبلغ ضخم من المال، فاستجاب الملك القشتالي لذلك، مقابل إبرام معاهدة أقرها أبو عبد الله الصغير ووافق عليها، وكان من شروطها الاعتراف بطاعة الملكين الكاثوليكيين، ودفع جزية سنوية لهما والافراج عن ٤٠٠ أسير نصراني في غرناطة ثم اطلاق سبعين أسيراً كل عام لمدة خمس سنوات، وأن يقدم أبو عبد الله ولده الأكبر مع عدد من ابناء الأمراء رهائن. كما يتعهد الملكان الكاثوليكيان بالافراج عن أبي عبد الله في الحال، وألاّ يكلف أبو عبد الله في حكمه بأي أمر يخالف الشريعة الإسلامية، وأن يعاونه الملكان الكاثوليكيان في اخضاع المدن الثائرة على أن تعترف هذه المدن حين اخضاعها بسيطرة ملك قشتالة.

كانت الحرب الأهلية في مملكة غرناطة تزداد ضراوة وقسوة. فقد كانت شيعة السلطان أبي الحسن علي تأتمر بأمر أبي عبد الله الزغل الذي حاول أن يقتل أبا عبد الله الصغير وأخاه يوسف الذي كان في مدينة المرية. وقد نجح أبو عبد الله الصغير في الفرار مع ستين فارساً. ووصلوا إلى مدينة مرسية Murcia. فلجأ أبو عبد الله الصغير إلى الملكين الكاثوليكيين بقرطبة. ومنذ ذلك الحين بذل له القشتاليون حمايتهم. ولكن يوسف لقي

---

(١) - Hernando del Pulgar, Grónica de los reyes Católicos, tomo 11, pags, 135-136. Jaime Bleda, Crónica de los moros de España, pags, 594-598, Valencia, 1618.

(٢) - Gaspar Y Remiro, Ultimos pactos Y correspondencia entre los RR CC Y Boabdil, Granada, 1910.

مصرعه وسقطت المدينة في يد الزغل. وبعد مضي ستة أشهر طلب أبو الحسن أن يسلموه ابنه يوسف حاكم المرية، ظاناً أنه ما زال على قيد الحياة، وأنهم أخفوه. وعندما أيقن من موت ابنه اعتراه الحزن والمرارة والألم العميق، ولم يلبث أن ابيضت عيناه من الحزن فأصبح أعمى متألماً كسيحاً غير صالح للحكم نتيجة لتأثره البالغ بهذه المأساة.

وفي عام ٨٩٠هـ/١٤٨٥م تفهم أبو الحسن الشعبية التي كان يتمتع بها أخوه أبو عبد الله الزغل، فتنازل له عن العرش، وانسحب مع زوجته ثريا الرومية (ايسابيل دي سوليس Isabel de Solís) وابنيه سعد ونصر إلى ايبورة Illora، فالمنكب Almuñecar فموندیخار Mondejar، بالتتابع، حيث بقي هناك تحت المراقبة إلى أن توفي في ذلك العام نفسه، ونقل جثمانه، بأمر من أخيه أبي عبد الله الزغل إلى غرناطة حيث دفن في المدافن الملكية بالروضة[١].

التجأ أبو عبد الله الصغير Boabdil إلى قرطبة ليستجير في أواخر سنة ١٤٨٤م بملك قشتالة طالباً الأمان بجواره، ويبدو أن اللقاءات التي تمت بين الملك الصغير والملك القشتالي، أسفرت عن المصادقة على بعض المعاهدات وإقرارها.

خرج أبو عبد الله الصغير متجهاً صوب غرناطة، حيث أخذت قوة أنصار أبي عبد الله الزغل في النمو، وأخذت الثقة فيه تزداد أكثر من الثقة في أبي عبد الله الصغير الذي ما لبثت صداقته لملك قشتالة أن أصبحت أمراً مثيراً للشك. إلى أن انتهى الأمر بإعلان محمد الزغل سلطاناً على غرناطة[٢]، فاتفق مع ابن أخيه أبي عبد الله الصغير (بعد موت

---

(١) - El célebre orientalista alemán, José Müller (Marcos), Publicó en Munich, en el año 1863, un libro titulado "Cosas de Granada" que encierra dentro de sus páginas gran parte de los Suceses históricos relativos a los últimos tiempos de los árabes en Granada.

- نشر المؤرخ الالماني الشهير خوسي مولر (ماركوس) في ميونخ عام ١٨٦٣ كتاباً بعنوان: (أشياء عن غرناطة) تضمنت صفحاته جزءاً كبيراً من الحوادث التاريخية المتعلقة بالعهود الأخيرة لعرب غرناطة. انظر أيضاً: المقري، نفح، ج٤، ص ٥١٥ طبعة إحسان عباس.

(٢) - Ballesteros Y Beretta, Antonio, Historia de España y su Influencia en la Historia Universal. T. III, Barcelona, 1922, pag. 678.

أبي الحسن)، على تقسيم المملكة فيما بينهما إلى قسمين، معتبرين هذا الإجراء ضـــرورة تقتضيها الظروف، بدلاً من السعي لتوحيد المملكة المسلمة:

١. فكان للزغل مالقة، والمرية، واقليما المنكب والبشرات: Alpujarra.
٢.وبقي لأبي عبد الله الصغير ما تبقى من ذلك حتى مملكة مرسية التي كانت ملاصقـــة لحدود الولايات النصرانية.

ونودي بالصلح في الأسواق فمال عامة غرناطة إلى الصلح لضعف الدولة[١].

استقر أبو عبد الله محمد بن سعد المعروف بالزغل في قصر الحمراء، بينما تمكن ابن أخيه أبو عبد الله محمد بن أبي الحسن من السيطرة على حـــي البيـــازين[٢] Albaicín وفي ربيع سنة ١٤٨٦م (٨٩١هـ) توجه ملك قشتالة بجيش كبير نحو لوشه Loja، التـــي كانت في ملك أبي عبد الله الصغير، وقد هب لنجدتها وكان الهجوم مريعاً. وحضر أهـــل البيازين لنجدة لوشه، وقاتلوا القشتاليين قتالاً شديداً وردوهم على أعقابهم وقتلـــوا كثـيراً منهم، كما أرسل الأمير أبو الحسن جيشاً آخر من غرناطة فاشتد أزر المسلمين وأوقعـــوا الهزيمة بالإسبان وأجبروهم على الفرار، إلا أن موقف المسلمين عاد إلى الضعف بســبب الفتنة التي قامت بين ابي الحسن وابنيه محمد ويوسف اللذين هربا إلى وادي آش، فاشـــتد حصار القشتاليين مما اضطر المسلمين إلى طلب الصلح والأمان والخروج مـــن البلـــد، فاجابهم الملك القشتالي إلى ذلك وخرج أهل لوشه إلى غرناطة بينما بقي أبو عبد الله فـــي لوشه مما جعل أهل غرناطة يعتقدون أنه ما جاء للوشه إلا ليدخل إليها العدو ويجعلها فداء له، ثم رجع ملك قشتالة إلى بلاده ومعه أبو عبد الله ليستأصل به بقية الأندلـــس[٣]. إلا أن المصادر الإسبانية تذكر أنه بعد اشتباك عنيف سقطت القلعة في قبضة فرناندو فـــي ٢٦ جمادى الأولى سنة ٨٩١هـ/ ٢٩ مايو ١٤٨٦م). واضطر أبو عبد الله الصغـــير أمـــام ضغط فرناندو إلى توقيع اتفاقية مع فرناندو الكاثوليكي عرفت باسم معاهدة لوشة، تعـــهد

---

(١) المقري، ج٤، ص ٥١٧؛ الاستقصا، ج٤، ص ١٠٢.

(٢) - Gaspar y Remiro, "Ultimos pactos y correspondencia íntima entre los Reyes Católicos Y Boabdil". Granada, 1910; Moreno Casado, "La capitulación de Granada en su aspecto Jurídico, Apud. Bol. Universidad de Granada, pags. 290-335, Granada, 1949.

(٣) المقري، نفح، ج٤، ص ٥١٧؛ الناصري، الاستقصا، ج٤، ص ١٠٢؛ مجهول، نبذة العصـــر، ص ٩، ١٠.

فيها أبو عبد الله الصغير بإعلان الحرب على عمه الزغل. أما هذا الأخير فقد تابع الحرب ضد النصارى إلى درجة أن الشعب الغرناطي تحمس، وأخذته الحمية الوطنيـــة، فتمكــن من صد هجوم لفرناندو الكاثوليكي على مرج غرناطة: La Vega، وأحرز نصراً مـــؤزراً على كونت قبره El Conde de Cabra في المعركة التي دارت رحاها حول حصن مكليـــن Moclin، وبسبب هذا الظفر فاز أبو عبد الله الزغل في الأوساط الشعبية بشـــعبية أكـــثر. وخشي الملكان الكاثوليكيان مغبة هذا النصر المبين، فحرر فرناندو أسيره أبـــا عبـــد الله الصغير مقابل شروط:

١. أن يحارب عمه أبا عبد الله محمد بن سعد المعروف بالزغل.
٢. أن يتخلى عن تسميته بملك غرناطة.
٣. أن يحمل بدلاً من ذلك لقب دوق وماركيز وادي آش Duque y Marqués de Guadix.
٤. أن يكتفي باللقب التشريفي القشتالي وباقطاعه وادي آش.

وتبع سقوط لوشة، سقوط ايبورة (٨ يونيو ١٤٨٦م) ثم مكلين، وبعد تعيين الحكـــام لتلك الحصون المغزوة، انسحب الملكان إلى قرطبة بقصد اعطاء جيوشـــــهما المنهوكـــة القوى قسطاً من الراحة[١]. استعرت نار الحرب الأهلية بغرناطة واشـــتد أوارهـــا، بعـــد هزيمة أبي عبد الله الصغير في لوشة، وبظهور هذا في أراضي مالقة، مستفزاً ومزعجـــاً اتباع أبي عبد الله الزغل. وصل أبو عبد الله الصغير (بوعابديل) إلى الكاوديت Alcaudete ليستقرّ نهائياً عند خلصائه بني سراج Abencerrajes في بلش الأبيض Vélez-Blanco وبلش الأشقر Vélez-Rubio ومن هذا المكان قدم إلى أصدقائه وأنصاره بحي البيـــازين الســـلام الذي أبرمه مع النصارى، فاعترفوا به ملكاً. وبعد ذلك انطلق من بلـــش الأبيـــض نحـــو غرناطة، متوغلاً سراً في حي البيازين يحميه حزب والدته. وكان ذلك يوم ١٦ رمضـــان عام ٨٩١هـــ/١٥ سبتمبر ١٤٨٦م.

وضع الزغل قواته العسكرية حول البيازين، حيث دار عراك دموي هائل، كاد أن يهزم فيه أنصار أبي عبد الله الصغير، لولا مساعدة القوات المسيحية التي أرسلها ضـــون

---

(١) - D. Antonio Ballesteros y Beretta, Historia de España y su influencia en la Historia Universal. Tomo III, pags. 677-680. Barcelona. 1922.

- انظر أيضاً عن موقعة مكلين: مجهول، نبذة العصر، ص١١.

فدريك الفاريث دي توليدو Don Fadrique Alvarez de Toledo دوق ألبا. وكانت هذه القوات مؤتمرة بأمر قائدها غونثالو القرطبي Gonzalo de Cordoba صديق أبي عبد الله الصغير منذ أيام أسره في بركونه Porcuna. ويروي القرطبي أن ملك قشتالة مد ابي عبد الله صاحب البيازين بالمال والسلاح والبارود والقمح، وعزم أهل غرناطة على دخول البيازين عنوة، وتعاهدوا على أن يكونوا يداً واحدةً ضد صاحب البيازين لتحالفه مع العدو لكن صاحب غرناطة هزم أيضاً في بلش ودخلها القشتاليون عنوة.

واستمرت المجازر في غرناطة حتى يناير ١٤٨٧م (محرم ٨٩٢هـ) حيث وقعت معركة دامية بين الفريقين، لدرجة أن ضياع بلش Velez سبب الانتصار النهائي لابي عبد الله الصغير والهزيمة المنكرة لقوات الزغل. وذلك على الرغم من أن الحرب ظلت مستمرة، وأشعل النصارى نار الشقاقات الداخلية في مملكة المسلمين، وزادوها اشتعالاً، وذلك في الوقت الذي شرعوا يشنون فيه الهجوم على مالقة من البر والبحر حتى سقطت بالرغم من استبسال أهلها بالدفاع عنها وصمودهم حتى أكلوا لحم الخيل والحمير. وعندما حضر الزغل إلى هذه المنطقة فقد مراكزه في غرناطة[1]. فاستولت عليها قوات أبي عبد الله الصغير في ٢٦ رمضان ٨٩٢هـ (١٥ سبتمبر ١٤٨٧م). وأصبح أنصار الزغل في انحلال وتفكك، فضعف جانبه ولم يبق أمامه إلا أن يناور في غيظ وحنق، فاتفق مع الملكين الكاثوليكيين على الانضواء تحت لوائهما، ضد ابن أخيه أبي عبد الله، وقدم لهما مدينة وادي آش، ومدن الزناتي Las Villas del Zenete وجميع المناطق الجبلية الواقعة بين وادي آش وغرناطة، وأراضي أخرى كثيرة. ذلك أنه لم يكن يتوافر له جيش مؤهل للدفاع عن هذه الأقاليم. وفي مقابل تقديم هذا كله، منحه الملكان الكاثوليكيان ـ مكافأة له ـ الاذن في البقاء في المدينتين المتبقيتين له وهما بسطة Baza والمرية Almeria، وخصصا له ايرادات وموارد لكي يقضي بقية عمره في المرية التي اتخذها ملجأ وملاذاً. وقد فشلت محاولة قام بها ماركيز قادش ضد هاتين المدينتين، ولكن الملكين الكاثوليكيين نقضا في العام التالي عهدهما، حيث قامت قوات كبيرة لهما بضرب حصار على بسطة سنة ٨٩٤هـ/١٤٨٨م. وكانت هذه المدينة واقعة في منحدر ربوة مشرفة على واد وديع

---

(١) - M. Garrido Atienza, las capitulaciones para la entrega de Granada. pags. 60-80. Granada, 1910.

-انظر أيضاً: المقري، نفح، ج٤، ص ٥١٩، ٥٢٠، ٥٢١، طبعة احسان عباس؛ وأزهار الرياض، ج١، ص ٦٦؛ الناصري، الاستقصا، ج٤، ص ١٠٢؛ مجهول، نبذة العصر، ص ٢١، ٢٢، ٢٣.

تحميه، على شكل مدرج، سلسلة جبال تدعى الان خبالكون Jabalcón وكانت تدعى من قبل جبل الكحول Xabalcohol ويطلق على ذلك الوادي اسم أويا: Hoya وهو خصيب التربة بسبب المياه المنحدرة إليه من تلك القمم، والتي تتحد فتكون نهرين هما:

١. نهر وادي القيطون Guadalquitón.

٢. ونهر وادي لينتين Guadalentín.

وكان العرب يسمونه: البو حسن Albohacén مشيرين بذلك إلى اسم أبي الحسن علي بن سعد. وفي عام ٨٩٤هـ/١٤٨٨م دخل الإسبان بسطة وتوافد المسلمون لخدمتها وتمكنوا من دحر العدو وصمدوا ثلاثة اشهر حتى انقطعت عنهم الامدادات، فطلبوا الأمان بشروط الإسبان. وقبل السلطان أبو عبد الله الدخول في طاعة ملك قشتالة سنة ٨٩٥هـ/١٤٨٩م[١] في رواية المقري وصاحب نبذة العصر.

وكان يحكم مدينة بسطة آنذاك، ابن عم لأبي عبد الله الزغل صهره، واسمه يحيى النجار أو (النيار) الذي تعرفه الروايات القشتالية باسم سيدي يحيى. اشتهر يحيى هذا بالدفاع المجيد عن مدينة بسطة، ولكن بدافع من اليأس من جدوى الدفاع وبحافز من اغراءات الملكين الكاثوليكيين، استحال هذا القائد الشجاع إلى خائن لقضية بلده فأسلم المدينة واستسلم أهلها، كما ارتد هو فيما بعد إلى الدين المسيحي، وتسمى باسم بطرس الغرناطي Pedro de Granada وتسلم ماء التعميد في ريال سانتفي[٢] En el Real de Santa Fé وجمعت سلالته من بعده بين لقبي الغرناطي De Granada وبنيغش Venegas.

وفي ٢٧ محرم من ٨٩٥هـ (٢١ ديسمبر ١٤٨٩م) استسلمت مدينة المرية، وهي آخر ما تبقى للزغل. وكان يحيى النجار وسيطاً بين الملكين الكاثوليكيين والزغل، ولم يمكث الزغل زمناً طويلاً في الأندلس، بعد احتلال النصارى غرناطة يوم ثاني ربيع

---

(١) المقري، نفح، ج٤، ص ٥٢٢؛ وأزهار الرياض، ج١، ص ٦٦؛ مجهول، نبذة العصر، ص ٢٥، ٢٦.

(٢) - Según afirma Pedraza en su Historia eclesiastica de Granada Parte III, Cap. LIV.

الأول سنة ٨٩٧هـ (٢ يناير ١٤٩٢م) إذ بدأ يجد ما يسوءه من سكان اندرش Andarax حيث أفصحوا جميعاً عن عداوتهم له[١]. فطلب من الملكين الكاثوليكيين أن يأذنا له في الذهاب إلى المغرب، لأنه لم يعد يطيق العيش في بلاد كان بها ملكاً. وعندما منح الاذن، أبحر صوب المغرب بعد أن باع ممتلكاته.

استقبله ملك المغرب بعداوة، ذلك أنه كان صديقاً لابي عبد الله الصغير، فلم يشأ أن يظهر الميل أو العطف على الزغل الذي كان عدواً لذلك الملك المنكود الحظ. لذلك حبسه في زنزانة، وعذبه بسمل عينيه، ثم أطلق له الحرية دون أن يمنحه أي مساعدة. وهكذا ظل الزغل يتجول مثل أي متسول من مكان إلى آخر إلى أن ذهب في النهاية إلى مدينة باديس أي بلش غمارة Velez de la Gomera حيث رحب به والي المدينة الذي كان قد عرفه من قبل، وعني به حتى وفاته التي حدثت بعد وقت قصير[٢]. هذا ما يقوله لويس ديل مارمول كاربخال في كتابه "تاريخ الثورة وعقاب مسلمي غرناطة المتنصرين" مما لا نوافقه عليه. وتعقيباً عليه نقول: إن الموريسكيين أو مسلمي غرناطة المتنصرين الذي ضحوا بدينهم مقابل تشبثهم بأرضهم، قد نالوا نصيبهم من المطاردة ونكث العهود، ومن الكبت والقهر والعقاب. أما الذين ضحوا بأرضهم مقابل تشبثهم بدينهم وكرامتهم، فقد نجوا وخلصوا إلى بر العدوة* ولكنهم لم يخلصوا من القمع والاضطهاد والعقاب الذي صبه عليهم ـ من بعد ـ بعض مؤرخي شبه الجزيرة الايبيرية. وهذا العقاب هو عبارة عن أقوال انتقامية يهدف أصحابها من ورائها إلى غرضين رئيسيين:

١. تشويه سمعة بلاد المغرب وخاصة المسلمين أينما كانوا.
٢. التستر على أعمال القمع التي زاولها (ديوان التحقيق) أو محاكم التفتيش وتعرض لها مسلمو غرناطة نتيجة عوامل مختلفة.

---

(١) - Diccionario de Historia de España. Revista de Occidente. 2 ed. dirigido por German Bleiberg. Tomo I, p. 30. Madrid 1968.

(٢) - Marmol Carvajal (Luis del) Historia de la Rebelión Y castigo de los moriscos del reino de Granada. Tomo 1. cap. XVI, Pag. 75, Madrid MDCCXCVII.

* المملكة المغربية حالياً.

ويكفي لنقض ادعاءات كاربخال وأمثاله من الأساس، الرجوع إلى ثقات الكتـــاب القريب عهدهم من مجريات الحوادث، ونخص بالذكر منهم المؤرخ السياسي والأدبي لبلاد الأندلس الشيخ أحمد بن محمد المقري التلمساني المتوفى سنة ١٠٤١هـ/١٦٣١م. يقـــول في كتابه القيم (نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب)[١] ولما رأى ذلك – يعني احتـلال النصارى لوادي آش، وهدمهم قلعة اندرش وحيفهم على أهل البلاد – الســلطان الزغـل وهو أبو عبد الله محمد بن سعد عم سلطان غرناطة، هم بالجواز لــــبر العــدوة، فجــاز لوهران ثم لتلمسان واستقر بها. وبها نسله إلى الآن يعرفون ببني سلطان الأندلس، وهكـذا نرى أن الزغل لم يقصد بر العدوة بتاتا**، فلا مجال لذكر سلطان المغرب وتعذيبه سلطان الأندلس السابق بسمل عينيه، ولا مجال لذكر والي مدينة باديس المغربية الشهيرة...ومـــا إلى ذلك مما جاد به علينا خيال (لويس ديل مارمول) الجامح على الأقل.

---

[١] المقري، الجزء السادس، ص ٢٧٥ من طبعة الاستاذ محمد محيي الدين عبد الحميد، مصر ١٩٤٩.

** المملكة المغربية حالياً.

سقـــوط غرناطـــة:

بعد أن احتل الملك فرناندو وادي آش يوم سادس صفـــر مـــن عـــام ٨٩٥هـــ (٣٠ ديسمبر سنة ١٤٨٩م)، طلب من أبي عبد الله (بوعابديل) أن يقـــوم بتسـليم مدينـة غرناطة، تطبيقاً لما هو مشروط في المعاهدة التي بمقتضاها منحت الحرية لأبي عبـد الله الصغير، تلك المعاهدة التي نص أحد شروطها على أنه إذا سقطت مدينة وادي آش فـــي أيدي النصارى، فإن أبا عبد الله الصغير يكون حينئذ مجبراً على التنازل عـــن العـرش وعليه أن يسلم في النهاية مدينة غرناطة. امتنع أبو عبد الله الصغير مـــن الوفـــاء بـهذا الشرط، وأبدى استعداده للدفاع عن المدينة وافتدائها بحياتـه[١]. حينئـذ اتجـه الملكـان الكاثوليكيان نحو مدينة غرناطة بجيش كبير، وابتنوا مدناً عوضاً عـــن نصـب الخيـام، وأسسوا مدينة سانتفي Santa Fé. وهي بلدة أمر الملكان الكاثوليكيان ببنائها على بعد نحـو ١٢كم من غرناطة الذي كان مكان المعسكر الذي كان يشدد الحصـــار علـى غرناطـة، وتحول المعسكر إلى بلدة اطلقت عليها الملكة ايزابيل اسماً دينياً هو سنتافي أي الايمـــان المقدس[٢]. وقد استبسل المسلمون في الدفاع عن القـرى المحيطـة بغرناطـة وأوقعـوا بالإسبان خسائر كبيرة في صفوف فرسانهم، وفي هذه الملاحم استشهد كثير من الفرســان المسلمين، والمسلمون فوق ذلك صابرون محتسبون، يقاتلون عدوهم بنية صادقة وقلـوب صافية ويتعرضون للعدو في الطرقات واستمرت الحرب سبعة أشهر إلى أن فنيت حيـل المسلمين وفني أيضاً كثير من خيرة الرجال، فخرجوا إلى البشرات سنة ٨٩٧هـ/١٤٩٢م وعندما حل الشتاء قطعت طرائق التموين عن غرناطة[٣].

جمع أبو عبد الله الصغير، بعد أن أحرج موقفه، جميع وزرائه، فقرر بعث أبـــي القاسم عبد الملك المليح للتفاوض في شأن شروط تسليم المدينة، حيث تم الاتفـــاق علـى التسليم في الثاني من يناير سنة ١٤٩٢م. وحوالي هذا التاريخ وفي سانتفي تم تسليم ابـــن أبي عبد الله الذي كان ما يزال في قبضة الملكين الكاثوليكيين ببلدتي بركونة ومكلين. وبعد ذلك مباشرة ذهب أبو عبد الله مع ابنه وأسرته إلى وادي برشانة[٤] Valle de Purchena.

---

(١) - Revista de Archivos, Bibliotecas Y Museos, XXII, pags. 220-265, año 1910.

(٢) - Sordo Enrique, Moorish in Spain, London, 1963, p. 122.

(٣) مجهول، نبذة العصر، ص ٣٧-٤٠.

(٤) - Dr. Joaquín Durán Y Lerchundi, La toma de Granada, tomo, II, pags. 446-447. Madrid, 1893

وقد أسهب المقري في رواية الأحداث حيث ذكر عن استمرار غارات الإسبان واستيلائهم على البيره وقلنبيرة ومنت فريد والصخرة، وخرج أهلها إلى غرناطة، وعاد ملك قشتالة إلى بلاده، وأعاد السلطان الذي في الأسر (أبي عبد الله) الذي قال أنه جاء بالصلح وأن من يدخل في طاعته فهو آمن فلم يصدق ذلك أحد من الناس سوى أهل البيازين، واستدعوا السلطان أبا عبد الله إلى البيازين سنة ٨٩١هـ/١٤٨٦م، ولم يكن الناس يثقون به وقالوا بأن ما حدث بلوشه ليس ببعيد، بينما عمه بالحمراء. وقام ملك قشتالة بامداد أبي عبد الله صاحب البيازين بالرجال والعدة والمال والقمح والبارود، فعزم أهل غرناطة على دخول البيازين عنوة سنة ٨٩٢هـ/١٤٨٦م، وتعاهد أهل غرناطة والنواحي المحيطة بها على أن يكونوا يداً واحدة ضد صاحب البيازين لتحالفه مع العدو، واستنجد هذا بملك قشتالة فتقدم قاصداً بلش مالقه وحاصرها، فسار صاحب غرناطة لقتاله من غير استعداد مناسب مما أدى إلى هزيمته فدخل القشتاليون بلش عنوة[1]. ثم حاصر مالقه براً وبحراً، واستبسل أهلها بالدفاع عنها، وطال حصارها، حتى انتهى من عندهم الطعام فأكلوا الخيل والحمير وأثر فيهم الجوع، ومع ذلك لم يظهروا هلعاً ولا ضعفاً إلى أن يئسوا من وصول أي عون لهم فطلبوا الأمان فلما تمكن العدو منهم أخذهم أسرى سنة ٨٩٢هـ/١٤٨٦م، ولم يبق في تلك البلاد موقع إلا أخذه الإسبان[2].

وفي عام ٨٩٤هـ/١٤٨٨م دخل الإسبان بسطه واستولوا عليها، فتوافد المسلمون لنجدتها، وتمكنوا من دحر العدو وصمدوا مدة ثلاثة أشهر لكن العدو قام بمحاصرتهم ومنع عنهم الامدادات والطعام فطلبوا الأمان وتم ذلك بشروط فرضها الإسبان، ودخل الإسبان بسطه سنة ٨٩٥هـ/١٤٨٩م وقبل السلطان أبو عبد الله أن يدخل في طاعة ملك قشتالة فلم يبق بيد المسلمين سوى غرناطة[3].

وقد روى المقري أخبار هذه الأحداث حيث ذكر أن الإسبان تقدموا نحو غرناطة، فجمع صاحب غرناطة الأعيان والكبراء والفقهاء والأجناد وأخبرهم أنه لا خيار لهم إلا

---

(1) المقري، نفح، ج٤، ص ٥١٩، ٥٢٠.

(2) المصدر نفسه، ج٤، ص ٥٢٠-٥٢١، ٥٢٢؛ ازهار الرياض، ج١، ص ٦٦؛ الناصري، الاستقصا، ج٤، ص ١٠٢.

(3) المقري، نفح، ج٤، ص ٥٢٢؛ إزهار الرياض، ج١، ص ٦٦.

القتال أو الدخول تحت طاعة الإسبان فأتفق الرأي على الجهاد، فتقدم ملك قشـــتالة نحــو غرناطة وخرب المزروعات، وحاربه المسلمون في عدة مواقع، ولما يئس من استسلامهم عاد إلى بلاده، وعلى الأثر تمكن المسلمون من استعادة بعض الحصون واستعادوا بعــض البلاد، وسار لقتال عمه أبي عبد الله محمد بن سعد الذي كان مع الإسبان وتمكن صــاحب غرناطة من الاستيلاء على حصن همدان وقتل من به، كما استعاد شلوبانية إلا أنه رحــل عنها عندما سمع بمسير صاحب قشتالة إلى مرج غرناطة ثم ارتحل عنها عـــائداً لبـــلاده ودمر في طريقه عدداً من الحصون فلما رأى ذلك السلطان الزغل (وهو أبـــو عبــد الله محمد بن سعد عم سلطان غرناطة) خرج إلى المغرب واستقر بتلمسان.

وفي سنة ٨٩٦هـ/١٤٩٠م هاجم الإسبان غرناطة وأفسدوا الزرع وهدموا القــرى وبنوا سوراً وأخذوا يضيقون على غرناطة كل يوم ودام القتـــال ســبعة أشــهر، واشــتد الحصار على المسلمين إلا أن غرناطة ظلت تحصل على الإمدادات من البشـــرات مــن ناحية جبل شلير إلى أن دخل فصل الشتاء، فانقطعت طريق الامدادات فقل الطعام وعظـم البلاء سنة ٨٩٧هـ/١٤٩١م، وخرج الكثير من أهل غرناطة إلى البشرات وطمع العــدو في الاستيلاء على غرناطة بسبب الجوع دون الحرب، واشتد الأمر على أهالي غرناطــة، فاجتمع بعض أهل غرناطة ليروا ما يفعلوا، فقبلوا دخول ملك قشتالة إلى غرناطة، ونــزل سلطان غرناطة عن الحمراء ودخلها القشتاليون، بموجب معاهدة تتألف مــن ٦٧ شــرطاً سنة ٨٩٧هـ/١٤٩١م[1].

وعلى الأثر استولى النصارى علـــى الحمــراء فــي ثــاني ربيــع الأول ســنة ٨٩٧هـ/١٤٩١م ودخلوها بعد أن استوثقوا من أهل غرناطة بنحو خمسمائة من الأعيــان رهناً، وعين الإسبان قائداً منهم على الحمراء وحكاماً منهم، وصار الطاغية يختلف إلـــى الحمراء نهاراً ويبيت بمحلته ليلاً إلى أن أطمأن فدخل المدينة وطاف بها، ثم أمر ســلطان المسلمين أن ينتقل لسكنى البشرات، وأنها ستكون له في سكناه بأندرش من قرى البشـــره (البشرات) فأنصرف إليها وأخرج الأجناد منها ثم احتال العدو فـــي نفيــه لــبر العــدوة (المغرب) وأظهر أن السلطان طلب منه ذلك، وكتب لصاحب المرية بالسماح لأبي عبــد

---

[1] المقري، نفح، ج٤، ص ٥٢٤، ٥٢٥؛ أزهار الرياض، ج١، ص ٦٥، ٦٦؛ النـــاصري، الاســتقصا، ج٤، ص ١٠٣، ١٠٤؛ مجهول، نبذة العصر، ص ٤٠-٤١.

الله بالسفر إلى عدوة المغرب فأنصرف السلطان أبو عبد الله وركب البحر فنزل مليله ثم استوطن فاس، ثم أن النصارى نكثوا عهودهم وأخذوا يحملون المسلمين على التنصر ثم التهجير على نحو ما سنرى في الفصول القادمة، ويذكر المقري أن أعقاب أبي عبد الله محمد ما زالوا في عهده في فاس من جملة الضعفاء بعد الملك الطويل العريض[١].

آل أبي الحسن علي بعد سقوط غرناطة.

وفيما يتعلق بالخرجة العسيرة الشاقة والمصير المحزن لأبي عبد الله مع اسرته وحشمه وخدمه الرئيسيين في اتجاه المراكز والمقرات الجديدة في البشرات التي اعترف بها بمقتضى معاهدة تسليم غرناطة. يقول بعضهم[٢]: أنه جعل مقره لوشار Laujar ويقول آخرون[٣]: أنه استقر بمكان في كبده: Cobda من نواحي اندرش، حيث اعتاد الخروج كثيراً مع أصدقائه المخلصين بقصد الصيد في حقول داليات Dalias وبرجه Berja[٤].

لم يكتف الملكان الكاثوليكيان بانتقال أبي عبد الله الصغير إلى البشرات، بل رغبا في طرده نهائياً من شبه جزيرة ايبيريا، بقصد تفادي أي ثورة أو عراك جديد في المملكة التي تم لهما استخلاصها مؤخراً من يد المسلمين، وبقصد إيعاد كل خطر ارتداد يأتي من أولئك الذين كانوا – إلى وقت قريب – يحيون حياة خارج العقيدة المسيحية.

وكان الوزير يوسف بن كماشه Ben Comixa صديقاً يأتمنه أبو عبد الله الصغير، ولكن ابن كماشه خان ملكه، فكان يتجسس عليه لصالح الملكين الكاثوليكيين[٥]. وكان

---

(١) الاستقصا، ج٤، ص ١٠٤-١٠٦؛ المقري، أزهار الرياض، ج١، ص ٦٧؛ ونبذة العصر، ص٤١-٤٣.

(٢) - Revista del Centro de Estudios Historicos de Granada y su Reino, Núm. 2, Tomo II, pag 57, año 1912.

(٣) - D. Miguel Lafuente Alcántara, Historia de Granada, pag, 145. Granada, 1846.

(٤) - Ver la correspondencia entre Hernando de Zafra y los Reyes Católicos; se encuentra publicada en la Colección de Documentos Inéditos para la Historia de España. Tomos XI, XIV y LI. Madrid, 1842-1895.

(٥) الفيكونت دو شاتوبريان، آخر بني سراج ترجمة الأمير شكيب أرسلان، صفحة ٣٤٨ الاسكندرية، ١٨٩٧.

يتصل سراً بأمين سرهما ايرناندو دي ثافرا Hernando de Zafra الذي كان يسكن في مدينة غرناطة، ويبلغه كل شيء عن تحركات أبي عبد الله الصغير: فسحاته عبر الوادي، ومحادثاته وكل ما يصدر عنه. وكان ينقل ذلك للملكين الكاثوليكيين في كتمان وتحفظ . وعلاوة على ذلك فإنه تفاوض مع الملكين الكاثوليكيين حول بيع ممتلكات ابي عبد الله في البشرات، دون علم أو تصريح خاص من ملكه.

عندما علم أبو عبد الله بأمر هذه الصفقة، عانى الأمرين من هذه الخيانة ومن بيع ممتلكاته دون إذنه[١] وكاد يفتك بصاحبه، ولكنه اقتنع أخيراً وفوض أمره إلى الله.

وبمقتضى هذه الاتفاقية التي عقدها ابن كماشه، اعطى الملكان الكاثوليكيان أبا عبد الله تعويضات مالية عن ممتلكاته في داليات Dalías وارجبه Orgiva وفيريرا Ferreira وبوكيره Poqueira ثم بولودي Boloduy.

أما مريمه، ابنة القائد البطل المشهور علي العطار Aliatar فإنها لم تلبث أن قضت نحبها بسبب المرض الذي ألم بها بالاضافة إلى خور العزيمة وخمود الهمة وحزنها على رحيل زوجها الملك أبي عبد الله. وقد قام ايرناندو دي ثافرا باخبار الملكين الكاثوليكيين بوفاة مريمة أثناء الاستعدادات الجارية لسفر أبي عبد الله الصغير، وذلك برسالة مؤرخة بيوم ٢٨ من شهر أغسطس من سنة ١٤٩٣م (١٥ من ذي القعدة من عام ٨٩٨هـ).

وفي أواخر شهر ذي الحجة الحرام من عام ٨٩٨هـ (أوائل شهر اكتوبر من سنة ١٤٩٣م)، ومن ميناء عذرة Adra[٢] غادر أبو عبد الله الصغير مع أولاده ووالدته واخته وكل حاشيته أرض مملكته الغاربة الحبيبة، متجهين صوب افريقية إلى المغرب بالذات. وذهبت في الاتجاه نفسه بعض الأسر من البشرات[٣].

(١) - Luis de Mármol Carvajal Historia da la Rebeliónn y castigo de los moriscos del reino de Granada, 2, ed, pags. 99-115. Madrid, 1797.

(٢) - Revista del Centro de Estudios Históricos de Granada y su Reino, Núm 2, Tomo 11, pag. 95, año 1912.

(٣) - Farid al Bustani, Capitulaciones de Granada y emigración de los andaluces a Marruecos, Larache, 1940.

عندما علمت الملكة الكاثوليكية برحيل ابن ابي عبد الله الصغير معه، وبمغادرته شبه الجزيرة الايبيرية، أحست بألم عميق وغم شديد لانها كانت تكن له عاطفة قوية منذ الأيام التي قضاها في البلاط القشتالي(١).

بلغ معظم هؤلاء المهاجرين مع الملك أبي عبد الله إلى فاس عاصمة المغرب، حيث استقبلهم السلطان أبو عبد الله محمد الشيخ الوطاسي (٨٧٦-٩١٠هـ/١٤٧٢-١٥٠٤م) بحفاوة وأريحية بالغة، وعهد إليهم بمناصب ادارية وحربية ذات أهمية كبيرة. وقد دافع بعض منهم بشجاعة وكفاءة عن الشواطئ المغربية التي كان البحارة الإسبان يغيرون عليها في عهود الملكين ضونيا خوانه وكارلوس الخامس. أما بقية الذين غادروا الجزيرة فقد استقروا في تونس، وآخرون في الاسكندرية والمدن الرئيسية بالمشرق(٢).

وابتنى أبو عبد الله ـــ في فاس ـــ التي استقر فيها نهائياً بعض القصور على طراز بنيان الأندلس، ويذكر المقري أنه رآها ودخلها(٣).

وبعد ذلك بزمن توفي بفاس أبو عبد الله بن الأحمر. وقد اختلف المؤرخون في تاريخ وفاته، فجعله المقري في كتابه "أزهار الرياض" (الجزء الأول ص ٦٨) سنة ٩٢٤هـ/١٥١٨م، والغالب أن هذا التاريخ وقع فيه تحريف، لأنه عاد فذكر في كتابه "نفح الطيب" (الجزء السادس، ص ٢٨١) أن تاريخ وفاته هو سنة ٩٤٠هـ/١٥٣٤م وانه دفن بازاء المصلّى خارج باب الشريعة، وخلف ولدين اسم أحدهما يوسف والآخر أحمد ووافقه الناصري مؤلف كتاب "الاستقصاء" (الجزء الرابع،ص ١٣٥) على ذلك ناقلاً عنه.

أما مانويل كاستيانوس في كتابه (عن تاريخ المغرب وأسره المالكة) فزعم – كما زعم غيره من مؤرخي الإسبان – أن أبا عبد الله قتل في معركة (أبي عقبه) بوادي العبيد، التي وقعت بين ولي نعمته وحاميه السلطان الوطاسي أبي العباس أحمد، وبين خصمه أبي

---

(١) - D. Joaquín Durán y lerechundi, La toma de Granada, Tomo 11, Pags. 446-447, Madrid, 1893.

(٢) - D. Miguel Lafuente Alcántara, Historia de Granada. Tomo IV. pag. 133. Granada, 1846.

(٣) المقري، نفح، ج٦، ص ٢٨١.

العباس أحمد السعدي في صفر سنة ٩٤٣هـ/١٥٣٦م. ولا يخفى ما ترمي إليه الرواية الإسبانية من وراء هذا الزعم الذي يفتح له المجال للسخرية من هذا الملك المطرود المنكود، وللتهكم عليه بأنه مات موت الأبطال في حرب مغربية أهلية، دفاعاً عن مملكة غيره بينما لم يجرؤ أن يموت دفاعاً عن مملكته ضد الإسبانيين.

وغني عن البيان أن مانويل كاستيانوس ــ وأمثاله ــ مخطئون، لأن تاريخ وقعة أبي عقبة ــ أو غيرها ــ لا يتوافق مع السنة التي توفي فيها أبو عبد الله على وجه التحقيق.

نسل أبي الحسن علي بن ايسابيل دي سوليس:

لم تكن ثرياً التي أسلمت وحسن اسلامها تفكر في الارتداد عن الاسلام (الدين الحنيف)، لولا التوسلات العديدة التي أبداها ولداها اللذان أصبحا مرتبطين بوطنهما. واستجابة لطلبات الملكين الكاثوليكيين، فعادت لاعتناق دينها الأول وعادت إلى اسمها القديم ايسابيل[1] فتلاءمت بعملها هذا مع العقيدة المسيحية والظروف الجديدة. وأنعم الملكان الكاثوليكيان على الأميرين: سعد ونصر ابني أبي الحسن وثريا ــ اللذين ارتدا إلى المسيحية فيما بعد، وتسميا بالتوالي: ضون فرناندو وضون خوان دي غرانادا (غرناطة) ــ فمنحهما كل الممتلكات والعقارات التي ظل يمتلكها ويستغلها عمهما أبو عبد الله محمد الزغل مدة تزيد على العامين بقليل، وذلك قبل أن يذهب إلى إفريقية حسبما أشرنا إليه من قبل. وهذه العقارات هي: الأحياء أو النواحي Las Tahas الكائنة في أرجبة Orgiva وفي جوبيليس Juviles التي تعرف اليوم باسم تورفيسكون Torviscón والتي بقيت في ملكهما إلى قيام أهل البشرات Alpujarras بالثورة سنة ٨٩٨هـ/١٤٩٢م.

نقل الملكان الكاثوليكيان الأميرين من هذه الأماكن ــ خشية أن ينضما إلى الثوار، وكافأهما مقابل ذلك بمليون وأربعمائة ألف مرافيدي ذهب ــ والمرافيدي Maravede: عملة

(١) - Salazar, Vida del Gran Cardenal, Lib. 1 Cab. XXI.

اسبانية قديمة كانت لها أوصاف وقيم مختلفة ــ كما منحاهما حصن مونليون Castillo de Monleón وحكومة إقليم غاليسيا Galicia[1].

أما المسلمون الذين بقوا في الأندلس فقد ساءهم أن يعاملوا بقسوة، وأن يشدد عليهم فيكونوا عرضة للقمع والاضطهاد على أيدي الجنود المسيحيين، ولذا أعلنوها ثورة شعواء ابتداء من سنة ١٤٩٩م (٩٠٤هـ) ونخص بالذكر أولئك الثوار سكان حي البيازين وأهل البشرات، كما نذكر من تلك الثورات ــ لأهميتها ــ ثورة غويخار Güejar وثورة مونديخار Mondejar. كذلك قام سكان مدينة غرناطة المسلمون بمطالبات جديدة، وقد تمكن الموريسكيون سكان البشرات من أن ينصبوا عليهم ملكاً منهم فتى من سكان البيازين يدعى ضون فرناندو دي كوردوبا (قرطبة) أي فالور Fernando de Válor الذي ينتمي إلى أمويي الأندلس، وتسمى باسم "محمد بن أمية صاحب الأندلس وغرناطة" وتم تتويجه في العاشر من رجب عام ٩٧٦هـ (٢٩ ديسمبر ١٥٦٨م). وكانت البلدان التي ثارت على المسيحيين الإسبان هي:

ناحية أرجبة بوقيرة وفريرا Poqueyra y Ferreyra، ناحية جوبليس، ناحية سهيليس Ceheles، ناحية أوخيخر Ugijar، أماكن في بلاد عذرة Adra ناحية برجة Verja ناحية أندرش، ناحية دلاية، ناحية لوشار Luchar، ناحية مرشينة Marchena أماكن نهر بولودي Boloduy، شلوبانية Salobreña، بعض الأماكن في المرية، أبله ولوريثينا Abla y Lauricena نهر المنصورة Rio Almanzora ايستان Istan أراضي ماركيزية الزنيت Marquesado del Zenete البونويلاس وسلاريس Albuñuelas Y Salares.

وكان ضون فرناندو دي غرانادا (فرناندو الغرناطي) ابن مولاي الحسن (أبي الحسن) وايسابيل دي سوليس (ثريا) قبل تعميده قد استقر في مدينة بلد الوليد Valladolid وكان حامي دير مرج الرهبان اتباع سان خيرونيمو حيث دفن في النهاية.

---

(١) - Mármol Carvajal (Luis de), Historia del Rebelión y castigo de los Moriscos del reyno de Granada, Tomo 1, Cap, XVI, pag, 75. Madrid MDCCXCVII (1797).

تزوج هذا الأمير بضونيا منثيا دي ســـندوفال أي دي لافيغــا Doña, Mencía de Sandoval y de la Vega وهي سيدة من تورديهو موس Tordehumos ومن غواردو Guardo وكاستريبيو ابنة ضون دييغو دي ساندوفال وضونيا ليونور دي لافيغا، النســـيبة القريبــة للأمراء. كان ضون دييغو هذا أخاً لوالدة ضون بيــدور مــانريكي Pedro Manrique أول دوق لناخيرا Najera، وأخا للكونت دي كاسترو ضون ايرياندو دي كاسترو وجميع هؤلاء أبناء لضون دييغو غوميث دي ساندوفال، الكونت الأول لكاسترو[1]. ومات ضون دييغــو غوميث دي ساندوفال مخنوقاً في قصر البرادو بمجريــط En el Prado de Madrid. أمــا السيدة مينثيا لافيغا[2] البنت الوحيدة والوارثة لوالدتها السيدة ليونور دي لافيغا** ووالدهــا السيد دييغو دي ساندوفال، فقد كانت حفيدة من جهة الأم لغونثالو رويث دي لافيغا أخــي ماركيز دي سانتيانا Marqués de Santillana، وقد ورد اسم هذه السيدة مينثيــا فــي كــل الوثائق تقريباً كأميرة ولكن كل المؤرخين المعاصرين لها تقريباً يذكرونها كامرأة شــريرة فاسدة. فقد تزوجت أربع مرات الرجال الآتية اسماؤهم:

١. بيدرو غونثاليس دي ميندوثا Don Pedro Gonzales de Mendoza الابن الثاني لماركيز سانتيانا[3]. وتمّ الاحتفال بهذا الزواج يوم عشــرين مــارس ١٤٦٢م (١٨ جمــادى الثاني ٨٦٦هـ) بمجرد إدراك ضونيا مينثيا ساندوفال دي لافيغا سن الــزواج. ودام هذا الزواج الأول سبعة عشر عاماً أي إلى شهر يونيو عام ١٤٧٩م (رجـب ٨٨٤م) حين توفي زوجها في حصار تورديهوموس Tordehumos. وأرسل جثمانه ليدفــن في كنيسة شانت ياقب Santiago الكائنة في القرية نفسها، تاركاً كل ثروته لزوجتــه ضونيا مينثيا دي لافيغا[4]. ولكن رجال اسرتي ثيسنيروس Cisneros وفيغا أرســلوه ليدفن في دير سان فرانشيسكو دي كاريون[5].

---

(١) - Alonso de Santa Cruz, Crónica de los Reyes Católicos, Edición y estudio por. J. de Mata Carriazo, pags. 255-256. Cab LIV. Sevilla, 1951.

(٢) - Siendo de tierna edad sufrió mucho al morir su madre doña Leonor de la Vega (6-Abril-1456) a menos de un mes de diferencia de su abuelo D. Gonzalo Ruiz de la Vega.

** بما أنها كانت صغيرة السن فقد قاست الكثير من جراء موت والدتها ليونــور دي لافيغــا (٦ أبريــل ١٤٥٦) على إثر موت جدها غونثالو رويث دي لافيغا.

(٣) - Don Diego Hurtado de Mendoza, Duque del Infantado o Infantazgo.

(٤) - AHN, Osuna, 1765, núm, 6 Se trata sobre el testamento de D. Pedro Gonzalez (Tordehumos, 3 de junio de 1479).

(٥) - AHN, Osuna, Leg. 1765 núm 5. (مخطوطة غير منشورة).

٢. وفي الزواج الثاني زفت إلى ضون برناردينو دي كينيونيس كوندي دي لونـا (Don Bernardino De Quiñones, Conde de Luna) ودام هذا الزواج ستة أعوام، وألغـي فيما بعد بحكم صدر في ٣١ أغسطس من عام ١٤٨٥م (١٩ شعبان ٨٩٠هـ) نتيجة للدرجة الرابعة من القرابة الأبوية، وكان برناردينو المذكور يتحدى ضون بيـدرو الفاريس أوسوريو مـاركيز اسـتورغا Don Pedro Alvares Osorio Marqués de Astorga بادعائه أنه كان على علاقة غرامية بالأميرة مينثيا.

٣. تزوجت للمرة الثالثة بضون خوان أورتادو دي ميندوثـا، Don Juan Hurtado de Mendoza الابن الثالث للكاردينال ضون بيدرو غونثاليث دي ميندوثا ضونيا انيـس دي توفار Doña Inés de Tovar.

٤. وعادت فتزوجت للمرة الرابعة بالأمير ضون فرناندو دي غرانادا ابن أبي الحسـن علي (مولاي الحسن)، وأخي الأمير ضون خوان دي غرانـادا. وكلاهمـا ابنـان لايسابيل دي سوليس (ثريا الرومية). توفي هذا الأمير (الزوج) في شهر مارس من عام ١٥١٢م (ذي الحجة ٩١٧هـ) في مدينـة برغـش Burgos، وذلـك بسـبب الإساءات الكثيرة التي سببتها له زوجته[1]، ولم يترك الزوجان ولـدا، ولـذا ورث الدار التي شادها هو نفسه أخوه ضون خوان دي غرانادا. ومع ذلك، وحتـى بعـد موت زوجها فرناندو احتفظت ضونيا مينثيا بلقب أميرة Infanta الذي أكدته وصيتـه التي أوصى بها في بلد الوليد يوم ٢٨ أغسطس ١٥١٤م (٧ رجب ٩٢٠هـ).

كانت الأميرة ضونيا منثيا – وهي من توردـيهوموس – تمتلـك توردـيهوموس بيافيغا، Villavega، تاخيونتي Tajillonte سانتا كروث ديل مونتي Santa Cruz del Monte البلاة Albala، سانتيان Santillán كاستريخون Castrejón لاغوثبينيا La Guzpeñña وأمـاكن وأراضي أخرى.

---

(١) - Archivo General de Simancas, año 1512, Pleito entre la Infanta doña Mencía de la Vega con su marido el Infante Don Fernando de Granada, del que pide el divorcio por malos tratos. Sección: Consejo Real. Leg. 45-15 Y 663-8. (مخطوطة غير منشورة)

وقد هيأت قبل مماتها ضريحاً لها فتركت في توردیهوموس معبداً فخماً بقبور من المرمر (الرخام) مصنوعة بإتقان كبير(١).

وفيما يتعلق بالتركة التي استلمتها ضونيا مينثيا دي لافيغا من جدها لأمها غونثالو رويث دي لافيغا، فقد كانت هناك دعوى في ١٥ يونيه عام ١٥٠٩م (١٦ صفر ٩١٥هـ) وفي محكمة بلد الوليد بالذات، بين الأميرة المذكورة ضونيا مينثيا، وبين ضونيا فرانشيسكا أنريكيث وابنيها(٢). وهذه الأخيرة كانت زوجة لضون دييغو أورتادو دي ميندوثا، الابن غير الشرعي لضون غونثالو رويث دي لافيغا. كان لدييغو اورتادو دي ميندوثا وضونيا فرانشيسكا انريكيث ابناً يدعى غونثالو رويث. وهو الذي أقام الدعوى على ضونيا مينثيا. وكان سبب رفع هذه الدعوى، هو أملاك دييغو أورتادو دي ميندوثا التي ورثها عن أبيه غونثالو رويث دي لافيغا، فهو ابن له غير شرعي. فقد كان من المفروض أن تنتقل هذه الأملاك بعد موت أورتادوا دي ميندوثا إلى ضونيا مينثيا دي لافيغا بصفتها وارثة عاصبة لجدها غونثالو رويث دي لافيغا، لان دييغو أورتادو، كان ابناً غير شرعي، قد ورث هذه الأملاك "طبقاً لقانون الكنيسة من أجل المعيشة" فلم يكن في المستطاع أن تنتقل إلى ورثته وإن كانوا أبناء شرعيين لم يولدوا ـــ وغونثالو رويث منهم ـــ في حياة جدهم.

في نظرة أولى للدعوى حكم بأن الاملاك تنصرف إلى ضونيا مينثيا دي لافيغا. ولكن بعد صدور هذا الحكم، نشر قانون الثور La ley de Toro الذي صار في الامكان بمقتضاه أن يعطى الابن غير الشرعي من أجل المعيشة خمس أملاك والده مع الحق في توريث أبنائه من بعده. وبخروج هذا القانون إلى حيز الوجود طلب غونثالو رويث مراجعة الدعوى. وحكمت محكمة بلد الوليد بإبطال الحكم الأول، منصفة غونثالو رويث. إلا أن ضونيا مينثيا دي لافيغا طلبت مراجعة جديدة والغاء للحكم السابق. وتتلخص حججها التي أدلت بها بما يلي:

---

(١) - La casa del Infantado, Cabez de los Mendoza, Tomo 1, pag. 258 Madrid, 1940.

(٢) - Archivo de la Real Chancillería-Valladolid, año, 1509 Pleito entre Doña Mencía de la Vega, Señora de Tordehumos, con Doña Francisca Enriquez, sobre ventas, vasallos Y lugares Sección: Pleitos civiles, puerta Fenecidos. Leg. 45-1. (مخطوطة غير منشورة).

١. البطلان والإهانة التي تستنتج من الحكم المشار إليه.
٢. أنهم أبطلوا الحكم الأول الذي صدر لصالح الأميرة، والذي كان ينبغي إقراره.
٣. أنهم بإصدارهم ذلك الحكم ضد ضونيا مينثيا، يبدو أنهم كانوا مدفوعين بدوافع لا علاقة لها بالقانون، بل هي بصفة خاصة كانت "بمقتضى الطلب الذي أبداه رئيس دير سانت زويل Sant Zuíl (San Zoilo) من دييغو اورتادو دي ميندوثا والد غونثالو المذكور، وفي ذلك أبعث لك مائة وخمسين عبداً: Vasallos"[1].

الأمير ضون خوان دي غرانادا:

هو الذي كان اسمه سعد، وهو الابن الثاني لأبي الحسن علي وايسابيل دي سوليس وأصبح اسمه عند تعميده باسم خوان دي غرانادا (خوان الغرناطي) ولقبه.

رحب الملكان الكاثوليكيان بضون خوان وأخيه ضون فرناندو دي غرانادا، وبامراء غرناطيين اخرين، وزوجاهم واعطياهم وظائف تشريفية، ومناصب عسكرية أو ادارية طبقاً لمكانتهم[2].

وعندما بدأت حركة التمردات الأقليمية Comunidades تقلد الأمير ضون خوان دي غرانادا منصب Capitán General لمدينة بلد الوليد وتوجه إليه المجلس المقدس La Junta Santa من أبله Avila: أن يعتقل المستشارين الذين كانوا قد اقترحوا عقاب مدينة ديل كامبو Medina del Campo.

حافظ الأمير بكياسة على علاقاته مع ممثلي كارلوس الخامس الذي عهد إليه فيما بعد بمنصب دقيق هو منصب حاكم اقليم غاليسيا البلد البحري الواقع على الحدود. وشغل

---

(١) - Valladolid Archivo de la Real Chancillería. Sección de pleitos civíles fenecidos de la puerta, Legajo, núm 45-1. (مخطوطة غير منشورة).

(٢) - Diccionario de Historia de España, dirigido por German Bleiberg, Segunda Edición. Tomo 11 F-M. Ediciones de la Revista de Occidente, Barbara de Braganza, 12 Madrid, 1968, pag, 244.

ضون خوان المنصب المذكور بحكمة وتبصر كبيرين، متفادياً كثيراً من الخلافات[1].

تزوج هذا الأمير مرتين:

أولاً: ضونيا بياتريث دي ساندوفال Doña Beatriz de Sandoval ابنة ضون خوان دي ساندوفال، حفيدة دييغو دي ساندوفال الكوندي، الأول لكاسترو. ومن هذا الزواج ولد لهما أربعة أولاد هم:

١. خوان دي غرانادا أي ساندوفال: الذي تزوج بضونيا بياتريث دي فيلاسكو أي ميندوثا ابنة لويس دي فيلاسكو نائب الملك في المكسيك، وضونيا خوانا دي كاستيا أخت سانشو دي كاستيا سيد بلدة غور Gor. ولم ينجب هذا الأمير أولاداً، الأمر الذي ترتب عليه أن يخلفه في الدار أخوه الثاني خيرونيمو برناردينو Jeronimo Bernardino.

٢. خيرونيمو برناردينو دي غرانادا أي ساندوفال: الحامل لوسام شانت ياقب من درجة فارس Caballero de la Orden de Santiago عاش في بلد الوليد وبما أن أخته ماجدلينا Magdalena كانت محرومة من الميراث، وبما أن أخويه خوان وايسابيل لم يكونا على قيد الحياة، فان ضون برناردينو أصبح الوارث الوحيد العاصب في هذا الفرع. تزوج ضونيا سيسيليا دي ميندوثا Doña Cecilia de Mendoza ابنة ضون كارلوس دي ميندوثا كوندي دي كاسترو. ومن هذا الزواج ولد لهما ولدان:

أ. خوان دي غرانادا أي ميندوثا: خدم الملك فيليب الثاني في حملته على الش Elche وتزوج ضونيا خوانا دي كاستيا ابنة الونصو دي كاستيا وضونيا انيس دي اكونيا. ومات دون أن يترك عقباً مما جعل أخاه فرناندو يرثه.

ب. فرناندو دي غرانادا أي ميندوثا: تزوج ضونيا أنا ديل أيرو Doña Ana del Hierro المسماة دي أوستريا (النمساوية) من هذا الزواج ولد له ولد مات دون أن يعقب.

٣. ايسابيل دي غرانادا أي ساندوفال رئيسة دير Abadesa سانتا كلارا بمدينة شانت ياقب Santiago ذلك الدير الذي أسس في القرن الثالث عشر الميلادي. ويوجد قبرها في

---

(١) - Durán Y lerchundi (Don Joaquín). La Toma de Granada. Tomo II, pags. 206-207. Madrid, 1893.

مكان تجمع الراهبات لتأدية مهامهن الدينية. وكانت هذه الأميرة أول من توفي من بين أشقائها وشقيقاتها، قبل سابع اكتوبر من سنة ١٥٤٧م (٢٢ شعبان ٩٥٤هـ)، تاركة وارثاً لها أخاها خوان، وبما أنه مات قبل ١٥٥١م فانه بقي الوارث الوحيد لهذا الفرع أي فرع بيرناردينو. ذلك أن ماجدلينا كانت مبعدة من الميراث بسبب أملاك صداقها.

٤. ماجدلينا دي غرانادا أي ساندوفال Magdalena de Granada Y Sandoval المولودة الأخيرة من الزواج الأول. تزوجت بضون لويس دي الينكاستري Don Luis de Alencastre أخي دوق أفيرو Duque de Aveiro وبقيت بسبب هذا الزواج خارج الأرث باقامتها في البرتغال، وتسلمت من ميراث ابن أخيها: ضون فرناندو دي غرانادا أي ميندوثا مبلغ ١٨٠٠٠ دوكات فقط(١).

ثانياً: والزواج الثاني للأمير ضون خوان دي غرانادا، كان مع ضونيا ماريا دي توليدو ابنة ضون فرناندو الفاريث توليدو Doña María de Toledo، وضونيا ماريا باشيكو Doña María Pacheco، كوندي وكوندية أوروبيسا(٢) Condes de Oropesa. وقد وقع هذا الزواج في شهر اكتوبر ١٥٣٥م (ربيع الثاني ٩٤٢هـ).

كل الاملاك المنقولة من الذهب والفضة التي كانت له عندما تزوج بضونيا ماريا دي توليدو Doña María de Toledo ، وخاصة تلك الفضة المكسرة La Plata quebrada التي كانت توجد في شانت ياقب، إنما هي من الزواج الأول:

١٠٠٠٠٠٠	مرافيدي	١ كوينتو 1 Cuento
١٥٠٠٠٠	مرافيدي	موجودة في طليطلة
٢٥٠٠٠٠	مرافيدي	كمساعدة مصاريف تكلفة
٧٠٠٠٠٠	مرافيدي	من الخدمة وضريبة مرور الماشية بالجبل لعام ١٥٣٣م Servicio Y Montazgo
٥٢٥٠٠٠	مرافيدي	من الخدمة وضريبة مرور الماشية بالجبل لمدة تسعة أشهر من ١٥٣٥م.

(١) - Archivo de la Real Chancilleria de Granada, signatura 201-5. 081-15. La portada de esta pieza es la siguiente: J.M.J. Letra C. Número 1. Pieza. 2. (مخطوطة غير منشورة).

(٢) - C. de Monedas 90-32. (مخطوطة غير منشورة).

تسلم هذا الأمير صداقاً ٣٠٠٠٠٠ مرافيدي ذهب Maravedis de Juro متأتية من الملكين الكاثوليكيين، بمناسبة زواج الأمير بضونيا ماريا دي توليدو. كذلك تسلم من والدته ضونيا ايسابيل دي سوليس (ثريا) جواهر وأشياء موريسكية وأحجاراً كريمة ولآلئ بما قيمته ٤٧٥٠٠٠ مرافيدي. مات ضون خوان سنة ١٥٤٣م (٩٦٠هـ) في شانت ياقب دي كومبوستيلا Santiago de Compostela فأصبحت ضونيا ماريا دي توليدو وصية على أولادها في شانت ياقب دي كومبوستيلا منذ يوم ١٤ ابريل من ١٥٤٣م (٩ محرم ٩٥٠هـ). وهؤلاء الاولاد هم:

١. دييغو دي غرانادا. الابن الأكبر لضون خوان دي غرانادا وضونيا ماريا دي توليدو في عام ١٥٥١م كان له العمر ما بين ١٤ و ٢٥ سنة. والباقون كان عمر كل منهم أقل من ١٤ سنة.
٢. بيدرو (بطرس) دي غرانادا: الابن الثاني للأمير ضون خوان دي غرانادا وضونيا ماريا دي توليدو.
٣. ماريا دي غرانادا: هي ثالثة ابناء الأمير ضون خوان دي غرانادا وضونيا ماريا دي توليدو.
٤. فيليبا دي غرانادا: وهي رابعة أبناء الأمير ضون خوان دي غرانادا وضونيا ماريا دي توليدو.
٥.مريانا دي غرانادا: وهي خامسة أبناء الأمير ضون خوان دي غرانادا وضونيا ماريا دي توليدو وهذه الأميرة لم تكن في شهر أغسطس من عام ١٥٤٣م (جمادى الأولى ٩٥٠هـ) قد ولدت بعد[١].

وفيما بين عام ١٥٤٧م وعام ١٥٥١م حدثت وفاتها.

سببَّ الزواج المزدوج للأمير ضون خوان دي غرانادا اختلافاً كبيراً في السن بين الأخوة لأب Los hermanastros هذا ومن الأولاد الأربعة من نتاج الزواج الأول لم يبق إلا ضون خيرونيمو برناردينو كوارث عاصب وحيد، وضونيا ماجدلينا التي كانت قد

(١) - Archivo de la Real Chancilleria de Granada, signatura 201-5. 081-15. (مخطوطة غير منشورة).

تزوجت واستقرت في البرتغال. ومن الزواج الثاني، علينا فقط أن نبرز حقـــوق البنـــت المولودة بعد وفاة والدها Hija Póstuma مريانة التي كانت ولـــدت أواخـــر ســـنة ١٥٤٣م وتوفيت بين سنة ١٥٤٧م وسنة ١٥٥١م.

بالنظر إلى صعوبة تعيين الأملاك التي تخص هذا الزواج أو ذاك، وكذا العلاقـــات العائلية والمصاريف، وفوات الوقت، حصل اتفاق بين أعضاء الأسرة صدق عليه شـــهود عديدون، وذلك فيما يتعلق بمصلحة ورثة ضونيا ماريا دي توليدو والذين كانوا ما زالـــوا صغار السن، فقد كان هو دييغو الولد الوحيد الذي كان له أكثر من أربع عشرة سنة مـــن العمر في عام ١٥٥١م، وكذلك سيتعلق الأمر بالاستقصاء حول المبلغ الـــذي ينبغـــي أن يقدمه ضون برناردينو إلى الفريق المقابل فيبقى بهذه الكيفية هو الوارث العاصب.

كان المبلغ المتنازع عليه ١١٥٠٠ دوكات. وهو مبلغ يساوي أربعة كوينتـــوس و ٣١٢٥٠٠ مرافيدي يضاف إليه المقدم سابقاً: ٢ كوينتوس و ٤٨٦٥٠٥ مرافيدي، وهـــو الذي دفعته ضونيا ماريا دي توليدو مصاريف للدعوى حتى ذلك الحين.

مسألة أخرى برزت للعيان هي طريقة الدفع، فمن الواضح أن مبلغاً كبيراً كهذا لا يمكن أن يسدد دفعة واحدة ونقداً. ولهذا وقع تقسيمه حسب الكيفية التالية:

٧٠٠٠ دوكات هي فائدة أو تكاليف عينية لمبلغ ٣٥٠ دوكات سنوياً.
٣٠٠٠ دوكات نقود متحصلة من خلال عام.
٣٠٠ دوكات من خلال التزام.
١٢٠٠ دوكات حلّي من ذهب وفضة.

ضون بيرناردينو يضمن الاحصاء بمجموعة من الأملاك المنقولة والثابتة الموزعة حسب التوزيع الجغرافي التالي:

أملاك وايرادات في غرناطة.
أملاك وايرادات في توردبهوموس.

أملاك وايرادات في كاسترومونتي.

أملاك وايرادات في كابيثون.

٣٠٠٠ مرافيدي دي خورو قديم عن ايرادات ومكوس بمدينة بلد الوليد.

٧٠٠٠٠٠ مرافيدي ايراد طليطلة عن الخدمة وضريبة مرور المواشي بالجبل.

٢٠٠٠٠٠ مرافيدي في طليطلة.

دار واحدة بشارع سانتا كلارا في مدينة بلد الوليد.

قطعة أرض واحدة للبناء مسيجة، غير مبنية.

دور أخرى في شارع سانتا كلارا.

دور أخرى لورثة كايناتو.

معاهدة تسليم غرناطة المعقودة بين أبي عبد الله الصغير والملكين الكاثوليكيين؛ ضون فرديناند وضونيا ايسابيلا بتاريخ ٢١ محرم، سنة ٨٩٧هـ الموافق ٢٥ تشرين الثاني سنة ١٤٩١م

المادة الأولى:

على ملك غرناطة والقادة والفقهاء والحجاب والعلماء والمفتين والوجهاء، بمدينة غرناطة والبيازين وضواحيها، أن يسلموا إلى صاحبي السمو، أو من ينتدبانه للنيابة عنهما، في مدة أقصاها ستون يوماً، اعتباراً من ٢٥ تشرين الثاني، عام ١٤٩١م معاقل الحمراء، والبيازين، وأبواب تلك المعاقل، وأبراجها، وأبواب المدينة المذكورة، والبيازين، وضواحيهما، وابراج ابواب المدينة المذكورة. وضمن هذه الشروط يأمر صاحبا السمو، بأن لا يصعد أي نصراني السور القائم بين الحمراء، والبيازين، لئلا يكشف عورات المسلمين في بيوتهم، وان خالف أحد هذه الأوامر، يعاقب عقوبة شديدة. وضمن هذا الشرط، سيقدم المسلمون الطاعة والاخلاص والولاء كاتباع مخلصين لصاحبي السمو.

وضماناً لسلامة تنفيذ هذه البنود، يقدم أبو عبد الله الصغير ملك غرناطة، إلى صاحبي السمو، خمسمائة شخص من أبناء وبنات علية القوم، في المدينة، والبيازين، وضواحيهما، وذلك قبيل تسليم الحمراء بيوم واحد، مصطحبين معهم الحاجب يوسف بن قماشة، ليكونوا جميعهم رهائن، لدى صاحبي السمو، لمدة عشرة أيام، يتم خلالها ترميم المعاقل المذكورة، شريطة أن يعامل الرهائن إلى حين انتهاء هذه الفترة معاملة حسنة. وفي نهاية الأجل، يرد الرهائن إلى ملك غرناطة، ويراعي هذه الاتفاقية صاحبا السمو، وابنهما ضون خوان وسلالتهم. ويعتبر أبو عبد الله الصغير، وسائر قادته، وجميع سكان غرناطة، والبيازين، وضواحيهما، وقراهما، وأراضيهما، والقرى، والأماكن التابعة للبشرات: رعايا طبيعيين، ويبقون تحت رعايتهم ودفاعهم. وتترك لهم جميع بيوتهم وأراضيهم، وعقارهم، وأملاكهم حالياً ومستقبلاً دون أن يلحق بها أي ضرر، أو حيف، وأن لا يؤخذ أي شيء منها يخصهم، بل بالعكس، سيتم احترام الجميع ومساعدتهم، ويلقون المعاملة الطيبة، من قبل صاحبي السمو، وشعبهما كخدم وأتباع لهما.

المادة الثانية:

في الوقت الذي يتسلم صاحبا السمو، قصر الحمراء، يأمران أتباعهما، بالدخول من بابي العشار، ونجدة، ومن الحقل القائم خارج المدينة. وعلى من يعين لاستلام الحمراء، أن لا يدخل من وسط المدينة.

المادة الثالثة:

في اليوم الذي يتم فيه تسليم الحمراء، والبيازين، وشوارعهما، وقلاعهما، وأبوابهما، وغير ذلك يقوم صاحبا السمو، بتسليم ابن الملك ابي عبد الله الصغير، المحتجز في قلعة موكلين، مع سائر الرهائن الموجودين معه، وسائر الحشم، والخدم الذين كانوا برفقته، ولا يكرهون على التنصر أثناء احتجازهم.

المادة الرابعة:

يسمح صاحبا السمو، وسلالتهما، للملك ابي عبد الله الصغير وشعبه أن يعيشوا دائماً وفق قانونهم (أي بممارسة الشعائر الاسلامية) دون المساس بسكناهم، وجوامعهم، وابراجهم، وسيأمران بالحفاظ على مواردهم، وسيحاكمون بموجب قوانينهم، وقضاتهم، حسبما جرت عليه العادة، وسيكونون موضع احترام من قبل النصارى، كما تحترم عاداتهم، وتقاليدهم إلى غير حين.

المادة الخامسة:

لن تصادر من المسلمين أسلحتهم، أو خيولهم، أو أي شيء آخر حاضراً وإلى الأبد، باستثناء الذخيرة الحربية التي يجب تسليمها لصاحبي السمو.

المادة السادسة:

يسمح لمن يرغب في الجواز إلى العدوة أو أي مكان آخر، من أهالي غرناطة، والبيازين، والبشرات، والمناطق الأخرى التابعة لمملكة غرناطة، ببيع ممتلكاتهم، وأراضيهم لمن شاءوا، ولن يحاول صاحبا السمو، وذريتهما منعهم من ذلك أبداً. وإذا ما رغب صاحبا السمو بشرائها، من أموالهما الخاصة، فشأنهما في ذلك شأن سائر الناس، ولكن الأولوية تكون لهما.

المادة السابعة:

تجهز عملية نقل الأشخاص الذين يرغبون في العبور إلى العدوة (أرض المغرب) في غضون ستين يوماً من تاريخه، على متن عشر سفن كبيرة تتوزع على الموانئ القريبة منهم، حسب رغبة المبحرين، ليحملوا أحراراً، وطوع ارادتهم، إلى المكان الذي يرغبون النزول إليه، فيما وراء البحر (أرض المغرب) خاصة الموانئ التي كانت ترسو بها تلك السفن.

أما الأشخاص الذين يرغبون في العبور في غضون الأعوام الثلاثة القادمة، فتهيأ لهم السفن الخاصة، من الموانئ القريبة لمكان اقامتهم، شريطة أن يقدموا طلباتهم قبل موعد الرحيل بخمسين يوماً. وينقلون برعاية تامة، إلى الميناء الذي يرغبون بالنزول فيه.

لا يترتب على من يريد العبور إلى العدوة ــ خلال الأعوام الثلاثة هذه ــ أجر أو نفقة. أما الذين يرغبون في العبور بعد انتهاء الأعوام الثلاثة، فعليهم دفع دوبلة واحدة فقط عن كل شخص. أمّا الذين لا يتمكنون من بيع املاكهم الموزعة في جميع انحاء مملكة غرناطة قبل سفرهم، فيحق لهم تفويض أي شخص من أجل تحصيل حقوقهم، وليقوموا مقامهم، ويتولوا بعد ذلك إرسال هذه الحقوق لأصحابها أينما كانوا، وبدون أية عوائق.

المادة الثامنة:

لا يرغم صاحبا السمو، وسلالتهما حاضراً وإلى الأبد المسلمين، وأعقابهم، على وضع أية شارة مميزة لملابسهم.

المادة التاسعة:

لا يحق لصاحبي السمو، لمدة ثلاث سنوات من تاريخه، تحصيل الأتاوات من الملك أبي عبد الله الصغير، وسكان غرناطة، والبيازين، وأرباضهما، وهي الأتاوات التي يترتب أداؤها عن دورهم، وأملاكهم الموروثة، بل يكفي أن يدفع المسلمون لصاحبي السمو، عشر الخبز والذرة، وعشر المواشي خلال شهري أبريل ومايو.

المادة العاشرة:

على الملك أبي عبد الله، وسائر سكان المملكة الذين شملتهم هـذه الاتفاقية، أن يطلقوا سراح جميع الأسرى النصارى الذين في قبضتهم، أو في أي مكان آخر طواعية، ودون أية فدية، وذلك حين تسليم المدينة.

المادة الحادية عشرة:

على صاحبي السمو، أن لا يستخدما أي رجل من أتباع أبي عبد الله، أو سكان المملكة، أو أن يسخرا دوابهم، في أي غرض دون ارداتهم، ودون أن تدفع لهم أجورهم.

المادة الثانية عشرة:

لا يسمح لأي نصراني بدخول المساجد، أو أي مكان لعبادة المسلمين، دون أذن من الفقهاء. ومن يخالف ذلك، يعاقبه صاحبا السمو.

المادة الثالثة عشرة:

لا يجوز لأي يهودي أن يتولى الجباية، أو تحصيل الضرائب من المسلمين بشكل مباشر، أو أن يمنح أية سلطة، أو ولاية عليهم.

المادة الرابعة عشرة:

يعامل صاحبا السمو الملك أبا عبد الله الصغير وسائر رعاياه الذين شملتهم هذه المعاهدة، معاملة شريفة وتحترم عاداتهم، وتقاليدهم، وتمنح للقادة والفقهاء الحقوق، وتبقى الحقوق التي كان يتمتع بها هؤلاء زمن أبي عبد الله الصغير، على حالها ويعترف لهم بتلك الحقوق*.

---

* الحقوق التي كانت أيام أبي عبد الله الصغير، تشمل الاحترام، والمنح من ضياع، وإقطاعات، وأموال نقدية، وحرية التنقل، وأحقية القضاء حسب نصوص الشريعة الإسلامية، وكل ما يترتب على الملكية، من حق في البيع، أو الهبة، أو ما إلى ذلك.

المادة الخامسة عشرة:

يجب أن يقضي في أية دعوى، أو مشكلة، تقع بين المسلمين، القضاة وفقاً لأحكام الشريعة الاسلامية، كما جرت عليه العادة.

المادة السادسة عشرة:

يصدر صاحبا السمو أوامرهما للمسلمين، بعدم إيواء الضيوف من النصارى، أو إخراج الثياب، أو الدواجن، أو الدواب، ويشمل ذلك صاحبي السمو، وجماعتهما؛ إذ يمنع على هؤلاء النصارى، دخول بيوت المسلمين، واستعمال مضايفهم لإقامة الحفلات.

المادة السابعة عشرة:

إذا دخل نصراني منزل مسلم قسراً، يطلب صاحبا السمو من العدالة، ايقاع العقوبة عليه.

المادة الثامنة عشرة:

فيما يتعلق بقضايا التركات عند المسلمين، يجب أن ينظر بها القضاة المسلمون، وفق النظم الاسلامية المتبعة.

المادة التاسعة عشرة:

تشمل هذه المعاهدة قاطني الأحياء المجاورة لمدينة غرناطة، وسكان القرى والأرحاء التابعة للمدينة، والبشرات، وأماكن أخرى بما في ذلك الأشخاص الذين قد يقبلون المعاهدة بعد مرور ثلاثين يوماً من تسليم غرناطة، ويتمتع هؤلاء بجميع الاعفاءات الممنوحة خلال السنوات الثلاث.

المادة العشرون:

يتولى الفقهاء (ادارة) ايراد الجوامع، والحلقات الدراسية فيها، وما يرصد من أجل الصدقة، أو عمل الخير، بما في ذلك ايرادات المدارس التي تنفق في تعليم الصبيان. ولا يحق لصاحبي السمو، التدخل بأي حال من الأحوال، في شأن هذه الصدقات، أو الأمر بمصادرتها، في أي وقت في الحاضر أو في المستقبل.

المادة الحادية والعشرون:

لا يجوز لمن يتولى القضاء، اصدار قرارات ضد أي مسلم بذنب اقترفه آخر؛ فلا يؤخذ الأب بذنب ابنه، ولا الولد بذنب والده، ولا الأخ بذنب أخيه، ولا القريب بذنب قرابته، بل تقع العقوبة على من يقترف الجرم.

المادة الثانية والعشرون:

يقرر صاحبا السمو العفو عن المسلمين من اتباع القائد حميد أبي علي الذين كانوا يذودون عن حصونهم، ضد هجمات النصارى، ولا يطلب أي تعويض عمّن قتل من النصارى، أثناء اصطدامهم مع المدافعين من المسلمين، أو عما أخذه المسلمون من المكاسب، في ذلك المكان، في الحاضر أو في المستقبل.

المادة الثالثة والعشرون:

يغفر صاحبا السمو لمسلمي مدينة الكابطي، هجماتهم واعتداءاتهم التي كانت تستهدف حرس الملكين، وتمنح لهم حرية العيش كبقية إخوانهم الذين شملتهم هذه المعاهدة.

المادة الرابعة والعشرون:

يعتبر صاحبا السمو جميع أسرى المسلمين، أو الفارين من الأسر إلى مدينة غرناطة، والبيازين، وأرباضهما، أو إلى أي ناحية تابعة لمدينة غرناطة، احراراً ولا تصدر العدالة بحقهم أي حكم كان، لكن هذا الامتياز خاص بمسلمي الأندلس، ولا يشمل اسرى الجزر، أو (كناريس).

المادة الخامسة والعشرون:

لا يدفع المسلمون لصاحبي السمو أكثر مما كانوا يدفعونه لملوكهم المسلمين من الأتاوات.

المادة السادسة والعشرون:

يسمح لجميع من عبروا إلى العدوة (المغرب) من سكان غرناطة، والأرحاء التابعة لها، والبيازين، وأرباضهما، والبشرات، وغيرها، بالعودة خلال ثلاثة أعوام من تاريخ إبرام الاتفاقية، والتمتع بالامتيازات التي تمنحها لهم هذه الاتفاقية.

المادة السابعة والعشرون:

لا يجبر أي مسلم حمل معه بعض الأسرى النصارى إلى العدوة، وجعلهم في قبضة سلطة أخرى، على ارجاع هؤلاء الأسرى، أو إعادة الأجر الذي تقاضاه لقاء تسليمهم.

المادة الثامنة والعشرون:

يحق للملك أبي عبد الله، أو أي من قواده، أو سكان القرى، والأرحاء المجاورة لغرناطة، والبيازين، والبشرات، وغيرها، ممن عبروا إلى العدوة (المغرب) ولم تطب لهم الإقامة هناك، أن يعودوا خلال الأعوام الثلاثة، ولهم الحق بأن يتمتعوا بجميع نصوص الاتفاقية المبرمة.

المادة التاسعة والعشرون:

يحق لتجار مدينة غرناطة،والبيازين، وارباضهما، والبشرات، وغيرها، أن يحملوا سلعهم إلى العدوة، ويعودوا بها آمنين مطمئنين، كما يحق لهم دخول سائر الأرحاء التي في حوزة الملكين الكاثوليكيين، دون أن تترتب عليهم أية أتاوة مترتبة على النصارى.

المادة الثلاثون:

لا يجوز ارغام أية نصرانية تزوجت من أحد المسلمين، واعتنقت الدين الاسلامي، على العودة إلى النصرانية، إلا طائعة، وبعد أن تسأل في ذلك أمام جمع من المسلمين والنصارى. وفيما يتعلق بأبناء الروميات، وبناتهن، فلهم الحقوق نفسها المنصوص عليها في هذه الفقرة.

المادة الحادية والثلاثون:

إذا سبق لنصراني ذكراً كان أو انثى، اعتناق الديانة الاسلامية قبل إبرام هذه الاتفاقية، فلا يحق لأحد من النصارى أن يهدده، أو ينال منه بأية صورة، ومن يفعل ذلك يلق أثاماً.

المادة الثانية والثلاثون:

لا يجوز ارغام مسلم أو مسلمة على اعتناق النصرانية.

المادة الثالثة والثلاثون:

لا يرغم صاحبا السمو، أو أي واحد من عقبهما، حاضراً أو مستقبلاً أبا عبد الله الصغير، أو جماعته، أو حاشيته، أو أي أحد من سكان المملكة أو خارجها مسلمين ونصارى، ومدجنين برد ما غنموه أثناء الوقائع التي جرت بينهم، من الثياب، والمواشي، والأنعام، والفضة، والذهب، وغيرها من الأشياء التي وضع المسلمون ايديهم عليها. ولا يحق لأحد أن يطالب بشيء يكتشف أنه كان له، وإذا طالب به، فإنه يعرض نفسه لأقصى العقوبات.

المادة الخامسة والثلاثون:

إذا سبق لمسلم أن أهان أسيراً نصرانياً ـ ذكرا كان أو انثى ـ أو جرحه، أو قتله أثناء احتفاظه به، فلا يسأل عن شي مما كان.

المادة السادسة والثلاثون:

بعد انتهاء السنوات الثلاث المنصوص عليها في الاتفاقية، تدفع ضريبة الاملاك والضياع الأميرية، وفقاً لقيمتها الحقيقية، شأن سائر الأملاك والأراضي.

المادة السابعة والثلاثون:

تعامل املاك الفرسان، والقادة المسلمين، المعاملة المنصوص عليها في البند السابق: فلا يدفع عنها أكثر مما يدفع عن الاملاك العادية.

المادة الثامنة والثلاثون:

وتشمل هذه الاتفاقية أيضاً اليهود من مواليد مدينة غرناطة، والبيازين، وأرباضهما، والأراضي التابعة لهما، واليهود الذين كانوا من قبل نصارى، ويسمح لهؤلاء اليهود بالعبور إلى العدوة خلال شهر من تاريخه.

المادة التاسعة والثلاثون:

يعامل الحكام، والقواد، والقضاة الذين يعينهم صاحبا السمو على مدينة غرناطة، والبيازين، والكور التابعة لها، الناس بالحسنى، ويحافظوا على امتيازاتهم الممنوحة لهم في المعاهدة، وإذا أخل أحدهم بذلك، أو ارتكب خطيئة، يصدر صاحبا السمو أوامرهما بمعاقبته على قدر جرمه، وعزله من منصبه، وتولية غيره ممن يحسنون معاملة المسلمين كما نصت عليه الاتفاقية.

المادة الأربعون:

لا يحق لصاحبي السمو، أو أي من ابنائهما، واحفادهما، منذ الآن التعقب على شيء ارتكبه الملك أبو عبد الله الصغير، أو أحد من رعاياه، إلى حين تسليم الحمراء، أي بعد مرور ستين يوماً من توقيع هذه الاتفاقية.

المادة الحادية والأربعون:

لا يولى على جماعة أبي عبد الله الصغير واحد من الفرسان، أو القادة، أو الخاصة الذين كانوا موالين لمولاي الزغل ملك وادي آش، عم أبي عبد الله الصغير، الذي كانت بينه وبين أبي عبد الله عداوة قديمة.

المادة الثانية والأربعون:

يتولى النظر في الخصومات التي قد تقع بين مسلم ونصراني، أو مسلمة ونصرانية مجلس مؤلف من حكمين؛ أحدهما مسلم، والآخر نصراني، تحاشياً للتظلم من الأحكام القضائية.

المادة الثالثة والأربعون:

وبالاضافة إلى جميع ما نصت عليه الاتفاقية، يأمر صاحبا السمو بمنح أبي عبد الله الصغير كل الامتيازات المنصوص عليها في الاتفاقيات الموثقة بخاتم الأمير (نجل صاحبي السمو) والموقعة من قبل كردينال اسبانيا، والكهان، والأساقفة، ورؤساء الأديرة، والشرفاء، والدوقات، والمركيزات، والكونتات، وأصحاب المراتب الجليلة، وكتاب العدلية في مدينة غرناطة، اعتباراً من يوم تسليم الحمراء، والبيازين، وأبوابهما، وأبراجهما، وتعتبر جميع محتويات هذه الاتفاقية نافذة وسارية المفعول في الحاضر وفي المستقبل.

المادة الرابعة والأربعون:

يصدر صاحبا السمو أوامرهما بالافراج عن أسرى المسلمين ــ ذكوراً وإناثاً ــ من أهالي غرناطة، والبيازين، وأرباضهما، والكور التابعة للمملكة، افراجاً غير مشروط بنفقة، أو فدية، أو غيرها. وذلك بغية ارضاء الملك أبي عبد الله الصغير، وأهالي غرناطة، والبيازين، وأرباضهما، وضياعهما كافة. ويتم الافراج عن هؤلاء الأسرى على النحو التالي:

يفرج عن جميع أسرى مدينة غرناطة، والبيازين، وأرباضهما، وضياعهما الموجودين في الأندلس، خلال الأشهر الخمسة التي تعقب إبرام المعاهدة، ويفرج عن الأسرى الموجودين في قشتالة، خلال الأشهر الثمانية التالية، وبعد انقضاء يومين من تسليم أسرى النصارى لصاحبي السمو، يتسلم المسلمون مائتي أسير مسلم، مئة من الرهائن، والمائة الثانية من غير الرهائن.

المادة الخامسة والأربعون:

يصدر صاحبا السمو أوامرهما، باخلاء سبيل ابن الدّرامي الأسير عند غونثالو فرناندث، وعثمان اسير الكونت تنديا، وابن رضوان اسير الكونت قبرة، وإعادة ابن الفقيه محي الدين وخمسة أشخاص من خاصة ابراهيم بن السراج الذين فقدوا وعرف مكان وجودهم، وذلك في الوقت الذي يسلم فيه صاحبا السمو أسرى مدينة الحمراء والبيازين المائة، والرهائن المائة.

المادة السادسة والأربعون:

إذا خضعت أية ناحية من نواحي البشرات لسلطة صاحبي السمو، فإنه يتأتى على المسلمين تسليم جميع الأسرى النصارى الموجودين لديهم، في مدة أقصاها خمسة عشر يوماً من تاريخ الانضمام، دون أن يؤدي سموهما أي شيء مقابل ذلك التسليم، كما أنه يجب على هذه النواحي، تسليم أية رهينة من النصارى لديهم خلال هذه المدة. ويقوم صاحبا السمو في مقابل ذلك، بإعادة جميع أسرى المسلمين المحتجزين لدى الإسبان.

المادة السابعة والأربعون:

يتعهد صاحبا السمو لجميع السفن التي تأتي من العدوة (المغرب) وترسو في موانئ مملكة غرناطة، بحرية التنقل جيئة وإياباً، وهي أمنة، شريطة أن لا تقوم بنقل الأسرى من النصارى، ويصدر صاحبا السمو أوامرهما للنصارى بعدم اعتراض هذه السفن، أو الاضرار بها، أو بأهلها، أو بمصادرة شيء منها.

وفي حالة مخالفة إحدى السفن لهذه التعليمات بنقلها بعض الأسرى من النصارى، فان حقها في الحماية يصبح مُلغى، ويحق لسموهما ارسال مفتش أو مفتشين يتوليان مهمة تفتيش السفن التي تعبر إلى العدوة، للتحقق من نفاذ هذه التعليمات.

معاهدة تسليم غرناطة العلنية
عرضٌ وتحليلٌ

في الخامس والعشرين من تشرين الثاني لسنة إحدى وتسعين وأربعمائة وألفٍ للميلاد، وقعت اتفاقيتان بين مسلمي الأندلس والقشتاليين، وذلك في المعسكر الملكي بمرج غرناطة.

وكانت الاتفاقية الأولى علنية، وقد عالجت بنودها السبعة والأربعون كيفية تسليم مدينة غرناطة للقشتاليين، وتناولت حقوق الطرفين وواجباتهما.

أما الاتفاقية الثانية فقد كانت سرية، وظلت فترة طويلة طي الكتمان. وهي تنحصر في ستة عشر بنداً تتضمن الحقوق والواجبات والامتيازات التي مُنحت لأبي عبد الله الصغير، ملك غرناطة، وأفراد أسرته وحاشيته.

وهذه المعاهدة باتفاقيتيها: العلنية والسرية، يظن من ينظر إلى بنودها نظرة سريعة أنها متكافئة، وتحافظ على حقوق الطرفين، ولكنّ المتمعن الفاحص الذي يقرأ ما بين السطور، ويربط ما بين تلك البنود والظروف التي كانت سائدة على الأرض، يكتشف مدى الاجحاف الذي لحق بمسلمي الأندلس؛ فقد أخذ القشتاليون – من خلال هذه المعاهدة – كلّ ما تمنوا أخذه، وحققوا جميع أمنياتهم وخاصة السيطرة على الأرض، في حين لم يحصل مسلمو الأندلس إلاّ على حزمة من الوعود التي سرعان ما نكثها القشتاليون، وتحللوا من الالتزام بأيٍ منها.

لقد ألحقت هذه المعاهدة بالمسلمين أذىً شديداً، وفي كشف خباياها وأبعادها ما فيه من عظة للأجيال، وعبرة للأمم والأقوام، وخاصة المسلمين والعرب الذي يجب أن يكونوا أكثر حذراً ويقظة، وأن يرصوا صفوفهم، ويتنبهوا للأخطار المحدقة بهم، حتى لا يقعوا في مثل ما وقع فيه مسلمو الأندلس الذين كانوا ــ عند توقيع المعاهدة ــ يعانون من التشرذم والهزال الفكري والسياسي والعسكري، مما جعل الجانب القشتالي يفرض عليهم جميع شروطه، ويحقق كل أهدافه، ويدفع الأندلسيين دفعاً إلى الهزيمة والاستسلام.

إن توقيع المعاهدة لم يكن برضا الطرفين، ولا تم بملء إرادتهما، وإنما تم بعد حصار المدينة حصاراً طويلاً أدى إلى إضعاف المسلمين، وتحطيم معنوياتهم، وهدم عزائمهم.

ومن يدقق النظر في المعاهدة، ويستعرض بنودها، سرعان ما يكتشف أن القشتاليين رفضوا أن تكون بينهم وبين الملك أبي عبد الله الصغير، وإنما أشركوا معه قادة الجيش والفقهاء والعلماء والوجهاء والحجاب والناس كافة، وذلك حتى تكون ملزمةً للجميع، فلا يعمل أحد على نقضها أو التحلل منها محتجاً أنه لم يشارك في التوقيع عليها، أو أنه لم يوافق على محتوياتها.

ونصت المعاهدة أيضاً على أن يقدم ملك غرناطة ووجهاء المدينة للجانب القشتالي قبل موعد التسليم بيوم واحد خمسمائة رهينة من أبناء علية القوم، وذلك لضمان عملية التسليم على أن يظل هؤلاء رهائن لدى الجانب القشتالي لمدة عشرة أيام يتم خلالها ترميم معاقل الحمراء والبيازين.

كما نصّت المعاهدة على تحديد أماكن آمنةٍ يتم الدخول إلى المدينة عبرها، وهي: باب العشار، وباب نجدة، والحقول الخارجية، وعلى أن يتم تجنب الدخول من وسط المدينة حيث الكثافة السكانية الكبيرة، والأسوار العالية، والحصون المنيعة، وذلك خشية حدوث ما لا تحمد عقباه، فقد كان القشتاليون يدركون أن سكان المدينة كارهون لهم، عازفون عن التعامل معهم. وعلى كل حال فإن تحديد تلك الأماكن يدل دلالةً واضحةً على أن الجانب القشتالي كان يعلم كل صغيرة وكبيرة داخل المدينة، وذلك من خلال العيون الذين كان يبثهم في كل مكان.

ونصّت المعاهدة كذلك على السماح لمسلمي الأندلس بالاحتفاظ بأسلحتهم الشخصية فقط، أما الذخائر والأسلحة الهجومية فيجب أن يسلموها إلى القشتاليين، مما يدل على أن الإسبان كانوا يبيتون الشر، ويخططون لإجهاض أي محاولة قد يفكر بها المسلمون للثورة عليهم. يضاف إلى ذلك أن تجريد المقاتل من سلاحه سيحبطه، ويدفعه إلى الانزواء

والبحث عن أنماط جديدة للحياة، مما يحقق للطرف القوي سيطرة كاملة علـــى الأرض، ويقتل الأمل باستعادتها.

ولم يقتصر الأمر على ما تقدم، فقد انطوت المعاهدة على كثير من الخبث حيـــث نصت بنودها صراحة على أنه يحق لمسلمي الأندلس العيش والإقامة هناك بحرية تامـــةٍ دون اضطهاد أو تمييز، ولكنها نصّت في الوقت نفسه على السماح لهم بالهجرة إلى أرض المغرب. وقد استغلّ القشتاليون هذا النص بدهاءٍ، حيث وفروا السفن لنقل الراغبين فـــي الهجرة مجاناً خلال شهرين من تاريخ التوقيع على المعاهدة. فلم يكن أمام المســـلمين ــ وقد حلّ بهم ما حلّ ــ إلا أن يستغلوا الفرصة، ويسارعوا إلى النجاة بجلودهم.

وهناك بنود أخرى تبطن من التعسف والجور غير ما تظهر، وتوحي لمن يقرأهـــا لأول وهلةٍ بشيء من الرحمة، وقليلٍ من التكافؤ، ولكنها تكشف للمتمعن الكثير من الظلم، فقد أعطت من يرغب في الهجرة من المسلمين الحق في بيع ممتلكاته جميعها، أو تفويض بيعها إلى من ينوب عنه إذا لم يتمكن من البيع خلال الفترة المحددة، إلا أنـــها لـــم تعـــطِ ضمانات لذلك، فلم يجرؤ أحد على المطالبة بحقوقه، ورفض غـــيره أن يكـــون مفوضـــاً للمطالبة بها وذلك بسبب القمع والاضطهاد المخيمين.

لقد نجم عن تلك المعاهدة الكثير من المآسي والويلات، ومن ذلك تشرد الملاييـــن من أهل البلاد المسلمين إلى شتى بلدان العالم، إذ لا تكاد تخلو دولة من دوله من مجموعةٍ من المهجرين الذين يعودون بجذورهم إلى الأندلس.

ولو تتبعنا نصوص المعاهدة لعرفنا كيف أصبح مسلمو الأندلس أذلةً بعد عزتـــهم، ولو تفحصنا ما رافقها من أحداثٍ لأدركنا ما انطوت عليه من ارهاصات لما سيصيبهم من اضطهاد وقمع وتشتت، فقد أتاحت بعض نصوصها حريـــة العبـــادة، وســـمحت ببقـــاء المساجد والمدارس دون المساس بالأوقاف المرصودة للانفاق عليها، حتـــى تكفـــل لـــها الاستمرارية، وللعاملين فيها البقاء، إلا أن القشتاليين سرعان ما تنكروا لذلك، حيث بـــدأت المضايقات تتزايد، والاستفزازات تكثر يوماً بعد يومٍ، ثم رفعوا في وجه المســـلمين ذلـــك الشعار القاسي: التنصير أو التهجير.

وأوردت المعاهدة نصوصاً تتعلق بالضرائب يتراءى لمن يطالعها أنها لصالح المسلمين، دون أن يدرك ما تبيت في احشائها، فقد أكدت تنازل القشتاليين عن الضرائب لمدة ثلاث سنوات، إلا أن الهدف الحقيقي من وراء هذا التنازل، إنما كان إتاحة الفرصة أمامهم لإحكام السيطرة على البلاد، وانجاز عمليات الإحصاء الفعلي الدقيق للسكان والممتلكات، وذلك تمهيداً لفرض ضرائب باهظة تعويضاً للدولة القشتالية عما خسرته أثناء حصار غرناطة، وفي الاستعداد العسكري لاقتحامها من جهة، ولكي تجبر من بقي صامداً فيها من أهلها المسلمين على التفكير بالهجرة بعد أن تصبح الحياةُ فيها مستحيلة بسبب القمع والاضطهاد وارتفاع الضرائب من جهةٍ ثانية، وخاصةً أن المعاهدة نصت على إعادة دفع الضرائب عن الأملاك والأراضي السلطانية بعد انتهاء السنوات الثلاث، وفق قيمة هذه الأملاك.

وتضمنت المعاهدة بنوداً تتعلق بالأحوال الشخصية للمسلمين كالزواج والإرث والقضاء الاسلامي، وأوصت باحترام اختيار الانسان لدينه دون ضغطٍ أو اكراه، وغير ذلك مما يستشف منه الكثير من التسامح، ولكن عند التطبيق نقض القشتاليون هذه البنود، وأخذوا يجاهرون بمعاداة المسلمين، ويتفننون في إيذائهم لردهم عن دينهم الاسلامي.

وحفظت المعاهدة ــ ظاهرياً ــ معظم حقوق المسلمين، فأكدت على أن النصارى لا يجوز أن يدخلوا مساجدهم، وأنهم لا يحق لهم استخدامهم في أعمال السخرة، أو استخدام ممتلكاتهم وأن اليهود لن يكون لهم على المسلمين أي سلطةٍ... ولكنّ التساؤل الذي يتبادر إلى الذهن: ومن الذي يضمن تنفيذ كل ذلك ما دام الخصم هو الحكم؟!

وأما الأسرى فقد تطرقت اليهم المعاهدة في أكثر من بندٍ، ولم يحاول الجانب القشتالي إخفاء تحيزه واستهتاره بالمسلمين في هذا المجال كما فعل في المجالات الأخرى، فقد فرضت المعاهدة على المسلمين اطلاق سراح الأسرى النصارى الذين بحوزتهم طواعيةً، ودون أي فدية، وذلك حين تسلم المدينة، في حين تم الافراج عن الأسرى المسلمين خلال فترةٍ تتراوح بين خمسة أشهر وثمانية أشهر!!

ونصت المعاهدة على حرية التجارة، وأجازت بنودها للمسلمين الاستيراد والتصدير من المغرب وإليها، بل إنّ الإسبان تعهدوا بتأمين تجارة المسلمين أثناء ذهابهم وإيابهم مما يوهم بتسامحهم، فالحقيقة هي أنهم كانوا حريصين على مصلحتهم الذاتية وحسب، إذ أن التجارة بين الأندلس والمغرب كانت في هذه الفترة رائجة عظيمةً، ولم يكن في مصلحتهم القضاء عليها، لأن ذلك من شأنه أن يؤدي إلى كسادٍ عميم لا يستطيعون احتماله.

وهكذا، فإن نصوص هذه المعاهدة تدل بوضوح على أن القشتاليين كانوا يعدون العدة للانقضاض على المسلمين لطردهم من ديارهم، أو اجبارهم على ترك دين آبائهم.

لقد عانى مسلمو الأندلس (الموريسكيون) في ظل تلك الأوضاع الصعبة الكثير الكثير، حيث فرضت عليهم الضرائب الباهظة، وحددت أماكن إقامتهم حتى يسهل القضاء عليهم بسهولةٍ إذا ما فكروا بالثورة أو الانتفاضة، ومن هنا بدأت رحلة التعذيب والبطش والموت لكل من أراد أن يستمر على دينه الاسلامي.

ومما ساعد على اشتداد حمى الاضطهاد الديني ضد المسلمين تعصب الملكة إيزابيلا، وذلك لصلتها برجال الدين، فقد شجع ذلك رجال الكنيسة على المضي قدماً في عمليات التنصير القسري للمسلمين.

وبعد انتفاضة البيازين عام ١٤٩٩م، وثورة البشرات عام ١٥٠١م اتخذت السلطات الإسبانية قراراً يقضي بالسماح لرجال الدين بالتبشير بالديانة المسيحية على المذهب الكاثوليكي داخل مملكة غرناطة، وإذا لم تفلح عمليات التبشير هذه تنفذ عملية التنصير القسري وبشتى الوسائل والأساليب، وقد رافق ذلك إحراق الكتب العربية حتى تنقطع الصلة بين الموريسكيين ودينهم ولغتهم. وأنشئت محاكم التفتيش التي أذاقت المسلمين شتى ألوان العذاب، وصنوف الاضطهاد من جلدٍ بالسياط، ومصادرةٍ للأموال، وحرق وتقتيل.

وخلاصة القول أن المعاهدة لم تكن متكافئةً بأي حال من الأحوال، فقد وقعت بين طرفين أحدهما قوي متنفذ، والآخر ضعيف لا يملك من أمره شيئاً، وليس له حول ولا طول، ولذلك فإن ما حدث كان متوقعاً، بل لم يكن متوقعاً غيره. ولن يزيدنا إلا أسىً وحسرةً تذكر ما وقع من شواهد وأحداث بعد تلك المعاهدة، ومع ذلك يجب أن نتذكره لعلنا نتعظ، ونهيء الظروف التي تجنبنا الوقوع فيما وقعوا فيه.

لقد مُنح أبو عبد الله الصغير، ملك غرناطة، بعض الامتيازات، ولكنه بعد أن سلّم البلاد تم الاستغناء عنه، وضيق الخناق عليه. وعندما تذكر كيف كان وكيف أصبح ذرفت عيناهُ الدموع باكياً الدين المضاع، والشرف المهان بعد مجدٍ راسخٍ وعزٍ شامخٍ، وعندما رأته والدته على هذه الحال خاطبته قائلةً:

إبك مثل النساء ملكاً مضاعاً   لم تحافظ عليه مثل الرجالِ

هذا، وقد وصف الإسبان المكان الذي توقف فيه أبو عبد الله الصغير ليلقي على غرناطة نظرةً أخيرةً: (زفرات أو تنهدات العربي Suspiro del Moro).

لقد تعرض الموريسكيون لصنوف من القمع والاضطهاد، فقد حرق القشتاليون آباءهم وأمهاتهم وهم أحياء، وهتكوا الأعراض، وطاردوا الأبرياء، وعذبوا العجزة المسنين، وشردوا الملايين. وحدث هذا كله بعد تسليم غرناطة، وعلى يد الكنيسة الكاثوليكية التي جعلت من رسالة السيد المسيح عليه السلام، دعوة عنصرية ترتكب باسمها أعظم الفظائع والمآسي، وإن دلّ ذلك على شيء فإنما يدل على أنّ الخلاف القشتالي الأندلسي لم يكن سياسياً في يوم من الأيام، بل خلافاً عقائدياً، حيث أيقن النصارى بأن بقاءهم مرهون بضعف الاسلام والمسلمين وهذه الحقيقة تفسر لنا الاضطهاد الذي لحق بمسلمي الأندلس على أيدي الملكين الكاثوليكيين، ومجمع قضاة الايمان الكاثوليكي (محاكم التفتيش).

ومن الأهمية بمكان أنّ نشير إلى أنّ المعاهدة لم تشر إلى مرجعية يرجع إليها لضمان تنفيذ بنودها بدقةٍ وعدلٍ، ولم تتضمن آليةً واضحةً يستند إليها عند التنفيذ، وبالتالي فإن المسلمين لم يكن بمقدورهم الاعتراض أو الاحتجاج على أيّ أمرٍ، ولم يكن باستطاعتهم غير التسليم بما يطلب منهم.

المعاهدة السرية لتسليم غرناطة المعقودة بين أبي عبد الله الصغير، والملكين الكاثوليكيين؛ ضون فرديناند وضونيا ايسابيلا

في اليوم الذي وقعت فيه معاهدة تسليم غرناطة وهو يوم ٢١ محرم سنة ٨٩٧هـ الموافق ٢٥ تشرين الثاني ١٤٩١م. وفي المكان نفسه، وهو المعسكر الملكي بمرج غرناطة، أبرمت معاهدة أخرى في غاية من السرية ملحقاً لهذه المعاهدة، وتضمنت الحقوق، والواجبات، والالتزامات، والامتيازات التي اعطيت لأبي عبد الله الصغير ملك غرناطة، وافراد أسرته وحاشيته. وقد مثل المسلمين ـ في هذه الاتفاقية ـ القائد أبو القاسم المليح وكيلاً لأبي عبد الله الصغير ملك غرناطة، وقعها باسمه، ومهرها بخاتمه، وهي تنحصر في ست عشرة مادة على النحو التالي:

١. يتعهد ملك غرناطة، والقادة، والفقهاء، والقضاة، والحجاب، والعلماء، والمفتون، والشيوخ، ووجهاء غرناطة والبيازين وأهاليهما وأرباضها كافة صغاراً وكباراً، بأن يسلموا إلى صاحبي السمو، أو من ينتدبانه ـ في جو من الوفاق والمسالمة، وفي مدة أقصاها ستون يوماً، اعتباراً من ٢٥ نوفمبر عام ١٤٩١م ـ الأماكن التالية:
قلاع الحمراء، وحصونها، وأبوابها، وأبراجها، وأية أبواب أخرى في مدينة غرناطة، وكورها، وكذلك جميع الأبواب التي تحددها هذه المعاهدة، وأن يعلنوا عن ولائهم وطاعتهم واخلاصهم، لصاحبي السمو، وأن يؤدوا واجبهم تجاه سادتهم الجدد شأن سائر رعايا البلاد المخلصين. ولضمان سلامة تنفيذ هذه البنود، يقدم ملك غرناطة، وقادته، وجميع الأشخاص المذكورين أعلاه خمسمائة شخص من أبناء علية القوم وأخوانهم في المدينة، والبيازين، لصاحبي السمو في المعسكر الملكي بمرج غرناطة، وذلك قبل تسليم الحمراء بيوم واحد، مصطحبين معهم الحاجب يوسف بن قماشه، ليكونوا جميعهم رهائن لدى صاحبي السمو، لمدة عشرة أيام يتم خلالها ترميم القلاع، وتزويدها بالمؤن، شريطة أن يعامل الرهائن إلى حين انتهاء هذه الفترة، معاملة حسنة. وعند انتهاء الأجل، يرد الرهائن إلى ذويهم. وتسري هذه الاتفاقية على صاحبي السمو، وابنهما الأمير ضون خوان، وعقبهم، وأن يعامل أبو عبد الله الصغير، وجماعته، وجميع أشراف منطقة غرناطة، والبيازين، وأية أماكن أخرى، كرعايا واتباع، لهم نفس الحقوق التي للرعايا الأصليين، وأن تشملهم

حماية صاحبي السمو ورعايتهما، وأن تترك لهم جميع منازلهم، وأموالهم، وأملاكهم من الآن وإلى أجل غير مسمى، دون أن يلحقها أي أذى، أو يصادر شـــيء منـــها. وفي مقدمة ذلك كله، يعامل الجميع باحترام وتقدير، شأن سائر الرعية من الإسبان.

٢. في اليوم الذي يتم فيه تسليم الحمراء، والحصون والقلاع، والأبواب التـــي حددتـــها الاتفاقية، يقوم صاحبا السمو بإعادة ابن أبي عبد الله الصغير المحجوز لديهما، مـــع سائر الخدم والحشم الذين لم يكرهوا على التنصر أثناء احتجازهم إلى الملك أبي عبد الله الصغير.

٣. بعد أن ينفذ أبو عبد الله الصغير كل البنود المذكورة في المعاهدة، يتعـــهد صاحبـــا السمو بمنح أبي عبد الله الصغير، وأولاده، وأحفاده، وورثته، حق الملكية المطلقـــة، على الأماكن التالية:

الأرجاء والكور في برجة	Las Tahas de Berja
دلايـــــــــة	Dalias
مرشانـــــة	Marchena
بلذوذ	Boloduy
لوتشار	Luchar
اندرش	Andarax
شبيلش	Jubiles
اجيجر	Ugijar
ارجبة	Orgiba
سويهل	Cueihel
بقيرة	Poqueira

على أن يؤدي جميع الضرائب، والأتاوات، والرسوم المســـتحقة إلـــى صـــاحبي السمو، ويحق لأبي عبد الله الصغير، وأولاده، وأحفاده، وورثتـــه بحكـــم الملكيـــة المطلقة، لهذه المناطق، وما يلحق بها من الأرجاء المسكونة، وغـــير المســـكونة،

تحصيل خراجها، وموروثاتها، وريعها، وعشورها، وحقوقها. كما يحق لأي واحد من هؤلاء أن يتولى القضاء في هذه الأرجاء والكور المذكورة باعتباره سيدها، ولكنه في الوقت نفسه، تابع وخاضع لصاحبي السمو. ولا يستطيع أي انسان السيطرة على أي من هذه المناطق؛ لأنها تعتبر من الناحية القانونية، ملكاً شرعياً لأبي عبد الله الصغير، وله حق التصرف بها، وحرية بيعها، أو رهنها، متى شاء، شريطة أن تكون الأولوية عند البيع أو الرهن لصاحبي السمو. وإذا أرادا شراءها، فيتفقان مع أبي عبد الله على الثمن الذي يرضى به. ويستطيع صاحبا السمو الاحتفاظ بقلعة عذرة، وأراضيها، مع سائر القلاع، والأبراج الممتدة على الساحل، إذا رغبا بذلك، وإذا شاء صاحبا السمو استغلال قلعة عذرة، بالاضافة إلى مياه شاطئ عذرة – إن أمكن ذلك – وتبقى القلعة تابعة لأبي عبد الله الصغير، بعد أن يصلحها ويحصنها صاحبا السمو، وفي مراحل الاصلاح والتحصين تكون تابعة لصاحبي السمو، وبذلك لا يطالب صاحبا السمو بالفوائد المستحقة على القلاع، والأبراج الممتدة على ساحل البحر. أما حراستها، وحمايتها؛ فهي من شأن أبي عبد الله الصغير. وأما دخل هذه القلاع، والكور، والأرجاء، وارداتها في مراحل الاصلاح، والتقوية، والاستغلال؛ فليس لأبي عبد الله شيء منه باستثناء عائدات تأجيرها. لكن هذه القلاع، والأرجاء والكور، تبقى ملكاً لأبي عبد الله، ولا تصادر منه. وإذا أنعم صاحبا السمو على شخص ما بشيء من هذه الممتلكات التي اقطعت لأبي عبد الله الصغير، فلا يجوز له بيعها، وإذا ما رأى التخلي عنها، يقوم صاحبا السمو بتعويضه عنها بالطريقة التي ترضيه. أما إذا تركت هذه الأملاك للملك أبي عبد الله الصغير، فيبقى ريعها ودخلها من حق أبي عبد الله كما هو شأنها الآن. وفيما بعد، دون أن يتهددها أي خطر أو حجز، أو اعتراضات أخرى*.

٤. يقدم صاحبا السمو إلى الملك أبي عبد الله الصغير هبة قدرها ثلاثون ألف جنيه قشتالي من الذهب، تعادل (١٤) كوينتس و (٥٥٠ر٠٠٠) مرافيدي،

---

* هكذا ورد في النص.

يبعثان بها إليه عقب تسليم الحمراء، وبقية القلاع في الوقت المحدد لها**.

٥. يمنح صاحبا السمو للملك أبي عبد الله الصغير كل ما ورثه عن والده السلطان أبي الحسن، سواء في غرناطة، أو في البشرات، لتكون ملكاً له ولأولاده، وعقبه، وورثته. وتتضمن هذه التركة معاصر للزيت، وأراضي، ومزارع، وحدائق "حواكير". وله الحق في بيعها، أو رهنها، والتصرف بها كيفما يشاء، كسائر الكور والأرجاء التي سلف ذكرها، باستثناء الأملاك التي كانت بحوزة بني نصر ملوك غرناطة السابقين، فإنها تبقى ملكاً للدولة، ولا يجوز التصرف بها إلا بأمر صاحبي السمو.

٦. يمنح صاحبا السمو لملكات غرناطة، خاصة عائشة والدة أبي عبد الله الصغير، وأخته وزوجته مريمة، وثريا زوجة والده السلطان أبي الحسن علي المعروفة بايسابيل دي سوليس، كل ما كن يملكنه في غرناطة، والبشرات من الحواكير، والأراضي، والأرجاء، والطواحين، والحمامات، بحيث تكون ملكاً لهن ولعقبهن إلى الأبد، ولهن الحق في بيعها، ورهنها، والتصرف بها كما يشأن، مع ما يلحق ذلك من الامتيازات الممنوحة لأبي عبد الله الصغير.

٧. تعفى جميع التركات التي ورثها أبو عبد الصغير، والملكات المذكورات، وثريا زوجة مولاي أبي الحسن علي بن نصر، من الضرائب، والفوائد اعتباراً من الآن وإلى الأبد.

** مرافيدي Maravedis أو Morabetino عملة اسبانية قديمة، تشير إلى عصر المرابطين، ونفوذهم السائد بالأندلس. فهي دينار الذهب المرابطي الذي أصبح – لصحة وزنه وعياره – النموذج المحتذى في بلاد المغرب والأندلس. وقد تم سكّه في مدن مغربية وأندلسية معاً. بيد أن قيمة "المرابطي" صارت تتأرجح، وصفاتها أصبحت تختلف باختلاف العصور، لدرجة أنها في العهود المسيحية المتأخرة باسبانيا، اختصرت وقسمت إلى ما يعرف فيون بالبليون Vellon الذي كان يسك إما من مزيج من الفضة والنحاس معاً، وإما من النحاس وحده.

٨. يعطى للملك المذكور (أبو عبد الله الصغير) وللملكات المذكورات، كل ما كان ملكاً لهم في مطريل، وتعطى للحجة مريمه العقارات التي كانت لها في مطريل لتساوي بالامتيازات الممنوحة سابقاً.

٩. إذا استسلمت لصاحبي السمو أية قرى، أو مواقع تابعة للمملكة قبل تسليم الحمراء فعلى صاحبي السمو، إعادة جميع هذه المواقع للملك أبي عبد الله الصغير بشكل طوعي وسوف تحظى هذه الأماكن بعناية أبي عبد الله الحسنة.

١٠. أن لا يطالب صاحبا السمو، أو أي واحد من سلالتهما، ملك غرناطة، أو أياً من اتباعه في أي وقت بتبادُل ما غنمه الطرفان ـ المسلمون والنصارى ـ من الأموال والعقارات باستثناء ما تنص عليه بعض الاتفاقيات، ومعاهدات التسليم الخاصة المعقودة بين صاحبي السمو وملك غرناطة، بحيث يدفع صاحبا السمو لمالك العقارات ثمناً لها فتنتقل ملكيتها إليهما، ويحظر على أي انسان ـ نصرانياً كان أو مسلماً ـ المطالبة بأحقيته بوضع يده عليها بقليل ولا بكثير. ومن يخالف ذلك، تتخذ بحقه أشد العقوبات الصارمة، ويعتبر خارجاً عن القوانين الاسلامية والنصرانية على السواء.

١١. عندما يرغب الملك أبو عبد الله الصغير، والملكات المذكورات آنفاً، وزوجة مولاي أبي الحسن علي والدة أبي عبد الله الصغير، وأولادهم، وأحفادهم، وقادتهم، واتباعهم، ونساؤهم، وفرسانهم، ورماتهم، وعيالهم، في العبور إلى العدوة (المغرب) فسوف يجهز صاحبا السمو سفينتين كبيرتين من مدينة جنوة، للجواز بهم في الوقت الذي يشاؤون، وبحوزتهم أموالهم، وثيابهم، وذهبهم، وفضتهم، وجواهرهم، ومواشيهم، وأسلحتهم ما عدا ذخائر تلك الأسلحة، دون مقابل من نفقة، أو أجر، أثناء صعودهم السفن أو نزولهم منها، مع تأمين وصولهم بطمأنينة، وأمان، وحسن معاملة، لأي مكان معروف سواء في المغرب، أو الاسكندرية، أو تونس، أو وهران، أو فاس، أو أي مكان يرغبون بالهبوط فيه.

١٢. إذا لم يتمكن الملك المذكور، أو أي شخص من المذكورين أعلاه من بيع عقاراته المشار إليها، فله الحق في تفويض من يشاء لاستلام ريعها، وإرساله له أينما كان، دونما عائق أو قيد أو غرامة.

١٣. يسمح للملك أبي عبد الله الصغير – متى شاء – أن يرسل بعض أتباعه، أو عماله إلى أرض العدوة (المغرب) للاتجار بالسلع مصدرين ومستوردين، دون أن يتوجب عليهم دفع أية نفقات، أو راتب، أو غرامات مالية مقابل هذا الاتجار في ذهابهم ومكوثهم هناك، ولا في إيابهم.

١٤. يسمح للملك أبي عبد الله أن يبعث بست دواب محملة بالسلع، إلى أية ناحية من النواحي التابعة لصاحبي السمو، من أجل مقايضتها بالزاد والمؤونة اللازمة، وتكون هذه الدواب معفاة من جميع الضرائب في الموانئ، والمدن، والقرى، والأماكن التي تجري فيها المقايضة، إعفاء مطلقاً دون قيد أو نفقة.

١٥. عندما يخرج الملك أبو عبد الله الصغير من مدينة غرناطة، تمنح له حرية الإقامة والمسكن في الوقت الذي يشاء، وفي الأراضي التي اقتطعت له حسب الاتفاقية. ويسمح له بالخروج مع من يشاء من حشمه، وقادته، وعلمائه، وقضاته، وفرسانه، وكل من يرغب بالخروج معه بخيولهم، ودوابهم، وأسلحتهم، وبرفقة زوجاتهم، وعبيدهم، ولا يؤخذ منهم سوى الذخائر التي سوف يضع صاحبا السمو عليها أيديهما. ولن يفرض على أي من ذريتهم – في أي وقت – وضع علامة مميزة لهم في ثيابهم، ولهم أن يتمتعوا بسائر الامتيازات المتفق عليها في وثيقة تسليم مدينة غرناطة.

١٦. يأمر صاحبا السمو بإعطاء كل ما ذكر في الاتفاقية للملك أبي عبد الله الصغير والملكات، ووالدته، وزوجته ووالدة مولاي أبي الحسن، وذلك في اليوم نفسه الذي يتسلم فيه صاحبا السمو الحمراء، وجميع القلاع التي أدرجت ضمن هذه المعاهدة.

وفي ختام هذه المعاهدة، تعهد الملك فرديناند، وزوجته الملكة ايسابيلا صاحبا ممالك ليون وأرغون وصقلية...الخ، أن يأخذا على عاتقهما تنفيذ شروط هذه المعاهدة جميعها، بحرفيتها، دون أي تعديل، من زيادة أو نقصان، مهما كانت الأسباب. وأن تبقى على حالها، دون تغيير أي حرف أو إبداله إلى الأبد، ولا يكون بمقدور أحد ممن يخلف الملكين أو يخلف أبناءهما، أو حفدتهما، نقض أي بند من بنودها إلى ما شاء الله.

وصدرت الأوامر بتعميم مضمون هذه المعاهدة على الأمراء، والوزراء، والقادة، والرهبان، والرعية، والأحفاد. وأُصدر مرسوم يهدد كل من يجرؤ على المس بما تضمنته هذه المعاهدة.

وقد ذيل هذا التوكيد، بتوقيع الملكين، وتوقيع نجلهما الأمير، وحشد كبير من الأمراء، ورجالات الدولة، واشرافها، وأحبارها.

وأدى الملك فرديناند، والملكة ايسابيلا، وسائر من حرروا الشروط، القسم بدينهم، وأعراضهم، أن يصونوا المعاهدة إلى الأبد، وعلى الصورة التي (انتهت) إليها، وحررها فرناندو دي زافرا.

خلاصة القول إن ما ورد في نص معاهدة تسليم غرناطة الآنفة الذكر، وما جاء فيها من امتيازات، كفيلة أن تضمن للمسلمين في الأندلس، ممارسة حريتهم ولغتهم وشعائرهم الدينية وأنظمتهم وعاداتهم، باستثناء حمل الذخائر الحربية. ثم تبين لنا فيما بعد، كيف نكث الملكان الكاثوليكيان بالعهد، ونقضا الشروط التي أقسما على تنفيذها حرفياً إلى أجل غير مسمى. ثم تتلاحق الفصول لتبين تفصيلات الأحداث السياسية، حينما انتدب الكردينال خمنيس ليلاحق الموريكسيين، والعائلات المسلمة ذات الأصول الإسبانية المعروفة بـ (Elches). وكيف أساء معاملتهم، وانتهك حرماتهم، وشرد الكثيرين منهم، وحملهم على التنصير القسري، وحظر عليهم كل ما لهم من حقوق بموجب معاهدة التسليم، إلى أن أدت أعمال هذا الكردينال في نتيجتها إلى استفزازات الموريسكيين، وهبوا بانتفاضات عدة أهمها: انتفاضة البيازين عام ١٤٩٩م، وثورة البشرات عام ١٥٠١م، كما سنرى فيما بعد، ويستمر الصراع إلى أن يتمخض عنه بجلاء صورة الموريسكيين الذين

وضعوا تحت المراقبة المستمرة، والمطاردة، وأصبحت بناتهم سافرات الوجوه بـــالاكراه. وكيف الزمت عجائزهم على اكل لحم الخنزير، ولهذا دلالته الدينية. فهي مناظر مؤلمـــة. كما تتناول احتقار رجالات المسلمين الطاعنين في السن، واذلالهم بعد العزة، واكراهـــهم على الأفطار في أيام رمضان، كما يتضح لنا بالقصيدة التي بعث بها الموريسكيون إلـــى بايزيد الثاني سلطان الامبراطورية العثمانية. وهذه الأمور وما سيليها، تدل دلالة قاطعـــة على أن هذه المعاهدة كانت مجرد حبر على ورق لـــم يتقيـــد بـــها البابـــا، ولا الملكـــان الكاثوليكيان، ولا من جاء بعدهما. وتتجلي صورة ذلك كله فيما سيأتي من صفحات هـــذه الدراسة.

الاتفاقية السرية الملحقة بمعاهدة تسليم غرناطة
عرض وتحليل

وقعت المعاهدة السرية في الزمان والمكان اللذين وقعت فيهما معاهدة تسليم غرناطة، وقد اشتملت على ستة عشر بنداً تحدثت في مجملها عن المكتسبات التي حصل عليها كلا الطرفين الموقعين عليها، وقد غلفت بستار من السرية لأسباب ودوافع عديدة.

وقع هذه الاتفاقية نيابة عن الملك أبي عبد الله الصغير القائد أبو القاسم المليح، في حين وقعها عن الجانب القشتالي الملكان الكاثوليكيان فرديناند وايزابيلا، وولدهما الأمير ضون خوان. ولم يوقع الملك أبو عبد الله الاتفاقية بنفسه؟ لأنه كان في حالة نفسية سيئة لا يقوى معها على فعل شيء، فقد تنازعته الهموم، وكادت الأجزان تفقده صوابه، فملكه يتلاشى أمام عينيه، وزوجته طريحة المرض، وولده أسير لدى أعدائه، وتجربة أسره ما زالت مائلة أمام ناظريه تذكره بضعفه، وبسوء العاقبة التي تنتظره.

لقد مثّل الملك أبا عبد الله أثناء المفاوضات القائد أبو القاسم المليح والحاجب يوسف بن قماشه في حين مثل الملكين الكاثوليكيين سكرتيرهما ضون فرناندو زافرا وغونثالو دي قرطبة. وقد حرص أبو القاسم المليح أثناء المفاوضات أن يحصل لسيده على بعض الامتيازات والحقوق، فإذا كان الملك قد خسر ملكه وتاجه، فلا أقل من أن يسعى جاهداً كي يؤمن له دخلاً ثابتاً يضمن له حياة كريمة، إلا أن أبا القاسم لم ينجح في ذلك.

أما لماذا أراد الطرفان لهذه المعاهدة أن تكون سرية؟ فاعتقد أن السبب في ذلك يرجع إلى أن الجانب الأندلسي كان يهمه أن تبقى المعاهدة سرية، إذ لو علم الغرناطيون ببنودها لأدركوا مبكرين أن ملكهم باعهم للقشتاليين بثمن بخس، ولأيقنوا بعد فوات الأوان أنهم سلّموا زمام أمورهم لملك ضعيف الهمة، خائر العزيمة، لا يهمه سوى مصالحه الشخصية، والحفاظ على ثرواته. أما الجانب القشتالي فكان يهمه في المقام الأول أن يحقق الحلم الذي راوده طويلاً وهو السيطرة على مملكة غرناطة، كذلك فإن هذه الاتفاقية سوف تظل في يده ورقة ضغط رابحة على الملك وأعوانه كلما رأى الفرصة مناسبة، كما أن الكشف عن بنود الاتفاقية فيما بعد من شأنه أن يثبط عزائم الأندلسيين ويفرق كلمتهم،

لأنهم سوف يكتشفون الغبن الذي أحاق بهم على يدي ملكهم، الذي ضحى بهم مقابل مصالحه الشخصية، بدلاً من أن يكون حامياً لهم مدافعاً عنهم.

ومع أن المعاهدة حققت للجانب القشتالي جملة من الأهداف إلا أنه لم يكن حريصاً على إبقائها طي الكتمان، فما أن تم التوقيع عليها حتى صدرت الأوامر بتعميمها على الأمراء والوزراء والقادة والرهبان والرعية. وهنا يتبدى لنا سوء نية الجانب القشتالي، فقد عمد إلى تسريب الاتفاقية ــ رغم سريتها ــ حتى ينقم المسلمون على الملك أبي عبد الله وأعوانه، الأمر الذي قد يضطره في النهاية إلى مغادرة شبه الجزيرة الايبيرية أي الأندلس.

إن من يتأمل بنود الاتفاقية جميعها يكتشف دون عناء أن الجانب القشتالي اتصف بالحذر والدهاء، في حين اتصف الجانب الأندلسي بالضعف والهزيمة، فالقشتاليون لا يقدمون للملك وحاشيته شيئاً قبل أن يضمنوا الوصول إلى كامل أهدافهم، فالهبة التي أقرتها الاتفاقية للملك لا تسلم إلا بعد تسليم المدينة، وابن الملك لا يطلق سراحه إلا بعد تنفيذ الاتفاق، كما اشترطوا أن يكون الحاجب يوسف بن قماشة من بين الرهائن الذي يسلمون لهم لضمان تنفيذ الاتفاق، وقد أثبتت الأحداث تواطؤ يوسف بن قماشة مع القشتاليين، حيث كان عيناً لهم في معسكر الملك يمدهم بالمعلومات، ويطلعهم على ما يدور هناك. كل هذا يبّين مدى الحذر والدهاء الذي اتسم به القشتاليون، فقد التزموا بخطة واضحة المعالم محددة الأهداف لتنفيذ البنود التي يهمهم تنفيذها، أما الملك وجماعته فلم يشترطوا مثل هذه الخطة الواضحة لتنفيذ ما يخصهم من بنود، بل ركنوا إلى العهود التي قطعها القشتاليون على أنفسهم، وهذا يبين حالة الضعف والترهل التي أصابت الملك وأعوانه.

لقد تحدثت الاتفاقية طويلاً عن حقوق الملك وأسرته وحاشيته، وأسهبت في ذكر الامتيازات التي أعطيت له، ولكن على الرغم من كل ذلك، فإن الاتفاقية اشتملت على بنود ما كان للملك أن يرتضيها أو يوافق عليها لأنها تمس كرامته، وتنقص من مكانته كملك، فقد جاء في البند الأول من الاتفاقية أنه ينبغي على الملك وأعوانه وحاشيته أن يعلنوا

ولاءهم وطاعتهم واخلاصهم لصاحبي السمو، وأن يؤدوا واجبهم تجاه سادتهم الجدد شأن سائر رعايا البلاد المخلصين.

وأشارت الاتفاقية في بندها الثالث إلى أنه يحق للملك أبي عبد الله أن يبيع أو يرهن أراضيه وممتلكاته، شريطة أن تكون الأولوية عند البيع أو الرهن لصاحبي السمو، وجاء في البند نفسه أنه يحق لصاحبي السمو الاحتفاظ بقلعة عذرة وأراضيها مع سائر القلاع والأبراج الممتدة على الساحل ـ وذلك لأهميتها الاستراتيجية والعسكرية ـ رغم أنها من أملاك الملك أبي عبد الله، كما جاء في البند الثالث ذاته أنه يجوز لصاحبي السمو أن ينعما على أي شخص بشيء من هذه الممتلكات التي أقطعت لأبي عبد الله. وهذه نقطة في غاية الخطورة ما كان للملك أو أعوانه أن يوافقوا عليها، لأنها تعطي الجانب القشتالي الحق في أن يوزعوا أملاكه واقطاعياته على أتباعهم وأعوانهم دون أن يكون له حق الاعتراض أو الاحتجاج.

ونصت المعاهدة في بندها العاشر على أنه إذا دفع صاحبا السمو ثمناً لعقار ما، فإن ملكية هذا العقار تنتقل إليهما، ويحظر على أي انسان نصرانياً كان أو مسلماً المطالبة به، ومن يخالف ذلك تتخذ بحقه اشد العقوبات الصارمة، ويعتبر خارجاً عن القوانين الاسلامية والنصرانية، وقد استغل الجانب القشتالي هذا البند استغلالاً سيئاً، حيث أوعزوا إلى الحاجب يوسف بن قماشه ـ الذي عُرف بخيانته لسيده وتواطئه معهم ـ أن يقوم ببيعهم معظم ممتلكات سيده في البشرات بثمن بخس دون وجه حق أو سند قانوني، ومع ذلك فإن الملك لم يجرؤ على الطعن في شرعية هذا البيع، حتى لا يعرض نفسه للعقوبات المنصوص عليها.

وأوردت المعاهدة في بندها الحادي عشر أنه في حالة رغبة الملك وأفراد حاشيته بالهجرة إلى المغرب أو إلى أي مكان آخر، فان صاحبي السمو يتعهدان بتجهيز سفينتين كبيرتين من مدينة جنوة لنقله وأفراد أسرته إلى حيث يشاء دون مقابل أو أجر، مع السماح لهم بأخذ أموالهم وثرواتهم وأسلحتهم عدا الذخائر الحربية.

إن هذه البنود التي تمت الاشارة إليها تكشف بجلاء مدى الغبن والاجحاف الذي لحق بالملك أبي عبد الله وأعوانه، لأن هذه البنود تصب جميعها في مصلحة الجانب القشتالي، وتكشف سوء النية التي كانوا يبيتونها لمسلمي الأندلس، وفي مقدمتهم الملك أبو عبد الله، فقد منحت الاتفاقية القشتاليين فرصة ذهبية للسيطرة على اراضي الملك وأعوانه بشتى الوسائل والأساليب، كما أنها أشارت من طرف خفي إلى أن خروج الملك وأعوانه من أرض الأندلس قضية مفروغ منها، ولا ينقصها سوى التنفيذ في الوقت المناسب. لقد ظل الملك أبو عبد الله ــ رغم ضعفه ــ يمثل غصة للملكين الكاثوليكيين لأنه يذكرهما ليل نهار بعظمة أجداده الذين بنوا دولة عظيمة وارفة الظلال ممتدة الأطراف، لذلك فقد كانا حريصين على إخراجه من أرض الأندلس، حتى يطووا صفحة المسلمين، ويسدلوا الستارة على آخر فصول الدولة الاسلامية.

وتحدثت الاتفاقية في بنديها الثالث عشر والرابع عشر عن السماح للملك أبي عبد الله بممارسة التجارة بشقيها الداخلي والخارجي، فعلى الصعيد الخارجي نص البند الثالث عشر على أنه يسمح للملك أبي عبد الله ــ متى شاء ــ أن يرسل بعض أتباعه إلى أرض العدوة للاتجار بالسلع مصدرين ومستوردين، دون أن يتوجب عليهم دفع أية نفقات أو ضرائب أو غرامات مالية مقابل هذا الاتجار لا في ذهابهم ومكوثهم هناك ولا في إيابهم، أما على الصعيد الداخلي. فقد نص البند الرابع عشر على أنه يسمح للملك أن يبعث بست دواب محملة بالسلع، إلى أية ناحية من النواحي التابعة لصاحبي السمو، من أجل مقايضتها بالزاد والمؤونة اللازمة، وتكون هذه الدواب معفاة من الضرائب.

إن ما يلفت نظر الباحث في هذا الموضوع هو أن الاتفاقية جعلت الاتجار الخارجي مفتوحاً دون أية قيود، في حين جعلت الاتجار الداخلي مقيداً، ولتفسير ذلك نقول: إن التجارة بين الأندلس وبلاد المغرب كانت ــ كما عرفنا ــ مزدهرة منذ وقت طويل، ولما آل الحكم إلى الملكين الكاثوليكيين لم يكن بالامكان الاستغناء عن أسواق المغرب استيراداً وتصديراً، ولكن الظروف لم تكن مواتية كي يقوم القشتاليون بهذا الدور، لأن نفوس المغاربة كانت تضطرم بالثورة والغضب عليهم، جراء ما لحق مسلمي الأندلس من قمع واضطهاد على أيديهم، إضافة إلى هذا فإن السماح للملك بممارسة التجارة مع المغرب من شأنه أن يولد قنوات اتصال بينه وبين المغاربة، الأمر الذي قد يشجعه على

الهجرة إلى هناك، حتى يكون قريباً من مركز تجارته، وبهذا يحقق الملكان الكاثوليكيان هدفاً غالياً وأمنية عزيزة، أما إذا لم يتحقق هذا الهدف، فلا أقل من أن يحصل على مصدر رزقه من بلاد المغرب، لا من بلادهم، وهذا يكشف مدى البخل الذي طبع عليه الملكان الكاثوليكيان.

لكل هذه الأسباب مجتمعة شجع القشتاليون الملك أبا عبد الله على ممارسة التجارة مع المغرب، لأن في ذلك ـ كما رأينا ـ مصلحة لهم أولاً وأخيراً. أما على الصعيد الداخلي فإن الوضع مختلف تماماً، فالقشتاليون ليسوا بحاجة لأبي عبد الله وأعوانه، بل على العكس من ذلك فإن مصلحتهم تكمن في التضييق عليه حتى يعجلوا في رحيله، وقد أتت هذه السياسة أكلها وأثمرت النتائج المرجوة منها، فقد اضطر الملك وأعوانه للهجرة إلى بلاد المغرب، وذلك بفعل المضايقات التي مورست ضده.

يتضح من كل ما سبق أن هذه المعاهدة وقعت بين طرفين، طرف قوي منتصر حذر يعرف كيف يحقق أهدافه، وطرف ضعيف متخاذل مخترق من الأعداء، لم يكتشف سوء نية عدوه، ولا الأهداف الخبيثة التي يسعى إليها، رغم أن رائحة الخديعة كانت تفوح من بين ثنايا هذه الاتفاقية.

إن التاريخ لن يغفر للملك أبي عبد الله خطيئته التي اقترفها عندما ارتضى أن يسلم مملكة غرناطة للقشتاليين مقابل الحفاظ على ثرواته وممتلكاته، لقد باع مجد آبائه وأجداده مقابل هبة تقدم له، وبذلك خان دينه وأمته مقابل قليل زائل من عرض الدنيا.

إن الدموع التي ذرفت، والدماء التي أريقت، والأعراض التي هتكت، والأرواح التي أزهقت، سوف تظل ماثلة في وجدان المسلمين تذكرهم بفداحة الجريمة التي ارتكبها الملك أبو عبد الله، فهو يتحمل وزر هذه العذابات التي لحقت بالمسلمين على أرض الأندلس.

إن الظروف والملابسات والارهاصات التي رافقت التوقيع على هذه المعـــاهدة لا يمكن لها أن تغفر للملك أبي عبد الله ما اقترفت يداه، فسوف يظل يتحمل مســـؤولية مـــا أصاب الاسلام والمسلمين في الأندلس إلى أن يرث الله الأرض وما عليها.

إن هذه الاتفاقية من شأنها أن توضح لنا الطريق الذي نسلكه، وتضيء لنا الـــدرب الذي نسير به، فإذا ما قدر لنا أن نوقع بعض المعاهدات مع أعداء أمتنـــا، فلتكـــن هـــذه المعاهدات بمجملها علنية، لأن من يخجل من شيء حري به أن لا يفعله على الاطـــلاق. ولنكن كذلك أكثر حرصاً وأشد حذراً، فنقرأ ما بين السطور، ونستشف ما خلف الكلمـــات، حتى لا نقع فيما وقع فيه الملك أبو عبد الله لأن عدونا في هذه الأيام ليس بأقل خبثـــاً ولا دهاء من العدو القشتالي. ولنحرص على أن يكون حكم التاريخ لنا لا علينا، لأن من كـــان حكم التاريخ له خلد وذكر على مرّ الأيام، ومن كان حكم التاريخ عليه كان مصيره ليـــس بأفضل ولا أكرم من مصير الملك أبي عبد الله.

هذه محاولة متواضعة قمت بها لإماطة اللثام وكشف المستور عـــن خبايـــا هـــذه الاتفاقية لعله يكون في ذلك عظة وعبرة لأبناء أمتي في حاضرهم ومستقبلهم راجياً الله أن أكون قد وفقت فيما سعيت إليه فهو نعم المولى ونعم النصير.

الهوامش

يعتمد المؤرخون والباحثون عادة في استقاء معلوماتهم عن المعـــاهدة المذكـــورة على:

أ. مجموعة من الوثائق المخطوطة بدار المحفوظات العامة في سيمانقاس نذكر مـــن أهمها:

١. وثيقة سرية تتعلق بأسرة أبي عبد الله الصغير، وتأتي ضمن المجموعة الأولـــى، وتحمل رقم (Archivo General De Simancas, P. R. Leg. II. Fol. 206).

٢. وثيقة سرية تتعلق ببيع ممتلكات أبي عبد الله الصغير فـــي البشـــرات (جنـــوب غرناطة) وتحمل رقم (Archivo General De Simancas, P. R. Leg. II. Fol. 203).

ويمكن للباحث أن يعثر على جميع هذه الوثـــائق المخطوطـــة ضمـــن مجموعـــة Capitulaciones Con Moros Y Caballeros de Castilla.

وقد كتبت جميع هذه الوثائق باللغة الإسبانية القديمة (القشتالية) التي تعرف باســـم Paleografia Cristiana.

ب. الوثائق التي تعود ملكيتها إلى فرناندو دي زافرا، سكرتير الملكين الكاثوليكيين، توجـد حالياً في سجلات بلدية غرناطة، وثائق مخطوطة عن المعاهدات الأصليـــــة التـــي أبرمت في تلك الفترة، وكانت ملكيتها تعود إلى فرناندو دي زافرا، سكرتير الملكين الكاثوليكيين، وقد نشرت ضمن وثائق تسليم غرناطة بالعناوين التالية:

Las Capitulaciones para la entrega de Granada por Miguel Garrido Atienza (Granada 1910) p. 269-294.

بالإضافة إلى ذلك، هناك بعض الوثائق التاريخية المهمة التي تتعلق بظروف معاهدة تسليم غرناطة، تعود ملكيتها أيضاً إلى فرناندو دي زافرا، وقد عثر عليها البـــاحث غاسبار راميرو، في أرشيف (زافرا) وقام بتحقيقها ونشرها.

M. GASPAR REMIRO: Documentos Arabes de la Corte Nazari de Granada. "Primeros pactos y Correspondencia Intima entre los Reyes Catolicos Boabdil". Revista de Archvos, Bibliotecas y Museos. Madrid 1.910 Tomo XXII, p. 260-269 y 421-431 y XIII, p. 137-148 y 411-423.

ج. قلما نعثر على أي مصدر عربي، يمكن أن يلقى ضوءا على هذه الفترة سوى قلة تتعلق بمعاهدة تسليم غرناطة، وهي:

١. المقري التلمساني (الشيخ أحمد بن محمد)، نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، حققه الدكتور احسان عباس، المجلد الرابع، بيروت (١٣٨٨هـ/١٩٦٨م)، ص ٥٢٥_٥٢٦.

٢. المقري التلمساني (شهاب الدين أحمد بن محمد)، أزهار الرياض في أخبار عياض، الجزء الأول، تحقيق مصطفى السقا، وابراهيم الابياري، وعبد الحفيظ شلبي، القاهرة (١٣٥٨هـ/١٣٣٩م)، ص ٦٧.

٣. نبذة العصر في أخبار ملوك بني نصر أو (تسليم غرناطة ونزوح الأندلسيين إلى المغرب)، مجهول المؤلف (معاصر لأحداث غرناطة الأخيرة وسقوطها)، تحقيق الأستاذ الفريد البستاني، العرائش (المغرب)، ١٩٤٠م، ص ٤١.

أما من المراجع فلا نجد إلا ما كتبه كل من:

١. الناصري (الشيخ أبو العباس أحمد بن خالد)، كتاب الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى، تحقيق وتعليق ولدي المؤلف: الأستاذ جعفر الناصري، والأستاذ محمد الناصري، الجزء الرابع، الدار البيضاء، ١٩٥٥م، ص ١٠٤_١٠٥.

٢. عنان (الأستاذ محمد عبد الله)، نهاية الأندلس وتاريخ العرب المتنصرين، الطبعة الثانية، القاهرة ١٣٧٨هـ/١٩٥٨م، ص ٢٣٠_٢٣٩.

٣. حتاملة (د. محمد عبده)، التنصير القسري لمسلمي الأندلس في عهد الملكين الكاثوليكيين، ١٤٧٤/١٥١٦، عمان، ١٩٨٠م.

الفصل السابع

الأندلس بعد سقوط غرناطة

(الانتفاضات والثورات)

الأندلس بعد سقوط غرناطة

الانتفاضات والثورات

كانت مملكة غرناطة – بعد احتلالها من قبل الإسبان – تشتمل على مقاطعات ثلاث هي: مالقة، وغرناطة، والمرية[١]. وبعد انتصاف عام ١٤٩٢م وهو عام احتلال مدينة غرناطة، غادر الملكان الكاثوليكيان قلاع الحمراء بغرناطة، تاركين شؤون إدارتها، لبعض أفراد حاشيتهما مثل: انييغولوبث دي مندوسا الكونت دي تنديا الذي عين حاكماً لمدينة غرناطة[٢]، والأب ايرناندو أسقف أبله، وكالدرون الذي كان أحد مثقفي عصره قائداً للبلاط، و "ايرناندو دي زافرا"* سكرتيراً للملكين الكاثوليكيين.

باشر مجلس هؤلاء المسؤولين ــ في بداية الأمر ــ إدارة شؤون البلاد، حسب التعليمات التي كانوا يتلقونها من قبل الملكين الكاثوليكيين وذلك تنفيذاً لمعاهدات الاستسلام. وكان هذا المجلس الذي تولى إدارة غرناطة، على اتصال سري بالبابا الاسكندر السادس كردينال بلنسية وأسقفها السابق[٣].

وقد أخذت سياسة التسامح التي طبقها المجلس تضعف، حتى عجزت عن تنفيذ الشروط المتفق عليها في معاهدات الاستسلام. واعتبرها المجلس باطلة المفعول؛ إذ فرض على المسلمين أحد أمرين: التنصير القسري أو التهجير القسري[٤].

---

(١) - Alfonso GAMIR SANDOVAL: Fortificaciones de la costa suroriental del reino de Granada; Revista de Historia Militar. Tomo VI. Madrid 1.962 No. 10. pag 25.

(٢) - Julián Ma RUBIO Y varios: Historia de España. tomo. III. Barcelona 1.935, pag. 402.

* ايرناندو دي زافرا هو نفس فرناندو دي زافرا.

(٣) - Andrés BERNALDEZ (cura de los palacios): Memorias del reinado de los Reyes Católicos, edición y estudio por Manual GOMEZ Y Juan DEM. CARNIAZO. Madrid 1.962 Capt. CIV, Pag. 235.

(٤) - Cayetano ROSELL: Biblioteca de Autores Españoles Historiadores de sucesos particulares. Tomo 1.

وهناك ما يشير إلى أن النكث بنصوص المعاهدة بين المسلمين والإسبان، بدأ منذ اليوم الذي دخل فيه الملكان الكاثوليكيان غرناطة؛ أي في اليوم الثاني من شهر كانون الثاني عام ١٤٩٢م** . إذ صدر الأمر بإحراق مليون وخمسمائة ألف كتاب ديني، بما فيها من الوثائق والمخطوطات التي تتعلق بالدين الإسلامي[١]، لكي يسهل على الإسبان إبعاد المسلمين عن مصادر عقيدتهم الإسلامية، ويسهل القضاء عليهم بالسرعة الممكنة، حسب اعتقادهم. ولم تكن مصيبة المسلمين في سقوط غرناطة، بأشد وقعاً على نفوسهم من إجبارهم على تغيير عقيدتهم التي ضحوا في سبيلها بآخر قطرة من دمائهم.

وفي هذا الفصل سنرى مقدار ما نزل بالمسلمين من أذى واضطهاد، يعد صفحة سوداء في تاريخ الإسبان، لما ارتكبوه من مذابح وحشية، ونكث فاضح للعهود التي قطعوها على أنفسهم. ومن الأساليب التي استعملت ضد مسلمي الأندلس، أخذ أطفالهم الذين تتراوح أعمارهم ما بين ٥ـ١٢ سنة، ليربوهم تربية خاصة في المعاهد المسيحية، ويلقنوهم النصرانية، ويزرعوا في قلوبهم التعصب المقيت ضد ذويهم المسلمين. وبعد نضوجهم يستعملون أداة للتجسس عندما يعادون إلى أهاليهم، ليخبروا بكل صغيرة وكبيرة، تدور في بيوت آبائهم ثم يقوم الإسبان بإنزال أقصى العقوبات بالمسلمين، وهي الموت تنكيلا بالعذاب والحرق.

كان من دوافع الإسراع في عملية التنصير القسري أن الملكة ايسابيلا كانت أشد تعصباً من زوجها فرديناند الكاثوليكي، لعلاقتها الوثيقة بالأساقفة الرهبان،، من رجالات الكنيسة[٢]، حتى إنها أصبحت بمثابة ورقة رابحة في أيديهم، يستطيعون استغلالها عندما يشاؤون. كذلك كان لرجالات الكنيسة، الدور الفعال في هذا المجال، يعضدهم البابا بالإضافة لسلطان الكنيسة الذي كان لا يستهان به في ذلك العصر.

** **بسم الله الرحمن الرحيم "والذين ينقضون عهد الله من بعد ميثاقه ويقطعون ما أمر الله به أن يوصل ويفسدون في الأرض أولئك لهم اللعنة ولهم سوء الدار"، صدق الله العظيم (الرعد ٢٥).**

(١) - Francisco PIFERRER: Nobiliario de los reinos y señorios España. Tomo. VI. Madrid 1860, pag. 138.

(٢) - Fr. Jaime DE BLEDA: Crónica de los moros de España. Valencia 1.618. pag. 640.

وللوصول إلى عملية التنصير اتخذ قرار في مدينة شنتفي بالقرب من غرناطة، في الرابع والعشرين من تشرين أول عام ١٥٠٠ للميلاد؛ بعد انتفاضة البيازين تقرر فيه إرسال العديد من الكهان والقساوسة والرهبان، إلى مملكة غرناطة، بهدف التبشير بالديانة المسيحية على المذهب الكاثوليكي. وإذا لم يحقق هذا الهدف غايته المنشودة، تنفذ عملية التنصير القسري بالعنف والمطاردة. وأذعنت السياسة الإسبانية لوحي الكنيسة التي بلغت عندئذ ذروة قوتها ونفوذها.

وفي السنوات التالية، يلاحظ أنه كان لجميع مناطق غرناطة وقراها راعي طائفة، وتم توزيع ما تبقى من المسلمين على شكل مجموعات وزعت على الكنائس المتعددة[١]. وفي مدينة بلنسية، تأخر تنظيم الكنائس إلى عام ١٥٣٥م حيث كلف انطونيو راميرث دي هارو أسقف مدينة ثيوداد ريال، بتأسيس رعويات في مختلف مناطق المملكة، وفي ذلك الحين تم إقامة ١٢٠ كنيسة[٢].

ومن أجل تنفيذ سياسة تنصير المسلمين، قرب الملكان الكاثوليكيان إليهما مجموعة من الأحبار والرهبان والوجهاء*، فأرسلت الملكة ايسابيلا في طلب ثلاث شخصيات، مانحة إياهم مناصب تمثيلية في البلاط الملكي وهم:

١. انييغولوبث دي مندوسا كونت تنديا، وهو القائد الأول وماريشال غرناطة.
٢. والأب ايرناندودي تالافيرا مطران غرناطة.
٣. والأب خمنيس دي سيسنيروس مطران طليطلة، ورأس الكنيسة الإسبانية. وكان هذا الأخير من أبرز من نفذوا أبشع المذابح، وارتكبوا أفظع الجرائم بحق المسلمين في الأندلس[٣]. وكانت تصرفاته لا تليق بمكانته وحرفته؛ لأنه رجل دين يفترض فيه أن

---

(١) - Antonio Dominguez ORTIZ Y Bernard VINCENT: Historia de los moriscos. Vida y tragedia de una minoría, Edit, Revista de Occidente. Madrid 1.978. Capt. V, pags, 94-95.

(٢) - HAYPERIN DONGUT (Tulio): Un coflicto nacional: moriscos y cristianos viejos de Valencia. Cuadernos de Historia de España. Buenos Aires

* **بسم الله الرحمن الرحيم "اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أرباباً من دون الله والمسيح ابن مريم وما أمروا إلا ليعبدوا إلها واحداً لا اله إلا هو سبحانه عما يشركون". (التوبة:٣١).**

(٣) - LAFUENTE ALCANTARA (Modesto): Historia General de España. Barcelona 1.879. Cap. X, pag. 331.

يعمل لإرضاء الله، لكنه عرف بقسوته وغلظة قلبه. واتبع سياسة تؤدي إلى ما خطط له الملكان. وبالمقابل امتاز الأب ايرناندودي تالافيرا مطران غرناطة بالتسامح والرفق، ودرس العربية، وبشر بها، وتشير كل المخطوطات إلى أن الموريسكيين كانوا يحبونه[١].

ومضت هذه الشخصيات الثلاث السالفة الذكر في ممارسة سياسة اضطهاد المسلمين والتنكيل بهم. ونذكر فيما يلي بعض الإجراءات التي اتخذت ضد المسلمين:

حرمان المدجّنين[٢] المقيمين في مملكة غرناطة من شراء الأراضي والعقارات، وذلك لتسهيل تفريقهم بالقوة، وتوطين الإسبان في أماكنهم، ومزج العناصر الإسلامية بالعناصر الإسبانية، لكي يفقدوا كل ما لديهم من مقومات وجودهم، من شعائر دينية ولغة عربية[٣]. وغالى الإسبان في تعصبهم وكرهم وعداوتهم للمسلمين، وأصدروا مرسوماً يُحرم على مدجني الأندلس ونسائهم وأطفالهم، أن يغتسلوا، أو يستحموا في أي مكان خصص لغاية الاستحمام، وأن تهدم جميع الحمامات العامة التي كانت منتشرة في جميع أنحاء غرناطة.

ثم حُرم عليهم حمل السلاح. والأمر الأكثر خطورة، هو ما حدث في عامي ١٤٩٥م و١٤٩٩م، حيث فرض التاج الإسباني على المدجنين دون غيرهم من الناس ضرائب جديدة باهظة. وقد سيطر القلق والرعب على المسلمين من أهل غرناطة، عند صدور تلك الأحكام الجائرة التعسفية التي كانت نتيجتها التمهيد لقيام المسلمين بالثورات المتتابعة المناوئة للحكم[٤].

---

(١) - VILLA/REAL Y VALDIVIA (Francisco de Paula): Lecciones elementales de historia crítica de España. Granada 1.899. Segunda Edición, Granada, 1899, Lección 57, pag. 382. CARO BAROJA (Julio): Razas, pueblos y linajes. Revista de Occidente. Madrid 1.957. Los moriscos aragoneses según un autor de comienzo Del Siglo XVII, pag. 85.

(٢) المدجنون: هم المسلمون الذين ظلوا على دينهم بين الإسبان قبل سقوط غرناطة وانتهى بهم الأمر إلى مصير الأندلسيين الموريسكيين نفسه.

(٣) - PEREZ BUSTAMANTE C.: Compendio de Historia de España. Madrid 1.946. pag. 359.

(٤) - DOMINGUEZ ORITZ (Antonio) y VINCENT (Bernard): Historia de los moriscos. Vida y tragedia de una minoría. Edit. Revista de Occidente. Madrid 1978. Capt. 1, pag. 18.

فمنذ اللحظة الأولى لدخول الإسبان غرناطة، تم توزيع مساحات شاسعة من أراضي المسلمين وأملاكهم على النبلاء الإسبان، وأصبح هؤلاء الإسبان فيما بعد تابعين للنبلاء*. وفُرضت عليهم الضرائب، وعوملوا معاملة سيئة، نتيجة لثوراتهم المتتابعة. وفي عام ١٤٩٨م أجريت عملية عزل العناصر الإسلامية، عن المجتمع الإسلامي، ووضعوا في أماكن معينة، تحت حدود واضحة المعالم بين السكان الإسبان والمسلمين؛ ليسهل السيطرة والقضاء عليهم في حالة نفورهم(١).

وبعد هذا التاريخ بقليل، استخدمت ضد المسلمين أساليب الإرهاب والبطش والتعذيب، بخلاف السياسة التي اتبعها فرناندو دي تالافيرا في بداية ولايته، وبخلاف الأساليب التي اتبعها المسلمون، عندما فتحوا جزيرة ايبيريا، حيث لم يجبروا إنسانا على تغيير عقيدته وإنما تركت حرية الاعتقاد والخيار لكل فرد كما يشاء.

وكانت سياسة سيسنيروس في إحراق الكتب بغرناطة، ضمن خطة رسمها لنفسه لإزالة الكثير من المخطوطات العربية القيمة، والوثائق التاريخية، والمصاحف البديعة الزخرف، وكتب الأحاديث، والآداب، والعلوم، وغيرها. ونظمت أكداساً هائلة في ميدان باب الرملة الأيمان ساحات المدينة، وأضرمت النيران فيها جميعاً. إذ كان هدفه كهدف غيره من رجالات الدين المتزمتين، ألا وهو التخلص من أي إشارة إلى اللغة العربية، كي لا يستعين المسلمون بمصادرهم الأساسية، كالقرآن الكريم، والسنة مصدر التشريع في الأندلس. وقد خلقت هذه الأعمال جواً من التوتر، وكان من نتائجها أن أزهقت أرواح بريئة، وهدرت دماء كثيرة(٢). وفوق كل هذه الأعمال البربرية، تم تعيين سيسنيروس رئيساً أعلى لديوان مجمع قضاة الإيمان الكاثوليكي، أو محاكم التفتيش التي تأسست في

---

* وستبدو علاقة النبلاء بالموريسكيين اكثر جلاء لدى دراسة الملك فيليب الثالث واثرها على السياسة الاسبانية.

(١) - CARO BAROJA (Julio): Los moriscos del reino de Granada. Madrid 1.976. Segunda edición, Capt. 1, pags. 42-47. y 55-56.

(٢) - MARMOL CARVAJAl (Luis del): Historia de la rebelión y castigo de los moriscos del Reino de Granada. Segunda impresión, Tomo 1. Madrid. 1797. Libro, 1 capt. XXIV, pags 112-113. LAFUENTE ALCANTARA (Modesto): Historia General de España. Barcelona 1.879. Tomo, II, Barcelona, 1879, capt. XIX, pags 352-357.

إسبانيا[١]، واتخذتها الكنيسة الرومانية الكاثوليكية ذريعة وسلاحاً فتاكاً، تسحق به كل من لم يذعن لأوامرها. وكان من نتائج سياسة سيسنيروس التعسفية ومواقفه المتعنتة في ديوان مجمع قضاة الإيمان الكاثوليكي[٢] (اتباعه طريق الاضطهاد). الأمر الذي أدى إلى انتفاضة المسلمين المشهورة في حي البيازين من أحياء غرناطة عام ١٤٩٩م، وأجبرتهم هذه السياسة على أن يقوموا بأعمال عنف كثيرة، يملأهم الشعور بالعداوة والكراهية. ولكن انتفاضتهم لم تلبث أن أخمدت بلا رحمة أو شفقة.

بعد ذلك، تأججت نيران الثورة، في الأقاليم الواقعة في جنوب غرناطة، كمنطقة البشرات، عام ١٥٠١م، وأماكن أخرى من مملكة غرناطة[٣]. وكان نشاط محاكم ديوان مجمع قضاة الإيمان الكاثوليكي، موجهاً ضد المسلمين واليهود معاً. وقد طُبِّقت سياسة محاكم هذا الديوان، منذ مطلع القرن السادس عشر الميلادي إلى أن اختفت هذه المحاكم في القرن التاسع عشر للميلاد. وكانت أحكامها تعتبر نهائية، غير قابلة للاعتراض، وتنفذ بشدة وحزم، دون نقاش أو جدال أو مراجعة، في جميع المراحل التي تسبق صدور الأحكام على المتهم.

---

(١) - DAVILA COLLADO (Manuel): El poder civil en España. Memoria premiada por la Real Academia de las Ciencias Morales y politicas. Madrid 1.885. Tomo, 1, Madrid 1885, capt. III. pags 643-648.

(٢) أقيم ديوان مجمع قضاة الإيمان الكاثوليكي، أو محاكم التفتيش في القرن الثالث عشر الميلادي. وذلك تلبية لحاجات الكنيسة الكاثوليكية، لتحمي نفسها من الديانات الأخرى. ولقد تولى هذه المؤسسة الآباء الدومينيكان، وامتدت في نواحي كثيرة من أوروبا. وفي اسبانيا، اقامها سان دومينغو دي غوثمان ضد ملحدي البي، وتعممت في بدايتها في ارغون، ولقد أدخلها مطران طركونة، وسان رايموندو دي بنيافورت، وانتقلت بعد ذلك إلى بلنسية، وقطلونية. وبعد ذلك، أقام الملكان الكاثوليكيان ديوان مجمع قضاة الإيمان الكاثوليكي، أو محاكم التفتيش ثانية عام ١٤٨٠م، في إشبيلية. وفي عام ١٤٨٢م صدر تصريح بإقامتها في مملكتي قشتالة وارغون. وفي عام ١٤٨٣م عين البابا سيكستو الرابع، الأب توماس دي توركيمادا، أول رئيس عام لديوان مجمع قضاة الإيمان الكاثوليكي. وبعدها امتدت هذه المحاكم إلى إمارة قطلونية، ومملكة بلنسية ، ونبرة عام ١٥١٦م. وبعدها في أمريكا. ويجدر مراجعة المؤلفات التالية من اجل دراسة ديوان مجمع قضاة الإيمان الكاثوليكي:

- ORTI Y LARA (Juan Manuel): La Inquisición. Madrid 1.877. THOMAS WALSH (William): Personajes de la inquisición. Tradicción española-por Isabel AMBIA. Madrid 1.953.

(٣) - AVALLE-ARCE (Juan Bautista): Bernal Francés y su romance. Armario de Estudios Medievales III. Barcelona 1.966. pags. 374-375.

كانت هذه المحاكم تعقد جلساتها، فتتلى الأحكام الصادرة بحق المتهمين الذين يقبض عليهم لينالوا العقاب الجسدي دون هوادة أو رحمة. وكانت أحكام هذه المحاكم وعقوباتها تتراوح، ما بين مصادرة الممتلكات ، ودفع غرامات باهظة إلى التعذيب الجسدي، وفي اغلب الأحيان الموت حرقاً.

وفي أولى جلسات ديوان مجمع قضاة الإيمان الكاثوليكي، أو محاكم التفتيش التي عقدت في إشبيلية، صدرت أحكام بالموت حرقاً، على ستة عشر متّهماً. وحسب ما ذكر أحد المؤرخين المعاصرين[1]، أنه تم حرق ٧٠٠ شخص خلال ثماني سنوات. وحكم على خمسة آلاف آخرين بالسجن "المؤبد، والأشغال الشاقة، وأحكام أخرى، كما تم حرق أكثر من ١١٣ شخصاً، بين عامي ١٤٩٩م و ١٥٠٢م في مدينة أبله، وحكمت المحكمة في طليطلة على ألف ومائتي شخص بالإعدام في جلسة واحدة. وكان يُطلب فيها إلى الشخص إما الإيمان بالمسيحية وترك الاسلام، أو الموت حرقاً. ومن هنا جاءت التسمية بجلسات الإيمان.

ومنذ عام ١٤٩٢م كان في خدمة الملكين الكاثوليكيين الأساقفة التالية أسماؤهم:

١. الأب ايرناندو دي تالافيرا[2] مطران أبله الذي رافق الملكين الكاثوليكيين عند دخولهما لاستلام مدينة غرناطة، ومن ثم تم تعينه مطراناً لها. وتقلد المنصب مدة خمسة عشر عاماً، إلى أن توفي عام ١٥٠٧م.

---

(١) - OPISSO (Alfredo): Historia de España y de las Repúblicas Latino-Americanas. Barcelona (sin fecha). Cap. V. pags 168-172. C. Perez Bustamante: Compendio de Historia de España. 5 edición Madrid 1952. capt. XXV. pags. 205-207.

(٢) ايرناندو دي تالافيرا (١٤٢٨–١٥٠٧م) ولد في تالافيرا، وهي مدينة تابعة لأبرشية طليطلة. راهب من رهبان منظمة سان خيرونيمو، تولى ادارة دير دي سانتا ماريا ديل برادو، بالقرب من بلد الوليد أكثر من عشرين عاماً. ولقد اشتهر بلطفه وتدينه، واستدعاه الملكان الكاثوليكيان عندما سمعا عنه، وجعلاه مودع أسرارهما ورفعاه إلى مرتبة أسقف أبله. وعند تسليم مملكة غرناطة، رافق الملكين الكاثوليكيين، وعين مطران غرناطة الأول، وبقي في منصبه هذا، حتى وفاته. وقد كان كاتباً، وألف بعض الكتب في التعليم والعقيدة المسيحية، وبحثا عن الاختلافات الدينية، كان لها شأن كبير. من أجل التوسع في حياة الراهب ايرناندو دي تالافيرا، وأعماله، يجدر مراجعة المؤلفات التالية:

- MORMOL CARVAJAL (Luis del): Historia de la rebelión y castigo de los moriscos del Reino de Granada. Madrid 1.797. Tomo 1. Libro 1. capt. XXI, pag 105.
- VILLA/REAL Y VALDIVIA (Francisco de Paula): Lecciones elementales de historia crítica de España. Granada 1.899. Lección 57, pag 382.
- CARO BAROJA (Julio): Razas, peublos y linajes. Revista de Occidente. Madrid 1.957. Los moriscos aragoneses según un autor de comienzo del siglo-XVII. 85.

٢. الأب فرانسيسكو خمنيس دي سيسنيروس[١] مطران طليطلة الذي لعب دوراً خطيراً في عملية التنصير القسري، كما مر بنا.

في سنة ١٤٩٩م كان في الكلا دي اينارس، عندما استدعاه الملكان الكاثوليكيان إلى غرناطة، ليساعد الأب ايرناندو دي تالافيرا في تنصير المسلمين. وفي العام نفسه، ذهب الملكان الكاثوليكيان إلى اشبيلية، تاركين قائد البلاط كالدرون (الحاصل على إجازة علمية) حاكماً لغرناطة[٢].

وفي السنوات العشر الأولى من استيلاء الإسبان على غرناطة، نظمت الكنيسة فرقاً تبشيرية، من رهبان وراهبات، للقيام بنشر المسيحية* إذ كانت الفكرة السائدة عندهم،

---

[١] الراهب فرانسيسكو خمنيس دي سيسنيروس، ولد عام ١٤٣٦م، في توري لاغونا، وكان رئيساً لكهنة اوتيدا، أيام المطران ضون الونسو كاربيو، ومسؤول كاتدارئية سيغوينثا، وبعد ذلك التحق في نظام رهبنة القديس فرنسيسكو، وباشر في اجراء اصلاحات واسعة في هذا النظام الفرنسيسكي، بارشاد من البابا الاسكندر السادس، وفي عام ١٤٩٢م، عين مشرفاً روحياً للملكة ايسابيلا الكاثوليكية. ولقد تولى أيضاً منصب حاكم اسبانيا. وفي عام ١٤٩٥م، عندما تولى منصب الرئيس – الاقليمي لمنظمة رهبان الفرنسيسكان – تم انتخابه مطراناً لطليطلة، بعد وفاة الضون بيدرو غونثالث دي ميندوثا. ولقد أسس جامعة الكلا دي اينارس، ونشر الانجيل بعدة لغات، واخضع ثورة طبقة النبلاء، وتوفي في Roa رؤا (برغش) عام ١٥١٧م. يجدر مراجعة المؤلفات التالية من أجل التوسع في حياة الراهب فرنسيسكو خمنيس دي سيسنيروس وأعماله.

- SANCHEZ CANTON F. J.: Anécdotas y noticias diversas. Memorial Histórico Español colección de documentos opúsculos y antiguedades que publica la Real Academia de la Historia. Tomo XLVIII, Madrid 1948, pags 74-80.
- ESPAÑA LLEDO (José): Cuadernos de Historiografía de España. Granada 1894. Tercer Ciclo, época 1, Lección XVII, pag 44.
- BALLESTEROS BERETTA (Antonio: Historia de España y su influencia en La Historia Universal. Barcelona 1.922. capt. 18, pags 223-226.
- C. Perez Bustamante: Compendio de Historia de España, 5 edición, Madrid 1952, cap XXV, pag 204.
- LLORCA (B) La inquisicion española (Comillas 1.953).
- Gutierrez (C) Politica religiosa de los Reyes Católicos, en 'Miscelanea' (Comillas. 1.592).
- LLORENTE (A. de le Pinta). La inquisición Española (Comillas 1.953).
- PALACIO ATARD (V) razón de la Inquisición (Madrid 1.953).
- Fernandez de Retana (P) Cisneros y su siglo Madrid 1.929.
- Starkie (W) La España de Cisneros. Barcelona. 1.943.

[٢] - SANTA CRUZ (Alonso de): Crónica de los Reyes Católicos, Edición y estudio por Juan de MATA CARRIAZO Tomo 1, Sevilla 1951, Capt. XLIV, pag 191.

* بسم الله الرحمن الرحيم "وليحكم أهل الإنجيل بما انزل الله فيه ومن لم يحكم بما انزل الله فأولئك هم الفاسقون" صدق الله العظيم (٤٧م، المائدة ٥)

أن المسلمين سيدخلون في الديانة النصرانية أفواجاً، وبدون أي صعوبات تذكر. ولكن عندما باءت هذه الفرق التبشيرية، وهذه الحملات بالفشل، تدخل سيسنيروس، وفرض التنصير القسري، مستعملاً كل وسائل التعذيب، وكل ما لديه من قوة[1]. ولم يتردد في استعمال العنف، وشتى وسائل الاضطهاد، مما أدى إلى اتخاذ المسلمين موقفاً ثورياً حازماً، معلنين الجهاد في سبيل الله، على سيسنيروس وجماعته المتعصبة. إذ أصبح من المستحيل تعايش الشعبين وانصهارهما في بوتقة واحدة[2].

ولكي نعطي الصورة اطارها التاريخي، ولتتضح أمام الباحثين الحقائق والادلة التي طالما اغفلها ــ عن قصدٍ أو عن غير قصد ــ كثير من الباحثين، والمؤرخين قديمهم وحديثهم، رأينا أن نُعطي فكرة واضحة، لا بد من أخذها بعين الاعتبار، وهي استناد السلطة واعتمادها أولاً وأخيراً على الكنيسة الكاثوليكية التي كان لها دورها الفعال، وسلطاتها المطلقة إلى جانب السلطة المدنية التي تصدر عن أوامرها وتوجيهاتها، في مراقبة المسلمين الذين نُصروا على يد ثلة من رجال الدين متعصبة تعصباً مقيتاً. هذا بالاضافة إلى أن الملكين الكاثوليكيين كانا يحظيان أيضاً، بتأييد "البابا الاسكندر السادس" الذي كان على بينة واطلاع واسع، على مجريات الأحداث صغيرها وكبيرها، منذ حصار غرناطة، حتى ساعات استسلامها عام ١٤٩٢م[3].

كان أي خبر يرد إلى ديوان مجمع قضاة الايمان الكاثوليكي، أو محاكم التفتيش عن المسلمين الذين نصروا قسراً من قبل أي شخص مسيحي، أو من أبناء المسلمين الذين أخذوا وربوا في أحضان الكنيسة، على تعاليم المسيحية، باتهام أي مسلم أو عائلة مسلمة، مارست شعائرها الدينية الاسلامية، أو استعملت اللغة العربية، أو حتى اتجهت إلى جهة مكة المكرمة لأداء الصلاة، جريمة كبرى لا تغتفر، في نظر لجان ديوان مجمع قضاة الايمان الكاثوليكي أو محاكم التفتيش المعروفة بتعصبها، وانزال أقصى العقوبات وهي الموت والموت حرقاً.

---

(١) - DOMINGUEZ ORITZ (Antonio) y VINCENT (Bernard): Historia de los moriscos, Vida y tragedia de una minoría. Edit. Revista de Occidente. Madrid 1978. Cap 1, pags 18-19.

(٢) - MENENDEZ PELAYO (Marcelino): Historia de los heterodoxos españoles. Segunda edición, Tomo V, Madrid 1928, Cap III, Pag. 325.

(٣) - C. Perez Bustamante: Compendio de Historia de España, 5 edición, Madrid 1952, Cap. XXV, pag. 203.

ومن هذه الأساليب المقيتة نذكر على سبيل المثال، اجبار الفتيات المسلمات على الاقتران برجالات النصارى. وكذلك اجبار المسلم على الزواج بنصرانية، من أجل القضاء النهائي على كل ما تبقىّ من تعاليم الاسلام، في نفوس ابناء المسلمين المنصرين قسراً.

أما الملكان الكاثوليكيان فيلاحظ على سياستهما ما يلي:

أولاً: كانت عمليات التنصير القسري بحق المسلمين تفرض تحت اشرافهما، بل برغبتهما.

ثانياً: كان الملكان الكاثوليكيان على علم تام بمجريات الأحداث التي كانت تتناقض وما جاء في نصوص معاهدة الاستسلام. فبالرغم من توقيع الملكين على المعاهدة، إلا أنهما تغاضيا عن الأعمال البشعة التي كانت تقترف بحق المسلمين. وقد كانت هذه السياسة المتعصبة التي لا تعرف الرحمة من قبل الملكين الكاثوليكيين، هي العامل الرئيس الذي أشعل نار الانتفاضة في البيازين، عام ١٤٩٩م.

انتفاضة البيازين عام ١٤٩٩م

كان الموريسكيون لا يزالون يحملون في نفوسهم احتراماً ومحبة لاثنين من رجال الدين المسيحي هما: الأب ايرناندو دي تالافيرا، وانييغو لوبث دي مندوسا كونت دي تنديا، حاكم مدينة غرناطة.

أثناء توتر الحال الذي سبقت الاشارة إليه، زاد غليان القلوب لدى الموريسكيين، حتى تبدى هذا الغليان بشكل ردود فعل مختلفة. حاول الملك ضون فرديناند الكاثوليكي تهدئة الأحوال تلافياً لما قد تجر إليه من عواقب، فبعث الكردينال خمنيس دي سيسنيروس، ليبرم مع المنتفضين الموريسكيين، والمسلمين من أصل اسباني (Elches)[١] اتفاقاً يعيد المياه إلى مجاريها ولو إلى حين. وكان مضمون هذا الاتفاق، يجيز للموريسكيين التمسك بعاداتهم ودينهم وضمان احترامهم، غير أن هذا الاتفاق لم يلق أي اهتمام لدى الموريسكيين، لكثرة ما مر بهم من اتفاقيات، لا تكون إلا حبراً على ورق، سرعان ما يضرب بها عرض الحائط، فاستمرت الانتفاضة خاصة عندما أقدم مفوض الشرطة واسمه (بلاسكو دي باريو نويفو) Velasco de Barrionuevo وخادم للكردينال سيسنيروس، يدعى (سالثيدو) Salcedo، على الاعتداء على ابنة مسلم من أصل اسباني (Elches) في ساحة باب البنود، في حي البيازين La plaza de Bib-el-Bonut. حيث هب الموريسكيون في انتفاضة عارمة، استجابة لصراخ تلك الفتاة، وكانت الحماسة والنخوة تلتهبان في صدورهم، ووصلوا إلى المفوض وصاحبه، فدبّ الهلع والرعب في قلوبهما، وفرّ الخادم، ووقع مفوض الشرطة في يد الموريسكيين، بعد أن حصلت مشادة رمى فيها أحد المسلمين المفوض بحجر من نافذة فقتله. أما خادم الكاردينال سيسنيروس، فقد نجا من الموت بأعجوبة حيث قامت فتاة موريسكية بحمايته وخبأته في بيتها.

---

[١] (Elches) علج، جمع علوج: كلمة إسبانية أطلقت على الإسبان الذين أسلموا، ثم أخذتهم الكنيسة ليربوا فيها، ويجبروا على العودة إلى النصرانية ليعادوا إلى ذويهم عيونا، كما كان يفعل بأبناء الموريكسيين.

ويمكن تفسير ذلك من زاويتين:

أولهما: رغبة تلك الموريسكية، بأن لا يساء إلى أهلها وذويها، بـــدم هذيـــن الشـــرطيين فيفتك بهم.

وثانيهما: تعكس الحب الذي كان ما يزال يربط بين كثير من الموريسكيين والإسبان، وفي هاتين دليل صادق على الرغبة الحقيقية لدى الموريسكيين في السلام، على أن لا تنتـــهك الحرمات، ولا تهان الكرامة.

سارت حشود الثائرين نحو بيت الكردينال سيسنيروس في القصبة قـــرب قصـــر الحمراء للقضاء عليه، وهم واثقون أن هذه الحادثة لم تكن إلاّ مـــن تدبـــيره[1] . اختـــار الثائرون اربعين من بينهم بمثابة حكومة موريسكية مستقلة منفصلة عن الاسبان، بعـــد أن أيقنوا أن تعايش هذين الشعبين غدا محالاً، فاحتمى الكردينال سيسنيروس في بيت حـــاكم مدينة غرناطة، الكونت دي تنديا مستغلاً بعض الاحترام والمحبة، بينه وبين الموريسكيين. وأقنعه بإرسال حملة كبيرة لإبادة المنتفضين الموريسكيين، في البيـــازين عـــن آخرهـــم. ووجهت الحملة فعلاً فذهلت لدى رؤيتها كل الطرق المؤدية إلى المنتفضين مغلقة. وقـــد واجهها الموريسكيون بالحجارة والشتائم والمتاريس. وكان جام الغضب ينصـــب بشـــكل خاص على سيسنيروس، فاتبع الكونت تنديا الحملة بحملة ثانية لحماية سيسنيروس واخماد انتفاضة الموريسكيين. وكان قد سبق حملة تنديا قدوم مطران غرناطة الأول الأب تالافيرا الذي كان يحظى باهتمام الموريسكيين إلى ساحة "باب البنود" وزاد في احترامهم له أنه لم يحضر معه سوى شرطيين، فهدأ الموريسكييون امتثالاً لأوامر ممثليهم الأربعين، فحثـــهم تالافيرا على السلام، ووعدهم أن لا يساء إليهم بسبب انتفاضتهم، فثاروا لدى سماع كلمـــة السلام، بيد أن الآربعين أعادوا إليهم السكينة، فسمعوا الحديث إلى أخره ورضوا بكل مـــا جاء به الأب تالافيرا من اتفاقات ــ وكانت دموع الفرح تمـــلاً مآقيـــهم ــ علـــى أن لا يصيبهم أحد بأذى. ثم عقد تنديا وتالافيرا جلسة قررا فيها، أن تحترم الاتفاقيات المبرمـــة بينهما، وأن يعامل الموريسكيون بناء على ذلك بكل احترام[2]. فوعد تنديا أن لا يعاقب أياً

---

(١) - Luis DEL MARMOL CARVAJAL: Historia de la rebelión y castigo de los moriscos del Reino de Granada. Segunda Impresión, Tomo 1. Madrid 1797, Cap. XXVI, pags 116-120.

(٢) - Marcelino Menendez y Pelayo: Historia de España, Cuarta edición, Madrid, 1941, pag. 145.

من هؤلاء المنتفضين، بشرط أن يكونوا رعايا للملكين الكاثوليكيين، ويؤدوا ما عليهم من أتاوة من منتوجاتهم الزراعية. ومن قبل منهم بالديانة النصرانية طوعاً فله أن يحتفظ بعاداته وتقاليده ولغته، ومن أبى تلك الديانة فعليه أن يهاجر من غرناطة.

ولما سمع الأربعون (أفراد الحكومة الموريسكية المنتخبة) بما ذكر، فرّوا إلى البشرات، خشية التنكيل بهم، وخشية مطالبتهم بدم الشرطي (باريو نويفو).

على الرغم من علاقة الود بين تنديا وتالافيرا من جهة، والموريسكيين من جهة اخرى، فقد كان الرجلان يعملان ـ في الدرجة الأولى ـ لمصلحة المسيحية، والاسبان، غير عابئين بما يمكن أن ينال أي موريسكي من عقاب، أو هلاك. ولم يكن ذلك يخفى على الموريسكيين، فكانوا حذرين منهما، لذلك فرّ الأربعون. ولما أحس تنديا بهذا الشعور العدائي المتبادل، قدّم زوجته وأسرته رهائن لدى الموريسكيين، ضماناً لعدم الاعتداء عليهم من جراء انتفاضتهم تلك، فاستقبلهم أهل البيازين بكل احترام، يثبت ذلك الكتاب الذي نشر باسم (ضونيا ماريا دي باتشيقو)[١] ابنة الكونت تنديا، وكانت قد أحبت الموريكسيين، وانتهجت منهجهم في كثير من عاداتها، حتى أثرت في زوجها خوان دي باديا (Juan de Padilla) لدرجة أنه قام بالثورة، وقتل في عهد شارل الخامس، عام ١٥٢١م في موقعة بيالار بالقرب من بلد الوليد.

قرر الملكان الكاثوليكيان بعد انتفاضات البيازين عام ١٤٩٩م تغيير نهج سياستهما في شتى المجالات. فتم تعميد أبناء المسلمين قسراً، وتعميد الكبار منهم، كما أنشأ مجلس الأمناء ديوان مجمع قضاة الايمان الكاثوليكي، أو محاكم التفتيش لمحاكمة الموريسكيين. كما أصدر صاحبا الجلالة أمراً يقضي بمنع أي موريسكي من الدخول إلى مملكة غرناطة، حتى لا يختلط بالموريسكيين من سكانها فيرفع من روحهم المعنوية الثورية[٢].

---

(١) - Carmen Múnoz Roca-Tallada, Vidas de Mujeres Iiustres, Vida de Da María de Pacheco "El Ultimo Comunero" Provenza 219-Barcelona 1948 Capitulo II Pags 13-16.

(٢) - Francisco Bejarano, Cataloge de los documentos del reinado de los reyes católicos, existentes en el archivo municipal de Malaga, Madrid 1961, 20 Julio 1501, Granada, Cop.: Lib. de "prov.", vol. II, fols. 87 v."88v"

ولا بد من أن نشير إلى جماعات من اصل اسباني، دخلت الاسلام عن قناعة تامة، إبان الحكم العربي الاسلامي. وعندما سقطت غرناطة آخر معقل للمسلمين في أيدي الاسبان، اضطر هؤلاء المسلمون الاسبان إلى التنصُّر هرباً من الويلات والاضطهاد الذي كان يُصب على رأس كل مسلم. لكنهم ظلوا في حقيقة أمرهم، يعتنقون الاسلام، ويساعدون المسلمين أنى سنحت الفرصة، ويؤونهم، ويتعاطفون معهم، وقد كان المسلم الإسباني المنصّر قهراً، إذا كشف أمره، أو تبدت حوله أي بادرة تدل على مساعدته للموريسكيين، يعاقب عقاب الموريسكي الذي لا يقل عن الموت المؤكد.

كما حُرم على المسلمين اللجوء إلى الكنائس، نظراً لأن بعض الهاربين منهم كانوا يلجأون إلى الكنائس والأديرة، لعلها تخفف عنهم مصيرهم وهو الموت الذي يلاحقهم، حتى في داخل تلك الأديرة وأقبية تلك الكنائس التي لم تراع حرمتها.

لم يبق أمام هؤلاء الموريسكيين، سوى البحث عن ملاجئ تؤويهم في رؤوس الجبال، ويتخذون منها معاقل لهم، وقواعد استراتيجية عسكرية، يشنون منها على الاسبان غارات متعددة، معتبرين هذه الغارات جهاداً في سبيل الله، ضد من اغتصب أوطانهم، وشردهم منها. وظلوا يمارسون جهادهم، بصبر وجلد وعزيمة قوية، حتى أصبحوا قوة ذات وزن كبير. غير أنهم كانوا يتعرضون – أحياناً – لمطاردة السلطات الإسبانية لهم، حتى إذا ما تم القبض على بعض أفرادهم، قُدموا للمثول أمام ديوان مجمع قضاة الإيمان الكاثوليكي، أو محاكم التفتيش التي كانت توقع بهم أشد العقاب.

وكان موقف النصارى الإسبان العدائي، يزداد حدة ضد هؤلاء الموريسكيين، لدرجة أن الملكين الكاثوليكيين، أصدرا أمراً في غرناطة ٢٠/تموز/١٥٠١م، يحرم على الموريسكيين ممارسة كل ما يمت إلى عقيدتهم ولغتهم بصلة[١]. مما اضطرهم إلى ترك العيش بالقرب من الإسبان، والالتحاق باخوانهم في رؤوس الجبال. ثم اجبروا ـ نتيجة لثورتهم ـ على ارتداء ما يرتديه الاسبان، والتطبع بطابع الاسبان، وعلى ارسال ابنائهم إلى قشتالة رهائن يقتلون إذا ثار آباؤهم.

---

(١) - Arch. gral. central. Inq.; Leg. 544.

ثورة البشرات عام ١٥٠١م

كان من نتائج انتفاضة الموريسكيين في البيازين في غرناطة، أن ثار اخوانهم في منطقة البشرات الواقعة في جنوب غرناطة[١]. فقام الاسبان بإرسال حملة لاخضاع ثورة الموريسكيين في البشرات وكان يقود هذه الحملة كل من غونثالو دي قرطبة، و "بولغار" والكونت تنديا[٢]. قامت هذه الحملة بقتل جميع من في قربة "غويخار ـ سيرا" حيث لم تجد في هذه البلدة سوى النساء والأطفال والكهول. أما الرجال، فقد ذهبوا إلى البشرات لمساعدة اخوانهم الثوار المجاهدين قبل وصول الحملة.

وانتقاماً من ثورة مقاتلي هذه البلدة المسلمين الملتحقين بثوار البشرات، ارتكب رجال الحملة الاسبانية أبشع المذابح، فقتلوا الأطفال الرضع، وأمهاتهم، والشيوخ الطاعنين في السن، دون هوادة أو رحمة. ولم يبقوا على أحد منهم، ولم يكتفوا بهذه الفعلة المنكورة، بل أحرقوا القرية والمنازل على رؤوس أهلها.

تابعت الحملة الاسبانية سيرها إلى أن وصلت "مونديخار" فوجدت أن الموريسكيين قد أحرقوا كنيستها التي كانت في السابق مسجداً للمسلمين. وكان مما أثار سخط الموريسكيين، تحويل مساجدهم إلى كنائس، الأمر الذي جعلهم يتابعون ثورتهم في جميع جهات البشرات. وتجدر الاشارة، إلى أن الملك فرديناند الكاثوليكي، يرافقه القائد الدونثيلس والكونت ثيفونتس، وحاكم "كلترفا" الأكبر وغيرهم من الفرسان والسادة، انضموا إلى الحملة الاسبانية، ودخلوا إلى وادي "لكرين" وحاصروا مدينة لانخرون. واحتلوها بعد حصار قصير، كما احتلوا "تبليته" و "لوشار" وبلداناً أخرى. ثم وصلوا "اوجيفا". ومن ناحية ثانية قام الملك الكاثوليكي بارسال نائبه الكونت نبرة ضون لويس دي فيامونتي في حملة دخلت قونقة، وقد تابع سيره إلى اندرش التي استبسلت في وجهه استبسالاً منقطع النظير. وقد تعرضت الحملة لمقاومة الموريسكيين لها مدافعين عن مدنهم

(١) - Miguel LAFUENTE ALCANTARA: Historia de Granada. Granada 1.846. Tomo IV, Capt. XVIII, Pags 164-166.

(٢) - Alonso de SANTA CRUZ: Crónica de los Reyes Católicos. Edición y estudio por Juan de MATA CARRIAZO. Tomo 1. Sevilla 1.951. Capt. XLIV, Pag. 193.

مثل بلدة (موند يخار)، وأخيراً تم إبرام اتفاقية تعهد فيها الملكـان الكاثوليكيـان بالوفـاء ببعض شروط معاهدة استسلام غرناطة[١].

وبالرغم من ذلك ثار المسلمون (أو الموريسكيون كما تسميهم المصـادر) مـرة أخرى في قلعة "بلفيقا" التي تبعد ٣٠كم شمال غـرب "نيجـر" إلا أن القـائد الدونثيلـس هاجمهم، وأجبرهم على الاستسلام. واستسلمت بعدهم عدة مواقع، من بيها نيجر، ويـبرو اينوخه، وأخيراً تورس، التي أخذ منها مجموعة كبـيرة مـن "الموريسـكيين" وحملـوا اسرى[٢]. واحتل كونت ليرين مناطق أخرى في سلسلة الجبال، وأخذ معه ٣٤ موريسـكياً رهائن، وطلب فدية لهم مقدارها خمسون ألف دوكة*. وأن تسلم خلال أربعة أيام كاستيل دي فرّو وعذره والبنيول[٣] التي كان قد استولى عليها الموريسكيون في السابق. وحـاول الموريسكيون أن يطوقوا قلعة رسانة ولكنهم لم يتمكنوا من ذلك، ولم يسعفهم الحـظ فـي احتلالها، إذ ان الضون بيدرو دي فاخردو الذي كان موجوداً في مدينة المرية خرج علـى رأس جيش كبير باتجاه الهامية الواقعة بين رسانة والبشرات. وتمكن بعد معركـة قتـل وأسر فيها الكثير من الموريسكيين من رفع الحصار عن هذه المنطقة، بعد أن فرّ أكـثر مقاتليها إلى البشرات[٤]. وفي عام ١٥٠٢م كانت الثورات قد اخمدت تقريباً في جميـع أراضي البشرات والمرية، ووادي آش، وبسطة، وجميع المناطق التـي اشـرنا إليـها، واضطهد النصارى الاسبان الموريسكيين اضطهاداً لا نظير له.

وعندما توقف القتال بين الطرفين، قام الاسبان بأعمال اتسمت بالقسوة والعنف ضد موريسكيي الاندلس. ومن أمثلة ذلك؛ ما يقول الباحث الانجليزي (و. برسكوت)[٥] – عنـد اشارته إلى العقاب الذي انزل بمسلمي البشرات – "إن الكونت ليرين نسف مسجداً مليئـاً

---

(١) - Francisco de Paula VILLA-REAL Y VALDIVIA: Lecciones elementales de historia critica de España. 2a edición. Granada 1.899. Lección 57, Pag. 380.

(٢) - Alonso de SANTA CRUZ: Crónica de los Reyes Católicos, Edición y estudio por Juan de MATA CARRIAZO. Tomo I. Sevilla 1.951. Capt. LVIII, Pags. 242-244.

* الدوكة: Ducado عملة ذهبية قديمة اختلفت قيمتها باختلاف العصور، وقد كانت زمناً ما تساوي سـبع بزيتات اسبانية فالمبلغ اذن يساوي (٥٠٠٠٠ × ٧ = ٣٥٠٠٠٠ بزيته).

(٣) - P. Juan MARIANA: Historia General de España. Tomo VI Madrid 1.794. Libro 27, Capt. V. Pags, 298-404.

(٤) - Colección de Documentos Inéditos para la Historia de España, por los sénores marqueses de pidaly de miraflores miguel SALVA, Tomo XXXVI. Madrid 1860, Pags, 443-446.

(٥) - William PRESCOTT: Historia del reinado de los Reyes Católicos. Tomo III. Madrid 1.846. Capt. VII. Pags, 189-190.

بالنساء والأطفال، وكان الاسبان يقترفون أبشع الجرائم، وكانت تراق أنهار من الدماء. وفي أثناء هذه الحروب الأهلية كان النصارى يبتعدون كل البعد عن شعورهم الديني، فاقدين له ولشعورهم، لأن الموريسكيين ــ في نظرهم ــ مجرد عبيد واتباع ورقيق. ولم يتعرض الموريسكيون لهذا العقاب فحسب، بل للابادة التامة". ويضيف الباحث ــ مشيراً إلى الملك الكاثوليكي فرديناند ــ قائلاً:

"استنكف الملك عن الاشتراك في قتل الموريسكيين، ليس رحمة بهم وإنما تكبراً وتغطرساً، لكي لا يلطخ بدماء هذه الوحوش الضارية في البشرات. ولذا تنازل فمنحهم بعض الاعتبار".

وفي عام ١٥٠١م ثار الموريسكيون في (سيرا دي فيلابرس) في مقاطعة المرية سعياً للحصول على بعض مطالبهم، واحترام حقوقهم، ولكن هذه الثورة أخمدها قائد الدونثيلس. وفي سرانيا دي الرندة ثار موريسكيو فيالونقا وموريسكيو سيرا برميخا، وسار ضدهم جيش اسباني كبير، بقيادة (الونسو دي اغيلار) شقيق القائد الكبير (والكونت نيفونتس) والكونت اورينيا ودخلوا سيرا الرندة في شهر مارس أذار عام ١٥٠١م[١]، وعسكروا هناك. ونتيجة للمعارك التي حصلت خسر الجانبان ضحايا كثيرة وكان الفوز إلى جانب الموريسكيين، وكان من الذين قتلوا من الاسبان ضون (الونسو دي اغيلار)[٢]. وباشتداد هذه الثورة، توجه الملك فرديناند شخصياً إلى هناك على رأس جيش جرار، وتمكن من تهدئة أوضاع موريسكيي البشرات، إذ وعدهم بشرفه ودينه بتنفيذ ما جاء بمعاهدات الاستسلام.

وهنا تبرز بوضوح روح عدم الوفاء بالمعاهدات التي تم الاتفاق عليها، والتي وقع عليها الملكان الكاثوليكيان من جانب، وأبو عبد الله الصغير من الجانب الآخر. وبعد خروج أبي عبد الله الصغير بنحو ثماني سنوات أبرمت اتفاقيات ثنائية مع جماعة الموريسكيين، في مملكة غرناطة في بلدة تابيرنس، في ١٨ ايلول عام ١٥٠٠م، بعد

---

(١) - Modesto LAFUENTE ALCANTARA: Historia General de España. Tomo II Barcelona 1879. Capt. XIX, Pags. 357-360.

(٢) - Alfonso GAMIR SANDOVAL: Organización de la defensa de la Costa del Reino de Granada desde su recoquista hasta finales del siglo XVI Granada 1948. Capt. III, Pag. 88.

انتفاضة البيازين بعام واحد. وفي بلدة (بسطة) في ٣٠ أيلول (سبتمبر) من العام نفسه، وفي (اشكر) في ٢٦ شباط (فبراير) ١٥٠١م بعد ثورة البشرات أبرمت اتفاقيات بين الجانبين على الخطوط العريضة التالية:

أولاً: السماح للموريسكيين بالاطلاع على جوانب من الثقافة العربية.
ثانياً: المساواة في المعاملة مع النصارى.
ثالثاً: اخضاع الموريسكيين للأنظمة المدنية والمالية نفسها التي تطبق على النصارى.
رابعاً: السماح للموريسكيين ــ من ضمن الاتفاقيات ــ بالمشاركة في ادارة بعض الشؤون المحلية.
خامساً: السماح لهم باستعمال ثيابهم وحماماتهم لمدة محدودة.

والمتعمق في هذه الاتفاقيات الثنائية يلحظ أنها نجمت بعد انتفاضات، وصراعات حادة بين الموريسكيين، ونكث معاهدة الاستسلام. ويلحظ تعصب الاسبان وتعنتهم، وأجلى صور ذلك تبدو في النقاط التالية:
١. لا يجوز لأي مسلم القيام بتأدية الزكاة، ولا يجوز له أيضاً تطبيق الشريعة الاسلامية في عمليات الذبح.

٢. يحرم على كل مسلم اقتناء الكتب الدينية خاصة المصحف الشريف[١].

وبالرغم من اتخاذ موقف اللامبالاة من نكث معاهدات الاستسلام، رأى الملكان الكاثوليكيان في ثورة الموريسكيين عام ١٥٠١م مبرراً لهما للتخلي والنكث وعدم الوفاء بما جاء في الاتفاقيات المبرمة سابقاً[٢].

---

(١) - Antonio DOMINGUEZ ORTIZ y Bernard VICENT: Historia de los moriscos. Vida y tragedia de una minoria. Revista de Occidente. Madrid 1.978. Capt. I, Pag. 20.
(٢) - Marcelino Menendez y Pelayo, Historia de España. Madrid, 1941. Pag. 145.

وأخيراً وضع الموريسكيون المغلوبون على أمرهم أمام أحد خيارين هما: التنصير القسري كما مرّ معنا، أو التهجير إلى خارج اسبانيا.

كما فرض هذا الخيار الصعب على مدجني قشتالة وليون في ٢٠ شباط عام ١٥٠٢م(١).

ونتج عن هذه الأحداث، تحويل مسجد غرناطة إلى كنيسة كبرى، وتحويل مسجد البيازين إلى كنيسة، ومدرسة اسمها كنيسة المخلص. وفي مدينة غرناطة وضواحيها، نصر قسراً أكثر من خمسين ألف شخص، وحولت جميع المساجد إلى كنائس(٢). كما أجبر مسلمو الاندلس على نبذ ملابسهم العربية الزاهية، ولبس السراويل والقبعات، وعلى ترك لغتهم وتقاليدهم ومراسمهم وأسمائهم العربية. وحملوا على اعتناق الديانة المسيحية، واستعمال اللغة والتقاليد والأسماء الاسبانية.

---

(١) - Marcelino MENENDEZ y PELAYO: Historia de los heterodóxos espanoles. 2a Edición. Tomo V. Madrid 1.928. Capt. III. Pag. 324.

(٢) - Juan de MATA CARRIAZO: Historia de la Casa Real de Granada, en Miscelánea de Estudios Arabes y Hebraicos. Universidad de Granand. Vol. VI (1.957). pags. 55-56.

- Luis del MARMOL CARVAJAL: Historia de la rebelión y castigo de los moriscos del Reino de Granada. 2a impresión. Tomo 1. Madrid 1.797. Libro I, Capt. XXIII, Pag. 112.

- Alonso de SANTA CRUZ: Crónica de los Reyes Catolicos. Edición y estudio por Juan de MATA CARRIAZO. Tomo I. Sevilla 1.951. Capt. XLIV. Pagina 193.

الموريسكيون يمارسون الطقوس الإسلامية سراً

كان من نتائج ثورة البشرات، ان تم تتصير معظم سكان تلك المنطقة ومن ثمّ تتصير مسلمي المرية ووادي آش وبسطة وأماكن أخرى من مملكة غرناطة، وذلك في عام ١٥٠١ للميلاد. أما في العام الذي يليه ١٥٠٢م، فقد انزلت أشد العقوبات الصارمة بحق الموريسكيين في كل من بلفيقا ونيجر وقويخر... الخ لأن أكثرية قاطني هذه المدن كانوا يقاومون التنصير القسري مقاومة شديدة لذلك تعرضوا للبطش ولا سيما بعد أن تم قمع ثوراتهم، وارتكبت بحقهم الجرائم البشعة مثل سبي النساء وقتل الاطفال، أو وضعهم في احضان الكنيسة، وما شابه ذلك من الأعمال البربرية. وهذا يبين مدى اتساع نفوذ البابا وتأثيره على الملكين الكاثوليكيين.

اختار المدجنون في أرغون وبلنسية وغرناطة الدخول في النصرانية ظاهرياً، حتى يبقوا في ديارهم وأوطانهم خشية فقدانها إلى الأبد. ورحلت بعض المجموعات إلى خارج البلاد[١]، وخلال عام ١٥٠٢م بدأت في الظهور رغبة الاسبان في إخراج المسلمين من شبه جزيرة ايبيريا، ووصلت هذه الرغبة أوجها بعد مضي قرن من الزمان.

ظلت معاملة الاسبان للمسلمين تسير من سيئ إلى أسوأ، وأرسل الملكان الكاثوليكيان أمراً إلى حاكم قرطبة، يطلبان منه اتخاذ قرار حازم يقضي بقتل المسلمين الرافضين للتنصير، أو طردهم خارج الأندلس. واستمر منذ ذلك الحين، صدور المراسيم الملكية، بإقصاء المسلمين عن وطنهم شبه جزيرة ايبيريا[٢].

---

(١) - A. DOMINGUEZ ORTIZ: Los cristianos nuevos, notas para el estudio de una clase social. Boletín de la Universidad de Granada. Año XXI (febrero-abril 1.949). Vol. XI, pag. 252.

(٢) - Miguel Angel Orti BELMONTE: El fuero de Córdoba y las clases sociales en la ciudad. Mudéjares y judíos en la Edad Media, en Boletin de la-Real Academia de Cordoba de Ciencias, Bellas Letras y Nobles Artes. Año XXV (enero-junio, 1.954), No. 70, pags 43-44.

- GARCIA GOMEZ: Fragmento de la época sobre noticias de los reyes nazaritas o capitulación de Granada o emigración de los andaluces a Marruecos, al-Andalus VII. Madrid-Granada 1.942, pags 494-498.

كما صدر في العام نفسه قرار ملكي يحرم على مسلمي قشتالة الاتصال بمسلمي مملكة غرناطة، وبعدها بقليل في عام ١٥٠٢م نشر في اشبيلية قرار آخر، بتنصير مسلمي قشتالة وليون أو اخراجهم بالقوة.

ولم تقتصر هذه الاجراءات على المسلمين، بل تعدتهم إلى الطوائف الأخرى كاليهودية التي اتخذت بحقها الأساليب نفسها(١).

ومنذ عام ١٥٠٢م لم يبق في اسبانيا، سوى المدجنين الذين نصروا بالقوة. أما فيما يتعلق بموريسكيي الأندلس الذين اخرجوا من ديارهم بالقوة لأنهم رفضوا التنصير القسري، فنذكر هنا فقرة لأحد المؤرخين تبدو لنا ذات مغزى(٢).

كان المسلمون الذين أخرجوا من ديارهم في الاندلس، يشكلون خطراً كبيراً على أمن الشواطئ الاسبانية وعلى الملاحة في غرب البحر الأبيض المتوسط بصورة عامة، وقد كثرت ــ في تلك الفترة ــ هجمات موريسكيي الاندلس، وازدادت حجماً، وزرعت الرعب في قلوب الاسبان، وكانوا يأسرون من سكان الشواطئ مقابل الفدية بأخوانهم الأسرى لدى الاسبان. كل هذا نتيجة لسياسة اسبانيا العدوانية إزاء موريسكيي الأندلس.

كان المؤرخون الاسبان يطلقون على هؤلاء الاندلسيين لفظ "قراصنة" وكذلك فعل سائر الأوروبيين، خاصة عندما التحق هؤلاء الاندلسيين باخوانهم المغربيين والجزائريين والتونسيين، حتى صارت سفنهم تصل وتهاجم شمال ايرلندا وغربي فرنسا وايطاليا بالاضافة للشواطئ الاسبانية، حتى غدت أوروبا خاصة اسبانيا، تحسب لهؤلاء المجاهدين ألف حساب.

---

(١) - William PRESCOTT: Historia del Reinado de los Reyes Católicos. Tomo III. Capt. VII. pags 206-207.

(٢) - Jose Ma DOUSSINAGUE: La politica internacional de Fernando el Católico, Espasa-Calpe S.A. Madrid 1.944, Capt. II. pags 53-54.

أما كان من الأجدى أن يعزو هؤلاء المؤرخون الغربيون أسباب غارات هـؤلاء إلى مأساتهم التي حلت بهم في فقدان بلادهم، وأوطانهم، وتخريب منازلـهم، ومصـادرة ممتلكاتهم، وسبي نسائهم، وقتل أطفالهم، وتنصيرهم، وشتى الجرائـم الوحشـية السـابقة الذكر؟ فأي الفريقين أولى بإلصاق لفظ القرصنة به؟ وهل كانت رغبة المؤرخين الغربيين، تأييد ما حصل خلال الفترة ١٤٩٩ـ١٥٠١م من تنصير أكثر من خمسين ألف نسمة مـن المسلمين؟[١]. فقد لاقوا من الأهوال والعذاب، وتحملوا ما تعجـز عـن حملـه النفـوس البشرية، وتأباه الكرامة، وترفضه كل حقوق الانسان. ثم أكانوا يريدون منهم بعد ذلك كله أن يقيموا علاقة ودية مع قاتلي ابنائهم، وسابي نسائهم، وطارديهم؟ حقاً لقـد نحـا هـذا المنحى كثيرون، وطغوا في أحكامهم، ولم ينتهجوا الطريق العلمي الموضوعي الصحيـح، والمنطق السليم البعيد عن التعصب لجانب ما على حساب الحقيقة والتاريخ.

وإذا ما تتبعنا المراجع والمصادر والوثائق والمخطوطات الاسبانية، لاحظنا أنه من النادر، أو في حكم المستحيل، أن يتولى موريسكي منصباً أو عملاً ذا أهمية تذكر، إلا من لا تخفى حاله على الباحثين، ممن تاجر بدينه وشرفه، فمنح لخيانته تلك، بعض المراكـز ومنهم:

١. محمد الدردوش الذي عمد وتسمى بعدئذ باسم فرناندو المالقي، فمنح منصب حـاكم مدينة مالقة[٢].
٢. محمد الغازي الذي سمي فيما بعد، ضون الونسو سيرانو فمنح مركـز سـكرتير وكاتب شرعي لمدينة مالقة[٣].
٣. ابنان لأبي الحسن علي هما: سعد ونصر اللذان تسميا فيما بعـد ضـون فرنـاندو وضون خوان دي غرانادا على الترتيب. وأمراء آخرون مـن غرناطـة، تنصـروا فزوجهم الملكان الكاثوليكيان زوجـات إسـبانيات نصرانيـات، ومنحـاهم مراكـز تشريفية[٤].

---

(١) - P. fray HENRIQUE FLOREZ: Memorias de las Reynas Católicas, Historia genealógica de la casa Real de Castilla y de León. 2 a edic. Tomo II. Madrid 1.770, pag. 842.

(٢) - Francisco Bejarano, Documentos Del Reinado De Los Reyes Católicos, Existentes en el Archivo Municipal de Malaga Madrid 1961. 30 noviembre 1500 Granada.

(٣) - Cop.: Lib. de "prov.", Vol. II, fols. 22 yV°. 15 Febrero 1501 Granada. Cop.: Lib. de "prov.", Vol. II, fols, 73 V°. 74.

(٤) دكتور محمد عبده حتامله، محنة مسلمي الأندلس عشية سقوط غرناطة وبعدهـا، الطبعـة الأولـى، عمان ١٣٩٧هـ/١٩٧٧م، صفحة ٨٤.

٤. أحمد عليلش الذي كان يعمل جاسوساً للملكين الكاثوليكيين[١].

كانت حياة هؤلاء الموريسكيين مرتبطة بشكل عام بفلاحة الأرض ورعي الماشية، وكانوا يتولون أعمالاً قليلة الأهمية، كالبناء وصناعة الأحذية...الخ[٢]. وعند اندماجهم بالنصارى، شغل قليل منهم أعمالاً ذات أهمية، لأن النصارى الأسبان لا يجيدونها، ولهذا تمسك النصارى الاسبان بهؤلاء الأشخاص. وإذا تذمر بعضهم، فإن محاكم التفتيش كانت تنزل به أقصى العقوبات الجسدية، ويضعونه تحت الإقامة الجبرية، ليزاول لهم الأعمال المطلوبة. ففي غرناطة عمد المسؤولون إلى تسخير اثني عشر شخصاً من الموريسكيين من صناع السواقي، للعمل في أقنية الماء في الحمراء وجنة العريف والمجلس الملكي والبيوت الخاصة، وهي أعمال في غاية من الدقة والفن، ويصعب على الاسبان اتقانها. كما طلب من اثني عشر شخصاً آخرين، ممن يجيدون صناعة الجلود والحرير، ليقدموا الخدمات الاجبارية في صناعة الحرير[٣].

وبعد عام ١٥٠٢م، كان من تبقى من المسلمين الذين غلبوا على أمرهم، ودخلوا الديانة النصرانية مكرهين، يتظاهرون بقبولهم لهذا الدين الجديد[٤]. فكانوا يترددون على الكنائس، والأديرة، لكي يشاهدهم الاسبان، ويرضوا عنهم لقبولهم هذه العقيدة الجديدة المفروضة عليهم. لكنهم – في حقيقة الأمر – لم يقبلوا بالنصرانية عن الاسلام بديلاً، إلا في ظاهر الأمر. وقد استمروا في ممارستهم لشعائر دينهم الأصلي، سراً أيام الجمعة. وكانوا يؤدون فرائض الصلاة داخل بيوتهم بحذر شديد، وكانوا يغلقون على أنفسهم بيوتهم أيام الآحاد، موهمين الطرف الآخر بأنهم ذهبوا إلى الكنيسة.

---

(١) - Luis Seco De Lucena Paredes, El Musulman Ahmad Ulaylas, Espia de los Reyes Católicos en La Corte-Granadina, Miscelánea de Estudios Arabes y Hebraícos Año IX N°. 9, Universidad de Granada 1960.

(٢) - Iliberis. Revista de estudios granadinos. Director: Gonzalo DE LA TORRE. Granada, mayo-junio 1.954 N°. 27, pags. 115-117.

(٣) - Archivo de Simancas, Estado Leg. 227: La ciudad de Granada a S. M., 24-1-1610; leg. 228: minuta de la sesion del Consejo de Estado, 6-2- 1.610; y leg. 227: Testimonio de los moriscos que quedaron en Granada para cáneros, tintoreros y conocedores. Cadiz 4-4-1.610.

(٤) - Pascual BORONAT Y BARRACHINA? PBRO: Los moriscos españoles y su expulsión, estudio histórico-crítico. Tomo I. Valenica 1.901, Capt. IV, pag. 116.

هذا بالاضافة إلى أنهم عندما كان يتم تعميد أطفالهم في الكنائس، كانوا يبادرون إلى غسلهم، لإزالة أثار الصليب عنهم عند وصولهم إلى البيوت مباشرة.

وكانوا يعقدون حفلات الزواج على الطريقة الاسلامية سراً بعدما يعقدونها في الكنائس أمام مشهد عام، يحضره الكهنة والرهبان. نضيف إلى ذلك أنهم كانوا يلقنون الديانة النصرانية، وكانت الكنيسة تصدر بحق من يبدي رفضاً لذلك يقضي بأن يظل دون زواج مدى الحياة[١].

ونظراً للصفة السرية المطلقة التي تمارس بها الشعائر الاسلامية في هذه الظروف الحرجة، فقد أصبحت تعاليم الاسلام وممارساته تقاليد موروثة، يتوارثها الأبناء عن الآباء جيلاً بعد جيل، في حلقات مغلقة، لها صفة المجالس السرية.

يشير إلى ذلك الباحث (م. غارسيا ارينال)[٢] ، ويذكر الدور الذي لعبته المرأة المسلمة بقيامها بدور الملقن والحارس الأمين، في نقل تعاليم الاسلام إلى أبنائها. كان الدين الاسلامي يلقن للأطفال عندما كانوا يعودون لأسرهم من الكنائس، ويبدأ تعليمهم أصول عقيدتهم الاسلامية من الثالثة عشرة حتى الخامسة عشرة، خشية من زلة اللسان، أو البوح بأمرهم لدى النصارى الذين لقنوهم النصرانية، ووضعوهم عيوناً على أبائهم. وعلى ذلك نقلت عدة وشايات فكانت مأساة مروعة للأسر التي يبلغ عنها ابناؤها أنفسهم. وبعضهم ساعده الحظ على اقناع أولاده بتعاليم الاسلام، بعد أن ابتعدوا عنه فترة زمنية تدربوا وتعلموا خلالها في أحضان الكنيسة تعاليم النصرانية.

وأرى من واجبي أن أوضح للقارئ الكريم، بأن مجموعات كبيرة من هؤلاء الأطفال (من أبناء المسلمين أصلاً) لم يتم إرجاعهم إلى أهاليهم من الكنائس، وإنما تم تعيينهم رهباناً وقساوسة، وظلوا في ظلال الكنائس والأديرة يدعون إلى النصرانية ويبشرون بتعاليمها. وهؤلاء فاقوا النصارى الأصليين الذين كانوا يكرهون الاسلام

---

(١) - Luis DEL MARMOL CARVAJAL: Historia de la rebelion y castigo de los moriscos del reino de Granada. Madrid 1.797. Tomo I. Lib. II, Capt. I, pags. 128-129.

(٢) - Mercedes GARCIA ARENAL: Los moriscos y la Inquisición. Procesos del Tribunal de Cuenca. Madrid 1.978. pag 25.

ويمقتون تعاليمه، في تعصبهم وكراهيتهم لدين ابائهم وأجدادهم من حيث لا يشعرون. بعكس أولاد اليهود الذين أخذوا من ذويهم، وعوملوا بالأساليب نفسها التي طبقت على أبناء المسلمين في تلقينهم النصرانية. ومنهم من وصل إلى رتبة الكردينال، والأسقف، والراهب، والقومس، ورغم ذلك كله كان يزداد إيماناً بيهوديته، ويتمسك بها سراً، بل يتعاطف مع العائلات اليهودية التي نصرت قسراً في ظاهر الأمر.

وتوضيحاً لهذه الظاهرة، ظاهرة أن ابناء اليهود ظلوا على ولائهم ليهوديتهم، بينما نجد عكس ذلك عند أبناء المسلمين، أن معظم الرهبان والقساوسة والقمامسة الذين كانوا يشرفون على تدريس الأطفال المسلمين واليهود معاً، وتلقينهم النصرانية، هم من أصل يهودي، وان تزيوا بزي الرهبان والقساوسة من حيث الشكل الظاهر[1]. وهذا الأمر جعل هؤلاء القساوسة والرهبان الذين هم من أصل يهودي ــ كما ذكرنا ــ يتعاطفون مع أبناء طوائفهم اليهودية، ولذلك حافظوا عليهم ولم يلقنوهم تعاليم النصرانية بإخلاص. بينما كانت تعاليمهم لأبناء المسلمين، تهدف بالدرجة الأولى إلى زراعة الحقد والبغضاء والتعصب الأعمى، ضد كل مسلم وضد كل تعاليم الإسلام. ومن هنا كان تعصب هؤلاء الأطفال المسلمين في الأصل الذين تخرجوا من هذه الكنائس، اشد من تعصب النصارى أنفسهم.

يبدو أن محور سلسلة المشكلات الموريسكية لمسلمي الأندلس تعود في جذورها الأصلية إلى الصراع العقائدي بعد أن زالت دولة الإسلام، وأفلت شمسها في ذلك الفردوس المفقود، إذ كان الاضطهاد الرهيب الذي مارسه النصارى ضد المسلمين هنالك، يعود إلى تعاليم الكنيسة، وآراء رجالها في ذلك العصر. وكان هذا هو الدور ذاته الذي لعبته محاكم التفتيش في إسبانيا. شعر المسلمون أن هناك مخططاً صليبياً رهيباً، على شكل سلسلة من المؤامرات والدسائس التي تستهدف أول ما تستهدفه طمس آخر معالم الحضارة الإسلامية من الناحية الدينية والثقافية والاجتماعية، بعد ما قضي عليها من الناحية السياسية. وحاول هؤلاء الموريسكيون ــ بكل ما لديهم من قوة ــ إنقاذ أنفسهم وعقيدتهم التي كانت تستهدفها السياسة الإسبانية. ولذا اكتسب الدين باعتباره أحد مقومات

---

[1] يدعم هذا التوضيح، أن أسراً عديدة ما زالت تعيش في إسبانيا ومليلة وسبته حتى اليوم، وهي تطالب دولة إسبانيا بإقامة روابط مع الكيان الصهيوني في إسرائيل، والاعتراف بتلك الدولة، وهذا يشعر بجذورهم اليهودية، وبتعاطفهم، وان اظهروا النصرانية.

الوجود المميز لهم عن غيرهم، أهمية كبرى في هذا الصراع العقائدي، لكونه معقلاً يلجأون إليه، حتى لا تذوب معالم شخصيتهم في التركيبة الاجتماعية الجديدة[١].

وكان السبب الرئيسي وراء أي نشاط اسباني عدواني ضد الموريسكيين، هو السبب السياسي. ومن هنا، برزت في أحيان كثيرة، التناقضات المتعددة والميول المتعاكسة في صفوف النصارى، في اتخاذ خططهم بشأن الوجود الاسلامي في اسبانيا. والنزاع ــ كما يقول المؤلف (غارسيا ــ ارينال)[٢] ــ "ليس سببه الناحية الدينية، فحسب بل جميع النواحي السياسية والاجتماعية والثقافية"، أي أنها مشكلة التمازج من جميع وجوهه. ولكي تتجلى روح العداء الراسخ في نفوس هؤلاء الذين حلفوا فنكثوا، نأخذ نموذجاً من كلام الملكة ايسابيلا والملك فرديناند الكاثوليكي:

١. ماتت الملكة ايسابيلا وهي توصي "بمتابعة الحرب ضد اعداء الايمان المسيحي" وتقصد الموريسكيين.

Murió La Reina Isabel Encargando La Pelea contra Los Infieles Enemigos de La fe.

٢. مات الملك فرديناند الكاثوليكي عام ١٥١٦م، وهو يوصي أولاده قائلاً "عليكم أن تعملوا على تحطيم اتباع الديانة المحمدية" ويقصد استئصال الموريسكيين من جذورهم[٣].

Murió D. Fernando en 1516 diciendo á sus hijos que procuraran La destrucción de la Secta Mahometana.

---

(١) - Rafael ALTAMIRA: Manual de Historia de España. Buenos Aires 1.946. pag 400.

(٢) - Mercedes GARCIA ARENAL: Los moriscos y la Inquisición. Procesos del Tribunal de Cuenca. Madrid 1.978. Pags. 116-117.

(٣) - Pascual Boronat y Barrachina, Pbro. Los Moriscos Españoles y su expulsión Tomo I Valencia 1901, pags. 116-117.

إحصائية بالموريسكيين أثناء حكم الملكين الكاثوليكيين

هناك حقيقة أولية يجب أخذها بالاعتبار وهي تعدد العقائد الدينية عند السكان في شبه الجزيرة الايبيرية في أثناء حكم الملكين الكاثوليكيين اللذين علقت عليهما الكنيسة أمالها، في الوصول إلى ضالتها المنشودة التي هي تحقيق الوحدة السياسية. لقد كانت كل مقاطعة من مقاطعات قشتالة والأندلس وارغون أيام المسلمين تتألف في الواقع من عدة مدن رئيسة، وكان لكل مدينة كنائسها ومساجدها ومعابدها اليهودية، إذ حصلت كل ملة على حرية الاعتقاد وإقامة المعابد، وضمن هذا الإطار شكل المسلمون سكان الريف في الأندلس الشرقية وبلنسية وأرغون. وكانوا جزءاً لا يتجزأ من التجمعات السكانية في المدن الرئيسة(١).

يوجد لدى المؤرخين معلومات مهمة حول سكان مملكة غرناطة من القرن الخامس عشر الميلادي في أثناء حكم الملكين الكاثوليكيين تنحصر فيما يأتي(٢):

بلغ سكان غرناطة العاصمة خمسين ألف نسمة، وتليها في الأهمية مالقة التي كان يقطنها عشرون ألف نسمة، وكان في بلش/مالقة عشرة آلاف نسمة عند فتحها.

وفي المدن الأخرى مثل وادي آش Guadix، ولوشة Loja، وبسطة Baza، ورنده Ronda كان يعيش ما بين خمسة آلاف إلى عشرة آلاف نسمة. وكانت مربلة Marbella قبل عام ١٤٨٥م، تعد ثلاثة آلاف نسمة تقريباً، والحامة Alhama حوالي خمسة آلاف نسمة. ودكوين Coin ثلاث آلاف نسمة.

ويمثل الجدول التالي عدد الأسر في كل من القرى الصغيرة التابعة لغوطة غرناطة:

---

(١) - C. PEREZ BUSTAMANTE: Compendio de Historia de España, 5 Edic. Madrid 1.952 Capt. XXV. pags. 205-206.

(٢) - El Marqués De Lozoya: Los Origenes del Imperio. La España de Fernando e Isabel. Madrid 1.939. Miguel Angel LADERO QUESADA: Datos demográficos sobre los musulmanes de Granada Y Castilla en el Siglo XV. Anuario de Estudios Medievales 8, Barcelona 1.972-1.973. Pags. 481-490.

المنطقة		عدد الأسر
اليورة	Illora	٢٠٠ أسرة
موكلين	Moclin	٨٠ أسرة
قلنبيرة	Colomera	٨٠ أسرة
شنتفي	Santa Fe	٢٠٠ أسرة

أما عدد العائلات الصغيرة الواقعة جنوب غرب تدمير فكانت كما يلي:

المنطقة		عدد الأسر
بلش الأبيض	Velez Blanco	٦٠٠ أسرة
بلش الأشقر	Velez Rubio	٢٦٠ أسرة

ولكننا ما زلنا نفتقر إلى معلومات حول مدن المرية Almeria ومدينة المنكب Almunecar وشلوبينية Salobrena ومطريل Motrill ومواقع أخرى صغيرة محصنة عام ١٥٣٠م.

وفي عام ١٤٩٠م كان في البشرات Alpujarra (٩٨٠٠) أسرة موزعين على النحو التالي:

المنطقة		عدد الأسر
حصن اجيجر	Taha de Ugijar	١٠٠٠ أسرة
حصن لوتشار	Taha de Luchar	٧٠٠ أسرة
حصن لكرين	Taha de Lecrin	٢٠٠٠ أسرة
حصن مرشانة	Taha de Marchena	٨٠٠ أسرة
إقليم فريرة	Tahas de Ferreira	٦٠٠ أسرة
وحصن بقيرة	Y Poqueira	٦٠٠ أسرة

حصن سوهيل	Taha de Cueihel	٣٠٠ أسرة
حصن شبيلش	Taha de Subilis	١٣٠٠ أسرة
حصن اندرش	Taha de Andarax	١٢٠٠ أسرة
حصن ارجبة	Taha de Orgiva	٦٠٠ أسرة
اقليم بلذوذ	Tahas de Alboloduy	٦٠٠ أسرة
وحصن دلاية	Y Dalias	٦٠٠ أسرة
حصن برجة	Taha de Berja	٧٠٠ أسرة

وفي سلسلة جبال منتميش Bentomiz كان يوجد ألف أسرة، أما المناطق الأخـــرى التابعة لها فكانت أعداد الأسر فيها كما يلي:

المنطقة		عدد الأسر
غور (ارباب العائلات)	Gor (cabezas de familia)	٣٠ أسرة
لبروثينا	Labrucena	٥٠ أسرة
اغراينا	Agrayna	٢٠ أسرة
قـــــــرت	Cort	٢٠ أسرة
بياس	Vayas	٥٠ أسرة
كوفولس	Coculos	٦٠ أسرة
البونيين	Albunen	١٠٠ أسرة
ارغيغيني	Argigueyni	١٠٠ أسرة
النديا	Alendia	٧٠ أسرة
شريش والقصر	Jerez y Alcazar	٤٠٠ أسرة
لنتيرة	Lanteira	٢٠٠ أسرة
وينيجة	Hueneja	٢٠٠ أسرة
الكيفي	Alquife	٨٠ أسرة
القلهرة	La Calahorra	١٠٠ أسرة

دولار	Dolar	١٠٠ أسرة
بيره	Vera	٧٠٠ أسرة
فريلة	Freila	٣٠ أسرة
غاليرا	Galera	٢٠٠ أسرة
قستييجار	Castillejar	٣٠ أسرة
قويار	Cullar	١٠٠ أسرة
اورثي	Orce	١٠٠ أسرة
سرون	Seron	٣٠٠ أسرة
تيجولا	Tijola	١٥٠ أسرة
بقارس	Vacares	١٠٠ أسرة
سيفيرا، سينيس	Seveira, Senes	
بلفيقا، قسترو، واولولا	Castro y Olula	٢٠٠ أسرة
سلسلة فيلابرس	Sierra de Filabres	٤٠٠ أسرة
الديره	Aldeire	١٥٠ أسرة
فريره	Ferreira	٨٠ أسرة

أما في أويا والشرقية التابعة لمالقة، فكان عدد الأسر التي يتكون منها السكان ما يلي حسب ما ورد في احصائية ابرشية مالقه عام ١٤٩٢م:

المنطقة		عدد الأسر
قصر بونيلة	Casarabonela	٢٤٠ أسرة
موندا	Monda	١٥٣ أسرة
يونكيره	Yunquera	٥٠ أسرة
دكوين	Coin	١٠ أسر
الموشية	Almojia	٧٥ أسرة
قمارش	Comares	٩٨ أسرة

بنا مرغوسة	Benamargosa	٤٧ أسرة
البركي	Alborque	١٠٠ أسرة
بيناكي	Benaque	٢١ أسرة
تشلتش	Chilches	١٩ أسرة
تلش	Tolox	١٩٥ أسرة
غوارو	Guaro	٦٥ أسرة
شوبريكي وبريره	Xubrique Pereira	١٤ أسرة
كاسابلمه	Casapalma	٢٥ أسرة
قته	Cata	٦٩ أسرة
المتشرياتي	Almacharayate	٦٤ أسرة
ايلش	Olias	٨١ أسرة
متشرابية	Macharabiaya	٣٥ أسرة
موكلينيجو	Moclinejo	٣٤ أسرة
بناغلبون	Benagalbon	١٣ أسرة

أما في منطقة مربلة مع اقطاعياتها، فكان توزيع الأسر كما يلي:

المنطقة		عدد الأسر
اوشين	Ojen	١٥٠ أسرة
تراموروس	Tramoros	٦٣ أسرة
اربوتون	Arboton	٢٥ أسرة
دايدين	Daidin	١٠٠ أسرة
استان	Istan	٩٤ أسرة
المتشار	Almechar	٣٥ أسرة
بنا حفص	Benahavis	١٠٠ أسرة

وفي منطقة بلش مالقة مع اقطاعياتها كان توزيع الأسر كما يلي:

المنطقة		عدد الأسر
فريسينيانة	Frexiñana	١٤٢ أسرة
بريانة	Periana	٧٢ أسرة
قانيس دي البيدا	Canillas de Albaida	٧٤ أسرة
ارنبلة	Aranbela	٢٩ أسرة
ماروعزيتار	Maroazeytar	١٢٦ أسرة
الغروليس	Algarroles	٣٦ أسرة
نرجه	Nerja	١٢٢ أسرة
بترسيس	Patarsis	٥٧ أسرة
غايله	Gahaila	٢٢ أسرة
قرسين	Carsin	٢٠ أسرة
بداوبيل	Padaupil	١٥ أسرة
ارينس	Arenas	٣٩ أسرة
دميثلوس	Demayzlos	٣١ أسرة
لوتين	Lautyn	٨٠ أسرة
قمبته	Competa	٨٨ أسرة
التش	Alches	٥٢ أسرة
رابيرتي	Rabirte	١١ أسرة
اثناتي	Yznate	٥٥ أسرة
سيديلية	Sedelia	٨٤ أسرة
صالة لنغة	Salalonga	٤٧ أسرة
لاغوس	Lagos	٦٧ أسرة
الميتار	Almayatar	٢٠٦ أسرة
بنا مقرة	Benamocarra	٥٦ أسرة
سنتيليان	Santilian	١٢ أسرة
سلادس وبنيس قبرة	Salades y Benis cabra	٥٤ أسرة

ويروي لويس ديل مارمول كربخال[١]، أنه اثناء ثورة البيازين (١٤٩٩م) كان هذا الحي التابع لغرناطة، يسكنه وحده عشرة آلاف أسرة أي خمسون ألف موريسكي.

وفي منطقة رندة وغوثين مع إقطاعياتها كان التوزيع كالتالي:

المنطقة		عدد الأسر ١٤٩٢م	عدد الأسر ١٥٠١م
مونتجاكي	Montejaque	١٢٠ أسرة	
غيندثرة	Guindazara	٥٩ أسرة	١٢ أسرة
بنا اوشان	Benaojan	١٥٧ أسرة	
بوسبيطره	Pospitra	٣٣ أسرة	
بنا حيون	Benahayon	٣٥ أسرة	١٢ أسرة
براوته	Parauta	٩٦ أسرة	١١ أسرة
مطرون	Motron	٣٥ أسرة	
الغتوثين	Algatucin	٣٣ أسرة	١٢ أسرة
بنا حثين	Benahaben	١٨ أسرة	
غوثين	Gaucin	٣١ أسرة	١٢ أسرة
الارشتين	Alarxatyn	٧٥ أسرة	
شسقر	Xascar	٥٠ أسرة	٤٠ أسرة
بنا حنين	Benahazin	١٣ أسرة	
بشرة	Puxerra	٤٨ أسرة	١٦ أسرة
بنا عرابة	Benarraba	٦٤ أسرة	١٠ أسر
بنا معاوية	Benamavia	٥٩ أسرة	
قرتس	Cortes	٣٦ أسرة	
بني شريش	Benixeris	١٣ أسرة	٧ أسر
بني توبين	Benitaubin	٢٤ أسرة	

(١) - Luis DEL MARMOL CARVAJAL: Historia de la rebelión y castigo de los moriscos del Reino de Granada. Madrid 1.797. Libro IV, capt. XXX. pag 226.

تشوقر	Chucar	٤٥ أسرة	
بنالورية	Benalauria	٤٥ أسرة	٢٨ أسرة
ابا لشطر	Abalastar	٢٧ أسرة	
شميرة	Ximera	٤٥ أسرة	
بنديري	Pandeyri	٥٧ أسرة	١٩ أسرة
قرية غيمة	Cariatagima	٦٨ أسرة	١٨ أسرة
اغوليجا	Ygualeja	٩٩ أسرة	١١ أسرة
قناين	Canayan	٣٦ أسرة	
بنا دليد	Benadalid	٨٥ أسرة	
فرشان	Faraxan	٦٠ أسرة	٣٣ أسرة

أما فيما يتعلق بالمنصرين قسرا في منطقة نهر المرية واقليم مرشانة عام ١٥٠٠م فإن عددهم كان كما يلي:

المنطقة	عدد الأسر
منطقة نهر المرية	٤٨٨٣ شخصا
اقليم مرشانة	٢٣٤٧ شخصا

والخلاصة هي أن عدد سكان مملكة غرناطة يقدر بعشرة آلاف شخص في المنطقة الريفية، ومائة وخمسين ألفا في المنطقة الحضرية. وإذا ما أخذنا بعين الاعتبار قلة المعلومات بخصوص بعض الأماكن السكانية فإننا نستطيع أن نقدر عدد السكان بثلاثمائة ألف نسمة، تتركز أغلبيتهم في المنطقة التي كانت تشمل وادي لكرين والبشوات وأقاليم المرية وبسطة ووادي آش ووادي نهر المنثورة. وكان عدد سكان غوطة غرناطة كثيرا، ولو أنهم أقل عددا من المذكورين آنفا. وقد تجمع هؤلاء في الجزء الغربي لمملكة غرناطة الواقعة ما بين لوشه ومربلة، باستثناء سلسلة جبال بنتوميث وجبال رنده[١].

(١) - Antonio Dominguez ORTIZ Y Bernard VINCENT: Historia de los moriscos. Vida y tragedia de una minoría, Edit, Revista de Occidente. Madrid 1.978. Capt. IV, pags. 79-80.

وبالنسبة لمدجني قشتالة في أواخر القرن الخامس عشر الميلادي أي من عام ١٤٩٥م إلى ١٥٠١م فلدينا معلومات عن عدد أرباب العائلات المسلمة الموجودة بين الاسبان المسيحيين على النحو التالي:

المنطقة		عدد الأسر					
		١٤٩٥	١٤٩٦	١٤٩٨	١٤٩٩	١٥٠٠	١٥٠١
برغش	Burgos	٩٣	٨١	٧٠	٦٤	٦٥	٦٥
بلازيا	Palencia	١٨	٢٨	٢٤	٢٢	٢٣	٢٤
مدينة ديل كامبو	Medina del Campo			١١	١١	١٥	١٤
بلد الوليد	Valladolid	١٠٣	١١٠	١٢٢	١٣٧	١٤١	١٤١
ابله	Avila	٢٥١	١٥٠	١٧٧	٢٣١	٢٣٧	٢٤٢
ارفله	Arevalo	١٠٧	١١٦	١٢٨	١٣٦	١٣٧	١٤٠
شقوبية	Segovia	٥٦		٥٨	٧٠	٦٩	٥٥
قويار وسبلبده	Guellary, Sepulveda				٧	١٠	١١

المنطقة		عدد الأسر					
		١٤٩٥	١٤٩٦	١٤٩٨	١٤٩٩	١٥٠٠	١٥٠١
ارنده دي دويره	Aranda de Duero	٢٩		٣٧	٤٠	٤٠	٤٠
بينيارنده	Penaranda (de Duero)	٩		٦	٥	٦	٥
شنت اشتيبن دي	San Esteban de						
غورمث	Gormza	١٠		٧	٧	٧	٧
اغريده	Agreda	١٢٢	١٢٣	١١٨	١٢٠	١٢٠	١١٤
ارثى	(Arce, Aerte) Aerce	١٣		١٢	١٤	١٤	١٣
ارنيدو	Arnedo	٣		٢	٦	٦	٥
ثيربيره	Cervera	١٠		٨	٨		

بلاي	Aguilar	٣٠		١٥			
وادي الحجارة	Guadalajara	٩٦	٩٤		١١٧	١١٢	١٢٢
مولينا	Molina	٤٥	٣٧		٥١	٥١	٤٠
دينا *	Deza	٤٧	٣٧		٤٣	٤٤	٤٤
ارقس	Arcos	٢٠	٢٠		٣٠	٣٠	٣٠
بيرلنغه	Berlanga	٤			٤	٣	٣
ايون	Ayllon	١٩	١٥		٢٢	٢٣	٢٣
اينا	Hita	٨			١٢	١٢	١٢
مدينة سالم	Medinaceli	١٨	١٧		٣٠	٣٠	٣٠
طليطلة	Toledo	٤٣	٤٦	٤٥	٤٦	٤٦	٤٦
طلبيرة	Talavera	٣٣	٣٣	٣٤	٣١	٢٦	٢٧
اوكانية	Ocana	٢٣	٢٢	٢٢	٢١	٢١	٢١
الكلادي ينارس	Alcala de Henares	١٦	١٨	١٨	١٨		
ايسكس	Illescas	٧	٧	٥	٥	٤	٤
مجريط	Madrid	٥٠	٥١	٥١	٥٢	٥٢	٥١
دوس باريوس	Dos Barrios	٧	٥	٥	٨	٧	٦
وادي رامه	Guadarrama	٩	٥	٤	٤	٤	٤
بياروبية	Villarrubia	٥٠	٦١	٤١	٥٣	٥٧	٥٧
القصر	Alcazar	٦	٤	٢			
قونقة	Cuenca	٧	٧	٩	٤	٤	٤
ويتى	Huete	٢٣	٢٧	٢٥	٣٤	٣٦	٢٧
قلعة غارسيا مونيوث	Castillo de Garcia Munoz	٢٣	٢٤	٢٥	٢٥	٢٥	٢١
اقليش	Ucles	٧٤	٦٣	٨٠	٩٢	٩٤	٧١
سان قلمنت	San Clemente				٢	٢	٣
القونغوستو	El Congosto	١١	١٣		١٨	٢٠	٢٣
الدية ديل ري	Aldea del Rey	٢٧	٣٢	١٥	٢٢	٢٢	٢١

المنطقة		عدد الأسر					
		١٤٩٥	١٤٩٦	١٤٩٨	١٤٩٩	١٥٠٠	١٥٠١
الماغرو	Almagro	٣	٥	٢	٣	٤	٢
دايميل	Daimiel	١			٢	٢	٢
مونتييل	Montial	٢٩	٢٠	٢٣	٣٥	٣٨	٣٣
مرسيه	Murcia	٤٣	٤٢	٤٩	٤٣	٤٣	٤٤
بليغـــو دي مرسيه	Pliego de Murcia	٣١	٣١	٣٧	٤١	٣٩	٤٣
موله	Mula			٢١	٢٠	٢٣	١٩

المنطقة		عدد الأسر					
		١٤٩٥	١٤٩٦	١٤٩٨	١٤٩٩	١٥٠٠	١٥٠١
البيديتي	Albaydete	١٦	١٧	٢٢	٢٠	١٩	١٨
قمبس	Campos	١٠	٩	١٦	١٦	١٦	١٦
الغواكس	Las Alguacas	١٩	١٩	٢٨	٣٠	٣٣	٢٩
تبتي	Cebty	٣٣	٣٢	٣٥	٣٨	٣٩	٣٧
ارتشينا	Archena	٢١	٢١	٢٢	٢١	٢١	٢١
بال دي ريقوطي	Val de Ricote	١٧٧	١٧٧	٢١١	٢١٦	٢١٠	٢٠٠
فرتونة	Fortuna	٣١	٢٨	٣٢	٣١	٣١	٢٩
حابنية	Havanilla	٦٨	٦٨	٧٨	٦٥	٦٩	٧٠
مولينا دي مرسيه	Molina de Murcia	٤٥	٤٧	٦٠	٥٧	٥٨	٥٩
القنطرية	Alcantarilla	٥٣	٥٦	٦٢	٦٧	٦٢	٥٩
لا بوبله دي سوتو وثمبرانه	La Puebla de Soto y Zambrana	٤٦	٤٢	٥٧	٥١	٥٣	٥٦
انيورة	Anora	٥	٧	١٢	٦	٥	٥
صقبوس	Socobos		٦	١٥	١٦	١٦	١٤
ثييثا	Cieza			٨	٦	٦	٨
بلاسنثيا	Plasencia	٨١	٨٢	١٠٧	١٠٦	١٠٣	١٠٥

ترجالة	Trujillo	٧١	٧٣	١٠٠	٩٠	٨٩	٩١
القنطرة	Alcantara	٤٥	٥٠	٨٤	٨٤	٨٤	١٠٣
ام الغزالة	Magacela	٥٦	٥٨	٧٨	٧٨	٧٨	٧٨
بينكرنثيا	Bienquerencia	٨٦	٨٨	٧٨	٨١	٨٠	٨٠
بلنسية دي القنطرة	Valencia de Alcantara	١٤	١٦	٣٢	٣٢	٣٢	٣٢
مديلين	Medellin	١٠	٩	٧	٧	٧	٧
بطليوس	Badajoz	٦		٢	١		
اورناتس	Hornachos	٤٣٢	٤٢٦	٤٢٥	٤٢٩	٤٢٧	٤٢٧
يرينه	Llerena	٤١	٣٦	٣٤	٣٨	٣٨	٣٨
مارده	Merida	٩٠	٧٨	٨٣	١٠٧	٩٧	٩٧
بلمه ديل ريو	Palma de Rio			١٢٦	١١٨	١١٩	١٢١

المنطقة		عدد الأسر					
		١٤٩٥	١٤٩٦	١٤٩٨	١٤٩٩	١٥٠٠	١٥٠١
قرطبة	Cordoba	٤٥	٣٤	٣٠	٤٠	٤٠	٤٠
بريغـــة دي قرطبة	Priego de Cordoba			٤٢	٥٩	٥٩	٦٧
ارشذونة	Archidona			٤٠	٣٧	٣٦	٣٧
اشبيلية	Sevilla	٤٥	٣٦	٣٣	٣٤	٣٤	٣٤
استجة	Ecija	١٥	١٦	٢٠	٢٠	٢٠	١٧
المعدن	Almaden				٤٢	١٣	
قسبسي	Cospese			٧			
لورقة	Lorca		١				
ابيان	Avellan	٣	٥				
الكريـــة دي سان مارتين	Alqueria de San Martin	١	٣				
بيدرايته	Piedrahita	٢٦					
الـبرغش دي ابله	El Burgo de Avila	٢					
البـــاركو دي	El Burgo de Avila	٢٨					

ابله			
فلد يكيمادا	Valde quemada	١	
لا اورقاجدا	La Horcajada	٢	
بيلــــــيرس واريكس	Belherres y Arrescas	٥	
قرونـــــاغو وفياسقة	Cornago y Villaseca	٣	

وبموجب هذا البيان إذا افترضنا أن متوسط عدد أفراد العائلـــة الواحـــدة خمســة أشخاص، نستطيع أن نقدر عدد مدجني قشتالة في السنوات السابقة لعام ١٥٠٢م ما بيـــن ١٧٫٠٠٠ و ٢٠٫٠٠٠ نسمة(١). وتعد الهجرة الجماعية من العوامل التـــي تحـــدد عـــدد السكان في غرناطة قبل عام ١٥١٢م. على النمط التالي(٢):

عدد العائلات		الفترة التي تمت فيها عملية التهجير
جميع عائلات بلدة تريسة	El pueblo entero de Teresa	قبل عام ١٥٠٥م
جميع عائلات بلدة استان	El pueblo entero de Istan	قبل عام ١٥٠٦م
جميع عائلات بلدة المياني	El pueblo entero de Almayate	قبل عام ١٥٠٦م

عدد العائلات المهاجرة		الفترة التي تمت فيها عملية التهجير
جميع عائلات بلدة اوشين	El pueblo entero de Ojen	ابريل عام ١٥٠٩م
اربعون عائلة من بلدة دلاية	40 familias de Dalias	سبتمبر عام ١٥٠٩م
خمس عائلات من بلدة تشيلدس	5 familias de Childes	اكتوبر عام ١٥٠٩م
خمس عائلات من بلدة مطريل	5 familias de Motril	اكتوبر عام ١٥١٠-١٥١١م
خمس عائلات من بلدة مارو	5 familias de Maro	

(١) - Miguel Angel LADERO GUESADA: Datos demográficos sobre los musulmanes de Granada y Castilla en el siglo XV. Anuario de Estudios Medievales, 8. Barcelona 1.972-1973, pags. 481-490.

(٢) - A. DOMINGUEZ ORTIZ Y B, VINCENT: Historia de los moriscos, Vida y tragedia de una minoría, Rev., de Occidente. Madrid 1.978. Capt. IV, pags. 86-87.

خمسون شخصا من بلدة دلاية	50 personas de Dalias	ابريل عام ١٥١٢م
قرى من طرش وطربسكون	Puelbos de Torrox, Torvizcon,	
والبنيول والميوث	Albunol y Almeuz	قبل عام ١٥٠٩م

وختاما آمل أن أكون قد كشفت النقاب عن كثير من الغموض الذي ســـاد تـــاريخ الاندلس في عهد الملكين الكاثوليكيين، وأن أكون قد أضفت بعض المعلومات التاريخيـــة الجديدة عن عملية التنصير القسري للموريكسيين، وما ترتب عليها من أحداث.

حالة الموريسكيين إبان حكم
الملكة خوانا المعتوهة ١٤٧٩م - ١٥٥٥م

على الرغم من الأمجاد التي حققها الملكان الكاثوليكيان بسيطرتهما على اسبانيا كلها إلا أنهما لم يكونا سعيدين في حياتهما الخاصة، فقد فقدا أكبر أولادهما، وهو الأمير ضون خوان[١] أمير اشتريس الذي توفي في السادس من تشرين الأول عام ١٤٩٧م في مدينة شلمنقة، وسرعان ما لحقته شقيقته ايزابيلا[٢] في الثالث والعشرين من شهر آب عام ١٤٩٨م في مدينة سرقسطة في أثناء عملية الولادة ودفنت في مدينة طليطلة، أما الأمير الذي انجبته فهو ميجيل الذي عاجلته المنية عام ١٥٠٠م. واستمرت الكوارث تداهم الملكين الكاثوليكيين في فلذات أكبادهما واحدا بعد الآخر، ولم يبق منهم جميعا إلا ضونيا خوانا[٣]

---

[١] تزوج الأمير ضون خوان في شهر نيسان عام ١٤٩٧م. وتوفي في السادس من تشرين الأول من العام نفسه، في مدينة شلمنقة. وقد انجبت زوجته بنتا ميتة.

[٢] تزوجت ايزابيلا الأمير البرتغالي الفونسو عام ١٤٩٠م. وتوفي هذا الأمير وعمره سبع عشرة سنة، وبعد حين طلب الأمير مانويل "شقيق الفونسو" يد ايزابيلا من الملكين الكاثوليكيين اللذين كانا في قشتالة، فرفضت ايزابيلا ــ بادئ الأمر ــ ذلك الزواج، إلا على شرط هو تعميد المسلمين واليهود معا، أو اقصاؤهم خارج البلاد. فأذعن مانويل لهذا الطلب، ونفذه تماما حسب رغبة ايزابيلا، فاجريت مراسيم زواج مانويل وايزابيلا عام ١٤٩٧م، في مدينة بلنسية. وما لبثت أن وافتها المنية في الثالث والعشرين من شهر آب عام ١٤٩٨م في مدينة سرقسطة ودفنت في مدينة طليطلة.

[٣] ولدت نجلة الملكين الكاثوليكيين ضونيا خوانا في السادس من شهر تشرين الثاني عام ١٤٧٩م في مدينة طليطلة، ثم تزوجت الارشيدوق فيليب الجميل ابن الامبراطور مكسيميليان الأول امبراطور المانيا في السادس عشر من شهر آب عام ١٤٩٦م. وقد انجبت خمسة أبناء هم: لينور وقد ولدتها في قلانديس عام ١٤٩٨م. وشارل الأول الذي ولدته في الرابع والعشرين من شهر شباط عام ١٥٠٠م في غانتي. وأصبح فيما بعد يعرف بالملك شارل الأول في اسبانيا وبالامبراطور شارل الخامس في المانيا (شارلكان). وايزابيلا التي ولدتها عام ١٥٠١م. وفرديناند الذي ولد في العاشر من شهر آذار عام ١٥٠٣م في الكلادى اينارس. وقتالينا التي ولدتها عام ١٥٠٧م في توركيمادا. وقد اعترف مجلس طليطلة بضونيا خوان وزوجها فيليب الجميل اميرين على اشتريس، وقد توفيت ضونيا خوانا في مدينة torديسياس في الثاني من شهر نيسان عام ١٥٥٥م.

وماريا[١] وقتالينا[٢].

أما ضونيا خوانا فقد تزوجت من الارشيدوق النمساوي (ضون فيليب الجميل)، وكانت ــ كما ذكرنا ــ هي الوريثة الوحيدة للملكين الكاثوليكيين، طبقا لأمر والدتها الذي أصدرته قبل وفاتها في العام نفسه، وطبقا لاعراف قوانين الوراثة المتبعة في تلك البلاد[٣].

كانت تلك الكوارث المتلاحقة عبئا ثقيلا على كاهل الملكين الكاثوليكيين، لا سيما الملكة ايزابيلا التي ارهقتها المصائب التي حلت بأبنائها، فضلا عما كانت تعانيه من ضعف في أعصابها فلم تلبث أن أصيبت بمرض في صدرها فتك بها. وقد كانت أم الملكة ايزابيلا أيضا مصابة بشذوذ في عقلها[٤].

---

(١) قام مانويل بطلب يد ماريا (شقيقة زوجته السابقة ايزابيلا) التي لم تكن ولية عهد اسبانيا، لأن شقيقتها (ضونيا خوانا) أكبر منها سنا، وذلك بأن بعث أوراقا يخطبها في الرابع والعشرين من شهر آب عام ١٥٠٠م في مدينة غرناطة. وبعدئذ سافرت إلى البرتغال، وتم زواجها في (قصر دوسال) في الثلاثين من شهر تشرين الأول عام ١٥٠٠م. وقد توفيت في لشبونة عام ١٥١٦م، بعد أن أنجبت عشرة أولاد، كان من أبرزهم الملك خوان الثالث (ملك البرتغال) وإيزابيلا البرتغالية (زوجة الإمبراطور شال الخامس). ولدى وفاة ماريا تلك تزوج مانويل من لينور (ابنة الملكة خوانا المعتوهة).

(٢) قتالينا: كانت زوجة ملك إنجلترا (هنري الثامن).

(٣) ومن أجل الاستزادة عن حياة الملكة خوانا المعتوهة، انظر المراجع التالية:

- L. Pfandl, Juana La Loca, 8 edic, Madrid, 1958.
- M. Prawdin, Juana La Loca, 3 edic. Barcelona, 1967.
- P. F.R. Henrique Florez: Memorias de las Reynas Catholicas Hisotis genealogica de la Casa Real de Castilla Leon. Tomo II. Madrid 1770 pags. 850-862.
- Manuel De Gongora Y Martinez: Lecciones de Historia Universal. Madrid 1.882. Tercer Periodo, Octava epoca. Leccion XLVI. pags 233-234.
- Jose Luis Comellas, Historia de España Moderna Y contemporanea (1474-1975) Sexta Edicion, Madrid, 1978, pags. 71-72.
- Pedro Aguado Bleye, Compendio de Historia de España. Tomo II Madrid 1931, pag. 97.
- Galindez de Carvajal, Anales breves del reinado de los Reyes Catolicos don Fernando y doña Isabel, Biblioteca de Autores Españoles, t. 70, pag. 552.

(٤)
- Galindez de Carvajal, Anales breves del reinado de los Reyes Catolicos don Fernando y doña Isabel, Biblioteca de Autores Españoles, t, 70, pag. 552.
- W. Thomas Walsh, Isabel del España, Madrid, 1943, Pagina 167.

وكان مما زاد في إرهاق الملكة ما كانت تعانيه ابنتها الوحيدة ضونيا خوانا من نكد في حياتها، مع زوجها (ضون فيليب الجمل) الذي كان يهملها ويهتم بالنساء الأخريات ويعاملها بقسوة وصلت إلى حد الإهانة والضرب. فرأت ابنتها الوحيدة وهي تفقد صوابها بالتدريج، وكأنها ترى مصيبة أمها تتكرر في ابنتها، أمام سمعها وبصرها. وكانت تشكو من أن مصائبها قد تكافأت مع تقدمها من حيث هي ملكة. واستمر المرض يفتك بها إلى أن خارت قواها وقضت نحبها في السادس والعشرين من تشرين الثاني عام ١٥٠٤م في ميدينا ديل كامبو Medina del Campo بالقرب من مدريد، عن عمر يناهز ثلاثا وخمسين سنة.

هكذا انطوت صفحة الملكة التي كانت محط إعجاب ملوك أوروبا، بعد أن أحبتها رعيتها حبا منقطع النظير[١]، جعلهم يفكرون في الوقت الحاضر في تخليدها، وتقديسها، ولكن هذا الإعجاب لم يكن إلا من خلال السياسة القمعية التي لا تعرف الرحمة، ولا الهوادة، في التعامل مع الموريسكيين، من قتل، وحرق، وتنصير، وتهجير. ولدى وفاة الملكة ضونيا ايزابيلا الكاثوليكية عام ١٥٠٤م آلت الوراثة إلى ابنتها الأميرة ضونيا خوانا، وزوجها فيليب الجميل[٢]. وجاء فيليب إلى اسبانيا ليستولي على السلطة فيها خلافا لرغبة حمية "الملك فرديناند الكاثوليكي" الذي كان يرغب في أن يحرمه من السلطة والسيطرة على إسبانيا. وازدادت معارضة الملك فرديناند عندما وصلته أنباء (معاهدة بلو (Blois) التي أبرمت بين الملك لويس الثاني عشر الفرنسي وصهره فيليب الجميل، وهي تنص على تقسيم قشتالة وميلان ونابولي بين الاثنين.

ومن أجل إبطال هذه المعاهدة الخطيرة التي تضر بمصالح الملك الكاثوليكي "ضون فرديناند" كان عليه أن يتقدم بطلب يد خيرمانا دي فوا ابنة أخت الملك لويس الثاني عشر وحفيدة شقيقته لينور الأرغونية زوجة غستون دي فوا[٣]، وفعلا تم للملك الكاثوليكي الزواج بالفرنسية خيرمانا دي فوا في الثاني عشر من شهر تشرين الأول عام ١٥٠٥م.

---

(١) - Francisco Diaz Carmona, Compendio de Historia de España Barcelona, 1911. Capitulo IV, pags. 392-393.

(٢) - D. Pascual Boronat Y Barrachina, Pbro, Los Moriscos Españoles Y Su expulsión, Tomo I Valencia, 1901 pag. 119.

(٣) - Galindez de Carvajal, Anales breves del reinado de los Reyes Católicos don Fernando Y Doña Isabel, Biblioteca de Autores españoles, t. 70 pagina 555.

ومنذئذ بدأت العداوة بين الملك فرديناند الكاثوليكي وصهره "الملك فيليب الجميل" الذي استولى على السلطة، تزداد حتى أودت بحياة الملك ضون فيليب الجميل في الخامس والعشرين من شهر أيلول عام ١٥٠٦م في مدينة برغش، بعد ثلاثة أيام من اعتلائه العرش، وهو في الثامنة والعشرين من عمره. وقد راجت شائعات مفادها أن الملك الكاثوليكي قد دس من سقى ضون فيليب ارغون في الثالث من شهر أيار عام ١٥٠٩م السم، لكنه لم يلبث أن عاجلته المنية بعد وقت قصير.

ويروى أن خيرمانا دي فوا بعد وفاة ولدها خوان رغبت في أن يكون لها عقب من الملك الكاثوليكي فجاءت بأعشاب بالاستعانة بإحدى وصيفاتها وقدمتها إلى الملك وهي لا تدري بأن هذه الأعشاب مسمومة فظل الملك الكاثوليكي يعاني منها حتى وفاته في الثالث والعشرين من كانون الثاني عام ١٥١٦م[١].

أصبحت ضونيا خوانا حاكمة نظريا على قشتالة، وليون، وغرناطة، وطليطلة، وغاليسية، (جليقية)، واشبيلية، وقرطبة، ومرسية، وجيان، والغاربس، والجزيرة الخضراء، وجبل طارق، وجزر الكناري، وسيدة على بسكايا، ومولينا، وأميرة على أرغون، وصقلية، وارشيدوقية للنمسا، ودوقة لبورغونيا[٢].

لكن موت زوجها "فيليب الجميل" أفقدها عقلها كليا، وشاهدت إسبانيا – حينذاك – الخزعبلات التي يمكن أن تجيش في خيال امرأة محمومة، فقد أخرجت جثمان زوجها من القبر، ووضعته كأنه لا يزال حيا في غرفة النوم، وجعلت الجثمان يرافقها في أسفارها، ومنعت غيرتها وجود أي امرأة أخرى قربه، ومنحته كل مشاعر الحب والهيام، وقد زين لها عقلها المريض أن زوجها سيعود إلى الحياة يوما ما[٣].

---

(١) - Prudencio de Sandoval, Historia de Emperador Carlos V, Madrid, 1846, t. I, pag 374.

(٢) - Manuel Davila Collado: El Pooder Civil en España. Memoria premiada por la Real Academia de las Ciencias Morales Y politicas. Tomo I. Madrid 1.885. Titulo II. Capt. I. pags 583-585.

(٣) - Francisco Dias Carmona, Compendio de Historia de España, Barcelona, 1911. Capitulo VI pag. 397.

- Juan Regla Campistol Y Antonio M. Aragó Cabañas, 150 Figuras Estelares de la Historia. Barcelona, 1959, Sexta Parte Renacimiento, pags 161-162.

ولقد حفظ لها التاريخ هذا الاسم الرهيب (خوانا المعتوهة Juana la Loca) وحكـــم باسم خوانا المعتوهة مجموعة من المتنفذين، أو النواب من عام ١٥٠٤م إلى عام ١٥١٦م. وقد شغل هذا المنصب باسمها التالية أسماؤهم:

النيابـــــــــــات

١. النيابة الأولى لوالدها الملك ضون فرديناند الكاثوليكي، وقد حكم باســـمها منـــذ عـــام ١٥٠٤م، حتى عام ١٥٠٦م:

سبقت الاشارة إلى أن وفاة ضون فيليب الجميل ١٥٠٦م كان بمثابة صدمة بالغـــة على قلب ضون خوانا وعقلها، ففقدت صوابها، وجنت تقريبا[١]، حتى أصبحت غير قادرة على ادارة ممتلكاتها، فكانت الوصايات والنيابات تحكم باسمها، وكان لوالدهـــا الملك ضون فرديناند الكاثوليكي نصيب الأسد من ذلك، وغدت ضونيا خوانا لا تزيد عن كونها اداة تحركها الأيدي حيث شاءت، وتنفذ من خلالها ما لا تعيه، حتـــى أدت كل هذه الأمور إلى أن يرث شارل الأول (شارلكان) الملك وعمـــره لـــم يتجـــاوز السابعة، فكان حكمه تحت الوصاية[٢]؛ إذ لا يجوز له ممارسة الحكم الفعلي – كمـــا تقضي قوانين البلاد – إلا عند بلوغه العشرين من عمره، وعندئـــذ عيـــن مجلـــس وصاية مؤقت من سبعة أشخاص برئاسة مطران طليطلة الكردينـــال (فرنسيســـكو خمنيس دي سيسنيروس)، وكانت مهمة هذا المجلس أن يحكم باسم الملكة، وقد استبد الكردينال (سيسنيروس) بالسلطات، فحصرها في يده، ولا يجـــهل بـــاحث – فـــي التاريخ الإسباني في هذه الفترة – كم كان هذا المطـــران حـــاقدا علـــى الإســـلام والمسلمين؛ لذا فقد كان السبعة الذين اختارهم من بطانته حاملي أفكاره ومنفذيـــها، آملين أن يستأصلوا المسلمين من جذورهم حتى لا تقوم لهم قائمة.

٢. النيابة الثانية: استمرت نيابة الملك ضون فرديناند الكاثوليكي الثانية من عـــلم ١٥٠٧م، حتى وفاته في الثالث والعشرين من كانون الثاني عام ١٥١٦م.

---

(١) - Jose Zahonero VIVO. Historia de España, Valencia 1949 Capitulo XIV, pag. 96.

(٢) - Peter Passow, Carlos V (1500-1558) Homenaje de la Universidad de Granada, Granada, MICML VIII, pag 20.

وفي هذه النيابة استولى على نبرة الاسبانية، من حاكمها (خوان الثاني دي البرت) وزوجته (قتالينا)(١) ، متهما إياها بمنع القوات الإسبانية، من المشاركة في الحرب المقدسة، ومن الدخول إلى فرنسا من نبرة. وبهذا الاحتلال صار ملكا على اسبانيا كلها. وقبيل وفاته، أوصى بميراث العرش لحفيده شارل الأول، ثم بدل موقفه بجعل شارل الأول وصيا عاما. في حين جعل الكردينال (سيسنيروس) وصيا على قشتالة، ثم يليه بعد موته (ضون الفونسو) مطران سرقسطة؛ إذ كان هذا المطران ولدا غير شرعي للملك الكاثوليكي (ضون فرديناند)، وكان قد وضعه وصيا على ارغون، وقد اتخذ هذا القرار الأخير في عام ١٥١٦م. وكان عمر الملك (فرديناند الكاثوليكي) حينئذ، أربعا وسبعين سنة.

تم لسيسنيروس الكثير مما أراد عندما توفي الملك ضون فرديناند الكاثوليكي، فآل إليه الحكم بالوصاية. فتابع مخططاته الانتقامية، وبهذا ظل الكردينال سيسنيروس يقوم بأدوار سياسية بارزة من أهمها: المؤازرة في نيل الوصاية بالتنفذ، حتى عين بمقتضاها الملك شارل الأول على عرش اسبانيا. وكان يرمي من وراء إصراره على ترسيخ حكم الملك شارل الأول إلى أن يستغل صغر سنه ليمارس سياسته القمعية في أثناء وجود الملك شارل الأول في الحكم إسميا. وبذلك استطاع أن يمارس مواقفه المتصلبة ضد النبلاء الذين كان يمقتهم لتعاطفهم مع الموريسكيين، فقد كانوا يقفون دائما حجر عثرة أمام مخططاته التعسفية. وقد امتدت وصاية الكردينال سيسنيروس مدة تسعة عشر شهرا حتى وفاته التي تزامنت مع وصول الملك شارل الأول إلى اسبانيا(٢). وفي هذه الفترة عانى النبلاء الأمرين، فقد قطع عنهم المنح والامتيازات، وأسس جيشا عسكريا منظما بعد أن كان النبلاء – منذ العصور الوسطى – يشرفون على تأسيس هذا الجيش وبذلك أصبحوا في وضع محرج، وكان هذا الجيش يعرف بالميليشيا الحقيقية. وهو كما هو دائما – سلاح ذو حدين – شأن سائر التنظيمات الشعبية المسلحة. وقد استعمل سيسنيروس هذا الجيش ضد الموريسكيين في داخل شبه جزيرة ايبيريا، وخارجها ضد مسلمي شمال إفريقيا.

---

(١) - Dr. D. Federico Udina Martorell, Historia de España, Barcelona, 1957, Quinta parte, pag. 244.

(٢) - Francisco de Paula Villa-real y valdivia: Lecciones elementales de Historia critica de España. 2a. Edic. Granada 1.899. Leccion 59, pags. 389-395.
- P. F. R. Henrique Flores: Memorias de las Reynas Catholicas, Historia genealogica de la Casa Real de Castilla Y Leon. Tomo II. Madrid 1. 770, pags. 850-762.
- Manuel de Gongora Y martinez: Lecciones de Historia Universal. Madrid. 1. 882. Tercer Periodo.
- Octava epoca. Leccion XLVI, pags 233-234.

وكاد يستخدمه للتخلص من الملك شارل الأول الذي أسهم من قبل في ترسيخ حكمه، لما رأى من اهتمامات الملك بتعيين الغرباء عن اسبانيا في حكمها، وإهماله أهلها الأصليين، لا سيما تفضيل الملك – شارل الأول – لأستاذه الأب ادريانو – على الكردينال سيسنيروس. بيد أن الملك شارل الأول كشف مخططاته وألاعيبه. أعانه على ذلك عيون له في اسبانيا، فشاع أن للملك شارل الأول يدا في استعجال أجل الكردينال سيسنيروس، عندما جاء هذا الأخير لاستقباله. ودفن الكردينال سيسنيروس في الثامن من شهر تشرين الثاني عام ١٥١٧م في مدينة رووا Roa[١].

نجم عن سياسة الملك شارل الأول أن وضعت عناصر غير اسبانية في سدة الحكم على اسبانيا، وفرضت على الشعب ضرائب باهظة. وقامت محاولات تمرد لجمعيات كان على رأسها كل من الجنرالات التالية أسماؤهم:

١. خوان دي باديا جنرال طليطلة — Juan de Padilla
٢. خوان برافو جنرال شيقوبية — Juan Pravo
٣. خوان ثباتا جنرال مدريد — Juan Zapata

قام هؤلاء الجنرالات الثلاثة في تاريخ ٢٠ أغسطس عام ١٥٢٠م بزيارة الملكة خوانا المعتوهة في قصرها في تورديسياس Tordesillas حيث أقامت في عزلة منذ موت زوجها، فاستقبلت الجنرالات الثلاثة بحفاوة[٢]، لكنها لفقدانها الصواب، كانت أضعف من أن تمد يد العون، فإنها لم تكن تعي ما تقول فلم تخرجها تلك الثورات والمقابلات من عزلتها. ولم يكن هؤلاء القادة يجهلون مصيبة خوانا وعجزها، لكنها الملجأ الوحيد الذي وجدوه؛ فلم يكن أمامهم – ممن يستحقون السلطة حسب تشريعات البلاد – من يؤازرهم. لذلك أخمدت حركتهم وانتهى الأمر بقتل الجنرالات الثلاثة.

---

(١) - Maria Comas, Breve Historia de España, Segunda edición, Segunda edición, Barcelona, MCMXLIV, pag 121.

(٢) - Segun el acta notarial de La entrevista del Comunero Juan de Padilla Y Juana La Loca, Tomada del memorial Historico Español, Tomo XXXV.
- Rodriguez Villa, La reina doña Juana La Loca. Estudio historico, Madrid, 1892, pag. 303.

المراسيم الجائرة ضد الموريسكيين:

لم تختلف حالة الموريسكيين[١] في أثناء حكم الملكة خوانا المعتوهة، عن حالتهم إبان حكم والديها الملكين الكاثوليكيين (ضون فرديناند وضونيا إيزابيلا) وذلك لان حالتها الصحية العقلية، حالت بينها وبين الحكم الفعلي للبلاد، فبدلا من الإدارة والتنفذ والسيطرة، اكتفت، أو هكذا قدر لها أن تكتفي بتوقيع المراسيم[٢] التي كان يصدرها نوابها، فكان حكمها لا يختلف ــ تجاه الموريسكيين ــ عن حكم أبويها في قليل أو كثير. فوضعت المراسيم التي كان يظن أنها كفيلة بطمس كل آثار الاسلام والعروبة في نفوس الموريسكيين، بيد أنها أخفقت في ذلك لتمسك موريسكيي الاندلس بعروبتهم واسلامهم ولاعتمادهم على الممارسات السرية لكل ما يتعلق بذلك من شعائر، وعندما لاحظ رجالات الدين المسيحي الذين كان يتزعمهم الكردينال سيسنيروس أن المراسيم السابقة في عهد الملكين الكاثوليكيين لم تجد نفعا ولم تغير وضعا استغل كونه نائبا ووصيا فاستصدر بنفسه مراسيم جديدة فريدة تمتاز بازدياد القسوة والصرامة ضد الموريسكيين لعله ينجح في تحقيق أغراضه.

وسأحاول فيما يلي أن أتناول بنود هذه المراسيم ونتائج تطبيقها على الموريسكيين. فقد وقعت الملكة خوانا المعتوهة على المراسيم التالية بعد أن أصدرها نوابها:

---

[١] الموريسكيون Moriscos وهي تصغير لكلمة Moros فمعناها المسلمون الذين تم تنصيرهم وبقوا في شبه جزيرة ايبيريا وتم صهرهم في بوتقة المجتمع الاسباني فيما بعد.

[٢] من أجل الاستزادة عن المراسيم التي وقعتها الملكة خوانا المعتوهة في غير صالح المسلمين يمكن للقارئ الاطلاع على هذه الكتب الحديثة التالية:

- Manuel Danvila Collado: El Poder Civil en España. Memoria Premiada por la Real Academia de las Ciencias Morales Y Politicas. Tomo I. Madrid 1885. Titulo 11. Capt. I. pags. 583-585.
- K. Garrad: The original memorial of don Francisco Nuñez Muley ("Atlante". 11, a. 1954), pp. 198-225.
- Antonio Gallego Y Burin Y Alfonso Gamir Sandoval, Universidad de Granada 1968 pags. 20-21.
- Luis del Marmol Carvajal, Historia del Rebelion y Castigo de los Moriscos del reino de Granada, Segunda Impresión Tomo. I. Madrid 1797, pag 129.
- Pedro Longás, Vida Religiosa de los Moriscos, Madrid, 1915 pag. XXXIX.

١. مرسوم خاص بالملابس:

يحظر على الموريسكيين استخدام الملابس العربية التقليدية، ويرغمون على ارتداء الملابس التي على النمط الاسباني، ويمنع أي خياط أن يخيط الملابس المحظورة، فإن فعل عوقب بأشد العقوبات(١). كما منع الموريسكييون من ارتداء الملابس الحريرية والملابس الفاخرة الموشاة بالذهب والفضة، وأمهلهم المرسوم ست سنوات، وبعدئذ مددت المهلة إلى عشر سنوات(٢)، وفرض في مرسوم آخر أن تلبس كل طبقة اجتماعية ملابس متميزة خاصة بها(٣)، ثم أعطيت النساء مهلة سنتين حتى يتخلصن من استخدام الملحفة وغطاء الوجه.

٢. مرسوم خاص بالذبائح:

يمنع الموريسكيون من ذبح الحيوانات على الطريقة الاسلامية، ويفرض أن يذبحها جزار مسيحي من أصل اسباني قديم، ويجب أن تحمل إلى المسلخ.

يستثنى من ذلك صيد الجبال والدواجن، فكان يجوز ذبحها في البيوت، حتى الغي ذلك الاستثناء بقرار في التاسع والعشرين من شهر تموز عام ١٥١٣م(٤).

---

(١) - Archivo Municipal de Malaga, Documentos de los reyes Catolicos, 20 Junio 1511. Sevilla, Traslado:Col. de "orig"., Vol. IV. Fols. 29-30. Cop: Lib. de "Prov". Vol. V. Fols. 350V-351V.

(٢) - Archivo Municipal de Granada, Provisiones No. I. Folio 247 Vo.
- Archivo Municipal de Malaga, Documentos de Los Reyes Catolicos, 12 Febrero 1512. Burgos. Orig. Col. de "orig", Vol. IV. Fol. 31 Y Vo., Cop.: Lib. de "Prov", Vol. VI, Fols. 67-68.
- Archivo Municipal de Malaga, Documentos de Los Reyes Catolicos, 12 Febrero 1512. Burgos. Orig. Col. de "orig", Vol. IV. Fol. 32 Y Vo., Cop.: Lib. de "Prov", Vol. VI, Fols. 304-306.
- Luis Del Marmol Carvajal Historia De, Rebelión Y Castigo de Los Moriscos Del Reyno De Granada, Segunda impresión, Tomo I. Madrid 1797, Libro Segundo, Capitulo primero pag. 129.

(٣) - Archivo Municipal de Malaga, Documentos de Los reyes Católicos, 20 Julio 1515. Burgos, Folio 165. No. 850. Co.: Lib de "Prov", Vol. VII, Fols. 296-298 Vo.

(٤) - Archivo Municipal de Malaga, Documentos de los reyes Católicos, 20 Junio 1511, Sevilla, Cop.: Lib. de "Prov", Vol. V, Fols. 347-348.
- Archivo Municipal de Granada, Provisiones No. I. Folio 254 Vo.
- Archivo Municipal de Malaga, Documentos de Los Reyes Católicos, 10 Febrero 1512, Burgos, Orig.: col de "orig", Vol. IV Folio. 50. Cop.: Lib. de "Prov". Vol. VI, Fols. 68 Vo. - 69 Vol.
- Archivo Municipal de Malaga, Documentos de Los Reyes Católicos, 10 Febrero 1512 Burgos. Orig.: Col. de "orig". Vol. 111 Folio 84. Ćop.: Lib de "Prov", Vol. VI, Fols. 62-65.

٣. مرسوم خاص بالزواج:

يلزم الموريسكيون بالزواج على الطريقة المسيحية، كما يجب على كل منصر، أن يتزوج نصرانية أصلا، ويفرض على كل موريسكية منصرة، أن تتزوج من نصراني أصلا، ويرغم الموريسكيون في كل حالة أن يكون الاشبين من المسيحيين القدماء، ولا يجوز أن يكون من الموريسكيين ولا من اليهود الذين تم تعميدهم حديثا(١).

٤. مرسوم خاص بالزيارات:

يرغم الموريسكيون المقيمون خارج غرناطة الذين نصروا قسرا، على عدم زيارة الموريسكيين المقيمين في مملكة غرناطة، خشية أن يتآمروا معهم، فيشعلوا الثورات بتقويتهم، وتأثرهم، وتحالفهم معا، ويهدد من لا يتقيد بذلك بأقصى العقوبات من مصادرة الممتلكات أو بالموت حرقا(٢)، ويسمح لموريسكيي مملكة غرناطة الذين كانوا خارجها حين صدور هذا القرار، بالعودة إلى بيوتهم في غرناطة(٣).

٥. مرسوم خاص ببيع العقارات غير المنقولة:

لا يجوز لأي موريسكي بيع ممتلكاته لأي موريسكي آخر، إلا بعد أن تمنحه السلطات إذنا، علما بأنها لم تكن تمنح هذا الأذن إلا بعد تأكدها من إخلاص المشتري الجديد للكاثوليكية. وخلال الاستئذان يجب على الموريسكي ذكر السبب الذي يجعل بيع الممتلكات بالنسبة إليه ضرورة(٤). ومن خالف ذلك فباع بدون اذن السلطات، عوقب بالعقوبات السابقة الذكر. ثم منع الموريسكيون من بيع ممتلكاتهم منعا باتا، سواء كان ذلك البيع لموريسكي أو لنصراني، خشية أن يأخذوا قيمة ممتلكاتهم، فيفروا بها إلى شمالي

---

(١) - Archivo Municipal de Malaga. Documentos de Los Reyes Católicos, 20 Junio 1511. Sevilla. Orig.: Col. de "Orig", Vol. IV. Fols. 19-20. Cop: Lib. de "Prov". Vol. V. Fols. 349 Vo.-350 Vo.

(٢) - Archivo Municipal de Malaga, Documentos de Los Reyes Católicos. 15 Febrero 1515 Arevalo. Orig.: Col de "Orig". Vol. IV. Fols. 192 y V. Cop.: Lib. de "Prov". Vol. VII. Fols. 190-191.
- Archivo General de Simancas, P. R. Legajo No. 8, Folio. 120.

(٣) - Archivo Municipal de Malaga, Documentos de Los Reyes Católicos, 21 Marzo 1515, Tordesillas. Orig.: Col. de "Orig". Vol. IV Folio. 193. Cop.: Lib. de "Prov". Vol. VII. Fols. 197 y V.

(٤) - Archivo General Simancas, P. R. Legajo no. 8 Folio. 120.
- Archivo Municipal de Malaga, Documentos de Los Reyes Católicos, 11 diciembre 1507. Burgos. Cop.: Lib de "Prov"., Vol. V. Fols. 10-11 Vo.

افريقيا، ويشتركوا بعد ذلك بالأعمال التي كانت مصدر ازعاج لاسبانيا، كما فعل الكثيرون من قبل، ومن خالف هذه القرارات يعاقب بأشد العقوبات(١).

٦. مرسوم خاص بمنع الكتب العربية:

يجب على كل موريسكي ــ تم تنصيره قسرا ــ أن يسلم كل ما في حوزته من كتب باللغة العربية، سواء أكان مقيما في غرناطة، أم في القرى والأماكن التابعة لها. ويتم تسليم الكتب والمخطوطات كافة إلى السلطات المسؤولة في مدة لا تتجاوز خمسين يوما من تاريخ صدور هذا القرار. وبعد تسليمها، يفحصها مختصون لمعرفة فحواها، ثم يحرق منها كل ما كان له أدنى صلة بالدين الاسلامي، سواء في الفقه أو في العقيدة على رؤوس الأشهاد. وبعدئذ ترد الكتب المتعلقة بالفلسفة والطب والعلوم الأخرى ــ بعد ترخيصها ــ إلى أصحابها. ومن ثبت أنه يقتني أي كتاب أو مخطوطة بعد العشرين من شهر حزيران عام ١٥١١م، تصادر كل ممتلكاته، علما بأن السلطات لم تكن تعيد أي كتب أو مخطوطات؛ ذلك أن حملة محاكم التفتيش، لم تكن تقتصر على الدين الاسلامي، بل تعدته إلى اللغة العربية، كما سيتبين في المراسيم التي صدرت في عهد الملك فيليب الثاني، وفي المراسيم التي صدرت سابقا، في عهد الملكين الكاثوليكيين. كذلك كانت الحملة على كل ما يرتبط بالعرب من عادات وتقاليد وأعراف اجتماعية(٢).

٧. مرسوم خاص بمنع الأسلحة:

يسمح لنصارى مالقة بأن يحملوا السلاح دفاعا عن أنفسهم، وحماية لممتلكاتهم من اعتداءات الموريسكيين، وصونا للمدينة من تلك الاعتداءات المتكررة. بينما يمنع الموريسكيون من حمل أي أسلحة، أو استخدامها إلا بأذن من السلطات العليا المسؤولة. أما إذا حمل أي موريسكي السلاح بدون ذلك الأذن فيقصى عن البلاد إلى الأبد، وتصادر

---

(١) - Archivo General de Simancas, P.R. Legajo no. 8 Folios 120-121.
- Archivo Municipal de Malaga, Documentos de Los Reyes Católicos, 15 Febrero 1515 Arevalo. Orig.: Col. de "orig", Vol. IV, Fols. 187-188 Vo. Cop. Lib. de "Prov". Vol. VII, Fols. 189-190.

(٢) - Archivo Municipal de Granada, "Provisiones" I, Folio 202 Vo.
- Archivo Municipal de Malaga, Documentos de Los Reyes Católicos, 20 Junio 1511. Sevilla. Traslado: Col. de "Orig", Vol. IV, Fols. 25-26 Vo. Cop.: Lib. de "Prov"., Vol. V. Fols. 348-349 Vo.

ممتلكاته، فإن ثبت أنه قد اقترف تلك الجريمة مرة سابقة، ففي المرة الثانية يحكم عليه بالموت إذا ضبط متلبسا بتلك الجريمة(١).

٨. مرسوم خاص بالإرث:

يمنع المنصرون قسرا من الموريسكيين من تقسيم ممتلكاتهم المنقولة، وغير المنقولة، وتركاتهم على الطريقة الاسلامية، ويرغمون على تقسيمها طبقا للأعراف المستعملة لدى الاسبان. ومن خالف ذلك، عرض نفسه للعقوبات الصارمة(٢).

٩. مرسوم خاص بالتعاون مع مسلمي شمال افريقيا:

كل موريسكي يتبين أنه حمى، أو آزر، أو تعامل مع المسلمين المهاجمين لشواطئ مملكة غرناطة الذين يحدثون اضرارا، من قتل ونهب وسرقة وازعاج، لا تقل عقوبته عن الموت المؤكد(٣).

١٠. مرسوم خاص بالهاربين من مملكة غرناطة:

كل موريسكي يهرب من مملكة غرناطة، يحرم من ممتلكاته فيها. فإن عاد إليها، قبض عليه، وبيع بيع العبيد بالمزايدة(٤).

---

(١)
- Archivo Municipal de Malaga, Documentos de Los Reyes Católicos. 21 Junio 1509. Valladolid. Orig.: Col de "Orig.", Vol. III. Fols. 198-199 Vo. Cop.: Lib. de "Prov", Vol. VI, Fols. 6 Vo.-8 Vo.
- Archivo Municipal de Granada, Provisiones No. 1, Folio 471 Vo.
- Archivo Municipal de Malaga, Documentos de Los Reyes Católicos, 29 Julio 1513 Valladolid. Orig.: Col. de "Orig.", Vol. III Fols. 197 Vo. - 198 Vo. Cop: Lib. de "Prov", Vol. VI. Fols. 302 Vo.- 304.
- Archivo Municipal de Malaga, Documentos de Los Reyes Católicos, 22 diciembre 1515. Plasencia. Orig., Col. de "Orig", Vol. III Folio. 145. Cop.: Lib de "Prov". Vol. VII. Fols. 330 Vo.-331 Vol.

(٢)
- Archivo Municipal de Malaga, Documentos de Los Reyes Católicos, 20 Junio 1511. Sevilla.
- Traslado: Col. De "Orig", Vol. IV. Fols. 36 Vol. -37 Vo. Cop.: Lib. de "Prov". Vol. V. Fols. 351 Vo. -352 Vo.

(٣)
- Archivo Municipal de Malaga, Documentos de Los Reyes Católicos, 8 Agosto 1511. Burgos. Cop.: Lib. de "Prov.", Vol. VI. Fols. IIV°.-12V°.
- Archivo Municipal de Malaga, Documentos de Los Reyes Católicos, 8 septiembre 1511 Burgos. Cop. Lib. de "Prov.", Vol. VI. Fols. 12 Vo.-14 Vo.

(٤)
- Archivo Municipal de Malaga, Documentos de Los Reyes Católicos, 25 Junio 1512. Burgos. Cop.: Lib. de "Prov.", Vol. VII, Fols. 139 Vo. - 140 Vo.

١١. مرسوم خاص بممارسة الشعائر الإسلامية والملتحقين بالثوار:

إذا تبين أن موريسكيا منصرا مارس بعض الشعائر الاسـلامية، فيجـب علـى السلطات والنبلاء أن يصدروا بحقه أشد العقوبات التي تصل إلى مصـادرة الممتلكـات. وكذلك الحال إذا التحق بالثوار المعتصمين في رؤوس الجبال[١].

(١) - Archivo Municpal de Malaga, Documentos de Los Reyes Católicos, 23 Octubre 1514 Balbuena (Monasterio). Orig.: Col. de "Orig." Vol. IV Fols 158 Vo. Cop.: Lib de "Prov.", Vol. VII. Fols. 125-127.

نتائج تطبيق المراسيم ضد الموريسكيين

مضت السياسة الإسبانية في غيها ونقمتها واضطهادها للمسلمين بمختلف الوسائل إلى أن تم تنصير أعداد كبيرة منهم قسرا تحت رهبة الأحكام الشنيعة التي كانت تقوم بها محاكم التفتيش وينفذها رجالات الاكليروس. فكان الموريسكي يضطر إلى اعتناق النصرانية ولو ظاهرا هربا من الثبور والويلات التي كانت تصب جامها على رأس كل متمسك بدينه أو عروبته.

ازدادت سرية الممارسة للشعائر الاسلامية، فغدا الموريسكيون يحذرون أشد الحذر حتى من أبنائهم لأن أولئك الأبناء كانوا يربون في ظلال الكنائس والأديرة على الدين المسيحي، خاصة المذهب الكاثوليكي ثم يردون إلى أسرهم عيونا تشي لمصلحة محاكم التفتيش للقضاء عليهم؛ وقد كانت محاكم التفتيش أو بالأحرى محارقها تلتهم الكثير من الموريسكيين الأبرياء لأقل الشبه والوشايات، ونعلم أن لكل فعل رد فعل، فقد أدى ذلك إلى ازدياد تمسك الموريسكيين بدينهم مع ازدياد سريتهم في التنظيم بعد ان كان الأمر لا يستدعي كل هذا الحذر وكل تلك السرية.

ومن أهم النتائج التي ترتبت على تطبيق المراسيم ضد الموريسكيين نلاحظ:

١. من خلال هذه المراسيم تمت مصادرات واسعة للممتلكات الموريسكية واستغلت هذه الممتلكات لصالح المستوطنين الاسبان الجدد الذين قدموا من مختلف أرجاء شبه الجزيرة الايبيرية، وأسكنوا في أماكن الموريسكيين، كذلك استغلت أجزاء كبيرة من تلك الممتلكات لصالح الأديرة والكنائس والكاتدرائيات.
٢. نجم أيضا عن هذه المراسيم طبقا لسرية الممارسة وشدة العقوبات ومصادرة الممتلكات تقلص الزي الموريسكي التقليدي وازدياد تزيي الموريسكيين بالزي الاسباني.
٣. مراعاة للمراسيم السابقة ازدادت المصاهرة القسرية بين الموريسكيين والاسبان لجعل فئتي المجتمع فئة واحدة متجانسة ما أمكن.
٤. لما كان هدف استصدار المراسيم الأخيرة طمس معالم الدين الاسلامي فقد ازدادت مراقبة الموريسكيين ليتمكنوا من اجراء العقوبات الصارمة عليهم حتى إذا يئسوا من

صهرهم في بوتقة المجتمع الاسباني ودمجهم في الديانة المسيحية لجأوا إلى تهجيرهم أو افنائهم أو التخلص منهم بأي طريقة.

٥. أدت هذه المراقبة الزائدة إلى ازدياد حالات الزواج التي كانت تتم على الطريقة النصرانية ذلك أنهم كانوا يعتبرون الزواج الذي لا يتم بتلك الطريقة زواجا باطلا غير معترف به، وبذا تقلصت حالات الزواج على الطريقة الاسلامية.

٦. تم القضاء على اللغة العربية وحلت محلها اللغتان الرومانية والقشتالية ونتج عن ذلك أن أصبحت اللغتان المذكورتان تكتبان بحروف عربية اطلق عليها لغة الخميادو Aljamiado ويعود السبب في استعمال الموريسكيين للغة الخميادو خشيتهم من افتضاح أمرهم إذا هم أقدموا على القيام بانتفاضات شعبية أو عصيان مسلح في المناطق الجبلية المجاورة للاسبان، أو إذا هم استعملوا اللغة العربية فيما بينهم.

٧. تناقصت كمية الاسلحة الموجودة لدى الموريسكيين ذلك أن المراقبة قد زادت والمراسيم قد حظرت عليهم امتلاكها، ولم يعد امتلاك الأسلحة حقا إلا للأسبان وبذا أضعفوا قدرة الموريسكيين على الثورة أو الدفاع عن النفس، بيد انه ظل لدى الموريسكيين كميات من الأسلحة تقتنى بسرية زائدة وحذر بالغ ويدلنا على ذلك قيامهم بين فينة وأخرى بانتفاضات لا تخفى على باحث في هذا الاطار.

٨. لم يعد نظام الأرث الاسلامي معمولا به رسميا بأي وجه وحل محله نظام الارث الاسباني.

بهذه المراسيم انقسم الشعب الاسباني على نفسه إلى فئتين، فئة متدينة تؤكد كل ما يجري ضد الموريسكيين مهما كانت النتائج ولا تحتكم إلى أي ضمير أو إنسانية، وفئة النبلاء الذين ازداد تمسكهم بالموريسكيين وحمايتهم لهم ورفضهم لكل الأساليب اللاإنسانية التي تمارس ضدهم، ذلك أن النبلاء كانوا يرتبطون بالموريسكيين بمصالح اقتصادية مهمة، كذلك فقد نجمت كوارث اقتصادية كان أهمها في ميدان الزراعة بعد تهجير الموريسكيين وتمليك أراضيهم للمستوطنين الإسبان فأهملت الأرض الزراعية لعدم قدرة الاسبان الجدد على استغلال هذه الأرض بالطرق المناسبة. وأدى تهجير الموريسكيين إلى تناقص الأيدي العاملة وحدوث كساد اقتصادي كبير لا سيما في مجال الصناعة لأن الذين كانوا يديرونها قبلا كانوا من مهرة الموريسكيين الذين تركوا أعمالهم وابتعدوا عنها نتيجة التشريد والتهجير والقتل ومصادرة الممتلكات...الخ.

وفيما يتعلق بفن الهندسة المعمارية أصبح مرفوضا من قبل الاسبان الذين رفضوا أيضا كل ما يمت إلى التقليد العربي الاسلامي بصلة.

تدهور الأمن الداخلي والخارجي من جراء حقد الموريسكيين على كل ما هو اسباني نتيجة لما اتخذ ضدهم من ممارسات لاانسانية. كذلك كان من أهم النتائج ضياع العديد من المخطوطات العربية الرائعة والمصاحف المزخرفة وكتب الحديث والفقه النادرة بسبب ما تعرضت له تلك الكتب والمخطوطات من محاربة بالاتلاف والحرق في الساحات العامة. وما يزال العديد من هذه المخطوطات يعثر عليه تحت الانقاض والكهوف المبعثرة في الأودية والجبال في الوقت الحاضر ذلك أن الموريسكيين كانوا يبذلون قصارى الجهد في المحافظة عليها واخفائها وحتى دفنها عند الضرورة.

وخلاصة القول فان المراسيم التي صدرت في عهد الملكة خوانا ضد الموريسكيين كانت على غرار تلك التي صدرت أيام الملكين الكاثوليكيين، إلا أنها أوسع بنودا واشد تنكيلا لأن الكردينال سيسنيروس الذي كان وراء سياسة الملكين الكاثوليكيين أصبح في عهد الملكة خوانا هو المشرع والمنفذ، وخلا له الجو حتى خطط لحملات اسبانية ضد شمالي افريقيا، فاحتلت الجيوش الاسبانية المرسى الكبير "في غرب الجزائر" عام ١٥٠٥م، وصخرة بلش غمارة عام ١٥٠٨م، ثم وهران عام ١٥٠٩م، ثم الجزائر عام ١٥١٠م، وأقاموا قبالة الجزائر في البحر حصنا على صخرة بلش غمارة. وفي العام نفسه استولوا على بجاية وطرابلس وحاصروا جزيرة جربة.

لعل الكردينال كان يطمع من وراء هذه الحملات الى تعميد المسلمين لا داخل شبه الجزيرة الايبيرية فحسب بل في كل مكان يستطيع أن يسيطر عليه، والمتتبع لتاريخ الموريسكيين في هذه البلاد يلاحظ أن هذه السياسة العاتية ضدهم استمرت حتى أبادت المسلمين عن اخرهم في عهد الملك فيليب الثالث وإن كان لهم بقية فإنها لم تعد إلا ضمن البوتقة الاسبانية والأديرة والكنائس في زي رجال الدين أو في المهجر في العالم الجديد.

الملك شارل الأول وموقفه من مظالم الموريسكيين
عند زيارته غرناطة عام ١٥٢٦م

نشأتـــــه:

ولد الملك شارل الأول[١] في الرابع والعشرين من شباط عام ١٥٠٠م في مدينـــة غانتي في (بلجيكا). وكان والده ضون فيليب الجميل (١٤٧٨ـ١٥٠٦م) ارشيدوق النمسا، وابن الامبراطور مكسيمليان، أما والدته فكانت ضونيا خوانا المعتوهة (١٤٧٩ـ١٥٥٥م.) التي كانت الابنة الثالثة للملكين الكاثوليكيين (ضون فرديناند وضونيا ايزابيلا ملكي قشتالة وارغون).

البلاد التي حكمها:

استهل شارل الأول* حكمه لاسبانيا عام ١٥١٧م. واستمر حتـــى عـــام ١٥٥٦م، وكان يحكم دولة شاسعة تشمل المناطق التالية[٢]:

---

[١] وقد تميز بأنه كان أشقر اللون، شفته العليا غليظة، ذقنه ممطوطة، وأما اسفاره فقد كان له في البحـــر الأبيض المتوسط عشر رحلات، وقد غاب عن أرض اسبانيا ثماني مرات، وسافر ثماني مـــرات عـــبر الراين، وأصيب سبع عشرة مرة بنوبات النقرس (Gota)، ظل الامبراطور شارل الخامس متربعا علـــى عرش ملكه حتى تنازل عن الحكم لابنه فيليب الثاني في السادس عشر من شهر كـــانون الثـــاني عـــام ١٥٥٦م. وكان عمره اذذاك لم يستكمل ستا وخمسين سنة منهيا حياته بالزهد والتنسك في ديـــر يوســـتي (استرمادورا) في الحادي والعشرين من شهر أيلول عام ١٥٥٨م. وما يزال جثمانه محفوظا في متحـــف الاسكوريال في مقبرة الملوك.

ومن أجل الاستزادة عن حياة هذا الملك انظر المراجع التالية:

- Manuel BALLESTEROS Beretta: *HISTORIA DE ESPAÑA Y su influencia en la Historia Universal.*. Tomo IV. Barcelona 1.926 Cap. I, Pags 64-73.
- Francisco de Paula VILLA-REAL Y VALDIVIA: *Lecciones elementales de Historia critica de España.* 2a edición. Granada 1.899. Lecciones 60 y 61. Pags. 396-410.
- Maria Comas. Breve Historia de España, segunda edición, Barcelona Mcmxl. IV Ca-pitulo XVII Pags. 125-137.
- F. Arranz Velarde, Resumen de Historia de España, Santander 1939 Pag. 75.

* شارل الأول هو شارل الخامس نفسه عرف باللقب الأول في اسبانيا والثاني في المانيا.

[٢] - C. PEREZ BUSTAMANTE: COMPENDIO DE HISTORIA DE España. 5a edición. Madrid 1952. Capt. XXVIII Pags 231-236.

١. اسبانيا، وجزر صقلية، وسردينيا، وكورسيكا، وبعض أجزاء من شمالي افريقيـــا، ومملكة نابولي مع جميع الممالك المكتشفة في الدنيا الجديدة (امريكا الجنوبيـــة) عـــن جديه لامه الملكين الكاثوليكيين ضون فرديناند وضونيا ايزابيلا عام ١٥١٧م.

٢. انتقل إليه ملك الأراضي المنخفضة عام ١٥٠٦م (هولندا وبلجيكا) وفرانش كونتـي (وهي جزء من برغندية) وارتيوس، ولاكسمبورغو مع بعض المقاطعـــات الفرنســية التي كانت تخص شارل الجسور "أمير برغندية Carlos el Temerario" عن جدته لأبيـــه (زوجة الامبراطور مسكيمليان ماري البرغندية)[١].

٣. دوقية النمسا، ودوقيات أخرى في جبال الألب أهمها: ايستريا (Estiria)، وكارنتيـــه (Carintia) والتيرول في (النمسا) (Tirol) مع القسم الجنوبي مـــن مقاطعـــة الألـــزاس الواقعة في حوض الراين عن جده (الإمبراطور مكسيمليان) الذي توفي فـــي الثـــاني عشر من شباط عام ١٥١٩م[٢].

ونظراً لاتساع المناطق التي آلت للملك شـــارل الأول – عـــن طريـــق الوراثـــة والانتخاب –، فقد نظر إلى اسبانيا على أنها جزء صغير من مملكته المترامية الأطـراف، دون أن يأخذ بعين الاعتبار أن اسبانيا دولة متميزة عن غيرها، بحكم موقعها الجغرافـــي

---

(١) - Jose Luis Comellas, Historia de España Moderna y Contemporañea, (1474-1975), Madrid 1978 Carlos I. Pags: 93-95.

(٢) من اجل الاستزادة عن هذا الملك وأعماله أنظر المراجع التالية:

K. BRANDI, Carlos V (Madrid, 1943).
- R. B. MERRIMAN, Carlos V el Emperador (3a ed., Madrid, 1960).
- D. WYNDHAM LEWIS, Carlos de Europa (6a ed., Madrid, 1955).
- M. FERNADEZ ALVAREZ, La España del Emperador Carlos V (Madrid 1966).
TOMO XVIII de la Historia de España, dirgida por MENENDEZ PIDAL).
- Charles-quint et son temps (Paris 1959).
- Carlos V. Homenaje de la Universidad de Granada (1958).
P. RASSOV. El mundo politico de Carlos V (Madrid 1945).
R. CARANDE, Carlos V y sus banqueros, 3 vols. (Madrid, 1949, 1965 y 1968).
- R. EHRENBERG, Le siecle des Fugger (Paris 1955).
- J. M. MARAVALL, Las Comunidades de Castilla (Madrid 1963).
- L. Piles Ros, Aspectos sociales de la Germania de Valencia.
Estudios de Historia Social de España, II (1952).
- L. RANKE, La monarquia espaflola de los siglos XVI y XVII (nueva edición, Mexico, 1946).
- B. CHUDOBA, España y el Imperio, 1519-1643 (Madrid 1963).
- J. LYNCH, Spain under the Habsburgs (Oxford, 1964).
- M. FERNANDEZ ALVAREZ, POLITICA mundial de Carlos V y Felipe II (Madrid, 1966).
- F. Pietri, La España del Siglo de Oro (Madrid, 1960).
- L. PFANDL. Cultura y costumbres del pueblo espaflol en los siglos XVI y XVII (Barcelona, 1959).
- J. REGLA La epoca de los tres primeros Austrias, en la Historia de España y America, dirigida por VICENS; tomo III (Barcelona, 1961).

والظروف الحرجة التي تمر بها؛ ومن هنا فقد جاء ليدير اسبانيا بهيمنته هـو، وبفـرض شخصيته، بقطع النظر عن رغبات سكانها، لذا عرف في المصـادر التاريخيـة باسـمه الامبراطوري شارل الخامس (شارلكان)، إلا أنه من وجهة نظر التاريخ الاسـباني كـان يعرف باسم الملك شارل الأول.

المشكلات الداخلية والخارجية في عهده:

ولكي يتفهم المرء موقف الإمبراطور شارل الخامس لا بد أن يأخذ بعين الاعتبـار المشكلات المستعصية التي واجهته وحاول حلها في الداخل والخارج، ومـن أهـم تلـك المشكلات الداخلية هي:

١. تهجير الموريسكيين غير المعمدين[١].
٢. أوضاع الموريسكيين إبان تشكيل الجمعيـات المعروفـة بـالأخوة Comunidades والنقابات المعروفة بخرمانيا (Germanias) وثورتهم في بلنسية ومصيرهم في ارغـون وقتلونية.
٣. مظالم الموريسكيين إبان زيارته لغرناطة عام ١٥٢٦م وما نتج عنها من ثورات.
٤. تنظيم الأحوال الداخلية.

أما أهم الأحداث التاريخية فهي:

١. حربه ضد فرانسوا الأول ملك فرنسا الذي كان يطمع في الأراضـي المنخفضـة وروسيليون ونبرة (الإسبانية) ومناطق إيطالية تحت حكم اسبانيا.
٢. الاصلاح الديني والحروب التي نتجت عنه.
٣. الخطر العثماني المتمثل في شخصية المجاهد البحري خير الدين برباروسا وتـأييد السلطان سليمان القانوني له.
٤. حروبه ضد الطوائف والإمارات الألمانية.

لدى توليه الحكم في اسبانيا عام ١٥١٧م، ظل عرش المانيا شاغراً منذ وفاة جـده مكسيميليان حتى انتخب شارل الأول امبراطوراً لالمانيا في الثامن والعشرين من حزيران عام ١٥١٩م.

---

[١] موريسكيون (Moriscos) وهي تصغير لكلمة (Moros) فمعناها المسلمون الذين تم تنصيرهم وبقـوا في شبه جزيرة ايبيريا وتم صهرهم في بوتقة المجتمع الاسباني فيما بعد.

تتويجه امبراطورا على الامبراطورية الرومانية المقدسة:

دعا في الحادي والثلاثين من شهر آذار عام ١٥٢٠م، مجلس نواب قشتالة إلى الاجتماع في شنت ياقب في (جليقية) (Santiago) حيث طلب الملك شارل أموالا طائلة يستعين بها لتتويجه امبراطورا للدولة الرومانية المقدسة. واستخدم الملك شارل الأول لهذه المهمة التي استعصت عليه خاصة في مدينة طليطلة (Toledo) سياستي الترغيب والترهيب، وبذا خاف منه النواب وباعوا أنفسهم للمصلحة الملكية، فوافقوا على وضع ميزانية خاصة للملك بلغت مائتي مليون مرافيدي[1] تحصل من مدريد (Madrid) وقرطبة (Cordoba) وتورو (Toro) وشلمنقة (Salamanca) وطليطلة (Toledo) ومرسية (Murcia).

أحوال اسبانيا في عهده:

في آخر جلسة عقدت في مدينة كرونية في التاسع عشر من شهر آيار عام ١٥٢٠م، اضطر إلى وضع أوصياء على مناطق اسبانيا طوال غيابه. وأصدر الملك شارل الأول مجموعة قرارات[2] من أهمها:

١. تعيين الكردينال ادريانودي اترتس (من أصل غير اسباني) وصياً على عرش ممالك قشتالة وليون.
El Cardenal Adriano de Utrech
٢. تعيين ضون انطونيو فونسيكا قائداً عاماً للجيش.
D. Antonio de Fonseca
٣. تعيين ضون خوان دي لانوثا نائباً للملك في أرغون
D. Juan de Lanuza
٤. تعيين ضون دييغودي مندوسا كندي دي ميليتو نائباً للملك في بلنسية
D. Diego de Mendoza

---

(1) مرافيدي: Maravedis أو Morabetino عملة اسبانية قديمة، تشير إلى عصر المرابطين، ونفوذهم السائد بالاندلس. فهي دينار الذهب المرابطي الذي أصبح – لصحة وزنه وعياره – النموذج المحتذى في بلاد المغرب والاندلس – وقد تم سكه في مدن مغربية واندلسية معاً. بيد أن قيمة (المرابطي) صارت تتأرجح، وصفاتها أصبحت تختلف باختلاف العصور، لدرجة أنها في العهود المسيحية المتأخرة باسبانيا، اختصرت وقسمت إلى ما يعرف بالبليون (Vellon) الذي كان يسك إما من مزيج الفضة والنحاس معاً، وإما من النحاس وحده.

(2) - Don Alejandro Gomez Ranera, Compendio de la historia de España, Novena Edición, Madrid 1875, capitulo IX pag 187.

حلف الملك شارل الأول اليمين الدستوري على أنه – في أثناء غيابه عن اسبانيا – سيوقف جميع التعيينات في المناصب المرموقة، وانه لن يمنح منفعة لغير اسباني.

وفي الثاني والعشرين من شهر أيار عام ١٥٢٠م، أبحر الملك شارل الأول من ميناء كرونية ليتسلم التاج الإمبراطوري بالأسطول الذي كان قد جهزه أسقف بلنسية وبرغش ضون خوان لذريقث دي فونسيكا. وأصبحت اسبانيا في أثناء غيابه مهددة بالفوضى.

وصل الملك شارل الأول إلى اكسغران (Aquisgran) في أراضي الامبراطورية الالمانية التي كانت تسودها الاضطرابات واختلال النظام، بسبب ما كانت تعانيه من حروب دينية، أشعلت نارها المبادئ التي جاء بها لوثر.

تألم النبلاء والسادة الاسبان من تعيين الكردينال ادريانو وصياً على عرش ممالك قشتالة وليون، لا سيما أن ادريانو هذا غريب عن اسبانيا، لذلك رأى النبلاء والسادة في تعيينه أن الملك "شارل الأول" قد فضل شخصاً غريباً عليهم، وهم أهل البلاد وسادتها، وقد قدموا شكاوى عدة، بيد أن تلك الشكاوى والاحتجاجات، لم تجد إلا أذناً صماء لدى الملك الذي أبحر ضارباً بتلك الشكاوى عرض الحائط، غير آبه بما ترك عليه اسبانيا من اضطراب[١].

كانت هذه الاحتجاجات بمثابة الشرارة التي اشعلت فتيل الثورة الاسبانية العارمة التي انطلقت من مدن طليطلة (Toledo) وشقوبية (Segovia)، وسمورة (Zamora)، وشلمنقة (Salamanca)، وآبلة (Avila)، وتورو (Toro)...الخ. فشكلت جمعيات (Comunidades) سميت باسم الأخوة، واختاروا مدينة آبلة لاجتماعهم بزعامة الجنرال خوان دي باديا الذي حاول وضع الملكة خوانا المعتوهة (والدة الملك شارل الأول) على رأس هذه المعارضة.

---

(١) - Jose Luis Comellas, Obra, citada, Pags: 101-106.

أما الثوار الشعبيون المرتبطون بهذه الجمعيات فقد اطلق عليهم اسم شعبي هو كومونيروس (Comuneros). وإلى جانب هذه الجمعيات، نشأت في بلنسية نقابات أخرى عرفت باسم جرمانيا (Germanias) تعارض سياسة الملك شارل الأول، وتقف كالشوكة في الحلق أمام مصالح النبلاء والسادة، وكانت هذه النقابات أصلب من الجمعيات (Comunidades) وأكثر عنفاً، فاستمرت من عام ١٥١٩م ــ ١٥٢٤م.

بدأ الشعب بالتذمر في مدينة شقوبية (Segovia)، ولدى عودة النواب الذين حضروا مجلس البلاط في كرونية (Coruña)، وساهموا بالموافقة على جباية تلك الأموال ووجهوا بمظاهرات صاخبة، واتهموا ببيع أنفسهم للملك، وأنهم لم يعودوا جديرين بتمثيل الشعب تمثيلاً صحيحاً. وقد استطاع المتظاهرون أن يأخذوا أحد النواب، ويشنقوه، ويعلقوا جثته في الساحة العامة. عندئذ غدت ادارة شؤون الحكم في اسبانيا بيد الكاردينال ادريانو.

وعندما عاد الملك شارل إلى اسبانيا عام ١٥٣٠م، حضر جلسات اوسبورغ حيث تقرر فصل الكاثوليك عن البروتستانت نهائياً ولم يعد الملك يسمح لغير الكاثوليك بالإقامة في ممالكه. وعلى ضوء ذلك اتحد الأمراء البروتستانت وشكلوا عصبة اسمها سمالكادا (Smalcalda) مستعينين بفرانسوا الأول ملك فرنسا الذي كان خصماً لدوداً لشارل الأول وبهنري الثامن ملك انجلترا الذي واتته فرصة الاقتران بآنا بولينا منتهزاً ذلك الخلاف الديني. وفي خضم هذا الصراع الديني الذي كانت تغرق فيه أوروبا اجتاح الأتراك هنغارياً، وعندما علم الامبراطور شارل الأول بذلك أبرم اتفاقاً مع البروتستانت ووقع معاهدة صلح تعرف باسم سلام نوريمبرغ لمواجهة الأتراك المسلمين، ومنذ ذلك الحين تم الاعتراف بشرعية البروتستانتية في المانيا.

ثم حارب شارل الأول المجاهدين المسلمين* الذين كانوا يغزون شواطئ البحر الأبيض المتوسط بقيادة خير الدين بربروسا، وقد استولوا بعد تحالفهم مع سلطان القسطنطينية سليمان القانوني (١٥٢٠ــ١٥٦٦م) مدينة تونس وأخذوا يهددون صقلية ونابولي واتجهوا إلى ايطاليا وافتتحوا مدينة غانديا وشواطئ جنوه وكورسيكا وسردينيا

---

* من المتطوعين غير الرسميين للجهاد.

ووصلوا إلى جبل طارق. وعندما توفي المجاهد خير الدين بربروسا عام ١٥٤٥م، استمر القتال بين درغوث خليفة بربروسا والامبراطور شارل الخامس في أيام حكمه الأخيرة، واستولى درغوث على مالطة وبوجيه (بجاية) وطرابلس. وفيما بين عامي ١٥٥٥ و ١٥٥٦م. ترك الملك شارل ممالك اسبانيا وفرنسا لابنه فيليب الثاني وممالك المانيا لأخيه ضون فرناندو[١].

سياسته الداخلية:

اتسمت سياسة الملك شارل الأول الداخلية بالقسوة فقاوم كل من لم يكن يدين بالكاثوليكية، وبذل قصارى جهده لتحقيق وحدة دينية كاثوليكية، وفي هذا المضمار تبع ملوك اسرة هابسبورغ سياسة كان هدفها الحكم المركزي والوحدة الاقتصادية والسياسية والثقافية في اسبانيا، وعلى رأس ذلك كله الوحدة الدينية، وكان الحفاظ على المسيحية الهدف الأول لهؤلاء الملوك[٢]. وكانت الرغبة المسيطرة للوصول إلى الوحدة الدينية هي المحرك الرئيسي لكل أعمالهم، وكان اخراج المسلمين من شبه جزيرة ايبيريا[٣] احدى النتائج المباشرة لهذا المسعى، فقد اتبع شارل الأول سياسة هدفها تنصير المسلمين قسراً، واتخذ بشأنهم سلسلة من الاجراءات تتلخص فيما يلي:

---

(١) - Francisco de Paula Villa-real y valdivia: Obra citada, Pags 396-410, lecciones 60 y 61, pags 396-410.

(٢) - Salvador Madriaga: Spain, Londres 1.930. Pag. 42.

(٣) - Recopilacion de las leyes destos reynos" alcala de henares 1.592. Libro 1. Titulo 1. ley (1).

سياسته تجاه المسلمين المنصرين قسراً:

أصبح قصر الحمراء في الرابع من شهر حزيران من عام ١٥٢٦م مكان استقبال الشخصيات والسفراء والوفود التي كانت تفد على الملك شارل الأول لتهنئته باقترانه بابنة خالته إيزابيلا البرتغالية[1] ابنة الملك مانويل البرتغالي وماريا دي ارغون (ابنة الملكين

---

[1] في عام ١٥٢٥م اجتمع البلاط القشتالي في مدينة طليطلة، ونتج عن ذلك الاجتماع مطالبتهم بان يتزوج الملك شارل الأول ابنة خالته ايزابيلا البرتغالية، فاستجاب لذلك المطلب واقترن بها في شهر مارس عام ١٥٢٦م، في قصر اشبيلية، وكان قد أتم في الرابع والعشرين من شهر شباط السادسة والعشرين من عمره، وعندئذ كانت ايزابيلا البرتغالية قد أتمت الثانية والعشرين من عمرها. وفي الثامن من شهر آيار من العام نفسه غادر الملك شارل الأول وزوجته اشبيلية قاصداً غرناطة وفي طريقهما مرا بمدن استجه، فقرطبة، فجيان، ذلك أنهما لم يكونا قد زاراها من قبل.

بهذا الزواج سار الملك شارل الأول على نصيحة جده الملك الكاثوليكي في المحافظة على العرش بالزواج من قريباتهم الأميرات. وقد استمر هذا الزواج مدة تقارب أربع عشرة سنة، حتى توفيت الامبراطورة ايزابيلا وعمرها ستة وثلاثون عاماً. وكان الملك شارل الأول لم يكمل الآربعين من عمره، ثم قضى تسع عشرة سنة دون أن يتزوج. وكانت حصيلة ذلك الزواج أن أنجبت له ايزابيلا ثلاثة ذكور وابنتين.

أما الذكور فهم على الترتيب:

١. فيليب الثاني، ولد في بلد الوليد عام ١٥٢٧م.
٢. خوان ولد ومات في بلد الوليد عام ١٥٢٨م.
٣. فرناندو، وهذا أيضاً لم يعمر طويلاً.

أما الإناث فهما:

١. ماريا، ولدت عام ١٥٣٠م، وتزوجت من مكسيميليان الثاني، وقد انجبت أولاداً كثيرين.
٢. خوانا، ولدت عام ١٥٣٥م. وقد تزوجت الأمير البرتغالي "ضون خوان" في عام ١٥٥٢م. ومن بين أولادها الملك البرتغالي المعروف ضون سبستيان.

كان للملك شارل الأول غير هؤلاء اولاد غير شرعيين هم:

١. مرغريتا، ولدت قبل زواجه في Oudenarde (فلنديس Flandes) في كانون الأول عام ١٥٢٢م. وكانت مرغريتا هذه من النساء العريقات، عرفت في التاريخ الاسباني باسم، مرغريتا دي بارما.
٢. ضون خوان دي اوستريا (خوان النمساوي) امه "بربرة دي بلومبرج" (Barbara de Blomberg) كانت له في التاريخ الاسباني شهرة غير خافية.

الكاثوليكيين) التي تزوجت الملك مانويل البرتغالي في الرابع والعشرين من شهر آب عام ١٥٠٠م. وأنجبت له عشرة أولاد منهم ماريا والدة ايزابيلا البرتغالية. وكانت الوفود تزور الملك شارل لاستشارته في الأمور المستعصية، وعلى رأس هؤلاء موريسكيون كانوا قد أرغموا على التنصر فأصبحوا نواباً في مجالس البلديات منهم:

١. ضون فيرناندودي بنيغش Don Fernando Venegas.
٢. ضون ميجيل دي ارغون Don Miguel de Aragon
٣. دييغولوبث بنخارة Don Diego Lopez Benajara

وقد قدم هؤلاء الموريسكيون له مذكرة تاريخية بمظالم اخوانهم الموريسكيين تبين ما لحقهم من اضطهاد وأذى على يد كاثوليكيي غرناطة[1] نتيجة الأحكام القاسية التي كان قد أصدرها الملك شارل الأول عام ١٥١٨م، بحق الموريسكيين لكثرة ثوراتهم[2]، فاتخذ من هذه المذكرة سبيلاً لفتح ملف الموريسكيين وللتشديد عليهم بغرض صهرهم كما يتضح من الاجراءات التي اتخذها بحقهم خشية أن تقوم لهم قائمة، فيصبحوا مصدر قلق على أمنه في الداخل، لا سيما أن هذه الأمور كان يرتكبها رجال الدين والنواب والقضاة، وتعجب من جرأة الموريسكيين، فأمر أن تثار هذه القضية في مجلسه الخاص، وشكل لجنة ظاهرها أنها تود تقصّي الحقائق لإيقاع العقاب على مرتكبي هذه الجرائم، وباطنها أن يعرف الملك شارل مدى تمسك الموريسكيين بدينهم الاسلامي وشعائره ليسلك طريقاً أنجع من الطرق السابقة في قمعهم. وكان من واجبات هؤلاء المفتشين أن يستقصوا ظروف الموريسكيين المعيشية عامة.

ومما يسترعي الانتباه أن المذكرة التي قدمها الموريسكيون الثلاثة للملك شارل الأول أدت إلى ردود فعل معاكسة من قبل الملك لانه ظن أن تقديم هذه المذكرة يوحي بأن

---

(١) - Julio caro Baroja, Los Moriscos del Reino de Granada, Madrid 1976, 2a editión, Pag 52

(٢) لا تختلف هذه الاحكام كثيراً عما كان إبان حكم الملكين الكاثوليكيين والملكة خوانا المعتوهة. انظر كتابي (التنصير القسري لمسلمي الاندلس في عهد الملكين الكاثوليكيين ١٤٧٤-١٥١٦م). الطبعة الأولى، عمان - الأردن ١٤٠٠هـ/١٩٨٠م، صفحة ٦٣-٧٩. ومقالتي: حالة الموريسكيين إبان حكم الملكة خوانا المعتوهة، مجلة دراسات، المجلد الثامن، العدد الثاني، كانون الأول ١٩٨١م.

الموريسكيين لا يزالون متماسكين بالرغم مما حل بهم. كما تدل هذه المذكـــرة علـــى أن الموريسكيين الذين نصروا قسراً لم يكونوا نصارى أبداً في حقيقة الأمر، وإنما دلّت هـــذه المذكرة على احتفاظهم بدينهم وهويتهم العربية مما جعله يتشكك في أن تقديم هذه المذكرة ما هو إلا مقدمة لانتفاضة يحتمل أن يقوم بها الموريسكيون فيما لو رفض الاستجابة لـــها. وقد انتهز الملك هذه الفرصة وأمر بتشكيل لجنة لتقصي الحقائق ظاهرياً للكشـــف عــن المتذمرين من الموريسكيين، لاتخاذ اجراءات مشددة بشأنهم. ولا شك أن المذكرة ســـالفة الذكر تعتبر ظاهرة جديدة تدل على مدى تعاطف الموريسكيين مع بعضهم بـــالرغم مــن تنصيرهم القسري الذي كان يستهدف تشتيت تجمعهم واضعاف قوتهم وصهرهم في بوتقة المجتمع الإسباني.

اختار لهذه الغاية[١]:

١. (ضون غسباردي ابالوس) اسقف وادي اش Don Gaspar de Avalos (Guadix)
٢. الراهب انطونيو دي غويفارا واعظ جلالته Don Antonio de Guevara
٣. الدكتور خوان دي كينتانا Dr. Juan de Quintana
٤. الدكتور فرنسيسكودي اوتيل Dr. Francisco de Utiel
٥. القانوني بيدرولوبيث El Canonigo Pedro Lopez

وبعد أن تحقق هؤلاء من الظلم والاضطهاد الذي لحق بالموريسكيين غضوا النظر في تقريرهم عن الجرائم الكبرى التي انزلها أبنـــاء جلدتـــهم وعقيدتـــهم بالموريســـكيين الأبرياء، وتبينوا أن الموريسكيين – رغم مرورهم بالمحن المتتالية – لم يكن بينهم مـــن يدين بالنصرانية[٢]. وقد رفعوا تقاريرهم عن تلك المظالم إلى مقام الملك شـــارل الأول، وبعد اطلاعه على فحوى هذه التقارير، تبين له أن الموريسكيين كانوا يرغمـــون علـــى اعتناق النصرانية دون تلقينهم مبادئ الإيمان المسيحي، واقتنع انه يستحيل على أي أحـــد أن يعتقد بديانة دون أن تشرح له وتفصل.

(١) - A. Redondo: Fray Antonio de Guevara, et L' Espagne de son temps, paris, 1976, 2a, Seccion Capitulo VI "Les Morisques grenadins".
- Antonio Domiguez Ortiz, Bernard Vincent Historia de los morsicos, vida y Tragedia de una minoria, Madrid 1978, pag 25.
- Luis del Marmol Carvajal, Historia de Rebelion y castigo de los moriscos del Reyno de Granada, Segunda Impresión Tomo, I Madrid, MDCCXCVII, 1797, Capitulo primero, pag 130.

(٢) - Julio Caro Baroja, Obro citada, Pag 52.

لذلك قرر: أن يجتمع الكهنة والقساوسة والرهبان، وينظروا على ضوء هذه التقارير في إصلاح الوضع من أجل صهر الموريسكيين في البوتقة المسيحية. اجتمعت هذه اللجنة في الكنيسة الملكية وجلست عشر جلسات، وتباحثت في قضايا عدة كانت تتضمنها التقارير، باعتبارهم صفوة الأمة المثقفة بالايمان المسيحي على المذهب الكاثوليكي.

من أهم أعضاء هذه اللجنة(١):

١. ضون الونسو مانريكي (رئيس أساقفة اشبيلية الرئيس العام لمحاكم التفتيش في اسبانيا).
٢. ضون غارسيا لوسيسا (اسقف اوسما امين اعتراف الامبراطور من الخطايا).
٣. الراهب بيدرو دي البا (مطران غرناطة).
٤. ضون غاسبار دي افالوس، "بنيت في عهده المدرسة الملكية والجامعة وقد عين مطراناً لوادي آش، عام ١٥٢٥م، ثم عين مطراناً لغرناطة من عام ١٥٢٨م إلى ١٥٤٢م.
٥. الراهب دييغو دي بيالار (أسقف المرية).
٦. ضون خوان خوارث (أسقف مندنيرو).
٧. ضون الونسو فالديس (أسقف اورينسي).
٨. ضون غارسيا دي باديا رئيس الرهبانيات العسكرية لقلعة رباح.
٩. ضون فرنسيسكو ديلوس كوبوس (سكرتير جلالته).
١٠. دكتور انطونيو دي غويفارا، (من أعضاء مجلس الملكة) أصبح مطراناً لوادي آش بعد وفاة سلفه عام ١٥٢٩م.

تبين للجنة بعد تلك الجلسات العشر والأخذ والرد والاختلاف غير اليسير، أن الطريقة السابقة في تنصير الموريسكيين قسراً، لم تكن مجدية، لذلك لجأوا لأساليب أكثر دهاء وأكثر عنفاً، فاتخذوا القرارات التي تضمن لهم ايمان الموريسكيين بالكاثوليكية، والا فإفناؤهم، أو تهجيرهم. أما قراراتهم فهي:

---

(١) - Luis del MARMOL CARVAJAL: Obra citada Tomo 1. Libro I. Capitulo 21, Pags. 105-109.
Antonio DOMINGUEZ ORTIZ Y Bernard VINCENT: Obra citada Capt. 1. Pag. 27.

١.نقل محاكم التفتيش من بلدة جيان إلى غرناطة، لتتمكن من ايقاع القصاص على من يرتد من المنصرين قسراً إلى الاسلام، وليعاقبوهم أشد أنواع العقوبات، لعل في ذلك عبرة لمن لم يعتبر.

٢.تغفر للموريسكيين كل الشرور والمغالطات التي ارتكبوها حتى عام ١٥٢٦م، ضد الايمان الكاثوليكي، وينذرون بأشد العقوبات إذا لم يرتدوا عن غيهم، أو إذا عادوا إلى الشغب والشرور بممارستهم للشريعة الاسلامية.

٣.منع الموريسكيين من استخدام اللغة العربية، سواء في المحادثة أو في الكتابة، وعليهم أن يتعلموا اللغة الاسبانية، ويكتبوا عقودهم ومعاملاتهم بها، ولا تكتب أبداً باللغة العربية.

٤.على كل موريسكي أو موريسكية أن يبدل ملابسه حتى تصبح صورة متفقة مع الملابس التي يلبسها النصارى الاسبان.

٥.يمنع الخياطون والصاغة من الخياطة أو الصياغة للفضة والذهب على النمط الموريسكي الذي كان معروفاً سابقاً حينما كانوا يرتدون ثياباً موريسكية متميزة، ويتحلون بالذهب والفضة بطريقة مختلفة عن الاسبان.

٦.على كل موريسكية حامل أن تستحضر قابلة مسيحية تعينها على الولادة، حتى لا يسمى الولد باسم اسلامي، ولا تقام أي احتفالات ولادة اسلامية عند الوضع.

٧.حظر عليهم استعمال الحمامات.

٨.منع الموريسكيين من ممارسة الاحتفالات في الأعياد والمناسبات الاسلامية سراً.

٩.أمر بأن يغلق الموريسكيون أبواب بيوتهم عليهم أيام الجمعة والسبت.

١٠. منع النساء من استعمال الخضاب على الأيدي والأرجل والرؤوس في حفلات الزواج.

١١. لا يسمح بإقامة الاحتفالات إلا على الطريقة الاسبانية.

١٢. حظر استخدام الأسماء العربية.

١٣. منع الموريسكيين من اقتناء الأطفال اللقطاء[١].

١٤. منع اقتناء الموريسكيين للعبيد والأسرى لخدمتهم[٢].

١٥. لدى زفاف أي موريسكي أو موريسكية يجب أن تظل الأبواب مفتحة حتى يخلو العروسان، ثم يرغم كل من حضر الزفاف على التوجه إلى الكنيسة لحضور الصلاة.

١٦. إقامة معاهد في غرناطة ووادي آش والمرية خاصة لتعليم أبناء الموريسكيين وتلقينهم الايمان الكاثوليكي، خشية أن ينشأوا ويترعرعوا متأثرين بالعقيدة الاسلامية، لمجاورتهم للأقارب الذين ما يزالون يمارسون شعائر الدين الاسلامي سراً[٣].

ومن يمعن النظر في هذه القرارات يجد أنها إن لم تكن القرارات التي صدرت في عهد الملكين الكاثوليكيين والملكة خوانا المعتوهة فإنها أشبه ما تكون بها، وانما تزيد في عدد بنودها وتفصيلها وصرامتها.

---

[١] لما تمنعت الموريسكيات عن الاقتران بالاسبان، نجم عن ذلك التمنع اعتداء قسري على عفافهن، فكثر اللقطاء الذين يوجدون على أبواب الكنائس والأديرة وفي الأزقة والساحات العامة، لذلك مارس رجال الدين ضغطاً على الامبراطور شارل الخامس لانشاء ملاجئ خاصة للقطاء يتربون فيها على الديانة المسيحية، خشية أن يزيدوا في عدد الموريسكيين إذا ما ربوهم على المبادئ الاسلامية السرية، فاستجاب الامبراطور لهذا المطلب ولذلك منع الموريسكيون من إيواء اللقطاء.

ومن العوامل التي زادت في عدد اللقطاء، الفقر المدقع حتى لم تعد كثير من الأسر قادرة على إعالة اطفالها فألقت بهم كأنهم لقطاء وما مرد ذلك الفقر إلا لإقصاء الموريسكيين عن مزاولة أعمالهم العادية التي كانت تدر على البلاد الخيرات الوافرة، وكثرة الضرائب التي اثقلت كاهل الشعب، ولم تكن تفرض إلا على أكثر الطبقات فقراً، أما النبلاء ورجال الدين والسلطة فكانوا معفين منها.

[٢] - Julio Caro Baroja: Obra citada. Pags: 52-53.

[٣] - Carlos Mendoza, Glorias Españolas Tomo, III Barcelona, Sin Fecha Capitulo VI Pags, 546-547.
- Bermudez de Pedraza (Francisco) Historia Eclesiastica de la nombrada y gran ciudad de Granada (Martes 18 Noviembre 1636 Capitulos XLV-XLVI.
- Luis del Marmol Carvajal, Obra citada Capitulo II, Pags. 132-134.
- Don Francisco Vermudez de Pedraza Historia Eclesiastica, Principios y progresos del cuidad y religion Catolica de Granada 1638 Capitulos, XLVI, pags. 213-214.
- Antonio Gallego Burin, y Alfonso Gamir Sandoval Los Moriscos del Reino de Granada Segun el sinodo de Guadix de 1554, Universidad de Granada 1968, Pags. 21-22.
- Pedro Longas, Vida Religiosa de Los Moriscos Madrid 1915, pags. XLII y XLIII, XLV, XLVI.

استمرت المفاوضات السرية بين ممثلي الموريسكيين الثلاثة المذكورين سابقاً، وبين الملك شارل الأول حتى قر قرارهم على أن يلغي الملك تلك القرارات المجحفة، في مقابل أن يدفع الموريسكيون للملك ٨٠٫٠٠٠ دوكات [١] *.

وقد نفذ الموريسكيون ما التزموا به فدفعوا المبلغ المذكور والغى الملك شارل الأول عام ١٥٢٦م القرارات السابقة بصفة آنية، وظلت الأمور في الواقع سيئة كما هي حتى تولى الحكم ابنه الملك فيليب الثاني عام ١٥٥٦م. فأعاد فرض هذه القرارات التي أقرها مجلس طليطلة عام ١٥٥٩م، وزاد في بنودها وزاد التنكيل بالموريسكيين، فالأحوال كانت دائماً بالنسبة إلى الموريسكيين تزداد سوءاً مع مرور الزمن، ولم تكن أي لجنة تدعي مناصرتهم إلا لتضمر عداءهم واجتثاثهم أو تنصيرهم.

على أثر هذه القرارات الظالمة ضد الموريسكيين[٢]، غادر الامبراطور البلاد ليحل المشكلات المستعصية في أرجاء امبراطوريته الشاسعة، تاركاً في غرناطة مجلساً مهمته ادارة البلاد، وكان كل من أعضاء هذا المجلس يتمتع بسلطات واسعة.

في الطرف الآخر كانت هناك شخصيات بارزة لم يضعها الامبراطور في المجلس، فطوت صدورها على الحقد والكراهية لرجال الدين وأعضاء المجلس، وبذا كانوا مصدر شغب، وكثيراً ما كانوا يتفوهون بألفاظ نابية في وصف هذه الادارة. وقد تظاهر الامبراطور بعدم ملاحظة ذلك، بيد أنه لجأ إلى معالجة هذه الأزمة بحل المجلس تدريجياً، عندما ذهب إلى بلد الوليد، وعين أناساً آخرين فيه، لكن هذه القضية لم تحل، إذ أن المعزولين قد سخطوا، وغير المعيَّنين الذين شاركوهم في المصيبة شاركوهم في السخط.

---

(١) - Miguel LAFUENTE ALCANTARA: Historia de Granada. Tomo IV Granada 1.846. Capt. XIX. Pags. 181-183.
- Manuel Ballesteros BERETTA: Historia de España y Su influencia en la Historia Universal. Tomo IV, Barcelona, 1926. Capt. I, Pags. 1-8.
- Marcelino MENEDEZ PELAYO: Historia de los Heterodoxos Espafloles, 2-a edición. Tomo V. Madrid 1.928. Capt. III. Pag. 326.

* دوكات (Ducados) عملة ذهبية قديمة اختلفت قيمتها باختلاف العصور، وقد كانت زمناً ما تساوي سبع بزيتات اسبانية.

(٢) - Antonio DOMINGUEZ ORTIZ y BERNARD VINCENT: Obra citada, Capt. I, Pags. 24-25.

في أثناء إقامة الامبراطور في غرناطة، منح ١٥٠ر٠٠٠ مرافيدي ليساهم في انشاء مستشفى لمعالجة المرضى، وليعين على رعاية اليتامى واللقطاء الذين كانوا يتركون على أبواب الأديرة والكنائس. وقد بدأ العمل على بناء ذلك المستشفى قرب باب الرملة في غرناطة، وفي الوقت نفسه بدأ في داخل دير سان خيرونيمو بإنشاء مصلى واسع تحت اشراف زوجة ضون غونثالو فرناندث دي قرطبة القائد الكبير، آملةً أن تدفن وزوجها فيه. وبلغت تكاليف انشاء هذا المصلى (الكنيسة) قرابة (٨٠ر٠٠٠) دوكات، هي الضرائب التي سلمها الموريسكيون للامبراطور، فلم يأخذ منها إلا ثمانية عشر الفا لبناء قصره قرب قصر الحمراء، وهو ما يزال قائماً يعرف باسم قصر شارل الخامس.

نستنتج من هذه القرارات أن الموريسكيين ظلوا يتعرضون للاضطهاد منذ سقوط غرناطة إلى عهد الملك شارل الأول وذلك جزء من الصراع العقائدي الذي استهدف القضاء على الدين الاسلامي واللغة العربية في اسبانيا، ولم يكن الموريسكيون هم المستهدفين كشعب بهذه القرارات القاسية ذلك لأنهم ساهموا في بناء الحضارة الاسبانية وأصبحوا أقرب إلى الاسبان منهم إلى العرب نتيجة تزاوجهم وانصهارهم في المجتمع الاسباني، ولكن الهدف الحقيقي من هذه القرارات هو ابعاد الموريسكيين عن عقيدتهم الاسلامية والممارسات المنبثقة عنها سواء أكانت عبادات أم معاملات بتنصيرهم أو تهجيرهم.

كما نستنتج أن محتويات هذه القرارات تضمنت بنوداً تدل على قسوة لا مثيل لها إذا قورنت بالقرارات التي سبقتها في عهد الملكين الكاثوليكيين وعهد والدته الملكة خوانا المعتوهة.

ومن الغريب أن نجد الملك شارل الأول يظهر بمظهر متعاطف مع الموريسكيين في أثناء مقابلتهم في حين أنه كان يضمر لهم ويخطط لاجتثاثهم باختياره اللجان التي كلفها بتقصي الحقائق والاطلاع على الأوضاع الحقيقية للموريسكيين، وقد زاد الأمر سوءاً ذلك التعصب الديني المقيت الذي أظهره رجالات الدين من حيث قيامهم بالضغط على الملك شارل الأول تحت ستار الدين.

كانت الاجراءات التي سبق ذكرها تتعلق بمسلمي غرناطة، أما موريسكيو طليطلة وسيقوبية وسمورة وسلمنقة وتورو وبلنسية وأرغون وقطلونية...الخ، وبقية أجزاء شبه الجزيرة الايبيرية فلهم أوضاع تقشعر لها الأبدان.

أوضاع الموريسكيين إبان تشكيل حركة الجمعيات

المعروفة بخيرمانيا Germanias

شكل الشعب القشتالي عام ١٥١٩م مجموعات شعبية عرفت باسم الجمعيات تقوم على الأخوة الدينية، أو الأخوة المقدسة. وقد تسلمت هذه الجمعيات التي اطلق عليها اسم سانتا خيرمانا Santa germana، مقاليد السلطة في بلنسية، وبدأت توسع سيطرتها على الأرياف والمدن المجاورة، واشترك فيها رجال الدين من أحبار ورهبان وقساوسة وخورة. وقد سلحت هذه المجموعات نفسها على غرار الميليشيات الفعلية (الحرس الوطني) التي أنشأها الكاردينال خمنيس دي سيسنيروس[١]، خدمة للكنيسة، عن طريق استخدامها ضد النبلاء كلما دعت الحاجة إلي ذلك. ثم جاء الملك شارل الأول (وهو نفسه الامبراطور شارل الخامس) فأراد هو أيضاً استخدام هذه المليشيات لمصالحه الخاصة. ولما شبّ أعضاء هذه الجمعيات عن الطوق، وقويت سواعدهم، وتسلحوا...قاوموا الموريسكيين[٢] الذين كانوا يقيمون الشعائر الدينية سراً، كما قاوموا كل من كان يقدم لهم العون، وكان هؤلاء الحماة ــ في غالبيتهم ــ من نبلاء البلاد.

وكان على كل من ينضم إلى هذه الجمعيات من أبناء الشعب أن يقسم على الكتاب المقدس بأن يضحي بالمال والنفس والنفيس في سبيل ملاحقة الموريسكيين، وإبادتهم، وإبادة كل من يتعاطف معهم، وكان من بين المنضمين حلاج للصوف اسمه خوان لورنثو Juan Lorenzo، وهو أول قائد لهذه الجمعيات (النقابات)، وكان يتمتع باحترام شعبي عام، فاقترح أن يتشكل مجلس من ثلاثة عشر نقيباً أو حرفياً[٣]، لادارة جميع أمور الدفاع لهذه الجمعيات، وقد قاطع هذا المجلس ومن يمثلهم قوانين الملك شارل الأول. وقرر أن يلجأ أعضاء الجمعيات إلى مجلس الجمعيات لحل قضاياهم.

---

[١] معرف الملكة ايزابيلا الكاثوليكية الذي أصبح فيما بعد وصياً على عرش قشتالة بعد موت الملك فرديناند الكاثوليكي عام ١٥١٦م.

[٢] - Antonio Dominguez, Ortiz Bernard Vincent, Historia de los Moriscox, Vida y tragedia de una Minona, Madrid, 1978, Pag. 23.

[٣] شكلوا مجلس الثلاثة عشر نقيباً – حرفياً – تيمناً بذكرى السيد المسيح عليه السلام وحوارييه الإثني عشر.

خاف النبلاء على أنفسهم ومصالحهم، فشكلوا ثمانيَ لجان أرسلوها إلى الملك شارل الأول في برشلونة، مطالبين بأن يحضر إلى بلنسية في أسرع وقت ممكن، ليحل مشكلاتهم المتجددة المستعصية، لكن الملك شارل الأول كان على عجلة من أمره، إذ كان عليه أن يذهب إلى شنت ياقب (بجليقية) لحضور جلسة مجلس قشتالة، لذا أمر أن يجتمع المجلس البلنسي برئاسة الكاردينال ادريانو، لكي يحلف اليمين عن الملك مفوضون ثلاثة هم: ادريانو Adriano de Utrech ونائب المستشار ضون انطونيو فونسيكا Antonio Fonseca ومدير الاسبتارية في أرغون وبلنسية السيد خوان دى لانوثا Don Juan de Lanuza. كما أمرهم بمنع تسلح الجمعيات وحظر اجتماعاتها إلا باذن من الحاكم. وفي هذه الأثناء "أيضاً" ارسلت الجمعيات وفداً من ممثليها إلى شارل الأول، ليوضح له أهداف هذه الجمعيات، وأسباب نشوئها، وضرورة تسلحها ضد ثورات الموريسكيين في الداخل، والغزو الاسلامي من الخارج. عند ذلك، منح الملك هذه الجمعيات اعترافه بها، شريطة أن يحلف أهل بلنسية يمين الولاء لسلطته وقوانين البلاد، وبهذا الاعتراف أصبحت الجمعيات قانونية مما زاد من شعبيتها وفي ارتفاع الروح المعنوية لدى المنتمين إليها. إلا أن هذا الاعتراف ترك في الوقت نفسه أثراً سلبياً بالغاً لدى أهل بلنسية، بيد أن النبلاء الذين كانوا حانقين من اعتراف الملك بالجمعيات رفضوا ذلك مما أدى إلى سخط أدريانو. ومن ثمّ عودته مع زميليه دون حلف اليمين. وسار إلى جليقية ليتسلم وثيقة تعيينه وصياً على عرش ممالك قشتالة وليون من الملك شارل الأول. وقبيل سفر الملك شارل الأول من كرونيا، وصله وفدان متضادان أحدهما يمثل النبلاء، ويمثل الآخر الجمعيات، وكان كل منهما يطمع في نيل رضى الملك، طمعاً في المكاسب التي تترتب على هذا الرضا، وقد كان وفد النبلاء يطالب الملك بحل الجمعيات، بينما كان أعضاء الجمعيات يرغبون في الحصول على مراكز النواب وحكام البلديات في بلنسية. واستجاب الملك لطلب النبلاء في بعض أجزائه، إذ عرض أن يعين من بينهم نائباً له مطلق الصلاحيات، واختار ضون دييغو مندوسا ـــ كونت ميليتو ـــ - D. Diego de Mendoza Conde de Melito لهذا المنصب.

وفي الوقت ذاته سلم رسالة لخوان كارو Juan Caro رئيس ممثلي الجمعيات لكي يعطيها لنائب الملك مندوسا، وتشتمل هذه الرسالة على توصية بتلبية مطالب الجمعيات. وبعد ثلاثة أيام، صارت القضية كاللعب على الحبال، إذ أعطى الملك لنائبه تعليمات

مناقضة للرسالة التي منحها للجمعيات، ذلك أنه كان يخشى خطورتها على عرشه في اسبانيا. وكانت الرسالة الأولى في السابع من أيار عام ١٥٢٠م. والتعليمات المضادة في العاشر من الشهر نفسه.

ودخل نائب الملك الجديد مندوسا إلى بلنسية في التاسع من أيار، فحلف المجلس له يمين الولاء في اليوم نفسه، واحتفظ بحقه في الاحتجاج. وطالب جيين سورولا Guillen de Sorolla نائب الملك "مندوسا" بادخال مندوبين إلى مجلس البلدية ليمثلا الرعاة، معتمداً على الرسالة التي حملها خوان كارو من الملك، واراد مندوسا أن يرفض هذا الطلب، بناء على الرسالة الثانية المناقضة، بيد أن سورولا أقسم إن لم يدخل هذان المندوبان فإن الدماء ستغرق البلاط الملكي أو يتعكر الصفاء في المملكة.

وفي السادس والعشرين من أيار من العام نفسه جرت الانتخابات، ونجح المندوبان اللذان يمثلان الرعاة، وكان مجلس الحرفيين الثلاثة عشر قد أقرهما، ولم يحصل مرشحو الملك على أي صوت. لكن مندوسا رفض التصديق على نتيجة الانتخابات. أما المندوبان الجديدان فقد باشرا أعمالهما. واحتفالاً بهذا النصر، أُقيم عرض عسكري كبير بالسلاح، مرّ من أمام قصر نائب الملك مندوسا، بل أن بعض الرعاة اطلق طلقات على باب القصر.

وبهذا النصر تأزّر موقف الجمعيات أكثر، فأيدتهم جماهير بلنسية، وشاطبة، وتبعت في التأييد جماهير مربيطر Murviedro فألغت مجلسها، وهاجمت النبلاء الذين احتموا في أحد القصور، بيد أن الجماهير الغاضبة اقتحمته عليهم، وذبحت الكثير منهم. وبذا أعلنت الحرب الصريحة بين مجلس الثلاثة عشر نقيباً (حرفياً) وبين النبلاء. وفي عام ١٥٢٠م ألف ثلاثة من الفرسان جمعية من النبلاء في المدن وقاموا بتعيين عشرين ممثلاً لهم، ليدافعوا عن أنفسهم، وعن الأمن الداخلي، بحكم الحقوق التي كانت ممنوحة لهم. وبذلك كانت هذه الجمعية تعبيراً عن شعور هذه الطبقة ضد محاولات الكاردينال خمينث دى ثيسنيروس الذي حاول تجريدهم من امتيازاتهم الملكية.

وبينما كان الشعب يكتوي بنيران تلك الفوضى، هرب نائب الملك مندوسا (كونت ميليتو) إلى كونثنتيانا Concentaina ومنها إلى شاطبة حيث احتمى بقصرها في الثالث والعشرين من تموز، لكن الرعاة طردوه، فطلب اللجوء عند دون غانديا Gandia المسؤول عن المحافظة على النظام في ولايته، وبهذا أصبحت بلنسية تحت حكم مجلس الحرفيين الثلاثة عشر. ولما رأى النبلاء ما آلت إليه الأحداث من تمزق شملهم وسقوط هيبتهم، هربوا بأسرهم، واحتموا في مورلا Morella (سيمانقس) المدينة الوحيدة التي قاومت نفوذ الجمعيات، وأصرت على بقائها على الولاء للملك. مما جعل الملك شارل الأول يكتب من Aguisgram للحاكم مورلا شاكراً إياه على مواقفه النبيلة، وذلك في الثاني والعشرين من تشرين الأول ١٥٢٠م.

لم تستقر الأحوال في بلنسية بعد الذي جرى لنائب الملك والنبلاء، فقد غدت الفوضى الشاملة تنتشر انتشار النار في الهشيم، وظل الثوار والمخلون بالأمن يعتدون على الأهالي دون رحمة، ولم يستطع مجلس الحرفيين ضبط الأمور، وإيقاف الفوضى، فطلب المجلس من نائب الملك مندوسا العودة إلى بلنسية، وضبط الأمن فيها، بيد أن هذا النائب الذي خارت قواه وضعف قلبه، لم يصدق حقيقة مطالبهم، فرفض العودة حتى لا يتورط في تلك الفوضى الشاملة.

وفي السابع عشر من آب دعا النبلاء إلى اجتماع في Valdigua، وقد تمخض هذا الاجتماع عن تشكيل جيش، إلا أن هذا الجيش بدلاً من أن يبادر فوراً إلى اخضاع الجمعيات، وترسيخ الأمن في بلنسية، بعث بوفد إلى الملك شارل الأول في المانيا يستأذنه في إخضاع ثورة الجمعيات. وطال الأمد دون أن تصل تعليمات الملك بهذا الشأن. وفي هذه الأثناء، كان أعضاء الجمعيات قد غيروا الادارة، وتقاسموا المناصب، لكن حكمهم ظل قائماً على الأرهاب والتخريب.

وفي التاسع والعشرين من نيسان عام ١٥٢١م، أي بعد أكثر من أربعة أشهر حضر سكرتير الملك إلى بلنسية ليبلغهم أوامر الملك الصارمة، فتلقوه بالحجارة والضرب، فما كان منه إلا أن لاذ بالفرار. وبذا أعلنت الجمعيات عداءها للملك جهاراً.

أما الموريسكيون في بلنسية فقد تركوا أعمال الحقـول، وشـكلوا فرقـاً مسـلحة لاخضاع ثورة الجمعيات، وحماية أنفسهم والنبلاء الذين كانوا يدافعون عنهم، لكن ثـوار الجمعيات كانوا أكثر عدداً وعدة، فنهبوا أحياء الموريسكيين الذين أظهروا ــ رغـم قلـة عددهم ــ بسالة منقطعة النظير في الدفاع. ولما اكتشف اعضاء الجمعيات بتـاريخ ٢٠ مايو ١٥٢١م جثتي عبدين منهم ماتا غرقـاً فـي سـاقية مربيطـر Murviedro اتـهموا الموريسكيين بهذا الفعل وازدادت نقمتهم، ورفعوا العلم الذي كان يرفع أثناء قتال المسلمين على بوابة Serranos، وانسحب النبلاء إلى قصورهم، تاركين الموريسكيين وحدهـم فـي الميدان. واستطاع أعضاء الجمعيات أن يخضعوا مجموعة من أرياف موريسكيي بلنسـية، ويجبروهم على الرضوخ والركوع في صف طويل، وقد جردوا من أسـلحتهم فقطعـت رؤوسهم بالجملة، واحرقت جثثهم. ولقد تم ذلك على أيدي زعماء الجمعيات الذين كـان جلهم من رجال الدين، وكانوا يحملون الصلبان، وينادون باستئصال الموريسكيين.

وبعد ذلك جرت الاستعدادات لاخضاع Morella والمدن والقرى التي يوجـد فيـها موريسكيون (مسلمون) فسار حشد بقيادة "ميجيل استيلاس النجـار" Miguel estelles، وفي الوقت نفسه اتجه حشد آخر بقيادة "صانع الأقمشة" بيريس Vicente peris لمواجهـة جيـش النبلاء الذي نجم عن الاجتماع مع نائب الملك مندوسا في Valdigua، وكان هذان الحشـدان قد اعلنا للملأ انهما منطلقان للقضاء على الموريسكيين، ولتنصيرهم قسراً.

ولم يستطع النجار وجماعته اخضاع مورلا، وفي أثناء انسحابه هاجمـه ضـون الونسو دى ارغون "دوق سيغوربي" Segorbe وتمكن من الحاق الهزيمة بجيـش النجـار وقتله.

وأما بيرس "صانع الأقمشة" فقد سار بجيشه إلى محاربة نائب الملـك (مندوسـا) خارج مدينة بلنسية، وكان هذا الأخير يفتقر إلى جيش منظم، لـذا لاذ بـالفرار بمجـرد مشاهدته جيش بيرس، واحتمى بحصن غانديا في الثاني والعشرين مـن تمـوز. وفـي الخامس والعشرين من الشهر نفسه خرج مستعداً للقتال، لكن فـرق المدفعيـة القشـتالية خانته، وتخلت عنه منضمة إلى صف بيرس، فهرب مسرعاً إلى دانية، وانسحب بعـض النبلاء إلى قصورهم، وسار بعضهم إلى قشتالة، وبهذا النصر الحاسم رجحت كفة أعضاء الجمعيات أكثر فأكثر.

ومن أمثلة الجهاد البطولي للموريسكيين ما حدث في قصر بولب Polop (دانية) حيث تحصن به ستمائة موريسكي، وقاوموا مقاومة بطولية ضد جيوش بيرس، كما تمكن الموريسكيون من دحر جيش بيرس، واجباره على التراجع إلى بلنسية. وقد أثار بيرس الفوضى متذرعاً برؤيته بعض صبية الموريسكيين قرب الحي الخاص بهم يعبثون بصورة قديمة للقديس ميخائيل، ويدوسونها بأقدامهم، وهيج الشعب البلنسي ورجالات الدين وتحركوا لمحاربة الموريسكيين وتغلبوا عليهم وقتلوا منهم الكثيرين، ووضعوا الصورة في مسجد بلنسية الوحيد، ودخلوا إليه وصلوا فيه صلاة مسيحية، ثم حولوه إلى كنيسة تعرف حتى الآن باسم كنيسة القديس ميخائيل.

وفي هذا الوقت استسلمت غانديا ومربيطر، ودخلها نائب الملك "مندوسا" مع دوق سيغربي Segorbe في السادس عشر من تشرين الأول. ومن مربيطر كان نائب الملك يهدد بلنسية العاصمة، وكان يهددها أيضاً من الجهة الأخرى ماركيز بلش، وماركيز مولا، وسادة الـ Mogente, Albatera وكانوا يزحفون نحوها بجيش قوامه سبعة آلاف جندي وثمانمائة خيال، وأمام هذا التهديد دب الهلع في نفس سورولا وبيرس، فانسحبا من المدينة إلى وادي Jucar استعداداً للحرب، واتخذا لهما موقعاً في Alcira، وقد تم استسلام بلنسية في الثامن عشر من تشرين الأول. وبعد ذلك بثلاثة عشر يوماً دخلها نائب الملك مندوسا ـ كونت ميليتو ـ واستقر في قصره الذي كان قد تركه بطريقة مشينة[1].

ولم يبق للثوار أعضاء الجمعيات سوى مدينتي Alcira وشاطبة، فاتجه نائب الملك إلى Alcira وحاصرها، لكن الحظ لم يسعفه، فأراد أن يجرب حظه مع شاطبة، فحاصرها حصاراً طويلاً، وكان يرافقه جيش كبير من ثمانية آلاف رجل، ولديهم مدفعية جيدة، ورغم كل ذلك بدا عجزه للعيان. ومع ذلك أقنعه أنهم إذا ما انسحبوا، فانه سيسلم المدينة لشقيق نائب الملك الماركيز Cenete فانسحب مخدوعاً، وعندما جاء شقيقه ماركيز Cenete لاستلام المدينة حسب الاتفاق أسروه، فثارت ثائرة البلنسيين على هذه الخيانة التي ارتكبها

---

[1] والناظر إلى سلوك القشتاليين الذي جاؤوا لإنقاذ بلنسية من مجموعات الجمعيات يجد أنهم قد عاملوا الموريسكيين المعاملة نفسها من حيث الاضطهاد والقتل والتنصير القسري.

سورولا وأهل شاطبة، وإزاء ذلك اضطر سورولا والرعاة إلى اطلاق سراح ماركيز Cenete، وانسحب بيرس من مدينة شاطبة إلى بلنسية، برفقة بعض عصاباته طمعاً في إثارة مواليه، ورغم الحراسة المشددة على المدينة التي كانت تتكون من مائة فارس كل منهم يود اغتيال بيرس، ومنعه من دخول المدينة إلا أنه تمكن من دخولها ليلة الثامن عشر من شباط عام ١٥٢٢م.

واستقر مطمئناً في بيته في شارع غراثيا Gracia، وأخذ يتباحث مع جماعته، ويضعون الخطط لإعادة سلطانه على بلنسية. وكانوا يقسمون أن يموتوا دفاعاً عنه، وقد جند خمسة آلاف محارب وهاجموا شارع غراثيا من كل الاتجاهات، فقوبلوا بالنساء يضربن الجنود بالحجارة، وأثاث المنازل، ويرشقنهم بالمياه المغلية من النوافذ. وبعد أن سقط كثير من القتلى والجرحى، استطاعوا الوصول إلى بيت بيرس، وأضرموا فيه النيران. وفي أثناء محاولة بيرس الهرب خشية الموت حرقاً، قتلته إحدى التنظيمات الشعبية، وجُرت جثته وعلقت على مشنقة في السوق، وعلقت رأسه على شباك كنيسة القديس Vicente ثم علق على بابها، كما شنق تسعة عشر من رفاقه في السجون، ووضعت جثثهم على الطرق الخارجية، وأزيل بيت بيرس نهائياً، ومكانه يعرف الآن بساحة غاليندو Galindo.

ويمكن أن تعتبر هذه هي المعركة الحاسمة في حياة ثورة الجمعيات، مع أن الحروب لم تنته تماماً مع الموريسكيين الذين أبرزوا مهارات حربية فائقة، وقد هُزم ثوار الجمعيات في العراء مرتين، أولاهما في الخامس عشر من نيسان عام ١٥٢٢م. وثانيتهما في الثاني من أيلول من العام نفسه في بلوس Bellus.

وعندما عاد الامبراطور شارل الخامس إلى اسبانيا، ارسل تعزيزات عسكرية، وأمر أن تعاد محاصرة شاطبة التي كانت خالية إلا من النساء. وبدأ بحصارها في السادس من أيلول عام ١٥٢٢م، وقاومت النساء مقاومة الرجال، فتشجع الثوار من أعضاء الجمعيات الذين كانوا يأوون إلى قمم الجبال، وعادوا لمشاركة النساء في حرب جيش نائب الملك مندوسا، ووقع جيين سورولا Guillen Sorolla أسيراً في يد أحد الموريسكيين، وكان هذا الموريسكي طالما تعطش إلى قتل سورولا لأنه كان قد قتل كل أفراد أسرته،

وأخيراً وقع سورولا في الأسر بعد أن كان أذاق الموريسكيين أنواعاً كثيرة من الوبـــال. وسلمه الموريسكي إلى نائب الملك الذي شنقه في شاطبة في الثامن عشر من تشـرين الثاني عام ١٥٢٢م. وفي العشرين من الشهر نفسه استسلم الحصن. ولما تحققت مدينـــة Alcira من استسلام شاطبة استسلمت. وتم شنق جلّ زعماء ثورة الجمعيات، وبذا انتــهت ثورتهم تماماً، بعد أن كلفت البلاد أكثر من أربعة عشر ألف قتيل، واستسلمت قطاعـــات الشعب في قشتالة، وانتهت ثورة المدن في أرغون وبلنسية، وتوطـدت أركــان العـرش هناك، وعاد نفوذ النبلاء إلى سابق عهده.

ثورة المجاهد الموريسكي سليم المنصور في سلاسل جبال اسبادان البلنسية في عهد الملك شارل الأول ١٥١٧م ـ١٥٥٦م

ذكرنا فيما تقدم أن الموريسكيين شهدوا أحداثاً مفجعة، وتعرضوا لاضطهاد تعسفي في عهد الملكين الكاثوليكيين مروراً بابنتهم الملكة خوانا المعتوهة، وذلك إثر سقوط غرناطة، ونقض الاسبان للمعاهدات المبرمة بينهم وبين المسلمين. وهذا الوضع السيء الذي مر به الموريسكيون في بلادهم، كان لا بد أن ينجم عنه رد فعل عنيف، ومن الطبيعي أن يكون رد الفعل عنيفاً لأي شعب يتعرض لمثل هذه الأوضاع السيئة. ونتساءل الآن عما إذا كان بمقدور الموريسكيين أن يتحركوا لمقاومة الظلم الذي تعرضوا له على يد الملك شارل الأول من قرارات تعسفية وظلم مجحف. والحقيقة التي سيظهرها هذا الفصل تشير إلى عدم استحالة أي أمر صعب طالما ارتبط أصحابه بعقيدة الايمان الراسخ في نفوسهم.

يهدف هذا الفصل إلى الكشف عن فترة تاريخية من جهاد الموريسكيين الذين تعرضوا للاضطهاد والمضايقات من قبل الاسبان في عهد الملك شارل الأول، كما يبين كيف استطاعوا بقيادة المجاهد سليم المنصور أن يتحدوا الظلم الذي وقع عليهم بالقيام بثورة عارمة، في محاولة للتخلص من أوضاعهم المزرية. كما يهدف أيضاً إلى الكشف عن المخططات الأسبانية التي كانت ترمي إلى وضع الموريسكيين في أوضاع نفسية واجتماعية واقتصادية تجبرهم على التخلي عن ديارهم والهجرة إلى انحاء المعمورة، وكيف أن صمودهم وتشبثهم بأوطانهم وتمسكهم بعقيدتهم أدى، على الرغم من كل هذه المحاولات، إلى عدم استسلامهم ورضوخهم.

عندما ترسخت دعائم عرش الامبراطور شارل الخامس[١] في اسبانيا كلها، كان عدد الموريسكيين الذين نصرّهم ثوار الخيرمانية[٢]، بوضعهم بين سيف الجلاد ومياه المعمودية يربو على ستة عشر ألفاً[٣] لكنهم ظلوا يعتنقون الدين الاسلامي، ويمارسون العبادات سراً، يعينهم على ذلك تسامح النبلاء الذين وقف الموريسكيون إلى جانبهم، وبذلوا في سبيل الدفاع عنهم النفس والنفيس، شريطة أن لا يرغموا على التخلي عن عقيدتهم. وكان تعاطف النبلاء مع قضية الموريسكيين يرتكز أساساً على مصالحهم الخاصة، وكانت هذه المصالح تقتضي استرضاء الموريسكيين الذين كانوا يخدمون في ضياع هؤلاء النبلاء.

وفي الثاني عشر من أيار عام ١٥٢٤م وقع البابا كليمنت السابع على قرار يعفي الامبراطور من كل التعهدات التي أخذها على نفسه بالسماح للموريسكيين بممارسة حريتهم الدينية وعاداتهم وشعائرهم. وهذا القرار الذي وقعه البابا بناء على طلب من السفير الاسباني في روما الدوق سيسا، وبناء على رغبة الامبراطور نفسه، يدعو أيضاً إلى تنصير الموريسكيين التابعين لتاج أرغون قسراً[٤]. كما أجاز البابا للامبراطور استعباد الموريسكيين الذين يرفضون التنصير، عن طريق استخدام جهاز التحقيق المعروف باسم محاكم التفتيش بما يملكه من أساليب اجرامية بغيضة كريهة مرعبة لحملهم على التنصير. وفي هذه الأثناء هاجرت أسر كاملة هرباً من هذا الضيم وتلك الويلات التي

---

(١) الامبراطور شارل الخامس هو نفسه الملك شارل الأول.

(٢) الخيرمانية مأخوذة من الكلمة الاسبانية (Germanias) وتعني الأخوة، وهي عبارة عن مجموعة تألفت من عامة أهل بلنسية. وكانت غاية هذه المجموعة التصدي للنبلاء ولتصرفات المحكمة الكنسية إلى أن تطورت مهمتها فيما بعد، إذ أخذ أعضاؤها في تنظيم أنفسهم عسكرياً، وانشأوا المليشيا (الحرس الوطني القشتالي) التي سميت هيرمانداد (Hermandad) أي الأخوة.

وكان بعض أفرادها من رجال الدين، لكنها خرجت عن الهدف الذي أسست من أجله حيث انقلبت ضد المسلمين والنبلاء واستمرت من عام ١٥١٩ إلى ١٥٢٤م. انظر:

- Mercedes Garcia-Arenal, Los Moriscos, Madrid, 1975, pp. 107-108.

(٣)
- Historia del Alzamiento de los Moriscos, Su Espulsion de Espana y sus Consecuencias en todas las Provincias del reino, p. 87.
- Antonio Dominguez Ortiz, Bernard Vincent, Historia de los Moriscos Vida Y Tragedia de una minoria, Madrid, 1978, p. 23.
- كتاب لمؤلف موريسكي مجهول وضعه بالاسبانية حول تاريخ الثورة الموريسكية وتهجير الموريسكيين وآثار ذلك التهجير في جميع أنحاء شبه الجزيرة الايبيرية، ص ٨٧.

(٤)
- Louis Cardaillac, Mnorisco y Cristianos un enfentamiento Polemico (1492-1642), Madrid, 1979, p. 109.

عانوا منها الأمرين. وكان الامبراطور شارل الخامس يرغب في أن يعرف ما إذا كان الذين عمدتهم مجموعة (الخيرمانية) قسراً مسلمين أم نصارى[1]. لذا أجل البت في قضية تنصير الموريسكيين. وفي الرابع عشر من كانون الأول عام ١٥٢٦م، كتب الامبراطور شارل الخامس رسالة إلى البابا جاء فيها: "إن اعتناق المسيحية من قبل الكثير من الموريسكيين لم يكن عن اقتناع منهم فضلاً عن انهم لم يعلّموا عقيدة إيماننا الكاثوليكي"[2].

حالة الموريسكيين قبيل ثورة المجاهد سليم المنصور:

في شباط من عام ١٥٢٥م اجتمع مجلس مؤلف من رئيس محاكم التفتيش العام، وأعضاء مجالس قشتالة وأرغون وبعض اللاهوتين في الدير التابع للقديس فرنسيسكو في مدريد (El Convento de San Francisco de Madrid) وقد عقد اثنتين وعشرين جلسة حضر آخرها الملك شارل الأول. وما إن غادر الجلسة حتى اتفق المجتمعون على أنه يجب أن لا يؤخذ برأي الملك شارل في تنصير الموريسكيين، وقرّر الراهب خيرونيمو خايمي بينت[3] (Geronimo Jaime Benet) أنه إذا اعتبر المسلم المعمد قسراً نصرانياً فهذا يعني أنّ هؤلاء المعمدين قسراً (هراطقة) بينما قرر الراهب فراي خايمي بليدا (Fray Jaime Bleda) وجوب اقرار الشخص بأنه يريد التعميد عن رغبة ليؤمن بالنصرانية، وإلا فإنه لا يعتبر نصرانياً ولا يجوز ارغامه على اعتناق النصرانية، وحدد موقفه في كتابه المنشور باللاتينية:

"Defensio Fidei in causa neophitorum sive Moriscorum Regni Valentioe, totiusque Hispanie" [4].

---

(١) - D. Bascual Boronaty Barrachina Bro, Los Moriscos Espaneoles y Su explusion. Tomo I, Valencia, 1901, pp. 130-131.
- Antonio Dominguez Ortiz, Bernard Vincent, op. Cit., Madrid, 1978, p. 24.

(٢) أنطونيو دومينغيز هورتز – وبرنارد بنثنت، تاريخ مسلمي الأندلس (الموريسكيون)، حياة ومأساة أقلية، قطر ١٩٨٨م، ص٣٠.

(٣) - D. Bascual Borronat y Barrachina Bbro, Los Moriscos Españoles y su Explusion, Estudio Historico- Critico, Tomo I, Valencia 1901, p. 136.
- خيرونيمو خايمي بيننت (Geronimo Jaime Benet) حصل على الاستاذية بعد تفرغ ثمان وثلاثين سنة على دراسة قانون الكنيسة في جامعة ليرده (Lerida) الإسبانية.

(٤) مؤلف موريسكي مجهول، ص ٨٨-٨٩.

وفي الرابع من نيسان عام ١٥٢٥م، أصدر الملك شارل وثيقة تؤكد أن عملية التنصير القسري التي تمت في عهد الخيرمانية في بلنسية جائزة، لذا شكل لجنة يرأسها المفوض والمفتش العام أسقف وادي آش، غاسبار دي أبالوس (Gaspar de Avalos) والكهنة التالية أسماؤهم[١]:

١. الراهب الفرنسيسكي انطونيو دي غيفار (Fray Antonio de Guevara)
٢. الراهب الدومينيكي خوان الشلمنقي (Fray Juan de Salamanca)[٢].
٣. الدكتور إن كارنيسير (El Doctor En Carnicer) من أعضاء مجلس قتلونية،

ولتثبت أيضاً أن ما جاء بالوثيقة صائب، وتفرض على الهراطقة التائبين "الموريسكيين" أن يعمدوا أولادهم، وأن يتوبوا، ويعودوا إلى النصرانية، وأن تحول مساجدهم إلى كنائس، وتعتبر جزءاً من أملاك الكنيسة الكاثوليكية. وقد وصل الأسقف والكهنة إلى بلنسية في العاشر من أيار، وفي الرابع عشر منه نادوا من الكنائس على الموريسكيين للصلاة ليستمتعوا بالعفو الملكي، وأنه من لا يحضر خلال ثلاثين يوماً، فسيقتل، وتصادر ممتلكاته، وطاف الكاهنان المبشران في مختلف بلدان بلنسية، ولما رأى الموريسكيون أن العقوبة نازلة بهم لا محالة، هرعوا إلى الكنائس، وكانوا يحصلون على العفو، ويعمدون أولادهم، ويعودون إلى منازلهم وفي نيتهم عدم تلقينهم مبادئ الايمان الكاثوليكي[٣]. وفي الثامن والعشرين من أيلول عاد الكاهنان إلى العاصمة من رحلتهما التبشيرية، وفي الثامن من تشرين الأول عام ١٥٢٥م، أعلنت اللجنة السابقة الذكر تمديد مدة العفو عشرة أيام أخرى ليعمّد من لم يفعل بعد، وهددوا باستعمال أقسى العقوبات، وحظروا على الموريسكيين مغادرة مساكنهم،مهددين من يفعل ذلك بأن يصبح عبداً إلى

---

(١) مؤلف موريسكي مجهول، ص ٨٩؛
- Alonso de Santa (Gruz, Cronica del Emperador Carlos V. Madrid, 1920 pp. 119-120.

(٢) - Arch. Gral. del Simancas-Cons. de Inq., Lib. num. 75, Folio 217.

(٣) - Pedro Longas, Vida Religiosa de los Moriscos, Madrid, 1915, pags LIII LIV.
- من أجل الاستزادة حول هذا الموضوع انظر المخطوطات التالية:
- Fr. Jaime Bleda, Cronica de los moros de Esp., Lib. V., cap. XXIX, pag 647 Col 2a.
- Arch. Gral. de Simancas-Cons. de Inq., Lib. num 75, folio 216.
- Arch. Gral. de Simancas-Cons. de Inq., Lib. num 75, folio 218.
- Arch. Gral. de Simancas-Cons. de Inq., Lib. num 15, folio 455.
- Arch. Gral. de Simancas-Cons. de Inq., Lib. num 15, folio 457.

الأبد[1]. لكن الموريسكيين لم يتجاوبوا مع ذلك التمديد، وشرعوا يستعدون للهرب، وطفق كل منهم ببيع ممتلكاته بأي ثمن حتى صدر في الحادي والعشرين من تشرين الأول عام ١٥٢٥م قرار يمنع الشراء من الموريسكيين. وفي السادس عشر من تشرين الثاني صدرت وثيقة ملكية تلغي العبادة الاسلامية نهائياً. ثم قررت اللجنة التهديد بمصادرة ملكية من لم ينصّر وتجريده من السلاح بحيث لا يبقى للموريسكيين إلا خنجر بدون رأس[2]، وقد جمعت هذه الأسلحة وأحصيت وسلّمت إلى اللجنة، ومن وجد لديه أي سلاح من الموريسكيين بعد ذلك، جلد مائة جلدة وأمسى عبداً إلى الأبد. وقررت اللجنة اغلاق المساجد، لتنتهي ممارسة العبادات الاسلامية، سواء كانت هذه الممارسة علناً أو سراً. وقررت أن يضع كل موريسكي هلالاً أزرق على عمامته[3]، وأن يرغموا على حضور كل الاحتفالات الدينية، ويستمعوا إلى المواعظ، وأن يعطلوا أيام الأحد ومن خالف عوقب واستعبد، الا العمل يوم الأحد فكانت تقبل عنه الغرامة[4].

ونشر مسؤول محاكم التفتيش في بلنسية في الثالث من شهر تشرين الثاني عام ١٥٢٦م، مرسوماً في طليطلة سمي قرار الوشاية، ويقضي بأن على كل نصراني أن يسلم من يعرف عنهم من رافضي التعميد أو يشي بهم حتى تنفذ بهم العقوبات المنصوص عليها، والا تعرّض للحرمان الكنسي. وفي الخامس والعشرين من الشهر نفسه، نشر آخر فرمان ملكي بحق الموريسكيين الذين لم يكونوا قد عمدوا بعد، سواء من الرجال أو النساء أو الأطفال الذين تجاوزت أعمارهم ثلاث عشرة سنة يقضي بخروجهم من مملكة بلنسية، بل من اسبانيا في مدة أقصاها نهاية شهر كانون الأول من العام نفسه[5]. وقبيل نهاية كانون الثاني من عام ١٥٢٦م، كان على موريسكيي بلنسية مغادرة اسبانيا من خلال راكينا (Raquena) فؤتيل (Utiel) فمدريد (Madrid) ففيافرانكا (Villafranca) فميناء كرونية (Coruna)[6].

---

[1] مؤلف موريسكي مجهول، ص ٩١.

[2] المصدر نفسه، ص ٩١.

[3] - D. Bascual Boronat y Barrachina, Pbro, Los Moriscos Españoles y Su expulsion Tomo I, Valencia, 1901, pag 153.

[4] مؤلف موريسكي مجهول، ص ٩١.

[5] المصدر نفسه، ص ٩١.

[6] المصدر نفسه، ص ٩٢.

أما بقية الموريسكيين الاندلسيين فهاجروا بـأعداد هائلـة عـن طريـق بسـقاية (Vizcaya) إلى فرنسا فايطاليا فمصر فافريقيا، أما عدد الموريسكيين الذين بقوا في مدينـة ابن الوزير فقليل، ولعل تحديد الطريق بهذا الشكل، كان يهدف إلى سـلبهم ممتلكاتـهم، ومنعهم من التوجه إلى المغرب خشية الالتحاق بالمجاهدين الاندلسيين الذين نذروا أنفسـهم لمقاومة الملة الأخرى من المسيحيين الاسبان، أينما سنحت الفرصة، وخاصة في حـوض البحر المتوسط.

ثم صدر بعد ذلك قرار يؤكد أن على كل اسباني يحمي، أو يعين، أو يحتفظ ولـو بموريسكي واحد، بعد الحادي والثلاثين من شهر كانون الثاني عـام ١٥٢٦م، أن يدفـع غرامة قدرها خمسة آلاف دوكادوس. كما أنه يعرض نفسه للتهلكة أو الموت المؤكد[١].

وقد اندهش الموريسكيون من هذه القرارات، لا سيما من موقف النبـلاء الذيـن اعتادوا أن يخدموهم، إذ أن النبلاء لم يحركوا ساكناً ضد تلك القرارات على الرغم مـن الفائدة الكبيرة التي كانوا يحصلون عليها من خدمة الموريسكيين لهم وحمايتهم، فتوجـهوا إلى خيرمانا دي فوا "أرملة الملك الكاثوليكي" وحفيدة الملك الفرنسي لويس الثاني عشـر، يسترحمونها بالمساعدة، فاعطتهم في التاسع عشر من شهر أيلول أذناً بمقابلة الملك شارل الأول دون الاعتداء عليهم، فتوجهت مجموعات منهم يقدر عدد كل منـها بـاثني عشـر شخصاً لمقابلته في طليطلة.

وعلى إثر تلك المقابلة، منحهم الملك مهلة خمس سنين لكي يعتنقوا النصرانية، أو أن يجردوا من كل ممتلكاتهم ويهجروا، وقد عرضوا عليه تقديم مساعدة مقدارها خمسـون ألف دوكادوس في مقابل التخلي عن تهجيرهم وتنصيرهم، فكان رده خشناً، وأمرهم جميعاً أن يخرجوا من المجلس. وبعدئذ طلبوا أن يبحروا من ميناء لقنت (Lecante) بـدلاً مـن كرونية، فرفض ذلك أيضاً، بحجة أن ذلك يسهل عليهم التوجه إلى شمال افريقيا والالتحاق بالقراصنة حسب رأيه[٢].

---

[١] مؤلف موريسكي مجهول، ص ٩٢-٩٣.

[٢] المصدر نفسه، ص ٩٣.

عندما رأى الموريسكيون تشبث المسؤولين باعتناقهم النصرانية وضرورة اعتناقها حفاظاً على الحياة والممتلكات، طلبوا من الملك شارل الأول، ألا يحاكموا أمـــام محـــاكم التفتيش وامهالهم مدة أربعين سنة[1]، لكن الملك شارل الأول، رفض هذا الطلب، وحولهم إلى رئيس محاكم التفتيش العام الذي اعطاهم مهلة لمغادرة البلاد أقصاها الخـــامس مـــن شهر كانون الثاني عام ١٥٢٦م، ثم توجهوا بعد خروجهم من القصر في طليطلـــة إلـــى رئيس محاكم التفتيش في اشبيلية (الونسو مانريكي) فاستمع لمطالبهم بصمـــت واســـتقبلها كأنه مناصر لهم، وحظي بثقتهم حتى طالبوا أن يكون محاميهم لدى الملك شـــارل الأول، وفي السادس عشر من الشهر نفسه، سلمهم الونسومانريكي مذكرة نتيجة مســـاعيه لـــدى الملك شارل الأول تعدهم بأن يعاملوا معاملة النصرانيين الجدد، أي أنهم لن يلاحقوا إلا إذا مارسوا الهرطقة التي تهدف إلى التشويش على الديانة النصرانية، ولن يدانو إلا بعد ثبوت ذلك[2]. كما وعدهم بأن يحصل لهم على قرار من البابا يقر وقائع زواجهم التي تمت على الطريقة الاسلامية، وكانت قبل ذلك تعتبر غير شرعية لدى الاسبان، وأن تكون لهم مقبرة خاصة، وأن يسمح لهم بعدم الخروج من بيوتهم أيام الأحد، وأن يمنحوا حق استخدام اللغة العربية والملابس التقليدية عشر سنوات أخر[3].

خفَّف الملك وطأة صرامة قراراته بعض الشيء عن الموريسكيين، لعلهم يقبلـــون على التعميد والنصرانية عن طواعية، واضعاً في اعتباره أن سلطته ستلاحقهم إذا لم يأتوا طائعين، حتى تبيدهم عن آخرهم، ويتبين من ذلك، أنه كان ينظر إلى الموريسكيين علـــى أنهم قوم غرباء وسرطان خطير في جسم الأمة الاسبانية، فوجب على الاسبان تخليـــص بلادهم من هؤلاء الفسقة وشرورهم، باستئصالهم من جذورهم حتى لا يغتنموا أي فرصـــة لاستعادة الهيمنة لدينهم الاسلامي، فيخرجوا اسبانيا من تبعيـــة الكنيســـة، ويحدثـــوا فـــي النصرانية ثلمة يصعب رتقها. وقد كان التخفيض من شدة القرارات مشروطاً بأن يذهـــب الموريسكيون إلى الأديرة والكنائس ولو بالقوة جماعات ووحدانا. وقد لاقت هذه الفكـــرة رفضاً لدى الكثير من الموريسكيين، فنصروا قسراً، وقد بلغ عدد المنصرين قسراً ما بيـــن

(١) - Pedro Longas, Vida Religiosa de los Moriscos, Madrid, 1915, p. XLI.

(٢) مؤلف موريسكي مجهول، ص ٩٣-٩٤.

(٣) المصدر نفسه، ص ٩٤.

١٥-١٦ ألف طفل بالاضافة إلى سبعة وعشرين ألف[١] أسرة موريسكية في بلنسية وضواحيها فقط.

ومع كل ما ذكر، انطلقت ثورة عارمة للموريسكيين كانت شرارتها الأولى في مدينة ابن الوزير Banaguacil [٢] حيث لم يرضخوا لمطالب الملك شارل الأول بسهولة، واتخذوا من قراهم حصوناً واغلقوا أبوابهم في وجوه رجالات الدين المسيحي. وانضم إليهم سكان القرى القريبة مثل بنيسانو (Benisano) وبيتيرا (Betera) وفيامرتشنتي (Villamarchante) وبترنه (Paterna) بالاضافة إلى أماكن أخرى[٣]. وأخذ الأطفال والنساء والرجال حتى المسنون منهم يتسلحون سراً، ويستعدون لمعركة المصير، ويتأهبون للثورة والانتقام لأرواح ذويهم الذين سالت دماؤهم وجبلت تربة اسبانيا التي اصطبغت بالحمرة من أثر تلك الدماء وكثرتها. وقام حاكم بلنسية على رأس ألفي جندي مجهزين بالمدافع بمهاجمتهم حتى استسلموا في الخامس عشر من شهر شباط عام ١٥٢٦م، بعد حصار دام شهراً ونصف الشهر، فرضخوا للتنصير القسري مضافاً إليه غرامة مقدارها اثنا عشر ألف دوكادوس، عوضاً عن مصادرة ممتلكاتهم واستعبادهم إلى الأبد[٤].

انطلاقة ثورة سليم المنصور:

هرب كثير من موريسكيي وادي اوسو (Valle de uso) ووادي الموناشيد (Valle de Almonacid) ومن مدينة سيغوربي (Segorbe) ومن نهر مربيطر (Murviedro) وحملوا معهم الأطفال والنساء خوفاً من قتلهم أو خطفهم ليربوا في أحضان الكنيسة، وكذلك هرب كثير من سكان مدينة ابن الوزير إلى سلاسل جبال اسبادان[٥] الواقعة ما بين وادي الموناشيد ومدينة أونده بالقرب من مدينة سيغوربي أو ما بين أنهار ميخارس (Mijares)

---

(١) - Alonso de Santa Cruz, Cronica del Emperador carlos V, Madrid, 1920, p. 120.

(٢) - Arch. Gral. de Simancas-Cons. de Inq. Lib. num. 15, fol. 463.

(٣) - D. Bascual Boronat y Barrachina Bbro, op. cit., Tomo I, Valencia, 1901, p. 157.
- Arch: gral, de simancas-Cons. de. Inq., Lib. num. 15, fol. 464.

(٤) - D. Bascual Boronat y Barrachina Bbro, op. cit. 1901, p. 159.

(٥) - Alonso de Santa Cruz, Cronica del Emperador carlos V, Madrid, 1920, p. 122.
- Julio Caro Boroja, Los Moriscos del Reino de Granada, Madrid, 1976, p. 52.

وبلازيا (Palencia)[١] وهي وعرة جرداء صعبة المرتقى، وانضم إليهم كل موريسكي احتفظ بدينه، حتى بلغ عددهم أربعة آلاف مجاهد فعينوا فلاحاً عليهم هو (كاربايو) (Carbaio) من قرية الغار (Algar) ليكون خليفة مسلماً تابعاً لنهج الخلافة السابقة في الاندلس، وتحدوا أوامر الملك شارل الأول، وقد حول "كاربايو" اسمه إلى سليم المنصور[٢]. وحصن الجبل بالصخور الضخمة والحجارة والخشب، وحفر اتباعه الخنادق، وجعلوا من تلك المنطقة الجرداء حصناً ممتازاً، حيث منعت النصارى الاسبان من اقتحامها عليهم، وجهز المنصور ــ مستفيداً من بطء حكومة بلنسية ــ جماعته تجهيزاً جيداً. لكن الملك شارل الأول حاول أن يوجه جنوده إليهم لاستئصالهم. وكان الجنود يجبنون عن مواجهتهم، رغم شهرة الملك التي كانت قد عمت أوروبا، فاستدان من النبلاء مبالغ كبيرة من المال ووعدهم بتسديدها بعد الانتصار على المجاهد سليم المنصور وثورته حتى لا يتقاعسوا عن الموريسكيين، ويضعهم تحت الأمر الواقع. هذا مع العلم أن الملك شارل لم يكن بحاجة إلى المال فقد كان يستغل مناجم الذهب في البيرو والمكسيك[٣]، لكن غايته كانت إرباك النبلاء مالياً كي يتخلوا عن الموريسكيين، وفعلاً نجحت خطته تماماً كما كان يتوقع لها. وبالاضافة إلى هذه المناورة استطاع الملك أن يجهز جيشاً من ثلاثة آلاف جندي، أغلبيتهم من النبلاء الذين كانوا يحتضنون الموريسكيين للعمل في مزارعهم، وكان هذا الجيش بقيادة ضون سيغوربي، وما إن بدأت المعركة في شهر نيسان عام ١٥٢٦م حتى دب الهلع في نفوس الجنود الاسبان من جراء الصخور الضخمة والأخشاب الكبيرة التي كانت تلقى على رؤوسهم من أعالي الجبل، فكانت خسارتهم فادحة بلغت ستين قتيلاً ومائتي جريح. وبعد هذا النصر المؤزر الذي حققه سليم المنصور ضد الجيش الاسباني استمر في تحصين منطقته، وأخذ ينزل إلى البلدان المجاورة ويلتقي باخوانه الموريسكيين للتشاور معهم وجلب المؤن من وادي ميخاريس (Mijares)، ومن هناك أخذ يشن هجماته على البلدان المجاورة حتى وصل إلى ميناء تشيلتس (Chilches) في أواخر شهر أيار من العام نفسه، ونهب الموريسكيون بيوتها وهدموا الكنيسة ونهبوا مجوهراتها وكأس القربان وحطموا تمثال السيد المسيح وصعدوا بكأس القربان إلى أعالي

---

(١) - Joan Regla, Estudios Sobre los Moriscos Barcelona, 1974, p. 29.

(٢) مؤلف موريسكي مجهول، ص ٩٥.

(٣) المصدر نفسه، ص ٩٦.

جبال اسبادان[1]، وعلى أثر ذلك عمّ الحزن مملكة بلنسية، وأخذ الرهبان والقساوسة والأساقفة والبطارقة والكردينالات، يدفون الدفوف ومعهم الصلبان ويحملون تماثيل السيد المسيح عليه السلام ومريم العذراء ويمشون مشية حداد يبثون الحماس في قلوب الناس، لاستخلاص كأس القربان من أيدي الموريسكيين ومعاقبتهم على (جريمتهم الشنعاء) تلك. ورفعوا الأقمشة السوداء في هياكل الكنائس وارتدى رجال الدين الملابس السوداء أثناء تأدية الصلوات، ورفع علم الصليبيين الذي كان قد استخدم في الحروب الصليبية إلى جانب علم المدينة، وسار قداس مهيب وصل إلى باب سيرانو (Serrano) وتبرع الشعب البلنسي بأموال كثيرة، وتشجع حتى اجتمعت قوة قوامها ستة آلاف متطوع انضموا إلى جيش دوق سيغوربي والتقى بمجموعة من الموريسكيين كانوا خارج جبال اسبادان، وجرت المعركة ورجحت في بدايتها كفة دوق سيغوربي الذي غنم ما قيمته ثلاثين ألف دوكادوس من الموريسكيين هذا بالاضافة إلى سقوط المدن التالية بأيديهم:

١. الموناشيد (Almonacid) في الرابع عشر من شهر شباط عام ١٥٢٦م.
٢. مدينة ابن الوزير في السابع عشر من شهر آذار من العام نفسه[2].

فتشجع النصارى وشرعوا يتسلقون جبال اسبادان بحماسة لكنهم أخذوا يتدحرجون من أعلاها بفعل الصخور التي كانت تلقى عليهم، ولم يتمكنوا من الوصول إلى الخنادق، وانهزم جيش دوق سيغوربي في النهاية، لأن أغلبية جنوده كانوا من النبلاء الذين كانوا يحاربون عن غير رضى ولا اقتناع، فانتصر الموريسكيون انتصاراً بيناً، فبعث الملك أوامره بأن تنضم إلى قوات سيغوربي القوة التي طلبها من هولندا وهي فرقة من الجيش الالماني كان عددها أربعة آلاف محارب.

---

(١) مؤلف موريسكي مجهول، ص٩٦.

(٢) - Antonio Dominguez Ortiz, y Bernard, op. cit., p. 25.

مشاركة الجيش الالماني للقضاء على الثورة الموريسكية:

في السابع عشر من شهر أيلول عام ١٥٢٦م وصل – بناء على رغبة الملك شارك الأول ودوق سيغوربي – أربعة آلاف جندي الماني إلى أراضي بلنسية[١] بقيادة روكاندولف (Rocandolf)، واحتلوا جبلاً يقابل جبال أسبادان، ويسهل مرورهم إليها منه على حين لم يكن سليم المنصور يتوقع مجيء الجيش الالماني من هناك، وكانت المقاومة ضعيفة. وقرر دوق سيغوربي بالاتفاق مع القائد الالماني روكاندولف تقسيم الجيش إلى أربعة أقسام، بحيث تهاجم هذه الجماعات سليم المنصور في آن واحد من الجهات الأربع. ومنذ ذلك الحين سمي الجبل بجبل المسيحيين لكثرة من قتل من رجالاتهم، وفي صباح التاسع عشر من شهر أيلول ١٥٢٦م، توجهت الفرق الأربع وتسلق الجبل عشرة آلاف مسيحي في وقت واحد[٢]. وأخذت الصخور تتفتت، وكان دفاع الموريسكيين الذين نقص عددهم إلى ثلاثة آلاف من خلال الهجمات السابقة مستميتاً متحينين الفرصة للانسحاب، وأخذ الموريسكيون ينسحبون من موقع إلى موقع حتى تجمعوا في الحصن الواقع على قمة الجبل. وفي ١٨ أيلول من العام نفسه، كان المسيحيون قد وصلوا القمة[٣]، وكانت مذبحة ذهب خلالها زهاء الفي موريسكي، من بينهم المجاهد سليم المنصور الذي قتل في هذه المعركة[٤]، وانسحب الذين استطاعوا الهرب إلى قرية مويلا دي كورتس (Muela de cortes) ثم استسلموا تماماً في العاشر من شهر تشرين الأول من العام نفسه[٥].

وقام الاسبان بالإساءة إلى من تبقي من الموريسكيين بضربهم بالعصي وهم مجردون من الألبسة، ألحقوا بهم الأضرار الجسدية، والتشويهات الخلقية، مما جعلهم في حالة يرثى لها. كما أصدر البابا كليمنت السابع قراراً بالغفران لكل نصراني اشترك في حرب الموريسكيين وكانت النتائج خسارة فادحة للمسيحيين من رهبان وقساوسة، وأمراء، ونبلاء، وفرسان سقطوا ما بين قتلى أو جرحى. فقد قارب عددهم أربعة آلاف قتيل

---

(١) - Vid.doc. num, 4 de la colec, Diplomat.

(٢) - D. Bascual Boronat y Barrachina Bbro, op. cit., p. 159.

(٣) - E. Ciscar Y R. Garcia Carcel, Moriscos: Agermants (Valencia 1974), Capitulo III, (L'Agermanament morisco de 1526).

(٤) - German Bleiberg, Diccionario de Historia de España, Tomo I, Ediciones de la Revista de Occidente, Barbara de Braganza, 12, Madrid (España, 1968), p. 1302.

(٥) - Antonio Dominguez, Ortiz, Vida Y tragedia de una monoria, Bernard Vincent, Historia de los Moriscos, Madrid, 1978, p. 25.

وجريج، وقد بيع مجموع ما كسبوا من النصر بمبلغ اجمالي مقداره مائتا الف دوكـــلدوس. وهكذا عاد الجيش منتصراً إلى بلنسية، وجاب شوارعها، وأودع كــــأس القربـــان الـــذي استعاده من الموريسكيين في البلدية، ووضع العلم الصليبي في الكاتدرائية ثم سافر الجيش الالماني إلى إيطاليا، وتم حرق جميع الكتب العربية في سوق بلنسية، كما أحرقت من قبل أيام الملكين الكاثوليكيين في ساحة باب الرملة في غرناطة، وأمر بتعميد كل من لم يكن قد تعمد من الموريسكيين، وذلك على الرغم من أن قوانين مونثون (Monzon) قضـــت أن لا يعتنق أحد النصرانية إلا عن رغبة وطواعية[١]. وفي أثناء ثورة بلنسية، احتـــج مســـلمو أراغون، وأعلنوا العصيان المسلح في فيـــالفيلي (Villalfeli) وريكـــلا وكلانـــدا ومويـــل وغيرهم، لكنهم قد أخضعوا وتم بحقهم ما تم بحق مسلمي بلنسية، وفرض عليهم ـــ اضافة إلى التعميد ـــ التهجير القسري، وقد حاول الكونت ريباغورثا (Conde Ribagorza) إقنـــاع الامبراطور بأن لا خطر من بقاء الموريسكيين في أراغون، ذلك أن لهم اليد الطولى فـــي خدمة البلاد وتعميرها، وأن لا غنى عنهم في الأعمال اليدوية والزراعية، بيـــد أن هـــذه المحاولات ذهبت أدراج الرياح. وكانت ظروف الموريسكيين كئيبة للغاية، حيث أطلـــق عليهم اسم (المسيحيون الجدد)، وكانت تلاحقهم محاكم التفتيش دائمـــاً، فظلـــوا أشـــخاصاً مشبوهين، عرضة للتفتيش والمحاكمة أمام أي تهمة أو شبهة، وكان الشـــعب الاسـباني يكرههم كافة حتى غدوا مهددين بالفناء التام.

هذه ويمكن أن نجمل أسباب ثورة المجاهد سليم المنصور بما يلي:

١. المضايقة المستمرة التي تعرض لها الموريسكيون على يد الملـــك شـــارل الأول وأعوانه وملاحقة محاكم التفتيش لهم، حيث كانت النتائج مخيبة للآمال.
٢. إرغام الموريسكيين على التنصير القسري والمحاولات المستمرة من قبل محـــاكم التفتيش لتهجيرهم.
٣. أدى اصدار محاكم التفتيش لمرسوم الوشاية بحق الموريسكيين إلى التعجيل فـــي قيام الثورة ضد الاسبان.

---

(١) - Janer (Francisco) Condicion social de los Moriscos de España I-mp Matute Y Gampagni, Madrid, 1857, p. 51.
- Pedro Longas, op. cit., p. XLIV.
- Antonio Gallego Y Burin Y Alfonso Gamir Sandoval, Los Moriscos del reino de Granada, segun el Sinodo de Guadix de 1554, Universidad de Granada 1968, p. 22.

٤. رفض سكان مدينة ابن الوزير وتحديهم لقرارات الملك شارل الأول جعلهم يعتصمون في جبال اسبادان.
٥. الاضطهاد الديني الذي طبقه الاسبان على الموريسكيين في محاولة للتخلص منهم بغرض تعميم الديانة المسيحية في أرجاء اسبانيا على الرغم من أن الموريسكيين اسبان وهم الذين يخدمون اسبانيا في شتى الميادين أكثر من غيرهم.
٦. أدت المصاعب التي مر بها الموريسكيون إلى قيام ثورة المجاهد سليم المنصور في جبال اسبادان، وقد نجحت هذه الثورة في بداية الأمر وصمدت في وجه الاسبان الذين حاولوا الاجهاز عليها في المهد دون جدوى. غير أنهم اضطروا في النهاية إلى الاستعانة بفرقة من الجيش الالماني في محاولة للقضاء عليها وتم لهم هذا في النهاية. ويعود السبب الرئيسي في اخفاق الثورة إلى تفكك الموريسكيين وخوفهم من اكتشاف أمرهم عن طريق بعض العناصر المشكوك فيها بينهم، وعدم مشاركة بقية المناطق التي فيها موريسكيون في هذه الثورة. إن اقتصار الأمر على ثورة المجاهد سليم المنصور وعدم قيام ثورة عامة كبرى تعم مجتمع الموريسكيين في أماكن وجودهم في آن واحد واستعانة الاسبان بالألمان كل ذلك أدى إلى نجاح الاسبان في التغلب على ثورة المنصور والقضاء عليها.

وقد نتج عن هذه الثورة ما يلي:

١. استشهاد المجاهد سليم المنصور الذي كان يتزعم هذه الثورة إضافة إلى استشهاد اعداد كبيرة من المجاهدين الموريسكيين وخضوع من بقي منهم إلى نقمة الاسبان.
٢. فقد الاسبان عددا كبيرا من طبقة النبلاء والمحاربين لقوة دفاعات الموريسكيين وتحصيناتهم في جبال اسبادان.
٣. اجبار الموريسكيين، نتيجة اخفاق هذه الثورة، على التهجير القسري ومصادرة ممتلكاتهم أو تنصيرهم.
٤. أدى توحيد صفوف الاسبان والاستعانة بالألمان بفعل الحماس الديني إلى استعادة كأس القربان الذي أخذه الموريسكيون من مدينة تشلنتش.

الفصل الثامن

مقاومة مسلمي الأندلس
عمليات التهجير القسري

مقاومة مسلمي الأندلس
عمليات التهجير القسري

بدأت عمليات تهجير مسلمي الأندلس بشكل ملحوظ في عهد الملك فيليب الثـــاني (١٥٢٧ـ١٥٩٨م).

وقد ولد الملك فيليب الثاني[١] في الحادي والعشرين من شهر أيار عـــام ١٥٢٧م، في أحد البيوت المجاورة للقديس بابلو ضون برناردينوبمنتل (بلد الوليد). وعمد في كنيسة سان بابلو في الخامس من حزيران من العام نفسه، تحوطه احتفالات مهيبة. وقضى أولـى سني حياته، بجانب والدته الامبراطورة ايزابيلا البرتغالية التي كانت لغياب والده تشـرف على رعايته ورعاية شقيقاته الأميرات، تعينها في ذلك السيدة ليونـــور دي مسـكريناس (Leonor de Macarenhas) وهي برتغالية مرموقة، أحبها فيليب الثاني كثيراً.

وكانت الألعاب الرياضية في ذلك الزمن أمراً لا غنى عنه للأمـراء، ورجـالات البلاط، فبوشر بتعويده على ركوب الخيل والصيد والمبارزة بالسيف والرمح وعلى إصابة الهدف.

عندما بلغ السادسة من عمره، كان يشرف على تدريبه رجل من كبار النبلاء هـو ضون خوان دي ثونيغا وافيانيدا (Juan de Zúñiga y Avellaneda) وفي هذه الأثناء تعلـم على يد أساتذة كبار ـ على رأسهم ضون خـوان مـارتينس سـيليثيو ـ (Don Juan Martínez Silíceo) مختلف العلوم، واللاتينية، وتفوق في الرياضيات والهندسـة. وكـان

---

[١] من أجل الاستزادة عن حياة هذا الملك وأعماله أنظر المراجع التالية:

- M. Fernández Alvarez, Felipe II. Semblanza del rey prudente, Madrid 1956.
- F. Braudel, El Mediterráneo y el mundo mediterráneo en La época de Felipe II, 2 vols. México, 1953.
- José M. March. Niñez y Juventud de Felipe II. Madrid. 1941. 2 Vols. L. I.
- W. T. Walsh, Felipe II, 4ª ed. Madrid, 1964.
- C. Petrie, Felipe II, Madrid. 1964.
- L.P. Fandl, Felipe II Bosquejo de una vida y de una época. 2ª ed., Madrid, 1942.
- H. Lapeyre, Simón Ruiz et Les asientos de Philippe II Paris, 1957.
- M. Fernández Alvarez, Tres embajadores de Felipe II en Inglaterra. Madrid 1951.
- J. M. Rubio, Felipe II de España, Rey de Portugal, Santander, 1939.
- A. Dánvila, Felipe II y la Sucesión de Portugal, Madrid. 1956.

الخلل يكمن في عدم تعليمه اللغات الحديثة التي لا يستغني عنها امبراطور يفترض فيه أن يحكم ويدير مناطق واسعة في ذلك الزمن.

وفي الثانية عشرة من عمره، توفيت والدته الامبراطورة ايزابيلا البرتغالية التي كانت غاية في الرعاية والعطف، فخسر بذلك انساناً، كان لا يحرمه شيئاً من ود أو عطف أو تضحية.

وفي التاسع من نيسان عام ١٥٢٨م، ولاه مجلس قشتالة ولاية العهد، وكان ذلك في مدريد.

ومن الناحية السياسية، قرر الامبراطور شارل الخامس أن يستأثر بتربية ابنه بنفسه، على السياسة والأمور الديبلوماسية وأسرار الحكم. وفي عام ١٥٤٢م جعله يشترك فعلياً في ادارة دفة الحكم، وأطلعه على ما يجري في مجالس قشتالة وأرغون وقطلونية وبلنسية. وبذلك اطلع الأمير وساهم في علاج قضايا الشعب وحاجاتهم، واشترك في أعيادهم ومناسباتهم.

تزوج الملك فيليب الثاني عام ١٥٤٣م حيث كان عمره ست عشرة سنة من ماريا البرتغالية التي توفيت بعيد الولادة عام ١٥٤٥م، تاركة وراءها ولداً هو ضون شارل الثاني[١] .

ترك الامبراطور شارل الخامس حكم إسبانيا لولي عهده فيليب الثاني عندما سافر إلى المانيا عن طريق ايطاليا، لمجابهة الأتراك العثمانيين المسلمين الذين امتدت عيونهم إلى أملاك الامبراطورية. وكانوا يقضّون مضجعها،وكان ابحاره من برشلونة في الأول من أيار عام ١٥٤٣م، باتجاه ايطاليا، على السفينة اندريا دوريا، وما أن أبحر حتى اشتدت العواصف وهاج البحر فأرغمه العباب على الهبوط في ميناء بلاموس (Puerto de Palamós) حيث ظل حتى الثاني عشر من أيار عام ١٥٤٣م. وفي هذه الأثناء قبيل ابحاره الثاني، أرسل لابنه وصية تعتبر أساساً مهماً وركيزة سياسية تجعل من الامبراطور أشهر سياسي في زمانه، لما احتوت من الدقة والخبرة العميقة، في معرفة الرجال وفن الحكم[٢].

---

(1) Alejandro Gómez Ranera Compendio de la historia de España su origen hasta el fin del Reinado de Doña Isabel II Y Año De 1868. Novena Edición, Madrid 1875, Pág. 198.
(2) José M. March. Niñez Y Juventud de Felipe II, Madrid, 1941, Tomo II, Pags 11, Y Siguientes.
- Gachard, Biographie nationale de Belgique Tomo III, Bruselas. 1872, Col. 656.

وقد كانت الوصية على مرحلتين: أولاهما في الرابع من أيار عام ١٥٤٣م. والثانية التي كانت أكثر سرية من سابقتها في السادس من الشهر نفسه. وكان الامبراطور يعتبرها سرية، لما فيها من أفكار متحررة، توضح سمات رجال البلاط الرئيسية، وسمات رجال الحكومة، والسلوك المتوجب على الأمير اتباعه. ومما جاء في الوصية:

١. أن يكون عادلاً مع رعيته.
٢. أن لا يسمح بالفساد سواء أكان مقابل المال أم كان مقابل الهدايا.
٣. عليه أن يستبدل رفاقه، وأن يحيط نفسه برجال حكماء أفاضل.
٤. عليه أن يتعرف على أعضاء حاشيته ويميز فضائلهم ورذائلهم.
٥. أن لا يستسلم لأحد، وأن يكون متحرراً، ولا يقع تحت تأثير أي شخص.

انشغل الأمير فيليب الثاني في الأعوام التالية بحكم إسبانيا من النواحي الداخلية، يضاف إلى ذلك الأعباء التي تُكلفها حروب الامبراطور شارل الخامس ضد الأتراك العثمانيين المسلمين، وضد البروتستانت والفرنسيين...الخ. فكان فيليب الثاني ينظم اجتماعات المجالس، لتصدق على الميزانيات التي تجمع لتغطية نفقات تلك الحروب.

وعندما انتصر الامبراطور شارل الخامس في مولبرغ (Muhlberg) عام ١٥٤٧م[١]، رأى أن من الأنسب حضور ولده الأمير فيليب الثاني إلى الأراضي المنخفضة، ليتعرف على الحكم في مستوى أوسع، ويطلع على رعايا جدد. وقد عين نائبان عن الملك في إسبانيا ــ في أثناء غياب الأمير فيليب الثاني ــ هما:

الارشيدوق مكسيميليانو بن فرناندو، وشقيقه فيليب الثاني ماريا. وكانا قد تزوجا عام ١٥٤٨م.

---

[١] معركة مولبرغ، هي معركة فاصلة بين الامبراطور شارل الخامس من جهة، وتحالف البروتستانت (عصبة سمالكلدا Liga de Smalkalda) من جهة أخرى، أما عصبة سمالكلدا، فقد أخذت على عاتقها الدفاع عن اصلاحات المذهب اللوثري، واستقلال الأمراء والسادة الألمان.

وقد قاد الامبراطور شارل الخامس المعركة بنفسه وانتصر في نهايتها انتصاراً ساحقاً سنة ١٥٤٧م. ووقع جميع الأمراء والسادة الألمان بين الأسر أو القتل. وبعدها بأشهر قليلة استطاع الامبراطور حكم المانيا من جبال الألب إلى بحر البطليق.

وفي عام ١٥٤٩م، وصل الأمير فيليب الثاني إلى فلنديس فأعلن سيدا على جميع مدن المقاطعة وأريافها.

ولما اعتلت ماريا تيودور عرش انكلترا عام ١٥٥٣م، رأى الامبراطور شارل الخامس أن يتزوج منها ولده فيليب الثاني[1]، وكان هدف الامبراطور من زواج ابنه بالملكة الجديدة، أن يضيق الحصار على منافسته عدوه اللدود فرنسا. وقد أتم عقد ذلك الزواج وكيل ينوب عن فيليب الثاني. بعدئذ أبحر الأمير فيليب الثاني من ميناء كرونية، في الثالث عشر من شهر تموز عام ١٥٥٤م. وبعد مسيرة خمسة أيام، وصل إلى ميناء سوثمبتون (Southampton) في انكلترا. وظل فيه فترة قصيرة، حيث انتقل إلى ونتشستر (Winchester) عام ١٥٥٤م. وهناك أجرى مراسيم الزواج، واقترن بماريا تيودور (Maria Tudor) التي توفيت عام ١٥٥٨م، دون انجاب. ثم ما لبث أن عاد إلى فلنديس، ليحضر حفل تنازل والده شارل الأول له عن حكم امبراطوريته باستثناء المانيا. وقد اشتملت هذه الامبراطورية التي ورثها الملك فيليب الثاني على رقعة واسعة في مناطق من أوروبا وامريكا وافريقيا واوقيانوسية، ففي أوروبا كانت له السيطرة إضافة إلى إسبانيا (قشتالة ونبرة وارغون والجزائر الشرقية "البليار") على البرتغال سنة ١٥٨٠م، بكل مستعمراتها في الهند وفي جزر البهارات والبرازيل.

كذلك امتدت مملكته لتشمل: ايطاليا، فحكم منها ميلان Milán ونابولي Nápoles وصقلية Sicilia وسردينيا Cerdeña. كما حكم من فرنسا روسيليون Rosellón وفلندرا الفرنسية ومقاطعات فرنش كونته Franco Condado وشملت مملكته البلاد المنخفضة، بلجيكا وهولاندا، وحكم من أمريكا: كالفورنيا California والمكسيك Méjico وخليج المكسيك Golfo de Méjico وكذلك فلوريدا Florida وكوبا Cuba واسبنيولا Española وبورتو ريكو والأراضي اليابسة Tierra Firme: سانتيغو دي كراكس Santiago de Caracas وترينداد Trinidad وبنما Panamá وكيتو Quito كما خضعت له بيرو Perú وبرغواي Paraguay وارغواي Uruguay وكل الارجنتين Argentina بما فيها نهر لابلاتا La Plata وتشيلي Chile.

---

[1] Francisco de Paula Villa-Real Y Valdivia: Lecciones elementales de historia critica de España, 2ª edición, Granada, 1899, Lecciones: 62 Y, Pags. 411-429.

كما استولى من افريقيا على: جزائر كنارية Islas Canarias وتشمل: جزيرة بلمه Palma وجزيرة غمارة Gomera وجزيرة ايرو Hierro وجزيرة تينيريفة Tenerife وجزيرة كنارية الكبرى Gran Canaria وجزيرة فورتي فنتورة Fuerte Ventura وجزيرة لنثاروتي Lanzarote. ومن افريقيا أيضاً على: مليلة Melilla ووهران Orán والرأس الأخضر Capo Verde وجزيرة فرناندو بو La Isla de Fernando Póo وأنوبون Annobon وجزيرة القديسة هيلانة Santa Elena. ومن الأوقيانوسية: استولى على جزائر الفلبين وبعض أجزاء من جزائر مالوكو (ملكاس) Molucas[1].

حاول الملك فيليب الثاني أن يتودد للانكليز، وتصرف تصرفاً لائقاً في أمور الحكم. وخفف من اندفاع زوجته ماريا تيودور فيما يتعلق بالمشكلات السياسية والدينية، معتقداً أن سياسة اللين والتسامح، هي الوسيلة الفضلى لتهدئة النفوس. ولكن ظهور البروتستانتية، أوجد جواً من العداوة والتوتر تجاه الملك فيليب الثاني والإسبانيين، إذ اعتبرتهم أشخاصاً متعصبين قساة خاضعين للبابا ولرعب محاكم التفتيش. وزاد من عدم شعبية التحالف الإسباني أن احتل الفرنسيون ساحة كالية (Calais) عام ١٥٥٨م. وفي هذا العام توفيت الملكة ماريا تيودور دون عقب. وهكذا خابت آمال الامبراطور شارل الخامس الذي كان يتوقع منافع كثيرة لولده فيليب الثاني من هذا الزواج[2].

---

* تقع هذه الجزيرة في جنوب شرقي آسيا وتتبع حالياً القارة الآسيوية.

(١) من أجل الاستزادة عن الملك فيليب الثاني وملكه الواسع انظر:

- Aguado Bleye, Pedro: Compendio de Historia de España. Tomo II. Madrid 1931. Capitulo VII. Pág 134.
- Días Carmona: Francisco compendio de Historia de España. Barcelona. 1911. Pág 459.

(٢) في عام ١٥٥٩م. تزوج للمرة الثالثة بالأميرة ايزابيلا دي فالوا Isabel de Valois التي انجبت له بنتين هما ايزابيلا كلارا أوخينيا Isabel Clara Eugenia وقتالينا ميخائيلا Catalina Micaela وماتت ايزابيلا دي فالوا عام ١٥٦٨م. ومن ثم تزوج للمرة الرابعة آنا دي اوستريا عام ١٥٧٠م. وانجبت له:

١. فرناندو عام ١٥٧٨م الذي لم يعمر طويلاً.
٢. شارل لورنثو (Carlos Lorenzo) مات وهو صغير كذلك.
٣. دييغو مات عام ١٥٨٢م.
٤. فيليب الثالث الذي غدا ولي عهد الملك فيليب الثاني (١٥٩٨_١٦٢١م).
٥. ماريا التي توفيت أمها عام ١٥٨٠م في أثناء ولادتها.

سياسة فيليب الثاني القهرية ضد مسلمي الاندلس:

حلت القضية الدينية لدى الملك فيليب الثاني ـ محل الصدارة، فقاوم بشدة كل من لايدين بالكاثوليكية، وكان يهدف من وراء ذلك إلى الوحدة الدينية حسب التعاليم الكاثوليكية وهذا هو المحرك الرئيسي لكل أعماله. أما فيما يتعلق بمسلمي الاندلس فقد اتبع سياسة هدفها تنصيرهم أو تهجيرهم قسراً، داخل شبه جزيرة ايبيريا. واتخذ بشأنهم سلسلة من الاجراءات التي تقشعر لها الأبدان، تتلخص فيما يلي:

- اصدار فرمانٍ يحظر على الموريسكيين* امتلاك الرقيق، والخدم السود، حتى لا يدينوا بالاسلام طبقاً للسياسة التي اتبعها عام ١٥٦٠م. وطبقت على كل موريسكيي غرناطة. ثم أصدر في العام نفسه في سرقسطة فرماناً يحظر على الموريسكيين استعمال الأسلحة النارية، كما أصدر فرماناً يقضي بأخذ كل أسلحة موريسكيي بلاسنثيا(١).
- في الرابع عشر من أيار عام ١٥٦٣م أصدر الملك فيليب الثاني مرسوماً ملكياً، يفرض فيه على الموريسكيين تسليم أسلحتهم ورخص اقتنائها، في مدة أقصاها خمسون يوماً من تاريخه. كما ينص المرسوم على أن من يخالف فيتأخر أو يمتنع عن تسليم أسلحته بعد انتهاء المدة المذكورة يعرض نفسه لأن يحكم عليه بالأشغال الشاقة مدة ست سنوات، ولا يجوز أن يقتني أي منهم الأسلحة إلا أن تكون مختومة بختم الحاكم العام. وكل من يحاول تزوير هذا الختم فلا يلومن إلا نفسه التي سيوردها المهالك، ويعرضها لأقسى العقوبات.
- بعد صدور هذا المرسوم سلم ثلة من الموريسكيين أسلحتهم أو بعضها، أما الغالبية العظمى منهم ـ لا سيما الذين كانوا ينحدرون من أسر عريقة ـ فقد رفضوا تسليم أسلحتهم، ورفضوا أن يضعوا ختم الحاكم العام على مقابض سيوفهم، كذلك أخفى الكثيرون أسلحتهم في حروز حصينة، كالكهوف وغيرها. واختمرت في أنفسهم روح الثورة. ولما لاحظت الحكومة ذلك، أصدرت مرسوماً عام ١٥٦٤م يلغي حصانة المقيمين بأراضي النبلاء، ويغلق المعابد في وجه الموريسكيين، ويحدد حصانة

* الموريسكي: المسلم المنصر قسراً.

(1) Maria Soledad Carrasco Urgoiti: El problema morisco en Aragón al Comienzo del reinado de Felipe II (Estudio y Apéndices documentales). estudio de hispanofilia II, Madrid 1969. Capt. IV. Pags. 56- 57.

الكنائس والأديرة بثلاثة أيام. وازدادت نقمة محاكم التفتيش، وأخذت تبحث عن القضايا القديمة المهملة التي سبق أن حوكم أصحابها، ليعيدوا محاكمة من وجد منهم.

الموريسكيون وانتفاضاتهم في البشرات

لما رأى الموريسكيون ما حل بهم من اضطهاد وأحسوا أن الشر ينصب عليهم من كل صوب، ولم يعد ينقذهم إلا أسلحتهم والتوكل على الله لأن الشهادة بكرامة غدت لديهم أفضل بكثير من هذا التشرد الذي تمتد من خلاله يد الموت في كل لحظة، فتوجه الكثير منهم إلى البشرات حيث اعتصموا فيها، وفي جبال رنده مصممين على الدفاع عن أنفسهم حتى الموت. وكانت المحاكم العسكرية والمدنية والكنسية لا تتحرج أن تتهم أي موريسكي فتعتبره مذنباً، وتحكم عليه أن يشترك في الصف الذي يحارب إخوانه، ولا يخفى أن هذا كان يتيح الفرصة لينضم أولئك إلى اخوانهم الثوار فازداد أثر الموريسكيين فكانوا يدخلون غرناطة وحي البيازين فيها ويخطفون المسيحيات وأطفال المسيحيين ليستطيعوا أن يستنقذوا اسراهم من ويلات اضطهاد محاكم التفتيش مقابل تسليم هؤلاء إلى ذويهم، ولم يكن يستطع أحد أن يخرج ليلاً إلى شوارع غرناطة، ولا أن يتنزه نهاراً في غوطتها بمفرده، بل كانت تتشكل جماعات مسلحة من المسيحيين هدفها الأساسي اقتناص الموريسكيين. وكانت تشرق الشمس على غرناطة، وقد تناثرت الجثث في شوارعها هنا وهناك، هذه هي حالة الرعب التي كانت تعيشها غرناطة عام ١٥٦٦م.

كان ضون بيدرو غريرو (Don Pedro Guerrero) أحد القساوسة الناقمين على الموريسكيين ودينهم وكان عضواً في مجمع ترينتو [1] (Concilio de Trento).

---

[1] مجمع ترينتو: مجمع ديني كان يعالج أمور الكاثوليكية وكان ضد كل من ليس كاثوليكياً ولقد عقد مراراً في روما وغيرها وكان بيدرو غريرو يمثل إسبانيا في هذا المجمع وكان شديد الانفعال متحمساً ضد الموريسكيين حتى أعجب به البابا بيوس الرابع فجعله مراسل الفاتيكان في إسبانيا يوافيه بتحركات الموريسكيين وموقف الحكومة المركزية منهم، وبعامة فقد جعله البابا ممثله في إسبانيا.

ومن أجل الاستزادة عن هذا المجمع انظر المراجع التالية:

- Fernándo Diaz-Plaja. La historia de España en sus documentos, Barcelona 1971, Pags. 315-317.
- Luis Del Marmol Carvajal, historia del rebelión y castigo de los moriscos del reyno de granada, segunda impresión, Tomo II, Madrid MDCCXCVII (1797) Capitulo V. Pags 141-142.
- Agundo Bleye, Pedro: Manual de Historia de España. Tomo II, Reyes Católicos-Casa de Austria (1474-1700), Madrid, 1969, Pags. 576-579.
- Circourt, conde de: Historie des maures, mudéjares et morisques ou des arabes d'Espagne sous La domination des chretiéns. Paris, 1846, T. II, Pags. 275-276.

تقدم ضون بيدرو غريرو إلى الملك فيليب الثاني، نيابة عن البابا بيوس الرابع، بطلب فحواه رغبة البابا باتخاذ تدابير صارمة بحق الموريسكيين، وأنه يجب معاملتهم بكل قسوة وغلظة، لا تحتمل أدنى شعور بالشفقة أو الرحمة بهم، لأنهم في نظر البابا، مارقون عصاة هراطقة. وأبدى أنه يجب عدم بقائهم ضمن أراضيهم، وذلك عندما لاحظ حالة غرناطة التي وُصِفَتْ أعلاه، فدعا المجلس إلى الانعقاد في مدريد في الأول من شهر كانون الثاني عام ١٥٦٧م، ليقترح على الملك تطبيق القانون الذي صدر في عهد الامبراطور شارل الخامس عام ١٥٢٦م ضد الموريسكيين[١] والذي لم يطبق آنذاك بشكل جدي، وكان ينص على ما يأتي:

١. منع العربية كلاماً وكتابة سراً أو علانية.
٢. إرغام المسلمين على تعلم اللغة الإسبانية قراءة وكلاماً، ويفرض عليهم تسليم كل ما بأيديهم من نصوص أو وثائق بالعربية لرئيس المحكمة.
٣. التأكيد على وجوب اجتناب المسلمين نهائياً عقائدهم وعباداتهم وثيابهم التقليدية وأسماءهم العربية.
٤. هدم الحمامات العامة جميعها.
٥. وجوب إبقاء بيوت الموريسكيين مفتحة الأبواب دائماً.
٦. يلزم الموريسكيات بالسفور دون خُمُر في أثناء سيرهن في الطريق[٢].

وعلى الرغم من تدين الملك وكراهيته الشديدة للموريسكيين وتأثره بنفوذ رجال الاكليروس فإنه أوضح للمطران أن ليس من حق مجمع ديني أن يتدخل في أمور السياسة

---

(1) Historia de Alzamiento de Los Moriscos. Su Espulsión de España Y sus Consecuencias en todas Las provincias del reino. Pág 114.

(كتاب لمؤلف موريسكي مجهول وضعه في الإسبانية حول تاريخ الثورة الموريسكية وتهجير الموريسكيين وآثار ذلك التهجير في جميع أنحاء شبه الجزيرة الايبيريا).

انظر كذلك المراجع التالية:

- Véase: Mercedes Garcia-Arenal: Los Moriscos, Madrid 1975, Pags. 47-48.
- Caro Baroja. Julio: Los Moriscos del Reino de Granada. (Ensayo de Historia Social), Madrid, 1957, Pág. 20.
- Hurtado de Mendoza: Guerra de Granada. Bibl. Popular Cervantes. números 62 Y 63. Madrid, 1929.
- Aguado Bleye, Pedro: Compendio de Historia de España. segunda edición. Tomo II, Madrid, 1931. Pág. 154.

(2) Luis del Mármol Carvajal. Historia del rebelión y Castigo de Los Moriscos del reino de Granada, "Biblioteca de Autores Españoles Tomo XXI, Madrid 1946, Lib. II. Cap. II, Pág. 158.

العامة، إنما تنحصر سلطاته في القضايا الكنسية البحتة. فحولها الملك إلى مجلس خـــاص لدراستها وتقديم تقرير مفصل حول هذه الأمور، وقد كان من أعضائه:

١. ضون دييغو دي اسبينوسا اسقف سيغونثا، رئيس مجلس قشتالة.
Don Diego de Espinosa, obispo de sigüenza, presidente del consejo de castilla.

٢. دوق البا El duque de Alba.

٣. رئيس دير سان خوان ضون انطونيو الطليطلي
El Prior de San Juan Don Antonio de Toledo.

٤. نائب مستشار أرغون ضون بيرناردو دي بوليا
El Vice-Canciller de Aragón, don Bernardo de Bolea

٥. أسقف أورويله
El Obispo de Orihuela

٦. المحقق ضون بيدرو ديسا
El Inquisidor, don Pedro Deza

٧. مينتشاكه (الحاصل على شهادة علمية)
El Licenciado Menchaca

٨. الدكتور فيلاسكو من أحد أعضاء المجلس والحاشية المالكة[١]

٩. El Doctor Velasco del Consejo y Camara real

وكان غضب غريرو (Guerrero) من تصرف الملك فيليب الثـــاني، وحقـــده علـــى الموريسكيين يشكلان سبباً كافياً لتدخله، فأثر على أعضاء المجلس وأقنعهم بجدوى تطبيق ذلك القانون فقرروا بالاجماع تطبيقه، ووقع الملك على ذلك في السابع عشر من تشـــرين الثاني عام ١٥٦٦م. وعين عضو محكمة التفتيش الكاردينال بيدرو ديسا رئيساً للمجلـــس الملكي في غرناطة لينفذ ذلك، فأمر بيدرو ديسا بطبع القانون سراً ثم أعلنه المنادون فـــي غرناطة وكورها في الأول من كانون الثاني عام ١٥٦٧م، لكي يصبـــح ذكـــرى ســـنوية لسقوط غرناطة وعيداً قومياً تحتفل به في كل عام.

---

[١] مؤلف موريسكي مجهول، ص ١١٤.

هذا ما آلت إليه أحوال المسلمين الذين سلموا غرناطة منخدعين بالمعاهدات[1] التي لم تعد إلا حبراً على ورق بعد أن مر عليها ما يقارب خمسة وسبعين عاماً. ولم يزد هذا القرار المسلمين إلا غضباً واستبسالاً. وطالب بعض النبلاء والفرسان الكاردينال ديسا بالغاء تطبيق هذا القانون تجنباً لما يتوقعون من ويلات ستكتنف المجتمع الإسباني إذا ما طبق، وتوجه الماركيز موند يخار القائد العام للجيش إلى مدريد يطالب الملك فيليب الثاني بالغاء هذا القانون لأن الغاءه في نظره يجنب إسبانيا حروباً لا يعلم نتيجتها إلا الله، بيد أن الملك قد استمع إلى تقارير ديسا وأمر القائد العام بالعودة إلى غرناطة وأن يساند القول بالفعل والسلاح مما أدى إلى احتدام الغيظ في صدور الموريسكيين الذين غدت حالتهم لا تطاق عند إضافة تلك القرارات إلى ما مروا به من أوضاع سيئة من قبل، ونفسوا عن ذلك الغيظ بمواجهات حادة[2] أذكر منها:

١ـ ثورة فرج بن فرج

قبيل نهاية شهر كانون الأول سنة ١٥٦٧م، وهو الموعد المضروب لتتخلى الموريسكيات عن البستهن الحريرية وأزيائهن العربية بعامة، وحيث يفرض على الأطفال ذكوراً وإناثاً والذين تتراوح أعمارهم بين سن الثالثة والخامسة عشرة سنة أن يدخلوا المدارس، ويتعلموا فيها اللغة الإسبانية والدين المسيحي، وبعد صدور أوامر مشددة تقضي بهدم الحمامات حتى لا يستخدمها الموريسكيون[3] مما يبدي سمة حضارية مميزة لأمة عن أمة أخرى.

عندما ابتدأ التطبيق المشار إليه أعلاه، هرعت وفود إلى الرئيس ديسا برئاسة خوان انريكث[4] (Juan Enriquez) ويرافقه اثنان من الموريسكيين هما:

---

[1] حتاملة (د. محمد عبده)، التنصير القسري لمسلمي الاندلس في عهد الملكين الكاثوليكيين (١٤٧٤ـ١٥١٦م)، عمان، ١٩٨٠، ص ١٩-٥٥.

[2] Manual Dánvila Collado: El poder civil en España, memoria premiada por La Real Academia de ciencias Morales Y Politicas. Tomo II. Madrid, 1885, Titulo II. Cap. I. Pags 258-259.

- Mármol, Luis de: Historia de La rebelión Y castigo de Los moriscos en el reino de Granada, Málaga, 1600.

[3] Alejandro Gomez Ranera, Obra, citada, Pág 203.

[4] اسباني يتمتع باحترام وسمعة طيبتين لدى الموريسكيين.

١. خوان فرناندث من أعيان غرناطة.

٢. وفرناندو الحبقي من أعيان وادي آش.

قابل ديسا تلك الوفود بالإهانة والإهمال، كما أن الملك فيليب الثاني لم يكلف نفسه عناء النظر في العريضة المرفوعة إليه من الموريسكيين، وأشار إلى وجوب توجيه العرائض إلى ديسا. بل كتب ديسا إلى المحقق العام، الكاردينال اسبينوسا (Espinosa)، عدو المسلمين اللدود، لينفذ القانون بقسوة بالموريسكيين وليعطيهم درساً لا ينسى. وكان اليأس من جدوى مفاوضة المسيحيين قد استبد بالموريسكيين الذين كان من بينهم شاب مهنته الصباغة اسمه فرج بن فرج من أسرة بني سراج التي كانت تتمتع بمجد عظيم وشرف تليد أيام بني نصر[١]. اختمرت في نفس هذا الشاب روح الثورة واتصل بمن استطاع من الموريسكيين في غرناطة عام ١٥٦٨م. فأجمعوا أمرهم على الثورة وبعثوا بثلاثة من أكثر الموريسكيين أمانة ومحبة وثقة ليبلغوا اخوانهم خارج غرناطة بنيتهم، ولمّا كانت "الحرب خدعة"، فقد قدموا طلباً إلى الحكومة الإسبانية يبينون فيه أن غايتهم جمع أموال لبناء مستشفى خارج غرناطة للمرضى الفقراء واللقطاء المسيحيين. بهذه الحجة حصلوا على ترخيص من الحكومة الإسبانية فخرجوا واجتمعوا باخوانهم، فأبلغوهم غايتهم لكي يعدوا العدة ويتمركزوا في السواحل حيث يمكن أن تنزل عليها التعزيزات الاسلامية لا سيما من المغاربة والأتراك العثمانيين المسلمين ليضربوا ضربتهم، وعادوا إلى غرناطة فأعدوا العدة في الداخل كما أعدت في الخارج لينقضوا انقضاضة رجل واحد، واتخذوا الرابع عشر من نيسان عام ١٥٦٨م، موعداً لذلك لأنه يوم الخميس المقدس عيد من أعياد المسيحيين، فينتهزوا فرصة وجودهم في كنائسهم. لم تسر الخطة في الثورة إلى آخر الشوط بأمان ذلك أن بعض المندسين العملاء، الذين باعوا ضمائرهم، ولم يعودوا يحسبون حساباً إلا لمصالحهم الخاصة، حتى ولو كانت سعادتهم على جثث أخوانهم ودمائهم المسفوكة، قاموا بتبليغ ديسا رئيس المجمع الملكي في الخامس من نيسان عام ١٥٦٨م عن كل جوانب الثورة فاعتقل عدداً من وجهاء الموريسكيين، وألغى تصاريح اقتناء الأسلحة، ووجه القائد العام مونديخار إلى حي البيازين آمراً بالتزام الهدوء والسكينة والحفاظ على الأمن.

---

[١] مؤلف موريسكي مجهول، ص ١١٧.

ويأبى الدولاب الدائر إلا أن يتم دورته، فلم يستطع الموريسكيون إزاء كشف مخططاتهم إلا أن يؤجلوا التنفيذ. وسار وجهاؤهم إلى ديسا ليعلنوا عن سلامة نيتهم تجاهه وتجاه معتقداتهم المسيحية المفروضة عليهم قسراً، ويظهروا الاحتياطات المتخذة من أجل الحفاظ على الاستقرار والأمن. لكن ديسا أبقى قواته في حالة تأهب. ولم يكن سلوك الموريسكيين الأخير إلا محاولة امتصاص لشك ديسا وصرف النظر عنهم حتى يستطيعوا أن ينتقموا لأنفسهم وكرامتهم وأعراضهم ودينهم. فأجتمعوا في بيت بائع شمع مسلم اسمه عدل (Adelet) وقرروا أن يكون موعد اعلان الثورة ليلة اليوم الأول من شهر كانون الثاني عام ١٥٦٩م[١]. وأبلغوا الموريسكيين خارج غرناطة بذلك ليستعد كل من يقوى على حمل السلاح. فتجند قرابة ثمانية آلاف شخص من وادي لكرين وأرجبه وشرعوا يتجولون في البلاد بحجة بيع البراذع. واتفقوا على اشارة واضحة محددة تصدر من قمة القديسة هيلانة (El Pico de Santa Elena) ليبدأوا عندها بالثورة، وقرروا خطة واضحة يتسلق بموجبها ألفا موريسكي سور الحمراء من جهة جنة العريف. وكانت الثورة ستقوم في ثلاثة مواقع في البيازين في وقت واحد يحمل الموريسكيون اعلاماً يفترض أن يقوم كل حاملي علم بمهمة محددة:

١. حاملوا العلم الأحمر يحتلون باب فجالوثا (Fajalauza) ثم يتجهون من باب سري باتجاه المستشفى الملكي ثم يدخلون من باب البيرة لكي يحتلوا محكمة التفتيش فيخلصوا المسلمين المعتقلين بها ويضعوا في أماكنهم أعضاء المحكمة ليذوقوا العذاب الذي طالما عذبوا الموريسكيين به.
٢. حاملوا العلم الأصفر يحتلون ساحة باب البنود[٢] La Plaza de Bib-al-Bonut ثم يتجهون من طلعة سان غريغوري San Gregorio وكالديريريه (Caldereria) إلى السجن ليحتلوه محررين من فيه من اخوانهم.

---

[١] مؤلف موريسكي مجهول، ص ١٢٠.

[٢] ساحة باب البنود: ساحة واسعة اعتاد ملوك بنو نصر "بنو الأحمر" كلما اعتلى واحد منهم العرش أن يذهب إلى تلك الساحة ويجتمع إليه الشعب فيها ليسمعهم البنود التي ينوي تطبيقها في مستقبل أيامه، وفيها كان يعلن موت الملك وتنصيب خلفه. وتعرف اليوم هذه الساحة باسم سان اغسطين المرتفع (San Agustín Alto).

٣. حملة العلم الأزرق يأخذون أماكنهم عند مدخل وادي آش وينزلون من طلعة تشابش (Chapiz) وطريق نهر دره (Darro) ثم يتجهون إلى مركز محكمة التفتيش بحثاً عن الرئيس ديسا لقتله على أن تلتقي الفرق الثلاث في ساحة باب الرملة (Bibarrambla) ويستطيعون بمساعدة المتطوعين الذين يبلغ عددهم ثمانية آلاف أن يدافعوا عن المدينة(١).

تمت التخطيطات لهذه الثورة بطريقة بالغة السرية انتفع الموريسكيون فيها بدروسهم السابقة تحفزهم الكرامة والدفاع عن النفوس والأموال والأعراض والدين ليتخلصوا من العبودية ولم تعلم الحكومة الإسبانية عن تلك الخطة شيئاً.

في هذه الأثناء خرج جماعة من حراس محكمة غرناطة وكتبتها إلى قرية بقيرة لقضاء عطلة عيد الميلاد من بينهم دييغو دي ايريره Diego de Herrera وخوان دي اورتادو Juan de Hurtado ومعهم خمسون جندياً يحملون بنادق متجهين من مطريل لحماية حصن فيريرة (Ferreira)، وعندما قضوا الليل في قاد يار (Cadiar) هاجمهم الموريسكيون وأبادوهم. وفي اليوم الموعود بعث علي باشا والي الجزائر العثماني امدادات إلى الموريسكيين نزلت على الشاطئ الاندلسي في جهتي المرية ومربلة ثم سارت إلى الأماكن المحددة لها(٢). لم تستمر هذه الثورة على ما خطط لها إذ هطلت ثلوج غزيرة على جبل شلير (السلسلة الثلجية) (Sierra Nevada) فأغلقت الطرق إلى غرناطة فلم يستطع ثوار البشرات ولا الستة آلاف الوصول إلى غرناطة ليلة الرابع والعشرين من كانون الأول عام ١٥٦٨م. لكن فرج بن فرج قائد الثورة ومدبرها لم يحسب للبرد حساباً ولا وضع في اعتباره الثلج وانسداد الطرق بل توجه على رأس مائتي مقاتل من الموريسكيين من بينوس (Pinos) وسنيس (Cenes) ومراكز أخرى إلى أسوار غرناطة، وأخبر أهالي البشرات أن أهل البيازين سينضمون إلى الثورة، وأعلم أهل البيازين أن ثمانية آلاف مسلم من لكرين (Lecrin) والغوطة سيلحقون بهم. في منتصف تلك الليلة كان فرج بن فرج والثلة التي معه على أسوار غرناطة فأحدثوا فيها ثغرات دخلوا فيها هاتفين (لا إله إلا الله محمد رسول

---

(١) مؤلف موريسكي مجهول، ص ١٢٠.

(٢) المصدر نفسه، ص ١٢٣ـ١٢٤؛ وانظر كذلك:

- F. Braudel: La Mediterranée et Le Monde Mediteranéen a L'epoque de Philippe II, 2nd ed. Paris, 1966. 1. II. pp. 364-366.

الله، الله اكبر، الله أكبر). ولما رأى أهل البيازين قلة المهاجمين أغلقوا عليهم أبوابهم ولم ينضموا إليهم. غضب الثوار لأن أهل البشرات والمتطوعين الجزائريين والمغاربة لم يلحقوا بهم وزاد احتدام غضبهم عدم انضمام أهل البيازين لهم فباءت خطتهم بالفشل وخرجوا من حيث دخلوا ولاذوا بالفرار يعتصمون بالجبال المغطاة بالثلوج[1]. ولما استيقظ المسيحيون الإسبان واستطلعوا الأمر في البيازين وجدوا كل شيء هادئاً ووجدوا الموريسكيين في بيوتهم. فقرر القائد العام ملاحقة الموريسكيين الثائرين بيد أن الجبال المكتسية بحللها الثلجية كانت خير درع يمنعهم ويحميهم. تراجع فرج بن فرج بمن معه حتى وصل إل الموريسكيين في البشرات.

٢ـ انتخاب محمد بن أمية ملكاً على البشرات

وقع اختيار الموريسكيين على شاب من سلالة الأمويين في الاندلس هو مولاي محمد بن أمية الذي كان قد عمّدَ ونُصّرَ قسراً، ودعي منذئذ فرناندو دي فالور أي قرطبة[2] وكان ربَعةَ أسمر البشرة أسود العينين. وعرف بنشاط حركته وفروسيته، فكان يحسب له ألف حساب، وكان مهيباً رفيع الجاه لدى العرب والإسبان، حتى نصبوه المستشار الرابع والعشرين لبلدية غرناطة.

كان هذا الشاب مشكوكاً في أمره من قبل الإسبان، فروقب خشية أن ينظم الموريسكيين ويلتفوا حوله. ثم سجن وبقي في السجن إلى أن قام فرج بن فرج بثورته المعروفة في ليلة الرابع والعشرين من كانون الأول عام ١٥٦٨م. وكان مما حقق مع جماعته أن فر ابن أمية مع خادمه من السجن والتحق بأقاربه من أهل فالور في برذنار (وادي لكرين) (Béznar) وكانوا هم الذين ايدوه ونادوا به ملكاً عليهم في السابع والعشرين من كانون أول عام ١٥٦٨م[3].

---

[1] عرف ثوار البشرات باسم المنفيين.

[2] وتكتب في بعض الأحيان ايرناندو دي قرطبة وفالور.

[3] Marcelino Menéndez y Pelayo, Historia de España, Madrid 1941, Pág 149.
- Jose Luis Comellas, Historia de España Moderna Y contemporánea, sexta edición. Madrid, 1978, Pags. 160-162.
- Lafuente Alcántara, Miguel: Historia de Granada. Comprendiendo La de sus cuatro provincias, Almería. Jaén, Granada Y Málaga, desde remotos tiempos hasta nuestros dias Granada. 1843. T. IV. Pág. 193.
- José Palanco Romero, Historia de La Civilización Española, en sus relaciones con La universal Granada. 1927. Pág. 210.

علم فرج بن فرج بمناداتهم بابن أمية ملكاً علـــــى : اجيجـــر Ugijar ، فـــيرتشيل Verchil، فالور المرتفع Valor el Alto، فـــالور المنخفــض Valor el Bajo، غواخـــرس المرتفـــع Guajares Altos، غواخـــرس المنخفــض Guajares Bajos، انـــدرش Andarax، وكورها، مرتش Murtas، طرن Turón، البونيسيلاس Albunicelas، لانجـــرون Lanjarón، قانيلس Caniles، الزيتون Aceitun، قسطل دي فرّو Castell de Ferro، المنثاتا Almanzata، أوهانس Ohanes، فيليس Fieles، شـــنتفى Santa Fé، الحامـــة الجافـــة Alhama La Seca، غويثخا Guécija، فيليش Félix، ايويكس Yuix، بقار Bicar، درقال Dúrcal، اوراقـــا Uraca، غومث Jumitih، علي لا دي برشينا Uley La de purchena، علي ديل كامبو Uley La del Campo. مضافاً إلى ذلك نهرا المرية والمنصورة وأماكن عديدة أخرى لـــم تذكـــر مـــن البشرات[1]. استاء فرج بن فرج من مبايعة ابن أمية لأنه اعتقد أنه أكثر خبرة في الحرب، إضافة إلى أنه أول من دعا الموريسكيين لحرب الإسبان، ولأنه من أسرة بني سراج التي لا يخفى مجدها الماضي. وكادت تضطرم بين الفريقين نار الفتنة إلا أنهما اتفقا علـــى أن يكون ابن أمية ملكاً وابن فرج كبيراً للوزراء (Alguacil Mayor) وهي أعلى رتبة بعد رتبة الملك عرفها الموريسكيون[2].

وفي التاسع والعشرين من شهر كانون الأول عام ١٥٦٨م وصل ابن أميـــة إلـــى قصر لوشار (Castillo de Laujar) الذي كان يقيم فيه آخر ملوك بني الأحمر (ابو عبـــد الله الصغير) ليراقب سير الثورات عن كثب من هذا المكان.

بدأت الثورة العامة في لانجرون ثم انتقلت إلى ارجبة وإلى كور بقيرة حتى عمت جميع مملكة غرناطة. وقد أعلن الموريسكيون الثورة في مناطق أخـــرى هـــي: فريـــرة Ferreira، جبليس Jubiles، السهول Los Ceheles، عذرة Adra، برجة Berja، دلاية Dalias، لوتشار Luchar، مرشانة Marchena، شلوبينية Salobreña، منطقة نهر البلذوذ La Zona del rio Alboloduy، آبلة Abla، لا وريشينا (وادي آش) Laauricena (Guadix)، وادي لكريـــن

[1] Ginés Pérez de Hita, Guerras Civiles de Granada. Segunda Parte, Reproducción de La edición de Cuenca de 1619. Madrid, 1915, Cap. II. Pagina 15.

[2] مؤلف موريسكي مجهول، ص ١٢٤.
انظر كذلك:
- Mármol carvajal. Luis del: Obra. citada. Madrid, MDCCXCVII. T. 1. Pág. 254.
- Fernández Y Fernández de Retana. P. Luis: España en tiempo de Felipe II, en "Historia de España". dirigida por Ramón Menendez Pidal. T. XIXI, Vol. II, Madrid. 1958. Pág. 45.

El Marquesado de Cenete ماركيسادو دي سينيتي، Marbella مربلة، El Valle de Lecrín وغيرها.

وفي الحادي والثلاثين من شهر كانون الأول عام ١٥٦٨م، سار فرج بن فرج على رأس خمسمائة فارس يوقظون روح الثورة في جميع أنحاء مملكة غرناطة من شواطئ بيرة (Vera) (جنوب قرطاجنة) إلى جبل طارق فانضم إليهم الكثير يهتفون "الله أكبر لا إله إلا الله محمد رسول الله" وأحرقوا كثيرا من الكنائس التي كانت مساجد لهم من قبل، وصبوا جام نقمتهم على رجال الدين الذين طالما نكلوا بهم قبلا[١].

ساء ابن أمية تصرف ابن فرج من غير أذنه فعزله عن قيادة الجيش، وهذا بدوره اغضب ابن فرج فتنازل عن منصبه ككبير الوزراء فعين ابن أمية بدلا منه عمه ابن جوهر الصغير[٢] (Aben Jahunar el Zagüer) وكان لهجمات ابن فرج وانضمام الموريسكيين في ثورتهم تحت راية ابن أمية أثر مرعب على جميع منطقة غرناطة، وسار الموريسكيون في البشرات يستنشقون هواء الحرية.

٣ـ ثورة مولاي محمد بن أميه

أخذ ابن أمية بممارسة سلطاته، فغدا ينظم قواته من جديد، وينظم المحاربين بنظام عسكري، وأخذ يدعوا إلى نبذ الأسماء والألقاب النصرانية وإعادة الأسماء والألقاب الاسلامية، وطلب العون من مسلمي افريقيا، فبعث أخاه عبد الله إلى الجزائر ليطلب العون والنجدة. ثم أتبعه بسفارة ثانية إلى المغرب، برئاسة فرناندو الحبقي، ثم شن هجمات عديدة على الإسبان بثت الرعب في النفوس، وخاصة القساوسة والرهبان ولم يعد الإسبان

---

(١) مؤلف موريسكي مجهول، ص ١٢٤-١٢٥.

(٢) المصدر نفسه، ص ١٢٥. انظر كذلك:

- H. Ch. Lea: History of the Moriscos of Spain. Their Convesion and Expulsion (London, 1901), Pág. 237.

يجرؤون على الذهاب إلى الكنائس والأديرة ولا على الخروج إلى الحقول حتى ولو في جماعات[١].

وانتقاما من هؤلاء الثوار، نظم فيليب الثاني جيشا كبيرا بقيادة الماركيز دي مونديخار، يرافقه ضون الونسو دي كارديناس وفرنثيسكو دي مندوسا ولويس دي قرطبة والنسو دي غرناطة بنيغش وخوان فياروبل وآخرون، وهب لنجدتهم بجيش كبير الماركيز دي بلش[٢]، وكان الملك فيليب الثاني قد أرسل في طلب العون من لومبارديا ونابولي وصقلية[٣]. فقتل النصارى في أتون في هذه الحرب كثيرا من موريسكيي غرناطة واحتل ماركيز موند يخار ثلاث مدن هي: ارجبة، اجيجر، وبطرنة. وقد انتقد المستعربون، الذين كانوا في جوار المسلمين سابقا وأنضموا إلى جيش موند يخار، مذابحه الفظيعة التي قام بها ضد الموريسكيين في ما أحتل من مناطق.

وفي ليلة الرابع من كانون الثاني عام ١٥٦٩م. بعث ابن أمية جيشا بقيادة المزارع الثري شابا (Xaba)، فعسكر شابا بجيشه في بقيرة (Poqueira) وأخذ يهاجم طلائع جيش الماركيز مونديخار. فانتقل الماركيز نتيجة الاشتباكات إلى درقال (Durcal) وهناك وصلت الماركيز امدادات من ابده وبياسة (مقاطعة جيان) (Ubeda, Baeza) وغيرهما، فسار بقواته الكبيرة إلى قلب البشرات ولم يثل هذا من عزيمة الموريسكيين وصمودهم.

---

[١] من اجل الاستزادة عن ثورة البشرات انظر:
- Ginés Pérez de Hita Guerras civiles de Granada primera parte. Madrid, 1913.
- Diego Hurtado de Mendoza. Guerra de Granada. ed. B. Blanco González, Madrid, 1970.
- Luis del Marmol Carvajal: Obra. citada. "Biblioteca de Autores Españoles. T. XXI. Madrid, 1946.
- Julio Caro Baroja "Los Moriscos del reino de Granada. Madrid, 1957.
- José Anget Tapia, Pbro. Historia de La Baja Alpujarra. 1964.
- Miguel Angel Ladero Quesada, Grananda, Historia de un pais Islámico (1232-1571), Madrid, 1969.
- Antonio Domínguez Ortíz. Bernard Vincent Historia de Los Moriscoss. Vida Y Tragedia de una minoría. Madrid, 1978.
- Lafuente Alcántara. Miguel: Historia de Granada. Comprendiendo la de sus cuatro provincias. Almería. Jaén. Granada y Málaga. desde remotos tiempos hasta nuesstros dias. Granada, 1843.

[2] Marcelino Menendez yy Pelayo: Historia de los heterodoxos españoles. 2ª edición. Tomo V. Madrid, 1,928. Capt. III. Pag. 327.

[3] Manuel Dánvila Collado: Obra. citada. Capt. 7. Pág. 449.

وفي التاسع عشر من كانون الثاني عام ١٥٦٩م، قام الموريسكيون بتدمير جسر طبلاطي (Tablate) الذي يسهل المرور من فوق وادي سحيق إلى لانجرون[١].

في هذه الأثناء انضم إلى جيش الماركيز راهب فرنسي متحمس هو الأب كريستوبل مولينا (Fra Cristobal Molina)، يحمل صليبا في يساره، وسيفا بيمينه، ورفع ثوبه إلى وسطه، ووصل إل الممر حيث منقطع الجسر وقفز مرتكزا على خشبة فاجتاز الهوة وتبعه الجنود يحدوهم الحماس، ينجو بعضهم ويسقط في الهوة بعضهم، وما أن أصبح الصباح حتى كان الجيش قد نجح في اجتياز الجسر[٢]. ومن ثم توجه إلى لانجرون فلم تستطع إسبانيا وحدها اجتثاث الاسلام والمسلمين من هناك، ولم تكن حربهم حربا تحريرية لأقليم ما، بل كانت حربا دينية متعصبة تذبح أناسا وتسبي نساءهم لا لشيء إلا لأنهم ينطقون بالشهادتين.

وعلى أي حال فقد سار جيش الماركيز مونديخار من لانجرون إلى أرجبة (Orjiba) حيث كان المسيحيون في برج كنيستها محاصرين منذ سبعة عشر يوما. انقذ جيش الماركيز المحاصرين في برج كنيسة أرجبة، ثم انطلق إلى بقيرة (Poqueira). وهناك جرت معركة حامية الوطيس بين الجيشين وكان جيش ابن أمية هناك يتكون من أربعة آلاف رجل جاءوا ليمنعوا الماركيز من المرور من ممر الفجارين (Alfajarabin)، وفي هذه الأثناء انسحب ابن أمية بخمسمائة جندي وقضوا عل الفرقة التي وضعت لحماية جسر طبلاطي (Tablate) وفر بعض الإسبان إلى كنيسة، حيث ألقى الموريسكيون القبض عليهم واستبقوهم رهائن[٣].

---

[١] مؤلف موريسكي مجهول، ص ١٢٦_١٢٧.
انظر كذلك:

- Lafuente Alcantára, Miguel: Obra. citada. T. IV. Pág. 196.
- Caro Baroja, Julio: Obra. citada. Pág. 193.
- Mármol Carvajal, Luis del: Obra citada. T. I. Pág. 408 YY Sig.
- Hurtado de Mendoza, Diego: Guerra de Granada, Edición, Introducción y notas de Bernardo Blanco González. Madrid, 1970, Pág. 147. Y Sig..

[٢] مؤلف موريسكي مجهول، ص ١٢٧.

[٣] المصدر نفسه، ص ١٢٧.

وبينما كان المسلمون مع ابن أمية يأخذون الرهائن، كان جيش الموريسكيين الباقي بقيادة والد زوجة ابن أمية. وكان هذا القائد يفاوض الماركيز مونديخار ويعد بتسليم نفسه، إذا أمن على أتباعه، ونال ثقة الإسبان واحترامهم، وهذا يكشف عمالته وتآمره على الأمة حتى في أحلك لحظاتها.

وبطلب المفاوضة هذا، امتلأ الماركيز مونديخار غرورا، وازدادت شراسته وسار بجيشه حتى وصل جبليس (Jubiles) في السابع عشر من كانون الثاني عام ١٥٦٩م. فاستسلمت قلعتها التي كان بها ثلاثمائة موريسكي، وما يزيد على مائتي امرأة. وقد أمر الماركيز بوضعهم في كنيسة جبليس، ولما كانت لا تتسع لهم ظل كثير منهم في حقل يحيط به الجنود الإسبان. وتحت جنح الظلام، حاول أحد جنود الإسبان اغتصاب فتاة موريسكية منهن بالقوة، وكان يتبع هذه الفتاة خطيبها لابسا ملابس النساء، حتى لا يكتشف أمره فينكل به كما هي عادة الإسبان في قتل من هم في مثل سنه من الشباب، لكن نخوته العربية لم تهدأ إزاء مس عفاف خطيبته فهجم على الإسباني وقتله بخنجره. فدب الذعر في النفوس وانتشر نبأ وجود رجال بين الموريسكيات بزي النساء، وظلوا يذبحونهن حتى أتو عليهن جميعا قبل الفجر[1].

ولما عجزت جيوش الماركيز عن اجتثاث الموريسكيين ، لجأ إلى الخداع، ولم يكن خداعه ليخفى على الكثيرين فأعلن أن من يسلم أسلحته من الموريسكيين فسيناله العفو العام. وبعث الماركيز مونديخار يطلب إلى صديقه ضون الونسو دي غرناطة (Don Alonso de Granada) (مسلم سابقا) ليكتب إلى ابن أمية يطلب منه الاسستسلام. وكان ابن أمية مع جيشه في اندرش (Andarax) واجيجر (Ugijar) والغواخرس (Guajares). وكان من ناحية أخرى يسير بجيشه لمضايقة الموريسكيين الذين التقى بفرقة منهم في تل (أنيزا) (Iniza) قرب بطرنة (Peterna) في السابع والعشرين من كانون الثاني عام ١٥٦٩م. وفي هذا الوقت نفسه كان ابن أمية يقرأ آخر رسائل الماركيز حول الاستسلام. ولدى معرفته بمسيرة جيش الماركيز ومضايقته للموريسكيين رفض

---

(1) مؤلف موريسكي مجهول، ص ١٢٨.
انظر كذلك:
- Circourt, conde de: Obra. citada. T. II. Pags. 344-345.

التفاوض. ولما علم بمؤامرة حميه (والد زوجته) طلق زوجته غيظا واحتل جيش الماركيز بطرنة (Paterna) بغتة واعتقل والدة ابن أمية، وشقيقاته ومئات من الموريسكيات، وغنم جيش الماركيز غنائم كبيرة، وفك أسر كثير من المسيحيين، ومائة وخمسين من المسيحيات. ثم تابع جيش الماركيز مسيرته حتى احتل اندرش (Andarax) منكلا بكل من يلقى من الموريسكيين والموريسكيات غير آبه بطفل أو بشيخ أو امرأة. وبعدئذ رجع الماركيز بجيشه إلى اجيجر (Ugijar) وظل فيها قرابة خمسة أيام يجهز حملة وجهتها غواخرس (Guajares) وأراضي شلوبينية (Salobreña) والمنكب (Almuñecar) وجبل غواخار العالي (Guajar) وهو جبل وعر المسالك، منحدر المرتقى، لا يمكن الوصول إلى قمته إلا من خلال ممر واحد ضيق طويل، وعلى قمة هذا الجبل كان الف موريسكي بقيادة الزمار (Zamar)، وكان هذا الزمار مسؤولا عن حماية خاطر (Jatar)[1]. وفي الحادي عشر من شباط من عام ١٥٦٩م، قام جيش الماركيز بثلاث هجمات لاحتلال ذلك الجبل المنيع. لكن الموريسكيين المتمركزين في قمة الجبل كانوا يصدون هجومهم بالقاء الحجارة على رؤوس الغزاة من خلال ذلك الممر الضيق. ورغم كل ذلك فقد كان جيش الماركيز يتقدم تدريجيا نحو قمة الجبل ولما وصلوا إليها كان القتال متعادلا رغم تزايد عدد المسيحيين. فقرر الماركيز الانسحاب لمعاودة الهجوم في اليوم التالي تحت جنح الظلام. ولما رأى الموريسكيون أن دفاعهم ضعف، وأن المسيحيين سيصلون إلى القمة لا محالة مرة أخرى، خرج الزمار بمقاتليه يرافقهم مجموعة من الموريسكيات تاركين قمة الجبل[2]. وفي صبيحة الثاني عشر من شباط عام ١٥٦٩م، أعاد الماركيز الهجوم بجنوده، وما أيسر احتلال الأرض دون حمايتها فقتل من قتل، واعتقل من اعتقل، وعذب من عذب. أما الزمار ومن معه فقد سلكوا طرقا وعرة متشعبة حتى وصلوا إلى البنيويلاس (Albuñuelas) ثم لحق الجيش الإسباني ــ مزهوا بالنصر ملطخ الأيدي بدماء الأبرياء ــ بالزمار وجماعته. وكان الزمار يحمل ابنته البالغة من العمر ثلاث عشرة سنة، لأنها كان قد أغمي عليها من وعثاء السفر، وعندما أدركهم الجيش دافعوا عن أنفسهم أبسل دفاع، فقتل من قتل وألقي القبض على الزّمار وابنته فاقتيد إلى غرناطة حيث حكم عليه بالموت[3]. ثم هدم جيش الماركيز قلعة غواخرس (Guajares) وتم بذلك اخضاع منطقة

---

[1] مؤلف موريسكي مجهول، ص ١٣١.

[2] المصدر نفسه، ص ١٣١.

[3] Circourt, conde de.: Obra. citada. T. II. Pags. 384-386.

البشرات. لكن ذلك النصر لم يكن ليعتبره الإسبان تاما إلا بأسر ابن أمية وعمه الصغير. ودل الماركيز جواسيسه على أنهما كليهما يختبآن ليلا في بيت مولاي عبد الله محمد بن عبو (Aben Aboo) في بلدة ميشينا (Mecina) فبعث الماركيز قائده غاسبار مالدونادو (Gaspar Maldonado) على رأس ستمائة جندي ليأسرهما. لكن موريسكيا كان ضمن جيش غاسبار أطلق طلقة في الظلام قبيل الوصول إلى البيت ليهرب من فيه، فقفزوا من النوافذ إلا ابن أمية الذي كان يغط في نوم عميق فاستيقظ على جلبة الجند يحيطون بالبيت من كل ناحية فاختبأ خلف الباب الذي تم فتحه بسرعة، واقتحموا البيت فلم يستطيعوا العثور على أحد في داخله، وبهذه الحيلة استطاع ابن أمية أن ينجو من موت شبه مؤكد[١].

وحينما كان الماركيز مونديخار مشغولا بالحرب في أرجبة (Orgiba) دخل ماركيز دي بلش (Velez) في الثالث عشر من كانون الثاني عام ١٥٦٩م، بقواته التي جلبها من مرسية في جهات لورقة (Lorca) إلى أوريا (Oria) مارا بأراضي فيلابرس (Filabres) ورفع رايته في طبرنس (Tabernas).

ورغم هذه الجيوش الكبيرة التي كان يتصل مددها ظلت ثورات الموريسكيين تبرز بين الفينة والأخرى، ليعبروا عن كبت الحرية ودوس الكرامة وهضم حقوقهم. ووصلت جيوش ماركيز بلش إلى فيليش (Filix) واندرش (Andarax) وأوهانس (Ohanes). وبعد كل هذه المحاولات العسكرية التي لم تؤد إلى استئصال الموريسكيين قرر الملك فيليب الثاني أن يذهب لاخضاع المنطقة بنفسه أسوة بما عمله الملكان الكاثوليكيان من قبل. لكن الكردينال اسبينوسا (Espinosa) اقترح أن يذهب بدلا عن الملك ضون خوان النمساوي "أخو الملك غير الشرعي" إلى غرناطة، وكان عمره اثنين وعشرين سنة فحسب، ووضع تحت امرته مجلسا حربيا لكي يفرض السيطرة في مملكة غرناطة. وقد تم تعيين خوان النمساوي لهذه المهمة في السابع عشر من آذار عام ١٥٦٩م[٢]. وما أن سمع الجنود الإسبان أن أميرا سيقودهم في البشرات، حتى تخلوا عن الانضباطية وعصوا قادتهم فاعتدوا نهبا وسلبا وهتك أعراض على القرى التي كانت قد احتلت. إزاء هذه الأعمال البربرية والحالة التي لا تطاق حمل من لم يكن قد حمل من قبل سلاحه انتقاما من الإسبان

---

(١) مؤلف موريسكي مجهول، ص ١٣٢.

(٢) المصدر نفسه، ص ١٣٣.

لما رأوا من وضع لا يمكن أن يحتمل، والتحقوا من جديد بابن أمية وعاهدوه على القتال معه وعدم مفارقته أو خيانته حتى الموت أو النصر. وهذا بدوره شجعهم وزاد من رفع روحهم المعنوية اذ أخبرهم أنه قد بعث أخاه عبد الله إلى الجزائر لطلب النجدة من الأتراك العثمانيين، وبعث سفارة برئاسة فرناندو الحبقي إلى ملك فارس بهذا الخصوص[١].

٤- مذبحة الموريسكيين في سجن غرناطة

ازدادت نقمة الموريسكيين بسبب مذبحة جرت في السجن في غرناطة. فقد وضع في هذا السجن مائة وعشرة من أثرياء الموريسكيين، غير المحاربين، رهائن. وكان من بينهم والد ابن أمية ضون أنطونيو دي فالور وشقيقه فرنسيسكو دي فالور. ولا يستغربن أحد مثل هذه الاسماء فقد ارغم المسلمون في كثير من الأحيان على تبديل اسمائهم بعد التعميد والتنصير قسرا.

هجم الحراس على الرهائن ليلا. وأخذوا يذبحونهم دون سابق انذار. وكان السجناء يدافعون عن انفسهم بالحجارة والعصي والأدوات التي كانوا يستخدمونها للأعمال البيتية. وقد دام ذلك الدفاع سبع ساعات. وأسفر عن قتل كل الرهائن باستثناء والد ابن أمية وأخيه إذ كانا قد نحيا عن الغرفة التي جرت فيها المذبحة[٢].

ولما سمع أهالي مملكة غرناطة بالمذبحة ثارت ثائرتهم واستطاعوا أن يهزموا ثمانمائة اسباني كانوا بقيادة كل من:

البرو دي فلورس	Alvaro de Flores
وانطونيو دي آبله	Antonio de Avilla

---

[1] Giné Pérez de Hita: Obra. citada. Capt. XIII. Pág. 137.

[٢] مؤلف موريسكي مجهول، ص ١٣٥.
انظر كذلك:

Circourt, conde de.: Obra. citada. T. II. P. 406.

وقتلوا القائدين ومعظم جنودهما. كذلك ثار الأهالي في طرن (Turón) فقتلوا والـي عذرة دييغو دي غاسكا (Diego de Gasca). وقد كانت ردة فعل المسيحيين على ذلك قوية، فقتلوا العديد من الشيوخ والنساء والأطفال. وكانوا ينتظرون على أحر من الجمر وصـول ضون خوان النمساوي معتقدين أن مجيئه سيحل كل المشكلات.

وفي السادس من نيسان عام ١٥٦٩م، ودع ضون خوان النمساوي أخـاه الملـك فيليب الثاني متجها من ارنخوث (Aranjuez) إلى غرناطة يرافقه مربيـه وراعيـه منـذ الطفولة ضون لويس كيخاذا (Luis Quijada) وكانت تربطهما أواصر مودة قوية حيث ظل خوان النمساوي يعتبره بمثابة أبيه حتى اعترف الملك فيليب الثاني بالأخوة التي تربطـه بخوان في بلد الوليد وعانقه معانقة الأشقاء[١].

وفي الثالث عشر من نيسان عام ١٥٦٩م، دخل ضون خوان غرناطة بين صفيـن كبيرين من عشرة آلاف شخص يحتفلون بمقدمه، بيد أن بيدرو ديسـا (Don Pedro Deza) رئيس المجمع الملكي، قد هيأ له غير ما توقع، ليزيد نقمته وحماسه لحرب الموريسـكيين؛ فاستقبله بأربعمائة مسيحية من اللواتي فقدن أزواجهن في هذه الحرب يطالبنه بالثأر لـهن. ولدى وصول ضون خوان النمساوي إلى غرناطة وعد باخراج مسلميها الذيـن تـتراوح أعمارهم بين عشر وستين سنة، وإرسال معظمهم إلى قشتالة، حتى لا يلتحقـوا بـالثوار، ونتج عن ذلك فرار مجموعة من الموريسكيين إلى الجبال والتحقوا بجيش ابن أمية[٢].

وفي الرابع عشر من الشهر نفسه توجه لمقابلته وفد مـن أثريـاء الموريسـكيين ووجهائهم الذين نصروا قسرا، يشكون سوء المعاملة من قتل واحتقار وانتهاك أعـراض وسلب ممتلكات؛ فوعد بالحماية لكل من يخلص للنصرانية وبدراسة الشـكاوي الموجهـة إليه.

ودعا إلى اجتماع المجلس الذي شكله الملك من أجل الاستشارة، وأعضـاء ذلـك المجلس هم:

---

(١) مؤلف موريسكي مجهول، ص ١٣٥.

(2) Francisco Oriol Catena: La repoblación del reino de Granada despué de La Expulsión de los moriscos. Boletín de la Uiversidad de Granada. Año VII (Febrero 1935) No. 32. Pág. 312.

١. دوق سيسا (Duque de Sesa) حفيد القائد العام.
٢. رئيس أساقفة غرناطة.
٣. رئيس المجمع الملكي ديسا.
٤. الماركيز مونديخار.
٥. ضون لويس دي ريكسنس رئيس الرهبانيات العسكرية في ليون.

تضاربت الآراء في المجلس فصوت دي مونديخار إلى جانب الهدنة التي يرغبها الموريسكيون؛ على حين صوت الرئيس ديسا إلى جانب تهجير الموريسكيين كافة من حي البيازين والغوطة وتوطينهم في قرى قشتالة. لكن خوان النمساوي لم يصوت إلى جانب التهجير؛ وظل منشغلا بتعزيز الحاميات المسيحية وتقويتها في البشرات، وبتعيين قواد مناسبين للفرق. وأكد على وجوب الانضباط الدقيق ومنع اجازات الجند في انتظار معرفة موقف الملك من التهجير أو الهدنة.

في هذه الأثناء كان ابن أمية يتهيأ لأخذ المبادرة في الهجوم، وكان يقيم في البشرات من ناحية اجيجر (Ugijar)، وقد وصلته قوة جزائرية بقيادة التركي حسين* فوزع ابن أمية القيادات على من يثق بهم وأمرهم بالحرب الخاطفة السريعة وتجنب المعارك المكشوفة حتى يستطيعوا ارهاق الإسبان.

وزع الموريسكيون فرقهم في أراضي المرية ومالقة وسلسلة جبال بنتوميث، مهددين الغوطة. وأخذت قوات الموريسكيين تهزم من صادفها من الفرق المسيحية. وقد جمع اريفلودى ثواثو (Arévalo de Zuazo) القائم بأمور القضاء في بلش جيشا كبيرا اراد أن يحتل به صخرة فريخليانا (Frigiliana) التي كان يتحصن بها الموريسكيون؛ ودارت المعركة بينهما فخسر اريفلو (Arévalo) معظم قواته وانهزم إلى بلش ليرى تقدم الموريسكيين في البلاد.

---

* ورد هذا الاسم هكذا في الأصل.

اراد ماركيز بلش لفت نظر خوان النمساوي إلى بطولاته وقدرته على مهاجمة ابن أمية في برجة، فتقدم على رأس جيش من عشرة آلاف مقاتل واستطاع الماركيز فعلاً صد ابن أمية وعمه الصغير عن برجة؛ إذ هاجمها الماركيز من ثلاث جهات في وقت واحـد. وقتل في تلك المعركة ألف وخمسمائة موريسكي وانسحب ابن أمية إلى قاديـار (Cadiar) ليعيد تنظيم قواته[١].

وفي الثامن والعشرين من نيسان عام ١٥٦٩م، قدم كبير أعيان ورئيس الرهبانيات العسكرية في ليون ضون لويس دي ريكسنس (Luis de Requesens) من ايطاليـا ليـأخذ مكانه في المجلس الاستشاري. وكان برفقته قوة بحرية قوامها أربع وعشرون سفينة نزلت على الشاطئ[٢] واشتبكت مع الموريسكيين، وقد خسرت هذه القوات المدربة كثـيرا مـن خيرة أفرادها. لكنها نجحت في الحادي عشر من حزيران عـام ١٥٦٩م، فـي احتـلال صخرة فريخليانا التي عجز ماركيز دي بلش عن احتلالها قبـل شـهر. وبعـد احتـلال الصخرة قتل أفراد حاميتها وأسر ثلاثة آلاف من الموريسكيين وغنم غنائم كبيرة[٣].

هكذا جهز الإسبان كل ما لديهم من قوة جمعوها من كل أرجاء شبه جزيرة ايبيريا لإبادة الموريسكيين أو اخماد ثورتهم في البشرات، واثباتا لذلك أشير إلى ما يلي:

قرر دييغو أورتادو دي مندوسا (Diego Hurtado de Mendoza) نائب الملـك فـي مقاطعة قطلونية بتاريخ الثالث عشر من أيار عام ١٥٦٩م، السـماح لكـل المتطوعيـن بالالتحاق بالجيش الإسباني الذي كان يحاصر ويحارب الموريسكيين في البشرات حتى بلغ عدد المتطوعين حينئذ ألف متطوع[٤]. كما اجاز بتاريخ الثامن عشر من الشـهر نفسـه لجميع جنود مقاطعة برشلونة وأرغون وبلنسية وللجنود الفرنسيين الذين وصلوا متحمسين ليقدموا خدماتهم للملك فيليب الثاني في حرب الموريسكيين في البشرات.

---

(١) مؤلف موريسكي مجهول، ص ١٣٧ـ١٣٨.

(2) 1569. 28 de Abríl, Barcelona, (DACB, V, 85 Dietari de l' Antic Consell Barceloni).

(3) Francisco de Paula Villla y Valdivia: Obra. citada. Lecciones, 62 Y 63, Pags. 411-429.

(4) 1569, 13 de Mayo, Barcelona, ACA Archivo de La corona de Aragón, registro Cancilleria, 44733, Fol. 235.

وكان أولئك الفرنسيون بقيادة خوان بوئيل دى ارينوس (Don Juan Bohil de Arenos)، ومن بين تلك الحشود التي تجمعت لحرب الموريسكيين وصلت ثماني عشرة سفينة حربية من البلدان المسيحية المجاورة في طريقها إلى غرناطة[1] لنجدة لويس ريكسنس (Luis de Requesens) واصطدموا في طريقهم بموريسكيي بلش مالقة فانتصروا عليهم وشردوهم[2].

كما جاءت فرقتا مشاة إلى برشلونة ثم اتجهتا إلى غرناطة، وكانت احداهما بقيادة موسن سريرة (Mosén Sarriera) والأخرى بقيادة موسن لوبيا (Mosén Lupia)[3] لتشتركا مع المشتركين في المجزرة التي كانوا يعدونها للموريسكيين.

ولا بد أن القارئ يلاحظ أن المسيحيين في تلك البلاد رغم ما كان بينهم من نعرات وصراعات مذهبية كانوا يلتقون في حرب الموريسكيين وإبادتهم ومحاولة إزالة كل أثر ديني وحضاري لهم. ولا تختلف هذه الصورة في قليل أو كثير إلا من حيث المكان عما كان يجري في الحروب الصليبية. فقد كانت هذه الحرب دينية محضة يوجهها رجالات الدين ضد الموريسكيين فيؤاخذون بالزلة الصغيرة ليشعلوا حربا لا تبقي ولا تذر.

وجه ابن أمية حملة نحو نهر المنصورة حيث كان تمرد كل سكان المنطقة فأحتل قصور أوريا (Oria) والكهوف واستسلمت بعدها سيرون (Seron)، وهي من أفضل الحاميات، وذلك بعد أن هزم ضون انريكي انريكس (Enrique Enriquez) الذي جاء لنجدة تلك الحامية من بسطة (Baza) وكان استسلامها في الحادي عشر من تموز عام ١٥٦٩م.

كانت المعارك تحتدم في البشرات بينما كان ضون خوان النمساوي مضطرا إلى البقاء في غرناطة منشغلا عن المعارك بحضور جلسات المجلس الذي فرضه عليه شقيقه فيليب الثاني.

---

(1) 1569, 18 de Mayo, Barcelona, ACA Archivo de La corona de Aragón, Registro de cancilleria, 4731, 274-275.
(2) 1569, 24 de Junio, Barcelona, DACB (Dietari de L'Antic Consell Barceloni), V, 85.
(3) 1569, 29 de Junio, Barcelona, DACB (Dietari de L'Antic Consell Barceloni), V, 86.

وجاءت أوامر الملك فيليب الثاني بتهجير الموريسكيين في الثالث والعشرين من حزيران عام ١٥٦٩م. بعيد الفجر حيث كان جيش غرناطة مستعدا، كذلك كانت فرق الغوطة، في هذا الوقت طاف المنادون يعلنون وجوب التحاق الموريسكيين المنصرين برعوياتهم وأن من يطيع فان ديسا (Deza) يمنحه الأمان. ورغم معرفة الموريسكيين بطباع رئيس المجمع الملكي إلا أنهم أذعنوا والتحقوا برعوياتهم غير مطمئنين على مصيرهم[١].

ظلوا في الكنائس طوال الليل تحرسهم الجنود وفي الصباح نقلوا إلى المستشفى وأخرجوا منه طبقا لكشوفات اسمائهم ونقلوا إلى أقضية أخرى بعيدة ليستوطنوا هناك بعيدا عن وطنهم الأصلي، وخلال تلك الرحلة كانوا يعاملون أسوأ معاملة فيقتل بعضهم وينهب بعضهم الآخر وظلت منازلهم خالية مهجورة مرعبة.

كذلك كان خوان النمساوي واتباعه منهمكين باقصاء الشيوخ والأبرياء العزل. على حين كان ابن أمية قد احتل كل الحقول وأراضي نهر المنصورة، تملأه انتصاراته عزاء، وفخرا، ويجند الجند، ويعد العدة من السلاح والخيل، وعلم ابن أمية بما جرى لأبيه وأخيه وبالقصاص الذي انزلته بهما المحكمة فعرض فدية لهما بثمانين أسيرا في رسالة إلى خوان النمساوي، ليخلي سبيلهما وإن لم يستجب إلى طلبه فإنه يهدد بأعمال انتقامية فظيعة. أثارت قراءة هذه الرسالة بلبلة وخلافا في الرأي في مجلس ضون خوان النمساوي ثم اتفقوا على عدم الإجابة على هذه الرسالة وأرغموا والده أن يكتب إلى ابنه ناهيا إياه عن متابعة العنف نافيا ما جاء في رسالة ابنه من تعذيب أو إساءة لحقته من خلال محكمة التفتيش[٢]. استشرت الخلافات في المجلس حتى أوقفت كل العمليات الحربية، وهذا أدى إلى أن يدعو الملك فيليب الثاني الماركيز دي مونديخار لمقابلته بحجة الاستفسار عن نتائج الحرب، وبعدئذ لم يعد الماركيز إلى غرناطة أبدا. في النهاية استطاع المجلس أن يحد من شوكة مناوئيه ثم قرر أن تستمر الحرب دون مهادنة، وتم الأمر باستمرار الحرب ضد كل من تسول له نفسه أن يقوم بالثورة في غرناطة وأنحائها.

(1) Circourt, conde de: Obra. citada. T. 11. Pág. 443.

(٢) مؤلف موريسكي مجهول، ص ١٤١.

٥- اغتيال ابن أمية

في غمرة النصر هذه كانت خيوط المؤامرة تحاك ضد ابن أمية. وكان المسؤولون عن تلك المؤامرة يتهمونه بالتقاعس في حرب الإسبان ويتهمونه بالتعامل مع الإسبان بالشفقة والرحمة. أما المشتركون في هذه المؤامرة فهم: القائد التركي حسين الذي جاء من الجزائر حسب رغبة دييغولوبث (ابن عبو)* Diego Lopez (Aben Aboo) ودييغو الغوائيل الموريسكي (Diego Alguacil) فخنقوا ابن أمية، وهاجموا بيته فاستولوا عليه ووزعوا ممتلكاته. وبذا طويت صفحة هذا المجاهد الذي أعاد للموريسكيين بعضا من عزتهم وجمع جيوشهم ووحدها وجعل منها قوة مهيبة الجانب تهدد الإسبان وترعبهم حتى أن أحدهم كان لا يجرؤ في بعض الأحيان بل ولا تجرؤ جماعة منهم على الخروج إلى الحقول. طويت صفحة هذا البطل بالاغتيال على يد أقرب الناس إليه، والناس الذين كان يرجو لهم وبهم كل نصر وخير. ولعل سر هذا التقاعس الذي رمى به ـ ابن أمية ـ يرجع إلى أسر أبيه وأخيه في السجون الإسبانية ووقوعهما تحت رحمة محاكم التفتيش؛ لا سيما أن أخاه كان يرسل له رسائل بين حين وآخر تبين كيفية العذاب الذي كانا يلقيانه في السجون من قبل محاكم التفتيش. وقد اضعف هذا عزيمة ابن أمية وثبط نوعا ما من روحه المعنوية واندفاعاته ضد الإسبان. ولقد استخدمت محاكم التفتيش اسلوبا استغلاليا ذكيا عندما أنقذت أخا ابن أمية وأباه من أن يقتلا في السجن مع من قتل فاستغلتهما لترجيح كفة المعركة لصالح الإسبان، ولتفت في عضد ابن أمية وتخضعه لشروطها. ولو قتلوا مع من قتل لازدادت ثورة ابن أمية اضطراما، ولما توقف حتى يثأر لهما أو يموت دون ذلك.

---

* تكتب أيضا (ابن أبوه).

٦ـ استمرار الثورة بقيادة ابن عبو

بعد اغتيال ابن أمية انتخب أحد المتآمرين ملكا مكانه وهو دييغو لوبــــث (Diego Lopez) واتخذ اسم مولاي عبد الله محمد بن عبو ملك الاندلسيين. ووافق علي باشا نـائب السلطان في الجزائر عل انتخابه له وبعث بعض التعزيزات[١] مما ساعده عل النجاح في حملاته الحربية الأولى ضد الإسبان، فطوق جيشه مدينة أرجبة (Orjiba) وقلعتها فتوجـــه دوق سيسا (Duque de Sesa) بجيش لانقاذ الحامية المطوقة لكنه اضطر إلى الارتداد عنها فاحتل ابن عبو قرية غاليرا (Galera) وكانت مركزا استراتيجيا ممتــــازا. وقــد جــاءت لمساعدة الدوق سيسا جيوش من اشكر (Huéscar) فهزمهم "ابن عبو" ونقل المعركة متحديا إلى غوطة غرناطة[٢].

وبناء عل أوامر الملك فيليب الثاني ظل ضون خوان النمســـاوي فـــي غرناطــة وأرسل إلى أخيه الملك يوضح له سلبية هذه الحرب ونتائجها الخطرة على مملكتي مرسية وبلنسية إذا تمرد فيهما الموريسكيون اقتداء بموريسكيي غرناطة. كما أبلغه قلقه ورغبتـــه في أن يقود الحملات بنفسه.

لذلك أمر الملك فيليب الثاني نزولا عند رغبة خوان النمساوي، بتكويـــن جيشـــين أحدهما بقيادة شقيقه خوان النمساوي ـ ليحارب حول نهر المنصورة والثاني بقيـــادة دوق سيسا ليحارب في البشرات[٣].

فرح الجنود بتعيين ضون خوان النمساوي قائدا لهم، وسار معه عدد كبـــير مـــن الفرسان والجنود. وأول ما قام به خوان كان احتلال غويخـــار (Güejar). فـــهرب منـــها الموريسكيون الذين كانوا يعترضون القوافل الإسبانية في طريقـــها مـــن الغوطـــة إلـــى البشرات. فالتحقوا بقائدهم "ابن عبو" ومن ثم وصلت من بسطة (Baza) تعزيـــزات إلـــى جيش ضون خوان النمساوي قوامها اثنا عشر ألف مقاتل، فطوق غاليرا (Galera) التـــي

---

(١) –Luis del Mármol Carvajal: Obra. Citada. Madrid, 1946. P. 318.

(٢) مؤلف موريسكي مجهول، ص ١٤٣.

(٣) –Américo Castro: España en su Historia. Cristíanos Judios. Buenos Aires. 1.948, Capt. II. Pág. 57.

عجز ماركيز بلش عن احتلالها قبلا، ووضع الألغام والمتفجرات وقصفها بالمدفعية حتى محاها تماما في العاشر من شباط عام ١٥٧٠م. وأمر بهدم ما بقي من مبانيها وأمر أن ترش ارضها بالملح ليسرع في إذابة الثلج حتى لا يعين الموريسكيين على الاختفاء[١].

بهذه المعركة تم قتل ألفين وأربعمائة موريسكي وأربعمائة امرأة وطفل.

بينما كان خوان يقوم بجولة استطلاعية في حصن سيرون، كاد أن يذهب ضحية لرصاصة اصطدمت بدرعه القوي. وفي الوقت نفسه شهد مصرع ضون لويس كيخادا (Don Luis Quijada) برصاصة بندقية. وكان كيخادا هذا صديق الملك شارل الخامس وكاتم أسراره، وكان خوان يعتبره بمثابة الأب فحزن حزنا عميقا عل ذلك.

عاد خوان بجيشه بعد تعزيزه في الخامس من آذار عام ١٥٧٠م، إلى سيرون (Seron). ولم يكن الموريسكيون يعلمون بتسلل هذا الجيش الذي أشعل الحرائق في البلدة والحصن فهرب سبعون ألف موريسكي إلى الجبال ليتحصنوا بها.

ومن هناك توجه خوان النمساوي إلى تيجولا (Tíjola). وكان الموريسكيون قد انسحبوا منها سرا دون ضوضاء تحت جنح الظلام. فلم يجد خوان وجيشه فيها إلا أربعمائة امرأة وطفل وغنائم كبيرة فاقتادوهم أسرى وأمر ضون خوان بتدمير البلدة. واستولى الإسبان بعد ذلك على حصون برشينا (Purchena) وكانتوريا (Cantoria) وتهالي (Tahali) وغيرها. وكان الموريسكيون قد أخلوها من قبل، عندئذ اتصل فرناندو الحبقي بخوان النمساوي Fernaando el Habaqui مقترحا مهادنة الموريسكيين، وانه سيتولى اقناع "ابن عبو" بالتخلي عن حصون نهر المنصورة والانسحاب إلى البشرات على أن يعطي الأمان على الأرواح له ولجماعته حتى يتوقف سفك الدماء[٢].

وافق خوان النمساوي على ذلك فأعلن منشورا يعفو فيه عن حياة كل موريسكي ويعد بأن يحق الحق ويبطل الباطل وأن ينتصر لكل مظلوم كان سبب تمرده العنف الذي

---

[١] مؤلف موريسكي مجهول، ص ١٤٤.

[٢] المصدر نفسه، ص ١٤٥.

عومل به. كذلك وعد بجائزة لكل موريسكي عمره بين الخامسة عشرة والخمسين عاما إذا جاء وسلم معه بندقية أو قوسا ضمن المدة الممنوحة، واشترط لذلك العفو أن ينضووا تحت أمرته أو أمره الملك فيليب الثاني، ومقابل هذا يطلق سراح اثنين من أقارب كل موريسكي من الأسر[1].

ولا بد أن يلحظ القارئ أن هذه السن المحددة بين الخامسة عشرة والخمسين هي سن القدرة على حمل السلاح حتى لا يستغل الموريسكيون الشروط فيقدموا شيوخا وأطفالا من أجل اطلاق سراح محاربين.

أعدت للتسلم مراكز تابعة لضون خوان النمساوي والدوق سيسا، وسيتعرض كل موريسكي لا يخضع لتلك الشروط للموت المؤكد. وفي الوقت نفسه كان المستعرب كاستيلو (Castillo) يتقن العربية فزور رسائل على لسان أحد الفقهاء تدعو الموريسكيين الثائرين للاستسلام تخلصا من الويلات التي يجرها عليهم استمرارهم مع "ابن عبو". وفي هذه الأثناء أخمد دوق سيسا بانتصاراته كثيرا من الموريسكيين وأسر الكثيرين وعزز حصون كومبته (Competa) ومارو (Maro) ونرجه (Nerja) وفرض الأمن والهدوء وهجر إلى داخل إسبانيا سكان برجي (Borje) وقمارش (Comares) وقوتار (Cutar) وبن مارغوسا[2] (Benamargosa).

في التاسع عشر من آذار عام ١٥٧٠م، تم تهجير كل من كان من المسالمين الموريسكيين من غرناطة وحكم بالموت على كل من يبقى متخفيا هناك. ونقل المهجرون إلى قرى المانش (Manch) وقشتالة، وعوض عليهم بدل ممتلكاتهم غير المنقولة.

وقام دوق سيسا بحملات سيطر من خلالها على كثير من الموريسكيين، ثم اجتمع ضون خوان النمساوي ودوق سيسا في بادول (Padules) واتفقا على مواصلة الحرب رغم ما ذهب ضحيتها من المسيحيين مهما كلف الأمر دون أن يتخليا عن شروط الهدنة المعروضة. وأمرا بأن يكتب ضون الونسو دي غرناطة (Don Alonso de Granada)

---

[1] مؤلف موريسكي مجهول، ص ١٤٥-١٤٦.

[2] المصدر نفسه، ص ١٤٦.

مباشرة إلى (ابن عبو) موضحا شروط الاستسلام. والونسو هذا أحد الموريسكيين الذين نصروا قسرا. رغم أن كل العوامل كانت ضد الموريسكيين كما اتضح في السطور السابقة إلا أن (ابن عبو) رد رافضا الاستسلام مدافعا عن عدالة الثورة موصيا الونسو بأن يجتمع بنفسه بالحبقي جاعلا إياه ممثلا مؤتمنا له.

وفي الثالث عشر من شهر أيار عام ١٥٧٠م، اجتمع الونسو والحبقي في فوندون اندرش (Fondón Andarax) ممثلين عن (ابن عبو)[١] . فاقترح الحبقي شروط الاستسلام وارسلت إل ضون خوان النمساوي، فاجتمع مجلس خوان وقرر أن يفاوض الحبقي "ابن عبو" ويعطي الحبقي تفويضا كاملا ليرسل الموريسكيون معه عريضة تبين ما يريدون تجنبا للشكوك، وفي التاسع عشر من أيار عام ١٥٧٠م. عاد الحبقي الى اندرش يحمل عريضة التفويض الكامل للمسالمة من (ابن عبو)، وتم الاتفاق على شروط الاستسلام التي تضمن للموريسكيين حياتهم وأملاكهم وتؤمنهم من الاعتداء عليهم وتسمح بإقامة العلاقات بينهم من زواج وغير ذلك، وقد تم كل ذلك في بادول (Padules) في الثاني والعشرين من الشهر نفسه[٢].

تنفيذا لذلك الاستسلام تقدم الحبقي ممثلا عن "ابن عبو" إلى خيمة ضون خوان النمساوي التي كانت محاطة بمستشاريه وقادته، والقى سيفه وعلم الاستسلام عند قدمي ضون خوان النمساوي فأعاد إليه سيفه ومنحه الأمان بألا يعتدي عليه ولا يزعج ولا يلاحق ولا ينهب هو والموريسكيون لكي يعيشوا بأمان مع أسرهم ضمن المملكة إلا البشرات. وعاد الحبقي إلى "ابن عبو" ليعلمه بمراسيم الاستسلام التي جرت ويسلمه وثيقة الاستسلام، وعين ضون خوان مندوبين لقبول استسلام الموريسكيين لكن "ابن عبو" لدى اطلاعه على فحوى الوثيقة، عرف حقيقة الأمر، وعلم أنها مزورة تختلف عن التي وقعها، وعلم أن الحبقي قد خانه فرفض الاستسلام.

عاد الحبقي غاضبا لاتهامه بالخيانة وعرض على ضون خوان النمساوي أن ينفذ الاتفاقية بنفسه وأن يحضر له (ابن عبو) موثوقا. فوافقه خوان على ما عرضه وسار

---

[1] Luis del Mármol Carvajal: Obra. citada. Madrid, 1.797. Libro IX. Capt. I. Pags. 355-358.
- Ginés Perez de Hita: Obra citada. Capt. XXV. Paginas 342-353.

[٢] مؤلف موريسكي مجهول، ص ١٤٧-١٤٨.

الحبقي لتنفيذ المهمة برفقة بعض أتباعه، وأخذ يبحث عن (ابن عبو) فأمر ابن عبــو بدوره بعض الموريسكيين المخلصين بقتل الحبقي فقتل الحبقي ودفن سرا وظل (ابن عبو) يخفي قتله ثلاثين يوما. بعد ذلك حاول "ابن عبو" أن يخدع ضون خوان النمساوي واعــدا بتنفيذ اتفاقية الاستسلام[1].

وفي الثلاثين من شهر تموز عام ١٥٧٠م، بعث ضون خوان النمســاوي مبعوثــا يتفاوض معه حسب طلبه وعندئذ أخبره (ابن عبو) بكبرياء: (ما دمت قد انتخبــت ملكــا فانني لن استسلم ولو بقيت وحدي في البشرات، ثم أن لدي عند الملمات كهفا فيه من الماء والغذاء ما يكفيني ست سنوات، وهذه المدة كافية لأحصل فيها عل مركبة تقلني إلى بــلاد البربر).

بعد أن بلغ ضون خوان النمساوي كبرياء (ابن عبو) ومقالته شكل جيشــين علــى رأس أحدهما ريكسنس (Requesens) ليدخل البشرات وتوجه خوان النمساوي ودوق سيسـا إلى وادي آش ليلتقي الجيشان في وسط الجبال[2].

في شهر أيلول عام ١٥٧٠م، شن ريكسنس (Requesens) هجومه الشــامل علــى البشرات فقتل الشيوخ والأطفال وبقر بطون الحوامل ووزع النساء الموريســكيات علــى جنوده، واسر الكثير فبيعوا عبيدا، وكان يشعل النيران على مداخل الكهوف ليخنق من في داخلها فإن حاول الخروج حرقته النار وإلا مات مختنقا.

في الثامن والعشرين من تشرين الأول عام ١٥٧٠م، أمر الملك فيليب شقيقه ودوق بيدرو سيسا باخراج جميع الموريسكيين من مملكة غرناطة ســواء أمســلمين كــانوا أم مستسلمين ليرسلوا إلى قشتالة[3].

---

(١) مؤلف موريسكي مجهول، ص ١٤٨-١٤٩.

(٢) المصدر نفسه، ص ١٤٩.

(٣) المصدر نفسه، ص ١٥٠.

٧ـ اغتيال ابن عبـــــــــو

أخيرا اغتال (ابن عبو) عام ١٥٧١م، موريسكيون أرسلهم الإسـبان، وهـم مـن أقارب ابن أمية، ليتفاوضوا معه وقتلوه مع جميع مرافقيه من الموريسكيين[١]. وبعد هـذا الاغتيال نكلوا (بابن عبو) فاستلوا أحشاءه واستبدلوا بها الملح الذي ملؤوا بـه جثتـه ثـم حملوه على فرس في قفص حديدي ليراه الناس.

وفي عام ١٥٧٣م، استطاع ضون خوان النمساوي أن يخضع مناطق لم تكن قـد استسلمت في البشرات هي: غاليرا (Galera) وسيرون (Seron) وبرشينا (Purchena).

ازداد التوتر بعد ثورة البشرات لا سيما فـي بلنسـية وارغـون. وقـد أشـعله الموريسكيون الذين شردوا من مملكة غرناطة. وزاد في هذا التوتر وصـول المسـلمين الأتراك لنجدة اخوانهم ضد فيليب الثاني. كما ساهمت في الاحداق بفيليب الثاني العلاقـة التي أقامها الموريسكيون مع البروتستانت في بيرن (Bearn) في جنوب فرنسا[٢]. واتخـذ الملك فيليب الثاني خطة جديدة تتمثل في تسليح النصارى وتجريد موريسكيي ارغون مـن أسلحتهم ومضاعفة مراقبة الشواطئ.

وكان قد تم توزيع موريسـكيي غرناطـة بخاصـة بيـن قشـتالة ولا مانتشـا واسترامادورا (Castilla, La Mancha Y Extremadura) ووصل كثير من الموريسكيين إلـى ابرشية بطليوس (Badajoz) وكان أسقفها ضون دييغو غومث دي لا مدريـد (Don Diego Gomez de Lamadrid) عام ١٥٧٨م. الذي كرس حياته لتنصير الموريسـكيين، فوضـع سلسلة أنظمة نشرت في مجمع الأساقفة عام ١٥٨٣م. تبين سلوك الرهبان الواجب اتباعـه إزاء الموريسكيين الذين تم تنصيرهم قسرا[٣] في عام ١٥٨٠م. كان موريسكيو الاندلـس في اشبيلية وقرطبة واستجه وجيان يعدون لانزال مسلمي شمالي افريقيا الذين كانوا علـى

---

[١] مؤلف موريسكي مجهول، ص ١٥١.

[2] Louis cardaillac. Moriscos y cristianos, un enfrentamiento polémico (14492-1640), Madrid, 1979, Pág 131.
- L. Cardaillac: Morisques et protestants (Al Andalus), 1971, P. 44.
- Archivo Histórico Nacional. Inq. Leg. 4529.
- Antonio Domínguez Ortíz y Bernard Vincent: Obra. citada. Capt. 3, Pags. 61-62.

[3] El licenciado Pero Perez (Fernando Castón): catequesis de los moriscos extremeños. Revista del Centro de Estudios Extremeños. Tomo. X. Badajoz. 1.936. Pags. 32-49.

اتصال معهم إلى شبه جزيرة ايبيريا، وكان رأس هذا الاتفاق الموريسكي فرناندو مولاي، ورغم احباط هذا الاتفاق فقد انتقم النصارى فوضعوا أعيان الموريسكيين تحت المراقبة الشديدة لا سيما في مالقة والمدن المذكورة أعلاه.

وفي عام ١٥٨٣م، اكتشفت محاكم التفتيش في بلنسية مؤامرة أخرى كانت قد حيكت بين الموريسكيين وفرنسيي بيرن (Bearn)[1]. وفي عام ١٥٨٥م قامت حرب أهلية في أرغون بين الموريسكيين والنصارى الإسبان الذين كانوا يقطنون الجبال فحامت الشكوك حول علاقات بين الموريسكيين وفرنسيي بيرن مؤداها أن الموريسكيين كانوا يحمون فرنسيي بيرن الذين كانوا قد قدموا لمساعدتهم. ثم عقد الملك فيليب الثاني مؤتمرا فوق العادة عام ١٥٨٨م في الباردو (مدريد) ليبحث في المشكلات التي كان يحدثها الموريسكيون لتتخذ في شأنها الحلول الجذرية.

وزاد مشكلات الموريسكيين سياسة انطونيو بيريث (Antonio Perez) حاكم مدينة أرغون إذ كان قد تقرب إلى فرنسا وحظي بتأييد هنري الرابع (١٥٥٣م ـــ ١٦١٠م). الذي صار ملك فرنسا فيما بعد. وقد اجتمع مجلس الدولة عام ١٥٩٦م. فقرر وجوب نزع سلاح الموريسكيين على أن يستقروا في أراضيهم، ويكون ذوو النفوذ منهم على مقربة من النصارى، وأن تراقب علاقة موريسكيي ارغون وبلنسية[2].

أدت السياسة الدولية التي اتخذها فيليب الثاني إلى تورط إسبانيا في مشكلات سياسية خارجية وقد أثر ذلك على الموريسكيين. وكانت أولى تلك المشكلات الخطر الاسلامي التركي وخطر مسلمي شمالي افريقيا الذين كانوا يزدادون قوة بوجود الموريسكيين في شبه جزيرة ايبيريا لا سيما في بلنسية. أما ثانيتها فمصدرها البروتستانت الفرنسيون وحروبهم الدينية مع الكاثوليك. وازداد هذا الخطر بالتقارب الجغرافي بينهم وبين مسلمي ارغون فواجه فيليب الثاني مرغما في آخر أيام ملكه تعقيدات جديدة في أوروبا. وقد تم التوقيع على (معاهدة غريين ويتش El Tratado de Greenwich عام ١٥٩٦م، بين فرنسا وانكلترا وهولندا لتقف هذه الدول مجتمعة ضد

---

(1) S. Garcia Martinez: Bandolerismo, pirateria control de los moriscos de Valencia durante el reinado de Felipe II. "Estudis" 1.872. Pág. 144.
(2) Juan Regla: La expulsión de los moriscos y sus consecuencias. Contribución a su estudio. Hispania, Revista Española de Historia. Tomo XIII, Madrid 1.953. No. L. Pags. 239-246.

سياسة فيليب الثاني. وكان الموريسكيون متأهبين لمناصرة أي عدو يناهض فيليب الثـاني لعله ينقذهم مما هم فيه. هكذا تحالف مسلمو أرغون مع هنري الرابع ملك فرنسـا بينمـا تحالف موريسكيو اشبيلية والاندلس مع انكلترا وهولندا[١] . إزاء هـذا الوضـع الدولـي الإسباني المحرج كرس فيليب الثـاني مجموعـة مـن القـرارات الصارمـة لمراقبـة الموريسكيين وكانت تلك القرارات تسئ بشكل خاص إلى موريسكيي ارغون.

اجتمعت أمور عدة زادت تعقيد مشكلة موريسكيي ارغون كان أهمـها الوضـع الدولي السابق الذكر ومشكلات اقتصادية وأخرى داخلية أدى إليها الحكم الذاتي الاقطاعي، إضافة إلى التطور السياسي الإسباني الدولي[٢]. وفي نهاية عهد فيليب الثاني بدأ كثير مـن الموريسكيين يمل حياة الشقاء ويحن إلى الراحة وتحسين الوضع الاجتماعي، فدخل كثـير منهم الحياة الكنسية ونالوا مراكز دينية في خدمة الكنيسة فأثروا أثرا سيئا علـى الايمـان بالديانة المسيحية، ذلك أنهم ظلوا يتعاطفون مع دينهم القديم ويمدون يد المسـاعدة سـرا لاخوانهم، كذلك سلك اليهود المسلك ذاته.

اثباتا لهذه المعلومات أشير إلى الاحصاءات التـي جـرت فـي (اسـترامادورا) (Extremadura) سنة ١٥٩٤م. حيث ذكرت سبعة نادرين من الرهبان الموريسكيين ظلـوا على إسلامهم سرا[٣]. افتضح أمرهم فشنقوا جميعا وعلقت جثثهم على مدخل المدينة.

---

(1) Juan Regla: Estudios sobre los moriscos. Barcelona, 3ª edición, 1.9447. Edit. Ariel. Capt. II. Pags. 195--218.
(2) Maria Soledad Carrasco Urgoitt: Obra. Citada. Capt. II. Pág. 26.
(3) Julio Fernañdez Nieva: Un censo de moriscos extremeños de la inquisición de Lierrena (año 1.594). Revista de Estudios Extremenos XXIX (1973), N°. 1. Pags. 149-176.
- Bernard Vincent: Les morisques d'Estremadure au XVI^{eme} siecle. Annales de Demographie. Historique. 1.974. Pág 440.

توزيع موريسكيي مملكة غرناطة على مختلف أنحاء شبه جزيرة ايبيريا قسرا ومصادرة ممتلكاتهم

لم يستقر وضع سكان شبه جزيرة ايبيريا قبل عهد فيليب الثاني بقليل وفي أثناء حكمه، فقد ظل الموريسكيون يتحينون الفرصة للتململ أنى سنحت، وقد كان لثورة عام ١٥٦٨م، التي تمخضت عن اخراج الموريسكيين من مواطنهم (مملكة غرناطة) أكبر الأثر على مصير حياة السكان.

تجدر الاشارة إلى أن سكان غرناطة كانوا على النقيض بالنسبة إلى مناطق الشمال وبقية شبه الجزيرة. فقد كان النبلاء في غرناطة طبقة قليلة العدد، وكانت أهم الطبقات طبقة التجار والصناع والفنانين والخدم والنصارى الذين كانوا يستغلون الأرض مقابل الضرائب التي كانت تزيد كثيرا عما كان يدفعه الموريسكيون من جزية وضرائب[1]. يقول كارو باروخا[2]. "نظرا لهذه التركيبة الاجتماعية المختلطة فقد اختلفت نسبة عدد السكان باختلاف المناطق فكان الموريسكيون يقيمون في المناطق الريفية، وكانت نسبتهم في مدن بسطة ووادي آش والمرية ومطريل تتراوح بين ٣٠-٤٠% من السكان". وتصل نسبة الموريسكيين في غرناطة إلى ٥٠% وقد كان عددهم قليلا جدا في المنطقة السلحلية التي تمتد من فيرا إلى استيبونا (Estepona)، وقد حظر على الموريسكيين سكنى السواحل حفظا لسلامة النصارى. وكانت الفكرة السائدة هي أن الموريسكيين كانوا يشكلون أغلبية السكان في مملكة غرناطة حتى ثورة ١٥٦٨م. ويعتقد مارتين رويث[3] (Martin Ruiz) أن عدد النصارى كان حوالي ١٥٥ر٠٠٠ نسمة بينما كان عدد الموريسكيين كما ـ يعتقد ـ ١٢٠٠٠٠ نسمة أي بنسبة ٤٣% من عدد السكان، وعلى نقيض ذلك ما يقوله دومينغيث اورتيث وب. بنثنت[4] (Dominguez Ortiz Y Vincent) من أن عدد الموريسكيين قد وصل إلى ١٥٠٠٠٠ تقريبا وكانوا يشكلون أغلبية عظمى بالنسبة إلى النصارى في المنطقة، وقد قدما لائحة تبين توزيع السكان على النحو التالي:

---

(1) Julio Caro Baroja : Loss moriscos del Reino de Granada. Madrid 1.976. 2ª edición. Capt. 3. Pags. 91-93
(2) Julio Caro Baroja: Ob. Cit. Capt. 3. Pags. 91-93.
(3) Felipe Martin Ruiz: Movimietos demográficos y econoicos en el Reino de Granada durate la segunda mitad del siglo XVI. Anuario de Historia Económica y Social I (1.968), Pags. 142, y 181.
(4) Antonio Dominguez Ortiz y Bernard Vincet: Obra. Citada. Capt. 4, Pags. 78--79.

المكان	عدد السكان
غوطة غرناطة، وادي لكرين، مطريل وضواحيها، البشرات وأراضي ماركيز سينيتي، ومنطقة بسطة (باستثناء العاصمة)، المرية، والمقاطعات ووادي المنصورة (ما عدا أراضي ماركيز بلش).	٢٣٧٧١ أسرة
غرناطة	٥٢٨٠ أسرة
بسطة	٦٠٠ أسرة
وادي آش	١٠٠٠ أسرة
فنيانة، آبلة، ابلوثينا	٤٨٠ أسرة
أراضي ماركيز بلش	١٣٥٠ أسرة
أراضي رنده ومربلة	١٥٠٠ أسرة
أراضي مالقة وبلش مالقة	١٧٠٠ أسرة

وهذا يعني أن مجموع السكان الموريسكيين قد بلغ (٣٥٦٨١) أسرة في أثناء ثورة البشرات عام ١٥٦٨م. وتشير المراجع الإسبانية في ذلك الزمن إلى أنه كان في مملكة غرناطة (٨٥ر٠٠٠) بيت مسلم حسب سجلات الاحصاء يضاف إلى ذلك (١٥٠٠٠) بيت لم تكن مسجلة هربا من الضرائب[١]. ويذكر نونيث مولاي في كتابه (ميموريال)[٢] (Memorial) أنه كان في مملكة غرناطة (٥٠٠٠٠) بيت يتراوح عدد أفراد كل منها بين ٥ـ٦ أشخاص، أي أن عدد السكان كان يتراوح بين ٢٥٠ر٠٠٠-٣٠٠ر٠٠٠ نسمة، بيد أن المؤلف الحديث كارو باروخا[٣] يقدر عدد الموريسكيين حتى عام ١٥٦٨م ما يقارب ١٥٢ر٠٠٠ موريسكي غرناطي.

لقد قرر المجلس الملكي في الخامس من آذار سنة ١٥٧٠م اقصاء كل الموريسكيين عن مملكة غرناطة، وقد نقل الكثير منهم في التاسع والعشرين من الشهر ذاته إلى مونتييل وثيوداد ريال ليبقوا فيها[٤].

(1) Luis del Mármol Carvajal: Obra Citada. Libro III. Capt. IV. Pág. 174.
(2) K. Garrad: The original memorial of don Francisco Nuñez Muley, Atlante II, n° 4 (Octubre 1.954), Pags. 209.
(3) Julio Caro Baroja: Obra. Citada. Capt. 3. Pág. 84.
(4) Francisco Oriol Catena: Obra. Citada. No. 32. Capt. II. Pág. 312.

وفي الثامن والعشرين من تشرين الأول من العام نفسه أرسل فيليب الثاني إلى ضون خوان النمساوي يكرر أمره باخراج الموريسكيين من مملكة غرناطة سواء من استسلم منهم أم من لم يشترك في الثورة، وصدر الأمر بأن يوزعوا بالشكل التالي:

موريسكيو غرناطة والغوطة ووادي لكرين وسيرا دى بنتوميث وأوية دي مالقة وجبال رندة ومربلة يحملون إلى استرامادورا وجليقية.

وينتقل موريسكيو وادي آش وبسطة إلى نهر المنصورة، وموريسكيو البسيط ومنتشا وطليطلة وحقل قلعة رباح والمونتييل يوزعون على قشتالة القديمة إلى مملكة ليون.

وموريسكيو المرية وما حولها يحملون بحراً إلى اشبيلية. ولم يسمح بالبقاء لأي موريسكي في مرسية ولا بلنسية ولا في أي مكان في الاندلس، فقد حاول الملك فيليب الثاني لالغاء خطر الموريسكيين تشتيتهم على أوسع نطاق حتى لا يقتربوا من بلنسية وارغون، وجعل مراقبتهم دائمة في اليوم الأول من كانون الأول من العام نفسه[١]، ونظم تجنباً للتعقيدات وخوفاً من الثورة قوائم تحدد عدد الموريسكيين واسماءهم ومساكنهم، لعلاقة الموريسكيين بالمغاربة والأتراك المسلمين.

شكل الموريسكيون في جلّ مدن قشتالة جماعات غريبة بالنسبة إلى السكان، وكانوا يسخرون غالباً أيدي عاملة رخيصة ليشتغلوا بالأعمال الوضيعة كالزراعة أو التجارة قليلة الأهمية كبيع الفضة والماء والمأكولات وصناعة الأحذية، كما كان يقوم قليل منهم بالحرف الحرة البسيطة أو يحتلون وظائف ذات قيمة متوسطة[٢]. ورغم كل محاولات التشتيت التي قام بها الملك فيليب الثاني فقد ظلت بين الموريسكيين علاقات عائلية في مختلف أنحاء قشتالة.

---

[1] Luis del Marmol Carvajal: Obra. Citada. Libro X Capt. VI. Pags. 437-444.
[2] Mercedes Garcia Arenal: Inquisición y moriscos. Los procesos del Tribunal de Cuenca. Madrid, 1.978. Pags. 14-16.

تدلنا الوثائق المحفوظة أنه على الرغم من كل محاولات الطمس والتشريد فقد ظل الموريسكيون يعتزون بأصلهم ويحافظون على هويتهم بالوسائل المتاحة رغم ملاحقتهم واضطهادهم، وجعلهم يعيشون على الهامش من الناحية الاقتصادية والسياسية والاجتماعية فظلوا يحافظون على روح التضامن(١).

في أواسط عام ١٥٧١م رؤي من المناسب بعد أن استقر عشرون ألف موريسكي في الاندلس، ابعادهم وقد صدر قرار بذلك ونشر في الثاني والعشرين من تشرين الثاني. وقد نفذ ذلك القرار فأخرج زهاء عشرة آلاف موريسكي باتجاه الشمال وتمَّ نقل الموريسكيين في الدفعة الأولى حسب الجدول التالي(٢):

الوطن قبل التهجير	المكان الذي هجروا إليه
جيان Jaén	وادي الحجارة Guadalajara
اندوخر Andújar	وادي الحجارة Guadalajara
ابده Ubeda	
بياسة Baeza	اوكانيا وجبس Ocaña Y Yepes
كاثورله Cazorla	
مرتش Martos	طليطلة Toledo
استجه Ecija	بلاسنثيا Plasencia

وتلت ذلك دفعة أخرى من التهجير حسب الجدول التالي:

الوطن قبل التهجير	المكان الذي هجروا إليه
طليطلة Toledo	ميدينة ديل كامبو Medina dell Campo Y
	وتورديسياس Tordesillas
بلاسنثيا Plasencia	مدينة لذريق Ciudad Rodrigo

(1) Mercedes Garcia Arenal: Obra. Citada. Capt. IV. Pags. 84-886.
(2) Archivo de Simancas, Camara de Casstilla, Leg. 2167. Fol. 24.

وفي نهاية عام ١٥٧١م تم توزيع موريسكيي مملكة غرناطة على جميع أنحاء شبه جزيرة ايبيريا على النحو التالي: ـ أكثريتهم إلى قشتالة الجديدة (طليطلة) مانتشا، (المدينة الملكية، البسيط، كينتار)، الاندلس (اشبيلية، قرطبة، استجة)، وأقلية منهم إلى: قشتالة القديمة. وكان عددهم في استرامادورا متوسطاً لا هُوَ بالقليل ولا بالكثير. أما المناطق الشمالية (بلاد البشكنس واشتريس وجليقية) فلم يكن من الموريسكيين أحد[1]. ورغم كل ما جرى لموريسكيي مملكة غرناطة فقد ظل عددهم يتزايد. وكان ذلك إشارة تهديد لمصيرهم جعلت مجموعة من المراسيم الملكية تتوالى بنفيهم وابعادهم. فصدرت الفرمانات في السادس من أيار عام ١٥٧٦م. وفي الحادي والعشرين من تموز عام ١٥٧٨م. وفي الرابع من نيسان عام ١٥٧٩م. وفي السادس والعشرين من كانون الثاني عام ١٥٨١م. وفي العام الأخير هجر إلى قشتالة ٣٠٠٠-٣٥٠٠ موريسكي وهجر مائتا موريسكي إلى مناجم المعدن[2]. وقد كانت تقيم في سوكويلاموس (Socuéllamos) من أعمال مانتشا (قشتالة) تسع وأربعون أسرة مسلمة في عام ١٥٨١م. قست على كثير منهم أحكام محاكم التفتيش التي وصلت بالكثير منهم إلى التهلكة ما بين عام ١٥٨٢ـ١٥٨٥[3]. وظلت عمليات التهجير القسري مستمرة ففي آب عام ١٥٨٥م. هجر زهاء ٤٠٠ موريسكي إلى استرامادورا.

١ـ توطين جماعات مسيحية في غرناطة مكان الموريسكيين عام ١٥٧١ـ١٦٨٧م

بعد أن خمد أوار نار الحرب الأهلية وهجر الكثير من موريسكيي مملكة غرناطة، صدر مرسوم ملكي يقضي بمصادرة ممتلكات الموريسكيين في الرابع والعشرين من شباط عام ١٥٧١م. وكانت المصادرة بادئ ذي بدء عقوبة على الموريسكيين الذين ساهموا بالثورة بصورة مباشرة أو غير مباشرة، ولما كان التهجير الالزامي يشمل الثائرين وغير الثائرين فقد تعذر على أولئك المهجرين أن يرعوا أملاكهم وهم بعيدون عنها. وقد شملت المصادرة جميع الأملاك المنقولة وغير المنقولة والاسهم وجميع الحقوق دون استثناء. ونص المرسوم الملكي الخاص بالمصادرة "تصبح جميع الممتلكات التي كانت للموريسكيين في مملكة غرناطة مهما كان نوعها وحالتها ملكاً لجلالة الملك"، وقد تم

---

[1] Henri Lapeyre: Geographie de l'Espagne morisque. S.E.V.P.E.N. 1.959. Capt. IV. Pág. 125.
[2] Antonio Dominguez Ortiz Bernard Vincent: Obra. Citada. Capt. 3. Pags. 67-69.
[3] Mercedes Garcia Arenal: Obra. Citada. Pág. 2.

ارسال موظفين ينفذون الاستيلاء على تلك الممتلكـــات باســم الملــك[١]. ولمــا ســمع الموريسكيون بهذا القرار شرع كثير منهم يخفي أمواله في الجدران والكـــهوف البعيــدة ويدفنها تحت الأرض. وقد صدر قرار باجراء تحقيق دقيق خشية أن يخفي الموريســكيون ممتلكاتهم. يبين ذلك التحقيق قيمة الممتلكات ونوعها وحجمها وطلب إلى الجميع الابـــلاغ عن مخابئ الأموال التي استخدمها الموريسكيون إن علمت، ونظمت بذلك سجلات خاصة بتسجيل الأموال المصادرة إلى مالية القصر.

أمر فيليب الثاني أن تحصى بشكل دائم الأراضي والبيوت الواقعة في البشـــرات والسلاسل الجبلية وماريناس بشروط يحددها هو وكان ذلك عام ١٥٧١م. وأمر بتأجيل مـا يتعلق بالدور والحوانيت والديون والأملاك الأخرى التي لموريســـكيي مدينــة غرناطـــة والغوطة والوديان والسهول في المملكة. وبيع أراضي الموريسكيين التـــي فـــي منـــاطق نصرانية بالمزايدة. وبعد أن أخرج الموريسكيون من أراضيهم كما تقدم، برزت مشكلات سياسية واقتصادية. فقد كانت تلك الأراضي الواسعة تشكل خطراً. إذ يهاجم منها الأتراك وغيرهم من المسلمين. وكانت الحقول التي تركت بلا زراعة تحدث كارثـــة اقتصاديـــة لإسبانيا. فاضطر الملك فيليب الثاني إلى العمل الجاد لإعادة توطيـــن انـــاس فـــي هـــذه الأراضي، فتم تعيين مجلس لهذه الغاية تألف من بيدرو ديسا (Don Pedro de Deza) رئيساً لمحكمة التفتيش العليا في غرناطـــة وخـــوان لذريقـــث دى فيـــافورتي مالدونـــادو Juan Rodriguez de Villafuerte Maldonado واريفالو دى ثواثو (Arévalo de Zuazo) ونظمـــت أحكام لتلك الأراضي التي صودرت من الموريســـكيين ونظمـــت كتـــب لتحديـــد الادارة ووضعت شروط استلام الأملاك باسم الملك. وقد قرر مجلس الاسكان حماية تلك الأملاك حتى يصل السكان الجدد، بتأجيرها. وتقرر أن يدير المجلس كل تلك الأملاك شـــريطة أن يبلغ عن وضعها المالي العام.

وتم تعيين كل من ميغيل دى سلاثار (Miguel de Salazar) المجاز بدرجة البكالوريا من بيلائث (Peláez) وخوان دى ميسا التاميرانو (Juan de Mesa Altamirano) موظفيـــن ليتوليا استلام الأملاك، كما تم ارسال موظفين آخرين إلى جليقية وبرغش وليون لجلـــب السكان الجدد. فجلبوا مجموعة من السكان قام مجلس الاسكان بتوزيعهم. وكان يفـــرض

(1) Francisco Oriol catena: Obra cita. No. 32. Capt. IV. Pags. 499-500.

عليهم أن يدفعوا سنوياً مبلغاً معيناً للاحصاء العام وسلسلة أخرى من الشروط والالتزامات في أثناء استغلال الأراضي حتى لا يلحق أي ضرر باقتصاد البلاد. وقد نشرت تلك الشروط في كل من: جليقية، اشتريس، ليون، برغش، ومناطق أخرى من شبه الجزيرة الايبيرية. واستوطن زهاء ١٢٥٠٠ عائلة في مائتين وستين مستوطناً. وفي الحادي والثلاثين من أيار عام ١٥٧٢م أصدر الملك فيليب الثاني أوامره بتوزيع الأملاك التي كانت للموريسكيين في مملكة غرناطة على الإسبان، كما أمر بتأجير الأملاك التي حول غرناطة وفي الأودية والغوطة والسهول التابعة للمملكة وبيعها لهم.

وبعد هذا الاستيطان ضاق المستوطنون الجدد ذرعاً بالضريبة الباهظة التي كانت تجبى من انتاجهم الزراعي. وفي الرابع والعشرين من شباط عام ١٥٧٧م صدر مرسوم ملكي يقضي بتحصيل الضرائب نقداً من الانتاج الزراعي. ومرسوم آخر في الخامس من أيلول عام ١٥٧٨م يشمل جميع أراضي الغوطة والوديان وبعض سهول غرناطة. ووافق المستوطنون على دفع كل الضرائب[1]. ورغم الاجراءات السابقة فقد أخذ عدد أولئك المستوطنين بالنقصان ذلك أن اكتشاف امريكا أغرى كثيراً منهم ومن الموريسكيين المضطهدين بالهجرة إليها بعد أن تم تنصيرهم بالاكراه. ولما كانت أراضي البشرات قليلة الخصب نسبياً لا تعود على المستغل إلا بأرباح يسيرة بعد دفع الضرائب المستحقة فقد تخلى كثير من المستوطنين عن أراضي البشرات والجبال.

إزاء هذه الحالة بعث الملك ضون دييغو دى مندوسا وضون خورخي دي بائيثا نارو (D. Diego de Mendoza Y D. Jorge de Baeza Naro) عام ١٥٩٣م، مفتشين إلى مملكة غرناطة ليرفعا تقريراً عن المستوطنات، ولما لم تكن الأحوال جيدة، صدر فرمان يقضي بوجوب عودة كل الغائبين إلى أراضيهم خلال أربعة أشهر وسمح لسكان غرناطة بشراء الأملاك من السكان الجدد، ومنعت عقود الرهن على الأراضي، وصدر أمر باصلاح البيوت وزراعة الأرض بمنتوجات جديدة، وفي مضمار حل هذه الأزمة الاقتصادية حاولت السلطات اصلاح بعض البنود الظالمة التي فرضها رجال الدين وبعض القادة والمسؤولين السياسيين والنبلاء لعل ذلك يؤمّن للمستوطنين وضعاً اقتصادياً

[1] Francisco Oriol Catena: Ob. Cit. No. 32. Capt. III. Pags. 315-328.

معقولاً[١]. يؤكد هذا الاهتمام العام – كما جاء على لسان أوريول كاتينا – (Oriol Catena) على تخفيض الأعباء التي كان ينوء تحتها المستوطنون الجدد فغدت الشروط عليهم هي: دفع ضريبة البيوت واستخدام الطرق الزراعية حسب عادات المقاطعة، وكان على المستوطنين أن يقيموا في الأماكن المحددة لهم، وأن يحرسوا الشواطئ التي يقيمون عليها، ومنع استغلال هذه الأراضي بأيدي اناس عاجزين عن الفلاحة والزراعة، أو متزوجين من خارج مملكة غرناطة، ومنع رهن الأراضي أو إقامة أي نوع من المؤسسات الدينية عليها، أو بيع جزء من هذه الأراضي لتلك المؤسسات الدينية. أما في الاقطاعيات فقد أعطيت أولوية ملكيتها للاقدر على جمع الضرائب من المستوطنين[٢].

في أواخر القرن السادس عشر قدرت القيمة الاجمالية لدخل أموال المصادرات من المسلمين بمبلغ (٣٤) مليون مرافيدي، وظل هذا الدخل يتناقص بتناقص عدد السكان حتى جمد مجلس الاسكان عام ١٥٩٣م. وظهر مجلس الاسكان من جديد عام ١٥٩٦م. وكان يجتمع في البرلمان.

أما ادارة شؤون المستوطنات، فكانت تقوم بها محكمة عادية. وهذا خلق حالة سيئة من الاستغلال. وظل الوضع على ذلك حتى عام ١٥٩٧م. حيث أعيد مجلس الاسكان لممارسة أعماله التي ظل يمارسها حتى عام ١٦٨٧م. كان يسود اعتقاد لدى الناس مؤداه أن ملكية الأراضي في مملكة غرناطة تعود إلى المالية العامة. وفي عام ١٦٤٢م. أرسلت لجنة إلى مملكة غرناطة يمثلها ضون لويس غانديل وبيرالتا (Don Luis Gandiel Y Peralta) لدراسة أحوال الذين تلاعبوا بالعقود ضد مالية الدولة وإبطال تلك العقود المتلاعب بها.

وفي عهد فيليب الرابع صدر أمر يسمح ببيع الأراضي والممتلكات رغم الأحكام التي كانت تمنع ذلك. وأرسلت لجان جديدة إلى غرناطة للبيع والشراء، وبعد حين ألغيت الأوامر بمرسوم ملكي صدر في الرابع من نيسان عام ١٦٤٨م.

---

(1) Francisco Oriol Catena: Ob. Cit. No. 32. Capt. III. Pags. 328-331.
(2) Francisco Oriol Catena: Ob. Cit. No. 32. Capt. IV. Pags. 510-513.

٢ـ التهجير الجماعي للموريسكيين منذ عام ١٥٢٣م[1]

قبل ثورة البشرات التي بدأت عام ١٥٦٨م ـ كما سبق ـ تم تشتيت موريسكيي مملكة غرناطة. واسكان النصارى مكانهم بعد أن جلبوا من قشتالة وجليقية واشتريس[2]. ولم يبق من الموريسكيين في غرناطة سوى القليل الذين قدروا بعشرة آلاف نسمة تقريباً[3]. وكانت تلك ضربة قاسية لسكان غرناطة الموريسكيين الذين نفوا من عام ١٥٢٣ـ١٥٦٦م. وشتتوا بالاندلس الغربي (قرطبة واشبيلية) وقشتالة.

ومنذ عام ١٥٧٠م بدأت تحدث حوادث سكانية هامة مؤداها أن قسم الموريسكيون إلى جماعات صغيرة تسكن بين النصارى. وحاول الموريسكيون التجمع في المدن. وقد استقر فيها أعداد لا بأس بها منهم وحاول بعضهم العودة إلى مسقط رأسه. وأصبح الموريسكي مخلوقاً بائساً هائماً على وجهه يتنقل دائماً من مكان إلى آخر[4]. ولا بد أن عدداً من هؤلاء الموريسكيين قد نجح في العودة إلى مسقط رأسه فقد لوحظ أن عدد مسلمي غرناطة قد تزايد بشكل فعلي بعد تهجير الموريسكيين وسرعان ما اجرت السلطات الإسبانية تفتيشاً عن أولئك المنفيين العائدين وكانت تقدم المقبوض عليه منهم إلى محاكم التفتيش لينال نصيبه من العذاب.

يقدم لنا توماس غونثالث (Tomás González)[5] احصاء يُبيّن أن عدد الموريسكيين في غرناطة ١٥٧٤م. قد بلغ ٩٧٠٠ بيت أي ما يساوي ٥٠٠ر٤٨ نسمة، ولو سرنا على هذا القياس لبلغ عدد الأسر في كل مملكة غرناطة ٧٠ـ٨٠ ألف أسرة أي ما يعادل ٠٠٠ر٤٠٠ نسمة تقريباً. أما كارو باروخا (Caro Baroja)[6] الذي اعتمد على انخفاض ضريبة الدخل بعد علميات التهجير فقد قدر سكان مملكة غرناطة في ذلك التاريخ نفسه بما يقارب ٥٨٣ر٣٠ بيتا أي ما يعادل ٩١٥ر١٥٢ موريسكياً مسلماً، اضافة إلى انه كان يسكن في المرية ٦٠٠ أسرة تضم ٣٠٠٠ نسمة تقريباً[7] وفي وادي آش ٤٠٠ أسرة تضم ٢٠٠٠ موريسكي[8] . وقد ألقي القبض على ١٤٢ موريسكيا من الذين عادوا إلى مسقط رؤوسهم في استجة عام ١٥٧٦م. فأبعدوا من جديد بعد العقاب إلى طليطلة، وكلف

---

(1) A. Dominguez Ortiz y Bernard Vincent: Ob. Cit. Capitulo 4. Pags. 86-87.
(2) Juan Regla: Obra. Citada. Capt. II. Pág. 204.
(3) Antonio Dominguez Oritz y Bernard Vincent: Obra. Citada. Capt. 4. Pág. 81.
(4) A. Dominguez Ortiz Y B Vincent: Ob. Cit. Capt. 4. Pags. 87-88.
(5) Tomás González: Censo de población de las provincias y partidos de la Corona de Castilla en el siglo XVI. Madrid, 1.829. Pág. 369.
(6) Julio Caro Baroja: Obra. Citada. Madrid. 1.976. 2ª edición. Capt. 3. Pags. 83-84.
(7) Luis del Marmol Carvajal: Obra. Citada. Lib. IV. Capt. XXIX, Pág. 210.
(8) Luis del Marmol Carvajal: Obra. citada. IV. Capt. XXX. Pág. 212.

مجموعة من السادة بحمل الموريسكيين العائدين إلى مسقط رؤوسهم وتهجيرهم من جديـد إلى اماكن أخرى كما يلي[1]:

١. في التاسع عشر من كانون الثاني عام ١٥٨٤م. مر ضون خوان دى ابلـــه (Don Juan de Avila) يحمل مجموعة من الموريسكيين بكامبيو ومنتشا ريال ليوصلهم إلى طليطلة (Campillo y Mancha Real).
٢. في الحادي والعشرين من الشهر نفسه حمل ضون اســتيبان نونيــث دي فالديفيــا (٦٤٦) شخصاً عن طريق ولمه، خوضر، فيكاريو ليوصلهم إلـــى ميمبريــا (Por Huelma, Jodar y Villacarillo hacia Membrilla).
٣. كلف فرنثيسكو دي مولينا أن يجمع مسلمي انتيقيرة وارشيدونا ومالقا لينقلهم عـــن طريق لينارس وبنتا دي لوس بلاثيوس (محطة القوافل) إلى بيسو (Por Linares y La Venta de Los Palacios hasta Viso).
٤. كلف مسلمو بلش ــ مالقة لوشه، والحامة بأن يتجمعوا في اليسانة وحدد لهم أحــد طريقين:

أ. عن طريق ميناء مولادار باتجاه بيسو (Por el Puerto de Muladar).

ب. والاخر باتجاه الشمال الغربي مارين من استجه، كونستنتينا وادي القنال نحــو طلبيرة دي لارينا (Y Otro hacia el N. O. Por Ecija. Constantina Y Guadalcanal, hacia Talavera de la Reina)

٥. يجمع بيدرو بيريو مسلمي وادي آش في قرية قيجاطة ثم يحملهم مــاراً بكاثورلــه حتى مانتشا.
٦. كان على بارتولوميه بورتيو دي سولير أن يجمع مسلمي البسطة من أشـــكر ثـم يحملهم ماراً بموراتيا حتى مانتشا[2].

وقد خرج من مملكة غرناطة في ذلك العام (١٥٨٤م) ما مجموعه ٣٠٠٠ــ٤٠٠٠ مسلم واخرج ٥٠٠ موريسكي آخر إلى استرامادورا عام ١٥٨٥م.

---

[1] A. Dominguez Ortiz y Bernard Vincent: Obra. Citad. Capt. 4. Pág. 88.
[2] Arévalo de Zuazo A Juan Vazquez de Salazar: Memorial de los Feubos y Listas de los moriscos que entregaron a don Esteban Nuñez de Valdivia en la ciudad de Granada. 12-1, 14-1, 23-2, 31-1-1.584.

اشتملت مملكة قشتالة في عهد الملك فيليب الثاني على الاقاليم التالية:
قشتالة الجديدة، قشتالة القديمة، استرامادورا، مرسية والاندلس الغربي.

لا توفر لنا المصادر احصائيات لمسلمي قشتالة قبل نفيهم وقبل أن يصل إليهم الموريسكيون المهجرون من مملكة غرناطة، وقد كان يقطن مملكة قشتالة مجموعة من المدجنين القدامى الذين اعتادوا على أن يعيشوا في مجموعات صغيرة لها طابع المدينة(١). وقد قدر عدد المدجنين في قشتالة عام ١٥٠١م بعشرين ألف نسمة(٢). وقد كان عددهم قليلا في قشتالة القديمة فقدروا بـ (٨٢١٤) شخصا، وكانوا يكثرون في الأماكن التالية:

ابلة (Avila) وشلمنقة (Salamanca) وشقوبية (Segovia) وبلد الوليد (Valladolid) وكان يقطن بلد الوليد وحدها ٢٢٤ أسرة اضافة إلى ٣٤ أسرة كانت مسجلة في سجلات الاحصاء تقطن في أماكن أخرى.

أما في مملكة طليطلة فكان عدد المسلمين يزيد على ذلك وكان يقدر بـ (٨١٩ر١٩) مسلما وكانت لهم هناك مجموعات هامة في قلعة رباح (Calatrava)، اوكانيا (Ocaña)، ثيوداد ريال (Ciudad Real)، باسترانا (Pastrana) وقلعة اينارس (Alcalá de Henares).
وقد كان منهم في المنتشا (La Mancha) (٨٣٤٠ شخصا)(٣) وفي الجوف (استرامادورا) (٨٢٩٩) شخصا.

بيد أن عدد الموريسكيين في مملكة قشتالة أخذ يتزايد منذ عام ١٥٧٠م بتهجير مسلمي غرناطة إليها فقد هجر إليها زهاء (٠٠٠ر٨٠) موريسكي. وقد وصل عدد المهجرين الجدد إلى مملكة قشتالة بين عامي ١٥٨٤ـ١٥٨٥م. زهاء ٣٠٠٠ـ٤٠٠٠ موريسكي(٤).

---

(1) A. Dominguez Ortiz Y. B. Vincent: Ob. Cit. Capt. 4. Pág. 80.
(2) M.A. Ladero Quesada: Los mudejares de Castilla en tiempo del Isabel I. Valladolid, 1.969. Pags. 17-21.
(3) Henri Lapeyre: Obra. Citada. Capt. V. Pags. 158-163.
(4) B. Vincent : L'Expulsión des morisques du royaume de Grenade et leurrepartition en Castille (.570-571). Mélanges de la Casa de Valázquez VI (1.970), Pags. 211-246.
- B. Vincent: Combien de Moriques ont été expulsés du royaume de Grenada? Mélanges de la Casa de Velázquez VII (1.971), Pags. 397-398.
- Henri Lapeyre: Obra. Citada. Pags. 127-128.

يورد لنا دومينغث اورتيث[1] احصائيات دقيقة عن السكان في أراضي بلد الوليد وقونقة (Cuenca) وليرينا واورناتشوس وتقع القريتان الأخيرتان في استرامادورا.

أراضي بلد الوليد	٨٣٣٦	موريسكياً
أراضي قونقة	٤٧٥٣	موريسكياً
أراضي بيرينا (بطليوس)	٩٦٢٦	موريسكياً
أراضي اورناتشوس (بطليوس)	٣٠٠٠ـ٤٠٠٠	موريسكي

وعلينا أن نميز بين مجموعتين مختلفتين:

أ. موريسكيو غرناطة.

ب. المدجنون القدامى.

وقد كانت كثافة السكان في الاندلس قبل التهجير عالية[2]، لا سيما في مقاطعتي ولبة وقادش. أما ازدحامهم فكان يتجلى في جيان، قرطبة واشبيلية وكان يسكن اشبيلية وحدها (٨٠٠٠) موريسكي أي بنسبة (١٠%) من مجموع السكان. وفي قرطبة سنة ١٥٨٠م زاد عدد الموريسكيين على (٤٠٠٠) نسمة، وقد كان عددهم كبيراً أيضاً في ابده بياسة، استجة...الخ. وخلاصة القول أن المدن التي ازدحمت بالسكان الموريسكيين تبدو في الجدول التالي:

اشبيلية	Sevilla	٧٥٠٣ موريسكيين
جيان	Jaén	٢٢٢٥ موريسكياً
قرطبة	Córdoba	٤ـ٥ آلاف موريسكي
بياسة	Baeza	١٩٨٦ موريسكياً
برغة	Priego	١٧٨٦ موريسكياً
استجه	Ecija	١١٠٠ موريسكي
ابده	Ubeda	١٠٠١ موريسكي
اندوخر	Andújar	٨٠٠ موريسكي
قبرة	Cabra	٧٤٩ موريسكياً

[1] A. Dominguez Ortiz Y. B. Vincent: Ob. Cit. Capt. 4, Pág. 81.
[2] Henri Lapeyre: Ob. Cit. Capt. V. Pags. 147-157.

حسب إحصائيات الأعوام ١٥٢٧م، ١٥٢٨م، ١٥٦٣م، ١٥٨٥م، و ١٦٠٢. كان أكثرية سكان أراضي بلنسية البعلية من الموريسكيين باستثناء قضاء قسطليون المعروف حالياً، فقد كان جل سكانه من النصارى. كما شكل الموريسكيون أغلبية فيما بين نهري ميخارس وخوكار (El rio Mijares y el Jucar) وكذلك في جميع المرتفعات الجبلية.

أما مناطق الري التي كان يقطنها الموريسكيون فكانت تنحصر في منطقتين:

أ. حول شاطبة Játiva.

ب. حول غانديا Gandia.

أما في الأراضي التي كانت تتبع التاج أو الكنيسة فكان الموريسكيون قليلي العدد، بيد أنهم كانوا أكثر في أراضي النبلاء، وبصورة عامة فقد كان الموريسكيون يسكنون في المناطق الريفية بينما قطن القليل منهم في المدن نحو بلنسية وقسطليون وجزيرة شقر وشاطبة[1].

ومن يلاحظ التطور السكاني في بلنسية ما بين ١٥٢٧م. أولى سني حكم فيليب الثاني وبين ١٥٦٣م. يجد أن عدد الموريسكيين قد انخفض في ٩٠ منطقة بالنسبة إلى العهد السابق، كما ازداد عددهم بنسبة ٧% في ٨٠ منطقة أخرى. ثم ازداد عدد الموريسكيين ما بين ١٥٦٣ ـ ١٦٠٩م حيث أخرجوا بنسبة ٧ر٦٩% بينما ازداد عدد النصارى في الفترة نفسها بنسبة (٧ر٤٤%)[2]. يقول مونيث غافيرا[3] ازداد موريسكيو بلنسية بصورة عجيبة في بداية القرن السابع عشر فالغيت مجالس الاحصاءات حتى لا يعلم الموريسكيون مدى قوتهم، بينما يقول بورنات[4] كان عدد البيوت في بلنسية (٥٠٤ر٨٤) أي ما يعادل (٠٠٠ر٤٢٠) نسمة تقريباً، وكان للموريسكيين من ذلك ٨١٥ر٣١ بيتا أي ما يعادل (٠٠٠ر١٦٠) نسمة. وطبقاً لاحصاءات ١٥٧٢م. فقد كانت نسبة الموريسكيين ٢٩% يقطنون في (١٩٠٠٠) بيت أي ما يعادل (٨٥) ألف نسمة[5].

---

(1) Henri Lapeyre: Obra. Citada. Capt. I. Pags. 15-29.
- A. Dominguez Ortiz Y. B. Vincent. Ob. Citada. Capt. 4. Pág. 76.
(2) Henri Lapeyre: Obra. Citada. Capt. I. Pags. 29-32.
(3) J. Munoz Gavira: Historia del alzamiento de los moriscos, su Expulsión de España y consecuencias en todas la provincias del Reino, Madrid, 1861. Pág. 159.
(4) Boronat y Barrachina: Los moriscos españoles y su expulsión. Valencia. 1.901. Vol. I. Pags. 428 y siguientes y Apendice I.
(5) A. Dominguez Ortiz Y. B. Vincent: Ob. Citada. Capt. 4. Pág. 76.

وفي نهاية القرن السادس عشر وقبل علمية التهجير القسري يورد مجموعة من المؤلفين إحصاءات للموريسكيين في بلنسية حسب الجدول التالي:

المؤلف:

١. مونيث غافيرا[١] (Muñoz Gavira) (٢٨٫٠٧١) بيتا للموريسكيين أي ما يعادل (١٤٠٫٣٥٥) نسمة أما عدد البيوت الاجمالي فهو (١٠١٫٧٩٢) بيتا أي ما يعادل (٥١٠٫٠٠٠) نسمة.

٢. تيودورو يورنتي[٢] (Teodoro Llorente) (٢٨٫٠٧٢) بيتا للموريسكيين.

٣. رويث المانسا[٣] (Ruiz Almansa) (٣٢٫٤٠٠) بيتا للموريسكيين أي ما يعادل (١٦٢٫٠٠٠) نسمة.

٤. وأخيراً يقدر رغلا[٤] (Reglá) بعد دراسته جميع الوثائق عدد الموريسكيين ما بين (١٦٠٠٠٠ـــ ١٧٠٠٠٠) نسمة أي بنسبة (٣٤%) من مجموع السكان العام.

لم يكن توزيع الموريسكيين متكافئاً في جميع المناطق لكن أكثرهم كان يعيش في مجموعات على محاذاة نهر الأبرة من ضفته اليمنى مثل خالون، ويربة واغواس (Jalon, Huerva, Aguas). وكان هناك ثلاثة تجمعات هامة أحدها يقع شمال منطقة وشقة وثانيهما تقع إلى الجنوب قرب البرانين والثالث في غرب مقاطعتي برجة وطرزونا. وكان عدد الموريسكيين بوجه عام قليلاً في المناطق الجبلية، وكانت تشملهم أحياء خاصة في كل من سرقسطة طرويل البرانين وقلعة أيوب، وكانت تلك الأحياء تقع خارج المدن ولم يكن في كل منطقة البرانس إلا مجموعة موريسكية واحدة في مدينة نبال[٥]. وكانت أرغون اكثر المناطق ازدحاماً بالموريسكيين لذلك فقد تسببوا بمشكلات كبيرة للملك فيليب الثاني طبقاً لاحصاءات عام ١٥٧٥م[٦]. فقد كان في ارغون (١٠٫٨٢٥) بيتا موريسكياً أي ما يعادل (٤٨٫٧١٢) نسمة في عام ١٥٩٣م. تزايد عددهم إلى (١٦٫٨٦٥) أسرة. وقد كانوا

---

(1) J. Muñoz Gavira: Ob. Cit. Pág. 157.
(2) Teodoro Llorente: Valencia. Barcelona. 1887. Pág. 153.
(3) Ruiz Almansa: La población de España en el siglo XVI. Revista Internacional de Sociologia III (1.943). Pags. 115-136. Apéndice 5.
(4) Juan Regla: Obra. Citada. Barcelona 1974. Capt. I. Pág. 63.
(5) Henri Lapeyre: Obra. Citada. Pags. 96-98.
- Juan Regla: Los Moriscos: estado de la cuestión y nuevas aportaciones documentales. revista Saitabi, Universidad de Valencia. nº. X (1.960), Pág. 105.
(6) A. Dominguez Ortiz Y. B. Vincent: Obra. Citada. Capt. 4. Pág. 77.

يشكلون ما بين عام ١٥٧٥ــ١٦٠٩م. كما يقول أ. البارث فاسكث[١] نسبة (٢٨%) تقريباً من مجموع السكان. وفي عام ١٦٠٤م تزايد عدد سكان مملكة أرغون طبقاً لاحصاءات توماس غونثالث بأمر من رويث المانسا[٢] إلى ٥٤٧ر٦٦ بيتا أي ما يعادل (٤٥٠ر٣٣٢) نسمة، وكانت نسبة الموريسكيين بينهم تصل إلى (٢٠%) وكان عدد السكان ــ حسب احصاءات الماركيز ايتونا[٣] قبيل اخراج الموريسكيين ــ (١٠٩ر١٤) بيتا للموريسكيين أي ما يعادل (٥٤٥ر٧٠) نسمة[٤].

أما موريسكيو قطلونية فليس عددهم ذا أهمية كبيرة، وكانت المنطقتان الموريسكيتان الرئيستان تقع احداهما في قضاء طركونة والأخرى في لاردة، وكان عددهم الاجمالي في هاتين المنطقتين زهاء (٠٠٠ر١١).

ويوضح الجغرافي جوسب اغليسياس (Josep Iglesias)[٥] ــ طبقاً لاحصاءات عام ١٥٥٣م ــ أن عدد السكان الاجمالي في قطلونية كان يساوي (٦٨٠ر٧١) بيتا أي (٤٠٠ر٣٥٠) نسمة بينهم خمسون ألفاً من الموريسكيين[٦]، بينما لا يعتقد رغلا انهم قد بلغوا عشرة آلاف أسرة[٧] في حين يجعلهم لابيري (٥٠٠٠) أسرة[٨]. وقد كان في قضاء طركونة (١٢٥٥) بيتا أي (٥٦٥٠) شخصاً في عام ١٥٨٧م. كما يتوجب اضافة الموريسكيين الذين كانوا يقطنون ثلاث قرى من أعمال لاردة والذين كان يبلغ عددهم (١٥٠٠) بيت إلى ذلك العدد السابق، وحسب الاحصاءات ــ قبل اخراج المسلمين ــ كان عددهم يتراوح بين ٧-٨ آلاف[٩].

وخلاصة كل ما سبق أن عدد سكان شبه جزيرة ايبيريا من الموريسكيين أيام حكم الملك فيليب الثاني كان زهاء (٠٠٠ر٣٢٠) نسمة.

---

(1) Alfonso Alvarez Vazquenz: Notas sobre la población morisca de Aragón a fines del siglo XVI (Estudios. Zaragoza 1.976).
(2) Ruiz Almansa: La población de España en el siglo XVI. Revista Internacional de Sociologia III (1.943). Pags. 115-136.
(3) Archivo de la Corona de Aragón, 221, 16. Publicado por Juan Regla en Estudios sobre los moriscos, Barcelona 1.974. 3ª edición. Capt. I. Apendice 5. Pags. 176-184.
(4) Juan Regla, da una relación detallada de las localidades, casas y personas que entran en este censo; Ob. Cit. I. Pags. 79-83.
(5) Josep Iglesias: Pere Gil, S.I.; la seva Geografia de Catalunya. Barcelona. 1.949. Pags. 277-278.
(6) Josep Iglesias: Ob. Cit. Pags. 118 y Siguientes.
(7) Bruniquer: Rubriques... IV, Pág. 317.
- Boronat y Barrachina: Obra. Citada. Vol. II. Pág. 305.
(8) Juan Regla: Obra. Citada. Barcelona 1.974. 3ª edición. Pág. 98. Nota 123.
(9) A. Dominguez Ortiz Y. B. Vincent: Obra. Citada. Capt. 4. Pág. 77.

ويقول المؤلفان دومنغث اورتيث وبيرنارد بنثنت[1] أن عدد الموريسكيين كان ما بين عام ١٥٦٨-١٥٧٥م قرابة (٣٢١ر٠٠٠) نسمة موزعين على النحو التالي:

المنطقة	عدد الموريسكيين	العام
بلنسية Velencia	٨٥ر٠٠٠	١٥٧٢م
ارغون Aragón	٤٨ر٧١٣	١٥٧٥م
غرناطة Granada	١٥٠ر٠٠٠	١٥٦٨م
قشتالة Castilla	٣٠ر٠٠٠	١٥٦٨م
قطلونية Cataluña	٧ر٠٠٠	١٥٦٨م

إن المتطلع إلى نتائج تهجير الموريسكيين في عهد الملك فيليب الثاني يجد نقض العهود وعدم التقيد بالمواثيق والتعصب والقسوة والغدر. فكان الإسبان يحتاجون بين حين وآخر تحت ضغوط اقتصادية أو تحت ضغط الانتفاضات الموريسكية إلى ارضاء الموريسكيين، وما ان يستتب لهم الأمر حتى يتنكروا لما تعهدوا به ويرموا به عرض الحائط.

وقد أعان الإسبان على نقض العهود تفتت كلمة الموريسكيين واختلافهم وتناحرهم على السلطة والجاه، لدرجة أن بعضهم كان يتآمر مع العدو الإسباني لكسب مصالح شخصية. ولو كان الموريسكيون مجتمعين متحدين لكانت لقوتهم آثار بالغة ولغيروا كثيراً من معاملة الإسبان لهم ولأرغموهم على احترامهم، ذلك أنهم كانوا مصدر ثروة اقتصادية ذات شأن كبير.

ومما زاد الوضع سوءاً أن الامدادات التي وصلت للثوار الموريسكيين لم تكن كافية ولم تف بالغرض، ذلك بسبب عجز المسلمين في المناطق المجاورة عن ارسال العون والمساعدة لقلب موازين القوى إزاء سياسة الاضطهاد الديني الذي شنته الكنيسة الكاثوليكية والسلطة الحاكمة في إسبانيا بعد سقوط غرناطة، فأقامت "محاكم التفتيش"

---

[1] A. Dominguez Oritz Y. B. Vincent: Ob. Cit. Capt. 4. Pág. 83.

المشهورة وشننت حملات القمع والاضطهاد، وشردت السكان الموريسكيين وفرقتهم في مختلف انحاء شبه الجزيرة الايبيرية. وبذلك أضحت قوة الموريسكيين غير فعالة بعد تشتيت المنصرين قسراً، وارهابهم عن الالتحاق بصفوف اخوانهم الثوار خوفاً من تعرضهم للمصير ذاته. ولهول الفاجعة التي ألمت بالموريسكيين غدا معظمهم يفضل الموت على الحياة بعد ما لاقوه من أصناف العذاب على أيدي رجال محاكم التفتيش والساسة الإسبان، فكان الموريسكي يقتل بالظنة دون أن يثبت عليه ذنب أو جرم، ويلاحق في عقر بيته، ويتهم بتهم تتخذ ذريعة للفتك به.وقد نجم عن هذا الوضع المؤلم أن التجأ بعض الثائرين من الموريسكيين إلى أعالي الجبال للانطلاق منها وتوجيه ضربات بطولية يائسة للاسبان غير عابئين بالمصير الذي يمكن أن يؤولوا إليه هم أو أسرهم التي تركوها وراءهم. ومن ناحية أخرى فقد نجح الإسبان في استمالة بعض فئات ضالة من الموريسكيين إلى صفوفهم مما كان له آثار بعيدة في تمزيق الثورة وكسر شوكتها، وهكذا فقد اخفقت الثورة الموريسكية، وهزمت أمام هذه القوى المتكالبة.

ومن الملاحظ أن رجال الكنيسة في الداخل والخارج وعلى رأسهم البابا كانوا يقفون ضد هذه القلة الثائرة في البشرات عرين الثورة ومعقلها الرئيس وضد جميع الموريسكيين في إسبانيا، فيطلبون إلى الحكام تنصيرهم قسراً. ومن أبى فللسلطة الإسبانية الحاكمة أن تسلك معه أقسى السبل حتى القتل والحرق وانتهاك العرض والتشريد.

التهجير القسري للموريسكيين خارج شبه جزيرة إيبيريا في عهد الملك فيليب الثالث (١٥٩٨م-١٦٢١م)

تمتد فترة حكم الملك فيليب الثالث[1] ما بين ١٥٩٨م و ١٦٢١م. استمر الموريسكيون خلال هذه الفترة في انتفاضاتهم سعياً وراء حقوقهم المستلبة، واستمروا يمارسون شعائرهم الدينية سرا رغم التعميد القسري. وشكلوا نسبة لا بأس بها من السكان، وقد اسهموا في الحياة العامة التي كانت تدر على البلاد ارباحاً كبيرة[2] . وأهم ما تجدر الاشارة اليه في عهد الملك فيليب الثالث هو اخراج الموريسكيين من شبه جزيرة إيبيريا*.

ولما قام الملك فيليب الثاني باخراج الموريسكيين من غرناطة وتوطينهم في انحاء شبه جزيرة ايبيريا كما تقدم زادت المشكلة تأزماً. فغدا الإسبان يخشون ان يقوم هؤلاء بثورات ضدهم لا سيما في ارغون وبلنسية. فاتخذ الإسبان احتياطات الأمن اللازمة بالمراقبة لا سيما في القطاعات التي كان يتجاور فيها الموريسكيون والنصارى حتى تم اخراج الموريسكيين عام ١٦٠٩م. من ارغون وبلنسية، وبعدئذ اخذت تتردى احوال

---

(١) ولد فيليب الثالث في مدريد عام ١٥٧٨م. وهو ابن الملك فيليب الثاني من زوجته الرابعة أنا دي اوستريا (Ana de Austria) وقد حكم في إسبانيا من ١٥٩٨م. إلى ١٦٢١م. ويعتبر عهده بداية انحطاط إسبانيا، وقد تزوج مارغريتا دي اوستريا أي النمساوية أبنة الارشيدوق شارل ودي ماريا دي بافييرا (Carlos Y de Maria de Baviera) عام ١٥٩٩م. وقد انجب منها ثمانية اولاد.

عقد اتفاقية سلام مع انجلترا ثم عقد اتفاقاً عام ١٦٠٩م. مع الهولنديين لمدة (١٢) سنة. وقد تدخل في اخريات حياته في حرب الثلاثين سنة فساعد أهل هبسبورغ الالمانية، ووافاه الأجل عام ١٦٢١م. تاركاً العرش لابنه فيليب الرابع.

(٢) انظر: Francisco de Paula VILLA-Real Y VALDIVIA: Lecciones elemantales de Historia Critica de España, 2nd edicion.

* هذا البحث جزء لا يتجزأ من أبحاثي السابقة وكتبي التي وجهت اهتمامي فيها جميعاً لاكتشاف كنه ما كان يجري للمسلمين في إسبانيا، حتى استطيع أن أبين حقائق هامة في هذا الميدان واضعها في متناول الدارسين العرب والجيل العربي الناشئ لعلهم يستكملون الطريق التي اضع عليها بعض العلامات لان استكمالها في ما اعتقد يحتاج إلى جهد لا يستطيعه شخص واحد. وقد كان هذا البحث نتيجة تفرغي العلمي الذي زرت خلاله إسبانيا وامريكا اللاتينية وحاولت ان استقصي المعلومات قدر الطاقة وآمل في المستقبل ان استكمل حلقات هذا البحث الدؤوب حتى اتابع نتائج هجرة الموريسكيين المسلمين من إسبانيا إلى العالم الجديد وبخاصة إلى امريكا اللاتينية، فأسأل الله أن يعينني وييسر لي الظروف المناسبة والله من وراء القصد.

إسبانيا الاقتصادية لتلاشي الخدمات التي كان يقوم بها الموريسكيون. وكان موقف الكنيسة هو الالحاح على ضرورة اقصائهم. وكانت للموريسكيين علاقات مع المسلمين خارج إسبانيا، ومع الفرنسيين، وكانوا مستعدين لاقامة أي علاقات من شأنها ان تضر بالسلطة الإسبانية.

موريسكيو بلنسية تحت وطأة السلطة السياسية والدينية في عهد الملك فيليب الثالث

كانت حال الموريسكيين في بلنسية شديدة التوتر، نتيجة لما أصاب اخوانهم في الأندلس من أوضاع مؤلمة في عهد الملك فيليب الثاني ١٥٢٧م-١٥٩٨م، ففي عام ١٥٩٩م. زار الملك فيليب الثالث مدينة بلنسية ليتزوج من مارغريت النمساوية (Margarita de Austria) ابنة الأرشيدوق شارل وماريا دي بافيرا (Carlos y de Maria de Baviera) وكان ضون فرنسيسكو غومث دي ساندوفال أي روخاس[١] (Don Francisco Gomez de Sandoval y Rojas) ماركيز دانية في انتظاره فاستضافه[٢] وجرى حينها بين الملك وحاشيته حوار حول مشكلة الموريسكيين في بلنسية حيث تم الاتفاق على تنصير جميع الموريسكيين ولو قسراً.

---

[١] هو ضون فرنسيسكو غومث دي ساندوفال أي روخاس (١٥٥٣-١٦٢٥)م. ماركيز دانية حفيد سان فرنسيسكو دي بورخا (نائب الملك فيليب الثاني في بلنسية). وقد كان فرنسيسكو دي روخاس رئيساً للفرسان. أيام كان الملك فيليب الثالث أميراً لاشتريس وعندما غدا فيليب الثالث ملكاً انعم عليه بلقب دوق ليرما وعينه رئيساً للوزراء ثم اصبح بعد حين الحاكم الفعلي والآمر الناهي في إسبانيا، وجرد الملك فيليب الثالث من معظم سلطاته الحكومية، على الرغم من أن دوق ليرما كان ضعيفاً في الحكم.

من اجل الاستزادة عن حياة دوق ليرما انظر المراجع التالية:-

- Veneciano Simòn Contarini (embajador) Apèndice a Las Relaciones de Las cosas Sucedidas en La corte de España desde 1599 hasta 1614, Impresas en Madrid, 1857, pags 593-583.
- C. Pèrez Bustamente, Felipe III. Semblanza de un monarca y prefiles de una privanza (dicurso de recepciòn en La R. Academia de La historia), Madrid, 1950, Pags 57-58-98.
- A. Dominguez Ortiz, B. Vincent, Historia de Los moriscos, vida y tragedia de una minoria, Madrid 1978, Tercera parte Capitulo 8, Pág. 159.

[2] A. Dominguez Ortiz, B. Vincent, Obra Citada, Pág. 164.

واحتفالاً بهذه المناسبة أصدر الملك فيليب الثالث مراسيم ملكية بالعفو عن الموريسكيين إذا اعترفوا بجرائمهم وطلبوا الصفح، كما طلب إلى رجالات الدين المسيحي التوقف عن ملاحقتهم وإيذائهم إذا هم نفذوا ما طلب منهم*.

وعندما أنهى الملك زيارته إلى بلنسية في الثالث والعشرين من أيار من ذلك العام بعث برسالة إلى الأسقف خوان دي ريبيرا(١) رئيس أساقفة بلنسية يبين فيها تعليماته حول التبشير بالنصرانية، ويوجب فيها على الاسقف أن يعين رئيس دير وقساوسة ذوي ارتباط بخورنيتة وأن يبحث عن واعظين مبشرين، وأن يطبع كتاب أصول الدين المصححة(٢)، وأن يأمر البارونات التابعين له بتعيين مدرسين للغاية نفسها، وأن تدفع رواتبهم من دخل الأبرشية أو المطرانية الذي يساهم الملك بجزء من نصيبه فيه بما قيمته ستون ألف ليرة بلنسية(٣) . وفي الوقت نفسه استغل الملك فيليب الثالث وجود معاهد المنصرين الجدد في بلنسية التي أسسها الامبراطور شارل الخامس، وأمر بتأسيس جمعية خيرية فيها لرعاية المنصرات الجديدات ولخدمة دير الراهبات وبيوت المسيحيين القدماء، وطالب في رسالته كلا من الاسقف خوان دي ريبيرا ونواب الملك وزوجاتهم أن يساهموا في تحقيق أهداف هذه الجمعية بمضاعفة جهودهم نحو المزيد من التبشير بالدين النصراني.

ويلاحظ من ذلك أن الملك فيليب الثالث لم يكن راغباً - بعد زيارته - بتهجير الموريسكيين انما قر قراره على تنصيرهم بالسرعة القصوى.

وعلى أثر ذلك أصدر المحقق العام لمحاكم التفتيش أسقف أورو يله ضون خوسيه استيبان (Don José Esteban) في شهر تموز عام ١٥٩٩م. مرسوماً يبين فيه أنه على

---

* تمثل موقف رجالات الدين المسيحي العدائي للموريسكيين في الالحاح على الملك فيليب الثالث بتهجيرهم من إسبانيا.

(1) Boronat y Barrachina: Los moriscos espanoles y su expulsion, Valencia, 1901, Tomo II, Pags. 8-10.
- Dominguez Ortiz (Antonio) Bernard Vincent, Obra Citada, Pág. 165.

(2) Danvila y Collado, Manuel: La expulsión de los moriscos españoles, Madrid, 1889, Pags. 242-243.

(٣) الليرة البلنسية تعادل عشرة ريالات اسبانية أي سبعمائة بزيتة في الوقت الحاضر.

الرغم من قلة الجدوى لذلك المرسوم فقد اعتنق النصرانية طواعية أربعة وثمانون موريسكيا، أما النساء الموريسكيات فقد حل محل ألبستهن اللباس النصراني بعامة[١].

لقد اعتبر الأسقف خوان دي ريبيرا عضو محكمة التفتيش العام ورئيس اساقفة بلنسية أنه فشل في مهمته، حيث حاول - منذ سنتين - تنصير الموريسكيين الموجودين في أسقفيته بحسن المعاملة ولين الجانب ولكنه لم يفلح خلافاً للوعاظ الآخرين الذين لجأوا إلى استخدام التهديدات ضد كل من لم يعتنق النصرانية. وعلى ضوء ذلك طلب من الملك فيليب الثالث ورئيس وزرائه دوق ليرما تهجير الموريسكيين من المملكة.

لكن عفواً عاماً أصدره البابا باولو الخامس (Paulo V) وصل إلى خوان دي ريبيرا مؤداه أن البابا قد منح الموريسكيين في جميع أنحاء المملكة عفواً عاماً لمدة سنة اعتباراً من الثاني والعشرين من شهر حزيران عام ١٥٩٩م.

وتلبية لرغبة البابا عين ريبيرا موظفين لا صلة لهم بمحاكم التفتيش ليبلغوا الموريسكيين هذا العفو البابوي، ويعلموهم أن هذه آخر فرصة لديهم، فان أبوا فستستخدم ضدهم العقوبات الكفيلة بجعلهم يرضخون لما ارادته السلطة الحاكمة.

كان الملك فيليب الثالث مشغولاً بالأمور الدينية أكثر من الأمور الأخرى، فأوكل المهام السياسية إلى رئيس وزرائه دوق ليرما الذي كان مشغولاً بعقد الهدنة وحفظ الأمن الداخلي لإسبانيا التي كانت متورطة في حرب مع ثلاث دول قوية في آن واحد (فرنسا وانجلترا والأراضي المنخفضة بملوكها الثلاثة هنري الرابع ملك فرنسا واليزابيث ملكة انجلترا والكونت ماوريثيو دي نساو)[٢]. ولم يكترث الملك فيليب الثالث بانتفاضات الموريسكيين وآثارها، لعلمه يقيناً أنهم لا يشكلون إلا أقلية بين النصارى القدماء، ذلك أن احصاء عام ١٥٩٩م يشير إلى أن في مدينة بلنسية ثمانية وعشرين ألفاً واحدى وسبعين

---

(1) Boronat y Barrachina, Obra Citada, Pág. 18.
- A. Dominguez Ortiz, B. Vincent, Obra Citada, Pág. 165.

(2) Historia del Alzamiento de los moriscos, su espuisión de españa y sus consecuencias en todas las provincias del reino, Cap. x, Pág. 154.

(كتاب لمؤلف موريسكي مجهول وضعه في الإسبانية حول تاريخ الثورة الموريسكية وتهجير الموريسكيين وآثار ذلك التهجير في جميع انحاء شبه الجزيرة الايبيريا).

عائلة موريسكية، في حين كان في المدينة من العائلات النصرانية قديماً ثلاث وسبعون ألفاً وسبعمائة واحدى وعشرون عائلة.

ولما تبين للأسقف خوان دي ريبيرا أن الملك فيليب الثالث ودوق ليرما لم يتخذا أي قرار عملي فوري ازاء تهجير الموريسكيين خاصة بعد مرور سنة على العفو البابوي، عندئذ بعث بتقريرين جديدين إلى الملك ورئيس وزرائه يبين فيهما خطر الموريسكيين على البلاد، وتزايد حركتهم، ويقترح ثانية تهجيرهم، والسيطرة النهائية عليهم، حيث يكون ذلك تدريجياً، إذ يبدأ بتهجير موريسكي قشتالة والأندلس ثم ببيع أفراد الموريسكيين الذين يلقى القبض عليهم أثناء الاضطرابات والانتفاضات والزج بالشبان منهم للعمل الشاق في المناجم، وفيما يتعلق بالأطفال الذين كانوا دون سن السابعة فإنه أوصى الاحتفاظ بهم في أحضان الكنيسة التي عملت بدورها على ابعادهم عن ذويهم ثم تحويلهم.

أما موريسكيو أرغون وبلنسية، فخطرهم أقل على الكاثوليكية، لأنهم يعيشون في عزلة، لذلك فلا بأس من اتخاذ خطوات مماثلة ضدهم ولكن ببطء، فلم يكونوا يهددون ايمان النصارى، لتفرغهم للزراعة والصناعة والفنون، فلو هجروا دفعة واحدة، لكان ذلك سبباً في أزمة اقتصادية خانقة، خلافاً لمسلمي قشتالة الذين كانوا منصهرين تماماً في المجتمع الذي يعيشون فيه، وكانوا يتكلمون الإسبانية، وينصبون أنفسهم أعداء للايمان الكاثوليكي.

كان يؤجج حقد خوان دي ريبيرا على الموريسكيين، اعتمادهم على عملهم الذاتي واقتصادهم في النفقة بالتواضع بالملبس والمسكن؛ لذا لم تؤثر الضرائب الباهظة كثيراً على حياتهم، اضافة إلى أنهم كانوا يعفون من خدمة العلم، لذلك لم يفقدوا أحداً منهم في الحروب الطاحنة، وضاعف من حقده سرعة تزايدهم السكاني بالزواج المبكر. أما النبلاء الذين كانت لهم أكبر مصلحة في بقاء الموريسكيين الذين يدرون عليهم دخلاً هائلاً باستغلال الأملاك؛ فقد وقفوا موقفاً مؤازراً للموريسكيين، فطلبوا اثباتاً قانونياً للتهم الملصقة بهم، ونفوا اشتراك الموريسكيين بأي مؤامرات، وحملوا رجال الدين المسيحي تبعة عدم ايمان المنصرين، لعدم تعليمهم الدين بالاقناع، وأضافوا أن ما يقوم به رجال

الدين، لا يعدو أن يكون خلق شقاق بين المسيحيين القدماء والجدد، وأن ذلك لا يعود على النصرانية بأي خير.

وقد قدم النبلاء بهذا الخصوص تقارير عدة إلى الملك ورئيس وزرائه، بيد أنهما لم يتخذا في ذلك أي قرار.

وفي هذه الأثناء أرسل الوزير الفرنسي دوق دي لا فورس (Duque de La Force) مبعوثة بانيسو (Panissault) لعرض مساعدة فرنسا للموريسكيين عسكرياً ضد الإسبان وذلك على ضوء توتر العلاقات الفرنسية الإسبانية في هذه الفترة، وقد اتفق المبعوث الفرنسي مع ثوار الموريسكيين على أن تقوم فرنسا بارسال أربع سفن حربية تصل إلى غراو - بلنسية (Grao-Valencia) لينزل رجالها متخفين أثناء الليل بعد أن يتسلقوا أسوار المدينة حيث ينضمون بأسلحتهم إلى صفوف ثوار الموريسكيين في صبيحة اليوم التالي(١).

غير أن الأب خايمي دي بلبدا (Fray Jaime de Bleda) استطاع أن يكتشف المؤامرة ويبلغ عنها قبل التنفيذ فأحبطت واعدم رؤساؤها شنقاً، وكان من بينهم:-

باسكوال دي سانتيستيبان	Pascual de Santisteban
مارتين دي أريندو	Martin de Iriondo
فرناندو دي تشارين	Fernando de Charin
بيدرو دي سان خوليان	Pedro de san Julian
ميغيل الأمين	Miguel Alamin
بيدروكورتيس	Pedro Cortes

وعلى غرار ذلك، أمر نائب الملك مطران طركونة في قطلونية بالقاء القبض على أي موريسكي يحاول الهرب من بلنسية إلى فرنسا براً أو بحراً. وفي شهر تموز عام ١٦٠٢م. تم القبض على موريسكيين في قرية - كوليوري - (Colliure) يحاولان الهرب إلى فرنسا(٢).

(1) A. Dominguez Ortiz, B. Vincent, Obra Citada, Pags 173-174
(2) 1602 julio. Barcelona, Archivo de La Corona de Aragon, Registro de Cancillerio, 5197 Fols 177-78.

وكان الموريسكيون يستغلون السواحل البلنسية المقابلة لشمالي افريقيا فيتصلون بأهل المغرب، ويتصل أهل المغرب بهم من خلالها وكانوا يعتبرونها مفراً سريعاً إلى المغرب، فتنبهت إسبانيا إلى ذلك فأحاطت كل سواحل بلنسية بحصون شامخة عسرة المرتقى وبذلك صارت هجرة الموريسكيين أو اتصالهم بأهل المغرب أمراً عسراً، وقد سهل تاجر قماش موريسكي - في مدينة أوندا Onda اسمه أمان - هجرة كثير من الموريسكيين إلى مارسيلية في فرنسا، ومنها كان الموريسكيون يستطيعون الذهاب إلى فينسيا (البندقية) ومنها إلى القسطنطينية ثم يصلون إلى الجزائر بعد هذا السفر الشاق الطويل(١).

وعلى الرغم من محاولة خوان دي ريبيرا وبقية المبشرين والموظفين أنفي الذكر لاقناع الموريسكيين بوجوب الانصياع إلى ما جاءت به قرارات البابا والملك السابقة فقد باءت جميع تلك المحاولات بالفشل، وأبى الموريسكيون الاعتراف بما يسمى جرائم ارتكبوها، كما أبوا أن يطلبوا الصفح عنهم. وأدى موقف الموريسكيين المتصلب إلى أن تلجأ الحكومة للعنف قبل أن يجف حبر القرارات، فلاحقت أعداداً من الموريسكيين وأجبرت كثيراً منهم على التنصر القسري.

طلب الاسقف خوان دي ريبيرا عام ١٦٠٢م. استبدال تعذيب الموريسكيين وسجنهم - لا سيما المنصرين منهم - بالتهجير لأنهم جميعاً لا يؤمنون بالدين المسيحي الجديد، اضافة إلى أنهم على صلة لا تكاد تنقطع بمجاهدي البحر المغاربة وبهنري الرابع ملك فرنسا(٢) والأتراك المسلمين، وهم - أيضاً - على صلة بأهل الجزائر، فلا يمكن أن يجدي تنصيرهم، فهم يدنسون الأماكن والكنائس والأديرة، ويلبسون على النصارى الكاثوليك القدماء دينهم، وقال عنهم "أنهم لا يعترفون بأخطائهم لدى القساوسة عندما يذهبون إلى الكنائس، كما أنهم لا يشاركون في تناول العشاء الرباني ولا يأخذون المسحة الأخيرة قبل الوفاة، ولا يشربون النبيذ، ولا يأكلون لحم الخنزير، ولا يمارسون أي شيء يمت إلى جوهر النصرانية بصلة(٣). وهم وراء اختفاء مجموعات كبيرة من الأطفال

---

(1) Tulio Halperin Donghi, un conflicto nacional en el siglo de Oro, Cuadernos de historia de españa, XXIII-XXIV, Instituto de historia de España, Buenos Aires 1955, Pág. 112.
(2) Henry Kamen, La Inquisicion Espanola 2a edicion Barelona, 1979, Pág. 126.
- Braudel, "Fernand", La Méditerranee et Le Monde Mediterrane a L' epoque de philippe II (Paris, 1949), Pág. 591.
(3) V. Ximén Z (Fr. Juan), vida del Beato Juan de Ribera, Valencia, 1978, Pags, 444-473.

والنساء النصارى إذ يختطفهم مجاهدو البحر ليصدوهم عن دينهم في افريقيا، وإذا أهملت إسبانيا الموريسكيين ومؤامراتهم فستنهار قريباً لا محالة.

لما علم الملك فيليب الثالث ورئيس وزرائه دوق ليرما والأب غسبار دي قرطبة بأقوال الأسقف ريبيرا شكروه على حرصه على البلاد وعلى الكاثوليكية، لكنهم لم يصدروا في الوقت نفسه أي قرار عملي بهذا الشأن.

هذه دلائل قاطعة على أن الموريسكيين لم يكونوا يتوانون عن التحالف مع أي طرف للتخلص من الاضطهاد الذي كانوا يقاسونه. وكانت لهم علاقات مع المسلمين خارج اسبانية ومع الفرنسيين، وكانوا مستعدين لاقامة أي علاقات من شأنها أن تضر بالسلطة الإسبانية.

اضافة إلى ذلك فقد قام رجال الدين المسيحي بتضليل الملك فيليب الثالث وايهامه بعدم قدرة الموريسكيين على مناوأة السلطة الحاكمة لضعف امكاناتهم الدفاعية، الأمر الذي قلل من قيمة الموريسكيين في نظر الملك فيليب مما شجعه على تنفيذ مخططاته الرهيبة ضد كل مسلم في إسبانيا.

لم يكن راي كل رجال الدين على هذا المستوى من التشدد، فقد اعتقد مطران سيغوربي (Segorbe) وضون فيليثيانو فيغيروا (Don Feliciano Figueroa) ان التسامح المسيحي يمكن ان يحل المشكلة، وينجي البلاد من كوارث اقتصادية محققة في كل المجالات[1]، فدعوا البابا باولو الخامس إلى عقد اجتماع للاساقفة يدرس القضية دراسة جادة، فقرر المجتمعون تنصير جميع الموريسكيين، وعدم تهجيرهم، حتى يكون البابا أباً روحياً للجميع.

واتفق البابا والملك فيليب الثالث أن يكتبا إلى خوان دي ريبيرا رئيس اساقفة بلنسية، لكي يبلغ رجالات الدين في منطقته، بحضور أساقفة أوريولة (Orihuela)

[1] E. Siscar:Los moriscos en el reino de valencia. Tesis de Licenciatura, inédita, valencia, 1971, Págs 1-12.

وسيغوربي وطرطوشا (Tortosa)، ويتخذوا الاجراءات المناسبة لتنصير الموريسكيين وتعميدهم، واعادة تعميد من نصر سابقاً[١]، ولما كانت هذه القضايا ذات أثر مهم على الدولة واقتصادها، أمر الملك أن يحضر الاجتماع عضو من محاكم التفتيش هو الدكتور بارتولوشانجه (El doctor Bartolo Sanchez) وضون لويس كاريو الطليطلي ماركيز دي كراثينا (El Marzués de Caracena) نائب الملك في بلنسية، اضافة إلى تسعة لاهوتيين، وعين المؤرخ غسبار اسكولانو[٢] (Gaspar Escolano) سكرتيراً لهذا المجمع الأسقفي، وكان أول أعمال هذا المجمع تغيير اسم مجمع الأساقفة إلى مجلس.

وباشر المجلس جلساته في قصر الماركيز دي كراثينا نائب الملك في بلنسية في الثاني والعشرين من شهر تشرين الثاني عام ١٦٠٦م، وكانت الموضوعات التي عولجت في هذا المجلس:

١- هل النصارى الجدد من الموريسكيين الذين لا يمارسون الطقوس المسيحية مرتدون أم هراطقة؟
٢- هل يمكن ابقاء أطفال النصارى الجدد ضمن أسرهم المشتبه بها بعد التعميد؟
٣- إذا تبين أن المنصرين الجدد ما يزالون يمارسون شعائرهم الاسلامية القديمة ويعتقدون عقائد مخالفة للنصرانية فهل يعفون من الاعتراف والتلقين وحضور الطقوس أم يرغمون على ذلك كله؟
٤- هل يسمح للنصارى الجدد من الموريسكيين بالتعبير عن شكوكهم فيما يتعلق بالايمان المسيحي على الا يبلغ عنهم من يسمعهم[٣]؟

استمرت جلسات ذلك المجلس حول هذه الموضوعات مدة ثلاثة أشهر حتى آذار عام ١٦٠٧م، ثم اختلفت الآراء حول النقاط الثلاث الأولى، واتفقت حول النقطة الرابعة، إذ من العبث مناقشة المنصرين الجدد في قضايا الاعتقاد لأن كثيرين منهم كانوا ملمين بالدين الاسلامي، لكنهم لا يجرؤون أن يبوحوا بأفكارهم، خشية نقمة رجال محاكم التفتيش.

---

[١] مؤلف موريسكي مجهول ص ١٦٢.
[٢] مؤرخ اسباني له عدة مؤلفات، خاصة عن تاريخ بلنسية استفاد الباحثون من كتاباته.
[٣] مؤلف موريسكي مجهول ص ١٦٣.

وأحال مجلس بلنسية جميع هذه النقاط وما جرى حولها من نقاش إلى المجلس الأعلى في مدريد للمصادقة عليها.

وقرر أسقف بلنسية خوان دي ريبيرا حل بعض القضايا التي عجز اللاهوتيون عن حلها، فأعلن أن الموريسكيين المنصرين مرتدون، لذلك لا يجوز لهم تنصير أولادهم، ولا تناول القربان المقدس، وجاهر برأي يوافق رأي الاب الدومنيكي خايمي دي بليدا (Fray Jaime de Bleda) مؤداه أن اعتراف الموريسكيين غير صحيح، لذا لا ينبغي أن يكتم رجال الدين أسرارهم، وبذلك أصبح الموريسكيون عرضة للتعذيب والسجن بسبب وبدون سبب، حتى لو نصروا.

وخلاصة قرارات مجلس بلنسية أنه يجب أن ينصر الموريسكيون ثانية، ويطلبوا بياناً بالعفو، وأن يعلموا أصول الدين المسيحي الكاثوليكي. أما من يرفض التنصير، فيجب تهجيره من المملكة. آخذاً برأي رئيس الوزراء دوق ليرما الذي كان يقول دائماً "لا تصبح ممالك إسبانيا نقية طاهرة الا باقصاء الموريسكيين عنها"[1].

وفي التاسع والعشرين من تشرين الأول عام ١٦٠٧م اتخذ كل من قائد ليون الأعلى القند دي ميرندا (El conde de Miranda) والراهب فراي خيرونيمو (Fray jeronimo) بالاتفاق مع البابا باولو الخامس قراراً بابعاد الموريسكيين عن شبه جزيرة ايبيريا، وقد أحيل ذلك القرار إلى مجلس الدولة ليصادق عليه وبقي تحت الدراسة إلى أن تمت الموافقة على مضمونه في الرابع من نيسان عام ١٦٠٩م.

وتسربت أثناء جلسات المجلس بعض أسراره للموريسكيين، فأعاوا تحصين مواقعهم استعداداً للثورة، واكتشفت بعض مؤامراتهم، فاتخذ الأب بليدا من ذلك مبرراً لمهاجمتهم في كل مكان من إسبانيا، وظل ينتقل بين روما وإسبانيا من اجل هذا الهدف، وصنف كتاباً أسماه (حماية الايمان وطرد الموريسكيين) واعتبر ذاته سوطاً يعذبهم وأعان بليدا بعد طرده من روما على ادخال الشكوك إلى الملك فيليب الثالث، باشباع ذهن رئيس الوزراء دوق ليرما بتلك الآراء، لا سيما أن بليدا صور لدوق ليرما أن في بلاده مؤامرة

[1] Joan Regla, Estudios sobre Los moriscos, Barcelona, 1974, Pág. 49.

يحوكها الموريسكيون، تهدد أمن البلاد وسياسة الدولة والايمان المسيحي ذاته[1]. واقتنع الملك فيليب الثالث بعدئذ بتهجير الموريسكيين من مملكته، ذلك أنه اعتاد أن يقتنع بآراء راهبه دوق ليرما، فأمر الملك فيليب الثالث رئيس وزرائه أن يقوم هو نفسه بتهجيرهم قسراً، وبذلك اتخذ قراراً مجحفاً بحقهم في تلك البلاد، فكان هذا القرار في اثناء هدنة الاثنتي عشرة سنة التي عقدت مع ولايات فلندس المتحدة، فأطلق العنان لجميع القوى، لتوجه أقسى الضربات للموريسكيين، كما كان يخطط دوق ليرما.

ووقع على القرار في بلنسية وسيقوبية في الرابع من تموز عام ١٦٠٧م. واحتياطاً من دوق ليرما لنجاح تنفيذ هذا القرار جند ميلشيات عديدة في بلنسية وليون وقشتالة، وأمر نواب الملك في نابولي وصقلية وميلانو ليحضروا سفنهم معبأة بالجنود على الشواطئ الإسبانية كأنهم يعدون لفتح بلاد جديدة أو لمهمة عسكرية عسرة جداً، وأسندت قيادة هذه المجموعات العسكرية الكبيرة إلى قائد اسباني قديم هوضون أغسطين ميخيا Don Agustin Mejia الذي توجه إلى بلنسية في العشرين من آب عام ١٦٠٧م وسلم القرارات إلى المسؤولين ليطلقوا يده ويعينوه على تنفيذها، وعقد جلسات سرية في بلنسية مع الماركيز دي كراثينا نائب الملك، ثم شرع يقوم بجولات تفتيشية على مراكز الجنود والحاميات والحصون، ويزودها بما تحتاج من المؤن والاسلحة والمقاتلين.

أما من الطرف الآخر فقد اسهم قليل من النصارى الإسبان وبعض النبلاء في مساعدة الموريسكيين خلال محنتهم، فقد نقلوا اليهم معلومات كانت غاية في السرية، وهذا ما جعل المجالس الرسمية الحكومية والكنيسة في حيرة حول كيفية تسرب تلك المعلومات، وبتسربها احتاط الموريسكيون من ملاحقة محاكم التفتيش لهم وطلبوا النجدة من اخوانهم المغاربة عام ١٦٠٨م ولكن بدون جدوى[2]. وتيقنوا من جدية تنفيذ تلك القرارات بتهجيرهم خاصة عندما شاهدوا الجيوش تنزل اليابسة في الفاقس (Al faques) ودانية (Denia) ولقنت (Alicante)، وشاهدوا السفن الحزبية في مياه بلنسية، ولاحظوا بيدرو الطليطلي (Pedro de Toledo) قائد الاسطول الإسباني ينزل إلى اليابسة ويحتل جبال

---

[1] El pontifice Paulo V y La expulsión de los moriscos, Boletin de La Real Academia de la Historia, CXXIX, Pags 220-234.
[2] Braudel, Pág. 591.

أسبادان ذلك المخبأ المنيع والمركز الاستراتيجي الذي سبق أن تحدى الموريسكيون فيه جيوش الامبراطور شارل الخامس.

وشعر الناس عامة قبل نشر المرسوم الملكي عام ١٦٠٩م لا سيما النبلاء أنهم على وشك مجاعة ودمار وكساد اقتصادي بامتناع الموريسكيين عن العمل وعن ارتياد السوق، فذهب النبلاء إلى ماركيز دي كراثينا نائب الملك في بلنسية يعاتبونه على عدم ابلاغهم بذلك وهم يعدون أنفسهم حماة الملك وعرشه، فاجابهم: أن ليس لديه ما يقوله لهم، وأن عليهم أن يواجهوا الملك، ويستفسروا منه شخصياً عن ما يريدون[١]، وتوجه منهم مندوبون إلى الملك فيليب الثالث وإلى رئيس وزرائه دوق ليرما وأوضحوا لهما الخسائر التي تهدد البلاد باقتصادها وجامعاتها وأديرتها التي لم تكن لتقوم في معظمها الا على الضرائب الفادحة التي كان يدفعها الموريسكيون، وأوضحوا خسارة الخزينة الملكية، وتدني مستوى البلاد الاقتصادي إن هجر هؤلاء الموريسكيون[٢].

عرض الموريسكيون على الملك فيليب الثالث من خلال النبلاء والسادة، ومن خلال ماركيز دي كراثينا نائب الملك في بلنسية مبالغ كبيرة، وعرضوا أن يفتدوا الأسرى المسيحيين الذين كانوا بأيدي مجاهدي البحر المغاربة والاتراك المسلمين مهما كان الثمن كبيراً، وأن يعملوا في المراكب البحرية بالتجديف مقابل بقائهم.

بيد أن دوق ليرما لم يستجب لمثل تلك العروض معتبراً نفسه حامي العقيدة المسيحية، لكن الملك استمع إلى النبلاء واجابهم بطريقة ديبلوماسية قائلاً: "أن ماركيز كراثينا سيخبركم برأيي"[٣].

---

(١) مؤلف موريسكي مجهول ص١٦٧.

(٢) مؤلف موريسكي مجهول صفحة ١٦٧-١٦٨.

(3) John C. Salyer, La importancia económica de los Moriscos en España Anales de Economia IX, 24, 1949, Pág. 123.

الذي كان يتألف إذ ذاك من:-

دوقات البا وكنداتها والأمير (وهكذا ورد في النص) والماركيز دي بيلادا ومشير قشتالة ورئيس الرهبانيات العسكرية في ليون وكردينال طليطلة.

وعندما عاد مفاوضو النبلاء إلى بلنسية في الحادي والعشرين من تشــــرين الأول عام ١٦٠٧م. دعوا لمقابلة ماركيز دي كراثينا الذي تلا عليهم قراراً ملكياً صـــادراً فـــي الحادي عشر من الشهر نفسه مؤداه أن عليهم أن يساعدوا بكل ما لديهم من امكانات لتنفيذ الخطة المرسومة لإقصاء الموريسكيين، ولما لم يجد نبلاء بلنسية جدوى من محاولاتـــهم ولا مناصاً من الطاعة والخضوع للملك أرسلوا اليه أنهم يجعلون كل ما لديهم من امكانات تحت تصرفه، ولو أدى ذلك إلى إفلاسهم وفقدان نفوذهم الاجتماعي، وقد أصدر مجلـــس الدولة[1] قراراً بحق الموريسكيين في الرابع من نيســـان عـــام ١٦٠٩م مـــؤداه تـــهجير الموريسكيين من شبه جزيرة ايبيريا في الثاني والعشرين من أيلول عام ١٦٠٩م، وأعلـــن قرار التهجير في بلنسية، وقد أثر دوق ليرما رئيس الوزراء على المجتمعين لاتخاذ قـــرار التهجير، مشيراً إلى ضرورة التمسك بأمن الدولة وسلامتها، كما أن الملك فيليب الثـــالث وصف الموريسكيين بأنهم كفرة مرتدون، ولما كان شديد العطـــف عليـــهم فانـــه اكتفـــى بتهجيرهم ولم يحكم عليهم بالموت، ولم يصادر ممتلكاتهم المنقولة إن غادروا البلاد خـــلال ثلاثة أيام، وكانت هذه السياسة منسجمة مع قراره الملكي المتخذ في الرابع من نيسان عام ١٦٠٩م[2].

مرسوم تهجير موريسكيي بلنسية عام ١٦٠٩م

بوشر بتهجير الموريسكيين من مملكة بلنسية في الثاني والعشرين من أيلول عـــام ١٦٠٩م قبل غيرها لأنهم اعتُبروا أشد خطراً بســـبب كـــثرة عددهـــم، ولتوزعـــهم فـــي مجموعات متكاملة في الجبال، ولتمكنهم من الاتصال بمسلمي شمالي افريقيا، ويثبت ذلـــك ما ورد في رسالة ضون مانو يل المؤرخة في التاسع والعشرين من آب عام ١٦٠٩م التي يشير فيها إلى:

---

[1] Dánvila y collado, Manuel: Obra Citada, Pags 274-277.
[2] Regla (Joan), Obra Citada, Pags 57-59.
- Barbieri (Asenjo) Revista de Archivos, primera epóca 1874, Pags 149-150.
- Guadalajara (Fray Marcos de): Memorable expulsión, Año 1613 fols 109-112.
- Danvila y collado (Manuel): Obra Citada, Pags 274-302.
- Lea (Henry Charles): A History of the Inquisition of Spain, III, Nueva York-Londres, 1907, Pág. 395.
- Boronat y Barrachina, Obra Citada, Pags 190-193.
- Garcia Arenal (Mercedes) Los moriscos, Madrid; 1975, Pags 251-255.

"أن الخطورة تكمن في اتصال موريسكيي الأندلس بمسلمي شمالي افريقيا، واتصال موريسكيي أرغون بفرنسا"[1]. واستهلالاً لتنفيذ ذلك فقد أرسل ضون أغسطين ميخيا (Don Agustin Mejia) إلى بلنسية. وقد صادق السيد لويس كاريو الطليطلي (Carrillo de Toledo) ماركيز دي كراثينا (Marqués de Carcena) نائب الملك في بلنسية على مرسوم مجلس الدولة المتخذ في الرابع من نيسان عام ١٦٠٩م.

ونص مرسوم تهجير موريسكيي بلنسية الصادر في الثاني والعشرين من أيلول عام ١٦٠٩م. على ما يلي:

١- على جميع الموريسكيين رجالاً ونساء وأطفالاً، في هذه المملكة - خلال ثلاثة أيام من صدور هذا المرسوم، حيثما كانوا - أن يخلوا مساكنهم، ويتجهوا إلى الموانئ المحددة، كل تحت امرة مفوض الدولة المسؤول عنه، للابحار على المراكب والسفن الكبيرة والبواخر التي استعارتها إسبانيا لهذه الغاية منصاعين لأوامر المفوض، حاملين من أموالهم المنقولة ما يستطيعون حمله على ظهورهم إلى المغرب، وتحظر الاساءة اليهم وازعاجهم أثناء انتقالهم، سواء أكان ذلك بالقول أم بالفعل، ويكفل لهم طعامهم خلال مدة الابحار، وكل من يتخلف عن تنفيذ هذا المرسوم يعرض نفسه للموت المحقق.
٢- لأي اسباني وجد موريسكياً خارج منطقته، أوضالا في الطريق بعد الأيام الثلاثة المحددة، أن يستولي على ما معه، فان أبدى الموريسكي أي مقاومة، فللاسباني أن يقتله، أو أن يسلمه لأقرب مركز يمكن أن تأخذ فيه العدالة مجراها.
٣- يلزم الموريسكيون - بعد هذا المرسوم - بالبقاء حيث هم، حتى يجيء مفوض الدولة الخاص بهم، وينقلهم إلى الموانئ المحددة، للابحار إلى المغرب. ومن يخالف ذلك، يعرض نفسه للموت.
٤- يحكم بالموت على أي موريسكي، اخفى أي شيء من أمواله التي يعجز عن حملها، أو حرق، أو أتلف بيتاً أو مزرعة أو حاكورة أو شجرة أو أي شيء من الممتلكات، كما ينال العقوبة نفسها أي جار تكتم على شيء من هذه الأعمال، لأن المرسوم

[1] Juan Regla: La expulsión de Los moriscos y sus consecuencias. contribución a su estudio. Hispania Revista española de historia, Tomo XIII, Madrid 1953, No. L Pág. 223.

يوجب على الموريسكيين ابقاء الأموال التي يعجزون عن حملها، ويجعل منحها من حقوق صاحب الاقطاعية.

٥- يبقى في كل بلدة تعداد سكانها مائة أسرة مسيحية ست أسر موريسكية من كبار السن، شريطة أن لا يكون ابناؤهم متزوجين، وأن يكونوا تحت رعاية الأبوين، يختارهم أصحاب الاقطاع من أشد السكان صلة بالمسيحية، ليعلموا السكان الجدد زراعة قصب السكر وصناعة السكر وتكريره، وإعداد أحواض الأرز وسقيه وحصاده، وسقاية الأرض بعامة وصيانة البيوت.

٦- يحظر على المسيحيين القدماء والجنود الاساءة إلى الموريسكيين بالقول أو العمل أو الاعتداء على الزوجات أو الأبناء أو الممتلكات.

٧- يحظر على المسيحيين القدماء اخفاء أي موريسكي أو مساعدته أو عدم الابلاغ عنه إن تغيب، ويحكم على من يفعل ذلك بالعمل الشاق ست سنوات - دون مغفرة - في السفن الكبيرة للتجديف أو أي أحكام نريدها.

٨- ليعلم كل الموريسكيين أن رغبة الملك هي تهجيرهم من مملكته لا مضايقتهم، حتى يصلوا إلى الشواطئ المغربية بأمان، ولذا يسمح لعشرة موريسكيين في كل رحلة أن يعودوا على المراكب نفسها، لابلاغ اخوانهم عن سلامة الوصول وحسن المعاملة، ويكتب إلى المفوضين والمسؤولين في المراكب بذلك، وبأنه لا يُسمح لأي جندي أو بحار بالاساءة للمهجرين بالقول كان ذلك أم بالفعل.

٩- يسمح لأطفال الموريسكيين بالبقاء، سواء كانوا ذكوراً أم اناثاً، شريطة أن تقل اعمارهم عن الرابعة، وأن يوافق الأبوان أو الوصيان على ذلك.

١٠-يسمح للأطفال الموريسكيين من أباء مسيحيين قدماء طاعنين بالسن - إذا قلت أعمارهم عن ست سنوات - بالبقاء مع أمهاتهم. أما الأطفال الموريسكيون من أمهات مسيحيات قديمات - إذا قلت أعمارهم عن ست سنوات - فيسمح لهم بالبقاء مع أمهاتهم بينما يطرد أباؤهم.

١١-يسمح للموريسكيين المقيمين بين النصارى القدماء بالبقاء في المملكة، إذا كانوا قبل صدور هذا المرسوم بسنتين لم يشتركوا في رابطة الجوامع الموريسكية[1].

---

[1] تمثل هذه الرابطة تنظيماً موريسكيا بهدف مقاومة مخططات السلطة الإسبانية الحاكمة الرامية إلى تنصيرهم عن طريق السلطة الدينية.

١٢-يسمح بالبقاء للموريسكيين الذين لقنوا الاسرار الكنسية، وعمدوا بموافقة رئيس الدّير بناء على آراء المبلغين القاطنين في مناطقهم.

١٣-يوافق صاحب الجلالة أن يذهب أي موريسكي لأي مملكة أخرى حسـب رغبتـه، شريطة ألا يعبر أي مقاطعات اسبانية في طريقه، ضمن المدة التي حددها المرسوم.

هذه هي رغبة صاحب الجلالة، ومن لم ينفذ ما جاء في هـذا المرسـوم الملكـي يعرض نفسه لأقسى العقوبات.

بعد صدور هذا المرسوم بخمسة أيام (أي في السابع والعشرين من ايلول عام ألف وستمائة وتسعة) ألقى البطريرك خوان دي ريبيرا* خطبة في كاتدرائيته يبرر فيها مرسوم التهجير جاء فيها:-

"إن هؤلاء الموريسكيين أناس مرتدون كفرة يسيء وجودهم إلى المسيحيين، لأنـه من المشرف أن يصاحب المرء المخلصين الأوفياء ومن الشين والعار معاشرة الكفرة. ولا داعي أن تنظروا إلى وجوههم لكي لا ينحط قدر من ينظر اليهم حتى ولو كـان الواحـد منهم ملكاً" [١]. واستشهد هنا بقول القديس سان خوان ووصيته التي تقول "لا تتقربوا إلى الذين لا يعترفون بأن المسيح هو الله، وأضاف هكذا هم الموريسكيون الذين قـال عنـهم القديس سان خوان "الذين لا يعتقدون بأن مسيحنا هو الاله الحقيقي". (وعن هؤلاء يقـول القديس) لا تؤو وهم إلى بيوتكم ولا تقولوا لهم مبارك، لان الذي يسلم عليهم بأي طريقـة كانت يعتبر من ملتهم[٢].

ولما انكشف للموريسكيين أمر قرار التهجير الصادر عن لويس كاريو الطليطلـي ماركيز دي كراثينا في الثاني والعشرين من ايلول سنة ١٦٠٩م بادروا إلـى بيـع كـل ممتلكاتهم الممكن بيعها لأن المادة الرابعة من القرار فسرت تفسيرات مختلفة، فـأغرقوا بذلك سوق بلنسية بمختلف المنتجات مما أدى إلى هبوط في أثمان السلع يكاد يصل إلـى

* رقي الأب خوان دي ريبيرا نتيجة أعماله ومواقفة ضد الموريسكيين من أسقف إلى بطريرك.

(1) Fonseca, padre Damián de, Relacion de Lo que paso en La expulsión de Los moriscos del Reyno de Valencia, Roma, Iacomo Mascardo, 1612, Pág. 77.

(2) Cardaillac (Louis) Moriscos y cristianos, un enfrentamiento polémico (1492-1640) Madrid, 1979 Cap, I Pags 94-95.

تسعين بالمائة، ففي دوقية غانديا بيع قفيز[١] القمـــح بعشــرة ســولدات (Sueldos) (والسولدو هو الريال البلنسي الحقيقي في ذلك الزمن). كما بيع الرأس من البقر أو البغال أو البهائم بثمانية ريالات[٢]، ولذلك أصدر ماركيز دي كراثينا – مواجهة للأحوال الناتجـة عن المادة الرابعة – قراراً جديداً في الأول من تشرين الاول عام ١٦٠٩م يبدأ بالاشـــارة إلى السرعة المدهشة التي أخذ الموريسكيون يبيعون ممتلكاتهم بها بحيث صاروا يبيعــون ما يساوي مائة ريال بعشرة ريالات، ونص قراره على ما يلي:-

لكل موريسكي ان يبيع ما يريد باستثناء الأشياء التالية:-

أ. الحيوانات كبيرة كانت أم صغيرة.

ب. الزيوت.

جـ. البيوت.

د. الأراضي.

هـ. الأسهم. (العقارات المشتركة).

فإذا تم بيع أي من الأشياء المستثناه أعلاه فإن البيع يعتبر ملغياً، ويسمح ببيع هـــذه الأمور المستثناه للنبلاء مقابل الديون التي كـــانت لأســيادهم عليــهم لا مقــابل أمــوال يقبضونها[٣]. ولهم أن يبيعوا تلك الأشياء المستثناه لاي دائن شريطة أن تكون هناك وثائق عامة دالة على ذلك[٤].

---

[١] القفيز: مقياس للكيل والوزن ومسح الأرض. ويعادل اثنتي عشرة فنيقة والفنيقة Fanega مكيال سعته ٥٥,٥ لتر وهو يساوي كيساً ونصف كيس "أصله من العربية فنيقة أي الغرارة". القفـــيز مـــن الأرض: قدر بـــ (١٤٤) ذراعاً.

أنظر:عدلي طاهر نور، كلمات عربية في اللغة الإسبانية مصر، (١٩٧ صفحـــة ١٨٥-١٨٦ كذلـك انظر: المعجم الوسيط، ة العربية ١٩٦٠م.

[2] Boronat, Obra Citada, Valencia 1901, 2 Vols., Pág 200.

[3] Asenjo Barbieri, Revista de Archivos Primera época, IV, 1874, Pags 149-150.

[٤] من أجل الاستزادة عن أموال الموريسكيين المهجرين أنظر:-

- T.H. Donghi: un conflicto nacional: moriscos y cristianos viejos en valencia, en cuadernos de Historia de España, Buenos Aires, nums. XXIII-XXIV (1955), Pags 63-65.
- Archivo de Reino de Valencia: Maestre Racional, Legs: 489, 491, 492, 497.
- H. Lapeyre: Géographie de L' Espagne morisque, Paris, 1959 Pags 34-48.
- P. Boronat: Los moriscos españoles y su expulsión. Estudio historico - critico, valencia, 1901, Tomo II. Pags 353-358.
- J. Regla: Estudios sobre Los Moriscos: en Anales de La Universidad de valencia, 1964, Pags 82 y sigs.

الأملاك التي تركها الموريسكيون في بلنسية وقراها

إثر المرسوم الملكي الصادر في الثاني والعشرين من أيلول عام ١٦٠٩م. خلف الموريسكيون مجموعة من الأراضي والعقارات العائدة لبلنسية وارباضها وقراها كما هو مبين في الجدول التالي:-

القرية	ما تركه الموريسكيون	القيمة
شاطبة Jativa	٩٢٥ قفيزاً من Cahizada الأرض.	٣٩,١٢٤ ليرة بلنسية
الأرباض	مائة وتسعين بيتاً وعشرين معملاً واثنين وخمسين بئراً للمياه وطاحونة مائية ذات عجلتين وأربع حواكير ومعصرة لزيت الزيتون ونبع ماء.	لم تقدر
السيرة Alcira	١٧٢ قفيزاً من الأرض	١١,٤٢٥ ليرة بلنسية
قربيرة Corbera	➢ ٤٦٣ قفيزاً من الأرض ➢ ٥٤ بيتاً	٨,٦٦٤ ليرة بلنسية
قشتليون دي لا بلانا Castellon de La Plana	➢ ٣٠٠ قفيز من الأرض ➢ ٣٢ بيتاً	١٤,٣٤٣ ليرة بلنسية
أونده الأراضي البعلية لقرية بني فرج وأو يا دي البترس. El secano de Onda Benifaraÿ y La Hoya de Alpertres	٦٦٤ قفيزاً من الأرض وبيت ريفي وكذلك أراضي بعل في قرية بني فرج (Bani Farag). واو يا دي البترس	٤,٨٨٧ ليرة بلنسية
بريانا Burriana	٩٠,٥٠ قفيزاً من الأرض	٨٥٤ ليرة بلنسية
شريقة Xerica	٢٩٦ قفيزاً من الأرض و١٠ زرائب للحيوانات أو بيوت ريفية و٣٣ مزرعة	٤,٠٧٢ ليرة بلنسية
فياريال Villareal	٢,٤١٦ قفيزاً من الأرض	١٥,١٠٦ ليرة بلنسية

مربيطر Murviedro	٢.٧٧٦ قفيزاً من الأرض	٤١,٣٦٧ ليرة بلنسية
أونتينتي Onteniente	٣٠,٥٠ قفيزاً من الأرض	١,٤٩٨ ليرة بلنسية
أغولانت Agullent	٣١٥ قفيزاً من الأرض	٥,٧٥٩ ليرة بلنسية
أوليريا Olleria La	٣٠٨,٥ قفيزاً من الأرض وثلث المعصرة	٤,٨٤٢ ليرة بلنسية
فيانويفا – قشتليون Villanueva de Castellon	٢٠٩,٥ قفيزاً من الأرض	٥,٦٢٠ ليرة بلنسية
الجمسي Algemesi	٨,٥ قفيزاً من الأرض	٣٣٠ ليرة بلنسية
غواداشوار Guadasuar	٦٦,٥ قفيزاً من الأرض	٢,٢٧٠ ليرة بلنسية
بناغيلة Penguila	وبعض الأراضي تقدر	٣٢,٦٥٠ ليرة بلنسية
اورو يلة Orihuela	٥,٣٨٧ تاهولا[1]	
المراد Almorad	ودار واحدة في كايوسا	٢٠,٠٠٠ ليرة بلنسية
كايوسا Callosa	لم تخمن	

القيمة الموضوعة في هذا الجدول هي قيمة طارئة بسبب التهجير أما قيمتها قبل ذلك فقد كانت أضعافاً مضاعفة عما هو في هذا الجدول، وقد سقطت بعض الأراضي سهواً لدى الجرد، لذلك فإن هذه الأرقام ليست دقيقة تماماً، إذ إن هناك أراضي أخرى كثيرة مغفلة[2].

ومن الملاحظ أنه في هذه الفترة من عهد الملك فيليب الثالث أقيمت جامعة تدريسية في أرباض بلنسية كانت تأخذ عشر الضرائب التي كانت تحصل من الموريسكيين، وكانت تأخذ أيضاً جزءاً من دخل مدينة شاطبة، ووصلت قيمة ما كانت تأخذه إلى ما يزيد على ألف ليرة بلنسية، أما ما يتبقى من الضرائب والممتلكات فكان يرجع للملك فيليب الثالث مع أن الجامعة كانت تدفع بعض الضرائب.

---

(١) تاهولا Tahulla: مقياس استعمل في البداية من أجل أراضي السقي يسع ٤٠ باراً Vara من كل جانب أي ما مجموعه ١٦٠٠ بارس مربعة والبارا: – مقياس يستعمل للطول يعادل ٨٣٥,٩ ملم.

(2) 611. 18 de marzo, valencia, Archivo de La corona de Aragón, consejo de Aragon, 607.

أما فيما يتعلق بعملية التهجير فقد اكتظت الشوارع والأزقة والساحات العامة يـوم جمع الموريسكيين لتهجيرهم، ولم يكن في مقدور أي أحد اختراق هذه الجمـوع الغفـيرة التي كانت تنتظر مصيرها الفظيع، وقد طال الانتظار إذ كانت عمليـة التـهجير بطيئـة فالمراكب التي استؤجرت لهذه الغاية لم تكن كافية، لذا كان لا بد من أن ينتظر المهجرون لينقل كل حسب دوره حتى تذهب المراكب وتفرغ حمولتها في المغرب ثم تعود إلى بلنسية لتحمل بالمهجرين من جديد.

وقد كان التهجير على ثلاث دفعات[1]:

١- انطلقت الدفعة الأولى من دانية (Denia) يسيرها الماركيز دي سـانتا كـروث (El Marques de Santa Cruz) في الثاني من تشرين الأول عام ١٦٠٩م وكـان عددهـا (٣٨٠٣) موريسكيين ثم نقل في الايام العشرين الأولى من تشـرين الأول (٣٢٠٠) موريسكي.

٢- في الثاني والعشرين من تشرين الأول نقلت الدفعة الثانية في سبع عشـرة سـفينة وكان قوامها (٣٤٠٦) موريسكيين من دانيه (Denia) ثم تبعتها بين الثاني والعشـوين والرابع والعشرين من الشهر نفسه خمس عشرة سفينة تحمل (٢٤٥٦) موريسـكياً، وفي السادس والعشرين من تشـرين الأول هجـر مـن مدينـة لقنـت (Alicante) وفياخيوسه (Villajoyosa) (٥٦٥٤) موريسكياً تحملهم تسع سفن ثم توالت عمليـات التهجير، فخرج من ميناء غراو (Grao) (١٧٧٧٦) موريسـكياً وخـرج (١٥٢٠٨) موريسكيين من ميناء بيناروس (Vinaroz) و (٥٦٩٠) موريسكياً من ميناء منفقـار (Monfacar).

٣- ثم بدأت عمليات التهجير في الدفعة الثالثة من ميناء دانيه (Denia) فهجر المـاركيز سانتا كروث (El Marquesde Santa Cruz) في الثاني من تشـرين الثـاني (٣٨١٩) موريسكياً، وفي اليوم نفسه خرج من ميناء لقنت (Alicante) ٢٥١٩ موريسكياً، وفي الرابع من تشرين الثاني هجر (٣٢٢٥) موريسكياً، وهجر في اليوم نفسـه بقيـادة بطرس الطليطلي (Don Pedro de Toledo) (٤٥٠٠) موريسكي من ميناء بينـاروس

[1] Bendicho: Crónica de Alicante, Edición de Alicante, Edicion y notas de F. Frgueras, Alicante, 1960, Pág. 202

(Vinaroz)، وفي التاسع والحادي عشر والرابع عشر من تشرين الثاني خرج (٤٥٠) موريسكياً آخر.

وبعامة فقد تم تهجير (١١٦٠٠٠) موريسكي، كما حكم بالأشغال الشاقة في السفن على (٥٠٠٠) موريسكي، وهرب ألفا موريسكي آخر[١]. ولم يحل التهجير جوهر المشكلة، فلقد أختبأ في الجبال عدد من الموريسكين ظلوا يتحينون الفرصة لانتفاضة عارمة ضد إسبانيا حتى أبلغت محكمة بلنسية في الثاني من أيار عام ١٦١٠م الملك الإسباني فيليب الثالث أن قد بقي في المملكة (٧٠٠) موريسكي وطلبت أن يسمح لهم بالبقاء علناً على أن يكونوا عبيداً[٢]، وقد خرج من بلنسية بعد عام ١٦٠٩م. (١٠٥٠) موريسكياً ثم خرج بعد عام ١٦١٠م. (٤١٦) موريسكياً وما بين عام ١٦١١م و ١٦١٢م خرج (٢٣) موريسكياً حسب ما أورد هنري لبيري (Henri Lapeyre) في احصائيته[٣].

وقد برر المؤرخ فلورنثيو جانير (Florencio Janer) تهجير الموريسكيين بأنه ضرورة ملحة لاستئصال هذه الملَّة عدوة قلب إسبانيا[٤].

كما أثار بطريرك بلنسية شكوكاً حول تعميد الأطفال الموريسكيين المولودين في بلنسية، وأشاع أن الموريسكيين كانوا يعمدون الطفل أكثر من مرة باسماء مختلفة، ويتركون اخوته من غير تعميد[٥]، وأظهر أنه التقط ذلك من بعض الموريسكيين في أثناء الاعتراف لدى الخورة، فأصدر مجلس الدولة على ضوء ذلك قراراً يقضي بطرد أي موريسكي من عضوية الكنيسة إذا شك الخورة بتعميده، وأن على كل أسرة موريسكية أن تبلغ عن أفرادها غير المعمدين، فرفض الجند تنفيذ هذا القرار لما يلي:-

١- صدوره عن مجلس الدولة واعضاؤه مكلفون بطاعة القرارات التي تصدر عن مجلس أرغون.
٢- أنه ليس من حق البطريرك أن يأخذ بكلام الخوره فيما يتعلق بالتعميد.

---

(1) Henri LAPEYRE: Geographie de L' Espagne morisque. Paris 1959, Pags 118-126.
(2) Juan REGLA: Obra Citada, Pags 235-236.
(3) Henri Lepeyre: Geographie de L' Espagne Morisque. S. E. V. P. E. N. 1959, Pags 180-187.
(4) F. Janer, La condición social de Los Moriscos de España (Madrid), 1857, Pags 114-116.
(5) EL consejo de Aragón al rey. Informe del patriarca de valencia sobre La vida religiosa de los moriscos. 1610, 26 de Agosto Archivo de La corona de Aragon, consejo de Aragón, 607, fol. 9.

وفي العاشر من آب عام ١٦١٠م كتب البطريرك يستفسر من الملك عما يجب فعله ازاء موقف الجند من قرارات مجلس الدولة.

ولما عرف مجلس الدولة بفحوى رسالة البطريرك بعث إلى الملك يخبره أن أسباب رسالة البطريرك هي تحمسه الديني وغيرته على الديانة النصرانية، ورجا الملك أن يبعث برسالة إلى نائبه في بلنسية بما يراه مناسباً، اضافة إلى توبيخ الجند على مواقفهم السلبية، والزامهم بتنفيذ ما يؤمرون به[١].

ولمعرفة مدى تنفيذ هذه الأوامر يمكن الاستعانة بالمعلومات الكثيرة المتوافرة فيما جرى من مراسلات بين أغسطين ميخيا (Agustin Mejia)[٢] والملك فيليب الثالث، فقد أرسله الملك ليشرف على تنفيذ التهجير من بلنسية.

وأبلغ أغسطين ميخيا الملك فيليب الثالث بوثيقة من دانية مؤرخة في الثامن من تشرين الأول عام ١٦٠٩م، أنه يبذل الجهد في استئجار السفن من أموال الموريسكيين المهجرين إذا أمكن ذلك، علماً بان بينهم كثيراً من الاشخاص لا يستطيعون أن يساهموا بدفع شيء من أجرة السفن، وكان ميخيا يعتقد أن من واجب الأغنياء من المهجرين أن يعينوا الفقراء منهم على دفع أجور السفن لكنهم كانوا يمتنعون عن الدفع، وكان اجبارهم عليه صعباً، وبين أنه إذا استحال عليهم دفع الأجور فيمكن تغطيتها من ميزانية صاحب الجلالة الملك فيليب الثالث، وبين ان ذلك أقل ما يمكن أن يقوم به.

وقد اتفق مع أصحاب السفن التي كانت ستنقل الموريسكيين إلى شمالي افريقيا على عشرة ريالات مقابل نقل الشخص الواحد، واعتبره أصحاب السفن زهيداً رغم أن الماركيز سنتا كروث (Santa Cruz) وغيره رأوا أنه أجرة معتدلة، وأبلغ ميخيا (Mejia) الملك فيليب الثالث في رسالة مؤرخة في العاشر من تشرين الأول من العام نفسه أن ست سفن أقلعت أمس تحمل أكثر من سبعمائة موريسكي دفع ستمائة وثمانون منهم أجورهم من أموالهم الخاصة[٣].

---

(1) 1610. 26 de agosto, Archivo de la corona de Aragón, Consejo de Aragón, 607-fol. 9.

(٢) أغسطين ميخيا هو قشتالي من أمبرس – بلنسية (Amberes).

(3) Moronat, Los moriscos, II Pág. 215.

إثر هذا المرسوم، بدا على النبلاء تذمر ملموس، فقد ساءت أحوالهم وفقدوا كل نفوذ اجتماعي أو اقتصادي، فوجه نائب الملك في بلنسية – الماركيز دي كراثينا – رسالة إلى الملك فيليب الثالث، يبين فيها أن بلنسية تتعرض لصعوبات جمة، بسبب تهجير الموريسكيين، ومن هذه الصعوبات احصاء السكان، لا سيما أن الحالة الاقتصادية أضحت متردية جداً خاصة لدى النبلاء الذين صاروا بلا خدم ولا حشم ولا انتاج، وأنهم سيتعرضون لحالة يرثى لها ان لم يتداركهم العطف الملكي السامي.

ووجه في التاريخ نفسه رسالة أخرى، يبين فيها – أيضاً –: الصعوبة المترتبة على دفع الضرائب، إذ أن هناك نبلاء تطلب منهم ضرائب كبيرة، وهم مدينون بأصناف مختلفة من الديون يطالبون بأدائها، وقد أضمحلت عقاراتهم، واضطروا للعمل بأيديهم في الفلاحة، لكسب عيشهم وعيش أسرهم، مثل دوق غانديا بينما غيرهم من النبلاء لم يطلب منهم ضرائب، فيطالب المكلفون بدفع الضرائب بأنصافهم امامكم وأمام الله[(١)].

ثورة وادي الهـار
(الأحرار)

بعد طول المعاناة، قرر الموريسكيون الثورة، ثم قرر حاكم دانية (Denia) تهجير ثلاثة آلاف موريسكي قسراً بعد أن جمعهم بصعوبة، أما الشبان فهربوا إلى أعالي الجبال، وتجمعوا قرب غانديا (Gandia) واعتصمت جماعة أخرى منهم بين دانية والكوى (Denia Y Alcoy) واعلنت انتفاضتها، ثم انضمت اليها عشرون قرية في جبال بيرنيا (Bernia) في الخامس والعشرين من تشرين الأول عام ١٦٠٩م.

وفي التاسع والعشرين من الشهر نفسه، شملت الثورة الجبال كافة، فأبدت السلطات عدم اهتمامها بالثائرين، حتى يتبينوا حقيقة النوايا، ثم شرعوا يهاجمون الضعاف منهم، حتى يضمنوا التغلب عليهم بيسر، فترتفع معنوياتهم، وتنخفض معنويات الثائرين.

[(1)] 1609, 29 de Octubre. Valencia Arcivo de La corona de Aragón consejo de Aragón, 607, fol. 27.

وقد قدر عدد الثائرين إذ ذلك ما بين خمسة عشر إلى عشرين ألفاً، تجمعوا في وادي الهار (Valle de Alhar)، الذي كان محصناً بقلاع عدة، وفي أسفله مدينة مورله (Murla)، التي كان يسيطر عليها مائة وستة وثلاثون جندياً نصرانياً، ولما كان الموريسكيون يفتقرون إلى المدفعية، فقد لجأوا إلى محاصرة المنطقة بدلاً من مهاجمتها.

نظمت المقاومة أيضاً في وادي خوكار (Valle de Jucar) في الخامس عشر من تشرين الأول، فقتلوا وكيل الشرطة في قرية دوس – أغوس (Dos - Aguas). وقد كان هذا الوكيل مفوضاً بتنفيذ التهجير. ونجح الفقيه عميرة (Amira) في اشعال نار الثورة في كوفرنتيس (Cofrentes) وخلانثي (Jalance) فتبعه موريسكيو مو يله دي كورتيس (Muela de cortes) وهناك نصبوا عليهم ملكاً كان من أغنيائهم، ومن سكان قرية قتادم (Catadam)، وهي خورنية قريبة من قرية لومباي (Lombay)، وكان اسم ذلك المنتخب تورغي (Turigi)، وكان شجاعاً تزعم مجموعة قوامها ألف مقاتل، وقام بقطع المواصلات المؤدية إلى مو يلة دي كورتيس استعداداً للقتال. وعبثاً حاول حاكم المنطقة في شاطبة (Jativa) فرنسيسكو ميلان (Francisco Milan) التفاوض مع تورغي على أوجه الخلاف بينهما وعرض عليه الأمان، وسمح له بمقابلة نائب الملك لتسوية اقصاء الموريسكيين عن بلنسية[1]. رفض تورغي كل شيء وطلب من نائب الملك تأجيل سفر الموريسكيين إلى فصل الربيع والسماح له ولتابعيه ببيع كل ممتلكاتهم.

لكن الموريسكيين لم يعجبهم هذا الاتفاق وخاصة موقف تورغي فتخلوا عنه. وانتخب المنتفضون في وادي الهار ملكاً آخر كان طحاناً من قرية كونفريدس (Confrides) اسمه خيرونيمو ميليني (Geronimo Millimi). وعرض عليه ضون شانجو دي لونا (Don Sancho de Luna)، قائد الجيش الإسباني بالوكالة طيلة غياب أغسطين ميخيا (Agustin – Mejia)، الاستسلام، لكن الطحان آثر الموت على الخيانة والذلة، إذ كان يتوقع عوناً من موريسكيي الأندلس، لكن انتظاره ذهب عبثاً. وفي هذه الأثناء عاد القائد ميخيا فلم يشأ أن يعرض رجاله للهجوم المميت الذي كان يتطلبه احتلاله ذلك المركز الذي يحتمي به الملك

---

[1] مؤلف موريسكي مجهول صفحة ١٧٥-١٨٠.

الطحان ميليني، وكان ذلك المركز هو قلعة بني موريل (Castillo de Beni Maurel)، وكانت تحوي مع الملك الطحان مجموعة من الأسر استعداداً للهجوم.

وفي النهاية هاجمت جيوش ميخيا الطحان ميليني وجماعته المتحصنين في تلك القلعة الضعيفة يسير أمامهم القائد ميخيا، ليشجعهم، وحاول الموريسكيون المتحصنون بالقلعة اعاقة مسيرهم برمي الحجارة الكبيرة عليهم. وحدث اشتباك عنيف بين الملك ميليني والشاويش فرنسيسكو غالاردو (El Sargento Francisco Gallardo) قتل في أثناء هذه المعركة الملك ميليني، ولما رأى الموريسكيون ما حل بملكهم، فروا ليتحصن بعضهم في قلعة بني موريل (Beni-Maurel)، وظل أغسطين ميخيا يحاصرها ثمانية أيام ثم قطع عنها الماء، فاستسلم الموريسكيون في السادس والعشرين من شهر تشرين الثاني عام ١٦٠٩م جوعاً وعطشاً. وتجدر الاشارة هنا إلى ان أغسطين ميخيا منحهم الأمان إذا هم خرجوا من مخابئهم، فخرجوا متجهين حالا إلى عين الماء وشربوا بشراهة، حتى أن بعضهم مات وهو يشرب، واقتيد من لم يهلك في هذا الحصار للابحار من المملكة، وفي الطريق هاجمهم المسيحيون وقتلوهم رغم كل الأوامر والوعود، وقد بلغ البؤس بالموريسكيين كل مبلغ، حتى أن بعضهم كان يتخلى عن أطفاله للمسيحيين، حتى لا يموتوا جوعاً أو يتعرضوا لأذى أثناء التهجير.

لم تكن نهاية الثورة في مو يلة دي كورتيس ايجابية بالنسبة للموريسكيين كبدايتها، إذ تخلى عنهم كثير من مناصريهم، واستسلموا دون قتال.

أما الملك تورغي فقد أُعيد انتخابه من جديد وانتقل في السادس والعشرين من تشرين الثاني عام ١٦٠٩م. في جماعة من أشداء رجاله إلى خوكار (Jucar)، واستمر في القتال يفاجئ الجنود المسيحيين، ويأخذ منهم كل غرة، وقتل منهم أعداداً لا بأس بها، وامتاز الملك تورغي بسرعة انتقاله التي لا تصدق، ثم أعلن الإسبان عن دفع جائزة كبيرة لمن يأتي برأسه.

وفي السادس من كانون الأول فاجأه موريسكي منصر، يدعى غاسبار بودس (Gaspar Bodes)، منتقماً منه لأن تورغي كان قد ضم ابنته لثورته، فقاد السلطات الإسبانية إلى المغارة التي كان يأوي اليها، فاعتقل، واقتيد إلى بلنسية.

وفي السادس عشر من كانون الأول من العام نفسه أركب على حمار، وطيف به في شوارع بلنسية، ثم قطعوا يده اليمنى، وعذبوه تعذيباً شديداً، فادعى المسيحية محاولة منه للتخلص من هذا التنكيل، بيد أن ذلك لم يغير شيئاً، فمثلوا به، وأعدموه، وعلقوا راسه على باب سان بسنت (San Vicente)، ثم بدأت عملية البحث والتفتيش عن بقية أتباعه في مكامن الجبال، وقد زاد ذلك من حدة جماعته التي كان قوامها أربعمائة رجل، ثم أقنعهم ضون فيليب بيوري (Don Felipe Boiri) بالاذعان والتوقف عن الثورة، ولم يبق منهم - في نهاية عام ١٦٠٩م الا عشرون رجلاً، لم يقبلوا التفاوض، وعجز الجنود الإسبان عن السيطرة عليهم.

ثم أخذ الاخوان سيمون (Simon) وبيدرو ثباتا (Pedro Zapata) على عاتقهما اخراج الموريسكيين من مخابئهم لتهجيرهم من إسبانيا بأمان، فأمضى بيدرو ثلاثة وستين يوماً في الجبال يدعوهم إلى الاستسلام في حين قدم اخوه سيمون نفسه رهينة إلى حاكم الجزائر، ليبرهن للموريسكيين عن حسن نيته بأن لا يلحقهم أي ضرر ثم ذهب، وأخيراً اقتنع هؤلاء بالرحيل عن إسبانيا.

وفي المرحلة الثانية من التهجير، نزل الملك فيليب الثالث عند رغبة نائبه على بلنسية ماركيز كراثينا وآخرين من النبلاء، فصدرت أوامره بتهجير كل من زاد عمره على الثانية عشرة.

بيد أن البطريرك خوان دي ريبيرا، أصر على ان يهجر كل من تجاوز السابعة شريطة أن ينصر الباقون ثانية، خشية أن يكون تنصيرهم الأول زائفاً[1].

---

[1] عن ثورة وادي الهار انظر كتاب مؤلف موريسكي مجهول، صفحة ١٧٥-١٨٠.

يلاحظ الدارس أن الموريسكيين – رغم الضغوط التي كانوا يرزحون تحتها، من تهجير وتنكيل وقتل وسجن وحرق وقلة عدد وعدة – استمروا ينتفضون بين حين وآخر انتفاضات مشرفة، ويقدمون تضحيات لا تنسى، تزين وجه التاريخ العربي، وتصلح للاقتداء، إذ كان القادة فيها يتقدمون جنودهم في ساحات الوغى ضاربين أروع الأمثلة.

هذا، ولم يجد الباحث معلومات كافية عن السكان وأماكن سكناهم لقلة المنشور حول ذلك، علماً بأن (Pierre Chaunu) يقول: أن الموريسكيين كانوا موزعين ما بين لقنت وبلنسية من جهة وسرقسطة من جهة ثانية، ويقدر عدد هؤلاء الموريسكين بحوالي (٢٠٠,٠٠٠) نسمة[(١)] . ويقدر رامون كراندي (Ramon Garande) عام ١٥١٠م عدد السكان من اسبان وموريسكيين في مملكة بلنسية بـ (٢٧٢,٧٧٥) شخصاً بينما تبين الاحصاءات الدقيقة التي نشرها بورنات (Boronant Barrachina) أن عدد بيوت الإسبان والموريسكيين في مملكة بلنسية بلغ (٨٤,٥٠٤). وهي ما تم احصاؤه في النصف الأول من القرن السادس عشر الميلادي، ويؤكد مونيث غافيرا (Munoz Gavira) ان عدد بيوت الإسبان والموريسكيين في نهاية القرن السادس عشر قد بلغت (١٠١,٧٩٢) بيتاً أي (٥١٠,٠٠٠) شخص وذلك باتباع المعدل نفسه في الاحصاءات السابقة[(٢)] .

بينما جاء في معلومات توماس غونثالث (Tomas Gonzalez) التي نظمها رويث المانثا (Ruiz Almansa) حديثاً أن عدد السكان الاجمالي لمملكة بلنسية من اسبانيين وموريسكيين يتراوح ما بين (٩٧,٣٠٠) إلى (٤٨٦,٠٠٠) شخص عام ١٦٠٩م. لكن مذكرات ايبانيس (Ibanez) الشهيرة تقول أنه كان في بلنسية قبل تهجير الموريسكيين (٩٢,٤٠٠) بيت أي ما يقارب (٤٦٢,٠٠٠) شخص.

ولدى مقارنة المعلومات السابقة يتبين أن عدد السكان في مملكة بلنسية كان قرابة (٥٠٠,٠٠٠) شخص قبل التهجير وهو ما يعادل عدد سكان المملكة في بداية القرن السابع عشر الميلادي. وهذا يعني أن عدد سكان تلك المملكة لم يزد على ما يعادل عدد المهجرين منها خلال قرن كامل من الزمان.

---

(1) Pierre chaunu, Minorites et conjoncture, L'expulsion, des Morisques en 1609, Revue Historique, 1961, Pág. 90.

(2) J. Muñoz Gavira, Historia del alzamiento de Los moriscos, su expulsión de España y consecuencias en todas Las provincias del reino, Madrid, 1861, Pág. 157.

أما العناصر الموريسكية فيبين بورنات (Boronat) في احصائه المذكور سابقاً أن عدد بيوتهم كان (٣١,٨١٥) بيتاً أي ما يعادل (١٦٠,٠٠٠) نسمة، بينما يبين رويث المانسا في معلوماته الخاصة عن عام ١٦٠٩م. ما يلي:

كان في مملكة بلنسية للموريسكيين (٣٢,٤٠٠) بيت أي ما يعادل (١٦٢,٠٠٠) نسمة بينما يبين مونيوث غافيرا (Munoz Gavira) أن عدد البيوت الموريسكية كان (٢٨,٠٧١) بيتاً وتيودور يورنتي (Teodoro L Lorente) يبين أن عددها كان (٢٨,٠٧٢) بيتاً[١] . ويوضح أبانيس (Ibanez) أنها كانت (٢٨,٧٠٠) بيت ومما يلفت الانتباه أن هذا البيان الأخير صاغه كاتب محلي توفر له كثير من المعلومات يقدر أن عدد الموريسكيين كان يتراوح ما بين (١٦٠,٠٠٠) إلى (١٧٠,٠٠٠) نسمة أي بنسبة ٣٤% من مجموع السكان.

واستقر الرأي على أن عدد الموريسكيين المهجرين من بلنسية منذ عام ١٦٠٩م كان حوالي (١٥٠,٠٠٠) نسمة. يستثنى قرار التهجير، الذي اصدره ماركيز دي كراثينا في الثاني والعشرين من أيلول عام ١٦٠٩م في مادته الخامسة، بقاء ٦% من الموريسكيين ليقوموا بتعليم بعض أمور الزراعة للسكان الجدد[٢] . لكن الملك فيليب الثالث الغى هذا البند الذي كان أصحاب الأراضي قد قبلوه، كذلك كان دوق ليرما يقاومه منذ اللحظة الأولى.

وفي الثالث والعشرين من تشرين الأول عام ١٦٠٩م. توجه ماركيز دي كراثينا إلى الملك طالباً الغاء هذا البند. ثم تسلم البطريرك دي ريبيرا رسالة من الملك فيليب الثالث يعلن فيها (اشارة إلى ما تقولون أرى من الأنسب عدم ابقاء احد من الموريسكيين لأن الأرض يمكن أن تفلح بدونهم. وبذلك أصدرت أوامري كما فهمتم من الماركيز دي كراثينا)[٣] .

---

(1) Llorente (Teodoro) Valencia, Barcelona, 1887, Tomo I Pág. 153.
(2) Marcelino MENENDEZ Y PELAYO: Historia de los heterodoxos españoles. 2a edicion. Tomo V. Madrid 1.928. Capt. 3. Pág. 330.
(3) Bornat, Los moriscos, II Pág. 222.

وفي التاسع من كانون الثاني عام ١٦١٠م وقع القرار الذي الغى تلك الاستثناءات التي تتضمن ابقاء ٦% من الموريسكيين وبرر الالغاء بأسباب دينية.

وبعد ثلاثة أيام على نشر القرار الذي نص: أن على كل موريسكي تجاوز الثانية عشرة من عمره أن يقبل هذه القرارات ويسمح لهم – لقاء ذلك – بالبقاء في مملكة بلنسية، وذلك البقاء خاص بأولئك الذين حصلوا على ترخيص من صاحب السعادة (أسقف بلنسية بسبس دي طرطوشة) (Bisbes de Tortosa) وسيغوربي (Segorbe) وأريولا (Oriola) وعلى الباقين الانتقال إلى مدينة لقنت (Alicante) أو إلى دانية (Denia) أو إلى غراو (Grau).

أما أطفال الموريسكيين فقد سمح بالبقاء لمن قلت أعمارهم عن السابعة منهم بشكل نهائي وتهجير كل من زاد عمره على ذلك.

وفي بداية نيسان عام ١٦١٠م أكد ماركيز دي كراثينا أن عدد الأطفال الباقين الذين أعمارهم دون السابعة بلغ (١٨٣٢) طفلاً، وهذا الرقم – ان صح – يدل على أن أعداداً كبيرة من الأطفال دون السابعة قد هجروا مع آبائهم. ووضع أبناء الموريسكيين وبناتهم الذين كانوا ما يزالون في إسبانيا طبقاً للقرار تحت رقابة مشددة يمارسها عليهم كهنة تعينهم الكنيسة حتى يبلغ الواحد منهم اثنتي عشرة سنة، وبعدئذٍ كانوا يرسلون خدماً في بيوت النبلاء والأغنياء أو لخدمة الأديرة والكنائس. أما الاستثناءات الأخرى الواردة في القرار الصادر في الثاني والعشرين من أيلول عام ١٦٠٩م فقد أكدت في قرار صدر في التاسع من كانون الثاني عام ١٦١٠م، ولأنه شمل عدداً قليلاً من الموريسكيين فقد ساهم بشكل كبير في انتفاضة الموريسكيين في مويلة دي كورتيس (Muela de cortes)، وقد كان لدى السلطات الكنسية قناعة تامة بكراهية الموريسكيين وعنادهم ازاء الايمان الكاثوليكي وبكراهيتهم للملك فيليب الثالث ورغبتهم الملحة في الخضوع لأي حاكم آخر يمنحهم العيش بحرية.

ويتضح أن البندين الحادي عشر والثاني عشر اللذين كانا يستثنيان أعداداً قليلة من الموريسكيين قد ألغيا في كانون الثاني عام ١٦١٠م، ويعرف أنه كان في بلنسية بعد التهجير مجموعة من الموريسكيين، وأن بعضهم قد عاد إلى المدينة. وعلى الرغم من ذلك

كله فقد استمرت علاقات سرية بين الأسر المتبقية في إسبانيا من الموريسكيين والمسلمين الذين كانوا خارجها حتى أواخر القرن الثامن عشر الميلادي.

في الحادي عشر من أيار عام ١٦١٠م ارسل المجلس الملكي في بلنسية إلى الملك بياناً مهماً حول سبعمائة موريسكي تم ابقاؤهم للحاجة الماسة اليهم حيث أن المسيحيين القدامى لم يكن بينهم من يعرف أموراً كثيرة مثل الري والاشراف على السواقي وتقطيع الأراضي وصناعة السكر وزراعة الأرز وانتاج الحرير وحصاد القنب وجمع الزيتون لنقص الأيدي العاملة ولقلة الفنيين في هذه الأمور بعد التهجير، علماً بأن الموريسكيين كانوا يعملون في هذه المجالات ليل نهار، وكان بقاؤهم داخل مملكة بلنسية يعتبر بصفة رقيق.

ولم تبدأ عمليات التهجير للموريسكيين في عهد الملك فيليب الثالث إلا بعد أن أعتلى العرش باحدى عشرة سنة، وقد بدأ التهجير من مملكة بلنسية عام ١٦٠٩م، وقد قدر ليبري أن عددهم في تلك المملكة يعادل نصف عددهم في مختلف أجزاء شبه جزيرة ايبيريا عامة. لذلك اعتبر وجودهم في مملكة بلنسية أخطر بكثير منه في بقية المقاطعات.

ويتبين أن عدد الموريسكيين في شبه الجزيرة عام ١٦٠٩م كان يعادل (٣٠٠,٠٠٠) نسمة هجر منهم (٢٧٥,٠٠٠) نسمة[١]. ثم توالت عمليات التهجير فشملت موريسكيي غرناطة فمرسية فالأندلس بشكل عام[٢].

ويمكن اعتبار موريسكيي بلنسية ثلاث مجموعات:

١- المجموعة الأولى: هم أولئك الذين ما إن سمعوا بالمرسوم الملكي حتى بادروا بالتوجه إلى الموانئ المحددة، هاجرين إسبانيا مظهرين فرحتهم[٣]

---

(1) Henry Lapeyre, La Géographie de L' Espagne morisque (Paris, 1959), Pags 204-206.

(2) Andrés Sanchez pérez, Los moriscos de hornachos corsarios de salé, Revista de estudios extremeños, año 1964, Tomo XX, Num I Badajoz, V Pags 125-127.

(٣) أرسل بطريرك بلنسية رسالة إلى الملك يخبره أن عملية التهجير تجري بحالة ممتازة لأن الظروف مواتية شبيهة بالمعجزة، حيث أن الموريسكيين يظهرون فرحتهم وسرورهم بالهجرة وكذلك النبلاء برهنوا على أنهم في غبطة، الجميع اقتنع ان قراراتكم كانت هي الصواب.

أنظر:

- 1609. 23 de deciembre, valencia, Archivo de La corona de Aragón, Consejo de Aragon, 607, fol. 26.

غير آسفين ولا عابئين، بعد أن كانوا قد تخلوا عن عقاراتهم على اثر تسرب المعلومات السرية اليهم، فلم يكن المرسوم غريباً لديهم أبداً.

وقد أرسل ماركيز كراثينا - نائب الملك في بلنسية - رسالة إلى الملك فيليب الثالث يبين أن هؤلاء قد تركوا أراضي واسعة في أطراف بلنسية وأحوازها، وكان الملك قد أمر بأن تعود ملكية تلك الأراضي إلى النبلاء. وطلب الماركيز في رسالته تحقيق رغبة النبلاء في امتلاك الأراضي الأميرية العائدة للدولة ويطالب الماركيز بمعرفة رأي الملك بهذا الصدد(1).

كما بعث نائب الملك في بلنسية إلى الملك فيليب الثالث يستفسر عن ديون هذه المجموعة ويبلغه عن رأي البطريرك ريبيرا والذي فحواه "أن تهجير الموريسكيين له خير أثر على البلاد والديانة النصرانية، وأن على الموريسكيين أن يدفعوا ديونهم قبل التهجير أما حقوقهم فيأخذها النبلاء"(2).

٢- المجموعة الثانية: وهم الذين عزت عليهم مفارقة الوطن الذي عاشوا به صباهم وذكرياتهم، فعرضوا على السلطات اعتناق المسيحية بدل التهجير، أو العمل الشاق بالسفن، أو أي اختيار ترتضيه السلطات بيد أن رغبتهم لم تجد اذناً صاغية، لدى أصحاب القرار في السلطة، فلوحت لهم بالمطاردة والاضطهاد ان لم ينفذوا بنود المرسوم بنداً بنداً، فلجأوا إلى ثورة وادي الهار آنفة الذكر.

٣- المجموعة الثالثة: الموريسكيون المستثنون من هذا المرسوم وهم الذين ظلوا في بلنسية باسم المسيحيين الجدد. وحتى هؤلاء فإن ثائرة محاكم

---

(1) 609. 23 de deciembre, valencia, Archivo de La corona de Aragón, Consejo de Aragon, 607, fol. 25.
(2) 1609. 23 de diciembre, valencia Archivo de La corona de Aragón, Consejo de Aragon, 607, fol. 24.

التفتيش لم تهدأ تجاههم، ولم تتوان لحظة عن ايذائهم بشكل بربري يهدف إلى القضاء عليهم بشكل تام، لأن السلطات اعتبرت الموريسكيين أعداء للدين والملّة والوطن والملك، فحفزت قدماء المسيحيين لمضايقتهم في كل مكان، انتقاماً وعقاباً حتى لو غدوا مسيحيين مثلهم. ومن أفظع ما استعمل لاثارة هؤلاء المسيحيين الجدد – لكي يتخلصوا منهم -- شتم الرسول محمد (صلعم) واهانة الدين الاسلامي ومعتقداته أمامهم، ليتبينوا صدق ايمانهم، وكثيراً ما كان يؤدي هذا السلوك الشائن إلى اثارة كوامن اولئك المسيحيين الجدد وعقائدهم الراسخة، فيدافعون عن دينهم الأصيل في نفوسهم مهما كلفهم الأمر، على الرغم من أنهم كانوا يعلمون علم اليقين أن ذلك الدفاع سيوقع بهم أشد العقوبات ايذاء كالالقاء بهم في محارق محاكم التفتيش طعمة للنيران دونما رحمة أو شفقة.

ومن أساليب اثارتهم ارغامهم على حضور القداس الديني في الكنائس ايام الأحد والأعياد المسيحية والصلوات والركوع لدى مرور الصليب، وارغامهم على التوجه إلى الاديرة والكنائس عند قرع النواقيس، واجبار نسائهم على التزيي بزي المسيحيات القديمات عند سيرهن في الشوارع والطرقات العامة، دون حجاب أو خمار، وكانوا يرغمونهم على شرب الخمر وأكل لحم الخنزير وحظر بيعهم لحم الضأن والبقر والدواجن لكي يرغموا على أكل لحم الخنزير.

وظلت الحالة تزداد سوء يوماً بعد يوم، حتى انزوى المسيحيون الجدد في بيوتهم، ولم يعودوا يخرجون منها إلا للضرورة القصوى نأياً بأنفسهم عن شرور المسيحيين القدماء[1]. وعلى الرغم من ذلك الانزواء لم ينجوا من السطو على منازلهم واختطاف أبنائهم وبناتهم وانتهاك أعراض زوجاتهم واغتصاب بناتهم، دون وازع من ضمير أو رادع من دين او سلطة، حتى غدا المسيحيون الجدد – في معظمهم – يتمنون الموت على

(1) Escolano, Gaspar: Décadas de La insigne, y coronada ciudad y Reyno de valencia, Valencia, 1878-80, Libro x, Capitulo 47.

الحياة، ويفرون لدى أول فرصة إلى فرنسا أو أي مكان آخر، هرباً من هذا الوضع الذي تقشعر له الأبدان، ويندى له وجه الإنسانية، ويرفضه أي دين، فكانوا يبيعون ممتلكاتهم بأبخس الأثمان وقد بلغت قيمة ما باعوا مليون دوقية هربوها إلى خارج البلاد، بمساعدة النبلاء. وما أن علم الماركيز دي كراثينا بتهريب هذا المبلغ الضخم من بلنسية، حتى منع بيع الموريسكيين ممتلكاتهم، ومنع الإسبان أن يشتروها منهم.

ويلحظ الباحث – لدى تمعنه في هذه الحقبة التاريخية – أن الموريسكيين كانوا يكنّون للنبلاء الوفاء والاخلاص، ولا سيما في بلنسية. أما النبلاء، فتفاوت مستوى علاقتهم بالموريسكيين، فمنهم من بادل الموريسكيين اخلاصاً باخلاص، فتألم لما ألم بهم، من إجحاف المراسيم، وحاول جاهداً أن يغير تلك الأوضاع السيئة، ولما لم يسعفهم الحظ، رافق بعضهم الموريسكيين إلى الموانئ، حتى يكونوا في مأمن ما داموا في إسبانيا. ومنهم دوق غانديا (El Duque de Gandia) وماركيز البيضاء (El Marques de Albaida) وكندي الماي (El Conde de Almay) وكندي بنيول (El Conde de Bunol) وكندي كونثنتيانا (El conde de Concentaina). كما أن دوق ماكيدا (El Duque de Maqueda) رافقهم من أسبي (Aspe) وكريفينتي (Crevillente) حتى وصلوا إلى وهران[1] ، تعبيراً عن حبه وتفانيه في الصداقة المتبادلة. ومنهم من كانت علاقته مبنية على الزيف والخداع وعلى المصالح، تدور معها حيث دارت فلم يكن تودده للموريسكيين الا جلباً للمنافع على الصعيد العام، فقد استمر بعضهم يتودد للموريسكيين، حتى يكتشف مخابئ أموالهم، ويعرف الكمية الحقيقية لتلك الأموال، ليلاحقهم رجاله فيقتلوهم وينهبوهم، فلم يكن مطمعهم الا بالثراء أياً كانت الوسيلة.

ومن الأمور التي أثرت على علاقة الموريسكيين وقدماء المسيحيين الزواج المختلط، فقد توالت المراسيم الملكية منذ عهد الملكين الكاثوليكيين مروراً بالملكة خوانا المعتوهة والامبراطور شارل الخامس والملك فيليب الثاني، حتى عهد الملك فيليب الثالث حول هذا الموضوع، وكلها كانت تحاول أن تزيد من هذا الزواج المختلط، فتزوج الموريسكي اسبانية، وتزوج الإسباني موريسكية، وتفاقم اثر هذا الزواج المختلط، لا سيما

---

(١) أنظر كتاب: مؤلف موريسكي مجهول، صفحة ١٧٢.

في عهد الملك فيليب الثالث على الموريسكيين الباقين في بلنسية الذين عاشوا تحت شعار الكاثوليكية، فازدادت مراقبة رجال الدين لهم، وكثرت العيون عليهم لمراقبة عقيدتهم؛ فكان كثير من الأزواج الإسبان يوقعون بزوجاتهم بين أنياب محاكم التفتيش بتهمة دينية، ربما لا يكون أساسها أكثر من خلاف زوجي عادي، وكثيراً ما كانت تفعل ذلك الزوجات الإسبانيات بأزواجهن الموريسكيين خلافاً للقلة القليلة من الإسبان الذين مست الشفقة شغاف قلوبهم، وأخذتهم الرحمة والمحبة.

وعلى أي حال فلقد زج - من جراء تلك الوشايات الزوجية - بأعداد كبيرة من الموريسكيين والموريسكيات في غياهب السجون، أما من لم يزج به في السجون فكان يعفى عنه شريطة أن يهجر من البلاد محروماً من الحنان الأسري.

ثم أن هذا الزواج المختلط أفرز جيلاً جديداً قليل التدين وضعيف المعرفة بالدين الاسلامي لكثرة ما قضى من عمره في أحضان الأديرة والكنائس، ولكثرة ما شوه معتقده بتلقين رجالات الدين لا سيما أن الأمهات والأباء المسلمين لم تكن تتاح لهم الفرصة - الا لماماً - ليعلموا أبناءهم بعض شكليات الدين الاسلامي ناهيك عن جوهر العقيدة.

لقد خرج من بلنسية ما بين ٢٦ تشرين الأول ١٦٠٩م حتى آذار ١٦١٠م قرابة مائة وخمسين ألف موريسكي ولم يصل أكثر من نصفهم الموانئ التي أبحروا اليها[١]. إذ قتل الجنود والبحارة أعداداً كبيرة منهم[٢]، واستولى الملك على ممتلكات الموريسكيين المعتقلين واسلحتهم التي وجدوها بأيديهم وأرسل من ألقي عليه القبض منهم للتجديف في السفن.

---

[١] مؤلف موريسكي مجهول صفحة ١٨٠.

[٢] يشير نائب الملك في قطلونية دوق مونتيليون Duque de Monteleon إلى القضية الخيانية التي بت بها القاضي ميسي ميغيل سالا (Micer Miguel Sala) (Micer= لقب تشريفي في ارغون) في البلاط الملكي والتي تنص على ان البحار خوان ريبرا Joan Riera وآخرون قد قتلوا اعداداً كبيرة من الموريسكيين ونهبوا أموالهم في أثناء التهجير.

أنظر:

-1610. 5 de Febrero, Barcelona Archivo de La corona de Aragon, Registro de Cancilleria, 5210, fol. 6.

وارسل المأمور القضائي في كايوسا – بلنسية رسالة إلى الملك فيليب الثالث يخبره فيها بأن موريسكيا واحداً كان يعيش في بلدة كايوسا مدة اثني عشر عاماً لم يشارك الموريسكيين في أفراحهم ولا في أتراحهم وكان يملك مجموعة من الحواكير تزرع بالقنب والزيتون بالاضافة إلى بيت كبير، ولما كان منعزلاً عن الموريسكيين تماماً فقد عرضوا عليه البقاء دون أن يشمله قرار التهجير الا أنه أبى وتخلى عن كل ممتلكاته التي تصل قيمتها إلى (٤٠٠٠) بزيتة من القطع الذهبية[1].

وظهرت عواقب تهجير الموريسكيين الوخيمة على بلنسية خاصة وعلى البلاد عامة، لكن فظاعتها لم تثن ليرما عن الاستمرار في تهجيرهم لأنه قد أثرى من جرّاء ذلك اثراء عظيماً، وكان دائماً يستغل القرارات السياسية الكبيرة لمصلحته الخاصة، فقد نال من بيع بيوت الموريسكيين خمسة آلاف دوقية أي ما يعادل خمسة ملايين ريال، ولدى نقله العاصمة إلى مدريد عام ١٦٠٧م نال في السنوات السابقة على النقل مبلغ ثلاثة ملايين ريال، وكانت بلدية مدريد تدفع من أموالها الخاصة أجرة البيوت التي كان يسكنها دوق ليرما وأولاده.

تهجير الموريسكيين من مرسية والاندلس وقشتالة

أما في مرسية والأندلس وقشتالة فقد كانت الأمور شبيهة بما مر، ففي التاسع من كانون الأول عام ١٦٠٩م. وقع الملك فيليب الثالث على قرار يقضي بتهجير الموريسكيين غير ان نشره لم يتم الا في العاشر من كانون الثاني عام ١٦١٠م. اذ نشره ضون لويس فخاردو (Don Luis Fajardo). واستثني موريسكيو وادي ريقوتي (Ricote) من التهجير مبدئياً بقرار صدر في الثامن عشر من كانون الثاني عام ١٦١٠م. وذلك كجزء من سياسة السلطة الحاكمة الرامية إلى تهجير الموريسكيين على دفعات خشية تفجر موقف الموريسكيين وما ينجم عنه من نتائج سلبية ذات عواقب وخيمة بالنسبة للاسبان.

---

[1] 1611. Octubre, Valencia, Archivo de La corona de Aragon Consejo de Aragon, 607, fol. 7.

وفي الثامن من تشرين الأول عام ١٦١٦م. اصدر الملك فيليب الثالث مرسوماً يقضي بتهجير كل الموريسكيين من مملكته وامهلهم مدة ثلاثين يوماً من تاريخه فالتجأ موريسكيو وادي ريقوتي إلى بلنسية[١] .

أما غرناطة فقد تقرر تهجير موريسكيّها في الخامس من تشرين الأول عام ١٦٠٩م. كما تزامن ذلك مع تهجير المدجنين من اروناتش (بطليوس). وفي هذه السنة تم تعيين حاكمين يشرفان على ادارة الاقاليم التابعة للتاج القشتالي المختلفة هما:-

١- ضون بيرناردينو البلاسكي (Don Bernardino de Velasco) كونت دي سلاثار في قشتالة القديمة.
٢- ضون الونصودي سوتومايور (Don Alonso de Soto Mayor) في مملكة طليطلة، لامنتشا واسترمادورا.

ومن خلال علاقة هذين الحاكمين بالمجلس الملكي خططت وجهزت عمليات التهجير. فنشر مرسوم التهجير في مدينة اشبيلية في الثاني عشر من كانون الثاني عام ١٦١٠م. وقد كان المجموع الاجمالي للمهجرين ٦٤٠٠٠ موريسكي اضافة إلى ٦٠٠٠ موريسكي اخرجوا من حقول قلعة رباح (Calatrava) وكان قرار النفي يسمح للموريسكيين ان يحملوا معهم ممتلكاتهم المنقولة او ان يبيعوها خلافاً لممتلكاتهم غير المنقولة، فكانت تحت اشراف المالية الملكية. بيد أنه قد حظر عليهم ان يحملوا ذهباً او فضة أو مجوهرات او سندات ثمناً لمبيعاتهم من الانتاج الحيواني والزراعي، وفرض عليهم ان يحملوا ثمنها على شكل مواد اخرى غير ممنوعة على ان يدفعوا عليها رسوماً جمركية[٢]. وانما سمح لهم ان يحملوا من النقود ما يكفيهم في السفر فحسب، كما لم يكن يسمح لهم بالمغادرة من الأندلس ومرسيه وبلنسية ولا من ارغون.

وأمر دوق مدينة سيدونيا أن تهجر اربع وثلاثون اسرة موريسكية من انتقيره واستجه ورنده إلى فرنسا عن طريق ارون (Irun)، ومن ميناء هَافِر (Havre) بفرنسا يتجه

---

(1) Juan REGLA: Obra citada, Pags. 403-406.
(2) Antonio DOMINGUEZ ORITZ y Bernard VINCENT: Obra citada Pags. 186-187.

المهجرون بحراً إلى اغادير في المغرب في تموز عام ١٦٠٩م. وتقرر أن يمر فريق آخر من المهجرين عن طريق مالقة إلى افريقيا مباشرة[١] . وفي السادس والعشرين من كانون الأول من العام نفسه هجرت تسع وثلاثون اسرة موريسكية من سان لوشار (Lucar) وشريش (Jerez) إلى قادش بحراً باتجاه جزر الكناري[٢] .

أما خطط دوق مدينة سيدونيا والماركيز دي سان جرمان (Duque de Medina Sidonia y del Marques de San German) فكانت تقضي ان يهجر موريسكيو اشبيلة بحراً باستثناء اتباع دوق دي اركش ودوق مدينة سيدونيا ودوق القلعة الذين تقرر تهجيرهم من طريف (Tarifa).

أما موريسكيو غرناطة فقد تم توزيعهم على موانئ جبل طارق ومالقة وقرطاجنة[٣] . وتم ابحارهم من اشبيلية في السابع والعشرين من كانون الثاني عام ١٦١٠م. وكان عدد الموريسكيين الذين هجروا عن طريق البحر (١٨٤٧١) موريسكياً. وفي الأول من شباط من العام نفسه ابحرت اربع عشرة سفينة تحمل (٢٥٢٧) موريسكياً تبعهم في الثامن عشر من الشهر نفسه (٤٠٢٥) موريسكياً[٤] آخرون. ومن بين الذين هجروا بحراً نحو (٩٥٠٠) موريسكي، قدموا من ولبة واشبيلية، ومن مقاطعة قرطبة واجزاء من استرامادورا (من مقاطعة بطليوس) ما بين خمسة الاف إلى ستة الاف موريسكي[٥] .

وقد ابحر كثير من موريسكيي الاندلس الشرقية من ميناء مالقة. ويقول توماس غونثالث[٦]: "ان عدد الموريسكيين الذين هجروا حسب رأي مجموعة من المؤرخين (١٢٩١٢) موريسكيا، وان الذين ابحروا من مالقة لاقوا اسوأ انواع التعذيب وسوء المعاملة". وبعامة فقد خرج من مملكة غرناطة حوالي (٣١٠٠٠) موريسكي موزعين على النحو التالي:-

---

(1) Archivo de Simancas. Estado Leg. 2.639: Sesion del Consejo de Estado del 30-8-1. 609.
(2) Archivo de Simancas. Estado Leg. 228-20: Minuta de la Sesioñ del Consejo del 9-1-1.610.
(3) Archivo de Simancas: Estado, leg. 215.
(4) Archivo de Simancas: Estado, leg. 220: El marques de San German a S.M. Sevilla 1-2-1.610.
(5) Jaime BLEDA: Defensio Fidei in causa neophytorum, sive Morischorum Regni Valentiae, totiusque H. paniae...valencia 1.610. Pags. 523-524.
(6) Tomas' GONZALEZ: Censo de Poblacion de las provincias y partidos de la Corona de Castilla en el siglo XVI, can varios apendices Para completar la del resto de la Peninsula. Madrid 1.892. Pag. 111.

١٨٤٧١	موريسكيا	من اشبيلية
١٢٩١٢	موريسكيا	من مالقة
٤٠٠-٥٠٠	موريسكي	من جبل طارق وطريف

تدل أقوال المؤرخين على أنه قد خرج من الأندلس بعامة ثمانون الف موريسكي تقريباً، خرج منهم عشرون الفاً بعد المرسوم مباشرة وستون الفا آخرين هجرهم الماركيز دي سان جرمان. ويقول سيرانو سانز[١]: "انما هجر من الأندلس (٢١٦١٧) موريسكيا فقط". بيد أن لبيري يقول[٢]: "يجب ان يضاف ١٩٥٨ موريسكيا من مقاطعات مختلفة و (١١٢) شخصاً تم احصاؤهم دون ان يطردوا في اربعة مراكز". وهناك وثائق مخطوطة في مكتبة شنت منكش[٣] تسمح باضافة (٣٩٠) شخصاً آخرين و (٤١٧٦) موريسكيا كانوا يقيمون في قرطبة سنة ١٥٨٩م. والفي شخص في أماكن اخرى. وهذا يعطي رقماً اجمالياً قوامه ثلاثون الف موريسكي.

اما فيما يتعلق بالموريسكيين الذين كانوا يقيمون في كور قشتالة، فقد توجهوا إلى شمالي شبه جزيرة ايبيريا، ومنها هاجروا عن طريق فرنسا، فيقول مؤرخ من ذلك العصر مر ثلاثون الف تقريباً من برغش (Burgos) وينبئنا الكونت سلاثار (El conde de Salazar) الذي قام بعملية التهجير بما يلي:-

في الثلاثين من شهر نيسان عام ١٦١٠م. خرج (١٦٧١٣) موريسكيا من الأماكن التالية[٤]:

١١١٩	موريسكيا من بلد الوليد	Valladolid
٣٧٨٩	موريسكيا من طليطلة	Toledo
١٢٠٦	موريسكيون من القلعة (قلعة ابن عبدالسلام)	Alcala de Henares
٢٢١٤	موريسكيا من باسترانا	Pastrana
١٥١٨	موريسكيا من اوكانيا	Ocana
١٧١	موريسكيا من مجريط	Madrid

(1) SERRANO SANZ (M): Nuevos documentos sobre la expulsioñ de los moriscos andaluces. Revista Contemporanea. Tomo XC (1.893). Pags. 113-127. (Utiliza los manuscritos No 9577 y 18647 de la Biblioteca Nacional de Madrid).
(2) Henri LAPEYRE: Geographie de l'Espagne morisque. S. E. V. P. E. N. 1.959. Pag. 146.
(3) Archivo de Simancas, Estado, leg. 216.
(4) Henri LAPEYRE: Geographie de l'Espagne morisque. S. E. V. P. E. N. 1.959. Apendices IX y X.

ونشر في العاشر من تمــوز عــام ١٦١٠م. مرســوم ملكــي يمهلــهم ســتين يوماً ليخرجوا من قشتالة ويحظر عليــهم الخــروج مــن موانــئ مرســية وغرناطــة والأندلس[١]. وفي أيلول من العام نفسه خرجت ثمان وخمسون اســرة موريســكية مــن بلازيا (Palencia) وتسعون اسرة من شلمنقة (Salamanca) وثلاثون اســرة مــن مدجنــي بلد الوليــد واربعــون اســرة موريســكية مــن قونقــة وويتــي (Huete) ومجموعــات أخرى[٢] .

وفي كانون الثاني عام ١٦١١م. خرجت تسع عشــرة اســرة موريســكية مــن تورو (Toro) وخمس وثلاثون اسرة مــن المدجنيــن القــاطنين فــي اريفــالو (Arevalo) وثلاث وثلاثون اســرة موريســكية مــن شــقورة وليــون (Segura y Leoñ) واحــدى وعشرون اسرة موريسكية من شريش (Jerez) وبطليــوس (Badajoz) واربــع وعشــرون اسرة موريسكية من بني القصر (Benakazar) وكانت المجموعات المهجرة الأكــثر عــدداً من الكرز (Alcaraz) ومــن المعــدن (Almadeñ) نحــو قرطاجنــة (Cartagena) فكــانوا مائتين وتسعين اسرة موريسكية. ويجــب ان يضــاف إلــى قشــتالة (Castilla) (١٥١١) اسرة موريسكية بينهم (٧٤٤) اسرة موريسكية قديمة كانت تقطــن قريــة اويــا (Hoya) مالقة. كما جاءت مجموعات اخرى مــن ســرفيرا (Cervera) واغيــلار (Aguilar) مــن احواز ريوخا (Rioja) ومجريط (Madrid).

ورغم كل ما سبق من تهجير الموريسكيين فقــد ظــل فــي غرناطــة خمســون اسرة موريسكية وعائلات اخرى ظلــت فــي بنكرنثيــا (Benquerencia) ومغــاثيلا فــي استرامادورا[٣].

---

(1) Texto de Guadalajara: prodicioñ y destierro. Fols. 31 Vo 32 Vo Aparece en Florencio JANER: Condicioñ social de los moriscos de Españo. Madrid 1.857. Pag. 342.
(2) Archivo de simancas, Estado, leg. 235: relacion del conde de Salazar, en el Escorial 29-9-1610.
(3) Archivo de Simancas, Estado, leg. 235: relacion de los moriscos que han quedado, granadinos y antiguos en Castilla la Vieja y la Nueva, La Mancha y Extremadura.

تهجير الموريسكيين من ارغون وقتلونية

لم تختلف الأوضاع كثيراً في ارغون وقتلونية عنها في مرسية والاندلس وقشتالة. فقد كان معظم الموريسكيين في أرغون يشتغلون بالفلاحة والزراعة التي يعود نماؤها إلى الطبقة الارستقراطية الاقطاعية أي طبقة النبلاء، بينما كان موريسكيو بقية المناطق يزاولون مهناً أكثر استقلالاً ومن أمثلة تلك المهن حذو الخيل ورعي المواشي والعمل بالتجارة المتجولة وغير ذلك. وقد زاد من حاجة الطبقة الارستقراطية إلى حماية الموريسكيين امران هما: مطاردة محاكم التفتيش، والحاجة الاقتصادية التي كان يسديها الموريسكيون لهذه الطبقة. ولما صدر قرار تهجير الموريسكيين من بلنسية علم ١٦٠٩م. شعر موريسكيو ارغون بالقلق والخوف على انفسهم فباعوا اراضيهم وممتلكاتهم بأثمان بخسة واستنكفوا عن العمل، وهاجر بعضهم إلى فرنسا. وكان هذا الجو المشحون مقدمة وقع الملك فيليب الثالث على أساسها قرار التهجير من بلد الوليد في السابع عشر من نيسان عام ١٦١٠م. وتم نشره في سرقسطة في التاسع والعشرين من ايار من العام نفسه. ثم صدر القرار بتهجير جميع الموريسكيين الا الاطفال الذين دون سن الرابعة وهدد بعقوبة الاعدام لكل من تسول له نفسه الهرب والاختفاء في مناطق اخرى من شبه جزيرة ايبيريا او احراق ممتلكاته أو اتلافها لدى العجز عن بيعها. كذلك لوح بعقوبات رادعة لكل نصراني يساعد موريسكيا او يحاول الاحتفاظ بممتلكاته(1) . بعدئذ كان على الموريسكيين ان يوزعوا في خمس وثلاثين مجموعة، وحدد ترتيب تواريخ تهجيرهم بدقة إلى حدود ارغون الشرقية. خرج اكثرهم من ميناء الفاكس (طركونة). فخول الملك فيليب الثالث ضون اغسطين ميخيا (Don Agustin Mejia) ليقوم بتهجير ثلة من اولئك الموريسكيين إلى فرنسا. فخرج منهم (٢٢٥٣٢) موريسكيا عن طريق بيرة (Vera)، ورونسفال (Roncesvalles) وسمبورت (Somport) كذلك خرج عشرة آلاف موريسكي من نبرة (Navarra) واثنا عشر إلى أربعة عشر الف موريسكي عن طريق ميناء كان فرانك (Canfranc). فكان مجموع عدد المهجرين بصورة منظورة في حدود (٦٠٨١٨) موريسكيا يضاف اليهم من نزح سرا ومن هجر بعد عام ١٦١٠م(٢) .

---

(1) Juan REGLA: Obra citada, Pags. 251-261.
(2) Antonio DOMINGUEZ ORTIZ y Bernard VINCENT: Obra citada Pags. 195-196.

وفي شباط من عام ١٦١٤م. بعث الدوق دي ليرما (El Duque de Lerma) إلى مستشار ارغون سلسلة تعليمات تتعلق بتنفيذ قرارات الملك فيليب الثالث ضد الموريسكيين الذين كانوا ما يزالون في البلاد والذين عادوا اليها بعد التهجير. وفي الرابع والعشرين من ايلول عام ١٦١٦م. نشرت المراسيم الخاصة بالتهجير القسري(١) . فكان مصير موريسكيي قتلونية مرتبطاً تماماً بمصير موريسكيي ارغون، فصدر قرار تهجيرهم في يوم واحد هو التاسع والعشرون من شهر ايار عام ١٦١٠م. على أن يهجروا من ميناء الفاكس (Alfaques) ونشر المرسوم في برشلونة فخرج من قتلونية ما بين ٥٠٠٠ - ٦٠٠٠ موريسكي، وظل فيها كثير منهم. كذلك فقد ساعد اسقف طرطوشة (Obispo de Tortosa) على تنصير عدد كبير من الموريسكيين وتوسط لهم لدى السلطات الحاكمة ليبقوا في مساكنهم ايهاماً بأن عقيدة الايمان بالنصرانية قد رسخت في قلوبهم.

إن أهداف الملك فيليب الثالث ضد الموريسكيين لم تحقق غايتها المنشودة، ذلك أن الكثير منهم لم يهاجروا، وكثيراً آخرين ممن هجروا من مملكة غرناطة وغيرها عادوا إلى إسبانيا لسوء الاوضاع في مهاجرهم الجديدة. وقد ساعد على احباط اهداف الملك فيليب الثالث المقاومة التي كان يبديها الموريسكيون. فاتخذت ضد اولئك العائدين سرا اجراءات صارمة، ولما كان قتلهم جميعاً امراً شبه مستحيل لكثرتهم فقد أسر الكثير منهم ليعملوا عبيداً على سفن الملك، كما بعث بالنساء الموريسكيات ليخدمن في بيوت النصارى، أما الأطفال الذين دون سن السابعة فوضعوا في خدمة رجال الدين ليربوا على الايمان الراسخ بالنصرانية(٢) .

استعان الملك فيليب الثالث على تحقيق اهدافه بسلسلة مراسيم تفرض اقسى العقوبات ضد الموريسكيين، وقد توالى صدورها بين عام ١٦١١م. وعام ١٦١٤م. فأرسل في عام ١٦١١م. إلى الأندلس ثلاثة حكام اداريين لانهاء وجود الموريسكيين هناك ذلك انهم كانوا يزدحمون في تلك المنطقة، وكان جلهم شديد الحب لارضه، ونجمت عن تكاثرهم هناك مشكلات عدة:-

---

(1) Juan REGLA: Obra citada, Pags. 407-410.
(2) Archivo de Simancas, Estado, Leg. 226: Pedro de Arriold a S. M. Malaga 22-11-1.610.

١- كلف ضون خوان دي مار (Don Juan de Mar) ومون (Mon) بالعمل علـــى انـــهاء وجود الموريسكيين في المناطق التالية:-

قرمونة (Carmona)، استجه (Ecija)، شريش (Jerez)، بورتـــو ريـــال (Puerto Real)، قادش (Cadiz)، طريف (Tarifa)، وجبل طارق (Gibraltar).

٢- كلف ضـــون تـــاديو دي بنـــافيديس (Don Tadeo de Benavides) بانـــهاء وجـــود الموريسكيين في المناطق التالية:-

بوخلنشـــي (Bujalance)، قرطبـــة (Cordoba)، لينـــارس (Linares)، بياســـة (Baeza)، مارتوس (Martos)، وقيجاطة (Quesada).

٣- كلف كذلك فرنسيسكو دي ايرارثبـــال (Francisco de Yrarrazabal) بانـــهاء وجـــود الموريسكيين بمملكة غرناطة[١] .

تغلب الإسبان اخيراً على مقاومة الموريسكيين وهجروا في مجموعات كان آخرها (١٣٣) موريسكيا على سفينة أبحرت من ميناء مالقة عام ١٦١٤م. باتجاه مارسيلية[٢] .

هكذا كان مصير الموريسكيين مؤلما فقضي بأن يغادروا وطنهم قســـراً لينـــهبوا ويموت الكثير منهم جوعـــاً فـــي الطريـــق. ويـــورد لبـــيري (Lapeyre)[٣] ان مجمـــوع الموريسكيين الذين هجروا من شبه جزيرة ايبيريا بلغ (٢٧٢١٤٠) موريســـكيا موزعيـــن على النحو المبيَّن في الجدول:-

بلنسية	١١٧٤٦٤ موريسكيا	Valencia
قتلونية	٣٧١٦ موريسكيا	Cataluña
ارغون	٦٠٨١٨ موريسكيا	Aragoñ
قشتالة، لامنتشا	٤٤٦٢٥ موريسكيا	Castilla, La Mancha
واسترامادورا		Y Extremadura

(1) Archivo de Simancas, Estado, leg. 232: Relacioñ de las partes y distritos que tocan en el Andalucia a don Alejandro de Marimon e don Tadeo de Banavides.
(2) Archivo de Simancas, Estado, leg. 250: P. de Arriola a S. M. Malaga 28-1-1.614.
(3) Henri LAPEYRE: Geographie de l'Espagne morisque. S. E. V. P. E. N. 1.959. Pag. 213.

مرسية	١٣٥٥٢ موريسكيا	Murcia
الاندلس	٢٩٩٣٩ موريسكيا	Andalucia
غرناطة	٢٠٢٦ موريسكيا	Granada
المجموع	٢٧٢١٤٠ موريسكيا	

بقي في شبه جزيرة ايبيريا قرابة (١٥٠٠٠) موريسكي. واعتبر الإسبان – كما يقول المؤلف لبيري – التهجير نجاحاً فنياً[1] وكانت هناك محاولة جيدة لا تنسى قام بها الدوق انفنتادو (El duque del Infantado) من أسرة مندوسا بقي بفضلها عدد من الموريسكيين لم يلبثوا ان هجروا بعد ذلك. واتخذت اشد التدابير لمنع عودة أي موريسكي إلى إسبانيا وبذلك تم القضاء النهائي على كل موريسكي مهجر بعدم العودة مطلقاً إلى إسبانيا[2].

نتائج التهجير

أثر تهجير الموريسكيين اثراً بالغاً على النواحي الاقتصادية والسياسية والدينية في إسبانيا. فقد اخرجت إسبانيا بالتهجير جماعة من خيرة سكانها واكثرهم اسهاماً في خزينة الدولة وفي الحياة الاقتصادية فقلت مواردها الاقتصادية، اضافة إلى انها خسرت مئة مليون ريال حملها الموريسكيون معهم إلى مهجرهم الجديد. كما انها خسرت تكاليف التهجير التي تجاوزت ثمانمائة الف دوقية. ولما هجر الموريسكيون غدت الحقول قاحلة مجدبة بعد أن كانت تدر الخيرات الكثيرة على إسبانيا. ولمّا هجروا اهملت زراعة قصب السكر والقطن والحبوب بأنواعها كما أهملت تربية النحل ودودة القز التي كانوا يتقنونها.

وأما صناعياً فأغلقت مصانع الورق والحرير والأقمشة فغدا الإسبان في حيرة من امرهم ازاء تلك الصناعات التي كانوا يزدرونها. وعبثاً حاولت الحكومة الإسبانية تدريب الإسبان على فنون الزراعة والصناعة فلم تفلح في ذلك فعجزت عن تعويض ما خسرته من جراء تهجير الموريسكيين.

---

(1) Henri LAPEYRE: Ob. Cit. Pag. 213.
(2) Juan REGLA: Los moriscos: estado de la cuestioñ y unevas aportaciones documentales. Revista SAITABI, Universidad de Valencia No. X (1.960) Pags. 107-109.

وظلت إسبانيا تعاني من نتائج التهجير اكثر من قرنين بعد عام ١٦١٠م. فانتشرت المجاعات حتى شملت كل رجال الدين المسيحي والنبلاء، فشح دخل رجال الدين وعانى النبلاء من الحرمان حتى أفلس كثير منهم، فاضطر الملك فيليب الثالث إلى صرف رواتب لثمانية عشر نبيلاً.

وبعامة فقد ترك النبلاء قصورهم بعد تردي معيشتهم فصارت مخابئ آمنة للصوص، واصبحت السرقة مهنة منظمة، وهدمت قلاع الاقطاعيين وهرب ملاكها وعجزت الحكومة عن السيطرة على التهريب، وقضي على الصناعة فكان تهجير الموريسكيين فاجعة لإسبانيا يصعب أن تمحى اثارها.

لم تقف نتائج التهجير عند هذا الحد بل كانت وبالا على الشواطئ الإسبانية التي ملأها المهجرون خوفاً ورعباً. فقد ذهب كثير منهم مستائين من معاملة الإسبان وملاحقة محاكم التفتيش فانضموا إلى الاسطول العثماني للاشتراك في الجهاد البحري ضد الشواطئ الإسبانية خاصة ومن أمثلتهم:-

١- اموراتس بيوبي (Amurates Bayobi) ولد في البسيط (Albacete) واشترك في الجهاد البحري بعد التهجير وبث الرعب في شواطئ البحر المتوسط وإسبانيا وصقلية مدة من الزمن حتى اعتقل في الحادي والعشرين من تشرين الاول عام ١٦٢٣م. قرب شواطئ صقلية، وكان يقود عشر سفن تحمل اربعة آلاف مجاهد.

٢- الرئيس بلانكيو (Arrez Blanuillo) بعد اخماد الموريسكيين في إسبانيا عاش يقلق وينهب الشواطئ الإسبانية عشر سنين حتى وقع اخيراً في أيدي اعدائه عام ١٦٢٣م.

٣- ابو علي (Aboul-Ali) كان يعمل في إسبانيا بائع فحم في اوسونا (Osuna) لا خوف منه ولا ضرر، وبعد التهجير تحول إلى رجل مرعب في البحر المتوسط، هاجم شواطئ بلنسية مرات عديدة.

٤- اموراتس كبير وادي آنة من بلدة ثيوداد ريال كان صانع أحذية، ولما هجر أصبح مجاهداً بحرياً قاد عام ١٦٢٤م. ثلاث سفن تنهب شواطئ بلنسية وايطاليا[1] .

---

[1] Historia del Alzamiento de los Moriscos, su Espulsion de Espana y sus Consecuencias en todas Las Provincias del reino. XII, Pags. 186-191.

(مؤلف موريسكي مجهول)

هكذا سبب الملك فيليب الثالث ورئيس وزرائه دوق دي ليرما من حيث لا يشعران خطراً كبيراً على بلادهم، فقد كانا يريان في تهجير الموريسكيين الامان والاطمئنان لإسبانيا بيد انهم غدوا بعامة اكثر خطراً على الشعب الإسباني والامن بعد التهجير.

انتشر المهجرون في شواطئ افريقية والتقوا بأناس يدينون بالاسلام اعانوهم على الانتقام لانفسهم ومنهم عائلة بايز (Paez) التي اتخذت لها ارضاً على شاطئ وادي الحلو، فبنوا مساكن لهم على سفح جبل بحيث يستطيعون الدفاع عن انفسهم، وظلت هذه المساكن تكبر وتزداد حتى تكونت مدينة تطوان التي كان يعرفها المغاربة قديماً باسم كوتاكن (Cotaquen) او تطاوين.

ومن جهة أخرى عانى المهجرون في مهجرهم الجديد (شمالي افريقيا) من عدم تقبل السكان لكثير منهم لجهلهم في الديانة الاسلامية بعد أن قضوا طفولتهم في الأديرة، فأضطر كثير منهم للعودة إلى إسبانيا لسوء الاحوال ذلك انهم احسوا بأنهم غير مرغوب بهم في إسبانيا ولا في المغرب لان مسيحيتهم التي كانت تبدو ضئيلة لدى الإسبان ظهرت كبيرة مزعجة في افريقية.

يستخلص مما تقدم:-

أن الملك فيليب الثالث دأب – كما دأب سابقوه من ملوك إسبانيا – على اضطهاد الموريسكيين وتهجيرهم وتنصيرهم وتجريدهم من السلاح والممتلكات، وازهاق ارواحهم وانتهاك اعراضهم واذلالهم في دينهم وترويعهم في مساكنهم، وكانت تتلاحق في ذلك المراسيم الواحد تلو الآخر، فلم يكن بالامكان القضاء على الاسلام والمتدينين به في إسبانيا بسهولة ولا في ايام أو سنوات معدودة. كما ان هذه الاعداد الهائلة من المهجرين كانت تمتلك المهارات الصناعية والزراعية الفنية، لذلك فقد تعطل اقتصاد إسبانيا أو كاد بعد التهجير.

كما أن تهجير اعداد كبيرة منهم إلى شمالي افريقيا اوجد تحفزا دينيا في المغرب حتى لا يكاد المرء يلمح نصرانيا واحداً هناك. وقد تحول الكثير من المهجرين إلى مجاهدين في البحر يحاولون ان ينتقموا لانفسهم ممن اضطهدوهم، وإن أطلق عليهم

الباحثون الغربيون كلمة (قراصنة) فإني اعتبرهم مجاهدين حقا بذلوا قصارى الجهد في ما يطمحون اليه من حق، وان لم يفلحوا تماماً، فقد كانت اوروبا كلها تقف ضدهم، وكانت حال العالم الاسلامي لا تسمح بتقديم العون اللازم لابقاء الموريسكيين في ديارهم.

هذا، وقد عانى الموريسكيون، نتيجة تمسكهم بدينهم، معاناة شديدة، إلا إنهم تحملوا ذلك. تأسيا بصحابة رسول الله، صلى الله عليه وسلم، الذين عانوا كثيرا على أيدي كفار مكة، ومع ذلك ظلوا مخلصين لدينهم.

وقد أثار ثبات الموريسكيين وصبرهم وجهادهم حفيظة بعض رجال الكنيسة، الذين حاولوا تفسير هذه الظاهرة دون جدوى، ولم يدرك هؤلاء أن الموريسكيين باعوا أنفسهم لله ورسوله. وأن من كان هذا شأنه، فإنه لا بد أن يصبر على كل ألوان العذاب ويتحملها، بل لم يدرك رجال الكنيسة مفهوم الجهاد الإسلامي الذي يتجلى في قوله تعالى: "فليقاتل في سبيل الله الذين يشرون الحياة الدنيا بالآخرة، ومن يقاتل في سبيل الله، فيقتل أو يغلب فسوف نؤتيه أجرا عظيما" صدق الله العظيم[1].

أصبح الموريسكيون بفعل الممارسات الظالمة والمراسيم المجحفة التي اتخذت ضدهم من قبل السلطتين السياسية والدينية، يعيشون شبه عزلة داخل المجتمع الإسباني، إذ لم تتح لهم الفرصة للاندماج في البوتقة الجديدة، كما انهم لم يلقوا ما يشجعهم لإبداء الولاء والانتماء لهذا المجتمع، فقد وجدت موانع كثيرة تحول دون انصهارهم وتذويبهم في البيئة التي يعيشون فيها، حيث كان الإسبان ينظرون إليهم دائما نظرة مليئة بالاحتقار والتعالي، كذلك فقد ظل التعصب يلاحقهم اينما حلوا أو وجدوا، الأمر الذي جعلهم يشعرون بالغربة في ديارهم.

---

[1] سورة النساء، مدنية، آية ٧٤.

نشأة اللغة الخميادية.

وهؤلاء الموريسكيون الذين عرفوا في المصـــادر التاريخيـــة باســـم الغربـــاء[١]، اخترعوا أو ابتكروا ــ نتيجة المأساة التي حاقت بهم ــ لغة تسمى الخميادية، للحفاظ على هويتهم ودينهم ولغتهم وحضارتهم عبروا فيها عن آمالهم والآمهم ومضايقاتهم اليوميـــة. وخلاصة القول أن الهدف منها كان تبليغ العقيدة الإسلامية إلى اخوانهم في قالب نصوص مترجمة إلى الإسبانية ومكتوبة بحروف عربية. وكانت الكتابة بها سرية للغاية (بســبب القمع وحملات الإرهاب والبطش من لدن مجمع قضاة الإيمان الكاثوليكي "ديوان التحقيق أو محاكم التفتيش") في وقت وضعت فيه هذه الجماعة المسلمة بين اختيارين احلاهمـــا مر: التنصير أو التهجير القسري ففضل الكثير منهم البقاء في أراضيهم وممتلكاتهم، يعيشون حياة إسلامية كاملة في السر في وسط مسيحي وحياة مسيحية كاملة في العلن، وهـــم فـــي وضع المسيحيين الجدد كريستيانوس نويفس (Cristianos Nuevos)[٢]. ولهذا اعتمدوا مبـدأ التقية[٣] إذا كان في ذلك إنقاذ لحياتهم، ودرء للخطر الذي يتهددهم، شريطة أن يظلـــوا مخلصين لدينهم الإسلامي، ممارسين للشعائر الدينية كلما كان ذلك ممكنا، متحملين فـــي سبيل ذلك شتى ألوان البطش وأشكال الاضطهاد والتنكيل التي أوقعها بهم مجمـــع قضـــاة الإيمان الكاثوليكي، مظهرين صدق انتمائهم إلى الأمة الإسلامية متشبثين بدينهم، منطلقيـن في ذلك كله من قناعتهم التامة بأنهم إن أجبروا على التخلي عن عقيدتهم تحـــت طائلـــة التهديد بالموت، فلا أقل من أن يخلصوا الدين لله سرا بعيدا عن أعين رجـــال الكنيســـة وجلاوذة مجمع قضاة الإيمان الكاثوليكي .

ومما لا شك فيه أن الخميادية التي اخترعها الموريسكيون كانت هي الوعاء الـــذي احتوى آخر ما ابتكره الاندلسيون من آداب، وتعرف هذه اللغة في المصطلح الإسباني بـــ

---

(١) غرباء: هم الموريسكيون المسلمون الذين كانوا يعيشون في الاندلس بعد سقوط مدنهم بيـــد الإسـبان، هذه الحال جعلتهم غرباء في قيمهم ومعتقداتهم وعباداتهم وعاداتهم وتقاليدهم عن المجتمع المسيحي الـــذي صاروا يعيشون فيه مع أنهم كانوا يوماً ما هم غالبية هذا المجتمع.

(2) Kontzi, Reinhold, La Literatura Aljamiada, La Literatura de los Ultimos muslimes de España, Rev', Awraq, no. 2-1979, Pág. 47.

(٣) التقية: هي طريقة التستر والتورية التي مارسها الموريســكيون المنصـــرون قســـراً فـــي الاندلـــس، ليحافظوا على ممارسة شعائرهم الدينية الاسلامية سراً بالرغم من تظاهرهم بالنصرانية الكاثوليكية.

(Aljamiadia) أي المستعجمية،وهو تحريف اسباني للفظ الاعجمية،فقيل (الاجميّة ثم الخمية،الاخاميّة، الخامية) (Aljamia)[1].

والخميادية هي لغة رومانثية (اسبانية برتغالية أو قشتالية أو أرغونية أو قطلونية) كتبت بحروف عربية. فقد وجدت بعض النصوص الخميادية مكتوبة بحروف لاتينية أو عبرية، وكان يطلق على من يتكلم هذه اللغة صفة الخميادو Aljamiado أي المستعجم. وكانت الاعجمية تطلق سابقا على كل لغة غير عربية[2].

محاربة التراث العربي الاسلامي.

لقد حافظ الموريسكيون – رغم تظاهرهم باعتناق المسيحية – على ممارسة شعائرهم والالتزام بالعادات والتقاليد الإسلامية في شتى شؤون حياتهم بالرغم من عدم وجود معارف تاريخية موثوق بها نتيجة حرق مئات الآلاف من المخطوطات والوثائق العائدة إلى مكتبة غرناطة الشهيرة، التي حوت بين رفوفها مجلدات ثمينة من التراث الإسلامي، التي جمعت من مدن اندلسية مختلفة وخاصة مكتباتها بعد السقوط، إذ اعتبرها الإسبان تراثا إسلاميا خطيرا وعاملا من عوامل الحفاظ على هذه البنية الدينية الإسلامية. فأحرقوا ما ينيف على مليون وخمسمائة ألف كتاب[3] في مختلف العلوم والمعارف في ساحة باب الرملة بغرناطة، فيها المخطوطات القيمة والنادرة التي لها علاقة مباشرة بالقرآن الكريم وتفاسيره وبالعلوم الشرعية كالحديث النبوي وعلومه والفقه وأصوله وعلوم

---

(١) بالنثيا (آنخل جنثالث)، تاريخ الفكر الاندلسي، نقله عن الإسبانية حسين مؤنس، الطبعة الأولى، القاهرة ١٩٥٥، ص٥٠٧.

انظر أيضاً:

- Ladero Quesada (Miguel Angel), Granada, Historia de un pais Islámico (1232-1571), Madrid, 1969, Pags. 164-165.
- Real Academia Española, Diccionario de La Lengua Española, Madrid, 1970, Pág. 64.

(٢) – دائرة المعارف الاسلامية، مقال الخميادو (س ف سيبولد) الطبعة القديمة، ج١، ص ٣٠٣.

– فانسون بارنار، لغة الموريسكيين، تطبيق الموريسكيين الاندلسيين للشعائر الاسلامية (١٤٩٢–١٦٠٩)، نقله عن الفرنسية د.عبد الجليل التميمي، زغوان، نوفمبر، ١٩٩١، ص ١٠٩؛

وانظر:

- Hegyl Ottmar, Cinco Leyendas Y Otros relatos moriscos (MS 4953) de La Biblioteca Nacional de Madrid, Madrid, 1981, Pags. 14-17.

(3) Piferrer (Francisco) Nobiliario de Los reinos Y Señorios de España. Tomo. VI. Madrid, 1860, Pág. 138.

انظر ايضاً: حتاملة (د. محمد عبده)، التنصير القسري لمسلمي الاندلس في عهد الملكين الكاثوليكيين (١٤٧٤-١٥١٦)، عمان – الأردن، ١٤٠٠هـ/١٩٨٠م، ص ٦٠.

اللغة العربية والتاريخ والجغرافيا والفلاحة وأيضا علوم الفلسفة والمنطق والرياضيات والفلك والصيدلة والكتب المترجمة من لغات غير عربية وخاصة الفارسية والاغريقية واللاتينية وغير ذلك، واستثني من ذلك كتب الطب التي حولت إلى جامعة الكلا دي اينارس، La Universidad de Alcalá[1].

جميع هذه الثروة التراثية الثمينة، سلطوا عليها نيرانهم التي التهمت جميع هذه لمجلدات بين مخطوط ووثيقة. فخسرت إسبانيا من وراء عملية الحرق رهان السبق الحضاري في مجال العلم والمعرفة، خاصة بعد أن أحرقت مكتبة غرناطة الشهيرة التي ضمت بين طياتها كل ما انتجته العقول العربية الإسلامية والبشرية على الاطلاق في مختلف الميادين. وطلب الكاردينال فرانسيسكو خمنيس دي سيسنيروس[٢] مطران طليطلة الذي لعب دورا خطيرا في عملية التنصير القسري وطلب من الموريسكيين قبل عملية الحرق ـ تقديم كل ما لديهم من مجلدات وكتب بحجة فحصها وإعادتها اليهم ـ ومن لم يفعل ذلك ويضبط بحوزته أي وثيقة تتعلق بهذا الشأن عرض نفسه لأقصى

---

(1) Henry Kamen, La Inquisición Española, Barcelona, 1967, Pág. 118.

(٢) الراهب فرانسيسكو خمنيس دي سيسنيروس، ولد عام ١٤٣٦م في توري لاغونا. وكان رئيساً لكهنة اوثيدا، أيام المطران ضون الونسو كاريو، ومسؤول كاتدرائية سيغوينثا، وبعد ذلك التحق في نظام رهبنة القديس فرنسيسكو، وباشر في اجراء اصلاحات واسعة في هذا النظام الفرنسيسكي، بارشاد من البابا الاسكندر السادس. وفي عام ١٤٩٢م عين مشرفاً روحياً للملكة ايسابيلا الكاثوليكية. ولقد تولى أيضاً منصب حاكم إسبانيا. وفي عام ١٤٩٥م عندما تولى منصب الرئيس ـ الاقليمي لمنظمة رهبان الفرنسيسكان ـ تم انتخابه مطراناً لطليطلة، بعد وفاة الضون بيدرو غونثالث دي ميندوثا. ولقد أسس جامعة الكلا دي اينارس، ونشر الانجيل بعدة لغات، واخضع ثورة طبقة النبلاء، وتوفي في Roa رؤا (برغش) عام ١٥١٧م.

ـ يجدر مراجعة المؤلفات التالية من أجل التوسع في حياة الراهب فرنسيسكو خمنيس دي سيسنيروس وأعماله:

- SANCHEZ CANTON F.J.: Anécdotas y noticias diversas. Memorial Histórico Español colección de documentos opusculos y antigüedades que publica Real Academia de la Historia. Tomo XLVIII, Madrid 1948, Pags. 74-80.
- ESPAÑA LLEDO (José): Cuadernos de Historiografia de España. Granada 1894. Tercer Ciclo, época, 1, lección XVIII, Pag. 44.
- BALLESTEROS BERETTA (Antonio: Historia de España y su influencia en La Historia Universal. Barcelona 1.922. Capt. 18, Pags. 223-226.
- C. Perez Bustamante: Compendio de Historia de España, 5 edición, Madrid 1952, Capt. XXV, Pag. 204.
- LLORCA (B) La inquisicion española (Comillas 1.953).
- Gutierrez (C) Politica religiosa de los Reyes Católicos, en 'Miscelanea' (Comillas, 1.592).
- LLORENTE (A. de le Pinta). La inquisición Española (Comillas 1.953).
- PALACIO ATARD (V) razón de la Inquisición (Madrid 1.953).
- Fernandez de Retana (P) Cisneros y su siglo Madrid 1.929.
- Starkie (W) La España de Cisneros. Barcelona. 1.943.

العقوبات والتعذيب، خاصة الحرق بالنار. بناء على ذلك راح الموريسكيون يخفون جميع ما عندهم من كتب ثمينة ومخطوطات قيمة في جدران بيوتهم وتحت الأرض وفي السقوف والحواكير وقمم الجبال والوديان والكهوف بعيدة عن أنظار وملاحقة مجمع قضاة الإيمان الكاثوليكي خوفا من احراقها أو اتلافها. عندها لم يبق للموريسكيين سوى حفظ هذا التراث وخاصة العقيدة الإسلامية كما سنرى فيما بعد في أذهانهم وعقولهم وأعماقهم رغم الضغوط التي كانت تمارس ضدهم.

وترددت المحنة والمأساة مرة ثانية في (عام ١٠٨٦ هـ) القرن الحادي عشر الهجري، أي في نهاية القرن السابع عشر الميلادي بإضرام النيران فيما تبقى من مكتبة غرناطة الشهيرة حتى لا تقوم للمسلمين قائمة، وحتى يقطعوا أي علاقة أمل لهم بتراثهم الإسلامي.

أساليب الموريسكيين في المحافظة على تراثهم.

كانت العلاقة بين الموريسكيين والإسبان تتراوح بين الحيطة والحذر، فإن اتسمت بالهدوء وحسن الجوار حينا، فقد اتسمت بالحقد والكراهية معظم الأحيان، وبدأت الممارسات القمعية تزداد سوءاً، وأصبحت أوضاع المسلمين تنتقل من سيء إلى اسوأ، فمن امتهان واذلال إلى اضطهاد وتعذيب، إلى تشريد وسبي وتقتيل، إلى تنصير أو تهجير. وإجمالا فإنه يمكن القول إن العلاقة بين الطرفين كانت عاصفة متوترة معظم الأوقات، أما الهدوء الذي كان يسود أحيانا فإنه سرعان ما يتبدد لأتفه الأسباب.

من هنا فقد أصبح الموريسكيون يمارسون أمام الإسبان التعاليم المسيحية بصفة كريستيانوس نويفس (مسيحيون جدد) حيث كانوا يترددون على الكنائس والأديرة أيام الآحاد وفي الحفلات والأعياد، فقد كانوا يعقدون مراسيم الزواج في الكنائس وعندما يعمدون أطفالهم يعيدون غسلهم بعد عودتهم إلى منازلهم بالماء الساخن لمسح الزيت المقدس[1]، وفي بعض الحالات يمسحون رأس الطفل بالدقيق للقضاء على كل آثار

---

(1) Mercedes Garcia Arenal: - Los Moriscos, Madrid, 1975, Pág. 30.
- Inquisicion Y Moriscos, Los procesos del Tribunal de Cuenca Y Madrid, 1978, Pags. 56, 57, 58, 59.

الزيت[١]، ثم يحتفلون بالختان حيث اضطرت كل عائلة موريسكية أن تتعلـم كيفيـة الختان حتى يقوم كل فرد بختن أبنائه سرا[٢] ويعطون أبناءهم أسماء عربية[٣] ويلقنونـهم تعاليم الدين الاسلامي وطريقة المحافظة على أسرار العائلة، مع أن محاكم التفتيش لجـأت في كثير من الأحيان إلى ابعاد الأطفال عن محيطهم العائلي حتى ينسوا لغتهم الاساسـية. وقد أخذ الإسبان يلاحقون كل من يقتنى هذه النصـوص الخميساديـة لإنـزال العقوبـات الصارمة بهم، مما جعل الموريسكيين يخفونها عن الأعين، كما سعوا إلى تفكيـك عـرى العلاقات العائلية وعلى سبيل المثال إحداث الشقاق والخلاف في صلب العائلة الموريسكية الواحدة قاصدين من وراء ذلك التذويب والاجتثاث.

الكتب الخميادية.

ومن أشهر كتبهم الدينية (مختصر في السنة) المعروف بالكتـاب الشـقوبي (El-Alquiteb Segoviano) لمؤلفه عيسى بن جابر (Ica de Gebir)، فقيه مسجد شقوبية الجامع. وهو مختصر مقتضب في الأخلاق والشريعة[٤] عثر على نسخ كثيرة منه، مما يدل علـى أنه كان متداولا بين الموريسكيين. ويتناول هذا الكتاب: الإيمان، وما ينبغي على المسـلم الاعتقاد به ليصح دينه، والوضوء والطهارة، والتيمم، والصلاة ومواقيتها، ويصف طريقة الصلاة، وما ينبغي أن يقوله المصلي في كل حركة مـن حركاتـها. والمؤلـف يكتـب المصطلحات باللغة العربية، ويرسمها بحروف لاتينية محرّفة، ولكنها تبين الطريقة التـي كان الموريسكيون ينطقون بها العربية. فهو على سبيل المثال يكتب: (الله أكـبر) علـى

---

[١] دولورس برامن: اعتبار شعيرة الفضض كمحافظة على عادة العقيقية التي تعود إلى ما قبل الاسـلام، ترجمة د.رضا مامي، تطبيق الموريسكيين الاندلسيين للشـعائر الاسـلامية، ١٤٩٢ــ١٦٠٩، إشـراف الدكتور: عبد الجليل التميمي، زغوان نوفمبر، ١٩٩١، ص ٢٣.

[2] Vincent Bernard "Los Morisques et La Circoncison" in Religion, identite et sources documentaires sur les morisques andalous, t. 2. Tunis 1984. P. 191.

أنظر أيضاً: د. عبد الجليل التميمي: (واقع ومستقبل البحث عن تاريخ الموريسـكيين الاندلسـيين)، في كتاب أعمال المؤتمر العالمـي الثالث للدراسات الموريسكية الاندلسية حول تطبيق الموريسـكيين الاندلسيين للشعائر الاسلامية، (١٤٩٢-١٦٠٩)، تونس - زغـوان ١٩٩١م، ص ٤٢.

[3] Mercedes Garcia Arenal, Inquisición Y Moriscos, Los Procesos del Tribunal de Cuenca. Madrid, 1978. Pág. 56.

- Pedro longas Bartibas, Vida Religiosa de los Moriscos, Granada 1990. Págs. 256-263.
- Julio Caro Baroja, Los Moriscos del Reino de Granada, Madrid, 2ª edición. 1976, Pág. 120.

[4] Memorial Histórico Español. Tomo V. Madrid, 1863. ادواردو/سافدرا

انظر: بالنثيا (آنخل جنثالث)، تاريخ الفكر الأندلسي، ص ٥٠٨.

النحـــو التـــالي:(Allah ua aqbar)، و (ســمع الله لمـــن حمـــده) (Cemi allahu Limen hamidehu)[1].

ومن هذه الكتب أيضا كتاب (في العقيدة وما ينبغي على المسلم أن يعرفه واشـــياء أخرى غريبة) (De La Creencia y Lo que debe Xaber el Mahometano y otrax coxax Curioxax). وهو لمؤلف ما زال مجهولا. وفي هذا الكتـــاب حديـــث عـــن الأخـــلاق، والممارسات الدينية وقد قال عنها الأستاذ اوليفر اسين اننا نجد فيها "ثقافة وذوقـــا أدبيـــا وأصولا اسبانية خالصة أخذت عنها" وأضاف الأستاذ اسين يقول في كتابه هذا الموريسكي ...(إذ نجد فيها آثارا لكتابات لوبي دى فيجا Lope de Vega الإسباني المعروف)[2].

ولا تخلو هذه الكتب من ترجمات لكتب مشرقية، مثل ترجمة كتاب (التفريع فـــي الفقه) (Alquiteb de la Tafria) لأبي القاسم عبيد الله بن الحسين بن الحسن بـــن الجّـلاب البصري المالكي وهو كتاب في الفقه على مذهب الإمام مالك بن أنس وهي ترجمة قام بها مترجم ما زال مجهولا.

الشعر.

وفي مجال الشعر تم العثور على قصيدة عنوانها (حديث يوسف) (El-Alhadits de jose') . وهـــــي تسمى عادة في كتب الأدب الإسباني (El Poema de Jose') في القرن الثالث عشر أو الرابع عشر الميلاديين، وهي منظومة في مقطعات من البحـــر القشـــتالي المعروف بالكوادرنو بيا (Cuaderno Via) الذي يعتمد على نظم كل أربعة أبيـــات مـــن القصيدة على قافية واحدة. وصاحب هذه القصيدة موريسكي نجهل أسمه، وهي تتنـــاول قصة يوسف عليه السلام، كما ترويها (سورة يوسف) من القرآن الكريم[3]. لعل جـــهل أو عدم معرفة المؤلفين، كان اغفالا مقصودا وتدبيرا من تدابير التقية وذلك ينسجم مع وضـــع الموريسكيين تماما !! وفيما يلي ترجمة لمقطعين من هذه القصيدة:

---

(1) J. Ribera Y. M. Asin, Manuscritos Arabes Y Aljamiados de la Biblioteca de la junta (Madrid, 1912), pp. 217-288.

(٢) بالنثيا (آنخل جنثالث)، تاريخ الفكر الاندلسي، ص ٥١٣.

(٣) المرجع نفسه، ص ٥١٤.

ولامت نساء الناحية زليخة
لأنها أرادت أن تلهو مع أسيرها
ولما علمت هي بذلك سعت
إلى أن تدعوهن كلهن إلى الطعام

وقدمت اليهن أطعمة طيبة وخمرا منتقى
وذهبن جميعا إلى هنالك ليستمتعن بهذه الأشياء
وأعطت لكل منهن برتقالة وسكينا
قاطعا... ومعدّا، ومسنونا سنّا طيبا...

وقد غلب على الشعر الموريسكي ــ بشكل عام ــ الطابع الديني، إذ كان مديح النبي محمد، صلى الله عليه وسلم، وشرح العقيدة الإسلامية من أهم موضوعاته.

وكان بعض الشعراء الموريسكيين يجيد النظم على بحور الشعر الإيطالية التي شاعت في إسبانيا في ذلك الحين، ومن ذلك ما نظمه شاعر موريسكي حول طرد الإسبان لقومه من البلاد، وقد قال فيها ما ترجمته:

يا رب ... يا من ترى ما يعانيه عبادك
وهم أموات في قيد الحياة... وأجسادهم تتلظى
يتعذبون بسبب خطايا آبائهم الذين كانوا يعيشون بغير وازع
أو لأنك تنظر إلى خلقك في رضى
ارفع حربة غضبك الحامية

الأدب القصصي.

وأما الآدب القصصي الموريسكي فهو أكثر قيمة من شعرهم من الناحية الأدبية، ويعرض هذا الأدب ــ في لغة قشتالية ــ روايات ذات أصل عربي في الغالب، وتنقل مشاهد من حياة عيسى وموسى ويعقوب عليهم السلام، وحياة محمد، صلى الله عليه وسلم وصحابته.

والقصص التي تعرض لحياة النبي محمد صلى الله عليه وسلم تتناول مولده وشبابه ومغازيه، وأخبار نفر من صحابته الأولين، رضوان الله عليهم.

وهناك ــ إضافة إلى ذلك ــ الكثير من الأساطير والحكايات التي توحي عناوينــها بمضامينها، مثل: يوسف وزليخة، وحديث ذي القرنين، وحديث الملك الاسكندر، وحكايــة المقداد والمياسّــة... وغيرها.

وسوف نسلط فيما يلي الضوء على هذه اللغة الخميادية مــن خــلال نصوصــها المتناثرة في الأديرة والأرشيفات والوثائق والمكتبات الوطنية، مثل:

١) المخطوط رقم (٤٩٥٣) الموجود في المكتبة الوطنية بمدريد/إسبانيا، ويتناول:

أ. الجدل العقائدي بين المسلمين والمسيحيين من خلال (اســطورة شــرجيل بــن شرجون).

ب. مسائل فقهية إسلامية في الصلاة والوضوء والصوم في شهر رمضان.

ج. أساطير حول الصحابة كحديث الخليفة عمر بن الخطاب (رضـــي الله عنــه) عندما سمح الله له برؤية الموتى.

٢) المخطوط رقم (٧٧٤) الموجود في المكتبة الوطنية بباريس/فرنسا، ويتناول:

أ. الجدل العقائدي بين المسلمين واليهود من خلال أسئلة طرحها جماعة من اليهود على النبي محمد (صلى الله عليه وسلم).

ب. التنبؤ بمصير إسبانيا من خلال أسطورة الفضائح التي سوف تحدث في آخــر الزمن بشبه جزيرة إسبانيا. وكذلك من خلال نبوءة محمد (صلى الله عليه وســلم) حول إسبانيا.

ج. أدعية وابتهالات من خلال دعاءين مكتوبين بالعربية والإسـبانية، الأول من مخطوط باريس والثاني من مخطوط مدريد.

لقد استطاع الموريسكيون أن يدونّوا بالخميادية ما اعتقدوا بأهميته، لكي يطلع عليه عامتهم مثل:

أ. القرآن الكريم ب. سيرة الرسول ج. المدائح النبوية والأدعية.

د. قصص الأنبياء هــ. كتب الفقه والحديث، مع كتابة البسملة والآيات القرآنية.

اسباب استخدام اللغة الخميادية.

وأهم الأسباب التي دعتهم إلى استخدام هذه اللغة هو عدم إجادة أكثرهم للغة العربية، وذلك بسبب ما تعرضوا له من قمع واضطهاد، ولأنهم حوربوا في لغتهم، حيث كان الحديث باللغة العربية في وقت من الأوقات يعتبر جريمة يعاقب عليها القانون. وهناك سبب آخر لا يقل أهمية عن سابقه، وهو أن الكتابة بحروف عربية من شأنها أن تبين مدى تعلق الموريسكيين باللغة العربية، على اعتبار أنها لغة مقدسة، لأنها لغة القرآن الكريم. وأيا كان السبب، فإن الباحث يلمح من خلال اصرار الموريسكيين على استعمال الحروف العربية تمردا على الوضع القائم، فهم يتجنبون الانصهار في البوتقة الإسبانية، ويعبرون عن رغبتهم في الابقاء ولو على بعض مميزاتهم الخاصة بهم، ويحاولون التمسك بملامحهم الإسلامية وإظهارها. ويؤيد ما نقول آنخل جنثالث بالنثيا في كتابه تاريخ الفكر الاندلسي[1] (لم يتخلوا قط عن أحرف الهجاء العربية، واستمروا يكتبون بها ما لديهم من معارفهم الضئيلة عن علوم الإسلام للحفاظ على عقيدتهم من ناحية، ولتعمية متعقبيهم عن فحوى ما يكتبون من ناحية أخرى).

ومن الجدير بالذكر هنا أن مجمع قضاة الإيمان الكاثوليكي كان يضم في جهازه مجموعة من المختصين باللغة العربية ومن كانت تضبط لديه نصوص مكتوبة بحروف عربية كان يعاقب عقابا رادعا، وإن كان أقل عنفا ممن تضبط لديه نصوص عربية بحروف عربية.

لقد كان الموريسكيون بمحافظتهم على إسلامهم يمثلون هيكلا ثقافيا أصيلا ومستقلا. مع أنهم لم يكونوا على معرفة بالمعطيات التاريخية الدقيقة نظرا لوضعهم التاريخي، فكانت النتيجة أن امتزجت النصوص التاريخية بالصور الخيالية خاصة في المجال الديني. وقد حاولوا جاهدين ملاءمة ظروفهم الخاصة المأساوية مع الدين الإسلامي الذي كان يعطيهم الأمل والقوة للخروج يوما من وضعيتهم المتأزمة الحرجة.

---

[1] بالنثيا (آنخل جنثالث)، تاريخ الفكر الاندلسي، ص ٥٠٧.

ويحوى الأدب الخميادي الموريسكي تسجيلا شاملا لكل ما يتعلق بحياة الموريسكيين على المستويات المادية والروحية والفكرية كافة، كما أنه يتطرق إلى كل ما كان ينتاب المسلمين هناك من هواجس ومخاوف وأحلام وأمنيات[١].

موضوعات أخرى من الأدب الخميادي.

ومن المرجح أن معظم نصوص الأدب الخميادي التي عثر عليها قد دونت في القرن السادس عشر الميلادي، أو في العقد الأول من القرن السابع عشر. وتتناول هذه النصوص موضوعات وثيقة الصلة بالقرآن الكريم كتعليم أركان الإسلام الخمسة، والجدل بين المسلمين من جهة، والمسيحيين أو اليهود من جهة أخرى حول أمور تتعلق بالعقيدة. كما أنها تتضمن أساطير مستوحاة من عالم المسلمين الغيبي، كخلق العالم ويوم القيامة والجنة والنار[٢] ، ويتحدث بعضها عن شخصيات إسلامية بارزة كان لها أكبر الأثر في تاريخ المسلمين، مثل: محمد، صلى الله عليه وسلم، وفاطمة وعمر وعلي ــ رضوان الله عليهم أجمعين ــ. بينما يتناول بعضها الآخر موضوعات متنوعة كالعلاقة بين الآباء والأبناء، وعيد الفطر، وعادات دفن الموتى، وقصة الاسراء والمعراج، ومدائح نبوية، وأساطير ذات طابع صوفي، والتنبؤ بمصير إسبانيا، ومسائل طبية، وحكايات عن معارك رسول الله صلى الله عليه وسلم، كبدر وحنين والخندق[٣].

تحليل موضوعات الأدب الخميادي.

إن من يمعن النظر في موضوعات الأدب الخميادي الموريسكي يجد أنها دينية في مجملها، لا بمعناها الغربي الضيق، بل بمعناها الإسلامي الواسع الذي يشمل المعاملات والعبادات والدنيا والآخرة والروح والمادة[٤] . كما أن تعلق الموريسكيين بإيمانهم

---

[١] قعيب (حمودة)، تعريب من الإسبانية لنماذج من الأدب الالخاميادو الموريسكي، بحث أعد في نطاق شهادة الكفاءة في البحث العلمي للجامعة التونسية، كلية الآداب والعلوم الانسانية، اشراف الاستاذ الدكتور جمعة شيخة، ١٩٨٤-١٩٨٥م، ص ١٢.

[2] R. Kontz: La Literatura Aljamiada: La Literatura de Los Ultimos muslimes de España. Rev.: Awraq. No. 2, 1979, Pags. 49-53.

[3] Alvaro Galmes de Fuentes: Historia de Los amores de paris y viana, Madrid, 1970.

[٤] قعيب (حمودة)، شهادة الكفاءة في البحث العلمي، ص ٢٠.

ورغبتهم في أن يكونوا مسلمين مخلصين وسنيين على مذهب الإمام مالك بن أنس، وفي الوقت نفسه قدرتهم على مقاومة محاولات دمجهم في الديانة المسيحية، أدت في النهاية إلى فشلهم. لذا لم يبق لهم من حيلة للحفاظ على هويتهم الإسلامية داخل المذهب الكاثوليكي الذي ينتمون إليه ظاهريا، بحكم زوال دولتهم، سوى تكوين أنفسهم بالاعتماد على المؤلفات التقليدية التي تلبي حاجاتهم ومتطلباتهم الخاصة بالممارسات الدينية. ويستعينون على ذلك ببعض المشرعين وخاصة فقهاء المغاربة، مثل أحمد بن بو جمعة المغراوي الوهراني الذي وجه في غرة رجب سنة ٩١٠هـ/٢٨ نوفمبر سنة ١٥٠٤م رسالة إلى الموريسكيين تتمثل بوحدانية الله، والإقرار بنبوة سيدنا ــ محمد صلى الله عليه وسلم ــ ونصحهم فيها بتنفيذ أحكام الإسلام خفية، وبطريق التورية والتستر، فقد نصحهم بالصلاة ولو بالإيماء، والزكاة ولو كأنها هدية للفقراء، والتيمم ولو مسحا بالأيدي للحيطان. ونصحهم ــ إذا أكرههم النصارى على السجود للأصنام أو حضور صلاتهم ــ أن يحرموا بالنية، وينووا صلاتهم المشروعة، ويشيروا لما يشير إليه النصارى من صنم على أن يكون قصدهم التوجه إلى الله تعالى. ونصحهم أيضا إذا أجبروا على فعل محرم كشرب الخمر أو أكل لحم الخنزير، أو أكل الربا أن يفعلوا منكرين بقلوبهم ما فعلوه. وأرشدهم كذلك إلى كيفية التعامل مع النصارى إذا أكرهوهم على كلمة الكفر، أو على شتم محمد (صلى الله عليه وسلم)، أو على القول بان المسيح ابن الله، وطلب منهم في آخر رسالته أن يستشيروه في أي أمر يعرض لهم، واعدا بإرشادهم[١].

قيمة الأدب الخميادي.

لقد اكتسب الأدب الخميادي قيمة وثائقية تاريخية ودينية واجتماعية وثقافية، ربما لا يدرك أهميتها الكثيرون من أبناء عصرنا، وقد كان انجازه محفوفا بالمخاطر، خصوصا إذا ما تذكرنا الأوضاع التي كانت سائدة في تلك الأثناء.

---

[١] عنان (محمد عبد الله)، نهاية الاندلس وتاريخ العرب المتنصرين، الطبعة الثانية، القاهرة: ١٣٧٨هـ/١٩٥٨م، ص٣٢٥، ٣٢٦، ٣٢٧.
انظر أيضاً:
P. Longas: La Vida Religiosa de Los moriscos. Madrid, 1915, P. 305-307.

ومما يذكر هنا أن هذا الأدب قدم للباحثين وعلماء الصوتيات الإسبان خدمة جلى، وذلك لأنه مكنهم من التعرف على طرق نطق الحروف الإسبانية من حيث مخارجها وخاصة أن اللغة الإسبانية شهدت تغييرات صوتية هائلة فيما بين القرن الخامس عشر والسابع عشر فقد نقلت المخطوطات الخميادية طريقة نطق الكثير من الحروف الإسبانية قبل حدوث هذه الثورة الصوتية وأثناءها بدقة متناهية، الأمر الذي أفاد الدارسين الإسبان فائدة عظيمة لا يعرف قيمتها إلا المختصون[1].

نماذج من المخطوطات الخميادية.

وقد عثر في المكتبة الوطنية بباريس، والمكتبة الوطنية بمدريد على مخطوطتين تحتويان على نماذج من التراث الخميادي، حول الجدل العقائدي بين المسلمين وأهل الكتاب، والتنبؤ بمصير إسبانيا، إضافة إلى بعض الأدعية والابتهالات، وعدد من المسائل الفقهية الاسلامية، وغير ذلك مما يعطي فكرة عن التراث الديني للموريسكيين.

وفيما يلي عرض موجز لما تضمنته تلك النماذج:

أما النموذج الأول: فيمثل الجدل بين المسلمين والمسيحيين، وقد ورد في المخطوط رقم (٤٩٥٣) بالمكتبة الوطنية بمدريد، وعنوانه: "أسطورة شرجيل بن شرجون"[2]. ويبدأ هذا النموذج ــ بعد البسملة ــ بعبارة : "هذه هي أسطورة شرجيل بن شرجون" والاسئلة التي ألقاها على علي بن أبي طالب، وخلاصته أن شرجيل، وهو رجل مسيحي من الشام، قدم وكان معه خمسون رئيس دير أو راهبا ليقابل الرسول، صلى الله عليه وسلم، ويسأله عددا من الأسئلة ليتأكد من أنه هو النبي، وأن دين الإسلام هو الحق. ولما كان الرسول قد انتقل إلى رفيقه الأعلى، فقد وجه أسئلته إلى خليفته الرابع علي بن أبي طالب الذي استطاع أن يجيب عن الأسئلة جميعها بما أقنع شرجيل المسيحي بأن الدين الإسلامي هو الدين الحق، حيث توافقت تلك الأجوبة مع ما هو موجود في الانجيل، وكانت النتيجة أن أسلم هو وصحبه، وحسن إسلامهم.

---

[1] قعيب (حمودة)، شهادة الكفاءة في البحث العلمي، ص ١٨.
[2] المرجع نفسه، ص ٢٨.

ومن أمثلة ما تضمنه هذا النموذج من أسئلة وأجوبة:

سؤال المسيحي عن معنى: "والذاريات ذروا" و"الحاملات وقرا" و"الجاريات يسرا" و"المقاسمات أمرا". وعن اثنين ليس لهما لحم أو دم قد تحادثا مع رب الأنام، وعن مفاتيح السماء من أي شيء هي؟. وعن شيء يتنفس وليس فيه روح أو دم، وعن شيء خلقه الله ثم اشتراه وعن الماء الذي لا ينزل من السماء ولا يولد من الأرض، وعن أول من مات على وجه الأرض، وعن أول شجرة حرّكها الريح، وعن المحّجة البيضاء التي تشق السماء، وعن واحد ليس له ثان، وعن اثنين لا ثالث لهما، وعن ثلاثة لا رابع لهم، وعن أربعة لا خامس لها، وعن خمسة لا سادس لها وعن ستة لا سابع لها وعن سبعة لا ثامن لها.

وقد أجاب علي بن أبي طالب كرم الله وجهه بأن "الذاريات ذروا" هي الرياح الأربع: الجنوب، والشمال، والصبا، والدبور. "والحاملات وقرا" هي السحب التي تحمل الماء من بلد إلى بلد، "والجاريات يسرا" هي السفن في البحر. "والمقاسمات أمرا" هي الملائكة التي تقسم الأرزاق بين الخلق كل يوم باذن. وعن الاثنين اللذين تحادثا مع سيد الأنام وليس لهما لحم أو دم فهما السموات والأرض، عندما قال الله لهما: "ائتيا طوعا أو كرها قالتا أتينا طائعين". وأما عن مفاتيح السماء فهي أفواه الخلق. عندما يقول العبد عن إيمان ونية حسنة: "أشهد أن لا اله إلا الله وحده لا شريك له وأشهد أن محمدا عبده ورسوله" يخرج من بين نوايا العبد ضياء في صورة طائر أخضر فيطير ويقطع السموات السبع إلى أن يسقط ساجدا بين يدي الله عز وجل مرتعشا ارتعاش أوراق الأشجار عند هبوب الرياح الشديدة فيقول سيد الأنام:

أيتها الكلمة، لا تخرجي من فم عبدي فإني أغفر له حتى ولو قالها مرة في حياته. وأما عن الشيء الذي يتنفس دون أن يكون له روح فهو الصبح عندما يتنفس. وأما عن الشيء الذي خلقه الله ثم اشتراه فهو أرواح الذين يموتون في سبيل الله. وأما عن الماء الذي لم ينزل من السماء ولم ينبع من الأرض فهو عرق الخيول عند الجهاد في سبيل الله.

وأما عن أول من مات على وجه الأرض فهو هابيل عندما قتله أخوه قابيل. وأما عن أول شجرة حركها الريح فهي تلك التي صنعت منها سفينة نوح. وأما عن المحجة

البيضاء التي في السماء فهي التي أرسل فيها تبارك وتعالى غضبه على قوم لوط. وأما عن واحد لا ثاني له فهو الله تبارك وتعالى. وأما عن اثنين لا ثالث لهما: فهما آدم وحواء، وأما عن ثلاث لا رابع لهم فهم جبريل وميكاييل واسرافيل، وأما عن أربعة لا خامس لها فهي الكتب الأربعة: التوراة والانجيل والزبور والقرآن، وأما عن خمسة لا سادس لها فهي الصلوات الخمسة التي كتبها الله على عباده، وعن ستة لا سابع لها فهي الأيام التي ذكرها الله في القرآن العظيم. ربنا الله الذي خلق السماوات والأرض في ستة أيام ثم استوى على العرش. وعن سبعة لا ثامن لها فهي: السماوات السبع الطباق التي خلقها الله في ستة أيام بقدرته وعظمته.

ويمثل النموذج الثاني: الجدل بين المسلمين واليهود، وقد ورد في المخطوط رقم (٧٧٤) بالمكتبة الوطنية بباريس، وتضمن أسئلة طرحها جماعة من اليهود على النبي محمد صلى الله عليه وسلم، وعندما تيقنوا من أن إجاباته كلها صحيحة صافحوه معلنين الشهادتين وأسلموا هم ونساؤهم وأبناؤهم وصحبهم وكثير من الناس الذين من نسبهم[١].

لقد سأل أولئك اليهود: لماذا جعل الله البيت بمكة مربعا؟. وعن السبب الذي من أجله فرض الله الصلوات الخمس على المسلمين في خمسة أوقات، وعن الأجر الذي يناله من يقوم بتلك الصلوات بين يدي الله. كما سألوه: لماذا أمر الله بغسل الأعضاء عند الوضوء؟. وعن أجر من يؤدي الوضوء، وعن سبب أمر الله بالتطهر من منّي اللذة وعدم أمره بالتطهر من ماء القيء. وعن الأجر الذي يناله من يؤدي الوضوء. وسألوه: لم أوجب الله تعالى شهر رمضان وأعزّه؟ وعن أجر الصائم. كما سألوه لماذا فضله الله على جميع الأنبياء؟ ولماذا فضل الله أمة محمد على كل الأمم؟.

وكان اليهود كلما استمعوا إلى إجابة من إجابات الرسول صلى الله عليه وسلم يقولون، صدقت يا محمد. ومن أمثلة تلك الإجابات ما ذكره رسول الله صلى الله عليه وسلم عن أجر الصائم، فقد قال: "ما من مسلم أو مسلمة يصوم شهر رمضان إلا وأعطاه الله ست نعم ومعها عشر أخرى: الأولى أنه يخرج من ذنوبة فيصبح كيوم ولدته أمه،

---

[١] قعيب (حمودة)، شهادة الكفاءة في البحث العلمي، ص ٣٨.

والثانية أن يخلصه الله من كل لحم أو دم خلق في جسمه من الحرام، والثالثة أن يمن الله عليه برحمته، والرابعة أن ينعم الله عليه بقصر في الجنة مقابل كل يوم يصومه في شهر رمضان، والخامسة أن لا يحس بالجوع والعطش يوم القيامة، والسادسة أنه يأمن كل أهوال يوم القيامة وعذابه، والسابعة أنه لا يدخل إلى جهنم..." .

ويتضمن النموذج الثالث: الوارد في المخطوط رقم (٧٧٤) بالمكتبة الوطنية بباريس رواية حول إسبانيا، ولكن عن النبي محمد صلى الله عليه وسلم. ووفقا لهذه الرواية: وصف رسول الله جزيرة الأندلس، وذكر أنها ستكون آخر جزيرة تعمر بالإسلام، وستكون الأولى التي سينسحب منها. وأن الجهاد لن ينقطع فيها، وأنها سهل من سهول الجنة. ويرد في ثنايا هذه الرواية أن جبريل عليه السلام أخبر محمدا صلى الله عليه وسلم بأن الناس في الاندلس يشيبون قبل الأوان من جور أعدائهم... ويأكلون الحبوب قبل نضجها... وأن النصارى سينتصرون على المسلمين عندما يؤثرون أنفسهم، ويفضلون الدنيا على الدين، ولا يعبؤون كثيرا بعقاب الرحمن[١].

ومن الأدعية التي تضمنتها المخطوطات: دعاء الرحمة[٢]، ودعاء المسلم الغريب في أظهر المشركين[٣]، ومما جاء في هذا الدعاء الأخير:

- اللهم أمّن عبيدك المسلمين الذين قد انقطعوا في أرض الغربة بين أظهر المشركين، فأنصرهم بنصرة جميلة منك، وخلصهم إلى بلاد المسلمين، إنك أنت الرحمن الرحيم يا رب العالمين.
- اللهم أنصر جيوش المسلمين نصرا تعزّ به الدين وتذل به الكافرين، برحمتك يا خير الناصرين، يا رب العالمين.

والمسائل الفقهية الإسلامية التي وردت في المخطوط رقم (٤٩٥٣) بالمكتبة الوطنية بمدريد تناولت الصلاة قبل وبعد وقتها، وصلاة النهار والليل، والصلاة المنسية، والحديث أثناء الصلاة، والسحور، وخروج الدم عند الصلاة، والوضوء، والثياب في

---

(١) قعيب (حمودة)، شهادة الكفاءة في البحث العلمي، ص ٥٤.
(٢) المخطوط رقم (٤٩٥٣)، المكتبة الوطنية/مدريد.
(٣) المخطوط رقم (٧٧٤)، المكتبة الوطنية/باريس.

الصلاة، والوضوء وسننه وفروضه، وأوقات الصلاة، والنسيان في الصلاة، والصوم في شهر رمضان.

ومن أمثلة هذه المسائل ما جاء في أوقات الصلاة: "أما صلاة الصبح فهي الصلاة الوسطى ووقتها هو طلوع الشمس حتى قرب بزوغها، ووقت الظهر أن تصير الشمس في وسط السماء، ويستحب تأخيرها قليلا من تلك الساعة إلى بداية وقت العصر، ووقت العصر هو أن تضع منديلك تحت لحيتك وترفع عينيك نحو الشمس فإذا رأيتها فذلك هو وقت بداية العصر إلى أن تصفر الشمس. وأما وقت المغرب فهو ساعة الصلاة عند غروب الشمس وليس فيه إلا ساعة واحدة. وأما وقت صلاة العتمة (العشاء) فهو عند بداية غروب الشفق[١]، وإذا لم تبق الصفرة أو الخيوط فقد أزف وقتها، ولا تنظر في سبب بقاء بياض من المغرب، فتلك هي ساعتها حتى ثلث الليل".

ومن الأساطير الموريسكية حول الصحابة ما تضمنه المخطوط رقم (٤٩٥٣) بالمكتبة الوطنية بمدريد من حديث لعمر بن الخطاب عندما سمح الله له برؤية الموتى. فقد ورد في تلك الأسطورة أن عمر بن الخطاب، رضي الله عنه، دعا الله أن يسمح له برؤية أرواح الموتى في منامه، فحمل الله روحه إلى مقبرة فرأى الموتى جالسين، بعضهم بجانب الآخر، في شكل حلقات، بإتجاه قبلة قبورهم، فسلم عليهم عمر فلم يردوا السلام، وعللوا ذلك بأن رد السلام هو لكسب الحسنات، وأنهم موتى ولا يمكنهم كسب الحسنات ولا ارتكاب السيئات.

وتذكر الرواية أن الموتى يجلسون معا في شكل حلقات، ويتذكرون أهل الدنيا، ويراقبونهم عندما يذهبون إلى المساجد يوم الجمعة وعندما يرجعون من صلاتهم، وأنهم ـ عندما يموت أحد ـ يتجمعون حوله ويسألونه عن أخبار أهل الدنيا.

---

(١) الشفق: ـ بقية خيوط من أشعة الشمس عند وقت المغرب.

إن المسلمين ــ كما جاء في الآية الكريمة ــ بسم الله الرحمن الرحيم "آمن الرسول بما انزل اليه من ربه والمؤمنون كل آمن بالله وملائكته وكتبه ورسله لا نفرق بين أحد من رسله وقالوا سمعنا وأطعنا غفرانك ربنا واليك المصير"(١) . هكذا هم المسلمون يؤمنون بالله وبالملائكة والكتب السماوية المختلفة، والأنبياء جميعا، وهم لا يميزون بين كتاب سماوي وكتاب سماوي آخر، ولا يفضلون نبيا على نبي، فالأمة الإسلامية لم تعرف التعصب الديني ولم تسع إليه في يوم من الأيام، وقد كان المسلمون في شتى الأزمنة مثالا للتسامح بين الأديان، وما حدث في الأندلس أيام مجد المسلمين وعزهم خير شاهد على ذلك.

والنصان الأول والثاني المتعلقان بالجدل العقائدي بين علي بن أبي طالب والنصراني، وبين محمد صلى الله عليه وسلم وجماعة اليهود، يقصدان صراحة إلى إظهار الانسجام التام بين الديانات السماوية الثلاث، فلا تناقض بين هذه الديانات لأن مصدرها واحد، فالنصراني يوجه إلى علي بن أبي طالب مجموعة من الأسئلة، وكذلك تفعل جماعة اليهود مع النبي محمد صلى الله عليه وسلم، وهذه الأسئلة بمثابة اختبار من السائل للمسؤول، وبعد الإجابة عن هذه الأسئلة واقتناع السائلين بصحة الإجابات، معتمدين في ذلك على كتبهم السماوية، ينجلي الموقف، ويعلن كل من النصراني وجماعة اليهود دخولهم في دين الإسلام. غير أن الأسئلة التي وردت في هذين النصين والإجابات عليها لا يمكن إلا أن توصف بالسذاجة والسطحية، ومع ذلك فهي تهدف إلى إظهار الانسجام بين الديانات السماوية المختلفة لأنها جميعها روافد لنبع واحد. ورغم ما لحق بالموريسكيين من اضطهاد وقمع وتنكيل على أيدي مسيحيي إسبانيا إلا أننا نجد هذه النصوص تخلو تماما من الإساءة لهم، فهي تذكرهم على أنهم إما المسيحيون، أو عبدة الصليب، أو عبدة الأوثان أو آكلو لحم الخنزير، ولا أرى في هذه التسميات جميعا ما يسيء إلى المسيحيين الإسبان، مع أنهم اضطهدوا الموريسكيين اضطهادا شديدا على يد رجال الكنيسة الكاثوليكية، وكتبوا عن النبي محمد صلى الله عليه وسلم ما يندى له الجبين، ويعف اللسان عن ذكره لإيغاله في البذاءة والإسفاف(٢).

---

(١) سورة البقرة، مدنية، آية ٢٨٥.

(2) Cardallac, moriscos Y Cristianos, un enfrentamiento polemico (1492-1640) Buenos Aires (España, 1979, Pág. 84).
- Archivo Inquisitorial de cuenca, Leg. 369, num 5114.

أما التأثير المسيحي في العقيدة الموريسكية فيبدو واضحا جليا، ذلك لأن الكتب السماوية جميعها تأتي منسجما بعضها ببعض، خالية من التناقض الذي قد يتوهمه البعض لأنها تنهل من معين واحد، أضف إلى ذلك أن الموريسكيين كان لا بد لهم أن يتأثروا بالمسيحية، خصوصا إذا عرفنا أن أرض الأندلس كانت قبل ظهور نزعة التعصب الديني ملتقى للديانات السماوية الثلاث. أما وقد أصبح الموريسكيون يعيشون في جو مسيحي محض بعد تسليم مملكة غرناطة فكان من البديهي أن يتأثر هؤلاء الموريسكيون بالجو المسيحي الذي يلقي بظلاله على شتى مناحي الحياة الفكرية والسياسية والحياتية.

لكل هذا ظهر تأثر الموريسكيين بالمعتقدات المسيحية جليا، فقد أصبحت الخطيئة التي ارتكبها آدم بأكله من الشجرة المحرمة علة لكثير من الأعمال التي يؤديها المسلم[١] ـ كما جاء في النصوص الموريسكية ـ فغسل الوجه أثناء الوضوء مرده ـ في نظر الموريسكيين ـ إلى أن الوجه فيه العينان، وبهما نظر آدم إلى الشجرة المحرمة. وغسل الرجلين لأنه مشى بهما نحو هذه الشجرة. وغسل اليدين لأنه أكل بهما ثمرتها، أما مسح الرأس فلأن آدم عندما ارتكب خطيئته كان يضع تاجا فوق رأسه، فوجب مسحه لإزالة أثر ذلك التاج.

والوضوء عامة يصبح من خلال هذا النص بمثابة صك للغفران به تمحى السيئات جميعا، فعند غسل الوجه تتسرب الآثام التي اقترفها المسلم من هدب عينيه، وعند غسل اليدين تمحى الذنوب التي ارتكبتها يداه وتخرج من أطراف أصابعه، وعندما يتمضمض المسلم يغفر الله له كل ما نطق به لسانه من لغو وكل ما أكله بفمه من حرام، وعندما يغسل المسلم رجليه يغفر الله له كل الذنوب التي سار إليها بقدميه.

وهكذا نلاحظ من النص السابق تأثر الموريسكيين الواضح بالمسيحية، وإن كان ما جاء فيه حول الوضوء لا يتناقض بشكل عام مع ما جاء في ديننا الإسلامي، فقد قال

---

(١) "وياءادم اسكن أنت وزوجك الجنة فكلا من حيث شئتما ولا تقربا هذه الشجرة فتكونا من الظالمين"، سورة الأعراف، مكية، آية (١٩).

ـ أنظر أيضاً: (٢٠) سورة طه مكية، آية (١٢) (فأكلا منها فبدت لهما سوء اتهما وطفقا يخصفان عليهما من ورق الجنة وعصى ءادم ربه فغوى).

رسول الله صلى الله عليه وسلم في باب فضل الوضوء: "إذا توضأ العبد المسلم فغسل وجهه، خرج من وجهه كل خطيئة نظر إليها بعينيه مع الماء، أو مع آخر قطر الماء، فإذا غسل يديه، خرج من يديه كل خطيئة كان بطشتها يداه مع الماء، أو مع آخر قطر الماء، فإذا غسل رجليه خرجت كل خطيئة مشتها رجلاه مع الماء، أو مع آخر قطر الماء، حتى يخرج نقيا من الذنوب[١].

ومرة أخرى تلجأ النصوص الموريسكية إلى خطيئة آدم الأولى وذلك لتفسير سبب اغتسال المسلم عند خروج المني، وعدم اغتساله عند خروج القيء. فالمسلم – في نظرهم – يغتسل من الجنابة لأن آدم عندما أكل من الشجرة المحرمة تغذى بها كامل جسمه، ولهذا وجب التطهر عند خروج المني بإعتباره افرازا من افرازات الجسم الذي تغذى من الثمرة المحرمة.

وتلجأ النصوص الموريسكية مرة ثالثة إلى الخطيئة الأولى، لتعليل صوم رمضان فالمسلم – كما يرون – يصوم رمضان، لأن آدم عندما أكل من الشجرة التي حرمها الله عليه، بقيت تلك الأكلة في جسمه ثلاثين يوما، وكانت تلك الأيام في شهر رمضان، وقد ظل آدم عازفا عن الطعام والشراب، حتى خرج من جسمه كل ما أكل من الثمرة المحرمة، وذلك عند تمام الثلاثين يوما، لكل هذا فقد وجب الصوم على المسلمين تخليداً لهذا الحدث.

كذلك فقد وردت في هذه النصوص مجموعة من الأدعية التي تركز على وحدانية الله سبحانه وتعالى، فالنصراني الذي جادل علي بن أبي طالب رأيناه ينطق بالشهادة بعد انتهاء الحوار على النحو التالي "أشهد وأقر أن لا إله إلا الله وحده، وأن لا شبيه له، وأشهد أن محمدا عبده ورسوله الحقيقي". كما أن في الدعاء الذي يتوجه به الموريسكي إلى الله تأكيداً على الوحدانية فهو يقول: "الله أكبر الله أكبر الله أكبر، لا حد له، ولا ند له، ولا حد له، ولا حدود له، ولا شبيه له، ولا مثال له، ولا شريك له في الملك ولا وزير".

---

[١] رواه مسلم، (رياض الصالحين، ص ٣١٣).

ومن يتأمل هذه الأدعية يجد أنها تمتاز بالإطالة والمبالغة، وهي في نظرنا مبالغة مقصودة تهدف إلى ترسيخ مبدأ الوحدانية في نفوس المسلمين هناك من جهة، وتسليه النفس، وتنفيس ما يعتورها من كآبة نتيجة لما آلت إليه حالهم من جهة أخرى.

إن طغيان الجانب النظري في النصوص الخميادية لا يعني إهمال الجانب العملي فيها، فالباحث يمكنه أن يلمح فيها اهتماما خاصا بالجانب التطبيقي، فالمسلم من خلال هذه النصوص يمكنه أن يتعلم كيفية الوضوء والغسل، وكيفية أداء الصلاة والصوم. ورغم أن النصوص التي تتعلق بالجانب التطبيقي تتسم بالايجاز، إلا أنها تفي بالغرض الذي أعدت من أجله، وهو تعليم المسلم في تلك الديار كيفية أداء الفروض الدينية على الوجه الأمثل، بكلمات موجزة، وطريقة ميسرة.

فلا بد للناقد الموضوعي أن يراعي الظروف النفسية والثقافية والفكرية والموضوعية التي رافقت ميلاد العمل الأدبي الذي هو بصدد دراسته.

إن الباحث المتمعن في النصوص الخميادية الموريسكية، لا يجد عناء كبيرا في الوقوف على بعض الهفوات أو الأخطاء التي وقع فيها مؤلفو هذه النصوص، من ذلك الخلط في الوضوء بين فرائضه وسننه، فمسح الرأس وغسل اليدين إلى المرفقين هي من فرائض الوضوء لا من سننه كما جاء في النص الموريسكي. كذلك فقد لمحنا في هذه النصوص تضاربا حول الصلاة الوسطى. فالنص الثاني الذي يجادل فيه محمدا صلى الله عليه وسلم جماعة اليهود، يتحدث عن صلاة العصر واصفا إياها بالصلاة الوسطى، في حين نجد في النص الخامس تحت عنوان : في أوقات الصلاة، حديثا عن صلاة الصبح، واصفا إياها بالصلاة الوسطى.

وقد اشتملت هذه النصوص على بعض الأمور الغريبة التي لم نجد لها سندا في القرآن أو السنة أو لدى الفقهاء، من ذلك "إذا أدى الرجل أو المرأة صلاتي الظهر والعصر ثم نام قبل غروب الشمس. فعليه أن يستحم ويؤدي صلاتي الظهر والعصر بالرغم من أنه قد أداهما في وقتهما". ومنها أيضا "أنه يجب على المصلي الذي نسي قراءة السورة مع الفاتحة أن يكبر مرتين أو يقرأ التحيات مرتين، ومنها أيضا أن يطالب المصلي بالتسليم

ست مرات أو سبع مرات، لما في ذلك من زيادة الأجر والثواب، في حين نجد أن الفرق والمذاهب الإسلامية كافة اتفقت على أن السلام: إما سلام واحد من اليمين إلى اليسار، أو واحد على اليمين وآخر على اليسار.

هذه بعض السقطات التي وقع فيها مؤلفو النصوص الخميادية الموريسكية، وهي سقطات ليس غريبا أن تحدث تحت وطأة محاكم التفتيش، وسياسة القمع والتنصير التي مورست ضدهم، فقد كان الكثيرون منهم يكتبون من الذاكرة دون الاعتماد على أي مراجع وذلك لندرتها وخطورة اقتنائها، ويبدو هذا واضحا في النص الخامس تحت باب : في الصلاة قبل وبعد وقتها، حيث قال مؤلف هذا النص صراحة في نهاية حديثه "هذا ما ورد علينا من الذاكرة والله أعلم وأحكم".

ويلاحظ الباحث في هذه النصوص الخميادية، أنه أمام فكر بسيط قائم في مجمله على الأساطير والخرافات. لقد عاش الموريسكيون حياة قاسية مليئة بالخوف والقمع والاضطهاد من قبل رجال الكنيسة ومحاكم التفتيش وبدلا من أن يجمعوا شتاتهم، ويوحدوا كلمتهم، ويدرسوا الأسباب التي أدت بهم إلى ما هم فيه من ذل وهوان، بدلا من ذلك لجأوا إلى مجموعة من الأساطير والخرافات علها تمنحهم بعض الطمأنينة والأمان، فهم كمن يقع في بعض المشكلات العسيرة الحل، وبدلا من التصدي لحلها، يتجه إلى الادمان والمخدرات، موهما نفسه أنه بعمله هذا يسعد روحه ويتخلص من المشكلات التي تلاحقه.

ويكفي أن نقرأ الجدل الذي دار بين علي بن أبي طالب والنصراني، وبين محمد صلى الله عليه وسلم وجماعة اليهود، حتى نكتشف سخافة الأسئلة وسذاجة الإجابات، فالأسئلة بعيدة عن كل منطق، إذ لا رابط بينها ولا اتصال، والإجابات بعيدة عن كل اقناع، ومع ذلك يتم المراد ويدخل الجميع في الإسلام.

إن هذين النصين يكشفان ما يختلج في نفوس الموريسكيين من أمنيات، فهم يتمنون انتصار الإسلام بين عشية وضحاها، بحيث يعتنقه المسيحيون واليهود كافة، كما حدث في هذين النصين، ولكن شتان ما بين الحقيقة والخيال.

هذه بعض سمات البعد الفكري للأدب الخميادي، نتبين من خلالها مدى الانحطاط الفكري، الذي ساد في تلك الفترة بعد أن بنى الأندلسيون مجدا وأقاموا حضارة عندما كانوا يربطون النتائج بالمقدمات، والأسباب بالمسببات.

ويلاحظ الدارس للنصوص الخميادية أنها تشتمل على الكثير من المهدئات، فمعظم هذه النصوص تدور حول الآخرة، وحول غفران الذنوب، فإذا كان الموريسكيون قد خسروا الدنيا وما فيها من متع، فلا أقل من أن يعملوا علهم يفوزون بالآخرة، وبذلك يكونون قد عوضوا ما خسروه في دنياهم.

أما الحديث عن الذنوب فإن له ما يبرره من الجانب النفسي، لقد انتصر النصارى الإسبان على المسلمين، وهذه حقيقة لا مراء فيها، ولكن هذا لا يعني بأي حال من الأحوال أن النصرانية هي الدين الحق. وأن الإسلام غير ذلك، فالمسلم يعتقد أن الإسلام هو الدين الحق، وأن النصرانية يكتنفها الكثير من التحريف، فكيف ينتصر الباطل على الحق؟. لتبرير ذلك نجد النصوص الموريسكية تسرف في الحديث عن الذنوب، فلقد ارتكب المسلمون الكثير من الآثام حتى باؤا بغضب من الله، فسلط الله عليهم من لا يخافه ولا يرحمهم، من هنا فإن الموريسكيين يرون في انتصار النصارى الإسبان عليهم تكفيرا عن الذنوب التي اقترفها من سبقوهم من المسلمين، وإن النص الذي يتحدث عن التنبؤ بمصير إسبانيا يتحدث بإسهاب عن الأسباب التي ستؤدي إلى خروج الاندلس من حظيرة الإسلام، ويواصل النص الموريسكي الحديث عما ينتظر المسلم يوم الحساب من تكريم وإجلال ومن حفاوة ورفعة، لأنه إذا كان قد عانى في الدنيا الكثير من الذل والاحتقار، فلا أقل أن يعوض عن كل هذا في الحياة الآخرة، وهذا دون شك لون من ألوان المهدئات.

إن البعد النفسي الذي تعكسه النصوص الخميادية يتسم بالكثير من الضبابية وعدم وضوح الرؤية، فتارة نجد نزعة تميل إلى السلم والمؤاخاة مع النصارى، حيث ورد في أحد النصوص "طوبى للمسلم الذي يكون له صديق نصراني، وطوبى للنصراني الذي يكون له صديق مسلم". وهذه دعوة صريحة للمؤاخاة بين المسلمين والمسيحيين، ونسيان الأحقاد وفتح صفحة جديدة بين الطرفين. وتارة أخرى نجد نزعة تحث على الجهاد، لأنه لا أمل في استرجاع الوطن إلا بالجهاد، وهو وطن فيه من المميزات ما يجعل كل شيء

يهون في سبيله، فهو جزيرة الرحمة، وهو سهل من سهول الجنة وبه أربعة أبواب من أبوابها. وهذا التناقض بين النزعتين يمكن أن يجد له الباحث المدقق ما يبرره، فالمسلمون كانوا يحلمون منذ القرن الخامس الهجري (الحادي عشر الميلادي) بالعيش مع أي ملة بأمان واطمئنان، فلم يعرف مسلمو الأندلس منذ بداية وجودهم على أرض الجزيرة التعصب، بل كانوا دعاة تسامح واخاء ومحبة، والباحث المنصف يسهل عليه أن يرى أن كل الحروب التي خاضها المسلمون في الأندلس منذ موقعة الزلاقة في القرن الخامس الهجري حتى حروب غرناطة في القرن التاسع الهجري، لم تكن سوى حروب دفاعية محضة، ولكن بعد تسليم مملكة غرناطة عامل النصارى المسلمين معاملة غير إنسانية، فقد مارسوا ضدهم شتى ألوان القمع والاضطهاد بغية التنصير أو التهجير، الأمر الذي ولد في نفوس الموريسكيين كبتا فغليانا فانفجارا، وما الانتفاضات التي قاموا بها سوى تعبير عن رفض الواقع الذي آلت إليه حالهم من ذل وقهر ومهانة.

الحياة الاقتصادية للموريسكيين

تأثرت حياة الموريسكيين تأثراً كبيراً بظروف القمع والاضطهاد والتهجير والنفي التي عانوا منها، وأثرت هذه الظروف على جميع نواحي حياتهم، وحولتها إلى حياة بائسة مليئة بالمصاعب والآلام، حتى انهم في كثير من الحالات كانوا يفضلون الموت الكريم في ساحات الحرب والثورة، على هذه الحياة.

لقد عاش الموريسكيون في ظل أحكام جائرة فلم يكن يسمح لهم بممارسة الأعمال التي يريدونها بعد أن فرضت عليهم سلسلة من المحظورات، إذ كان من الصعب عليهم امتلاك الأراضي وقد سلبت أملاكهم وأموالهم كما تم الاستيلاء على الأراضي المحبوسة على المساجد والحرمين الشريفين وضمت إلى أملاك الكنيسة. وقد تبين حجم مصادرات الأراضي من سجلات محاكم التفتيش نفسها ومن الأمثلة على ذلك مصادرة مائة ألف هكتار على أثر ثورة البشرات العامة سنة ١٥٦٨، كما تم الاستيلاء على (٤٢٨٠٠٠٠) هكتار في منطقة غرناطة، وهكذا فان أراضي الكنيسة ومحاكم التفتيش كانت أرضاً

موريسكية[١]. بل حرم عليهم امتلاكها وصودرت معظم أملاكهم وأراضيهم بعد أن هُجّروا إلى جهات متفرقة في إسبانيا كما حظر عليهم الاشتغال بالتجارة والنقل[٢]. ولم يعمل الموريسكيون في الصيد والرعي وجمع الأخشاب والفحم[٣].

غير أن أحوال الموريسكيين الاقتصادية لم تكن واحدة في جميع نواحي الاندلس، فقد كانت حياة الموريسكيين الذين تمّ تهجيرهم من غرناطة إلى أماكن أخرى في الاندلس، على سبيل المثال، أصعب من حياة الموريسكيين الذين كانوا يعيشون على شكل تجمعات سكانية كبيرة كما كان الحال في بلنسية ومرسية وارغون حيث ظلوا يشكلون نسبة عالية من السكان، وكانوا يمارسون أعمالاً أكثر تنوعاً من الغرناطيين المهجّرين[٤].

وبالرغم من الظروف البائسة فقد ظلّ للموريسكيين دور فاعل في المجتمع الإسباني، وإن كانت ظروفهم قد أجبرتهم على العمل في المهن التي يمتنع عنها القشتاليون، غير أنهم من ناحية أخرى كانوا يمارسون أعمالاً في مجال الزراعة والصناعة يعجز القشتاليون عن القيام بها.

وإذا ما قارنا الموريسكيين بالقشتاليين الذين احتلوا أراضيهم بعد تهجيرهم، فاننا نجدهم أكثر نشاطاً وجدية في أعمالهم، حتى إن المصادر الإسبانية تجمع على الاعتراف بنشاط الموريسكيين وقدرتهم الفائقة على العمل، فقد وصف الأب بيدرو دي ليون الموريسكيين بالنشاط فقال على لسان موريسكي "عندما أخرج من منزلي إلى الحقل استقبل الشمس في وجهي، وعندما أعود تودعني في ظهري"، وليس كالنصارى القدماء الذين يعملون فترات متقطعة[٥]. ووصفهم الرحالة الألماني موزنير الذي طاف بإسبانيا في عهد الملكين الكاثوليكيين بانهم رجال اشداء اعتادوا على الأعمال الشاقة كأعمال الحدادة والبناء والسيراميك. كما كان رأيه فيهم مشابهاً لرأي الأب بيدرو دي ليون، ووصفهم

---

[١] التميمي، د. عبد الجليل، الدولة العثمانية وقضية الموريسكيين، زغوان، ١٩٨٩، ص ٥٣، ٥٨.

[٢] هورتز، انطونيو دومينقير، وبنثنت، برنارد، تاريخ مسلمي الاندلس (حياة ومأساة)، ترجمة عبد العال صالح طه، دار الاشراق، قطر، ١٤٠٨هـ/١٩٨٨م، ص ١٣٨، ١٤٢.

[٣] المرجع نفسه، ص ١٣٨.

[٤] المرجع نفسه، ص ١٣٨.

[٥] هورتز، ص ١٣٦.

آخرون بأنهم يتميزون بالقناعة[1]. وقد أثار نشاطهم وذكاؤهم وخبرتهم في تصريف شؤون التجارة والزراعة وازدهارها على أيديهم حقد الإسبان عليهم وحرم عليهم بيع الحرير والذهب والفضة والأحجار الكريمة[2].

أما المهن التي كانوا يمارسونها فإن الزراعة في الأراضي المروية تأتي في مقدمتها وخاصة العمل في الحدائق والبساتين وصناعة الصابون والأحذية والحبال ومهنة البيطرة، ويعود ذلك لسببين: الأول أنه كان يحظر على الموريسكيين ملكية الأراضي والثاني أن القشتاليين لم يكونوا يجيدون الكثير من المهن. ومع ذلك وجدت في المناطق التي كان الموريسكيون يتركزون فيها أعمالٌ أكثر تنوعاً وتشمل جميع مجالات الحياة[3].

وترتب على حرمان الموريسكيين من امتلاك الأراضي، اشتغالهم في الزراعة في اقطاعيات السادة والنبلاء، ولم يكن هؤلاء يستغنون عن الموريسكيين في المزارع التي تعتمد على الري، لأنهم كانوا يتقنون فنون الري إذ أن هذا النوع من الزراعة يحتاج إلى مهارة فنية يجهلها القشتاليون، فبالاضافة إلى ما كان الموريسكيون يتحلون به من صبر وجدّ فان المسلمين الاندلسيين هم الذين طوروا الزراعة في الاندلس، وشاهد ذلك أن المصطلحات التقنية المستخدمة لدى القشتاليين كانت ذات أصل عربي وكذلك كانت أغلبية المحاصيل الزراعية ذات أصل شرقي وأهمها الأرز والبرتقال وقصب السكر[4]، كما برع الموريسكيون في الزراعة المكثفة في الأراضي المروية واستغلوا حتى المجاري المائية الصغيرة في المناطق الجبلية.

وكان انتاج الحرير احتكاراً موريسكياً، وكانت أهم مراكز انتاجه توجد في غرناطة وبلنسية ومرسية، لذلك اضطر الإسبان إلى الاحتفاظ ببعض الموريسكيين للقيام

---

(1) هورتز، ص ١٣٧.
(2) التميمي، د. عبد الجليل، الدولة العثمانية وقضية الموريسكيين، زغوان، ١٩٨٩، ص ٢٨.
(3) هورتز، ص ١٤٢.
(4) المرجع نفسه، ص ١٣٩.

بتلك الأعمال، كما اضطروا أيضاً إلى السماح للغرناطيين بعد تهجيرهم داخل إسبانيا إلى الإقامة في بلاد أخرى مثل مرسية[1].

وقد زار رحالة بولندي يدعى جاك سويسكي الاندلس سنة ١٩١١م، وشاهد الزراعات التي انشأها الاندلسيون حيث ذكر أن العينين تحتاران من كثرة أشجار البرتقال والزيتون والأرز في كل مكان كالغابات وأن أجمل هذه المناطق تقع حول غرناطة، حيث جلب الاندلسيون الماء من الجبال المغطاة بالثلوج عبر قنوات وأنفاق، كما ذكر رحالة آخر هو بارتيلمي زار بلنسية وقارن بين أوضاعها قبل التهجير وبعده وذكر أن الاندلسيين كانوا ينقلون مياه الينابيع عبر قنوات ضيقة من الآجر لري بساتينهم، كما ذكر انهم كانوا يزرعون الأرز في الأماكن الضحلة، كما وصف بساتين العنب والليمون والبرتقال والتوت وقصب السكر، وذكر أيضاً أن هذه الحدائق الغناء أصابها الخراب وهجرت بعد أن فقدت من كان يرعاها من الموريسكيين[2].

وكانت الزراعة هي العمل الأساسي لموريسكيي أرغون. كما كان موريسكيو ريف تارازونا بوجه خاص يعملون في زراعة القمح. ولقد نقص انتاج هذا المحصول بدرجة كبيرة بعد مراسيم التهجير سنة ١٦٠٩م. واضطرت حكومة فيليب الثالث إلى استيراد القمح من الأقطار الأوروبية الأخرى.

ويذكر انطونيو دومينقر هورتز أن الزراعة في إسبانيا لم تعد إلى حالتها التي كانت عليها أيام الموريسكيين، وأن نموها كان بطيئاً جداً، وأن المستوى الفني المرتفع والمحصول الوفير للزراعة الموريسكية لم يتم الوصول إليه حتى الثورة الصناعية[3] في القرن التاسع عشر. كما انقرضت زراعة الأرز وقصب السكر بعد طرد الموريسكيين، ولم تستأنف زراعتهما إلاّ في القرن الثامن عشر.

---

(١) هورتز، ص ١٤٠–١٤١، ١٤٣.

(٢) بشتاوي، عادل سعيد، الاندلسيون المواركة، دراسات في تاريخ الاندلسيين بعد سقوط غرناطة، ط٢، دمشق، ١٩٨٥، ص ١٧٦، ١٧٧.

(٣) هورتز، ص ١٤١، ٢٦٥.

وكان الموريسكيون يشتغلون في الزراعة كأجراء في أغلب الأحيان وقليل منهم من كان صاحب ملكية صغيرة[1]. ويعود ذلك بطبيعة الحال إلى مصادرة أراضي الموريسكيين لدى تهجيرهم سواء إلى داخل إسبانيا أو خارجها.

وقد استفاد الإسبان من خبرة موريسكيي غرناطة بعد تهجيرهم القسري وتوزيعهم داخل إسبانيا، ومن ذلك طلب أحد الدوقات من الحكومة الإسبانية إذناً باستخدام خمسين موريسكياً للعمل في ري وزراعة البساتين الكبيرة والكثيرة في دائرته الاقطاعية، إلاّ أن المجلس الاستشاري لم يوافق الاّ على استخدام ثلاثين فقط على أن يحدد أماكن اقامتهم[2]. ويوضح لنا هذا الطلب الاسباب التي دعت النبلاء إلى معارضة طرد الموريسكيين، وإبقاء عدد كبير منهم في إسبانيا للقيام بتلك الأعمال الفنية.

كانت الزراعة هي العمل الأساسي للموريسكيين، فقد طلب مجلس قشتالة أن يترك الموريسكيون التجارة والحرف ويعملون في الزراعة[3] كما صدرت لوائح متعددة تمنع الموريسكيين من العمل كفنيين أو حتى صبياناً (تحت التدريب) أو حرفيين كما حرمت لوائح اشبيلية عليهم العمل كفنيين في صنعة النجارة نظراً لشهرة الموريسكيين في هذا الفن، ومع ذلك فإن صناعة الأبواب والسقوف ظلت تتم على الطريقة الموريسكية، وظل كتاب (نجارة ما هو أبيض) الذي ألفه موريسكي هو لوبيث دي اريناس هو المرجع في هذا المجال[4]، وعندما تم تهجير الموريسكيين أصيبت الصناعة بضربة مدمرة، وذهب مجد المدن التي اشتهرت بالصناعة ففقدت برغش تجارتها بالصوف القشتالي كما فقدت مدينة شقوبية قدرتها على صنع الملابس الجميلة وانتهت إلى عوز شديد[5]. إلاّ أن بعض الأوامر الملكية كانت تقضي بالسماح لهم في بعض الأحيان بالعمل في المهن بسبب الحاجة اليهم.

---

(1) هورتز، ص ١٤٠، ١٤٢؛ وبشتاوي، ص ١٧٦.

(2) هورتز، ص ١٤٠.

(3) المرجع السابق، ص ١٤٤.

(4) المرجع نفسه، ص ١٤٤-١٤٥.

(5) بشتاوي، ص ١٧٧.

وعلى الرغم من القيود التي فرضتها النقابات فان الحاجة إلى مهارة الموريسكيين جعلت مقداراً كبيراً من الانتاج الصناعي الفني في اشبيلية مثلاً في يد الموريسكيين مثل الخياطة والنجارة، كما عمل الموريسكيون في الصناعة متخفين تحت أسماء نصرانية، وكان موريسكيو اشبيلية هم الذين ينتجون أفضل أنواع القماش وأعمال الجلود والمعادن مثل النحاس والفضة والأسلحة وأسرجة الخيول وأدوات الزينة للمعابد والبيوت[١].

وقد أكدت الدراسات المنصفة أن الموريسكيين كانوا رجالاً مهرة وفنيين في صناعات الحرير والصياغة والعمارة والبناء وأساليب الريّ، إلاّ أن أغلبهم في أواخر القرن السادس عشر عملوا في مهن يدوية شاقة كالخدمة في البيوت أو حمّالين، وتحول العديد منهم إلى عبيد[٢].

ولم يستغنِ الإسبان عن الخبرة المعمارية والانشائية الموريسكية فقد كان كبير البنائين لقصور اشبيلية في سنة ١٥٠٥ موريسكياً، وكذلك برج سرقسطة الذي يعد جوهرة للفن المدَجَّن، وكذلك بناء سدّ الإيبيره في تشيرتا سنة ١٥٤٢م. كما ساهم معماري موريسكي مشهور هو زونرونيقي في العديد من الأعمال العمرانية في المرية في القرن السادس عشر، كما كان السيراميك ذو التربيعات من موريسكي سرقسطة[٣].

وكانت الصناعات المعدنية احتكاراً موريسكياً أيضاً، مثل الحدادة والمصابيح، بل ان أحد الموريسكيين هو الذي صنع النقوش المعدنية الجميلة على باب كاتدرائية إيسباليتا.

ونظراً للحاجة للخبرة الموريسكية فقد طلب حاكم قرطبة استثناء صانعي أسرجة الخيل من قرار التهجير العام. وعمل عدد كبير من الموريسكيين في الصناعات الجلدية وظلوا يمارسون صناعة الأحذية في سرقسطة، كما ظلوا يمارسون هذه المهنة في اراغون حتى القرن الثامن عشر.

---

(١) هورتز، ص ١٤٥، ١٤٦.

(٢) التميمي، الدولة العثمانية وقضية الموريسكيين، ص ٦٠.

(٣) هورتز، ص ١٤٦، ١٤٧.

وكان الموريسكيون يصنعون السلال والحبال والأسّرة والألعاب النارية، وكذلك صناعة الرصاص، وكانوا يديرون مصانع لانتاج البارود وصناعة البنادق[١]، كما مارسوا عدداً من المهن الأخرى مثل الخبازة، والجزارة والسقاية.

ولما حظرت القوانين القشتالية على الموريسكيين ممارسة الأعمال التجارية الكبيرة، اقتصر عملهم في هذا المجال على الأعمال التجارية الصغيرة، ومع ذلك حققوا فوائد من هذه التجارة أثارت حسد الإسبان فطالب بعضهم بمنعهم من ممارسة هذا العمل. كما حقق الموريسكيون مكاسب مالية نتيجة لاشتغالهم في نقل البضائع على الدواب، ومن المعوقات التي كانت تعترضهم في هذا المجال تحريم تغيير محل إقامتهم، وقد كان الموريسكيون يتغلبون على هذه المعوقات بأساليب متعددة، وكانوا يطلبون الإذن بالتنقل. كما عملوا في الموانئ والنقل النهري، كما أن حاجة إسبانيا إلى الجنود والبحارين لترسلهم إلى العالم الجديد (امريكا)، أدت إلى السماح لعدد من الموريسكيين بالسفر إلى العالم الجديد[٢].

وكان للموريسكيين تراث علمي اندلسي لا يخفى على باحث فقد تفوق الاندلسيون في جميع مجالات العلوم، وعلى الرغم من الجهل الذي عمّ إسبانيا بعد تهجير الموريسكيين، نتيجة لحرق عدة ملايين من الكتب العربية وتحريم استخدام اللغة العربية، فقد بقي عدد من الموريسكيين يعملون في مجالي الطب والصيدلة، إذ كان علم المسلمين موضع احترام لدى الكثير من أفراد الشعب في إسبانيا، ومع ذلك كانت السلطات تقاوم عمل الأطباء والصيادلة الموريسكيين. وكان الإسبان يراجعون الأطباء الموريسكيين في الحالات الميئوس منها، بل أن أحد الأطباء الموريسكيين عالج فيليب الثالث قبل توليه الحكم، وهو الملك الذي طرد الموريسكيين فيما بعد، كما كان الطبيب الموريسكي باتشيت يعالج مرضى من الطبقة العالية. ومع ذلك كانت إسبانيا تقاوم أي نشاط ثقافي للموريسكيين[٣]، وكانت القوانين القشتالية تحرم على الموريسكيين أن يمارسوا مهن الطب

---

(١) هورتز، ص ١٤٧، ١٤٨.
(٢) المرجع نفسه، ص ١٤٧، ١٤٨.
(٣) المرجع نفسه، ص ١٥٠-١٥٤.

والصيدلة والتضميد[1]، إلاّ أن السلطات كانت تغض النظر أحياناً بسبب الحاجة إلى مهارة الموريسكيين في هذه المجالات.

كما حرّمت القوانين الإسبانية التي سميت (صفاء الدم) على الموريسكيين استعمال اللغة العربية وتم الاستيلاء على مدارسهم وتمت ملاحقة الفقهاء والمعلمين الذين كانوا يعلمون الأطفال سراً، ومنعتهم من الالتحاق بالجامعات[2].

وكذلك حظر على الموريسكيين الوصول إلى الوظائف الرفيعة والمناصب العليا، وكانت الموانع والعراقيل تقف في طريقهم وتحول بينهم وبين هذه المناصب. وخاصة أن لوائح لوركا حرمت عليهم العمل في الكتابة، وتولي المناصب العامة، كما حالت بينهم وبين العمل كمعماريين أو أمناء.

ونظراً لمحدودية دخل الموريسكيين فقد عاشوا في بيوت متواضعة مصنوعة من الخشب والطين، فأعمالهم لم تكن تدر عليهم إلا القليل من الدخل، الذي لا يكاد يسد احتياجاتهم الضرورية، ورغم ذلك فان القشتاليين كانوا يتهمونهم بالبخل، واخفاء الثروات الطائلة.

ولا بُدّ هنا أن نذكر أن بيوت الموريسكيين على الرغم من تواضعها في مظهرها الخارجي، إلا أنها كانت تحتوي على ثروة فنية هائلة من الزخارف والرسوم، الأمر الذي كان يضفي عليها جواً من الفخامة والأبهة.

وعندما تم تهجير الموريسكيين أصيب الاقتصاد الإسباني بانتكاسة حادة، وخاصة في بعض القطاعات التي برعوا فيها، إذ خلت البساتين من الأيدي العاملة الماهرة، وتعثر قطاع النقل بشكل حاد، وتعطلت صناعة الحرير أو كادت، لأن الموريسكيين كانوا قد احتكروا تربية دودة القز وصناعة الحرير بشكل يكاد مطلقاً.

---

(1) التميمي، الدولة العثمانية وقضية الموريسكيين، ص ٦٠.

(2) المرجع نفسه، ص ٦٢.

ولم يقتصر أثر تهجير الموريسكيين السيء على اقليم اسباني بعينه، وإنما ترك مثل هذا الأثر في معظم الأقاليم الإسبانية، ولكن حدة هذا التأثير اختلفت من اقليم إلى آخر، فالأقاليم التي كانت تقطنها نسبة عالية من الموريسكيين تأثرت بصورة ملحوظة، أكثر من الأقاليم التي كانت نسبتهم فيها محدودة، ولكن هذه القاعدة لم تكن مطلقة، فقد كان لتهجيرهم من مدينة بلد الوليد مثلاً أثر سلبي كبير وألحق ببساتينها أضراراً بالغة، رغم أنهم لم يشكلوا إلا نسبة قليلة من سكانها، ووقع مثل ذلك الأمر في مدينة (ديثا) التي اضطر مجلس المدينة فيها إلى خفض نسبة الضرائب مرتين الأولى سنة أربع عشرة وستمئة وألف للميلاد والثانية سنة أربع وخمسين وستمئة وألف للميلاد، ذلك لأنه لم يبق في هذه المدينة إلا عدد محدود منهم لا يزيد على مئة وستة أفراد. أما مدينة "مرسية" فقد أدى تهجيرهم منها إلى حدوث انتكاسة كبيرة فيها، حيث ألقت عملية التهجير بظلالها على شتى مناحي الحياة داخل المدينة، فقد كان يرتاد هذه المدينة من مدينة بلنسية حوالي عشرة آلاف موريسكي لبيع الحرير، كذلك فقد اضطرت ألف أسرة موريسكية للهجرة منها، كل ذلك ألحق باقتصاد المدينة ضرراً لا طاقة لها به، مما أجبر مجلسها على خفض نسبة الضرائب المفروضة، للتخفيف من الآثار الناجمة عن هذه العملية[١].

وكانت المناطق الشرقية والجنوبية من إسبانيا أكثر المناطق تأثراً بعد تهجير الموريسكيين فقد كان من نتيجة ذلك انهيار اقتصاد الشرق والجنوب تماماً، وشمل الخراب اخصب مناطق شبه الجزيرة الايبيرية من حوض نهر إيرو شمالاً وحتى سواحل مملكة غرناطة جنوباً، وأعلن النبلاء أفلاسهم لأنهم لم يستطيعوا توفير بديل للموريسكيين، ولم يتمكنوا من سداد ديونهم أو دفع الضرائب مما أدى إلى انخفاض دخل الدولة مما زاد في حدة المشكلات الداخلية والخارجية في إسبانيا[٢] .

وكانت معاناة غرناطة أشد وأقسى من الولايات الأخرى، وذلك لارتفاع نسبة الموريسكيين فيها، ولم تكن المرية ومالقة وأرغون أقل تأثراً من غرناطة. وقد خيم على هذه الولايات شبح الكساد ونقص الأيدي العاملة المدربة وأصبحت خراباً بعد أن تركها الموريسكيون إلى جانب أن أرضها سيئة والناس لا يعملون فيها بجد وأصبحوا في فقر

---

(١) هورنتز، ص ٢٥٦-٢٥٧.

(٢) بشتاوي، ص ١٧٨.

شديد[1] مما جعل الكثير من القشتاليين يرفعون أصواتهم شاكين متذمرين. وهكذا فان نسبة الموريسكيين المهجرين من إسبانيا بعد صدور قرارات التهجير بين عامي ١٦٠٩-١٦١٠م، مع أنها لم تكن تتجاوز أكثر من ٤% من مجموع السكان، إلا أنها تركت آثاراً سلبية على المجتمع الإسباني بأسره، وذلك لأنهم كانوا من الطبقة العاملة المنتجة، ولم يكن بينهم رهبان أو نبلاء أو جنود أو محتالون أو متسولون، وظل مجتمعهم نظيفاً من هذه الأوبئة التي تفشت في مختلف المجتمعات قديمها وحديثها.

واكتشفت حكومة قشتالة أثر الجريمة التي ارتكبتها بحق الاندلسيين الموريسكيين فاعترف أحد رجال الكنيسة سنة ١٦٣٣م أن طرد الموريسكيين عاد بضرر بالغ على إسبانيا، وأن فكرة عودتهم فكرة طيبة لو انهم فقط يقبلون بديننا السماوي[2].

ولقد علل معظم الباحثين الإسبان الركود الاقتصادي الذي أصاب المجتمع الإسباني بعد تهجير الموريسكيين القسرى، بقيام الموريسكيين بتهريب ثرواتهم خارج البلاد، بل أدعى بعضهم أن الموريسكيين أخفوا أموالهم وثرواتهم في باطن الأرض حتى لا يستفيد منها غيرهم، وهذه التعليلات التي قد يكون فيها جانب من الصحة، أغفلت الدور المؤثر الذي لعبه الموريسكيون في قطاعات الاقتصاد الإسباني كلها.

لقد أحدث تهجير الموريسكيين هزة أصابت المجتمع الإسباني، فارتفعت أصوات التذمر والشكوى تدريجياً، بسبب قلة الأيدي العاملة، والارتفاع الحاد في الأجور وتعطل بعض الأعمال التي كانت ممارستها مقصورة على الموريسكيين.

ولا بد من الاشارة إلى أن تهجير الموريسكيين القسرى كان نعمة لفئة من فئات المجتمع الإسباني وكان نقمة لفئة أخرى، فطبقة النبلاء ورجال الاقطاع تأثروا سلباً من جراء هذا التهجير، حيث نقصت الأيدي العاملة الرخيصة، مما أدى إلى اهمال البساتين المزروعة بالأشجار المثمرة حتى كادت تجف، أما طبقة العمال والحرفيين فقد استفادت كثيراً من هذا التهجير، فلم يعد أمامهم من ينافسهم في العمل، وكذلك رفعوا أجورهم أكثر

---

[1] هورتز، ص ٢٥٦-٢٥٧.

[2] بشتاوي، ص ١٧٩.

من مرة، حتى أصبحت ظاهرة ارتفاع الأجور مصدر شكوى الكثيرين. كما اتيحت لـــهم الفرصة لشراء ممتلكات الموريسكيين بأبخس الأثمان، يضاف إلى ذلك أن قســـما منـــهم كانوا سعداء بتهجير الموريسكيين لأنهم كانوا مدينين لهم بمبالغ طائلة، ولـــم يعـــد بعـــد تهجيرهم من يطالبهم بهذا الدين[1].

أما الذين تأثروا بصورة مباشرة فكانوا رجال الاقطاع، كما عانت الكنيسة أيضـــا، وتضررت الطبقة المتوسطة من التجار الذي انخفض دخلهم بعد التهجير حتى أن أغلبـــهم أعلن افلاسه، واعلن البنك المحلي في بلنسية إفلاسه، وحدث نقص كبير في العملة. وقـــد اعترف بطريرك ريبيرا بالاضرار التي أصابت الاقتصاد بقوله أن الاثار ستكون خطـيرة بالنسبة لولاية بلنسية، وأنه يشعر بتلك المصائب التي حلت بها لكنه كان يعتـــبر القضيـــة الدينية أهم من الخسائر المادية[2].

---

(1) هورتز، ص ٢٦٤.

(2) المرجع نفسه، ص ٢٦٢-٢٦٤.

الفصل التاسع

هجرة الأندلسيين
إلى أقطار المغرب العربي

هجرة الأندلسيين
إلى أقطار المغرب العربي وجهادهم

تعود العلاقة بين أقطار المغرب العربي والأندلس إلى فترة مبكرة منذ بداية الفتح الاسلامي، ثم تعززت هذه العلاقة حتى أصبحت تتخذ شكل الوحدة منذ أيام المرابطين والموحدين من بعدهم ثم في عهد بني مرين حتى الدولة السعدية. وكانت المغرب هي الحصن الذي يلجأ إليه الأندلسيون لطلب النجدة كلما واجهوا تزايد الخطر الإسباني، وقد كان المغرب يلبي دائماً هذه الاستغاثات، وبذلك سجل صفحة مشرقة من صفحات الجهاد لانقاذ الأندلس وحمايتها.

ولذلك فإن من الطبيعي أن يلجأ الأندلسيون إلى المغرب حينما تعرضوا للنفي والتهجير من قبل الإسبان. وقد بدأت الهجرات الأندلسية إلى المغرب منذ سقوط طليطلة سنة ٤٧٨هـ/١٠٨٥م. لكنها كانت هجرة محدودة ثم تزايدت بعد تساقط المدن الأندلسية الرئيسية في يد الإسبان في أواسط القرن الثالث عشر. نتيجة للضغوط والعسف الذي مارسه الإسبان ضدهم. ثم بلغت الهجرة أوجها بعد سقوط غرناطة سنة ١٤٩٢م ثم بعد صدور قرار التهجير القسري سنة ١٦٠٩ حيث جرى الفصل الأخير من الهجرة إلى أقطار المغرب العربي وغيره.

وسنعرض في الصفحات التالية هجرة الأندلسيين إلى أقطار المغرب العربي الثلاثة مبتدئين بالهجرة إلى المغرب الأقصى.

١. هجرة الأندلسيين إلى المغرب الأقصى

تعود علاقة الأندلسيين برباط الفتح إلى فترة مبكرة نظـــراً لاشـــتراك المغـــرب باستمرار في تقديم العون للاندلس، الاّ أن هذه العلاقة توطدت أكثر فأكثر نتيجة لـــهجرة عدد كبير من الأندلسيين إلى أقطار المغرب العربي ولا سيما الرباط، ولذلك سنبدأ باعطاء فكرة عن نشأة الرباط ثم هجرة الأندلسيين إليها وجهادهم فيها.

نشأة رباط الفتح.

يعود بناء مدينة رباط الفتح إلى عهد الخليفة عبد المؤمن بن علي الكومـــي ســـنة ٥٤٥هـــ، الذي اعطاها اسم المهدية تيمناً باسم المهدي بن تومرت[١] ، وفي عـــهد ولـــده يوسف بن عبد المؤمن، واكتمل بناؤها وتخطيطها وتشييدها سنة ٥٩٣هـــ/١١٩٧م فـــي عهد أمير المؤمنين عبد الله يعقوب بن يوسف بن عبد المؤمن بن علي الكومي الموحـــدي (٥٥٥ــ٥٩٥هــ/١١٦٠ــ١١٩٩م)[٢] ، لدى عودته من الأندلس حيث نزل بمراكش ثـــم انتقل إلى مدينة سلا، وأعجب بحدائقها، ومتنزهاتها، وكان قد بنى بالقرب منـــها مدينـــة سماها رباط الفتح لتكون قاعدة ومنطلقاً لجيوش الموحدين إلى الأندلس شمالاً وإلى افريقيا شرقاً. لكونها واسطة العقد ولأهمية موقعها الجغرافي بين مراكـــش وفـــاس والأندلـــس. وهكذا نرى أن يعقوب المنصور الموحدي هو الذي معّرها ومهّدها وابتدأ بناء أســـوارها من جهة الشمال والغرب[٣] .

بنيت رباط الفتح على هيئة مدينة الاسكندرية في الاتساع وحسن التقسيم واتقـــان البناء وتحصينه وتحسينه. وبناها على شاطئ المحيط الاطلنطي (الأطلسي)، وعلى الضفة الجنوبية لنهر أبي رقراق عند المصب، شمال الخط العرضي بدرجـــة ٨١ر٣٧ وغـــرب

---

[١] السويسي، عبد الله، تاريخ رباط الفتح، الرباط، ١٩٧٩م/١٣٩٩هـــ، ص ٥٣.

[٢] المرجع نفســـه، ص ٥١، وكريّـــم، عبـــد الكريـــم، ربـــاط الفتـــح عاصمـــة المملكـــة المغربيـــة، ١٤٠٦هــ/١٩٨٦م، ص ١٠-١١.

[٣] السويسي، تاريخ رباط الفتح، ص ٤٩، وانظر أيضاً: كريّم، عبد الكريم، رباط الفتح عاصمة المملكـــة المغربية، ١٤٠٦هــ/١٩٨٦م، ص ٩ــ١٢.

الخط الطولي بـ ١٩ر١٠[1]. بينما يذكر الناصري في كتابه الاستقصاء عن موقعها بأنها تقع على نهر سلا مقابلة لها من البر القبلي[2]. ويذكر صاحب الاستقصا أن عبد المؤمن عندما قدم من مراكش إلى سلا عام ٥٤٥هـ نظر في أمرها وأجرى إليها ماء عين غبوله ووصل إلى رباطها، ولم تكن رباط الفتح يومئذ قد اكتملت في عهده بل في عهد حفيده يعقوب المنصور الموحدي[3].

وقد ذكر صاحب القرطاس (نقلاً عن تاريخ رباط الفتح) أنه لما حضرت المنصور (عبد الله يعقوب بن يوسف) الوفاة قال: ما ندمت على شيء فعلته في خلافتي إلا على ثلاث وددت لو لم أفعلها، الأولى: إدخال العرب من افريقيا إلى المغرب: مع أني أعلم أنهم أهل فساد. والثانية: بناء رباط الفتح، أنفقت فيه من بيت المال وهو بعد لا يعمر. والثالثة: اطلاق أسارى الأرك، ولا بد لهم أن يطلبوا بثأرهم.

وعلق صاحب الاستقصا على ذلك بأنه قد تخلف ظنه برباط الفتح فهو اليوم من أعمر أمصار المغرب وأحضرها، حرسه الله وحرس سائر أمصار المسلمين من آفات النقصان وطوارق الحدثان[4]. توفي فيها الناصر الموحدي سنة ٦١٠هـ بعد عودته من موقعة العقاب[5]. وفي سنة ٦٤٩هـ ملكها الأمير أبو بكر المريني كما ملك سلا[6] واسترجعها المرتضي من يد بني مرين سنة ٦٥٠هـ[7].

وفي عهد الدولة العلوية سار السلطان محمد بن عبد الله إلى الثغور سنة ١١٧٣هـ لتفقد أحوالها فدخل العرائش فوجدها خالية ليس بها إلا مائتين من أهل الريف ثم سار إلى سلا فعبر الوادي ونزل برباط الفتح وأقام به أياماً وأمر ببناء برج على البحر كما أمر

---

(1) السويسي، ص ٨.

(2) الناصري، الشيخ أبو العباس أحمد بن خالد، الاستقصا، ج٢، الدار البيضاء، ١٩٥٤م، ص ٢٠٣.

(3) المرجع نفسه، ج٢، ص ١١٩، وكريّم، ص ٩.

(4) السويسي، تاريخ رباط الفتح، ص ٣٥؛ انظر أيضاً: الاستقصا، ص ٢٠٦.

(5) الاستقصا، ج٢، ص ٢٢٥.

(6) المرجع نفسه، ج٢، ص ٢٥٢.

(7) المرجع نفسه، ج٢، ص ٢٥٣.

بإنشاء سفينتين إحداهما لأهل سلا والأخرى لأهل رباط الفتح وكانت عندهم سفينة واحدة مشتركة بينهم[١].

وفي سنة ١١٨٢هـ سار السلطان سيدي محمد بن عبد الله إلى رباط الفتح وأمر بقطع البساتين التي بظاهر البلد وأنزل به العبيد وبنى لهم الدور والمسجد والمدرسة والحمام والسوق وزاد عليهم الفين وخمسمائة من الودايا جلبها من القبائل وكتب الجميع في الديوان وجعلها في مقابلة عبيد مكناسة والودايا الذين بها وأفاض فيهم العطاء الكثير لسكناهم بثغر من ثغور الإسلام[٢]. وهكذا نرى أن تاريخ مدينة الرباط يرتبط بناحيتين مهمتين هما: الهجرات الأندلسية التي طبعت الرباط بالطابع السياسي والجهاد، فقد أصبحت الرباط وسلا مركزاً لتجمع المجاهدين المتحفزين للعبور إلى الأندلس.

هجرة مسلمي الأندلس (الموريسكيين) إلى رباط الفتح.

تشكل هجرة مسلمي الأندلس إلى رباط الفتح وسلا حلقة من حلقات حركة التهجير العامة التي شاهدتها الأندلس ابتداء من سقوط طليطلة سنة ٤٧٨هـ/١٠٨٥م، حتى صدور مرسوم تهجير موريسكيي بلنسية عام ١٦٠٩م.

فلم تكن هجرة الموريسكيين من بلنسية وغيرها من مدن الأندلس بموجب مرسوم سنة ١٦٠٩م أول هجرة من هذا النوع بل سبقتها هجرات متعددة في فترات متباعدة تعود إلى وقت مبكر نسبياً ابتداء من سقوط طليطلة. ويمكن تقسيم هذه الحركة تسهيلاً للبحث إلى عدة مراحل أهمها: المرحلة الأولي: بدأت بسقوط طليطلة سنة ٤٧٨هـ/١٠٨٥م بيد ألفونس السادس ملك قشتالة، وكانت تشكل عاصمة الثغر الأوسط، وكان سقوطها بمثابة ضربة قاصمة للوجود الاسلامي في الأندلس إذ لم ينجح المسلمون في استعادتها أبداً. ولم تفلح جهود المرابطين ولا الموحدين من بعدهم في استعادة طليطلة، بل استمر تساقط

---

[١] الاستقصا، ج٨، ص ١٢.

[٢] المرجع نفسه، ص ٣٥.

المدن الأندلسية في يد الإسبان تباعاً. فسقطت قرطبة سنة ٦٣٣هـ وبلنسية سنة ٦٣٦هـ ودانية سنة ٦٤١هـ وجيان سنة ٦٤٣هـ وشاطبة سنة ٦٤٤هـ ومرسية ٦٦٤هـ.

وأخذ المدد المغربي للأندلس يتضاءل نتيجة لضعف دولة الموحدين في المغرب وقيام إمارات متخاصمة فيه مثل الامارة الحفصية في تونس والزيانية في المغرب الأوسط وبني مرين في المغرب الأقصى.

ونتيجة لضعف شأن المسلمين في الأندلس فقد بدأ خروج جماعات مهاجرة خرجت في اتجاهين إذ انحاز فريق منهم إلى مملكة غرناطة لمواصلة عملية الجهاد ضد القشتاليين لاسترجاع ما فقدوه بينما انحاز فريق آخر إلى عدوة المغرب لمواصلة الجهاد من هناك جنباً إلى جنب مع إخوانهم المغاربة حيث استقبلوا استقبالاً حسناً باعتبارهم أخواناً لهم في العقيدة والجهاد (ولا سيما أن الأندلسيين كانوا على مستوى رفيع من التقدم الحضاري في مجالات العلم والصناعة وفنون القتال والأسلحة والملاحة...الخ)، بالاضافة إلى ما يتمتعون به من روح جهادية.

ظهير مرسوم حق الاستيطان في رباط الفتح سنة ٦٣٧هـ.

ومن هنا نجد أن أبا محمد عبد الواحد الرشيد الموحدي يصدر مرسوماً خاصاً (سمي بظهير حق الاستيطان في رباط الفتح سنة ٦٣٧هـ) يأذن بموجبه للمهاجرين الأوائل من بلاد شرق الأندلس سكنى رباط الفتح وتعميرها. ويعتبر هذا الظهير وثيقة مهمة جداً في تاريخ رباط الفتح والمغرب، فبموجبه عرفنا أقدم جالية اندلسية استوطنت رباط الفتح[1].

وبموجب هذا الظهير أذن للاجئين من أهل بلنسية وجزيرة شقر وشاطبة وغيرهم من بلاد شرق الأندلس الذين فروا بدينهم في "الانتقال إلى مدينة رباط الفتح بقضيضهم وقضهم، وأن يتخذوا مساكنه وأرضه بدلاً من مساكنهم وأرضهم"، ووصف مدينة الرباط

---

(١) السويسي، تاريخ رباط الفتح، ص ٩٣، ١٠١.

بأنها (مناخ التاجر والفلاح وملتقى الحادي والملاح، والمرافق من بره وبحره موجودة في كل فصول السنة، مؤذنة لقاطنه بالعيشة الهنية والحال الحسنة)، وذكر الاستاذ السويسي بأن المؤرخ الأستاذ محمد عبد الله عنان قد نقل نص الظهير من كتاب زواهر الذكر لابن المرابط[1].

وقد رافق هذه الهجرة موجة من الغلاء المفرط والوباء المهلك حيث وصل قفيز القمح إلى ثلاثين ديناراً كما روى ابن أبي زرع[2]. وقد ظلت الرباط في عهد الدولة المرينية مركزاً ومنطلقاً لجيش الغزاة الذي أنشأه المرينيون لنجدة الأندلس، وتمكنت الرباط من التصدي للغزو البرتغالي الإسباني الصليبي في القرن التاسع الهجري/الخامس عشر الميلادي ومنهم من بسط نفوذهم في المنطقة[3].

وقد استغل القشتاليون نصوص معاهدة تسليم غرناطة بدهاء حيث وفروا السفن لنقل الراغبين في الهجرة مجاناً خلال شهرين من تاريخ إبرام الاتفاقية[4].

وقد فضل الكثيرون البقاء في بلادهم والقبول بالأمر الواقع والتنصير القسري، ولو ظاهرياً، حيث عز عليهم مفارقة البلاد التي ولدوا فيها ونشأوا تحت سمائها وامتزج حبها بدمائهم وعمرها الآباء والأجداد ما يقرب من ثمانية قرون. وهناك فريق آخر أبت عليه عزة الاسلام أن يعيش ذليلاً متنصراً، فهاجروا إلى جهات متعددة حيث خرج بعضهم إلى مصر والشام وخرج الكثيرون منهم إلى بلاد المغرب العربي بل ذهب بعضهم إلى فرنسا وصقلية، وشارك بعضهم في رحلات كولمبس[5]. فتشرد الملايين من أهل البلاد المسلمين إلى شتى بلدان العالم. إذ لا تكاد تخلو دولة من مجموعة من المهجرين الذين يعودون بجذورهم إلى الأندلس.

---

[1] مخطوط الاسكوريال رقم ٥٢٠، ورقة ١١٦ واثبته في كتابه، عصر المرابطين والموحدين، القاهرة، ١٩٦٤م، القسم الثاني، ص ٧٣٧. انظر أيضاً، كريّم، ص ١٢.

[2] ابن أبي زرع، الأنيس المطرب، طبعة حجرية، فاس، ص ١٨٣.

[3] كريّم، ص ١٤.

[4] حتاملة، التنصير، ص ٣٣.

[5] المرجع نفسه، ص ١٠١، ١٠٢.

وخرج الأمير أبو عبد الله الصغير نفسه وخرج معه نحو من سبعمائة رحل وركب البحر إلى مليله ثم توجه إلى فاس. ثم بادر المسلمون بالجواز إلى عدوة المغرب وخرج من بقي من أهل مالقة إلى بادس (تكتب اليوم باديس)، وأهل المرية إلى تلمسان وأهل الجزيرة الخضراء إلى طنجة وأهالي رنده وبسطة وحصن موجر وقردوش وحصن مرتيل إلى تطوان وأهل ترقه إلى المهدية، وأهل منسين إلى الريف وأهل دانيه إلى تونس والجزائر والقيروان وأهل لوشة وقرية الفخار والبعض من غرناطة وأهل مرشانة وأهل البشرة إلى قبيلة غمارة، وأهل بربرة وبوجه وبوله واندراش إلى ما بين طنجة وتطوان وأهالي مرينيه إلى ازيله (أصيلا)، وخرج أهل بليش وشيطه وشريش إلى سلا وخرج من بقي من أهل غرناطة إلى بجاية ووهران وبرشد زواله ومازونة ونفطه وقابس وسفاقس وسوسه، وأهل طريفه إلى أسفي وزمور وأنفه، وأهل القلعة إلى اجدير. فلما وجد الروم (القشتاليون) أن معظم المسلمين رحلوا، أظهروا لمن بقي منهم حسن المعاملة وقد وعد المسلمون بأن يدخلوا في دين النصرانية سنة ٩٠٤هـ فتظاهروا بالدخول فيها كرهاً[١].

وبلغت الهجرة أوجها في عهد فيليب الثالث بصدور مرسوم بلنسية سنة ١٦٠٩م وفي هذه المرحلة تمت الهجرة القسرية إلى المغرب.

نشأة مدينة تطوان:

انتشر المهجرون في شواطئ افريقية الشمالية والتقوا بإخوان لهم مسلمين أعانوهم على الانتقام لأنفسهم ومنهم عائلة بايز Paez التي سكنت وادي الحلو، فبنوا مساكن لهم على سفح جبل منيع، وظلت هذه المساكن تتكاثر حتى تكونت مدينة تطوان التي كان يعرفها المغاربة باسم كوتاكن Cotaquen أو تطاوين[٢]. وكان مجاهدو تطوان يعملون تحت قيادة مغربية، وكان جهادهم يتركز في منطقة البحر الأبيض المتوسط[٣].

---

(١) فريد البستاني، نبذة العصر في أخبار ملوك بني نصر، (أو) تسليم غرناطة ونزوح الأندلسيين إلى المغرب، العرائش، المغرب، ١٩٤٠، ص ٤٨، ٤٩.

(٢) حتاملة، التهجير القسري للموريسكيين خارج شبه جزيرة ايبيريا في عهد الملك فيليب الثالث، ١٥٩٨ـ١٦١٢م، ص ١٢٣.

(٣) رزوق (محمد) الأندلسيون وهجراتهم إلى المغرب خلال القرنين ١٦ـ١٧ (رسالة دكتوراة)، الدار البيضاء، افريقيا الشرق، ص ٢٥٠.

ومن سواحل المغرب واصل الأندلسيون جهادهم ضد الإسبان كما سنرى.

استقرار الأندلسيين في سلا ورباط الفتح.

ذكرنا في الصفحات السابقة أن هجرات الأندلسيين كانت تتجه في الغالب إلى المغرب العربي بالرغم من العوائق التي كان يضعها القشتاليون في سبيل ذلك، إذ أنهم كانوا يخشون من تجمع الأندلسيين في المغرب والتعاون مع أهلها في معاودة الهجوم على الأندلس وإنقاذها.

وكان لجوء الأندلسيين إلى المغرب أمراً طبيعياً بسبب الرابطة الدينية والقومية التي كانت تربط المغرب بمسلمي الأندلس. فضلاً عن الرابطة الجهادية ابتداء من أول أيام الفتح ومروراً بعهدي المرابطين والموحدين، حيث شكل المغرب والأندلس وحدة واحدة. كما أن أهل المغرب كانوا ينظرون إلى ما يحدث في الأندلس بألم وأسى، ويعملون كل ما في وسعهم لمساعدة إخوانهم الأندلسيين على الجهاد واستعادة فردوسهم المفقود.

ومما تجدر الإشارة إليه أن حركة الهجرة القسرية من الأندلس إلى المغرب كانت تسير في اتجاه واحد، فكان كل إقليم أو مدينة كبيرة يسقط في أيدي الإسبان، تعني موجة جديدة من موجات الهجرة إلى الشمال الأفريقي، تعمل على إغناء هذه البلاد وافقار الأندلس، وكان القسم الأكبر من هؤلاء المهاجرين يتوجهون إلى ناحية المدن الكبرى في المغرب، واستمرت هذه الهجرة على امتداد القرن السادس عشر وأوائل القرن السابع عشر[1].

ويذكر المقري الذي عاصر هذه الأحداث: أن فريقاً من المهجرين الأندلسيين سكنوا سلا وكان منهم من الجهاد في البحر ما هو مشهور، وحصنوا قلعة سلا وبنوا بها القصور والدور والحمامات[2].

---

[1] جمال الدين (د. عبد الله محمد)، المسلمون المنصرون أو الموريسكيون الأندلسيون، القاهرة، ١٩٩١، ص ٤٠٣، ٤٠٤.

[2] المقري: نفح الطيب، ج٤، بيروت ١٣٨٨هـ/١٩٦٨م، ص ٥٢٨.

وذكر صاحب الاستقصا أن الأندلسيين هاجروا إلى مدن المغرب ومنها سلا واستخدم المنصور السعدي منهم عسكراً جراراً. وكان منهم من الجهاد في البحر ما هو مشهور وحصنوا قلعة سلا وكذلك رباط الفتح وبنوا فيهما القصور والحمامات والدور(١).

ويذكر المؤرخان الإسباني انطونيو دومينجز هورتز والفرنسي برنارد بنثنت أن عدداً كبيراً من المهجرين الأندلسيين استقروا في مصب نهر (بوريقيرق) بو رقراق، حيث يوجد مدينتان قديمتان خربتان: مدينة سلا على اليمين، والرباط على الشمال. أما الرباط فقد عاشت فترة من الازدهار في عهد الموحدين حيث أنشأوا مئذنة شبيهة بالخيرالدا الأشبيلية وأسموها منارة حسان(٢). وقد استقبل الأندلسيون في جميع انحاء المغرب استقبال الاخوة. على أننا سنقتصر على ذكر الأندلسيين الذين سكنوا رباط الفتح وضواحيها وقصبتها.

فعندما تقرر طرد الموريسكيين من الأندلس بموجب مرسوم بلنسية سنة ١٦٠٩م في عهد الملك فيليب الثالث، كان سكان بلنسية أول من تقرر في حقهم الطرد، ثم موريسكيو قشتالة واسترامادورا وحرناتشو الذين هاجروا إلى الرباط سنة ١٠١٨هـ/١٦٠٩م، ثم تبعهم مهاجرون من أرغون وجنوبي الأندلس وقطلونية ومرسية. وقد استقر الحرناتشيون في قصبة الأودية وانضموا إلى الجاليات الأندلسية التي هاجرت من قبل(٣).

كان المغرب غداة الهجرة الكبرى للأندلسيين في أوائل القرن السابع عشر يعاني من انقسام سياسي وتدهور خطير في الموارد بالاضافة إلى المجاعات والأوبئة التي أدت إلى نقص ديموغرافي خطير(٤).

---

(١) الاستقصا، ج٤، ص ١٠٦.

(٢) انطونيو دومينقيز ــ والفرنسي: برنارد بنثنت، تاريخ مسلمي الأندلس، الموريسكيون "حياة...ومأساة أقلية"، الدوحة ــ قطر، الطبعة الأولى، ١٤٠٨هـ/١٩٨٨م، ص ٢٨١.

(٣) السويسي، تاريخ رباط الفتح، ص ١٠٤.

(٤) رزوق، محمد، الأندلسيون وهجراتهم إلى المغرب خلال القرنين، ١٦، ١٧، الدار البيضاء، ١٩٨٩، ص ١٨٩.

استقرت جالية أندلسية بسلا في عهد السلطان زيدان السعدي في هذه الفترة. وكانت سلا تعتبر مدفن سلاطين بني مرين. وسكنها لسان الدين بن الخطيب[١]. واختار أن يكون مقامه بها وقد وصف سلا بأنها القاعدة المؤصلة والسورة المفصلة، الجامعة بين البداوة والحضارة، معدن القطن والكتان والمدرسة والمارستان،

والوادي المتعدد الأجفان. القطر الأمين عند الرجفان. يقابلها الرباط، حيث القصبة والساباط[٢]. وقد نال اندلسيو الرباط وسلا الدعم والمساندة من جانب الملوك السعديين، الذين أسسوا فرقاً عسكرياً من الأندلسيين عرفت باسم (جيش الأندلس من جيوش النار) تحت قيادة أندلسية، كما أقطعتهم الدولة السعدية الأراضي حول الرباط، فقاموا بزراعتها واستثمارها. وقد عين السلطان زيدان بن المنصور (السعدي) قائداً لهذا الثغر هو محمد العياشي الذي كان فتحها للجهاد، تمكن في بادئ الأمر بالتعاون مع الأندلسيين من التصدي للاسبان في البحر، كما حقق عليهم الانتصارات[٣].

وقد سعى هؤلاء الأندلسيون إلى تعزيز قوتهم فاستدعوا اخوانهم من سائر أقطار المغرب العربي للاستقرار في القصبة، إذ انبعثت مدينة الرباط الأندلسية داخل السور الموحدي القديم، واستطاعوا أن يقيموا لأنفسهم كياناً مستقلاً حيث أقاموا ثلاث جمهوريات هي:

١ـ الهورنا تشيون في القصبة.

٢ـ الأندلسيون الآخرون في الرباط.

٣ـ وجمهورية ثالثة في سلا.

ونظموا أمورهم على ما كانوا عليه بإسبانيا فكانت السلطة في يد قائد ينتخب لمدة سنة من قبل ديوان مكون من ستة عشر عضواً كلهم من الأندلسيين، واعترف السلطان زيدان السعدي بسيادتهم على هذه المناطق في مقابل تقديمهم عدداً من الأسرى في كل عام إلى السلطان.

---

[١] المقري: نفح الطيب، ج٦، ص ١٧.

[٢] الاستقصا، ج٤، ص ٢٠.

[٣] كريّم، ص ١٥، ١٦.

وذكر دومينجز بأن سلا والرباط (المدينة المزدوجة) اشتهرتا بقدوم الموريسكيين الذين أقاموا فيها ما يمكن تسميته جمهورية مستقلة، من القراصنة، على حد زعمه، ومرت بهم أحداث أليمة، وكان أول من وصل منهم الهورنا تشيون وأن سكان هورناتشو (اسم مدينة في الأندلس). كانوا يمثلون فريقاً متماسكاً من الناحية الاجتماعية إلى جانب ثباتهم على عقيدة الاسلام، وقد أبحروا من أشبيلية ونزلوا سبته واستقروا في تطوان ثم نقلهم السلطان إلى سلا والرباط[١].

وقد قام الهورنا تشيون باصلاح الأسوار وأعادوا بناء المنازل المحطمة، وكانوا يشكلون مجموعة كثيفة جسورة ألفت العيش في الجبال، إذ لم يبق من ثغور المغرب الأقصى بيد المسلمين إلا القليل مثل سلا ورباط الفتح[٢].

كانت القصبة أحياناً مستقلة بنفسها حتى عن الرباط وأحياناً محالفة للرباط ضد المجاهد العياشي أمير سلا، وآونه محالفة لسلا ضد الرباطيين، وأوقاتاً تابعة للسعديين أو للدلائيين من بعد، وكان العياشي المجاهد يسعى إلى توحيد الصفوف والتعاون مع الأندلسيين والسلطان زيدان في الجهاد ضد الإسبان[٣]، غير أنه مما يؤسف له أن النزاع الذي قام بين العياشي والأندلسيين انتهى باغتيال العياشي، كما دب النزاع بين الأندلسيين أنفسهم مما أدى إلى تشتيت قوتهم، وظل الأمر كذلك حتى مجيء العلويين سنة ١٦٦٦م.

جهاد الأندلسيين البحري.

كان المسلمون الذين أخرجوا من ديارهم في الأندلس يشكلون خطراً كبيراً على أمن الشواطئ الإسبانية، وعلى الملاحة في غرب البحر المتوسط بصورة عامة. وقد كثرت في تلك الفترة غزوات موريسكيي الأندلس وازدادت حجماً، وزرعت الرعب في قلوب الإسبان، وكانوا يأسرون من سكان الشواطئ مقابل الفدية لإخوانهم الأسرى لدى الإسبان، وكل هذا كان نتيجة لسياسة إسبانيا العدوانية إزاء موريسكيي الأندلس[٤].

---

(١) دومينجز، الموريسكيون، ص ٢٨١، ٢٨٢.

(٢) الاستقصا، ج٤، ص ١١٠.

(٣) السويسي، تاريخ رباط الفتح، ص ١٠٧.

(4) Jose Ma Doussingue, La pokitica Internacional de Fernando catolico Espasa Calpe, S. A., Madrid, 1944, Capt. II, Pags. 53, 54.

لم ينس الأندلسيون وطنهم ومسقط رأسهم في الأندلس، واعتبروا هجرتهم إلى المغرب، تحيزاً لإخوانهم في المغرب، ومن ثم تحفزا لقتال الإسبان للانتقام منهم، لذلك استمروا في جهادهم ضد الإسبان، غير أن هذا الجهاد للأسف لم يسفر عن تحقيق آمالهم، نظراً للانقسامات والمنازعات التي سادت المغرب العربي والحروب الأهلية التي قامت فيه.

وبما أن هؤلاء الأندلسيين لم يكونوا يملكون قوة برية أو بحرية تكفي لمهاجمة الإسبان في حرب مكشوفة، فقد اعتمدوا اسلوب الغارات البحرية الفدائية على سفن الإسبان، وسفن البرتغال، وغيرهم من السفن الأوروبية. لذلك دأب المؤرخون الأوروبيون على اطلاق صفة القرصنة على أعمال هؤلاء المجاهدين، كما هي عادتهم في تشويه صورة حركات الجهاد والحرية، حتى صارت سفنهم تصل وتهاجم شمال ايرلندا وغربي فرنسا وايطاليا بالاضافة إلى الشواطئ الإسبانية، حتى أصبحت الدول الأوروبية تحسب لهؤلاء المجاهدين ألف حساب. ويذكر دومينجز أن غزواتهم وصلت حتى مشارف ايسلنده[١].

وذكر صاحب الاستقصا أن المغرب الأقصى كان حتى القرن التاسع الهجري مرهوباً فلم تكن الفرنجة تحدث نفسها بغزو أي ثغر من ثغوره أو الاستيلاء على شيء من سواحله بل كان المسلمون هم الذين يغزون الفرنج في عقر دارهم ويحامون عن بلاد الأندلس وسواحل افريقيا. إلا ما كان من مدينة سلا التي دخلها الإسبان أثناء الفتنة. إلا أن الإسبان والبرتغاليين استغلوا الفتن التي حدثت بين المسلمين واحتلوا الكثير من المدن الساحلية فلم يبق في يد المسلمين إلا القليل مثل سلا ورباط الفتح[٢].

وكانت أساطيل الأندلسيين أشد على أوروبا من بحرية الأتراك، كما كان بحارتها أكثر جرأة وخبرة بفنون الحرب البحرية. وكان لمجاهدي سلا مصنع خاص لصنع المراكب. وكانوا يصنعون سفنهم من خشب البلاد، وطوروا صناعتها تطويراً ملحوظاً،

---

(١) دومينجز، الموريسكيون، ص ٢٨٣.

(٢) الاستقصا، ج٤، ص ١٠٩، ١١٠.

وكانت تمتاز بالسرعة والخفة، وكانوا ينصبون الكمائن ويغيرون على الشواطئ الأوروبية ويعودون بسفنهم محملة بالغنائم والأسرى، وكان مدخل ميناء سلا صعب العبور ولا يتمكن من الملاحة فيه إلا من كان خبيراً به بسبب ضحالة مياهه[١]. وكانت توجد بسلا دار لصناعة السفن تصنع بها الأساطيل البحرية والمراكب الجهادية، يجلب إليها العود (الأخشاب) من غابة المعمورة، فتصنع هنالك ثم ترسل في الوادي[٢].

وبلغ أندلسيو سلا ورباط الفتح من القوة حداً جعل الدول الأوروبية تحسب حسابهم، مما كان يضطرها إلى عقد الاتفاقات معهم، إلا أن الأندلسيين كانوا يعقدون اتفاقاً مع دولة أوروبية، ويقوموا بمهاجمة دولة أخرى، فعقدوا اتفاقيات مع فرنسا سنة ١٦٣١م، وبريطانيا ١٦٥٧م، وهولندا ١٦٥١م وسنة ١٦٥٧م[٣]. وكانت دول أوروبا بأسرها تدفع لهم الجزية، وتقدم لهم الهدايا اتقاءً لخطرهم[٤].

أثر الأندلسيين الحضاري في رباط الفتح.

شهدت رباط الفتح على أثر هجرة الأندلسيين إليها تغيرات بعيدة المدى في جميع نواحي الحياة الاقتصادية والاجتماعية والثقافية والسكانية بل وفي النواحي السياسية. وكان تأثيرهم أبعد مدى من غيرهم بحكم عامل الدين الاسلامي أولاً والجوار ثانياً وبحكم تبادل التأثيرات السياسية والحضارية بين المغرب والأندلس منذ الفتح العربي الاسلامي[٥].

فمن الناحية السياسية: استطاع هؤلاء الأندلسيون إقامة كيان مستقل لهم تمثل في الجمهوريات الثلاث التي أنشأوها في وادي أبي رقراق. وساهمت في حلبة الصراع الداخلي بين بني وطاس والسعديين كما قامت بينها حروب أهلية لا سيما الحرب التي قامت بين سلا والقصبة ورباط الفتح، ثم النزاع الذي قام بين الأندلسيين والمجاهد العياشي، وهو النزاع الذي انتهى بمقتل العياشي سنة ١٠٥١هـ/١٦٤١م. وكان لمقتله

---

(١) جمال الدين: المسلمون المنصرون، ص ٤١٥، وانظر دومينجز، ص ٢٨٣.

(٢) الاستقصا، ج٣، ص ٢٢.

(٣) رزوق، الأندلسيون وهجراتهم إلى المغرب، ص ٢٢١.

(٤) أرسلان، الأمير شكيب، خلاصة تاريخ الأندلس، بيروت، لبنان، ١٤٠٣هـ/١٩٨٣م، ص ٣٠٦.

(٥) كريم، د. عبد الكريم، المغرب في عهد الدولة السعدية، الرباط، ١٣٩٨هـ/١٩٧٨م، ص ٢٧٩.

صدى فرح عند الإسبان. وقد أثر هؤلاء الأندلسيون المهجرون إلى المغرب كثيراً على حركات الجهاد التي عمت المغرب في أواخر القرن الخامس عشر والقرن السادس عشر في البر والبحر ولا سيما غداة الغزو الايبيري للسواحل المغربية، كما كان لهم دور فعال في قيام الدولة السعدية وتوطيد دعائمها في المغرب نظراً لاعلان السعديين باستمرار عن عزمهم على تحرير الأندلس[١].

وقد تمتعت القصبة ورباط الفتح بفترة من الهدوء في عهد الدلائيين من سنة ١٦٤٤م إلى سنة ١٦٦٠م، إلا أنهم عادوا إلى الثورة، ولم يقبلوا الخضوع للدلائيين وكان زعيم ثورتهم الخضر غيلان الأندلسي، الذي كان يحرز الانتصارات على الإسبان والانجليز في الوقت الذي حارب فيه الدلائيين، وتمكن من دخول القصبة بعد أن خرج منها الأمير عبد الله الدلائي على سفينة انجليزية[٢]. واستمر الأمر كذلك حتى قامت الدولة العلوية حيث أعاد السلطان المولى رشيد الأمين الهدوء إلى المنطقة سنة ١٦٦١م، وركز اهتمامه على القصبة فعزز ثغورها وجدد الأسطول ورمم القصبة وبنى السور المحيط بحديقة الأودية والقصر الجديد المعروف بقصبة مولاي رشيد[٣]. وهكذا نجد أن الحروب الأهلية والمنازعات الداخلية استنزفت الكثير من قوى الأندلسيين وغيرهم من حكام المغرب بينما كان الأولى أن توجه هذه الجهود ضد العدو المشترك المتمثل في الغزو الايبيري.

كان لمجاهدي سلا ورباط الفتح مركز دولي مهم. وكانت القوى الدولية تتنازع للسيطرة على غربي البحر الأبيض المتوسط وتتمثل في بريطانيا وفرنسا وإسبانيا[٤]. وأقام الأندلسيون علاقات سياسية وتجارية مع الخارج[٥].

---

[١] كريم، المغرب، ص ٢٧٩.

[٢] رزوق، الأندلسيون وهجراتهم إلى المغرب، ص ١٩٠ـ٢٠٨؛ انظر أيضاً: السويسي، تاريخ رباط الفتح، ص ١٠٧.

[٣] السويسي، تاريخ رباط الفتح، ص ١٠٨.

[٤] رزوق، الأندلسيون وهجراتهم إلى المغرب، ص ٢١٥.

[٥] السويسي، تاريخ رباط الفتح، ص ٩٦.

الأثر الديموغرافي والعمراني.

ترتب على هجرة الأندلسيين إلى المغرب أمران: الأول تفريغ السكان من شبه الجزيرة الايبيرية، وتأخر الزراعة والصناعة هناك، نتيجة الهجرة. إذ كان هؤلاء الأندلسيون يتقنون فنون الزراعة والصناعة وغيرها من العلوم ولا سيما علوم الطب.

والثاني مضاعفة عدد السكان في المغرب وحصوله على الخبرات التي كان يتقنها الأندلسيون في جميع مجالات الحياة، وظهور طبقات جديدة تتميز بأنظمة حياتها وتقاليدها[١].

أما في مجال العمارة فقد أسس الأندلسيون مدينة تطوان، وجددوا مراكش وأعادوا تعمير مدينة رباط الفتح، وبنوا الدور والقصور والمرافق، وتميزوا بطريقة خاصة في عمارة الدور من حيث التصميم والزخرفة، وشكل البوابات، وهو الشكل الذي استمر مفضلاً في القصور القديمة في رباط الفتح وسلا وتطوان[٢]. وبنى الموحدون فيها مئذنة شبيهة بالخيرالدا الأشبيلية وأسموها منارة حسان[٣].

الأثر الثقافي.

كان الأثر الأندلسي في رباط الفتح من الناحية الثقافية واضحاً وبعيد الأثر، حيث استقر فيه عدد كبير من أعلام الأندلس الذين نشروا ما حملوه معهم من علوم وآداب[٤]، ولا سيما من هاجر منهم إلى الأندلس في القرن السابع الهجري في عهد الخليفة عبد الواحد الرشيد الموحدي الذي أذن لهم بسكنى رباط الفتح. إلا أن الأستاذ المنوني يرى أن الأندلسيين الذين هجروا بعد سقوط غرناطة، ومن خلال حملات التهجير النهائي سنة

---

(١) المنوني، ملامح من تطور المغرب العربي، ص ٨٧.

(٢) المرجع نفسه، ص ٨٩ نقلاً عن المقري، نفح، ج٢، ص ٦١٧.

(٣) دومينجز، الموريسكيون، ص ٢٨١.

(٤) السويسي، تاريخ رباط الفتح، ص ١٦٦.

١٦٠٩م ووصلوا إلى رباط الفتح، كانوا قد قضوا مدة طويلة تحت التأثير المسيحي على دينهم ولغتهم وثقافتهم مما لا يترك أثراً للتعاليم الاسلامية ولا يستثنى من ذلك سوى بضعة أفراد استطاعوا الحصول على درجة من التثقيف العربي في جو من السرية والحذر[١]. ويعزو الأستاذ السويسي قلة تأثيرهم الثقافي إلى تركيز جهودهم على الجهاد ضد العدو والإغارة على شواطئه وسفنه. أما ثقافتهم فقد كانت متخلفة حيث استعملوا لغة الخميادو (الإسبانية التي تكتب بحروف عربية) بالاضافة إلى المظاهر التي فرضت عليهم لتمييزهم عن الإسبان[٢].

وقد أثر العلماء والأدباء الذين هاجروا إلى المغرب في تطوير الثقافة والعلوم في أوطانهم الجديدة.

الأثر الاقتصادي.

حمل الأندلسيون معهم إلى رباط الفتح ما يعرفونه من خبرات وعلوم في مجالات الصناعة والزراعة فانتشرت بواسطتهم الفنون والصنائع وانتشرت بسببهم الفوائد، وكان يمثلون حيثما نزلوا قطعة من الأندلس وكانت عليهم دائماً مسحة أندلسية تمتاز بالذوق وتدل على الأصالة في التمدن[٣].

ففي مجال الزراعة طور الأندلسيون الزراعة في أقطار المغرب العربي وغرسوا الزيتون والكروم وغرائب الفواكه والثمار وحفروا القنوات وصنعوا العجلات ومهدوا الطرق وشيدوا الجسور وعمروا أكثر من عشرين بلداً[٤].

وفي مجال الصناعة جلب الأندلسيون معهم صناعة المنسوجات الحريرية والصياغة وصناعة الجوارب والحصر والقلانس الحمر. غير أن أهم الصناعات التي

(١) المنوني، ملامح، ص ١٠٩.

(٢) السويسي، تاريخ رباط الفتح، ص ١٦٧.

(٣) ارسلان، خلاصة تاريخ الأندلس، ص ٣٠٦.

(٤) المنوني، ملامح، ص ٨٧.

جلبوها معهم وأنشأوا مراكز لها في رباط الفتح وسلا هي الصناعات الحربية، فأنشأوا صناعة الأسلحة النارية منذ أواخر أيام الوطاسيين حيث استفاد أبو العباس أحمد الوطاسي (المتوفى عام ٩٦١هـ/١٥٥٣م) من خبراتهم في انشاء مصنع للأسلحة النارية بساحة القصر الملكي في فاس لانتاج المدافع والبنادق والبارود. وأصبح في جيش عبد الله الغالب السعدي فرقة مدفعية قوامها جيوش جرارة من الأندلسيين المهاجرين. ثم أنشئ مصنع آخر في مراكش. كما استفاد المغاربة من خبرة الأندلسيين في بناء الأبراج والحصون[١]. وساهموا في بناء الأسطول بمرسى رباط الفتح. واتخذ الأندلسيون من مدرسة الملاحة التي بنيت بجوار القصبة أيام الموحدين مكاناً لتعليم فنون الرماية والملاحة وباقي الفنون المعروفة في ذلك العهد[٢]. وبلغ عدد سفن أسطول سلا في أوج عهده أربعين مركباً، حيث تم انشاء مراكب سريعة من الخشب الموجود في الولاية، وأجهزة الإبحار المستوردة من هولنده[٣].

وفي عهد السلطان عبد الملك السعدي أمر بإنشاء السفن في العرائش سنة ١٥٧٦م وسلا، وبلغ عدد قطع الأسطول المغربي في عهده سنة ١٥٧٧م أربعين سفينة، كما صرف المنصور السعدي اهتمامه إلى بناء الأسطول المغربي وصناعة السفن واتخذ له قاعدة في سلا ورباط الفتح[٤].

وكانت سلا من أهم المراكز التجارية في عهدهم[٥] حيث نشأت حركة تجارية ضخمة مع الخارج بالاضافة إلى الرسوم الجمركية العالية، ولعل حجم تلك التجارة هو الذي يفسر لنا المنافسة الشديدة بين الدول الأوروبية للاستيلاء على سلا[٦].

---

[١] المنوني، ملامح، ص ٩٢ـ٩٣.

[٢] السويسي، تاريخ رباط الفتح، ص ١٣٨.

[٣] دومينجز، الموريسكيون، ص ٢٨٣.

[٤] خروف (عمر بن)، ملامح من الحياة الاقتصادية في المغرب في عهد السعديين، مجلة الدراسات التاريخية، العدد ٣، جامعة الجزائر، سنة ١٤٠٧هـ/١٩٨٧م، ص ٧٥.

[٥] المرجع نفسه، ص ٨٥.

[٦] دومينجز، الموريسكيون، ص ٢٨٣.

الأثر الاجتماعي.

كان الأندلسيون يتميزون بحياة اجتماعية متطورة في عاداتهم وتقاليدهم ولباسهم وزينتهم وكلها نقلوها معهم إلى رباط الفتح بحيث أصبحت مقومات المجتمع المغربي الحديث كما يرى الأستاذ كريم ترجع في أصولها إلى المهاجرين الأندلسيين[1]. ومن المؤثرات الأندلسية في رباط الفتح وسلا انتشار فن الطرب الأندلسي في حفلات الزفاف[2].

---

(1) كريم، المغرب، ص ٢٧٩.

(2) السويسي، تاريخ رباط الفتح، ص ١٥٧.

٢. هجرة الأندلسيين إلى تونس

بدأت موجات المهاجرين من الأندلس تتجه إلى تونس بعد تساقط المدن الأندلسية التي أشرنا إليها في أواسط القرن السابع الهجري/الثالث عشر الميلادي، ورحبت بهم دولة بني حفص، ووجدت الجالية الأندلسية في تونس التقدير والاحترام، فقاموا بخدمة بني حفص في المجالات الثقافية والاقتصادية والادارية بفضل ما كان يتمتع به الأندلسيون من قدرات ومواهب في هذه المجالات. وقد جاءت أولى الجاليات إلى تونس من شرق الأندلس بعد سقوط بلنسية سنة ٦٣١هـ/١٢٣٨م، ثم توالت الهجرة على أثر سقوط مرسية، وأخذت تتزايد بتزايد الاضطهاد الذي تعرض له المسلمون في تلك المدن من اغتصاب الأرض والتضييق عليهم من جميع النواحي، الأمر الذي أدى إلى ثورة أهالي بلنسية سنة ١٢٥٤م واستمرت ثورتهم ثلاث سنوات، وحين تم القضاء عليها، اتخذت بحق المسلمين قرارات انتقامية من ضمنها التضييق على المسلمين حتى يهاجروا إلى خارج البلاد؛ كما كان خايمي (ملك أرغون) يشجع أهالي شرق الأندلس على الهجرة إلى أقطار المغرب، وكونوا في تونس جالية تتميز عن غيرها.

أما الجالية التي جاءت من غرب الأندلس فقد توجه قسم كبير منها إلى تونس بعد سقوط إشبيلية سنة ٦٤٦هـ/١٢٤٩م، ولقيت هذه الجالية العناية والرعاية من قبل أبي زكريا، يحيى بن أبي حفص وخلفائه الذي كانت علاقته بأهل إشبيلية متميزة منذ ولايته على غرب الأندلس، وكانت الجالية الأندلسية تشمل فئات مختلفة من الأعيان وذوي الجاه واليُسر، بالإضافة إلى جماعات من عامة الناس، وأصبح لهم نفوذ واسع في البلاط الحفصي[١].

وقد ذكر ابن خلدون في العبر أنه لما تكالب الطاغية على العدوة (الأندلس) والتهم ثغورها واكتسح بسائطها، وأسف إلى قواعدها وأمصارها، أجاز الأعلام وأهل البيوت إلى

---

[١] الطالبي، محمد، دراسات في تاريخ افريقية، مجلة كلية الآداب والعلوم الانسانية بتونس، السلسلة الرابعة (تاريخ)، مجلد XXVI، تونس، ١٩٨٢، ص ١٧٦.

أرض المغربين (الأوسط والأقصى) وإفريقية (تونس)، وكان قصدهم إلى تونس أكثر لاستفحال الدولة الحفصية بها[١].

أما الموجة الثانية من هجرة الأندلسيين إلى تونس وغيرها من أقطار المغرب العربي فقد حدثت في أعقاب مرسوم التهجير القسري الصادر سنة ١٦٠٩م.

وتذكر المصادر العربية والإسبانية أن تونس هي البلد الذي استقبل عدداً من الموريسكيين أكثر من العدد الذي استقبله المغرب نفسه، وزادت هجرة الأندلسيين إلى تونس إذ انتقل ثلاثون ألفاً منهم من أراغون عن طريق ميناء أجدى Agde الفرنسي بصحبة القنصل التركي إلى تونس، ولقوا الترحيب والاحسان من الوالي العثماني عثمان داي. وأوسع لهم في البلاد فاستوطنوا في أكثر من عشرين مدينة كما اشتغلوا بزراعة الزيتون والكروم والبساتين. كما أعطاهم عثمان داى كثيراً من الامتيازات فأعفاهم من معظم الضرائب وسمح لهم بتشكيل قوة للدفاع عن أنفسهم واستمر قسم منهم في الجهاد البحري ضد الإسبان[٢].

أثر الأندلسيين في تونس.

أحدثت الجالية الأندلسية تأثيرات في جميع نواحي الحياة في تونس.

فمن الناحية السياسية: شارك الأندلسيون في هذه الحياة في الدولة الحفصية منذ نشأتها في عهد أبي زكريا (الأول) ٦٢٥ــ٦٤٧هــ/١٢٢٨ــ١٢٤٩ لما كانوا يتمتعون به من ثقافة عالية. ووصل بعضهم مثل الرئيس أبي عبد الله محمد بن أبي الحسن وابن الأبار الذي رأس وفد الاستغاثة القادم من بلنسية (انظر فصل الاستغاثات) درجة عالية من النفوذ في البلاط الحفصي لدرجة أثارت حسن رجالات الدولة الحفصية، كما شارك بضعة

---

[١] الطالبي، دراسات في تاريخ إفريقية، ص ١٧٦، نقلاً عن ابن خلدون، ج٦، ص ٦٨٣-٦٨٤.

[٢] رزوق، ص ١٣٢-١٣٥.

آلاف منهم في الجيش النظامي والمتطوعة وكونوا كتيبة مستقلة في الجيش. وشارك رجالات الجالية الأندلسية في المنازعات الداخلية التي كانت تجري في البلاط الحفصي، وخسر بعضهم حياته في خضم هذه المنازعات والمنافسات فقتل عدد منهم من بينهم ابن الأبار. وقد ذكر الأستاذ محمد الطالبي أمثلة كثيرة على ذلك[١]. على أن هناك مصادر أخرى تذكر أن الأندلسيين لم يشاركوا في النشاط السياسي في تونس وانهم لم يسعوا إلى التدخل في الحكم أو الوظائف العالية، فلم تجد بينهم من شارك في الثورات أو طمع في وظيفة مهمة[٢].

ومن الناحية الثقافية: حمل الأندلسيون المهجرون إلى تونس معهم ثقافتهم وعلومهم ونشروها، فقد كان من بين المهجرين عدد كبير من العلماء والأدباء، ومعظمهم جاءوا من منطقة أرغون في حين هاجر إلى المغرب فئة الموريسكيين الذين كانوا يجاهدون ضد إسبانيا[٣]. وانتشر التعليم على أيديهم في معظم أنحاء تونس على الطريقة الأندلسية القائمة على تعليم القرآن باعتباره أصل التعليم، ويعلمون إلى جانبه الحديث ورواية الشعر وقوانين العربية والخط، كما ذكر ابن خلدون أن أهل الأندلس أفادهم التفنن في التعليم وكثرة رواية الشعر والترسل ومدارسة العربية من أول العمر حتى صاروا أعرف بها في اللسان العربي[٤]. كما ساهموا في التعليم العالي في المدارس، إذ كان من بين الأندلسيين عدد كبير من العلماء في علوم القرآن والحديث والنحو، كما كان من بينهم عدد كبير من الأدباء والشعراء مثل أبو الحسن علي بن سعيد صاحب كتاب المغرب في حلى المغرب وكتاب الغصون اليانعة في اعيان المائة السابعة، وابن الأبار وأبو المطرف أحمد بن عميرة والشاعران محمد الخير المالقي وأحمد بن محمد الخلوف.

وكان من بين الأندلسيين أيضاً عدد من الأطباء مثل أبي القاسم محمد بن أحمد المعروف بابن اندراس ثم ابنه يوسف، وأبي عبد الله محمد الخزرجي الشاطبي، ومحمد

---

(١) الطالبي، دراسات في تاريخ افريقية، ص ١٧٧-١٨٦.

(٢) رزوق، الأندلسيون، ص ١٣٦، نقلاً عن محمد الحبيب الهيلة، مقدمة تحقيق كتاب الحلل السندمية، ص ٥٨.

(٣) رزوق، ص ١٣١.

(٤) ابن خلدون، المقدمة، طبعة دار إحياء التراث العربي، بيروت، ص ٥٣٨ـ٥٣٩.

ابن عيشون وأبي الحجاج يوسف وغيرهم. وانتشر فن الموسيقى والغناء الأندلسي في تونس انتشاراً واسعاً في جميع فئات المجتمع التونسي، وكان من أوائل من نشر هذا الفن في تونس أبو الصلت أمية بن عبد العزيز الاشبيلي، الذي امتاز بأنه كان مؤرخاً وشاعراً وفيلسوفاً ورياضياً وطبيباً وموسيقياً، وقد لقبه البعض بزرياب افريقية. ولقي فن الموسيقى والغناء رواجاً في تونس ولا سيما في بجاية التي كانت تشبه اشبيلية في هذا المجال. وكان معظم أهلها يجيدون العزف على العود والقانون[١].

ومن الناحية الاجتماعية والاقتصادية: احتفظ الأندلسيون الذين هاجروا إلى تونس بعاداتهم وتقاليدهم في البستهم وطعامهم وشرابهم واحتفالاتهم كما احتفظوا بخصائصهم الأندلسية، واسمائهم الأندلسية. ولم يكن من الصعب انتقال بعض هذه العادات والتقاليد وأسلوب الحياة إلى المجتمع التونسي.

وشارك الأندلسيون في جميع قطاعات النشاط الاقتصادي فطوروا الزراعة وطبقوا أساليب الري التي كانوا يتقنونها، في المناطق الساحلية الشمالية وعلى ضفتي نهر المجردة. كما ساهموا في تطوير الصناعة، فقد أنشأ عدد من الصناع الأندلسيين أسواقاً لبيع منتجاتهم من الحرير والشاشية ونقش الرخام والجبس وغيرها[٢].

---

[١] الطالبي، دراسات في تاريخ افريقية، ص ١٨٦-١٩٧.

[٢] رزوق، ص ١٣١.

٣. الهجرات الأندلسية إلى الجزائر

كانت العلاقات وثيقة بين الأندلس والجزائر منذ أيام الخلافة الأموية، ولا سيما حين استقرت بعض الجاليات الأندلسية العاملة في التجارة في عدد من المدن الساحلية. كما أصبحت الجزائر والأندلس والمغرب الأقصى في عهد دولتي المرابطين والموحدين كياناً سياسياً واحداً، وكان الأندلسيون يشكلون جالية كبيرة في بجاية عندما كانت تابعة للحفصيين، وكانت هذه الجالية تتألف في الدرجة الأولى من العلماء والتجار والصناع.

أما الهجرة الجماعية إلى الجزائر فقد بدأت بعد تساقط العواصم الأندلسية في يد الإسبان. بحيث توجه عدد من المهجرين الأندلسيين إلى تلمسان، كما استنجد السلطان محمد الخامس (الغني بالله) بالسلطان الزياني (أبو حموّ موسى) الذي استجاب للاستغاثة وأرسل المؤن إلى الأندلس. كما اختار السلطان أبو عبد الله الزغل الانتقال إلى تلمسان عندما غادر غرناطة سنة ٨٩٧هـ/١٤٩١م وعرف نسله في الجزائر ببني سلطان الأندلس، ثم تزايدت الهجرة الجماعية بعد القضاء على ثورة البشرات الأولى (١٤٩٩–١٥٠٢م). حيث قدم خير الدين بربروسا ثلاثين سفينة لنقل الثائرين وعائلاتهم إلى الجزائر. وقامت هذه السفن بسبع رحلات نقلوا خلالها سبعين ألفاً من الأندلسيين، كما نقلت السفن العثمانية التابعة لبربروسا حوالي ٦٠٠ أندلسي من بلنسية إلى الجزائر.

كما انتقل حوالي ثلاثون ألف موريسكي من الأندلس إلى الجزائر على أثر فشل ثورة البشرات الثانية سنة ١٥٧٠م، وقد انتقل هؤلاء على سفن عثمانية واستمر تيار الهجرة الأندلسية إلى الجزائر بمساعدة المجاهدين الجزائريين والعثمانيين.

ويرى المؤرخ الجزائري الدكتور ناصر الدين سعيدوني أن الظروف التاريخية التي عرفتها الجزائر ابتداء من أواخر القرن الخامس عشر الميلادي، شجعت الأندلسيين على الهجرة الجماعية إلى الجزائر في حين لم تساعد أوضاع تونس في أواخر العهد الحفصي وما صاحبها من تدخلات إسبانية على استقبال المهاجرين الأندلسيين، كما أن المغرب الأقصى رغم علاقاته التاريخية وصلاته البشرية وقربه الجغرافي من الأندلس

فان الهجرة إليه لم تكن تماثل الهجرة إلى الجزائر بسبب العداء الذي كان قائماً بين السعديين والعثمانيين[1].

بلغت الهجرة الأندلسية إلى الجزائر الذروة سنة ١٦٠٩م على أثر صدور مرسوم التهجير القسري، والمراسيم التالية له، فقد هُجّر (١٤) ألفاً من موريسكيي قشتالة و ١٥ ألفاً من بلنسية، كما هاجر إلى الجزائر عدد من مسلمي أراغون واسترامادور عن طريق فرنسا، وقد ذكر المقري الذي كان معاصراً لهذه الأحداث أن الألوف منهم خرجت بفاس والوف أخرى بتلمسان وجمهورهم خرج بتونس ووهران (الجزائر) إلى درجة أن وهران ضاقت بسكانها فانتقل قسم من الموريسكيين إلى المغرب وتلمسان[2]. وفي سنة ١٦٠٩م هجّر حوالي ١١٦ ألف موريسكي إلى مدن الجزائر بحيث ضاقت بهم وهران وتلمسان ومستغانم وغيرها من المدن الساحلية. وقد تعرض الأندلسيون خلال هجرتهم إلى ظلم السفن الإسبانية، وغرق بعضهم في البحر بينما تعرض آخرون للنهب والسلب أثناء انتقالهم داخل الجزائر مما دفع بعضهم إلى محاولة العودة إلى الأندلس بمساعدة القبطان بارت Barret[3].

آثار الهجرة الأندلسية إلى الجزائر:

وتتمثل هذه الآثار في المجالات التالية:

العمران: شهدت الجزائر على يد الأندلسيين نهضة عمرانية ونمواً سكانياً كبيرين. فقد أعاد الأندلسيون بناء عدد من المدن والقرى مثل مدينة برشك التي كان أغلب سكانها من الأندلسيين، وشرشال التي بلغ عدد منازل الأندلسيين فيها أثني عشر ألفاً، وبذلك شكل الأندلسيون فيها أغلبية[4]. ويذكر صاحب كتاب وصف افريقيا أن شرشال كانت خالية من

---

[1] سعيدوني، د. ناصر الدين، دراسات وأبحاث في تاريخ الجزائر (العهد العثماني)، ج١، الجزائر، ١٩٨٤، ص ١٢٧-١٣٠.

[2] المقري، نفح، ج٦، ص ٢٨٠، طبعة يحيى الدين محمد (بيروت)، رزوق، ص ١٣٠.

[3] سعيدوني، دراسات وأبحاث، نقلاً عن المقري، ص١٣٣-١٣٦؛رزوق، الأندلسيون، ص ١٢٩، ١٣٠، ١٣٢.

[4] سعيدوني، دراسات وأبحاث، ص ١٣٦-١٣٨.

السكان زهاء ثلاثمائة سنة حتى سقوط غرناطة، فقصدها الغرناطيون إذ ذاك وأعادوا بناء عدد من دورها وجددوا القلعة ووزعوا الأراضي بينهم، وصنعوا العديد من السفن واشتغلوا بصناعة الحرير ولم يخضعوا إلاّ لبربروسا، وكانوا يؤدون له خراجاً سنوياً قليلاً[1].

كما أنشأ الأندلسيون مدناً جديدة مثل القليعة والبليدة التي اقطع خير الدين بربروسا أراضيها لهم. كما بلغ عدد الأندلسيين في مدينة الجزائر ٢٥ ألفاً في مطلع القرن السادس عشر جاءوا من مختلف جهات الأندلس ولا سيما مملكة غرناطة. كما كان للأندلسيين أحياء خاصة في عنابه وارزيو ومستغانم، وانشأوا بجوارها عدداً من القرى مثل قرية الأندلس غرب وهران، كما استخدموا خبرتهم في الري بانشاء عدد من مشاريع الماء والري، منها توزيع مياه العيون في مدينة الجزائر التي جلبت إليها مياه عين الحامة على بعد حوالي خمسة كيلومترات[2]. كما أدخلوا استخدام القرميد في البناء وكذلك الزخارف وغير ذلك من الأنماط المعمارية الأندلسية. وهكذا كان للعنصر الأندلسي أثار ايجابية على اقتصاديات هذه البلاد.

<u>**ومن الناحية السياسية والحربية:**</u> شارك الفرسان الأندلسيون مع العثمانيين في الجهاد ضد الإسبان تحت قيادة بربروسا وخلفائه، وتشكلت منها حاميات لحماية المدن، كما انشأوا الحصون والقلاع في المدن التي أقاموا فيها مثل شرشال، ومدينة الجزائر بحيث أقاموا حصناً خارج باب الوادي وتحصينات عرفت بطبونة الأندلسيين مجهزة بأربعة عشر مدفعاً[3].

<u>**ومن الناحية الاقتصادية:**</u> ساهم الأندلسيون في ازدهار الحياة الاقتصادية في الجزائر، فاستخدموا خبراتهم في تطوير الزراعة فاستصلحوا مساحات كبيرة من الأراضي وبخاصة في نواحي متيجه، حيث ازدهرت زراعة البرتقال والكرز والتفاح

---

[1] الفاسي، الافريقي، الحسن بن محمد الوزان، وصف افريقيا، ج٢، ط١، ترجمة محمد حجي ومحمد الأخضر، الرباط، ١٤٠٢هـ/١٩٨٢م، ص ٣٤.

[2] سعيدوني، دراسات وأبحاث، ص ١٣٦-١٣٨؛ رزوق، ص ١٣١.

[3] سعيدوني، المرجع السابق، ص ١٣٨-١٣٩.

والعنب، كما ازدهرت زراعة الزيتون في عنابة، والتين في نواحي برشك، كما زرعوا السهول المحيطة بالمدن الجزائرية الرئيسية ولا سيما فحص (مرج) بليدة الذي أقطعه بربروسا لهم، حيث ازدهرت الزراعة بفضل مشاريع الري التي كان الأندلسيون يتقنون فنونها وأصبحت بليدة مثالاً للإنتاج الوفير وكثرة البساتين. وأدخل الأندلسيون محاصيل زراعية جديدة مثل التوت والقطن والعناب.

ومارس الأندلسيون فنون الصناعات والمهن التي كانوا يتقنونها ولا سيما صناعة الحرير، ونسيج القطيفة الذي برع فيه الغرناطيون، ونسيج الزرابي فضلاً عن الصناعات الحربية من أسلحة وبارود وصناعة السفن[١].

كما ساهم الأندلسيون في النشاط التجاري والإداري، وتولي المناصب الإدارية والعلمية والدينية. وساهم الأندلسيون بفضل نشاطهم الاقتصادي ونمو ثرواتهم في ازدهار اقتصاد الجزائر.

<u>ومن الناحية الاجتماعية:</u> كانت الجالية الأندلسية تمتاز بثقافتها ونشاطها، ورقة الذوق في المأكل والملبس والمتاع والفنون، وبخاصة الموشحات، كما انتشرت اللهجة الأندلسية في المدن الكبرى، ومن مميزات هذه اللهجة قلب القاف ألفاً. كما نشروا بعض الكلمات الإسبانية، وكان الأندلسيون لفترة طويلة يعيشون ضمن جاليتهم ولا يختلطون بالزواج مع غيرهم، على أمل العودة إلى بلادهم. كما انهم واجهوا صعوبات وأخطار جمة ناتجة عن تهديد الإسبان للمدن الساحلية وتصرفات الحكام وعداء البدو واختلاف البيئة مما دفعهم إلى العزلة، وكان الجزائريون بوجه عام يشكلون فئة ميسورة الحال من جراء العمل في الزراعة والصناعة والحرف واشتغالهم بالعلم والمناصب الإدارية والعلمية، كما كان من بينهم فئة حققت درجة عالية من الثراء[٢]، وقد ساهمت هذه الفئة في تخصيص الأوقاف للإنفاق على المحتاجين من الأندلسيين، وخصصت إدارة خاصة لإدارة هذه الأوقاف كما قامت في النصف الأول من القرن السادس عشر بإنشاء مدرسة ومسجد في

---

[١] سعيدوني، دراسات وأبحاث، ص ١٣٩-١٤٢.

[٢] سعيدوني، المرجع السابق، ص١٤٣-١٤٧.

مدينة الجزائر عرفا باسم زاوية أهل الأندلس وبلغــت أوقافــه ٤٠ ملكيــة و ٦١ عنــاء وخضعت تحت تصرف وكيل الأندلس. وتكاثرت بعد ذلك الأوقاف الأندلسية، وقد عرض الأستاذ سعيدوني موضوع أوقاف الأندلسيين في بحث قيّم حيث وصف أنواعها ودخلــها السنوي ووجوه إنفاقها[١].

---

[١] سعيدوني، دراسات وأبحاث، ج٢، ص ٤٣ وما بعدها، ج١، ص ١٦٠.

الفصل العاشر

الاستغاثات الأندلـسية بالعالـــم الإسلامـــي

الاستغاثات الأندلسية بالعالم الإسلامي

الأندلس في القرن الخامس الهجري.

شهدت الأندلس بعد غياب الخلافة، وانتهاء حكم الأسرة العامرية، ثم انقطاع حكم أمراء الجماعة بقرطبة، مرحلة التفكك والفوضى، والبحث عن منقذ. وكان الوضع ينبئ لكل ذي عقل أريب بأن ضياع الأندلس بات قريباً، فقد أنشئت على انقاض الخلافة كيانات متعددة عرفت بدول الطوائف، وعرف حكامها بأمراء أو ملوك الطوائف. وقد اطلق بعض المؤرخين على عصر ملوك الطوائف أسماء تدل على الفتنة والتفرقة فسمّاه ابن بسام عصر الفتنة[1] وسمّاه ابن الكردبوس عصر الفرق[2] كما اطلق على زعماء الطوائف اسم زعماء الفتنة أو مقتسمي الملك من بعد الجماعة[3]، واطلق عليهم ابن عذاري لقب أمراء الفرقة الهمل[4]. وكان هؤلاء الملوك لا تهمهم مصلحة البلاد والمصير الذي آلت إليه، زد على ذلك تخاذلهم وانشغالهم في حروب دائمة مع بعضهم، والفتن التي لا تكاد تنتهي. وكان ملوك الطوائف غارقين في ملذاتهم وشهواتهم، ومما كان يزيد في طغيانهم وفسقهم ملازمة عدد من الأدباء والشعراء المنافقين الذين كانوا يزينون أعمالهم، ويصورون لهم الانتصارات الباهرة على بعضهم، وبأن هزائمهم أمام الأعداء أو الصلح معهم ما هو إلا عين العقل. ثم صمت معظم الفقهاء والعلماء وعدم أدائهم للأمانة التي يحملونها وهي نصح الأمة والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر. وقد وصف ابن الخطيب العلاقة بين ملوك الطوائف بقوله: وجعل الله بين أولئك الأمراء ملوك الطوائف من التحاسد والتنافس والغيرة ما لم يجعله بين الضرائر المترفات والعشائر المتغايرات، فلم تتصل لهم في الله يد، ولا نشأ على التعاضد عزم ولا توجه إلى الاستكثار قصد[5].

---

(1) ابن بسام، الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة، ق٣، ج١، ص٢٥؛ وابن عذاري، البيان المغرب، ج٣، ص١٩٤.

(2) ابن الكردبوس، تاريخ الأندلس، ص٨٧.

(3) ابن الخطيب، أعمال الأعلام، ق٢، ص١٨٣.

(4) ابن عذاري، البيان المغرب، ج٤، ص٣٢٥.

(5) ابن الخطيب، أعمال الأعلام، ق٢، ص٢٤٤.

وكان الاعتماد على عناصر يهودية في تسيير أمور الدولة له بالغ الأثر في اندثار الحكم العربي، فعلى سبيل المثال استطاع ابن النغريلة اليهودي وزير ابن باديس أن يسلم أكثر حصون غرناطة لابن صمادح، وابن باديس لا يشعر بخروجها من يده، كما سهل يهود غرناطة دخول ابن مردنيش إليها.

واستخدم هؤلاء الملوك عسكرهم من البربر لإرهاب الناس وإذلالهم كما فعل علي بن حمود في قرطبة، كما استعانوا بالاسبان ضد بعضهم، ويكفي ما يورده ابن بسام في كتابه النفيس (الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة) عن تصرفات هؤلاء الملوك التي أدت في النهاية إلى ضياع الأندلس. فعلى سبيل المثال عندما تحدث عن ابن صمادح قال عنه: "وقد اندرجت له (ابن صمادح) ولهم في تضاعيف هذا التصنيف قصص تضيق عنها الأيام وتتبرأ منها القراطيس والأقلام"[1]، وقال عن المرتضي أمير شرق الأندلس عندما استعان بالاسبان أثناء هجومه على قرطبة وغرناطة: "فحل بهذه الوقعة على جماعة الأندلس مصيبة سوداء أنست ما قبلها، ولم يجتمع لهم على البربر جمع بعد، وأقروا بالإدبار، وباءوا بالصغار"[2].

دول الطوائف:

أورد أبو طالب عبد الجبار[3] في أرجوزته الشهيرة هذه الدويلات والأسر التي حكمتها، كما بين هذا الأديب بايجاز أثرها على تاريخ الأندلس. وأُثبت هنا النص مصوراً لأهميته التاريخية[4].

---

(1) الذخيرة، ق١، ج٢، ص٧٣٣.

(2) المصدر نفسه، ق١، ج١، ص٤٥٥.

(3) يعرف بكنيته أبو الوليد، من أدباء القرن السادس، وهو أديب وخطيب بارع، متفنن في العلوم. يستدل من أرجوزته أنه توفي في بداية عهد علي بن يوسف بن تاشفين. انظر أخباره في: الذخيرة، ق١، ج٢، ص٩١٦؛ المغرب، ج٢، ص٣٧١.

(4) النص المصور مأخوذ من كتاب الذخيرة، ق١، ج٢، ص٩٤٢-٩٤٣.

لما رأى أعلام مصر قرطبة أن الأمور عندهم مضطربة

وعدمت شاكلة للطاعة استعملت آراءها الجماعة

فقدموا الشيخ من آل جهور[1] المكتنى بالحزم والتدبر

ثم ابنه أبا الوليد بعده وكان يحدو في السداد قصده

فجاهرت في فضلها الجهاوره وكل قطر حل فيه الفاقرة

من كل منتزٍ بها وثائر وعادلٍ عن كل عدل جائر

فالثغر الأعلى ثار فيه منذر ثم ابن هود[2] بعد فيما يذكر

وابن يعيش ثار في طليطلة ثم ابن ذي النون تصفّى الملك له[3]

وفي بطليوس[4] انتزى سابور وبعده ابن الأفطس المنصور

وثار في حمص[5] بنو عباد والحرب والفنون في ازدياد

---

[1] ينتسبون إلى جهور بن محمد الذي يتصل نسبه بقبيلة كلب، وكانت لهم الوزارة في عهد الدولة العامرية، وظلوا يحكمون قرطبة حتى ضمها المعتمد بن عباد لملكه سنة ٤٦٣هـ/١٠٧٠م، وكانت دولتهم قد بدأت في آخر الدولة الأموية كما يتضح من النص.

[2] قامت دولة بني هود في سرقسطة على أثر سقوط الخلافة الأموية، ومؤسسها هو سليمان بن محمد بن هود الجذامي (المستعين)، واستمرت دولتهم من سنة ٤٣١هـ/١٠٢٩م حتى سنة ٥٠٣هـ/١١١٠م إلى أن سقطت على يد المرابطين. انظر: ابن الخطيب، أعمال الأعلام، القسم الثاني، ص١٧٦.

[3] كانت أسرة ذي النون البربرية من قادة جيش الدولة العامرية ثم استقل الظافر إسماعيل بن عبد الرحمن ذي النون بطليطلة سنة ٤٢٧هـ/١٠٣٦م وظل حكمها في أسرته إلى أن سقطت في يد الإسبان في عهد ألفونسو السادس سنة ٤٧٨هـ/١٠٨٥م، وكانت أول ما أخذ الإسبان من المدن العظمى بالأندلس. انظر: المقري، نفح الطيب، ج٤، ص٤٤٧.

[4] ينتسب بنو الأفطس إلى قبيلة مكناسة. استقلوا في بطليوس ٤١٣هـ/١٠٢٢م، واستمر حكمهم لها حتى قضى عليها المرابطون سنة ٤٨٨هـ/١٠٩٤م. انظر: ابن الأبار، الحلة السيراء، ج٢، ص٩٧؛ وابن الخطيب، أعمال الأعلام، القسم الثاني، ص١٨٦.

[5] حمص، هي إشبيلية، سميت كذلك لأن جند حمص نزلوا بها، وقد استقل فيها بنو عباد من سنة ٤١٤-٤٨٤هـ/١٠٢٣-١٠٩١م، وأصلهم من لخم، بدأت دولتهم على يد القاضي أبو القاسم محمد، ثم ابنه عباد الملقب بالمعتضد ثم ابنه المعتمد، وقد قضى المرابطون على دولتهم. انظر: المراكشي، المعجب، ص١٥٠.

وشاع عن هشام المؤيد … بأنه حي ولما يلحد

وأنه جاء من الحجاز … واحتل في حمص على المجاز

وقال عباد به فصدقوا … بأنه حي لديه يرزق

فنصبوا دعوته طلسما … وقد محا الممات منه الرسما

فعبدوه مدة أعواما … إذ عدموا الألباب والأحلاما

ثم نعاه بعد ذا عباد … من بعد ما طاعت له البلاد

وثار في غرناطة حبّوس[1] … ثم ابنه من بعده باديس

وآل معن ملكوا المرية … بسيرة محمودة مرضية

ذكرهم في غير ما قصيد … يشرق مثل النحر بالفريد

وثار في شرق البلاد الفتيان … العامريون ومنهم خيران

ثم زهير والفتى لبيب … ومنهم مجاهد اللبيب

سلطانه رسا بمرسى دانيه … ثم غزا حتى إلى سردانيه

ثم أقامت هذه الصقالبة … لابن أبي عامرهم بشاطبة

وجل ما ملكه بلنسية … وثار آل الطاهر بمرسية[2]

وبلد البنت لآل قاسم … وهو حتى الآن فيه حاكم

وابن رزين جاره بالسهلة … أمهل أيضاً ثم كل المهلة

ثم تماديت هذه الطوائف … تخلفهم من آلهم خوالف

دانت بدين الجور والعدول … إذ سلبت عقائل العقول

فأهملوا البلاد والعبادا … وعطلوا الثغور والجهادا

واشتغلت أذهانهم بالخمر … وبالأغاني وسماع الزمر

وزادهم في الجهل والخذلان … أن ظاهروا عصابة الصلبان

---

(1) هو حبوس بن مكناس، وقد ولاّه عليها عمه زاوي بن زيري الصنهاجي، وعندما توفي حبوس سنة ٤٢٩هـ، خلفه ولده باديس الذي لقب بالمظفر واستولى على مالقة من بني حمود، وكان في نزاع مع بني عباد وسقطت دولتهم سنة ٤٨٣هـ على يد المرابطين. انظر: عنان، نهاية الأندلس، ص٢٤.

(2) استمرت دولة بني طاهر في مرسية من سنة ٤٢٩-٤٧١هـ/١٠٣٨-١٠٨٧م.

لما طـــوت صدورهـــم مـــن غـــل	ولا اختبـــار البعـــض حـــال الكـــل
فخســـــفت [...] بـــــــالأرض	وضيقوا مـــــن طولـــها والعـــرض
فاســـتولت الـــروم علـــى البـــلاد	واســـــتعبدوا حرائـــــر العبـــــاد
وقتلـــوا الرجـــال كيـــف شـــــاءوا	وضــــاع دلـــو الديـــن والرشـــــاءُ
وإذ طـــال القـــوم أســـرى القـــــدم	نحوهـــم خفـــاً ومـــا إن شـــــعروا

ويضاف إلى الدويلات التي ورد ذكرها في النص، فتح بـــن يحيـــى فـــي ليلـــة (٤١٤ـــ٤٤٥هـ/ ١٠٢٣ـــ١٠٥٣م)[١]، يوسف ابن هود في بربشتر[٢]، المرتضي (عبـــد الرحمن بن محمد الناصر لدين الله) في جزيرة ميورقة[٣]، بنو برزال في قرمونة[٤]، بنـــي يفرن في تاكرنا[٥]، سليمان بن هود الجذامي في لاردة[٦].

من بين العلماء الذين نصحوا الأمة، وأمروا بالمعروف ونهوا عن المنكر الوزيـــر أبو عبد الله البزلياني الذي كتب إلى صاحبي شاطبة وبلنسية يحذرهما مـــن الاختـــلاف، ومغبة الاستعانة بالعدو. ومما كتبه هذا الوزير: "...والذين يحملون من أوزارهم وأوزار مع أوزارهم، ويحتقبون من آصارهم، تسليط النصارى على المسلمين، وعيثهم في بلادهم يقتلون ويأسرون، فالأموال مستهلكة، والحرمات منتهكة، والدماء مهراقة، والنساء مستاقة، وعقد الدين مفسوخ، وعهد الاسلام منسوخ، والكفر عال على الايمان، والسوء غالب على الإحسان فقد بلغني أن مذهبكم الاستجاشة بالنصارى إلى بلاد المسلمين... يطؤون ديارهم، ويعفون آثارهم، ويجتاحون أموالهم، ويسفكون دماءهم، ويستعبدون أبناءهم، ويســـتخدمون نساءهم، وإن نفذ هذا – وأعوذ بالله – فـــهي حـــال مؤذنـــة بالذهـــاب وجريـــرة تـــؤذن بالخراب"[٧].

---

(١) الذخيرة، ق١، ج١، ص٣٨٦. وقد ضمها المعتمد بن عباد لإشبيلية.

(٢) المصدر نفسه، ق٣، ج١، ص١٨١.

(٣) تاريخ الأندلس، ص١٢٢.

(٤) البيان المغرب، ج٣، ص٢٦٧-٢٦٩، وبنو برزال من زناتـــه حكمـــوا قرمونـــة مـــن ســـنة ٤٠٤-٤٥٩هـ/١٠١٣-١٠٦٧م، ثم ضمها ابن عباد لإشبيلية.

(٥) المصدر نفسه، ج٣، ص٢٧٠-٢٧٣. ضمها المعتمد بن عباد إلى إشبيلية سنة ٤٥٧هـ/١٠٦٥م.

(٦) الذخيرة، ق١، ج١، ص١٨٦.

(٧) المصدر نفسه، ق١، ج٢، ص٦٣٩.

بدايـــة الاستغاثات:

لم يستفق ملوك الطوائف من غفوتهم إلا على صرخات الاستغاثة الآتية من مدينـة بربشتر Barbastro[١] معلنة استيلاء العدو عليها (سنة ٤٥٦هـ/١٠٦٤م)[٢]، وهي المدينـة التي رسخ الإسلام فيها. وتدرس فيها القرآن فترة طويلة من الزمن، وقد صور ابن بسـام وقع سقوط المدينة على المسلمين "إلى أن طرق الناعي بها قرطبتنـا فجـأة... فصك الاسماع وأطار الأفئدة وزلزل الأرض الأندلسية قاطبة، وصير للكل شغلاً تسكع الناس في التحدث به والتسآل عنه والتصور لحلول مثله أياماً لم يفارقوا فيها عادتهم مـن اسـتبعاد الوجل، والاغترار بالأمل والإسناد إلى أمراء الفرقة الهمل، الذين هم منهم ما بين فشـل ووكل، يصدونهم عن سواء السبيل..."[٣].

واعتبرها بعض المعاصرين بأنها فاتحة المصائب[٤]، وأن سقوط مدينة بربشتر ما هو إلاّ حبة في عقد، ما إن سقطت هذه الحبة حتى ينفرط العقد كله، فأخذوا يسـتنهضون الناس، ويذكون فيهم حب الجهاد، ويبينون لهم الخطر المحدق بهم، فقد وجه ابن عبد الـبر النمري عدة رسائل إلى جمهور المسلمين يذكي فيهم روح الجهاد "من الثغور القاصيـة، والأطراف النائية، المعتقدين للتوحيد، المعترفين بالوعد والوعيد، المستمسـكين بعـروة الدين، المستهلكين في حماية المسلمين، المعتصمين بعصمة الاسلام... إلى من بالأمصـار الجامعة، والأقطار الشاسعة، بجزيرة الأندلس، من ولاة المؤمنين، وحماة المسلمين، ورعاة الدين من الرؤساء والمرءوسين. سلام عليكم...

---

[١] بربشتر Barbastro قلعة حصينة، تقع شمالي سرقسطة على أحد فـروع نـهر إيـبره Ebro، وهي تتوسط المسافة بين لاردة وسرقسطة ركني الثغر الأعلى. انظر: الذخـيرة، ق٣، م١، ص١٨٠؛ تـاريخ الأندلس، ص٧٢.

[٢] تم هذا الغزو من قبل النورمان والفرنسيين بتأييد من البابا اسكندر الثاني، حيث حوصـرت المدينـة لمدة أربعين يوماً إلى أن سقطت في يد الغزاة الذين أعملوا فيها النهب والسلب والقتل والأسر واسـتبيحت المدينة، لكن المسلمين تداعـوا إلـى الجـهاد وتمكنـوا مـن اسـتعادة المدينـة بعـد تسـعة أشـهر (٤٥٧هـ/١٠٦٥م).

[٣] الذخيرة، ق٣، م١، ص١٨٠؛ البيان المغرب، ج٣، ص٢٥٤. نقلاً عن ابن حيان.

[٤] الذخيرة، ق٣، م١، ص١٨١؛ ولمزيد من التفاصيل عن حصار المدينة وما حل بـها مـن مآسـي؛ الذخيرة، ق٣، ج١، ص١٨١-١٩٠.

أما بعد: حرسكم الله بعينه التي لا تنام، فانا خاطبناكم مستنفرين، وكاتبناكم مستغيثين، وأجفاننا قرحى وأكبادنا حرّى، ونفوسنا منطبقة، وقلوبنا محترقة، على حين نشر الكفر جناحيه، وأبدى الشرك ناجذيه، واستطار شرر الشر، ومسنا وأهلنا الضر..."[1].

ومن رسالة أخرى: "وأي أمانٍ من زمان قلما يخضرّ منه جانب إلا جف جانب، ولا تبرق منه بارقة إلا أتبعتها صاعقة، إلا ما وقى الله، وننبئكم... معشر المسلمين... بعض ما نابنا في ثغورنا، عسى أن تكونوا سبباً لنصرتنا، فالمؤمنون أخوة، والمسلمون لحمة، والمرء كثير بأخيه، وإلى أمه يلجأ اللهفان، وإلى الصوارم تفزع الأقران، والسعيد من وعظ بغيره... وما انتهت إليه حال ملأنا، ما والله يوجع القلوب سماعه، كما قصم الظهور واسخن العيون اطلاعه"[2].

ومن رسالة ثالثة "وقد ندب الله مسلمي عباده إلى الجهاد في غير ما آية من الكتاب، يضيق عن نصها الخطاب، ترغيباً وترهيباً. فوعد المطيعين جزيل ثوابه، والعاصين أليم عقابه، والرواية عنه عليه السلام في فضل الجهاد، وما يجازي فيه رب العباد، اشهر من أن تذكر وأكثر من أن تحصر، فالله الله في إجابة داعينا وتلبية منادينا، قبل أن تصدع صفاتنا كصدع الزجاج، فهناك لا ينفع العلاج"[3].

ويقارن ابن قصيرة[4] بين الوضع الذي كان عليه النصارى والوضع الذي كان عليه ملوك الطوائف بعد فتنة سرقسطة سنة ٤٣٠هـ/١٠٣٨م، يقول ابن قصيرة: "وكانت طوائف الروم مدة ملوك الطوائف بأفقنا قد كلب داؤهم بكل إقليم، فلاطفوهم بالاحتيال، واستنزلوهم بالأموال، فلم يزل دأبهم الإذعان والانقياد، ودأب النصارى التسلط والعناد، حتى استصفوا الطريف والتلاد، وأتى على الظاهر والباطن النفاد، بما كانوا ضربوا على أنفسهم من الضريبة إلى ما يتبعها من هديات ونفقات"[5].

---

[1] الذخيرة، ق٣، م١، ص١٧٣-١٧٤.

[2] المصدر نفسه، ق٣، م١، ص١٧٤-١٧٥.

[3] المصدر نفسه، ق٣، م١، ص١٧٧-١٧٨.

[4] هو أبو بكر محمد بن سليمان الكلاعي توفي سنة ٥٠٨هـ/١١١٤م، كاتب بارع، ومن أهل التفنن في العلوم، خدم المعتمد بن عباد، وكان رسوله إلى عدد من الملوك.

[5] الذخيرة، ق٢، ج١، ص٢٤٨.

سقوط طليطلة:

ويضيف ابن قصيرة: "وحصلت مدينة قورية Coriaوسرته أولا في يد العدو، إلى عدة حصون وقلاع، كلها في غاية من الحصانة والامتناع، ثم لم يزل التخاذل يتزايد، والتدابر يتساند، حتى حلت الفاقرة، وقضيت القضية وتعجلت البلية، بحصول مدينة طليطلة في أيدي النصارى (بقيادة الفونس السادس ملك قشتالة) وذلك في سنة ثمان وسبعين واربعمائة للهجرة ٤٧٨هـ/١٠٨٦م، وهي من الجزيرة كنقطة الدائرة، وواسطة القلادة، تدركها من جميع نواحيها، ويستوي في الاضرار بها قاصيها ودانيها"[١].

وقد دام حصار طليطلة سبع سنوات استسلمت في نهايتها. وقد اعتبر سقوطها بيد النصارى رزية كبيرة، واعتبرها ابن العسال أنها نهاية المسلمين في الأندلس حيث دعا أهل الأندلس للرحيل عنها[٢]:

حثوا مطاياكم عن أرض أندلس	فما المقام بها إلا من الغلط
فالثوب ينسل من أطرافه وأرى	ثوب الجزيرة منسولا من الوسط
ونحن بين عدو لا يفارقنا	كيف الحياة مع الحياة في سفط

ولم يكتف الفونس السادس بالاستيلاء على طليطلة بل استولى على جميع أعمال الثغر الأوسط التي كانت تابعة لبني ذي النون وأصبحت المنطقة الممتدة من وادي الحجارة حتى مدينة طلبيرة وأعمال شنت برية Santebria تابعة لقشتالة، ولما كان ملوك الطوائف على ما هم عليه من الانقسام والضعف، فقد أخذوا يتقربون من الفونس السادس ويدفعون له الجزية[٣].

---

(١) الذخيرة، ق١، ج١، ص٢٤٩.

(٢) المصدر نفسه، ق٢، ج١، ص٢٥٠؛ نفح الطيب، ج٤، ص٣٥٢.

(٣) ابن الكردبوس، تاريخ الأندلس، ص٨٧، ٨٨؛ عنان، دول الطوائف، ص١١٤.

الاستغاثة بالمرابطين:

تذكر المصادر أن الاندلسيين استغاثوا بالمرابطين قبل سقوط طليطلة فقد وصل وفد منهم إلى ابن تاشفين سنة ٤٧٤هـ/١٠٨١م فوعدهم بالاستجابة لطلبهم[١]، ثم شددوا في طلب الاستغاثة بعد سقوط طليطلة.

استغاثات بطليوس:

ولما شعر ابن الأفطس صاحب بطليوس أن الفونس السادس قاصده لا محاله، وجد أن خير عون له هو العدوة المغربية حيث بدأت قوة اسلامية تظهر، وهي قوة المرابطين فأرسل إلى الأمير يوسف بن تاشفين يستصرخه[٢]:

"لما كان نور الهدى ـ ايدك الله ـ دليلك، وسبيل الخير سبيلك... ووقفت على الجهاد عزائمك، وصح العلم بأنك لدولة الإسلام أعز ناصر، وعلى غزو الشرك أقدر قادر، وجب أن تستدعى، لما أعضل الداء، وتستغاث فيما أحاط بالجزيرة من البلاء. فقد كانت طوائف العدو تطيف بها عند افراط تسلطها واعتدائها، وشدة ظلمها، واستشرائها، تلاطف بالاحتيال، وتستنزل بالأموال، ويخرج لها من كل ذخيرة وتسترضى بكل حظيرة".

ويستمر في استغاثته قائلا:

"ولم يزل دأبها التشطط والعناد، ودأبنا الإذعان والانقياد، حتى نفد الطارف والتلاد، وأتى على الظاهر والباطن النفاد، وأيقنوا الآن بضعف المنن، وقويت أطماعهم في افتتاح المدن... إلا ناصرا لهذا الدين المهتضم، إلا حاميا لما استبيح من حمى الحرم، وإنا لله على ما لحق عبيده من ثكل، وغره من ذل، فإنها الرزية التي ليس فيها عزاء،

---

(١) الحلل الموشية، ط١، ص٣٣.

(٢) المصدر نفسه، (المحقق)، ص٣٤-٣٥.

والبلية التي ليس مثلها بلاء... ومن قبل هذا ما كنت قد خاطبتك، أعزك الله في مدينة قورية[1] ... وأنها مؤذنة للجزيرة بالخلاء، ولمن فيها من المسلمين بالجلاء ثم ما زال التخاذل والتدابر يتزايد، حتى تخلطت القضية... وتحصلت بيد العدو مدينة سرية[2]، وعليها قلعة تجاوزت حد القلاع في التحصن والامتناع... إن لم تدركوها بجماعتكم عجالا، وتبادروا ركبانا ورجالا، وتنفروا نحوها خفافا وثقالا، وما أحضكم على الجهاد في كتاب الله، فإنكم له أتلى، ولا بما في حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم، فإنكم إلى معرفته أهدى، وفي كتابي هذا الذي يحمله إليكم الشيخ الفقيه الواعظ مسائل مجملة يفصلها ويشرحها، ومشتمل علىّ نكت هو يبينها لكم ويوضحها، فإنه لما توجه نحوك احتسابا، وتكلف المشقة إليك ثوابا عولت على بيانه..."[3].

استغاثات اشبيلية:

وأذعن ملوك الطوائف بالخضوع التام لألفونس السادس وأدوا له الاتاوة، وهو مع ذلك يجوس ديارهم بقواته ويحتل معاقلهم وحصونهم[4]. ولما تأخر المعتمد بن عباد عن دفع الاتاوة بعث إليه وفدا يأمره الاسراع بدفعها، وقد تجاوز رئيس الوفد، وهو يهودي، حدود الأدب. فما كان أمام المعتمد إلا قتله، ولما سمع الفونس السادس بقتل رسوله تراجع إلى مدينة طليطلة لإعداد العدة ومهاجمة ابن عباد، فقد أقسم ليطأن أرضه. ويبدو أن الفونس السادس قد اتخذ من تأخير المعتمد لدفع الاتاوة، غطاء لاحتلال المزيد من الأراضي، فهو قد رفض تسلم الاتاوة عندما بعث بها المعتمد فيما بعد، بل بعث إلى المعتمد أن يسلمه الحصون والمعاقل القريبة من أملاكه، وبلغت قمة الاستخفاف بالمعتمد عندما طلب منه الفونس السادس بأن يسمح لزوجته أن تلد في جامع قرطبة الكبير[5].

---

(1) قورية Coria، من مدن الثغر الأدنى في غرب الأندلس، انظر: الروض المعطار، ص٤٨٥.

(2) سرية Soria، من مدن قشتالة القديمة، ومن مدن الثغر الأعلى، انظر: الأعلام التاريخية والجغرافية، ص٢٨.

(3) ابن الكردبوس، تاريخ الأندلس، ص٧٧، ٨٤-٨٥.

(4) الكامل في التاريخ، ج١٠، ص١٤٢؛ وفيات الأعيان، ج٧، ص١١٥؛ نفح الطيب، ج١، ص٤٣٨-٤٣٩، ج٤، ص٣٥٦.

(5) أعمال الأعلام، ج٣، ص١٨٥؛ نفح الطيب، ج٤، ص٣٥٦-٣٥٨.

وتقدم الفونس السادس بجيشه نحو اشبيلية في اتجاهين، الأول باتجاه باجة ولبلة والآخر وعلى رأسه الفونس نفسه نحو اشبيلية على أن يلتقيا في طريانة على النهر الأعظم (النهر الكبير) قبالة اشبيلية[1].

وعندما طال وقوفه أمام اشبيلية بعث إلى المعتمد رسولا يقول له: "كثر بطول مقامي في مجلسي الذبان، واشتد علي الحر، فاتحفني من قصرك بمروحة أروح بها على نفسي وأطرد بها الذباب عن وجهي، فوقع له ابن عباد بخط يده على ظهر كتابه : قرأت كتابك وفهمت خيلاءك واعجابك وسأنظر لك في مراوح من الجلود اللمطية تروح منك لا تروح عليك، إن شاء الله"[2].

وكان قصد المعتمد هو الاستغاثة بيوسف بن تاشفين (٤٤٨ـ٥٠٠هـ/١٠٨٧ـ١١٠٦م) والاستظهار به على العدو، فاستبشر الناس وفرحوا بذلك، وفتحت لهم أبواب الأمل[3].

وكان ملوك الطوائف بين مؤيدين ومعارضين لهذه الاستغاثة، وكانت حجة المعارضين أن يوسف بن تاشفين سوف يطمع بالأندلس ويأخذها منهم، وأن مداراة الأذفونش (الفونس السادس)، أفضل من ذلك[4]. لكن رد المعتمد كان واضحا يتناسب والموقف الخطير الذي تعاني منه الأندلس، فهو قد رأى ضعف جيرانه من ملوك الطوائف، وضعف جيوشهم، وأن الناس قد أبغضتهم وكرهتهم ويريدون الخلاص منهم، وقال قولته المشهورة "رعي الجمال خير من رعي الخنازير"[5]. وأردف قائلا:

---

(١) نفح الطيب، ج٤، ص٣٥٨.

(٢) المصدر نفسه، ج٤، ص٣٥٨.

(٣) المصدر نفسه، ج٤، ص٣٥٩.

(٤) الحلل الموشية، (ط. تونس)، ص٢٦؛ وفيات الأعيان، ج٧، ص١١٤-١١٥.

(٥) أعمال الأعلام، ج٣، ص٢٨١؛ وفيات الأعيان، ج٧، ص١١٥؛ نفح الطيب، ج٤، ص٣٥٩.

"يا قوم إني من أمري على حالتين: حالة يقين، وحالة شك، ولا بد لي من إحداهما، أما حالة الشك فإني إن استندت إلى ابن تاشفين أو إلى الاذفونش (الفونس السادس)، ففي الممكن أن يفي لي ويبقى على وفاءه، ويمكن أن لا يفعل، فهذه حالة شك. وأما حالة اليقين فإني إن استندت إلى ابن تاشفين فأنا أرضى الله، وإن استندت إلى الاذفونش (الفونس السادس) اسخطت الله تعالى، فإذا كانت حالة الشك فيها عارضة فلأي شيء أدع ما يرضي الله وآتى ما يسخطه"[1]. ثم إنه خلا بابنه الرشيد الذي حذره من اللجوء إلى ابن تاشفين، وبين لأبنه سياسته ودقة الوضع التي أملت عليه هذا الموقف:

"يا عبيد الله إنا في هذه الأندلس غرباء بين بحر مظلم، وعدو مجرم، وليس لنا ولي ولا ناصر إلا الله تعالى وإن اخواننا وجيراننا ملوك الاندلس ليس لنا فيهم نفع، ولا ترجى منهم نصرة ولا جنة، إن نزل بنا مصاب أو نالنا عدو ثقيل. وهو اللعين أذفنش (الفونس السادس)، قد أخذ طليطلة من ابن ذي النون بعد سبع وسبعين وأربعمائة (٤٧٧هـ) ، وعادت دار كفر، وها هو قد رفع رأسه الينا، وإن نزل علينا بكلكله ما يقلع عنا حتى يأخذ اشبيلية، ونرى من الرأي أن نبعث إلى هذا الصحراوي وملك العدوة نستدعيه للجواز ليدفع عنا هذا الكلب اللعين ويقصد الفونس السادس، إذ لا قدرة لنا على ذلك بأنفسنا، فقد تلف مجبانا، وتبددت أجنادنا، وابغضتنا العامة والخاصة... والله لا يسمع عني أبدا أني أعدت الاندلس دار كفر، ولا تركتها للنصارى فتقوم علي اللعنة في منابر الاسلام مثلما قامت على غيري[2].

أما أهل الأندلس وفقهاؤها وقضاتها فقد تواترت وفودهم ورسائلهم على يوسف بن تاشفين وشكوا إليه ما حل بهم من اعدائهم، مناشدينه الله والاسلام بإنقاذهم، فوعدهم بالمدد والعون، وأنه في حاجة لبناء السفن من أجل نقل قواته إلى الاندلس[3].

---

(1) نفح الطيب، ج٤، ص٣٥٩.

(2) الحلل الموشية (ط. الدار البيضاء)، ص٢٦-٢٧.

(3) أعمال الأعلام، ج٢، ص٢٨٢؛ الحلل الموشية (ط.تونس)، ص٢٠؛ تاريخ ابن خلدون، ج٦، ص١٨٦؛ نفح الطيب، ج٣، ص٣٥٩-٣٦٠.

بعد ذلك أجمع رأي رؤساء الأندلس أن يترأس وفدهم إلى بـــلاط يوســف بــن تاشفين، قاضي الجماعة بقرطبة ابو بكر عبيد الله بن محمد، لما يتمتع به من علمْ وعقــل وسمعة طيبة، يرافقه عدد من القضاة، وكانت من مهمة الوفد اقناع ابن تاشفين بالجـــهاد وترغيبه فيه. كما أسند المعتمد إلى وزيره ابن زيدون في تلك السفارة مهمة ابرام العقــود السلطانية(١).

وقد ورد نصا استغاثة للمعتمد بن عباد في كتاب الحلل الموشية كان قد وجهـــهما إلى يوسف بن تاشفين وهذا نصهما:

بسم الله الرحمن الرحيم، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبـــه وســلم تسليما.

إلى حضرة الامام، أمير المسلمين، وناصر الدين، محيى دعوة الخليفة، الامام أمير المسلمين، أبى يعقوب يوسف بن تاشفين.

من القائم بعظيم اكبارها، الشاكر لاجلالها، المعظم لما عظم الله من كريم مقدارها، اللائذ بحرمها، المنقطع إلى سمو مجدها، المستجير بالله، وبطولها، محمد بن عباد.

سلام الله الكريم يخص الحضرة العلية، المعظمة السامية، ورحمة الله وبركاته.

وكتب المنقطع إلى كريم سلطانها من اشبيلية غرة جمـــادى الأولـــى ســـنة تسـع وسبعين وأربعمائة، وأنه أيد الله أمير المسلمين، ونصر به الدين، انا نحن العرب في هــذه الاندلس، قد تلفت قبائلنا، وتفرق جمعنا، وتغيرت أنسابنا، بقطع المادة عنا مـــن معيننـــا، فصرنا شعوبا لا قبائل، وأشتاتا لا قرابة ولا عشائر، فقل ناصرنا، وكثر شامتنا، وتوالـــى علينا هذا العدو المجرم اللعين أذفنش (الفونس السادس)، وأناخ علينـــا بكلكلـــه، ووطئنـــا بقدمه، وأسر المسلمين، وأخذ البلاد والقلاع والحصون، ونحن أهل هذه الاندلس ليس لاحد منا طاقة على نصرة جاره، ولا أخيه، ولو شاؤوا لفعلوا، الا أن الهوان منعهم عن ذلـــك، وقد ساءت الأحوال، وانقطعت الآمال، وأنت أيدك الله، ملك المغرب أبيضه وأسوده، وسيد

---

(١) ابن الكردبوس، تاريخ الأندلـــس، ص٩٠؛ الكـــامل فـــي التـــاريخ، ج١٠، ص١٥١-١٥٢؛ الأنيــس المطرب، ص١٤٤؛ تاريخ ابن خلدون، ج٦، ص١٨٦؛ نفح الطيب، ج٤، ص٣٥٩-٣٦٠.

حمير، ومليكها الاكبر، وأميرها وزعيمها، ونزعت بهمتي اليك، واستنصرت بالله ثم بـك، واستغثت بحرمكم، لتجوزوا لجهاد هذا العدو الكافر، وتحيوا شريعة الاسلام، وتذبوا عـن دين محمد عليه الصلاة والسلام، ولكم بذلك عند الله الثواب الكريم، والأجر الجسـيم، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم، والسلام الكريم غلى حضرتكم السامية، ورحمـة الله تعالى وبركاته.

النص الثاني:

إلى الملك المؤيد بفضل الله أمير المسلمين، وناصر الدين، وزعيم المرابطين، أبى يعقوب يوسف ابن تاشفين، نور الله به الآفاق، وجمع به الجيوش والرفاق.

من الملك المفضل بنعمة الله، المستجير برحمة الله، المعتمد على الله، محمد بـن عباد، سلام على حضرة تجرد ايمانها، واشتهر أمانها، أما بعد:

فإن الله سبحانه أيد دينه بالاتفاق والائتلاف، وحرم مسـالك الشـتات، ودواعـي الاختلاف، وأنعم على عباده بأمير جديد "وقوم أولى بأس شديد"، وتطول علينـا بمعلـوم جدك، ومشهور جدك، وقد جعلك رحمة يحيى غيثها ربوع الشريعة، وخلقك سـلما إلـى الخير وذريعة، وقد طرأ على الاسلام حادث أنسى كل هم، وهمت النكبات بوقوعه وهـم، وذلك عدو أطمعه في البلاد شتات وبين، واختلاف سببه لم تطرف له في الدعـة عيـن، يقوى ونضعف، ويتفق ونختلف، وننام مطمئنين من آفات الزمان، وتناسخ الأمـان، وقـد جاءنا ابراقه وارعاده، ووعده وايعاده، لنسلم له المنابر والصوامع، والمحارب والجوامـع، ليقيم بها الصلبان، ويستتيب بها الرهبان، ومما يطمعه استمالته ايانا بالدعة، واملاؤه فـي الرحب والسعة، استجرارا لما أبطنه، واهجاما علينا وطنه.

وقد وطد الله لك ملكا شكر الله عليه، جهادك، وقيامك بحقه واجتهادك، ولك مـن نصر الله خير باعث، يبعثك إلى نصر مناره، واقتباس نوره وناره، وعندك من جنـود الله من يشترى الجنة بحياته، ويحضر الحرب بآلاته، فان شئت الدنيا، فقطوف دانية، وجنـات عالية، وعيون آنية، وان أردت الاخرى فجهاد لا يفتر، وجلاد يحز الغلاصم ويبتر، هـذه

الجنة ادخرها الله لظلال سيوفكم، واجمال معروفكم، نستعين بالله وملائكته، وبكم على الكافرين، كما قال الله سبحانه، وهو أكرم القائلين: "قاتلوهم يعذبهم الله بأيديكم ويخزهم وينصركم عليهم ويشف صدور قوم مؤمنين".

والله يجمعنا على كلمة التوحيد ننصرها، ونعمة الاسلام نشكرها، ورحمة الله نتحدث بها وننشرها، والسلام الموصول الجزيل على أمير المسلمين، وناصر الدين، ورحمة الله وبركاته.

فاستجاب ابن تاشفين لاستغاثة أهل الاندلس واعتبر نفسه أنه أول منتدب لنصرة هذا الدين، ولا يتولى هذا الأمر أحد غيره[1]. وكان ابن تاشفين قد بعث إلى الأندلس يطلب شراء العدة وآلات الحرب فاشترى له منها الكثير "وكان ذلك عام اتخاذ العدة والسلاح واقتناء الأجناد، واختيار الرجال: وبلغ عدد جيشه اثني عشر الف فارس[2]. عند ذلك أدرك الفونس السادس إنها الحرب، فكتب إليه يخوفه ويرهبه إلا أن رد ابن تاشفين كان بضع كلمات.

نص الكتاب:

من أمير الملتين أذفنش بن شانجة بن فرنداة (الفونس السادس)، إلى الأمير يوسف بن تاشفين، أما بعد:

فلا خفاء على ذى عينين أنك أمير المسلمين، بل الملة المسلمة، كما أنا أمير الملة النصرانية، ولم يخف عليك ما عليه رؤساؤكم بالأندلس من التخاذل، والتواكل، والاهمال للرعية، والاخلاد إلى الراحة، وأنا أسومهم الخسف، فأخرب الديار، وأهتك الأستار، وأقتل الشبان، وآسر الولدان، ولا عذر لك في التخلف عن نصرهم، ان أمكنتك فرصة هذا، وأنتم تعتقدون أن الله تبارك وتعالى، فرض على كل واحد منكم قتال عشرة منا، وأن قتلاكم في

---

(١) ابن الكردبوس، تاريخ الأندلس، ص٩٠؛ المعجب، ص١٣٠-١٣٢.

(٢) الحلل الموشية، (ط. الدار البيضاء)، ص٣٧-٣٨.

الجنة، وقتلانا في النار، ونحن نعتقد أن الله أظفرنا بكم، وأعاننا عليكم، ولا تقدرون دفاعا، ولا تستطيعون امتناعا، وبلغنا عنك أنك في الاحتفال، على نية الاقبال، فـلا أدرى أكـان الجبن يبطئ بك، أم التكذيب بما أنزل اليك، فان كنت لا تستطيع الجواز، فابعث إلي مـا عندك من المراكب لاجوز اليك، وأنا أقاتلك في أحب البقاع إليك، فان غلبتنى فتلك غنيمـة جلبت اليك، ونعمة مثلت بين يديك، وان غلبتك كانت لي اليد العليا، واستكملت الامـارة، والله يتم الارادة.

فأمر أمير المسلمين يوسف بن تاشفين، أن يكتب اليه على ظهر كتابه: جوابك يـا أذفنش (الفونس السادس) ما تراه لا ما تسمعه، ان شاء الله، وأردف الكتاب ببيـت أبـى الطيب المتنبي:

ولا كتـب إلا المشـرفية والقنـا ولا رسـل إلا الخميـس العرمـرم

واستشار ابن تاشفين مجلسه، وكلهم حبب إليه نصرة اخوانهم، ورغبوه في الجهاد، لكنهم نصحوه بأخذ الجزيرة الخضراء من ابن عباد لتكون موطئ قدم لهم ينطلقون منـه داخل الاندلس بعد اجتيازهم البحر، فأجابه المعتمد إلى ذلك وكتب في محضـر حضـره الفقهاء والقضاة عقد هبة الجزيرة الخضراء ليوسف بن تاشفين(١). وكان ابن عباد قد ركب البحر إلى المغرب وقابل يوسف بن تاشفين في طنجة وأخبره بحال الاندلس وما هي عليه من الخوف والاضطراب وما يلقاه المسلمون من عدوهم من القتل والأسر والحصار فقـال له يوسف (ارجع إلى بلادك فإني على أثرك) فرجع ابن عباد إلى الأندلس ونزل ليوسـف عن الجزيرة الخضراء لتكون رباطا للجهاد(٢). ووجه المعتمد بن عباد اسطوله إلى سـبته ليساهم في نقل قوات المرابطين. وفي الجزيرة الخضراء التقى ابن تاشفين بملوك الاندلس وعلى رأسهم المعتمد، ورحب به سكان الجزيرة، وانضم إلى جيشه في الجزيرة الكثير من المتطوعين وكان جوازه إلى الاندلس سنة ٤٧٩هـ، واعتذر ابن صمادح عن استقبال ابن تاشفين بسبب انشغاله بالعدو(٣).

---

(١) الحلل الموشية، (ط.تونس)، ص٣٢-٣٣.

(٢) الاستقصا، ج٢، ص٣٤.

(٣) الحلل الموشية، (ط.تونس)، ص٣٥-٣٦؛ الأنيس المطـرب، ص١٤٥-١٤٦؛ نفـح الطيـب، ج٤، ص٣٦٠-٣٦٢.

وباشر ابن تاشفين بتحصين الجزيرة الخضراء ببناء الأسوار والأبراج ورتب فيها الجنود، ثم تقدم بعد ذلك نحو اشبيلية[١] ، وكان قد عبر مع جيش ابن تاشفين عدد كبير من الجمال التي كان لها دور في انتصار المسلمين في المعارك[٢].

وعندما التقى يوسف بابن عباد تعاهدا على الصبر والرحمة، وتضرعا إلى الله أن يكون عملهما خالصا لوجه الله.

استنفر الفونس السادس قواته وبعث يطلب المدد من جميع المناطق النصرانية فتقاطر إليه المتطوعون من الفرنجة والجلالقة ورفع القسيسون والرهبان والأساقفة صلبانهم وأناجيلهم[٣] ، وبلغ عدد قواته ثمانون ألف مقاتل بكامل أسلحتهم وقد اغتر الفونس بكثرتهم، بينما قدر عدد المسلمين بأربعة وأربعين ألفا .

موقعة الزلاقة:

وكان رأي الفونس السادس أن يلاقي المسلمين في بلادهم، فقد قال لأهل مشورته: "إني رأيت أني إن أمكنتهم من الدخول إلى بلادي فناجزوني فيها وبين حدودها، وربما كانت الدائرة علي، يستحكمون البلاد، ويحصدون من فيها غداة واحدة ولكني أجعل يومهم معي في حوز بلادهم فإن كانت علي اكتفوا بما نالوه، ولم يجعلوا الدروب وراءهم إلا بعد أهبة أخرى فيكون في ذلك صون لبلادي وجبر لمكاسري، وإن كانت الدائرة عليهم، كان مني فيهم وفي بلادهم ما خفت أنا أن يكون في وفي بلادي، إذا ناجزوني في وسطها"[٤].

---

[١] الحلل الموشية، (ط.تونس)، ص٣٣-٣٤؛ ابن الكردبوس، تاريخ الأندلس، ص٩٢؛ وفيات الأعيان، ج٧، ص١١٦؛ نفح الطيب، ج٤، ص٣٦٢.

[٢] وفيات الأعيان، ج٧، ص١١٦؛ نفح الطيب، ج٤، ص٣٦١.

[٣] الكامل في التاريخ، ج١٠، ص١٥٢-١٥٤؛ الحلل الموشية (ط.تونس)، ص٣٩؛ نفح الطيب، ج٤، ص٣٦٢-٣٦٣؛ والاستقصا، ج٢، ص٤٢.

[٤] الاستقصا، ج٢، ص٤٢.

تجمعت الجيوش الاندلسية في بطليوس وأناخوا بظاهرها وتقدمت جيوش المرابطين من الجزيرة الخضراء، واجتمعت جيوش المسلمين في الزلاقة بالقرب من بطليوس، والتحم الجيشان في معركة حامية، كادت الدائرة تكون على المعتمد وقوات أهل الأندلس في البداية إلا أن دخول قوات المرابطين (وكان معظمهم من البربر: زناته، المصامدة، غمارة، صنهاجة، لمتونة، وقبائل المرابطين) وصدقها في القتال أذهل العدو فهربوا من ميدان القتال مخلفين وراءهم أعدادا هائلة من القتلى، حتى قيل أن المسلمين عملوا من جماجم اعدائهم مآذن أذنوا فوقها. وشكروا الله على نصره لهم. وكانت المعركة في سنة ٤٧٩هـ/١٠٨٦م. وقد أبيد جيش الفونس السادس في هذه المعركة، ولم ينج إلا الفونس نفسه ومعه خمسمائة فارس ما منهم إلا جريح[١].

وقد سر المسلمون بهذا النصر الكبير، وكثر الدعاء ليوسف بن تاشفين على منابر المساجد[٢]، ونتيجة لهذه المعركة الحاسمة ثبت الحكم الاسلامي إلى فترة طويلة، وفي هذه المعركة تسمى يوسف بأمير المسلمين[٣]. إلا أن يوسف لم يستغل هذا الانتصار للقضاء على عدوه واستعادة طليطلة وغيرها من مدن المسلمين، ولعل ذلك يعود إلى تحصين طليطلة من قبل الفونس السادس، والخسائر التي لحقت بعسكره، كما أن أخبارا وصلته من العدوة تفيد بموت ابنه الأكبر فعاد إلى المغرب تاركا وراءه ثلاثة آلاف مقاتل تحت أمرة قائده سير بن أبي بكر[٤]، الذي واصل الحرب ضد الفونس السادس فشن الغارات على حصون القشتاليين وتوغل في البلاد وحصل على غنائم كثيرة[٥].

---

(١) الذخيرة، ق٢، ج١، ص٢٤١؛ الكامل في التاريخ، ج١٠، ص١٥٤؛ ابن الكردبوس، تاريخ الأندلس، ص٩٢-٩٥؛ الحلل الموشية (ط.تونس)، ص٣٩، ٤٢-٤٣؛ المطرب، ص٢٥-٢٦؛ المعجب، ص١٣٣-١٣٥؛ وفيات الأعيان، ج٧، ص١١٧-١١٨؛ الأنيس المطرب، ص١٤٧-١٤٩؛ تاريخ ابن خلدون، ج٦، ص١٨٦؛ نفح الطيب، ج١، ص٤٣٨، ج٤، ص٣٦٣-٣٦٨؛ والاستقصا، ج٢، ص٤٨.

(٢) الذخيرة، ق٢، ج١، ص٢٤١.

(٣) الأنيس المطرب، ص١٤٩.

(٤) ابن الكردبوس، تاريخ الأندلس، ص٩٥-٩٦؛ نفح الطيب، ج٤، ص٣٧٠.

(٥) الاستقصا، ج٢، ص٥٠،٥١.

وفي سنة ٤٨١هـ/١٠٨٨م أمت وفود أهالي الاندلس مراكش على أثر تكالب العدو في حصن لييط وشكوا ذلك إلى الأمير يوسف بن تاشفين[١]، فوعدهم الأمير يوسف بالنصرة، ثم إن المعتمد عبر البحر مع خاصته إلى يوسف ابن تاشفين حيث لقيه بالمعمورة من أحواز سلا، وشرح له أن سبب قدومه إليه هو زيادة ضرر النصارى الخارجين من حصن لييط وما يشكله هذا الحصن من أذى للمسلمين لتوسطه في بلادهم، وحثه على الجهاد، ووعده الأمير بالحركة والجواز إلى الأندلس، وعاد المعتمد لتهيئة عدة الحرب، ولما اجتاز ابن تاشفين الأندلس استقبله ابن عباد، واستنفر الأمير ملوك الأندلس للجهاد والخروج إلى حصن لييط، فلحق به ابن بلقين صاحب غرناطة، والمعتصم بن صمادح صاحب المرية، كما لحق به رؤساء شقورة وبسطة وجيان، كما أحضر من مرسية النجارين والبنائين والحدادين، وحاصروا حصن لييط، وكانت تقيم فيه قوة من النصارى قوامها ثلاثة عشر الف مقاتل، واستمر حصاره شهرا، وقطعوا عنه الميرة وضيقوا عليه الحصار، لكنهم فشلوا في فتحه بسبب استغاثة قائد الحصن بالفونس السادس. ولما علم يوسف بتقدم الفونس السادس ترك الحصن ومع ذلك انسحب الفونس السادس من الحصن فدخله ابن عباد، وبعث بأربعة آلاف مقاتل إلى بلنسية، ثم أردفهم بقوة أخرى. ومن هناك رجع ابن تاشفين إلى العدوة، ورجع كل من خرج معه من ملوك الطوائف إلى بلادهم مع عسكرهم[٢]. وفي سنة ٤٨٣هـ عبر يوسف بن تاشفين إلى الاندلس للمرة الثالثة فسار حتى نزل طليطلة وحاصر الفونس فيها وشن الغارات بأطرافها وانتسف ثمارها وزروعها وخرب عمرانها، ولم ينضم إليه من ملوك الاندلس أحد فغاظه ذلك[٣]. وعاد إلى مراكش.

---

[١] ابن الكردبوس، تاريخ الأندلس، ص٩٩-١٠٠؛ وابن خلدون، تاريخ (العبر)، ج٦، ص١٨٦.

[٢] الحلل الموشية، (ط.تونس)، ص٤٧-٥٠؛ الإحاطة، ج١، ص١٤٨؛ الأنيس المطرب، ص١٥١-١٥٢.

[٣] الاستقصا، ج٢، ص٥٢،٥٣.

خلع ملوك الطوائف:

وفي سنة ٤٨٣هـ/١٠٩٠م رأي ابن تاشفين أن خير طريقة للدفاع عن الاندلس هو القضاء على ملوك الفتنة نهائيا، وبخاصة عندما جاءته معلومات من قائده ابن أبي بكر إنه يقاتل الأعداء وحده، وتراجعت عنه قوات الطوائف، كما أن ابن تاشفين قد وصلته معلومات أزعجته من ملوك الطوائف، فأصدر أمره إلى قائده في الأندلس بأن يبدأ بخلعهم واحدا واحدا[١] وكان اصراره قويا على خلعهم بعد أن أفتى علماء الاندلس لابن تاشفين بجواز خلعهم "وأن هؤلاء الرؤساء لا تحل لهم طاعة ولا تجوز امارتهم لأنهم فساد، فجرة[٢] وبخاصة بعد اتصالهم بالفونس السادس[٣].

وفي سنة ٤٨٧هـ/١٠٩٤م قام ملك أرغون سانشو راميرث بمحاصرة مدينة وشقة Huesca التي كان يحكمها المستعين بن هود ولكن المدينة صمدت بفضل استبسال المدافعين عنها، وقتل سانشو نفسه متأثرا بسهم أصيب به في المعركة، وكان قد أخذ وعدا من ابنه وخليفته بيدرو الأول Pedro I الاستمرار في حصار وشقة فاستغاث ابن هود بيوسف بن تاشفين الذي بادر بالطلب من ولاته في الاندلس أن يستجيبوا لاستغاثة المستعين فأمدوه بستة آلاف راجل وألف فارس، ومع ذلك فقد سقطت هذه المدينة في يد بيدرو الأول سنة ٤٨٩هـ/١٠٩٦م وجعلها عاصمة لمملكة أرغون[٤].

---

[١] ابن الكردبوس، تاريخ الأندلس، ص١٠٤-١٠٧؛ الكامل في التاريخ، ج١٠، ص١٨٧؛ الحلل الموشية (ط.تونس)، ص٥١-٥٣؛ الإحاطة، ج٢، ص١١٦-١١٧؛ نفح الطيب، ج٤، ص٣٧٠-٣٧١؛ والاستقصا، ج٢، ص٥٢.

[٢] ابن الكردبوس، تاريخ الأندلس، ص١٠٤-١٠٧؛ الكامل في التاريخ، ج١٠، ص١٨٧؛ الحلل الموشية (ط.تونس)، ص٥١-٥٣؛ الإحاطة، ج٢، ص١١٦-١١٧؛ نفح الطيب، ج٤، ص٣٧٠-٣٧١.

[٣] أعمال الأعلام، ج٣، ص١٨٩.

[٤] عنان، دول الطوائف، ص٢٨٨، ٢٨٩؛ وابن الخطيب، أعمال الأعلام، ج٢، ص١٧٣، ١٧٤.

استغاثات بلنسية حتى سقوطها:

وفي سنة ٤٨٨هـ/١٠٩٥م تنازل ابن الأفطس لملك قشتالة عن شنترين، مما جعل الرعية تنفر منه وتتحول عنه، وراسل أهل بطليوس المرابطين لنجدتهم، فتوجهت قوات المرابطين إلى المدينة ودخلتها بعد أن فتح أهلها لها أبواب المدينة[١]، وفي السنة نفسها استغاث قاضي بلنسية الفقيه أبو أحمد بن الجحاف بأمير المسلمين لإنقاذ بلنسية، بعد أن صد عنها القادر بن ذي النون المتآمر مع الفرنج، والذي ساعدهم في احتلال طليطلة، وبعد ان تراجعت عنه قوة المرابطين الذين كان يعتمد عليهم أخذ يستصرخ بأمير المسلمين الذي طلب بدوره من قواده وعماله بالتوجه إلى بلنسية وإنقاذها، ولكن هذه القوة لم تصل المدينة، فبهت أهل المدينة، وأصبحوا طعما لقوات الكنبيطور، فدخلها واحرق قاضيها ابن الحجاف بعد أن صمدت قواته فيها عشرين شهرا، وقد عانى الناس خلال حصارها معاناة عظيمة، وعاثت قواته في بلنسية[٢]. فألهب سقوطها عواطف الشعراء، فقال ابن خفاجة[٣]:

عاثت بساحتك الظبا يا دار	ومحا محاسنك البلى والنار
فإذا تردد في جنابك ناظر	طال اعتبار فيك واستعبار
أرض تقاذفت الخطوب بأهلها	وتمخضت بخرابها الأقدار
كتبت يد الحدثان في عرصاتها	لا أنت أنت ولا الديار ديار

فلما علم يوسف بن تاشفين بما حل ببلنسية وجه جيشين لاستعادتها الأول بقيادة ابن أخيه محمد ابن تاشفين الذي حاصر بلنسية لكنه لم يتمكن من استعادتها والثاني بقيادة محمد بن الحاج سنة ٤٩٠هـ/١٠٩٧م الذي تمكن من دخول أراضي طليطلة وهزم الفونس السادس في معركة قتل فيها ابن الكمبيطور وقد مات الكمبيطور نفسه غما بعد هذه المعركة وعادت فلول قواته إلى بلنسية[٤].

---

(١) أعمال الأعلام، ج٣، ص٢١٥.

(٢) ابن الكردبوس، تاريخ الأندلس، ص١٠٣؛ البيان المغرب، ج٤، ص٣١-٤١؛ نفح الطيب، ج٤، ص٤٥٥.

(٣) نفح الطيب، ج٤، ص٤٥٥.

(٤) ابن الكردبوس، تاريخ الأندلس، ص١٠٩؛ عنان، مواقف حاسمة في تاريخ الإسلام، ط٤، القاهرة، ١٩٦٢، ص٢٦١.

ثم جاءت قوات اسلامية جديدة بقيادة القائد الأمير أبو محمد مزدلي (ابن عم يوسف بن تاشفين) الذي تمكن من دخول بلنسية واتخذها قاعدة له سنة ٤٩٥هـ/١١٠٢م،إلا أن أمرها بقي يضعف حتى خرج الملثمون على يد مروان بن عبد العزيز في سنة ٥٣٩هـ/١١٤٤م عندما دخلت في طاعة ابن مردنيش. ولم يزل أمرها يضعف باستيلاء العدو على أعمالها تدريجيا[١].

في سنة ٤٩٧هـ/١١٠٣م وصل الأمير المرابطي كتاب من المستعين بن هود صاحب سرقسطة يستحثه على توجيه جيش إليه لحمايته من الفونس الذي ضيق عليه الحصار فأنفذ إليه الف فارس من خيرة فرسانه، فقويت شوكة المستعين، وأخذ يهاجم بلاد النصارى[٢].

وفي ذي الحجة من سنة ٥٠٣هـ/١١٠٩م استنجد أهل سرقسطة بالقائد علي بن تاشفين الذي كان ببلنسية، فسار على رأس قوة كبيرة من الجند والمتطوعين، واسترجع في هذه الحملة طلبيرة[٣].

وعندما تعرضت بلنسية للحصار من قبل ملك برشلونة خايمي الثاني سنة ٦٣٥هـ/١٢٣٨م، استنجد ابن مردنيش ببني حفص فقد استقبل صاحب افريقيا أبو زكريا بن ابي حفص وفدا من بلنسية يعلن دخول أهلها في طاعته، وكان رئيس الوفد كاتب ابن مردنيش أبو عبد الله بن الآبار صاحب كتاب التكملة، وأدى بيعتهم في يوم مشهود بالحفرة، والقى قصيدته السينية المشهورة التي يستغيث بها بأبي زكريا، ويدعوه لنصرة أهل الأندلس، وهي القصيدة التي أوردها المقري في كتابه[٤]:

---

(١) نفح الطيب، ج٤، ص٤٥٦.

(٢) ابن الكردبوس، تاريخ الأندلس، ص١١٣.

(٣) نظم عقد الجمان، ص١٣-١٤؛ أعمال الأعلام، ج٣، ص٢٠٢-٢٠٣؛ الأنيس المطرب، ص١٦٠.

(٤) نفح الطيب، ج٤، ص٤٥٦.

أدرك بخيلك خيل الله أندلسا … إن السبيل إلى منجاتها درسا

وهب لها من عزيز النصر ما التمست … فلم يزل منك عز النصر ملتمسا

وحاش مما تعانيه حشاشتها … فطالما ذاقت البلوى صباح مسا

يا للجزيرة أضحى أهلها جزرا … للحادثات وأمسى جدها تعسا

في كل شارقة إلمام بائقة … يعود مأتمها عند العدا عرسا

وكل غاربة إجحاف نائبة … تثني الأمان حذارا والسرور أسى

تقاسم الروم لا نالت مقاسمهم … إلا عقائلها المحجوبة الأنسا

وفي بلنسية منها وقرطبة … ما ينسف النفس أو ما ينزف النفسا

مدائن حلها الإشراك مبتسما … جذلان، وارتحل الإيمان مبتئسا

وصيرتها العوادي العائثات بها … يستوحش الطرف منها ضعف ما أنسا

فمن دساكر كانت دونها حرسا … ومن كنائس كانت قبلها كنسا

يا للمساجد عادت للعدا بيعا … وللنداء غدا أثناءها جرسا

لهفي عليها إلى استرجاع فائتها … مدارسا للمثاني أصبحت درسا

وأربعا نمنمت أيدي الربيع لها … ما شئت من خلع موشية وكسا

كانت حدائق للأحداق مونقة … فصوح النضر من أدواحها وعسا

وحال ما حولها من منظر عجب … يستجلس الركب أو يستركب الجلسا

سرعان ما عاث جيش الكفر واحربا … عيث الدبا في مغانيها التي كبسا

وابتز بزتها مما تحيفها … تحيف الأسد الضاري لما افترسا

فأين عيش جنيناه بها خضرا … وأين عصر جليناه بها سلسا

محا محاسنها طاغ أتيح لها … ما نام عن هضمها حينا ولا نعسا

ورج أرجاءها لما أحاط بها … فغادر الشم من أعلامها خنسا

خلا له الجو فامتدت يداه إلى … إدراك ما لم تطأ رجلاه مختلسا

وأكثر الزعم بالتثليث منفردا … ولو رأى راية التوحيد ما نبسا

صل حبلها أيها المولى الرحيم فما … أبقى المراس لها حبلا ولا مرسا

وأحي ما طمست منها العداة كما … أحييت من دعوة المهدي ما طمسا

أيام صرت لنصـــــر الحـــق مســتبقا وبت من نـــور ذاك الـــهدي مقتبســا
وقمـــت فيـــها بـــأمر الله منتصـــــرا كالصارم اهتز أو كالعارض انبجســـا
تمحو الذي كتب التجسيم مـــن ظلـــم والصبـــح ماحيـــه أنـــواره الغلســـا
وتقتضــي الملـــك الجبـــار مهجتـــه يوم الوغى جهرة لا ترقـــب الخلســا
هذي رســـائلها تدعـــوك مـــن كثــب وأنت أفضـــل مرجـــو لمـــن يئســا
وافتـــك جاريـــة بـــالنجح راجيـــــة منك الأمير الرضي والســـيد الندســا
خاضت خضارة يعليـــها ويخفضـــها عبابـــه فتعـــاني الليـــن والشرســـا
وربمـــا ســـبحت والريـــح عاتيـــــة كما طلبـــت بـــأقصى شـــده الفرســا
تؤم يحيى بن عبد الواحد بــــن أبــي حفـــص مقبلـــة مـــن تربـــه القدســا
ملـــك تقلـــدت الأمـــلاك طاعتـــــه دينا ودنيـــا فغشـــاها الرضـــى لبسـا
من كل غـــاد علـــى يمنـــاه مســـتلما وكـــل صـــاد إلـــى نعمـــاه ملتمســـا
مؤيـــد لـــو رمـــى نجمـــا لأثبتـــــه ولو دعـــا أفقـــا لبـــى ومـــا احتبســا
تا الله إن الذي ترجـــى الســـعود لـــه ما جال في خلـــد يومـــا ولا هجســا
إمـــارة يحمـــل المقـــــدار رايتــــها ودولة عزمـــــها يســـتصحب القعســا
يبدي النهار بها مـــــن ضوئـــه شـــنبا ويطلع الليـــــل مـــن ظلمائـــه لعسـا
ماضي العزيمة والأيـــــام قـــد نكلــت طلق المحيا ووجه الدهر قـــد عبســا
كأنـــه البـــــدر والعليـــــاء هالتــــه تحف من حوله شهب القنـــا حرسـا
تدبيره وســـع الدنيـــا ومـــا وســـعت وعرف معروفه آسى الـــورى وأسـا
قامت على العدل والإحســـان دولتـــه وأنشرت من وجود الجود ما رمســـا
مبـــارك هديــــــه بـــــاد ســـــكينته ما قام إلا إلى حســـــنى ومـــا جلسـا
قـــد نـــور الله بـــالتقوى بصيرتـــــه فما يبالي طـــروق الخطـــب ملتبسـا
برى العصاة وراش الطـــائعين فقـــل في الليث مفترسا والغيـــث مرتجســا
ولم يغـــادر علـــى ســـهل ولا جبـــل حيـــا لقاحـــا إذا وافيتـــــه بخســـا
فـــرب أصيـــد لا تلفـــي بـــه صيـــدا ورب أشـــوس لا تلقـــى لـــه شوســا
إلى الملائك ينمـــــى والملـــوك معـــا في نبعة أثمرت للمجـــد مـــا غرســا

من ساطع النور ساغ الله جوهره ... وصان صيقله أن يقرب الدنسا

له الثرى والثريا خطتان فلا ... أعز من خطيته ما سما ورسا

حسب الذي باع في الأخطار يركبها ... إليه محياه أن البيع ما وكسا

إن السعيد امرؤ ألقى بحضرته ... عصاه محتزما بالعدل محترسا

فظل يوطن من أرجائها حرما ... وبات يوقد من أضوائها قبسا

بشرى لعبد إلى الباب الكريم حدا ... آماله ومن العذب المعين حسا

كأنما يمتطي واليمن يصحبه ... من البحار طريقا نحوه يبسا

فاستقبل السعد وضاحا أسرته ... من صفحة فاض منها النور وانعكسا

وقبل الجود طفاحا غواربه ... من راحة غاص فيها البحر وانغمسا

يا أيها الملك المنصور أنت لها ... علياء توسع أعداء الهدى تعسا

وقد تواترت الأنباء أنك من ... يحيي بقتل ملوك الصفر أندلسا

طهر بلادك منهم إنهم نجس ... ولا طهارة ما لم تغسل النجسا

وأوطئ الفيلق الجرار أرضهم ... حتى يطأطئ رأسا كل من رأسا

وانصر عبيدا بأقصى شرقها شرقت ... عيونهم أدمعا تهمي زكا وخسا

هم شيعة الأمر وهي الدار قد نهكت ... داء متى لم تباشر حسمه انتكسا

فاملأ هنيئا لك التأييد ساحتها ... جردا سلاهب أو خطية دعسا

واضرب لها موعدا بالفتح ترقبه ... لعل يوم الأعادي قد أتى وعسى

وبعد سماع السلطان للقصيدة بادر بنصرة أهل بلنسية وأرسل اليهم المدد والأقوات إلا أن المدد لم يصل إلى بلنسية بسبب شدة الحصار المفروض عليها، مما أدى إلى تغلب الطاغية خايمي الثاني على بلنسية صلحا سنة ٦٣٦هـ/١٢٣٩م[1].

ولما حل الرزء ببلنسية كتب أبو المطرف بن عميره إلى سلطان افريقيا من بني حفص يستحثه على نصرة أخوانه في الأندلس، وكان لأهل الأندلس أمل في الأخذ بثأرهم،

---

[1] تاريخ ابن خلدون، ج٦، ص٢٨٥؛ نفح الطيب، ج٤، ص٤٦٠.

ولم يزل أهل الأندلس بعد ظهور النصارى عليهم يستنهضون عزائم الملوك والجمهور للأخذ بالثأر[1]. واثبت هنا نص القصيدة الرائعة التي ارسلت من الأندلس إلى أبي زكريا بن عبد الواحد بن أبي حفص من كتاب نفح الطيب.

نادتك أندلس فلب نداءها ... واجعل طواغيت الصليب فداءها
صرخت بدعوتك العلية فاحبها ... من عاطفاتك ما يقي حوباءها
واشدد بجلبك جرد خيلك أزرها ... تردد على أعقابها أرزاءها
هي دارك القصوى أوت لإيالة ... ضمنت لها مع نصرها إيواءها
وبها عبيدك لا بقاء لهم سوى ... سبل الضراعة يسلكون سواءها
خلعت قلوبهم هناك عزاءها ... لما رأت أبصارهم ما ساءها
دفعوا لأبكار الخطوب وعونها ... فهم الغداة يصابرون عناءها
وتنكرت لهم الليالي فاقتضت ... سراءها وقضتهم ضراءها
تلك الجزيرة لا بقاء لها إذا ... لم يضمن الفتح القريب بقاءها
رش أيها المولى الرحيم جناحها ... واعقد بأرشية النجاة رشاءها
أشفى على طرف الحياة ذماؤها ... فاستبق للدين الحنيف ذماءها
حاشاك أن تفنى حشاشتها وقد ... قصرت عليك نداءها ورجاءها
طافت بطائفة الهدى آمالها ... ترجو بيحيى المرتضى إحياءها
واستشرفت أمصارها لإمارة ... عقدت لنصر المستضام لواءها
يا حسرتي لعقائل معقولة ... سئم الهدى نحو الضلال هداءها
إيه بلنسية وفي ذكراك ما ... يمري الشؤون دماءها لا ماءها
كيف السبيل إلى احتلال معاهد ... شب الأعاجم دونها هيجاءها
وإلى ربى وأباطح لم تعر من ... حلل الربيع مصيفها وشتاءها
طاب المعرس والمقيل خلالها ... وتطلعت غرر المنى أثناءها
بأبي مدارس كالطول دوراس ... نسخت نواقيس الصليب نداءها

---

(1) نفح الطيب، ج٤، ص٤٧٩-٤٨٣.

ومصانع كسف الضلال صباحها ... فيخاله الرائي إليه مساءها
راحت بها الورقاء تسمع شدوها ... وغدت ترجع نوحها وبكاءها
عجبا لأهل النار حلوا جنة ... منها تمد عليهم أفياءها
أملت لهم فتعجلوا ما أملوا ... أيامهم لا سوغوا إملاءها
لعدا لنفس أبصرت إسلامها ... فتوكفت عن حزبها إسلاءها
أما العلوج فقد أحالوا حالها ... فمن المطيق علاجها وشفاءها
أهدى إليها بالمكاره جارح ... للكفر كره ماءها وهواءها
وكفى أسى أن الفواجع جمة ... فمتى يقاوم أسوها أسواءها
هيهات في نظر الإمارة كف ما ... تخشاه، ليت الشكر كان كفاءها
مولاي هاك معادة أنباءها ... لتنيل منك سعادة أبناءها
جرد ظباك لمحو آثار العدا ... تقتل ضراغمها وتسب ظباءها
واستدع طائفة الإمام لغزوها ... تسبق إلى أمثالها استدعاءها
لا غرو أن يعزى الظهور لملة ... لم يبرحوا دون الورى ظهراءها
إن الأعاجم للأعارب نهبة ... مهما أمرت بغزوها أحياءها
تا الله لو دبت لها دبابها ... لطوت عليها أرضها وسماءها
ولو استقلت عوفها لقتالها ... لاستقبلت بالمقربات عفاءها
أرسل جوارحها تجئك بصيدها ... صيدا وناد لطحنها أرحاءها
هبوا لها يا معشر التوحيد قد ... آن الهبوب وأحرزوا علياءها
إن الحفائظ من خلالكم التي ... لا يرهب الداعي بهن خلاءها
هي نكتة المحيا فحيهلا بها ... تجدوا سناها في غد وسناءها
أولوا الجزيرة نصرة إن العدا ... تبغي على أقطارها استيلاءها
نقصت بأهل الشرك من أطرافها ... فاستحفظوا بالمؤمنين نماءها
حاشاكم أن تضمروا إلغاءها ... في أزمة أو تضمروا إقصاءها
خوضوا إليها بحرها يصبح لكم ... رهوا وجوبوا نحوها بيداءها
وافى الصريخ مثوبا يدعو لها ... فلتجملوا قصد الثواب ثواءها

دار الجهاد فلا تفتكم ساحة ... ساوت بها أحياؤها شهداءها
هذي رسائلها تناجي بالتي ... وقفت عليها ريشها ونجاءها
ولربما أنهت سوالب للنهى ... من كائنات حملت أنهاءها
وفدت على الدار العزيزة تجتني ... آلاءها أو تجتلي آراءها
مستسقيات من غيوث غياثها ... ما وقعه يتقدم استسقاءها
قد أمنت في سبلها أهواءها ... إذ سوغت في ظلها أهواءها
وبحسبها أن الأمير المرتضى ... مترقب بفتوحها آناءها
في الله ما ينويه من إدراكها ... بكلاءة يفدي أبي أكلاءها
بشرى لأندلس تحب لقاءه ... ويحب في ذات الإله لقاءها
صدق الرواة المخبرون بأنه ... يشفي ضناها أو يعيد رواءها
إن دوخ العرب الصعاب مقاة ... وأبى عليها أن تطيع إباءها
فكأن بفيلقه العرمرم فالقا ... هام الأعاجم ناسفا أرجاءها
أنذرهم بالبطشة الكبرى فقد ... نذرت صوارمه الرقاق دماءها
لا يعدم الزمن انتصار مؤيد ... تتسوغ الدنيا به سراءها
ملك أمد النيرين بنوره ... وأفاده لألاؤه لألاءها
خضعت جبابرة الملوك لعزه ... ونضت بكف صغارها خيلاءها
أبقى أبو حفص إمارته له ... فسما إليها حاملا أعباءها
سل دعوة المهدي عن آثاره ... تنبيك أن ظباه قمن إزاءها
فغزا عداها واسترق رقابها ... وحمى حماها واسترد بهاءها
قبضت يداه على البسيطة قبضة ... قادت له في قده أمراءها
فعلى المشارق والمغارب ميسم ... لهداه شرف وسمه أسماءها
تطمو بتونسها البحار جيوشه ... فيروز زاخر موجها زوراءها
وسع الزمان فضاق عنه جلالة ... والأرض طرا ضنكها وفضاءها
ما أزمع الإيغال في أكنافها ... إلا تصيد عزمه زعماءها
دانت له الدنيا وشم ملوكها ... فاحتل من رتب العلا شماءها

ردت سعادته علـى أدراجـها ... ليل الزمان ونهنهت غلواءها
إن يعتم الدول العزيزة بأسه ... فالآن يولي جوده إعطاءها
تقع الجلائل وهو راس راسخ ... فيها يوقع للسعود جلاءها
كالطود في عصف الرياح وقصفها ... لا رهوها يخشى ولا هوجاءها
سامي الذوائب في أعز ذؤابة ... أعلت على قمم النجوم بناءها
بركت بكل محلة بركاته ... شفعا يبادر بذلها شفعاءها
كالغيث صب على البسيطة صوبه ... فسقى عمائرها وجاد قواءها
ينميه عبد الواحد الأرضى إلى ... عليا فتمنح بأسها وسخاءها
في نبعة كرمت وطابت مغرسا ... وسمت وطالت نضرة نظراءها
ظهرت لمحتدها السماء وجاوزت ... لسرادقات فخارها جوزاءها
فئة كرام لا تكف عن الوغى ... حتى تصرع حولها أكفاءها
وتكب في نار القرى فوق الذرا ... من عزة ألويها وكباءها
قد خلقوا الأيام طيب خلائق ... فثنت إليهم حمدها وثناءها
ينضون في طلب النفائس أنفسا ... حبسوا على إحرازها إمضاءها
وإذا انتضوا يوم الكريهة بيضهم ... أبصرت فيهم قطعها ومضاءها
لا عذر عند المكرمات لهم متى ... لم تستبن لعفاتهم عذراءها
قوم الأمير فمن يقوم بما لهم ... من صالحات أفحمت شعراءها
صفحا جميلا أيها الملك الرضى ... عن محكمات لم نطق إحصاءها
تقف القوافي دونهن حسيرة ... لا عيها تخفي ولا إعياءها
فلعل علياكم تسامح راجيا ... إصغاءها ومؤملا إغضاءها

استغاثة ميورقة:

في سنة ٥٠٨هـ/١١١٤م هاجم أهل بيزه وجنوة جزيرة ميورقة بثلاثمائة مركب، فاحتلوا جزيرة يابسة ثم ميورقة وأثناء الحصار بعث ناصر الدولة كتابا إلى علي بن يوسف بن تاشفين يستصرخه ويستنصره، وكان يحمل هذه الرسالة قائده ابن ميمون فاستجاب الأمير لنصرته، ووجه اليه قوة مكونة من ثلاثمائة مركب دفعة واحدة إلى جزيرة ميورقة فاستعادها وأرجع أهلها إليها[١].

استغاثة قرطبة:

وفي سنة ٥١٩هـ/١١٢٥م اجتاز القاضي ابو الوليد بن رشد البحر إلى مراكش مستغيثا بالأمير علي بن يوسف بن تاشفين، بعد أن عاث ابن ردمير فسادا في بلاد الاندلس، فبين له أمر الاندلس وما منيت به من معاهدها، وما جنوه عليها من استدعاء الروم، وما في ذلك من نقض العهد، والخروج عن الذمة. وقام ابن ردمير بجولة واسعة في الاندلس، وقوات المسلمين تطارده دون أن تظفر به، وقد هاجم ابن ردمير في جولته هذه سرقسطة، وبلنسية، ودانية، ومرسية، والمنصورة، وبرشانة، وبسطة، وغرناطة، ولم تجد مطاردة المسلمين له. وقد بين ابن رشد لعلي ابن تاشفين أن النصارى المعاهدين الذين يقيمون بينهم، لعبوا دورا رئيسيا في مساعدة ابن ردمير. وأفتى القاضي بإبعادهم، فأمر ابن تاشفين إبعاد هؤلاء النصارى إلى سلا ومكناسة[٢]. والمقصود بالمعاهدين أو المستعربين Los Mozarabes، النصارى الذين بقوا بعد الفتح في مدن الاندلس وكانوا يكونون أقلية كبيرة في المدن الرئيسية مثل قرطبة واشبيلية وطليطلة ويتمتعون باستقلال محلي، ولهم قضاؤهم الخاص وكنائسهم يمارسون فيها شعائرهم بحرية، وكانوا يتمتعون

---

(١) ابن الكردبوس، تاريخ الأندلس، ص١٢٣-١٢٤.

(٢) الحلل الموشية (ط.تونس)، ص٦٨-٧٠؛ الكامل في التاريخ، ج١٠، ص٦٣١؛ الإحاطة، ج١، ص١١٣-١١٤.

في بعض الأحيان بنفوذ قوي وأنشأت لهم الحكومة الاندلسية الاسلامية منصب القومس للنصارى ليكون مرجعهم في الشؤون الروحية[1].

وفي سنة ٥٢٨هـ/١١٣٢م هب الأمير المرابطي تاشفين بن علي لانقاذ قرطبة، وهزم القشتاليين وأسر قائدهم وبعد سنتين حاصر الفونسو المحارب افراغة فاستنجد واليها بابن تاشفين فأرسل له جيشا أوقع الهزيمة بالفونس الذي هرب إلى سرقسطة حيث مات غما[2].

الاستغاثات بالموحدين:

في أعقاب القضاء على دولة المرابطين (سنة ٥٣٩هـ/١١٤٤م)، وتثبيت دعائم الحكم الموحدي في المغرب أيام الأمير عبد المؤمن بن علي، قدم إليه وفد من أهالي الأندلس وأعيانها، يحملون كتابا يتضمن مبايعة أهل الأندلس له، وفيها يستصرخونه على الفرنج، فوعدهم الأمير بالنصرة[3]، وبعد فترة اعداد اجتاز الأمير عبد المؤمن بقواته البحر ونزل في الجبل المعروف بجبل طارق وسماه هو جبل الفتح وبنى هناك مدينة[4]، بينما تقدم اسطوله البحري نحو اشبيلية. وفي جبل الفتح قدمت إليه الوفود من الأندلس كأهل مالقه وغرناطة ورنده وقرطبة واشبيلية وما والى هذه البلاد وانضم إليها. وكان له بهذا الجبل يوم عظيم اجتمع له وفي مجلسه فيه من وجوه البلاد ورؤسائها وأعيانها وملوكها من العدوة والاندلس ما لم يجتمع لملك قبله[5] معلنين الطاعة، وتكلم خطباؤهم وشعراؤهم، وقد ألقى الشاعر والوزير الغرناطي ابو جعفر بن سعيد العنسي قصيدة يرحب بها بمقدم الأمير، ويعبر عن فرحة أهالي الأندلس بهذا الجواز، ومن هذه القصيدة[6]:

---

[1] الإحاطة، ج١، ص١٠٦، الهامش.

[2] ابن الأثير، الكامل، ج١١، ص٣٣،٣٤؛ ابن الخطيب، أعمال الأعلام، ج٢، ص٢٥٩؛ الإحاطة، ج١، ص٤٥١؛ ابن عذاري، البيان المغرب، ج٤، ص٨٥.

[3] الكامل في التاريخ، ج١١، ص١١٥؛ المعجب، ص٢١٢-٢١٣؛ الأنيس المطرب، ص١٩٠.

[4] المراكشي، المعجب في تلخيص أخبار المغرب، ص٨٨.

[5] المصدر نفسه، المعجب، ص٨٨.

[6] الحلل الموشية، (ط.الدار البيضاء)، ص١٥٥-١٥٦.

تكلم فقد أصغى إلى قولك الدهر	وما لسواك اليوم نهي ولا أمر
أطل على أهل الجزيرة سعدها	وصدقها من ذلك الخبر خبر

فدخل في ملك الموحدين كثير من جزيرة الاندلس كالجزيرة الخضراء ورنده واشبيلية وقرطبة وغرناطة واجتمع على طاعتهم أهل مغرب الاندلس.

وبعث الأمير عبد المؤمن أثناء إقامته بجبل الفتح بأثني عشر ألف مقاتل إلى أرض العدو، وكان جواز الأمير الموحدي في سنة ٥٤١هـ/١١٤٦م[١]. وقد وردت الوفود من الاندلس على الأمير عبد المؤمن بن علي وكانت هذه الوفود تضم الفقهاء والعلماء والقضاة مثل قاضي اشبيلية أبي بكر بن العربي وقاضي قرطبة أبي القاسم بن الحاج، وعرضوا عليه معاناة أهل الاندلس، وهمومهم، وقد أذكت همومهم عزيمته فعزم على الجهاد لمساعدتهم[٢]، وكان من ضمن الوفود (٥٥٣هـ/١١٥٩م) الشاعرة الأديبة المشهورة بالجمال والمال والحسب حفصة بنت الحاج الركونية، فكان مما قالته في الأمير عبد المؤمن بن علي ارتجالا بين يديه:

يا سيد الناس يا من	يؤمل الناس رفده
امنن علي بطرس	يكون للدهر عدة
تخط يمناك فيه	الحمد لله وحده[٣]

وقد استجاب عبد المؤمن بن علي للاستغاثة فأرسل ثلاثة جيوش إلى الاندلس ابتداء من سنة ٥٤١هـ/ ١١٤٦م وأخضعت العديد من المدن من المرابطين لتوحيد الاندلس. كما استعاد مدينة المرية من الاسبان سنة ٥٥٢هـ/١١٥٧م.

---

(١) الحلل الموشية، (ط.الدار البيضاء)، ص١٥٥.

(٢) الناصري، الاستقصا، ج٢، ص١١٥، ١١٦.

(٣) المقري، نفح الطيب، ج٤، ص١٧١.

لكن هذا لم يمنع من تساقط المدن الأندلسية بيد النصارى الذين استغلوا فرصة انشغال الموحدين مع بقايا المرابطين في قرطبة فاستولوا على عدد من البلاد مثل المرية، وبياسة، وجيان، وطرطوشة، ولاردة، وافراغة وجميع اعمالها ولم يبق في تلك الجهات شيء إلا واستولى عليه النصارى[١].

وعندما علم عبد المؤمن بتوجه الفونس الثامن إلى قرطبة على رأس جيش قوامه أربعين ألف مقاتل، بعث بقوة كبيرة لفك الحصار عن قرطبة وكان يرافق هذا الجيش النساء من أجل حض الجيش على القتال والصبر، وأول ما بدأت به هذه الحملة تطهير غرناطة من بقايا المرابطين[٢]، ثم انعطفت نحو الشرق لإخضاع ابن مردنيش وابن همشك حيث كانا يمثلان مصدر قلق دائم للمسلمين، بسبب مساعدتهم للنصارى، وفتنهم المستمرة[٣].

وعندما حدثت فتنة اشبيلية سنة ٥٥٥هـ/١١٦٠م بعث واليها ابو يعقوب بن عبد المؤمن إلى والده في المغرب يستغيث به، ويشرح له خطر الفتنة، إضافة إلى حصار ابن مردنيش لها. وكان نص الاستغاثة شعرا، منها[٤]:

"إليكم يا أمير المؤمنين توجهت	بنا الرغبات الجم يحثها جهد
لعل عيانا منكم لعبيدكم	وقربا منكم بإبدال به البعد
فقد عضهم ناب من الكفر معضل	وكانوا بكم دهرا وأنيابه درد
بكم يعتلي الإسلام شرقا ومغربا	فلله فيها دائبا ولك الحمد"

---

(١) الكامل في التاريخ، ج١١، ص١٢١-١٢٢؛ والاستقصا، ج٢، ص١١٨.

(٢) الكامل في التاريخ، ج١١، ص١٥٦-١٥٧؛ نفح الطيب، ج٤، ص٣٧٨.

(٣) الكامل في التاريخ، ج١١، ص٢٨٣.

(٤) المن بالإمامة، ص٧٦-٧٧.

فاجتاز عبد المؤمن على رأس قوة عسكرية، واستقبله والـــي اشـــبيلية وأشـــياخها وأشياخ غرناطة وأشياخ قرطبة. وأعلن الناس عن سرورهم لهذه النصرة وبخاصة أهـــل قرطبة الذين ذاقوا الأمرين من حصار ابن مردنيش[1]. وقد تكرر اجتياز الموحدين إلـــى الأندلس في السنوات ٥٥٧هـ/١١٦١م[2] و ٥٦٠هـ/١١٦٤م[3] و ٥٦٤هـــ/١١٦٨م[4]. فقد تابع يوسف بن عبد المؤمن سياسة والده ووجه كل اهتمامه لدعم الســـلطة السياســـية للموحدين في الاندلس فأرسل عدة حملات متتابعة إلى الاندلس لفرض هيبة الموحدين[5].

وفي سنة ٥٦٤هـ/١١٦٨م استصرخ ابن همشك بالموحدين لتخليصه مـــن ابـــن مردنيش وأعوانه من النصارى، والفتنة التي اشعلوها، فأصدر أمير الموحدين أمره إلـــى والي قرطبة بمديد العون إلى ابن همشك[6]، ثم تقدم أمير المؤمنين يوسف بن عبد المؤمن على رأس جيش إلى الاندلس فاحتل قرطبة سنة ٥٦٧هـ/١١٧١م وارتحل بعدهـــا إلـــى اشبيلية. وعندها خاف ابن مردنيش فمرض ومات وأصبحت اشبيلية تابعة للموحدين، ومن هناك واصل جهاده في بلاد الاسبان وعاد إلى مراكش ٥٧١هـ[7].

وفي سنة ٥٦٤هـ/١١٦٨م أيضا استغاث أهل مدينة بطليوس (قاعدة الثغر الأدنى) بالخليفة يوسف بن عبد المؤمن، لمساعدتهم في انقاذ مدينتهم التي حاصرتها قوات الملـــك البرتغالي الفونسو هنريكيز (المحارب).

فأرسل الخليفة يوسف حملة بقيادة الشيخ أبي حفص عمر بن يحيى الهنتاني تمكنت من طرد البرتغاليين. وقد تحالف فرديناند الثاني ملك ليون (١١٥٨-١١٨٨م) مع أهـــالي

---

(١) المن بالإمامة، ص١٩٥-٢٠٠.

(٢) المصدر نفسه، ص١٢٣-١٢٦.

(٣) المصدر نفسه، ص١٩٥-٢٠٠.

(٤) المصدر نفسه، ص٢٩١-٢٩٥.

(٥) المصدر نفسه، ص٣٦٧، ٣٧٥، ٣٨٠.

(٦) المصدر نفسه، ص٣١٢.

(٧) الاستقصا، ج٢، ص١٥٠-١٥١.

بطليوس والموحدين لأنه كان يعارض استيلاء البرتغاليين على أي مدينة اندلسية، ويعتبر احتلال هذه المدن من حقه هو. لذلك قام بمحاصرة بطليوس واضطر أهلها إلى مهادنته، وعاد من ثم إلى مملكته[١].

موقعة الأرك:

وبعد أن عبر الأمير الموحدي أبو يوسف يعقوب المنصور بن يوسف بن عبد المؤمن (٥٨٠ ـ ٥٩٥هـ) إلى الأندلس لمواجهة الفونس الثامن، وبعد أن علم بقوات الفونس الهائلة، بعث إلى العدوة المغربية يطلب الغوث والمدد، واستنفار الموحدين للجهاد، فعبر إليه منهم خلق كثير من قبائل العرب وزناتة والمصامدة وغمارة والمتطوعة من قبائل المغرب بالاضافة إلى الموحدين والاندلسيين[٢]، والتقى مع النصارى بالقرب من قلعة رباح سنة ٥٩٢هـ/١١٩٥م، وكانت معركة هائلة انتصر فيها الموحدون. وقد عرفت هذه الموقعة باسم موقعة الأرك، والتي تضاهي معركة الزلاقة في نتائجها[٣]. فقد كانت معركة حاسمة أحرز فيها المسلمون نصرا عظيما مشهودا حيث تمكن المسلمون من كسر حدة الموجة النصرانية المتمثلة بمملكة قشتالة كما زادت من هيبة الموحدين ورسخت مكانتهم في الشمال الافريقي[٤].

---

[١] ابن عذاري، البيان المغرب، ج٣، (طبعة امبروس هويس مرانده، ١٩٦٠، تطوان، ص٧٩-٨١)؛ والاستقصا، ج٢، ص١٤٣؛ أشباخ، تاريخ الأندلس في عهد المرابطين والموحدين، ط٢، ترجمة عنان، القاهرة.

[٢] الناصري، الاستقصا، ج٢، ص١٦٧.

[٣] الحلل الموشية (ط.الدار البيضاء)، ص١٥٩؛ الكامل في التاريخ، ج١٢، ص١١٤-١١٥؛ لمعجب، ص١٨٠-١٨٢؛ أعمال الأعلام، ج٢، ص٣٠٩؛ الأنيس المطرب، ص٢٢١، ٢٢٨؛ نفح الطيب، ج١، ص٤٤٣.

[٤] ابن الأثير، الكامل، ج٩، ص٢٣٣؛ ابن خلدون، العبر، ج٦، ص٢٤٥؛ الناصري، الاستقصا، ج٢، ص١٦٧، ١٦٨؛ الحميري، الروض المعطار، ص١٣؛ المقري، نفح الطيب، ج١، ص٤٣٣، ٣٨٢؛ المراكشي، المعجب، ص٢٨٢، ٢٨٣.

وكما هو الأمر في أعقاب معركة الزلاقة، فإن المسلمين هنا لم يستغلوا انتصارهم الباهر وملاحقة النصارى، واسترجاع بعض المناطق الكثيرة التي فقدها المسلمون، وخاصة أن بعض المصادر تؤكد ضعف النصرانية وعظم الاسلام؟. فقد فتح المنصور عدة حصون مثل حصن منت انتش وحصن ترجالة وغيرها كما استولى على قلعة رباح لكنه عاد منها إلى اشبيلية[1]. ودب الرعب في قلوب ملوك النصارى فطلبوا الصلح من المنصور فأجابهم إليه[2].

موقعة العقاب:

كانت الممالك النصرانية في شبه الجزيرة الايبيرية متفرقة، ولم تسفر محاولات الفونس الثامن والبابا (سلستين الثاني) عن أي نجاح للقضاء على المنازعات بينها، بل أن ملك نبره عبر البحر إلى المغرب لطلب العون من الموحدين لكن طلبه لم يتحقق. إلا أن الممالك النصرانية تمكنت فيما بين سنتي ٦٠٤ و ٦٠٦هـ (١٢٠٧-١٢٠٩م) من الاتفاق فتم الاتفاق بين ممالك قشتالة وليون ونبره وارغون والبرتغال[3].

وفي المقابل كانت دولة الموحدين منشغلة في النزاعات التي تمت في المغرب العربي في عهد الناصر محمد بن يعقوب، إذ تم القضاء على بني غانية الموالين للمرابطين في تونس، كما تمكن الشيخ أبو حفص عمر من أشياخ الموحدين من احتلال المهدية، وعهد الناصر إلى الأمير عبد الواحد الحفصي بولاية افريقية (تونس) فكان ذلك بداية قيام دولة بني حفص[4].

---

(1) الكامل في التاريخ، ج١٢، ص١١٥.

(2) ابن خلدون، ج٦، ص٢٤٥؛ الناصري، الاستقصا، ج٢، ص١٧١؛ المقري، نفح الطيب، ص٣٨٢.

(3) أبو رميلة، هشام، علاقات الموحدين بالممالك النصرانية والدول الإسلامية في الأندلس، ط١، دار الفرقان، عمان، ١٤٠٤هـ/١٩٨٤م، ص٥٨-٦٠.

(4) - حسن علي حسن، الحضارة الإسلامية في المغرب والأندلس (عصر المرابطين والموحدين)، ط١، القاهرة، ١٩٨٠، ص٤٩.

- روجي لي تورنو، حركة الموحدين في المغرب في القرنين ١٢، ١٣م، ترجمة أمين الطيبي، ليبيا، تونس ١٩٨٢، ص٩٢-٩٤.
- ابن خلدون، ج٦، ص٢٤٦-٢٤٩.

استغل الفونس الثامن فرصة انشغال الناصر في مشكلات المغرب، وعقد تحالفا كبيرا بين الممالك الاسبانية والبرتغال، ووصله عدد كبير من المتطوعين من أوروبا "الكنيسة الكاثوليكية"، وأطلق صرخته المشهورة (كلنا صليبيون)[١]، وتقدم من طليطلة واحتل قلعة رباح، كما استولى على حصن العقبان.

في سنة ٦٠٥هـ/١٢٠٨م وصلت أخبار للناصر محمد بن يعقوب (٥٩٥ـ٦١١هـ/١١٩٩ـ١٢١٤م) بأن الفونسو الثامن يهاجم ديار الاسلام ويضرب قراها وحصونها، ويقتل ويسبي، كما وصلته استغاثات أهلها، فتأهب للجهاد، وكتب إلى جميع بلاد المغرب وافريقيا يستنفرهم للجهاد، فأجابه خلق كثير، ولما تكاملت جنوده (الذين بلغ عددهم ٦٠٠ ألف) عبر بهم إلى الاندلس في سنة ٦٠٧هـ/١٢١٠م، فأصابت الناصر آفة الغرور والخيلاء بسبب ما تجمع لديه من جنود وقوة، التي لم تغن عنه شيئا في معركة العقاب سنة ٦٠٩هـ/١٢١٢م، حيث كانت هزيمة ساحقة للمسلمين[٢]، فقد استولى الفونس الثامن على عدد من المدن والحصون من بينها بياسة وأبده وضربها وقتل الكثير من سكانها، وأصبح على مشارف قرطبة واشبيلية ومرسية[٣]. "ولم تقم للمسلمين بعدها قائمة تحمد" إلى أن تدارك الله رمق الاندلس بالسلطان المنصور بالله يعقوب بن عبد الحق المريني كما سيأتي[٤]. ويقول عنها المقري: "كانت قرحا على قرح"[٥]، وكانت هذه المعركة سببا في ضعف الاندلس والمغرب حيث خلت كثير من قرى المغرب من سكانها، أما الاندلس فتغلب العدو عليها، وظهرت في أعقاب هذه المعركة الاضطرابات والفتن في الأندلس[٦]. وتغلب العدو على معظم المناطق التي كانت بيد المسلمين، ومرض الناصر على أثرها وتوفي سنة ٦١٠هـ/١٢١٣م وبوفاته انتهى عهد قوة الموحدين.

---

(١) – Scott, S. p. A History of Moorish Empire, vol. 11, p.325-326.

(٢) المعجب، ص٣٢١-٣٢٣؛ الأنيس المطرب، ص٢٣٣-٢٤٠؛ نفح الطيب، ج٤، ص٣٨٢-٣٨٥؛ والاستقصا، ج٢، ص٢٢٠-٢٢٤.

(٣) – Scott, S. p. A History of Moorish Empire, vol. 11, p.339-340.

(٤) الأنيس المطرب، ص٢٣٧-٢٤٠؛ نفح الطيب، ج٤، ص٣٨٢-٣٨٣؛ والاستقصا، ج٢، ص٢٢٤.

(٥) نفح الطيب، ج٤، ص٣٨٤.

(٦) المعجب، ص٣٢١-٣٢٣؛ نفح الطيب، ج٤، ص٣٨٥.

استغاثة اشبيلية الأخيرة وسقوطها:

وعندما قام ملك قشتالة فرديناند الثالث بمحاصرة اشبيلية سنة ٦٤٥هـ/١٢٤٧م، وطال أمد الحصار لمدة سنة وخمسة أشهر[١] استغاث الاندلسيون بأهل المغرب، وقد عبر عن ذلك الشاعر ابراهيم بن سهل في قصيدة منها[٢]:

وردا فمضمون نجاح المصدر	هي عزة الدنيا وفوز المحشر
نادى الجهاد بكم بنصر مضمر	يبدو لكم بين القنا والضمر
خلوا الديار لدار عز واركبوا	عبر العجاج إلى النعيم الأخضر
يا معشر العرب الذين توارثوا	شيم الحمية كابرا عن أكبر
إن الإله قد اشترى أرواحكم	بيعوا ويهنئكم وفاء المشتري
أنتم أحق بنصر دين نبيكم	ولكم تمهد في قديم الأعصر
أنتم بنيتم ركنه فلتدعموا	ذاك البناء بكل لدن أسمر

وعلى الرغم من صمود اشبيلية للحصار مدة ١٧ شهرا وشدة وطأة الحصار فقد دافع أهلها عنها دفاعا مجيدا إلى أن اضطروا في النهاية إلى التفاوض على التسليم فدخلها صلحا فرديناند سنة ٦٤٦هـ/١٢٤٨م[٣].

الاستغاثات ببني مرين:

توطدت العلاقات بين دولة بني الأحمر (بني نصر) في الأندلس وبين الدولة المرينية في المغرب. فقد اجتاز ابو يوسف يعقوب بن عبد الحق المريني إلى الاندلس ثلاث مرات أو يزيد لمساعدة بني الأحمر، لكن حدث ما شوش العلاقات بين الطرفين وامتنع المرينيون فترة من الزمن عن مساعدة بني الأحمر[٤].

---

(١) المقري، نفح الطيب، ج٤، ص٤٧٢.

(٢) عنان، نهاية الأندلس، ط٢، ص٣٧، ٣٨ نقلا عن الذخيرة السنية، ص٧٤.

(٣) المقري، نفح الطيب، ج٤، ص٤٧٢؛ عنان، نهاية الأندلس، ط٢، ص٣٨.

(٤) اللمحة البدرية، ص٥٥.

وعندما عظم الخطب على أهل الأندلس في سـنة ٦٦٠هـ/١٢٦١م استغاثوا بيعقوب بن عبد الحق، فلبى النداء، والتقى مع النصارى في معركة كان النصر فيها حليفه، وكانت معركة كبيرة، حتى قيل: "ما نصر المسلمون من موقعة العقاب حتى دخل يعقوب المريني"[1] وأوقع بقائدهم ذونته وقتل معظم جيشه. وتتابعت غزوات يعقوب المريني إلى الأندلس بقصد الجهاد[2].

وبعد تفاقم الفتنة التي حدثت في غرناطة أيام الملك محمد بن محمد بن نصر ثاني ملوك بني نصر الملقب بالفقيه، استنصر بالأمير يعقوب بن عبد الحق المريني سنة ٦٧٣هـ/١٢٧٤م، وأرسل له وفدا يضم كافة مشيخة الاندلس، وأبلغه الوفد عن عدوان العدو على المسلمين، وثقل وطأته، فرحب بهم وبادر بإجابتهم وقدموا إلى السلطان أبي يوسف يعقوب بن عبد الحق رسالة استصراخ للغوث والجهاد ومما جاء فيها من الشعر:

مرين جند الله أكبر عصبة	فهم في بني أعصارهم كالمواسم
مشنفة أسماؤهم لمدائح	مسورة أيمانهم بالصوارم

كما جاء فيها: (فقد تطاول العدو النصراني على الاسلام... وقد استخلص قواعدها (الاندلس) ومزق بلدانها وقتل رجالها وسبى ذراريها ونسائها وغنم أموالها وطلب الينا ان نسلم له ما بقي بأيدينا من المنابر والجوامع ليقيم بها الصلبان. وقد وطأ الله لك ملكا عظيما، شكرك الله على جهادك في سبيله وقيامك بحقه واجهادك في نصر دينه، فأبعث باعث بعثك إلي نصر مناره، وعندك من جنود الله من يشتري الجنات بنفسه، فان شئت الدنيا فالاندلس قطوفها دانية وجناتها عالية وإن أردت الآخرة بها جهاد لا يفتر، وهذه الجنة أدخرها الله لظلال سيوفكم....)[3].

---

(١) اللمحة البدرية، ص٥٥؛ عقد الجمان، ج١، ص٣٨٦-٣٨٧؛ نفح الطيب، ج١، ص٤٤٨-٤٤٩؛ ج٤، ص٣٨٥.

(٢) عقد الجمان، ج١، ص٣٨٦-٣٨٧.

(٣) عنان، نهاية الأندلس، ص٨٩ نقلا عن الذخيرة السنية؛ المقري، نفح الطيب، ج١، ص٤٤٩؛ الاستقصا، ج٣، ص٣٨.

فاجتاز إلى الاندلس مجاهدا، وكان ابن نصر قد بعث للملك المريني الفقيه، أبا القاسم العزفي. وقد أوقع الملك المريني بزعيم النصارى ذننه Don Nune de Lara في معركة قرب استجه سنة ٦٧٤هـ/١٢٧٥م[1].

ولم يزل ملوك بني مرين يعينون أهل الأندلس بالمال والرجال. علاوة على إقامة عدد من أقارب الملك المريني في الأندلس غزاة في سبيل الله[2]، وكان عند ابن الأحمر في جماعة منهم وعليهم رئيس من بيت ملك بني مرين يسمونه شيخ الغزاة[3].

وفي سنة ٦٨٢هـ/١٢٨٣م وبعد عقد الصلح بين الفونس العاشر وملك بني الأحمر، اشتعلت نار الفتنة في مالقة وغرناطة، وضاقت الدنيا على ابن الأحمر، ولم يجد أمامه إلا العدوة، فبعث إلى ملك بني مرين يعقوب بن عبد الحق الملقب بالمنصور يستنصره لاصلاح الخطب، فجاز ملك بني مرين للمرة السادسة، فأصلح الأمور وبث جنوده وسراياه في بلاد النصارى ثم توجه إلى البرت، وأخذ يغير على أحواز طليطلة والمناطق الأخرى، وسبب الأذى للنصارى[4].

وفي سنة ٧٠٢هـ/١٣٠٢م اجتاز محمد الفقيه إلى العدوة مستغيثا بالملك المريني، فأجابه هذا الملك، وأرسل معه ابنه على رأس قوة عسكرية، ثم اجتاز في أثره، وتسلم الجزيرة الخضراء، وجعلها مركزا لحشده وانقضاضه، وتنازل له ابن الاحمر عن طريف وما جاورها من الحصون، واستطاع الملكان أن يلحقا الهزيمة بزعيم النصارى ذننه (Don Nuno) وان يوقعا بقواته خسائر جسيمة، وقد ثبتت هذه الغزوة عقب بني الأحمر بالأندلس[5].

---

[1] الأنيس المطرب، ص٣١٣؛ اللمحة البدرية، ص٥٧؛ الإحاطة، ج١، ص٥٦٥؛ والاستقصا، ج٣، ص٣٨؛ المقري، نفح الطيب، ج٤، ص٣٨٥؛ وعنان، نهاية الأندلس، ص٩١.

[2] نفح الطيب، ج٤، ص٣٨٥.

[3] المصدر نفسه، ج٤، ص٣٨٥.

[4] الأنيس المطرب، ص٣٣٨-٣٣٩؛ والاستقصا، ج٣، ص٥٨.

[5] نفح الطيب، ج١، ص٤٤٩.

وعندما عزم دون بطره (Don pedro) على استئصال المسلمين نهائيا من الاندلس سنة ٧١٩هـ/١٣١٩م، بتوجهه إلى غرناطة بحشوده الهائلة، وكان يرافقه خمسة وعشرون ملكا من ملوك النصارى. وأرسل السلطان ابو الوليد اسماعيل بن فرج يستغيث بأبي سعيد عثمان بن يعقوب صاحب فاس المريني، لكنه لم يستجب لصريخهم فاعتذر إليهم السلطان، ورجعوا من عنده بخفي حنين، وعند ذلك لم يجد المسلمون أمام الوضع الحرج الذين هم فيه سوى الاستبسال ولقاء العدو، فالتقوا مع النصارى وصدقوا اللقاء فكان النصر لهم، وكان نصرا عزيزا وقتل دون بيدرو في المعركة وعلقت جثته على باب غرناطة. وأتبعوها بانتصارات أخرى[١].

وفي سنة ٧٣٢هـ/١٣٣١م استدعي السلطان ابو الحسن علي بن عثمان بن يعقوب المريني من قبل أمير غرناطة محمد بن اسماعيل بن فرج بن نصر، لتخليص بعض ما احتله العدو، فعبر أبو الحسن علي واسترجع رندة، ومربلة، ودبرة[٢].

لقد اجتاز السلطان المريني أبو الحسن إلى الاندلس أكثر من ست مرات وقد أدى ذلك إلى ازدياد الأعباء عليه، فقد جهز اسطولا لمحاربة الاسبان لكن الاسبان حاصروا الجزيرة الخضراء واستولوا عليها فيما بعد، مما اضطر السلطان أبا الحسن إلى التطلع إلى سلطان المماليك في مصر والشام الملك الصالح بن الملك الناصر محمد بن الملك المنصور قلاوون الصالحي الألفي يطلب منه العون سنة ٧٤٥هـ، فأرسل له رسالة طويلة ذكرها المقري وكان مما جاء فيها بعد الإشادة بجهاد بني مرين في الاندلس ثم الاشادة بالملك الصالح وأبيه من قبله (قلاوون) ثم تقول الرسالة "وفي أثناء ذلك أحفزنا للحركة عن حضرتنا استصراخ أهل الاندلس وسلطانها وتواتر الأخبار بأن النصارى أجمعوا على خراب أوطانها". ثم يذكر أن الوفد الذي حمل الرسالة كان برئاسة ابن كاتب الخليفة المرحوم أبي عبد الله بن أبي مدين، وتعود الرسالة إلى ذكر الاندلس (وذلك أنه لما وصلنا من الاندلس الصريخ ونادى مناد للجهاد... أنبأنا أن الكفار قد جمعوا أحزابهم من

---

[١] نفح الطيب، ج١، ص٤٤٩-٤٥٠، ٤٥٢؛ والاستقصا، ج٣، ص١٠٨-١٠٩.

[٢] اللمحة البدرية، ص٩٤؛ والاستقصا، ج٣، ص١٢١.

كل صوب... وأن تفقد طوائفهم البلاد الاندلسية بإيجافها، وتنقص بالمنازلة أرضها من أطرافها ليمحو كلمة الاسلام منها، ويقلصوا ظل الايمان عنها، فقدمنا من يشتغل بالأساطيل من القواد وسرنا على أثرهم إلى سبته منتهى المغرب الأقصى وباب الجهاد، فما وصلناها إلا وقد أخذ أخذه العدو الكفور وسدت اجفان (سفن) الطواغيت على التعلون مجاز العبور، وأتوا بأجفانهم بما لا يحصى عددا... واجتمعوا إلى الجزيرة الخضراء ــ أعادها الله ــ بكل من جمعوه من الآعاد... وحاولنا امداد تلكم البلاد بحسب الجهد وأصرخناهم بمن أمكن من الجند وجهزنا أجفانا مختلسين فرصة الاجازة... وأمرنا لصاحب الاندلس من المال ما يجهز بها حركته واجرينا له ولجيشه العطاء... وأوضحنا لهم في النوال ما نرجو به ثواب الآخرة، وجعلت اجفاننا تتردد في ميناء الساحل مشحونة بالعدد الموفورة والأبطال المشهورة). وتذكر الرسالة ان المرينيين فقدوا ٦٧ قطعة بحرية، كما ذكر أنه ارسل ابنه لمساعدة الاندلسيين وكيف أن الحرب استمرت ثلاث سنوات في البحر وسنتين في البر مما أدى إلى (فناء الأقوات) وعلى أثر ذلك اضطر صاحب غرناطة إلى طلب الصلح من الاسبان وان السلطان المريني وافق على ذلك وأخذ الجزيرة الخضراء ، لكن الرسالة تذكر أن المسلمين تمكنوا من فتح جبل الفتح وتنتهي الرسالة بطلب العون من المماليك... فرد عليه سلطان المماليك برسالة طويلة يعتذر فيها عن تقديم العون بسبب بعد المسافة[١].

وفي سنة ٧٤٥هـ/١٣٤٤م وجه الوزير لسان الدين بن الخطيب وزير بني الأحمر كتاب استغاثة إلى ابي الحسن المريني على لسان سلطان غرناطة، يبين له فيها وضع الجزيرة الخضراء وجبل الفتح ومحاصرة العدو له، وعجز دولة بني نصر عن الدفاع عنه، ونورد هنا نتفا من كتاب لسان الدين بن الخطيب، لأنه يصور المأساة التي تعيشها الاندلس في أواخر أيامها[٢].

---

(١) المقري، نفح الطيب، ص٣٨٦-٣٩٨.

(٢) المصدر نفسه، ج٤، ص٣٨٥-٣٨٦، ٣٩١-٣٩٣.

بدأ لسان الدين كتابه بإسداء الشكر إلى دولة بني مرين التي كانت العون والسند الدائم لدولة بني نصر حيث يقول: "إلى المقام الذي يصرخ وينجد، ويتهم في الفضل وينجد، ويسعف ويسعد ويبرق في سبيل الله ويرعد فيأخذ الكفر من عزماته المقيم المقعد حتى ينجز من نصر الله تعالى الموعد..." إلى أن يقول: "فإننا في هذه الأيام أهمنا من أمر الاسلام ما رنق الشراب، ونفص الطعام، وزاد المنام، كما تحققنا من عمل الكفر على مكايدته، واستئصال بقيته وشروع الحيل في هد اركانه، ومن يؤمل من المسلمين بدفع الردى وكشف البلوى، وأهله في غفلة ساهون، قد شغلتهم دنياهم عن دينهم إلا من نور الله تعالى قلبه بنور الإيمان". ثم يقول: "فلما رأينا ان الدولة المرينية التي هي على مر الأيام شجا العداء، ومتوعد من يكيد الهدى، وفئة الاسلام التي اليها يتحيز، وكهفه الذي إليه يلجأ..."[1].

ويضيف قائلا: "وقد أصبحنا بدار غربة، ومحل روعة، ومفترس نبوة، ومظنة فتنة، والاسلام عدده قليل، ومنتجعه في هذه البقعة جديب، وعهده بالإرفاد والامداد من المسلمين بعيد"[2].

ويستطرد ابن الخطيب قائلا: "وإذا تداعت أمم الكفر نصرة لدينها المكذوب، وحمية لصليبها المنصوب، فمن يستدعى لنصر دين الله وحفظ أمانة نبيه إلا أهل ذلك الوطن؟ حيث المآذن بذكر الله تعالى تملأ الآفاق... إنما الإسلام غريق قد تشبث بأهدابكم يناشدكم الله في بقية الرمق وقبل الرمي تراش السهام... قبل أن يضيق المجال، وتمنع الموانع، وقد وجهنا هذا الوفد المبارك للحضور بين يديكم مقررا الضرورة، منهيا الرغبة، مذكرا بما يقرب عند الله، مذكرا لزمام الاسلام... فالمؤمن كثير بأخيه، ويد الله مع الجماعة... فنرجو أن يروع الكفر من العز بالله، وشد الحيازيم في سبيل الله، ونفير النفرة لدين الله، والشعور في حماية الثغور وعمرانها، وإزاحة عللها، وجلب الأقوات إليها، وإنشاء الأساطيل، وجبر ما تلف من عدة البحر..."[3].

---

[1] المقري، نفح الطيب، ج٤، ص٣٨٦-٣٩٨.

[2] المصدر نفسه، ص٤٠٩-٤١٠.

[3] المصدر نفسه، ج٤، ص٤١٠.

ويردف قائلا: "والاعتناء بالجبل (يقصد جبل الفتح) عنوان هذا الكتاب...والغفلة عنه منذ أعوام قد صيرتنا لا نقنع باليسير، وقد أبرمته المواعيد، وغير رسومه الانتظار، ...وخلو البحر يغتنم لامداده وإرفاده، قبل أن يثوب نظر الكفر إلى قطع المدد وسد البحر...ومن ضيع الحزم ندم، ولا عذر لمن علم، والدين دينكم والبلاد بلادكم، ومحل رباطكم وجهادكم وسوق حسناتكم..."[1].

استجاب ابو الحسن المريني لهذا النداء، واعد قوة عسكرية كبيرة، وعددا وافرا من السفن وعندما أراد العبور فوجيء بجميع الموانئ المغربية قد اغلقت، نتيجة حصار النصارى الاسبان لها لمنع وصول المدد، وقاموا بتدمير مجموعة كبيرة من سفنه، ودام الحصار البحري حول الموانئ المغربية مدة ثلاث سنوات ونصف، تعذر خلالها تقديم أي عون يذكر إلى الجزيرة المحاصرة، وجبل الفتح. واضطر أمير غرناطة إلى عقد صلح مع ملك النصارى، وبموجبه خرج عدد كبير من أهل الجزيرة وجبل الفتح إلى المغرب دون عدة أو مال. فأكرم الملك المريني، وفادتهم وأغدق عليهم الأموال[2].

ويقول لسان الدين بن الخطيب عن انقطاع العون من العدوة بعد أن استولى الفرنج على جبل الفتح: "وضاقت الصدور، ونكست الرؤوس، لتوقع الفاقرة، بانسداد باب الصريخ، وانبتات سبب النصرة وانبعاث طمع العدو..."[3]. وقد بعث سلطان غرناطة الغني بالله وزيره ابن الخطيب إلى السلطان المريني أبي عنان مستنجدا به على عدوه الطاغية على عادة سلفه في ذلك. وأنشده ابن الخطيب قصيدة مطلعها:

خليفة الله ساعد القدر علاك ما لاح في الدجى قمر[4]

---

[1] المقري، نفح الطيب، ج٤، ص٤١١. وهناك عدد من المراسلات المتبادلة بين بني نصر وبني مرين، انظر: المصدر نفسه، ج٤، ص٤١١-٤٤٥.

[2] المقري، نفح الطيب، ج٤، ص٣٨٥-٣٩٣.

[3] الإحاطة، ج٢، ص٢٤.

[4] الناصري، الاستقصا، ج٣، ص١٩٥.

وقد استطاع ابو عنان أن يستعيد الجبل سنة ٧٥٧هـ/١٣٥٦م وعين فيه أحد ابنائه وحصنه بالمؤن والقوة. وبعد ذلك قال ابن الخطيب: "وقد نجح السعي، وأثمر الجهد"[١].

وفي رسالة استغاثة أخرى من انشاء لسان الدين بن الخطيب يخاطب ابن الخطيب السلطان المريني على لسان سلطان غرناطة، بعد مقدمة طويلة، بقوله: "فإنا كتبناه إليكم، أصحب الله تعالى ركابكم حليف التوفيق حلا ومرتحلا... ويدعو وافد الفتح المبين فيرد مستعجلا، من حمراء غرناطة، حرسها الله تعالى، ولا زائد بفضل الله سبحانه، ثم بما عندنا من التشيع لمقامكم، حرس الله تعالى سلطانه، ومهد أوطانه... ونحن مهما شد المخنق بكم نستنصر، أو تراخى ففي ودكم نستبصر... فنحن نسألكم بالله الذي تساءلون به والأرحام، ونأنف لكم من هذا الاحجام، ونتطارح عليكم أن تتركوا حظكم من أهل تلك الجهة حتى يحكم الله بيننا وبين العدو الذي يتكالب علينا بادباركم بعد ما تضاعل لاستنفاركم، ولا نكلفكم غير اقتراب داركم... فأسعفوا بالشفاعة فيمن بتلك الجهة المراكشية قصدنا، وحاشا احسانكم أن يرضى فيه ردنا، وانتم بعد الخيار فيما يجريه الله على يدكم من قدره أو يلهمكم اليه من نصره، وجوابكم مرتقب بما يليق بكم، ويجمل بحسبكم، والله سبحانه يصل سعدكم ويحرس مجدكم، والسلام"[٢].

وفي رسالة أخرى من انشاء لسان الدين بن الخطيب على لسان السلطان يوسف النصري حملها محمد بن أبي الفتح إلى السلطان المريني، نقتبس منها "...فإنه قد بلغكم ما آلت إليه الحال بطاغية قشتالة الذي كلب على هذه الأقطار الغربية من وراء البحار، وما سامها من الأرهاق والاضرار وأنه جرى في ميدان الاملاء والاغترار، ومحص المسلمون على يده بالوقائع العظيمة الكبار، وأنه نكث العهد الذي عقده... وحمله الطمع الفاضح على أن أجلب على بلاد المسلمين بخيله ورجله، وأمل أن يستولي على جبل الفتح... فضيقه حصارا... (ثم) نزل الفرج القريب وقبل الدعاء السميع المجيب، وطرق الطاغية جند من جنود الله تعالى،فلم يبق له من باقية وهلك على الجبل حتف أنفه فتفرقت جموعه وأحزابه، وانقطعت اسبابه وتعجل لنار الله تعالى مآبه، وأصبحت البلاد

---

(١) الإحاطة، ج٢، ص٢٠.

(٢) المقري، نفح الطيب، ج٤، ص٤١١-٤١٥.

مستبشرة... فما ذلك إلا فضل نيتكم للمسلمين في هذه البلاد وما لديكم من جميل الاعتقاد[1].

ويذكر المقري أنه في المائة الثامنة (أي ٧٦٧هـ/١٣٦٥م) تداعت ملوك الافرنج السبعة إلى غرناطة لأخذها من المسلمين فبعث ملوك غرناطة إلى بني مرين مستنجدين، فأوفدوا من فضلاء غرناطة ثلاثة هم: الشيخ أبو اسحاق بن أبي العاصي والشيخ أبو عبد الله الطنجالي والشيخ ابن الزيات البلشي[2]، وكانت الرسالة التي يحملونها من عبد الله بن ابي الحجاج بن أبي الوليد بن نصر، وتتضمن الرسالة في بدايتها الشكر والثناء لبني مرين على موقفهم الدائم من نصر إخوانهم في الأندلس ومنها: "وقد وردت علينا المخاطبات من قبل اخواننا المسلمين، الذين عرفنا في القديم والحديث اجتهادهم، وشكرنا في ذات الله جهادهم، بني مرين، أولى الامتعاض[3] لله والحمية، والمخصوصين بين القبائل الكريمة بهذه المزية بعزمهم على الامتعاض (الغضب) لحق الجوار، والمصارحة التي تليق بالأحرار... إلى الإعانة على هؤلاء الكفار، ومدافعة أحزاب الشيطان وأهل النار"[4].

وقد شن المسلمون الغارات على بلاد النصارى من جميع الجهات، فاحتل المسلمون ثغر برغة، وحاصروا رندة[5].

وعلى الرغم من وجود العدو على أبواب غرناطة، فإن ذلك لم يمنع ملوك بني نصر من الانغماس في الملذات، والاسترسال في الفساد والتنازع فيما بينهم على الحكم، وعجزوا عن مواجهة النصارى[6].

---

(١) المقري، نفح الطيب، ج٤، ص٤٣٧-٤٣٨.

(٢) المصدر نفسه، ج٤، ص٥١٠، ٥١١.

(٣) يقصد بالامتعاض، الغضب والغيرة لنصرة الدين والوطن.

(٤) الإحاطة، ج٢، ص٦٤.

(٥) المصدر نفسه، ج٢، ص٧٩-٨١.

(٦) جنة الرضا، ج١، ص٣٠١-٣٢٣؛ ج٢، ص٧٧.

فانقض النصارى على الحامة القريبة من غرناطة ودخلوها على حين غفلة من أهلها وأعملوا فيها القتل والسبي، وهب أهالي غرناطة لانقاذ المدينة وكادوا يستعيدونها لولا ما بدر من الأمير ابي الحسن ووزيره من تخاذل وخداع حتى ظن به الناس الظنون واحتلوها في سنة ٨٨٧هـ/١٤٨٢م[١]. وفي سنة ٨٨٨هـ/١٤٨٣م توجه ملوك اشبيلية وشريش واستجة وانتقيرة وغيرهم مع عدد كبير من الجند إلى مالقة وبلش وحاولوا احتلالها، وعلى الرغم من صمودها أمام الهجوم، إلا أن عددا كبيرا من الجيش الاسلامي قد قتل ووقع ملك بني الأحمر أسيرا بيد النصارى وقتل كثير من قواد عرب الأندلس[٢].

وعلى أثر الفتنة التي حدثت في غرناطة سنة ٨٩١هـ/١٤٨٦م[٣]، هاجم ملك قشتالة مالقة وحاصرها برا وبحرا، وقصفها بالمدافع، وضيق الحصار عليهم فأكل سكانها الخيل والحمير والفئران، وبعثوا برسائل إلى العدوتين (ربما يقصد دولة المماليك، وبني مرين)، وكانوا يطمعون في نصرة أخوانهم لهم، ولما لم يجدوا النصرة انحلت عزائمهم واضطروا لتسليم المدينة، وغدر العدو بهم بعد أن دخلوها وأسروا جميع سكانها وسبوا نساءها وكان ذلك في سنة ٨٩٢هـ/١٤٨٦م[٤].

وفي سنة ٨٩٦هـ/١٤٩٠م توجه العدو بتشكيلاته كافة إلى مرج غرناطة، فأتلف الزروع والثمار وخرب القرى، من أجل قطع المؤن عن غرناطة، وبقي يتقدم ببطء نحو غرناطة، وقطع الطريق بين غرناطة والبشرات فانقطعت الأقوات، واشتد الغلاء، وما أن جاء عام ٨٩٧هـ/١٤٩١م حتى كانت غرناطة تلفظ انفاسها الأخيرة، وهرب كثير من سكانها إلى البشرات. واجتمع أهل المدينة وأهل العلم فيها وأصحاب الرأي والمشورة، واستقر رأيهم على تسليم المدينة، بعد اعداد قائمة بشروط الصلح وأخذ عهد العدو على ذلك، وبعد أن قرئت المعاهدة على أهل غرناطة وموافقتهم عليها، قبلوا بدخول ملك قشتالة إلى المدينة، وتنازل سلطان بني الأحمر عن الحمراء، وفي ربيع الأول سنة

---

(١) نبذة العصر، ص٦، ٧.

(٢) المقري، نفح الطيب، ج٤، ص٥١٢-٥١٥؛ ونبذة العصر، ص١١، ١٢.

(٣) المقري، نفح الطيب، ج٤، ص٥١٧.

(٤) المصدر نفسه، ج٤، ص٥٢٠-٥٢١.

٨٩٧هـ/١٤٩٢ دخل ملك قشتالة إلى الحمراء، بعد أن منح الأمـان لسكان غرناطـة، واستوثق من أهل غرناطة عدم الغدر به[١].

الاستغاثات بالمشرق الاسلامي.

كان المغرب الاسلامي هو السند الحقيقي لمسلمي الاندلس لأنه كان أقرب البلـدان الاسلامية لهم، فلم يأل المغاربة جهدا في مؤازرة اخوانهم في الاندلس منذ القدم، ولكـن نظرا لانشغال المغاربة بالفتن الملتهبة والصراعات الداخليـة المتأججـة[٢]، فإنـهم لـم يستطيعوا إجابة الاستغاثة، ولم يكن باستطاعتهم ان يلبوا نجدة الاندلس، فقد اضطر مسلمو الاندلس إلى الالتفات إلى اخوانهم في المشرق العربي، وكانت أول اسـتغاثة بالممـاليك الرسالة التي أرسلها السلطان أبو الحجاج (يوسف الأول) ٧٣٢-٧٥٥هـ/١٣٣٣-١٣٥٤، إلى سلطان مصر الصالح عماد الدين إسماعيل (٧٤٣-٧٤٦هـ/١٣٤٢-١٣٤٥م) يستنجد به ويستنصره ضد نصارى اسبانيا، إلا أن السلطان المملوكي اكتفى بأن قدم لـه امانيـه الطيبة. كما أرسل السلطان محمد الخامس (الغني بالله) سلطان غرناطـة رسـالة إلـى المنصور أحمد بن الناصر محمد بن قلاوون من انشاء لسان الدين بن الخطيب، يصف له الظروف السيئة التي كان يتعرض لها الاسلام في الاندلس. كما أرسل السلطان الغني بالله رسالة أخرى إلى يلبغا الخاصكي الذي كان يمسك بزمام الأمـور فـي زمـن السـلطان المملوكي الاشرف شعبان بن الناصر محمد بن قلاوون يبين فيـها الغنـي بـالله اخبـار انتصاراته على القشتاليين ويطلب المعونة من سلطان مصر، فرد الأشرف على الرسـالة ردا طيبا[٣] لكنه لم يرسل أي نجدة. وأرسل السلطان الأيسر ابو عبد الله محمد بن يوسـف

---

[١] المقري، نفح الطيب، ج٤، ص٥٢٤-٥٣٥. ولمزيد من التفاصيل عـن شـروط المعـاهدة، انظـر المقري، نفح الطيب، ج٤، ص٥٢٥-٥٢٦.

[٢] كريم، عبد الكريم، المغرب في عهد الدولة السعدية، ص١٣-١٧؛ فـارس، محمـد خـير، تـاريخ الجزائر الحديث، ص١٥؛ رافق، عبد الكريم، العرب والعثمانيون، ص٢١-٢٤؛ الناصري، الاسـتقصاء في أخبار المغرب الأقصى، ج٤، ص١٠٤.

[٣] سحر عبد العزيز سالم، علاقة مصر المملوكية بغرناطة قبيل وعقـب سـقوطها، أعمـال المؤتمـر العالمي للدراسات الموريسكية الأندلسية حول الذكرى الخمسمائة سنة لسقوط غرناطـة، ج٢، إشـراف د.عبد الجليل التميمي، منشورات مركز الدراسات والبحوث العثمانية والموريسكية والتوثيق والمعلومـات (سيرمدي)، زغوان ١٩٩٣، ص٩٧، ٩٨.

في شهر رجب ٨٤٤هـ/كانون أول ١٤٤٠م، وفدا بهيئة سفارة إلى مصر، يدعو من خلاله سلطان مصر جقمق[١] إلى الاسراع في تقديم العون له، حتى يتمكن من الصمود في وجه الممالك النصرانية التي أخذت تضيق عليه الخناق، وتشدد من حصارها لأراضي مملكته، وتزيد من تحرشاتها بها[٢]. وتعتبر هذه أول مرة تتجه فيها غرناطة إلى طلب النجدة والعون من المشرق الاسلامي، وقد وعد السلطان جقمق بأن يطلب من السلطان العثماني (مراد) الاسراع في مساعدة مسلمي الاندلس[٣] ولكن الوفد الغرناطي أكد للسلطان جقمق أنه إنما جاء إلى مصر مستغيثا به طالبا النجدة منه، فاعتذر السلطان جقمق معللا اعتذاره ببعد المسافة، ولأن جنوده أصحاب خيل فقوتهم برية لا بحرية[٤]، عندئذ اكتفى الوفد الغرناطي بالطلب من السلطان أن تساهم مصر في نجدتهم بالمال والعدد[٥]. ويذكر ابن إياس أن السلطان زود الوفد عند عودته إلى غرناطة بالسلاح والذخائر وغير ذلك[٦].

كما أرسل محمد الأحنف سلطان غرناطة رسالة استغاثة أخرى إلى السلطان جقمق سنة ٨٥٥هـ/ ١٤٥١م يناشده فيها أن يرسل معونة من مصر إلى مسلمي الاندلس. كما

---

[١] السلطان جقمق: جقمق الظاهر أبو سعيد الجركسي، من ملوك دولة الشراكسة بمصر والشام والحجاز، وقد اشتراه العلائي (علاء بن اينال اليوسفي) وقدمه إلى الملك الظاهر برقوق فأعتقه، وحبس في عهد الملك الناصر. وقد ولي أعمالا في دولتي الملك المؤيد والظاهر ططر، وكان أتابك العساكر في دولة الأشرف برسباي ولما مات الأشرف وولى ابنه، قام بعض المماليك فخلعوا العزيز وولوه السلطنة، وقد كانت عام ٨٤٢هـ/١٤٣٨م. لمزيد من المعلومات عن حياته وأعماله، انظر: السخاوي، الضوء اللامع لأهل القرن التاسع، ج٣، ص٧١-٧٤.

[٢] ابن إياس، بدائع الزهور في وقائع الدهور، ج٢، ص٢٢٧؛ السخاوي، الضوء اللامع لأهل القرن التاسع، ج٥، ص٦٧.

[٣] عنان، محمد، نهاية الأندلس، ص١٤٩؛ السخاوي، الضوء اللامع لأهل القرن التاسع، ج٥، ص٦٨؛ ابن إياس، ج٢، ص٢٢٨.

[٤] السخاوي، عبد الله، الضوء اللامع لأهل القرن التاسع، ج٥، ص٦٧-٦٨.

[٥] الأهواني، عبد العزيز، سفارة سياسية من غرناطة إلى القاهرة في القرن التاسع الهجري (سنة ٨٤٤)، مجلة كلية الآداب، جامعة القاهرة، م١٦، ج١، (مايو ١٩٥٤)، ص٩٥-١٠٢.

[٦] التميمي، عبد الجليل، رسالة من مسلمي غرناطة إلى السلطان سليمان القانوني سنة ١٥٤١م، المجلة التاريخية المغربية، تونس، ع٣، (كانون الثاني ١٩٧٥م)، ص٣٧-٤٦.

أرسل السلطان الغرناطي سعد رسالة إلى السلطان المملوكي خشقدم يستنجد به فيها من ضربات عدوه ملك قشتالة الذي ذكرت الرسالة أنه كان يهجم في كل عام على بلاده وثغوره، وأنه استولى على جبل الفتح وحصن اللقوق أحد حصون غرناطة. وقد استجاب خشقدم لطلب الاحنف وقدم له عونا ماديا[1].

وقد ذكر ابن اياس في كتابه بدائع الزهور أن أبا عبد الله الزغل أرسل رسالة للسلطان قايتباي سنة ٨٩٢هـ على أثر سقوط مالقه يطلب منه ارسال تجريده (حملة تعينه على قتال الافرنج لأنهم قد أشرفوا على أخذ غرناطة، فكان رد فعل قاتيباي ان أرسل إلى القسوس الذين بالقيامة في القدس أن يرسلوا كتابا لملك الفرنج صاحب نابلي ليطلب بدوره من صاحب قشتالة بان يترك أهل الاندلس ويرحل عنهم في مقابل ألا يتعرض السلطان لأهل كنيسة القيامة إلا أن هذه المراسلة لم تجد نفعا، كما لم تجد الرسائل التي ارسلها قاتيباي إلى البابا انوسنت الثامن وملوك النصرانية. وفعلا كتب هؤلاء إلى فرديناند وايزابيلا في هذا الشأن لكن رده للسلطان قايتباي كان (انه لا يفرق بين رعاياه المسلمين والمسيحيين، ولكنه لا يستطيع أن يترك أرض أجداده في يد الأجانب، وأن بوسع المسلمين إذا شاؤا أن يعيشوا في ظل حكمه راضين مخلصين...). وقد دلت الأحداث اللاحقة أن فرديناند لم يكن صادقا في ذلك فقد نكل بالمسلمين بجميع أنواع وسائل التنكيل. وتذكر المصادر أن السلطان قايتباي (١٤٦٨ـ١٤٩٦م) تهادن مع السلطان بايزيد الثاني (١٤٨١ـ١٥١٢) وتحالفا لانقاذ الاندلس. ووضعا لذلك خطة مشتركة تتلخص في ان يرسل بايزيد اسطولا قويا لغزو صقلية التي كانت تابعة لاسبانيا ليشغل فرديناند وايزابيلا، وفي الوقت نفسه ارسال قوة من مصر وافريقية عبر البحر إلى الاندلس إلا أن هذه الخطة لم تنفذ[2].

---

[1] سحر عبد العزيز سالم، علاقة مصر المملوكية بغرناطة، مرجع سابق، ص٩٩.

[2] عنان، نهاية الأندلس، ص٢٠٥، ٢٠٧، ٢٠٨؛ حموده، د.علي محمد، تاريخ الأندلس السياسي والاجتماعي، ط١، ١٣٧٦هـ/١٩٥٧م، ص٣٠٨.

الاستغاثة بالسلطان العثماني محمد الفاتح[1]:

وفي منتصف عام ٨٨٢هـ/١٤٧٧م أرسل سكان غرناطة وفدا آخر إلى استانبول لمقابلة السلطان محمد الفاتح وحتى يبينوا له ما آلت إليه الأوضاع في بلادهم من تدهور ويناشدوه العمل على انقاذهم مما أصابهم من عنت واضطهاد[2]. ولكن هذا الوفد لم ينجح في مسعاه لدى السلطان العثماني، فقد كان من المستحيل على السلطان محمد الفاتح الاستجابة لاستغاثة الغرناطيين، لأنه كان في تلك الأثناء يواجه تحالفا صليبيا يهدد دولته تهديدا حقيقيا، خاصة بعد سقوط مدينة القسطنطينية عام ٨٥٧هـ/١٤٥٣م، تلك المدينة التي تهفو إليها أفئدة النصارى في العالم أجمع[3]. وقد ضم التحالف البابا سكت (Sixte) وجمهورية البندقية، وحكام نابولي، والمجر، وترانسلفانيا، وفرسان القديس يوحنا في جزيرة رودس، وزعماء الألمان، ولم تضع الحرب أوزارها بين الدولة العثمانية وهذا التحالف الصليبي إلا عام ٨٨٤هـ/١٤٧٩م[4].

الاستغاثة بسلطان الدولة العثمانية بايزيد الثاني.

وتوالت نداءات الاستغاثة الاندلسية إلى الدولة العثمانية في عهد السلطان بايزيد الثاني[6] (٨٨٦ـ٩١٨هـ/١٤٨١ـ١٥١٢م) فقبل سقوط غرناطة بخمسة أعوام، أي عام

---

(١) محمد الفاتح: هو محمد بن السلطان مراد الثاني بن محمد، تولى الحكم عام ٨٤٨هـ/١٤٤٤م، وكانت مدة حكمه إحدى وثلاثين سنة، وكان من أعظم سلاطين آل عثمان وهو الذي فتح القسطنطينية عام ٨٥٧هـ/١٤٥٣م، وقد كانت وفاته عام ٨٨٦هـ/١٤٨١م. لمزيد من المعلومات عن حياته وأعماله، انظر: السراج، الحلل السندسية في الأخبار التونسية، ج٢، ص١، ٧١-٧٣.

(٢) ابن إياس، بدائع الزهور في وقائع الدهور، ج٢، ص٢٢٧.

(٣) السراج، الحلل السندسية في الأخبار التونسية، ج٢، ص٧١-٧٣.

(٤) القرماني، أخبار الدول وآثار الأول، ج٣، ص٣٦؛ الشناوي، عبد العزيز، الدولة العثمانية دولة مفترى عليها، ج٢، ص٩٠٢.

(٦) بايزيد الثاني: هو بايزيد بن السلطان محمد الفاتح بن مراد، كانت ولادته عام ٨٥٦هـ/١٤٥٢م، وتولى الحكم عام ٨٨٦هـ/١٤٨١م، وكان عمره ثلاثون عاما وهو من أعيان السلاطين العظام، وكانت وفاته عام ٩١٨هـ/١٥١٢م. لمزيد من المعلومات عن حياته وأعماله، انظر: السراج، الحلل السندسية في الأخبار التونسية، ج٢، ص٧١-٨٠. وانظر كذلك:

- Parry. V. j. "Bayazid II", The Encyclopedia of Islam, vs. 1, p. 1119-1121.

٨٩٢هـ/١٤٨٦م، بعث سكان غرناطة إلى السلطان بايزيد الثاني وفدا يحمل رسالة، وقد كان يغلب على هذه الرسالة طابع الرثاء الممزوج بالألم والحسرة، كما أن الرسالة كانت تحمل في طياتها صيحة تحذير مدوية، لأن التقاعس عن نجدتهم من شأنه أن يؤدي إلى سقوط مدينة مالقة التي كانت محاصرة في تلك الأثناء من قبل ملكي قشتالة وأرغون فرديناند وايزابيلا[١]، لقد تأثر السلطان العثماني بايزيد الثاني تأثرا شديدا بما جاء في هذه الرسالة، فقد ذكر المؤرخ التركي الوزير ضيا باشا أن السلطان بايزيد الثاني أرسل سفارة من جانبه إلى البابا، بوصفه الرئيس الروحي الأعلى لسائر النصارى، يطلب فيها من البابا أن يتدخل بنفوذه لدى ملكي قشتالة وارغون للكف عن ايذاء المسلمين، والعمل على رفع الحصار المفروض على مدينة مالقة، وإلا فإن السلطان سوف يجد نفسه مضطرا إزاء هذا العدوان أن يتبع سياسة مماثلة تجاه رعاياه النصارى المقيمين في بلاده[٢]، وقد اهتم البابا بهذا الأمر، وبذل جهودا لدى ملكي قشتالة وأرغون ونصحهما بضرورة تلبية مطالب السلطان العثماني! والعمل على رفع الحصار المفروض من قبلهما على مدينة مالقة، والكف عن سياسة القمع والتنكيل التي يمارسانها ضد مسلمي الاندلس، وذلك حتى لا يتعرض النصارى الموجودين في الدولة العثمانية الى انتقام مماثل[٣]، إلا أن ملكي قشتالة وأرغون فرديناند وايزابيلا لم يستجيبا إلى نصائح البابا، ولم يلتفتا إلى تهديدات السلطان العثماني، وظلا يحاصران مدينة مالقة حتى سقوطها[٤].

إن موقف ملكي قشتالة وأرغون المتصلب إزاء مسلمي الاندلس جعل السلطان العثماني بايزيد الثاني يوعز في عام ٨٩٦هـ/١٤٩٠م بإرسال بعض قطع الأسطول العثماني لتقوم بمهاجمة الشواطئ الاسبانية، وذلك لاجبار القشتاليين على رفع الحصار

---

[١] ابن إياس، ج٢، ص٢٢٨؛ ضيا باشا، الأندلس الذاهبة، ج٣، ص٣٠١. وانظر: عنان، محمد عبد الله، نهاية الأندلس، ص٢٠٦؛ التميمي، عبد الجليل، الدولة العثمانية وقضية الموريسكيين الأندلسيين، ص١١.

[٢] ضيا باشا، الأندلس الذاهبة، ج٣، ص٣٠١.

[٣] المرجع نفسه، ج٣، ص٣٠١.

[٤] انظر: مؤلف مجهول، نبذة العصر في انقضاء دولة بني نصر، ص٩٢-٩٤؛ حتاملة، محمد عبده، محنة مسلمي الأندلس، ص٤٠؛ عنان، محمد عبد الله، نهاية الأندلس، ص٢٠٧.

المفروض من قبلهم على أراضي المسلمين في مملكة غرناطة، والتوقف عن سياسة القمع والتنكيل التي يمارسونها ضد المسلمين، وقد جعل قيادة هذا الأسطول لقبطانه كمال رايس (Kemal Reis) الذي أصبح فيما بعد يمثل الرعب الذي دب في قلوب قادة الأساطيل الاوروبية في أواخر القرن الخامس عشر الميلادي[١]، وذلك نظرا لهجماته الشجاعة وضرباته المؤلمة، هذا وقد أشار المؤرخ حاجي خليفة في كتابه (تقويم التواريخ) إلى الغزوات التي شنها كمال رايس على الشواطئ الاسبانية عام ٨٩٦هـ/١٤٩٠م[٢] إلا أن المؤرخ التركي ضيا باشا يرى أن الأسطول العثماني لم يقم بمهاجمة الشواطئ الاسبانية في هذه الفترة، وذلك لسببين اثنين أولهما أن الأسطول البرتغالي ـ الذي يعتبر من أقوى أساطيل العالم في هذه الفترة ـ كان مرابطا على مقربة من جبل طارق والثغور الجنوبية للاندلس، وثانيهما أن القواعد البحرية التي سيمر بها الأسطول العثماني في مصر وتونس لم تكن قواعد موالية للسلطان العثماني، بل كانت معادية له، لهذا لم تستطع سفن الأسطول العثماني الاقتراب من المياه الاسبانية لتؤدي مهمتها[٣].

أما فيما يتعلق بالقصيدة التي ارسلت إلى السلطان العثماني بايزيد الثاني، والتي صورت تصويرا دقيقا أوضاع المسلمين وبينت الاستفزازات التي يتعرضون لها، والعذابات التي يلقونها، وهي قصيدة تفيض بالعاطفة الصادقة وتعتبر مرجعا تاريخيا لأنها تصور بالتفصيل كل ما يجري على أرض الاندلس من قمع وتنكيل وقتل وتشريد وتهجير وتنصير، وإن القارئ لهذه القصيدة يكاد يرى بأم عينيه الفظائع والأهوال التي ارتكبت بحق المسلمين، ومما جاء في القصيدة[٤]:

---

(١) - J.H. Kramers, "Kemal Reis", Encyclopaedia of Islam, 2 Edition, Vol. 2, P. 853.

– التميمي، عبد الجليل، الدولة العثمانية وقضية الموريسيكيين، ص١١، نقلا عن (Hammer).

(٢) الصباغ، ليلى، ثورة مسلمي غرناطة عام ٩٧٦ أو أواخر سنة ١٥٦٨م والدولة العثمانية في مجلة الاصالة، الجزائر، عدد ٢٧ـ٢٨، ج٤، (١٩٧٥م)، ص ١٣٧ (هامش).

(٣) ضيا باشا، الاندلس الذاهبة، ج٣، ص ٣٠٢.

(٤) المقري، ازهار الرياض في اخبار عياض، ج١، ص ١١٤.

سلام كريم دائم متجدد ... أخص به مولاي خير خليفة[1]
سلام على مولاي ذي المجد والعلا ... ومن ألبس الكفار ثوب المذلة
سلام على من موسع الله ملكه ... وأيده بالنصر في كل وجهة
سلام على مولاي من دار ملكه ... قسنطينة أكرم بها من مدينة
سلام على من زين الله ملكه ... بجند وأتراك من أهل الرعاية
سلام عليكم شرف الله قدركم ... وزادكم ملكا على كل ملة
سلام على القاضي ومن كان مثله ... من العلماء الأكرمين الأجلة
سلام على أهل الديانة والتقى ... ومن كان ذا رأي من أهل المشورة
سلام عليكم من عبيد تخلفوا ... بأندلس بالغرب في أرض غربة
أحاط بهم بحر من الروم زاخر ... وبحر عميق ذو ظلام ولجة
سلام عليكم من عبيد أصابهم ... مصاب عظيم يا لها من مصيبة
سلام عليكم من شيوخ تمزقت ... شيوبهم بالنتف من بعد عزة
سلام عليكم من وجوه تكشفت ... على جملة الأعلاج من بعد ستـرة
سلام عليكم من بنات عواتق ... يسوقهم اللباط قهرا لخلوة[2]
سلام عليكم من عجائز أكرهت ... على أكل خنزير ولحم لجيفة
نقبل نحن الكل أرض بساطكم ... وندعو لكم بالخير في كل ساعة
أدام الإله ملككم وحياتكم ... وعافاكم من كل سوء ومحنة
وأيدكم بالنصر والظفر بالعدا ... وأسكنكم دار الرضا والكرامة
شكونا لكم مولاي ما قد أصابنا ... من الضر والبلوى وعظم الرزية
غدرنا ونصرنا وبدل ديننا ... ظلمنا وعوملنا بكل قبيحة
وكنا على دين النبي محمد ... نقاتل عمال الصليب بنية
ونلقي أمورا في الجهاد عظيمة ... بقتل وأسر ثم جوع وقلة

---

(1) المقصود بايزيد الثاني سلطان الدولة العثمانية.

(2) اللباط هو الكردينال خمنيس سيسنيروس.

فجاءت علينا الروم[1] من كل جانب ... بسيل عظيم جملة بعد جملة
ومالوا علينا كالجراد بجمعهم ... بجد وعزم من خيول وعدة
فكنا بطول الدهر نلقى جموعهم ... فنقتل فيها فرقة بعد فرقة
وفرسانهم تزداد في كل ساعة ... وفرساننا في حال نقص وقلة
فلما ضعفنا خيموا في بلادنا ... ومالوا علينا بلدة بعد بلدة
وجاءوا بأنفاط[2] عظام كثيرة ... تهدم أسوار البلاد المنيعة
وشدوا عليها في الحصار بقوة ... شهورا وأياما بجد وعزمة
فلما تفانت خلينا ورجالنا ... ولم نر من إخواننا من إغاثة
وخوفا على أبنائنا وبناتنا ... من أن يؤسروا أو يقتلوا شر قتلة
على أن نكون مثل من كان قبلنا ... من الدجن[3] من أهل البلاد القديمة
ونبقي على آذاننا وصلاتنا ... ولا نتركن شيئا من أمر الشريعة
ومن شاء منا البحر جاز مؤمنا ... بما شاء من مال إلى أرض عدوة
إلى غير ذلك من شروط كثيرة ... تزيد على الخمسين شرطا بخمسة
فقال لنا سلطانهم[4] وكبيرهم ... لكم ما شرطتم كاملا بالزيادة
وأبدى لنا كتبا بعهد وموثق ... وقال لنا هذا أماني وذمتي
فكونوا على أموالكم ودياركم ... كما كنتم من قبل دون أذية
فلما دخلنا تحت عقد ذمامهم ... بدا غدرهم فينا بنقض العزيمة
وخان عهودا كان قد غرنا بها ... ونصرنا كرها بعنف وسطوة
وأحرق ما كانت لنا من مصاحف ... وخلطها بالزبل أو بالنجاسة
وكل كتاب في أمر ديننا ... ففي النار ألقوه بهزء وحقرة

---

[1] الروم: هنا تعني النصاري الذي حاربوا المسلمين من أسبان وغيرهم.

[2] أنفاط: جمع نفط ويقصد بها كل ما يستخدم من آلات وغيرها في الحرق وتدمير الأسوار

[3] الدجن: هم المدجنون من المسلمين الذين عاشوا على دينهم بين الإسبان قبل سقوط غرناطة وانتهى بهم الأمر إلى مصير الأندلسيين الموريسكيين نفسه.

[4] الملك ضون فرديناند الكاثوليكي

ولـم يـتركوا فيـها كتابـا لمسـلم ... ولا مصحفـا يخلـى بـه للقـراءة
ومن صام أو صلـى ويعلـم حالـه ... ففي النار يلقـوه علـى كـل حالـة
ومن لم يجئ منا لموضع كفرهـم[1] ... يعاقبـه اللبـاط شـر العقوبـة
ويلطـم خديـه ويـأخذ مالـه ... ويجعله في السجن في سـوء حالـة
وفـي رمضـان يفسـدون صيامنـا ... بـآكل وشـرب مـرة بعـد مـرة
وقـد أمرونـا أن نسـب نبينـا ... ولا نذكرنـه فـي رخـاء وشـدة
وقد سـمعوا قومـا يغنـون باسـمه ... فأدركـهم منـهم أليـم المضـرة
وعاقبـهم حكامـهم وولاتـهم ... بضـرب وتغريـم وسـجن وذلـة
ومن جاءه الموت ولم يحضر الـذي ... يذكرهـم[2] لـم يدفنـوه بحيلـة
ويترك فـي زبـل طريحـا مجـدلا ... كمثـل حمـار ميـت أو بهيمـة
إلى غير هـذا مـن أمـور كثـيرة ... قبـاح وأفعـال غـزار رديـة
وقـد بدلـت أسـماؤنا وتحولـت ... بأسماء أعـلاج مـن أهـل الغبـاوة
وآهـا علـى أبنائنـا وبناتنـا ... يروحـون للبـاط فـي كـل غـدوة
يعلمـهم كفـرا وزورا وفريـة ... ولا يقـدروا أن يمنعوهـم بحيلـة
وآها على تلـك المسـاجد سـورت ... مزابـل للكفـار بعـد الطـهارة
وآها على تلـك الصوامـع علقـت ... نواقيسـهم فيـها نظـير الشـهادة
وآها علـى تلـك البـلاد وحسـنها ... لقد أظلمـت بـالكفر أعظـم ظلمـة
وصـارت لعبـاد الصليـب معـاقلا ... وقد أمنـوا فيـها وقـوع الإغـارة
وصرنا عبيـدا لا أسـارى فنفتـدى ... ولا مسـلمين نطقـهم بالشـهادة
فلو أبصرت عيناك ما صـار حالنـا ... إليـه لجـادت بـالدموع الغزيـرة
فيا ويلنا، يا بؤس مـا قـد أصابنـا ... من الضر والبلـوى وثـوب المذلـة
سـألناك يـا مـولاي بـالله ربنـا ... وبالمصطفى المختـار خـير البريـة
وبالسـادة الأخيـار آل محمـد ... وأصحابه أكرم بـها مـن صحابـة

---

[1] الكنيسة.

[2] القس المعرف قبل الموت.

وبالسـيد العبــاس عـم نبينـا وشـيبته البيضـاء أفضـل شـيبة
وبالصـالحين العـارفين بربـهم وكـل ولـي فـاضل ذي كرامـة
عسى تنظروا فينـا وفيمـا أصابنـا لعـل إلـه العـرش يـأتي برحمـة
فقولـك مسـموع وأمـرك نـافذ وما قلت من شـيء يكـون بسـرعة
ودين النصارى أصله تحت حكمكـم ومن ثـم يأتيـهم إلـى كـل كـورة
فبـالله يـا مـولاي منـوا بفضلكـم علينـا بـرأي أو كـلام بحجـة
فأنتم أولوا الإفضال والمجـد والعـلا وغـوث عبـاد الله فـي كـل آفـة
فسل بابهم[1] أعنـي المقيـم برومـة بماذا أجـازوا الغـدر بعـد الأمانـة
ومـا لـهم مـالوا علينـا بغدرهـم بغـير أذى منـا وغـير جريمـة
وجنسهم المغلوب فـي حفـظ ديننـا وأمـن ملـوك ذي وفـاء أجلـة
ولم يخرجوا مـن دينـهم وديـارهم ولا نالـهم غـدر ولا هتـك حرمـة
ومن يعط عـهدا ثـم يغـدر بعـهده فذاك حرام الفعـل فـي كـل ملـة
ولا سـيما عنـد الملـوك فإنـه قبيـح شـنيع لا يجـوز بوجهـة
وقـد بلـغ المكتـوب منكـم إليـهم فلـم يعملـوا منـه جميعـا بكلمـة
ومـا زادهـم إلا اعتـداء وجـرأة علينـا وإقدامـا بكـل مسـاءة
وقد بلغت أرسـال مصـر[2] إليـهم وما نالهم غـدر ولا هتـك حرمـة
وقـالوا لتلـك الرسـل عنـا بأننـا رضينا بدين الكفر من غـير قـهرة
وساقوا عقود الزور ممـن أطاعـهم ووالله مـا نرضـى بتلـك الشـهادة
لقـد كذبـوا فـي قولـهم وكلامـهم علينـا بـهذا القـول أكـبر فريـة
ولكن خوف القتـل والحـرق ردنـا نقول كمـا قـالوه مـن غـير نيـة
ووالله مـا نرضـى بتبديـل ديننـا ولا بالذي قالو مـن أمـر الثلاثـة[3]
وإن زعمـوا إنـا رضينـا بدينـهم بغـير أذى منـهم لنـا ومسـاءة

---

[1] يريد البابا رئيس الدين المسيحي.

[2] يريد بالأرسال: جمع الرسول والمراد ما بعث به الملك قانصوة الغوري.

[3] المقصود بها الأقانيم الثلاثة: الأب والابن والروح القدس.

فسل وحرا[1] عن أهلها كيف أصبحوا	أسارى وقتلى تحت ذل ومهنة
وسل بلفيقا عن قضية أمرها	لقد مزقوا بالسيف من بعد حسرة
ومنيافة[2] بالسيف أحرق أهلها	كذا فعلوا أيضا بأهل البشرة
وأندرش بالنار أحرق أهلها	بجامعهم صاروا جميعا كفحمة
فها نحن يا مولاي نشكو إليهم	فهذا الذي نلناه من شر فرقة
عسى ديننا يبقى لنا وصلاتنا	كما عاهدونا قبل نقض العزيمة
وإلا فيجلونا جميعا من أرضهم	بأموالنا للغرب دار الأحبة
فاجلاؤنا خير لنا من مقامنا	على الكفر في عز على غير ملة
فهذا الذي نرجوه من عز جاهكم	ومن عندكم تقضى لنا كل حاجة
ومن عندكم نرجو زوال كروبنا	وما نالنا من سوء حال وذلة
فأنتم بحمد الله خير ملوكنا	وعزتكم تعلو على كل عزة
فنسأل مولانا دوام حياتكم	بملك وعز في سرور ونعمة
وتهدين[3] أوطان ونصر على العدا	وكثرة أجناد ومال وثروة
وثم سلام الله تتلوه رحمة	عليكم مدى الأيام في كل ساعة

أما نتيجة هذه الاستغاثة فتؤكد المصادر أنها كانت بدون جدوى، لأن أيا منها لا يذكر أن السلطان بايزيد الثاني فعل شيئا يذكر لنجدة الموريسكيين، فيما بعد عام ١٥٠١م، الذي هو التاريخ المرجح لانتهاء نظم تلك القصيدة إلا أن بعض المراجع تذكر أن السلطان بايزيد أرسل أسطولا عثمانيا تحول إلى الشواطئ الاسبانية بقيادة كمال رايس الذي أصبح فيما بعد يثير الرعب في الاساطيل المسيحية[4]. وقد وجدت في هذه القصيدة معالجة شاملة

---

[1] بلدة أندلسية كانت في البشرات جنوب غرناطة

[2] بلدة كانت في البشرات.

[3] التهدين من الهدنة، وهو التسكين والتهدئة.

[4] التميمي، عبد الجليل، الدولة العثمانية وقضية الموريسكيين الاندلسيين، مركز الدراسات والبحوث العثمانية والموريسكية والتوثيق والمعلومات، زغوان، ١٩٨٩، ص ١١.

للأحداث التي يتعرض لها هذا الفصل، ويستطيع الباحث أن يقف على دقة التطابق، بين ما وصلت إليه في الفصل من المخطوطات والمصادر، وما تعرضه هذه القصيدة.

بعث الموريسكيون استغاثتهم الثالثة إلى الملك الأشرف قانصوة الغوري، (١٥٠١–١٥١٦م) سلطان دولة المماليك البرجية بمصر الذي كان حكمه شاملا لبلاد الشام، بما فيها القدس التي كان يعيش فيها مجموعة كبيرة من المسيحيين. وأوضحوا له ما وصلت إليه حالهم، من اكراه على الارتداد، وانتهاك للحرمات، وحظر على الممارسات الدينية وحرق وقتل وتشريد. ودعوه ليبذل وساطته لدى الملكين الكاثوليكيين لكي يحترما معاهدات الاستسلام، ويوقفا الأعمال البربرية ضدهم[1]. فأرسل السلطان قانصوة الغوري وفدا يبين للملكين الكاثوليكيين، أنه سيجبر النصارى المقيمين في بلاده، على الدخول في الاسلام قسرا، إذا لم تراع الاتفاقات السابقة بينهما، وبين مسلمي الاندلس. إلا أن الملكين الكاثوليكيين غررا بالسلطان الغوري عندما أوفدا إليه في اغسطس سنة ١٥٠١م السفير بيدرو مارتير دي انقليريا رئيس كاتدرائية غرناطة الذي اقنع السلطان قانصوة بانهم يعاملون الموريسكيين معاملة حسنة، وأن لهم الحقوق والواجبات نفسها التي يتمتع بها الاسبان. ومما يؤسف له أنه لم يكن بوسع الملك قانصوة مساعدة الموريسكيين، لانشغاله بحركات السلطان سليم الأول، والصراع المحتدم بينهما الذي ما كان يخمد إلا ليتجدد بشكل أكثر ضراوة. مما اضعف محاولة مصر في انجاد الموريسكيين، بل عاجلت المنية قانصوه الغوري سنة ١٥١٦ على أثر هزيمته في مرج دابق قرب حلب أمام جيوش سليم الأول.

استاء العالم الاسلامي وتألم، لما كان ينفذ بحق اخوانهم في شبه جزيرة ايبيريا، من سحق الكفاح الموريسكي، وانتزاعه من جذوره، بالاضافة لما كانوا يسمعونه عن الأعمال الوحشية التي يمارسها الاسبان ضد مسلمي الاندلس الذي يجاهدون في سبيل الله ويكافحون من أجل حقوقهم الشرعية المغتصبة، وحريتهم واستقلالهم.

---

(1) Alfredo Opisso: Historia de España y de Las Republicas Latino-Americanas, Tomo VIII. Barcelona (Sin año) Cap. XII. Pag 252.

وعندما خابت الآمال والأماني التي كان يعلقها مسلمو الاندلس، على اخوانهم في الدين في بلاد المشرق والمغرب، لم يبق أمامهم سوى خيارات ثلاث: الموت أو التنصير القسري، أو الهجرة القسرية خارج البلاد(١).

وفضل الكثيرون البقاء في بلادهم، والقبول بالأمر الواقع، والتنصير القسري، ولو بالظاهر، حيث صعب عليهم مفارقة بلاد ولدوا فيها، ونشأوا تحت سمائها، وامتزج حبها بدمائهم وعمرها الآباء والأجداد ما يقرب من ثمانية قرون من الزمن.

وهناك فريق آخر أبت عليه عزة الاسلام أن يعيش ذليلا، أو متنصرا تحت راية العدو، فهام على وجهه في مشارق الأرض ومغاربها، فمنهم من رحل إلى مصر وبلاد الشام، بينما رحل الكثيرون إلى بلاد المغرب العربي، وجنوب فرنسا، وصقلية، وانضم قسم آخر إلى الرحلات الاستكشافية مع كريستوفر كولومبس، إلى امريكا الوسطى والجنوبية، ولكن أحدا لم يجر دراسة شاملة لهذا الموضوع، خاصة بعد رحيل جزء كبير من الاسبان، ومعهم كثير من المسلمين الذين نصروا بالقوة، إلى العالم الجديد إثر الهجرات الاسبانية المتتالية إلى هذه الأقطار المكتشفة النائية.

كلفت عملية إخماد ثورتي البيازين والبشرات، خزينة الدولة في عهد الملكين الكاثوليكيين، ما يقارب (٨٠) مليون مرافيدي، إذ شارك في اخماد هاتين الثورتين نحو ١٣ ألف فارس، و ٥٠ر٠٠٠ من المشاة، والفي قطعة من المدفعية، وبلغت الديون التي استدانها ٣٧٥ مليون مرافيدي(٢).

---

(1) Menendez y Pelayo (Marcelino) Historia de España, Madrid, 1.941, Pag. 145.

(٢) مرافيدي Maravedis أو Morabetino عملة اسبانية قديمة تشير إلى عصر المرابطين ونفوذهم السائد بالاندلس، فهي الدينار المرابطي الذهب الذي أصبح ــ لصحة وزنه وعياره ــ النموذج المحتذى في بلاد المغرب والاندلس، وقد تم سكه في مدن مغربية واندلسية معا، بيد أن قيمة "المرابطي" صارت تتأرجح وصفاتها أصبحت تختلف باختلاف العصور لدرجة أنها في العهود المسيحية المتأخرة باسبانيا اختصرت وقسمت إلى ما يعرف بالبليون Vellon الذي كان يسك إما من مزيج من الفضة والنحاس معا، وإما من النحاس وحده.

استقدم الملكان الكاثوليكيان بسبب حروبهما المتواصلة الخبراء والعلماء من جميع أنحاء أوروبا، خاصة فرنسا وايطاليا والمانيا، لادخال التحسينات على المدفعية، وتحضير التجهيزات لصناعة المدافع والطلقات والبارود، وشتى أنواع الأسلحة التي كانت معروفة في ذلك العصر، وجلبت المواد الخام من صقلية وبلاد الفلانديس والبرتغال. وتولى هذه العمليات والاشراف عليها ضون فرنسيسكو خمنيس دي مدريد القائد الأعلى لسلاح المدفعية الذي قدم خدمات جليلة للبلاط الملكي، في حرب البشرات المذكورة[١]. ثم ادخل الملك ضون فرديناند اصلاحات على جيشه، عام ١٥٠٣م[٢].

وفي السنوات التالية، قام الملكان الكاثوليكيان بانشاء جيش من المرتزقة، ضم أفرادا عديدين، جلبوا من أقطار عديدة، كايطاليا والبرتغال والمانيا وفرنسا وانجلترا وسويسرا. وقام هذا الجيش بشن غارات عديدة، على بلاد المغرب العربي لضرب القوى الاسلامية فيها[٣].

إن تطور الأحداث وتلاحقها في منطقة الشرق العربي حدت من قدرة السلطان العثماني بايزيد الثاني على الاستجابة لاستغاثات الموريسكيين هذه، لأن السلطان العثماني كان حريصا في هذه الاثناء على مراقبة تحركات الأسطول البرتغالي في المحيط الهندي والخليج العربي والبحر الأحمر، خصوصا بعد أن وصل فاسكودى جاما (Vasco de Gama) إلى الهند عن طريق رأس الرجاء الصالح عام ٩٠٤هـ/١٤٩٨م[٤]. وذلك لأن الاسطول البرتغالي أصبح يشكل خطرا حقيقيا على أطراف الجزيرة العربية والأماكن المقدسة في الحجاز.

---

(1) Joaquin DURAN Y LERCHUNDI: La toma de Granada y caballeros que concurrieron a ella. Tomo II. Madrid 1.893, Pags 126-127 y 146.
(2) Joaquin SOTTOY MONTES: Organización militar de los Reyes Católicos (1.474-1.517), en Revista de Historia Militar. Madrid 1.963, año VII N° 12. Pags 13-47.
(3) Joaquin SOTTO Y MONTES: La infanteria suiza al servicio de España. en Revista de Historia Militar. Año XII. Madrid 1.972. N°. 32, Paginas 54-55.

(٤) لمزيد من المعلومات عن رحلة فاسكودي جاما واهدافها وتأثيرها على الشرق العربي، انظر: اندري كلو، سليمان القانوني، ص ٢٢٠.

احتل البرتغاليون جزيرة سوقطرة في خليج عدن عام ٩١١هـ/١٥٠٥م وكان الاسطول البرتغالي قد وصل قبل عام من هذا التاريخ إلى منطقة جدة وموانئ الجزيرة العربية[١] كذلك فقد ذكر ابن اياس (ت ٩٣٠هـ/١٥٢٣م)[٢] أن البرتغاليين تمكنوا من التسلل سرا إلى الأماكن المقدسة في الحجاز، كما أنهم استطاعوا أن يلحقوا هزيمة منكرة بالأسطول المملوكي في موقعة ديو البحرية عام ٩١٥هـ/ ١٥٠٩م[٣]، وقد فتحت نتيجة هذه المعركة الباب على مصراعيه أمام البرتغاليين، حيث تمكنوا في العام التالي من محاصرة ميناء عدن، وتضييق الخناق على موانئ شرق الجزيرة العربية، ولم يكتف البرتغاليون بكل ما تحقق لهم، بل عملوا على اغلاق طرق التجارة العربية التي تمر عبر العراق وسوريا، وعزموا على السيطرة على موانئ الخليج العربي ومحاصرة البصرة، وقد كان استيلاء البرتغاليين على مضيق هرمز عاملا حاسما في التحكم في طرق التجارة عبر العراق وسوريا[٤].

ان استفحال الخطر البرتغالي ـ كما رأينا ـ جعل السلطان العثماني بايزيد الثاني لا يستجيب لاستغاثات الموريسكيين، لأنه كان يسعى جاهدا إلى مواجهة الخطر البرتغالي الذي أصبح يشكل تحديا حقيقيا وتهديدا خطيرا وخاصة للأماكن المقدسة في الحجاز[٥].

---

(١) ابن اياس، ج٤، ص ٨٥؛ الراقد، محمد، الغزو العثماني لمصر، ص ١٢١.

(٢) ابن اياس، بدائع الزهور في وقائع الدهور، ج٤، ص ١٩١.

(٣) ابن اياس، ج٢، ص ١٥٦؛ رافق، عبد الكريم، العرب والعثمانيون، ص ١٨؛ الراقد، محمد، الغزو العثماني لمصر، ص ١٢١.

(٤) شارل ديل، البندقية جمهورية أرستقراطية، ص ١٤٨ـ١٤٩.

(٥) لمزيد من المعلومات عن المساعدات التي قدمتها الدولة العثمانية للمماليك من أجل مواجهة الخطر البرتغالي، انظر: ابن اياس، بدائع الزهور في وقائع الدهور، ج٤، ص ٢٠١.

الاحتلال البرتغالي والاسباني للشمال الافريقي:

يمثل تدخل الاسبان والبرتغاليين في شمال افريقيا امتدادا للحرب ضد المسلمين، تلك الحرب التي أطلق عليها الاسبان اسم حرب الاسترداد[1] (Reconquista) وهي تسمية فيها الكثير من المغالطة والتزوير لحقائق التاريخ، لأنه لم يسبق للاسبان أن شكلوا قومية واضحة المعالم محددة الصفات، فلقد توافد على شبه الجزيرة الايبيرية أقوام من مختلف الأجناس الذين كان ابعدهم أثرا حضاريا الفنيقيون. وكان آخر من وفد إلى الجزيرة المسلمون الذين عاشوا على أرض اسبانيا أكثر من ثمانية قرون متواصلة، حيث تعلقوا بهذه الأرض ودانوا بالولاء لها، من هنا فان اضطهاد المسلمين لم يكن لاسباب عرقية، وإنما لأسباب عقائدية بحتة.

١. الغزو البرتغالي والاحتلال:

لم تتوقف حملات الممالك القشتالية والبرتغالية في شبه الجزيرة الإيبيرية ضد المسلمين طيلة قرون عديدة، وكانت الروح الصليبية هي التي تحكم هذه الغزوات بتأييد من البابوية، ودعم، في كثير من الأحيان من الدول والامارات الأوروبية والفرسان الأوروبيين، وقد بدأ الغزو البرتغالي للمغرب العربي في القرن الخامس عشر قبل الغزو القشتالي له، نظرا لموقع البرتغال الجغرافي على المحيط الأطلسي حيث لا يوجد حاجز بينها وبين المغرب من الناحية الجنوبية، سوى مياه المحيط، بينما كانت ممالك قشتالة المسيحية مشغولة في حروبها مع مملكة غرناطة الاسلامية.

كان هدف البرتغاليين يتلخص في اضعاف قوة المسلمين اقتصاديا وبالتالي إضعافهم عسكريا عن طريق تحويل طرق التجارة من ساحل غانه وسائر غرب افريقيا عن طريق المغرب العربي، ومن ثم مهاجمة المسلمين في عقر دارهم. ولذلك قام بنفسه برعاية حركة الملاحة وعلوم البحار وبناء الأسطول الذي كانت سفنه ترفع على ساريتها

---

[1] الناصري، ج٤، ص ١٠٤؛ فارس، محمد خير، تاريخ الجزائر، ص ١٣.

صورة الصليب[1]، وسار الغزاة البرتغاليون من بعده على هذه السياسة التي أسفرت عن حركة الاكتشافات الجغرافية والتي كان الهدف منها ضرب تجارة المسلمين والالتفاف حول البلاد الاسلامية والوصول إلى مملكة الحبشة والتحالف مع ملكها المسيحي ضد المسلمين ومن ثم تطويق المسلمين تمهيدا لاحتلال مكة والمدينة وبيت المقدس وإعادة السيطرة الصليبية على المشرق الاسلامي، وذلك بدعم من البابا الذي ظل يحث الدول الأوروبية والفرسان الأوروبيين على دعم النشاط البرتغالي والاسباني.

بدأ البرتغاليون منذ مطلع القرن الخامس عشر الميلادي يشنون حروبا متواصلة على أقاليم الشمال الافريقي، باعتبارها أقاليم اسلامية تحوي رصيدا بشريا ضخما، اعتاد منذ القدم أن يشد أزر مسلمي الاندلس في جهادهم ضد الاسبان والبرتغاليين، وقد كان هدف البرتغاليين من احتلال شمال افريقيا الفصل بين أهل المغرب المقيمين على الساحل الشمالي للقارة الافريقية، وبين مسلمي الاندلس، لأنهم كانوا يعتقدون أن مساندة المغاربة لمسلمي الاندلس أدت إلى تأخير عملية السقوط إلى عدة قرون[2]، رغم حالة الفرقة والضعف التي كان عليها مسلمو الاندلس[3].

وقد تجلت الروح الصليبية للبرتغاليين في نشاطات الأمير البرتغالي هنري الملاح (١٣٩٤ــ١٤٦٠م) الذي كان أخا لملك البرتغال، والذي كان يحمل الصليب على ظهره[4] وقضى ما يقرب من نصف قرن من حياته في محاربة المسلمين عسكريا واقتصاديا، وكان يستقطب الفرسان الصليبيين الهاربين من الشرق وألف منهم جماعة عرفت باسم جماعة المسيح[5].

---

(١) جهود العثمانيين، ص ٣٧.

(٢) الناصري، ج٤، ص ٩٢؛ كريم، عبد الكريم، المغرب في عهد الدولة السعدية، ص ٢٥.

(٣) الناصري، ج٤، ص ١٠٢؛ فارس، محمد خير، تاريخ الجزائر، ص ١٣.

(٤) رضوان، د. نبيل عبد الحي، جهود العثمانيين لانقاذ الاندلس واسترداده في مطلع العصر الحديث، مكة المكرمة، ط١، ١٤٠٨هـ/١٩٨٨م، ص ٣١، ٣٣.

(٥) جهود العثمانيين، ص ٥٦.

وكانت أول مشاريعه احتلال مدينة سبته ذات الموقع الاستراتيجي المهم[١] عام ٨١٨هـ/١٤١٥م وبسط حماية البرتغال عليها بعد أن تسرب الضعف إلى دولة بني مرين واشتد نزاعها مع بني وطاس، وسقطت سبته في يد البرتغاليين حتى سنة ١٦٤٠م[٢]، ولم يلبث الملاح أن وقع أسيرا في يد المسلمين أثناء محاولته الاستيلاء على طنجة سنة ٨٢٣هـ/١٤٣٠م ثم اطلق سراحه بعد أن تعهد بالانسحاب من سبته لكنه لم يحترم هذا التعهد[٣]. وازدادت حركة النزول البرتغالي للسواحل المغربية بعد استيلاء الأتراك العثمانيين على القسطنطينية سنة ٨٥٧هـ/١٤٥٣م، فقد جهز ملك البرتغال الاذفونش الخامس (الفونسو الخامس) استجابة لدعوة البابا بيوس الثاني ١٤٥٨ـ١٤٦٤م اسطولا كبيرا ونزل بالقصر الصغير بين سبته وطنجه ٨٦٢هـ/١٤٥٧م، وبقي في أيديهم حتى سنة ١٥٥٠م، ولم يكن بنو وطاس بقادرين على المحافظة على هذه المناطق[٤]، كما احتل البرتغاليون أسفي سنة ٨٧٤هـ/١٤٦٩م، ثم أصيلا بعد عامين ثم العرائش وطنجة سنة ٨٧٦هـ/١٤٧١م، وبقيت طنجة في يد البرتغاليين حتى سنة ١٦٦١م. وبذلك تم للبرتغاليين إحكام الحصار حول المعبر الجنوبي لشبه الجزيرة الايبيرية[٥].

وبذلك استولى البرتغاليون في القرن العاشر الهجري السادس عشر الميلادي، على المدن التالية: العرائش، أغادير (١٥٠٥ـ١٥٤١م)، رباط آسفي (١٥٠٨ـ١٥٤١م)،

---

[١] الناصري، ج٤، ص ٩٢؛ رافق، عبد الكريم، العرب والعثمانيون، ص ٢٣؛ كريم، عبد الكريم، المغرب في عهد الدولة السعدية، ص ٦، ٢٥؛ العقاد، صلاح، المغرب العربي، ص ١٢؛ المقري، ازهار الرياض، ج١، ص ٤٦.

[٢] العمراني، د. عبد الله، مولاي اسماعيل بن الشريف، تطوان، ١٣٩٨هـ/١٩٧٨م، ص ٣٧.

[٣] اليوسف، عبد القادر أحمد، علاقات بين الشرق والغرب في القرنين الحادي عشر الهجري/الخامس عشر ميلادي، صيدا، لبنان، ١٩٦٩، ص ٢٥٧.

[٤] المطوي، محمد العروسي، الحروب الصليبية في المشرق والمغرب، تونس، ١٩٨٢، ص ٢٦٣ـ٢٦٤.

[٥] نبيل عبد الحي رضوان، جهود العثمانيين لانقاذ الاندلس واسترداده، مكة المكرمة، ١٤٠٨هـ/١٩٨٨م، ص ٣١ـ٣٣؛ والعمراني، ص ٣٧؛ الجمل، شوقي عطا الله، المغرب العربي الكبير في العصر الحديث، القاهرة، ط١، ١٩٧٧، ص ٤٩.

آزمور (١٥١٣ــ١٥٤٢م)، المعمورة (مهدية المغرب)، والحصن الملكي (١٥٠٦ــ١٥١٠م) وأخيرا الجديدة (١٦١٤ــ١٧٤٧م)[١].

نلاحظ مما سبق أن البرتغاليين كانوا أسبق من الاسبان في الاهتمام بالشمال الافريقي، حيث نجد أن اهتمام الاسبان بالاتجاه إلى الشمال الافريقي خاصة في المغربين الأوسط والأدنى، بدأ مع نهاية القرن الخامس عشر الميلادي فقط، وذلك بعد توقيع معاهدة تورديسياس (Tardesillas) عام ٩٠٠هـ/١٤٩٤م بين اسبانيا من جهة والبرتغال من جهة ثانية برعاية البابا، حيث قسم المغرب بموجب هذه المعاهدة إلى منطقتين، الأولى تقع شرق حجر باديس المغربية ويتولى الاسبان فيها مهمة الاستيلاء والسيطرة، والثانية تقع في الغرب منها، وقد أوكلت المهمة في هذه المنطقة إلى البرتغاليين[٢].

٢. الغزو الاسباني للمغرب العربي:

كانت للروح الصليبية في قشتالة جذور تاريخية تمثلت في معركة الاستيلاء على طليطلة سنة ١٠٨٥م، حيث وقفت معظم الدول الأوروبية وفرسانها إلى جانب القشتاليين وبمباركة البابا كليمنت الثالث (١٠٨٠ــ١١٠٠م). وتجلت هذه الروح في جميع مراحل الصراع بين القشتاليين والمسلمين في الاندلس، وما نجم عن ذلك من سقوط المدن الأندلسية تباعا في يد قشتالة حتى سقطت مرسية سنة ١٢٦٦م، وهكذا لم يتبق في يد المسلمين حتى أواسط القرن الثالث عشر الميلادي سوى غرناطة. واستمرت هذه الروح في عهد فرديناند وايزابيلا اللذين لقبا نفسيهما بلقب الملكين الكاثوليكيين للاعراب عن هذه الروح الصليبية.

وعلى أثر فتح العثمانيين للقسطنطينية دعا البابا نقولا الخامس (١٤٤٧ــ١٤٥٥) جميع المسيحيين في أوروبا إلى تأييد القشتاليين وإمدادهم بالفرسان والأموال لتصفية

---

[١] المطوي، محمد العروسي، الحروب الصليبية في المشرق والمغرب، تونس، ١٩٨٢، ص ٢٦٤.

[٢] الناصري، ج٤، ص ١٠٩؛ فارس، محمد خير، تاريخ الجزائر، ص ١٦؛ العقاد، صلاح، المغرب العربي، ص ١٤ــ١٥؛ كريم، عبد الكريم، المغرب في عهد الدولة السعدية، ص ١٠.

الوجود الاسلامي في شبه الجزيرة الايبيرية بحيث تمكن الملكان الكاثوليكيان بفضل هذا الدعم والمساندة من خوض حرب استمرت عشر سنوات متواصلة ضد مملكة غرناطة الاسلامية انتهت بإبرام اتفاقية بين الطرفين أدت في نهايتها إلى تسليم غرناطة للملكين الكاثوليكيين سنة ١٤٩٢م.

ولم يكتف الملكان الكاثوليكيان باحتلال غرناطة، بل بدأوا بمهاجمة العدوة المغربية التي طالما أمدت مسلمي الاندلس بالدعم والحماية ولا سيما في عهود المرابطين والموحدين وبني مرين.

ومن ناحية أخرى فقد كان الهدف من تمويل الملكين الكاثوليكيين لرحلات كولمبس، العمل على تحويل التجارة عن البلاد العربية والوصول إلى الهند عن طريق لا يمر بها. وكانت وصية ايزابيلا متابعة الحرب ضد أعداء الايمان المسيحي وتقصد الموريسكيين أي المسلمين[١]. وإلى جانب ذلك فقد أثارت حالة الضعف والتمزق التي كانت سائدة في المغرب العربي مطامع الاسبان ويتضح ذلك من خلال ما كتبه سكرتير ملك اسبانيا عام ٩٠١هـ/١٤٩٥م في كتابه إلى الملك فرديناند الكاثوليكي، حيث يقول: "أن البلاد – المغرب العربي – في حالة يبدو وكأن الله أراد أن يمنحها لجلالتكم"[٢]. وقد بلغ التمزق السياسي ذروته في أوائل القرن السادس عشر الميلادي، فرغم الخطر الخارجي الذي يتهدد البلاد كافة، نجد طرابلس تستعين بالوطاسيين* في فاس ضد الحفصيين في تونس، وفي الجزائر يستمر الصراع بين الأمراء الحفصيين والامارات البربرية، كذلك فقد تقلصت سلطة بني عبد الواد، وأفلت معظم المغرب الأوسط من

---

(1) Pascual Y Barrachina Pbro. Los Moriscos Españoles Y su expulsión, Tomo 1, Valencia, 1901, Pags. 116-117.

– وانظر أيضا: حتاملة، التنصير القسري لمسلمي الاندلس في عهد الملكين الكاثوليكيين، ط١، عمان، ١٤٠٠هـ/١٩٨٠م، ص ١١٤.

(٢) فارس، محمد خير، تاريخ الجزائر، ص ١٦.

* بنو وطاس: فرع من بني مرين، لكنهم ليسوا من أبناء عبد الحق بن محيو. ابتدأت دولتهم سنة ٨٧٦هـ على يد أبي عبد الله محمد الشيخ واستمرت إلى سنة ٩٦١هـ.

قبضتهم، وتمزقت إمارتهم بسبب المنافسات بين الأسر الحاكمة، ودسائس البلاط ومؤامرات كبار الموظفين، وتدخل الحفصيين في شؤونهم[1].

وقد كانت الملكة ايزابيلا من أشد المتحمسين لسحق المسلمين حيث تركت قبيل وفاتها عام ٩١٠هـ/١٥٠٤م وصية تقول فيها: "انني لأرجو من الأميرة خوانا وزوجها الأمير فيليب، وآمرهما بإطاعة وصايا الكنيسة، وألا يكفا عن متابعة فتح افريقية ومحاربة الكفار"[2] وكانت تقصد بالكفار المسلمين واليهود.

ولم يمض عام واحد على وفاة الملكة ايزابيلا، حتى قام الاسبان بأول محاولة لتنفيذ ما جاء في وصيتها، حيث احتلوا عددا كبيرا من مراكز السواحل المغربية، ففي عام ٩١١هـ/١٥٠٥م قام الاسبان بغزو المرسى الكبير الواقع غربي مدينة الجزائر، فقتلوا أربعة آلاف مسلم، وأسروا ثمانية آلاف آخرين[3] ثم احتلوا مدينة مليلة[4]، وفي عام ٩١٤هـ/١٥٠٨م احتلوا حجر باديس، في ساحل المغرب الأقصى وعجزت الدولة الزيانية عن التصدي لهم فأعقب ذلك سقوط المرسى الكبير سنة ١٥٠٥م. وفي العام التالي استولوا على وهران وبجاية وتحول تجار البندقية من وهران إلى هنين[5] وفي عام ٩١٦هـ/١٥١٠م احتلوا ميناء طرابلس، حيث قاموا بتدمير منشآت المدينة[6]، وفي عام

---

[1] الناصري، ج٤، ص ١٥٠ـ١٥٦؛ رافق، عبد الكريم، العرب والعثمانيون، ص ٧٣ـ٧٥.

[2] فارس، محمد خير، تاريخ الجزائر، ص ١٣؛ التميمي، عبد الجليل، الدولة العثمانية وقضية الموريسكيين، ص٧٠ـ٧١.

[3] الناصري، ج٥، ص ٤٩؛ الوهراني، تاريخ بايات وهران المتأخر، ص ١٠؛ المدني، أحمد، حرب الثلاثمائة سنة بين الجزائر واسبانيا، ص ٩٦؛ اشنهو، عبد الحميد، دخول الاتراك العثمانيين الجزائر، ص ٢٣؛ الراقد، محمد، الغزو العثماني لمصر، ص ١١٩، ٢٣٥.

[4] الناصري، ج٥، ص ٤٩؛ حسن، ابراهيم شحاته، وقعة وادي المخازن، ص ٣٠؛ الشناوي، عبد العزيز، الدولة العثمانية دولة مفترى عليها، ص ٩٠١.

[5] الناصري، ج٥، ص ٤٩؛ الوهراني، تاريخ بايات وهران المتأخر، ص ١١؛ المدني، أحمد، حرب الثلاثمائة سنة بين الجزائر واسبانيا، ص ١١٠ـ١١٩؛ ونبيل عبد الحين جهود العثمانيين، ص ٢٤٨.

[6] المدني، أحمد،حرب الثلاثمائة سنة بين الجزائر واسبانيا،ص ١٤٣؛ رافق، عبد الكريم،العرب والعثمانيون، ص ١٤.

٩١٨هـ/١٥١٢م توجه وفد من مدينة الجزائر برئاسة شيخها سالم التومي إلى اسبانيا، حيث قدم الوفد ولاءه إلى الملك فرديناند، وهناك تنازل الوفد عن احدى الجزر لصالح الاسبان، وهذه الجزيرة عبارة عن صخرة مواجهة لميناء الجزائر، وقد أقام الاسبان في هذه الجزيرة الصخرية حصنا عرف بالاسبانية باسم (بنيون Penon) وضعوا فيه حامية عسكرية ومدفعية، حتى أنه اصبح شوكة في جنب مدينة الجزائر[١]. وعاد أهالي الجزائر إلى الاستنجاد بالدولة العثمانية من جديد ولكنها كانت في ذلك الوقت مشغولة في نزاعها مع الصفويين.

النزاع بين القشتاليين والبرتغاليين.

إلا أن النزاع لم يلبث أن دب بين القشتاليين والبرتغاليين للسيطرة على العالم الجديد في امريكا وعلى الأراضي الاسلامية في المغرب العربي، ولم يحسم هذا النزاع إلا تدخل البابا الكسندر السادس عام (١٤٩٢ــ ١٥٠٣م) الذي أصدر مرسوما سنة ٨٩٩هـ/١٤٩٤م عرف باسم: تورديسياس (Tordesillas) بفض النزاع بين الدولتين ويخول للاسبان فيه حق السيادة على كل الأراضي التي يكتشفونها كما يمنع البرتغاليين من منافستهم في تلك الجهات. وجاء في هذا المرسوم "أن كل الأراضي التي تكتشف إلى الغرب من خط يقع على بعد ٣٠٠ميل من الرأس الأخضر والممتد من القطبين تصبح ملكا لاسبانيا، بينما الأراضي الجديدة التي تكتشف إلى الشرق من هذا الخط تؤول إلى البرتغال" غير أن هذا الخط عدل في عام ١٤٩٤م بحيث يتفق مع خط طول ٤٧ ° غربا تقريبا[٢].

وبموجب هذا التقسيم أضحت معظم أقطار المغرب الأقصى تقع في دائرة حصة البرتغال، بينما أطلقت يد قشتالة في بقية أقطار المغرب. وكان هدف كل من الاسبان والبرتغاليين من حملاتهم ضد المغرب واحدا وهو الاحتلال والتنصير والتهجير والإبادة.

---

[١] الناصري، ج٥، ص ٤٩؛ فارس، محمد خير، تاريخ الجزائر، ص ٢٠ــ٢١.

[٢] الجوهري: (د. يسري عبد الرازق)، الكشوف الجغرافية، الطبعة الثانية، الاسكندرية، ١٩٦٧م، ص ١٧٦، ١٣٧.

وهكذا هدد البرتغاليون مراكش، ولكن المغاربة أحرزوا عليهم نصرا مظفرا في معركة وادي المخازن في الرابع من شهر أغسطس (آب) سنة ١٥٧٨م على بعد ١٢ كيلومترا من مدينة القصر الكبير، وقد سميت هذه المعركة بمعركة الملوك الثلاثة حيث مات في أعقابها كل من ملك البرتغال سباستيان والأمير السعدي محمد المتوكل والأمير السعدي عبد الملك، كما ذهب فيها ثمانون ألفا من البرتغاليين بين قتيل وأسير[١]. وكان البرتغاليون قد أعدوا صلبانا ليقوموا بتعليقها على مساجد فاس ومراكش[٢].

خير الدين بربروسا:

كانت أقاليم الشمال الافريقي تعيش حالة من الفوضى السياسية، منذ مطلع القرن السادس عشر الميلادي، الأمر الذي شجع الاسبان والبرتغاليين على غزو هذه الأقاليم حيث تمكنوا من السيطرة على عدد كبير من مراكز السواحل المغربية. في ظل هذه الظروف التي كان يعيشها الشمال الافريقي، اضافة إلى التفكك السياسي والتناحر العسكري، ظهر المجاهدان الأخوان بابا عروج[٣] وخير الدين بربروسا[٤]، بأسطولهما الحربي وكانت قاعدتهما في حلق الواد بتونس ثم تحولوا إلى جزيرة جربة فكان ذلك بارقة أمل لسكان افريقيا الشمالية، حيث لعب هذان الاخوان التركيان دورا هاما في تحرير سواحل المغرب العربي من السيطرة الاسبانية والبرتغالية، كما قاما بحملات متكررة على

---

[١] شحاته، حسن (د. ابراهيم)، وقعة وادي المخازن في تاريخ المغرب، ٩٨٦هـ/١٥٧٨م، ط١، فاس- الدار البيضاء، ١٩٧٩، ص ٨.

[٢] المنوني، محمد، ملامح من تطور المغرب العربي في بدايات العصور الحديثة، اشغال المؤتمر الأول لتاريخ المغرب العربي وحضارته، ج٢، الجامعة التونسية، ١٩٧٩م، ص ٧٦.

[٣] عروج: يقال أن اسمه الحقيقي أروج وهو تركي معناه رمضان ويستدل على ذلك من لوحة رخامية عثر عليها في مسجد الشواش الذي هدمه الفرنسيون. انظر: أحمد المدني، حرب الثلاثمائة سنة بين الجزائر واسبانيا، ص ١٦١. ومما يجدر ذكره أن كلمة "بابا" التي اقترنت باسم عروج، هي لقب أطلقه عليه مسلمو الاندلس بعد خروجهم من أرضهم، وذلك لأن عروج أدى لهم خدمات جلى، حيث عمل على حمايتهم، ووفر لهم مستلزمات معيشتهم، من هنا فقد قارنوه بالبابا عند الاسبان لأنهم رأوا أنه لا يقل مكانة عن مكانة البابا.

[٤] بربروسا: يعنى كما يجمع الباحثون ذا اللحية الحمراء، انظر: فارس، محمد خير، تاريخ الجزائر، ص ٢٩؛ رافق، عبد الكريم، العرب والعثمانيون، ص ٧٦.

الشواطئ الاسبانية بهدف مساعدة الموريسكيين. وأخذ أمل المسلمين في المغرب يقوى كلما انتصر الاخوان عروج وبربروسا على الاسبان أو كلما هاجما الثغور المغربية المحتلة.

اتخذ هذان المجاهدان من جزيرة جربا (تونس) قاعدة لاسطولهما حيث يمكنهما منها توجيه الهجمات على السفن الاسبانية وعلى السواحل الاسبانية. ولقيا المساعدة في بادئ الأمر من أمير تونس الحفصي[١].

يرجع بابا عروج واخوته الثلاثة خير الدين واسحاق والياس في أصولهم إلى جزيرة ميتلين (Metellin) اليونانية[٢]، وقد اختلف المؤرخون حول هوية والدهم يعقوب بن يوسف، حيث قال بعضهم أن والدهم كان فرنسيا سليل اسرة تدعى (d, Authan)[٣]. وقال فريق آخر أن والدهم كان خزافا يونانيا[٤] وقال فريق ثالث أن والدهم كان نحاتا تركيا، ثم انخرط في صفوف الجيش العثماني في عهد السلطان محمد الثاني (٨٥٥_٨٨٦هـ/١٤٥١_١٤٨١م)[٥]، ويستدل على ذلك من لوحة رخامية موجودة بمتحف مدينة الجزائر، والتي كانت مثبتة فوق باب المسجد الذي أمر خير الدين بربروسا ببنائه في مدينة الجزائر، وقد جاء فيها: "أمر ببناء هذا المسجد المبارك السلطان المجاهد في سبيل رب العالمين مولانا خير الدين بن الأمير الشهير المجاهد بن ابي يوسف يعقوب

---

(1) Kinross Lord the Ottoman Centuries. The Rise and Fall of the Turkish Empire, New York, 1977, Pág 218.

(٢) -Yver. G. (Arudj). Encyclopaedia of Islam, E-11, Vol. p. 471.

- وانظر: ابن ابي الضياف، إتحاف أهل الزمان، ج٢، ص ٩.

(3) Yver. G, (Arudj). Encyclopaedia of Islam, E-1, 2 vol. p. 471.

وانظر: كوستانزيو برنيا، طرابلس، ص ٣٠؛ ابن ابي الضياف، ج٢، ص ١٠.

(٤) ابن ابي الضياف، ج٢، ص ١١؛ فارس، محمد خير، تاريخ الجزائر، ص ٢٣؛ رافق، عبد الكريم، العرب والعثمانيون، ص ٧٦.

(٥) الراقد، محمد، الغزو العثماني لمصر، ص ٢٣٨ (هامش: رافق، عبد الكريم، العرب والعثمانيون، ص ٧٦. وانظر: Yver. G, (Arudj). Encyclopaedia of Islam, E-1, 2 Vol. p. 471. وأنظر أيضا:

-Kinross, The Ottoman Centuries, New York, 1977, p. 218.

التركي، في الأول من جمادى الأولى من عام ستة وعشرين وتسعمائة للهجرة[1]. أن هذا النص يبين بوضوح أن والد البطلين المجاهدين كان تركيا مسلما، وذلك خلافا لما يدعيه بعض المؤرخين الاوروبيين، الذين حاولوا أن يعزوا سبب شهرة هذين البطلين وتفوقهما إلى أصولهما الأوروبية التي ينحدران منها، محاولين أن يوهموا الناس أن فنون البحر كانت حكرا على الاوروبين فقط[2] .

ولم يكتف المؤرخون الأوروبيون بالتشكيك بأصل بابا عروج وأخيه خير الدين بل دأبوا على نعتهم بالقراصنة[3]، وحرصوا على ذكر أسماء قادة البحرية الاسلامية في الشمال الافريقي مقرونا بهذه النعوت والتسميات، فهؤلاء القادة في نظر هؤلاء المؤرخين ليسوا سوى قراصنة لا أكثر ولا أقل، فقد امتلأت قلوب هذه الزمرة من المؤرخين بالحقد والضغينة على هؤلاء المجاهدين، وذلك نظرا للخسائر الفادحة التي ألحقها هؤلاء المجاهدون بالسفن والشواطئ الأوروبية.

إن الأسباب التي دفعت بابا عروج وأخاه خير الدين إلى مهاجمة سفن الاسبان والبرتغاليين، وشن الغارات على الشواطئ الاسبانية ترجع بمجملها إلى إيمانهما بفكرة الجهاد، حيث نجد أن فكرة الجهاد لا زالت حية في قلوب المسلمين، وخاصة بعد احتلال شواطئ المغرب الاسلامي من قبل البرتغاليين والاسبان. كذلك فإن ما أصاب مسلمي الاندلس بعد سقوط غرناطة عام ٨٩٨هـ/١٤٩٢م على أيدي الملكين الكاثوليكيين وأعوانهما، أحيا لدى المغاربة روح الجهاد، فقد حث الخطباء على قتال النصارى بشتى الوسائل انتقاما لما يتعرض له مسلمو الاندلس، وأفتى العلماء والفقهاء بوجوب قتال النصارى والأخذ بالثأر، لأن الجهاد يصبح فرض عين على كل قادر إذا ما تعرضت بلاد

---

[1] المدني، أحمد، حرب الثلاثمائة سنة بين الجزائر واسبانيا، ص ١٦١.

[2] ابن ابي الضياف، ج٢، ص ١٢؛ العقاد، صلاح الدين، المغرب العربي، ص ١٨.

[3] لمزيد من المعلومات عن القرصنة وتاريخها، انظر: بالحميسي مولاي، الجزائر والغزو البحري في القرن السادس عشر، مجلة تاريخ وحضارة المغرب، كلية الآداب، الجزائر، ع٤، ١٩٦٨م، ص ٧ـ١٨.

الاسلام للعدوان[1]، لذلك فقد انطلق المجاهدون من شواطئ الجزائر لضرب السواحل الاسبانية بهدف اضعاف العدو، وانقاذ الموريسكيين من ربقة الاسبان ومحاكم التفتيش[2].

تمكن الاخوان عروج وبربروسا من الاستيلاء على عدد من السفن الاسبانية الحربية وكان من بينها سفينة على متنها ٣٠٠ جندي اسباني، كما هاجما الاسطول الاسباني في بجاية وأوقعوا به الهزيمة، وغنموا احدى سفنه وفرت بقية السفن[3].

أخذ نفوذ الأخوين المجاهدين يتسع ويشيع بين السكان، فتكاثر من حولهم عدد المجاهدين، وامتلأت ايديهم بالغنائم، واتسعت رقعة تحركهم من جنوب الساحل التونسي إلى شماله فسيف البحر الجزائري إلى تلمسان. وصفق أهل الجزائر سنة ٩٢٢هـ/١٥١٦م ايديهم بالبيعة لعروج ولأخيه بربروسا فكانت أول امارة تركية مستقلة بشمال افريقيا لم تلبث أن تطورت على يد خير الدين بربروسا إلى ولاية عثمانية أخرى بتونس، وثالثة بطرابلس الغرب. واصبح العثمانيون القوة الاسلامية التي يمكنها الوقوف في وجه الاطماع الاسبانية والبرتغالية ولا سيما بعد انهيار سلطة المرينيين في فاس واستلم زمام الحكم فيها وزراؤهم الوطاسيون لكن نفوذ الوطاسيين ظل محصورا في شمال البلاد مما أدى إلى تجرؤ البرتغاليين على احتلال بعض الثغور المغربية على البحر المتوسط والمحيط الأطلسي. الأمر الذي دفع المغاربة إلى الالتفاف حول أحد الفقهاء وهو محمد بن عبد الرحمن الزيداني نظرا لكفايته الحربية ونسبه القرشي وبايعوه أميرا للمؤمنين سنة ٩١٥هـ/١٥١٠م فكان أول الملوك السعديين[4] . وسمي باسم محمد المهدي الشيخ.

---

(١) بالحميس مولاي، ص ١٠.

(٢) التميمي، عبد الجليل، الدولة العثمانية وقضية الموريسكيين، ص ١٦.

(٣) د. نبيل عبد الحي، رضوان، جهود العثمانيين، ص ٢٨١.

(٤) د. محمد حجي، العلاقات المغربية التركية في القرن السادس عشر، ص ٨.

يبدو الطابع الديني واضحا في غزوات بابا عروج وأخيه خير الدين، فقد أشـــار إلى ذلك مؤلف مجهول عاصر غزواتهما بقوله " وقد أخلص عروج نيته في الجـهاد بائعا نفسه لله تعالى هو ومن معه من المسلمين[1]، عملا بقوله تعالى "إن الله اشترى مـــن المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة، يقاتلون في سبيل الله فيقتلون ويقتلون"[2] وقولـه تعالى "كم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة باذن الله، والله مع الصابرين"[3] ويتجلى الطـــابع الديني أيضا في معاملة الأسرى النصارى، إذ كثيرا ما نجد أن عروج وأخاه خير الديـــن يرفضان الأموال الطائلة التي تعرض عليهما مقابل الافـــراج عـــن الأســـرى: "وأعلـــم النصارى خير الدين بوصول المال إليه فجمع فقهاء الجزائر واستفتاهم في ذلك فـــاتفقت فتياهم على عدم جواز فداء الأسرى بالمال"[4]. يكتنف الغموض تاريخ عروج في مراحـل نشاطه الأولى، حيث قيل أنه مارس الغزو البحري منذ سن مبكرة في منطقة الأرخبيل[5]، وقد كان للغزو البحري في هذه المنطقة تقاليد عريقة صبغت بالصبغة الاسلامية، ولا سيما بعد فتح العثمانيين للقسطنطينية عام ٨٥٧هـ/١٤٥٣م، ووصولهم إلى مشـــارف مدينـة البندقية في أواخر القرن الخامس عشر الميلادي. لقد احتل الاسبان والبرتغاليون معظـــم السواحل المغربية، في مطلع القرن السادس عشر، عند ذلك اتجهت أنظار سكان المغـرب إلى عروج وأخيه خير الدين، لانقاذهما من الاحتلال الأجنبي[6]، وقد كانت مدينة بجايـــة أولى المدن التي تستنجد بهما لتحريرها من الاسبان[7]. لبى الأخوان المجـــاهدان دعــوة

---

(١) بلحميسي، مولاي، الجزائر والغزو البحري في القرن السادس عشر، ص ١١ــ١٢، نقلا عن كتـــاب غزوات عروج وخير الدين لمؤلف مجهول.

(٢) سورة التوبة، آية ١١١.

(٣) سورة البقرة، آية ٢٤٩.

(٤) انظر: مولاي بلحميسي، الجزائر البحري في القرن السادس عشر، ص ٣٩ــ٤٠، نقلا عن كتاب غزوات عروج وخير الدين لمؤلف مجهول.

(٥) ابن ابي الضياف، اتحاف أهل الزمان، ص ٩ــ١٠؛ اشنهو، عبد الحميد، دخول الاتراك العثمـــانيين، الجزائر، ص٣٧ــ٤٠؛ Yver. G, "Arudj" Encyclopaedia of Islam, E. 1. 2 Vol. p. 471.

(٦) أحمد ، ابراهيم خليل، تاريخ الوطن العربي في العهد العثماني، ص ٤٧ــ٤٨؛ وانظر:

- Yver. G. "Arudj", Encyclopaedia of Islam, E. 1, 2 Vol. p 471.

(٧) ابن ابي الضياف، اتحاف أهل الزمان، ص ١٠ــ١١.

مدينة بجاية، وانطلقا في جهادهما في غرب حوض البحر الأبيض المتوسط، وأصبح لديهما عام ٩١٦هـ/١٥١٠م[١] أسطولا يضم أكثر من عشر سفن.

عقد بابا عروج اتفاقا مع السلطان الحفصي محمد بن الحسين (٩٠٠-٩٣٣هـ/١٤٩٤-١٥٢٦م)، منح السلطان بموجبه جزيرة جربة لعروج كي يتخذ منها قاعدة له مقابل أن يقدم عروج للسلطان خمس الغنائم التي يحصل عليها[٢] وخلال عامي ٩١٤-٩١٥هـ/١٥٠٨-١٥٠٩م نال عروج سمعة طيبة في الشمال الافريقي، وذلك بسبب غاراته الجريئة، وضرباته المؤلمة على شواطئ اسبانيا، ولأنه تمكن من نقل عدد كبير من الموريسكيين إلى شمال افريقيا[٣]، وقد قدر عدد الموريسكيين الذين ساهم عروج بنقلهم بحوالي عشرة آلاف مهاجر[٤]، كذلك فقد هاجم عروج مدينة بجاية عدة مرات لتحريرها من الاسبان، ولكن دون جدوى[٥]، وفي عام ٩٢٠هـ/١٥١٤م استطاع عروج أن يسيطر على ميناء جيجل الواقع شرق مدينة الجزائر، حيث اتخذه قاعدة له بدلا من جزيرة جربة، وذلك بسبب خلافه مع السلطان الحفصي الذي امتنع عن امداده بالبارود اثناء حصاره لمدينة بجاية خوفا "على ملكه المشرف على الانقراض"[٦].

انتهز سكان مدينة الجزائر وزعيمهم سالم التومي فرصة وفاة الملك الاسباني فرديناند عام ٩٢٢هـ/١٥١٦م، وطلبوا مساعدة عروج، الذي هب لمساعدتهم، حيث أحتل

---

[١] فارس، محمد خير، تاريخ الجزائر، ص ٢٤.

- Yver. G. “Arudj”, Encyclopaedia of Islam, E. 1, 2 Vol. p 471.

[٢] ابن ابي الضياف، اتحاف أهل الزمان، ج٢، ص ١١.

[٣] فارس، محمد خير، تاريخ الجزائر، ص ٢٤، وأنظر:

- Yver. G, “Arudj”, Encyclopaedia of Islam”, E. 1, 2 Vol, p 471.

[٤] اشنهو، عبد الحميد، دخول الأتراك العثمانيين، الجزائر، ص ٤٤.

[٥] رافق، عبد الكريم، العرب والعثمانيون، ص ٧٦.

[٦] ابن ابي الضياف، اتحاف أهل الزمان، ج٢، ص ٢١.

حصن البنيون (Penon) الذي كان بمثابة خنجر في خاصرة المدينة[١]، ثم سيطر بعد ذلك على مليانه وتنيس وتلمسان، وأقام علاقات وثيقة مع بعض القبائل المجاورة له، حيث زودها بالحبوب أوقات المجاعات[٢]. أدرك الاسبان أن قوات عروج باتت تشكل تهديدا خطيرا لوجودهم الاستعماري في الشمال الافريقي، لذلك أصدر الامبراطور شارل الخامس[٣] (٩٢٣ـ٩٦٤هـ/١٥١٧ـ١٥٥٦م) أوامره إلى حاكم وهران الاسباني ماركيز (De Marques) بالتقدم نحو تلمسان، والعمل على طرد قوات عروج منها، فتوجه حاكم وهران على رأس قوة بلغت خمسة عشر ألف مقاتل، تمكنت من محاصرة عروج في مكان يقع قرب وادي الملح بين وهران وتلمسان، وقد اسفرت المعركة عن مقتل عروج ٩٢٤هـ/١٥١٨م وتشتت أتباعه[٤].

ومما يجدر ذكره أن المورِيسكيين كانوا يشكلون أقلية في الشمال الافريقي، والتي قدرت حسب ما ذكره هيدو (Haedo) بحوالي خمسمائة شخص وقد تضاعف عددهم بوضوح أثناء ادارة خير الدين للجزائر، وقد لعبوا دورا فاعلا ومؤثرا إلى جانب عروج

---

[١] انظر الرسالة التي وجهها أهل الجزائر إلى السلطان سليم الأول؛ التميمي، عبد الجليل، أول رسالة من أهالي مدينة الجزائر إلى السلطان سليم الأول سنة ١٥١٩م، المجلة التاريخية المغربية، تونس، عدد ٦، ١٩٧٦، ص١١٦ـ١٢٠. وانظر:

- Yver. G. "Arudj", Encyclopaedia of Islam, E, 1. 2 Vol. p. 471.

[٢] ابن ابي الضياف، اتحاف أهل الزمان، ج٢، ص ١١ـ١٢؛ رافق، عبد الكريم، العرب والعثمانيون، ص ٧٧.

[٣] شارل الخامس: يعرف أيضا بشارل الأول والده هو ضون فيليب الجميل ارشيد وق النمسا، وابن الامبراطور مكسيميليان، أما والدته فهي ضونيا خوانا المعتوهة، كانت ولادته عام ٩٠٦هـ/١٥٠٠م في بلجيكا، تولى عرش اسبانيا عام ٩٢٣هـ/١٥١٧م، واستمر حتى عام ٩٦٤هـ/١٥٥٦م، وكانت وفاته عام ١٥٥٨م. لمزيد من المعلومات عن حياته وموقفه من الموريسكيين، انظر: حتاملة، محمد عبده، الملك شارل الأول وموقفه من الموريسكيين إبان زيارته لغرناطة عام ١٥٢٦م، مجلة دراسات، الجامعة الأردنية، عمان، م٩، عدد ٢، ١٩٨٢، ص ٨٧ـ١٠١.

[٤] التميمي، عبد الجليل، أول رسالة من أهالي مدينة الجزائر إلى السلطان سليم الأول سنة ١٥١٩م، ص ١١٦؛ فارس، محمد خير، تاريخ الجزائر، ص ٢٧. وانظر:

- Yver. G. "Arudj", Encyclopaedia of Islam, E.1. 2 Vol. pp 471-472.

في معاركه ضد الاسبان[1]، وذلك لأسباب عدة منها معرفتهم طبيعة المنطقة، واتقانهم للغة الاسبانية القديمة (القشتالية) وقد رتهم على التزيي بالزي الاسباني، إضافة إلى الحقد الدفين الذي يملأ قلوبهم، لأنهم عاشوا القمع ورأوه بأم أعينهم.

خلف خير الدين بربروسا أخاه عروج في ادارة شؤون البلاد، وقد أدرك منذ البداية ضعف موقفه السياسي، وشح امكاناته العسكرية، حيث أنه كان محاطا بعدد لا يستهان به من الاعداء، هم بقية بني زيان وأنصارهم في تلمسان، وبنو حفص في تونس، والقوات الاسبانية الموجودة في المناطق الساحلية[2]، وكانوا جميعا يتربصون به الدوائر، ويعدون العدة للانقضاض عليه واخراجه من البلاد. يتضح ذلك مما أورده ابن ابي الضياف بشأن المحادثات التي جرت بين خير الدين وأهالي مدينة الجزائر لتقييم الوضع في المنطقة بعد استشهاد عروج، حيث يقول خير الدين لأهالي المدينة "لقد رأيتم ما فعله بنا صاحب تلمسان من بني زيان، واستعانته علينا بغير أهل ملتنا حتى كفانا الله أمره. وصاحب تونس الحفصي الذي له رأي في نصرنا واعانتنا، وأسلمنا للعدو وبمنع البارود، لولا لطف الله"[3]. يضاف إلى ذلك كله أن خير الدين كانت تنقصه الذخيرة الحربية والامكانات البشرية، كما أنه لم يكن يحظى ــ أول الأمر ــ بما حظى به أخوه عروج من تأييد شعبي عارم[4].

إن هذه العوامل مجتمعة جعلت خير الدين يستنجد بالسلطان العثماني سليم الأول (٩١٨ــ٩٢٦هــ/١٥١٢ــ١٥١٩م)[5]، فقد استقبل السلطان سليم عددا من السفارات

---

[1] التميمي، عبد الجليل، الدولة العثمانية وقضية الموريسكيين، ص ١٥.

[2] رافق، عبد الكريم، العرب والعثمانيون، ص ٧٣ــ٧٧؛ فارس، محمد خير، تاريخ الجزائر، ص ٢٩.

[3] ابن ابي الضياف، اتحاف أهل الزمان، ج٢، ص ١١.

[4] التميمي، عبد الجليل، أول رسالة من أهالي مدينة الجزائر إلى سليم الأول سنة ١٥١٩م، ص ١١٦.

[5] سليم الأول: هو سليم بن السلطان بايزيد الثاني بن السلطان محمد، تاسع السلاطين العثمانيين ولد عام ٨٧٢هــ/١٤٦٧م، كان في أواخر عهد أبيه واليا على سنجق طرابزون، تولى العرش عام ٩١٨هــ/١٥١٢م، واستمر في الحكم حتى وفاته في الاستانة عام ٩٢٦هــ/١٥١٩م. وبذلك تكون مدة حكمه تسع سنين وثمانية أشهر. لمزيد من المعلومات عن حياته وأعماله انظر: J. H. Kramers "سليم الأول"، دائرة المعارف الاسلامية، م١٢، ص ١٢١-١٣١.

الجزائرية كان أهمها تلك التي ترأسها العالم أبو العباس بن أحمد بن قاضي والتي أحاط فيها السلطان علما بوضع الايالات المغربية وصراعها مع اسبانيا، وما نزل بالمسلمين في الاندلس من محن، وظلم محاكم التفتيش التي كانت تسعى لإبادة الوجود الحضاري للمسلمين في الاندلس. وسلمت السفارة رسالة إلى السلطان سليم، وهذه الوثيقة عبارة عن رسالة موجهة من سكان مدينة الجزائر قاطبة إلى السلطان العثماني سليم الأول[1]، ويبدو أن هذه الرسالة كتبت بإيحاء من خير الدين بربروسا، والرسالة تفيض بالولاء العميق للدولة العثمانية، والاجلال والتعظيم للسلطان العثماني، وتؤكد الرغبة الأكيدة لسكان مدينة الجزائر في الاعتماد على دعم الدولة العثمانية في جهادهم مع النصارى. وتشيد الرسالة بما قام به عروج لأنه كان "ناصر الدين وحامي المسلمين المجاهدين في سبيل الله"[2] إلى أن سقط شهيدا في حرب تلمسان، حيث خلفه أخوه "المجاهد في سبيل الله أبو التقى خير الدين، وكان له خير خلف، فقد دافع عنا ولم نعرف منه إلا العدل والانصاف واتباع الشرع النبوي الشريف، وهو ينظر إلى مقامكم العالي بالتعظيم والاجلال ويكرس نفسه وماله للجهاد لرضاء رب العباد واعلاء كلمة الله، ومناط آماله سلطنتكم العالية مظهرا اجلالها وتعظيمها، على أن محبتنا له خالصة، ونحن معه ثابتون، يقود الجهاد معنا بنية وقلب صادق متفق الكلمة معنا في الشدة والرخاء لاعلاء كلمة الله، فالعقيدة الايمانية كوكب وهاج ودليل واضح المنهاج..."[3]. وتذكر الرسالة أن خير الدين كان ينوي الذهاب إلى الآستانة، كي يوضح للسلطان العثماني أبعاد قضية الجزائر، ولكن سكان الجزائر توسلوا إليه أن يبقى في المدينة حتى لا يؤخذوا على حين غرة من قبل أعدائهم[4]، ويؤكد ذلك ما ذكره ابن أبي الضياف، حيث يقول أن علماء وأعيان المدينة لم يوافقوا على أن يتوجه خير الدين بنفسه إلى الاستانة وقالوا له "يجب عليك المقام بهذه البلدة الاسلامية لحمايتها، ولا رخصة لك في تركها نهبة للمفترس"[5]. وقد أشارت الرسالة إلى أنه وقع اختيار أهل الجزائر على: "الفقيه العالم المدرس أبو العباس أحمد بن علي بن

---

(1) المرجع نفسه، ص ١١٩.

(2) المرجع نفسه، ص ١٢٠.

(3) المرجع السابق، ص ١٢٠.

(4) المرجع نفسه، ص ١٢٠.

(5) ابن ابي الضياف، اتحاف أهل الزمان، ج٢، ص ١١.

أحمد بن قاضي" ليرأس الوفد نيابة عن خير الدين بربروسا إلى الباب العالي مقر السلطان العثماني[1].

رحب السلطان العثماني سليم الأول بولاء خير الدين وأهل الجزائر، كما أنه أنعم على خير الدين بلقب باشا ورتبة (بك البكوات)[2] ومعناها أمير الأمراء، وهي رتبة تخول صاحبها اختصاصات ادارية وعسكرية واسعة، وأكد السلطان اجراءه هذا باجراءات فعلية، وذلك عندما أرسل اليه ألف جندي وأربعة آلاف متطوع بمعداتهم الحربية[3]، وسمح السلطان لمن يشاء من رعايا الدولة العثمانية بالتوجه إلى الشمال الافريقي، والانخراط في صفوف المجاهدين، وقرر منح هؤلاء المتطوعين الذين يذهبون للجهاد في الشمال الافريقي الامتيازات المقررة للجند النظامي ويعتبر هذا الاتصال بين خير الدين والسلطان سليم الأول بداية انضمام الجزائر إلى الدولة العثمانية، حيث ربطت الأمور المتعلقة بالجزائر منذ ذلك الوقت بالدولة العثمانية وأصبحت الجزائر قاعدة للحكم العثماني في المغرب العربي، وقاعدة لاستعادة الاندلس[4].

بعد أن تمكن خير الدين من توطيد دعائم الأمن الداخلي في البلاد، قرر طرد الاسبان وتطهير الجيوب التي كانوا يحتلونها على سواحل الجزائر، حيث ضم إليه قالة وعنابة في شرق الجزائر، ثم حقق نصرا باهرا على الاسبان عندما تمكن عام

---

[1] التميمي، عبد الجليل، أول رسالة من أهالي مدينة الجزائر إلى السلطان العثماني سليم الأول، سنة ١٥١٩م، ص١٢٠.

[2] رافق، عبد الكريم، العرب والعثمانيون، ص ٧٧؛ المدني، احمد توفيق، حرب الثلاثمائة سنة بين الجزائر واسبانيا، ص ١٩٨؛ فارس محمد خير، تاريخ الجزائر، ص ٥٥؛ وانظر أيضا The Ottoman Centuries, p. 218.

[3] رافق، عبد الكريم، العرب والعثمانيون، ص ٧٧؛ الجزايرلي يوسف، أرض البطولة الجزائر، ص٣٤٤؛ الراقد، محمد، الغزو العثماني لمصر، ص ٢٤١.

[4] الشناوي، عبد العزيز، الدولة العثمانية دولة مفترى عليها، ص ٩١١؛ عبد الرحيم عبد الرحمن عبد الرحيم، "النظم الادارية العثمانية في البلدان العربية وأثرها في العلاقات العربية العثمانية، ١٥١٧ـ١٧٩٨م، ص ١٠١. وانظر: إيفر G. Yver "خير الدين" دائرة المعارف الاسلامية، م ٩، ص ٦٤ـ٦٩؛ نبيل عبد الحي، جهود العثمانيين، ص ٢٩٨ـ٢٩٩.

٩٣٦هـ/١٥٢٩م من الاستيلاء على حصن بينيون (Penon) الذي أقامه الاسبان في مواجهة مدينة الجزائر[١] وإذا كان عام ٩٢٥هـ/١٥١٩م يعد بداية وصول النفوذ العثماني إلى الشمال الافريقي، فإن استيلاء خير الدين بربروسا على حصن بينيون يعد بداية لتأسيس ما عرف باسم نيابة الجزائر، حيث تحولت مدينة الجزائر منذ ذلك الحين إلى عاصمة كبرى للمغرب الأوسط، وأصبح مصطلح الجزائر يستخدم للدلالة على اقليم المغرب الأوسط.

أوقع خير الدين بربروسا ضربات موجعة "ببلاد النصارى وجزائرهم"[٢] فقد غزا سواحل اسبانيا وايطاليا وجزر الحوض الغربي في البحر الأبيض المتوسط، حيث استولى على غلات البلاد، ودمر بعض المدن الساحلية، وذلك انتقاما من النصارى، وعقابا لهم على سوء معاملتهم لمسلمي الاندلس[٣].

أصبح خير الدين بربروسا من أعظم أمراء البحر في هذا العصر، حيث التف حوله معظم المجاهدين والمتطوعين من المغاربة والاتراك والموريسكيين. وما يهمنا من أعمال خير الدين هو غاراته الجريئة المتواصلة على الشواطئ الاسبانية، وذلك استجابة لاستغاثات الموريسكيين المتكررة، فقد عمل على انقاذهم من ربقة الاسبان ورجال الكنيسة ومحاكم التفتيش، كما أنه ساهم في تسهيل هجرتهم إلى سواحل الشمال الافريقي، فقد ذكر حاجي خليفة أن خير الدين استطاع عبر سبع رحلات أن يوجه ستا وثلاثين سفينة إلى السواحل الاسبانية قامت بنقل سبعين ألفا من الموريسكيين، وكان ذلك في عام

---

[١] فارس، محمد خير، تاريخ الجزائر، ص ٣٢؛ التميمي، عبد الجليل، الدولة العثمانية وقضية الموريسكيين، ص١٥، ٢٩؛ الراقد، محمد، الغزو العثماني لمصر، ص ٢٤١.

[٢] بلحميسي، مولاي، الجزائر والغزو البحري في القرن السادس عشر، ص ٤ (نقلا عن مجهول، غزوات عروج وخير الدين)، ص ١٨ــ١٩.

[٣] بلحميسي، مولاي، غارة شارل الخامس على مدينة الجزائر بين المصادر الاسلامية والمصادر الغربية، ص ٣٧.

٩٣٦هـ/١٥٢٩م[١]، وينسجم ما ذكره حاجي خليفة مع ما ذكره مؤلف مجهول في كتابه "غزوات عروج وخير الدين" حول اعداد الموريسكيين الذين نقلهم خير الدين إلى سواحل شمال افريقيا[٢].

أرسل خير الدين في العام نفسه مجموعة من سفنه بقيادة نائبيه التركيين ايدين رايس وصالح رايس، لنجدة مسلمي بلنسية، وأسفرت هذه العملية الجريئة عن انقاذ ٦٠٠ موريسكي كانوا ينتظرون النجدة عند نهر افيلا (Avila) وقد عادت هذه السفن إلى الجزائر، رغم اعتراضها من قبل السفن الحربية الاسبانية، حيث اشتبك الطرفان في معركة بحرية ضارية بمياه الجزائر الشرقية (البليار)[٣].

وعندما علم السلطان سليمان القانوني بان الاسطول الامبراطوري الالماني الاسباني، بقيادة اندريا دوريا Andrea Doria، الجنوبي قد عبر مضيق مسينا (في صقلية) واحتل قورونة Coron في جنوب اليونان محاولا اشغال السلطان العثماني الذي كان يحاصر Günus أمام فينا، ارسل السلطان اسطوله لمقابلة دوريا لكن هذا الاسطول فشل في استعادة قورونة، لذلك استدعى السلطان خير الدين بربروسا إلى استامبول فاستجاب بربروسا للدعوة وحضر إلى استامبول في اسطول من ٤٠ سفينة وقدم الطاعة للسلطان حيث عينه السلطان في منصب Kapudan Pasha (قائدا للأسطول العثماني). وبالفعل عمل بربروسا على تقوية الاسطول العثماني بحيث تمكن هذا الاسطول من بسط سيطرته على شواطئ البحر الأبيض المتوسط. وفي الوقت نفسه استغل حلف الدولة العثمانية مع فرنسا

---

[١] خليفة، حاجي، تحفة الكبار في أسفار البحار، ص ٤٠؛ الصباغ، ليلى، "ثورة مسلمي غرناطة عام ٩٧٦هـ، أو أواخر سنة ١٥٦٨م، والدولة العثمانية ، ص ١٤١؛ والتميمي، الدولة العثمانية وقضية الموريسكيين، ص ١٦.

[٢] السعيدوني، ناصر الدين، الجالية الاندلسية بالجزائر مساهمتها العمرانية ونشاطها الاقتصادي ووضعها الاجتماعي، ص ١١٤ (نقلا عن مجهول غزوات عروج وخير الدين، ص ٤٨، ٨٢؛ عنان، محمد، نهاية الاندلس، ص ٣٧٨.

[٣] عنان، محمد عبد الله، تاريخ الاندلس، ص ٣٧٨؛ وانظر: السعيدوني، ناصر الدين، الجالية الاندلسية بالجزائر، ص١١٤.

(عدوة اسبانيا) سنة ١٥٣٦م. فعبر بربروسا باسطوله الجديد مضيق الدردنيل إلى البحر المتوسط إلى السواحل الايطالية وكان هذا الاسطول يحتوي على سفن حربية قوية ومدمرات سريعة(١).

إن النجاح الذي حققه خير الدين في إقامة ولايته بالجزائر، والدعم والإسناد الذي لقيه من قبل السلطان العثماني سليمان القانوني، شجعه على المضي قدما في جعل الشمال الافريقي كله قاعدة عثمانية، وذلك لصد أي هجوم اسباني محتمل(٢)، ولتحقيق التفوق العثماني في حوض البحر الأبيض المتوسط الغربي، وهذا ما يفسر قيام خير الدين بعد عودته من الآستانة صيف عام ٩٤١هـ/١٥٣٤م باحتلال تونس واعلان تبعيتها للدولة العثمانية بعد أن هرب أميرها الحفصي مولاي حسن، وبذلك ضمن تأمين سلسلة من الموانئ على طول ساحل المغرب العربي من جبل طارق حتى طرابلس مما يضمن له أيضا السيطرة على البحر الأبيض المتوسط(٣).

عندما علم الامبراطور شارل الخامس بنشاطات الاسطول العثماني جهز اسطولا كبيرا من أربعمائة سفينة بقيادة اندريا دوريا بالاضافة إلى قوات اسبانية والمانية وايطالية في صيف سنة ١٥٣٥ وضرب الحصار على تونس لمدة ٢٤ يوما منيت القوات الامبراطورية فيها بخسائر فادحة أمام الدفاع العنيد الذي ابداه العثمانيون والمغاربة، لكن المدينة سقطت في النهاية ودخل الامبراطور المدينة حيث جرت فيها مذبحة لمدة ثلاثة أيام، كما جرى النهب والسلب وأعاد السلطان مولاي حسن الحفصي بحيث يكون تابعا له، وكان هذا السلطان قد تحالف مع الاسبان وأبقى فيها حامية اسبانية ولقيت هذه الحملة صدى في العالم الأوروبي حيث أعلن شارل الخامس بأنه فاتح(٤). وفي طريق عودته إلى اسبانيا هاجم الأسطول الاسباني عنابة ونصب عليها حاكما اسبانيا الدون افازدفال وأبقى

---

(1) The Ottoman Centuries, p. 219.

(٢) في عام ٩٤١هـ/١٥٣٤م سلم السلطان سليمان خير الدين: "علما وصولجانا وسيفا، كعلامة تشريفاتية مذكرا إياه أنه سلمه ذلك لغرض القيام بأعمال جليلة"؛ انظر: التميمي، عبد الجليل، الدولة العثمانية وقضية الموريسكيين، ص ١٦.

(٣) التميمي، عبد الجليل، الدولة العثمانية وقضية الموريسكيين، ص ٣٠؛ وانظر أيضا The Ottoman Centuries, p. 220.

(4) The Ottoman Centuries, p. 221-227.

معه ألفا من المشاة الجنوبيين لتكون قاعدة يشن الغارات المفاجئة على الجهات الداخلية المحيطة بعنابة إلا أن هذه الحامية انسحبت من المدينة على أثر موت قائدها، بعد تدمير حصونها[1].

لم تثن هذه الهزيمة من عزيمة بربروسا فانسحب بقسم من اسطوله وقواته إلى بون (في الجزائر) حيث كان يرابط قسم من اسطوله الاحتياطي ومن هناك أبحر في اتجاه جزر البليار، وكان هذا الهجوم مفاجأة لدوريا والاسبان ودخل جزيرة مينورقة محولا الهزيمة إلى نصر. واستدعي بربروسا ثانية إلى استامبول حيث أمره السلطان ببناء اسطول جديد من مائتي سفينة، ودخل بحر الادرياتيك مدعوما بجيش بري يقوده السلطان عبر البانيا واستطاع بربروسا أن يكتسح الجزر التابعة للبندقية، وعاد إلى استامبول محملا بالغنائم، ولم يتمكن الحلف الاوروبي الذي دعا له البابا والذي تألف من الاسبان والبنادقة بالاضافة إلى اسطول الامبراطورية، وتجمع اسطول اوروبي كبير، إلا أن هذا الاسطول فشل في مواجهة بربروسا، بل انه انسحب أمام بربروسا سنة ١٥٣٨م وانفرط عقد التحالف الاوروبي. وكانت النتيجة أن احكم بربروسا سيطرته على البحر الأبيض المتوسط الذي غدا بحيرة عثمانية[2].

ولما كان السلطان قد عين بربروسا قائدا عاما للأسطول العثماني، فقد عين بدلا منه على ولاية الجزائر حسن آغا[3]، عند ذلك ركز خير الدين نشاطه في البحر الأبيض المتوسط، في حين واصل حسن آغا جهود خير الدين في الجزائر، حيث استمر يشن الغارات الضارية على السواحل الاسبانية، وقد أشار إلى هذه الغارات محمد التلمساني الذي عاش في القرن الثامن عشر الميلادي عندما قال "فأنشأ احدى وثلاثين غليوطة... فاشتدت بذلك وطأته على أهل اسبانيا واحتوى على كثير من أجفانهم، وعاث في أطراف سواحلهم، وفعل بهم ما كان يفعله بهم خير الدين أو أكثر"[4].

---

[1] سعيدوني، دراسات وأبحاث في تاريخ الجزائر، ج١، ص ٢٠٦.

[2] The Ottoman Centuries, p. 221-227.

[3] فارس، محمد خير، تاريخ الجزائر، ص ٣٤.

[4] التلمساني، محمد بن محمد بن عبد الرحمن، الزهرة النيرة فيما جرى في الجزائر حين أغارت عليها جنود الكفرة، مجلة تاريخ المغرب وحضارته، عدد ٣، ص ١٥.

غارة الامبراطور شارل الخامس على مدينة الجزائر

٩٤٨هـ/١٥٤١م

بعد أن أحتل الامبراطور شارل الخامس (شارلكان) (ملك اسبانيا) تونس عام ٩٤٢هـ/١٥٣٥م شرع في بناء حلق خلف الوادي (La Goulette)، وبدأ استعداداته للإغارة على مدينة الجزائر. وقد استغرقت هذه الاستعدادات نحو خمس سنوات، أرسل خلالها العيون والخبراء إلى المغرب لدراسة الوضع، واقتراح أفضل السبل لتحقيق بغيته. واستكمل الاستعدادات في أواخر عام ٩٤٧هـ/١٥٤٠م بعد أن أمن له البابا إعانة مالية، وذلك عن طريق كردينال طليطلة، ورئيس أساقفة اشبيلية، وأسقف قرطبة الذين راسلهم لهذه الغاية فاستجابوا له. كما جمع شارل الجيوش من جميع أنحاء الامبراطورية[١]، مما يدل على أن شارل أعد لهذه الحملة أعدادا كبيرا.

وقد جمع الامبراطور شارل الخامس في ميناء ماهون (Mahón) بجزيرة مينورقة أسطولا كبيرا من السفن الحربية وسفن النقل، وقاد هذا الاسطول بنفسه يرافقه عدد من كبار القادة مثل اندرية دوريا وكورتيز، وكان برفقته عدد من كبار القادة الذين جاؤوا على رأس جنود محنكين مدربين تجمعوا من ألمانيا وايطاليا واسبانيا ومالطه وغيرها من بلاد النصارى. وكان هذا الاسطول من أكبر التجمعات البحرية المقاتلة في القرن السادس عشر[٢].

وكانت الجزائر تابعة للحكم العثماني، وكان حاكمها في أيام السلطان العثماني سليمان القانوني (٩٢٧ـ٩٧٤هـ/١٥٢٠ـ١٥٦٦م) حسن آغا، خليفة خير الدين في حكم الجزائر، بعد أن التحق خير الدين بالقسطنطينية. وقد استعان حاكم الجزائر بعدد من زعماء المدينة وشيوخها لرد الغزاة، واستقدم المهجرين من بلنسية، وجمع جيشا بلغ تعداده نحو عشرة آلاف وخمسمائة رجل منهم ثمانية آلاف من الاندلسيين الذين كانوا قد قدموا من بلنسية وغرناطة[٣] .

---

[١] مولاي بلحميسي، غارة شارل الخامس على مدينة الجزائر سنة ٩٤٨هـ/١٥٤١م، مجلة تاريخ وحضارة المغرب عدد ٦، ٧، كلية الآداب، الجزائر، ١٩٦٩، ص ٤٢.

[٢] مولاي، بلحميسي، ص ٤٢.

[٣] المرجع نفسه، ص٤٢.

وأخذ الجزائريون يترقبون وصول الاسطول الاسباني الذي أبحر من ماهون (أو قرطاجنة في رواية أخرى) قاصدا وهران التي كانت تحت الاحتلال الاسباني، وظهرت طلائعه في مياه الجزائر يوم الاربعاء ٢٧ جمادي الثانية/٩٤٨هـ/١٩ تشرين الأول ١٥٤١م.

وقد قام حسن آغا بتنظيم المقاومة، وتحصين المراكز الاساسية في المدينة فأصلح الابراج ونصب عليها المدافع، ثم خطب في الناس حاثا إياهم على الصمود والكفاح، ووزع عليهم السلاح والذخيرة، ونظم الحراسة[1] على أبواب المدينة.

وفي يوم الأحد ٢٣ تشرين الأول نزل العدو في المكان المعروف بالحامة، فتقدم المسلمون لمنعهم من النزول إلى البر، إلا أن جنود النصارى رموهم بالمدافع من البحر فأبعدوهم، ثم نزلوا وأنزلوا اسلحتهم وتركوا الطعام والذخائر في المراكب ظنا منهم بأن الاستيلاء على المدينة لن يستغرق سوى فترة قصيرة. وأقاموا مخيما ليقضوا فيه بقية نهارهم وليلتهم.

وفي الليل فاجأ أحد زعماء المسلمين الترك بالجزائر هو الحاج باشا جيش النصارى بهجوم خاطف حيث انقض عليهم بقوة من المقاتلين والفرسان، وقتل منهم نحو ثلاثة آلاف[2].

وفي اليوم التالي تقدم النصارى بأعداد كبيرة كالنمل نحو المدينة، وكان في طليعتهم الاسبان ثم الألمان يتقدمهم الامبراطور نفسه، ثم تبعتهم عساكر مالقة وصقلية وفرنسا ومالطه (فرسان القديس يوحنا). وعندما وصلوا إلى مشارفها نصبوا المدافع وقصفوا المسلمين فردوا عليهم من أعالي الأسوار مستخدمين المدافع وبنادق الرصاص والسهام. وبعد فترة من القتال الشديد رجع الاسبان إلى رأس تافورة بقرب باب عزون، واستأنفوا القصف، غير أن المسلمين لم يتوانوا عن الرد[3].

---

(1) بلحميسي، ص ٤٥.

(2) المرجع نفسه، ص ٤٥.

(3) المرجع نفسه، ص ٤٨.

وفي يوم الثلاثاء ٢٥ تشرين الأول هبت عواصف شديدة، وسقطت أمطار غزيرة وهاج البحر. وقد تسببت هذه الأحوال الجوية العنيفة في تحطيم عدد كبير من سفن الأعداء. ورفع ذلك من معنويات المسلمين كثيرا فخرجوا بعزيمة قوية لقتال النصارى والتحموا معهم في رأس تافورة، وقتلوا منهم عددا كبيرا. وفي صباح اليوم التالي قرر الاعداء الانسحاب بعد أن أدركوا أنهم لن يستطيعوا دخول المدينة. وقتل في هذه المعركة أكثر من أربعة آلاف من جيش الامبراطور واستشهد مائتان من المسلمين[1].

وقد عانى النصارى أثناء انسحابهم معاناة كبيرة لكثرة الجرحى والمرضى في صفوفهم، وبسبب الجوع والبرد والوحل ومطاردة المسلمين لهم. وفي يوم السبت ٢٩ تشرين الأول تمكنوا من الوصول إلى تمانتفوس، ومنها غادروا في بقايا اسطولهم وفي ما استصلحوه من سفنهم إلى بجاية التي كانت تحت الاحتلال الاسباني، ووصلوها يوم الجمعة ٤ تشرين الثاني من العام نفسه (١٥٤١م) فوجدوها تقاسي أيضا من الجوع، فاضطروا إلى أكل الكلاب والقطط والأعشاب. كما أنهم هاجموا الجالية اليهودية في بجاية، واستولوا على أموالها، ثم شردوا افرادها.

وبعد أيام أبحر شارل الخامس إلى ميورقة، ومنها توجه ببعض قواته إلى قرطاجنة الاسبانية حيث وصلها في الثاني من كانون الأول ١٥٤١م، بينما توجه بعضها الآخر إلى صقلية.

كانت نتيجة مغامرة شارل تمثل كارثة كبيرة له وللامبراطورية، كما كانت هزيمة شخصية له أيضا. وقد أسفرت هذه الغارة عن خسائر جسيمة مني بها الامبراطور شارل الخامس وجيشه، في الوقت الذي عظم فيه شأن حسن آغا الذي كافأه السلطان العثماني بأن أوكل إليه نيابة الجزائر، وجعله من جملة وزرائه.

---

(١) بلحميسي، ص ٤٨، ٤٩؛ التميمي، الدولة العثمانية وقضية الموريسكيين، ص ٣١.

وبهذا النصر اتسعت دائرة نفوذ الأتراك داخل البلاد، وراحوا يهاجمون المناطق المجاورة ويضمونها إلى دائرة نفوذهم، التي امتدت لتشمل معظم ساحل المغرب الغربي، كما نتج عن هذه المعركة ضعف الوجود الاسباني، بحيث أخرجهم العثمانيون من طرابلس سنة ١٥٥٢م ومن بجاية سنة ١٥٥٥م ومن تونس سنة ١٥٧٠م[١].

ولعل من أبرز النتائج التي تمخضت عن هزيمة شارل الخامس، هو فشل المخطط الاسباني الذي كان يهدف إلى احتلال سواحل البحر الأبيض المتوسط بصفة عامة، واحتلال مدينة الجزائر بصفة خاصة وذلك لخنق فرنسا والحاق الهزيمة بها، وخاصة بعد أن أصبحت موانئ ايطاليا واسبانيا ومالطة وسردانية ووهران ومليلة في يد شارل الخامس. كما كان من نتائجها وقوع المئات من الأسرى في يد المسلمين، كما غنم المسلمون المئات من الخيل وذخائر الحرب و ١٦ غليوطة و ١٤٠ جفنا وأنواعا أخرى من السفن ومدفعية ثقيلة (حوالي ٢٠٠ مدفع) وآلات حصار بالاضافة إلى الأموال وأشياء أخرى نفيسة. ولم يعد مع الامبراطور سوى ١٢ سفينة من أصل ٧٥٠ سفينة اشتركت في المعركة.

وبسبب هذه الهزيمة أيضا تخلى حلفاء الامبراطور الاسباني عنه، ولم يبق حليفا له سوى هنري الثالث ملك انجلترا. وأما ملك الدنمارك وملك اسكندنافيا وغيرهما فقد انضموا إلى ملك فرنسا الذي عقد معاهدات صداقة وتعاون مع السلطان العثماني.

ومن الجدير بالذكر أن أهالي مدينة الجزائر فرحوا فرحا عظيما بهذا النصر، كما فرح أبناء الجالية اليهودية فيها، فقد كان اليهود حاقدين بشدة على الاسبان الذين اضطهدوهم عندما كانوا باوروبا، وأذاقوهم ألوانا من العذاب.

وقد ترتب على هزيمة الامبراطور شارل الخامس في الجزائر نتائج وخيمة على الامبراطورية كلها، فقد قوي التحالف الفرنسي العثماني، فأرسل السلطان العثماني اسطولا من مائة سفينة بقيادة بربروسا مع مبعوث فرنسي إلى غرب البحر الأبيض المتوسط،

---

(١) The Ottoman Centuries, p. 228، وبلحميسي، ص ٥٢، ٥٣.

وهاجم سواحل نابولي وصقلية، ودب الرعب في روما وبث فيها الفوضى وعزم أهلها على الفرار. ووصل الاسطول العثماني إلى سواحل الريفيرا الفرنسية ورسا في مرسيليا (بموافقة فرنسوا الأول) واعطي بربروسا ميناء له في طولون ثم ملأ الأتراك المدينة، حتى أن الفرنسيين اطلقوا على هذه المدينة القسطنطينية الثانية عندما رأوا الأتراك يسيطرون عليها. حتى أن ملك فرنسا فرانسوا الأول انزعج من هذا الوضع. كما احتل العثمانيون مدينة نيس سنة ١٥٥٤م لكنهم انسحبوا منها وعادوا إلى استامبول، وبعد ذلك بعامين توفي بربروسا[١].

استغاثة الاندلسيين بالسلطان سليمان القانوني:

كان وقع هزيمة شارل الخامس واندحار حملته على الاسبان شديدا مؤلما، خصوصا لدى القادة ورجال الدين الكاثوليك، أما بالنسبة للموريسكيين فقد ساهمت هذه الهزيمة في رفع معنوياتهم، مما دفعهم إلى الاستغاثة وطلب النجدة من الدولة العثمانية، وذلك من خلال رسالة أرسلوا بها إلى السلطان العثماني سليمان القانوني في أوائل شهر شعبان عام ٩٤٨هـ/تشرين الثاني ١٥٤١م[٢]، وهذه الرسالة تمدنا بمعلومات ذات قيمة تاريخية حيث تشير إلى عدد الموريسكسن الموجودين في اسبانيا آنذاك، حيث جاء فيها ما يلي: "ان عبيدك الفقراء الغرباء المنقطعين بجزيرة الاندلس وجملة عدتهم ثلاثمائة وأربعة وستون الفا"[٣]. كذلك فإن الرسالة صورة حية لما كان يلقاه الموريسكيون على أيدي رجال الدين الكاثوليك ومحاكم التفتيش، لذلك فإنهم يضرعون بالشكوى إلى السلطان العثماني مستغيثين، حيث جاء فيها: "ما يلاقون من بلواهم باكين متضرعين مستنصرين بعناية مولانا السلطان دام عزه ونصره لما أصابهم من أعداء الدين وطغاة المشركين"[٤].

---

[1] The Ottoman Centuries, p. 227-228.

[٢] التميمي، عبد الجليل، رسالة مسلمي غرناطة إلى السلطان سليمان القانوني سنة ١٥٤١م، ص ٣٧ـ٤٦.

[٣] المرجع نفسه، ص ٤٥.

[٤] التميمي، عبد الجليل، رسالة من مسلمي غرناطة إلى السلطان سليمان القانوني سنة ١٥٤١م، ص٤٥.

ويتضح لنا من دراسة هذه الرسالة أن الموريسكيين كانوا مطلعين اطلاعا دقيقا على أحداث البحر الأبيض المتوسط، متابعين لما يجري في المنطقة من أحداث وحروب، حيث كانت الأخبار تصلهم بسرعة كبيرة، فلم يكد يمضي شهر واحد على هزيمة شارل الخامس، حتى كانت الأخبار تزف لهم البشرى، بشرى انتصار الجيش الاسلامي على عدوهم شارل الخامس. وقد اثنت الرسالة على جهود خير الدين بربروسا، وأشادت بأعماله العظيمة التي أداها للاسلام والمسلمين، حيث جاء فيها: "وقد كان بجوارنا الوزير المكرم المجاهد في سبيل الله خير الدين وناصر الدين وسيف الله على الكافرين، علم بأحوالنا، فاستغثنا به فأغاثنا، وكان سببا في خلاص كثير من المسلمين"[1].

وإن من يقرأ هذه الرسالة بتأن يلحظ أن مسلمي الاندلس تقدموا من السلطان العثماني بمطلبين أساسيين، أما المطلب الأول، فإنه يتمثل في إرسال الامدادات العسكرية وذلك "لنصرة الجزائر لأنها سياج لأهل الاسلام، وعذاب وشغل لأهل الكفر والطغيان وهي موسومة باسمكم الشريف، وتحت إيالة مقامكم المنيف"[2]، في حين تمثل المطلب الثاني بإعادة تعيين خير الدين بربروسا على ولاية الجزائر، حتى يعمل على صد الهجمات الاسبانية على شواطئ الشمال الافريقي، ويساهم في انقاذ مسلمي الاندلس لأنه "المتمثل لأوامر مولانا، لأنه أحيا هذا الوطن، وأرعب قلوب الكفار وخرب ديار الفجار... فإنه للوطن نعم ناصر، وجميع أهل الشرك منه خايف وحاير"[3]. وبعد وفاة خير الدين برز نجم مجاهد مسلم آخر هو درغوث باشا الذي تمكن من طرد الاسبان من سوسه والمنستير وصفاقس وهاجم سواحل اسبانيا ودمر سواحل بلنسية كما تمكن من تحرير طرابلس بالتعاون مع القائد العثماني سنان باشا سنة ١٥٥١م[4]، وبذلك تعزز الوجود العثماني في ليبيا. أما المغرب (الأقصى) الذي أصبح تحت حكم السعديين فقد اعترف السلطان سليمان القانوني باستقلالهم، وتم الصفاء بين العثمانيين والسعديين، وتفرغ العثمانيون لقتال الاعداء فانتصروا على النمساويين كما فتح اسطولهم جزيرة كورسيكا،

---

[1] المرجع نفسه، ص ٤٥.

[2] المرجع نفسه، ص ٤٦.

[3] المرجع نفسه، ص ٤٦.

[4] نبيل عبد الحي رضوان، جهود العثمانيين، ص ٣٥٧؛ وعنان، نهاية الاندلس، ص ٣٧٢.

لكن هذا الصفاء تعكر بسبب قيام صالح باشا حاكم الجزائر بمهاجمة فاس سنة ٩٦١هـ/١٥٥٤م، بالرغم من تعليمات السلطان سليمان القانوني بالمحافظة على حسن الجوار مع المغرب، وقد مني صالح باشا بهزيمة منكرة. ويرى الحجي أن الغزو العثماني للجزائر كان مدبرا من قبل بعض الباشوات ورجال البلاط للايقاع بين السلطان العثماني والملك السعدي محمد المهدي الشيخ وانتهت بمقتل محمد المهدي غيلة على يد جماعة من الترك حضروا من الأستانة زاعمين أنهم فارون ويرغبون في خدمة الملك السعدي لكن السلام عاد بعد فترة بين العثمانيين والسعديين[١].

توالت الغزوات البحرية للأسطول العثماني على الشواطئ الاسبانية، استجابة لاستغاثات الموريسكيين المتكررة. ففي الفترة الواقعة بين ٩٦٧_٩٧٠هـ/١٥٥٩_١٥٦٢م) شن الأسطول العثماني بقيادة يحيى رايس وطرغود عدة غارات ناجحة على الشواطئ الشرقية لاسبانيا، استطاع من خلالها أن يأسر حوالي أربعة آلاف من النصارى الاسبان، وأن ينقذ أكثر من الفين وخمسمائة من الموريسكيين[٢].

واستمر دعم الدولة العثمانية للموريسكيين في عهد ولاية فليج علي باشا على الجزائر، حيث ارسل الموريسكيون وفدين متتالين إلى فليج علي باشا لاطلاعه على أوضاعهم، وبيان حاجاتهم، كما أرسلوا وفودا بذلك إلى السلطان العثماني نفسه. وقد اسفرت هذه الاتصالات عن مبادرة الصدر الأعظم محمد صوفللي الذي عرف بتقواه بالحصول على فرمان من السلطان إلى بيكلر بك الجزائر فليح علي سنة ١٥٧٠م، يأمره فيها تقديم المساعدة للموريسكيين، كما أبلغ الموريسكيين في الاندلس بذلك. وكان الصدر الأعظم يعد خطة لمهاجمة اسبانيا لمساعدة الموريسكيين الثائرين في غرناطة.

---

[١] الحجي، العلاقات المغربية التركية، ص ١٠_١٤.

[٢] عنان، محمد عبد الله، نهاية الاندلس، ص ٣٧٢؛ ليلى الصباغ، ثورة مسلمي غرناطة، عام ٩٧٦هـ أو أواخر ١٥٦٨م والدولة العثمانية، ص ١٤٢.

واستجاب السلطان العثماني لمشورة الصدر الأعظم فأرسل فرمانا إلى حاكم الجزائر العثماني يأمره فيه بتقديم المساعدة للموريسكيين بكل الوسائل الممكنة كما وجه فرمانا آخر إلى موريسكيي غرناطة يخبرهم بالمساعدة التي ستصلهم من الجزائر على شكل أسلحة ومؤن تقديرا لما أظهروه من همة اسلامية وغيره وتمسكهم بالاسلام والدفاع عنه، ولما أبدوه من شجاعة، كما وعدهم بأن الاسطول العثماني سيتوجه إلى اسبانيا لمساعدتهم بعد أن ينتهي من فتح قبرص. وبالفعل بادر فليج علي باشا بأرسال ست سفن إلى ساحل المرية محملة بالذخيرة والأسلحة و ٢٨ سفينة تحمل الجنود ومع أن هذه السفن تشتت بسبب العواصف إلا أن فليج علي باشا تمكن من ايصال أربعمائة بندقية وذخائر وعددا من الجنود لمساعدة الموريسكيين سنة ١٥٧٠م، لكن هذه المساعدات لم تكن كافية مما أدى إلى القضاء على ثورة البشرات. واستمر الموريسكيون طيلة القرن السادس عشر في إرسال الاستغاثات إلى استامبول كما استمرت مساعي الدولة العثمانية السياسية في الدول الأوروبية لمساعدة الموريسكيين كما يتضح ذلك من الرسالة التي أرسلها السلطان أحمد الأول إلى دوق البندقية سنة ١٦١٤م[١].

ثورة البشرات الثانية (٩٧٧ـ٩٧٩هـ/١٥٦٩ـ١٥٧١م):

وقد وقعت هذه الأحداث فيما بين سنتي ٩٧٦ـ٩٧٩هـ/١٥٦٨ـ١٥٧١م خلال التطورات التي أدت إلى ثورة البشرات الثانية، عندما ثار المسلمون الذين لجأوا إلى البشرات خوفا على أنفسهم ودينهم، أمام غطرسة السلطات الاسبانية التي أخذت تثير الرعب في قلوب من بقي من المسلمين. على الرغم من تقديمهم للاحتجاجات وبخاصة لكردينال اسبينوزا Don Deigo Espinosa، والملك فيليب الثاني والكردينال ديسا، فلم يكن أمام العرب المسلمين إلا الثورة. ومما سارع في إحداث ثورة البشرات، المظالم التي تعرض لها العرب المسلمون في معيشتهم ونظام حياتهم، وفرض الضرائب الباهظة عليهم وبخاصة على الحرير، بالاضافة إلى نشاط محاكم التفتيش، ومصادرة المزيد من ممتلكات الاندلسيين. وما أن جاء اعلان المرسوم الذي يقضي بتهجيرهم تهجيرا قسريا حتى أعلنوا الثورة.

---

[١] التميمي، الدولة العثمانية وقضية الموريسكيين الاندلسيين، ص ١٧ـ٢٠.

وانطلقت فكرة الثورة من حي البيازين في غرناطة وكان صاحبها فرج بن فـرج. واتصل مع العرب المقيمين في مناطق البشرات للاتفاق معهم على الثورة. وبعد أن اجتمع من العرب ٤٥ ألف مقاتل، بعثوا بصورة سرية وفودا إلى المغرب والجزائر، من أجـل امداذهم بالسلاح الحديث، فوعدوا من قبل شريف مراكش بالنجدة، كمـا وعدهـم والـي الجزائر بإرسال المتطوعين المزودين بالأسلحة.

تم الاتفاق على اعلان الثورة في الأول من كانون الثاني ١٥٦٩م/٩٧٧هـ، ولكـن وقع في يوم ٢٣ كانون الأول ١٥٦٨م/٩٧٦هـ ما عجل باشعال الثورة وهـو مهاجمـة العرب لمفرزة اسبانية وإبادتها بالقرب من قاديار، وانتقل لهيبها إلى وادي لكرين والمرية وعمت الثورة الجنوب وأصبح من الصعب السيطرة عليها.

وبعد تحرير كثير من المناطق قرر الثوار في البشرات أن يختاروا ملكا عليـهم، وكان اختيارهم قد وقع على فرناندو دي فالور Fernando de valor وعرف باسم محمد بـن أمية، وفي حفل تتويج بسيط أقسم أمام الثوار بالدفاع عن دينه وامتـه وحريـة مملكتـه. وأرسل في طلب العون من عرب شمال افريقيا (الجزائر والمغرب). إلا أن هذه الثورة لم يكتب لها النجاح، فالمساعدات من شمال افريقيا كانت قليلة جدا، كمـا أن ملـك اسـبانيا استعان بقوات اضافية من خارج اسبانية، فانسحب العرب إلى المناطق الوعرة، واغتيـل قائدهم ابن عبو في آذار من سنة ١٥٧١م/٩٧٩هـ وباغتياله انفرطت المقاومة، وطـالب العرب الأمان.

استغاثة ابن عبو بالعثمانيين:

وكان ابن عبو الذي انتخبه الاندلسيون ملكا باسم (مولاي عبد الله بن عبـو ملـك الاندلسيين) قد أرسل رسالة استغاثة إلى مفتي استامبول سنة ٩٧٧هـ يطلب منـه حـث السلطان العثماني على مساعدة الاندلسيين، كما كتب رسالة أخرى إلى والـي الجزائـر. وكان مما جاء في الرسالة الأولى (ان أمير المؤمنين بن عبو المتمسك بشريعة الله قـاهر جيوش العاصين لله، بارك الله مسعاه وسدد خطاه ليستر عزة الاندلس ويجدد نهضتها) ثـم يثني على اهتمام السلطان العثماني بأمر الاندلسيين، وأن السلطان وعدهم (بالنصرة بعـدد

وافر من الرجال المسلحين وبما نحتاج إليه من العون والعدد التي تسمح لنا بالحفاظ علـى هذه الأرض، وبما أننا نقاسي المتاعب الشديدة فإننا نلجأ من جديد إلى الباب العالي نطلب النجدة والمعونة والنصر عن يدكم، فالنجدة النجدة، كما طلب من المفتي (اعلام السلطان برعايته وعطفه فليبادر إلى انجادنا بسرعة قبل أن نهلك، فهناك جيشان قويـان يتجهان الينا، واننا إذا ما اندحرنا في هذه المعركة فإن الله تعالى سيحاسبه على ذلك حسابا عسيرا يوم القيامة[1]. ولم يستطع العثمانيون تقديم العون للاندلسيين على أثر هزيمة الأسطول العثماني على يد تحالف صليبي في معركة ليبانتو سنة ١٥٧١م. بل ان الاسبان عادوا إلى احتلال تونس سنة ١٥٧٣م ثم استردها العثمانيون سنة ١٥٧٤م[2].

وفي أعقاب هذه الثورة تم تهجير نحو ٣٥ ألف عربي من غرناطة، وفـي سنة ٩٧٨هـ/١٥٧٠م صدر مرسوم آخر بترحيل جميع الاندلسيين من مملكة غرناطة دون استثناء، ومصادرة املاكهم وعقاراتهم وبموجب هذا المرسوم هجر ٥٠ ألف عربي[3].

وهكذا نرى أن الموقف الدولي لم يكن في صالح الاندلسيين سواء من ناحية الدولة العثمانية أو الدولة السعدية في المغرب، التي عجزت عن تقديم المساعدة للاندلسيين بسبب المشكلات الداخلية، وتعرض المغرب نفسه للهجمات الاسبانية والبرتغالية.

استمرار اتصال الاندلسيين بالعثمانيين:

ظل الاسبان يخشون من الموريسكيين وتحالفهم مع الأتراك العثمانيين ونشاطهم في إقامة الاتصالات مع البلاد الاسلامية، فقد حذر أسقف طليطلة الملك فيليب الثاني بـأن الأسطول التركي وصل إلى سواحل اسبانيا، وأن له في بلنسية خمسون ألف مقاتل من

---

[1] حومد، د. أسعد، محنة العرب في الاندلس، بيروت، ط١، ١٤٠٠هـ/١٩٨٠م، ص ٢٤٢، نقلا عن تاريخ ثورات الموريسكيين وعقابهم.

[2] الشدادي، عبد الخالق، سقوط غرناطة ومصير الاندلسيين، مجلة المنعطف، وجدة المغرب، عدد ٦، ٧، ١٤١٤هـ، ١٩٩٣م.

[3] لمزيد من المعلومات انظر: حتاملة، التنصير القسري. وهي دراسة شاملة عن أوضاع العرب في الاندلس في هذه الفترة. حركة المقاومة العربية الاسلامية في الاندلس بعد سقوط غرناطة.

الموريسكيين غير مقاتلي اراغون وقشتالة وهم أكثر عددا ويمكن أن يتحدوا وبذلك سيكون خطرهم كبيرا، كما حذر رجال محاكم التفتيش في سرقسطة الذين حذروا من تحالف دون انطونيو البرتغالي مع مسلمي المغرب والموريسكيين في غرناطة، ثم تحالف أمير مغربي مع ملك فرنسا، وانتشرت بين الاسبان اشـاعات مخيفـة عـن قـرب عـودة سـيطرة الموريسكيين بمساعدة العثمانيين[1]، ذلك أن علاقة الموريسكيين بالدولة العثمانية لم تنقطع فقد كان العثمانيون يحاولون تجهيز اسطول كبير لانقاذهم بين عـامي ١٥٨٩م و ١٥٩١م، كما ضبطت خطابات بين الجزائر وموريسكيي بلنسية، وأقيمـت علاقـات طيبـة بيـن موريسكيي ارغون والبروتستانت، كما اكتشف الاسبان محاولة قام بها الموريسكيون فـي اشبيلية سنة ١٥٨٠م ولها فروع في قرطبة وجيان وغيرهما وكانوا ينتظرون مساعدة مـن سلطان المغرب السعدي المنصور الذي ذاع صيته عندما أوقع هزيمة بالجيش البرتغـالي في القصر الكبير سنة ١٥٧٨م وأصبح يخشى أن يتفق مع العثمانيين لإنقاذ الاندلس كمـا يتضح ذلك من مشروع عقد حلف بين الطرفين ضد فيليب الثاني، حيث وعد مراد الثـالث بارسال العتاد والرجال إلى المنصور بهدف استعادة الاندلس. كمـا اتصـل الاندلسـيون بالبارون دي روس حاكم بيرن لشراء الأسلحة، وأصبحوا طرفا في تحالف ثلاثـي مـع الاتراك والفرنسيين البروتستانت. كما ضبطت رسائل بالعربية وبالخميادو توضـح دور الموريسكيين المقيمين في الجزائر واستمر الصراع بين الموريسكيين والاسبان ولم يتوقف الموريسكيون فيما بين سنتي ١٥٧٠ــ١٥٩٨ عن بث الرعب في صفوف الاسـبان كمـا فعلت جماعتا الخورايقا في المرية والمليجي في مالقه وروانده، إلا أن الاسـبان قضـوا عليها كما ظهرت جماعات مماثلة في بلد الوليد واشبيلية وارغون وبلنسـية ممـا دعـا السلطات الاسبانية إلى نزع سلاح البلنسيين على سنوات متتالية[2] ثم طردهم نهائي سـنة ١٦٠٩م.

وعلى الرغم من الجهود التي بذلها العثمانيون ولا سيما في عهد جـهاد عـروج وأخيه خير الدين بربروسا، فإن هذه الجهود لم تسفر عن انقاذ الاندلس أو استعادتها إلا أنه

---

[1] دومينقيز، وبرنارد بنثنت، تاريخ مسلمي الاندلس، ص ٧١ــ٧٧.

[2] المرجع نفسه، ص ٧٧ــ٨٣؛ الشدادي، سقوط غرناطة ومصير الاندلسيين، ص ٩٣، والهامش ٧٠.

مما لا شك فيه أنها أسفرت عن حماية المغرب العربي من الوقوع تحت الاحتلال البرتغالي والاسباني.

استمرار الجهاد بعد التهجير.

كما أنه لا بد من الاشارة إلى أن خروج الاندلسيين من بلادهم وهجرة قسم كبير إلى المغرب لم يكن يعني توقفهم عن الجهاد بل استمروا في جهادهم من مواقعهم الجديدة في المغرب مثل وهران والجزائر وبجاية ومن هناك وجهوا غاراتهم البحرية على السواحل الاسبانية والسفن الاسبانية، وكانوا يتعاونون في ذلك مع المغاربة. وقد ذكر المقري الذي كان معاصرا لتلك الأحداث أنه في عام ١٠١٧هـ، خرجت الوف بفاس والوف بتلمسان وجمهورهم خرج بتونس، وعمروا القرى الخالية وكذلك تطوان وسلا وقيجة الجزائر واستخدم سلطان المغرب منهم عسكرا جرارا، وسكنوا سلا وحصنوا قلعتها، وكان منهم من الجهاد في البحر ما هو مشهور[١]. وكانوا يعودون من غاراتهم هذه حاملين معهم الأسرى الاسبان كما كانوا يستولون على بعض السفن.

وبلغت الغارات البحرية التي قام بها العثمانيون والاندلسيون والمغاربة على الشواطئ الاسبانية بين سنتي ١٥٢٨م و ١٥٨٤م ثلاثا وثلاثين غارة، واشتهر في هذا الجهاد عدد من الزعماء الاندلسيين مثل الريس بلانكيو Balonquillo والريس أحمد أبو علي من أشونيه ومراد الكبير ووقعت في سنة ١٦٠٢م غارة كبيرة قام بها مراد الريس على مدينة لورقة (غرب قرطاجنة)، تمكن فيها من أخذ عدد من الأسرى الاسبان[٢]. كما كان مجاهد آخر هو عمر محمد باي يشن غارات جريئة من قاعدته في تونس على شواطئ اسبانيا الجنوبية، بدعم من الوالي العثماني، واستمرت غارات الاندلسيين على الشواطئ والسفن الاسبانية دون انقطاع. واتخذ هذا الجهاد شكلا منظما بعد تهجير مسلمي بلنسية سنة ١٦٠٩م. فكانوا يقومون بغاراتهم البحرية بشكل مستقل عن المغاربة من

---

[١] المقري، نفح، ج٤، ص ٥٢٨.

[٢] عنان، نهاية الاندلس، ص ٣٧٢، ٣٧٣، د. عبد آلله محمد جمال الدين، المسلمون المنصرون، القاهرة، ١٩٩١، ص١٦٩، ٤٠٩.

قواعدهم في تطوان وسلا، وتمكنوا خلال ثماني سنوات من أسر ستة آلاف أوروبـــي[١]، وكانت سلا أهم مركز للمجاهدين الاندلسيين (الهورناتشيون) الذين هاجروا مـــن اشـــبيلية واستقروا في تطوان ثم في الرباط ـــ سلا.

وقد اتسع نطاق عمليات الأندلسيين البحرية بعد سنة ١٦٢٧م بقيادة القائد المشـــهور مراد العلج، واستولى المجاهدون خلال عشر سنوات (١٦٢٠-١٦٣٠م) على أكثر مـــن مائة سفينة أوروبية. وفي سنة ١٦٣٣ استأنف الأندلسيون نشاطهم بتـــأييد مـــن ســـلطان المغرب (الوليد) وعندما عقد السلطان اتفاقية مع فرنسا (لويس الثالث عشر) كـــان مـــن ضمن نصوصها التوقف عن الجهاد. لم يتقيد الأندلسيون بذلك، وغزوا السواحل الإســبانية واستولوا على خمس سفن محملة بالقمح والسكر، واتسع نطاق عمليات الأندلســيين إلـــى جزر كناري وإنجلترا كما أنهم أحبطوا عددا من المحاولات الإنجليزية والهولندية لغـــزو سلا[٢].

---

[١] رزوق، د. محمد، الاندلسيون وهجراتهم إلى المغرب خـــلال القرنيـــن ١٦ـــ١٧؛ الـــدار البيضـــاء، ١٩٨٩، ص ٢١١؛ جمال الدين، المسلمون المنصرون، ص ١٦٩ـــ١٧٠، وص ٤٠٩، ٤١٠.

[٢] رزوق، الأندلسيون وهجراتهم، ص٢١٢-٢١٤.

الفصل الحادي عشر

حضارة المسلمين في الأندلس

مصطلح كلمة إسبانيا

عرفت إسبانيا قديماً بأسماء متعددة منها شبه الجزيرة الايبيرية Peninsula Iberica وشبه جزيرة بيرينايكه Peninsula Pirenaica وشبه الجزيرة الإسبانية Peninsula Espanola وكذلك أطلق عليها اسم أوفيوسا Ophiousa بلد الحيات Pais de Serpiente كانت هذه التسمية الأخيرة معروفة لدى الرومان وهؤلاء بدورهم أطلقوا عليها اسماً جديداً هو سبانيا أو إسبانيا Spania O Hispania. ولعل هذه التسمية، التي ما زالت تطلق على جزء كبير من إسبانيا، أتت من التسمية الفينيقية اصفانيم I-Schephan-Im التي كانت تعني بلغتهم "شاطئ الأرانب". وقد دلت هذه التسمية في البدء، على الشاطئ الجنوبي الذي يعرف اليوم باسم اندلوثيا (الأندلس) ثم زادت دلالته فشملت شبه الجزيرة كلها أثناء سيطرة القرطاجيين عليها. أما كلمة ايبيريا Iberia فهي تسمية من جانب الاغريق واستقوها من القبائل (الايبيريون) التي كانت تسكن هناك وامتد نفوذهم من الشواطئ الإسبانية على البحر المتوسط إلى مضيق جبل طارق أو بحر الزقاق، وتذكر مصادر أخرى أن نفوذهم قد شمل أيضاً الشواطئ الجنوبية والشرقية لإسبانيا.

أما كلمة ايسبيريا Hesperia التي تعني المقاطعة الغربية لدى الاغريق فقد أطلقها هؤلاء أولاً على ايطاليا باسم Hesperia Magna كما أطلقوا على إسبانيا عبارة ايسبيريا الأخيرة Hesperia Ultima ولكن منذ عهد المؤرخ بوليبيو Polibio في القرن الثاني قبل الميلاد عمت كلمة ايبيريا كل شبه الجزيرة. وفي نهاية حكم الرومان لتلك المنطقة قل استعمال هذا المصطلح وحلّ محله إسبانيا Hispania وهي التسمية الشائعة في كل اللغات إلى يومنا هذا.

مفهوم مصطلح الأندلس

أطلق المسلمون لفظة الأندلس على معظم أنحاء شبه الجزيرة الايبيرية التي حكموها[1]، إذ لم يبق خارج اطار حكمهم آنذاك إلا بعض المناطق الشمالية الغربية التي تعتبر جزءاً من استوريس وجليقية[2].

تلفظ الأندلس بضم الدال وفتحها، وضم الدال ليس إلا، وهي كلمة عجمية لم تستعملها العرب في القديم وإنما عرفها العرب في الاسلام. وقد جرى على الألسن أن تلزم الألف واللام[3].

وقد أخذ المسلمون هذه التسمية من اسم قبائل الوندال Vandalos، الجرمانية، الذين حكموا جنوب إسبانيا، فسميت هذه المنطقة فندليسيا نسبة إليهم. وحرفها العرب إلى الأندلس. وقد مرت هذه الكلمة بمراحل صوتية ثلاث: الأولى فندلس كما تدل صورة الكلمة في حروفها اللاتينية، وكما يدل كذلك النطق الإسباني للكلمة فندلوس Vandalos. والمرحلة الثانية (وندلس) كما يدل عليها نطق الكثيرين للكلمة بالواو بدلاً من الفاء المجهورة، التي يرمز إليها عادة بالحرف (V). والمرحلة الثالثة هي نطق المسلمين لها حيث قالوا (أندلس) بإبدال الهمزة بالواو كما هو مألوف في اللغة العربية[4].

وقد نقل المقري عن ابن سعيد تفسيراً أسطورياً لهذه التسمية إذ قال بأنها سميت نسبة لأندلس بن طوبال بن يافث بن نوح لأنه نزلها[5]. كما ذكر الحميري نقلاً عن

---

(1) العبادي، د. أحمد مختار، في تاريخ المغرب والأندلس، الطبعة الثانية، نشر مكتبة الانجلو المصرية، ١٩٨٦م، ص ١٩.

(2) المقري، التلمساني، الشيخ أحمد بن محمد، نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب وذكر وزيرها لسان الدين بن الخطيب، تحقيق د. احسان عباس، بيروت، ١٩٦٨م، ص ٢٧٥.

(3) الحموي، شهاب الدين ابي عبد الله ياقوت، معجم البلدان، بيروت، ١٤٠٤هـ/١٩٨٤م، ص ٢٦٢.

(4) هيكل، د. أحمد، الأدب الأندلسي من الفتح إلى سقوط الخلافة، القاهرة، ١٩٧٩، ص ١٣، ١٤.

(5) المقري، نفح، ج١، ص ١٢٥.

الرازي أن أول من سكن الأندلس بعد الطوفان على ما يذكره علماء عجمها قوم يعرفون بالأندلش (بشين معجمة) بهم سمي المكان ثم عرب فيما بعد بالسين غير المعجمة[١].

وذكر المؤرخ ابن خلدون في تاريخه أن القطر الأندلسي كان من العدوة الشمالية من عدوتي البحر الرومي، وبالجانب الغربي منها يسمى عند العجم الأندلوش، وتسكنه أمم من افرنجة المغرب أشدهم وأكثرهم الجلالقة[٢].

وقد أخذ العرب كلمة الأندلس عن طريق اخوانهم في الاسلام سكان الشمال الإفريقي، خاصة أهالي طنجة الذين كونوا جزءاً مهماً من جيش طارق بن زياد حيث كانوا يطلقون اسم وندلش على الوندال الذين احتلوا شبه الجزيرة الايبيرية منذ القرن الثالث حتى القرن الخامس الميلاديين والذين يعرفون في المصادر الأوروبية بالفاندال أو فاندالوس وانتقلوا في نهاية حكمهم إلى مقاطعة بتيكا Betica الممتدة على طول نهر الوادي الكبير، وقد حرفوا الوندال إلى وندلس لأن حرف الوأو في لغة أهل طنجة يحل محل (أل) التعريف في اللغة العربية، فحذفت الوأو لتصبح بدلاً منها ألف فتعرف أندلس[٣].

وقد أطلق المسلمون لفظ الأندلس في بداية الأمر على شبه الجزيرة الايبيرية كلها، ثم أخذ مدلول هذه التسمية يتقلص تبعاً لسقوط المدن والثغور الأندلسية في يد الإسبان. فكانت كل مدينة أو ثغر يسقط في يد الإسبان، يخرج من إطار التسمية. إلى أن اقتصرت على مملكة غرناطة بمقاطعاتها الثلاث: مالقة وغرناطة والمرية[٤] والتي حافظت على كيانها تحت حكم بني الأحمر (بني نصر) حتى سقوطها في يد الملكين الكاثوليكيين سنة ١٤٩٢م. وبقي هذا الاسم مستخدماً إلى يومنا هذا للدلالة على ما يعرف لدى الإسبان باسم

---

(١) الحميري، صفة جزيرة الأندلس، منتخبة من الروض المعطار، ص ٤، ٥. وانظر أيضا: نفح، ج١، ص ١٣٣؛ وابن عذاري المراكشي، البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب، ج٢، تحقيق ج. س. كولان، و إ. ليفي بروفنسال، بيروت، ١٩٨٣، ص ٢.

(٢) العطار، نجاح، الأندلس من نفح الطيب للمقري، دمشق، ١٩٩٠، ص ٣٧، ٣٨.

(٣) حتاملة، د. محمد عبده، ملامح حضارية في الأندلس، بحوث ودراسات مهداة إلى عبد الكريم غرايبة، تحرير ناظم الكلاس، عمان، ١٤٠٨هـ/١٩٨٨م، ص ١٨٢.

(4) Sandoval, Alfonso Gramir: Fortificaciones de La Costa Suroriental de reino de Granada, Revista de Historia Militar VI, Madrid, 1962, No. 10. Pág 25.

اندلوثيا Andalucia ويشمل المدن الثمان التالية: قرطبة Córdoba، اشبيلية Sevilla، قـــادش Cádiz، ولبه Huelva، مالقه Málaga، غرناطة Granada، جيان Jaén، والمرية Almería[١].

وقبل التعمق في سبر غور الحضارة الأندلسية لا بُدّ من القاء الضوء على حضارة الأمم التي قطنتها قبل الفتح الإسلامي، وعلى موقعها الجغرافي. تقع الأندلس في الجنوب الغربي من القارة الأوروبية، أي في غرب العالم العربي وتبلغ مســاحة شـبه الجزيـرة الايبيرية (٦٠٠,٠٠٠) ستمائة ألف كيلو متر مربع[٢]، تشكل إســبانيا الحاليـة خمسـة أسداسها في حين تشكل البرتغال سدسها الباقي. وقــد جــاء ســكانها الايبـيريون مــن الجنوب[٣]. وكانت مقومات حضارتهم إذ ذاك تربية المواشي من بقـــر وغنــم ومــاعز وخنازير وخيول، وعرفوا تربية النحل وأتقنوها، واستخرجوا الشمع من عســل النحـل، وبنوا الأسوار، لا سيما في تراغونا، وصنعوا التماثيل، ونقشوا على وجه مــن عملتــهم صور الخنازير وغيرها. كما عرفوا الصوف وشعر المــاعز، فاسـتخدموها لصناعـة ملابسهم وأشرعة سفنهم وكانوا يصدرون بعض تلك الصناعات إلى الخارج.

وكانوا يوزعون الأعمال، فبعضهم يأخذ انتاج الأرض ويوزعه بالتسأوي، وكــانت الأعمال في الأرض مقتصرة على النساء ومن تشريعاتهم الحضارية أنهم إذا سرق منــهم شخص قتلوه.

وبالنسبة للحياة الاجتماعية فقد سادت عندهم عادة تعدد الزوجات باستثناء بعــض قبائلهم. أما دينهم فقد انصب على عبادة آلهة كانوا ينحتون لها تماثيل تعد مــن أبرزهــا (Endovellico)، كما عثر أخيراً على تمثال سيدة مدينة التشي (Elche)، ومن مخلفاتهم التي لا تزال بارزة للعيان تماثيل متناثرة في تلة القديس ميخائيل دي موتـا (El Cerro de San

---

[١] حتاملة، د. محمد عبده، ملامح حضارية في الأندلس، ص ١٨٢. وانظر أيضا:

- Bleiberg, German, Diccionario De Historia De España, Ediciones de La Revista de Occidente, Madrid, Segunda Edición, 1968, Pág 265.

[٢] فروخ، عمر، العرب والاسلام في الحوض الغربي من البحر المتوسط، مــن فتـح المغـرب وفتـح الأندلس إلى آخر عصر الولادة (١٣٨ـ٧٥٦م)، بيروت، ١٣٧٨ـ١٩٥٩، ص ٤٣.

[3] Carmona (D. Francisco Diaz) Historia de Espana. Barcelona, 1911, pags. 16-21; Bleye (Pedro Aguado) Historia de Espana, Madrid, 1958 Capitulo XI, pags 158-167.

Miguel de Mota)، وقد انتشرت عبادة الآلهات لا سيما في شبه الجزيرة، فمنها إلهة للزراعة وأخرى للطب، وقد عثر على بعض المصوغات الذهبية في مدينة (Caceres) (استراما دورا)، وهي تشكل دليلاً على ما وصلت إليه حضارة سكان تلك البلاد في الماضي.

كما دخلت إلى شبه الجزيرة بالاضافة إلى قبائل الايبيريين قبائل السلت التي عبرت إلى شبه الجزيرة من الشمال بشكل سلمي في بداية الأمر، وما لبثوا أن تحاربوا مع الايبيريين، ثم استقرت الأمور بينهما وانصهروا في بوتقة الشعب الواحد، وأطلق على هذا المزيج قبائل السلت ايبرية Celtiberian.

ودخل شبه الجزيرة الايبيرية مّد من الأمواج العربية من السواحل اللبنانية بحراً، فكان الفنيقيون يصلون تلك البلاد تجاراً أو باحثين عن مناجم المعادن، وبنوا لأنفسهم موانئ تجارية ومراكز في شبه الجزيرة الايبيرية، ونشروا حضارتهم في أرجائها كافة، كذلك فعل أحفادهم القرطاجيون الذين أسسوا عاصمتهم قرطاجة في تونس. وبذا تكون تلك القبائل العربية قد تصدرت الحضارة في شبه الجزيرة الايبيرية قبل ما يزيد على ألفين ومائتي عام.

ومن الآثار الدالة على هذا التأثير الحضاري العربي، مدينة قادش التي كانت أحد الموانى التي بناها الفنيقيون على الساحل الإسباني، ثم أسهم في اعمارها القرطاجيون وظلت مأهولة طوال تلك العصور السحيقة، حتى أيامنا هذه، وهي تحمل اسم نهر كان مقدساً في لبنان.

كذلك تأثرت حضارة شبه الجزيرة الايبيرية بالحضارة الاغريقية والرومانية، فقد وصلوا إلى تلك البلاد، وكان لهم معها تماس، لا سيما في السواحل الشرقية من شبه الجزيرة.

وكان في شبه الجزيرة ثلاث قبائل، هي الالان والسويف والوندال وهي قبائل جرمانية دخلت إلى شبه الجزيرة واستقرت بها في القرون الثالث والرابع والخامس الميلادية بعد أن تغلبوا على الرومان.

ومنذ أن دخل القائدان طارق بن زياد وموسى بن نصير على رأس جيشيهما من مضيق جبل طارق وقيامهما بفتح شبه الجزيرة الايبيرية[1]، أخذ الفاتحون يتفاعلون مع السكان، وانصهر الشعبان الفاتح والأصيل من خلال التزأوج في بوتقة واحدة وأطلق على النسل الناشئ اسم المولّدين[2] .

وبقي بعض أهل البلاد المفتوحة يدينون بالنصرانية، ورغبوا في أن يمكثوا في مواطنهم إلى جوار العرب المسلمين، فأطلق عليهم اسم المستعربين. وكانوا يتمتعون بكل الحريات المعروفة آنذاك، وقد أجادوا العربية، ونقل هؤلاء المستعربون كثيراً من العادات والتقاليد وفنون العمارة العربية إلى القاطنين في المناطق الشمالية، حيث كانوا يشكلون حلقة وصل بين الأندلس الإسلامي وما جاوره[3] .

وعانت الأندلس في العقد الثالث من القرن الثاني الهجري من نزاعات قبلية بين العرب والبربر[4] ، وبين مضر وربيعة من جهة واليمانية من جهة أخرى[5] ، والشاميين

---

(1) ابن عذاري المراكشي، أبو العباس أحمد بن محمد، البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب، نشر وتحقيق: ج. س. كولان، أ. ليفي بروفنسال، ليدن، هولندا، ١٩٥١م، ص ٦، ١٢؛ انظر المقري، نفح، ج١، ص ٢٥٤ وما بعدها، ص ٢٦٩ وما بعدها. وجاء في الادريسي أن موسى اجتاز من جبل القردة المعروف بمرسي موسى من جهة الخضراء، انظر الادريسي، نبذة من أخبار فتح الأندلس، وهي مأخوذة من الرسالة الشريفية إلى الأقطار الأندلسية، مجريط، ١٨٦٨م، ص ١٩٨.

(2) انظر د. العبادي، في تاريخ، ص ٣٣٠؛ وانظر عبد البديع، د. لطفي، الاسلام في إسبانيا، ملتزمة النشر والطبع مكتبة النهضة العربية، القاهرة، ط١، ١٩٥٨م، ص ٣٤.

(3) أثر العرب والاسلام في النهضة الأوروبية، أعدت هذه الدراسة باشراف مركز تبادل القيم الثقافية بالتعاون مع منظمة الأمم المتحدة للتربية والعلوم والثقافة (اليونسكو)، ص ٤٠٨ـ٤٠٩.

(4) ابن القوطية، ص ١٤، ١٦؛ أخبار مجموعة، ص ٣١ـ٣٩؛ ابن عذاري، ج٢، ص ٣٠، ٣١، ٣٣.

(5) ابن القوطية، ص ٢٠؛ أخبار مجموعة، ص ٥٦ـ٦٠، ٨٣؛ ابن عذاري، ص ٣٤، ٣٥، ٣٦.

وأهل البلد[1]، وظلت الأمور كذلك حتى جاء الأمير عبد الرحمن الداخل، وعبر مضيق جبل طارق، ووصل إلى مدينة المنكب، فنجح في بداية الأمر بجمع العرب حوله، وخفتت النزاعات، وقضى على والي الأندلس آنذاك يوسف الفهري ومساعده الصميل[2]. وقد دخل قرطبة منتصراً في العاشر من ذي الحجة عام ١٣٨هـ/٧٥٥م، فجعل منها عاصمة لملكه[3]، ومنذ ذلك التاريخ أصبح يعرف بالداخل، ولقبه أبو جعفر المنصور بصقر قريش، بسبب انشائه دولة بمفرده بعد أن أضحى شريداً مطارداً للدولة العباسية[4]، وكان من مطامحه أن يجعل قرطبة مزدهرة ذائعة الصيت كدمشق أجداده، فأدخل الطراز المعماري الأموي إلى الأندلس ومن أهم المباني التي أنشئت في عهده جامع قرطبة الكبير[5] وقصر الرصافة على ستة أميال من قرطبة، على غرار الرصافة التي بناها جده الخليفة هشام في ضواحي دمشق[6].

المؤشرات الحضارية في الأندلس

ذكرت الكاتبة الألمانية سيجريد هونكه أن القوط الذين سكنوا الأندلس قبل الفتح العربي كانوا متأخرين، ولم يجد العرب في الأندلس شيئاً يتعلمونه أو يقلدونه، لذلك ترى أن الحضارة الأندلسية كانت عربية صرفة. وانشأ العرب في الأندلس حضارة زاهرة من مراكزها قرطبة واشبيلية وغرناطة بينما بقي الجيران على الجانب الآخر من البرانس

---

[1] أخبار مجموعة، ص ٤٠، ٤٤؛ ابن عذاري، ج٢، ص ٣٢، ٣٣، ٣٤.

[2] انظر ابن القوطية، ص ٢١ـ٢٤ وما بعدها؛ أخبار مجموعة، ص ٨٠، ٨٣ وما بعدها؛ ابن عذاري، ج٢، ص٤٤-٤٧، ٤٩.

[3] ابن حبيب، م٥، ص ٢٣٦؛ أخبار مجموعة، ص ٨٦؛ ابن الفرضي، ج١، ص ١١؛ الحميدي، ص ٨ـ٩؛ ابن الأثير، ج٦، ص ٤٩٤ـ٩٥؛ ابن الآبار، الحلة، ج١، ص ٣٥؛ ابن عذاري، ج٢، ص ٤٤، ٤٦؛ ابن الخطيب، أعمال، ص ٨؛ ابن خلدون، العبر، م٤، ص ٢٦٢ـ٢٦٣، وانظر المصادر التالية فقد ذكرت أن دخوله قرطبة كان عام ١٣٩هـ: المسعودي، مروج الذهب، ج١، ص ١٣٢؛ ابن كثير، ج١٠، ص ٧٤؛ الكتبي، م٢، ص ٣٠٢؛ القلقشندي، صبح، ج٥، ص ٢٤٤.

[4] ابن عذاري، ج٢، ص ٦٠؛ ابن سماك العاملي، الزهرات المنثورة في نكت الأخبار المنثورة، دراسة وتقديم وتحقيق، د. محمود علي مكي، مدريد ١٤٠٤هـ/١٩٨٤م؛ المقري، نفح، ج١، ص ٣٢٩، ٣٣٠.

[5] المقري، نفح، ج١، ص ٣٢٩، ٥٤٥.

[6] المصدر نفسه، ج١، ص ٥٤٥.

(البرت) لمدة أربعة قرون يصمون آذانهم ويغمضون عيونهم عن جنة العلوم والبناء والغناء والشعر في الأندلس[1].

شهدت الأندلس في العهد الإسلامي نهضة حضارية متميزة بدأت مع الفتح الإسلامي، مروراً بعصر الولاة حتى بلغت الحضارة الإسلامية في الأندلس شأوا متقدماً في عهد الدولة الأموية وبخاصة في عهد عبد الرحمن الثالث (الناصر) وابنه الحكم المستنصر وامتدت في عهد المنصور بن أبي عامر، وأصبحت قرطبة في آخر العهد الأموي مركزاً هاماً من مراكز العلم وقد وصفها ابن بسام في الذخيرة بأنها كانت مركزاً للعلم "من أفقها طلعت نجوم الأرض وأعلام العصور وفرسان النثر والنظم وبها أنشئت التآليف الرائقة وصنفت التصانيف الفائقة"[2].

وانتشرت دور العلم في جميع أنحاء الأندلس وزادت عناية الخلفاء بالعلم والتعليم فأرسلوا البعثات العلمية إلى المشرق لنقل العلوم والكتب، وازدهرت حركة التأليف وإنشاء المكتبات. وكان ذلك كله بتشجيع من الخلفاء والأمراء الذين تنافسوا في اقتناء الكتب النفيسة، ومن أشهر المكتبات مكتبة الحكم المستنصر التي لم يسبق لملك على وجه البسيطة أن ملكها أو زها بمثلها[3].

واستمر التقدم العلمي في عهد ملوك الطوائف بالرغم من التفكك السياسي، فقد نضجت الحضارة الإسلامية في هذه الفترة وزاد اهتمام ملوك الطوائف بالعلم وتنافسوا في تقريب العلماء ورعايتهم. واستمرت هذه النهضة العلمية في التقدم في عهد ملوك بني الأحمر في غرناطة الذي استمر قرنين ونصف من الزمان.

---

[1] هونكه، سيجريد، شمس العرب تسطع على الغرب، مترجم، بيروت، ص ٤٧٤-٤٧٥.

[2] الذخيرة، ج١، ق ١، ص ٣٣، ٣٤.

[3] السحيباني، د. حمد بن صالح، عصر الازدهار العلمي في الأندلس، الاسكندرية ١٤١٤هـ/١٩٩٤م، ص ١٢، نقلا عن المقري، نفح، ج١، ص ٤٦٢-٤٦٣.

الزراعـــــــة

لعب المسلمون دوراً مهماً في مجال الزراعة والنباتات، فقد اهتم المسلمون بشكل عام في إصلاح وسائل الري وتنظيمها، فبنوا السدود، وشقوا القنوات والأنهار، وأقاموا عليها الجسور والقناطر، وأنفقوا في هذه المجالات أموالاً كثيرة، وكانت للري تشريعات دقيقة معقدة استفاد منها الأوروبيون فيما بعد[1]، وقد استخدم المسلمون في الأندلس طريقة الري بالتنقيط مستعملين المواد الموجودة في تلك العصور كمادة الفخار، ومن الجدير بالذكر أن مركز البحوث في الهندسة الريفية يجري تجارب على مادة الفخار لإحياء التراث التكنولوجي العربي ولدراسة امكانية تحسينها. كما أن العرب حفروا الآبار وصنعوا السواقي التي تراوح محيط عملاتها بين عشرين وثلاثين متراً وجمعوا المياه المتساقطة من الجبال في خزانات كبيرة، لوقت الحاجة حيث تخرج في قنوات لري الحقول، وهكذا عمر العرب مرتفعات وسفوح جبال ما كان أحد يظن أنه يمكن أن يستفاد منها في الزراعة[2].

ومن مظاهر التقدم الزراعي عند المسلمين، أنهم زرعوا كل نوع من النباتات في التربة التي تلائمه، بعد أن درسوا صلاحية كل تربة، والنباتات التي تصلح للنمو فيها، وبهذه الطريقة أمكن استغلال الأراضي الزراعية أحسن استغلال[3]، كما أنهم اعتنوا بتسميد الأرض عناية كبيرة بعد أن عرفوا السماد الصالح لكل نوع من النباتات[4]، ومن مظاهر تقدمهم معرفتهم التلقيح النباتي[5].

وقد تطورت الزراعة في الأندلس بعد دخول المسلمين إليها، إذ جلبوا أنواعاً عديدة من أصناف النباتات ذات الزراعة الموسمية والشجرية وأدخلوها إلى بلادهم، كما أنهم

---

(1) الكروي، د. ابراهيم، وشرف الدين، د. عبد التواب، المرجع في الحضارة العربية الإسلامية، ص ١٣٥ـ١٣٦.

(2) الندوة العلمية الثالثة لتاريخ العلوم عند العرب، ملخصات البحوث، (الري بالتنقيط عند ابن العوام)، المهندس صلاح الدين العامي، الكويت، ١٤٠٤هـ/١٩٨٣م، ص ٦٥.

(3) الكروي، ص ١٣٦.

(4) المرجع نفسه، ص ١٣٦.

(5) المرجع نفسه، ص ١٣٦.

برعوا في تنسيق الحدائق، واعتنوا عناية عظيمة بالازهار فزرعوها في مزارع واسعة لتصدير مستخلصاتها من عطور وأدهان ومياه الزهر والورد بأنواعها[١]، ولم يكتف المسلمون بذلك القدر، فقد أدخلوا إلى أوروبا نباتات لم تكن معروفة من قبل كالأرز، وقصب السكر، والزيتون والمشمش[٢]، والقطن والفستق[٣] والتي سأتناولها في شيء من التفصيل وخاصة ذكر الأماكن التي زرعت فيها في الأندلس.

ومن الجدير بالذكر أن معظم علماء النبات والزراعة عند المسلمين قد نبغوا في الأندلس، وكان لهم دور حضاري كبير في نقل الزراعة إلى البلاد الأوروبية، ومن هؤلاء أبو زكريا يحيى ابن أحمد بن العوام الاشبيلي الذي وضع كتابه بعنوان الفلاحة[٤].

ويمكن القول أنه من مظاهر تقدم الزراعة ووسائلها إبان عهد المسلمين مكافحتهم للآفات والحشرات الزراعية بأساليب ناجعة على الرغم من بساطتها[٥]، ومن أبرز تلك المظاهر الدالة على رقي المسلمين في مجال الزراعة في الأندلس، تركيب وتطعيم الأشجار بأصناف أخرى محسنة، أو تركيب وتطعيم لتعطي نوعين من الثمار لفاكهتين مختلفتين كتركيب العنب في شجر التفاح[٦]. كما برع الأندلسيون في وسائل حفظ الفواكه طرية كحفظ عناقيد العنب[٧]، وأدى وجود أصناف الفاكهة بكثرة في الأندلس إلى مهارة الأندلسيين في صناعة الفواكه المجففة كالزبيب بأنواعه وصفاته المختلفة[٨]، وتفنن الأندلسيون في طرق غرس الأشجار المثمرة[٩].

---

(١) الكروي، ص ١٣٦.

(٢) المرجع نفسه، ص ١٣٦.

(٣) ابن حجاج الاشبيلي، الفلاحة، تحقيق: صلاح جرار وجاسر أبو صفية، المقدمة صفحة أ.

(٤) الاشبيلي، المقدمة، وانظر الكروي، ص ١٦٦ـ١٦٧.

(٥) الاشبيلي، ص ٢٧ـ٣١.

(٦) المصدر نفسه، ص ٢٧ـ٣١.

(٧) المصدر نفسه، ص ٣٢ـ٣٣. وانظر المصدر نفسه، ص ٤٨ بالنسبة لحفظ جميع الفواكه.

(٨) المصدر نفسه، ص ٣٤.

(٩) المصدر نفسه، ص ٣٨ـ٤٢.

وسأعرض الآن لأهم أنواع الفواكه والحبوب والبهارات والتوابل والأزهار والورود التي زرعها المسلمون في الأندلس بشكل واسع والمنتجات التي اشتهروا بها، وسأبين المناطق التي كانت تشتهر بهذه الأنواع وأثر وجود تلك الأشجار المثمرة والمحاصيل على المناطق الأندلسية سواء أكان ذلك بالتجارة الداخلية أو الخارجية.

ذكر ابن حجاج الاشبيلي في كتابه الفلاحة أن من أنواع الأشجار والنباتات المثمرة التي زرعها الأندلسيون بكثرة العنب[١] ، ومن الأنواع التي زرعوها أيضاً التين[٢]، والرمان[٣] واللوز[٤] والجوز[٥] والبندق[٦] والصنوبر[٧] والفستق[٨]، والكمثري[٩]، والخوخ[١٠] والأجاص[١١]، والسفرجل[١٢]، والأترج[١٣]، والتوت[١٤]، والقراصيا[١٥]، والعنّاب[١٦].

---

[١] ابن حجاج الاشبيلي، ص ٣٠.
[٢] المصدر نفسه، ص ٣٧.
[٣] المصدر نفسه، ص ٣٨.
[٤] المصدر نفسه، ص ٤٠.
[٥] المصدر نفسه، ص ٤١.
[٦] المصدر نفسه، ص ٤١.
[٧] المصدر نفسه، ص ٤١.
[٨] المصدر نفسه، ص ٤٢.
[٩] المصدر نفسه، ص ٤٣.
[١٠] المصدر نفسه، ص ٤٣.
[١١] المصدر نفسه، ص ٤٤.
[١٢] المصدر نفسه، ص ٤٤.
[١٣] المصدر نفسه، ص ٤٤.
[١٤] المصدر نفسه، ص ٤٥.
[١٥] المصدر نفسه، ص ٤٥. وورد رسم كتابة قراصيا في الكتب الأخرى، القراسيا: انظر الحميري، ص ١٦٤؛ المقري، نفح، ج٣، ص ٦٠٤، وذكر المقري أنها كانت تعرف بالمغرب باسم حب الملوك: انظر المقري، نفح، ج٣، ص٦٠٤.
[١٦] ابن حجاج، ص ٤٦.

أما الأشجار والنباتات التي سادت الأندلس إبان العهد الإسلامي والأماكن التي اشتهرت بزراعتها فهي: الزيتون الذي تكثر زراعته في اشبيلية وخاصة في جبل الشرف[١] وفي لبلة والمناطق التابعة لها[٢] وبجانة[٣]، وسرقسطة[٤]، وحصن يلوية التابع لوشقة[٥]، وفي مدينة بلشانة وحولها[٦]، وفي مدينة شريش[٧]، ويقبل أهل بسطة على زراعته بكثرة[٨]، وكذلك الحال في قربليان التي تبعد عشرين ميلاً عن أوريولة[٩]، وأركش التي تقع على وادي لكه[١٠]، وتنتشر زراعة الزيتون أيضاً في كل من حصن مربيطر[١١]، وحصن ببشتر الذي يبعد عن قرطبة ثمانين ميلاً[١٢]، وبيّانة التي هي من أعمال قرطبة وبالذات من مدن قبرة[١٣]، وفي قبرة نفسها التي تبعد عن قرطبة ثلاثين ميلاً[١٤]، وفي حصن البلوط[١٥]، وقلب[١٦]، ومنية نصر التي تقع إلى الشرق من قرطبة[١٧] وفي وادي آش[١٨].

---

[١] العذري، ص ٩٥؛ الادريسي، صفة، ص ١٧٨؛ القزويني، ص ٤٩٧؛ الحميري، ص ٢١، ١٠١؛ المقري، نفح، ج١، ص ١٥٩، ٢٠٨.

[٢] ابن الشباط، م ١٤، ص ١١٧؛ الحميري، ص ١٦٩.

[٣] القلقشندي، صبح، ج٥، ص ٢١٨؛ الحميري، ص ٣٩.

[٤] ابن سعيد، المغرب، ج٢، ص ٤٣٥.

[٥] العذري، ص ٥٦.

[٦] الادريسي، صفة، ص ٢٠٦.

[٧] المصدر نفسه، ص ٢٠٦؛ الحميري، ص ١٠٢.

[٨] الحميري، ص ٤٥.

[٩] المصدر نفسه، ص ١٥١.

[١٠] المصدر نفسه، ص ١٤.

[١١] الحميري، ص ١٨١.

[١٢] المصدر نفسه، ص ٣٧.

[١٣] المصدر نفسه، ص ٥٩.

[١٤] المصدر نفسه، ص ١٤٩.

[١٥] المصدر نفسه، ص ١٤٢.

[١٦] المصدر نفسه، ص ١٦٢.

[١٧] المصدر نفسه، ص ١٨٧.

[١٨] المصدر نفسه، ص ١٩٢.

كما تشتهر الأندلس بزيت الزيتون، حيث اشتهرت به كل من لقنت[1]، وتدمير[2]، وشوذر التابعة لجيان[3] واشبيلية التي تعتبر مصدراً أساسياً لتصدير الزيت والمتاجرة به إلى مختلف المناطق وذلك نظراً لما يتمتع به من رفعة وجودة[4].

أما زراعة التفاح فتنتشر في غرناطة[5]، وشنترة التابعة لاشبونة[6] ووشقة الواقعة شرقي مدينة سرقسطة[7]، وقد اشتهرت سرقسطة بحفظه[8]، كما أن حصن جليانة التابع لوادي أش اشتهر بزراعة التفاح وخاصة الصنف الذي عرف بالتفاح الجلياني[9]، ويوجد أيضاً في منطقة اشكوني[10]، وشلب[11]، وقلمرية[12]، ولورقة[13].

في حين أن التين قد غرس بكثرة في أنحاء مختلفة من الأندلس، فاشتهرت بزراعته مالقة[14] التي وصفها ابن بطوطة أنها مركز مهم بالاضافة إلى المناطق التابعة لها لتصدير التين إلى المشرق والمغرب[15]، كما اشتهرت بزراعة التين أيضاً

---

[1] ابن سعيد، ج٢، ص ٢٧٤.

[2] العذري، ص ٥؛ الحميري، ص ٦٣.

[3] الحميري، ص ١١٧.

[4] العذري، ص ٩٥؛ الادريسي، صفة، ص ١٧٨؛ القزويني، ص ٤٩٧؛ الحميري، ص ١٩، ٢١؛ المقري، نفح، ج١، ص ١٥٨.

[5] القلقشندي، صبح، ج٦، ص ٢١٦.

[6] القزويني، ص ٥٤٢؛ أبو الفداءن ص ١٧٣؛ القلقشندي، صبح، ج٥، ص ٢٢٣؛ الحميري، ص ١١٣؛ المقري، نفح، ج١، ص ١٦٤.

[7] العذري، ص ٥٥.

[8] الحميري، ص ٩٧؛ المقري، نفح، ج١، ص ١٩٧.

[9] المقري، نفح، ج١، ص ٤٩.

[10] الحميري، ص ٢٢، ١٧٢.

[11] المصدر نفسه، ص ١٦٤.

[12] المصدر نفسه، ص ١٠٦.

[13] المصدر نفسه، ص ١٧٢.

[14] الادريسي، صفة، ص ١٩٦؛ أبو الفداء، ص ١٧٥؛ ابن بطوطة، تحفة النظار في غرائب الأمصار، شرح وتهميش: طلال حرب، ص ٦٧٩؛ المقري، نفح، ج١، ص ١٥١.

[15] ابن بطوطة، ص ٦٧٩؛ الحميري، ص ١٧٨، وقال أنه كان يتاجر به إلى الشام ومصر.

لقنت[١]، وغرناطة[٢]، وكذلك طليطلة التي امتازت بصنف مميز منه[٣] وأكثر بلدان الأندلس تيناً كما ذكر القلقشندي هي بلّس[٤]، ويوجد التين بكثرة في منطقة مرسية[٥]، وحول حصن ببشتر[٦] وفي منطقة اشكوني[٧]، وفي دانية[٨]، وفي شريش[٩]، وفي الجزيرة الخضراء[١٠]، وفي اشبيلية[١١]، وقد ذكر المقري أن فيها نوعين من التين هما التين القوطي والتين الشعري[١٢]، كما أنها اشتهرت بتينها اليابس[١٣]، ومن المناطق التي يكثر فيها التين بشكل كبير حصن قسطلة[١٤]، ومدينة قورية[١٥]، ويشتهر اقليم الشنشين الذي يضم مدينة شلب بالتين، إذ يتاجر به من هذه المنطقة إلى أقطار الغرب[١٦]، كما أن مدينة شنتمرية (شنت مارية) هي الأخرى من الأماكن التي تهتم بزراعة التين[١٧].

---

[١] ابن سعيد، ج٢، ص ٢٧٤؛ الحميري، ص ١٦٩، ١٧٠، ١٧٢.

[٢] القلقشندي، صبح، ج٥، ص ٢١٦.

[٣] ابن سعيد، ج٢، ص ٩.

[٤] القلقشندي، صبح، ج٥، ص ٢١٨؛ وقال أن بلّى تلي مدينة المنكب من جهة الغرب، وانظر ابن بطوطة، ص ٦٧٩، فانها وردت عنده بلّش وقال أنها من توابع غرناطة.

[٥] الحميري، ص ١٨٣.

[٦] ابن بطوطة، ص ٦٧٩.

[٧] الحميري، ص ٢٢، ١٧٢.

[٨] الادريسي، صفة، ص ١٩٢؛ الحميري، ص ٧٦.

[٩] الادريسي، صفة، ص ٢٠٦؛ الحميري، ص ١٠٢.

[١٠] الحميري، ص ٧٣.

[١١] الادريسي، صفة، ص ١٧٨؛ الحميري، ص ١٩.

[١٢] المقري، نفح، ج١، ص ٢٠٠.

[١٣] القزويني، ص ٢٩٧.

[١٤] الادريسي، صفة، ص ١٧٩؛ الحميري، ص ١١٥.

[١٥] الادريسي، صفة، ص ١٨٣؛ الحميري، ص ١٦٤.

[١٦] الادريسي، صفة، ص ١٨٠.

[١٧] الادريسي، صفة، ص ١٧٩؛ الحميري، ص ١١٥.

وقد زرعت في الأندلس، خاصة في مناطق غرناطة والساحل[١]، ومالقة[٢]، حيث كانت المنطقة الأخيرة والمناطق التي تتبعها مصدراً كبيراً لتجارة اللوز وتصديره إلى بلاد المشرق والمغرب[٣].

أما المناطق الأندلسية التي اشتهرت بزراعة الرمان بكثرة فكانت مالقة[٤]، وتدمير حيث امتاز رمّانها بجودته[٥]، وكذلك اشكوني[٦]، ولورقة[٧]، واشتهرت طليطلة كذلك بزراعة الرمان[٨]، والجلنار الذي ينمو حتى يصير بحجم الرّمانة[٩].

أما الموز فقد قال المقري أنه يزرع في سواحل الأندلس[١٠]، في حين ذكر القزويني أن الموز يزرع بسواحل البيرة[١١]، وبيّن الحميري أن زراعته تجود في شلوبينية[١٢]، واشتهرت المنكب على غيرها في الأندلس بموزها المشهور كما أشار إلى ذلك القلقشندي[١٣].

---

(١) الحميري، ص ٢٤.

(٢) أبو الفداء، ص ١٧٥؛ ابن بطوطة، ص ٦٧٩.

(٣) ابن بطوطة، ص ٦٧٩.

(٤) ابن بطوطة، ص ٦٧٩.

(٥) العذري، ص ٢.

(٦) الحميري، ص ٢٢، ١٧٢.

(٧) المصدر نفسه، ص ١٧٢.

(٨) القلقشندي، صبح، ج٥، ص ٢٢٨.

(٩) ابن سعيد، المغرب، ج ٢، ص ٨؛ أبو الفداء، ص ١٧٧؛ القلقشندي، صبح، ج٥، ص ٢٢٨.

(١٠) المقري، نفح، ج١، ص ٢٠٠.

(١١) القزويني، ص ٥٠٢.

(١٢) الحميري، ص ١١١.

(١٣) القلقشندي، صبح، ج٥، ص ٢١٨.

وتتفوق تدمير على غيرها من المناطق الأندلسية بفاكهة الكمثري[١]، التي تـزرع أيضاً في كل من وشقة[٢]، وبلنسية[٣]، وشنترة[٤]، واشـكوني[٥]، وركلـة القريبـة مـن سرقسطة[٦]. بالاضافة إلى ما سبق فتشتهر تدمير بسفرجلها الذي يعدّ من أطيب الأصناف في الأندلس[٧].

ومن الثمار التي تميزت بها أندلس المسـلمين الزعـرور[٨] والمصـّـع[٩]، ولقـد اشتهرت سرقسطة، بحفظ الأجاص[١٠]، وهذه الاشارة تعدّ مـن الدلائـل علـى زراعـة الاجاص بكثرة في منطقة سرقسطة، كما أن سرقسطة اشتهرت أيضاً بحفظ الخـوخ[١١]، وهذه الاشارة تدلّ على أن هذه المدينة اشتهرت بصناعة حفظ الفواكه المجففة، وبالتـالي فان ذلك يفيد الصناعة والتجارة فيها وينعكس بشكل عام على الأندلس، أما أوسع المناطق الأندلسية زراعة لفاكهة الخوخ فكانت غرناطة، حيث انتشرت زراعتـها فيـها بشـكل كبير[١٢].

وأما نبات القراسيا (القراصيا) فإن قلمرية من المناطق التي عرفت بزراعتـه[١٣] في حين أن سرقسطة اشتهرت بحفظه[١٤]، وتميزت قراصيا غرناطة بالجودة والرفعـة إذ

---

[١] العذري، ص ٢.
[٢] المصدر نفسه، ص ٥٥؛ الحميري، ص ١٩٤ـ١٩٥.
[٣] المقري، نفح، ج١، ص ١٧٩.
[٤] الحميري، ص ١١٣.
[٥] المصدر نفسه، ص ٢٢، ١٧٢.
[٦] المصدر نفسه، ص ٧٨ـ٧٩.
[٧] العذري، ص ٢.
[٨] المصدر نفسه، ص ٥٥؛ الحميري، ص ١٩٥.
[٩] والمصـّع يشبه الزعرور في اللون ويخالفه في المذاق وهو أفضل منـه وهـو قريـب إلـى فصيلـة الكمثرى؛ العذري، ص ٥٥.
[١٠] المقري، نفح، ج١، ص ١٩٧.
[١١] المصدر نفسه، ج١، ص ١٩٧.
[١٢] القلقشندي، صبح، ج٥، ص ٢١٦.
[١٣] الحميري، ص ١٦٤.
[١٤] القلقشندي، صبح، ج٥، ص ١٩٧.

أنها اشتهرت بزراعتها وخاصة النوع المعروف بالقراصيا البعلبكية[١]، والاشارة هنا إلى بعلبك التي تقع في بلاد الشام تدل على أن هذا النبات قد انتقل من الشام إلى الأندلس.

واشتهرت الأندلس بزراعة الأعناب بكثرة خاصة في غرناطة[٢]، وبلّش (بلّس) التابعة لها[٣]، وسرقسطة[٤] ومالقة[٥]، وشنتمرية (شنت مارية)[٦] ومنطقة حصن مربيطر[٧]، ومرسية[٨]، ولقنت[٩]، ووادي آش[١٠]، وقورية[١١]، وبجانة[١٢]، أما العنّاب فقد اتصفت لبلة بعنّابها الذي لا نظير له[١٣]. ونتيجة لوجود العنب في الأندلس بكثرة فقد قام الأندلسيون بصناعة الزبيب، حيث أن مدينة المنكب اشتهرت بزبيبها الذي امتاز بجودته[١٤]، وكذلك مدينة ألش التي يصدر منها إلى بقية أنحاء الأندلس[١٥].

ويزرع الجوز في غرناطة[١٦]، أما شجر التوت الذي يستفاد منه في تربية دودة الحرير، فقد زرعه الأندلسيون بكثرة في حصن شنش[١٧]، وبسطة[١٨]، ووادي

---

(١) القلقشندي، صبح، ج٥، ص ٢١٦.
(٢) المصدر نفسه، ج٥، ص ٢١٦.
(٣) المصدر نفسه، ج٥، ص ٢١٨؛ ابن بطوطة، ص ٦٧٩.
(٤) المقري، نفح، ج١، ص ١٩٧.
(٥) ابن بطوطة، ص ٦٧٩.
(٦) الادريسي، صفة، ص ١٧٩؛ الحميري، ص ١١٥.
(٧) الحميري، ص ١٨١.
(٨) المصدر نفسه، ص ١٦٤.
(٩) المصدر نفسه، ص ١٦٩، ١٧٠.
(١٠) المصدر نفسه، ص ١٩٢.
(١١) المصدر نفسه، ص ١٦٤.
(١٢) القلقشندي، صبح، ج٥، ص ٢١٦.
(١٣) العذري، ص ١١١؛ القزويني، ص ٥٥٥.
(١٤) القلقشندي، صبح، ج٥، ص ٢١٨.
(١٥) القزويني، ص ٥٠٢.
(١٦) القلقشندي، صبح، ج٥، ص ٢١٦.
(١٧) المقري، نفح، ج١، ص ١٦٤.
(١٨) الحميري، ص ٤٥.

آش[١]، وفنيانة[٢]، وأشكوني[٣]. بينما زرع النخيل في جيان، كما ذكر الحميري[٤]، إلا أن القزويني قال أن النخيل لم تنجح زراعته في الأندلس بشكل جيد إلا في مدينة ألش التي تقع بالقرب من تدمير[٥].

أمّا الصنوبر فقد كثرت زراعته في مدينة القصر القريبة من شلب[٦]، وأن أطيب أنواع الصنوبر كانت موجودة في شلطيش[٧]، وشنتمرية[٨]، وطرطوشة حيث يستخدم شجره كمادة خشبية[٩]، إذ لا يخفى فائدة الخشب في تلك العصور ومدى الفوائد التي تعود على البلاد التي تزرعه نظراً لتعدد الحاجة إليه وتعدد الأبواب التي يستفاد منه فيها في مجالات الصناعة وخاصة الصناعة الأثاثية والحربية على حدّ سواء.

أمّا البلوط فقد كان منتشراً في غرناطة[١٠]، كما تحيط أشجار البلوط بجبال وسهول حصن بطروش[١١]، وأما أشجار القسطل فقد زرعت في غرناطة[١٢]، وأكثر المناطق زراعة للقسطل فّريش[١٣]، أمّا مدينة قادس فقد اشتهرت بنبات الرتم[١٤]، وشجر المثنان – الذي يشبه شجر النخل إذ أنه يفرز مادة صمغية تستعمل في تصميغ الزجاج[١٥]، وتتميز

---

(١) الحميري، ص ١٩٢.

(٢) المصدر نفسه، ص ١٤٣.

(٣) المصدر نفسه، ص ٢٢.

(٤) المصدر نفسه، ص ٧٢.

(٥) القزويني، ص ٥٠٢.

(٦) الادريسي، صفة، ص ١٨١؛ الحميري، ص ١٦١.

(٧) الحميري، صفة ١١١.

(٨) المصدر نفسه، ص ١١٤–١١٥.

(٩) المصدر نفسه، ص ١٢٤.

(١٠) القلقشندي، صبح، ج٥، ص ٢١٦.

(١١) المصدر نفسه، ج٥، ص ٤٥.

(١٢) المصدر نفسه، ج٥، ص ٢١٦.

(١٣) المصدر نفسه، ج٥، ص ١٤٣.

(١٤) الحميري، ص ١٤٥.

(١٥) العذري، ص ١٧.

طرطوشة بشجر البقس[١] في حين أن شقورة تشتهر بشجر الطخش الذي يستخدم في الصناعة العسكرية، إذ يستفاد منه في صناعة القسي[٢].

واشتهرت الأندلس إبان العهد الإسلامي بالنباتات والأمور المتعلقة بها. كما اهتمت بالنباتات التي تصنع منها الملابس، فقد زرع الأندلسيون الكتان في منطقة باجة ونتيجة لذلك قامت صناعة كتانية متخصصة فيها[٣]، وامتازت غرناطة ومناطقها (البيرة) بزراعة الصنف الجيد منه حيث كان يشكل تجارة رائجة تصل إلى أقصى بلاد المسلمين[٤]، كما أن اندرش التابعة للمرية[٥] وشلير[٦] ولاردة[٧] كانت موطناً لزراعة الكتان الأندلسي إبان عهد المسلمين.

ومن النباتات التي زرعها الأندلسيون القطن، وذكرت بعض المصادر أن اشبيلية تميّزت عن سائر بلدان الأندلس بقطنها عالي الجودة الذي يعّم الأندلس، حتى يفيض عن الحاجات الداخلية ويصدر إلى افريقية[٨]، وأما الحرير الذي كان يستخرج من دودة الحرير (القز) التي تعيش على شجر التوت، فقد كانت تنتجه كل من جيان وأعمالها التي اختصت بتربية دودة الحرير[٩]، حتى أن الإدريسي قال أن اقليم البشارات الذي يضم مدينة جيان وما يقارب الستمائة قرية وحصن كلها كانت تنتج الحرير[١٠]، وذكر الحميري أن جيّان وما يزيد عن ثلاثة آلاف قرية من قراها كانت تربي دودة الحرير[١١]، ومن المناطق

---

(١) الحميري، ص ١٢٤.
(٢) المصدر نفسه، ص ١٠٥.
(٣) القزويني، ص ١٥٩.
(٤) ابن سعيد، ج٢، ص ٩١؛ الحميري، ص ٢٤.
(٥) الحميري، ص ٣٢.
(٦) المصدر نفسه، ص ١١٢.
(٧) المصدر نفسه، ص ١٦٨.
(٨) العذري، ص ٩٦؛ الحميري، ص ٢١.
(٩) أبو الفداء، ص ١٧٧؛ القلقشندي، صبح، ج٥، ص ٢١٩، ٢٢٩؛ الحميري، ص ٧٠.
(١٠) الادريسي، صفة، ص ١٧٤.
(١١) الحميري، ص ٧٠.

الأندلسية التي اشتهرت بانتاج الحرير بسطة التابعة لجيان[1] وحصن شنش التابع لمالقة[2]، وشلير[3]، والبيرة ومناطقها حتى أن الحرير كان يصل إلى كثير من أصقاع الأرض[4].

ومن النباتات الغذائية التي زرعها الأندلسيون الفول والحمص وقد وردت اشـــارة إلى أن سرقسطة اشتهرت بحفظهما[5]، ولا شك أن عدم ورود اشارات أخرى إلى أمـــاكن زراعتهما في الأندلس لا يعني عدم وجودهما في مناطق الأندلس الأخرى، إنمـــا جـــاءت الاشارة إلى أن سرقسطة اشتهرت بحفظهما، كما وردت الاشارة إلى اشتهارها في حفـــظ الحبوب والفاكهة لفترات طويلة، مثل حفظها للقمح والعنب والتين والخـــوخ والأجـــاص والقراسيا[6]. وأما المناطق التي اشتهرت في الأندلس بغـــلات القمـــح والشـــعير بكـــثرة فهي أبذة التي تقع على مقربـــــة مـــن بياســـة[7]، وقرطبـــة وأقاليمـــها[8]، وشـــنترة[9]، وقرمونة[10]، وبلاطة التـــي تقـــع بيـــن اشـــبونة وشـــنترين[11]، وشـــريش[12]، ووادي الحجارة[13]، وتدمير[14]، وتكثر زراعة الحبوب وخاصة القمح في برشـــلونة[15]، ومـــن أشهر بلاد الأندلس التي اشتهرت بزراعة الحبـــوب خاصـــة القمـــح والشـــعير مدينـــة

---

(1) الحميري، ص ٤٥.

(2) ابو الفداء، ص ١٧٥؛ المقري، نفح، ج١، ص ١٦٤.

(3) الحميري، ص ١١٢.

(4) المصدر نفسه، ص ٢٤.

(5) المقري، نفح، ج١، ص ١٩٧.

(6) المصدر نفسه، ج١، ص ١٩٧.

(7) ابن سعيد، ج٢، ص ١١؛ الحميري، ص ١١. وقال ابن ابذة تقع على مقربة من النهر الكبير.

(8) العذري، ص ٢٤، ١٢٥، ١٢٦، ١٢٧.

(9) المقري، نفح، ج١، ص ١٦٤.

(10) الادريسي، صفة، ص ٢٠٦.

(11) الحميري، ص ٤٦.

(12) الادريسي، ص ٢٠٦؛ الحميري، ص ١٠٢.

(13) الحميري، ص ١٩٣.

(14) العذري، ص ٥.

(15) الحميري، ص ٧٠.

جيّـــــــان[1]، كما أن يبورة القريبة من مدينة القصر تكثر فيــها زراعـــة الحنطـــة إذ أنها اتصفت بخصوبتها[2]، واشتهرت طليطلة[3]، وسرقسطة[4] بحفظ القمح لفترات طويلة.

وذكر العذري أن بلنســية اشــتهرت بزراعـــة الأرز[5]، أمـــا زراعـــة قصـــب السكر فكانت منتشرة ومزدهرة في الأندلـــس إبـــان العـــهود الإســـلامية فيـــها. وقـــد ذكر المقري أن زراعة قصب السكر كـــانت منتشـــرة فـــي المنـــاطق الســـاحلية مـــن الأندلس[6]، أما المناطق التي كـــانت تشـــتهر بزراعتـــه فـــهي اشـــبيلية[7]، وغرناطـــة والمناطق الساحلية القريبة منها[8]، وفي شلوبين (شلوبينية) التابعة لها[9]. وقـــد وصـــف القزويني زراعة قصب السكر بأنها تجود في البيرة[10]، ومن أوسع المنـــاطق الأندلســـية لزراعة قصب السكر مدينة المنكب فهي تعتبر مركزاً مـــهماً لتصديـــره إلـــى المنـــاطق الأخرى[11].

وتجود زراعة العصفر في لبلة[12]، واشبيلية، حيث اعتـــبرت الأخـــيرة ركـــيزة أساسية لانتاجه بما يكفي حاجات الأندلس، وتصدير الفائض إلى كثير من الأصقـــاع[13].

---

(1) الحميري، ص ٧٠.

(2) الادريسي، صفة، ص ١٨١.

(3) الحميري، ص ١٣٣؛ المقري، نفح، ج١، ص ٤٣؛ القزويني، ص ٥٤٥ وقال انها اشـــتهرت بحفـــظ الغلال.

(4) المقري، نفح، ج١، ص ١٩٧.

(5) العذري، ص ١٧.

(6) المقري، نفح، ج١، ص ٢٠٠.

(7) العذري، ص ٩٦؛ الحميري، ص ٢٦؛ المقري، نفح، ج١، ص ٢٠٨.

(8) الحميري، ص ٢٤.

(9) القلقشندي، صبح، ج٥، ص ٢١٨؛ وتقع شلوبين على مقربة من المنكب، الحميري، ص ١١١.

(10) القزويني، ص ٤٩٧.

(11) القلقشندي، صبح، ج٥، ص ٢١٨.

(12) العذري، ص ١١١؛ ابن الشباط، م١٤، ص ١١٧؛ القزويني، ص ٥٥٥؛ الحميري، ص ١٦٩.

(13) العذري، ص ٩٦؛ الحميري، ص ٢١.

أما الزعفران فقد زُرع بكثرة في الأندلس في كل من مدينـــة بيّاســـة[١] وبســـطة التـــي قال فيـــها القلقشـــندي أنـــها تكفـــي مســـلمي الأندلـــس بمـــادة الزعفـــران[٢]، وكذلـــك تكثر زراعة الزعفران في بلنسية[٣]، كمـــا أن طليطلـــة اختصـــت بـــالزعفران عـــالي القيمة الذي يستغل في التجارة فيحقـــق لأصحابـــه أرباحـــاً كبـــيرة[٤]، وكذلـــك باغـــة التابعة لغرناطة[٥]، ووادي الحجارة[٦]، وبسبب الانتـــاج الفـــائض فـــي الأندلـــس مـــن مادة الزعفران فإن تجارتها كانت رابحة وكانت تصل إلى منـــاطق كثـــيرة مـــن العـــالم آنذاك[٧].

أما نباتات البقوليات فإنها تـــزرع فـــي جيـــان[٨]، ولقنـــت[٩]، ويبـــورة القريبـــة من مدينة القصر[١٠]، وزرع الأندلسيون الأفأوية (التوابـــل والبـــهارات)، فقـــد زرعـــوا منها خمسة وعشرين صنفاً مثـــل الســـنبل والقرنفـــل والصنـــدل، والقرفـــة، وقصـــب الذريرة[١١]. وقد بيّن الحميري أن جبـــل شـــيبة القريـــب مـــن مدينـــة قـــبرة، اشـــتهر بنباتات الأفأوية المختلفة[١٢]، كما أن المدينة نفســـها اشـــتهرت بزراعتـــها[١٣]، وكذلـــك الحال بالنسبة لجبال غرناطـــة[١٤]، أمـــا الســـنبل الـــذي يـــزرع فـــي الأندلـــس فانـــه

---

[١] ابن سعيد، المغرب، ج٢، ص ٧١؛ أبـــو الفـــداء، ص ١٦٧؛ القلقشـــندي، صبـــح، ج٥، ص ٢٢٩؛ الحميري، ص ٥٧؛ المقري، نفح، ج١، ص ١٧٩: وقال أنه نوع من أنوع الطيـــب، انظـــر، ج١، ص ١٩٩.

[٢] القلقشندي، صبح، ج٥، ص ٢٢١.

[٣] العذري، ص ١٧؛ القزويني، ص ٥١٣.

[٤] الحميري، ص ١٣٣؛ المقري، نفح، ج١، ص ١٤٣.

[٥] المقري، نفح، ج١، ص ١٤٩.

[٦] الحميري، ص ١٩٣.

[٧] ابن سعيد، ج٢، ص ٧١؛ أبو الفداء، ص ١٦٧؛ القلقشندي، صبح، ج٥، ص ٢٢٩.

[٨] الحميري، ص ٧٠.

[٩] المصدر نفسه، ص ١٧٠.

[١٠] الادريسي، صفة، ص ١٨١.

[١١] المقري، نفح، ج١، ص ١٩٩.

[١٢] الحميري، ص ١٤٩.

[١٣] المصدر نفسه، ص ١٤٩.

[١٤] القزويني، ص ٥٤٧.

اتصف بالجودة[١]، وأعطى الحميري مثالاً لذلك فذكر سنبل قرطاجنة الحلفاء[٢]، كما أشار إلى أن هناك نوعاً آخر من السنبل يزرع في الأندلس في مدينة شقورة وهو المسمى بالسنبل الرومي[٣]. وقال القزويني أن زراعة السنبل والقسط والأشقاقل والانبرباريس والعود هي من النباتات التي كانت مزدهرة في الأندلس[٤]، وقد بيّن الادريسي أن نبات العود يكثر في مدينة شلب ومناطقها حيث أنه يتاجر به إلى كثير من المناطق[٥]، أما عود الألنجوج ذو الرائحة العطرية فقد زرع في منطقتي المرية واكشونبة[٦]، في حين أن لبلة هي موطن زراعة القرنفل[٧].

ويزرع في شنترة نبات البنفسج[٨]، والورد الزكي في شقورة[٩]، إذ تعتبر هذه المدينة من المناطق المختصة بالعطر في الأندلس[١٠]، وتنبت أنواع الأزاهر في منطقة قبرة[١١]، وجبال غرناطة[١٢]، كما أن الأخيرة تشتهر بأصناف الرياحين[١٣]، في حين أن قبرة اشتهرت بالنرجس[١٤]، ومن نباتات الأندلس المشهورة الحلفاء التي اشتهرت بها كل من قرطاجنة الحلفاء[١٥]، ولقنت التي كانت تتاجر بها[١٦]. كما أن الأندلس اشتهرت بالأصباغ، فقد تميزت طليطلة بصبغها السماوي[١٧].

---

(١) القزويني، ص ٥٠٣.
(٢) الحميري، ص ١٥١.
(٣) المصدر نفسه، ص ١٠٥.
(٤) القزويني، ص ٥٠٣.
(٥) الادريسي، صفة، ص ١٨٠.
(٦) المقري، نفح، ج١، ص ١٤١.
(٧) الحميري، ص ١٦٩.
(٨) المصدر نفسه، ص ١١٣.
(٩) المصدر نفسه، ص ١٠٥.
(١٠) المصدر نفسه، ص ١٠٥.
(١١) المصدر نفسه، ص ١٤٩.
(١٢) القزويني، ص ٥٤٧.
(١٣) القزويني، ص ٥٤٧.
(١٤) الحميري، ص ١٤٩.
(١٥) المصدر نفسه، ص ١٥١.
(١٦) المصدر نفسه، ص ١٧٠.
(١٧) المصدر نفسه، ص ١٣٣؛ المقري، نفح، ج١، ص ١٤٣.

أما في مجال الصناعة فقد كانت الأندلس من الدول الشهيرة في صناعاتها المدنية والعسكرية، إذ عملت في الصناعات التعدينية والصناعات النسيجية والصناعات الغذائية، فكانت الأندلس من المناطق المهمة في العالم التي عرفت بصناعة المواد الغذائية كحفظ الحبوب والفواكه، وتجفيفها للاستفادة منها في أوقات لا تكون فيه متوفرة بشكل طازج[1]، كما أن صناعة النبيذ كانت مزدهرة في الأندلس، إذ استخرجوا الخمر من العنب على الرغم من تحريمها[2]، وقد وردت اشارات في بعض المصادر تثبت أن بعض الأندلسيين كانوا يشربونها وسمّت بعض الأماكن التي كانت نقاط تجمع لشاربيها[3]، كما أنهم استعملوا معاصر الزيتون[4] والطواحين الهوائية المائية[5].

وقد ازدهرت الصناعات النسيجية في الأندلس إبان العصر الإسلامي ازدهاراً عظيماً ووصلت إلى أوج عظمتها واتقانها، وشاهدها في اتقان الأندلسيين لفنون الأصباغ[6]، الأمر الذي أكسب ملابسهم الألوان الزاهية الفاخرة. فقد ذكر الادريسي أن الثياب البيضاء التي كانت تصنّع في حصن بكيران تباع بأثمان غالية[7] كما أن قلشانة القريبة من شذونة كانت تشتهر بصناعة نوع من الثياب عرف بالثياب القلشانية[8]. وامتازت شنترين بنسيج الثياب المذهبة[9]. أما الصناعات الكتانية فقد كانت باجة وتوابعها متخصصة

---

(1) ابن حجاج، ص ٣٢_٣٣، ٣٤، ٤٤٨؛ انظر المقري، نفح، ج١، ص ١٩٧.

(2) حسن، د.حسن ابراهيم، تاريخ الاسلام السياسي والديني والثقافي والاجتماعي، ج٢، ط٣، مصر، ١٩٦٤، ص ٣١١.

(3) ابن سعيد، ج١، ص ١١، ج٢، ص ٣١٩، ٣٦٤؛ الحميري، ص ١٨٧.

(4) د. حسن، ج٢، ص ٣١١.

(5) المرجع نفسه، ج٢، ص ٣١٠.

(6) ابن الشباط، م ١٤، ص ١١٧؛ الحميري، ص ٣٩، ١٥١؛ المقري، نفح، ج١، ص ٢٠١.

(7) الادريسي، صفة، ص ١٩٢.

(8) الحميري، ص ١٦٣.

(9) القزويني، ص ٥٤٢.

بصناعتها[١]، وكانت المصنوعات الكتانية والأردية التي تصنع في بجانة تصل إلى مصر ومكة واليمن[٢]. وذكر ابن حوقل أن الأندلس اشتهرت كذلك بصناعات الصوف واللبود والأصباغ والديباج التي لا تضاهيها أية صناعة مماثلة في العالم آنذاك[٣] كما أن صناعة الخز والملابس الشتوية المشمعة الواقية من المطر كانت مزدهرة في الأندلس[٤]، وممّا ميّز صناعات الأندلس رخصها وتوافرها بكثرة في الأسواق[٥].

كما أن الأندلس اشتهرت بمنسوجاتها الحريرية، وذلك لتوفر مادة الحرير بكثرة في الأندلس[٦] فبرزت مالقة[٧] والمرية[٨]، واندرش وفنيانة ودلاية وغرناطة كمناطق متخصصة بهذه الصناعة[٩]، وكذلك بجانة[١٠]، كما أن غرناطة وبسطة اشتهرتا بصناعة الثياب الحريرية وخاصة الصنف الذي عرف بالملبد المختم ذو الألوان العجيبة[١١]. وذكرت بعض المصادر[١٢] أن المرية لوحدها كانت تحتوي على ثمانمائة نول لنسج طرز الحرير وألف نول للحلل النفيسة والديباج الفاخر...وللثياب الجرجانية، وللأصفهانية، وللعنابي والمعاجر المدهشة والستور المكللة. وهذه الأعداد تدل على ازدهار ورقي وتطور الصناعات الأندلسية في مجالات الملابس.

---

(١) المقري، نفح، ج١، ص ١٥٩.
(٢) ابن حوقل، ص ١٠٩.
(٣) المصدر نفسه، ص ١٠٩.
(٤) المصدر نفسه، ص ١٠٩.
(٥) المصدر نفسه، ص ١٠٩.
(٦) انظر هذه الدراسة، ص
(٧) المقري، نفح، ج١، ص ١٦٣.
(٨) الحميري، ص ١٨٤؛ المقري، نفح، ج١، ص ١٦٣.
(٩) المقري، نفح، ج١، ص ٢٠١.
(١٠) الحميري، ص ٣٩.
(١١) المقري، نفح، ج١، ص ٢٠١.
(١٢) الحميري، ص ١٨٤؛ المقري، نفح، ج١، ص ١٦٤.

كما أن المرية ومالقة ومرسية كلها قد اختصت بالوشي المذهب الذي يتعجب من حسن صنعته أهل المشرق(١)، وأضاف ابن سعيد أن مرسية اشتهرت بصناعة الحلل والديباج(٢)، كما أن فنيانة هي الأخرى ازدهرت فيها صناعة طرز الديباج كما ذكر الحميري(٣)، وكذلك فإن المرية تفوقت في صناعته(٤). ومن صناعات الأندلس المدنية إبان العهد الإسلامي صناعة الوطاء الجنجالي الذي اشتهرت بتصنيعه شنتجالة(٥)، وطرز الوطاء (البساط) البسطي المتميز دون غيره الذي كان يصنّع في بسطة(٦)، كما أن مرسية اشتهرت بصناعة البسط الرفيعة(٧).

ومن الصناعات التي لعبت دوراً مهماً في حياة الأندلس صناعة الفخار المذهب العجيب الذي استخدم في مجالات واسعة للتجارّة فيما بين الأندلس وغيرها من المناطق البعيدة، وأبرز المناطق التي كانت مراكز صناعة متخصصة في هذا المجال مالقة(٨)، واندراش التي امتازت بصناعة الفخار عالي الجودة نظراً لجودة تربتها(٩)، وكذلك ارحصونة وانتقيرة، وبرجة(١٠). أما مرسية ومالقة والمرية فإنها جميعاً قد اختصت بصناعة الزجاج والفخار المزجج والمذهب(١١)، ويصنع في الأندلس نوع من المفضض المعروف بالفسيفساء في المشرق(١٢).

ومن الصناعات الأندلسية التي صنّعتها مرسية في عهد العرب الأسرّة المرصعة والحصر الفتّانة الصنعة وآلات الصّفر والحديد من السكاكين والأمقاص المذهبة، وأجهزة

---

(١) المقري، نفح، ج١، ص ٢٠١.
(٢) ابن سعيد، ج٢، ص ٢٤٥.
(٣) الحميري، ص ١٤٤.
(٤) المقري، نفح، ج١، ص ١٦٢.
(٥) الحميري، ص ١١٢.
(٦) القزويني، ص ٥٠٢؛ الحميري، ص ٤٥.
(٧) الحميري، ص ١٨٢.
(٨) ابن بطوطة، ص ٦٧٩؛ القلقشندي، صبح، ج٥، ص ٢١٩.
(٩) القلقشندي، صبح، ج٥، ص ٢٢١.
(١٠) المصدر نفسه، ج٥، ص ٢٢١.
(١١) المقري، نفح، ج١، ص ٢٠٢.
(١٢) المصدر نفسه، ج١، ص ٢٠٢.

العروس[1]، واختصت مالقة بصناعة الأطباق وما شابه[2]، كما أن الأندلس اشتهرت إبان العصر الإسلامي بالجلود ودباغتها[3] فاشتهرت لبلة بصناعة الجلود[4]، وباجه بدباغتها[5]. وقد ذكر الادريسي أن قرطبة اشتهرت في مختلف الصناعات[6].

واشتهرت الأندلس في مجالات الصناعة التعدينية بالاضافة إلى الثروة المعدنية الهائلة التي ظلت آلاف السنين لم تمسّ منذ استغلها الفينيقيون، ففي الأندلس معادن الذهب والفضة والرصاص والشبّ والزئبق واللازورد والتوتيا[7] والنحاس[8]، والزاج والطفل[9] والحديد[10] والكبريت الأحمر والأصفر والزنجفر والكحل[11] وبها من الأحجار الكريمة الياقوت والبلور والجزع[12] كما يوجد بها معدناً المغناطيس والشادنج[13]، كما أن العنبر موجود في جهاتها الغربية[14]. ومن معادن الأندلس التي ازدهرت صناعتها في ظلّ الحكم الإسلامي للاندلس معدن الزجاج[15] وكما أن معدن المغنيسيا متوافر بكثرة في الأندلس[16]. ومعدن الذهب التبر وبرادة الذهب الخالص تكثر قرب لشبونة في منطقة حصن المعدن[17]، حيث أن البحر يقذف بالذهب التبر إلى منطقة الحصن[18]، ويوجد

---

(1) المقري، نفح، ج١، ص ٢٠١.

(2) القلقشندي، صبح، ج٥، ص ٢١٩.

(3) العذري، ص ١١١.

(4) القزويني، ص ٥٥٥.

(5) المقري، نفح، ج١، ص ١٥٩.

(6) الادريسي، صفة، ص ٢٠٨.

(7) ابن الشبّاط، م١٤، ص ١٠٢؛ القزويني، ص ٥٠٣؛ ابن عذاري، ج٢، ص ٤١ وهونكه، ص ٤٧٩.

(8) ابن الشبّاط، م١٤، ص ١٠٢؛ ابن عذاري، ج٢، ص ١.

(9) ابن الشبّاط، م١٤، ص ١٠٢؛ ابن عذاري، ج٢، ص ١.

(10) ابن الشبّاط، م ١٤؛ القزويني، ص ٥٠٣.

(11) القزويني، ص ٥٠٣.

(12) المصدر نفسه، ص ٥٠٣.

(13) المصدر نفسه، ص ٥٠٣.

(14) المصدر نفسه، ص ٥٠٣؛ المقري، نفح، ج١، ص ١٤٠.

(15) ابن سعيد، ج١، ص ٣٣٣؛ القزويني، ص ٢٤٥؛ المقري، نفح، ج١، ص ٣٧٤.

(16) المقري، نفح، ج٢، ص ١٤٢.

(17) القزويني، ص ٥٤٧؛ ابن عذاري، ج٢، ص ١٦؛ الحميري، ص ١٦.

(18) الادريسي، صفة، ص ١٨٤.

معدن التبر الخالص في لشبونة[1]، ويستخرج قسم من معدن الذهب من نهر لاردة[2] ومن لاردة نفسها[3]، كما أن الذهب يستخرج من البيرة[4] في حين أن برادة الذهب الخالص تستخرج من مجرى نهر غرناطة[5] وهناك كميات من الذهب تستخرج من حصن المدور[6]، وأعظم مناطق الأندلس ذهباً جهة شنت ياقو[7].

أما معدن الفضة في الأندلس فموجود في كورة تدمير[8] وجبال حمّة بجانة[9] وقرطبة[10] وكرتش التابعة لها[11]، وفي البيرة[12] ولوسة التابعة لها[13] وفي شنترة[14] كما أنه موجود في كورة باجة[15]، ومن المعادن الكثيرة في الأندلس الحديد الذي كان يستخرج من بكارش التابعة للمرية[16] كما استخرج من كورة المرية[17]، ومن وربة التي تقع بين دانية وشاطبة[18]، والبيرة[19]، وفّريش[20] ومن جبل

---

[1] القزويني، ص ٥٥٥؛ المقري، نفح، ج١، ص ١٤٣ وقال يجمع الذهب من ساحل الاشبونة.

[2] المقري، نفح، ج١، ص ١٤٣.

[3] الحميري، ص ١٦٨.

[4] القزويني، ص ٥٠٢؛ الحميري، ص ٢٤.

[5] القزويني، ص ٥٤٧.

[6] الحميري، ص ١٤٣.

[7] المقري، نفح، ج١، ص ٢٠١.

[8] العذري، ص ٢؛ المقري، نفح، ج١، ص ١٤٨.

[9] المقري، نفح، ج١، ص ١٤٨.

[10] القزويني، ص ٥٥٢؛ المقري، نفح، ج١، ص ٢٠٠.

[11] المقري، نفح، ج١، ص ١٤٨.

[12] الحميري، ص ٢٤.

[13] المقري، نفح، ج١، ص ١٤٨.

[14] المراكشي، ص ٤٤٨.

[15] المقري، نفح، ج١، ص ١٥٩.

[16] المراكشي، ص ٤٤٨.

[17] المقري، نفح، ج١، ص ١٦٢.

[18] المراكشي، ص ٤٤٨.

[19] القزويني، ص ٥٠٢؛ الحميري، ص ٢٤.

[20] الحميري، ص ١٤٣.

طليطلة[١]، وجبل مدينة أندة التابعة لبلنسية[٢]. أما مدينة شلطيش فتعتبر متخصصة في الصناعات الجلدية[٣]. ويعتبر معدن النحاس من المعادن الوفيرة في الأندلس خاصة في جبال طليطلة[٤]، وفي البيرة[٥] وبجانة[٦]، وتعتبر المناطق الشمالية من الأندلس من أكثر مناطقها نحاساً[٧].

أما معدن الرصاص فموجود في تدمير[٨]، وفي دلاية[٩] وبرجة[١٠] التابعين للمرية، وفي البيرة[١١]، في حين أن معدن الزئبق كان موجوداً في منطقة شمال قرطبة في حصن أبال[١٢] وهذا الحصن هو مركز تصنيع الزنجفور، ومنه كان التجار يتجهزون بالزنجفور والزئبق إلى مناطق عديدة من المعمورة، وأمّا عملية استخراج هذا المعدن فكانت تتمّ من باطن الأرض ومن ثم يتم صهره لتنقيته من الشوائب العالقة به في أفران أعدت لهذا الغرض[١٣]، واستخرج الأندلسيون الزئبق من جهات قرطبة[١٤] وجبال البرانس[١٥] كما ذكر المقري، ومن فحص البلوط[١٦]، ومن شلون الواقعة على بعد أربعة مراحل من قرطبة ومنها كان يصدّر إلى جميع المغرب[١٧].

---

(١) الادريسي، صفة، ص ١٨٨.

(٢) المقري، نفح، ج١، ص ١٨٢.

(٣) الحميري، ص ١١٠.

(٤) الادريسي، صفة، ص ١٨٨؛ الحميري، ص ١٣٣.

(٥) القزويني، ص ٥٠٢.

(٦) الحميري، ص ٣٩.

(٧) المقري، نفح، ج١، ص ٢١٠.

(٨) العذري، ص ٢.

(٩) المراكشي، ص ٤٤٨.

(١٠) المقري، نفح، ج١، ص ١٥٠.

(١١) القزويني، ص ٥٠٢؛ الحميري، ص ٢٤.

(١٢) الحميري، ص ١٠.

(١٣) المصدر نفسه، ص ١٠.

(١٤) المقري، نفح، ج١، ص ٢٠٠.

(١٥) المصدر نفسه، ج١، ص ١٤٣.

(١٦) الحميري، ص ١٤٢.

(١٧) المراكشي، ص ٤٤٨.

واشتهرت الأندلس برخامها المتعدد الألوان كالخمري والأحمر والأبيض والمجزع[١]، ففرّيش هي إحدى مناطق الأندلس التي وجد فيها الرخام[٢] واشتهرت جبال قرطبة برخامها الأبيض الناصع اللون والخمري، كما وجد الرخام أيضاً في ناشرة، وبباغة التابعة لغرناطة التي اشتهرت بكثرة الرخام الغريب الموشّى بالحمرة والصفرة والحالكة والمجزعة[٣]، وأمّا كورة المرية فهي من مواطن الرخام في الأندلس[٤]. واشتهرت الأندلس بمعادن الزاج في لبلة[٥]، والشب في لبلة[٦] وقرطبة[٧]، والمغناطيس في تدمير[٨]، ويوجد معدن البلور على مقربة من حصن لورقة وبجبل شحيران في يبرة[٩]، واللازورد[١٠] ومعدن مغرة[١١] ومعدن تربة صفراء[١٢] في لورقة، أما معدن الصفر فقد وجد في البيرة[١٣]، كما وجد في ساحلها في بطرنة معدن التوتيا الجيد النوعية والذي كان يستعمل في صبغ النحاس[١٤]، وأشار القزويني والحميري إلى أن هذا المعدن موجود في البيرة نفسها[١٥]، وفي قرطبة[١٦]. ووجد معدن المهى في منطقة بطليوس[١٧] في حين أن معدن الطّفل قد تركز في جبل طليطلة، ونظراً لوجوده بكثرة فقد استغل

---

(١) أبو الفداء، ص ١٦٧. وذكر القزويني أن الرخام موجود في الأندلس؛ القزويني، ص ٥٠٢.

(٢) الحميري، ص ١٤٣.

(٣) المقري، نفح، ج١، ص ٢٠١.

(٤) المصدر نفسه، ج١، ص ١٦٢.

(٥) القزويني، ص ٥٥٥؛ الحميري، ص ١٦٨؛ المقري، نفح، ج١، ص ٢٠١.

(٦) القزويني، ص ٥٥٢؛ الحميري، ص ١٦٨.

(٧) القزويني، ص ٥٥٢؛ المقري، نفح، ج١، ص ٢٠١.

(٨) المقري، نفح، ج١، ص ١٤٢.

(٩) المصدر نفسه، ج١، ص ١٤٢.

(١٠) الحميري، ص ١٧١؛ المقري، نفح، ج١، ص ١٤٢.

(١١) الادريسي، صفة، ص ١٩٦؛ الحميري، ص ١٧١.

(١٢) الادريسي، صفة، ص ١٩٦؛ الحميري، ص ١٧١.

(١٣) القزويني، ص ٥٠٢؛ الحميري، ص ٢٤. وقد وصف المقري معدن الصقر أنه قريب الشبه من الذهب تقريباً، وأنه يوجد في شمال الأندلس؛ المقري، نفح، ج١، ص ٢٠١.

(١٤) المقري، نفح، ج١، ص ١٤٣.

(١٥) القزويني، ص ٥٠٢؛ الحميري، ص ٢٤.

(١٦) القزويني، ص ٥٥٢؛ المقري، نفح، ج١، ص ١٤٣.

(١٧) الحميري، ص ٣.

تجارياً وصدر إلى البلاد الأخرى[1]، وفي قرية مغام[2] التابعة لها. ومن المعادن التي استغلها المسلمون في الأندلس معدن الكحل الذي استخرج من بسطة[3] وطرطوشة[4] وكذلك معادن الكبريت الأحمر والأصفر[5]، ووجد حجر المرقشيتا الذهبية (معادن كبريتية) في جبال ابذة[6]، وقد ذكر الحميري أن معدن الكبريت موجود في جبانة[7]، كما أن معدن القصدير من الصنف الجيد موجود في اكشونبة[8]، وأما الملح الادراني الأبيض فإنه موجود في كورة سرقسطة[9]. واستغلت الأحجار الكريمة إبان الحكم الإسلامي مثل الياقوت الأحمر الذي وجد في حصن منت ميور التابع لمالقة[10]، والمرجان الذي استخرج من بيرة التابعة للمرية[11]، والعنبر الفائق الذي اشتهرت جهات الأندلس الغربية بانتاجه[12] وخاصة لشبونة[13]، وساحل شنترين وشذونة[14].

---

[1] المقري، نفح، ج١، ص ٢٠١.
[2] ابن حوقل، ص ١١١.
[3] القزويني، ص ٥٠٥، ٥١٢؛ الحميري، ص ٤٥.
[4] القزويني، ص ٤٥؛ المقري، نفح، ج١، ص ١٤٣.
[5] المقري، نفح، ج١، ص ١٤٣.
[6] المصدر نفسه، ج١، ص ١٤٢.
[7] الحميري، ص ٣٩.
[8] المقري، نفح، ج١، ص ١٤٣.
[9] الحميري، ص ٩٧؛ المقري، نفح، ج١، ص ١٥٠.
[10] المقري، نفح، ج١، ص ١٤٢.
[11] المصدر نفسه، ج١، ص ١٤٢.
[12] المصدر نفسه، ج١، ص ١٤٠.
[13] القزويني، ص ٥٥٥.
[14] الحميري، ص ١٠١، ١١٣.

الصناعات الأندلسية الحربية.

أما الصناعة العسكرية في الأندلس فقد بلغت شأناً عظيماً من الاتقان والرقي، وقد أشار المقري إلى ذلك بقوله: أن مرسية كانت تصنّع آلات العسكر بشكل بهر العقول[1]، وقد أيد ذلك ابن سعيد ولكنه ركز على صناعات الأندلس بشكل عام[2]، فكانت صناعات الأندلس الحربية مميزة، خاصة في عهدي الإمارة والخلافة، إذ انتشرت دور صناعة السفن والمراكب البحرية بكثرة، والفضل في ذلك يعود إلى كل من الأمير عبد الرحمن الثاني (الأوسط)، وعبد الرحمن بن محمد الثالث الناصر لدين الله، والحكم المستنصر، الذين قاموا بإنشاء دور لصناعة السفن الحربية في كل من: المرية[3]، دانية[4]، مالقة[5]، لقنت[6]، شنتمرية الغرب[7]، طرطوشة[8]، شذونة[9]، شلطيش[10]، بجانة[11]، اشبيلية[12]، الجزيرة الخضراء[13]، شلب[14]، الزهراء[15]، قصر أبي دانس[16]، طركونة[17]، وميورقة

---

(1) المقري، نفح، ج١، ص ٢٠٢.

(2) ابن سعيد، ج٢، ص ٩.

(3) ابن سماك، ص ١٢٩؛ المقري، نفح، ج١، ص ١٦٢؛ د. سالم، السيد عبد العزيز، ود. العبادي، أحمد مختار، تاريخ البحرية الإسلامية في المغرب والأندلس، بيروت، لبنان، ١٩٦٩م، ص ١٦٠، ١٦١، ١٦٧، ١٧٥، ١٧٨، ١٨٣.

(4) الادريسي، صفة، ص١٩٢؛ تاريخ البحرية، ص٧٥؛ د.سالم، السيد عبد العزيز، تاريخ مدينة المرية الإسلامية قاعدة أسطول الأندلس، ط١،دار النهضة العربية للطباعة والنشر، بيروت، ١٩٦٩م، ص٣٧.

(5) القلقشندي، صبح، ج٥، ص ٢١٩؛ تاريخ البحرية، ص ١٧٥؛ تاريخ المرية، ص ٣٦.

(6) الحميري، ص ١٧٠؛ تاريخ البحرية، ص ١٧٥؛ تاريخ المرية، ص ٣٦.

(7) الحميري، ص ١١٥؛ تاريخ البحرية، ص ١٧٥.

(8) الادريسي، صفة، ص ١٩٠؛الحميري،ص ١٢٤؛ تاريخ البحرية، ص ١٧٥؛ تاريخ المرية، ص٣٦.

(9) الحميري، ص ١٠١، ١١٣.

(10) الادريسي، صفة، ص ١٧٨؛ الحميري، ص ١١٠.

(11) تاريخ البحرية، ص ١٦٧ـ١٧٨.

(12) المرجع نفسه، ص ١٦٠، ١٦١، ١٨٣.

(13) تاريخ البحرية، ص ١٧٥؛ تاريخ المرية، ص ٣٦.

(14) تاريخ البحرية، ص ١٧٥؛ تاريخ المرية، ص ٣٧.

(15) تاريخ البحرية، ص ١٧٥؛ تاريخ المرية، ص ٣٧.

(16) تاريخ البحرية، ص ١٧٥؛ تاريخ المرية، ص ٣٧.

(17) تاريخ المرية، ص ٣٦.

في جزر البليار[1]، وقد كان همّ الأمراء الأمويين تدعيم البحرية الأندلسية لمواجهة الأخطار المحدقة بالأندلس من الخارج، لا سيّما خطر النورماديين، وخطر الممالك المسيحية، وافرنجة قطلونية، بالاضافة إلى الخطر الكامن في العدوة المغربية وهو الخطر الفاطمي. كل هذه العوامل مضافاً إليها الرغبة في قوة السلطان والجاه، أدّت إلى قيام هؤلاء الأمراء بتطوير قطعهم البحرية والحربية فكان منها:

١. الشواني: وهي أكبر أنواع السفن وأكثرها استعمالاً، وكانت مزودة بأبراج وقلاع للدفاع والهجوم، وكانت أهم القطع في الأسطول الإسلامي، وقد وصلت حمولتها في المتوسط إلى مائة وخمسين رجلاً[2].
٢. القرقور: وهو نوع من أنواع السفن العظيمة التي كانت تختصّ بحمل المواد التموينية والإمدادات العسكرية للأسطول، واسمها بالإسبانية (كاراكا)[3].
٣. الأجفان الغزوية أو الغزوانية (هكذا كانت تعرف في الأندلس)، كما أنها عرفت باسم الصندل وهذه التسمية مأخوذة من أصل لاتيني، وهذه المركبة هي عبارة عن مركب حربي مسطح كانت تستخدم لحمل المقاتلة والسلاح والمؤن، وقد سميت بالعربية أيضاً باسم (الشلندي)[4].
٤. المسطح، وعرفت في الأندلس باسم الحمالة، وهي من سفن الأسطول الإسلامي الكبيرة الحجم ومهمتها حمل الأسلحة للأسطول[5].
٥. الطراد أو الطريدة: سفينة صغيرة سريعة السير والحركة، وظيفتها حمل الفرسان والخيول، وسعتها أربعين فارساً، وكانت تفتح من الخلف حتى يسهل الصعود إليها والنزول منها[6].

---

[1] الرفاعي، أنور، الاسلام في حضارته ونظمه الادارية والسياسية والأدبية، والعلمية والاجتماعية والاقتصادية والفنية، ط٢، دار الفكر، دمشق، ١٤٠٢هـ/١٩٨٢م، ص ٢١١. وذكر ابن سعيد أن الشواني كانت مستخدمة في الأندلس إبان حكم المرابطين:ابن سعيد، ج٢، ص ٣٠١. وبين الحميري أن الشواني كانت تتبع لقائد طرشوشة؛ الحميري، ص ٤٣.

[2] الرفاعي، ص ٢١١.

[3] المرجع نفسه، ص ٢١١.

[4] المرجع نفسه، ص ٢١٢.

[5] المرجع نفسه، ص ٢١٢.

[6] المرجع نفسه، ٢١٣.

٦. الحراقة: استخدمها مسلمو الأندلس ومسلمو المشرق، وكانت مزودة بمنجنيقات لقذف النيران المشتعلة على العدو[١].

٧. الحربية: نوع من الشواني، لكنها أصغر منها، امتازت بسرعتها وخفة حركتها، واستخدمت في الأسطول الأندلسي[٢].

٨. البطة: سفينة من النوع الكبير مكونة من عدة طبقات، ولها ما يقارب الأربعين شراعاً استخدمت لنقل الميرة والأسلحة والمقاتلة، وكانت مهيأة لحمل سبعمائة راكب اضافة إلى طاقمها وملاّحيها[٣].

وهناك أنواع أخرى من المراكب استخدمت في الأساطيل الإسلامية مثل الغراب، واسمها مأخوذ من شكل مقدمة السفينة الذي كان على شكل رأس الغراب[٤]، ومثل السميريات: التي كانت معدة لنقل المعدات الحربية ولحمل المقاتلة والرماة والملاحين، وهي من السفن القادرة على العمل في البحار والأنهار، وكان يعمل على متنها في التجذيف أربعون مجذفاً[٥].

أما بالنسبة لصناعة المراكب السفريّة والحراريق فإن لقنت كانت مختصة بهذا النوع من السفن[٦]، في حين أن شذونة كانت تصنع الغرابيل من المقل[٧]، أمّا طرطوشة فقد اعتبرت مركزاً مهماً لصناعة المراكب الكبيرة، نظراً لتوافر أخشاب الصنوبر الملائمة لمثل هذا النوع من الصناعة، فكانت تصنّع أنواعاً من السفن عرفت بالصواري والقرى[٨]. وأما صناعة المراسي التي ترسو بها السفن

---

(١) الرفاعي، ص ٢١٢.

(٢) المرجع نفسه، ص ٢١٣.

(٣) المرجع نفسه، ص ٢١٣.

(٤) المرجع نفسه، ص ٢١٢.

(٥) المرجع نفسه، ص ٢١٢.

(٦) الحميري، ص ١٧٠.

(٧) المصدر نفسه، ص ١٠١، ١١٣.

(٨) الادريسي، صفة، ص ١٩٠؛ الحميري، ص ١٢٤.

فان دار صناعة الحديد في شلطيش هي التي كانت تقوم بهذه الصناعة المعقدة نظراً لصلابة الحديد المستعمل في صناعتها[1].

ومن الأسلحة الحربية التي استعملها المسلمون النار اليونانية، وهي مزيج من الكبريت وبعض الراتنجات والأدهان على شكل سائل يطلق بواسطة اسطوانة نحاسية كانت مشدودة في مقدمة السفينة، فيتم قذف السائل منها وهو في حالة الاشتعال، وكان المسلمون يطلقونه بشكل كرات مشتعلة أو بشكل قطع من الكتان الملوث بالنفط، وهذه النار كانت تبقى مشتعلة في الماء أو الهواء[2]، وقد توصل المسلمون إلى معرفة النار (الاغريقية) التي كان يتكتم عليها البيزنطيون منذ أن استخدموها في عام ٥١٦هـ، كما استخدم المسلمون في الأندلس الأقواس القذافة (راجمات النبال)[3]، كما أن المسلمين استعملوا النفط البحري الذي يجهز من القطران والكبريت ومواد أخرى ملتهبة، تزداد اشتعالاً عند ملامستها للماء بدل أن تنطفئ كما هو الحال في الحالات العادية، وكان يطلق بواسطة آلة تسمّى النفاطة، كما كانوا يلقمونها أحياناً بالسهام والنشاب المنجنيق، وقد استخدمها عرب الأندلس وأتقنوا استعمالها[4].

وبرع الأندلسيون في صناعة السروج واللجامات والمغافر، وتمّيزوا بصناعة الأسلحة وتصديرها ولا سيّما صناعة المقبض والغمد بالاضافة إلى صناعة السيوف[5] والخناجر والدروع والتروس والرماح والسكاكين[6]، خاصة في طليطلة وقرطبة وغرناطة واشبيلية ومرسية والمرية. وقد ورد قول لابن سعيد في المقري أن أكثر همم أهل الأندلس كانت متجهة إلى هذا المجال[7].

---

(1) الادريسي، صفة، ص ١٧٨؛ الحميري، ص ١١٠.

(2) الرفاعي، ص ٢١٥.

(3) فرحان، د. يوسف شكري، غرناطة في ظل بني الأحمر، دراسة حضارية، بيروت، ١٩٨١م، ص٩٣.

(4) الرفاعي، ص ٢١٥.

(5) اشتهرت في الأندلس صناعة السيوف التي عرفت بالبرذليات التي كانت تصنع من فولاذ اشبيلية الذي اتصف بجودته؛ المقري، نفح، ج١، ص ١٦٢.

(6) المصدر نفسه، ج١، ص ٢٠٢؛ د. حسن، تاريخ، ج٢، ص ٣١٠.

(7) المقري، نفح، ج١، ص ١٦٢.

وكانت مالقة مركزاً مهماً لصناعة الجلد كالأغشية والحزم والمدورات ومختلف الأدوات التي تصنع من الحديد كالسكاكين والمقصات وما شابه[1]، وذكر الاصطخري أن مقابض السيوف كانت تصنع من السفن نوع من الجلود يتصف بالغلظة والسماكة كجلود التماسيح[2].

ومن أبرز أنواع الازدهار الصناعي العسكري في الأندلس، اختراع البارود واستعماله في الحروب، كما أن المسلمين استفادوا منه في أغراض مدنية، وقد برعوا في زخرفة البارودة ونقشها بالآيات القرآنية[3]، وذكر د.الفنجري أن عدداً من الباحثين الأوروبيين من أمثال غوستاف لوبون وسارتون وسيجريد هونكه يجمعون على أن أوروبا عرفت البارود والأسلحة النارية عن طريق العرب، فنقلوها عنهم ثم طوّروها بعد ذلك[4].

كما أن صناعة المدافع كانت من الصناعات المتقدمة عند المسلمين، فقد صنعوا أنواعاً مختلفة الأحجام والصنعة، كما برعوا في وضع موازين معينة لضبط الإصابة بدقة، وقد أخذت الجيوش الإسبانية هذه الصناعة عن المسلمين في الأندلس وقاموا بتطويرها[5]. وقد ورد في الموسوعة الإسلامية أن المسلمين استخدموا سلاح البارود وعرفوا المدفعية واستخدموها في الدفاع عن قلاع الحمراء. كما أن القشتاليين عرفوها[6].

مما سبق يمكن القول أن الأندلس إبان عهود المسلمين كانت متقدمة في الصناعات العسكرية سواء المتعلقة منها بالأفراد أو القوات البرية أو الفرسان، وكذلك الأسلحة المتعلقة بالأسطول، ونتيجة لهذا التقدم فإن أندلس المسلمين كانت لها اليد الطولى في مجالات الحضارة والقوة العسكرية التي فرضت سيطرتها على مناطق بحرية مهمة نظراً لتوافر المواد الأولية ولوجود ازدهار اقتصادي فيها سواء الزراعي منه والصناعي.

---

(1) القلقشندي، صبح الأعشى، ج٥، ص٢١٩.

(2) الاصطخري، المسالك والممالك، ص٣٥.

(3) د. الفنجري، العلوم الإسلامية، ج٣، ص٢٢، ٥٢، ٦٦.

(4) المرجع نفسه، ج٣، ص٩٧.

(5) المرجع نفسه، ج٣، ص٢٢،٦٦.

(6) Encyclopedia del Islam, T. e, pp. 1087-1088.

الطب والصيدلة في الأندلس

عمد الأطباء في الأندلس إلى استخدام المنهج التجريبي إضافة إلى ما وجدوه في الكتب؛ فقد أجروا التجارب على الحيوانات والنباتات، ودعمت الدولة العربية الإسلامية هذه التجارب وشجعتها، فمارس الأطباء الطب السريري، وأنشأوا المستشفيات، واتبعوا في ادارتها نظاماً جديداً محدداً، حيث صنفت حسب الجنس ونوع المرض. وقد ساهم هؤلاء الأطباء مساهمة عظيمة في مجال الأدوية والعقاقير التي استخرجوها من النباتات والحيوانات، كما سخروا بعض أنواع الحجارة لتفتيت حصى الكلى والمثانة.

ومن الأطباء الأندلسيين الذين برعوا آنذاك: الزهراوي وابن رشد وابن الهيثم.

وقد تأثرت اوروبا بالحضارة العربية الإسلامية في الأندلس وفي غيرها من أقطار العالم الإسلامي تأثراً واسعاً، الأمر الذي مهد إلى قيام حركة ترجمة نشطة، وإلى إنشاء المدارس الطبية والمستشفيات برعاية الملوك والبابوات، وإلى ازدياد العناية الصحية والطبية.

وكان أهل الأندلس ـ منذ الفتح حتى عهد الأمير عبد الرحمن بن معاوية مؤسس دولة بني أمية ـ يعولون في الطب على كتاب مترجم من كتب النصارى يقال له: (الإبريشم) ومعناه: المجموع أو الجامع، وكانوا قوماً من النصارى، ولم تكن لهم بصارة بصناعة الطب والفلسفة والهندسة في أيام الأمير عبد الرحمن بن الحكم[١].

ولا شك في أنه دخل مع الأمير عبد الرحمن بن معاوية (الداخل) وقبله أناس معينون لممارسة مهنة الطب، قدموا من الشرق، وكانوا مرافقين للحملات العسكرية التي قادها طارق بن زياد وموسى بن نصير لفتح الأندلس، ومنهم الطبيب أبو ابراهيم المذحجي الذي كان اول من نشر العلوم الطبية في الأندلس، ويحتمل أنه مارس الطب بأفكار وأساليب جديدة لم تكن معروفة فيها آنذاك[٢].

---

* ساعد في انجاز موضوع الطب والصيدلة في الاندلس الأستاذ الدكتور بسام اسعد عماري.

(١) ابن جلجل، أبو داود سليمان بن حسان الاندلسي (ت ب ٣٧٧هـ)، طبقات الأطباء والحكماء، تحقيق فؤاد السيد، مطبعة المعهد العلمي الفرنسي للآثار الشرقية، القاهرة، ١٩٥٥م، ص ٩٢.

(٢) عبد العزيز بن عبد الله، الطب والأطباء بالمغرب، الرباط، د.ت، ١٩٦٠، ص ١٠.

كما وفد إلى الأندلس في إمارة محمد بن عبد الرحمن (٢٣٧-٢٧٢هـ/٨٥٢-٨٨٦م) الطبيب يونس بن أحمد الحراني، واستقر هناك[١]. ولا بد من أنه طبق خبراته الطبية على ما واجهه فيها من حالات مرضية.

وتعتبر صناعة الطب من أشرف الصنائع لأنّها تهتم بالانسان[٢]. فهي ــ كما يرى ابن خلدون ــ صناعة من الصنائع التي لا تستدعيها إلا الحضارة والترف[٣]. ونظراً لأن الحضارة الإسلامية في الأندلس قد بلغت اوجها. فقد تقدمت فيها هذه الصناعة تقدماً مشهوداً، ومن مظاهر ذلك تأليف مجلس أطباء أو "كوميسيون" طبي ليقوم بمهمتين:

اولاهما: إجراء اختبارات على الذين يريدون أن ينصبوا أنفسهم لعلاج المرضى، والكشف عن أدوائهم، فكلّ من أراد أن يزاول مهنة الطب عليه اولاً أن يجتاز امتحانات اللجنة الطبية بنجاح.

والثانية: ابداء الرأي في علاج الحالات المرضية المستعصية، وخاصة تلك التي تصيب الخليفة أو غيره من الشخصيات المهمة في البلاط الملكي أو الديوان الحكومي[٤].

الأدوية والمعالجة والجراحة.

عمد الأطباء في الأندلس إلى استخدام المنهج التجريبي إضافة إلى ما وجدوه في الكتب، فقد أجروا التجارب على النباتات والحيوانات، وحضروا الأدوية المناسبة للأمراض التي اكتشفوها في مرضاهم وشخصوا كثيراً منها، وقد رعت الدولة العربية

---

(١) انخل جونثالث بالنثيا، تاريخ الفكر الاندلسي، ترجمة حسين مؤنس، مكتبة النهضة المصرية، ط٢، ١٩٥٥، ص٤٦١؛ ابن صاعد الاندلسي، طبقات الأمم، نشر الأب لويس شيخو اليسوعي، المطبعة الكاثوليكية للآباء اليسوعيين، بيروت، ١٩١٢م، ص ١٠٢.

(٢) الغرناطي، أبو يحيى محمد بن عاصم، جنة الرضا في التسليم لما قدر الله وقضى (٣ج)، تحقيق صلاح جرار، دار البشير، عمان، ج٢، ص ١٢٧.

(٣) ابن خلدون، عبد الرحمن، المقدمة، مكتبة المدرسة ودار الكتاب اللبناني للطباعة والنشر، بيروت، ط٢، ١٩٦١م، ص٩١٨.

(٤) الدكتور عبد الله العمراني، الطب الأندلسي بين هفوة الاهمال وغفوة النسيان، دعوة الحق، ٢٢٨، سنة ١٩٨٣م، الرباط، ص ٣٤.

المسلمة تلك التجارب، وهيأت الجو الملائم لزيادتها فاشتهرت خزانة الطب في عهد الحكم المستنصر، حيث العلاج يوزع على المرضى مجاناً[1]. وأنشأ المستنصر علاوة على ذلك معملاً كيماوياً خاصاً للأدوية التي يركبها الأطباء[2]، لتأمين العلاجات المطلوبة عند الطلب، وفي اوقات الضرورة.

واعتنى الأطباء العرب المسلمون بالعقاقير، حيث اعتمدوا عليها بكثرة، فكان العشّابون العرب يجوبون البلاد ليدرسوا خصائص نباتاتها. وهذا الاهتمام بالعقاقير الطبية والصيدلة كان تعبيراً عن قناعتهم بأن تلك الصناعة متممة لصناعة الطب، وقد ابتدعوا ذلك وبنوه على أسس وقواعد[3].

وقد قام العرب المسلمون في مجال علم الصيدلة بترجمة أعمال القدماء وشرحها والتعليق عليها، ثم قاموا بالتأليف والابتكار، مما ساعد على حفظ تراث الحضارات القديمة، وتسجيل الاضافات المهمة والابتكارات التي تمت في عصر النهضة الإسلامية في الأندلس، التي كانت الحضارة الاوروبية الحديثة تنهل منها علماً غزيراً[4].

واكتشف العرب المسلمون العديد من العقاقير التي ما زالت تحتفظ بأسمائها العربية في اللغات الاوروبية[5] مثل: الحناء، والحنظل، والكافور، والكركم، والكمون وغيرها، كما اخترعوا الآلات لتذويب الأجسام، وتدبير هذه العقاقير[6].

---

(1) عجيل، حسين كريم، الحياة العلمية في مدينة بلنسية الاسلامية، (٩٢ـ٤٩٤هـ)، مؤسسة الرسالة، بيروت، ١٩٧٦م، ص٤٧٦؛ باشا، أحمد فؤاد، التراث العلمي للحضارة الاسلامية ومكانته في تاريخ العلم والحضارة، ط١، مصر، ١٩٨٣م، ص ١٧٢.

(2) ضياء باشا، الاندلس الذاهبة، دولة الموحدين ودولة بني الأحمر وانهيار الاندلس الكبرى، تعريب عبد الرحمن ارشيدات، راجعه وحققه صلاح ارشيدات، وزارة الثقافة، عمان ١٩٨٩م، ج٣، ص ٢٤٩.

(3) الاندلس الذاهبة، ج٣، ص ٤٨٨.

(4) باشا، التراث العلمي للحضارة الإسلامية، ص ١٩٥.

(5) المرجع نفسه، ص ١٩٥.

(6) بالنثيا، ص ٤٧٢.

وبرع الأندلسيون في طرق معالجة الأمراض، وقـد ركـزوا علـى الأعشـاب والحميات، فالطبيب أبو المطرف عبد الرحمن بن محمد له في الطـب منزع لطيـف، ومذهب نبيل، وذلك أنه لا يرى التداوي بالأدوية ما أمكن التداوي بالأغذية أو كان قريبـاً منها، فإذا دعت الضرورة إلى الأدوية فلا يرى التداوي بمركبها ما استطاع أن يتـداوى بمفردها، فان اضطر إلى المركب منها لم يكثر التركيب، بل اقتصر على أقل ما يمكن[١].

ويتضح من ذلك محاولة الأندلسيين الابتعاد عن الأدوية وذلك تمشياً مـع المثـل الطبي القائل: "ما أصلح الدواء شيئاً إلا أفسد مثله"، ولذلك ركزوا على الأعشـاب مثـل: عشبة (القرصعنة) لعلاج الخراجات البارزة (الدمامل)، كمـا عـالجوا لديـغ الأفعـى، واستخدموا حشائش توضع فوق مكان الالتهاب لعلاج النقرس وسـواه مـن الالتـهابات المتنوعة، وعالجوا أيضاً عرق النسا بالضمادات وعالجوا الطـاعون الأسـود والبـهاق، ووقوا منه بعزل المصاب وحرق الثياب الخاصة بالمريض، وتطهير المكان بمادة تشـبه الكحول المعروفة اليوم. ومنعوا ارتياد الحمامات العامة في أثناء انتشار أي وباء معد حتى يتم حصر المرض. كما استطاع الأطباء العرب المسلمون علاج البواصير ووقف النزيف بربط الشرايين[٢]، وذلك الانجاز الذي قدمه الزهراوي نسب فيما بعد إلـى غـيره مـن الاوروبيين.

ومن طرق المعالجة لديهم استخدام الماء البارد لعلاج الحميات، فقد ذكر ابن جلجل أن الطبيب الأندلسي سعيد بن عبد ربه كان يعالج المصابين بالحمى بالمبردات، وذلك "بأن يخلط بالمبردات شيئاً من الحوار، وله في ذلك مذهب جميل"، إضافةً إلى استخدامه بعض العلاجات الطبية الأخرى[٣]. ومن المفيد هنا الاشارة إلى أن الماء البارد يعد حاليـاً مـن الاسعافات الاولية للحمى في البيت وفي المستشفى[٤].

---

(١) ابن صاعد، ص ١٢٨ـــ١٢٩.

(٢) د. الفنجري، ج١، ص٥٥.

(٣) ابن جلجل، ص١٠٤.

(٤) أبو زيد، ص٣٥١.

وصنف الأندلسيون الأمراض، كما صنفوا أدوية مختلفة، وكان لهم تفوقهم في الصيدلة.

وتفنن الأندلسيون في التخدير فاستخدموا في عملياتهم الجراحية: الأفيون[١]، والزوان[٢]، والشيلم[٣]، والشوكران (السيكران)[٤]، والفيقراء[٥]، وست الحسن[٦]، والقنب[٧].

وكان للعرب المسلمين تميز خاص في علم الطب، فقد ابتكروا مبتكرات جديدة تدل على تقدمهم العلمي فخاطوا الجروح، وقوموا الأسنان بأسلاك الذهب[٨]. وبرعوا في اجراء العمليات الجراحية، واستعملوا أدوات جراحية مناسبة، وقد وصف الزهراوي في "التصريف" أكثر من مئتي آلة جراحية في مختلف فروع الجراحة، كما وصف طريقة صنعها واستخدامها[٩]. واستعملوا الخيوط المصنوعة من أمعاء القطط وجلود بعض الحيوانات الأخرى لإجراء الخياطة في بعض العمليات الجراحية[١٠].

---

[١] شحاته، مصطفى أحمد، الحنجرة وأمراضها في الطب الإسلامي، الأبحاث وأعمال المؤتمر العالمي عن الطب الإسلامي، ع١، ط٢، ص٣٦٩.

[٢] أبو زيد، شلبي، تاريخ الحضارة الإسلامية والفكر افسلامي، مكتبة وهبه، القاهرة، ١٩٨٤، ص٣٥٠؛ شحاته، مصطفى، ص٣٦٩.

[٣] أبو زيد، ص٣٥٠؛ شحاته، ص٣٨٩.

[٤] قطاية سليمان، النباتات المستعملة في مداواة آلام الأذن الحادة في الطب العربي، الندوة العالمية الثالثة لتاريخ العلوم عند العرب، ملخصات البحوث، ١٩٨٣، ص٤١؛ د.شحاته، ص٣٦٩. وقد ذكر الاسم بأنه: السيكران.

[٥] قطاية سليمان، ص٤١.

[٦] المرجع نفسه، ص٤١.

[٧] أوكسيد خوسيه وآخرون، أعلام الطب الإسلامي، فضل الجراح الأندلسي الزهراوي على جراحة الأعصاب، نشرة الطب الإسلامي، ع١، ص٣٨٩.

[٨] أحمد شوقي الفنجري، العلوم الإسلامية (٣ج)، أشرف صالح عبد الله جاسم، مؤسسة الكويت للتقدم العلمي، الكويت، ١٩٨٥.

[٩] موسوعة العلوم الإسلامية والعلماء المسلمين، إشراف هبة هنايت، دار ومطابع المستقبل، القاهرة، ج١، ص٢١.

[١٠] باشا، فؤاد، ص١٧٨؛ الفنجري، ج٣، ص٦٦.

ويعد الزهراوي اول من أدخل استعمال الحرير واوتار العود للربط في العمليات الجراحية، كما أنه استخدم خيوطاً من أمعاء القطط، وأكد ضرورة الخياطة المنفصلة في طبقات جدار البطن في حالات الجرح الباطني[١]. وأظهر دراية فائقة بجراحة الأجزاء الدقيقة في الجسم كالأعصاب والعظام والعيون والآذان والأسنان والفتق والاورام الليفية في الأغشية المخاطية، واستئصال الاورام الخبيثة[٢]، وفتح القصبة الهوائية لتيسير عملية التنفس[٣].

وكان الزهراوي من اوائل من قاموا باستخراج حصى المثانة وتفتيته عن طريق المهبل[٤]. وله الفضل في ابتكار جراحة التجميل وآلاتها التي لم تكن قد استخدمت من قبل وكذلك قام بعمليات جراحة استئصال اللوزتين عن طريق صنانير خاصة لهذا الغرض[٥]. ولقد اورد الزهراوي في كتابه "التصريف لمن عجز عن التأليف" كثيراً من الآراء المبتكرة ذات الشأن الكبير في الجراحة، ومنها: تطهير الجروح، وضرورة تشريح الجسم بعد الموت لمعرفة سبب الوفاة، من أجل الانتفاع بذلك في الأحوال المماثلة[٦].

ومن مظاهر تطور الطب في الأندلس استخدام الأطباء المسلمين أنواعاً من المكاوي وذلك حسب مكان الكي وسببه، وقد وضعوا قواعد علمية لذلك[٧]. كما أنهم ابتكروا أصنافاً متنوعة من الكلاليب لخلع الاسنان[٨]. وقاموا ــ إضافة إلى ذلك كله ــ بتشريح الأجساد الميتة والحية، وطوروا الولادة عن طريق الحوض إذا كان وضع الجنين غير عادي[٩].

---

[١] أبحاث أعمال المؤتمر الأول عن الطب الإسلامي، إشراف د.عبد الله العوضي، ع١، ص٣٦٣.

[٢] باشا، فؤاد، ص١٧٨.

[٣] المرجع السابق، ص١٧٨؛ الفنجري، ج١، ص٥٦.

[٤] باشا، فؤاد، ص١٧٨؛ الفنجري، ج٢١، ص٥٦؛ موسوعة العلوم، ج١، ص٢١؛ شلبي ابو زيد، تاريخ الحضارة الاسلامية والفكر الاسلامي، مكتبة وهبة، القاهرة، ط٣، ١٩٦٤، ص٣٥٠.

[٥] د.الفنجري، ج١، ص٥٥-٥٦.

[٦] محمود الحاج قاسم، الموجز لما أضافه العرب في الطلب والعلوم المتعلقة، مطبعة الإرشاد، بغداد، ١٩٧٤، ص٢٩.

[٧] ابن صاعد، ص٧٦، ٧٧؛ الفنجري ج١، ص٥٥، ٥٦.

[٨] د.الفنجري، ص٥٥-٥٦.

[٩] المرجع نفسه، ج١، ص٥٦.

وشهدت جراحة العيون في الأندلس تطوراً كبيراً وذلك لانتشار أمراض العيـــون فيها، وكان يطلق على هذه المهنة اسم "الكحالة"، وكانت تشمل الأدوية والآلات الجراحيـة إضافة إلى استعمال القطرة والكحل. وأهم مشاهير أطباء العيون في الأندلس ابن زهـــير وعمر بن يونس وابن أسلم الغافقي[١].

ومما يدل على تميز العرب المسلمين وتفوقهم أنهم ــ اضافة إلـــى اســتخراجهم العقاقير الطبية من بعض النباتات ــ استفادوا في معالجة بعض الأمراض مـــن بعـض اجزاء الحيوانات كالقطط، وصنعوا من خصيتي السمور علاجاً لبعض العلل البـــاردة[٢]. واستفادوا من بعض الأحجار في تفتيت حصى المثانة والكلية، إذ إنهم تمكنـــوا بطريقــة متقدمة من استغلال خواص هذه الأحجار التي كانت تقع في منطقة إلـــى الغـرب مـن شنترين على بعد خمسين ميلاً بين لشبونة وشنترة[٣].

المراجع الطبية والتدوين الطبي.

يعد عبد الملك بن حبيب السلمي (ت ٢٣٨هـ/٨٥٢م) من اوائل الأطبـــاء الذيـن ظهروا في إمارة قرطبة، وله كتاب[٤] مختصر في الطب، مما يدل على أن الطب في هذه المرحلة قد تجاوز مرحلة المعرفة إلى مرحلة التدوين الطبي حتى يتسنى للناس الإفادة من هذه المعرفة الطبية.

ولا شك في أن ترجمـــة كتـــاب ديوســفوريدس فـــي عـــهد الخليفـة النـاصر (٣١٦ــ٣٥٠هـ) الذي أهداه إليه امبراطور بيزنطة قسطنطين السابع، من اللغة الاغريقية إلى اللغة العربية كان لها أثر فعال في إغناء معرفة الأندلسيين بالنباتات العلاجية، ولأجل تحقيق هذا الهدف كان لا بد من الطواف بانحاء المملكة في رحلات استكشـــافية..فـــي

---

[١] المرجع نفسه، ج١، ص٣٨٩.

[٢] المقري، الشيخ أحمد بن محمد، نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، تحقيـــق الدكتــور إحســان عباس، دار صادر، بيروت، ١٩٦٨م، ج١، ص١٩٨.

[٣] الحميري، محمد عبد المنعم، الروض المعطار في خير الأقطار، تحقيق الدكتور إحسان عباس، مكتبـة لبنان، ط٢، ١٩٨٤، ص٣. (وعرف هذا الحجر باسم الحجر اليهودي وهو على شكل البلوط).

[٤] عبد الملك بن حبيب وكتابه (طب العرب)، تقديم وتحقيق الأستاذ محمد العربي الخطابي، مجلـة دعوة الحق، الرباط، ع٢٦٠، سنة ١٩٨٦.

السهل والجبل، وفي الداخل والساحل بغية جمع الأعشاب وجمع الملاحظات والموازنة بينها، وبعبارة أخرى انجاز مهمة الدراسة والبحث على خير وجه ممكن في ميادين علوم النبات والصيدلة والطب[1]. وقد ألف الأطباء الأندلسيون ما فات هذا الكتاب، فقد كان الوزير أبو المطرف عبد الرحمن بن محمد بن عبد الكبير اللخمي على عناية بالغة بقراءة كتب جالينوس وتفهمها. وطالع كتب أرسطو طاليس، وتمهرّ في علوم الأدوية المفردة حتى "ضبط منها ما لم يضبطه أحد في عصره، وألف فيها كتاباً جليلاً لا نظير له، وجمع فيه ما تضمنه كتاب (ديوسفوريدس) وكتاب (جالينوس) المؤلفين في الأدوية المفردة، ورتبه أحسن ترتيب"[2].

ونتيجة لتراكم المعرفة الطبية لدى الأندلسيين، فقد شرعوا في تدوين هذه المعرفة في كتب يتداولها العامة حتى يستفيدوا منها في حياتهم العامة. فالطبيب مروان بن جناح "له تأليف حسن في ترجمة الأدوية المفردة، وتحديد المقادير المستعملة في صناعة الطب من الاوزان والمكاييل"[3]. والطبيب اسحاق بن سليمان (ت ٣٢٠هـ) لديه تواليف مختلفة في الطب منها (كتاب في الأغذية) و (كتاب في الحميات)، و (كتاب في البول)[4] وغيرها. وانتشرت هذه الكتب مما حدا بأبي داود سليمان بن حسان الأندلسي المعروف بابن جلجل (ت ٣٧٧هـ) أن يفرد للاندلسيين جزءاً خاصاً من كتابه (طبقات الأطباء والحكماء) الذي أرخ فيه للنهضة الطبية.

المستشفيات.

أنشأ العرب المسلمون في الأندلس المستشفيات التي أطلقوا عليها "بيمارستانات"، واكتشف الأطباء المسلمون أهمية الطب السريري فمارسوه، وأدركوا أهمية معرفة بداية ظهور أعراض المرض التي تظهر على المريض ليتمكنوا من معرفته ومعالجته بالطرق

---

(١) عبد الملك العمراني، الطب الأندلسي بين هفوة الإهمال وغشوة النسيان، مجلة دعوة الحق، الرباط، ع٢٣١، سنة ١٩٨٣، ص٧٤.

(٢) ابن صاعد، ص١٠٧-١٠٨.

(٣) ابن صاعد، ص١٣٥-١٣٦.

(٤) المصدر السابق، ص١٣٣-١٣٤.

السليمة، وسجلوا ملاحظاتهم الاكلينيكية (السريرية) ونتائج الفحوص والمعاينة ومراقبة تطور حالة المريض[١].

وقد اتبع العرب المسلمون نظاماً متطوراً في ادارة المستشفيات، حيث قسموها قسمين: أحدهما للرجال، والآخر للنساء، وقسموا كل قسم منها حسب المرض الذي يعالج فيه، وأقاموا بها معازل طبية يعزل فيها المريض المصاب بمرض ينتقل بالعدوى، حتى يحافظوا على بقية النزلاء في المستشفى[٢]. وتم في عام (٧٠٥هـ/١٣٠٥م) إنشاء بيمارستان في غرناطة.

ومما يذكر في هذا المجال أن فكرة البيمارستانات المتنقلة تعود إلى العرب المسلمين[٣]، وذلك لإغاثة المناطق الموبوءة بسرعة، وكذلك لمرافقة الحملات العسكرية لإسعاف جرحى الحروب في المعارك.

ولم تخل بلدة في العالم العربي الإسلامي آنذاك من وجود بيمارستان أو أكثر، فكانت قرطبة وحدها تضم حوالي خمسين مستشفى[٤]. "حتى أن أحد أرباضها (ضواحيها) كان يدعى: ربض المرضى".

أبرز الأطباء الأندلسيين:

ثمة أسماء لمعت في وقت مبكر لأطباء مارسوا الطب وألفوا فيه، ومن هؤلاء عمران بن أبي عمر الذي خدم الأمير عبد الرحمن الناصر بالطب وألف له كتاباً في "حب الأنيسون"، وله تأليف آخر في الطب كالكناش[٥]. ويذكر ابن جلجل مؤلفاً ثانياً لكتاب حب الأنيسون هو أصبغ بن يحيى الطبيب[٦]، مما يدل على أهمية هذا النبات من الناحية الطبية.

---

[١] باشا، فؤاد، ص١٧٤.

[٢] عجيل، الحياة العلمية، ص٤٧٧.

[٣] الكروي، ص٢٩٩؛ عجيل، الحياة العلمية، ص٤٧٧.

[٤] الكروي، ص٢٩٩.

[٥] ابن جلجل، ص١٠١.

[٦] المصدر نفسه، ص١٠٨.

ونبغ أيضاً الطبيب الماهر محمد بن فتح بن طلمون، إذ كان لديـــه مرهـم ينفـع القروح من يومها، وقد جربه الوزير بن بدر "وطلى على القروح فجفت من ليلتها، فوصله عبد الله بن بدر بخمسين ديناراً، وكساه"[1]. ويدلنا هذا على عظم اهتمام الدولـــة العربيـة الإسلامية في الأندلس بشؤون الأطباء ومنحهم الجوائز حتى يتقدموا وينجزوا مبتكـــرات جديدة.

وتقدم الطب في الأندلس، وازدهر ازدهاراً عظيماً[2]، وبخاصة منذ عهد الأمـــير محمد بن عبد الرحمن الاوسط، فقد اشتهر من الأطباء في عهده:

- حمدين أبا، وكان طبيباً حاذقاً مجرباً، وله بقرطبة أصـــول ومكاسـب، وكـان لا يركب الدواء إلا من انتاجه، ولا يأكل إلا من زرعه، ولا يلبس إلا من كتان ضيعته[3].
- والحراني الذي قدم من المشرق إلى الأندلس في أيام الأمير محمد، وأدخل معـــه معجوناً لعلاج اوجاع الجوف[4].
- وخالد بن يزيد، وكان بارعاً في الطب زمن الأمير محمد، وكان عالماً بالأدويـــة التجارية، وكتب إليه نسطاس بن جريج الطبيب المصري رسالة في البول، وقد كسـب بالطب الأموال والعقار[5].
- ابن ملوكة النصراني الذي عاش في اواخر حياة الأمير عبد الله وبداية دولة حفيده عبد الرحمن الناصر، وكان يصنع الأدوية ويفصد العروق، وبسبب شهرته وضع علـــى باب بيته ثلاثون كيساً لجلوس المرضى عليها في انتظار أدوارهم[6].
- الطبيب اسحاق والد الوزير ابن اسحاق، برز في عصر الناصر، وعاش فترة مـن حياته في دولة جده الأمير عبد الله. وكان هذا الطبيب صانعاً بيـــده، تحكـى لــه منـافع عظيمة، وآثار عجيبة، وقد فاق أهل عصره وتقدم عليهم في مهنة الطب[7].

---

(1) ابن جلجل، ص٩٩.

(2) بالنثيا، انخل جونثالث، تاريخ الفكر الأندجلسي، ترجمة حسين مؤنس، مكتبـــة النهضـة المصريـة، ١٩٥٥، ص٤٦١.

(3) ابن جلجل، ص٩٣؛ ابن أبي أصيبعة، ص٤٨٥؛ بالنثيا، ٤٦١-٤٦٢.

(4) ابن جلجل، ص٩٤-٩٥؛ ابن صاعد، ص١٠٢.

(5) ابن جلجل، ص٩٦؛ ابن أبي أصيبعة، ص٤٨٥؛ سالم، ج٢، ص٢١١.

(6) ابن جلجل، ص٩٦؛ أبي أصيبعة، ص٤٨٦.

(7) ابن جلجل، ص٩٧-٩٨؛ ابن أبي أصيبعة، ص٤٨٦.

وساعد على تقدم الطب في عصر الناصر دخول الأندلس الكثير من الكتب الطبية، وبذلك بدأت فترة ازدهار الطب والأطباء المرموقين في الأندلس[١].

ومن أطباء عصر الناصر:

- محمد بن فتح طملون الذي برع في الطب، وبخاصة في علاج القروح باستخدام المراهم[٢].
- يحيى بن اسحاق الذي كان طبيباً نبيلاً، وعالماً حاذقاً، وكان متقدماً في صدر دولة الناصر، ونتيجة لتفوقه فقد استوزره وولاه الولايات والعمالات، وجعله طبيبه الخاص. وله في الطب كتاب من خمسة أسفار ألّفه على مذهب الروم يسمى "الإبريشم"[٣].
- أبو بكر سليمان بن باج الذي اشتهر بمداواة المصابين بضيق النفس، ووجع الخاصرة وذلك بلعوق وحبوب من الأدوية، وعمل لدى الخليفة الناصر وعالجه من رمد عرض له من يومه بمرهم[٤].
- سعيد بن عبد ربه الذي عالج الحمى، وكان طبيباً نبيلاً في الطب، رجز وأحسن فيه، وقد دلّ رجزه على تمكنه من العلم ودرايته بمذهب القدماء[٥].

وأطباء الأندلس الذين اشتهروا بهذا العلم كثيرون لا يمكن احصاؤهم، وقد ذكر ابن جلجل قسماً كبيراً منهم، ولا يتسع المجال هنا لسرد تراجم لهم، ولسرد أهم انجازاتهم، لذا سنكتفي بذكر أشهرهم:

- أبو القاسم الزهراوي (٣٢٥ـ٤٠٤هـ/٩٣٦ـ١٠١٣م): يعد من أعظم الجراحين وأكثرهم تأثيراً في تطور الجراحة في القرون الوسطى، وقد ترجمت مؤلفاته إلى عدة لغات، وأعيد نشرها عدة مرات في البلدان الاوروبية في القرن الخامس عشر، والقرن السادس عشر والقرن الثامن عشر[٦]. ولقب الزهراوي نسبة إلى مدينة الزهراء التي بناها

---

(١) ابن جلجل، ص٩٨.

(٢) المصدر السابق، ص٩٩؛ ابن ابي أصيبعة.

(٣) ابن جلجل، ص١٠٠-١٠١؛ صاعد، ص١٠٢.

(٤) ابن جلجل، ص١٠٢.

(٥) المصدر السابق، ص١٠٤؛ صاعد، ص١٠٢؛ بالنثيا، ص٤٦٤.

(٦) أوكسيد خوسيه وآخرون، أعلام الطب الإسلامي، فضل الجراح الأندلسي الزهراوي في جراحة الأعصاب، نشرة الطب الإسلامي، ط٢، ع١، ص٣٨٨.

عبد الرحمن الثالث، وهو ـ أي الزهراوي ـ المعروف لدى اللاتين باسم أبو الكاسيس (Abulcasis).

وقد استطاع الزهراوي أن يتحرر من النمط الإغريقي القديم، وجعل من الجراحة علماً قائماً بذاته له أساليبه وآلاته ووسائله المتنوعة، وقد وصف الزهراوي في كتابه "التصريف لمن عجز عن التأليف"، وصنع واستخدم في عمليات أكثر من مئتي آلة جراحية في مختلف فروع الجراحة[1].

ويعد كتاب الزهراوي بحق موسوعة طبية، والجزء الثلاثون منه، الذي نشر باللاتينية باسم: الجراحة (Chirurgia) كان أهم وأشهر كتاب في تاريخ الطب كله، وقد ارتفع الزهراوي به في أعين الناس إلى طبقة الأطباء المشهورين كأبقراط وجالينوس[2].

ولقد اورد الزهراوي في كتابه (التصريف) كثيراً من الآراء المبتكرة التي تعد ذات شأن في الجراحة، ومن هذه الآراء ـ كما ذكرنا ـ تطهير الجروح، وضرورة تشريح الأجسام بعد الموت لمعرفة سبب الوفاة للانتفاع بهذه النتائج في الأحوال المماثلة[3]. وقد أدخل استعمال الحرير واوتار العود بهيئة خيوط للربط في العمليات الجراحية، كما استخدم خيوطاً من أمعاء القطط، وأكد ضرورة الخياطة المنفصلة في طبقات جدار البطن في حالات الجرح الباطني[4].

ومما يفاخر به العرب المسلمون اليوم أن خطوات اجراء عمليات شق الجمجمة التي تجرى حالياً هي خطوات الطريقة نفسها التي وضعها الزهراوي، التي تتم عن طريق إحداث ثقوب صغيرة يجري توصيل بعضها ببعض بشقها حتى تتاح الفرصة لرفع جزء من عظام قبوة الجمجمة[5]. كما وصف الزهراوي كسور الجمجمة بدقة، واوصى بإزالة

---

(١) موسوعة العلوم الإسلامية، ج١، ص٢١.

(٢) بالنثيا، ص٤٦٦.

(٣) محمود الحاج القاسم، الموجز لما أضافه العرب في الطب والعلوم المتعلقة بهما، مطبعة الإرشاد، بغداد، ١٩٧٤، ص٢٩.

(٤) عبد الله العوضي، ص٣٦٢.

(٥) خوسيه، الزهراوي، ص٣٨٩.

فتات العظم في حالة كسور الجمجمة الغائرة، وهذا هو المستعمل حالياً[١]. ومن سلامة الجراحة ونجاحها ودقتها عند العرب المسلمين ما ابتكره الزهراوي من وجوب بقاء الآلات الجراحية جاهزة الاستعمال لأي طارئ يحدث، كما أنه أجرى معظم العمليات التي قام بها تحت تأثير التخدير[٢].

ـ الطبيب الفيلسوف أبو الوليد محمد بن رشد القرطبي (ت ٥٥٩هـ): من الأطباء الأندلسيين المشهورين، ألف كتاب "الكليات" وكان شغوفاً بعلم التشريح[٣]. وقد تداول الناس كتابه واستعملوه خلال العصور الوسطى كلها؛ إذ أنه يتناول التشريح ووظائف الأعضاء والأمراض وأعراضها، والأدوية والأغذية وحفظ العلاج[٤]. وقد بيّن ابن رشد أن الجدري لا يصيب المريض نفسه مرتين، ووصف عمل شبكية العين[٥].

ـ أبو العباس أحمد بن محمد الملقب بابن الرومية (ولد بعد ٥٦٠هـ/١١٦٥م): من أهل اشبيلية، وكان يلقب بالنباتي، وقد طاف بنواحي المغرب والمشرق، وسجل ملاحظاته ومشاهداته في رحلته. وكان اول من درس النبات بطريقة مباشرة، ولم يقتصر على النظر إليه على أنه مجرد عشب يتداوى به. وكان ابن البيطار أحد تلاميذه.

ـ ابن البيطار، ضياء الدين المالقي: عالم اندلسي نبغ في الصيدلة، وقد اشتهر بتجاربه العلمية الناجحة في معرفة خصائص النبات والأعشاب والحشائش وإعداد الأدوية منها، وتحضير العقاقير. وقد ألف كتاباً أسماه "كتاب الجامع لمفردات الأغذية والأدوية"، وهو مرتب هجائياً للأغذية والأدوية، وهو من أكمل ما ألف العرب في هذا الباب وأكثره تفصيلاً. ومن كتبه الجليلة الأخرى كتاب "المغني" في الأدوية المفردة، وهو لا يتحدث عن الأعشاب من وجهة النظر العلاجية وحسب، بل من ناحية التاريخ الطبيعي[٦].

---

[١] خوسيه، الزهراوي، ص٣٨٩.

[٢] المرجع نفسه، ص٣٨٩.

[٣] ابن أبي أصيبعة، ص٤٨٥؛ سالم، ج٢، ص٤١٦.

[٤] بالنثيا، ص٤٦٩.

[٥] حيدر بامات، أسهم المسلمين في الحضارة الإنسانية، ط١، ص١١١-١١٣.

[٦] بالنثيا، ص٤٧٩؛ الأندلس الذاهبة، ج٣، ص٤٤٩.

هذا، وقد تأثرت اوروبا بالحضارة الإسلامية فترجم الاوروبيون كتب العقاقير، واعتنوا بها، ومنها كتب ابن البيطار والهروي وما سويه المرديني[١].

ويمكن القول أن الأندلسيين تفوقوا في مهنتي الطب والصيدلة، حتى أنهم أنشاوا في عهد المستنصر (٣٥٠–٣٦٦هـ) ديواناً للأطباء يسجل فيه كل من كان يزاول أياً من المهنتين، وقد كان يسقط من هذا الديوان من يثبت عليه ارتكاب الأخطاء في مهنته، ويحظر عليه نتيجة لذلك أن يزاول هذه المهنة[٢].

واستقت اوروبا العلوم والحضارة عن طريق الأندلس وصقلية والمشرق الإسلامي بسبب الحروب الصليبية[٣]، حتى أن بعضهم قال: لو لم يفتح العرب الأندلس لظلت اوروبا حتى عصرنا الحديث تغط في سباتها[٤]. ونظراً لوصول الاشعاعات الحضارية العربية الإسلامية إليها فقد أنشئت مدارس الطب في كل من نابولي، ومونبليه، وبولونيا، وبادوا، اورليان، وزانس، واكسفورد، وكيمبردج، وانجيه[٥].

وكانت تلك المدارس تعتمد في تدريس الطب على المؤلفات العربية المترجمة إلى اللاتينية[٦]. وبقيت كتب ابن سينا والرازي هي المراجع المعول عليها في كليات الطب في اوروبا حتى القرن السابع عشر، واوسع قناة نهل منها الاوروبيون العلوم والمعرفة الإسلامية كانت في الأندلس، حيث بقي كتاب الزهراوي "التصريف" مصدراً مهماً في علم

---

(١) أثر العرب والإسلام في النهضة الأوروبية. أعدت هذه الترجمة بإشراف مركز تبادل القيم الثقافية بالتعاون مع اليونسكو، الهيئة المصرية العامة للتأليف والنشر، ١٩٧٠، ص٢٩١.

(٢) ابن أبي أصيبعة، أحمد بن القاسم، عيون الأنباء في طبقات الأطباء، شرح وتحقيق نزار رضا، دار ومكتبة الحياة، بيروت، ١٩٦٥، ص٤٩٢؛ سالم، السيد عبد العزيز، قرطبة، ج٢، ص٢٠٨.

(٣) باشا، فؤاد، ص١٨٥؛ أثر العرب، ص٢٨٤؛ الشرقاوي، ود.حسن محمود، المسلمون علماء وحكماء، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية، ص٢٥٤.

(٤) الشرقاوي، ص٢٥٤.

(٥) زكريا، هاشم، فضل الحضارة الإسلامية والعربية على العالم، دار النهضة للطباعة والنشر، القاهرة، ١٩٧٠م، ص٤٠٦.

(٦) المرجع السابق، ص٤٠٦؛ باشا، فؤاد، ص١٨٥.

الجراحة، وتجبير العظام، واستخراج الحصى من المثانة. وقد قام الاوروبيون بطبعه عدة طبعات.

وأخيراً لا بُدّ من الإشارة إلى أن اعتناء البابوات وملوك اوروبا بالمستشفيات كان أثراً من آثار الحضارة العربية الإسلامية ونتائجها على اوروبا، حتى أنهم أقاموا مستشفياتهم على نمط البيمارستانات العربية الإسلامية[1].

---

[1] أثر العرب، ص٢٩٩، ٣٠٠.

تعريب النقود في البلاد الإسلامية:

كانت النقود أو (العملة) المتداولة في البلاد العربية حتى عهد عبد الملك بن مروان هي العملة الفارسية والبيزنطية، وكانت الاولى متداولة بشكل رئيسي في العراق وفارس والثانية في الشام ومصر، وكانت العملة الفارسية هي الدراهم الفضية بينما العملة الرومية (البيزنطية) هي الدنانير الذهبية. وذلك حسب ما ذكر يحيى بن آدم (ت ٢٠٣هـ) أن العملة في العراق كانت الدراهم، (وفي الشام ومصر الدينار)[١].

وتم تعريب النقود في عهد عبد الملك بن مروان، ويذكر السيوطي أن اول من ضرب الدنانير عبد الملك ابن مروان وكتب عليها (قل هو الله أحد) وفي الوجه الآخر (لا إله إلا الله) وطوقه بطوق من فضة، وكتب فيه (ضرب بمدينة كذا) كما كتب خارج الطوق "محمد رسول الله، أرسله بالهدى ودين الحق"[٢] وبنى عبد الملك داراً لضرب النقود في دمشق وأمر بسحب العملة المستعملة في جميع أنحاء الدولة الإسلامية وضرب بدلها عملة جديدة فضية وذهبية[٣]. وبذلك اصبحت العملة عربية اسلامية صرفة.

وبقيت بلاد المشرق الإسلامي بالدراهم الفضية ولكنها مضروبة على الطريقة العربية الإسلامية فقد ذكر الاصطخري أن نقود أهل بخارى الدرهم ولا يتعاملون بالدينار وكذلك الأمر في فارس أما الدينار فكان كالعرض، كما كانت عطايا الخليفة العباسي في اوائل القرن الثالث الهجري تحسب بالدراهم، ثم أصبح حساب الحكومة بالدنانير في اوائل القرن الرابع الهجري[٤].

---

[١] متز، آدم، الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجري، ترجمة محمد عبد الهادي أبو ريده، القاهرة، ١٣٧٧هـ/١٩٧٥م، ج٢، ص٣٦٩.

[٢] السيوطي، جلال الدين، تاريخ الخلفاء، تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد، القاهرة، ١٣٨٣هـ/١٩٦٤م، ص٢١٧.

[٣] إبراهيم حسن، النظم الإسلامية، ط٣، القاهرة، ١٩٦٢م، ص١٧٥.

[٤] متز، الحضارة الإسلامية، ص٣٦٩، ٣٧٠.

النقود في الأندلس: أخذ المسلمون في المغرب العربي وإسبانيا بالنظام البيزنطي في سك نقودهم. ويذكر السيوطي أن عبد الرحمن الثاني (الاوسط) ضرب الدراهم، إذ لم يكن بالأندلس دار ضرب (للنقود) منذ فتحها العرب، وإنما كانوا يتعاملون بما يحمل إليهم من دراهم أهل المشرق[١].

واستمرت دار السكة هذه في ضرب النقود طيلة عهد الامارة الأموية، وتطورت هذه العملية في عهد خلافة عبد الرحمن الناصر (الثالث) الذي أمر بإنشاء دار للسكة في قرطبة فقد ذكر ابن عذاري أن الناصر أمر بإقامة دار للسكة داخل مدينة قرطبة لضرب الدنانير والدراهم، وولّيَ الخطة أحمد بن موسى بن حدير يوم الثلاثاء لثلاث عشرة ليلة بقيت من شهر رمضان سنة ٣١٦هـ، وأقام الضرب فيها من هذا التاريخ من خالص الذهب والفضة وصحح في ذلك أحمد بن موسى وتحفظ، وكانت مثاقيله ودراهمه عياراً محضاً[٢].

وكان تعيين وعزل صاحب السكة يتم من قبل الخليفة فقد ذكر ابن عذاري أن (الناصر عزل عبد الله ابن محمد عن السكة سنة ٣٣١هـ وسخط عليه لتقصير ما كان فيه وأمر بسجنه، وعين بدله عبد الرحمن ابن يحيى بن إدريس الأصمّ، ونقل السكة من مدينة قرطبة إلى الزهراء)[٣]. كما عزل سعيد بن جسّاس عن خطتي الوزارة والسكة معاً، وسخط عليه وحبسه مهاناً، لما اطلع عليه من غشه في السكة وعملها، وبدا له من فساد نقد المال الذي ضرب في مدته[٤]. ويدل ذلك على مدى اهتمام الخليفة بالسكة من حيث تعيين صاحبها وعزله، ثم وضعها في الزهراء، وهي مقر الناصر نفسه. وفي عهده اشتهر صاحب السكة قاسم بن خالد الذي حدد المعيار الجيد المضروب به المثل، بحيث نسبت إليه "الدراهم القاسمية" التي شاع استعمالها في بلاد الأندلس وخارجها[٥] وكانت من الفضة الخالصة.

---

[١] السيوطي، تاريخ، ص٥٢٢.

[٢] ابن عذاري، المراكشي، البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب، ط١، ج٢، تحقيق ج.س. كولان وإ.ليفي بروفنسال، ليدن (هولندا)، ١٩٥١، ص١٩٨، وانظر أيضا: ابن حيان، المقتبس، ج٥، ص٢٤٣.

[٣] ابن عذاري، البيان المغرب، ط١، تحقيق كولان وبروفنسال، ج٢، ص٢١٥.

[٤] ابن حيان، المقتبس، ج٥، ص٤٨٦.

[٥] المصدر نفسه، المقتبس، ج٥، ص٢٤٣.

واستمر اهتمام الخلفاء الأمويين بالسكة وصاحبها، فقد عين الخليفة الحكم المستنصر على السكة وزيره جعفر بن عثمان المصحفي المعروف والذي ينسب إليه الدينار الجعفري المشهور بالأندلس[1]، كما تولى هذا المنصب محمد بن أبي عامر الذي عرف فيما بعد بالحاجب المنصور واليه تنسب الدنانير العامرية[2] والذي استبد بالأمر بعد وفاة الحكم المستنصر فلم يبق لابنه هشام المؤيد سوى الخطبة والسكة[3]. وظلت السكة تضرب باسمه حتى بعد وفاته سنة ٣٩٩هـ/٩٧٦م. واستمر ملوك الطوائف باستخدام النقود الأموية. إلا أن كل أمير من أمراء الطوائف كان يضيف اسمه إلى جانب اسم الخليفة باعتباره حاجباً له، وفيما عدا ذلك فقد كانت النقود في عهد ملوك الطوائف موحدة بالرغم من الانقسام السياسي[4]. كما كان بنو حمود امراء مالقة يضيفون اسم ولي العهد على العملة. وظلت النقود تضرب من الذهب والفضة مثل النقود التي ضربها بنو جهور ملوك قرطبة وبنو عباد ملوك اشبيلية.

وقد كانت النقود الإسلامية متداولة في الممالك الإسبانية الشمالية منذ عهد الخلافة الأموية، حيث ورد ذكرها في وثائق مملكة ليون حيث ورد ذكر الدراهم القاسمية باسم Kazimi[5]، كما كانت متداولة بشكل اوسع في عهد ملوك الطوائف الذين كانوا يدفعون للملوك الإسبان مبالغ من المال على شكل أتاوات مقابل الكف عن قتالهم[6].

واستخدم المرابطون في بداية عهدهم بالأندلس نقوداً سكوها في المغرب، وكانت عملتهم الرئيسية هي الدينار الذهبي الذي بدأ العمل به في عهد يوسف بن تاشفين، وكانت

---

(1) ابن العطار، الوثائق والسجلات، ص٩٢؛ ابن سعيد، المغرب في حلي المغرب، ج١، ص٤٨٧.

(2) ابن حيان، المقتبس، ج٥، ص٤١؛ وابن بسام، الذخيرة، ق٤، مج١، ص٦٣؛ والمعجب، ص٣٨؛ والمقري، نفح، ج٣، ص٨٨.

(3) ابن الكردبوس، الاكتفاء في أخبار الخلفاء، ص٦٢؛ الزغول، جهاد غالب مصطفى، الحرف والصناعات في الأندلس منذ الفتح الإسلامي حتى سقوط غرناطة، الجامعة الأردنية، رسالة ماجستير منشورة، إشراف الدكتور محمد عبده حتاملة، كانون ثاني ١٩٩٤، ص١٧٨.

(4) لويس، خايمة، ملاحظات حول سكة النقود الإسلامية في الأندلس في العصر الأموي، صحيفة العهد المصري للدراسات الإسلامية في مدريد، مجلد ٤، عدد١، ٢، ١٣٧٥هـ/١٩٥٦م، ص٢٤٤؛ الزغول، الحرف والصناعات، ص١٨٠.

(5) ابن الكردبوس، الاكتفاء في أخبار الخلفاء، ص٥٩، هامش (٢).

(6) لويس، ملاحظات، ص٢٤٤-٢٤٥.

الدنانير مستديرة الشكل كتب على أحد وجهيها عبارة "لا إله إلا الله محمد رسول الله" وتحتها "أمير المسلمين يوسف بن تاشفين" وكتب في الدائرة الآية الكريمة "ومن يبتغ غير الاسلام ديناً فلن يقبل منه وهو في الآخرة من الخاسرين" وكتب على الوجه الآخر "الأمير عبد الله العباسي" كما كتب في الدائرة تاريخ ضرب الدينار ومكان سكّه[1].

ثم بدأ سك النقود المرابطية في الأندلس بعد سنة ٤٨٦هـ، ١٠٩٣م. واشتهر الدينار المرابطي في الأندلس، ولا سيما الذي ضرب في بلنسية، وظل متداولاً حتى عند الإسبان، وحتى بعد سقوط غرناطة، فقد كان من الذهب الخالص، وكان الإسبان يطلقون عليه (مرافيدي)[2].

وسك المرابطون إلى جانبه أنواع أخرى هي: الدينار المشرقي وهو مشوب بالنحاس، والدينار العبادي وهو مخلوط بالفضة، ثم الدراهم الثلثية وهي فضة مشوبة بالنحاس والدراهم الثمنية والقراريط اليوسفية نسبة إلى يوسف بن تاشفين وكانت من الفضة[3].

---

(1) ابن عذاري، البيان المغرب، تحقيق إحسان عباس، بيروت، ١٩٦٧، ج٤، ص٤٦؛ وابن أبي زرع، الأنيس المطرب، ص١٣٦، وحمدي عبد المنعم، تاريخ المغرب والأندلس، ص٣١٩.

(2) مرافيدي Maravedis أو Morabetino عملة إسبانية قديمة تشير إلى عصر المرابطين ونفوذهم السائد بالأندلس، فهي الدينار المرابطي الذهب الذي أصبح – لصحة وزنه وعياره – النموذج المحتذى في بلاد المغرب والأندلس. وقد تم سكه في مدن مغربية وأندلسية معاً، بيد أن قيمة المرابطي صارت تتأرجح وصفاتها أصبحت تختلف باختلاف العصور لدرجة أنها في العهود المسيحية المتأخرة بإسبانيا اختصوت وقسمت إلى ما يعرف بالبليون (Vellon) الذي كان يسك إما من مزيج من الفضة والنحاس معاً، وإما من النحاس وحده. انظر: حتاملة، محنة مسلمي الأندلس عشية سقوط غرناطة وبعدها، عمان، الطبعة الأولى، ١٣٩٧هـ/١٩٧٧م، ص٨٧.

(3) ابن رشد، أبو الوليد بن أحمد القرطبي، فتاوى ابن رشد، ط١، تقديم وتحقيق المختار بن الطاهر التليلي، بيروت، ١٤٠٧هـ/١٩٨٧م، ج١، ص٥٧٠-٥٧٢؛ ابن الأبار، الحلة السيراء، ج٢، ص٢٤٨، ٢٤٩؛ وابن عذاري، البيان المغرب، ج٤، ص٤٣؛ وابن الخطيب، أعمال الأعلام، ص١٧٤.

وقد ضربت العملة المرابطية الذهبية والفضية في عدد من المدن منـــها اشـبيلية وغرناطة وقرطبة، ومالقة وبلنسية ومرسية وغيرها[١].

وفي بداية عهد الموحدين ضرب محمد بن تومرت في المغرب دراهـــم مربعـة بحيث يرسم في دائرة الدينار شكل مربع في وسطه، ويملأ من أحـــد الجـانبين تـهليلاً وتحميداً ومن الجانب الآخر كتب في السطور باسمه وظلت سكتهم على ذلك الشكل حتـى عهد ابن خلدون[٢] وسار خلفاء ابن تومرت على هذه السنة، وكانوا ينقشون على العملـة الموحدية عبارات دينية وسياسية مثل "الله ربنا ومحمد نبينا والمهدي امامنا" و "لا قـوة إلا بالله". وكان الدينار الموحدي يمتاز بأن وزنه يساوي ضعف الدينار العبادي، ولهذا عـوف باسم Dobla[٣]، كما ضرب السلطان أبي يوسف يعقوب المنصور نصف دينار يســاوي الدينار العبادي، وكان وزن الدينار قبل الموحدين ٣٥ر٢ غرام ثم أصبـــح أصبـح ٧ر٤ غم[٤] . وكان الدينار الموحدي يضرب في الأندلس وفي فاس حيث كان فيهما دارا سـكة ثم أصبح الضرب مقتصراً على مدينة فاس في عهد الخليفة الناصر (يوسف ابن يعقـوب) حيث أصبح الدينار يضرب في دار سكة فاس فقط.

أما نقود بني الأحمر في غرناطة فقد كانت من الفضة الخالصة والذهب الابريـــز وظلت من حيث هيئتها وشكلها كما كانت في عهد الموحدين مربعة[٥]. وكـــانت النقـود المتداولة في القرن الثامن الهجري في عصر ابن الخطيب هي الدينار والدرهم والقـيراط (والقيراط نصف الدرهم) والربع (وهو نصف القيراط)، وكانت وحدة الوزن بينها الاوقية وهي تساوي سبعين درهماً في الوزن. وكان الدينار الواحد يساوي ثمن اوقية وخُمس ثُمن

---

[١] عز الدين موسى، النشاط الاقتصادي في المغرب الإسلامي خلال القـــرن الســادس الـهجري، ط٢، بيروت، القاهرة، ١٤٠٣هـ/١٩٨٣م، ص٢٥٣.

[٢] ابن خلدون، المقدمة، ج٢، ص٨١٠.

[٣] الدوبلة Dobla عملة ذهبية إسبانية قديمة كانت تساوي عشر بزيتات أو بسيطات. انظر: حتاملة، محنـة مسلمي الأندلس، ص٣٠، ٧٥.

[٤] الحكيم، أبو الحسن علي بن يوسف، الدوحة المشتبكة في ضوابط دار السكة، تحقيق د.حسين مؤنـس، معهد الدراسات الإسلامية، مدريد ١٣٧٩هـ/١٩٦٠م، ص١١١. ولويس، ملاحظات، ص٢٤٥.

[٥] ابن الخطيب، الإحاطة، ج١، ص١٤٣؛ واللمحة البدرية، ص٤٠.

اوقية وكانت الاوقية تساوي ستة دنانير وثلثي دينار[1]. وكان ينقش علـــى أحـــد وجـــهي الدرهم "لا إله الا الله محمد رسول الله" وعلى الوجه الآخر (لا غالب إلا الله، غرناطـــة). كما كتب على وجه القيراط (الحمد لله رب العالمين) وعلى الوجه الثاني (وما النصـــر إلا من عند الله)، كما كتب على الربع في شق (هدى الله هو الهدى) وفي الشق الآخر (العاقبة للتقوى). أما الدينار فقد كتب على أحد وجهيه "قل اللهم مالك الملك، بيدك الخـــير" وفـــي الدائرة (الهكم إله واحد لا إله إلا هو الرحمن الرحيم) وكتب على الوجه الثاني اسم الأمير الذي ضربت في عهده (الأمير عبد الله يوسف بن أمير المسلمين ابي الحجاج بـــن أمـــير المسلمين ابي الوليد اسماعيل بن نصر، أيد الله أمره) ويحيط به شعار (لا غـــالب إلا الله)، أما الدينار الذي ضرب في عهد محمد بن يوسف بن نصر فقد كتب على وجهه الاول (يا أيها الذين أمنوا اصبروا وصابروا ورابطوا واتقوا الله لعلكم تفلحون) ويحيط به (لا غالب إلا الله) وعلى الوجه الثاني (الأمير عبد الله الغني بالله محمد بن يوسف بن اسماعيل بـــن نصر أيده الله وأعانه). وفي الدائرة ضرب (بمدينة غرناطة حرسها الله)[2].

وكانت العملة المتداولة في الأندلس في القرن التاسع الهجري ـ الخامس عشـــر الميلادي متنوعة، فمنها الدينار الفضي العشري والدينار الذهبي العيني الجديد، من ســـكة السلطان أبي عبد الله الصغير والدينار العيني السعدي نسبة إلى السلطان ســـعد، وديـنـــار الذهب من السكة البالية المطبوعة والسكة الجديدة الطيبة والدنانير الغالبيـــة نســـبة إلـــى السلطان الغالب بالله. كما كانت الريالات القشتالية مستعملة فـــي غرناطـــة خـــلال هـــذه الفترة[3]. كما كانت العملات الفضية في عهد سلاطين بني نصر في غرناطة قد أعطيـــت قيمة عملة ذهبية، وظلت مربعة على النمط الموحدي[4].

---

[1] ابن الخطيب، الإحاطة، ج١، ص١٤٣، ١٤٤.

[2] المصدر نفسه، ج١، ص١٤٣، ١٤٤.

[3] الزغول، الحرف والصناعات، ص١٨٤، نقلاً عن: وثائق عربية غرناطية من القرن التاسع الـــهجري – الخامس عشر الميلادي، تحقيق لويس سيكو دي لوثينا، مطبعة معهد الدراســـات الإســـلامية، مدريـــد ١٣٨٠هـ/١٩٦١م.

[4] المرجع نفسه، ص١٨٥.

امتزاج الحضارة الأندلسية بالحضارات السابقة:

بالاضافة إلى كل ما تم ذكره سابقاً، عن الزراعة والصناعة والتعدين والتجارة وسك العملة، والطب والصيدلة فلا بُدّ من الاشارة إلى امتزاج هذه الحضارة الأندلسية بالحضارات السابقة في شبه الجزيرة الايبيرية وكيف ظلت تتفاعل مع هذه الحضارات إلى أن اوجدت نمطاً متميزاً وفاقت جاراتها الاوروبيات بهذه التجربة الحضارية الرائدة وكانت مركز اشعاع وتطوير وتحضير سواء إبان العهد الإسلامي أم بعده، وما زالت إلى هذا اليوم محط انظار السائحين سواء أرغبوا في النزهة أم الاطلاع على الآثار، أم البحث في التاريخ، إلى غير ذلك من نواحي الثقافة المختلفة، رغم أن المسلمين الفاتحين لم تتعدّ أعدادهم بضعة آلاف، وما تبعهم من أفواج اسلامية كان تعدادها قليلاً نسبياً لا يصل إلى ثلاثين ألفاً[1]، فقد كان أهل البلاد يقدمون على اعتناق الاسلام باعداد كانت تتزايد مع مرور الزمن حتى غدا عدد سكان الأندلس الإسلامية في أثناء ازدهارها الحضاري ثمانية عشر مليون نسمة، وأصبحت هذه البلاد جسراً ينقل حضارة الشرق، الممتزجة بالحضارة الأندلسية إلى أنحاء اوروبا كلها، لأن الأندلس رغم استقلالها لم تكن تعيش منعزلة عن بقية الدول في افريقيا وآسيا واوروبا.

العمـــارة.

كان فن العمارة العربية في الأندلس فناً أصيلاً لم يعتمد على أي شكل من أشكال البناء الغربية، وأخذ الأندلسيون عن الشرق تزيين الأبنية على الجدران والأعمدة في المساجد والقصور، ثم تزيين السقوف والأقبية والأركان، ثم زينت القصور برسوم النباتات والحيوانات والطيور، ولم تعد العين ترى البناء نفسه من كثرة ما فيه من زينة. وانتقل هذا الفن إلى الممالك الإسبانية في الشمال ثم إلى اوروبا حتى إن الفن المعماري القوطي ذي الأقواس المدببة تم اقتباسه في الأساس من الفن المعماري العربي. وكذلك

---

[1] الطبري، محمد بن جرير، تاريخ الأمم والملوك، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، ج٦، دار سويدان، بيروت، ١٩٦٧، ص٤٨٦؛ ابن الكردبوس، أبو مروان عبد الملك ابن الكردبوس التوزري، قطعة من الاكتفاء في أخبار الخلفاء، (د.أحمد مختار العبادي، نصان جديدان)، صحيفة معهد الدراسات الإسلامية في مدريد، م١٣، ١٩٦٥-١٩٦٦م، ص٤٦؛ ابن الشبّاط، م١٤، ص١٠٦؛ وانظر: الإدريسي، نبذة، ص١٩٢؛ وانظر: ابن الأثير، عز الدين ابي الحسن علي بن ابي الكرم، الكامل في التاريخ، ج٤، دار صادر ودار بيروت للطباعة والنشر، بيروت، ١٩٦٥، ص٥٧٦.

الأقواس التي على شكل الزهرة ذات الاوراق، كما أخذ الطراز القوطي عن العربي شكل المآذن بقاعاتها المربعة يعلوها جزء مثمن الأضلاع يعلوه جزء مستدير. وهكذا نـرى أن الفن القوطي المعماري الذي عمّ اوروبا كلها هو عربي الأصل تماماً. ولا تـزال آثـار العمارة الإسلامية قائمة في الأندلس مثل قصر الحمراء في غرناطة ومنارة الجرالدا فـي اشبيلية، وجامع قرطبة[١].

وكذلك فقد تميزت الأندلس في عمارتها ومن أبرز تلك المعالم المعماريـة قصـر الحمراء الذي شيدّ في عهد بني الأحمر[٢]، ولقد انتقلت الفنون المعمارية الأندلسـية إلـى المناطق الشمالية من شبه جزيرة ايبيريا بواسطة المستعربين، وعـن طريـق المدجنيـن (المسلمون) الذين ظلّوا يعملون في المناطق التي اسـتولت عليـها الممـالك النصرانيـة كطليطلة[٣]، ولقد ذكر ابن الخطيب أن حضارة الأندلس ازدهرت فـي مختلـف الفنـون ومجالات البناء في عهد عبد الرحمن الناصر[٤].

ومن الشواهد على التقدم الحضاري لمسلمي الأندلس في مجالات المعمار وجـود الحمامات في المدن الأندلسية ومثال ذلك وجود أحد عشر حمامـاً فـي مدينـة بجانـة وحدها[٥]. ولقد بلغت قرطبة مبلغاً عظيماً أيام حكم المسلمين، فقد ذكر أبو الفداء أن دورها بلغت ثلاثين الف ذراع في حين أن مساجدها بلغت ألفا وستمائة مسـجد (١٦٠٠)، وأمـا حماماتها فقد وصلت إلى تسعمائة حمام (٩٠٠)[٦]. وذكر د. عاشور أن منازل قرطبـة بلغت في عصر الخلافة مائتي ألف منزل سكنها مليون نسمة[٧]. ومن مميزات قرطبة في

---

(١) هونكه، زينغريد، شمس العرب، ص٤٧٧-٤٨٦.

(٢) مونتغمري واط، أثر الحضارة الإسلامية على أوروبا، ترجمة جابر ابـي جـابر، منشـورات وزارة الثقافة والإرشاد القومي، دمشق، ١٩٨١، ص٣٨.

(٣) أثر العرب، ص٤٠٨-٤٠٩.

(٤) ابن الخطيب، لسان الدين، كتاب أعمال الأعلام في من بويع قبل الاحتلام من ملوك الإسلام، تحقيـق: بروفنسال، دار المكشوف، بيروت، ١٩٦٥م.

(٥) الحميري، ص٣٨.

(٦) أبو الفداء، ص١٧٥.

(٧) د. عاشور، المدينة الإسلامية وأثرها في الحضارة الأوروبية، ط٢، مكتبة الأنجلو المصرية، القـاهرة، ص٥٠.

عصر الاسلام أن شوارعها كانت تضاء بعد غروب الشمس بمصابيح عامة مما سهل لأهلها السير في شوارعها بعد المغيب[1]. وذكر ابن حوقل أن عملية انشاء الحمامات والخانات والقصور والمنتزهات والأسواق ازدهرت في الأندلس ازدهاراً في عهد عبد الرحمن الثالث الناصر[2]، مما جعل حضارة الأندلس تزيد روعةً وتقدماً في مجال رقيها وتفوقها.

اللباس والموسيقى والغناء في الأندلس:

أما في مجال الموسيقى العربية بالأندلس وأثرها على اوروبا فقد وفد الاوروبيون إلى قرطبة حيث ترجموا كتابات العرب في علم الموسيقى إلى اللاتينية[3] . وكانت الموسيقى في صدارة العلوم والفنون التي أقبل عليها الطلبة الاوروبيون المبعوثون إلى المراكز الحضارية الإسلامية فترجموا ونقلوا الكثير من الكتب العربية في مجال الموسيقى كمؤلفات الكندي وثابت بن قرة وزكريا الرازي والفارابي واخوان الصفا وابن سينا وابن باجة وغيرهم[4] . لقد ابتكر الأندلسيون وأبدعوا في كل مجالات العلوم والفنون والآداب، واستطاع العقل الأندلسي المبدع الخلّاق أن يستوعب كل ما وجده في شبه الجزيرة الايبيرية في شتى نواحيها بمختلف فنون المعارف، وأن يضيف إليه، بروح متوثبة وفكر مرن ما أحضروا معهم من الشعلة الحضارية الإسلامية في جميع حقول الثقافة الانسانية فساروا في طريق المجد والرفعة. ومن الأندلسيين الذين ألفوا في الموسيقى العالم اللغوي والنحوي أبو عثمان سعيد بن فتحون بن مكرم السرقسطي[5] . كما ألف لسان الدين بن الخطيب رسالة في الموسيقى لم تصل إلينا[6] وقد وصل تعداد البعثات الطلابية عام ٢١٣هـ إلى سبعمائة طالب وطالبة أتوا من مختلف مقاطعات الشمال الايبيري والمانيا

---

[1] عاشور، المدينة الإسلامية، ص٥١.

[2] ابن حوقل، ص١٠٧.

[3] د.عاشور، المدينة الإسلامية وأثرها في الحضارة الأوروبية، ط٢، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة، ص٢٠٤.

[4] أثر العرب، ص٤٥٥.

[5] ابن صاعد، ص٦٨.

[6] الإحاطة، ج٤، ٤٦٠-٤٦٢؛ عنان، لسان الدين بن الخطيب، القاهرة، ط١، ١٣٨٨هـ/١٩٦٨م، ص٢٦٧.

وفرنسا[١] . ونتيجة لكون الحضارة العربية الإسلامية كانت منهلاً لاوروبا فقد انتقل إليها العديد من آلات الموسيقى العربية كالعود والقيثارة والجيتار والنقارة، والدف والصنوج والنفير، والطبل والقرن والشقير (الذي يقرّ الاوروبيون أنه كان بداية حلقات تطوير البيانو) وقد انتقلت هذه الالات إلى اوروبا بالأسماء العربية[٢] . كما أن اوروبا تعرفت على الآلات الوترية ذات القوس بحدود القرن الحادي عشر الميلادي حينما انتقل إليها الرباب العربي، عن طريق الأندلس، ولذلك فإن اول بلاد اوروبا تأثراً بالالات الوترية ذات القوس الواحد، هي البلاد المجاورة للاندلس مثل: فرنسا وايطاليا حيث أن الفرنسيين صنعوا الة تماثل الرباب العربية اسموها (Rubella) أو (Rubeie)، ومن آلات النفخ الناي الصغير والناي الخشبي ذو المبسم والنفير Trompe والسمبول Tymbolوالبوق. ومن الطبول: الطبل والطبلة والصنوج والنقارة. وكان الطلبة يتعلمون في مدرسة زرياب العزف على العود والجيتار. ونقل الاوروبيون عن العرب الموسيقى المتعددة الأصوات (الهارموني) بالعزف على أكثر من وتر كما تعلم الاوروبيون من ابن سينا والفارابي (وهما من علماء المشرق، لكن انتاجهما وصل إلى الأندلس) السّلم الموسيقي الذي نقلوه عن الكندي. أما الايطاليين فقد صنعوا آلة سموها (Rubeca) أو (Rebec) وقد انتشرت تلك الآلات في القرن الرابع عشر وعمت اوروبا، ومن هنا بدأ يطرأ عليها التغير تدريجياً حتى اواخر القرن الخامس عشر حيث اصبحت تعرف تلك الالات باسم (Viola) أي الوتر[٣].

ومن الذين وفدوا من المشرق فأثروا الحضارة الأندلسية زرياب الذي عاش في قرطبة من عام ٨٢٢م حتى وفاته في عام ٨٥٧م فنهض بالثقافة الشعرية والغناء وزاد الوتر الخامس للعود ليكون بمثابة الروح من الجسد وصنع مضرب العود من قوادم النسر[٤] بدلاً من صنعها من الخشب. وقد نقل إلى الأندلسيين طريقة تسريح الشعر وقصه بدلاً من تركه ضفائر. وقد ترك تأثيراً عند النساء الأندلسيات فقلدن زوجته في اللباس وفي اسلوب الطهي. فقد جدد زرياب في الأطعمة المعروفة وانتشرت وجبات جديدة ابتكرها،

---

(١) أثر العرب، ص٤٥٥.

(٢) المرجع نفسه، ص٤٦٠-٤٦١.

(٣) المرجع نفسه، ص٤٦١، وهونكة، ص٤٩٢.

(٤) المقري، نفح، ج٣، ص١٢٢-١٢٣، ١٢٦. وانظر: ج١، ص٣٤٤.

وأدخل إلى الأندلس خضروات لم تكن معروفة من قبل[1] . وكان ذلك نموذجاً من تفاعل التجربة الحضارية الأندلسية باختها المشرقية كما أن زرياب هو الذي عود الأندلسيين على تغيير الملابس طبقاً للفصول فمن اول حزيران أصبح الناس يرتدون الملابس البيضاء حتى اول أيلول وفي الشتاء عليهم أن يلبسوا الفراء والملابس الثقيلة كما علمهم أن يرتدوا في الربيع ملابس حريرية خفيفة زاهية الألوان[2] .

كما افتتح زرياب في الأندلس اول معهد لتدريس التجميل وعلم الناس كيف يفرقون الشعر في منتصف الرأس ولا يتركونه يغطي وجوههم وأصداغهم كما علمهم أنه لا بد أن تبدو حواجبهم وآذانهم[3] . وقد علمهم تبييض الثياب بالملح[4] ، كما عرف عن زرياب أنه كان يفضل استخدام الاواني الزجاجية على نظائرها الفضية أو الذهبية[5] . وكان أهل الأندلس من أكثر الناس عناية بنظافة ملابسهم وأناقتها[6] . وقد اختلف لباسهم عن لباس المشارقة اختلافاً بيناً لا سيما في حالة الحداد، فقد اتخذ الأندلسيون اللون الأبيض شعاراً للحداد بينما كانت سمة الحداد في المشرق الإسلامي اللباس الأزرق[7] .

وقد وصف لسان الدين بن الخطيب لباس أهل غرناطة في عهده (القرن الثامن الهجري/الرابع عشر الميلادي) قائلاً: ولباسهم الغالب في طرقاتهم الفاشي بينهم: الملف المصبوغ شتاء، وتتفاضل أجناس البز بتفاضل الجِدَه (الغنى) والمقدار (أي مكانة الانسان)، والكتان والحرير والقطن والمرعزي، والأردية الافريقية في البطاح الكريمة تحت الأهوية المعتدلة[8].

---

(1) المقري، ج٣، ص١٢٧؛ وهونكه، ص٤٩١-٤٩٤.

(2) المقري، نفح، ج٣، ص١٢٨.

(3) المصدر نفسه، ص١٢٧.

(4) المصدر نفسه، ص١٢٧.

(5) المصدر نفسه، ص١٢٨.

(6) المصدر نفسه، ص٢٢٣.

(7) متز، آدم، الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجري، أو عصر النهضة في الإسلام، ترجمة، محمد بوريده، ج٢، ط٣، القاهرة، ١٩٥٧م، ص٢٢٢.

(8) ابن الخطيب، الإحاطة، ج١، ص١٣٤، ١٣٥.

أما فيما يتعلق بالعمائم فقد تسامح أهل شرق الأندلس فيها فلم تكن شائعة، أما في غربي الأندلس فكان لباس القضاة والفقهاء وكل عالم يشار إليه بالبنان، وكان كل رجال الأندلس يستخدمون الطيلسان، لكن الشيوخ المرموقين هم الذين كانوا يضعونه على رؤوسهم وكانت غفائر الصوف لديهم في الغالب حمراء أو خضراء[1]. أما اليهود فكانوا يختصون بالغفائر الصفراء ليتميزوا بيسر عن بقية السكان وكان يحظر على اليهود التعمم، وكان العلماء وحدهم من يرخون الذوابات من تحت الأذن اليسرى.

كما ذكر لسان الدين بن الخطيب أن "العمائم تقل في زي أهل غرناطة في عهده ولم يعتن بلباسها سوى الشيوخ والقضاة والعلماء والجند العربي.

كما ذكر ابن الخطيب أن الغنى كان سائداً في غرناطة وأن أهلها يميلون إلى الاقتصاد. أما طعامهم الغالب فكان من القمح (البرّ الطيب) طيلة العام، وربما عمد الفقراء وأهل البادية إلى أكل الذرة العربية والقطاني الطيبة في الشتاء، كما كانت تتوافر لديهم أنواع متعددة من الفواكه المجففة طيلة العام، كما كانوا يدّخرون العنب سليماً من الفساد إلى شطر العام، كما كانوا يحفظون التين والزبيب والتفاح والرمان والقسطل والبلوط والجوز واللوز إلى غير ذلك مما لا ينفذ ولا ينقطع مدده إلاّ في الفصل الذي يزهد في استعماله.

أما حليهم فكانت القلائد والدمالج والشنوف والخلاخل من الذهب الخالص عند الأغنياء (بينما يلبس الآخرون حلياً من اللُّجَيْن) وأحجار الياقوت والزبرجد (الزمرد) ونفيس الجوهر لدى علية القوم.

ووصف ابن الخطيب نساء غرناطة بقوله "أما حريمهم، فهو حريم جميل موصوف بالسحر (الحسن) وتنعُّم الجسوم واسترسال الشعور، ونقاء الثغور، وطيب النشر (الريح الطيبة) وخفه الحركات، ونبل الكلام، وحسن المحاورة. إلاّ أن الطول يندر فيهن. وقد بلغن من التفنن في الزينة إلى هذا العهد، والمظاهرة بين المصبغات والتنفيس بالذهبيات

---

[1] المقري، نفح، ج١، ص٢٢٢-٢٢٣.

والديباجيات، والتماجن في أشكال الحلي إلى غاية نسأل الله أن يُغضَّ عنهنّ فيها عين الدهر ويكفكف الخطب ولا تجعلها من قبيل الابتلاء والفتنة وأن يعامل جميع من بها بستره ولا يسلبهم خفي لطفه بعزته وقدرته"[١].

الحركة العلمية:

تقدمت العلوم في الأندلس وبلغت درجة عالية من التقدم في زمن الحكم الأموي ولا سيما في عهد الحكم الثاني الذي انشأ سبعاً وعشرين مدرسة جديدة لأبناء الفقراء، كما ساهم بنفسه في كل نواحي النشاط العلمي والأدبي في قرطبة وانفق بسخاء على الأبحاث العلمية وشراء الكتب، وارسل رسله للبحث عن النادر من الكتب والمخطوطات ودفع أغلى الأثمان لها، وانشأ في قصره مكتبة حوت اربعمائة الف كتاب، كما كان بلاطه ملتقى للعلماء والأدباء. ولم يكن الحكم الثاني وحده يهتم بالعلوم بل فعل ذلك ملوك الطوائف مثل المظفر ملك بطليوس الذي أخرج مائة مجلة تحوي كل علوم عصره[٢] والمقتدر صاحب سرقسطة الذي كان هو نفسه عالماً في الفلك والرياضيات وتنافس ملوك الطوائف على تكريم العلماء وانشاء المكتبات أما مجالات العلوم في الأندلس فكانت كما يلي:

العلوم الرياضية والطبيعية:

فقد استخدم المسلمون طريقتين في كتابة الأرقام: الطريقة المشرقية التي تستعمل في مصر والعراق وبلاد الشام[٣]. والطريقة المغربية واستعملها الأندلسيون وقد أخذ الغربيون الطريقة المغربية عن طريق الأندلس والتي تكتب الأرقام[٤] 1 2 3 4 5 6 7 8 9 0. وقد برع الأندلسيون في العلوم وخاصة في الهندسة وعلم النجوم والفلك والحساب والعلوم الطبيعية والفلسفة، ومن علماء الأندلس الذي تفوقوا في الحساب أبو عبيدة مسلم بن أحمد صاحب القبلة (المتوفى عام ٣٠٤هـ)[٥] وابو غالب حباب بن عبادة الفرائضي الذي اشتهر في حوالي عام ٣٢٥هـ[٦]، ومن الراسخين في هذا العلم الكرماني أبو الحكم

---

[١] ابن الخطيب، الإحاطة، ج١، ص١٣٨، ١٣٩.

[٢] هونكه، ص٥٠٠-٥٠١.

[٣] المرجع في الحضارة، ص٣٤١.

[٤] المرجع نفسه، ص٣٤٢.

[٥] ابن صاعد، ص٦٤.

[٦] المصدر نفسه، ص٦٧.

عمرو بن عبد الرحمن من أهل قرطبة[١] ، وأبو القاسم مسلمة بن أحمد المحيط وكان بحق أمام الرياضيين في الأندلس في وقته[٢] .

ومن علماء الأندلس الذين ظهروا في العلوم الطبيعية والكيمياء عباس بن فرناس بن ورداس التاكرتي (ت ٢٧٤هـ/٨٨٧م) الذي قام بالتجربة الحضارية الفريدة إذ قام باول محاولة للطيران، فقد كسا جسمه بالريش وصمم له جناحين وطار من الرصافة على مرأى كثير من الناس، فأدهشهم وأثار اعجابهم وفضولهم لكنه سقط جاهلاً بفائدة الذنب للطير فلم يحسن عاقبة طيرانه، ولعل الطائرات تفسير طبيعي لذلك الحلم القديم الذي كانت تجربة هذا الرجل اول محاولة للطيران في العالم[٣]، ومنهم أيضاً عبد الله بن محمد الذي اشتغل بالكيمياء[٤].

علوم الفلك:

كما واشتهر عدد من علماء الأندلس في علم النجوم (الفلك)، ومن النافذين في هذا العلم أبو عبيدة مسلم بن أحمد البلنسي الذي برع في معرفة حركات الكواكب وقوانينها[٥]، ومنهم يحيى بن يحيى المعروف بابن السمينة[٦] وعبد الله بن أحمد السرقسطي المتوفي عام ٤٤٨هـ/١٠٥٦م، حيث أنه كان متعمقاً في علوم الحساب والهندسة بالاضافة إلى علم النجوم[٧]، كما أن أبا يحيى ابن أحمد المعروف بابن الخياط المتوفى بطليطلة سنة ٤٤٧هـ/١٠٥٥م يعتبر في مصاف مشاهير العلماء الأندلسيين في علم النجوم[٨] ومنهم أيضاً أبو مروان عبد الله بن خلف الاستجي الذي اعتبره ابن صاعد من أفضل من اشتغل بعلم النجوم[٩]، كما أن ابن الجلاب من العلماء الذين اشتهروا بالالمام بعلم هيئة الأفلاك

---

[١] ابن صاعد، ص٧٠.
[٢] المصدر نفسه، ص٦٩.
[٣] ابن سعيد، ج١، ص٣٣٣؛ ابن سماك، ص١٣٣؛ المقري، نفح، ج١، ص٣٧٤.
[٤] ابن صاعد، ص٦٨.
[٥] المصدر نفسه، ص٦٤.
[٦] المصدر نفسه، ص٦٥.
[٧] المصدر نفسه، ص٧٢-٧٣.
[٨] المصدر نفسه، ص٨٦.
[٩] المصدر نفسه، ص٨٦.

وحركات النجوم[١]، وكذلك أبو بكر بن أبي عيسى الذي كان مقدماً في هذا العلم أيام حكم الحكم المستنصر[٢]. ومن الأدوات الفلكية التي اشتهر الأندلسيون بصناعتها الاسطرلاب، ويعتبر محمد بن أحمد بن عبد الله من أبرز من أتقن هذه الصنعة[٣]. وهناك الكثير من علماء الأندلس الذين نبغوا في المعارف المتعلقة بعلم الفلك، ولمزيد من المعرفة بهم تجدر الاشارة إلى أن ابن صاعد ذكر عدداً منهم[٤].

الهندسة:

كما برزت في الأندلس اسماء المهندسين الذين قاموا على خدمة هذا العلم والتأليف فيه، ومن أهم علماء الأندلس في هذا التخصص: عبد الله بن أحمد السرقسطي المتوفي عام ٤٤٨هـ/١٠٥٦م[٥] وأبو أيوب عبد الغافر[٦]، وعبد الله بن محمد المعروف بالسرّى الذي عظمه الحكم المستنصر بسبب سعة اطلاعه وتعمقه في علم الهندسة[٧]. ولكن أبرز علماء الهندسة في الأندلس إبان عصر الحكم المستنصر هو ابو بكر بن أبي عيسى احمد بن محمد الذي أقر له بالسبق في علمه وفي سائر العلوم الرياضية[٨] ومن الذين برعوا في علوم الهندسة في الأندلس علي بن أحمد العبدلاني وأبو جعفر أحمد بن جوشن[٩]. وفي الختام لا بدّ من القول أن المجال لا يتسع في هذا المقام لذكر أسماء المهندسين وانجازاتهم، ولكن القصد كان التنويه إلى أن علم الهندسة من العلوم التي ازدهرت في الأندلس، وكان للمسلمين فيها دور ريادي حيث أن الأندلس كما بات معلوماً كانت مركزاً كبيراً لانتقال الحضارة والمعارف والعلوم الإسلامية الأندلسية والمشرقية إلى اوروبا، وبالتالي تبين الأثر الكبير الذي ادته الأندلس في نهوض اوروبا من سباتها الذي كانت تغط فيه.

---

(١) ابن صاعد، ص٧٣.

(٢) المصدر نفسه، ص٦٨.

(٣) المصدر نفسه، ص٧٠.

(٤) المصدر نفسه، ص٦٩، ٧٢، ٧٥.

(٥) المصدر نفسه، ص٧٢-٧٣.

(٦) ابن صاعد، ص٦٧.

(٧) المصدر نفسه، ص٦٧.

(٨) المصدر نفسه، ص٦٨.

(٩) المصدر نفسه، ص٧٥.

الفلسفة:

ومن الجدير بالذكر في ختام هذه الدراسة الاشارة بشكل موجز إلى الملمح الحضاري لمسلمي الأندلس في علم الفلسفة ومدى الأثر العظيم الذي تركوه على العلوم الفلسفية في اوروبا وبما أن المجال في هذا المقام لا يتسع للتوسع في هذا الموضوع، فلا بد من ذكر بعض أشهر علماء الأندلس في هذا العلم، ولذلك من الصعب على المتتبع لعلم الفلسفة في الأندلس أن يغفل ذكر التالية اسماؤهم لان دراساتهم وأعمالهم تركت فيما بعد أثراً كبيراً على النهضة الفلسفية في اوروبا، أما الاول فهو أبو بكر محمد بن الطفيل الذي درس على مجموعة من علماء الفلسفة منهم العالم الفلسفي الأندلسي أبو بكر بن الصائغ المعروف بابن باجة، ولابن الطفيل تصانيف في الفلسفة في الطبيعيات منها والالهيات، ومن رسائله رسالته المسماه "حي بن يقظان"[١].

وأما الثاني فهو ابن رشد (المتوفى عام ٥٩٥هـ) الذي قام بتلخيص كتب ارسطو طاليس[٢] أما بدايات الفلسفة في الأندلس فيعتبر عصر الامارة في الأندلس البداية الحقيقية لهذا العلم منذ عهد الأمير عبد الله جد الناصر، على يدي محمد بن عبد الله بن مسره ٢٦٩ـ٣١٨هـ/٨٨٣ـ٩٣١م[٣]، وقد ظهر عدد ممن اشتغلوا بعلم الفلسفة في الأندلس ومن هؤلاء ابو عثمان سعيد بن فتحون السرقسطي الذي عاصر عبد الرحمن الناصر، وألف رسالة في الفلسفة اعتبرت مدخلاً إلى العلوم الفلسفية، سمّاها شجرة الحكمة، كما أنه ألف رسالة اخرى في تعديل العلوم وكيفية دروجها إلى الوجود من انقسام الجوهر والعرض[٤]. ومن مشاهير فلاسفة اشبيلية عمرو بن خلدون[٥]. أما طليطلة فان أبا الحسن بن يحيى النقاش المعروف بالزرقيال هو أحد اللامعين فيها في علوم الفلسفة[٦].

---

(١) المراكشي، المعجب، ص٣١١-٣١٢.

(٢) المصدر نفسه، ص٣١٥.

(٣) انظر بالنثيا، آنخل جنثالث، تاريخ الفكر الأندلسي، ترجمة حسين مؤنس، ط١، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، ١٩٥٥، ص٣٢٦-٣٢٧ وما بعدها.

(٤) ابن صاعد، ص٦٨.

(٥) المصدر نفسه، ص٧١.

(٦) المصدر نفسه، ص٧٥.

وقد ترك المسلمون أثرا عظيما على التفكير الفلسفي لاوروبا باعتراف بعض علمائها[1] إذ بات من المعروف أن مؤلفات وآثار فلاسفة الشرق الإسلامي الكبار أمثال الفارابي والكندي وابن سينا قد انتقلت إلى اوروبا عن طريق الأندلس كما هو الحال بالنسبة إلى فلاسفة الأندلس وخاصة اللامعين منهم كابن باجة وابن طفيل وابن رشد، حيث أن أسقف طليطلة ريموند اشرف على ترجمة أعمال الفارابي وابن سينا والغزالي، وأكثر علماء المسلمين أثرا على اوروبا في علم الفلسفة ابن رشد الأندلسي[2].

---

[1] د. عاشور، المدينة الإسلامية وأثرها في الحضارة الأوروبية، ص٨٦.

[2] المرجع نفسه، ص٨٦، ٢٠٤.

الفصل الثاني عشر

محاكم التفتيش

محاكم التفتيش

تمهيـــــــــــد:

بدأ بسقوط غرناطة وتسليمها للنصـــارى فـي الثـــاني مــن ربيــع الأول ســنة ٨٩٧هـ/الثاني من كانون الثاني ١٤٩٢م[١] عهد جديد مختلف فيما يتعلق بالمسلمين فـــي الأندلس. وأقل ما يقال في هذا العهد أنه تميز بالظلم والجور والتعسف والقهر الذي لحـق بالمسلمين على أيدي النصارى. ولتبين الفرق بين معاملة المسلمين للنصارى عندما فتحوا الأندلس، ومعاملة النصارى للمسلمين عندما تغلبوا عليها لا بد من التذكـــير بالبدايـات، فعندما بدأ فتح الأندلس سنة ٩٢هـ/٧١١م كان معظم سكان شبه جزيرة إيبيرية يدينـــون بالمسيحية الكاثوليكية مع وجود أقلية من يهود[٢]. وقد شرع المسلمون منذ بداية الفتح فـي بناء مجتمع جديد حرصوا على أن يكون التسامح الديني دعامته الأساسية، فقد امتنعوا عن استخدام القسر أو الضغط، بل امتنعوا حتى عن الرعاية الظاهرة لاستمالة ســـكان شـبه الجزيرة إلى الإسلام، مكتفين بما أمرهم الله به "لا إكراه في الدين"[٣]. وانحصر التعامل بين الفاتحين وأهل البلاد في دفع الجزية والخراج، وكان يعفى من الجزية من لا يسـتطيع دفعها لمرض أو غيره. وأما الخراج فكان جزءاً من غلة الأرض، يتوقف مقداره علـــى طيب الأرض وغلتها[٤]. وما يتضح من ذلك هو أن المســـلمين الغـالبين لـم يسـتغلوا انتصارهم، ولم يكلفوا أحداً فوق طاقته، ولم يظلموا، ولم يحولوا بين أهل البلاد المفتوحـة وبين ما اختاروه من دين أو مذهب أو دار عبادة.

وتطورت العلاقات بين الفئات التي سكنت شبه الجزيرة الأيبيرية وفقاً لشروط كان بعضها نتيجة حتمية للظروف التي كانت سائدة قبل الفتح، والتي نجمت فيمـا بعـد عـن

---

[١] المقري، نفح الطيب: ٥٢٥/٤؛ وأزهار الرياض: ٦٥/١؛ مجهول، آخر أيـام غرناطـة: ١٢٠ ومـا بعدها.

[٢] بشتاوي، عادل سعيد، الأندلسيون المواركة: ١٨٧.

[٣] البقرة: ٢٥٦.

[٤] ابن القوطية، تاريخ افتتاح الأندلس، تحقيق عبد الله أنيس الطباع: ٢١١؛ وانظر: بشتاوي، الأندلسـيون الموراكة: ١٨٧.

الوضع الذي ترتب على الفتح. ويمكن القول إن تلك الفئات كانت قسمين رئيسيين الأول هم الفاتحون من عرب وبربر، والثاني هم النصارى الذين عُرفوا أيضاً باسم المعاهدين أو المعاهدة أو أهل الذمة أو المستعربين Mozarebs. وشمل هذا القسم: المسالمة الذين حمل أبناؤهم صفة المولدين بالإضافة إلى المولدين[1]. وليس من شك في أن أعداداً كبيرة من أهل البلاد الأصليين أعلنت إسلامها عن اقتناع. بينما تمتع النصارى الذين اختاروا البقاء على دينهم بحريتهم في العبادة، وارتقى بعضهم في ظل النظام الإسلامي الجديد إلى مراتب عالية[2].

وكان رجال الدين من الإسبان يعرفون أن الإسلام إنما جاء مؤكداً ومكملاً ما سبق أن ورد في اليهودية والنصرانية من إيمان بالله وبرسله وبالأحكام الواردة فيهما. وترك الإسلام – كما ذكرنا – الحرية لأتباع الديانات الأخرى أن يمارسوا دينهم، ويديروا شؤون مجتمعهم[3]. غير أن هذه الموازين انقلبت عندما دارت الدائرة على المسلمين، ولتوضيح ذلك لا بد من التذكير بمعاهدة تسليم غرناطة التي تضمنت سبعة وستين شرطاً منها: "تأمين الصغير والكبير في النفس والأهل والمال، وإبقاء الناس في أماكنهم ودورهم ورباعهم وعقارهم. ومنها إقامة شريعتهم على ما كانت ولا يحكم أحد عليهم إلا بشريعتهم، وأن تبقى المساجد كما كانت والأوقاف كذلك. وأن لا يدخل النصارى دار مسلم ولا يغصبوا أحداً، وأن لا يولّى على المسلمين إلا مسلم أو يهودي ممن يتولى عليهم من قِبَل سلطانهم قبل..."[4].

---

(1) بشتاوي، الأندلسيون المواركة: ١٨٧.

(2) المرجع نفسه: ١٨٧–١٨٨.

(3) حومد، أسعد، محنة العرب في الأندلس: ٢٥٢.

(4) المقري، نفح الطيب: ٤/٥٢٥–٥٢٦؛ وانظر نص المعاهدة: حتاملة، التنصير القسري لمسلمي الأندلس: ٤٦–٥٤. ومن أجل الاستزادة بمعاهدة تسليم غرناطة انظر:

- Antonio Gallego y Burin y Alfonso Gamir Sandoval, Los Moriscos del Reino de Granada, Segun el Sinodo de Guadix de 1554, Universidad de Granada, 1968, pags 13-18.
- Coleccion de decumentos ineditos para la historia de Espana, VIII, Madrid 1846 pag 421.
- Miguel Garrido Atienza Las Capitulaciones para la entrega de Granada, Granada, 1910, pag 273.
- Mercedes Garcia – Arenal Los Moricos, Madrid, 1975, pags 19-28.

فقبل أن يجف مداد تلك المعاهدة نقضها الملكان النصرانيان فرناندو الخامس وإيزابيلا اللذان كانا شديدي التعصب للكاثوليكية. وقد أشارت المصادر إلى ذلك باتفاق على مضمون هذا النقض وإن اختلف التعبير، فصاحب آخر أيام غرناطة يذكر أن الملك النصراني دعا المسلمين إلى التنصر وأكرههم عليه، وذلك سنة ٩٠٤هـ/١٤٩٨م "فدخلوا في دينه كرهاً، وصارت الأندلس كلها نصرانية. ولم يبق من يقول فيها: لا إله إلى الله محمد رسول الله ﷺ جهراً، إلا من يقولها في نفسه، وفي قلبه أو خفية من الناس. وجُعلت النواقيس في صوامعها بعد الأذان، وفي مساجدها الصور والصلبان بعد ذكر الله تعالى وتلاوة القرآن فكم فيها من عين باكية، وكم فيها من قلب حزين، وكم فيها من الضعفاء والمعدومين لم يقدروا على الهجرة واللحوق بإخوانهم المسلمين. قلوبهم تشتعل ناراً، ودموعهم تسيل سيلاً غزيراً مدراراً، وينظرون أولادهم وبناتهم يعبدون الصلبان، ويسجدون للأوثان، ويأكلون الخنزير والميتات، ويشربون الخمر التي هي أم الخبائث والمنكرات، فلا يقدرون على منعهم ولا على نهيهم ولا على زجرهم. ومن فعل ذلك عوقب أشد العقاب"[١].

وقال المقري في نفح الطيب: "ثم إن النصارى نكثوا العهد، ونقضوا الشروط عروة عروة، إلى أن آل الحال لحملهم المسلمين على التنصّر سنة أربع وتسعمائة، بعد أمور وأسباب أعظمها وأقواها عليهم أنهم قالوا: إن القسيسين كتبوا على جميع من كان أسلم من النصارى أن يرجع قهراً للكفر، ففعلوا ذلك. وتكلم الناس ولا جهد لهم ولا قوة، ثم تعدوا إلى أمر آخر، وهو أن يقولوا للرجل المسلم: إن جدك كان نصرانياً فأسلم فترجع نصرانياً..."[٢]. وقال في أزهار الرياض: "...وذلك أنهم أُكرهوا بالقتل إن لم يقع منهم النطق بما يقتضي في الظاهر الكفر"[٣].

وجاء في أزهار الرياض أيضاً "أن طاغية قشتالة وأرغون – قصمه الله – صدم غرناطة صدمة، وأكره على الكفر من بقي بها من الأمة بعد أن هيض جناحهم، وركدت رياحهم؛ وجعل يعد جنده الخاسر على جميع الجهات الأندلس ينثال، والطاغية يزدهي في

---

[١] مجهول، آخر أيام غرناطة: ١٣٠-١٣١.

[٢] المقري، نفح الطيب: ٥٢٧/٤.

[٣] المقري، أزهار الرياض: ٦٩/١.

الكفر ويختال، ودين الإسلام تنثر بالأندلس نجومه، وتطمس معالمه ورسومه؛ فلو رأيتم ما صنع الكفر بالإسلام وأهليه، لكان كل مسلم يندبه ويبكيه؛ فقد عبث البلاء برسومه، وعفّى على أقماره ونجومه؛ ولو حضرتم من جبر بالقتل على الإسلام، وتُوُعِّد بالنكال والمهالك العظام، ومن كان يعذب في الله بأنواع العذاب، ويدخل به من الشدة في باب ويخرج من باب، لأنساكم مصرعه، وساءكم مفظعه؛ وسيوف النصارى إذ ذاك على رؤوس الشرذمة القليلة من المسلمين مسلولة، وأفواه الذاهلين محلولة، وهم يقولون: ليس لأحد بالتنصر أن يمكل، ولا يلبث حيناً ولا يمهل؛ وهم يكابدون تلك الأهوال، ويطلبون لطف الله في كل حال"[1].

وذكر ابن إياس في بدائع الزهور أن النصارى بعد أن تسلموا غرناطة "وضعوا فيها السيف بالمسلمين، وقالوا: من دخل ديننا تركناه، ومن لم يدخل قتلناه..."[2].

وهكذا قوبلت المعاملة الحسنة التي تلقاها النصارى على أيدي المسلمين عندما فتحوا الأندلس بمعاملة وحشية تلقاها المسلمون على أيدي النصارى، فبعد أن تغلبوا على البلاد قهروا العباد، وخيروهم بين التنصر والقتل، وهما أمران أحلاهما مرّ.

لقد تعايش المسلمون والنصارى في الأندلس زمناً طويلاً، وكان كل واحد من الفريقين سيداً في أرضه، ويتعاملان مع بعضهما معاملة المثل بالمثل، ولكن بعد دخول الملكين الكاثوليكيين غرناطة أصبح المسلم فيها وفي غيرها من أنحاء الأندلس مهزوماً، وبدأ ضغط المنصرين وقهرهم يشتد يوماً بعد يوم، وانتهكت المعاهدات والمواثيق، وذلك بمراسيم بابوية، حيث أصدر البابا كليمنت السابع أمراً بتاريخ ١٥٢٤/٣/١٢م أمر يحلّ فيه الملك شارل الخامس من قسم أقسمه على الوفاء للمسلمين بما تضمنته معاهدات الصلح،

---

[1] المقري، نفح: ٧٠/١-٧١.

[2] ابن إياس، أبو البركات محمد بن إياس زين الناصري، بدائع الزهور في وقائع الدهور: ٣٩٢/٢.

مع أن الديانات السماوية كلها لا تجيز إحلال الإنسان من قسم أقسمه أمام الله والناس على الوفاء لأبرياء وثقوا بمن أقسم لهم[1].

وعلى كل حال لجأت السلطات النصرانية إلى كل الوسائل من أجل تنصير مسلمي الأندلس، مثل حملات التبشير بينهم، وإجبارهم على التعميد، غير أن هاتين الوسيلتين فشلتا، فأدركت تلك السلطات أن الإسلام من المستحيل استئصاله، وأن جذور الثقافة الإسلامية والإيمان من العمق بما لا يمكن معه انتزاعهما. غير أن ذلك لم يحل دون الاستمرار بإصرار شديد على انتزاع الدين الإسلامي من نفوس المسلمين، فأصدرت تلك السلطات مجموعة من القوانين واللوائح خلال الفترة ١٥١١-١٥٢٦م تهدف جميعها إلى حرمان المسلمين الذين أُجبروا على التنصير (الموريسكيون) من ممارسة الشعائر والعادات الإسلامية، وإلا تعرضوا لأقسى العقوبات[2].

وقد عبر بعض الشعراء عما آلت إليه حال المسلمين في ظل التعصب الديني الأعمى الذي مارسته السلطات النصرانية قائلاً[3]:

فلما دخلنا تحت عقد ذمامهم	بدا غدرهم فينا بنقص العزيمة
وخان عهوداً كان قد غرّنا بها	ونصّرنا كرهاً بعنفٍ وسطوة
وأحرق ما كانت لنا من مصاحف	وخلّطها بالزبل أو بالنجاسة
وكل كتاب كان في أمر ديننا	ففي النار ألقوه بهزءٍ وحقرة

---

(1) انظر: هورتز، أنطونيو دومينقيز وبنثنت، برنارد، تاريخ مسلمي الأندلس الموريسكيون "حياة ومأساة أقلية"، ترجمة طه، عبد العال صالح: ٢٠-٢١؛ حومد، محنة العرب في الأندلس: ٢٥٢. وانظر أيضاً:

- Mercedes Garcia – Arenal Los Moricos, Madrid, 1975, pags 29-30.
- F. Bermudez de Pedraza, Historia eclesiastica, principios y progresos de la ciudad y religion catolica de Granada, Granada, 1638, Fol. 236.
- Luis del Marmol Carvajal, Historia del rebilion y Castigo de los Moriscos del reino de Granada reimpresion de la "bibl de Autores Espanoles, XXI Madrid, 1946, pags 153-154, Lib. I Cap. XXII".

(2) هورتز وبنثنت، تاريخ مسلمي الأندلس: ٢٤-٢٥. وانظر أيضاً:

- Marmol La Visita de la delegcion mameluca tuvo Lugar en 1500 (v. Rebelion y Castigo…, p.156).

(3) المقري، أزهار الرياض: ١/١١١-١١٢.

ومن صام أو صلى ويُعلم حالــــه　　ففي النار يلقوه على كــل حالــــة

وفي رمضان يفسدون صيامنـــــا　　بأكل وشرب مرة بعـــــد مـــرة

وقد أمرونا أن نسبّ نبينـــــــا　　ولا نذكرنه فـــي رخـــاء وشـــدة

وقد بُدّلت أسماؤنا وتحولـــــــت　　بأسماء أعلاج من أهـــل الغبــاوة

فآهاً على تلـــك البـــلاد وحســنها　　لقد أظلمت بالكفر أعظم ظلمـــة[١]

قوبل إصرار رجال الدين النصارى على طمس معالم الإسلام بين الموريســكيين بإصرار مماثل من الأخيرين على ممارسة شعائرهم ولو سراً، ولذلك بدأت تصدر سلسـلة من اللوائح والقوانين أكثر إجحافاً من سابقتها. ذلك أن الكنيسة عندما أدركت أن استئصال الإسلام لا يمكن أن يتم بقرار عكفت – بمساعدة السلطات الرسمية – على تتبع مظـــاهر الحضارة والثقافة الإسلاميتين محرمة إياها، ومُنزلة عقوبات قاسية بالمخالفين. وكانت هذه اللوائح والقوانين تتعلق بالملابس والكتب العربية وبطريقة الذبح، وارتياد الحمامات، ومــا شابه ذلك[٢]. وقد أدى ذلك إلى شعور المسلمين بالخيبة والمرارة، إذ ظنــوا أن بإمكانـــهم الاستمرار في العيش بأمان بمجرد إظهارهم النصرانية.

وشهد عام ١٥٢٦م تحولاً في تعامل النصارى مع المسلمين، ففي ذلك العام أُعلنت نتائج توصلت إليها لجنة انعقدت في غرناطة بقرار ملكي، ومن هذه النتائج قرار بـــإلزام الموريسكيين بممارسات تستهدف إزالة خصائصهم الإسلامية، حيث تم تفصيل ما حُــرّم عليهم تفصيلاً محدداً بدقة، ومن ذلك: تحريم استخدام اللغة العربيـــة كتابـــة أو مشـــافهة، وتحريم ارتياد الحمامات، وتحريم ختان الأطفال، وتحريم استعمال التعـــاويذ أو الرقـــى، وتحريم اتخاذ أزياء أو حلي غير ما يتخذه النصارى، وتحريـــم الذبـــح علـــى الطريقـــة

---

(١) حتاملة، د. محمد عبده، التنصير القسري لمسلمي الأندلس في عهد الملكيـــن الكـــاثوليكيين (١٤٧٤-١٥١٦م) عمان – الأردن ١٤٠٠هـ/١٩٨٠م، ص٩٥، ٩٦.

(٢) الشدادي، عبد الخالق، سقوط غرناطـــة ومصـــير الأندلسـيين، مجلـــة المنعطـــف، ع٦/٧، ١٩٩٣، ص٨٠-٨١.

الإسلامية، وتحريم امتلاك العبيد والأسلحة[١]. وبناءً على ما قررته اللجنة: جُمعت الكتب العربية والمصاحف الشريفة وأُحرقت، ومنع حمل الأسلحة، ومُنع الحجاب، وإذا ارتدته المسلمة عوقبت بالسجن والجلد، وعوقب بذلك أيضاً وليها. وحولت المساجد كافة إلى كنائس، وهُدمت الحمامات، ومن ضبط مرتدياً ملابس نظيفة يوم الجمعة عوقب، وكذلك من ضبط في بيته لحم في هذا اليوم بل من أبدى اهتماماً بذلك. وأصبحت الفتاة المسلمة تضطر إلى الزواج في الكنيسة[٢].

وأصبح يعاقب بأشد العقوبات من يمتنع عن سب النبي ﷺ ومن لا يشرب الخمر، ومن لا يتعامل بالربا، ومن لا يتركب الموبقات التي نهى عنها الإسلام. وإذا مر راهب بمسلم فعلى المسلم أن يسجد له في الطريق[٣].

وأبدت السلطات النصرانية عزمها الأكيد على تنفيذ هذه القرارات والأحكام الجائرة بحذافيرها، حيث أنشأت في السنة نفسها، أي سنة ١٥٢٦م محكمة للتفتيش في غرناطة، وأُعلن عن فترة عفو مدتها ثلاث سنوات نُصح أن يتقدم خلالها الموريسكيون إلى هيئة التفتيش للاعتراف بخطاياهم. وبدأت محاكم التفتيش بمطاردة الموريسكيين في غرناطة ابتداءً من سنة ١٥٢٩م، بينما بدأت بمطاردتهم في بلنسية منذ سنة ١٥٢٦م.

والجدير بالذكر أن قرارات السلطات النصرانية تزامنت مع حملات تبشير مكثفة في جميع أنحاء الأندلس. وقد أكد القساوسة على ضرورة القيام بالنشاطات التبشيرية في المناسبات المهمة مثل صلاة الأحد، وصوم الأربعين، والاعتراف، وبالتعليم اليومي، وبتوظيف نشاطات التجمعات الدينية لهذه الغاية. وكان التركيز واضحاً على أن تشمل عملية التنصير ومراقبة الموريسكيين كافة دونما استثناء، وخاصة الأطفال والنساء الذين أصبحوا موضع اهتمام خاص[٤].

---

(١) الشدادي، سقوط غرناطة ومصير الأندلسيين: ٨١؛ هورتز وبنثنت، تاريخ مسلمي الأندلس: ٢٦.

(٢) رائف، أحمد، وتذكروا من الأندلس الإبادة: ٢٧٥. وانظر أيضاً:

- Antonio Gallego y Burin y Alfonso Gamir Sandoval, Los Moriscos del Reino de Granada, Segun el Sinodo de Guadix de 1554, Universidad de Granada, 1968, pag 21.

(٣) رائف، وتذكروا من الأندلس الإبادة: ٢٧٥؛ وانظر أيضاً: مظهر، (علي)، محاكم التفتيش: ٣٢-٣٣.

(٤) هورتز وبنثنت، تاريخ مسلمي الأندلس: ٣٢-٣٣.

ويمكن القول أن جميع المسلمين الذين ظلوا في الأندلس بعد سقوط غرناطة أصبحوا رسمياً نصارى، وبذلك أضحوا معرضين لمتابعة محاكم التفتيش التي نُصبت لمراقبة الاعتقاد والممارسات لمعرفة مدى ملاءمتها لتعاليم الكنيسة الكاثوليكية. وكان مجرد الشك في عدم ملاءمتها لتلك التعاليم يعني التعذيب والعذاب والعقوبات الشديدة التي لا تخطر على بال إنسان متحضر[1].

نشأة محاكم التفتيش:

وردت لمحاكم التفتيش تسميات مختلفة باختلاف القائمين عليها والمكتوين بنارها، فمحكمة التفتيش هي أيضاً ديوان التحقيق La Inquisicion[2]، والسجن التابع لها هو (البيت المقدس)[3] وذلك من وجهة نظر النصارى. أما الموريسكيون فقد سموها: (محكمة الشيطان)، ورئيسها هو الشيطان، أو إبليس، وله مستشاران هما: الغش أو الخداع والعمى[4]. و"الكفار هم رجال محاكم التفتيش، وهم مدفوعون بوازع شيطاني وبأسلوب شيطاني، يريدون أن يكونوا قضاة للنفوس، ويحاولون إجبار الناس بالقوة على قول ما يريدون بطريقة شيطانية ملعونة، ومن دون أدلة"[5].

يستشف من وصف الموريسكيين لمحكمة التفتيش أنها كانت تتفنن في تعذيبهم، وأنهم إنما صدروا في وصفهم ذلك عن مرارة ما ذاقوه، وهو ما سيتم تناوله بالتفصيل فيما بعد. أما ما تجدر الإشارة إليه في معرض الحديث عن نشأة محاكم التفتيش فهو أن الإنسان برع في اختراع آلات التعذيب لإجبار الآخرين على الاعتراف بشيء ما، أو قبول شيء ما، أو الارتداد عن معتقد أو فكرة منذ الألف الرابعة قبل الميلاد، فالفراعنة كانوا ينزلون على المتهم ناقوساً من النحاس يعادل حجمه حجم ذلك المتهم، ثم يقرع الناقوس

---

(1) الشدادي، سقوط غرناطة ومصير الأندلسيين: ٨٣.

(2) عنان، نهاية الأندلس: ٣١١.

(3) بشتاوي، الأندلسيون المواركة: ١٩٨.

(4) جمال الدين، عبد الله محمد، المسلمون المنصّرون أو المورسكيون الأندلسيون، صفحة مهملة من تاريخ المسلمين في الأندلس: ٣٧٤-٣٧٥؛ هورتز وبنتنت: تاريخ مسلمي الأندلس: ١٢٨.

(5) هورتز وبنتنت، تاريخ مسلمي الأندلس: ١٢٨.

بشدة، فيسيل الدم من أذني المتهم، ويفقد سمعه مع التكرار[١]. واعتمد الأشوريون الخازوق أو الإلقاء في الماء للتعرف على ما إذا كان المتهم بريئاً أم مذنباً، وكان الإنجليز يرمون المتهم في الماء فإذا غرق اعتُبر بريئاً، وإلا فإنه مذنب، وينال العقاب[٢].

وظهرت فكرة التحقيق في أمر العقائد في الكنيسة الرومانية في عصر مبكر جداً، وقد بدأ إحراق الناس بسبب معتقداتهم الدينية في أوروبا منذ سنة ١٠٧٥م[٣]، وفي عهد البابا أنوصان الثالث أصبح ذلك يأخذ طابعاً منظماً، فقد أمر الكنيسة باضطهاد الهراطقة. وبذلك وضع الدعامة الأولى التي قامت عليها محاكم التفتيش، وكان إنشاؤها تطبيقاً للحركة الإصلاحية البابوية التي قادها البابا غريغوري التاسع[٤].

لقد كان البابا يعهد إلى الأساقفة تعقب المارقين والكفرة ومعاقبتهم، وطُبق هذا النظام في إيطاليا وألمانيا وفرنسا، وكان مندوبو البابوية يتجولون في مختلف الأنحاء لتقصي أخبار الكفرة والقبض عليهم. وكانت تعقد لهذه الغاية مجالس كنيسة مؤقتة تعمل حيث يوجد الكفرة والملاحدة. ثم يتم حلها عند الانتهاء من مطاردتهم والقضاء عليهم. وبمرور الزمن استبدلت بالمجالس المؤقتة مراكز ثابتة تعقد فيها محاكم التحقيق. غير أن هذه المحاكم الثابتة كانت تفتقر لسجون خاصة، وإنما كان أي مكان صالح لهذه الغاية يتخذ سجناً[٥]. وكان الأساقفة هم الذين يتولون رئاسة تلك المحاكم، ولهم سلطة مطلقة. وكانت التحقيقات والمرافعات تجرى بطريقة سرية، وتصدر على المتهمين أحكاماً نهائية غير قابلة للطعن[٦]. ويلاحظ على محاكم التحقيق التي تعد جذوراً ثابتة لمحاكم التفتيش التي نحن بصددها أنها كانت تسمح للنساء والصبية والعبيد بالشهادة ضد المتهم وليس معه، ويؤخذ الاعتراف من المتهم بالخديعة والتعذيب[٧]. وذلك خلافاً لما أمرت به الأديان

---

[١] بشتاوي، الأندلسيون المواركة: ١٩٩.

[٢] المرجع نفسه: ١٩٩-٢٠٠.

[٣] عنان، نهاية الأندلس: ٣١١؛ بشتاوي، الأندلسيون المواركة: ١٩٧.

[٤] بشتاوي، الأندلسيون المواركة: ١٩٧.

[٥] عنان، نهاية الأندلس: ٣١٢.

[٦] المرجع نفسه: ٣١٢.

[٧] المرجع نفسه: ٣١٢.

السماوية كلها بما فيها النصرانية، إذ ليس فيها ما يأمر بالكذب والغش والتلفيق للوصول إلى هدف ما، أياً كان ذلك الهدف[1].

لقد كان التعذيب – وفقاً للقوانين الكنسية – وسيلة غير مشروعة للاعتراف، ومع ذلك لم تجد البابوية بأساً في إقرار هذه الوسيلة[2]. فالبابا غريغوري التاسع سمح باجتماع عقده رجال الكنيسة الكاثوليكية في مدينة تولوز سنة ١٣٢٩م لتقرير إنشاء محكمة يقدم إليها كل من اتهم في دينه الكاثوليكي، وكل من كان على دين أو معتقد يخالف معتقد الكاثوليكيين مثل: اليهود، والبروتستانت، والمفكرين الأحرار، والمسلمين الذين كانوا في أوروبا (الأندلس)، وكل من يتهم بالإلحاد والزندقة في مسيحيته الكاثوليكية[3]. وقد تقرر إنشاء المحكمة المشار إليها في سنة ١٣٣٣م، حيث صدرت أوامر البابا إلى كل الكنائس الكاثوليكية بتعيين كاهن خاص وظيفته البحث عن غير الكاثوليكيين وعن الكاثوليكيين الملحدين وتقديمهم لمحكمة بابوية خاصة. وخول الكاهن أن يستعين بمن يراه من الجواسيس. وكان يطلق على تلك المحكمة البابوية: الديوان المقدس، أو التفتيش المقدس. أما الجواسيس الذين تمت الاستعانة بهم فلم يكونوا معروفين من العامة، حيث أخفيت أسماؤهم، وأحلّ لهم ارتكاب الجرائم بغض النظر عن حجمها ومدى تأثيرها وعواقبها، ومقابل ذلك وُعد أولئك الجواسيس بغفران خطاياهم[4].

كانت العقوبات الرئيسية التي تصدرها محاكم التفتيش في النصف الأول من القرن الرابع عشر الميلادي هي السجن المؤبد، والإعدام، ومصادرة الأموال. وهذه الأموال المصادرة كان يذهب النصيب الأوفر منها للسلطات الدينية والبابوية، والباقي تحصل عليه السلطات المدنية. وقد وضع أول قانون ينظم إجراءات محاكم التفتيش في فرنسا في عهد الملك لويس التاسع (١٢١٤-١٢٧٠م). وظلت هذه المحاكم تعمل بفرنسا تارة جهراً وتارة في الخفاء تبعاً لآراء الملوك الفرنسيين الذين عاضدها بعضهم، واستنكر أساليبها بعضهم

---

[1] حومد، محنة العرب في الأندلس: ٢٥٢.

[2] عنان، نهاية الأندلس: ٣١٢.

[3] مظهر، محاكم التفتيش: ٥٣.

[4] المرجع نفسه: ٥٣.

الآخر، إلى أن قامت الثورة الفرنسية (١٧٨٩-١٨١٥م) التي قررت إلغاء محاكم التفتيش، وأخذت تطارد رجالها، فهرب كثيرون منهم إلى إسبانيا والبرتغال حيث انضموا إلى نظرائهم هناك[١].

والجدير بالذكر أن محاكم التفتيش في تلك الفترة لم تقتصر مهمتها على مطاردة الأشخاص، وإنما أصدرت أحكامها أيضاً ضد الكتب التي اعتبرتها البابوية محرّمة، فأمرت بحرقها، ومنها التلمود، وبعض كتب أرسطو وغيرها من كتب الفلسفة في العهد القديم[٢]. وازداد اختصاص محاكم التفتيش بمرور الزمن، حيث أصبحت تطارد السحر والسحرة، والعرافة والعرافين. ثم اليهود الذين اتّهموا بسبّ النصرانية، وأُخذت عليهم مزاولة الربا، فتتبعهم رجال المحاكم بالمطاردة والعقوبات[٣].

وعلى الرغم من قسوة الإجراءات وبشاعة الأساليب التي مارستها محاكم التفتيش في فرنسا وإيطاليا وغيرهما من بلاد أوروبا، إلا أن تلك المحاكم تظل رفيقة رقيقة إذا ما قورنت أعمالها بما قامت به محاكم التفتيش في إسبانيا والبرتغال من أعمال بربرية وحشية، وما ارتكبته من فظائع[٤].

محاكم التفتيش في إسبانيا والبرتغال:

أُنشئت محاكم التفتيش في إسبانيا على يد الراهب توماس دي تور كيمادة، وهو معترف الملكة إيزابيلا الكاثوليكية الذي كان نفوذه كبيراً لديها، ذلك أنه الشخص الوحيد الذي يعرف كل آثامها بحكم الاعتراف. فقد ظل يلح عليها حتى أقنعها بأهمية البحث عن (الكفرة)، وتنقية العقيدة[٥]. وبناءً على اقتناعها أصدر البابا سكستوس الرابع مرسوماً بإنشاء ديوان التحقيق أو محكمة التفتيش في قشتالة

---

(١) مظهر، محاكم التفتيش: ٥٣-٥٤؛ عنان، نهاية الأندلس: ٣١٢.

(٢) عنان، نهاية الأندلس: ٣١٢.

(٣) المرجع نفسه: ٣١٢.

(٤) مظهر، محاكم التفتيش: ٥٤.

(٥) رائف، وتذكروا من الأندلس الإبادة: ٢٥٣.

عام ١٤٧٨م حيث ألحت عليه هي والملك فرناندو فاستجاب لإلحاحهما[1]. وكان تحريك الأساقفة والمطارنة ورجال الدين الكبار يتم بموافقة البابا وبمرسوم منه في كل بلاد أوروبا، وليس في إسبانيا وحدها[2].

لقد تم اتخاذ الخطوة الحاسمة لتنفيذ المرسوم البابوي بإنشاء محكمة التفتيش في قشتالة في أيلول من سنة ١٤٨٠م، حيث أنشأت المحكمة في إشبيلية، وبدأت عملها بإصدار قرارات تحث فيها كل شخص على مساعدة المحكمة في البحث عن الملحدين الكفرة، وكل من عقيدته زيغ، وفي جمع الأدلة التي تدين هؤلاء، وفي التبليغ عنهم بأي وسيلة[3]. وقد تم توسيع نشاط هذه المحكمة بسرعة، حيث استصدر الملكان الكاثوليكيان من البابا مرسوماً سنة ١٤٨٢م بتعيين سبعة من المحققين الجدد، مما أتاح إنشاء محاكم تفتيش في كل من قرطبة وجيان وشقوبية وطليطلة وبلد الوليد، وبذلك شمل نشاط محاكم التفتيش سائر أنحاء إسبانيا[4].

وصدر مرسوم بابوي جديد في سنة ١٤٨٣م أنشئ بموجبه مجلس أعلى لديوان التحقيق (Supremo)، وهذا المجلس يتألف من أربعة أعضاء منهم الرئيس، ويختص المجلس بكل ما يتعلق بشؤون الدين، وكان رئيسه هو المحقق العام. وقد تولى هذا المنصب بمرسوم بابوي أيضاً الراهب أو القس توركيماده الذي خول سلطة مطلقة في وضع دستور جديد لديوان التحقيق[5].

وهكذا أصبح توركيماده مسؤولاً عن ديوان التحقيق في كل أنحاء إسبانيا، وقد بذل جهوداً كبيرة في تنظيم الديوان وتوطيد سلطانه[6]. وقد بُدئ بوضع دستور الديوان سنة

---

[1] رائف، وتذكروا من الأندلس الإبادة: ٢٥٤.

[2] المرجع نفسه: ٢٥٩.

[3] عنان، نهاية الأندلس: ٣١٤.

[4] المرجع نفسه: ٣١٥.

[5] المرجع نفسه: ٣١٥.

[6] رائف، وتذكروا من الأندلس الإبادة: ٢٥٨؛ عنان، نهاية الأندلس: ٣١٥.

١٤٨٥م، وأنشئت عدة جمعيات منها واحدة في إشبيلية، وأخرى في بلد الوليد، وثالثة في آبلة، ووضعت هذه الجمعيات عدداً من القرارات واللوائح التي عكف المجلس الأعلى على صياغتها وتنقيحها مما كان له أثر كبير في تطور ديوان التحقيق الإسباني[١].

وظل توركيماده في منصب المحقق أو المفتش العام حتى وفاة سنة ١٤٩٨م، وفي عهده اشتد نشاط محاكم التفتيش واتسعت أعمالها، وكان يعتبر أعظم سلطة في إسبانيا بعد العرش، حيث عاش في قصور منيفة، وكان له حرس كبير من الفرسان والمشاة. وقد ندب البابا إلى جانبه خمسة من المفتشين العامين سنة ١٤٩٤م يتمتع كل منهم بسلطته نفسها. وعندما توفي خلفه في منصب المفتش العام دييجو ديسا أو (ديثا) أسقف جيان[٢].

استمر دييجو ديسا في منصب المفتش العام حتى عام ١٥٠٧م، وقد أغلق خلال هذه الفترة أبواب إسبانيا على أي أفكار جديدة، وكان على خلاف مع رئيس أساقفة غرناطة: الأب ايرناندو تالافيرا حول معالجة هذا الأخير للأمور المتعلقة بالموريسكيين في غرناطة، حيث اتهمه بالتساهل معهم[٣].

وتسلم منصب المفتش العام في إسبانيا بعد دييجو ديسا: الكاردينال خيمينيس دي سيسنيروس سنة ١٥٠٧م. وكان خمينيس شديد التعصب للكاثوليكية، وكان يأتي في الأهمية بعد البابا نفسه. وقد انتقلت محاكم التفتيش في عهده نقلة نوعية جديدة، إذ قسم إسبانيا إلى عشر مقاطعات شكل في كل منها محكمة، ووضع على رأسها مفتشاً من اختياره. وفي عهده أيضاً أنشئت أول محكمة للتفتيش في غرناطة وذلك سنة ١٥٢٦م[٤].

وكان الكاردينال خمينيس هذا راهباً ينحدر من أسرة فقيرة وضيعة الشأن، أخفى كل تعطشه إلى المال والسلطة تحت شعار من التدين الزائف والتعصب المزعوم للكثلكة،

---

[١] عنان نهاية الأندلس: ٣١٥.

[٢] المرجع نفسه: ٣١٦؛ وانظر: بشتاوي، الأندلسيون المواركة: ٢١٦.

[٣] بشتاوي، الأندلسيون المواركة: ٢١٦؛ حتامله، التنصير القسري: ٦٢. وانظر أيضاً:
- Lafuente Alcantara (Modesto): Historia General de Espana. Barcelona, 1879, cap. X. pag 331.

[٤] المرجع نفسه: ٢١٧؛ وانظر: هورتز وبنثنت، تاريخ مسلمي الأندلس: ١٢٩.

وقد تمكن عن طريق التزلف إلى الملكة إيزابيلا من الحصول على منصب رئيس أساقفة طليطلة بعد وفاة أبيغو لوبث دي مندوسا الذي كان يحتل هذا المنصب. وقد عمل خمينيس على تنظيم حركة إرهابية مرعبة ضد (أعداء الكاثوليكية)، وهو الذي جمع الكتب والمصاحف وكومها في أكداس هائلة في ميدان باب الرملة بغرناطة وأمر بإحراقها[١]، فأحرق نحو مليون كتاب عربي في تشرين الأول من عام ١٥٠١م[٢].

انتهج خمينيس سياسة الرعب والقسوة في تعامله مع المسلمين، وخاصة أهل غرناطة، منتقداً سياسة الترفق واللين التي اتبعها معهم الأب ايرناندو دي تالافيرا الذي قام بترجمة بعض الكتب الدينية المسيحية إلى العربية، وهي لغة كان خمينيس يعتبرها نجسة، ولذلك طفح الكيل عنده عندما علم بأن تالافيرا ينوي ترجمة الكتاب المقدس إلى اللغة العربية[٣]. ورداً على هذه السياسة عزم خمينيس على تنصير أهل غرناطة، وجمع إليه من تبقى من فقهائها المسلمين لعله يقنعهم بالتنصر، غير أن حججه لم تصمد أمام حجج الفقهاء، مما زاد من حماس المسلمين، وتمسكهم بدينهم[٤]. وكان من بين الذين ناظرهم رجل صالح زاهد، حسن الأخلاق والسيرة يدعى الشيخ الصقري، وعندما أفحمه هذا الشيخ أمر بجلده ثلاثمائة سوط إن لم يؤمن بالمسيح، ثم أمر بقتله عندما ثبت على دينه[٥].

والجدير بالذكر أن أهالي غرناطة – بعد تشكيل محكمة التفتيش فيها سنة ١٥٢٦م – كانوا يعيشون إرهاب عمال تلك المحاكم الذين يطرقون أبواب النيام في الفجر، ويسوقون المتهمين إلى زنزانات التحقيق، ويخضعونهم للتعذيب[٦]، ذلك أن أبواب منازلهم التي كانت تصنع من الخشب ومسامير الزان لم تكن تصمد أمام طرقات عمال المحاكم

---

[١] حتاملة، التنصير القسري: ٦٠؛ عنان، نهاية الأندلس: ٣٠٠؛ رائف، وتذكروا من الأندلس الإبادة: ٢٦٠.

[٢] الشدادي، سقوط غرناطة ومصير الأندلسيين: ٨٧؛ رائف، وتذكروا من الأندلس الإبادة: ٢٦١.

[٣] رائف، وتذكروا من الأندلس الإبادة: ٢٦١.

[٤] المرجع نفسه: ٢٦١.

[٥] انظر تفاصيل هذه المناظرة بينهما: رائف، المرجع نفسه: ٢٦٢-٢٦٥.

[٦] بشتاوي، الأندلسيون المواركة: ٢١٧.

الذين كانوا يطرقونها في كل وقت[1]. وكانت لوائح الممنوعات ترد تباعاً إلى محكمة التفتيش في غرناطة بعضها يشدد على ما جاء في لوائح سابقة، وبعضها الآخر يحتوي على الجديد والغريب، ومن أمثلة ذلك: حظر الختان، حظر الوقوف تجاه القبلة، حظر الاستحمام والاغتسال، حظر طلي اليدين بالحناء، حظر التكلم بالعربية، حظر ارتداء الملابس العربية، عدم التواني عن أكل لحم الميتة والخنزير وغير ذلك. وقد أثارت محكمة التفتيش الرعب بين أهالي غرناطة عندما زكمت أنوفهم روائح جسدين منهم تم إحراقهما مع مجموعة من ضحايا محكمة التفتيش في أول احتفال ديني شهدته المدينة، وذلك في أيار من سنة ١٥٢٩م[2].

وأنشئت محاكم التفتيش في أراغون منذ أوائل القرن الثالث عشر الميلادي، وقد عرف ديوان التحقيق الأراغوني بالديوان القديم، وعكف حيناً على مطاردة طوائف الألبيين، وهم طائفة ملحدة تنسب إلى مدينة ألبي بجنوبي فرنسا، وأخذت تبث دعوتها في أراغون[3]. وقد تعرض المسلمون في أراغون لعقوبات محاكم التفتيش هناك على الرغم من معارضة النبلاء ذلك[4]. فالنبلاء كانوا يجدون في المسلمين خير معين لهم في فلاحة الأرض، وفي تقديم الخدمات المختلفة وخاصة أن فيهم كثير من الصناع المهرة، كما أنهم كانوا يدفعون لخزينة الملك فرناندو الكثير من الضرائب. وقد تمكن النبلاء بمساعدة الملك الذي اقتنع بوجهة نظرهم تأجيل تنصير المسلمين هناك بعض الوقت، ولكنهم ما لبثوا أن أجبروا على ذلك تحت تهديد السلاح في سنتي ١٥٢١ و ١٥٢٢م[5]. ومن ثم أصبحت قرارات محاكم التفتيش تلاحقهم.

ويذكر هورتز وبنتث أن نشاط محاكم التفتيش في أراغون تم إيقافه سنة ١٥٢٨م بضغط من الإقطاعيين الذين كان يهمهم المحافظة

---

(١) جمال الدين، المسلمون المنصرون: ٣٥٣.

(٢) بشتاوي، الأندلسيون الموراكة: ٢١٧.

(٣) عنان، نهاية الأندلس: ٣١٣.

(٤) مظهر، محاكم التفتيش: ٣٧.

(٥) المرجع نفسه: ٣٧؛ الشدادي، سقوط غرناطة وتنصير الأندلسيين: ٨٢.

على حياة وأموال تابعيهم من الموريسكيين، غير أن هذا الإيقاف لم يستمر طويلاً[1].

وفي البرتغال كان مقر محكمة التفتيش العامة في مدينة لشبونة في مكان الملعب الوطني اليوم، وقد شغلت أبنيتها كل الحي، حتى إن أبوابها الخلفية كانت تصل إلى الطريق المؤدي لدير القديس أنطونيو[2]. وكان هذا المقر عبارة عن دار بنيت بطريقة تؤدي الغرض من إنشائها، فكانت ذات غرف عديدة وممرات مظلمة تحت الأرض، وفي وسطها أربع قاعات واسعة تبلغ مساحة كل منها أربعين متراً مربعاً، ويحيط بكل قاعة ثلاثة أروقة مؤلفة من ثلاثة أدوار، وفي جدران تلك الأروقة أبواب صغيرة، الواحد جوار الآخر، كانت أبواباً للسجون المعدة للمتهمين والمعذبين. وفي الممر الأسفل الذي يحيط بكل قاعة سجون صغيرة وضيقة شديدة الظلمة، أعدت لمن كانت محكمة التفتيش تعتبرهم أشد كفراً وضلالاً من غيرهم[3].

وقد بدأت محاكم التفتيش بنشر فظائعها في البرتغال سنة ١٥٤٧م في عهد الملك يوحنا الثالث، وكانت محكمة التفتيش هناك معروفة بقسوتها وعتوّها في محاربة المخالفين. وكان الملك يحضر بنفسه إلى ساحة المحكمة لمشاهدة من حكمت عليهم بالحرق وهم أحياء[4].

وهكذا انتشرت محاكم التفتيش في كل أنحاء إسبانيا والبرتغال، وكانت مقراتها – على الأغلب – تقوم في الأديرة والكنائس، ذلك أنها وُلدت في أحضان الكنيسة، وفيها نمت وترعرعت[5]. كما أقيمت في أماكن أخرى منها بعض المباني الإسلامية مثل حصن سنت منكش، وقصر الجعفرية في سرقسطة الذي اتخذته محكمة التفتيش مقراً لها منذ سنة

---

(١) هورتز وبنتت، تاريخ مسلمي الأندلس: ١٢٩.

(٢) مظهر، محاكم التفتيش: ٥٦.

(٣) المرجع نفسه: ٥٦.

(٤) المرجع نفسه: ٦٠-٦١.

(٥) الحجي، محاكم التفتيش الغاشمة وأساليبها: ٤٥.

١٤٨٥م، وكذلك قصر الخلافة القديم بقرطبة. وربما جعلت بعض المساجد مكاناً لها زيادة في النكاية والامتهان، وإيغالاً في الإيلام[١].

وكانت سجون محاكم التفتيش رطبة قذرة فاسدة الهواء ضيقة مظلمة، فالسجين فيها كان يحرم الهواء النقي والنور والحركة حيث يقضي الشهور بل السنين وهو عار إلا من خرق بالية، وجائع باستمرار حيث لا يعطى سوى كسرة صغيرة من الخبز كل يوم إمعاناً في تعذيبه[٢].

وكان الذين تتعرض لهم محاكم التفتيش، ويزجون في سجونها، ويخضعون لصنوف التعذيب فيها هم جميع الذين تتهمهم الكنيسة الكاثوليكية بالهرطقة كما أشرنا، ثم صبت جام غضبها على ثلاث فئات بشكل خاص وهم: البروتستانت واليهود والموريسكيون.

البروتستانت

ربما تعود الشهرة التي اكتسبتها محاكم التفتيش إلى بطشها بالبروتستانت، وخاصة في ألمانيا وهولندا، حيث بُقرت بطون الحوامل أو دفنّ أحياء، وبسبب ذلك فإن محاكم التفتيش لا تذكر في وقتنا الحاضر دون أن تثير الشعور بالخوف والحقد[٣]. وترجع نقمة الكاثوليكيين على غيرهم من النصارى (البروتستانت) إلى حركة الإصلاح الديني التي دعا إليها مارتن لوثر، فقد علق أطروحاته الدينية على بوابة كنيسة القلعة في مدينة فيتنبرغ الألمانية، وذلك سنة ١٥١٧م، وكان ذلك إيذاناً ببداية أعظم حركة تحد للكاثوليكية، واندلاع الصراع الديني في أوروبا[٤].

---

[١] الحجي، محاكم التفتيش الغاشمة وأساليبها: ٤٥.

[٢] مظهر، محاكم التفتيش: ١١٥.

[٣] بشتاوي، الأندلسيون الموراكة: ٢٠١.

[٤] المرجع نفسه: ٢١٧.

وأدت مطالبة لوثر بإدخال الإصلاح إلى الكنيسة إلى اتهامه بالهرطقة، ومع ذلك دافع عن آرائه بحماس في محفل عقد برئاسة الملك شارل (شارلكان) الذي أعطى لوثر الأمان، ثم ندم على ذلك فيما بعد. وانتشرت حركة الإصلاح في أوروبا، وأخذت تهدد سلطة الملك في ألمانيا وهولندا، مما جعله يوعز إلى محاكم التفتيش للعمل على سحق الهراطقة في هولندا. ويقال إن محاكم التفتيش كانت مسؤولة عن قتل ما بين ٥٠,٠٠٠ و ١٠٠,٠٠٠ هولندي[١].

اليهـــود:

كان اليهود يستوطنون المدن الرئيسية في شبه الجزيرة الأيبيرية مثل قرطبة وإشبيلية وطليطلة وغيرها من المدن، ولكنهم كانوا يعيشون على هامش الحياة. وفي أثناء حكم القوط الغربيين لشبه الجزيرة لم يكن اليهود يعنون لهم الكثير. وكان القوط حينئذ يدينون بالمسيحية على المذهب الآري او الأريوسي*. وعندما أصبحت الكاثوليكية هي الدين الرسمي للدولة إثر اجتماع المجلس الثالث في طليطلة عام ٥٨٩م قبل بها حكام القوط الغربيين، وتحولت النقمة بين القوط ورجال الكنيسة إلى اليهود[٢]. وبوحي من رجال الكنيسة الذين أصبحوا يوجهون سياسة الدولة أخذ القوط يعاملون اليهود معاملة قاسية، واتهموهم بالتواطؤ مع العرب لإدخالهم إلى إسبانيا[٣].

وعندما فتح المسلمون الأندلس عاملوا اليهود معاملة حسنة، بل استخدمهم الجيش الفاتح كحاميات للمدن بعد افتتاحها، وأدى ذلك إلى انتشارهم في أنحاء الأندلس وخاصة في غرناطة التي كانت تسمى أحياناً: غرناطة اليهود لكثرتهم فيها. وقد كان فتح الأندلس تخليصاً لليهود من محنتهم وعذابهم على يد رجال الكنيسة في عهد القوط[٤].

---

[١] بشتاوي، الأندلسيون المواركة: ٢١٧.

* هذا المذهب لا يعتقد أتباعه بألوهية السيد المسيح، ولا يعترف القساوسة بحق الوساطة بين الله والمؤمنين مما وضع السلطة والكنيسة على طرفي نقيض.

[٢] بشتاوي، الأندلسيون المواركة: ٢٠١-٢٠٢.

[٣] بدر، أحمد، دراسات في تاريخ الأندلس وحضارتها: ٩-١٠.

[٤] بشتاوي، الأندلسيون المواركة: ٢٠٢.

وعاش اليهود معززين مكرمين في كنف الدولة الإسلامية في الأندلس حتى سقوط الخلافة الأموية فيها في أواخر القرن الرابع الهجري / العاشر الميلادي، فعندما بدأت كفة النصارى هي الأرجح في عهد ملوك الطوائف تنكر اليهود للمسلمين، حيث وجدوا أن مصلحتهم ممالأة النصارى. وعندما تمكن ملك قشتالة ألفونسو السادس من احتلال طليطلة سنة ٤٧٨هـ/١٠٨٥م استقبله اليهود مرحبين، فكافأهم بأن منحهم حكماً ذاتياً، وإن كان محدوداً جداً. وعظمت في عهد ملوك قشتالة ثروة اليهود، وكثرت مبانيهم وكنسهم وخاصة في طليطلة[١]. وبمرور الزمن تكدست لدى اليهود ثروات طائلة، وأثروا ثراء فاحشاً حتى أصبحوا هم الذين يمولون جيوش قشتالة في حروبها مع المسلمين[٢]. ولكن هذا الوضع لم يدم، فقد تأججت نيران السخط على اليهود في أوروبا إبان الحروب الصليبية، فقد استفاد اليهود كثيراً من هذه الحروب حيث كانوا يتنقلون مع الجيوش الصليبية في مجموعات كثيرة للاستفادة من الحرب في جمع الثروة السريعة، ثم أخذ البابوات منذ بدايات القرن الثالث عشر يحذرون الجيوش الصليبية من مرافقة اليهود لها لأن ذلك يتعارض مع الروح الصليبية التي طبعت تلك الحروب بطابعها، بالإضافة إلى أن وجود الإغراء المالي المتمثل بما يدفعه اليهود لشراء الأسلاب واستغلال الحرب للتجارة قد يوجه اهتمام الجيوش إلى مصالح دينية بعيدة عن المُثُل الروحية التي انطلقوا إلى الشرق لتحقيقها[٣]. وبذلك ازداد العداء نحو اليهود، وخاصة بعد أن أقحموا أنفسهم في الشؤون السياسية طمعاً في أن يتيح لهم ذلك متابعة تجارتهم[٤].

بدأ طرد اليهود من أوروبا على يد ملك ألمانيا فريدريك الثاني الذي عمد إلى اضطهاد اليهود واعتبرهم عبيداً وذلك في سنة ١٢٣٦م. وفي سنة ١٢٥٤م طرد ملك فرنسا لويس التاسع جماعات من اليهود من بلاده، ثم اتسعت عملية الطرد حتى شملت في سنة ١٣٩٤م معظم أنحاء فرنسا[٥]. ثم انتقلت عدوى طرد اليهود إلى إنجلترا فنزحوا بأعداد كبيرة إلى ليتوانيا ثم إلى إيطاليا وتركيا وشمالي إفريقية ومصر وغيرها.

---

(١) بشتاوي، الأندلسيون المواركة: ٢٠٤.

(٢) المرجع نفسه: ٢٠٥.

(٣) المرجع نفسه: ٢٠٧.

(٤) المرجع نفسه: ٢٠٧.

(٥) المرجع نفسه: ٢٠٧.

واجتاحت أوروبا بين سنتي ١٣٤٧ و ١٣٥٤م موجة من الطاعون أتت على أكثر من خمسة وعشرين مليوناً من السكان، وقد تزامنت تلك الموجة مع مذابح كثيرة استهدفت اليهود في إنجلترا وفرنسا وألمانيا، وشملت المذابح أكثر من ٣٥٠ تجمعاً لليهود. وعندما وصل الطاعون إلى قشتالة في سنة ١٣٩٠م شاع بين الناس أن هناك علاقة بين انتشار الطاعون ووجود اليهود، وخاصة أن تجمعهم في أحياء خاصة بهم كان عاملاً على انتشاره بينهم أكثر من غيرهم. وعلى كل حال أدى ذعر السكان وانعدام الأمن بسبب انتشار الطاعون إلى شن حملة عنيفة ضد اليهود في قشتالة ابتداءً من سنة ١٣٩٠م[١].

وتولى في سنة ١٣٩٠م فيرانت مارتينيث Ferrant Martinez منصب رئيس أبرشية إشبيلية، وكان شديد الكره لليهود، فاستغل منصبه للتعبير عن شعوره تجاههم، إذ أخذ يحث الناس على هدم الكُنُس في المدينة، وتشجيع الفلاحين على طرد اليهود من قراهم. وكانت نتيجة هذا التشجيع أن اقتحم النصارى الأحياء اليهودية في المدينة وقتلوا منهم المئات. ثم امتدت الحملة إلى اليهود في طليطلة وقرطبة وغيرها[٢].

ولم تلبث السلطات المدنية أن أصدرت قوانين تحرم على اليهود تولي المناصب الحكومية والتعامل بالربا. كما حصرت تلك القوانين سكنى اليهود في أحياء تحددها السلطات. وقد أدت هذه الضغوط ببعض اليهود إلى التخلي عن دينهم واعتناق النصرانية، وببعضهم الآخر إلى الرحيل عن البلاد أو الانتقال إلى أماكن أكثر أمناً في شبه جزيرة أيبيرية[٣]. غير أن الذين تنصروا لم ينقذهم اعتناقهم النصرانية، فقد أصدر قضاة طليطلة في سنة ١٤٤٩م قراراً أعلنوا فيه "أن المدعوين باليهود المتنصرين (Conversos) نسل أجدادهم المنحرفين هم بحكم القانون شائنون مذلون لا يصلحون لشغل أي منصب حكومي، ولا هم أهل له، أو مناسبون لرتبة ضمن مدينة طليطلة أو الأرض الواقعة تحت سلطتها، أو صالحون للعمل كتاب عدل أو محلفين، أو أن تكون لهم أي سلطة على النصارى الصادقين أبناء الكنيسة الكاثوليكية"[٤]. وواضح من هذا

---

[١] بشتاوي، الأندلسيون الموركة: ٢٠٩-٢١٠.

[٢] المرجع نفسه: ٢١٠.

[٣] المرجع نفسه: ٢١٠.

[٤] المرجع نفسه: ٢١٠.

القرار أنه كان خطوة واسعة إلى الأمام في مجال شن الحرب على اليهود باسم الكاثوليكية. وقد ترسخ هذا الاتجاه، وساد أنحاء إسبانيا منذ أواخر القرن الخامس عشر.

وهكذا تعرض اليهود الذين تمتعوا عصوراً بالحرية والأمن في ظل الحكم الإسلامي لضغط شديد من الكنيسة الكاثوليكية، وكانوا أول ضحايا سياسة الإرهاب والمحو التي رسمتها إسبانيا وخاصة في عهد الملكين الكاثوليكيين إيزابيلا وفرناندو[١]. فقد كان من أولى مهام محاكم التفتيش التي أنشآها في إشبيلية سنة ١٤٨٠م مطاردة اليهود ومحاربتهم، وخاصة أولئك الذين تنصروا منهم[٢]. وكانت محاكم التفتيش بشكل عام ترتاب في سلوك متنصرة اليهود، وتستند على أي شيء من مظاهر الحياة اليومية العادية لاتخاذه دليلاً على الزيغ والمروق، ومن ثم تقديم صاحبه إلى المحكمة، فكان اليهودي متهماً إذا ما ارتدى يوم السبت ثياباً نظيفة، أو إذا لم يضرم ناراً في منزله ليلة السبت، أو إذا أكل مع يهود، أو أكل لحم حيوان ذبحه يهود، أو شرب شرابهم، أو غسل ميتاً بالماء الحار، أو سمى ذريته بأسماء عبرية...فإذا فعل شيئاً من ذلك سيق إلى المحكمة، وأودع السجن، وحوكم، وحكم عليه بأحكام بالغة القسوة[٣].

لقد كانت إشبيلية التي تم اختيارها لإنشاء أول محكمة تفتيش تضم تجمعاً كبيراً من اليهود واليهود المتنصرين الذين فوجئوا ذات يوم من أيام ١٤٨٠م بتظاهرة كبيرة ضمت عدداً من القساوسة، وفي مقدمتهم قس دومينيكي حمل صليباً كبيراً، وقد ساروا وهم حفاة الأقدام يرتدون أثواباً خشنة، وخلفهم عمال محكمة التفتيش بثيابهم البيضاء والسوداء، واتجهت هذه المسيرة، بعد اختراق شوارع إشبيلية، إلى دير القديس بولص الذي اتخذ مقراً للمحكمة. وقد نجحت هذه المسيرة في ترك الانطباع المطلوب، إذ دبّ الرعب في نفوس اليهود واليهود المتنصرين، ففرت جماعات منهم مما أثبت لعمال المحكمة أن تنصر المتنصرين منهم إنما كان زائفاً، مما أوقعهم فريسة لعقوبات محكمة التفتيش[٤]. وقد كانت

---

(١) عنان، نهاية الأندلس: ٣٢٣.

(٢) بشتاوي، الأندلسيون الموراكة: ٢١٠.

(٣) مظهر، محاكم التفتيش: ٧٦.

(٤) بشتاوي، الأندلسيون الموراكة: ٢١١.

النتيجة أن أحرقت محكمة التفتيش في إشبيلية وحدها وخلال سنة واحدة هي سنة ١٤٨١م ٢٩٨ يهودياً متنصراً، وذلك بعد أن صادرت جميع أموالهم وممتلكاتهم[١].

وعندما عينت الملكة إيزابيلا توماس دي توركيماده في منصب المفتش العام سنة ١٤٨٣م طارد اليهود بإصرار وعنف، وأمر محاكمه بإحراق أحياء. وهناك بعض التقديرات تؤكد أن عدد اليهود الهراطقة الذين تم إحراقهم وهم أحياء بلغ ما بين ٨,٨٠٠ و ١٠,٠٠٠ شخص، بينما قدر عدد الذين تلقوا عقوبات أخف منها مصادرة الأموال والممتلكات بحوالي ٩٦٥٠٠ شخص، وذلك خلال الفترة التي تولى فيها توركيماده منصبه، وهي نحو خمسة عشر عاماً[٢].

والحرب الشعواء التي شنتها الكنيسة الكاثوليكية ضد اليهود المتنصرين، شنت السلطة المدنية حرباً ضروساً مثلها ضد اليهود الذين احتفظوا بدينهم، فقد أصدر الملكان الكاثوليكيان قراراً في ٣٠ آذار ١٤٩٢م يقضي بأن يغادر جميع اليهود – بلا استثناء – الأراضي الإسبانية خلال أربعة أشهر من تاريخ القرار[٣].

ونص القرار أيضاً على منع عودة اليهود إلى إسبانيا تحت أي ظرف، وعلى أن المخالفين سيعاقبون بالموت ومصادرة الأموال. وهدد القرار أي نصراني يحاول حماية أو إيواء أي يهودي أو يهودية سراً أو جهراً بعد انتهاء الأشهر الأربعة[٤].

والجدير بالذكر هنا أن كثيراً من اليهود الذين أُمروا بمغادرة إسبانيا اختاروا التنصر على مغادرتها، وكان مصير معظم هؤلاء مثل مصير سابقيهم من اليهود المتنصرين، إذ كان غالبيتهم ضحايا لمحاكم التفتيش، إذ استمرت الحملة ضدهم بعد وفاة توركيماده سنة ١٤٩٨م، وذلك في عهد خليفته دييغو دي ديثا الذي كان مسؤولاً عن إحراق ٢٥٠٠ شخص، وإنزال عقوبات أخرى بحوالي ٣٥٠٠٠ شخص، ومصادرة أموال

---

[١] بشتاوي، الأندلسيون المواركة: ٢١١.

[٢] المرجع نفسه: ٢١٣.

[٣] عنان، نهاية الأندلس: ٣٢٣؛ بشتاوي، الأندلسيون المواركة: ٢١٣.

[٤] عنان، نهاية الأندلس: ٣٢٣.

الكثيرين وممتلكاتهم[١]. ومثلما طرد اليهود من إسبانيا طردوا أيضاً من البرتغال، حيث أمرت بطردهم من أراضيها سنة ١٤٩٦م[٢].

وهناك تقديرات مختلفة لعدد اليهود الذين طردوا من إسبانيا، وتتراوح تلك التقديرات بين ١٢٠ و ١٥٠ ألف شخص بالإضافة إلى أولئك الذين اختاروا الرحيل بإرادتهم، ولم تشملهم إحصائيات المطرودين[٣].

الموريسكيون:

عُرف المسلمون الذين أُجبروا على التنصر باسم (النصارى الجدد) تمييزاً لهم عن النصارى الآخرين أو القُدامى، وظل هذا الاسم مستخدماً حتى حوالي منتصف القرن السادس عشر حيث أطلق على المنصرين من المسلمين اسم الموريسكيين. وهذا الاسم باللغة الإسبانية (Morisco) هو تصغير للفظ مورو Moro ويقصد بها التحقير والإساءة، وفي بعض الأحيان يعني: (مسلم عربي وأحياناً مغربي وخاصة من يقطن منطقتي موريتانيا وطنجة). ولذلك فإن ترجمة Morisco تعني: المسلمين المنبوذين[٤]. والجدير بالذكر أن المسلمين الذين أُجبروا على التنصر وظلوا في الأندلس ظلوا يطلقون على أنفسهم اسم الأندلسيين أو أهل الأندلس، وهو الاسم الذي يحبذ استخدامه[٥].

ولتحديد ما هو الموريسكي خلال القرن السادس عشر كان يؤخذ بالاعتبار نسب الأب ودينه، فقد يكون هناك نصراني قديم ابناً لموريسكية وحفيداً لموريسكيين[٦]. وكانوا

---

[١] عنان، نهاية الأندلس: ٣٢٣؛ بشتاوي، الأندلسيون المواركة: ٢١٣.

[٢] بشتاوي، الأندلسيون المواركة: ٢١٤.

[٣] المرجع نفسه: ٢١٤.

[٤] الشدادي، سقوط غرناطة ومصير الأندلسيين: ١٠٠ الهامش ١٥؛ وانظر: رائف: وتذكروا من الأندلس الإبادة: ٢٧١؛ الحجي، محاكم التفتيش الغاشمة وأساليبها: ٣٢.

[٥] الشدادي، سقوط غرناطة ومصير الأندلسيين: الهامش ١٥.

[٦] هورتز وبنثنت، تاريخ مسلمي إسبانيا: ١١٠.

يعتبرون موريسكيين أبناء الزيجات المختلطة حتى يثبتوا نصرانيتهم[1]. ويشير تقرير رفعه المطران ريبيرا إلى الملك فيليب الثالث سنة ١٦٠١م إلى أن الموريسكيين هم الذين "لا يعترفون ولا يتقبلون البركة، ولا الواجبات الدينية الأخيرة، ولا يأكلون لحم الخنزير ولا يشربون النبيذ، ولا يعملون شيئاً من الأمور التي يعملها النصارى..."[2]. وعلى كل حال، وأياً كانت دلالات لفظ الموريسكيين، فإنه يدل بشكل عام على ما آل إليه مصير المسلمين في الأندلس من سقوط وانحلال[3].

ويورد عنان وثيقة من أغرب الوثائق القضائية، تتضمن طائفة من القواعد والأصول التي رأى ديوان التحقيق أن يأخذ بها المسلمين المنصرين في تهمة الكفر والمروق، وقد نقل عنان نص الوثيقة عن مؤرخ ديوان التحقيق الإسباني: الدون لورنتي، وتنص على ما يلي:

"يعتبر الموريسكي أو العربي المنصر قد عاد إلى الإسلام إذا امتدح دين محمد، أو قال إن يسوع المسيح ليس إلهاً، وليس إلا رسولاً، أو أن صفات العذراء أو اسمها لا تناسب أمه. ويجب على كل نصراني أن يبلغ عن ذلك، ويجب عليه أيضاً أن يبلغ عما إذا كان قد رأى أو سمع بأن أحداً من الموريسكيين يباشر بعض العادات الإسلامية، ومنها أن يأكل اللحم في يوم الجمعة، وهو يعتقد أن ذلك مباح، وأن يحتفل يوم الجمعة بأن يرتدي ثياباً أنظف من ثيابه العادية، أو يستقبل المشرق قائلاً باسم الله، أو يوثق أرجل الماشية قبل ذبحها، أو يرفض أكل تلك التي لم تذبح، أو ذبحتها امرأة، أو يختن أولاده أو يسميهم بأسماء عربية، أو يعرب عن رغبته في اتباع هذه العادة، أو يقول إنه يحب ألا يعتقد إلا في الله وفي رسوله محمد، أو يقسم بأيمان القرآن، أو يصوم رمضان ويتصدق خلاله، ولا يأكل ولا يشرب إلا عند الغروب، أو يتناول الطعام قبل الفجر، أو يمتنع عن أكل لحم الخنزير وشرب الخمر، أو يقوم بالوضوء والصلاة بأن يوجه وجهه نحو الشرق ويركع ويسجد ويتلو سوراً من القرآن، أو أن يتزوج طبقاً لرسوم الشريعة الإسلامية، أو ينشد الأغاني العربية، أو يقيم حفلات الرقص والموسيقى العربية، أو أن يستعمل النساء

---

[1] هورتز وبنثنت، تاريخ مسلمي إسبانيا: ١١٠.

[2] عنان، نهاية الأندلس: ٣٧٨؛ جمال الدين، المسلمون المنصرون: ٣٥٥.

[3] عنان، نهاية الأندلس: ٣٠٦ والهامش ٣.

الخضاب في أيديهن أو شعورهن، أو يتبع قواعد محمد الخمس، أو يملس بيديه على رؤوس أولاده أو غيرهم تنفيذاً لهذه القواعد، أو يغسل الموتى ويكفنهم في أثواب جديدة، أو يدفنهم في أرض بكر، أو يغطي قبورهم بالأغصان الخضراء، أو أن يستغيث بمحمد وقت الحاجة منعتاً إياه بالنبي ورسول الله، أو يقول إن الكعبة أول معابد الله، أو يقول إنه لم ينصّر إيماناً بالدين المقدس، أو إن آباءه وأجداده قد غنموا رحمة الله لأنهم ماتوا مسلمين"[1].

وكانت هذه الممنوعات التي تصدر قرارات متلاحقة بتأكيدها وإضافة ممنوعات جديدة إليها إنما تهدف إلى إلغاء كل الشعائر الإسلامية إلغاءً كلياً، وإلصاق الموريسكي بالعقيدة الكاثوليكية إلصاقاً كاملاً. وفي مثل هذه الأوضاع كانت محاكم التفتيش تتدخل في كل جوانب الحياة اليومية[2].

وأدت القوائم الطويلة من المحظورات، وما نجم عنها من ملاحقة مستمرة تقوم بها محاكم التفتيش إلى جعل هذه المحاكم في نظر الموريسكيين رمزاً للقمع. وأصبح كل موريسكي يشعر في كل لحظة أنه موضع اضطهاد هذه المحكمة أو تلك، وأصبح بالغ الحساسية إزاء جميع محاكم التفتيش، ولهذا انعدمت الثقة في كل ما يحيط به[3].

لقد تُرك لمحاكم التفتيش الدور البارز لاجتثاث الشعائر الإسلامية القائمة، ودفع الموريسكيين إلى الاندماج التام في الإيمان الكاثوليكي، ولذلك تمكنت تلك المحاكم من التدخل في جوانب الحياة اليومية كلها، وسهلت كثيراً لكل كاثوليكي أن يقوم بدوره في إدانة الهراطقة متى كان لديه معلومات، فليس مستغرباً أن تكون محاكم التفتيش في نظر الموريسكيين رمزاً للإرهاب والقهر، فكل موريسكي يمكن أن يُطارد في كل وقت من قبل تلك المحاكم، ومن أجل ذلك كان الموريسكي مضطراً للشك في كل من حوله[4].

---

(1) عنان، نهاية الأندلس: ٣٢٨-٣٢٩.

(2) جمال الدين، المسلمون المنصرون: ٣٧٤.

(3) المرجع نفسه: ٣٧٤.

(4) هورتز وبنثنت، تاريخ مسلمي الأندلس: ١٢٨.

ولوضع معاناة الموريكسيين في إطارها الصحيح لا بد من العودة إلى البدايات، أي إلى العهد الذي بدأ فيه هذا الانقلاب في الموازين يغير لصالحهم. وكان ذلك هو عهد الملكين الكاثوليكيين فرناندو وإيزابيلا اللذين استوليا على غرناطة، فبعد تسلمهما مدينة غرناطة بدأت تلك المعاناة، ذلك أن الملك فرناندو كان الغدر والرياء من أبرز صفاته الذميمة. يقول عنه معاصره الفيلسوف السياسي ميكافيللي في كتابه: (الأمير): "إن فرديناند الأرغوني غزا غرناطة في بداية حكمه، وكان هذا المشروع دعامة سلطانه. وقد استطاع بمال الكنيسة والشعب أن يمد جيوشه، وأنه بهذه الحرب أسس البراعة العسكرية التي امتاز بها بعد ذلك، وقد كان دائماً يستعمل الدين ذريعة ليقوم بمشاريع أعظم، وقد كرس نفسه بقسوة تسترها التقوى لإخراج المسلمين من مملكته وتطهيرها منهم"[١].

ويقول المؤرخ ثوريتا Zurita في وصف فرناندو: "وكان مشهوراً لا بين الأجانب فقط، ولكن بين مواطنيه أيضاً بأنه لا يحافظ على الصدق، ولا يرعى عهداً قطعه، وأنه كان يفضل دائماً تحقيق صالحه الخاص على كل ما هو عدل وحق"[٢].

وتوضح هذه الصفات التي ميزت شخصية فرناندو مبادرته إلى نكث عهوده، ومخالفته كل ما التزم به وأقسم بشرفه على الالتزام به للمسلمين بموجب معاهدة تسليم غرناطة، فعقب تسليمها غدر بهم غدراً مثيراً، ثم آل الأمر إلى تنصيرهم قسراً، ثم اضطهادهم، ومطاردتهم بأقسى الوسائل، وأشدها إيلاماً لمشاعرهم وأرواحهم[٣].

ولم يكن شارل الخامس (كارلوس أوشارلكان) بأفضل من جده فرناندو، فقد أصدر مرسوماً في ١٢ آذار ١٥٢٤م يحتم تنصير كل مسلم بقي على دينه، وإخراج كل من أبى النصرانية من إسبانيا، وأن يعاقب كل مسلم أبى التنصير أو الخروج في المهلة الممنوحة بالرق مدى الحياة، وأن تقلب جميع المساجد الباقية إلى كنائس[٤]. وفي عهده كانت محكمة تفتيش غرناطة بحاجة إلى إثبات وجودها، والبرهنة على أن الأندلسيين ليسوا خارج

---

[١] عنان، نهاية الأندلس: ٣٣٣.

[٢] المرجع نفسه: ٣٣٣ الهامش.

[٣] المرجع نفسه: ٣٣٤.

[٤] المرجع نفسه: ٣٣٤.

سلطتها[1]. وفي عهده أيضاً صدر قرار جائر عن محكمة كبرى من النواب والأحبار والقادة وقضاة التحقيق برئاسة المحقق العام يقضي بأن التنصير الذي وقع على المسلمين صحيح لا تشوبه شائبة، لأنهم سارعوا إلى قبوله اتقاءً لما هو شر منه، فكانوا بذلك أحراراً في قبوله. وتم تعزيز ذلك القرار بأمر ملكي يرغم سائر المسلمين الذين تم تنصيرهم كرهاً على البقاء في إسبانيا باعتبارهم نصارى، ويرغم كل أولادهم على التنصر، فإذا ارتدوا عن النصرانية قضي عليهم بالموت والمصادرة[2]. وصدرت بعد ذلك أوامر وقوانين أكثر إرهاقاً حظر على الموريسكيين بموجبها بيع الحرير والذهب والفضة والحلي والأحجار الكريمة، وحتمت على كل مسلم بقي على دينه أن يضع شارة زرقاء في قبعته، وحظر عليهم أيضاً حمل السلاح إطلاقاً، وإلا عوقب المخالفون بالجلد[3]. ثم صدر قرار آخر في عهد شارل الخامس يقضي بأن يترك الموريسكيون لغتهم العربية وثيابهم القومية، وأن يتركوا استعمال الحمامات، وأن تفتح أبواب منازلهم أيام الحفلات وأيام الجمع والسبت...[4] وعلى الرغم من هذه القرارات المتلاحقة كانت السياسة الإسبانية تجاه الموريسكيين في عهد شارل الخامس تتردد بين الإقدام والإحجام، واللين والشدة، غير أنهم كانوا بشكل عام موضع القطيعة والشكوك، عرضة للإرهاق والمطاردة. ولبثت محاكم التفتيش تجد فيهم دائماً ميدان نشاطها المفضل[5].

والجدير بالذكر هنا أن جميع المحاولات التي بذلت لصرف المسلمين عن دينهم باءت بالفشل، فقد ظلوا على دين آبائهم يمارسونه، ويتابعون حياة المسلمين وعاداتهم وتقاليدهم في طعامهم وشرابهم وصومهم[6] على الرغم من كل قرارات الحظر والتهديد التي مست كل جانب من جوانب الحياة، فقد صدر أمر ملكي حرم على المسلمين الذهاب من مكانهم إلى أي مكان آخر تحت طائلة عقوبة

---

[1] بشتاوي، الأندلسيون المواركة: ٢١٨.

[2] عنان، نهاية الأندلس: ٣٣٥.

[3] المرجع نفسه: ٣٣٦-٣٣٧.

[4] المرجع نفسه: ٣٣٧-٣٣٨.

[5] المرجع نفسه: ٣٣٩.

[6] حومد، محنة العرب في الأندلس: ١٧١.

الموت ومصادرة جميع الأموال. وحرم على أصحاب الأراضي أن يقبلوا المسلمين في أراضيهم دون موافقة ملكية مسبقة تحت طائلة دفع غرامة مالية كبيرة أو الجلد[١]. وقضى أمر ملكي آخر بأن المسلمين الذين يسيرون خارج الطرق الرئيسية الممتدة من برشلونة إلى بلنسية وفي الجهة الشرقية منها (جهة البحر) دون أن يكونوا مزودين ببطاقة خاصة من أسيادهم أو من السلطات الرسمية يعرضون أنفسهم لعقوبة الموت، ولمصادرة أموالهم. وطبق هذا الحظر على من يسلكون طرقاً أخرى، وعلى الأشخاص الذين يقبض عليهم وهم يتجولون في المناطق القريبة من شاطئ البحر. وقد قضت الأوامر بأن السادة الإقطاعيين الذين يعطون الإجازات يجب عليهم أن يوضحوا فيها الوقت الذي يستطيع فيها تابعوهم الاقتراب من البحر[٢].

وعندما تولى فيليب الثاني عرش إسبانيا عام ١٥٥٥م كان التنصر قد عمَّ الموريسكيين، وغاضت منهم كل مظاهر الإسلام والعروبة، غير أن قبساً من دينهم الإسلامي ظل يجثم في قرارة نفوسهم[٣]. كما أن الخطوب والمحن الكثيرة التي تعرضوا لها زادتهم تعلقاً بتراثهم القومي الروحي، ولم تنجح الكنيسة رغم كل قراراتها وإجراءاتها وتهديداتها في النفاذ إلى أعماق نفوسهم[٤]. وكان فيليب الثاني شديد التعصب للكاثوليكية، يخضع لوحي الرهبان والكنيسة، ويرى في الموريسكيين ما تصوره الكنيسة من أنهم عنصر بغيض خطر دخيل على المجتمع الإسباني[٥]، ولذلك فقد فاقت قراراته في قسوتها قرارات سلفه شارلكان الذي أوعز إلى المحقق العام الكاردينال فرناندو فالدس بوضع نظام يمنع العرب التزاوج فيما بينهم، ويحرم عليهم أن يكون عندهم خدم من عنصرهم وأن يسكنوا متجاورين[٦].

---

(١) حومد، محنة العرب في الأندلس: ١٧٣.

(٢) المرجع نفسه: ١٧٣.

(٣) عنان، نهاية الأندلس: ٣٣٩.

(٤) المرجع نفسه: ٣٣٩.

(٥) المرجع نفسه: ٣٤٠.

(٦) حتاملة (د. محمد عبده)، التهجير القسري لمسلمي الأندلس في عهد الملك فيليب الثاني ١٥٢٧-١٥٩٨م. عمان – الأردن، ط١، ١٤٠٣هـ/١٩٨٢م، ص٢١.

لقد أصدر الملك فيليب الثاني بشأن الموريسكيين سلسلة من القـــرارات الشـــديدة القسوة، ففي عام ١٥٦٠م حرم عليهم اقتناء العبيد السود، والاتجار بـــالذهب والفضـــة[١]. وفي عام ١٥٦٣م أصدر أمراً أكد فيه أوامر سابقة تقضي بتحريم الأسلحة دون رخصـــة، وبتقديم الأسلحة الموجودة لدى الموريسكيين لختمها بعد التثبت من صحـــــة ترخيصـــها. وفوض إلى القائد العام لمنطقة غرناطة، وكان الكونت دوتانيدلا أمـــــر تحديـــد العقوبـــة المترتبة على مخالفات حمل السلاح، وبناء على هذا التفويض جعل الكونت الإعدام عقوبة للمخالفين. وقد أدى تنفيذ هذا الأمر إلى مآسٍ كثيرة، وإلى مشكلات وملاحقات مشـــروعة وغير مشروعة، وإلى ابتزاز الأموال من قبل الموظفين المرتشين وغيرهم ممـــن كـــانوا يدعون أنهم مخولون بتطبيق هذا الأمر[٢].

وأصدر فيليب الثاني في تشرين الثاني ١٥٦٦م أمراً تضمن: منع استعمال اللغـــة العربية والعادات والتقاليد العربية منعاً باتاً، ومنع التسمي بأسماء عربية، وهدم الحمامـــات العامة وكل ما له مظهر جامع أو حمام، ومنع استعمال الألبسة العربية، وإجبار العـــرب على ترك أبواب بيوتهم مفتوحة في أيام الأعياد لمراقبة ما يجري فيها، وإجبـــار النســـاء العربيات على كشف وجوههن حينما يسرن في الشارع[٣]. وكانت مخالفة أو التفكير فـــي مخالفة هذا الأمر يعني إلقاء مرتكبه في براثن محاكم التفتيش.

والحقيقة أن الموريسكيين لم يستكينوا لهذا الواقع المر، وإنما تفجرت ثوراتهم فـــي كل مكان استطاعوا الثورة فيه، وخاصة في جبل البشرات، وحققوا بعض الانتصـــارات غير أن ثوراتهم أخمدت بالحديد والنار، وكانت نتيجتها وبالاً عليهم، ومن ذلـــك – علـــى سبيل المثال – قيام الجنود النصارى بمهاجمة سجن البيازين في غرناطة وقتل جميع مـــن كان فيه من الموريسكيين وكانوا مائة وعشرة أشخاص[٤].

---

[١] Maria Soledad Carrasco Urgoiti: El problema morisco en Aragon al comienzo del reinado de Felipe II (Estudio y Apendices). Estudio de hispanofilia II Madrid, 1969. Cap. IV pags 56-57 –

[٢] حومد، محنة العرب في الأندلس: ١٧٧.

[٣] المرجع نفسه: ١٧٨-١٧٩؛ وانظر: عنان، نهاية الأندلس: ٣٤٢.

[٤] انظر: بشتاوي، الأندلسيون المواركة: ١٣٤ وما بعدها؛ عنان، نهاية الأندلـــس: ٣٤٨ ومـــا بعدهـــا؛ حومد، محنة العرب في الأندلس: ١٨٣ وما بعدها.

وقد أوكل فيليب الثاني إلى المفتش العام مهمة تسليط عماله على الموريسكيين والبطش بكل من يشك بأمره، فأصدر المفتش العام وهو اسبينوزا أوامره إلى محاكم التفتيش بضرورة متابعة أقل الشبهات وأوهى الوشايات بالموريسكيين. وكان يكفي أن يتقدم شاهد واحد لاتهام الموريسكي لكي ينتهي به الأمر إلى التعذيب أو إجباره على العمل في السفن لمدة ثلاث سنوات[١].

كانت محاكم التفتيش شديدة التعسف، واسعة الطمع كثيرة الجشع، تصادر أموال الناس، وتفرض الضرائب وتجمعها أكثر من مرة في السنة، وخاصة من الموريسكيين، ففي بلنسية مثلاً كانت تأخذ الضرائب مرتين، في آذار وأيلول من كل سنة[٢].

وعلى الرغم من عدم توافر وثائق تتضمن إحصاءات بمن ذهبوا ضحايا لمحاكم التفتيش، أو أُخضعوا لممارساتها إلا أن من المعروف أن الموريسكيين كانوا يشكلون القسم الأكبر منهم، إذ كانوا أكثر الأقليات اضطهاداً في إسبانيا[٣]، فخلال الفترة ١٥٥٠-١٥٨٠ حُكم على ٨٧٠ موريسكياً من ٩٩٨، أي ٧٨,١% من الذين قدموا للمحاكمة، وذلك في غرناطة. وفي سرقسطة قدم لمحاكم التفتيش في جلسة واحدة عام ١٤٩٤ (٦٨) شخصاً كان الموريسكيون منهم ٢٧ متهماً أي ٣٩,٧%[٤]. ويذكر هورتز وبنثنت أن محكمة التفتيش في غرناطة لم تتوقف عن تشديد قيودها على الموريسكيين وخاصة خلال الفترة ١٥٣٠-١٥٧٠م، ففي تلك الفترة كان يظهر أكثر من ١٨٠ متهماً في كل جلسة محاكمة، وقد بلغ الرقم القياسي ١٠٧ متهمين في ٢٤ تشرين الأول عام ١٥٦٣م، وكان الحد الأدنى ٥٢ متهماً في ٢٨ كانون الأول ١٥٥٢م[٥].

وتشير الإحصائيات التي أوردها الكتاب النصارى إلى أن الذين أدانتهم محاكم التفتيش خلال القرن السادس عشر فقط بلغوا ٥% من سكان غرناطة، و٤% من سكان قونكة[٦].

---

(١) بشتاوي، الأندلسيون المواركة: ٢١٩.

(٢) هورتز وبنثنت، تاريخ مسلمي الأندلس: ١٢٩.

(٣) بشتاوي، الأندلسيون المواركة: ٢١٩.

(٤) هورتز وبنثنت، تاريخ مسلمي الأندلس: ١٣٠.

(٥) المرجع نفسه: ١٣١-١٣٢.

(٦) المرجع نفسه: ١٣٢-١٣٣.

وهناك وثيقة عن سنة ١٥٩٤م تشير إلى أن عمال محاكم التفتيش اعتقلوا ٩٦ موريسكياً أخضعوا للتعذيب، إلا أن ٥٣ منهم لم يعترفوا بأي من التهم التي وُجهت إليهم، بينما صدرت أحكام مختلفة على الباقين، ومن بين هذه الأحكام: الحرق. وعثر في طليطلة على وثيقة أخرى تبين أن عدد الذين أُخضعوا للتعذيب في زنازن محكمة التفتيش هناك في الفترة الواقعة بين سنتي ١٥٧٥ و ١٦١٠م بلغ ٤١١ شخصاً من بينهم ١٩٠ موريسكياً[١].

ولم تقتصر محاكم التفتيش على مطاردة الموريسكيين في إسبانيا ومعاقبتهم فيها، وإنما تعقبتهم في أمريكا أيضاً. وقد تطرق إلى هذا الجانب من الموضوع باحث فرنسي هو لوى كارداياك من كلية الآداب بجامعة مونبليه، حيث تناول قضية الموريسكيين بأمريكا في بحث ترجمه الدكتور عبد الجليل التميمي، ونشره في المجلة التاريخية المغربية[٢].

يذكر لوى كارداياك (Louis Cardaillac) أن الملك فيليب الثاني أرسل رسالة إلى المجلس الأعلة بالمكسيك بتاريخ ٢٠ أيار ١٥٧٨م تتعلق بموريسكيي مملكة غرناطة، ورد الملك على رسالة سابقة كانت قد وصلته من رئيس المجلس الأعلى أحاطه فيها علماً بالأخطار والمضارّ التي يمكن أن تلحق إسبانيا الجديدة على أيدي الموريسكيين الذين عبروا المحيط الأطلسي، وكان معظم هؤلاء إن لم يكونوا جميعاً من غرناطة[٣].

لقد بدأت المطالبة بإنشاء ديوان تحقيق بأمريكا سنة ١٥٥٢م، وسبب ذلك هو وجود عدد كبير من الأجانب هناك مثل البرتغاليين والشرقيين والموريسكيين، وتمت تلبية هذه المطالبة سنة ١٥٩٦م حيث أنشئت محكمة للتفتيش في ليما (بيرو)، ومحكمة أخرى في مكسيكو، وبدأت كل من المحكمتين العمل في السنة التالية[٤].

---

[١] بشتاوي، الأندلسيون الموراكة: ٢١٩؛ وانظر بشأن أعداد الذين تعرضوا للتعذيب في محاكم التفتيش: جمال الدين، المسلمون المنصرون: ٣٨١-٣٨٣.

[٢] العدد ٦، يوليو ١٩٧٦، تونس: ٩٠-١١٠.

[٣] كارداياك، قضية الموريسكيين بأمريكا: ٩٨.

[٤] كارداياك، المرجع نفسه: ٩٩-١٠٠.

وكان أول شخص مثل أمام محكمة التفتيش في ليما يدعى مرتان روميرو من جبل طارق، ذلك أنه في إحدى مشاجراته كشف عن عقيدته الإسلامية، فأجبر علـى حضـور قداس الأحد بزي التائب الطالب للمغفرة، حافي القدمين، مشدوداً بحبل في رقبته، ومثـل أمام المحكمة شخص آخر لمجرد أنه قال في لحظة غضب إنه ينكر دينه ليعتنـق ديـن محمد[١].

وأخذ ديوان التحقيق في أمريكا يفتش عن كل أثر إسلامي لدى الفرد النصرانـي، وكانت محاكم التفتيش هناك تفترض قاعدة الإشهار، وهي أن على كل المخلصين وظيفـة أخلاقية تتمثل في أن يشهروا بكل حالة شك تتعلق بإخوانهم في الدين حول مشكل العقيدة، وإذا لم يفعلوا ذلك فإنهم يقعون تحت عقاب الإثم القاتل. وهؤلاء هم أولئك الأشخاص الذين يميلون إلى قوانين موسى القديمة، أي اليهود، أو مارسوا عادات دين محمد، أو الأشخاص الذين اتبعوا مارتن لوثر أو أتباعه[٢].

ويزخر ديوان التحقيق بمكسيكو بعشرات الدعاوى المتعلقة بالموريسكيين. وكمـا هو الحال في إسبانيا فإن هذه الدعاوى قدمت إلى المجمع الكنسي لأن أصحابـها وقعـت الوشاية بهم لاصطباغ حياتهم بعدد من مظاهر الدين الإسلامي، وكانت المآخذ هي نفسـها في كل الحالات: الامتناع عن شرب الخمر، وأكل الخنزير، وممارسة الوضـوء. وكـان يوقع الموريسكيين في براثن محاكم التفتيش ضبطهم على حيـن غفلـة وهـم يـؤدون الصلاة، أو يقومون بصوم رمضان[٣]. وكان يعرض نفسه لملاحقة عمال محاكم التفتيـش كل شخص يقتني العبيد، أو يتزوج بأكثر من واحدة، أو يأكل أكلة إسبانية اشتهرت علـى أيدي المسلمين[٤]، وكذلك كل من يتزوج حسب التقاليد العربية، أو يقيم حفلـة غنـاء إذا استعمل فيها آلات الغناء العربية[٥].

---

(١) كارداياك، قضية الموريسكيين بأمريكا: ١٠٠.

(٢) المرجع نفسه: ١٠٠.

(٣) المرجع نفسه: ١٠٢.

(٤) المرجع نفسه: ١٠٣.

(٥) المرجع نفسه: ١٠٤.

هذا، وقد طالب مراقبو التحقيق بأمريكا في مراسلاتهم مع محاكم ديوان التحقيق بإسبانيا أن يكونوا على علم باستمرار إذا كان الأشخاص المعنيون مسيحيين حقيقيين من أصل ودم طاهر لا علاقة لهم بأجناس أخرى، وبالأخص العرب واليهود أو معتنقي مذهب لوثر، أو أي مذهب آخر للأشخاص الذين اعتنقوا الدين المسيحي حديثاً[1].

والجدير بالذكر أن محاكم التفتيش كانت تطارد كل موريسكي في أي مكان يوجد فيه، وتلفق له أي تهمة تخضعه للتعذيب. وكان الفقهاء بشكل خاص مستهدفين أكثر من غيرهم، وقد ورد في خطاب وجهه أحد رهبان بلنسية إلى فيليب الثالث في سنة ١٦٠٦م قوله: "من المهم والضروري القضاء على الفقهاء والفقيهات لأن هؤلاء هم الذين يدعمون كل الملة الإسلامية، وكذا مصادرة جميع الكتب والوثائق العربية ولو كانت مؤلفات في الطب...وفي الحقيقة فإن ديوان التفتيش عاجز عن مطاردة الفقهاء لأن وكيل التفتيش إذا عزم على ضبط أحدهم علم بذلك، وظل يتنقل من جماعة إلى أخرى...ومن المؤكد أن تنحية الفقهاء ستؤدي بأغلب الباقين إلى التنصير بسهولة كبيرة"[2].

ويضيف ذلك الراهب: "وبالتحديد توجد في دائرة التفتيش هنا بلدة ليس فيها نصراني واحد، وهي معزولة ليس لها سوى بابين، لها أبراج مراقبة، ودورها متصلة بعضها ببعض بحيث يمكن المرور من واحدة إلى أخرى عبر البلدة كلها...وليس من الممكن ضبط أي واحد من فقهائها رغم وجود الأدلة...ولا يجرؤ أي من موظفي التفتيش المقدس على دخول هذه البلدة خشية أن يتألّب عليه أهلها فيقتلوه..."[3].

إجراءات التحقيق في محاكم التفتيش:

لم تكن مبادئ الكنيسة تقر التعذيب كوسيلة مشروعة للاعتراف، ولكن عندما سن قانون محاكم التحقيق (التفتيش) عندما ارتقى غريغوري التاسع

---

(1) كارداياك، قضية الموريسكيين بأمريكا: ١٠٨.

(2) الشدادي، سقوط غرناطة ومصير الأندلسيين: ١٠٧.

(3) المرجع نفسه: ١٠٧.

عرش البابوية سنة ١٢٢٧م ووافق على كل الإجراءات التي يمكن أن تتخذ مع المتهم بالكفر من تعذيب بشتى الوسائل المعروفة أو المبتكرة[١].

وتبدأ قصة المتهم الماثل أمام محكمة التفتيش ببلاغ أو ما يقوم مقامه، كورود عبارة في قضية منظورة تلقي شبهة على أحد ما[٢]. وأحياناً يوعز أحد الأساقفة الصالحين إلى أي أحد بتقديم بلاغ ضد شخص ما لسبب لا علاقة له بالدين أو السياسة[٣]. وعلى كل حال ليس هناك من فرق بين أن يكون التبليغ من شخص معين أو أن يكون غفلاً. ففي الحالة الأولى يدعى المبلّغ ويذكر أقواله وشهوده، وتعتبر أقوال المبلغ وشهوده تحقيقاً تمهيدياً[٤]. ويمكن التبليغ أيضاً بوساطة الاعتراف الذي يتلقاه القسس، ولهم أن يبلغوا عما يقعون عليه من حالات الاشتباه في العقائد وذلك بالرغم مما يقتضيه الاعتراف من الكتمان. وتقوم المحكمة بإجراء التحريات السرية المحلية عن المبلغ ضده، ثم تعرض نتيجة التحقيق التمهيدي على الرهبان المقررين ليقرروا ما إذا كانت الوقائع والأقوال المنسوبة إلى المبلغ ضده تجعله مرتكباً لجريمة الكفر أو تلقي عليه فقط شبهة ارتكابها[٥]. ويحدد قرار الرهبان الطريقة التي تتبع في سير القضية. وإجراءات المحكمة كانت تتم في سرية تامة، ومن المعروف أن القائمين على العمل فيها بمن فيهم الرهبان والأحبار كانوا يختارون من المشهود لهم بخراب الذمة وسوء الخلق والفساد، ومن ثم فقد كانت أخلاقهم وآراؤهم، بل ذمتهم وشرفهم مثاراً للريب، وكان رأيهم الإدانة دائماً باستثناء حالات نادرة[٦].

وما إن يصدر التقرير حتى يصدر النائب أمره بالقبض على المبلّغ ضده، ويزج في سجن المحكمة السري، وهو غاية في الفظاعة والسوء، ومن يدخله لا يخرج منه في

---

[١] رائف، وتذكروا من الأندلس الإبادة: ٢٧٧.

[٢] عنان، نهاية الأندلس: ٣١٦؛ رائف، وتذكروا من الأندلس الإبادة: ٢٧٨.

[٣] رائف، وتذكروا من الأندلس الإبادة: ٢٧٨.

[٤] عنان، نهاية الأندلس: ٣١٦.

[٥] المرجع نفسه: ٣١٦.

[٦] المرجع نفسه: ٣١٦-٣١٧؛ رائف، وتذكروا من الأندلس الإبادة: ٢٧٨.

الأغلب إلا إلى الموت، وأقل القليلين ممن ينجون يسقطون في نظر الناس، ولا يستطيع أحد أن يلتقي بهم، أو يتعامل معهم على أي نحو[١].

كانت سجون محاكم التفتيش عميقة مظلمة رطبة تغص بالحشرات والجرذان، ويصفّد المتهم بأغلال حديدية ثقيلة قبل أن يلقى فيها[٢]. ويصف الدكتور لي (Dr. Lea) في كتابه (The Moriscos of Spain) ما يلحق بالمتهم من أذى، فيذكر أن القبض الذي كان ديوان التحقيق يجريه يعد في حد ذاته عقوبة خطيرة، ذلك أن أملاكه كلها تصادر وتصفى على الفور، وتقطع جميع علاقاته بالعالم حتى تنتهي محاكمته. وتستغرق المحاكمة عادة من عام إلى ثلاثة أعوام لا يعرف السجين أو أسرته خلالها شيئاً عن مصيره، وتدفع نفقات سجنه من ثمن أملاكه المصفاة، وكثيراً ما تستغرق المحاكمة ذلك الثمن كله[٣]. فديوان التحقيق كان يصادر جميع أملاك المتهم، ويديرها لحسابه. ومصاريف السجن التي يدفعها كانت باهظة جداً يتضاءل بجانبها أجر أفخم فندق في العالم في أيامنا هذه[٤].

وكان المتهم يخطر بالتهم المنسوبة إليه، وإنما يمنح عقب القبض عليه ثلاث جلسات في ثلاثة أيام متوالية فرصة للإقرار والاعتراف بما جناه، تعرف بجلسات الرأي أو الإنذار، وفيها يطلب إليه أن يقر بالحقيقة، ويوعد بالرأفة إن اعترف، وينذر بالشدة والنكال إذا كذب أو أنكر. ويتم الإيحاء إليه بأن الديوان المقدس لا يقبض على أحد دون قيام الأدلة على إدانته، وهي طريقة غادرة محيرة[٥].

وكان المتهم إذا اعترف بالتهم المنسوبة إليه، وكانت تهمته أقل من الكفر، اختصرت القضية، وقضي عليه بعقوبة خفيفة، ولكنه إذا اعترف بأنه كافر مطبق فإنه لا ينجو من الموت مهما كانت الظروف، ومهما كانت الوعود التي بُذلت له[٦]. أما إذا رفض

---

[١] رائف، وتذكروا من الأندلس الإبادة: ٢٧٨.

[٢] المرجع نفسه: ٢٧٨؛ عنان، نهاية الأندلس: ٣١٧.

[٣] عنان، نهاية الأندلس: ٣١٧.

[٤] رائف، وتذكروا من الأندلس الإبادة: ٢٧٨؛ وانظر أيضاً: جمال الدين، المسلمون المنصرون: ٣٧٩.

[٥] عنان، نهاية الأندلس: ٣١٧؛ رائف، وتذكروا من الأندلس الإبادة: ٢٧٨.

[٦] عنان، نهاية الأندلس: ٣١٧-٣١٨؛ رائف، وتذكروا من الأندلس الإبادة: ٢٧٨.

المتهم الاعتراف بعد الجلسات الثلاث فإن النائب يضع له قرار الاتهام طبقاً لما ورد في التحقيق من وقائع حتى وإن كانت الأدلة المقدمة ركيكة ضعيفة[١]. وأفظع ما يحتويه قرار النائب هو إحالة المتهم على التعذيب، وقد يحال رغم إقراره بالتهمة وذلك للحصول على معلومات أخرى جديدة قد تكشف عن حلية كافرة جديدة[٢].

وكان التعذيب يتم على أيدي الجلادين المحققين والطبيب إذا اقتضى الأمر، ولا يبلغ المتهم بأسباب إحالته على التعذيب، ولا يُسأل ليقرر وقائع معينة، وإنما يعذب ليقرر ما شاء. ويمكن الطعن في القرار بطريق الاستئناف أمام المجلس الأعلى (السوبريما)، ولكن الاستئناف لا يقبل إلا في أحوال استثنائية. وعلى كل حال يعتبر الاستئناف نوعاً من الطعن في القرار، وهو أمر لا يقبل ولا ينظر لأن القانون صريح في وجوب إجراء التعذيب[٣].

ويأتي دور الطبيب عندما تتعرض حياة المتهم للخطر، ولا يتمثل هذا الدور في المعالجة وإنما بالأمر بالكف عن التعذيب حتى يزول الخطر عن المتهم، كأن يعود إلى رشده، أو يجف دمه وتلتئم جراحه النازفة، وعندئذ يعاد إلى جلاديه لاستئناف التعذيب حتى يعترف[٤].

وكان اعتراف المتهم لا يعتبر صحيحاً إلا إذا قرر القضاة ذلك، وهم لا يفعلون إلا إذا تضمن الاعتراف عنصر التوبة. وعندئذ يُكف عن تعذيبه. أما إذا استطاع المتهم احتمال العذاب، وأصر على الإنكار، فإن إنكاره لا يفيده بشيء لأن القضاة غالباً ما يتخذون من الوقائع المنسوبة إليه أدلة على الإدانة، ويحكم عليه انطلاقاً من هذا الاعتبار. ويجب على المتهم المعترف أن يؤيد ما قاله وقت التعذيب باعتراف حر يقرره في اليوم التالي وذلك حتى يؤكد صحة الاعتراف، فإذا أنكر أو غير شيئاً أعيد إلى التعذيب[٥].

---

[١] عنان، نهاية الأندلس: ٣١٨.

[٢] رائف، وتذكروا من الأندلس الإبادة: ٢٧٩.

[٣] عنان، نهاية الأندلس: ٣١٩.

[٤] المرجع نفسه: ٣١٩.

[٥] المرجع نفسه: ٣١٩.

وعلى كل حال كان المتهمون من الموريسكيين لا بد من تعذيبهم بغض النظر عن الظروف، وسواء اعترف الواحد منهم أم لم يعترف، وبغض النظر عن التهمة المنسوبة لهم ومدى خطورتها[1].

وكان المتهم يحمل بعد انتهاء تعذيبه ممزقاً دامياً إلى قاعة المحكمة ليجيب عن التهم التي توجه إليه لأول مرة، ويُسأل عند تلاوة كل تهمة عن جوابه عنها مباشرة، ثم يُسأل عن دفاعه. وكان الدفاع في أغلب الحالات ضرباً من السخرية، إذ لم يكن يسمح للمحامي أن يطلع على أوراق القضية، أو يتصل بالمتهم على انفراد، وإنما تقدم إليه خلاصة التحقيق مرفقة بقرار الإحالة وقرار الاتهام. وكان المحامي الذي يظهر ميلاً إلى تبرئة المتهم يخاطر بإيقاع نفسه تحت سخط ديوان التحقيق ومحاكم التفتيش[2].

وكانت المرحلة الأولى من مراحل التعذيب تبدأ عادة في بيت المتهم، فعمال محاكم التفتيش كانوا ينطلقون إلى منزل المتهم أو المتهمة في ظلمة الليل، ثم يقرعون الباب، ويطلب المعرّفون من أهله السماح لهم بالدخول والاجتماع إلى الشخص المطلوب، فإن سمح لهم طلبوا من المتهم ارتداء ملابسه والانطلاق معهم بهدوء، ولكن إذا احتج أو رفض فتح الباب دخلوا المنزل عنوة، وكمموا فم المتهم بآلة خاصة تشبه الإجاصة، يمكن توسيعها أو تضييقها بمفاتيح خاصة مما يضمن صمت المتهم المطبق[3].

ولم يكن يسمح لأهل المتهم بزيارة خلال فترة التحقيق، بل أصبحوا أول من يتنكر له، وينكر معرفته به. ولم يكن غير الصمت إجابة على سؤال الجيران والأقارب عن مصيره، وقد لا يشاهد أهل المتهم قريبهم إلا وهو مربوط إلى منصة الإحراق بعد التحقق معه[4]. وفي سجن محكمة التفتيش كان المحققون – في إطار ممارسات تعذيبه – يبذلون كل المحاولات الممكنة لدب الرعب في قلب المتهم مما يضمن اعترافه السريع. والحقيقة أن جو السجن كان كافياً لإعطاء هذا الانطباع الأول، فالغرفة تذكر بالموت، ومصدر

---

[1] رائف، وتذكروا من الأندلس الإبادة: ٢٧٩.

[2] عنان، نهاية الأندلس: ٣١٩-٣٢٠.

[3] بشتاوي، الأندلسيون الموراكة: ١٩٨.

[4] المرجع نفسه: ١٩٨.

الضوء الوحيد كان شمعة على طاولة يتحلق حولها عدد من عمال المحكمة[١]. وتفصيلاً للإجراءات التي ذُكرت لا بد من الإشارة إلى أن التحقيق كان يبدأ بسؤال المتهم عن اسمه وعنوانه وعمله وأصدقائه وغير ذلك من تفاصيل. ثم تنهمر على المتهم أسئلة المحققين الذين كانوا يلجأون إلى استغلال جميع التأثيرات النفسية الممكنة، فطبيعة الأسئلة تتغير من محقق لآخر، وبعضهم يستخدم لهجة قاسية بينما يستخدم بعضهم الآخر الرقة في توجيه أسئلته. وكان المحققون يطرحون على المتهم أسماء بعض أصدقائه ومعارفه لإيهامه بأن أحدهم اعترف بمزاولة المتهم للهرطقة والإلحاد. وكان المتهم يوضع أحياناً في زنزانة مع سجين آخر هو في الحقيقة جاسوس لعمال محكمة التفتيش، يحاول استدراج المتهم إلى الاعتراف. وإذا أخفقت هذه المحاولات الأولية في الحصول على الاعتراف الذي تريده محكمة التفتيش أُحضر إلى قاعة التحقيق ثانية وأُمطر بوابل من الأسئلة لعل ذلك يسهم في اضطرابه ووقوعه في المغالطات أو في اعتراضه. وإن أصر المتهم على إنكاره كان يؤخذ إلى غرف التعذيب بعد تجريده من ثيابه، حيث تعرض عليه وسائل التعذيب وأدواته وأساليبه، فإن استمر في الإنكار أحيل إلى الجلادين لتعذيبه فعلاً[٢].

وعلى كل حال كانت تنتهي المحاكمة برفع القضية إلى الأحبار المقررين، وكان هذه الخطوة حاسمة لأنها تمهيد للحكم النهائي، حيث يصدر المقررون قرارهم الذي قلما يختلف عن قرارهم الأول. وإذا كان الحكم بالإدانة واستأنفه المتهم أمام المجلس الأعلى (السوبريما) فإن كان في الواقع كالغريق الذي يتشبث بقشة طافية، فالمجلس الأعلى قلما كان ينقض حكماً من الأحكام[٣]. وصدور حكم بالبراءة المطلقة لم يكن أمراً مألوفاً في محاكم التفتيش، فمجرد الاتهام كان يوجب اعتبار المتهم مذنباً، ولو من النوع الخفيف de levi. وفي هذه الحالة تصدر عليه عقوبات تتناسب مع ذنبه، ويقضى عليه أن يتطهر من كل شبهة للكفر وفقاً لإجراءات معينة، وإذا قُضي بالبراءة – وهو أمر نادر – كان يطلق سراح المتهم بعد أن يعطى شهادة ببراءته من الذنوب. وهذه الشهادة هي كل ما يعوض به عما أصابه في شخصه وفي شرفه وماله من ضروب الأذى والألم[٤].

---

[١] بشتاوي، الأندلسيون الموراركة: ١٩٨-١٩٩.

[٢] المرجع نفسه: ١٩٨-١٩٩.

[٣] عنان، نهاية الأندلس: ٣٢٠.

[٤] المرجع نفسه: ٣٢٠.

وإذا صدر قرار المحكمة بإدانة المتهم، فإن هذا القرار لا يبلغ له إلا عند التنفيذ، حيث يؤخذ المتهم من السجن دون أن يعرف مصيره الحقيقي، وأولى الخطوات عندئذ هي مراسم الإيمان (الأوتو دافي Auto de-fe) التي يجب على المدان اجتيازها، وتتلخص هذه المراسم الدينية التي تسبق تنفيذ الحكم في اضطرار المدان إلى ارتداء الثوب المقدس، ثم يوضع في عنقه حبل، وفي يده شمعة، ويؤخذ إلى الكنيسة ليجتاز مراسم التوبة، ثم يؤخذ إلى ساحة التنفيذ حيث يتلى عليه الحكم لأول مرة. وقد يكون الحكم في حالة التهم الخطيرة السجن المؤبد والمصادرة، أو الإعدام حرقاً في حالة (الكفر الصريح). وفي حالة الذنوب الخفيفة قد يكون الحكم هو السجن لمدة محدودة أو الغرامة. وكانت أحكام الإعدام هي الغالبة في قضايا الكفر[١].

وكان تنفيذ الأحكام وخاصة الإعدام والحرق، يقع في ساحات المدن الكبيرة، وفي احتفال رسمي يشهده الأحبار والكبراء بأثوابهم الرسمية، وقد يشهده الملك. وكانت هذه الأحكام تنفذ في المحكوم عليهم بالجملة، وقد يبلغون العشرات الذين ينفذ فيهم الحكم أمام جموع الشعب التي تهرع لمشاهدتها. ومما يذكر في هذا المجال أن الملك فرناندو الكاثوليكي كان يعشق مواكب الإحراق الرهيبة، ويحرص على مشاهدة حفلات الإحراق. وكان يمتدح الأحبار المحققين كلما نظمت حفلة منها[٢].

وتجدر الإشارة هنا إلى أن قانون محاكم التفتيش كان يجيز محاكمة الموتى والغائبين، وتصدر الأحكام في حقهم، وتوقع العقوبات عليهم كالأحياء، حيث تصادر أموالهم، وتعمل لهم تماثيل تنفذ فيها عقوبة الحرق، أو تنبش قبورهم، ويستخرج رفاتهم لحرقه[٣]. وكان أثر الأحكام يتجاوز المحكومين أحياناً إلى ذويهم، حيث كانت المحكمة تقضي بحرمان أهل المحكوم مثل والده وأبنائه من تولي الوظائف العامة، وامتهان بعض المهن الخاصة، وبذلك يؤخذ البريء بذنب المحكوم عليه[٤].

---

(١) عنان، نهاية الأندلس: ٣٢٠.

(٢) المرجع نفسه: ٣٢٠-٣٢١.

(٣) المرجع نفسه: ٣٢١.

(٤) المرجع نفسه: ٣٢١.

التعذيب ووسائله في محاكم التفتيش:

تنوعت أساليب التعذيب وأدواته في محاكم التفتيش، ولم توضع حدود لآلامه، ولا قواعد لاتباعها في ممارسته على الرغم من اختلاف المتهمين في قوة البينة، ومن ثم القدرة على الاحتمال المادي والعقلي. وليس من شك في أن المحققين الإسبان استخدموا الدين لممارسة أبشع أنواع التعذيب التي عرفها الإنسان، فمع أن ديوان التحقيق ومحاكم التفتيش كانت معروفة في فرنسا وإيطاليا وغيرهما من البلاد في أوروبا إلا أن الفظائع والأعمال البربرية التي مارستها في إسبانيا فاقت كل تصور. وتقدر بعض الإحصائيات ضحايا التفتيش بما لا يقل عن تسعة ملايين خلال نحو خمسة قرون (١٣٣٣-١٨٣٥م)[١].

كان التعذيب في محاكم التفتيش يمارس في غرف صغيرة يتم الوصول إليها عبر ممر ضيق، ويصل النور إليها من فتحة صغيرة في سقف كل غرفة، وقد أحكم سدّ الفتحة بثلاث طبقات من الحديد الغليظ. وتوجد في أرض الممر الضيق فتحة صغيرة كل متر ونصف المتر، أحكم سدّها بالحديد الغليظ أيضاً، وهذه الفتحات إنما هي للمسجونين في الغرف السفلى تحت الممر، مما يدل على أن هناك طبقات تحت الأرض تضم سجوناً سرية لا يهتدي إليها سوى عمال محكمة التفتيش والجلادين والسجانين[٢].

وغرف السجون شديدة الظلمة، وكانت تطلى بالشحم حتى لا يتمكن السجين من تسلق الجدران. ومع أن السجون كانت رطبة بطبيعتها إلا أن الماء كان يُصب فيها على الدوام حتى لا تتشرب الأرض الدماء السائلة من أبدان المعذبين[٣].

وفي البرتغال كانت السجون ثلاث طبقات تمارس فيها ثلاث درجات للتعذيب. فمن كانت ذنوبهم خفيفة سجنوا بالسجون العليا، وهؤلاء يصلهم فيها قليل من النور، وكان

---

(١) مظهر، محاكم التفتيش: ٥٤.

(٢) المرجع نفسه: ٥٤-٥٥.

(٣) المرجع نفسه: ٥٥.

معظم هؤلاء ممن قبض عليهم للتثبت من أمورهم، لأن ديوان التحقيق لم يكن يثق كثيراً بالتهم التي تصل إليه إلا إذا كان الاتهام عن طريق أفراده وعيونه الذين عينهم. فمن يشي بهم غير الجواسيس كانوا يزجون في تلك السجون العليا[1].

أما السجون الوسطى أو الطبقة الوسطى منها فقد خصصت للنساء اللواتي كان رجال الديوان يترددون عليهن من حين لآخر. وكثيراً ما كان يتم ذلك للعبث بعفافهن[2].

وكان لأبواب السجون عوارض غليظة من الحديد يظل بها السجين بعيداً عن الباب بطريقة أعدت لذلك حتى لا يحاول اقتحام الباب وكسره مع أن ذلك مستحيل. ولو تمكن سجين من فعل المستحيل واخترق الباب فإنه سيجد نفسه أمام سور عال يفصله عن السجن خندق عميق يتراوح عرضه بين أربعة أمتار وخمسة أمتار يطوف به الحراس ليل نهار[3].

والسجين لا يرى شيئاً مما في الخارج، ولا تدخل إليه إلا أشعة من نور ضئيل وقليل من الهواء – للحيلولة دون اختناقه – من فتحة صغيرة في أعلى الباب[4].

ولم يكن عند السجين في سجنه سوى قطعة من الخشب يتخذها سريراً، ويعطى له قطعتان من الخيش يفترش واحدة ويلتحف الأخرى، وتعطى له قرميدة أو قطعة من البلاط تكون وسادة له. وعند كل سجين ثلاث أوان: واحدة لماء الشرب، والثانية لبوله وبرازه، والثالثة للزيت الذي يستخدمه وقوداً لمصباح باهت يُلزم بإضاءته ليل نهار حتى لا يميز الليل من النهار. وعموماً لم يكن كل المساجين يحظون بهذا الأثاث البسيط وإنما فقط من كانت ذنوبهم صغيرة[5].

---

(1) مظهر، محاكم التفتيش: ٥٦.

(2) المرجع نفسه: ٥٧.

(3) المرجع نفسه: ٥٧.

(4) المرجع نفسه: ٥٧.

(5) المرجع نفسه: ٥٨.

وكان محظوراً على السجين أن يكلم أحداً أو أن يرفع صوته لأي سبب، سواء كان ذلك تفجعاً أم استغفاراً أم غناءً، وكأنما انقطعت صلته بالعالم كله انقطاعاً تاماً. وكل من خالف ذلك عرض نفسه لصنوف من العذاب[1].

وكانت ممرات السجون ملأى بالسجانين الذي يقتادون أي مخالف لأوامر السجن إلى رجال المحكمة الذين يصدرون حكمهم بسرعة لتأديبه وتعذيبه، فيرسل إلى قاعة التعذيب. وممن عُذّبوا لمخالفة الأوامر سجين اضطر إلى السعال بسبب إصابته بالسل بعد أن قضى زمناً طويلاً في سجنه الرطب المظلم، فقد اقتيد إلى المحاكمة، وقضي عليه بأن يضرب بالعصيّ فضُرب حتى سقط ميتاً بين أيدي معذبيه[2].

وفي الجهة المقابلة كان رئيس ديوان التحقيق وأعضاؤه يقيمون في جناح خاص من مقر ديوان التفتيش ومقر سجونه. وكان كل راهب من هؤلاء يسكن في الجزء المخصص له المزود بكل أسباب الترف والنعيم. كما كانوا يركبون عربات فخمة تجرها الخيول المطهمة، وتحيط بها كواكب من فرسان شهروا سيوفهم، وهم في فاخر الملابس[3].

وكان لديوان التحقيق جنده الخاص به، ولهم أعلامهم المميزة. وكان ذلك الحرس أو الجيش يدعى بجيش الحرب المقدسة الذي يساعده جيش آخر من الجواسيس. وغالبية رجال الديوان كانوا من الأمراء والأشراف المتطوعين المشهورين بالفسق، إذ كان كل منهم زير نساء يتطلع للنساء الجميلات، وللبنات الحسان اللواتي يكون جمالهن سبب تعاستهن، إذ كان يزج بآبائهن وأزواجهن في السجون ليخلو الجو لرجال الديوان من أجل العبث بهن، وإذا امتنعت إحداهن عن الاستجابة زجت هي أيضاً في السجن، وأُجبرت قسراً على الفسق، واعتُدي على عفافها داخل تلك السجون الرهيبة. ولم يكن أحد يجسر على الشفاعة لأي سجين، لأنه إن فعل كان يُلحق بمن تشفع له لسوء الظن به، أياً كان مقامه ومهما كانت منزلته[4].

---

(1) مظهر، محاكم التفتيش: ٥٩.

(2) المرجع نفسه: ٥٩-٦٠.

(3) المرجع نفسه: ١٠٨.

(4) المرجع نفسه: ١٠٨-١٠٩.

وكان كل فرد في إسبانيا ملزماً بالإجابة عن أي سؤال يتعلق بحياته الخاصة، وأن يوضح كل شيء بالتفصيل، فكان يُسأل عما يأكل وعما يشرب، وكيف ينام، وماذا يفعل، ومع ابنه وابنته وزوجه، والأخ عن أخيه، والابن عن أبيه. وكان يُسأل عما يقرأ، وماذا يقرأ، وعمن يعيره الكتب، ولمن يعيرها[١].

وكان الفرد يذهب إلى كرسي الاعتراف، فيأمره الكاهن أن يقول كل شيء بصوت مسموع مدعياً أنه ثقيل السمع. فيأخذ الفرد في الاعتراف بينما يسجل كاتب اختفى وراء ستار كل أقواله، فإذا ما لوحظ أنه من غير المرغوب فيهم ألقي القبض عليه وهو خارج من الكنيسة، وسيق إلى المحكمة حيث يعاد استجوابه فوراً، ويراجع في الإجابة إذا ما تلعثم أو تراجع عن اعتراف. وإذا لم يلق القبض عليه حال خروجه من الكنيسة كان الديوان بعث إليه في اليوم التالي برسول خاص يقول له: "أيها السيد، لقد اجتمعت أمس عن طريق الصدفة بآباء الإيمان المقدس، وجاء ذكرك أثناء الحديث، فرغبوا في رؤيتك لأعمال خاصة مهمة تتعلق بك، وهم ينتظرون قدومك غداً في الساعة كذا وكذا، والرجاء أن تحضر في الوقت المعين". فإذا ما ذهب زُجّ به في سجون الديوان للتعذيب أولاً، وربما سيق للموت مباشرة. أما إذا هرب ولم يحضر فالويل كل الويل لأسرته حيث كانت تعذب، وكانت أملاكه تتعرض للنهب والمصادرة[٢].

وهكذا فإن أعضاء محاكم التفتيش كانوا يتمتعون بحصانة تامة، وسلطان مطلق، وكانت أوامرهم تنفذ بكل وسيلة. وبسبب السلطة المطلقة والتحلل من المسؤوليات ذاع في محاكم التفتيش العسف والجور وسوء استعمال السلطة، حيث كان يقبض على الأبرياء دون حرج، وخاصة أن كثيرين من المحققين أنفسهم كانوا من ذوي السوابق، الذين تدل سجلاتهم على أنهم من طراز إجرامي لا يتورعون عن ارتكاب الغصب والرشوة وغيرها لملء جيوبهم[٣].

---

(١) مظهر، محاكم التفتيش: ١٠٩.

(٢) المرجع نفسه: ١٠٩-١١٠.

(٣) عنان، نهاية الأندلس: ٣٢٢.

وكان ديوان التحقيق يتولاه أحياناً أشد المحققين قسوة وإجراماً، فينشر الرعب والإرهاب في مناطق نفوذه، ومن أمثلة هؤلاء المحقق العام لوسيرو الذي ذاعت في عهده جرائم النهب واغتصاب البنات والزوجات في قرطبة وما حولها[1]. وكان العرش يعلم بأمر هذه الآثام المثيرة، فالفظائع ترتكب تحت سمعه وبصره ولكنه لم يكن يستطيع لذلك دفعاً، ولو كان كذلك لما فعل لأن العرش كان يجد في ديوان التحقيق ومحاكم التفتيش أفضل أداة لتنفيذ سياسته في إبادة الموريسكيين[2].

أما التعذيب وأدواته فقد علق عليها دون لورنتي في كتابه: (Historia Critica de la Inquisicion de Espana) بقوله: "لست أقف لأصف ضروب التعذيب التي كان يوقعها ديوان التحقيق على المتهمين، فقد رواها بما تستحق من الدقة كثير من المؤرخين، ولكني أصرح أن أحداً منهم لا يمكن أن يتهم بالمبالغة فيما روى. ولقد تلوتُ كثيراً من القضايا، فارتجفت لها اشمئزازاً وروعاً، ولم أر في المحققين الذين التجأوا إلى تلك الوسيلة إلا رجالاً بلغ جمودهم حد الوحشية"[3].

وتنوعت أدوات التعذيب وأساليبه تنوعاً شديداً، ومن هذه الأدوات المخلِّعة، وهي أداة تعذيب كانت واسعة الانتشار في أوروبا، وتستخدم هذه الأداة لشد المتهم من ساقيه إلى طرف، بينما جذعه مثبت إلى الطرف الآخر، ويزداد الضغط إلى أن تنفصل عظام المعذَّب[4].

ومن أدوات التعذيب الرافعة أو (الجاروكا)، حيث كان المتهم يوقف وقد رُبطت يداه إلى ظهره بحبل معلق حول بكرة مثبتة في السقف، ثم تبدأ عملية تعذيبه برفع المتهم ببطء نحو الأعلى بحيث تتحمل يداه المربوطتان ثقل جسمه، ثم ينزل ويرفع ثانية إلى أن يعترف. وإذا كان المتهم عنيداً، أو لم يكن لديه ما يعترف به كان يرفع بسرعة وينزل بسرعة باستخدام الأثقال إضافة إلى البكرة إلى أن تتفكك مفاصله. وقد يُترك معلقاً فترة طويلة إلى أن يغمى عليه[5].

---

[1] عنان، نهاية الأندلس: ٣٢٢.

[2] المرجع نفسه: ٣٢٢.

[3] المرجع نفسه: ٣١٨.

[4] بشتاوي، الأندلسيون المواركة: ٢٠٠.

[5] المرجع نفسه: ٢٠٠؛ عنان، نهاية الأندلس: ٣١٨.

وكان الماء أداة تعذيب فعّالة، حيث يوثق المتهم فوق أداة تشبه السلم، وتربط ساقاه وذراعاه إليها مع خفض رأسه إلى أسفل، ثم يوضع قمع في فمه ويصب الماء فيه وذلك بعد أن يسد منخرا المعذب بقطعتين خاصتين من الخشب، بينما توضع في فمه قطعة قماش يضطر المعذب إلى ابتلاعها في أغلب الأحيان. وكان الإيذاء الحقيقي ينجم عن تحرك المتهم يمنة ويسرة للإفلات، حيث تتشقق قدماه ويداه ويعتصر رأسه، وإذا أغمي عليه سحب القماش من بلعومه إلى أن يستعيد وعيه لتبدأ العملية من جديد[1]. وفي أثناء هذه العملية كان يقف أحد الرهبان إلى جوار المعذب ويسأله عما إذا كان يريد أن يعترف، فإن أبى زيد في سكب الماء حتى ينتفخ بطنه وتجحظ عيناه، ويموت اختناقاً. وقد يواكب هذه العملية نخس المعذب بالدبابيس في أعصابه وشرايينه[2].

ومن أدوات التعذيب الصحن الساخن والفئران، حيث يُربط المعذب بإحكام إلى الأرض، ثم يوضع صحن كبير فوق بطنه وبع بضعة فئران. وكانت النار تسلط تدريجياً على الصحن فتحاول الفئران الاحتماء من الحرارة، فلا تجد إلا بطن الضحية تبقر فيه إلى أن يموت[3].

ومن أدوات التعذيب الكرسي الطويل أو الدكة، ويستخدم لربط المعذب إليه ربطاً محكماً بوساطة الحبال المتينة حتى يصبح كأنه جزء من الخشب المربوط إليه، فلا يمكنه الحركة. وكانت قدماه تترك خارج الكرسي فوق موقد به نار ملتهبة تضطرم اضطراماً. وللموقد رافعة ترفع النار وتخفضها حسب الرغبة. ويبدأ التعذيب برفع الموقد أثناء الاستجواب، فإذا ما أصر المتهم على الإنكار تُركت قدماه تحترقان، وبعد أن تتم العملية يُفك وثاقه، ويُؤمر بالوقوف والمشي بينما يُلهب قفاه وجسمه بالسياط حتى يصل إلى السجن حيث يقضي نحبه[4].

---

(1) مظهر، محاكم التفتيش: ٩٥؛ عنان، نهاية الأندلس: ٣١٨-٣١٩؛ بشتاوي، الأندلسيون المواركة: ٢٠٠.

(2) مظهر، محاكم التفتيش: ٩٥.

(3) بشتاوي، الأندلسيون الموراكة: ٢٠١.

(4) مظهر، محاكم التفتيش: ٩٥-٩٦.

ومن طرق التعذيب تفتيت الأعضاء وتكسيرها، حيث يعرّى المعذب باستثناء عورته التي تستر بخرقة، ثم يوضع حبل متين جداً في وسطه تحت الإبطين، ويعلق الحبل للكرة في السقف، ثم يجذب الحبل فيرتفع الجسم ثم يترك فيهبط بسرعة بمقدار قامة الشخص. وتكرر العملية عدة مرات، إلى أن تتمزق أعضاؤه[1]. وقد يعلق الرجل أو المرأة إلى السقف، وتربط كل يد وكل رجل بحبل مثبت لا يقل كل ثقل منها عن مائة كيلوغرام، فتجذب تلك الأثقال الأطراف، ويبقى المعذب كأنما هو نائم وهو معلق في الفضاء، وتتمزق أطرافه على هذه الكيفية، وكلما أصر على السكوت كلما زيدت الأثقال حتى يموت[2].

ومن آلات التعذيب آلة سموها السيدة الجميلة، وهي عبارة عن تابوت فيه صورة امرأة جميلة مصنوعة على هيئة الاستعداد لعناق من ينام معها، وتبرز من جوانب التابوت عدة سكاكين حادة. وكان المعذب الشاب يطرح في التابوت فوق الصورة، ثم يطبق عليه بسكاكينه الحادة حتى يتقطع ويموت ببطء[3].

وكانت المرأة تعذب بتعريتها إلا ما ستر عورتها، ثم تؤخذ إلى مقبرة مهجورة، وتجلس هناك على أحد القبور حيث يوضع رأسها بين ركبتيها ويشد وثاقها، وتترك على هذه الحال دون أن تقوى على الحركة. وكانت تربط بسلاسل حديدية إلى القبر، ويُرخى شعرها فيجللها، وتظهر لمن يراها كأنما هي جنية. وتترك على هذا النحو إلى أن تجن أو تموت جوعاً ورعباً[4].

وكان دفن الأحياء وسيلة معروفة، وكان ذلك يتم أمام الناس، حيث يتخيّر عمال التفتيش جداراً في طريق عريض أو ميدان عام، ويخفرون في ذلك الجدار قبراً يوضع فيه المعذب، ثم يعاد البناء كما كان[5].

---

[1] مظهر، محاكم التفتيش: ٩٦.

[2] المرجع نفسه: ٩٦.

[3] الحجي، محاكم التفتيش: ٣٥-٣٦.

[4] مظهر، محاكم التفتيش: ٩٧.

[5] المرجع نفسه: ٩٦.

ومن أدوات التعذيب: الأسياخ المحمية للقدم، والقوالب المحمية للبطن والعجز، وسحق العظام بآلات ضاغطة، وتمزيق الأرجل، وفسخ الفك، وغير ذلك من وسائل مثيرة[1].

وهناك أمثلة كثيرة على أشكال التعذيب وأسبابه، فقد عُذّب أحدهم بقطع يديه ورجليه وسلّ لسانه لأنه قال ذات مرة أمام نفر من معارفه وأصدقائه بأنه يستحيل عليه أن يصدق أن الله ذاته قد تجسد وصُلب. ودفنت زوجه وهي حية في حائط الكنيسة جزاء عدم تبليغها ديوان التحقيق عما سبقها إليه الجواسيس فهي شريكته في حياته وشريكته في زندقته. وقد علقوا في رقبتها صليباً ودفنوها حية[2].

وكان السجانون من أشد الناس قسوة وغلظة، ولم يكن أمامهم إلا أن يكونوا كذلك، فأي شفقة أو رأفة يبديها السجان تجاه سجينه تعرضه لعقوبات شديدة، فقد سُجنت امرأة وابنتاها الصبيتان لاتهامهن بالكفر والزندقة لاتباعهن تعاليم الإنجيل فحسب، وزُجت الأم في سجن انفرادي، والابنتان في سجن آخر، ولبثن على ذلك زمناً طويلاً. وقبل تنفيذ حكم الموت فيهن حرقاً توسلت الأم إلى السجان أن يجمعها بابنتيها ففعل، ثم أُعيدت الأم إلى سجنها، وكانت تلك هي النظرة الأخيرة لها من ابنتيها. وسيقت الأم والابنتان بعد ذلك للإقرار الأخير، وخشي السجان أن يعترفن بأنهن تقابلن، فاعترف هو للكاهن بما كان منه، ورجاه أن يسامحه، ولكنه سرعان ما قُبض عليه وزج في السجن وهو مكبل بالأغلال والقيود. ثم طيف به وهو عاري الجسد حتى وسطه مقيداً بالسلاسل، في أسواق مدينة إشبيلية، وجُلد مائتي جلدة على جسده العاري، وبعد ذلك قضي عليه بالسجن عشر سنين[3].

كان رئيس المحكمة يخاطب السجين عندما يحضر أمام هيئة المحكمة قائلاً: "لقد علمنا من مصادر حقيقية يوثق بها أنك من مناهضي شرائع أمنا الكنيسة المقدسة، وإنك إذ قد أخطأت بذلك، وهذا الخطأ عائد عليك أنت نفسك بذهابك إلى الهلاك الأبدي بعد الموت،

---

(1) عنان، نهاية الأندلس: ٣١٩؛ رائف، وتذكروا من الأندلس الإبادة: ٢٧٩.

(2) مظهر، محاكم التفتيش: ١١٥-١١٦.

(3) المرجع نفسه: ١١٥-١١٦.

ولهذا أمرت المحكمة المقدسة بتعذيبك لردعك عن ذلك الشر والضلال، وإذا مت أثناء التعذيب فإن ذلك الموت يكون ككفارة عن شرورك"[١].

إن كل المناظر التي كان تشاهد في أروقة سجون محاكم التفتيش من النوع الذي تقشعر لهوله الأبدان، ولكنها كانت مألوفة في تلك الأروقة، ومن ذلك ربط أحد المعذّبين بحبال حول جسمه كله وهو ممدد على لوح من الخشب مرتفع قليلاً، ولا يزال عمال المحكمة يشدون تلك الحبال فتضغط على جسمه العاري حتى تنغرس فيه ويسيل الدم، ولا يكفيهم هذا بل يحمي أحدهم ملقطاً حديدياً بالنار، ويضغط به على أنف المعذب كيلا يتنفس، ويضع رجل ثالث خرقة مبللة على فم المسكين وهو مضطر للتنفس من الفم لسد أنفه، فلا يزال يتنفس بقوة والخرقة تدفع إلى داخل حلقه، وبذا يسودّ وجهه، وتجحظ عيناه، وتظهر عليه علامات الاختناق، ويتدفق الدم من أنفه وعينيه وأذنيه، فيشير كاهن لأحد العمال، فيدخل العامل أصابعه في فم السجين ويجذب الخرقة بقوة إلى الخارج، فتخرج وقد تلوثت بالدماء. ثم يخفف عنه العذاب قليلاً ويُعاد استجوابه مرة أخرى، فإذا لم يتكلم بما يوافقهم عذبوه مرة أخرى حتى يقضي نحبه[٢].

ومن بعض الفظائع في محاكم التفتيش: الكي بالحديد المحمي، والحرق بالزيت، أو الزفت المحمي، وتمزيق أعضاء الجسم، وسمل العيون، وسحب الأظافر من الأصابع، وسلّ الألسنة، وسحب ثدي المرأة من صدرها بجذابات خاصة[٣].

أما ما تحرص محكمة التفتيش على معرفته فيختلف باختلاف الماثل أمامها، فإذا كان مسلماً عليه أن يخبرها عن بقية من يعرف من المسلمين، وعن أماكن وجودهم، وأماكن عبادتهم الخفية. وإذا كان مسيحياً غير كاثوليكي عليه أن يخبرها عن إخوانه في المذهب والعقيدة، وعن أماكن وجودهم وأماكن صلاتهم، وإذا كان من المفكرين الأحرار عليه أن يخبرها عن مؤيديه وأصدقائه، وعن كل إنسان يظن أنه على شاكلته في الرأي، وعن أماكن وجودهم، وعن الكتب التي يطالعونها وعن مصادرها، وعمّن باعها لهم،

---

(١) مظهر، محاكم التفتيش: ١١٩.

(٢) المرجع نفسه: ١٢٠-١٢١.

(٣) المرجع نفسه: ١٢١.

وعن أماكن اجتماعهم، وعن محافلهم. وإذا كان يهودياً عليه أن يخبر المحكمة عن إخوانه اليهود، وعن أماكن وجودهم وعما إذا كان أحدهم يزمع الهرب من إسبانيا سراً، وعن أماكن عبادتهم، وعما يفكرون فيه خاصاً بالكنيسة وديوان التحقيق. وإذا كان من متنصّرة اليهود أو المسلمين عليه أن يخبر المحكمة عما يفكر به خاصاً بدينه الجديد، وهل تنصر عن عقيدة أم لا يزال يمارس طقوسه وشعائره الدينية سراً في بيته. وإذا لم يعترف بما تريده محكمة التفتيش كان يدفع به إلى الجلادين لتعذيبه. أما إذا اعترف وذكر أسماء أشخاص فإن أصحابها كان يقبض عليهم خلال أربع وعشرين ساعة، ويزجون في السجن[١].

وكان من أساليب القتل والإفناء التي سلكتها محاكم التفتيش الإسبانية هي المقابر الجماعية التي دُفن فيها آلاف المسلمين، وقد كُشفت إحداها في بدايات سنة ١٩٧٩م في جنوبي إسبانيا على حدود البرتغال في كنيسة مدينة يريبا (Lierena). ونشرت عنها تحقيقات وصور تعبر عن وحشية محاكم التفتيش وبشاعتها وعدوانيتها[٢]. فبينما العمال يحفرون في ساحة الكنيسة لاحظوا فتحة تابعوها، وانتهوا إلى دهليز دخلوه، وإذا بقبر كبير فيه مجموعات من الجثث التي بقيت هياكلها، وقدرت بما يزيد على ثلاثة آلاف جثة، وربما وصل عددها إلى ستة آلاف. ومن المرجح أن تكون هذه الجثث لمجموعات من المسلمين جمعتهم محاكم التفتيش بعد أن كلّت لكثرة من عذبتِ في سجونها منهم، ثم سلطت عليهم رجالها الذين يحملون ألوان الأسلحة والفؤوس والمقاطع فانهالوا عليهم يضربون يمنة ويسرة كيفما اتفق، وأينما وقع الضرب على رؤوس وأجسام هؤلاء المسلمين من نساء ورجال وشيوخ وأطفال، على أجنابهم وأيديهم وصدروهم وظهورهم، ويقطعون الرؤوس أحياناً والأيدي والأرجل أحياناً أخرى، وتركوهم أكواماً بعد أن هالوا عليهم التراب[٣].

وعلى الرغم من تعدد أساليب التعذيب وتنوع أدواته، وممارسته بكل صنوف الوحشية، إلا أن كثيرين من المعذبين لم يعترفوا بشيء، وكانوا يفضلون لقاء الموت على

---

[١] مظهر، محاكم التفتيش: ١٢٢-١٢٣.

[٢] الحجي، محاكم التفتيش: ٦٥-٦٨.

[٣] المرجع نفسه: ٦٩-٧١.

ذكر اسم أحد لديوان التحقيق أو الكهنة في محاكم التفتيش. وكانت النتيجة إحراق عدة آلاف من الناس وهو أحياء، ودفن آلاف أخرى وهم أحياء أيضاً، إضافة إلى الملايين الذين ماتوا من شدة التعذيب[1].

وفيما يلي وصف موجز للإجراءات التي كانت تتم بها عملية الحرق، فإذا ما حكم على فرد أو أكثر بهذه العقوبة طيف بهم قبل يوم التنفيذ بيومين في المدينة وهم مكبلون بالأغلال، مطوقون بالسلاسل الغلاظ، تحيط بهم فرقة من الجند المسلحين بالسيوف والنبابيت. وفي خاتمة المطاف يحشر المحكوم عليهم في سجن واحد استعداداً ليوم التنفيذ[2].

وفي منتصف ليلة التنفيذ تأتي الفرقة من جند الديوان وعلى رأسها العرفاء والقواد وجماعة القساوسة، فيفتح السجانون الأبواب، ويخرجون المساجين، وعندئذ يبلغهم القساوسة بدنو ساعة العقاب، وينصحونهم بالإقرار والاعتراف، ثم يأمرون بكمّ أفواههم وإلباسهم لباس الإعدام الخاص، ويتألف من قميص أصفر غُمس في شحم أو زيت وقطران، وقد رسمت عليه صور الشياطين والأفاعي. وتوضع على رؤسهم قبعات من ورق عليها رسوم مماثلة. وكان السجناء الآخرون يصحبون المحكوم عليهم وقد ارتدوا لباساً آخر، وسبب تلك الصحبة هو إرهابهم وتهديدهم بمثل تلك المواقف الرهيبة، والمناظر المؤلمة إذا هم لم يطيعوا الديوان، ولم يعترفوا للمحكمة[3].

وإذا ما انبثق الفجر حضر إلى السجن كل رجال الديوان ليأخذ كل واحد منهم مكانه، ويقوم بما عهد إليه من عمل عند تنفيذ الحكم. وعند الساعة السادسة صباحاً يخرج السجناؤ إلى ميدان أمام السجن، فيجدون سماطاً قد مدّ وعليه ما لذ وطاب من شهي الطعام والخمور المعتقة، فيؤمر السجناء بالجلوس وتناول آخر فطور لهم في الحيلة الدنيا[4]. وإلى جانب المائدة الممدودة لضيوف الحريق هناك مائدة أخرى عليها أطواق

---

[1] مظهر، محاكم التفتيش: ١٢٢.

[2] المرجع نفسه: ١٢٢-١٢٣.

[3] المرجع نفسه: ١٢٣.

[4] المرجع نفسه: ١٢٣-١٢٤.

حديدية توضع في الرقاب، وأخشاب توضع في الفم على شاكلة لجام الجياد. وعند إشـارة البدء يتقدم جلاد من الضحايا، ويطلب أن يضع كل منهم طوقه في عنقه وخشبته في فمه، ثم يتقدم الملك ورجال البلاط وأعضاء الحكومة، ورجال القضاء والقوّاد، وتقف ألوف من الناس ليروا حرق (الكفار)، وقد هيئ الحطب، وأعد كل شيء لإصعاد المحكومين علـى المحارق[1].

وكان موكب الحريق يخرج من ساحة السجن إلى الساحة المخصصـة للحريـق، يتقدمه تلاميذ المدارس الإسبانية في ملابس خاصة برفقة معلميهم مـن رجـال الديـن، ويحبهم ألف رجل قد حملوا ألف راية من رايات الكنيسة، وإلى جانب كل رايـة كـاهن يترنم بترنيمة محزنة، ثم جماعة تحمل صور القديسين وأعلام الجماعـات الدينيـة، ثـم السجناء من غير المحكوم عليهم وفي رقابهم الأغلال. ويسير خلف هؤلاء مـن أطـاعوا الديوان، ونبذوا الكفر والإلحاد وعفان عنهم الديوان، ولكنه جعلهم تحت المراقبـة. ومـن وراء هؤلاء جميعاً يسير المحكوم عليهم بالحرق وقد كمت أفواههم حتى لا يتكلموا مـع أحد من الشعب، أو يقولوا شيئاً، وقد كبلت أيديهم بالسلاسل، وسار كل واحد منهم يحرسه الجند والرهبان. ويأتي بعد ذلك صفان طويلان من جند إسبانيا ومن خلفهم الحكام والقضاة ورجال البلاط والملك أو نائبه، ثم أمراء الأسرة المالكة، وأبناء الأشراف[2].

وفي أثناء سير موكب الحريق يظهر وكيل المحكمة العام الذي صادق على حكـم الحريق وهو يسير في أبهة وعظمة، وقد أفرد له مكان إكراماً له اختصه به الديوان. ثـم يظهر علم الديوان، وهو من حرير أحمر كبير جداً مرفوع على صليـب، وقـد ذُهّبـت حواشيه وجوانبه وأطرافه، ويتقد العلم رئيس الديوان وهو يسير مختالاً فخوراً لاعتقاده أنه ظل الله في أرضه، ومن حوله الجند وقد شهروا حرابهم واستلوا سيفهم. ويسـير خلـف هؤلاء الشعب جماعات جماعات. ويطوف الموكب شوارع المدينة الرئيسية، وكلما وصل إلى ميدان توقف لإقامة صلاة قصيرة، ثم يصل إلى أكبر ميدان في المدينة حيث أُعـدت كراسٍ مذهبة، ودكة مرتفعة لجلوس الملك وكبار الحضور ومن حولهم ترفرف الأعـلام التي ازدان بها الميدان[3].

---

[1] مظهر، محاكم التفتيش: ١٢٤.

[2] المرجع نفسه: ١٢٤.

[3] المرجع نفسه: ١٢٦.

ويقف المحكوم عليهم بالموت حرقاً في صفين أمام مكان جلوس الملك، وعندما يصل رئيس الديوان ترفع رايته في وسط الميدان، ويتقدم إلى الملك فيقف له إجلالاً هو ومن في حضرته من أساقفة، يناولونه الصليب، فيخاطب رئيس الديوان الملك قائلاً: يا صاحب الجلالة، بينما تحمل في يدك هذا الصليب المقدس ترانا ننتظر من جلالتكم أن تقسموا على أن تعضدوا الديوان المقدس، وأن تثبتوا سلطتنا في هذه البلاد. فيقسم يميناً يمليها عليه الأساقفة أمامه، ثم يستمر الرئيس قائلاً: وأن تقسم يا صاحب الجلالة على أن كل ما يعمله ديوان التفتيش، وكل ما يجريه من الأحكام إنما هو مطابق لتعاليم الكنيسة الرسولية الرومانية، وأنه مطابق أيضاً لشرائع بلادكم التي ترمي إلى تطهير هذه البلاد من الكفرة والزنادقة، وأصحاب التعاليم الشيطانية. فيقسم الملك على ذلك بالأيمان المغلظة[1]. فيستمر رئيس الديوان مخاطباً الملك: ليبارك الله جلالتكم، وليمكنك من الحكم طويلاً في الأرض ما دمت سنداً لشرائع الديوان المقدس، وشرائع الكنيسة الرسولية الرومانية[2].

يجلس الملك بعد ذلك، ويتقدم كاتب الديوان إلى منتصف الميدان حيث يقف على دكة مرتفعة، ويأخذ في قراءة الحكم بينما الناس في صمت مطبق. وينتهي القرار الذي يتلوه عادة بأن المحكمة بعد أن تأكدت من استحالة إيمان هؤلاء (المحكومين) فإنها حكمت عليهم بالموت حرقاً. وبعد الانتهاء من تلاوة الحكم يتقدم رئيس الديوان ويمنح الغفران للمحكومين[3].

ويتألف مكان الحرق أو الشنق من أربعة أعمدة، وأحياناً من عمود واحد أو من جذع شجرة مرتفع، وحوله أكوام الحطب من كل جهة في علو ثلاثة أمتار تقريباً من الأرض. ويكون على هيئة مصطبة مربعة في أعلاه والعمود بارز منها. وكان المحكوم عليه يوقف إلى هذا العمود، ويُربط حبل في رقبته ويربط الحبل إلى العمود، ثم يلفّ الجلاد الحبل على الرقبة عدة مرات، وفي كل مرة يشتد في ضغطه حتى يختنق. وكانت الحبال تشد أحياناً إلى وسط المحكوم إذا ما توسل أن لا يُخنق بل تترك النيران تأكله وهو

---

(1) مظهر، محاكم التفتيش: ١٢٧.

(2) المرجع نفسه: ١٢٧.

(3) المرجع نفسه: ١٢٧.

حي. وبعد أن تتم عملية الربط يصعد كاهن وفي يده صليب من العاج يعرضه على المحكوم ليقبله قبل حرقه، وذلك قبيل إضرام النار[١].

وبعد انتهاء الكاهن من عمله تضرم النار في الحطب مرة واحدة بينما يترنم الكهنة ويصلّون، ويبحث جواسيسهم في وجوه الشعب ويستمعون لما يقال. فمن تأفف أو أظهر عطفاً على المحروقين، أو أبدى أي إشارة اشمئزاز ألقي القبض عليه فوراً، وقد يحرق في التو واللحظة[٢].

نهاية محاكم التفتيش:

ظلت محاكم التفتيش تمارس نشاطها المستمر ضد الموريسكيين طوال القرن السادس عشر، ولم يفتر هذا النشاط بنهاية القرن مما يدل على أن آثار الإسلام الراسخة بقيت – بالرغم من توالي المحن – دفينة في قلب الشعب المضطهد، وتظهر من آن إلى آخر. وقد بلغت قضايا الموريسكيين في سنة ١٥٩١ (٢٩١) قضية، وفي العام التالي ١١٧ قضية. وفي سنة ١٦٠٤ ظهر في حفلة الأوتو دافي Auto da-fe ٦٨ موريسكياً نفذت فيهم الأحكام. وفي حفلة سنة ١٦٠٧ ظهر ٣٣ موريسكياً[٣]. وكانت هناك فترات يزداد فيها نشاط محاكم التفتيش ليس تراجعاً منها أو تلكؤاً في تنفيذ سياستها، ولكن بسبب جنوح بعض رجالها إلى قبول الرشوة، ومنح براءات الحصانة مقابل الأموال[٤].

وواقع الأمر أن الموريسكيين ظلوا يتعرضون لممارسات محاكم التفتيش حتى الجزء الأخير من القرن الثامن عشر، وذلك على الرغم من عملية النفي التي مورست ضدهم خلال الفترة ١٦٠٩-١٦١٥م، إذ تشير الوثائق إلى أن ٧٣ موريسكياً أُعدموا حرقاً

---

[١] مظهر، محاكم التفتيش: ١٢٨.

[٢] المرجع نفسه: ١٢٨؛ وانظر حول مواكب الإحراق: رائف، وتذكروا من الأندلس الإبادة: ٥١ وما بعدها؛ عنان، نهاية الأندلس: ٣٢٠.

[٣] عنان، نهاية الأندلس: ٣٦٣-٣٦٤.

[٤] المرجع نفسه: ٣٦٤.

خلال ذلك العام[١]. وعندما اعتقدت محاكم التفتيش أنها باتت تسيطر على الوضع فوجئ عمالها بالعثور على منزل سنة ١٧٦٩ كان بعض الموريسكيين يستخدمونه كمسجد للصلاة، ولكن لا تتوافر أي معلومات عما حدث لمن اعتقلتهم المحاكم في أعقاب ذلك[٢].

لقد سارت محاكم التفتيش يداً بيد مع السلطة لبناء إسبانيا، وظلت كذلك حتى بداية القرن التاسع عشر حيث خسرت إسبانيا ممالكها الشاسعة في العالم الجديد، ولم يعد لها مكان في الدول الأوروبية التي خضعت لسيطرتها فترة طويلة. وأصبح همها الأكبر هو الحفاظ على كيانها، فبدأت ما عُرف بحرب الاستقلال سنة ١٨٠٨ ضد فرنسا. وفي نهاية هذه الفترة كان همّ عمال محاكم التفتيش النجاة بأنفسهم وليس ملاحقة الهراطقة. ومع ذلك تابعت هذه المحاكم زحفها نحو النهاية ففي سنة ١٨٠٨ حقق عمال المحاكم في ٦٧ قضية، وانخفض العدد في السنة التالية إلى ٢٢. بينما شهدت سنة ١٨١٢ قضية واحدة. وفي سنة ١٨٢٦ حقق المفتشون مع مدرس إسباني شاب، وانتهى التحقيق بإحالته إلى المحكمة المدنية التي أمرت بحرقه حياً، فكان آخر الضحايا المعروفين لمحاكم التفتيش[٣].

والجدير بالذكر أن نابليون بونابرت أصدر مرسوماً سنة ١٢٢٣هـ/١٨٠٨م بإلغاء محاكم التفتيش الإسبانية، ولكن لم يعمل به[٤]. وفي السنة التالية (١٨٠٩م) دخل ضابط فرنسي يدعى ليمونسكي قصر محكمة التفتيش في مدريد ومعه فرقة عسكرية مسلحة، وخلال بحثهم عن الزنزانات سمعوا أصواتاً واهية تنبعث من جوف الأرض، فأمروا بنزع البلاط فإذا بالزنزانات وغرف التعذيب في القبو. وقد وجدوا فيها بعض الضحايا أحياء كانوا يقتاتون – كما تقول الرواية الفرنسية – على لحم الضحايا الذين ماتوا قبلهم. كما وجدوا في تلك الغرف أدوات التعذيب التي كانت مستخدمة، وقد سبق وصفها، ومنها آلات تكسير العظام وسحق الجسم ابتداء من عظام الأرجل حتى الرأس، ومنها صندوق في حجم رأس الإنسان تماماً توضع فيه الرأس بعد ربط الأيدي والأرجل، ثم يقطر على

---

[١] بشتاوي، الأندلسيون المواركة: ٢٢١.

[٢] المرجع نفسه: ٢٢١.

[٣] المرجع نفسه: ٢٢١.

[٤] الحجي، محاكم التفتيش: ٣٤.

الرأس ماء بارد بانتظام حتى الموت. ومنها التابوت الذي كانوا يسمونه السيدة الجميلة وغير ذلك[1].

وقد استمرت محاكم التفتيش من الناحية الرسمية حتى سنة ١٨٣٤ حيث اضطرت إسبانيا إلى إلغائها حيال تجدد الحملة على ممارساتها[2]. وهكذا ألغيت بعد ٣٥٦ عاما من الممارسات الوحشية التي فاقت كل تصور.

---

[1] الحجي، محاكم التفتيش: ٣٤-٣٥؛ حومد، محنة العرب في الأندلس: ٢٥٣ وما بعدها؛ بشتاوي، الأندلسيون المواركة: ٢٢١؛ مظهر، محاكم التفتيش: ١٣٠ وما بعدها.

[2] بشتاوي، الأندلسيون المواركة: ٢٢٤.

الفهارس العامة

فهـرس الأعـلام

(أ)

(ب)

(ت)

(ث)

(ج)

(ح)

(خ)

(د)

(ر)

(ز)

(س)

(ش)

(ص)

(ض)

(ط)

(ع)

(غ)

(ف)

(ق)

(ك)

(ل)

(م)

(ن)

(هـ)

(و)

(ي)

فهـــرس الأماكـــن

(أ)

(ب)

(ت)

(ث)

(ج)

(ح)

(خ)

(د)

(ذ)

(ر)

(ز)

(س)

(ش)

(ص)

(ط)

(ع)

(غ)

(ف)

(ق)

(ك)

(ل)

(م)

(ن)

(هـ)

(و)

(ي)

CURRICULUM VITAE السيرة الذاتية للمؤلف

Full Name:	**Mohammed Abdo Taleb Hatamleh**	الدكتور محمد عبده طالب حتاملة	الاسم:
Place and Date of Birth:	Irbid - Jordan 15/1/1939	اربد ـ الأردن ١٩٣٩/١/١٥	مكان وتاريخ الولادة:
Nationality:	Jordanian	أردني	الجنسية:
Foreign Languages:	Spanish and English	الاسبانية والانجليزية	اللغات الأجنبية:
Special Field of Specialization:	Al-Andalus History	تاريخ اندلسي	التخصص الدقيق:
University Degrees:	B.A., M.A., Ph.D. University of Complutense, Madrid-Spain.	بكالوريوس، ماجستير، دكتوراة/ جامعة كومبلتنسي/مدريد ـ اسبانيا.	الدراسة الجامعية:
Date Degree Conferred:	1969	عام ١٩٦٩م	سنة التخرج (الدكتوراة):
Title of Ph.D. Thesis:	"El Tema Arabe en la Literatura Española del Siglo XIX".	"نظرة المؤلفين الاسبان في القرن التاسع عشر للحكم العربي الاسلامي في الأندلس"	موضوع رسالة الدكتوراة:
Date of Joining the University of Jordan:	September 16/9/1973.	أيلول ١٩٧٣/٩/١٦	تاريخ الالتحاق للعمل بالجامعة الأردنية:
Present Occupation:	Professor of History.	استاذ التاريخ الأندلسي	الوظيفة الحالية:
Home Address:	The University of Jordan Housing P.O. Box (13288) the University of Jordan Tel: 5156080	ضاحية اسكان الجامعة الأردنية ص.ب. (١٣٢٨٨) الجامعة الأردنية تلفون: ٥١٥٦٠٨٠	عنوان المنزل:
Work Address:	Department of History/Faculty of Humanities and Social Sciences. The University of Jordan Tel: 5355000, 5355111, Ext. (3798).	قسم التاريخ/كلية العلوم الاجتماعية والانسانية الجامعة الأردنية، تلفون ٥٣٥٥٠٠٠، ٥٣٥٥١١١، فرع (٣٧٩٨).	عنوان العمل:

Work Experience:

- Chairman of Students Abroad Affairs, Ministry of Education, Jordan, 1969.
- Lecturer in the Department of Islamic Studies at Granada University, Spain from 1970-1973.

الخبرة العملية:

- رئيس قسم شؤون الطلاب في الخارج بوزارة التربية والتعليم سنة ١٩٦٩م.
- مدرس في قسم الدراسات الإسلامية/جامعة غرناطة/ اسبانيا سنة ١٩٧٠-١٩٧٣م.

- Instructor of Spanish Language for Foreign Students at the University of Granada Spain from 1970-1973.
- Assistant Professor in the Department of History, Faculty of Arts, The University of Jordan from 16/9/1973 to 13/11/1977.
- Promoted to Associate Professor on 14/11/1977.
- Promoted to Full Professor on 12/2/1984.
- Chairman of the Department of History for the years 78/1979, 86/1987, 87/1988, 88/1989, and from September 2nd, 1995 to September 19th, 1995.
- Head of the University of Jordan Staff Club from 1984-1985.
- Assistant Secretary General of the Arab Historians' Union since 1996.

Membership of Local and International Academic Societies:

- Member of the consulting committee for the Arab Historian Magazine.
- Member of the consulting committee for the Historical Studies in the Arab Historians' Union.
- Member of the Argentinean Institute at Buenos Aires.
- Member of the General Association of the International Committee of Moriscos Studies in Tunisia.
- Member of the Social Studies Committee of the Jerusalem Open University.
- A founding member of Chechen Republic Friends' Association-Angush.

- استاذ اللغة الاسبانية للطلبة الأجانب/جامعة غرناطة/ اسبانيا سنة ١٩٧٠-١٩٧٣م.
- عمل استاذاً مساعداً في قسم التاريخ بكلية الآداب/الجامعة الأردنية منذ ١٦/٩/١٩٧٣ ولغاية ١٣/١١/١٩٧٧م.
- رقي إلى رتبة أستاذ مشارك بتاريخ ١٤/١١/١٩٧٧م.
- رقي إلى رتبة أستاذ بتاريخ ١٢/٢/١٩٨٤م.
- عين رئيساً لقسم التاريخ للعام الجامعي ٧٨/١٩٧٩م، وللعام الجامعي ٨٦/١٩٨٧م (بدءاً من ٦/٩/١٩٨٦م)، وللعام الجامعي ٨٧/١٩٨٨م (بدءاً من ٢٩/٨/١٩٨٧م)، وللعام الجامعي ٨٨/١٩٨٩م (بدءاً من ٣/٩/١٩٨٨م)، وخلال الفترة من (٢/٩/١٩٩٥-١٩/٩/١٩٩٥م).
- رئيس نادي الجامعة الأردنية سنة ١٩٨٤ ـ ١٩٨٥م.
- الأمين العام المساعد لاتحاد المؤرخين العرب، ١٩٩٦م.

عضوية الهيئات والجمعيات المحلية والدولية الأكاديمية:

- عضو الهيئة الاستشارية لمجلة المؤرخ العربي.
- عضو اللجنة الاستشارية للدراسات التاريخية في اتحاد المؤرخين العرب.
- عضو مجلس المعهد الأرجنتيني في بيونس آيريس.
- عضو الهيئة العامة للجنة العالمية للدراسات الموريسكية في تونس.
- عضو في لجنة تخصص "العلوم الاجتماعية" في جامعة القدس المفتوحة.
- عضو مؤسس لجمعية أصدقاء جمهورية الشيشان ـ انجوش.

أهـم المسـاهمات العلميـة محليـاً وعالميـاً: (ندوات، مؤتمرات):

- المشاركة في المؤتمر الدولي الأول لتاريخ بلاد الشام والذي عقد في رحاب الجامعة الأردنية، عام ١٩٧٤م.
- المشاركة في المؤتمر الدولي الثاني لتاريخ بلاد الشام ١٥١٦ـ ١٩٣٩م، المنعقد بدمشق في تشرين الثاني، كانون الأول ١٩٧٨م.
- المشاركة في المؤتمر الدولي الثالث لتاريخ بلاد الشام المنعقد في رحاب الجامعة الأردنية، عمان ـ نيسان، عام ١٩٨٠م.
- المشاركة في المؤتمر الدولي الرابع لتاريخ بلاد الشام المنعقد في رحاب الجامعة الأردنية، عمان في آذار ١٩٨٥م.
- المشاركة في المؤتمر الدولي الخامس لتاريخ بلاد الشام المنعقد في عمان في آذار ١٩٩٠م.
- المشاركة في المؤتمر العالمي الأول للدراسات الموريسكية، تونس، آذار ١٠ـ١٥/١٩٨٣.
- المشاركة في المؤتمر العالمي الثاني للدراسات الموريسكية حول: دين وهوية الموريسكيين الأندلسيين ومصادر وثائقهم، تونس، ١٩٨٦.
- المشاركة في المؤتمر العالمي الثالث للدراسات الموريسكية حول: تطبيق الموريسكيين الأندلسيين للشعائر الإسلامية في القرن السادس عشر، تونس، آذار ١٠ـ١٥/١٩٨٧م.
- المشاركة في المؤتمر العالمي الرابع للدراسات الموريسكية حول: مهن الموريسكيين وحياتهم الدينية وإشكالية التاريخ الموريسكي، تونس ١٩٨٩م.
- المشاركة في المؤتمر العالمي الخامس حول: الذكرى المئوية الخامسة لسقوط غرناطة (١٤٩٢ـ١٩٩٢م)، تونس ١٩٩١م.
- المشاركة في المؤتمر العالمي السادس حول: وضعية الدراسات الموريسكية الأندلسية في العالم خلال الثلاثين سنة الماضية، تونس ١٩٩٣م.

Scientific Contributions: Local and International Seminars, Conferences, Meetings

- First Conference on the History of Syria, University of Jordan, 1974.
- Second Conference on the History of Syria, University of Damascus, 1978.
- Third International Conference on the History of Syria, University of Jordan, 1980.
- Fourth International Conference on the History of Syria, University of Jordan, 1985.
- Fifth International Conference on the History of Syria, Amman, 1990.
- First International Conference of Moriscos Studies, Tunisia, March 10-15, 1983.
- Second International Conference of the International Committee of Moriscos Studies, Tunisia, 1986.
- Third International Conference on the Application of Al-Andalus Moriscos of Islamic Rites in the 16th Century 1609, Tunisia, March 10-15, 1987.
- Fourth International Conference for the Moriscos Studies, Tunisia, 1989.
- Fifth International Conference on the 500th Aniversary of the Fall of Granada (1492-1992), Tunisia, 1991.
- Sixth International Conference on the Situation of Moriscos Studies in the World during the Past Thirty Years, Tunisia, 1993.

- A Conference on Rewriting Arab History, Baghdad, January 25-30, 1987.	المشاركة في مؤتمر إعادة كتابة التاريخ العربي الذي عقد في بغداد خلال الفترة الواقعة ما بين ٢٥-٣٠/كانون أول، ١٩٨٧م.
- Conference on the Victorious Battles through History, Baghdad, November 28-January 2, 1988.	المشاركة في مؤتمر معارك النصر عبر التاريخ الذي عقد في بغداد خلال الفترة الواقعة ما بين ٢٨ تشرين الثاني -٢ كانون الأول ١٩٨٨م.
- Several International Conferences in Spain (Prior to my appointment at the University of Jordan in September 16, 1973).	المشاركة في عدة مؤتمرات عالية في اسبانيا قبل التحاقي بالجامعة الأردنية بتاريخ ١٦/٩/١٩٧٣.
- Reporter of the Committee for a Memorial Book presented to Professor Abdul-Karim Gharaibeh, Dean of the Faculty of Arts, University of Jordan, on the Occasion of his 65th Birthday.	مقرر اللجنة التحضيرية للكتاب التذكاري المقدم إلى الأستاذ عبد الكريم غرايبة بمناسبة بلوغه الخامسة والستين.
- Reporter of the Committee for Evaluating Study Plans of B.A., M.A. and Ph.D. Levels at the History Department of the University of Jordan.	مقرر لجنة تقييم الخطط الدراسية لبرنامج التاريخ في مراحل البكالوريوس والماجستير والدكتوراة في الجامعات الأردنية.
- International Symposium on Spanish-Arabic Culture through History, Damascus 10-13/12/1990.	المشاركة في الندوة الدولية للثقافة العربية الاسبانية عبر التاريخ التي عقدت في دمشق ١٠-١٣/١٢/١٩٩٠م.
- International Symposium on Al-Andalus: The Lesson and the History, Alexandria, 13-15/4/1994.	المشاركة في ندوة الأندلس: الدرس والتاريخ في الفترة الواقعة ما بين ٢-٤/١١/١٤١٤هـ - ١٣-١٥/٤/١٩٩٤م، الاسكندرية، جمهورية مصر العربية.
- Scientific Symposium on the 800th Anniversary of Rabat, Rabat, 16-18/11/1995.	المشاركة في الندوة العلمية حول موضوع "رباط الفتح عاصمة المملكة المغربية في ذكراها الثمانمائة" التي عقدت في الرباط/المغرب خلال الفترة الواقعة ما بين ١٦-١٨/نوفمبر، ١٩٩٥م.
- Conference on the roads of Al-Andalus-Spain 27-30/9/1997.	المشاركة في طرق الأندلس، غرناطة - اسبانيا ٢٧-٣٠/٩/١٩٩٧م.
- Politics and the Moriscos in the Era of the Family of Osteria in Spain. Madrid 3-5 December 1998.	السياسة والموريسكيون في عهد عائلة اوستريا في اسبانيا، اشبيلية الجديدة/مدريد ٣-٥ كانون الأول ١٩٩٨م.

Decorations and Honorary Certificates:

- The Arab Historian Decoration, from the Secretary General of the Arab Historians Union, Iraq, April 9, 1988.
- Honorary Certificates from the Arab-Argentine Institute in Acknowledgment of Scientific Researches, Buenos Aires, December 24, 1978.

Publications: Books in Arabic and Spanish:

- The Crisis of Al-Andalus Muslims before and after the Fall of Granada, Al-Shaeb Publishing Co., Amman, 1977 (In Arabic).
- The Compulsory Christianization of Al-Andalus Muslims during the Rule of the Two Catholic Kings, Amman, 1980 (In Arabic).
- The Compulsory Expulsion of Al-Andalus Muslims during the Rule of King Felipe II (1527-1598AD), Amman, Jordan 1982 (In Arabic).
- The Western Culture and Present World for the 2nd Secondary Class Arts, (with others), The Ministry of Education, Jordan (In Arabic).
- El Tema Arabe En La Literatura Espanola del Siglo XIX Granada 1969.
- El Tema Oriental en los Poetas Romanticos Espanoles del Siglo XIX Granada 1972.
- Iberia before the Arab Arrival Era Al-Rai Press. 1996.

أوسمة وشهادات فخرية:

- الحصول على وسام المؤرخ العربي من قبل الأمانة العامة لاتحاد المؤرخين العرب بتاريخ ١٩٨٨/٤/٩م.
- الحصول على شهادة فخرية من المعهد العربي الأرجنتيني تقديراً لجهوده في مجال البحث العلمي وذلك بتاريخ ٢٤/كانون أول ١٩٧٨م.

الكتب المنشورة باللغات العربية والإسبانية:

- محنة مسلمي الأندلس عشية سقوط غرناطة وبعدها، عمان ١٩٧٧م.
- التنصير القسري لمسلمي الأندلس في عهد الملكين الكاثوليكيين، عمان ١٩٨٠م.
- التهجير القسري لمسلمي الأندلس في عهد الملك فيليب الثاني (١٥٢٧-١٥٩٨)، عمان - الأردن، ١٩٨٢م.
- الحضارة الغربية والعالم المعاصر للصف الثاني الثانوي الأدبي مع آخرين، عدة طبعات، وزارة التربية والتعليم.
- نظرة المؤلفين الإسبان في القرن التاسع عشر نحو الحكم العربي الإسلامي في الأندلس، ١٩٦٩.
- وجهة نظر الشعراء الرومانسيين الاسبان في الدراسات الأندلسية في القرن التاسع عشر، غرناطة ١٩٧٢م.
- أيبيريا قبل مجيء العرب المسلمين، مطابع المؤسسة الصحفية الأردنية (الرأي)، ١٤١٦هـ/١٩٩٦م.

Articles: Published in Arabic and Spanish:

- The Family of Abu Al-Hassan Ali after the Fall of Granada, Dirasat, Humanities, Vol. 2, University of Jordan, January 1975, No. 2 (In Arabic).
- The Moriscos Status during the Role of Queen Juana la Loca 1479-1555 AD, Dirasat, Humanities, Vol. 8, University of Jordan, No. 2, January, 1981 (In Arabic).
- King Carlos I and his Attitude towards the Moriscos complaints during his visit to Granada in 1526 A.D., Dirasat, Vol. 9, University of Jordan, January, 1983, No. 2 (In Arabic).
- The Compulsory Evacuation of the Moriscos off the Iberian Peninsula during the Rule of King Felipe III 1598-1621 A.D. Dirasat, Vol. 10, University of Jordan, June 1993, No.1.
- Valencia Moriscos Under Religions and Political Pressure during the Rule of King Felipe III 1598-1921, Dirasat, Vol. 14, University of Jordan. No. 10. 1987.
- Cultural Characteristics of Al-Andalus presented to Professor Abdul Karim Gharaibeh on the Occasion of his 65 birthday.
- Revolution of the Moriscos Saleem Al-Mansour at the Mountains of Espadan-Valencia in the Regime of the King Carlos I 1517-1556, The Historical Morocco Magazine.
- A Historical study of the works of Spanish Frashiscow Javier. The Arabic-Spanish Culture through history, Studies and Researches. Damascus 10-13 December, 1990.

البحوث المنشورة باللغة العربية:

- آل أبي الحسن علي بعد سقوط غرناطة، مجلة دراسات، العلوم الانسانية، المجلد الثاني، العدد ٢، الجامعة الأردنية، كانون الأول، ١٩٧٥م.
- حالة الموريسكيين إبان حكم الملكة خوانا المعتوهة (١٤٧٩ـ١٥٥٥م)، مجلة دراسات، العلوم الإنسانية، المجلد الثامن، العدد ٢، الجامعة الأردنية، كانون الأول ١٩٨١م.
- الملك شارل الأول وموقفه من مظالم الموريسكيين إبان زيارته لغرناطة عام ١٥٢٦م، مجلة دراسات، المجلد التاسع، العدد ٢، الجامعة الأردنية، كانون الأول ١٩٨٣م.
- التهجير القسري للموريسكيين خارج شبه جزيرة ايبيريا في عهد الملك فيليب الثالث ١٥٩٨ـ١٦٢١م، مجلة دراسات، المجلد العاشر، العدد ١، الجامعة الأردنية، حزيران ١٩٨٤م.
- موريسكيو بلنسية تحت وطأة السلطة الدينية والسياسية في عهد الملك فيليب الثالث ١٥٩٨ـ١٦٢١م، مجلة دراسات، المجلد الرابع عشر، العدد ١٠، الجامعة الأردنية، ١٩٨٧م.
- ملامح حضارية في الأندلس: بحوث ودراسات مهداة إلى عبد الكريم محمود غرايبة بمناسبة بلوغه الخامسة والستين، تحرير ناظم كلاس، ١٩٨٩م.
- ثورة المجاهد الموريسكي سليم المنصور في سلاسل جبال اسبادان البلنسية في عهد الملك شارل الأول ١٥١٧ـ١٥٥٦م، المجلة التاريخية المغاربية، السنة التاسعة عشرة، العدد ٦٥ـ٦٦، زغوان ـ تونس، أوت ١٩٩٢م.
- دراسة تاريخية لمؤلفات المؤرخ الاسباني فرنشيسكو خافيير سيمونيت (Francisco Javier Simonet)، ١٨٢٩ـ١٨٩٧م، الثقافة العربية‐الاسبانية عبر التاريخ، دراسات وأبحاث، دمشق ١٠ـ١٣ كانون الأول، ديسمبر ١٩٩٠م.

Ibra: Encyclopedia of Islamic Civilization, Amman 1993.	ايبره: موسوعة الحضارة الإسلامية، المجمع الملكي لبحوث الحضارة الإسلامية (مؤسسة آل البيت)، عمان، المجمع ١٩٩٣م.
Ubeda: Encyclopedia of Islamic Civilization, Amman 1993.	أبده: موسوعة الحضارة الإسلامية، المجمع الملكي لبحوث الحضارة الإسلامية (مؤسسة آل البيت)، عمان، المجمع، ١٩٩٣م.
Medicine and Pharmacy in Al-Andalus, Dirasat, Vol. 3, No. 21 Series (B) Pure and Applied Sciences, May 1994.	الطب والصيدلة في الأندلس، مجلة دراسات، العدد الثالث من المجلد الحادي والعشرين من السلسلة (ب) العلوم البحتة والتطبيقية، شهر آيار ١٩٩٤م.
The Fate of Al-Andalus: The Lesson and the History, 13-15/4/1994 Federation of Islamic Universities, Alexandria, Faculty of Arts-Egypt, 1995.	مصير المسلمين الأندلسيين بعد سقوط غرناطة ١٤٩٢م، ندوة الأندلس: الدرس والتاريخ في الفترة من ٢ـ٤/ذو القعدة/١٤١٤هـ/١٣ـ١٤/ابريل/١٩٩٤م، رابطة الجامعات الإسلامية ـ الاسكندرية ـ كلية الآداب، جمهورية مصر العربية، ١٤١٥هـ/١٩٩٥م.
The Cultural Interaction in Ebro River-Spain, Tamimi Establishment for Scientific Research and Information, April, 1995.	التفاعل الحضاري في حوض نهر ايبره (Ebro) اسبانيا: تحية تقدير للأستاذ لوي كاردياك، الجزء الثاني، مؤسسة التميمي للبحث العلمي والمعلومات - متبعم - (زغوان)، افريل ١٩٩٥م.
The Decree of the Evacuation of the Valencia Moriscos in 1609 and its effect on Rabat. The International Symposium Organized by the Rabat Society on the 800th Anniversary of Rabat, Rabat 16-18/11/1995.	مرسوم تهجير موريسكيي بلنسية عام ١٦٠٩م وأثره في رباط الفتح، الندوة الدولية العلمية التي نظمتها جمعية رباط الفتح حول موضوع "رباط الفتح عاصمة المملكة المغربية في ذكراها الثمانمائة"، المغرب ١٦ـ١٨/نوفمبر/١٩٩٥م.
The Secret Agreement attached to the Treaty of the Handing-over to Granada (Presentation and Analysis), Dirasat, University of Jordan, 1995.	الاتفاقية السرية الملحقة بمعاهدة تسليم غرناطة (عرض وتحليل)، بحوث ودراسات مهداة إلى عبد العزيز الدوري، الجامعة الأردنية، عمان - الأردن، ١٩٩٥م.
Norbonne: Encyclopedia of Islamic Civilization, Amman, 1996.	أربونة Narbonne: موسوعة الحضارة الإسلامية والمجمع الملكي لبحوث الحضارة الإسلامية (مؤسسة آل البيت)، عمان ١٩٩٦م.
Astorga: Encyclopedia of Islamic Civilization, Amman, 1996.	استرقة Astorga: موسوعة الحضارة الإسلامية والمجمع الملكي لبحوث الحضارة الإسلامية (مؤسسة آل البيت)، عمان، ١٩٩٦م.

- Ecija: Encyclopedia of Islamic Civilization, Amman, 1996.
- Sevilla: Encyclopedia of Islamic Civilization, Amman, 1996.
- Aragon: Encyclopedia of Islamic Civilization, Amman, 1996.
- Acros de la Frontera: Encyclopedia of Islamic Civilization, Amman, 1996.

- استجه Ecija: موسوعة الحضارة الإسلامية والمجمع الملكي لبحوث الحضارة الإسلامية (مؤسسة آل البيت)، عمان، ١٩٩٦م.
- اشبيلية Sevilla: موسوعة الحضارة الإسلامية والمجمع الملكي لبحوث الحضارة الإسلامية (مؤسسة آل البيت)، عمان ١٩٩٦م.
- ارغون Aragon: موسوعة الحضارة الإسلامية والمجمع الملكي لبحوث الحضارة الإسلامية (مؤسسة آل البيت)، عمان، ١٩٩٦م.
- اركش Arcos de la Frontera: موسوعة الحضارة الإسلامية والمجمع الملكي لبحوث الحضارة الإسلامية (مؤسسة آل البيت)، عمان، ١٩٩٦م.

Supervision of M.A. and Ph.D. Thesis:

A. M. A. Thesis:

1. Sulaiman Hussein Najem:
   Title: The Maliki Creed and its Influence in Al-Andalus.
   Date of Discussion: 30/1/1988.

2. Hashem Abu-Mallouh:
   Title: The Political History of Toledo City under the Rule of Islam.
   Date of Discussion: 27/2/1988.

3- Muhammad Nayef Amayreh:
   Title: Stages of the Fall of the Islamic Citadels in the Hands of the Spaniards.
   Date of Discussion: 23/5/1989.

4- Muhammad Ali Ahmad:
   Title: The Efforts of Uqba Bin Nafi' Al-Fahri in Conquering North Africa.
   Date of Discussion: 24/5/1989.

الإشراف على رسائل الماجستير والدكتوراة:

أ. رسائل الماجستير:

١- سليمان حسن نجم:
عنوان الرسالة: "المذهب المالكي وأثره في الأندلس".
تاريخ المناقشة: ١٩٨٨/١/٣٠م.

٢- هاشم عبد الرؤوف أبو ملوح:
عنوان الرسالة: التاريخ السياسي لمدينة طليطلة في ظل الحكم الإسلامي.
تاريخ المناقشة: ١٩٨٨/٢/٢٧م.

٣- محمد نايف العمايرة:
عنوان الرسالة: مراحل سقوط الثغور الأندلسية بيد الاسبان.
تاريخ المناقشة: ١٩٨٩/٥/٢٣م.

٤- محمد علي أحمد:
عنوان الرسالة: جهود عقبة بن نافع الفهري في فتح بلاد المغرب.
تاريخ المناقشة: ١٩٨٩/٥/٢٤م.

5- Mahmoud Hussein Shabib Hayajneh: Title: The Agricultural Situation in Al-Andalus since the Conquest till the Establishment of the State of Muwahhedin. Date of Discusion: 29/8/1989.	٥- محمود حسين شبيب هياجنة: عنوان الرسالة: الوضع الزراعي في الأندلس منذ الفتح حتى قيام دولة الموحدين. تاريخ المناقشة: ١٩٨٩/٨/٢٩م.
6- Muhammad Khaled Mustafa Al-Mumani: Title: The Efforts of Hassan Ibn Al-Numan in the Conquest of North Africa. Date of Discussion: 16/5/1990.	٦- محمد خالد مصطفى المومني: عنوان الرسالة: جهود حسان بن النعمان في فتح بلاد المغرب. تاريخ المناقشة: ١٩٩٠/٥/١٦م.
7- Omar Rajeh Aref Al-Shalabi: Title: Abd-Al-Rahman the Second: His Internal and External Policy in Al-Andalus (226-238 A.H). Date of Discussion: 6/1/1991.	٧- عمر راجح عارف الشلبي: عنوان الرسالة: عبد الرحمن الثاني الأوسط، سياسته الداخلية والخارجية في الأندلس (٢٢٦-٢٣٨هـ). تاريخ المناقشة: ١٩٩١/١/٦م.
8- Khaled Younis Al-Khaldi: Title: The Arab-Islamic Settlement in Al-Andalus. Date of Discussion: 26/8/1991.	٨- خالد يونس الخالدي: عنوان الرسالة: الاستقرار العربي الإسلامي في الأندلس. تاريخ المناقشة: ١٩٩١/٨/٢٦م.
9- Karem Mahmoud Ismael: Title: The Political Role of Yemeni Tribes in Al-Andalus (92-173 A.H.). Date of Discussion: 30/9/1992.	٩- كارم محمود اسماعيل: عنوان الرسالة: دور اليمنيين السياسي في الأندلس ٩٢-١٧٣هـ. تاريخ المناقشة: ١٩٩٢/٩/٣٠م.
10- Jehad Ghaleb Mustafa Zughul: Title: Crafts and Industries in Al-Andalus. Date of Discussion: 4/1/1994.	١٠- جهاد غالب مصطفى الزغول: عنوان الرسالة: الحرف والصناعات في الأندلس. تاريخ المناقشة: ١٩٩٤/١/٤م.
11- Yousef Ahmad Yousef Bani Yasin: Title: The Writing of History in Spain Till the End of the Fourth Hijri Century. Date of Discussion: 10/9/1994.	١١- يوسف أحمد يوسف بني ياسين: عنوان الرسالة: الكتابة التاريخية في الأندلس حتى نهاية القرن الرابع الهجري/العاشر الميلادي. تاريخ المناقشة: ١٩٩٤/٩/١٠م.

12- Khaled Hassan Hamad Al-Jabali:
Title: The Effect of the Mixed Marriage between the Arabs and the Spaniards since the Islamic Conquest of Al-Andalus till the fall of Caliphate Heritage.
Date of Discussion: 9/1/1995.

13- Ra'edah Ahmad Ali Musa:
Title: The Approach Boundary in Al-Andalus since the Conquest till the Fall (711-1492 A.D.)
Date of Discussion: 3/6/1995.

14- Qutaibah Ali Ibrahim Sammour:
Title: The Military Relations between the Muwahaddin and the Christian Kingdoms in the North of Al-Andalus from 450-620A.H./ 1145-1225 A.D.)
Date of Discussion: 21/7/1996.

15- Nayef Salamah Safhan Al-Amyan:
Title: Land Tax during the Era of the Ommaid State in Al-Andalus (92-422 A.H./711-1031 A.D.).
Date of Discussion: 27/7/1996.

16- Qasim Mohammad Mezul Genimat:
Title: Responses of the Islamic World to Andalusian, Appeals after the Fall of Toledo in 478 H./1085 A.D.
Date of Discussion: 1/4/1997.

17- Ahmad Tawfiq Mohammad Mahasneh:
Title: The Political Life of Bani-Al Ahmar State (from 629 H.-1232 A.D. to 897 H./1492 AD.).
Date of Discussion: 21/7/1997.

١٢- خالد حسن حمد الجبالي:
عنوان الرسالة: أثر الزواج المختلط ما بين العرب والاسبان في الفتح الإسلامي للأندلس وحتى سقوط الخلافة ٩٢-٤٢٢هـ.
تاريخ المناقشة: ٩/١/١٩٩٥م.

١٣- رائدة أحمد علي موسى:
عنوان الرسالة: الثغر الأدنى في الأندلس من الفتح وحتى السقوط ٧١١-١٤٩٢م.
تاريخ المناقشة: ٣/٦/١٩٩٥م.

١٤- قتيبة علي ابراهيم سمور:
عنوان الرسالة: العلاقات الحربية بين الموحدين والممالك المسيحية في شمال الأندلس من (٤٥٠-٦٢٠هـ/١١٤٥-١٢٢٥م).
تاريخ المناقشة: ٢١/٧/١٩٩٦م.

١٥- نايف سلامة سفهان العميان:
عنوان الرسالة: الخراج في عهد الدولة الأموية في الأندلس ٩٣-٤٢٢هـ/٧١١-١٠٣٢م.
تاريخ المناقشة: ٢٧/٧/١٩٩٦م.

١٦- قاسم محمد مزعل غنيمات:
عنوان الرسالة: صدى استغاثات الأندلسيين بالعالم الإسلامي بعد سقوط طليطلة ٤٧٨هـ/١٠٨٥م.

١٧- أحمد توفيق محمد محاسنة:
عنوان الرسالة: الحياة السياسية في دولة بني الأحمر من ٦٢٩هـ/١٢٣٢م إلى ٨٩٧هـ/١٤٩٢م.
تاريخ المناقشة: ٢١/٧/١٩٩٧م.

18- Sa'ad Salem Murshid Rweedan:

Title: Omar ben Hafsoon and his sons Revolution in the South of the Ommaid amoung State in Al-Andalus 267-330A.D./872-935.

Date of Discussion: 15/6/1998.

١٨- سعد سالم مرشد رويضان:

عنوان الرسالة: ثورة عمر بن حفصون وأولاده في جنوب الدولة الأموية في الأندلس ٢٦٧-٣٣٠هـ/ ٨٧٢-٩٣٥م.

تاريخ المناقشة: ١٥/٦/١٩٩٨م.

B. Ph. D. Thesis:

ب - رسائل الدكتوراة (الجامعة الأردنية)

1. Hussein Abd Al-Raheem Suleiman Mustafa:

Title: The Role of Mu'men Bin Ali Al-Komi in Propagating Ibn Tomart's thought and Etablishing the State of Al-Muwahhedin in the Islamic Maghrib.

Date of Discussion: 30/11/1993.

١. حسين عبد الرحيم سليمان مصطفى:

عنوان الرسالة: دور عبد المؤمن بن علي الكومي في نشر دعوة ابن تومرت وإقامة دولة الموحدين في المغرب الإسلامي (المغرب والأندلس) ٥١٠-٥٥٨هـ / ١١١٩-١١٦٢م.

تاريخ المناقشة: ٣٠/١١/١٩٩٣م.

2. Hashem Abd Al-Ra'ouf Muhammad Abu-Mallouh:

Title: Al-Amiria State in Al-Adalus (366-399 A.H.).

Date of Discussion: 31/12/1994.

٢. هاشم عبد الرؤوف محمد مصطفى أبو ملوح:

عنوان الرسالة: الدولة العامرية في الأندلس ٣٦٦-٣٩٩هـ.

تاريخ المناقشة: ٣١/١٢/١٩٩٤م.

3. Sahar Abd Al-Majeed Munawer Al-Majali:
Title: The Army of Al-Andalus 138-422 A.H./ 756-1031 A.D.
Date of Discussion: 27/5/1995.

٣. سحر عبد المجيد مناور المجالي:

عنوان الرسالة: الجيش الأندلسي ١٣٨-٤٢٢هـ/٧٥٦-١٠٣١م.

تاريخ المناقشة: ٢٧/٥/١٩٩٥م.

4. Muhammad Khaled Mustafa Al-Mumani:
Title: The Scholars (Fuqaha'a) and the Revolution of Al-Rabd Inhabitants in Al-Andalus from (180-206 A.H./796-821 A.D.)
Date of Discussion: 30/9/1995.

٤. محمد خالد مصطفى المومني:

عنوان الرسالة: الفقهاء وثورة أهل الربض في الأندلس ١٨٠ - ٢٠٦هـ/٧٩٦-٨٢١م.

تاريخ المناقشة: ٣٠/٩/١٩٩٥م.

5. Muhammad Nayef Jarwan Al-Amayreh:
Title: The Political History of Valencia (399-495A.H./ 1009-1102 A.D.).
Date of Discussion: 2/10/1995.

٥. محمد نايف جروان العمايرة:

عنوان الرسالة: التاريخ السياسي لمدينة بلنسية ٣٩٩-٤٩٥هـ/ ١٠٠٩-١١٠٢م.

تاريخ المناقشة: ٢/١٠/١٩٩٥م.

6. Mohammad Abdallah Al-Amairah:
Title: The Fatimi Army (297-567 A.H./909-1171 A.D.).

7. Waleed Naser Ibrahim Abu-Qasem:
Title: Christopher Columbus Efforts in Discovering the New World.

8. Muhammad Turky Mohammad Shatnawy:
Title: The City of Lisboa in the Islamic Era (92-570 A.H./711-1147A.D.). A Historical Study.

C. Ph. D. Thesis (The Arab Historical and Scientific Legacy College for the high Studies) associated with Arab Historians League) Baghdad:

1. Ahmad Abdel-Raheem Al-Khalaileh:
Title: The Jordanian Strategy and its Association with the Palestinian Cause.
Date of Discussion: 30/4/1998.

2. Fayez Muhammad Mesleh Fawarseh:
Title: The Concept of the Social Justice and the Citizen Rights in the Arabic-Islamic Legacy and Its Effects on the Contemporary Meditation.
Date of Discussion: 25/6/1998.

3. Faisal Mahmoud Abdel-Rahman Al-Deen:
Title: Analytical Study of the Islamic Battles in Al-Andalus Until the end of Blat Al-Shuhada'a (92-114 A.H./711-732 A.D.).

٦. محمد عبد الله العمايرة:
عنوان الرسالة: الجيش الفاطمي (٢٩٧-٥٦٧هـ/٩٠٩-١١٧١م).

٧. وليد ناصر ابراهيم أبو قاسم:
عنوان الرسالة: جهود كريستوفر كولومبوس في اكتشاف العالم الجديد.

٨. محمد تركي محمد شطناوي:
عنوان الرسالة: مدينة لشبونة (اشبونة) الأندلسية في العهد الإسلامي (٩٢-٥٧٠هـ/٧١١-١١٤٧م)، دراسة تاريخية.

ج. رسائل الدكتوراة (معهد التاريخ العربي والتراث العلمي للدراسات العليا) التابع لاتحاد المؤرخين العرب، بغداد:

١. أحمد عبد الرحيم الخلايلة:
عنوان الرسالة: الاستراتيجية الأردنية وارتباطها بالقضية الفلسطينية (١٩٢١-١٩٩٦م).
تاريخ المناقشة: ٣٠/٤/١٩٩٨م.

٢. فايز محمد مصلح فوارسة:
عنوان الرسالة: مفهوم العدالة الاجتماعية وحقوق المواطنة في التراث العربي الإسلامي وتأثيرها في الفكر المعاصر.
تاريخ المناقشة: ٢٥/٦/١٩٩٨م.

٣. فيصل محمود عبد الرحمن الدين:
عنوان الرسالة: دراسة تحليلية لمعارك الفتح الإسلامي للأندلس وحتى نهاية معركة بلاط الشهداء (٩٢-١١٤هـ/٧١١-٧٣٢م).

Dirar Ahmad Malkawi:

Title: The Battles of the Second Word War- The Western Stage (1939-1945 A.D.).

Abdel-Kader Ahmad Abdel-Kader Abu-Sabni:

Title: The Role of Nour Al-Deen Zinki in Conflating the Franj Invasion and in the Restoration of the Arabic Islamic Nation (541-569 A.H./ 1147-1174 A.D.

Sulaiman Saleem Salem Al-Tarawna:

Title: The Role of Abdel-Hameed II in Facing the Zionist Plans towards Palestine.

Sulaiman Okla Sulaiman Ameesh:

Title: The History of the Jordanian-Palestinian Relationship from 1916-1978 A.D.

Muhammad Salameh Al-Aasi:

Title: The Historical Resemblances between Crusader and Zionist Challenge. A Historical Study.

9. Rafe' Muhammad Ahmad Al-Omari:

Title: The Role of Ahmad Orabi in the Liberation and Restoration of Egypt.

10. Mansour Muhammad Abduallah Al-Smadi:

Title: Alawakidi and His Methodology in Writing the History of Futuh ashsham.

٤. ضرار أحمد ملكاوي:

عنوان الرسالة: معارك الحرب العالمية الثانية ـ المسرح الغربي (١٩٣٩ـ١٩٤٥م).

٥. عبد القادر أحمد عبد القادر أبو صبني:

عنوان الرسالة: دور نور الدين زنكي في مقاومة غزو الفرنجة وفي النهوض بالأمة العربية الإسلامية (٥٤١ـ٥٦٩هـ/ ١١٤٧ـ١١٧٤م).

٦. سليمان سليم سالم الطراونة:

عنوان الرسالة: دور السلطان عبد الحميد الثاني في مواجهة المخططات اليهودية ـ الصهيونية تجاه فلسطين.

٧. سليمان عقلة سليمان عميش:

عنوان الرسالة: تاريخ العلاقات الأردنية الفلسطينية من ١٩١٦ـ ١٩٧٨م.

٨. محمد سلامه محمد العاصي:

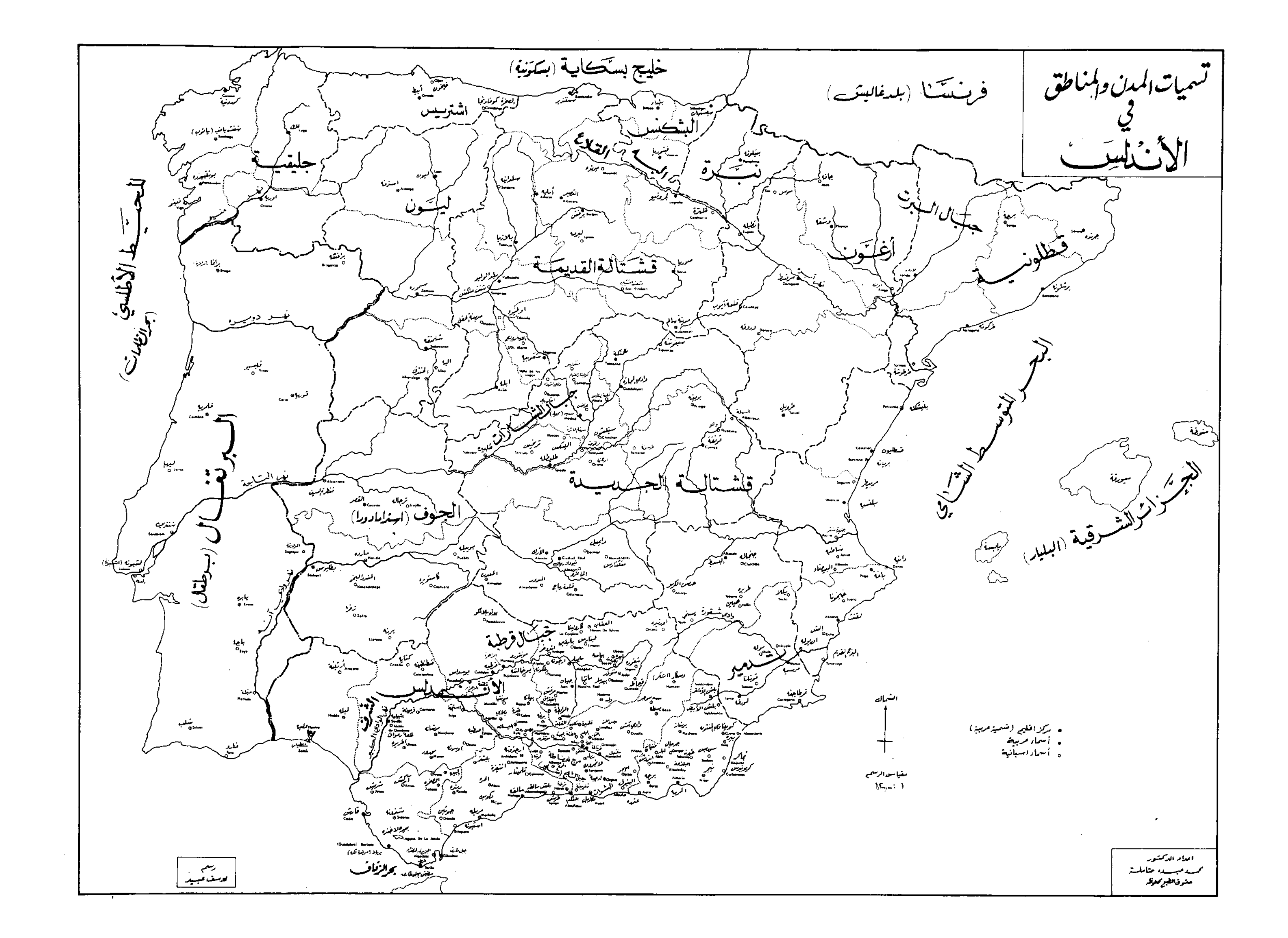
عنوان الرسالة: التوافق التاريخي بين التحدي الصليبي والصيهوني، دراسة تاريخية.

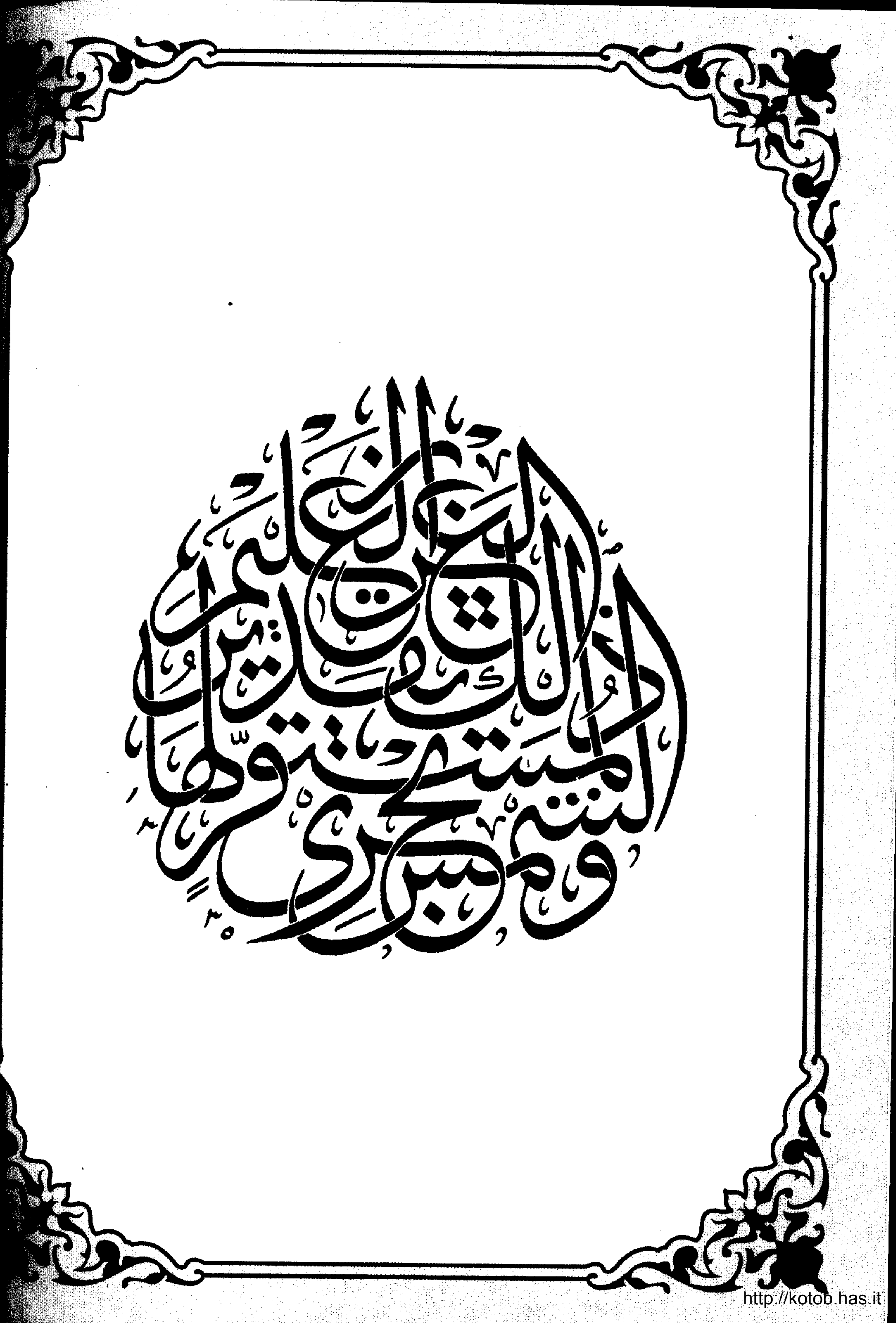
٩. رافع محمد أحمد العمري:

عنوان الرسالة: دور أحمد عرابي في النهضة والتحرير في مصر.

١٠. منصور محمد عبد الله الصمادي:

عنوان الرسالة: الواقدي ومنهجه في كتابة فتوح الشام.


تسميات المدن والمناطق في الأندلس
خليج بسكاية (بسكونية)
فرنسا (بلد غاليش)
المحيط الأطلسي (بحر الظلمات)
البحر المتوسط الشامي
الجزائر الشرقية (البليار)
جليقية
ليون
اشتريس
البشكنس
نبرة
ألبة والقلاع
أرغون
جبال البرت
قطلونية
قشتالة القديمة
قشتالة الجديدة
جبال الشارات
البرتغال (برطقال)
الجوف (اسذمادورا)
جبال قرطبة
الأندلس
تدمير
بحر الزقاق
مركز اقليم (تسمية عربية)
أسماء عربية
أسماء اسبانية
الشمال
مقياس الرسم
اعداد الدكتور
محمد عبده حتاملة
حقوق الطبع محفوظة
رسم
يوسف عبيد



TEXTUAL VARIATION IN RELATION TO THEOLOGICAL INTERPRETATION IN THE NEW TESTAMENT

by

Michael Riley Pelt

Program of Graduate Studies in Religion
Duke University

Date: May 25, 1966

Approved:

Kenneth W. Clark
Kenneth W. Clark, Supervisor

Hugh Anderson

Wm. F. Stinespring

James L. Price

Robert Rogers

A dissertation submitted in partial fulfillment of the
requirements for the degree of Doctor of Philosophy
in the Program of Graduate Studies in Religion
in the Graduate School of Arts and Sciences
of
Duke University

1966